

KALAMOON

THE SYRIAN JOURNAL FOR HUMAN SCIENCES

PEER-REVIEWED PERIODICAL JOURNAL



يصدرها مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية

العددان التاسع عشر والعشرون - تموز/ يوليو 2022



ملف العدد

الجزيرة السورية ومنطقة الفرات

الواقع والمستقبل

JULY 2022

قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية

مجلة علمية محكمة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر عن مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية، ولها رقم دولي معياري (ISSN:25481339). تُعنى المجلة بنشر الأبحاث والدراسات الفكرية والاجتماعية والسياسية ومراجعة الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفاً رئيساً ومجموعة من الأبواب الثابتة. وتستند "قلمون" إلى أخلاقيات البحث العلمي وقواعد النشر المعتمدة عالمياً، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، كما تستند إلى لائحة داخلية تنظم عملية التحكيم.

تطمح "قلمون" إلى طرق أبواب جديدة عبر إطلاق عملية فكرية بحثية عميقة أساسها أعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا جديدة اعتماداً على التجاوز والتخطي الدائمين. وتولي "قلمون" التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات والمقاربات المنهجية المختلفة لقضايا الفكر والواقع. تهتم المجلة ببناء حوار تجسيري بين المفكرين والباحثين السوريين والعرب، المعاصرين والسابقين.



الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية

هي جمعية علمية مستقلة غير ربحية، تهدف إلى النهوض بالعلوم الاجتماعية، والإسهام في تطوير المعرفة العلمية في سورية والبلدان العربية الأخرى، وتدعيم البحث وإنتاج المعرفة في مجال العلوم الاجتماعية المختلفة من خلال دعم الباحثين والبحث العلمي والأكاديمي، والإسهام في إنتاج الأبحاث في إطار العلوم الاجتماعية ونشرها، وترسيخ مبادئ السجل الفكري الحر حول التحديات المصرية التي تواجه سورية، وبلدان المنطقة العربية. وتسعى أيضاً إلى تعزيز دور العلوم الاجتماعية المختلفة في الحياة العامة في سورية والمنطقة وفي رسم السياسات العامة فيها. ويركز أبرز أهدافها على "تنشيط العمل البحثي في الميادين الاجتماعية المختلفة، لفهم ما يجري من تغيرات حاصلة في بنية المجتمع السوري خلال الأزمة ودينامياتها المحتملة"، و"تعزيز القدرة على فهم التحولات والقضايا التي تواجه المجتمع السوري".

أسست الجمعية عام 2016 تحت شعار "الحرية الأكاديمية الكاملة للباحثين الاجتماعيين"، وشكل مجلس إدارتها من: خضر زكريا، ساري حنفي، يوسف بريك، ريمون معلولي، حسام السعد، كرم النشار.



مركز حرمون
للدراستات المعاصرة
Harmoon Center
For Contemporary Studies



الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية
Syrian Society for Social Sciences



المجلة السورية للعلوم الإنسانية

قلمون

المجلة السورية للعلوم الإنسانية

فصلية محكمة يصدرها مركز حرمون للدراسات المعاصرة بالتعاون مع الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية
العددان التاسع عشر والعشرون - تموز/ يوليو 2022

لا تعبر آراء الكتّاب بالضرورة عن اتجاهات يتبناها "مركز حرمون للدراسات المعاصرة"
أو "قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية" أو "الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية"

KALAMOON
THE SYRIAN JOURNAL FOR HUMAN SCIENCES
PEER-REVIEWED PERIODICAL JOURNAL

مدير مركز حرمون للدراسات المعاصرة

سمير سعيغان

رئيس التحرير

يوسف سلامة

سكرتير التحرير

سماح حكواتي

رئيس الهيئة الاستشارية

خضر زكريا

أعضاء الهيئة الاستشارية

ريمون معلولي	أحمد برقايوي
عزيز العظمة	بدر الدين عروذكبي
غسان مرتضى	جاءد الكريم الجباعي
هدى الزين	خطار أبو دياب
يوسف بريك	

أعضاء هيئة التحرير

إليزابيث سوزان كساب
رشيد الحاج صالح
ساري حنفي
سلاف علوش
عبد الباسط سيدا
محمد نور النمر

الإشراف اللغوي: سلاف علوش وسماح حكواتي

الإخراج الفني: باسل الحافظ

لوحة الغلاف للفنان: بشار العيسى

منمنمة "بايبلون، مجموعة طريق الحرير"

أحبار على الورق المقوى المعالج بالإسمنت والرمل قياس: 24.5 x 22.5 cm

1999

الناشر

مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
HARMOON CENTER
FOR CONTEMPORARY STUDIES



هاتف:
الدوحة، قطر: +974 44 885 996
إسطنبول، تركيا: +90 212 524 0404

صندوق البريد: 22663 الدوحة، قطر
PTT P.K 57 إسطنبول، تركيا
البريد الإلكتروني: info@harmoon.org
الموقع الإلكتروني: www.harmoon.org

جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
على البريد الإلكتروني الآتي:
kalamoon@harmoon.org

Kalamoon dergisi
ISSN: 25481339

ISSN 25481339



© جميع الحقوق محفوظة لمركز حرمون للدراسات المعاصرة

تموز/ يوليو 2022

المحتويات

7

أولاً: كلمة العدد

يوسف سلامة 9

كلمة العدد

15

ثانياً: ملف العدد

17

المحور الأول: التاريخ والهجرات والتحويلات

حمدان العكله 19

الهجرات والتحويلات الكبرى في منطقة الجزيرة السورية

عبد الباسط سيدا 41

آثار اتفاقية سايكس بيكو وتوابعها في رسم حدود الجزيرة السورية

مهند الكاطع 67

السياسات الإثنية الفرنسية في الجزيرة السورية

101

المحور الثاني: الثقافة والأدب والفنون

إبراهيم الشبلي 103

مدخل إلى الأدب الفراتي

محمود الوهب 127

الشعر الشعبي في الجزيرة السورية

سليمان الطعان 145

الأغنية الفراتية

أنمار حجازي 165

إيقاع الكاميرا في منطقة الجزيرة السورية

سهف عبد الرحمن 187

قراءة في المشهد التشكيلي في منطقة الجزيرة السورية

فاروق إسماعيل 225

آثار الجزيرة السورية: الواقع وآفاق المستقبل

أنطون قس جبرائيل 255

القضاء العشائري في الجزيرة الفراتية

273 المحور الثالث: سياسات آل الأسد في الجزيرة قبيل الثورة وبعدها

- 275 السياسة الأمنية لآل الأسد في سورية
عبد الله النجار
- 307 قرارات الإدارة العامة في سورية وأثرها في التنمية المحلية
عبد الناصر الجاسم
- 333 أثر سياسات آل الأسد في الثقافة السياسية للجزيرة السورية
رشيد الحاج صالح
- 369 سياسات النظام الأسد في التعليم
محمد نور النمر

393 المحور الرابع: تفاعل الجزيرة مع وقائع الثورة السورية وتطوراتها

- 395 تفاعل قبائل الجزيرة السورية مع الثورة وتطوراتها
أحمد الشمام
- 437 دور الفصائل العسكرية في الجزيرة السورية
مجد وهيبة
- 465 أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري
محمود الحسين
- 499 تنظيم داعش وأثره في المنطقة
مناف الحمد
- 541 المخفون قسرًا على يد تنظيم (داعش): التغيب المضاعف
خليل الحاج صالح

567 المحور الخامس: استشراف مستقبل منطقة الجزيرة

- 569 الفاعلون الدوليون من غير الدول
طارق عزيزة
- 589 الإدارة الذاتية والمسألة الكردية
سقراط العلو

611

ثالثًا: الدراسات

- 613 نوستالجيا السجون في رواية (قبل حلول الظلام)
فاطمة عبود
- 629 رحلة الغمر وثلاثية المطمح السياسي وطمس الهوية ومأساة الغربة
حسن الخلف
- 657 السريان الكلدان الآشوريون والسياسة في سورية
سعيد لحدو

- 677 راتب شعبو السلطة والثورة، الاعتماد المتبادل
- 691 زيدون الزعبي الهوية الوطنية في الدساتير السورية

711 رابعاً: مراجعات الكتب

- 713 أنور بدر الانهيار السوري: الصراع على السلطة والدولة والهوية
- 725 علي شمدين الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية

747 خامساً: الأكاديميون السوريون في جامعات العالم

- 749 إياد حميد دور المنظمات الإنسانية في إغاثة اللاجئين من الدولة العثمانية (1919 - 1923)

769 سادساً: دعوة إلى الكتابة

- 771 الإعلام السوري بين واقع الاستبداد ومطلب الحرية



أولاً: كلمة العدد



كلمة العدد

يوسف سلامة⁽¹⁾

يسعدنا في هيئة تحرير مجلة قلمون (المجلة السورية للعلوم الإنسانية) أن نضع بين يدي قرائنا العددان التاسع عشر والعشرين في عدد مزدوج، والملف الرئيس فيه مكرس لـ (الجزيرة السورية ومنطقة الفرات: الواقع والمستقبل)، وقد تعذر علينا إصداره إلا في سفر واحد، بسبب ضخامة مادته، وتشعبها في اتجاهات متعددة، ولكنها متطابقة مع الحركة الباطنية للملف وانقساماته الذاتية.

وبما أن مجلتنا معنية بارتياح آفاق بحثية جديدة، واستكشاف حقول لم يسبق لها أن خاضت في غمارها، فإن هذا العدد المزدوج قد جاء محققاً -ولو جزئياً- لهذه الرغبة في الانتقال إلى البحث في منطقة جغرافية سورية ودراساتها من زواياها المختلفة، وهو ما لم يسبق للمجلة أن قامت به من قبل، ما يقربنا أكثر فأكثر من حقل الدراسات (الأنثروبولوجية) في مستقبل نتمنى أن يكون قريباً.

والواقع إن ما شُغل به هذا العدد -بحكم موضوعه طبعاً- ونال النصيب الأوفر من الاهتمام قد تركّز في البحث في شؤون الجزيرة ضمن المدة التاريخية الطولى لأي نظام سياسي حكم سورية في العصور الحديثة. ونعني بذلك الحقبة التي انفرد آل الأسد فيها بالحكم من عام 1970 وحتى قيام الثورة السورية عام 2011، وبما ترتب على ذلك من أحداث وتطورات كشفت أن مستقبل سورية - أرضاً وشعباً - قد أصبح في خطر. والجزيرة واقعة في القلب من هذا الخطر، بعد أن أصبحت خاضعة لهيمنة الإدارة الذاتية لقسد بقيادة (حزب العمال الكردستاني) من معاقله في جبال قنديل. وأما النظام الأسدي في دمشق فيقف متفرجاً، لا يعنيه من أمر البلاد إلا ما يسميه الإيرانيون (سورية المفيدة) لهم ولنظام الأسد ليس إلا.

وبدهي أن الهم الأساس في هذا العدد ينصب على استكشاف المرتكزات التي أقام آل الأسد سياستهم عليها حيال الجزيرة ومنطقة الفرات. وتميل في العادة كثير من البحوث إلى تفسير هذه السياسة بالرغبة في السيطرة على ثرواتها المادية وتعطيل قدراتها البشرية، ومن ناحيتنا نذهب مذهباً آخر يتمثل في أن آل الأسد الذين استبدوا بالسلطة السياسية وهيمنوا على الثروة الاقتصادية، لا

(1) رئيس تحرير مجلة قلمون.

تزيد سورية في نظرهم على كونها هامشاً كبيراً لا تفاضل بين نقاطه، والأسدية هي مركز هذا الهامش. ومن ثم ما من قيمة لإقليم جغرافي، أو طائفة دينية أو حزب سياسي إلا بقدر ما يلعبه هذا العنصر أو ذاك من دور ميسر وداعم لاستدامة المركزية الأسدية، بل التصاعد بها إلى مستوى السلالة الحاكمة حكماً أبدياً. والأسدية في ذلك كله تعول على طائفاتها الخاصة التي اصطفتها من كبار الفاسدين من الطوائف جميعها. وأما حزب البعث، فليس سوى دمية يتم التلاعب بها بحسب الحاجة. وأما الطائفة العلوية - حتى وإن كانت النواة الصلبة الأمنية والعسكرية للنظام منتسبة إليها - فهي في التحليل الأخير ليست سوى (كبش المحرقة) على مذبح الاستبداد والفساد.

وعلى الرغم من أن آل الأسد قد نظروا إلى سورية على أنها هامش كبير يفعلون فيه ما يشاؤون، فإن مصالحتهم - المتعلقة ببقائهم في السلطة - قد نهتهم إلى الأهمية الاستراتيجية والأمنية لمنطقة الجزيرة في أي مواجهة محتملة مع الشقيق العراقي والصدیق التركي. ومن هنا أراد النظام لهذه المنطقة أن تكون ساحة مواجهة مع الجارين القويين، ومنصة هجومية يستطيع من خلالها اختراق دفاعات البعث العراقي، دفاعاً عن سلطته، حتى لو تطلب ذلك منه تقديم الدعم لمن يهددون وحدة العراق.

ولكي يضمن النظام الأسدي السيطرة على هذه المنصة منفرداً، لم يكن له بد من إبقاء الجزراويين محرومين من فرص التعليم ومن كل أشكال التنمية المادية والبشرية، ومشغولين بهوموم الحياة ومتاعبها، بغية صرفهم عن الاشتغال بالسياسة وتحولهم إلى قوة معارضة. وقد انتهت هذه السياسات بالجزراويين إلى ألا يكونوا فقراء فحسب، بل أفقر من فقراء سورية كلهم أيضاً. ومن شأن ذلك كله الكشف أن سياسات آل الأسد تجاه الجزيرة ومنطقة الفرات قد كانت مبنية على اهتمام استثنائي ووعي بأهميتها ومنزلتها ومخاطرها على حكمهم. لقد كانت الجزيرة تقض مضجعهم على امتداد حوالى أربعين عاماً من تاريخ سورية.

صفوة القول: لقد اتبع النظام في منطقة الجزيرة سياستين متناقضتين كل التناقض، ولكنهما متكاملتان من حيث الهدف والغاية. سياسة أمنية حازمة من ناحية، ومن ناحية أخرى سياسة إهمال وحرمان من أشكال التنمية كلها؛ المادية والبشرية على حد سواء. فضمنت الأولى هيمنة مطلقة على التحركات السياسية كلها لأهل الجزيرة، وضمنت الثانية تجريدتهم من وسائل الوعي حتى يظل الجزراويون غير قادرين على الانخراط في أي عمل سياسي قد ينتهي بهم إلى أن يكونوا جزءاً من المعارضة.

ولكن النظام كان واهماً في حساباته. فعلى الرغم من القبضتين الفولاذيتين اللتين سلطهما على أهل الجزيرة، فإن الجزراويين قد أبدعوا فنّاً وأدباً وثقافة يحق لهم الفخر بها بكل تأكيد. فلطالما

شاهدنا هناك المهرجانات المسرحية، والندوات الأدبية، والملتقيات السياسية الوطنية. بل إن نشاط (لجان إحياء المجتمع المدني) قد شهد للجزراويين حضوراً فاعلاً فيها. ولكن العقبة التي ظلت قائمة في وجه ما قدمه الجزراويون هي الذبوع والانتشار لكل هذا النشاط الذي لم تكن أجهزة إعلام النظام معنية بإبرازه، لأنها لم تكن تأبه بأصالة ولا تقييم وزناً للكرامة.

وفي ما يتصل بملف العدد، من حيث هو مشكلة بحثية، فقد انقسم من تلقاء ذاته إلى خمسة أسئلة رئيسية، اضطلعت بحوث الملف بالإجابة عنها، ومنها شكلت محاور الملف ذاتها.

أما السؤال الأول، في هذا الملف، فقد انصب على (التكون التاريخي والاجتماعي والسياسي لمنطقة الجزيرة في مطلع القرن العشرين). وقد أجيب عن الأسئلة المطروحة هنا من خلال ثلاثة بحوث. دار أولها حول الهجرات التي شهدتها منطقة الجزيرة في المرحلة المذكورة، واهتم الثاني بالمعاهدات الدولية التي كان لها أثر في رسم الحدود الجغرافية والسياسية لمنطقة الجزيرة، بينما اضطلع الثالث بتحليل السياسات الإثنية للانداب الفرنسي في المنطقة أيضاً.

وفي السؤال الثاني تم الانتقال من التاريخ إلى الثقافة بفرعها العامة والشعبية. وقد جاء هذا المحور حافلاً بعدد من البحوث قدم أولها مدخلاً عاماً لصورة الحركة الأدبية الفراتية. ومن ثم تم الانتقال إلى دراسة الأغنية الفراتية والشعر الشعبي. وبوسع القارئ أيضاً أن يطلع فيه على بحثين حول رؤية السينما السورية للمنطقة وحول الفنون التشكيلية فيها. وثمة بحث دار حول الآثار في المنطقة وما نالها من إهمال. واختتم المحور بدراسة عن (القضاء العشائري) والحاجة المستجدة إليه بعد الثورة.

وقد يكون للمحور الثالث أهمية خاصة لكونه متعلقاً بالسؤال عن (سياسات آل الأسد في منطقة الجزيرة والفرات) وقد كان من الطبيعي أن يفتح النقاش في هذا المحور ببحث عن (السياسات الأمنية) لما لها من أهمية خاصة في رسم سياسات النظام في سورية بأكملها. وقد أتبعنا هذا البحث بآخر عن (السياسات الإدارية) لما بين السياستين من ترابط وتكامل. فالمتخصصون بالأمن يرسمون السياسات الخفية للنظام، بينما يحولها الإداريون إلى خطط وقرارات إدارية وموازنات مالية يتعين على السلطات جميعها أن تلتزم بتنفيذها. واستكمل المحور ببحثين عن (السياسات الثقافية في الجزيرة) وآخر عن (السياسات التعليمية التمييزية) التي مارسها النظام في منطقة الجزيرة عمداً وقصداً.

وحول السؤال المتعلق بطبيعة (تفاعل الجزيرة مع وقائع الثورة السورية وتطوراتها) -وهو موضوع

المحور الرابع- فقد جاءت الإجابة عن هذا السؤال في خمسة بحوث متكاملة. تناول أولها بالشرح والتحليل (موقف القبائل والعشائر السورية من الثورة)، موضحاً جملة المقتضيات والاعتبارات التي تحكم في هذه المواقف. وجاء البحث الثاني المكرس (لدور الفصائل المسلحة) تكملة ضرورية للبحث الأول، ومدعماً للنتائج التي توصل إليها البحث نفسه.

وقد أفرد بحثان في المحور نفسه (لسير العمليات العسكرية في المنطقة). تناول أولهما سير هذه العمليات في (دير الزور) عبر امتداد زمني طويل، مبيّناً الأطراف التي تعاقبت على غزو المدينة ولم تتردد في فرض التهجير القسري على مواطنيها، بينما تعمق البحث التالي (سلوك داعش في دير الزور)، بدراسة العلاقة السلبية التي جمعت هذا التنظيم بعشائر المنطقة، ريفاً ومدينة.

أما البحث الأخير في هذا المحور، فقد ركز على مشكلة (المخفيين قسراً) لدى أطراف النزاع جميعهم. وقد كشف لنا هذا البحث أن 85 بالمئة من المخفيين قسراً هم أسرى لدى النظام. وأما النسبة المتبقية، فالأطراف الأخرى مسؤولة عن أسرهم.

أما السؤال الخامس -وهو المحور الأخير في الملف- فقد كان أصعب الأسئلة التي طرحت، وذلك لأنه يتعلق بمستقبل سورية، أرضاً وشعباً، وبخاصة ما يتعلق منها بالمسألة الكردية وكيفية حلها، وأي نوع من الحلول يمكن الاتفاق عليه. مع الأخذ بالحسبان أن الأحزاب الكردية لم تتمكن من تخطي انقساماتها، ولم تتوصل إلى إجماع في ما بينها على رؤية موحدة. مع أن ولادة تجربة (الإدارة الذاتية في شمال شرق سورية)، خارج مناطق الكثافة الكردية قد شجعت على تغليب (الرؤية القومية الكردية) على الرؤية الوطنية السورية. والهدف من إثارة هذه القضية، وكل ما يتعلق بالإدارة الذاتية هو استكشاف أسس تسمح باستنباط سيناريوهات محتملة تتحدد من خلالها مصائر (تجربة الإدارة الذاتية)، لما لذلك من أثر لا يخفى في المستقبل السوري بكل تأكيد.

والسيناريوهات المحتملة تم الوصول إليها عبر بحثين. أظهر أولهما أن ثمة (فاعلين جدد من غير الدول) قد أخذوا في الانضمام إلى منظومة العلاقات الدولية، مع أن هذا النوع من الفاعلين ليس دولاً. وتطور هذا النوع من الشركاء الجدد قد يتخذ شكل حركات تحرر وطنية، أو حتى شكل شبكات إرهابية عابرة للحدود الوطنية. وفي الحالتين سيجد هذا الشكل المستحدث من (الفاعلين من غير الدول) قوى يتحالف معها وتعتز به، مثلما سيواجهه بخصوم يرفضون وجوده ويعملون على محاربته بالطرائق الممكنة كلها. وبصرف النظر عن الموقف من (الإدارة الذاتية) في شمال شرق سورية، فإن هذه (الإدارة) قد أصبحت قريبة من اكتساب هذه الصفة بمعونة من الولايات المتحدة والتحالف الدولي وأطراف أخرى، قد لا يكون النظام بعيداً عنها.

أما البحث الثاني، فيجادل ((بأن حزب الاتحاد الديمقراطي قد نجح في تحويل مشروع (الإدارة الذاتية) من مشروع حزبي إلى مشروع قومي)). وعلى هذه المقدمة يطرح البحث ثلاثة سيناريوهات محتملة، ولا ترجيح لواحد منها على الآخرين في الوقت الحاضر على الأقل. السيناريو الأول: تحول الإدارة الذاتية إلى إقليم كردي على الطريقة العراقية، ويبلغ هذا السيناريو منتهى خطورته إذا اتحد الإقليمان. السيناريو الثاني: الهزيمة العسكرية للإدارة الذاتية وعودة القضية الكردية إلى نقطة الابتداء من جديد. السيناريو الثالث: القبول باللامركزية الإدارية والحقوق الثقافية.

وتظل هذه المسألة مفتوحة للنقاش بكل تأكيد. وارتأينا أن طرحها وتبادل الرأي حولها واجب وطني سوري. وفي هذا الإطار يجدر بنا أن نذكر السوريين جميعهم بأن المساواة القائمة على المواطنة الحقيقية، والمؤسسة دستوريًا هي الحل الأمثل لمشكلات السوريين لأنها تضمن وحدة الأرض والشعب. وإذا فليسلم السوريون بأنهم سوريون أولاً، ثم ليكن لهم من الانتماءات الثقافية ما يشاؤون بكل حرية.

ومن واجبنا ألا نختم هذه الافتتاحية قبل الأداء ببعض الملاحظات ذات القيمة المنهجية التي من شأنها أن تكشف الجهد الضخم الذي بذله أعضاء الفريق المسؤول عن إصدار هذا العدد.

وهنا من المهم الإشارة إلى أن -البحث في منطقة جغرافية مكونة من ثلاث محافظات في وقت كانت فيه سورية نائرة على الظلم والاستبداد- لم يكن بالأمر السهل من الناحية المنهجية. ويزداد البحث صعوبة في هذه المنطقة بسبب التنوع الإثني والاجتماعي وتباين مصالح الجماعات البشرية وما يترتب على ذلك من انقسامات لم تشمل القبيلة وحدها، بل امتد هذا الانقسام ليشمل العائلة الواحدة في كثير من الأحيان. والأهم من ذلك كله أن (تاريخ الثورة) لم يكتب بعد، ما يجعل هذا الملف في المستقبل إسهامًا -ولو جزئيًا- في كتابة التاريخ الشفوي لنضالات الشعب السوري أو أرشيفًا شفويًا من شأنه المساعدة في تقديم بعض الحقائق للمؤرخين الذين يلتمسون الحقيقة.

وما يسوغ حديثنا السابق عن (التاريخ الشفوي) هو أنه لم يكن بوسع المناهج التقليدية أن تكون أداة كافية لتقديم صورة عن الوقائع في حركيتها وتطوراتها المعقدة. ولهذه الأسباب وغيرها لم يكن بد من استخدام بعض الأدوات المكملة للوصف والتحليل أو لكليهما. ومن ذلك مثلًا:

1. إجراء مقابلات معمقة مع بعض الخبراء والعارفين بشؤون هذه القبيلة وصراعها مع القبائل الأخرى.
2. الحصول على شهادات مفصلة حول قضية أو مشكلة أو حادثة من عدد من

الشهود تم التثبت من صدق روايتهم للأحداث. ولم يكن الصدق في هذه الحالة ليغني عن إجراء التقاطع بين الشهادات للتوصل إلى أقرب صورة للأحداث والوقائع الحقيقية.

3. إقامة ورشات عمل مصغرة، اشترك فيها أشخاص من الذين شاركوا في كتابة هذا الملف وقد كانت مهمتهم تقديم الملاحظات على بعض البحوث التي استلزمت بعض جوانبها مزيداً من التأكد والتثبت من صحة بعض المعلومات حول الفصائل المسلحة على سبيل المثال.

وقبيل الختام فإن أسرة تحرير (قلمون: المجلة السورية للعلوم الاجتماعية) ترحب بانضمام د.إليزابيث سوزان كساب الأكاديمية المرموقة إلى هيئة تحرير المجلة، لما في حضورها بيننا من قيمة مضافة، نأمل أن يفيد منها البحث العلمي السوري.

ختاماً لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل لكل من أسهم بجهد في إنجاز هذا العدد، وأخص بالذكر الصديق (حسن عبد الله الخلف) لما قدمه من معلومات قيمة، وما بذله من وقت وجهده يستحقان كل التقدير والاحترام.

ثانيًا: ملف العدد



المحور الأول: التاريخ والهجرات والتحويلات



الهجرات والتحويلات الكبرى في منطقة الجزيرة السورية

الدوافع السياسية والآثار الاجتماعية

حمدان العكله⁽¹⁾

أولاً: التمهيد

شهدت الجزيرة السورية وحوض الفرات منذ القرن العشرين حتى اليوم عددًا من موجات الهجرة الخارجية والداخلية، كانت هذه الموجات سببًا في إحداث تحولات كبرى في تلك المنطقة الثابتة نسبيًا، ما قاد إلى تبدلات ديموغرافية فيها، إضافة إلى ذلك، فإن الانتداب الفرنسي حولها إلى ساحة ضغط سياسي، وذلك لخلق نوع من التوازنات الجغرافية السياسية، ولخلق كيان إثني يعزز ويشرّع وجوده الطارئ في المنطقة.

كانت أولى الهجرات الكبرى موجات الهجرة الأرمنية القادمة من تركيا التي ارتبطت بأسباب سياسية دينية، ولم تقتصر هذه الهجرات على الجزيرة فحسب؛ إنما شملت مناطق مختلفة من بلاد الشام، حيث كان لها أثر اقتصادي مهم في تنمية المنطقة، يعود إلى خبرة الأرمن التاريخية بالعمل التجاري والصناعي، ترافقت هذه الهجرة مع موجات من هجرات السريان والأشوريين بعد تعرضهم لسلسلة من أعمال العنف في تركيا والعراق، ثم بدؤوا في البحث عن هوية تعبر عن ذواتهم، إذ إنهم ارتبطوا بسورية وتاريخها برباط عاطفي متين، كونها حملت اسمهم كما حملوا اسمها، فعدوها وطن الآباء والأجداد.

أما موجات الهجرة الكبرى التي أحدثت تغييرًا ديموغرافيًا وثقلًا سياسيًا كانت سلسلة موجات الهجرة الكردية من تركيا، وقد مرت بثلاث موجات رئيسة بعد استمرار الصراع مع السلطة التركية، ورفضها قيام دولة كردية، إضافة إلى التسهيلات والتشجيعات الفرنسية للعمل في الزراعة، ثم تطبيق

(1) دكتوراه في الفلسفة من جامعة دمشق، تخصص فكر عربي معاصر، له مقالات وأبحاث عدة منشورة تتناول القضايا السياسية والفكرية المعاصرة.

قانون الإصلاح الزراعي في سورية الذي لم يميز الأكراد المهاجرين من السكان الأصليين.

وفي الحديث عن الهجرات الداخلية، شهدت منطقة الجزيرة السورية أكبر عملية تهجير استطاعت أن تحدث تغييرات واضحة في البنى المجتمعية بعد أن نقلت السلطات السورية السكان الذين غمرت الماء أراضيهم وقراهم نتيجة لإقامة سد الفرات وبحيرته خلفه، حيث كان أهل منطقة الغمر وسيلة لتنفيذ أجندتها السياسية الأيديولوجية، تركت هذه الأزمة وما رافقها من أثر نفسي واجتماعي إرثًا ثقافيًا وفكريًا (أدب سد الفرات)، وكانت تجربة أولى للسوريين في الاغتراب يستذكرها اليوم من تعرض لها آنذاك.

ثانيًا: موجات الهجرة إلى الجزيرة السورية من الانتداب الفرنسي وحتى عهد حزب البعث

ضمت الجزيرة السورية عددًا كبيرًا من الحضارات، إلا أنها منذ تعرضها للتدمير في زمن الغزو المغولي تحولت إلى منطقة مهجورة، تسكن فيها بعض القبائل البدوية غير المستقرة التي تعود بأصولها إلى الجزيرة العربية، وقد شكل قيام الدولة السعودية الوهابية حركة هجرة لبعض القبائل المتباينة معها فكريًا واجتماعيًا، وبخاصة بعد أن عزم محمد بن سعود نشر الدعوة بحد السيف ((فدعا القبائل والبلاد المجاورة للأخذ بها أو يقاتلهم.. وظلت الدعوة بعد وفاة زعيمها ومؤسسها تنمو وتضطرد بفضل تأييد عبد العزيز لها وتنكيله بالقبائل التي لا تدين بها))⁽²⁾، ولم تنجح محاولات الدولة العثمانية إعادة تنمية الجزيرة وتشجيع الناس على الاستقرار فيها، إلا أن فرنسا التي دخلتها تحت مسمى الانتداب اتبعت سياسة خلق كيان جديد في منطقة الجزيرة يكون متعدد الأعراق والأديان، فشجعت الهجرات إليها من تركيا والعراق، إضافة إلى كسب شيوخ القبائل العربية إلى جانبها، وسنحاول في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على غالبية هذه الهجرات التي امتدت منذ الحرب العالمية الأولى، وتزامنت مع رسم الحدود بين الدول التي تكونت في عقب خروج العثمانيين، حتى وصول حزب البعث إلى السلطة في سورية، وبدء ممارساته حيال موجات الهجرة، وكيف حاول توظيفها في خدمة وجوده في السلطة.

(2) عبد الرحمن الراعي، عصر محمد علي، ط5، (القاهرة: دار المعارف، 1989م)، ص123.

1. هجرة الأرمن والتطور الاقتصادي

تعود علاقة الأرمن بسورية إلى عصور تاريخية قديمة، قد تصل إلى ما قبل الميلاد، منها ما يرتبط بتوسع مملكة تدمر، وترسخ علاقاتها العسكرية والاقتصادية مع أرمينيا، أما أبرزها فهو التحالف مع الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ضد الإمبراطورية البيزنطية، فبعد الغزو المغولي اتجهوا شمالاً، وأقاموا مملكة لهم في كيليكية، وقد اهتم الأرمن بسورية من الناحية الاقتصادية قبل القرن العشرين؛ لأن سورية تقع على طريق الحرير، وعلى أهم طرق التجارة العالمية، إضافة إلى سعيهم الدائم للوصول إلى موانئ المتوسط، وذلك لتسهيل تجارتهم وتصديرها نحو أوروبا.

وعلى الرغم من أن الهجرة الأرمنية بدأت قبل الوجود الفرنسي في سورية، إلا أن فرنسا قد نظمت هجرتهم إلى سورية بصورة عامة، وإلى الجزيرة بصورة خاصة، وشجعت عليها، وقد كان لهذه الهجرة آثار اقتصادية، وذلك لرغبة فرنسا في الاستفادة من الجزيرة السورية في زراعة القطن أولاً، ولأن أعمال الأرمن المهاجرين ومهنتهم جعلها تتركز في الصياغة والتصنيع والتجارة ثانياً، أما السبب الأبرز والمباشر فهو أن فرنسا أرادت كسب مسيحي الشرق لتبرير وجودها، ولتعزيز هذا الوجود في الجزيرة السورية ومنطقة الفرات بوصفها منطقة ذات تركيبة سكانية وعرقية معقدة، فيكون وجودها في هذه التركيبة مقبولاً أو مرحباً به، حيث فكرت فرنسا بالبقاء في هذه المنطقة في حال اضطرت إلى الخروج من سورية.

وقد كانت سورية بوابة اقتصادية وحاضنة اجتماعية للأرمن بعد الهجرة القسرية التي تعرضوا لها عام 1915، وكانت الهجرة بصورة موجات امتدت منذ عام 1915 إلى عام 1930، استقر قسم منهم في منطقة الجزيرة السورية، وكان عددهم حوالى عشرة آلاف، وقد لعبوا دوراً بارزاً في إحياء منطقة الجزيرة اقتصادياً، معتمدين على الترحيب وحسن الاستقبال الذي وجدوه من سكان المنطقة، وعلى تعاطفهم معهم لما تعرضوا له من مأساة، فكانت القاعدة الاجتماعية لهم أساساً لنجاح العمل الاقتصادي، إذ تميز الأرمن بخبرة كبيرة في مجال تصنيع الآلات الحديثة التي لم يكن قد اطلع عليها كثيرون من أهالي منطقة الجزيرة، ما سهل عليهم عملهم في الزراعة، وارتفعت إنتاجية أراضيهم، فنشطت التجارة، وظهرت الصناعة، فقد (انجذب الأرمن إلى القامشلي واستوطنوا فيها، ووفروا للمدينة المهن الحرة، من أطباء ومحامين وصيادلة، وشكلوا طبقة الحرفيين الصغار فيها، من ميكانيكيين وحدادين وممشطين للصوف)⁽³⁾، ويمكننا بسهولة رصد حالة التطور الاقتصادي والتجاري في منطقة الجزيرة، والعلاقات الاجتماعية بين الطوائف المختلفة.

(3) نشوان الأتاسي، تطور المجتمع السوري 1831-2011، ط1، (بيروت: منشورات دار أطلس، 2015)، ص179.

لقد كان الأرمن من السباقين في حرفة التصوير، ليس في مستوى الجزيرة السورية أو سورية، إنما في مستوى عالمي، ((فقد اشتهر الأرمن في الدولة العثمانية بمهارتهم الحرفية، وعلاقاتهم القوية بأوروبا، نتيجة عملهم في التجارة الخارجية، على الأرجح، يمثل الأرمن طائفة مترابطة ومتماسكة تجمعها اللغة والدين، وكانت الكنيسة تمثلهم، وتدير شؤون مجتمعهم بحسب التقاليد ونظام الملة العثماني الذي منح الأقليات الدينية حقوقاً وفرض عليها قيوداً، وبحسب الإحصائيات العثمانية كان الأرمن أكبر مجموعة برعت في التجارة بين بلاد فارس والهند والدولة العثمانية... كانوا يتقنون عدة لغات بما فيها العربية والتركية))⁽⁴⁾، هذه المهارات انتقلت معهم إلى سورية وغيرها من البلاد التي هاجروا إليها، وأثروا فيها تأثيراً إيجابياً، فأثبتوا من خلالها حضورهم الفاعل، تعويضاً عما ألمّ بهم من معاناة التهجير وفقدان الوطن.

يتحدث عبد الله حنا عن مشاهداته ولقاءاته مع أهالي منطقة الفرات في أثناء زيارته للمنطقة، حيث لفت انتباهه ترديد الناس -ولا سيما المسنين- عبارة (سنة الأرمن) التي قصدوا بها عام 1915، وقد كان حديث أولئك المسنين يحمل كل مشاعر التعاطف الصادقة مع المأساة الأرمنية التي عاش المسنون فصولها الأخيرة، وروى هؤلاء كيف استقبل أهالي الفرات أفواج الأرمن من النساء والأطفال والشيوخ، وساعدوهم في محتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولأحظ حنا أن عدداً كبيراً من الأرمن والأرامل والشابات المفجوعات بأزواجهن لم يرفضوا الاختلاط بالعرب والزواج بهم، ولذلك نشأ جيل من شباب الفرات في منتصف القرن العشرين يجري الدم الأرمني في عروقه، وكان لهؤلاء الأمهات أثر في تنشئتهم، وذكروا بأن المفكر العربي ياسين الحافظ كانت جدته لأمه الأرمنية تفتخر بأرمنيته، وهي تعيش مع ابنتها أم ياسين في دير الزور، ويروي عبد الله حنا لقاءه مع الأديب إبراهيم الخليل الذي بين له بأن سكان الفرات لم تكن لديهم مشاعر التعصب ضد الآخرين، حيث بنى الأرمن في الرقة كنيسة، وأقاموا مدرسة، ونشطوا في المهنة من مثل العمل في الأفران، وصناعة الأحذية، والميكانيك، وبناء السكور على الأنهر، وصنع عربات الجر، وغيرها⁽⁵⁾.

ويذكر الروائي الفراتي إبراهيم الخليل عن عمل الأرمن ومهارتهم المقولة التي كانت سائدة آنذاك عن الأرمن ((الأرمني لا يموت من كثرة العمل، لكنه يموت إذا لم يعمل))⁽⁶⁾، ويتابع حديثه عن عائلة أرمنية وعن عملها، فيصف أبناءها قائلاً: ((يعملون أعمالاً تمت إلى العائلة بصلة، فالأول صاحب

(4) مجموعة من المؤلفين، العالم بعدساتهم: أولى الصور الفوتوغرافية 1842-1896، ط1، (أبو ظبي: منشورات دار الثقافة والسياحة، د.ت)، ص39.

(5) عبد الله حنا، «كيف يروي السوريون المأساة الأرمنية؟»، موقع خبر أرمني، 9 مارس/ آذار 2018، بتصرف.

<https://2u.pw/venjP>

(6) إبراهيم الخليل، رواية سودوم سباق الإوز البري، ط1، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004م)، ص34.

فرن ممتاز، والثاني عنده كراج لإصلاح السيارات، والثالث مصور فوتوغرافي مشهور⁽⁷⁾، ثم يتابع الخليل حديثه عن دور الأرمن في تطوير الحياة الاقتصادية لمنطقة الجزيرة: ((امتدت شبكات السواقي ودارت محركات الماء على شواطئ الفرات، نصّبها صناع أرمن مهرة، فهدرت ودعق الماء مهيباً أبيض كالشباب، وانتهى عهد النصبية والغراف⁽⁸⁾))، لقد تحولت منطقة الجزيرة إلى ساحة من المحبة والتسامح، فالقبائل العربية عرفت عبر تاريخها بالكرم والتسابق فيما بينها لاستقبال الضيوف، وهذا ما حصل في استقبال الأرمن الذين تمكنوا من التعايش معهم، وإقامة علاقات اجتماعية طيبة في ما بينهم، ولم يفرض أحد على الأرمن الذوبان في المحيط العربي، بل على النقيض حافظوا على تقاليدهم الغربية وثقافتهم ولغتهم عبر افتتاح المدارس والمراكز الثقافية والمؤسسات الدينية الخاصة بهم.

ومع اندلاع الثورة السورية، وفي ظل حركة الهجرة التي شهدتها سورية، قرر عدد كبير من الأرمن العودة إلى وطنهم الأصلي، أو التوجه إلى أوروبا، في حين إن قسمًا منهم اتخذ قراره بالبقاء، وبعضهم استغل من قبل السلطة التي تزعم حمايتها الأقليات، فانخرط في الصراع لصالح النظام، إذ إن اختيار هؤلاء الوقوف إلى جانب الدكتاتورية يبرره بعضهم بحجة أن تركيا - العدو التاريخي لهم - تدعم الثورة السورية، وتقف معها، فادعى بعض الأرمن وممن تلاقت مصالحه مع مصالح النظام الحاكم ((بأنهم جنود المسيح، وهو ما يعطي دلالة واضحة على كم الضخ الطائفي الذي حرص نظام الأسد على توظيفه منذ الأيام الأولى من عمر الثورة السورية))⁽⁹⁾، فبعضهم برر بأن اللجوء إلى خيار الاستبداد وحكمه أفضل من الجماعات الإسلامية المتطرفة، مع العلم بأن الشعب السوري بأكمله تضرر من هذه الجماعات، ولم يستفد منها إلا النظام الذي وجد مبرراً لطائفه واستخدمه الفاحش القوة محاولاً كسب الرأي العالمي، والظهور بمظهر المدافع عن البلاد ضد التطرف والإرهاب.

2. السريان والأشوريون: رحلة البحث عن الهوية

تلاقت رغبة تركيا في الإقلال من عدد المسيحيين فيها مع طموح فرنسا في إقامة كيان موال لها في الجزيرة السورية، وقد بررت ذلك بأسباب قومية، وبما من شأنه أن يزيد من تماسك الدولة الجديدة، وقد صور بعضهم أن المسألة ((ليست تعصباً إسلامياً من الأتراك في وجه المسيحيين،

(7) المرجع السابق، ص 51.

(8) المرجع السابق، ص 80.

(9) مصطفى محمد، «جنود المسيح» الأرمن يقاتلون مع جنود الأسد، موقع عربي 21، الثلاثاء 7 أبريل/ نيسان 2015م.

بل هي أعمق من ذلك بكثير، إنها تحديد المواطنة على أساس الانتماء الطائفي، وليس على أساس الانتماء الوطني، الأمر الذي يجعل المسيحيين في الدولة العثمانية يحسون بالانتماء إلى أعداء الدولة العثمانية وفي طليعتهم روسيا، والذي يجعل مسلمي القوقاز يشعرون بالانتماء إلى الدولة العثمانية، بالرغم من كونها العدو الأول لدولتهم روسيا⁽¹⁰⁾، إنها مسألة هوية، ورغبة تركيا في أن يكون الشعور بالانتماء إليها قوياً، لا سيما بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية التي كانت من أبرز الفاعلين والمسببين في انهيارها القوى الغربية الأوروبية المسيحية الراضية وجودها، لذا رغبت في الإقلال من الوجود المسيحي من سريان وغيرهم، حيث إن السريان والأشور والكلدان تعرضوا في تركيا لسلسلة من أعمال العنف عرفت بأحداث السريان والأشور أو سيفو (Seyfo)، وهي تسمية ((تطلق على سلسلة من العمليات الحربية التي شنت في منطقة الأناضول بمساعدة مجموعات مسلحة كردية شبه نظامية استهدفت مدنيين آشوريين/ سريان/ كلدان أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، مما دفعهم أيضاً للهجرة وخاصة من أرخ وجبل طور عابدين وسهل نينوى، حيث يذكر أن ثلث سكان سهل نينوى من الأشور والسريان تم تهجيرهم إلى سوريا))⁽¹¹⁾. حاولت فرنسا أن تشرف على تكوين هذا الكيان الجديد في الجزيرة السورية، ليصبح أداة تستخدمه في استمرار وجودها، إذ إن الكيان الناشئ يبرر وجودها في المنطقة، حيث تضاعفت أعداد المسيحيين بصورة لافتة للنظر، وذلك بتشجيع فرنسا الدولة المنتدبة على سورية على هجرة المسيحيين لخلق نوع من التوافق الديموغرافي مع المسلمين الموجودين في الجزيرة من جهة، ولرغبة فرنسا في الاستثمار الزراعي في الجزيرة السورية من جهة ثانية، حيث ((بدأت حركة نزوح السريان إلى الجزيرة العليا مع التسهيلات التي وفرتها السلطات الفرنسية، وفضل الألوف من اللاجئين السريان يضاف إليهم يهود المدن، مثل يهود نصيبين، الإقامة في المدن الجديدة الجاري بناؤها مثل القامشلي، وقد حصلت الموجة الأخيرة من الهجرة المسيحية باتجاه سوريا بين عامي 1933 و 1934 عندما استقر آشوريون قادمون من العراق في حوض الخابور، لقد أصبحت هذه المنطقة الواقعة بين دير الزور والقامشلي الموطن الدائم للأشوريين، وحصلوا على الجنسية السورية بين عامي 1939 و 1940م))⁽¹²⁾.

قدمت نسبة من الأشوريين إلى الجزيرة السورية من العراق بعد أن حرصتهم قوات الانتداب البريطاني ضد الحكومة العراقية، ثم تركتهم من دون أن تدافع عنهم عام ((1933 في بلدة سيميلي فرحلوا بعدها إلى سوريا، وأسكنتهم سلطة الانتداب الفرنسي في مخيمات على ضفتي نهر الخابور،

(10) أسامة عارف العارف، هات العمر من الأول، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2014م)، ص141.

(11) مهند الكاطع، الجزيرة السورية - تاريخها.. جغرافيتها البشرية، موقع شباب بوست، 2016/4/5م.

<https://2u.pw/3UQvR>

(12) جوردي غورغاس، الحركة الكردية التركية في المنفى، ط1، (بيروت: منشورات دار الفارابي، 2013م)، ص61-62.

ليحولوها خلال بضع سنوات إلى مساحات خضراء، تزرع بجميع أنواع المحصولات، وبخاصة كروم العنب، ما يزال الآشوريون يطلقون عليها الكمبات، أما أسماء القرى العربية فيقابل كل منها اسم المنطقة التي جاؤوا منها أو العشيرة التي ينتمون إليها⁽¹³⁾، حيث ازدادت أعداد المهاجرين من سريان وأشور وغيرهما، بفضل استمرار الدعم والتشجيع من فرنسا، وعدم اعتراض أهالي الجزيرة أو تدمرهم من ذلك، وبخاصة أن المهاجرين قد عانوا ظروفًا غير إنسانية لا إرادة لهم بها، وقد بلغ عدد ((المسيحيين المهاجرين في الجزيرة عام 1937م 150 ألف نسمة، منهم 75% من السريان، و20% من الأرمن، و5% من الأقوام الأخرى، حيث كانت الجزيرة براري شاسعة وموطن للقبائل العربية... وهي قبائل تتنقل طلبًا للرعي والمياه))⁽¹⁴⁾، فالحياة التي عاشتها القبائل العربية في منطقة الجزيرة، وعدم استقرارها، جعلها تتقبل وجود الوافدين الجدد، فضلًا على أن هؤلاء الوافدين جاؤوا بخبرات ومهارات لم تكن معروفة تمامًا في المنطقة، ما قاد إلى نشوء علاقات تجارية بين العرب والمهاجرين.

كان للسريان دور مهم في التطور الزراعي الذي حصل في الجزيرة، فكانوا ((فلاحين مهرة لأن مهنتهم الأساسية كانت الزراعة وتربية الماشية مع بعض المهن الحرفية الأخرى المرتبطة بالعمران))⁽¹⁵⁾، وقد أدى ذلك إلى تحول الجزيرة إلى المنتج الأول في سورية بدلًا من حوران، ووصلت سورية في ذلك الوقت إلى الاكتفاء الذاتي من الحبوب، وكان للسريان دور مهم في التعليم، فهم ورثة أقدم الحضارات وأعرقها، أسسوا الجمعيات الثقافية والأندية الرياضية، وشكلوا الكشافة والفرق الفنية، وأقاموا المؤسسات التربوية، فكان إلى جانب كل كنيسة مدرسة، فحولوا مدينة القامشلي إلى عاصمة الثقافة السريانية في سورية، وبذلك عاش السريان بما يمكن تسميته بالعصر الذهبي في سورية إلى حين وصول حزب البعث إلى السلطة، إذ كاد أن يخسر السريان كل ما حققوه وأنجزوه من تعليم سرياني ونهضة ثقافية من جراء حصار البعث ومضايقاته لأنديتهم وجمعياتهم، وإغلاق مدارسهم لسنوات طويلة بقرارات جائرة ظالمة، فالسلطة في سورية استولت على عدد من المدارس العائدة إلى الكنائس في القامشلي والحسكة، إضافة إلى أن مديرية التربية في الحسكة بدأت تعين مشرفًا بعثيًا على المدارس الخاصة بالكنائس⁽¹⁶⁾.

(13) كرم دولي، السريان الآشوريون في سوريا، (فيينا: منشورات مركز أبحاث ودراسات مينا/ مركز الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، تشرين الأول، 2019)، ص 7.

(14) إسحق قومي، مقدمات الإبداع في الجزيرة السورية، موقع الحوار المتمدن، العدد 6763، 2020/12/17م.

<https://2u.pw/fjpPP>

(15) محمد جمال باروت، التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ط1، (بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013م)، ص-362 363.

(16) سليمان يوسف، التعليم السرياني في الجزيرة السورية بين المطرقة الكردية وسندان النظام، جريدة الناس نيوز الإلكترونية، استراليا، نوفمبر 2021م. <https://2u.pw/TMgY6>

وقد راوحت نسبة السريان والأشوريين بين ربع وثلث سكان محافظة الحسكة، وبدأت هذه النسبة بالتراجع في الثمانينيات، وذلك بسبب هجرتهم بعد التأميم، وإغلاق بعض المؤسسات الثقافية والرياضية، وتدخلات الأجهزة الأمنية في حياة المواطنين، وتعرض كثير منهم للاعتقال والتعذيب، إضافة إلى سوء الأوضاع المعيشية، إلا أن هذه الهجرة بدأت بالتراجع بعد بروز مظاهر الاستقرار من مثل التوسع العمراني وإقامة بعض المشروعات الاقتصادية التي يدعمها المغتربون، ولكن بدء الحراك الشعبي في سورية كان كفيلاً بتهجير من بقي منهم في الجزيرة ودير الزور والرقعة⁽¹⁷⁾، لقد ضيقت سلطة البعث على السريان والأشوريين، على الرغم من ادعائها المستمر حماية الأقليات، إلا أن نظام البعث ورغبته في التفرد بالسلطة اقتضت من المنظور البعثي التخلص من المنافسين جميعهم، ورأى أن أي أقلية، مهما كانت صغيرة، قد تكون حجة للدول الكبرى في التدخل، أو في ممارسة سياسة الضغط عليها في سبيل إشراكها في السلطة.

لاحق نظام البعث سابقاً أعضاء المنظمة الأثورية التي أسست قبل وصوله إلى السلطة التي عارضت انقلاب البعث وإنهاء الحياة السياسية في سورية، وقد لجأت سلطة البعث منذ السبعينيات من القرن الماضي إلى سياسة التضييق على السريان والأشوريين بصورة عامة، وهذه المنظمة بصورة خاصة، حيث عملت على تحويل الأراضي الزراعية التي يملكونها إلى أملاك للدولة بحجج مختلفة؛ منها تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، وتحويل مدارسهم الخاصة إلى مدارس حكومية، دافعة بهم نحو هجرة جديدة، وتغيير ديموغرافي يعزز قوة البعث في الجزيرة، ثم اعتقل جل شخصيات المنظمة الأثورية في الثمانينيات من القرن الماضي مستغلاً حال الطوارئ في البلاد، ثم لاحق أعضاءها بعد مشاركة المنظمة في إعلان دمشق عام 2005، ومع بداية الثورة السورية انضمت المنظمة إلى الائتلاف الوطني المعارض، هذه الإجراءات كلها تسببت في تراجع أعداد السريان والأشوريين في الجزيرة التي باتت تقدر بحسب تصريحات مدير المرصد الأشوري لحقوق الإنسان (جميل ديار بكرلي) بحوالى 6 بالمئة من سكان محافظة الحسكة.

3. الهجرات الكردية والتغيرات الديموغرافية

في الحديث عن الأكراد سوف نتجاوز الكلام عن الأكراد القدماء الذين استقروا في سورية منذ ما قبل العهد الأيوبي الذين أقاموا في المدن الداخلية في دمشق، وحمص وحملة، وجبل الأكراد في اللاذقية، بل سيكون حديثنا عن الأكراد اللاجئين، وهم الذين استوطنوا في منطقة الجزيرة الفراتية،

(17) كرم دولي، السريان الأشوريون في سوريا، مرجع سابق، ص 9 بتصرف.

وقد كان لجوؤهم بصورة موجات؛ الموجة الأولى امتدت بين عامي (1925 و1939)، والثانية استمرت بين عامي (1952 و1961)، إن السبب الرئيس في هذه الهجرات هو الثورات المتكررة ضد تركيا، أما الأسباب الأخرى التي شجعت الهجرة الكردية إلى الجزيرة في هاتين الموجتين، فتعود إلى الحاجة إلى عمال للزراعة لإنماء المشروعات في الجزيرة السورية، لا سيما في ظل الوجود الفرنسي الذي شجع على الهجرات، وسهل الحصول على الجنسية السورية بدلاً من الجنسية التركية، وكذلك تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في ظل الجمهورية العربية المتحدة، حيث لم يفرق بين عرب وكرد. وقد ((أتاحت المشاريع الاقتصادية والاجتماعية لإحياء الجزيرة السورية، والخلاف الفرنسي التركي على ترسيم الحدود التركية السورية، للمفوضية العليا الفرنسية المقيمة في بيروت استخدام الورقة الكردية))⁽¹⁸⁾، كان للكرد يد طولى في التنمية الاقتصادية التي شهدتها الجزيرة السورية بصورة عامة، والتنمية الزراعية بصورة خاصة، ويرجع ذلك إلى خبرتهم في العمل الزراعي، والتشابه في الطبيعة البيئية والزراعية بين جنوب تركيا والجزيرة السورية.

إن السياسة الانتدابية الفرنسية كانت تقوم على أساس تشكيل كيانات إثنية موالية لوجودها، وهذا ما يفسر تأسيسها ما يسمى بجيش الشرق المكون من المستعمرات الفرنسية، إذ شجعت فرنسا ((على الهجرة إلى الجزيرة السورية وفتح الأبواب على مصراعها خلال الأعوام 1925-1943م، لاستقبال المهاجرين- اللاجئين قسراً، وقامت هذه السياسة كما هو معروف بتقسيم سورية إلى سلسلة دويلات على أساس إثني طائفي ديني أو مذهبي وفق نظام الاستقلال الذاتي، وخلق أفضية مستقلة إثنية – إدارية))⁽¹⁹⁾، وقد ظهر ذلك جلياً في سياسة فرنسا ضد الكتلة الوطنية السورية التي طالبت بالاستقلال من خلال توحيدها الجزيرة بكيان خليط ضم العرب البدو والكرد والسيريان والأشوريين، وعملت على تشجيع دعواته إلى الانفصال أو الإدارة الذاتية.

في عهد حزب البعث مورست على الأكراد سياسة عنصرية تحت مزاغم تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، في حين كانت في حقيقتها عملية استيلاء كان القانون واجهة لتنفيذ هذه العملية الشوفينية، حيث أعد (محمد طلب هلال) الضابط في الأمن السياسي دراسة أمنية للواقع الاجتماعي والسياسي للجزيرة السورية، ((ونوقش في مؤتمرات حزب البعث، ولا سيما المؤتمر القطري الثالث لحزب البعث عام 1966، وقد عدت دراسته الكرد في المحافظة ناقصي الوطنية والولاء لوطنهم السوري، فكانت خطته استجلاب عشائر موالية وقومية، يمكن تكوين ميليشيات مسلحة منهم، وتوطينهم في طول

(18) جوردي غورغاس، الحركة الكردية التركية في المنفى، مرجع سابق، ص 11.

(19) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سورية: الواقع، التاريخ، الأسطورة، ط 2، (بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018م)، ص 15.

الشريط الحدودي الشمالي، بدءاً من الحدود العراقية السورية إلى ما بعد مدينة رأس العين، وكان تعبيره حرفياً «إقامة مستوطنات عربية على طول الحدود مع تركيا»، مستلهماً مصطلح المستوطنات الإسرائيلية في دراسته، فضلاً عن وجود أهداف بعيدة المدى لدفع السكان المحليين أصحاب الحق في الأرض إلى مزيد من الفقر والتميش، كي يرغموا على الهجرة إلى الداخل تجاه مراكز المدن بحثاً عن العمل⁽²⁰⁾، يتضح من هذه الإجراءات رغبة الحزب وسياسته في بسط نفوذه على المنطقة البعيدة نسبياً عن العاصمة، وضمان عدم ظهور حركات أو تشكيلات حزبية معارضة للسلطة في ظل التنوع العرقي والإثني في الجزيرة، ثم الاستفادة من الثروات المائية والزراعية والباطنية المكتشفة، وقد وُزعت الأراضي المستولى عليها على أهالي منطقة سد الفرات التي غمرت أراضيهم من جراء قيام السد والبحيرة، ما دفع السلطة الحاكمة إلى خلق أزمة بين النسيج الاجتماعي في المحافظة، تغذيه وتحركه عبر أجندتها، وبحسب حاجتها.

في تسعينيات القرن الماضي استخدم حافظ الأسد ورقة الأكراد للضغط على تركيا عندما فتح مراكز تدريب في سورية ولبنان لحزب العمال الكردستاني الذي كان في حالة حرب مع تركيا -في الوقت الذي كانت فيه تحت الوصاية السورية- إلا أن رد تركيا كان شديداً بلسان رئيسها آنذاك (توركوت أوزال)، إذ بين أن من مصلحة سورية المحافظة على علاقات جيدة مع تركيا، وعدم دعم الحركات الانفصالية، وإلا فإن ذلك سيعرض مصالحها للخطر، فتركيا مستعدة لقطع مياه الفرات والدخول في حرب مسلحة، عندئذ اضطر النظام الحاكم في سورية إلى الرضوخ للمطالب التركية، فأغلق معسكرات حزب العمال، وسلّم زعيمه أوجلان بعمليات استخباراتية، وقد انتهت هذه المرحلة من دون أن يحقق الكرد السوريون أي مكاسب من التعاون والدعم الذي استمر حوالى عقدين من الزمن، حيث بقي عشرات آلاف منهم مدرجين ضمن قائمة الأجانب منزوعي الحقوق المدنية، وقمع النظام أيضاً حركة احتجاجية كردية في مارس/ آذار 2004 (انتفاضة القامشلي)، ما يفسر حال التوتر والحساسية التي زرعها النظام بين العرب والأكراد.

ومع اندلاع الثورة السورية عاد بشار الأسد لاستخدام ورقة الأكراد التي استخدمها والده، ومرة ثانية ضد تركيا من جهة، ولضرب ثورة الشعب السوري ووحدتها من جهة أخرى، ف((قام بمحاولة اللعب على وتر الأقليات واستمالة الأكراد، من خلال إصداره المرسوم التشريعي رقم 49 في 7 نيسان لسنة 2011م، والقاضي بمنح الجنسية السورية للمسجلين في سجلات أجانح محافظة الحسكة أي «الكرد المحرومين من الجنسية». وكان العميد حسن جلاي معاون وزير الخارجية قد صرح في

(20) عمار عكلة، الحزام العربي الناسف في قانون الإصلاح الزراعي حق يراد به باطل، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، إسطنبول، 5 آذار/ مارس 2017م.

<https://2u.pw/imfWS>

شهر آذار «مارس» 2012م لوكالة الأنباء السورية الرسمية بأن عدد الذين تقدموا بطلبات قد وصل إلى 105.631 طلب⁽²¹⁾، وعاد إلى دعم العناصر المرتبطة بحزب العمال الكردستاني، من مثل حزب الاتحاد الديمقراطي PYD الذي أصبح نواة لقوات سوريا الديمقراطية (قسد) التي أسستها الولايات المتحدة الأميركية (10 أكتوبر/تشرين الأول 2015) بهدف مقاتلة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). لقد أقام نظام البعث علاقته مع الأكراد على أساس مصلحته واستمرارية حكمه، فحاربهم عندما تطلب الأمر، وانتزع أملاكهم، وحرّم كثيراً منهم الجنسية السورية، وأحدث التغييرات الديموغرافية لتفرقتهم، وقمع أي احتجاج لهم. وفي المحور القادم سنتحدث عن أزمة الغمر التي كان لها تأثيرها في هجرة الأكراد، وسنحاول أن نبين كيف استخدمتها السلطة في تحقيق أبعاد أيديولوجية، وإحداث تغييرات اجتماعية في منطقة الجزيرة السورية.

ثالثاً: سلطة البعث وتهجير المغمورين

لقد شكلت إقامة بحيرة سد الفرات التي غمرت مياهها مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية والقرى السكنية أزمة ما يسمى بالمغمورين، وهي التسمية التي أطلقت على من غمرت قراهم وأراضيهم من جراء ملء سد الفرات الذي انتهى العمل به عام 1974، ونشوء ما يسمى (بحيرة الأسد)، حيث استقر نصف المغمورين حول البحيرة الناشئة على أطراف قراهم التي غمرتها المياه، وهُجر حوالي 12% في المزارع التي أنشأتها سلطة البعث في حوض الفرات، أما النسبة المتبقية أجبرت على الهجرة والتوطين على الشريط الحدودي الفاصل بين سورية وتركيا في محافظة الحسكة (الجزيرة سابقاً).

وقد أنتجت هذه الأزمة ما يمكن أن نطلق عليه اسم أدب الغمر الذي تناول هذه الحادثة من جوانب عدة، فوثق الأحداث التي رافقت نشوء السد معظمها، وتبعات ذلك، وجسد المعاناة الإنسانية والاجتماعية لسكان المنطقة الذين هجروا، فكان هذا النتاج انعكاساً ثقافياً لأزمة ما تزال آثارها وصداها حاضرين حتى الآن.

(21) مهند الكاطع، الجغرافية البشرية للأكراد في سوريا، منشورات معهد العالم للدراسات، 9 تموز / يوليو، 2016م.

<https://2u.pw/IH1zc>

1. ممارسة السلطة السياسية وأبعادها الأيديولوجية

شكل التنوع الهوياتي في منطقة الجزيرة السورية مصدر قلق للهوية الوطنية التي أراد نظام البعث نشرها بوصفها هوية للدولة السورية؛ لأن الهوية الوطنية هذه لم تكن سوى هوية طائفية لبست لبوس أيديولوجيا البعث الذي أفرغ من مضامينه القومية والثورية التي كان ينادي بها، ليكون أداة لسيطرة طائفة الحاكم على المجتمع، إن رغبة الأسد الأب في استمراره في الحكم دفعته إلى استقطاب مؤيديه من الأكثرية المحكومة، ثم وضعهم في واجهة الحكم لينتفعوا من سياسته الطائفية، لإبعاد الشبهة عن طائفته وعنصريته، لعل أبرزهم مصطفى طلاس وعبد الحليم خدام وحكمت الشهابي، ومصطفى التاجر، وغيرهم، فكان لا بد لحزب البعث من أن يعزز سلطته بالهيمنة على المجتمع وعلى ميادين الحياة في الدولة الجديدة كلها، فبدأ بترسيخ نفوذه وحكمه عبر سلسلة من الإجراءات في الجزيرة السورية، حيث انتهج سياسة تهميشية للمنطقة وسكانها، عبر تقييد نشاط المجتمعات المدنية، وقمع الحريات والتضييق على النشاط الحقوقي والاجتماعي والاقتصادي، ذلك كله مهد لتغيير الدستور، وخلق حالاً من وهم التعددية السياسية تحت مسمى الجبهة الوطنية التقدمية.

لقد بدأت سياسة حزب البعث حيال منطقة الجزيرة بالمصادقة على تجريد الأكراد من الجنسية السورية، بموجب المرسوم التشريعي رقم (93) الصادر بتاريخ 23 آب/ أغسطس 1962، عن الرئيس الأسبق ناظم قدسي، وقد طبق بشكله الفعلي مع وصول حزب البعث إلى السلطة، ووجد أكثر من 120 ألف كردي من جنسيته وعدّهم من الأجانب المقيمين، ما سهل الاستيلاء على أملاكهم، وأفقدتهم الحق في التملك والعمل، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1963 تقدم الضابط محمد طلب هلال رئيس شعبة الأمن السياسي بدارسة لصالح حزب البعث ومؤتمراته عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية والاجتماعية والسياسية، ليوصي بنقل القبائل العربية إلى الشريط الحدودي لتكون المنطقة جبهة عسكرية، وذلك بتركيز قطع عسكرية فيها، ولتشكل حزام أمان يحول بين الأكراد في شمال سورية وأقاربهم في جنوب تركيا، متهمًا الأكراد بأنهم ليسوا وطنيين، لهذا لا بد من الإسراع بنقلهم إلى الداخل، واتباع سياسة التجهيل في المنطقة، وتصحيح السجلات المدنية ليُسَلَّم الأكراد ذوو الجنسية التركية إلى بلدهم، ويُضَيَّق عليهم في العمل، وتُنزع الصفة الدينية عن مشايخ الأكراد ويستبدل بهم العرب، مع التأكيد على نقل عناصر عربية لإنشاء مزارع جماعية للعرب على طول الشريط الحدودي الشمالي، وأن تكون هذه المزارع مدربة ومسلحة كالمستعمرات اليهودية في فلسطين⁽²²⁾، وقد وضعت هذه الدراسة قيد الاعتماد مع انتظار الأوضاع المناسبة لتنفيذها، وتمثلت هذه الأوضاع بإقامة سد

(22) محمد طلب هلال، دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية والاجتماعية السياسية، (الحسكة: من منشورات مركز عامودا للثقافة الكردية، 2003)، ص 23، 24 بتصرف.

الفرات وتشكيل بحيرة (الأسد) خلفه، ما تسبب بغمر أراضٍ وقرى كبيرة في منطقة السد والبحيرة، فكان القرار بنقل السكان المغمورين، وهم عرب ينحدرون من قبائل عربية إلى مزارع على طول الشريط الحدودي مع تركيا بطول 350 كم، وعمق يراوح بين 10 و15 كم، وقد بدأ تنفيذ سياسة التهجير عام 1974 التي استمرت حتى عام 1979، ليصل عدد من وُطِنوا إلى 25 ألف نسمة بعدد من القرى وصلت إلى 41 قرية ممتدة بين عين ديوار ورأس العين، ((كثير من أبناء الغمر رفضوا بادئ الأمر تعويضهم عن أراضي الجزيرة، وكانت رغبتهم بأن يعوضوا بدلاً من الأراضي التي غمرت بمياه البحيرة؛ بالأراضي التي يجري استصلاحها في محافظتي حلب والرقعة، وما حدث هو أن مؤسسة حوض الفرات وزعت الأراضي التي استصلحت للعاملين في المؤسسة، وأصرّت السلطة السورية على تنفيذ مشروع حزامها من المغمورة أراضيهم، وهددت بالحرمان في التعويض كل من يرفض الإقامة في محافظة الحسكة، وقامت السلطات بأكثر من ذلك، فلم تكتف بنقل إقامتهم، بل نقلت قيودهم في سجلات الأحوال المدنية إلى التجمعات السكنية التي شيدت لهذه الغاية، وكان القصد من ذلك تغيير ديمغرافية المنطقة، بدعمها من العنصر العربي))⁽²³⁾، فلم يكن السكان المغمورون يعدون أنفسهم أصحاب حق، ولكنهم أصحاب مأساة، فهم من فرضت عليهم الهجرة القسرية، وقد عانوا كثيراً بغربتهم وبعلاقاتهم المتوترة مع السكان الذين انتزعت السلطة منهم أراضيهم لتمنحها لأهالي القرى المغمورة في حوض الفرات.

لقد كان تفكير السلطات البعثية ينحصر بنظرية شوفينية قد تبنتها، وعندما هيئت الظروف لتنفيذها قامت بهذه السياسية، في حين إنه من المنطقي أن يسمح للأهالي بالإقامة وتوطينهم في المناطق القريبة من قراهم وأراضيهم الأصلية، وبخاصة أنها منطقة استُصلحت زراعياً، وفي الجانب الآخر كان على السلطة أن تقوم بعملية تنمية شاملة للمنطقة الحدودية، وتثبيت سكانها فيها، عبر تعزيز الحريات وبناء دولة المواطنة على أسس الحرية والديمقراطية بصورة تحدث فيها تغيرات إيجابية تثرى معها الهويات الوطنية، بما ستمنحه من حقوق وحريات سياسية وإدارية تنموية وثقافية تطل اللغة والأدب، وكل ما يحقق معنى المواطنة، وانتفاء أي مظلومية.

2. الإنتاج الثقافي الذي تمخض عن أزمة الغمر

مثلت أزمة الغمر مادة علمية لعدد من الباحثين والكتاب في منطقة الفرات والجزيرة، فكتبت الروايات والقصص وأنتجت الأفلام الوثائقية حول هذه الأزمة، حيث تناول بعضهم موضوع الغمر

(23) عمار عكلة، الحزام العربي الناسف في قانون الإصلاح الزراعي حق يراد به باطل، مرجع سابق. <https://2u.pw/imfWS>

بوصفه مأساة حلت بالمنطقة وأهلها، في حين صورت بعض الكتابات الحياة الاجتماعية وطبيعة السكان، ولعل أشهر هذه الكتابات كانت رواية (المغمورون) التي أهداها كاتبها إلى ((الذين على رؤوسهم المغمورة بمياه السد بنيت أمجاد وازدهرت حظوظ))⁽²⁴⁾. تصور الرواية طبيعة العلاقة الاجتماعية بين أهل المنطقة والموظفين والخبراء العاملين في بناء سد الفرات، وتذهب الرواية في تبیان مسألة إجبار السلطة المغمورين على الانتقال إلى المنطقة الحدودية مع تركيا، فهي لم تتساهل معهم في هذا الخصوص، حيث يقول عثمان الموظف في السد إن ((الأمر صدر إلى مديريات التربية في محافظات البلاد بأن ترفض قبول أبناء المغمورين في مدارسها، وإلى البلديات ألا تعطي أحدًا من المغمورين رخصة لبناء دار له فيها، ما عدا المحافظة الشرقية.. ومن لا يثبت قبوله بالتهجير إلى تلك المحافظة يعتبر متنازلًا عن كل تعويض يستحقه))⁽²⁵⁾.

وكذا الحال في رواية (بيلان) التي صورت الحياة الاجتماعية للمنطقة، ورفض الأهالي التهجير المفروض عليهم من السلطة، فتصف رفض أحمد قرارَ رئيس المخفر، وتصور ردة فعله، ((رئيس المخفر، سحبه من ثوبه بقوة أطاحت به الأرض، وأمسك بشاربيه، وهو يقول، من لا ينفذ أمر الحكومة، ننتف شاربيه))⁽²⁶⁾، حيث تظهر سياسة السلطة الحاكمة حيال أزمة الغمر بأنها تحمل بعدًا سياسيًا أيديولوجيًا، أو بحسب تعبير شخصية عثمان في رواية المغمورين (مصلحة الوطن العليا)، ومما لا شك فيه أنها إرادة عليا من رأس هرم السلطة، ودليل ذلك التطبيق الشديد لقرار التهجير من دون أي تساهل، ومن ثم يتضح عزم السلطة على المضي في إنجاز السد، وعلى تهجير من غمرت المياه أراضيهم إلى الشريط الحدودي، إضافة إلى تسمية البحيرة التي أقيمت خلف السد بـ(بحيرة الأسد)، وهذا ما وضحته رواية (آن له أن ينصاع) التي صور فيها الكاتب كيف كانت التسمية مفاجئة للعمال والموظفين، بعد أن كانت السلطة تخبرهم بأنها ستحمل اسمًا عظيمًا لا مثيل له، فتقول لهم: ((سيكون لبحرنا - أو بحيرتنا إذا أردنا الحقيقة- اسم كبير، ليس قطينة، أو العتيبة، أو الحولة، أو طبريا... وراح البعض يحزرون: بحيرة الفرات، بحيرة الطبقة، بحيرة الشمس الساطعة..))⁽²⁷⁾، حيث تحاول السلطة إضفاء طابع العظمة على البحيرة وسدها، لتعلن عن اسمها في حفل الافتتاح، وبأسلوب عاطفي شاعري، (بحيرة الأسد.. ستعمر البلد.. تزداد كل يوم.. تعلقو بلا زبد..))⁽²⁸⁾.

(24) عبد السلام العجيلي، رواية المغمورون، طبعة خاصة، (بيروت: دار الشرق، 1984)، ص5.

(25) المرجع السابق، ص339.

(26) موسى رحوم عباس، رواية بيلان، ط1، (بيروت: دار بيسان للنشر، 2011)، ص119.

(27) فارس زرزور، رواية آن له أن ينصاع، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1980)، ص203-204.

(28) المرجع السابق، ص330.

وركزت رواية (برج لينا) على العادات والتقاليد السائدة في المنطقة قبل حدوث الغمر، وعلاقات السكان مع الخبراء الروسين الذين يعملون في السد، وتصوير مدينة الطبقة التي باتت مدينة تجمع السوريين كلهم، وهم على علاقة طيبة ومنسجمة في ما بينهم، فتصف خروج الأطفال ابتهاجاً بنزول المطر، واحتفالهم في القرية وهم يتجولون بها مرددين أغاني شعبية خاصة بهذه المناسبة، فلنزول المطر طقوس خاصة، ((عند هذا تخرج إحدى النساء من بيتها تنادي عليهم لتجود لهم ببعض ما تعتقد أنه مناسب في مثل هذه الأحوال وعندما تفرغ محتوى إنائها في خرّج حامل الرزق يشتد إيقاع الأصوات والكلمات التي تحمل الوعيد والأمل))⁽²⁹⁾، وتقدم رواية (النهر) أنماطاً من صور الحياة الاجتماعية، وتسלט الضوء على التحالف بين السلطة الحاكمة مع شيوخ القبائل في المنطقة بهدف إحكام السيطرة على الشعب، فيقول رئيس المخفر: (نحن هنا لنكون مع الشيخ وليس مع الفلاحين)⁽³⁰⁾، وهي الوسيلة التي استخدمتها السلطة في علمية التهجير، حيث كان لشيوخ القبائل والعشائر دور بارز في إقناع الناس أو الضغط عليهم للقبول بعملية الانتقال إلى الجزيرة.

أما الإنتاج السينمائي التوثيقي الذي تناول أزمة الغمر فقد أنتجت مجموعة من الأفلام، لعل أبرزها فيلم (محاولة عن سد الفرات)، أنتج عام 1970، يتناول أهمية السد وبحيرته، حيث يصف مخرجه عمر أميرالاي السد وبحيرته بأنهما من الإنجازات العظيمة للحزب، إلا أن أميرالاي اعتذر، وبرر ذلك بأنه كان يبني آماله على الحزب والسلطة الحاكمة، فقد كان مضللاً مثله مثل بقية الشعب، ثم ما لبث أن اكتشف زيف شعارات السلطة وحزبها الحاكم، فقد تأكد من ذلك عند تعامل السلطة مع إنتاجه السينمائي اللاحق، حين رفضت أي نقد يوجه صوبها، وهذا ما كان قد فعله أميرالاي في فيلمه الثاني (الحياة اليومية في قرية سورية) الذي أنتجه عام 1974م، ليتناول فيه الحديث عن قرية سورية في منطقة الجزيرة، مصوراً كيف أهملت السلطة الشباب، وحالت دون تعليمهم، هذه السياسة الإقصائية التي مارسها حزب البعث دفعت أميرالاي إلى الهجرة من بلده، ثم ما لبث أن عاد لينتج فلمه الأبرز (طوفان في بلاد البعث) عام 2003 الذي صور أشخاصاً مؤدجين من قبل السلطة وهم في حال من الاستلاب الفكري، يتسمون بالتأييد الأعمى لنظام البعث الحاكم تأييداً مثيراً للسخرية، وهذا ما أراد إيصاله، وليكون الفيلم تكفيراً عن فيلمه الأول الذي امتدح المنجز (العظيم) في حوض الفرات، وقد شارك فيه أميرالاي في مهرجان أيام قرطاج بعد عام من إنتاجه، ((غير أن الرقابة السورية لاحقت الفيلم في تونس، وتواصلت من خلال السفارة السورية مع المعنيين هناك؛ لإخراجه من سياق المهرجان، مما أثار حالة من الجدل، كما تم منع عرضه داخل سورية))⁽³¹⁾.

(29) تركي محمد رمضان، رواية برج لينا، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 2006)، ص 24.

(30) جان ألكسان، رواية النهر، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1979)، ص 117.

(31) قناة الجزيرة، برنامج خارج النص - أميرالاي يلخص سوريا.. البعث والطوفان، 6 أغسطس / آب، 2017م، د: 4.

لقد أراد أميرالاي القول بأن السد لم يكن سوى سدًا أيديولوجيًا غيب الحقيقة، وأرسى مفهومات السلطة في عقول الشعب، وقد أظهر ذلك على لسان مدير مدرسة في قرية الماشي، ويمثل هذه القرية نائب في مجلس الشعب منذ أربعين عامًا، استحوذ أقاربه على الوظائف والمناصب في المنطقة، فالقرية ليست سوى صورة مصغرة عن سورية، حيث نقل عن (خلف الماشي) مدير مدرسة القرية قوله: ((بعد وفاة القائد العظيم الخالد حافظ الأسد رحمه الله، عاهدنا الرفيق الدكتور بشار حافظ الأسد على أن نكون الجند الأوفياء المتابعين بكل همة ونشاط تعليمنا لأبنائنا التلاميذ في مدارسنا حتى نحقق جيلاً مستقبليًا واع، جيل سورية بشار حافظ الأسد))⁽³²⁾، ثم يتابع الأستاذ خلف فيصف المنظومة التعليمية، وكيفية تعليم التلاميذ، فيقول: ((عندما ننادي بمبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي... تغرس هذه المبادئ في هذا الطفل ويتعود الطفل على حب الوطن، وحب القومية العربية، وينادي بالوحدة، والحرية، والاشتراكية))⁽³³⁾، فقد تعمد المخرج الربط بين حافظ الأسد والنائب دياب الماشي، الممثل البرلماني للقرية والمنطقة، ثم الربط بين ابن أخ الماشي مدير المدرسة وحكم بشار الأسد، ليوصل رسالة مفادها بأن الوراثة في الحكم سياسة أيديولوجية يتبعها النظام في ميادين الحياة كلها في سورية، لتكون سورية ليست سوى سورية الأسد التي يعيشها الناس في كل لحظة من حياتهم.

أما في فيلم (أزرق رمادي)⁽³⁴⁾ الذي يركز على اللغة البصرية بصورة أساس لمخرجه محمد الرومي، يصور المخرج العبارة التي كانت تنقل الناس إلى الضفة الأخرى للنهر، ويحكي كيف غمرت الماء ذكريات الأهل وأحلامهم، ويتوافق الفيلم مع مقطوعات من أغان شعبية كانت سائدة في المنطقة. وفي فيلم (أضواء)⁽³⁵⁾ الذي أخرجه ريم غزي، صوّرت الحياة الاجتماعية وإهمال السلطة القرى المتبقية على ضفاف البحيرة التي كونها سد الفرات، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا خدمات على الرغم من قربها من مصادر الطاقة، ويرصد الفيلم أيضًا طموح الأطفال والشباب الذي تلخص بالخروج من هذا المستنقع المهمل إهمالًا متعمدًا، أما فيلم (كلام حريم)⁽³⁶⁾ للمخرجين سامر برقاي و وعدنان عودة، يركز بصورة أساس على المرأة في منطقة الغمر، ليناقد مسائل (الزواج المبكر، زواج القاصرات، تعدد الزوجات،

<https://youtu.be/wRV8pVcheog>

(32) فيلم طوفان في بلاد البعث، إخراج، عمر أميرالاي، د: 20-19. <https://youtu.be/euQ2MLfgmK0>

(33) المرجع السابق، د: 22. <https://youtu.be/euQ2MLfgmK0>

(34) فيلم أزرق رمادي، إخراج، محمد الرومي. https://youtu.be/mw-rGgce_vl

(35) فيلم أضواء، إخراج، ريم غزي. <https://youtu.be/NrP0psWHYC4?t=9>

(36) فيلم كلام حريم، إخراج، سامر برقاي، وعدنان عودة. <https://youtu.be/ODRsKtWyvm0>

الإنجاب، عدم متابعة التعليم، عمل المرأة...)، وفي فيلم (بدوي)⁽³⁷⁾ لمخرجه مأمون البني يتناول قصة نجاح شاب من منطقة الفرات.

3. نوستالجيا الغمر بوصفها مقدمةً للتغريبة السورية

لا يمكننا الحديث عن أزمة الغمر سياسياً من دون أن نعرج على ما خلفته هذه الحادثة من أزمات وجودية طالت الإنسان الذي فرض عليه الرحيل والاعتراب، هذه الأزمة الوجودية لم تتوقف منذ غادر سكان أرض البحيرة بيوتهم وأراضيهم وذكرياتهم التي ارتبطت بها، فعاشوا نوستالجيا جماعية بعد رحيلهم وشتاتهم في مناطق عدة لا تربطهم بها أي روابط تاريخية واجتماعية وإنسانية.

إن ارتباط وجود الإنسان وحضارته بوجوده في مناطق قريبة من المياه هي حقيقة تاريخية لا شك فيها، فلطالما شكلت هذه المناطق أرضيةً ثابتةً لتلك الحضارات، فبنوا عليها صروحهم وأمجادهم دليلاً على استقرارهم وتوطنهم في تلك المناطق، لذلك فإن ما يمكن أن يتمخض عن هذه المناطق من إرث حضاري جدير بالدراسة والاهتمام؛ لأنه يعد جزءاً لا يتجزأ من الذاكرة التاريخية في سورية.

لا شك في أن أزمة الغمر التي أصابت السكان الذين كانوا يقطنون في حوض الفرات تركت أثراً نفسياً عميقاً في نفوسهم، لأنها غمرت ذكرياتهم مع أراضيهم ومنازلهم التي التهمتها مياه الفرات، وما زاد عذابات المغمورين وآلامهم شيء أكثر من سياسة التهجير القسرية التي فرضت عليهم، وأجبرتهم على الرحيل إلى أقصى الجزيرة السورية، لدرجة أن بعضهم راح يشبه حالهم بحال تهجير الفلسطينيين، ولعل أول من استخدم مصطلح (مستوطنات عربية) هو رئيس شعبة الأمن السياسي محمد طلب هلال، فقد حُرِّموا الإقامة في المناطق القريبة من أراضيهم وقراهم السابقة، صحيح أنهم بنوا بعض المزارع لهم بمناطق قريبة من البحيرة، إلا أن أعدادهم كانت قليلة قياساً بالمجموع العام للمغمورين، فقد كانت سلطة البعث شديدة في عملية التهجير لمن قررت تهجيرهم، فاتبعت سياسة اقتلاعهم من الجذور، ما أورث جرحاً لم يندمل بتعاقب السنين، لقد رفض الأهالي، وقاوموا قرار السلطة، وقد صور عبد السلام العجيلي في روايته أشكلاً من رفض الأهالي ومقاومتهم التهجير، حيث يستذكرون أيامهم وأيام أهلهم من قبلهم، فيقول أحدهم: ((بيتي بنيته من لبن وحجر الفخار وخشب، على الأرض التي بنى أبي قبلها سيباطه من سوس وغرب، زوجت ابني في هذا البيت، وأخرجت جنازة أمي منه.. جذورنا ضاربة في هذه الأرض مثل جذور الأشجار العتيقة، هل سمعت بشجرة تلم جذورها وتضعها

(37) فيلم بدوي، إخراج، مأمون البني. <https://youtu.be/3fecVXcBJtQ>

على أكتافها وتمشي))⁽³⁸⁾، لا أحد يقبل بقتل ذاكرته التي يستمد منها حياته، فهي هوية يتناقلها الأجيال في المنطقة، هي النسغ الذي يعتاشون عليه.

لقد كانت هذه الأرض موطنًا لأقدم الحضارات، ولمعرفة اليونسكو بالأهمية التاريخية لهذه المنطقة سارعت لإنقاذ آثارها من الغرق، ولعل أبرزها آثار تل المريبط، والحبوبة، فالمنطقة موطن للإنسان منذ القدم، ترك فيها آثاره، فأعطى للمكان روحًا جعلت الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض يتعلق بها، فإن خرج منها يعانده الشوق لها، فيعود ليرتعي بأحضانها، إلا أن الخروج القسري جعل أهلها يخرجون منها بلا عودة، لقد حاولوا ألا يخرجوا، ولكن قوة السلطة وقرارها كانا أقوى من إرادتهم.

يروى أحد المغمورين أنه في زمن سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) على منطقة سد الفرات، وما أثير من شائعات حول إمكان انهيار السد نتيجة سياساتهم الإدارية الخاطئة، وما يتعرض له السد من ضربات جوية، يقول: سأقول شيئًا ولكن لا تعتبروني شخصًا أنانيًا، لقد تمنيت فعلاً لو أن السد ينهار، حتى أتمكن من العودة إلى أرضي وبيتي وقريتي التي ما تزال راسخة في ذهني، وكأنني خرجت للتو منها، شوقي لها لا يمكن أن أصفه لكم، ولا أستطيع التعبير عنه، لكن يمكنني القول بأنني منذ خرجت مرغماً إلى الجزيرة لم يمر يوماً من دون أن أعاني غربتي.

ويروي حسن عبد الله الخلف، وهو من إحدى القرى التي غمرها الفرات، وممن هجروا قسراً، فتحول اسمه إلى مغمور حتى غدا الاسم الجديد أكثر التصاقاً به من اسمه الحقيقي، أو يمكن القول في أضعف الإيمان بات اسمه (حسن المغمور)، وهذا ليس حال حسن فقط؛ إنما الأمر ينطبق على المغمورين جميعهم، بقي (حسن المغمور) يتوق إلى حسن القديم، حسن المواطن السوري الذي لا يميزه أحد من غيره، لكن استمرت صفة الغمر مرافقة لاسمه من دون حول أو قوة منه، في عام 2015 غادر حسن سورية متجهاً إلى ألمانيا لينقذ نفسه وأسرته من نار الحرب التي بدأت تحصد أرواح الشعب السوري الثائر ضد السلطة التي كانت السبب الرئيس في تحول حياة حسن من حسن عبد الله إلى حسن المغمور، وأخيراً ليصبح (حسن اللاجئ)، لقد اكتسب حسن اسمًا جديدًا، يقول حسن: ((الهجرة الي شافوها أهلنا وعاشوها وجربوها وذاقوا مرارتها، نحن عم نعيشها، الحكومة في السبعينيات، بنت سد، والسد غمر 80 قرية، بأراضيها، ببيوتها، بمساكنها، والذكريات راحت فيها، والأراضي، حتى الآثار الي تعود لـ 8000 سنة قبل الميلاد، اندفنت وراحت في سبيل بناء هذا السد. الرصاص خرب كل شيء، وأخيراً عبرت البحر، وجيت على أوروبا، وصار اسمي لاجئ، حاولت أتخيل الهجرة وتاريخ الهجرة، وكيف تقتلع ناس من جذورها، ما أتصورها، إذا بدك تشيل شجرة من جذورها،

(38) عبد السلام العجيلي، رواية المغمورون، مرجع سابق، ص 206.

وتلملم هذه الشجرة وجذورها وتحطها على كتفك وتمشي، ما أتصور أنها تعيش في مكان آخر⁽³⁹⁾، وما زال حسن يسعى إلى العودة إلى موطنه الأول، أرض الغمر، لقد كانت تغريبة الغمر مقدمة حقيقة للتغريبة السورية التي يعيشها الشعب اليوم، بعد أن كانت تغريبة فئة من سورية باتت تغريبة سورية شاملة.

رابعاً: خاتمة

كان البحث محاولة تأريخية ذات أبعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية، هذه المكونات التي نرى ضرورة دراستها لاستيعاب أي معنى للهجرات والتحويلات التي تطل المناطق الجغرافية، ولذا درسنا التبدلات والتغيرات التي حدثت في منطقة الجزيرة السورية، فتوصل البحث إلى:

1. رصد الأسباب الكامنة وراء حركات الهجرة المتتالية والمتنوعة منذ بدايات القرن الماضي إلى الوقت الراهن، ومعرفة الآلية التي كانت تقوم عليها هذه الهجرات، ومعاينة العامل السياسي الذي يمثل محور تلاقي الهجرات ومحركها الرئيس بعد أن ساد ركود طويل في منطقة الجزيرة تلا هجمات المغول على المنطقة.

2. شكل قيام الدولة السعودية ذات المعتقد الوهابي موجة من هجرات القبائل إلى منطقة الجزيرة السورية، فقد كان سبب هجرة هذه القبائل إما أنها رفضت الوهابية مذهباً دينياً برتبة دين جديد، أو بسبب تضرر مصالحها ومصادر رزقها حيث ضيقت الوهابية على القبائل التي كانت تقطن منطقة الحجاز بقطع طرق الحج، وموالاتهم الأشراف الهاشميين.

3. حملت هجرات الأرمن المتتالية التغيير في طرائق الإنتاج وسلسلة النشاط الاقتصادي، لا سيما في ظل تعايش الأرمن مع سكان الجزيرة، ما شجع على النشاط التجاري والاقتصادي، فانعكس ذلك إيجاباً على الجميع.

4. لقد مثلت هجرات السريان والأشوريين القادمين من العراق وتركيا إلى الجزيرة السورية رحلة بحث عن الذات؛ لأنهم وجدوا أنفسهم مبعثرين في ظل تقاسم الدول وتنفيذ مصالحها في المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، وفي مرحلة شهدت قيام كيانات جديدة، فما كان منهم إلا أن وجدوا لأنفسهم

(39) حسن عبد الله الخلف، من مشروع Library Of Stories، مكتبة برلين المركزية ومكتبة الولاية، 14 ديسمبر / كانون الأول، 2016.

<https://vimeo.com/195652485>

هوية وجودية أمام هذا التحدي التاريخي، وقد أسهم السريان بدور كبير في التطور العمراني والزراعي الذي حدث في الجزيرة السورية، إضافة إلى نشاطهم في ميدان التعليم وبناء المؤسسات التعليمية والثقافية التي أغلقت لاحقاً من قبل سلطة البعث.

5. استطاعت فرنسا توظيف التنوع والاختلاف الإثني في منطقة الجزيرة بعد أن شجعت الهجرات إليها، وسهلت من تعزيز وجودها في سورية بوصفها دولة منتدبة، وتعزيز تحالفها مع شيوخ القبائل العربية في المنطقة؛ لأنها كانت تفكر في المحافظة على نفوذها في هذه المنطقة في حال اضطرت إلى الخروج من سورية، إلا أنها لم تحقق غاياتها كما خططت، وخرجت من الجزيرة السورية كما خرجت من سورية.

6. أحدثت الهجرات الكردية المتتالية إلى الجزيرة ثقلًا قوميًا، بعد أن شجعت فرنسا ذلك كحال بقية أشكال الهجرات، وسهلت حصولهم على الجنسية السورية بوصفهم مواطنين، إلا أن خروج فرنسا جعل الحكومات السورية المتعاقبة تتوجس ريبة من الجزيرة السورية، لا سيما من المكون الكردي، فاتبعت سلسلة سياسات فحواها التشكيك في وطنية الأكراد، ما خلق مناخًا سادته شيء من غياب الثقة، وكانت أبرز تلك السياسات تجريد عدد كبير من الأكراد من الجنسية السورية في الإحصاء الذي جرى عام 1962، وصادق عليه حزب البعث، ونفذه فور وصوله إلى السلطة.

7. خلقت أزمة الغمر مشكلة نوستالجية جماعية عند المغمورين، رافقت سكان المنطقة ممن هجر إلى الجزيرة أو غيرها، فعاشوا على ذكريات الماضي التي لا يمكن أن تعود إلا من خلال الروايات التي يروونها من شهد المأساة وعاشوها.

المصادر والمراجع

1. الأتاسي. نشوان، تطور المجتمع السوري -1831 2011م، ط1، (بيروت: منشورات دار أطلس، 2015).
2. ألكسان. جان، رواية النهر، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1979).
3. باروت. محمد جمال، التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ط1، (بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
4. الخليل. إبراهيم، رواية سودوم سباق الإوز البري، ط1، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2004).
5. الرافعي. عبد الرحمن، عصر محمد علي، ط5، (القاهرة: دار المعارف، 1989).
6. زرزور. فارس، رواية آن له أن ينصاع، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1980).
7. العارف. أسامة عارف، هات العمر من الأول، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2014).
8. عباس. موسى رحوم، رواية بيلان، ط1، (بيروت: دار بيسان للنشر، 2011).
9. العجيلي. عبد السلام، رواية المغمورون، طبعة خاصة، (بيروت: دار الشرق، 1984).
10. غورغاس. جوردي، الحركة الكردية التركية في المنفى، ط1، (بيروت: منشورات دار الفارابي، 2013).
11. مجموعة من المؤلفين، العالم بعدساتهم: أولى الصور الفوتوغرافية 1842-1896، ط1، (أبو ظبي: منشورات دار الثقافة والسياحة، د.ت).
12. مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سورية: الواقع، التاريخ، الأسطورة، ط2، (بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018).
13. محمد رمضان. تركي، رواية برج لينا، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية، 2006).
14. هلال. محمد طلب، دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية الاجتماعية السياسية، (الحسكة: منشورات مركز عامودا للثقافة الكردية، 2003).



آثار اتفاقية سايكس بيكو وتوابعها في رسم حدود الجزيرة السورية

عبد الباسط سيدا⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

كانت الجغرافية السورية على مر العصور ساحة الصراع بين القوى الإقليمية والدولية التي سعت للسيطرة عليها، والتحكّم بها بوصفها ممراً استراتيجياً متقدماً للوصول إلى المناطق المستهدفة، وميداناً دفاعياً للحد من الهجمات المحتملة. فسورية بحكم موقعها كنقطة وصل بين القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ كانت معبراً لحملات جيوش العالم القديم المتبادلة، وأقيمت على أرضها التحصينات والمدن التي استخدمت قلاعاً ومراكز عسكرية استطلاعية ودفاعية، إلى جانب مراكز تموين الجيوش واستراحاتها، لتتمكن من متابعة سيرها، وتنفيذ الخطط المكلفة بها.

فقد شهدت سورية حملات الأشوريين والحثيين والمصريين واليونان والرومان؛ ومن ثم جاء الجيش العربي الإسلامي، وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية التي أسقطها العباسيون، لتصبح بغداد لاحقاً تابعة للعثمانيين على مدى أربعة قرون، حتى تمكن الحلفاء من الانتصار في الحرب العالمية الأولى 1918، وقسموا سورية الطبيعية، وشكلوا كيانات سياسية جديدة، كانت الدولة السورية الحديثة واحدة منها، هذه الدولة التي أُسست عام 1920 بعد الحرب العالمية الأولى؛ وحصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية 17 نيسان / أبريل 1946.

وقد أدت تلك الحملات والصراعات كلها، فضلاً عن الهجرات التي كانت من سورية وإليها؛ إلى تنوع مجتمعي لافت، يتمثل اليوم في واقع التنوع الديني والمذهبي والقومي الذي تتسم به مختلف المناطق السورية، لا سيما منطقة الجزيرة التي تعرف أيضاً بالمنطقة الشمالية الشرقية، وباتت تسمى راهناً في وثائق القوى التي تتصارع عليها، وعلى سورية بصورة عامة، منطقة شرق الفرات.

سنحاول من خلال هذه الورقة تسليط الضوء على الاتفاقات والصفقات التي سبقت الحرب

(1) عضو هيئة التحرير في مجلة قلمون.

العالمية الأولى وعقبها الخاصة برسم حدود سورية الدولة الحديثة التي شهدت النور بعد الحرب العالمية الأولى 1914-1918. سنتناول اتفاقية سايكس بيكو 1916 على وجه التحديد، ولكنها كانت الاتفاقية التي حددت الإطار العام. أما التفصيلات الخاصة برسم الحدود التي تبلورت لاحقاً، فقد كانت نتيجة الاتفاقات الفرعية التي تمت بين كل من فرنسا وتركيا من ناحية، وفرنسا وبريطانيا من ناحية ثانية، لترسيم الحدود الشمالية والشرقية لسورية بصورة خاصة، وهي الحدود نفسها التي شكلت ملامح منطقة الجزيرة السورية. سنحاول الاختصار قدر الامكان. أما التفاصيل فيمكن العودة إليها من قبل المهتمين في المراجع المتخصصة التي سنشير إلى قسم منها.

ثانياً: اتفاقية سايكس بيكو نيسان/ أبريل - أيار/ مايو 1916

كانت اتفاقية سايكس بيكو السرية (الاتفاقية الانغلو فرنسية الروسية وفق اسمها الرسمي) بين كل من بريطانيا وفرنسا، ومن ثم روسيا التي انضمت إليهما لاحقاً، تجسيدا لتقاطع المصالح بينهما. فقد اتفقت هذه الأطراف على تقاسم المناطق التي كانت خاضعة أو تابعة للدولة العثمانية⁽²⁾.

وكان الاهتمام البريطاني متمحوراً بصورة أساس حول تأمين طريق الهند، لذلك كان التركيز على مصر وقناة السويس، والقسم الجنوبي من العراق، إضافة إلى الإمارات والمشيخات التي كانت في منطقة الخليج، فضلاً عن فلسطين وشرقي الأردن، وذلك بعد أن كان وزير خارجية بريطانيا آرثر جيمس بلفور 1848-1930 قد منح المنظمة الصهيونية العالمية وعده الشهير القاضي بإنشاء وطني قومي لليهود في فلسطين، على ألا يؤدي ذلك إلى إلحاق الأذى بالسكان المحليين⁽³⁾.

أما فرنسا فقد كانت تركز على الساحل السوري بالدرجة الأولى إضافة إلى المناطق الشمالية من سورية، لذلك خصصت لها المنطقة الزرقاء التي كان من المفروض أن تخضع لها بصورة مباشرة بموجب اتفاقية سايكس بيكو، وكانت ((تتضمن على الساحل السوري من صور إلى طوروس، بما في ذلك جبل لبنان، ثم تنحرف شمالاً شرقاً لتضمن مجرى الفرات الأعلى وقرابة نصف كردستان وأرمينيا، بالإضافة إلى ديار بكر وخربوت وكيليكية، وصولاً إلى سيفاس))⁽⁴⁾، إضافة إلى نفوذها في

(2) كشف عنها المفوض الروسي للشؤون الخارجية ليون تولستوي بعد سيطرة الشيوعيين على الحكم في روسيا في أثناء الحرب العالمية الأولى. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أندرياس نول/ م. أ. م، موقع دويتشه فيله، (2016-5-9). <https://2u.pw/Yk47D>

(3) البرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، كمال خولي (مترجماً)، أنطون ب. نوفل (محققاً)، ط2، (لبروت: دن، 2002)، ص 400.

(4) ادمون خياط، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، حسن قببسي (مترجماً)، جورج كتوره (معداً)، ج1، (بيروت:

المنطقة العربية (أ) التي كانت تضم ولايات حلب ودمشق والموصل⁽⁵⁾.

ومع أن فرنسا كانت قد حصلت بموجب اتفاقية سايكس بيكو⁽⁶⁾ على ولاية الموصل، إلا أنها كانت على معرفة بالأطماع البريطانية في المنطقة بسبب النفط، وتعمل عبر المباحثات الفرعية مع الجانب التركي من أجل الحصول على المستطاع مما كانت تتطلع إليه.

ومن الجدير بالإشارة في هذا السياق إلى أن البريطانيين كانوا قد أقاموا صلات وثيقة مع الشريف حسين قبل الاتفاقية المعنية وبعدها، وذلك في سبيل استمالته إلى جانبهم، مقابل وعد بمساعدة العرب من أجل تأسيس دولتهم المستقلة غير الخاضعة للعثمانيين⁽⁷⁾. وكان من الواضح أن خطتهم تستهدف المصادرة على إمكان لجوء السلطات العثمانية إلى فتوى الجهاد لمواجهة الأطماع الغربية، وهي فتوى كان من شأنها تحريك المسلمين في مختلف الأنحاء، بما في ذلك الهند وأندونيسيا، فضلاً عن شعوب المنطقة، وهو الأمر الذي كانت بريطانيا تتوجس منه كثيرًا. لذلك ركزت على استراتيجية دغدغة المشاعر القومية العربية، وشجعت الشريف حسين وأبناءه على تبني مطلب الدولة القومية المستقلة للعرب⁽⁸⁾.

أما اختيار الشريف حسين تحديداً، فقد كان لاعتبارات رمزية مهمة من وجهة النظر البريطانية. فقد كان يحكم من مكة التي لها قدسية خاصة لدى سائر المسلمين. وهذا فحواه، وفق الحسابات البريطانية، أن فتوى السلطان العثماني ستكون ضعيفة التأثير في حال صدورها، ولن تؤدي إلى تغيير نوعي في المصير شبه المحتوم الذي كان ينتظر الدولة العثمانية التي كانت تحت وطأة حال إنهاك وتقلص، وتمثل ذلك في خسارتها المناطق معظمها التي كانت تسيطر عليها في أوروبا، وحتى في شمالي أفريقيا ومصر. ولم يكن قد بقي لها عملياً سوى شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق.

منشورات الجامعة اللبنانية (2002)، ص، 441.

(5) ادمون خياط، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ص 441.

(6) The Editors of Encyclopaedia Britannica, Sykes- Picot Agreement, <https://www.britannica.com/event/Sykes-Picot-Agreement>

(7) حول هذا الموضوع راجع: نجاة قصاب حسن، صانعو الجلاء، ط2، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2003)، ص266-267.

(8) حول هذا الموضوع راجع:

Lawrence, T. E., Arabien: Hemliga Rapporter-Underrättelosedepescher juni 1916-december 1918 och andra texter, Översättning av Erik Carlquist, Förord av Jan Hjärpe, (Riga, Lettland: SIA Alma Pluss, h: ström-Text & Kultur, 2006), s. 13.

أما من جانب الشريف حسين، فقد كانت الدعوة إلى استقلال العرب ووحدتهم وسيلة لتحقيق ما كان يصبو إليه. فقد كان هدفه الرئيس تقوية موقعه ونفوذه في مواجهة خصمة عبدالعزيز آل سعود الذي كان ينافسه على زعامة شبه الجزيرة العربية⁽⁹⁾. ولكن حدود طموحه وطموح أبنائه كانت تتجاوز شبه الجزيرة العربية لتشمل بلاد الشام والعراق أيضاً. وكانت هذه الدعوة تحقق له تمايزاً أيديولوجياً من الدولة العثمانية التي كانت تحكم باسم الإسلام، إن صح التعبير.

فالدعوة إلى وحدة الوطن واستقلاله كان من شأنها مغازلة المشاعر القومية العربية، وإيجاد المسوغات التي تشرعن وقوفه في وجه الدولة العثمانية، وإعلانه الحرب عليها على الرغم من طابعها الإسلامي. وما عزز هذا التوجه تمثل في هيمنة النزعة القومية على الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة، إذ أخذت منعي تركياً تحت تأثير جماعة الاتحاد والترقي التي فرضت على السلطان عبدالحميد شروطها، وذلك بعد أن كانت الإمبراطورية المترامية الأطراف تحترم خصوصيات سائر المكونات القومية والدينية والمذهبية، مقابل التزامها بقواعد التبعية للسلطة العثمانية.

وهكذا تقاطعت مصالح الشريف حسين وأبنائه مع مصالح البريطانيين، وتم التوافق على اتخاذ الفكرة القومية وسيلة لتعبئة السكان ضد السلطة الحاملة للواء الإسلام.

ومع وصول الجيش البريطاني إلى فلسطين، ومن ثم الأردن، دخل فيصل على رأس قوة من رجاله وبرفقة لورانس العرب إلى دمشق مع البريطانيين بقيادة اللبي، ليتأسس الحكومة العسكرية التي عينها اللبي، ثم يُعلن ملكاً على سوريا الكبرى التي كانت تشمل سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين. ويبدو أن البريطانيين لم يكونوا بعيدين عن الموضوع، وذلك في إطار سياستهم التنافسية مع فرنسا⁽¹⁰⁾.

(9) المرجع السابق نفسه، ص 13.

(10) حول هذا الموضوع راجع:

نجا قصاب حسن، صانعو الجلاء، ص 277-288.

ثالثاً: مؤتمر الصلح بباريس 1919 وتوافقات ما بعد سايكس بيكو

دخل فيصل إلى دمشق، كما أسلفنا، عام 1918 بمشروع دولة⁽¹¹⁾، فأسس برلماناً وجيشاً، وبدأ يمارس صلاحيات الحاكم الفعلي للبلد وسط صمت، بل تشجيع بريطاني، وامتعاض فرنسي. وكان الجميع في انتظار نتائج مؤتمر الصلح الذي امتدت أعماله بباريس بين 18 كانون الثاني/يناير و21 كانون الثاني/يناير 1920. وقد تميز بحضور دولي لافت تمثل بصورة خاصة في مشاركة الولايات المتحدة الأميركية إلى جانب كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان.

في هذا المؤتمر طالب الأمير فيصل بالدولة العربية التي كان قد وُعد بها من جانب الحلفاء، خاصة من جانب بريطانيا. ولكن كان من الواضح أن هناك ماطلة من جانب كل من فرنسا وبريطانيا. ففرنسا كان تنتظر الحصول على ولاية الموصل، أو على جزء منها، في حين إن البريطانيين كانوا يدركون أهمية نفط الموصل، لذلك لم يكن في حسابهم التخلي عن الموصل. وقد قدم كل طرف حججه في هذا المجال، فبينما رأى الإنكليز ضرورة أخذ وضع الكرد بالحسبان، ركز الفرنسيون على مطالب الكلدان والأشوريين، وذلك في سعي كل جانب لتعزيز موقعه. واستمر الخلاف الفرنسي البريطاني حول الموضوع الذي رُحل إلى مؤتمر سان ريمو 1920.

إلا أن ما حصل قبل مؤتمر سان ريمو تتويج فيصل ملكاً على سورية الطبيعية من قبل المؤتمر السوري العام في الثامن من آذار/مارس 1920، وذلك في محاولة استباقية كان الهدف منها قطع الطريق على خطط الحلفاء التي كان تنص على تقسيم سورية والعراق بين مناطق نفوذ، وأخرى خاضعة بصورة مباشرة لكل من فرنسا وبريطانيا⁽¹²⁾.

ولكن بعد التوافقات التي كانت بين فرنسا وبريطانيا في مؤتمر سان ريمو 19-25 نيسان/أبريل

(11) الجدير بالذكر هنا أن زعماء بعض العشائر التي كانت موجودة في ذلك الحين في سورية دخلوا مع الأمير فيصل، ومن هؤلاء نوري الشعلان رئيس عشائر عزة الرولة، وشيخ عشيرة الحسنة طراد الملحم. وقد عكس ذلك أهمية الدور العشائري في الوضع السوري، خاصة في منطقة الجزيرة، الأمر الذي تنبه له الفرنسيون في ما بعد، وحاولوا استمالة العشائر إلى جانبهم لتعزيز سلطتهم في منطقة الجزيرة، وقطع الطريق على محاولة مصطفى كمال الذي كان يشجع قسم من العشائر العربية والكردية للثورة على الحكم الفرنسي. للمزيد حول هذا الموضوع راجع:

داون تشاني، «القبائل والقبلية والهوية السياسية في سورية المعاصرة»، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع: 15، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد الدوحة للدراسات العليا، 2016)، ص 85-87.

(12) Ingmar Karlsson, Roten till Det Onda, s. 86-87.

للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، «المؤتمر السوري العام (1919-1920): الدستور السوري الأول: السياق، الطبيعة والوظائف، المراحل والقضايا»، تبين للدراسات الفلسفية والنظرية النقدية، مج: 1، ع: 3، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 23-48.

1920، خاصة حول موضوع ولاية الموصل التي أصرت بريطانيا على ضمها إلى منطقتها، مقابل استفادة فرنسية من حصّة محددة من نفطها⁽¹³⁾؛ أصبحت الطريق مفتوحة أمام فرنسا للدخول إلى سورية، والسيطرة عليها باسم مهمة الانتداب التي حصلت عليها من عصبة الأمم؛ مع أن السوريين كانوا يرفضون وفق النتائج التي توصلت إليها لجنة كينغ كراين انتداباً فرنسياً⁽¹⁴⁾. ولكن التوافقات الدولية، وهي توافقات كانت تستند أساساً إلى اتفاقية سايكس بيكو 1916، رست على تسليم سورية للفرنسيين الذين دخلوها عسكرياً بقيادة الجنرال غورو، بعد أن أرسل هذا الأخير إنذاره الشهير إلى الحكومة السورية بقيادة الملك فيصل⁽¹⁵⁾.

والجدير بالذكر هنا أن فيصل أراد التعامل بإيجابية مع ذلك الإنذار، والقبول بشروطه. وذلك حقناً للدماء بناء على تسويغه في ذلك الحين، أو على الأغلب بموجب نصيحة البريطانيين الذين ربما كانوا قد وعدوه بالعراق. إلا أن وزير دفاعه، ومجموعة من الضباط السوريين الذين كانوا سابقاً ضباطاً في الجيش العثماني، ارتأوا ضرورة عدم الخنوع للإنذار المذكور، وقرروا مواجهة الجيش الفرنسي على الرغم من الفارق الكبير في العدد والعدة. وكانت موقعة ميسلون التي استشهد فيها يوسف العظمة وزير الدفاع⁽¹⁶⁾ ومجموعة من الضباط السوريين؛ ودخل غورو في إثرها إلى دمشق.

ركزت فرنسا على الأقليات المسيحية، الكاثوليكية خاصة، في لبنان. وعمدت إلى الفصل بين سورية ولبنان، ومن ثم أنشأت دولة للعلويين في الساحل، وأخرى للدروز في منطقة السويداء⁽¹⁷⁾. ولم تشأ أن تشكل دولة واحدة للعرب السنة، بل أوجدت دولتين هما دولة حلب ودولة دمشق، وذلك لتشجيع

(13) حول هذا الموضوع وأهم قرارات مؤتمر سان ريمو راجع: <https://2u.pw/H6z5w> وأيضاً:

The Editors of Encyclopaedia Britannica

<https://www.britannica.com/event/Conference-of-San-Remo>

والأمر الجدير بالذكر هنا هو أن هذا المؤتمر عُقد امتداداً لمؤتمر لندن 1920-2-13، إذ استند إلى ما تم التوصل إليه من توافقات بين كل من بريطانيا وفرنسا بخصوص تحديد مناطق الانتداب والنفوذ لكل دولة. حول هذا الموضوع راجع: <https://2u.pw/IJ1jW>

(14) رغداء زيدان، «لجنة كينغ كراين ومطالب الوحدة والاستقلال»، موقع السورية نت، <https://2u.pw/XXBpw>

(15) راجع حول هذا الموضوع:

Ingmar Karlsson, Roten till det Onda, s. 88–89.

نجاة قصاب حسن، المرجع نفسه، ص 313-315.

(16) المرجع نفسه، ص 35-39.

(17) للاطلاع على أبعاد وتفاصيل السياسة الفرنسية في ميدان التعامل مع مسائل الطوائف الدينية والمذهبية في سورية إبان مرحلة الانتداب راجع: كمال ديب، تاريخ سورية المعاصر، ط3، (بيروت: دار النهار للنشر، 2013)، ص 37-81.

المزاجية المناطقية أو الجهوية. وأخضعت منطقة الجزيرة لحكمها المباشر⁽¹⁸⁾.

رابعاً: الصراع على منطقة الجزيرة

منطقة الجزيرة بحدودها الحالية تنقسم إلى قسمين: القسم العلوي أو الشمالي أو الجزيرة العليا، والقسم السفلي أو الجنوبي أو الجزيرة السفلى. كانت الجزيرة العليا خاضعة منذ أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد لسلطة الحوريين ومن بعدهم الميتانيين الذين كانوا يخضعون من جهتهم للنفوذ الحي في الشمال بصورة عامة على الرغم من أنهم كانوا في مراحل معينة يقيمون العلاقات مع المصريين، أو مع الرافديين، وذلك ضمن إطار لعبة التوازنات، التي كانت مشابهة إلى حد كبير ما هو عليه الحال راهناً.

أما الجزيرة السفلى فقد تميزت منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد بالوجود الآرامي الذي كان في حال تفاعل مع بلاد ما بين النهرين في حالات السلم والحرب وعلى مستوى التمازج الحضاري والثقافي. وهناك معطيات تاريخية كثيرة اكتشفت في أماكن عدة خاصة في تل موزان وتل حلف وماري وتل براك وتل ليلان وغيرها من المواقع، تؤكد الصلات الحضارية التي كانت بين منطقة الجزيرة بصورة عامة وبلاد ما بين النهرين وبلاد الحثيين، وكانت المنطقة تتعرض من حين إلى آخر للهجمات من قبل الدول المجاورة هناك⁽¹⁹⁾.

وبصورة عامة لا يختلف تاريخ الجزيرة عن مجمل التاريخ السوري. فقد كانت هي الأخرى معبراً وساحة لمختلف القوى المتنافسة والمتصارعة عبر مختلف المراحل التاريخية. فقد شهدت منطقة الجزيرة وجود اليونانيين، ومن ثم الرومان، وكان الحكم الإسلامي بمراحله المختلفة. وتعرضت لحملة وحشية من جانب المغول، حملة دمرت عمرانها، وفتكت بناسها، وتحولت إلى بركة شبة خالية، ثم أصبحت ميداناً للتنافس بين الدولتين الفارسية والعثمانية، إلى أن أصبحت تابعة للعثمانيين.

(18) للمزيد حول هذا الموضوع راجع:

محمد جمال باروت: التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، أسئلة وأشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 130-136.

(19) للمزيد حول هذا الموضوع راجع:

- جرنوت فيلهلم، الحوريون- تاريخهم وحضارتهم، فاروق إسماعيل (مترجماً ومعلّفاً)، ط1، (حلب: دار جدل، 2000).

- محمد حرب فرزات وعيد مرعي، دول وحضارات الشرق العربي القديم، ط2، (دمشق: دار طلاس، 1994).

خضعت منطقة الجزيرة الفراتية بقسمها السوري لسلطة العثمانيين في 24 آب/ أغسطس 1516 بعد انتصار السلطان سليم على زعيم المماليك قانصو الغوري في مرج دابق، ثم اكتملت السيطرة العثمانية على كل الجزيرة الفراتية عام 1535 بعد السيطرة على العراق في عهد السلطان سليمان القانوني.

لقد ركز العثمانيون على منطقة الجزيرة، وحاولوا ضبط الأمور فيها، وذلك لأسباب عدة في مقدمتها أن المنطقة كانت متاخمة للعراق، وكانت تمثل نقطة مهمة لدعم الوجود العثماني هناك، وذلك لقطع الطريق على مطامع الدولة الفارسية ورغبتها في السيطرة على بغداد. كانت العشائر العربية والكردية في المنطقة تمثل تحدياً أمنياً في المستويات المختلفة للدولة العثمانية، لذلك بُذل الجهد من أجل تنظيم الأمور الإدارية في المنطقة الواسعة التي تزيد مساحة قسمها السوري اليوم عن 76 ألف كيلومتر مربع. وفي هذا السياق أعلنت الرقة في التشكيلات العثمانية التي صدرت عام 1566 إيالة/ ولاية، وهي التشكيلات التي تضمنت إعلان بغداد إيالة كذلك. ولكن في الواقع العملي ظلت الرقة باستمرار تابعة لولاية أخرى. وكانت هذه الإيالة (إيالة الرقة) تشمل مناطق أورفة وبيره جك ودير الرحبة/ دير الزور والخابور، وبني ربيعة في أعلى الجزيرة وسروج وعانه، ولكن الوالي كان يقيم في الرها/ أورفا، وكان يُسمى والي الرقة وأورفا. وفي ما بعد أصبحت الرقة تابعة لوالي حلب الذي كان يُسمى والي حلب والرقة، وأحياناً كان تابعة لولاية ديار بكر.

وكانت السياسة العثمانية في ميدان التعامل مع العشائر تقوم على تحصيل الضرائب المتفق عليها، مقابل الاعتراف بحرية تصرف كل زعيم بالعشيرة الخاصة به. ولكن حينما كانت الأمور تتجاوز الحدود المسموح بها، كانت الدولة تتدخل من خلال ولايتها، أو حتى من خلال شيوخ القبائل المنافسين، كما حصل مع خليف من شيوخ العنزة الذي تم التخلص منه من خلال التعاون بين والي بغداد والشيخ جربا من عشيرة شمر⁽²⁰⁾.

أما بالنسبة إلى دير الزور فقد كانت بلدة صغيرة على نهر الفرات، اهتم بها العثمانيون لقربها من العراق، وثم انتعشت أكثر بفعل القوافل التي كانت تتحرك بين حلب وبغداد. ولكن حينما سيطر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا على المنطقة ما بين 1831-1840 أصبحت كل من دير الزور والرقة تابعتين لسنجق حماة، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما عاد العثمانيون إلى المنطقة، وحاولوا ضبط الأمور فيها. وكانت المنطقة تضم مجموعة من العشائر العربية المعروفة حتى الآن مثل: العنزة والشمر، والجبور، وطى، والبوشعبان، وعقيدات، وبقارة، وموالي، وحديدون،

(20) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالقادر عياش، حضارة والدي الفرات: مدن فراتية، القسم السوري، وليد مشوح (معداً)، ط1، (دمشق: دار الأهالي للطباعة والنشر 1989)، ص 320-325.

ولهيب، وكيار، وبنو خميس، وبنو سعد، وغيرهم.⁽²¹⁾ أما من الناحية الإدارية فقد كانت الجزيرة العليا مرتبطة بولاية ماردين في حين إن الرقة كانت مرتبطة بولاية حلب. أما دير الزور فقد أصبحت متصرفية تابعة للباب العالي مباشرة. شهدت المناطق الشمالية من الجزيرة استقراراً زراعياً نسبياً، ووجود أنصاف البدو. في حين إن المناطق الجنوبية كانت في معظمها بادية، ما عدا الرقة ودير الزور والحسكة، وذلك بفضل نهري الفرات والخابور، فقد كانت المنطقة ساحة تحرك لقبائل البدو التي هاجرت إليها لأسباب شتى. وقد أدت هذه الوضعية في كثير من الأحيان إلى حدوث مصادمات بين البدو الرحل والمستقرين، وهذه كانت مشكلة عامة تعاملت معها الدولة العثمانية بالقوة أحياناً، وبالسباسبية أحياناً أخرى. ويتناول الكولونيل الإنكليزي مارك سايكس 1879-1919م في الجزء الثاني من كتابه: ميراث الخلفاء الأخير⁽²²⁾ كثيراً من المعلومات التي حصل عليها من خلال أحاديثه ومشاهداته في منطقة الجزيرة التي زارها في أوائل القرن العشرين، وهي المعلومات التي أدت إلى بلورة نظريته حول طبيعة المنطقة من ناحية طبيعة التحديات المجتمعية والاقتصادية والأمنية التي تواجهها، وربما أسهمت هذه المعلومات بصورة غير مباشرة في تحديد ملامح خريطة التقسيم التي وضعها مع زميله الفرنسي جورج بيكو بعد نحو عشر سنوات من زيارته منطقة الجزيرة⁽²³⁾. في هذا الكتاب يتحدث سايكس عن القبائل العربية والكردية التي سمع عنها، والتقى بعدد من زعمائها، مثل المليية والولدة والعنزة والكيكية والشمر والطي والعدوان، ومما يذكره في هذا المجال هو أن الدولة العثمانية كانت تعتمد أسلوب نقل القبائل والمجموعات السكانية من منطقة إلى أخرى بفعل الحروب أو حالات التمرد التي كانت تحصل. فالمنطقة كانت قليلة السكان، وقادرة على الاستيعاب، خاصة بعد المجازر وحملات التدمير والتهجير التي تعرضت لها من قبل المغول. ويشار هنا إلى دخول الشيشان إلى منطقة رأس العين وقرية سفح في إثر الحرب العثمانية الروسية في منتصف القرن التاسع عشر. وكذلك دخول الأرمن نتيجة حملات الاضطهاد والمجازر التي تعرضوا لها، وكذلك وصول القبائل العربية من منطقة نجد نتيجة الأحوال الطبيعية والحروب، والأمر ذاته بالنسبة إلى الكرد الذين توجهوا نحو الجنوب نتيجة الحروب التي كانت الدولة العثمانية تشنها عليهم بين آن وآخر. ويتوقف سايكس عند تجربة إبراهيم باشا الملي الذي تمتع بنفوذ واسع في المنطقة، وتمكن إنشاء اتحاد قبلي إذا صح التعبير جمع

(21) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالقادر عياش، حضارة والدي الفرات: مدن فراتية....، ص 151.

(22) ((يتألف كتاب سايكس من جزأين يحوي كل منهما عدة فصول: في الجزء الأول يعرض سايكس وبشكل مختصر تاريخ المنطقة والإمبراطوريات والممالك التي حكمها منذ القدم وحتى الفترة العثمانية. أما في الجزء الثاني فيعرض فيه معلومات عن الجزيرة والعراق والأناضول وكردستان وسوريا)) نضال درويش، الجزيرة الفراتية في مطلع القرن العشرين من كتاب: مارك سايكس «ميراث الخلفاء الأخير»، ج 1، موقع مدارات كرد، تاريخ 2020-11-22.

<https://2u.pw/nF9QW>

(23) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: نضال درويش، الجزيرة الفراتية في مطلع القرن العشرين.

بين الكرد والعرب والأرمن والكلدان، وكان على علاقة جيدة مع الشيشان.

ومن الشهادات الأخرى اللافتة في هذا المجال شهادة الرحالة الدانماركي كارستن نيبور الذي مرّ من منطقة الجزيرة في عام 1764م، (أي قبل رحلة سايكس بنحو أربعين عامًا) وتحدث عن عدة قبائل كانت تسكن في منطقة الجزيرة في ذلك الحين، وتدفع الضريبة لوالي ماردين، وهذه القبائل هي: الكيكية والملية والدقورية والأشيتية والشيخان وهي قبائل كردية كانت تسكن في القسم الشمالي من الجزيرة، وقبيلة طي العربية التي كانت تسكن في القسم الجنوبي⁽²⁴⁾.

ولم يقتصر الاهتمام بمنطقة الجزيرة على الإنكليز وحدهم، بل اهتم بها الألمان أيضًا، وهذا ما نستشفه من رحلات عالم الآثار ورجل الاستخبارات الألماني البارون فون أوبنهايم الذي زار منطقة الجزيرة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وله دور بارز في اكتشاف آثار تل حلف. وأقام العلاقات مع البدو وزعماء العشائر في المنطقة، والتقى بإبراهيم باشا المي، وأعجب بتجربته وسياساته في ميدان فرض الأمن وإقامة العلاقات مع مختلف المكونات السكانية، وتحويله (ويران شهر) من منطقة مهجورة مجهولة إلى منطقة عامرة جذبت التجار المسلمين والمسيحيين. وتمكن بفضل الأسلحة التي حصل عليها من الجانب العثماني، وبفضل ((حنكته السياسية من السيطرة وبشكل تدريجي على كامل المنطقة الواقعة بين الخابور والبليخ من نهر الفرات جنوبًا إلى حواف الجبال شمالًا. حتى سكان ماردين وأورفا كانوا يخشون منه بالرغم من وجود الحاميات العسكرية العثمانية هناك))⁽²⁵⁾.

استمر العثمانيون في حكم المنطقة إلى عام 1918، وهو العام الذي انسحبت فيه قواتهم من دير الزور، وشهدت المدينة بعد ذلك مرحلة من الفوضى والتداخل. فالأهالي من ناحيتهم شكلوا حكومة داخلية لتنظيم الأمور داخل المدينة، ولكن في الوقت ذاته جاء إليها مرعي باشا من حلب مفوضًا من الحكومة الفيصلية العربية، ودخلت قوة بريطانيا إلى المدينة في 11.01.1919.

(24) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: نضال درويش، المرجع نفسه.

و: نيبور، كارستن، رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلدان أخرى مجاورة لها، عبير المنذر (مترجمة)، ج 2، ط 1، (بيروت: 2007).

(25) نضال درويش، «تل حلف والجزيرة من خلال مشاهدات البارون فون أوبنهايم 1860-1946»، موقع مدارات كرد، (2020.30.06).

<https://2u.pw/MBBrAs>

خامساً: الجزيرة السورية في ظل الانتداب الفرنسي

عُدَّت منطقة الجزيرة السورية التي تعرف حالياً بمنطقة شرق الفرات، كما أسلفنا، بموجب اتفاقية سايكس بيكو جزءاً من المنطقة (أ)، وهي المنطقة التي كانت تشمل مدناً وبلدات عدة عُدَّت بموجب الاتفاقيات اللاحقة تابعة لتركيا. وكان من المفروض أن تمتد لتشمل ولاية الموصل التي احتفظت بها بريطانيا. وقد أخضعتها فرنسا لحكمها المباشر، في حين إن الملك فيصل كان يعد (منطقة الجزيرة السورية) جزءاً من الدولة العربية التي وعده بها البريطانيون، وكان من المفروض أن تشمل، سورية الطبيعية ما عدا حيفا وعكا، والعراق ما عدا منطقة الجنوب، كما هو معروف.

وبناء على ذلك، كان أنصار فيصل، وأولئك الذين عُيِّنوا في إدارته، يسعون إلى ربط المنطقة بولاية حلب، ويعتمدون في ذلك على بعض العشائر والزعامات المحلية سواء في الرقة أم في دير الزور، حتى قيل إن العاصمة الروحية لحكومة فيصل كانت الرقة وليست دمشق⁽²⁶⁾. دخل البريطانيون من ناحيتهم، كما أسلفنا، إلى دير الزور في محاولة لقطع الطريق على بعض الضباط العراقيين، ممن كانوا في صفوف قوات فيصل، والذين كان يريدون اتخاذها قاعدة لمقاومة الاحتلال البريطاني للعراق، وربما فكر الإنكليز بضمها إلى منطقة حكمهم في العراق⁽²⁷⁾. ولكن نتيجة مقاومة السكان، والتوافقات مع الفرنسيين، خرجت القوة البريطانية من المدينة في 21.12.1919، لتدخل إليها فرنسا لاحقاً⁽²⁸⁾.

إلا أن الدخول الفرنسي إلى الجزيرة السورية لم يكن سهلاً، لأسباب عدة منها رفض السكان للحكم الأجنبي، واصرار زعماء العشائر على استمرارية السلطات التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم العثماني، وهو الأمر الذي استغله مطصفي كامل، وبنى بموجبه العلاقات مع العشائر العربية والكردية، ومدّها بالدعم المطلوب لمقاومة الفرنسيين.

بدأ مصطفى كمال بالتواصل مع عشائر المنطقة العربية منها والكردية، وشجعها على مقاومة سلطات الانتداب، وكان ذلك في سياق مساعيه الرامية إلى ممارسة الضغط على فرنسا لإرغامها على التنازل عن العديد من المناطق الممتدة على طول الحدود التي كانت اتفاقية سايكس بيكو قد رسمتها من جهة الشمال بالنسبة إلى الحدود التركية السورية، والضغط من أجل إعادة النظر في الشروط والخرائط التي كان الحلفاء قد فرضوها على الدولة العثمانية بموجب معاهدة سيفر⁽²⁹⁾ 1920؛ وذلك

(26) داون تشاني، «القبائل والقبلية والهوية السياسية في سورية المعاصرة»، ص 86.

(27) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبد القادر عياش، حضارة والدي الفرات: مدن فراتية، ص 152-153.

(28) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبد القادر عياش، ص 152.

(29) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، التكون التاريخي...، ص 116، وص 145-152.

بعد أن ثبتت مواقعه في الداخل التركي في إثر النجاح الذي حققه في مواجهة اليونان والحلفاء. وما ساعده على ذلك أكثر انسحاب روسيا من الحرب بعد الثورة الشيوعية عام 1917، ومن ثم تحولها إلى قوة غير معادية، لا تمارس الضغوط، بل تنسق معه إلى حد ما بدل أن تكون قوة معادية وضاغطة مع الحلفاء. وما دفع بزعماء العشائر المعنية إلى التجاوب مع خطط مصطفى كمال شعورهم بأن الحكم الفرنسي سيضع حدًا لاستقلاليتهم النسبية التي كانت الدولة العثمانية قد اعترفت بها سابقًا، وتوقعهم أن يستمر مصطفى كمال في السياسة نفسها.

فالعثمانيون كانوا على علاقة جيدة مع عشائر المنطقة، يعتمدون عليها في تأمين الطرقات، ويكلفونها بمهام محددة عند الحاجة. وكانوا قد أسسوا مدرسة لتعليم أبناء الزعامات العشائرية في إسطنبول⁽³⁰⁾ لإعدادهم من جهة المعارف والمهارات المطلوبة لتأهيلهم زعامات عشائرية في ما بعد، ولتعزيز مسألة إخلاصهم للدولة العثمانية. وعلى الأغلب استفاد مصطفى كمال من أرشيف تلك المدرسة، ووظفه في خدمة سياساته الجديدة.

أما فرنسا فقد توجهت هي الأخرى إلى اعتماد استراتيجية متعددة الجوانب لتأمين سيطرتها على المنطقة التي كانت ترى فيها منطقة واعدة زراعيًا، وكانت تتوقع استخراج النفط منها، وذلك لقربها من منطقة الموصل الغنية بالنفط.

فمن جهة، حاولت بناء الجسور مع زعماء بعض العشائر العربية والكردية في منطقة الفرات والجزيرة العليا، وقد حصل قسم من زعماء تلك العشائر الذين كانوا في موقع التنافس والخصوم مع زعماء آخرين من العشائر الأخرى، أو حتى ضمن العشيرة ذاتها، على الأموال والسلاح، وحصلوا على وعود بمنحهم السلطات المحلية من جانب الفرنسيين⁽³¹⁾ مقابل دعمهم الجهد الفرنسي الذي كان يرمي إلى السيطرة على المنطقة.

ومن جهة ثانية، كانت فرنسا تتبنى من جهة أخرى مهمة الدفاع عن المسيحيين، وتعمل بمختلف الطرق ليكونوا من المطالبين بحكمها على سورية عبر الانتداب. وكانت تلجأ من حين إلى آخر إلى استخدام القوة في مواجهة المناوئين لها سواء من العرب أم من الكرد⁽³²⁾.

وفي الوقت ذاته تتواصل مع الجانب التركي عبر حكومتي أنقرة وإسطنبول من أجل الوصول إلى

(30) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: داون تشاني، «القبائل والقبلية والهوية السياسية...»، ص 85.

(31) للمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، 127-138.

(32) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: داون تشاني، «القبائل والقبلية والهوية السياسية...»، ص 86-90.

حلول وسط يقبل بها الطرفان، وذلك كله كان على حساب السوريين بطبيعة الحال⁽³³⁾.

وفي الوقت ذاته كان الفرنسيون ينسقون مع البريطانيين على الرغم من التباينات، وذلك من أجل الوصول إلى عملية رسم الحدود بين كل من سوريا والعراق بعد التوافق على مسألة الموصل، وبعد الانسحاب البريطاني من دير الزور والتخلي عن مناطق الميادين والبوكمال وعشار وغيرها لصالح الانتداب الفرنسي على سورية⁽³⁴⁾.

وهكذا كان الجهد الميداني يوظف من قبل مختلف الأطراف (فرنسا، بريطانيا، تركيا) لتعزيز المواقع على مائدة المفاوضات، والمطالبة بإعادة النظر في بعض الاتفاقات، وتعديل بعض البنود فيها، أو التوافق على تنازلات متبادلة بما يضمن مصالح كل طرف. فالجانب التركي ممثلًا بمصطفى كمال لم يكن راضيًا عن معاهدة سيفر 10 آب / أغسطس 1920، خاصة تلك البنود التي كانت تنص على إمكان استقلال أرمينيا وكردستان⁽³⁵⁾. ويبدو أن البريطانيين من جهةهم غيروا رأيهم، ليركزوا على ولاية الموصل بهدف جعلها جزءًا من العراق الذي كان يدخل ضمن حصتهم بموجب اتفاقية سايكس بيكو، في حين إن فرنسا لم تكن هي الأخرى لحساباتها الخاصة متحمسة لها، لذلك استمرت الاتصالات بين مختلف الأطراف في باريس ولندن، وتم التوصل إلى اتفاقية فرانكلين بويون أو الاتفاقية التي عرفت باتفاقية أنقرة الأولى⁽³⁶⁾ 1921 التي مهدت الطريق أمام تفاهم تركي فرنسي حول رسم الحدود الشمالية لسورية، بعد التنازل عن مناطق واسعة قدرت مساحتها بنحو 18 ألف كيلو متر مربع كان ينبغي أن تكون جزءًا من سورية الحديثة، من بين هذه المناطق: (مرعش، عينتاب، كلس، أورفة، ماردين، نصيبين، جزيرة ابن عمر)⁽³⁷⁾. أما لواء إسكندرون فقد منح وضعًا خاصًا مع مراعاة التنوع السكاني، وإعطاء اللغة التركية منزلة خاصة في اللواء. وكان ذلك مقابل وقف الدعم التركي لمناوئي الحكم الفرنسي في سورية خاصة في منطقة الرقة، وعلى امتداد الحدود الجديدة؛ وتعهد فرنسي في المقابل بتقييد حرية التحرك بالنسبة إلى الحركات الكردية المناوئة لتركيا، والسماح باستخدام خط القطار لنقل الجنود الأتراك عبر الأراضي السورية الخاضعة لحكم فرنسا عند الحاجة، وهذا ما

(33) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالباسط سيدا، المسألة الكردية في سورية، فصول منسية من المعاناة المستمرة، (عمان: دار عمار، 2013)، ص 30-31.

(34) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، التكون التاريخي...، ص 160-161.

(35) <https://2u.pw/wjmnH> معاهدة سيفر (35)

(36) حول بنود هذه الاتفاقية راجع: <https://2u.pw/F1u6T>

يمكن الاطلاع على النص العربي لهذه الاتفاقية في الملحق نقلًا عن: عبدالباسط سيدا، المسألة الكردية في سورية، ص 208-211.

(37) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، المرجع نفسه، ص 149.

Ingmar Karlsson, Roten Till Det Onda, s. 96–98.

حصل في واقع الحال لاحقاً في أثناء ثورة الشيخ سعيد بيران في منطقة ديار بكر عام 1925.

ومع دخول الفرنسيين عام 1921 إلى دير الزور، أصبحت المدينة أحد ألوية دولة حلب، وكان هذا اللواء يشمل أقضية: البوكمال والميادين والرقعة والحسكة والحميدي، ولكن بعد الوحدة السورية عام 1924 أصبحت دير الزور تابعة لدمشق مباشرة، وهو الأمر الذي كان يريده ويطالب به سكان المدينة.⁽³⁸⁾

وقد مهدت كل هذه المتغيرات والمستجدات الميدانية الطريق أمام توقيع معاهدة جديدة بين الحلفاء من جهة، وتركيا بقيادة مصطفى كمال من جهة ثانية، وهذا ما حصل في مدينة لوزان السويسرية عام 1923.

سادساً: معاهدة لوزان وتثبيت حدود سورية الشمالية

وقعت تركيا إلى جانب الحلفاء على هذه المعاهدة بتاريخ 24 تموز/ يوليو⁽³⁹⁾ 1923، ووافق عليها مجلس عصبة الأمم المتحدة بتاريخ 29 أيلول/ سبتمبر 1923، وقد جاءت لتكون بديلاً من معاهدة سيفر، وكانت لصالح تركيا بصورة عامة. وهي المعاهدة التي رسمت الحدود بين سورية وتركيا بناء على اتفاقية أنقرة الأولى 1921 (اتفاقية فراكلين بويون)⁽⁴⁰⁾. فقد جاء في سياق القسم الأول من هذه المعاهدة المتعلق بالأراضي ورسم حدود تركيا مع جوارها، وضمن المادة الثالثة التي بينت حدود تركيا من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود فارس، البند الأول الخاص بالحدود بين سورية وتركيا ما يلي:

الحدود الموضحة في المادة 8 من الاتفاقية الفرنسية التركية المؤرخة في 20 أكتوبر 1921.⁽⁴¹⁾

ولكن الشكوك المتبادلة بين الجانبين التركي والفرنسي ظلت قائمة، الأمر الذي حال دون الاستمرار في عملية رسم الحدود بناء على اتفاقية أنقرة الأولى (اتفاقية فرانكلين بويون)، لذلك جاءت اتفاقية أنقرة الثانية حزيران/يونيو-أب/أغسطس 1926 لتعيد النظر في بعض التفصيلات، وتسمح بعملية

(38) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالقادر عياش، المرجع نفسه، ص 148-154.

(39) حول هذا الموضوع راجع:

William I. Cleveland and Martin Bunton, A History of The Modern Middle East, (New York: Routledge 2018), p. 169.

(40) حول هذا الموضوع راجع: أحمد عدنان العيطة، أزمة الاسكندرون وعصبة الأمم، (دمشق: دار الأهالي، 2000)، ص 16-17.

(41) المعهد المصري للدراسات، النص الكامل لمعاهدة لوزان 1923، عادل رفيق (مترجماً)، (إسطنبول: 17 أغسطس، 2020)، ص 6.

تثبيت الحدود التي اكتملت في عام 1930، خاصة في منطقة ديريك/المالكية، وهي المنطقة المعروفة بمنقار البط، وحينها أكملت فرنسا سيطرتها على منطقة الجزيرة السورية، بعد أن تنازلت عن مناطق جديدة لصالح تركيا⁽⁴²⁾، والتوافق مجددًا على إعطاء وضع خاص للواء إسكندرون.

سابعًا: خاتمة

يتبين مما تقدم أن الحدود الحالية للجزيرة السورية بقسميها العلوي والسفلي مع كل من العراق وتركيا هي حصيلة اتفاقيات ومعاهدات بين كل من بريطانيا وفرنسا من جهة، وبين فرنسا وتركيا من جهة أخرى. وهي اتفاقيات ومعاهدات لم تأخذ بالحسبان واقع النسيج المجتمعي في المنطقة، ولم تعتمد الحواجز الطبيعية من جبال أو أنهار نقاط استناد لرسم الحدود. فبينما أخذت الحدود التركية السورية الخاصة بهذه المنطقة شكلها النهائي مع الاتفاقية الفرنسية التركية عام 1921⁽⁴³⁾، وهي الاتفاقية التي صادقت عليها معاهدة لوزان عام 1923، ومن ثم عصبة الأمم المتحدة 1923؛ أخذت حدود منطقة الجزيرة من جهة العراق وقتًا أطول، نتيجة تباين المصالح بين كل من بريطانيا وفرنسا⁽⁴⁴⁾، وما الخطوط المستقيمة والزوايا التي نشاهدها ونحن نتمتع في الحدود الفاصلة بين العراق وسورية سوى برهان أكيد يبين أن الحدود المعنية قد تم التوافق عليها بين ممثلي الدول في المكاتب أولاً، ثم فرضت على الواقع فرضًا، فكانت الحصيلة جملة من المشكلات التي ما زالت المنطقة تعانيها، ومن بين هذه المشكلات أن المدن التي كانت ترتبط معها مناطق الجزيرة ظلت في الجانب التركي، ويُشار هنا على سبيل المثال إلى أورفا وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمرو، ما أدى إلى استمرارية الطابع الريفي العشائري للمنطقة، وعدم حصول نهضة اقتصادية كانت المنطقة تمتلك مقوماتها الأساس، وما زالت. وقد أسهمت سياسات التهميش والإهمال وأساليب النهب التي اعتمدتها الحكومات المختلفة في هذا الأمر إلى حد كبير.

(42) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد جمال باروت، التكوين التاريخي لمنطقة الجزيرة، ص 163-164.

(43) للمزيد حول هذه الاتفاقية راجع: إدمون رباط، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ص 483. حول تفاصيل عملية رسم الحدود التركية السورية راجع: المكتب الجغرافي التابع لدائرة المخابرات والبحث الأمريكية، «دراسة الحدود الدولية بين سوريا وتركيا»، دراسة الحدود الدولية، ع: 163، (6 آذار/مارس 1978)، عمر رسول (مترجمًا)، موقع مدارات كرد، 6-1-2015. <https://2u.pw/zkC4Y>

(44) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: إيلياهو ايبشتاين، «الجزيرة»، راج آل محمد (مترجمًا)، موقع مدارات، (13-1-2019). <https://2u.pw/r7e6D>
<https://2u.pw/lj1jW>

ومن يتابع أوضاع المنطقة اليوم، يدرك أن حسابات القوى الإقليمية والدولية ومصالحها ما زالت هي التي تتحكم في مجريات أوضاع منطقة الجزيرة بصرف النظر عن التبدل في الأدوار والأسماء.

ثامناً: الملحقات⁽⁴⁵⁾

الاتفاقية الفرنسية – التركية

أنقرة، أكتوبر 1921

لقد تم التوصل بين حكومة المجلس التركي الكبير والجمهورية الفرنسية إلى ضرورة عقد اتفاقية فيما بينهما. وقد كلف لإنجاز هذا الأمر عن المجلس الكبير وزير الخارجية والنائب السيد يوسف كمال بك. وعن الجمهورية الفرنسية الوزير السابق السيد هنري فرانكلين بويون. وقد منحا كامل الصلاحيات من أجل إنجاز هذا الموضوع.

بعد المداولة ومقارنة الوثائق، اتفق السيدان المشار إليهما على المواد التالية:

1. يؤكد الطرفان المشاركان في هذه الاتفاقية على أنه بمجرد التوقيع عليهما سيتم إبلاغ الجيش والمؤسسات المدنية والمواطنين بالمستجدات المترتبة عليهما.
2. بناء على هذه الاتفاقية، سيقوم الطرفان بإطلاق سراح أسرى الحرب، والمساجين، من المواطنين الفرنسيين أو الأتراك، من قبل الجانبين.
- يتكفل الطرف الذي يقوم بإطلاق سراح السجناء الموجودين لديه بنفقات إيصالهم إلى قرب نقطة من موقع تسليمهم إلى الطرف الآخر. ويشمل مفعول هذا الاتفاق جميع السجناء، سواء من المحكومين أو الموقوفين، وبغض النظر عن مدة محكوميتهم أو مدة بقائهم في السجن.
3. ستقوم القوات الفرنسية بعد التوقيع على هذه الاتفاقية، بناء على المادة الثامنة منها،

(45) عن: عبد الباسط سيدا، المسألة الكردية في سورية، ص 208-211.

بالانسحاب إلى جنوب الخط الحديدي (خط قطار الشرق السريع)، في حين أن القوات التركية تنتقل إلى شمال الخط المذكور وذلك في غضون شهرين على الأكثر.

4. ستكون هيئة مشتركة تتألف من الطرفين، ينام بها مسؤولية اتخاذ القرارات بخصوص تحديد المناطق التي سيتم الانسحاب منها، وتلك التي سيتم الاستقرار فيها، وذلك ضمن المدة الزمنية المشار إليها في المادة الثالثة.

5. بعد استقرار كل طرف في الأراضي المخصصة له، سيعلن الطرفان العفو العام.

6. تلتزم حكومة المجلس التركي الكبير بمراعاة حقوق الأقليات الواردة في الميثاق الوطني التركي. وذلك استنادًا إلى ما اتفق عليه من مبادئ تتناول حقوق الأقليات، بين دول الحلفاء وخصوصهم.

7. فيما يتعلق بمنطقة اسكندرونة، سيكون هناك نظام إداري خاص. وسيكون في استطاعة المواطنين من أصول تركية الاستفادة من جميع الطاقات بغية تطوير ثقافتهم، وستحظى اللغة التركية هناك بمكانة رسمية.

8. سيتم رسم الخط الوارد ذكره في المادة الثالثة كما يلي: يبدأ خط الحدود من خليج اسكندرونة من نقطة تقع جنوب بانياس، ويتجه نحو ميدان اكبس (محطة القطار تبقى في الجانب السوري، بالإضافة إلى المنطقة المحيطة بها).

وبموجب هذا الخط ستبقى نقطة دسو (هكذا ورد الاسم في النص التركي) في الجانب السوري، في حين أن كارينا وكلس ستكونان في الجانب التركي (في منطقة ميدان اكبس). ثم يتجه الخط الحدودي نحو الجنوب الغربي حيث يلتقي مع محطة الراعي. بعد ذلك يسير مع سكة القطار (قطار الشرق السريع). وستبقى هذه السكة من محطة الراعي إلى نصيبين في الجانب التركي؛ ومن هناك يسير الخط المذكور على الطريق التي توصل بين نصيبين وجزيرة ابن عمرو، ليصل إلى دجلة. ستكون نصيبين إلى جانب جزيرة ابن عمرو بالإضافة إلى طريق التي تربط بينهما في الجانب التركي. ولكن من حق الدولتين (الموقعيتين) الاستفادة من الطريق المشار إليها على قدم المساواة. أما بالنسبة للمحطات الرئيسة والفرعية الواقعة ما بين محطة الراعي ونصيبين، فهي تعتبر جزءًا من سكة الحديد نفسها، لذلك ستكون لتركيا.

بعد التوقيع على هذه الاتفاقية، ستتشكل لجنة تضم ممثلين من الطرفين، مهمتها رسم

- خط الحدود بين الدولتين، وذلك في غضون شهر.
9. سيعد قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان (مؤسس الإمبراطورية العثمانية) المعروف بالمقبرة التركية في قلعة جابر أرضاً تركية، بالإضافة إلى المنطقة المحيطة به. وسيكون من حق تركيا وضع الحراس ورفع العلم التركي هناك.
10. توافق حكومة المجلس التركي الكبير على التنازل عن جميع امتيازاتها بخصوص استثمار خط القطار من بوزاني إلى نصيبين، بالإضافة إلى جميع المؤسسات التابعة لها، الموجودة في ولاية أضنة، إلى جانب سائر امتيازات العمليات التجارية وما يتصل منها بالاستخدام، على أن تسلمها إلى شركة فرنسية توافق عليها الحكومة الفرنسية. من حق الدولة التركية أن تنقل قواتها العسكرية على خط قطار الشرق السريع في المنطقة الواقعة ما بين ميدان اكبس ومحطة الراعي. (الخط يقع ضمن الأراضي السورية). وفي المقابل، من حق سورية أن تقوم بنقل قواتها العسكرية من محطة الراعي إلى نصيبين على الخط الحديدي نفسه، وذلك على القسم الواقع ضمن الأراضي التركية. ولن تكون هناك من حيث المبدأ أية فوارق بين الطرفين من جهة تعرفه استخدام هذه السكة والخطوط المتفرعة عنها. (أي لن يكون هناك امتياز لطرف على حساب الطرف الآخر). وإذا ما اقتضت الضرورة بتجاوز هذا المبدأ؛ فسيكون حينئذ من حق الدولتين العمل بما تتفقان عليه فيما بينهما، والتحقق منه. ولكن في حال عدم الاتفاق على المبدأ المشار إليه، سيتصرف كل طرف وفق ما يراه مناسباً.
11. بعد التصديق على هذه الاتفاقية، ستقوم تركيا وسورية، بتشكيل لجنة مشتركة مهمتها وضع اتفاقية جمركية بين الطرفين، على أن يتم تحديد شروط ومدة تطبيق الاتفاقية المقترحة من قبل اللجنة المعنية. ولكن إلى حين التوصل إلى اتفاقية من هذا القبيل، سيتمتع الطرفان بحرية الحركة المعفاة من الرسوم الجمركية.
12. سيتم تقسيم مياه نهر قويق بين حلب والمناطق الواقعة إلى الشمال منها في الجانب التركي، وذلك بما يراعي حقوق الطرفين ويرضيهما.
13. سيكون من حق السكان المستقرين وأنصاف المستقرين الاستفادة كالسابق من المراعي وتملكها على جانبي خط الحدود المشار إليه في المادة الثامنة. ومن أجل تأمين مستلزمات الانتفاع المذكور، سيكون بإمكان هؤلاء الانتقال عبر طرفي الحدود بحرية مع قطعان حيواناتهم وأدواتهم والآلهم ومنتجاتهم، بالإضافة إلى ما يحتاجون إليه من بذار، من دون

أن يدفعوا أية رسوم جمركية، أو تلك التي تخص المراعي. وسيدفع هؤلاء الضرائب لتلك الدولة التي يتبعونها (بصورة رسمية) من دون دفعها للدولة الأخرى (التي ينتقلون إليها بصورة مؤقتة).

20 أكتوبر 1921

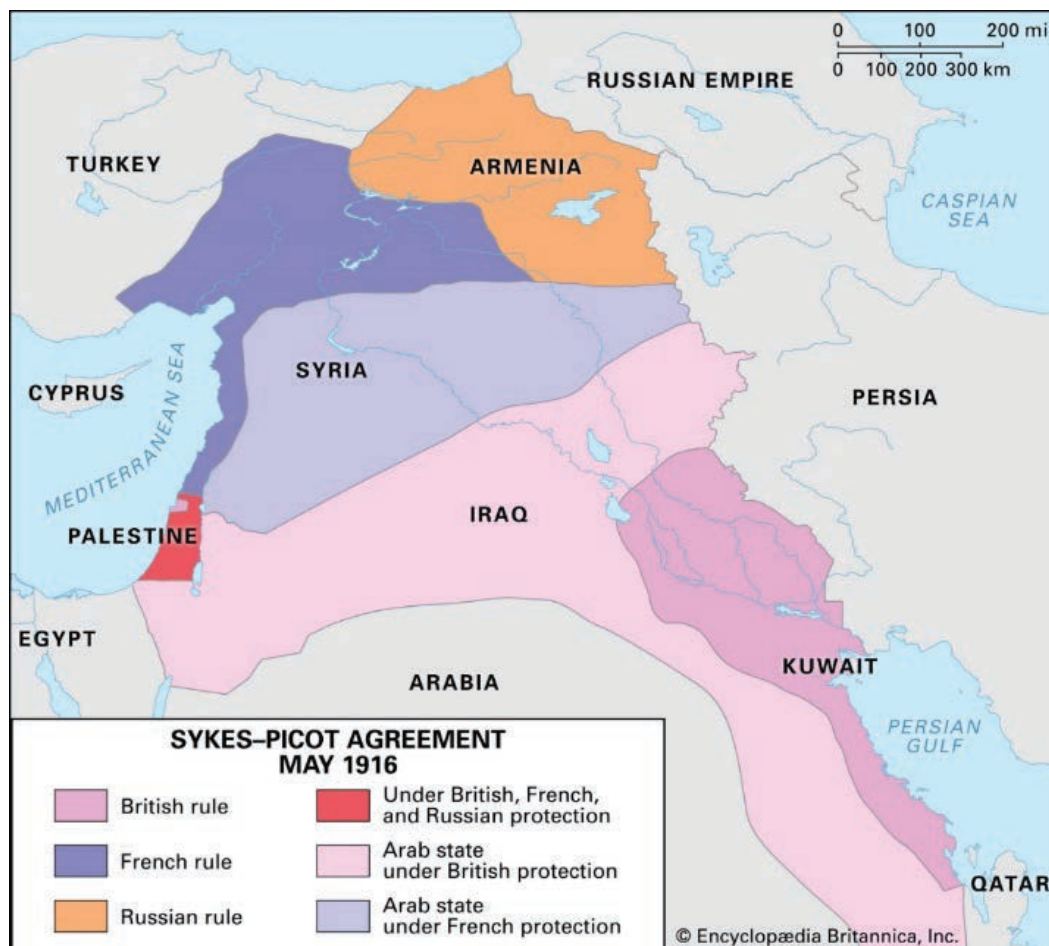
أنقرة على نسختين

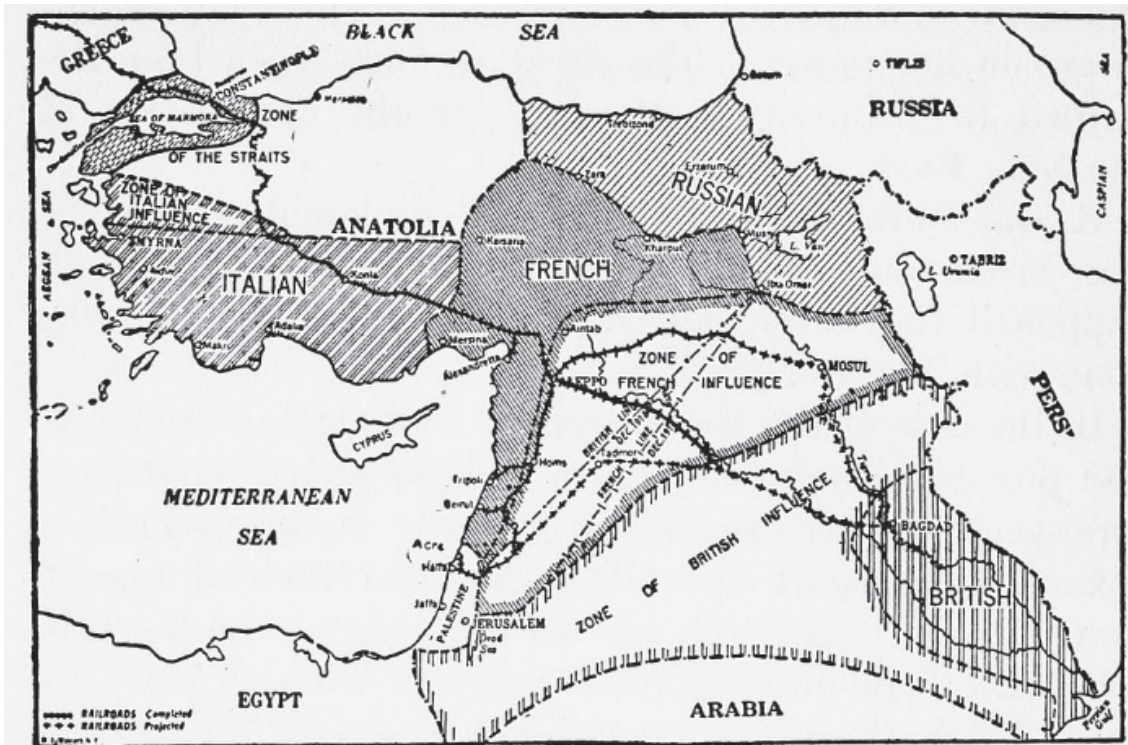
يوسف كمال YUSUF Kemal

هنري فرانكلين بويون Henri Franklin Bouillon

المصدر: حسن بيركي ديلان: سياسة تركيا الخارجية، 1929-1939 الترجمة من التركية الى الكردية: أحمد فريد، ومن الكردية إلى العربية: عبد الباسط سيدا. مخطوط.

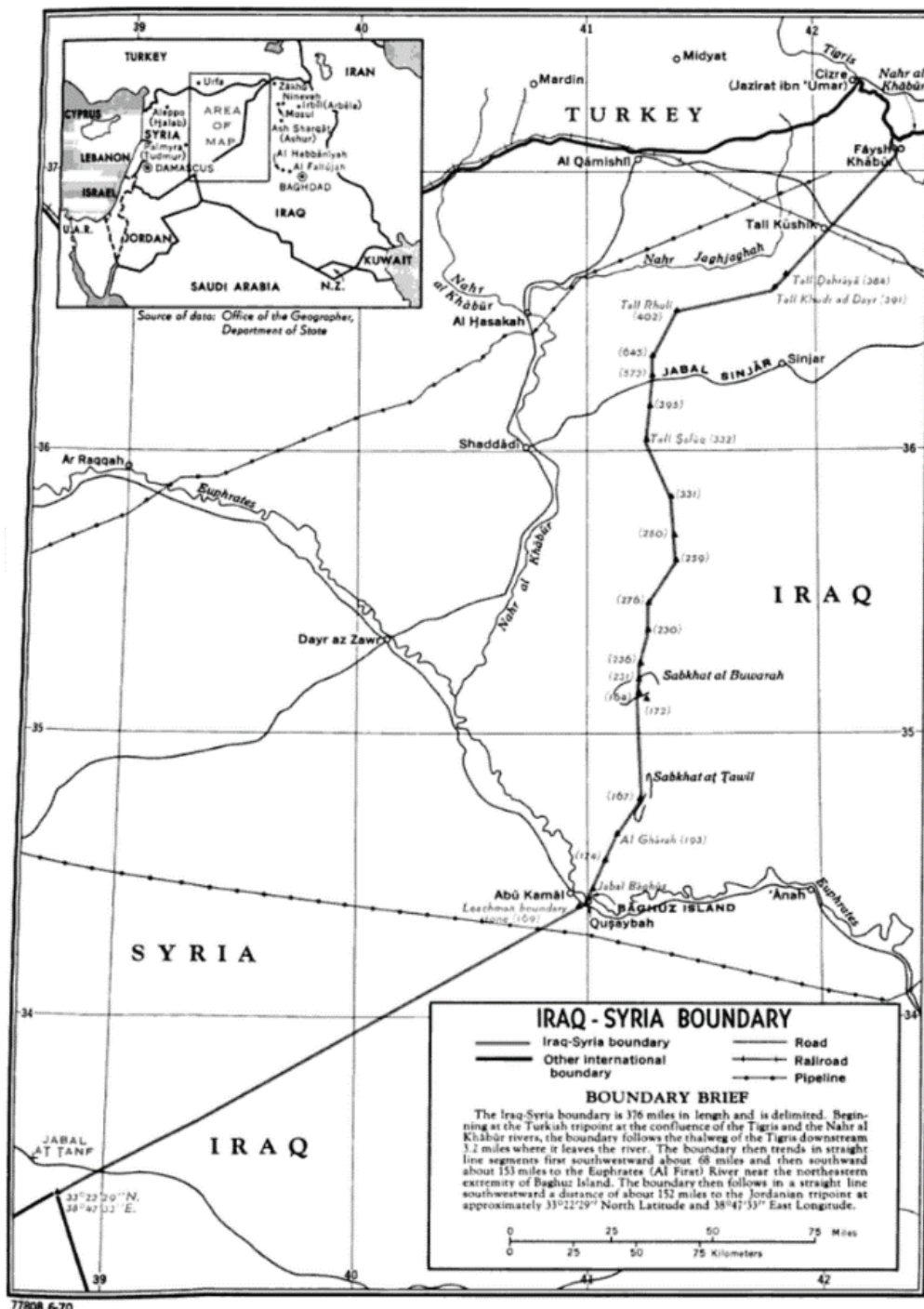
خرائط توضيحية





HOW TURKEY WAS CARVED BY SIX SECRET AGREEMENTS

The Franco-Russo-British agreement of March, 1915, gave Russia Constantinople. The Sazonov-Paléologue treaty of April 26, 1916, delimited the French and Russian shares in Asia. The Sykes-Picot treaty of May, 1916, divided what lay beyond between France and Great Britain. The treaty of London, April 26, 1915, gave Italy the region of Adalia. The St. Jean de Maurienne agreement, completed in August, 1917, promised Italy Smyrna and the rest of the territory shown. The Clemenceau-Lloyd George understanding of December, 1918, transferred Mosul to Great Britain, but left a dispute as to whether the new line should run east or west of Tadmar.





المصادر والمراجع

بالعربية

1. أبو عز الدين. سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، (بيروت: المطبعة العلمية ليوسف صادر، 1929).
2. باروت. محمد جمال، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
3. —، «المؤتمر السوري العام (1919-1920): الدستور السوري الأول: السياق، الطبيعة والوظائف، المراحل والقضايا»، تبين للدراسات الفلسفية والنظرية النقدية، مج: 1، ع: 3، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مجلد 1، 2013).
4. تشاني. داون، «القبائل والقبلية والهوية السياسية في سورية المعاصرة»، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع: 4/15، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد الدوحة للدراسات العليا)، 2016).
5. حتي. فيليب، وآخرون، تاريخ العرب، ط11، (بيروت: دار الكشف، 2002).
6. حرب. محمد، السلطان عبدالحميد الثاني، ط1، (دمشق: دار القلم، 1990).
7. حسن. نجات قصاب، صانعو الجلاء، ط2، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2003).
8. حوراني. ألبرت، تاريخ الشعوب العربية، كمال خولي (مترجمًا)، أنطون ب. نوفل (محققًا)، ط2، (بيروت: دن، 2002).
9. رباط. إدمون، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، حسن قبسي (مترجمًا)، جورج كتوره (معدًا)، (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية 2002).
10. ديب. كمال، تاريخ سورية المعاصر، ط3، (بيروت: دار النهار للنشر، 2013).
11. سيدا. عبدالباسط، المسألة الكردية في سورية، فصول منسية من المعاناة المستمرة، (عمان:

دار عمار، 2013).

12. شاكر. محمود، موسوعة تاريخ الخليج العربي، (عمان/ الأردن: دار أسامة، 2005).
13. عبد نمال الدليهي. خالد، « بسمارك ودوره في رسم السياسة الخارجية الألمانية 1871-1890»، ع: 97، مجلة كلية الآداب، (بغداد).
14. عياش. عبد القادر، حضارة وادي الفرات: مدن فراتية، القسم السوري، وليد مشوح (معدًا)، ط1، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1989).
15. العيطة. أحمد عدنان، أزمة الاسكندرون وعصبة الأمم، (دمشق: دار الأهالي، 2000).
16. فرزات. محمد حرب، الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشوء الأحزاب السياسية وتطورها 1908-1955، ط2 (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019).
17. لازريف، م. س.، المسألة الكردية (1917-1923)، عبيد حاجي (مترجمًا)، (بيروت: دار الرازي، 1991).
18. المعهد المصري للدراسات، النص الكامل لمعاهدة لوزان 1923، عادل رفيق (مترجمًا)، (إسطنبول: 17 آب/ أغسطس 2020).

بلغة أجنبية

1. Cleveland, William I, and Bunton, Martin, A History of The Modern Middle East, (New York: Routledge 2018).
2. Lawrence, T. E., Arabien: Hemliga Rapport-Underrättelsedepescher juni 1916-december 1918 och andra texter, översättning av Erik Carlquist, förord av Jan Hjärpe, (Riga, Lettland: SIA Alma Pluss, h: ström-Text & Kultur, 2006).
3. Karlsson, Ingmar, Roten Till Det Onda, Uppdelningen av Mellanöstern från 1916 till idag, (Lund- Sweden: Historiska Media, 2018).



السياسات الإثنية الفرنسية في الجزيرة السورية

مهند الكاطع⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

ألقت المقررات التي اتخذتها حكومة دمشق وسلطة المؤتمر السوري بإعلان الاستقلال، وتتويج فيصل بن الحسين ملكاً، وسنّ دستور للبلاد بظلالها على دول (الحلفاء) التي عدّت النتائج غير مرضية، وأعلنت كل من بريطانيا وفرنسا عدم اعترافهما بمشروعية مقررات دمشق، وبناء عليه اجتمع المجلس الأعلى في (سان ريمو)، واتخذ مقرراته في 25 نيسان/ أبريل 1920 القضية بوضع المستطيل العربي كله الممتد من البحر المتوسط إلى حدود فارس تحت الانتداب، وتقسيم سورية على ثلاثة أقسام مستقلة هي: فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية، وعدم تجزئة العراق. فوضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني، وأضيفت جملة تقول: ((إن الدولة المنتدبة على فلسطين ملزمة بتنفيذ وعد بلفور))⁽²⁾، وانتهى الأمر بتوجيه غورو إنذاره إلى الحكومة العربية في 14 تموز/ يوليو 1920 ومدته أربعة أيام، وانهارت في نهاية المطاف الحكومة الفيصلية، وخرج فيصل من دمشق، وسيطرت فرنسا على دمشق بعد معركة ميسلون التي استشهد فيها وزير الحربية في الجيش العربي القائد يوسف العظمة. لتبدأ عملية الانتداب الفرنسي على سورية عملياً، وتستمر حتى عام 1946.

السؤال الأساس الذي يشكل محور اهتمام هذا البحث: ما السياسات التي اتبعتها فرنسا في منطقة الجزيرة والفرات طيلة زمن الانتداب الفرنسي، وكيف أثرت تلك السياسات في الواقع الاجتماعي والديموغرافي والسياسي في المنطقة؟ والبحث عن جواب عن هذا السؤال سيجعلنا نبحت في تفاصيل السياسات الفرنسية اتجاه التركيبة القبلية التي تميزت بها المنطقة، وكيفية توزيعها لصالح الأهداف الفرنسية، كذلك سنجد أنفسنا أمام بحث السياسات الأثنية الفرنسية وبشكل خاص اتجاه الأقليات الدينية واللغوية، وكذلك سياسة استيعاب اللاجئين الأرمن واليهود والسرمان

(1) باحث سوري.

(2) غالب العياشي، الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سورية، (بيروت: مطابع أشقر أخوان، 1955)، ص 87-90.

والأكراد والأشوريين، وتوطيتهم.

ثانيًا: السياق المكاني؛ الجزيرة الفراتية

الجزيرة الفراتية جغرافيًا هي المنطقة التي تقع بين الفرات غربًا ونهر دجلة شرقًا، وتشمل بهذا المعنى الجغرافي في حدود الخريطة السياسية السورية ثلاث محافظات تعرف بالمحافظات الشرقية، وهي (دير الزور، الرقة، الحسكة)، وهي منطقة ذات أهمية كبرى من النواحي الاستراتيجية والجيوستراتيجية والاقتصادية، حيث تضم الثروات الباطنية معظمها، والموارد المائية، والسهول الزراعية في البلاد.

بات مصطلح الجزيرة مرتبطًا ارتباطًا أكبر بمحافظة الحسكة التي تشكلت إداريًا بعد فصل أجزاء إدارية من لواء دير الزور، وتشكيل لواء باسم الجزيرة سنة 1931، قبل أن يتحول إلى محافظة حملت اسم الجزيرة أيضًا سنة (3) 1936، وقد شهدت هذه محافظة الجزيرة حركة عمرانية كبيرة في العهد الفرنسي، كذلك كانت حدود هذه المنطقة محل نزاع بين فرنسا وتركيا في الشمال من جهة، وبين فرنسا وبريطانيا على الحدود الجنوبية، الأمر الذي شجع فرنسا في اتباع سياسات معينة اتجاه اللاجئين بما يخدم قضايا الحدود تلك، وأسهم من ثم في إحداث تنوع سكاني كبير في منطقة الجزيرة.

ثالثًا: السياق التاريخي؛ سياسات الانتداب الأولى

ضمن سياساتها الانتدابية (الإثنية) حاولت فرنسا منذ دخولها إلى سورية توظيف تركيبة سورية السكانية والاجتماعية التي تتسم بتنوع انتماءات مكوناتها الإثنية والمذهبية والدينية والعشائرية، وحاولت إنشاء خريطة ذهنية مشوهة في العقل الجمعي السوري لإثارة التنافر والتمايز، وخلق بيئة مناسبة وجاهزة للانقسام السياسي عبر تهيئة مشروعات الدويلات الطائفية. لذلك سعت فرنسا لنشر دعوى مفادها بأن الأقليات الطائفية لها خصوصيات، بل لا تشترك مع الأكثرية في أصولها العرقية أو التاريخية أو انتمائها الديني، وكان مستشار المفوضية العليا (روبير دو كاي) أحد أبرز الداعين لهذه الفكرة، إذ كان يرى بأن سورية لم تعد تشكل وحدة سياسية متكاملة منذ سقوط الدولة الأموية، وباتت مجموعة أقاليم تضم أديانًا وأعرافًا متباينة، ورأى بأنه يجب أن تجمع بصورة تدريجية في نظام

(3) د.م، الجريدة الرسمية للجمهورية السورية، السنة 18، ع: 2، (31 كانون الثاني/ يناير 1936)، ص 23.

فدرالية تشرف على تأسيسه فرنسا⁽⁴⁾. كذلك يمكننا معرفة مزيد من ملامح الصورة التي حاولت السياسات الفرنسية رسمها عن الهوية السورية من خلال كتابات (ريموند أوزوكس) - أحد أبرز المدافعين عن السياسية الانتدابية والمعاصر لها، إذ يقول: ((ما يسمى (سوريا) تعبير مهم لا يشكل وحدة، بل فسيفساء من التقاليد والمعتقدات، والاتجاهات المتباعدة))⁽⁵⁾. ففرنسا حاولت استغلال وجود تنوع تاريخي لتعزيز فكرة الانقسام السياسي بما يخدم مصالحها الانتدابية، لذلك كانت هناك محاولة لتشويه الواقع الاجتماعي وإظهار سورية بأنها خليط من الأقليات غير المتجانسة، ولا يجمعها رابط، وبعيداً عن الدعاية الانتدابية، لم يكن أحد ينظر إلى التنوع الديني والطائفي القديم في البلاد السورية بوصفه مسألة تشكل حالة انقسام في المجتمع أو الهوية، يقول لونكريك: ((أنَّ الانطباع السائد فيما يتعلق بسوريا بوصفها فسيفساء من الأقليات يمكن أن يكون مضللاً، وذلك ليس لتجاهله الغلبة الكبيرة للسكان المسلمين السنة فحسب، بل ولتشديده على نحو غير مطابق للواقع على العناصر التي تفصل الأغلبية عن بقية السكان، وتقليله من شأن الأرضية المشتركة الواسعة التي يلتقي عليها الجميع))، مضيفاً أنه ((إذا كان قد وجد حيز لسياسات الخصوصية المسيحية، فقد وجد حيز كذلك للتفكير وفق خطوط سورية تعبّر عن الوحدة الجوهرية للبلاد، والعهود الطويلة من التعايش، والأصول السلالية المشتركة، وتراث العروبة العظيم المشترك))⁽⁶⁾.

رابعاً: السياسات الفرنسية العشائرية

أظهرت المراسلات بين الجنرال غورو والرئيس الفرنسي ميلران Millerand تحفّظ الأخير على مقترح غورو بإلحاق القبائل البدوية بدولتي دمشق وحلب، واقترح ميلران صيغة بديلة تتلخص بإخضاع هذه القبائل لدائرة خاصة من دوائر المفوضية العليا Service special، إذ تنتدب هذه المفوضية ضباط اتصال بشيوخ القبائل العربية في المناطق الواقعة بين سورية والعراق، بحيث تضمن الخدمات التي يقدمها ضباط الارتباط لهم وكذلك الهدايا والاعتبارات الأخرى؛ علاقات جيدة، واستتباب الأمن، وفتح طريق الصحراء أمام التجارة⁽⁷⁾.

(4) Itamar Rabinovich, "The Compact Minorities and the Syrian State, 1918-45," Journal of Contemporary History 14, no. 4 (October 1979), pp. 693-712

(5) Raymond o'zoux, Les Etats du levant sous Mandat Français, (Paris: Librairie Larose, 1931) , p.72

(6) ستيفن هامسلي لونغريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيار عقل (مترجماً)، (بيروت: دار الحقيقة، 1978)، ط1، ص20.

(7) وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، ط3، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 232،

الجنرال دي لاموث القادم من المغرب بدأ باختيار الزعماء الأكثر تأثيراً كأُمير عشيرة الرولة من عنزة نوري الشعلان في الجنوب وصولاً إلى العاصمة دمشق، والذي تظاهر بولائه لفصيل بادئ الأمر، لكنه سرعان ما انقلب عليه، وأعلن تأييده الفرنسيين حين مجيئهم، وطارد فلول الجيش العربي المنكسر العائد من معركة ميسلون، وسلبهم متاعهم وسلاحهم⁽⁸⁾، وبعد دخول الفرنسيين أعلن الشعلان ولاءه المطلق لهم، وبقي على هذا الولاء حتى نهاية مدة الانتداب⁽⁹⁾، كذلك وقع الاختيار على الأمير مجحم بن مهيد شيخ عنزة في مناطق الشمال في حلب الذي كان أحد فرسان كتيبة الشرف في أثناء دخول الفرنسيين إلى حلب في تموز/ يوليو سنة 1920، وقد تلقى وسام الشرف، وعيّنهُ الفرنسيون في خريف عام 1920 زعيماً لعنزة حلب⁽¹⁰⁾، وفي الرابع من أيلول/ سبتمبر وقّع الجنرال دي لاموث معاهدة تحالف مع مجحم الذي قام بتسهيل الاحتلال الفرنسي للمناطق الشرقية⁽¹¹⁾. مثل مجحم بن مهيد واجهة السياسات الفرنسية الأولى في مناطق الجزيرة والفرات، وأوكلت إليه مهمة التواصل مع شيوخ العشائر في الجزيرة والفرات، فتواصل مع قبيلة المليّة (أكرد) التي يقودها محمود بن إبراهيم باشا، وكذلك مع قبيلة شَمَر بزعامة مشعل الفارس الجربا الذي منحه غورو لاحقاً لقب (باشا) الفخري⁽¹²⁾. وكان دي لاموث يصدر تعليماته لضباطه وأجهزة استخباراته بإرشاد هؤلاء الشيوخ المفضلين مثل مجحم بك بما يتوافق مع مصلحة فرنسا السياسية، وضرورة عدم التعامل معهم بصفتهم أمراء مستقلين، أو أنهم حتى وقعوا على اتفاق على قدم المساواة مع فرنسا، بل يجب عدهم زعماء مُنصَّبين من قبل فرنسا، يمارسون مهماتهم بتفويض من السلطة الفرنسية ذات السيادة، وضمن الحدود التي تحدد لهم⁽¹³⁾.

244-243

(8) محي الدين السفرجلاني، فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة، (دمشق: مطبعة التري، 1937)، ص 280.

(9) ماكس فون أوبنهايم، البدو، تحقيق ماجد شبر، ج 1، ط 1، (المملكة المتحدة: دار الوراق، 2004)، ص 139، 135.

(10) أوبنهايم، البدو، ج 1، ص 145، انظر أيضاً: محمد فؤاد عنيباتي ونجوى عثمان، حلب في مئة عام 1850-1950، (حلب: منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1993)، ص 207.

(11) Velud Cristian, Une expérience d'administration régionale en Syrie durant le Mandat français: conquête, colonisation et mise en valeur de la Djézireh, 1920-1936, 4 volumes, Tome 1, (Université Lyon II, 1991), p.54.

(12) المرسوم رقم (834)، تاريخ 1921/4/30 صادر في بيروت عن المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان، الذي منح فيه مشعل بن فارس الجربا لقب (الباشا) نظراً للخدمات التي قدمها الشيخ مشعل بن فارس، كما جاء في نص المرسوم، على ألا يكون اللقب وراثياً في العائلة، ولا يطلق على زعيم القبيلة القادم. انظر:

Bulletin mensuel, puis « officiel des actes administratifs du Haut Commissariat, (« puis » administratifs de la Délégation (N.8210 (07/1920-04/1921), P.99

وثيقة صادرة عن الجيش الفرنسي في المشرق، الفرقة الثانية، المكتب السياسي، رقم 2292/ر، حلب في 21 أيلول/ سبتمبر 1920، (13) تعليمات للسيد الضابط المترجم ترنكا، راجع ترجمة الدكتور خالد عيسى، وثائق ضم الجزيرة والفرات إلى سورية، موقع كلكماش، 8

نلاحظ أن السياسات الفرنسية في سورية كانت تشبه إلى حد كبير السياسة التي اتبعها الجنرال البريطاني روبرت ساندمان Robert Sandeman في بلوجستان عام 1877، والتي عرفت بـ (نظام ساندمان)، ومؤدى هذا النظام اختيار سردار (شيخ قبيلة) واحد في كل منطقة من عشيرة كبيرة، ودعم هذا الشيخ بالمال وبالنفوذ والسلاح أيضاً عند الحاجة؛ لكي يكون مسؤولاً عن الأمن والنظام في منطقته، وبهذا تنشأ منفعة متبادلة بين الاحتلال وهذا الشيخ المختار، فهم من جانبهم يحصرون السلطة في يده، ويفضلونه على منافسيه في المعاملة، ويخففون عنه عبء الضرائب، وهو بدوره ينفذ ما يأمرونه به، ويحمي مصالحهم⁽¹⁴⁾. لكن واقع العشائر في سورية يختلف عن بلوجستان، إذ لم تكن القبيلة اللاعب الوحيد في الساحة الاجتماعية والسياسية، ولم يكن لها ذلك التأثير البالغ في الحواضر والمدن الكبرى، أي (خارج تشكيلاتها العشائرية).

1. مشروع الدولة البدوية

أمام واقع عشائر يقودها زعماء يغار بعضهم من بعض قرر الفرنسيون التركيز على فكرة إنشاء كيان سياسي بدوي (دولة داخل دولة) بدلاً من التركيز على واحد أو اثنين من قادة البدو⁽¹⁵⁾، وفي عام 1922 أرسل الكابيتان لآبرو (Labrue) رئيس جهاز الاستخبارات في حلب بدعم من الجنرال دي لاموث تقريراً ينص على: ((إقامة الحدود العسكرية في الإقليم الشرقي))، بما في ذلك الجزيرة والشامية من دون أن يكون لولايتي حلب ودمشق أي إشراف على الإقليم باستثناء الإشراف على الشرطة (الدرك)، ووُضعت القبائل البدوية تحت السلطة العسكرية لـ (قوة البادية) الفرنسية⁽¹⁶⁾، وتقرر أن تستفيد المنطقة من ميزانية مستقلة، وأن تدار حصراً من قبل العسكريين. وفي مطلع سنة 1923 كانت الحكومة المنتدبة قد بادرت فعلياً بإلغاء بعض التشكيلات العشائرية المكلفة بحماية الطرق، من مثل جيش الشيخ مشعل باشا الفارس الجري رئيس شمر دير الزور، الذي فشل -وفق التقديرات الفرنسية- في حماية الطريق بين الدير والموصل، وقد خصصت ميزانية دورة 1923 للواء

⁽¹⁴⁾ زكي صالح، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، (بغداد: مطبعة الرابطة، 1953)، ص 15. قارن مع: علي الورد، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج 5، ط 2، (لندن: شركة الوراق المحدودة، 2010)، ص 41.

⁽¹⁵⁾ Velud, Op.cit. (15)

⁽¹⁶⁾ فيليب الخوري، سورية والانتداب الفرنسي سياسة القومية العربية 1920-1945، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1997)، ص 85.

دير الزور 375 جنديًا عوضًا منهم⁽¹⁷⁾.

مع وصول عضو مجلس الشيوخ هنري دي جوفنيل سنة 1925 إلى منصب المفوض السامي في سوريا ولبنان، بدأت تظهر بوادر تبدل بالسياسات الفرنسية، وكان ضباط الارتباط المسؤولون عن البدو يحاولون إقناع موظفي المفوضية في دمشق وبغروت بأن إقامة (دولة بدوية) مستقلة قضائياً وسياسياً من شأنه تسهيل عملية السيطرة على القبائل. هذه الفكرة حظيت بدعم قادة قبليين، ومن ضمنهم أيضاً عشائر من أنصاف الرّحل مثل الولدة، وكان المطلب الأساس يتركز على أن المنطقة يجب ألا تخضع للسلطات المركزية السورية، وكل ما له علاقة في مسائل النزاعات والضرائب والأحوال المدنية وقضايا الملكية والجرائم ينبغي أن يخضع لقانون العشائر الذي وضعه الموظفون الفرنسيون استناداً إلى الأعراف القبلية، لكن جوفنيل اضطر إلى رفض هذه الخطة؛ لكيلا يثير سخط القوميين⁽¹⁸⁾، يبدو أن حذر صناع القرار الفرنسيين ورفض مشروع (الدولة البدوية)، ارتبط في تلك الأثناء بالخوف من نتائجها، ولا سيما بعد الصدمة السياسية والعسكرية نتيجة ثورة الدروز وتداعياتها في المناطق الغربية في سورية، وقد استمر الخلاف الحاد في ما يتعلق بسياسة التعامل مع القبائل بين المفوضية السامية وأجهزة الجيش والاستخبارات الفرنسية في سورية حتى نهاية الانتداب.

ثمة آراء تربط بين السياسة الفرنسية تجاه البدو التي اعتمدت بدرجة كبيرة على الخبرة الاستعمارية التي اكتسبها الفرنسيون في شمال أفريقيا، والرغبة الفرنسية في تعميق الفروقات الاجتماعية، وعزل الحركة الوطنية عبر تحريض المناطق الريفية ضدّ المراكز الحضرية التي تتمركز فيها فئات أكثر وعياً سياسياً وأشدّ في عدائها لفرنسا⁽¹⁹⁾، ومن ثمّ يمكن أن تكون فرنسا قد تقصّدت السعي لإبقاء المناطق التي تنتشر فيها العشائر البدوية بمعزل عن المدن الكبرى مستفيدة من مسألة الازدراء المتبادل والتقليدي بين البدو وسكان الحواضر المدنية، يؤكد فيلود هذا الاتجاه مشيراً إلى أن اتجاه الفرنسيين إلى إفراغ السجون السياسية في دير الزور والجزيرة في المدة 1925 – 1926 من المسجونين القوميين المنفيين فيها، كان تجنباً لمخاطر (العدوى القومية) فتحوّلت هذه السجون إلى إدارة عسكرية فرنسية خاضعة لرقابة صارمة منها⁽²⁰⁾.

(17) راجع: جريدة ألف باء، العدد 738، دمشق، 11 شباط/ فبراير 1923، ص 2.

(18) Martin Thomas, "Bedouin Tribes and the Imperial Intelligence Services in Syria, Iraq and Transjordan in the 1920s.", Journal of Contemporary History, Vol. 38, No. 4 (Oct., 2003), p. 556

(19) د. محمود صالح منسى، الشرق العربي المعاصر، القسم الأول: الهلال الخصيب، (القاهرة: دار الوزان للطباعة والنشر، 1990)، ص 120.

(20) Velud, Christian. « La politique mandataire française à l'égard des tribus et des zones de steppe en Syrie: l'exemple de la Djézireh ». Bocco, Riccardo, et al.. Steppes d'Arabies: États, pasteurs, agriculteurs et commerçants: le devenir

2. سياسة تقليص الاستقلالية العشائرية

في الحقبة العثمانية كانت الدولة تضيف شيئاً من الشرعية عبر الاعتراف باختيار القبيلة زعيمها الجديد، والتصديق على هذا الاختيار وقد تتدخل السلطة في دعم شيخ على حساب منافسه في الأسرة نفسها في حالات نادرة، لكن في العهد الفرنسي تطور الأمر إلى التدخل المباشر في اختيار الشيخ عبر قوانين سُنّت في هذا الإطار، فقد أنشأت المفوضية الفرنسية دائرة العشائر المتصلة مباشرة بالمفوضية الفرنسية، وقد سنت قانون العشائر العام، الذي تركت المادة (34) منه مسألة تعيين رؤساء العشائر إلى المفوض السامي، ونصّت المادة (49) على ألا تُمنح أراضي الدولة للقبائل الرحل إلا بعد موافقة ضابط العشائر الفرنسي⁽²¹⁾، وفي عام 1925 أصدر المفوض السامي قراراً يعطي بموجبه موظفي مصلحة العشائر صلاحيات مطلقة لمعالجة شؤون البدو، ويمنح البدو استقلالاً ذاتياً كاملاً⁽²²⁾، وبهذا نجد أن الشيخ القوي بما يملكه من إمكانيات وامتيازات باتت فرنسا هي من تنصبه، بل باتت المحافظة على وجود الزعماء على رأس قبائلهم مرتبطة مباشرة بسلطات الانتداب⁽²³⁾ التي تعزل من تشاء من زعامة القبيلة وتبقي من تريد.

هذه السياسة أفادت فرنسا من ناحية، لكنها أضرت بها من ناحية أخرى، حيث بدا أنّ الفرنسيين الذين أرضوا شيخاً واحداً في كل منطقة بسياساتهم منبذون من عدد كبير من شيوخ العشائر الآخرين، ولا سيما أن فرنسا لم تراعى في سياستها باختيار الشيخ (معظم الأحيان) قواعد العرف العشائري، وباتت تختار لمشيخة العشيرة من أبدى لها الإخلاص والولاء، ومن ثم تباينت المواقف بين الأشراف وأبناء العمومة في العائلة الواحدة من فرنسا، وأكبر مثال على ذلك هو العلاقة التي أقامها مجحم بن مهيد وعشيرته مع الفرنسيين، والتي سمحت للفرنسيين في تثبيت وحدة عسكرية لهم في منطقة الفرات في خريف عام 1920، لكن ذلك لم يضمن ولاء العشيرة كلها، فالشيخ حاكم ابن مهيد - عم الشيخ مجحم - كان في تلك الأثناء يخوض معارك من أجل مملكة فيصل السورية، وانحاز إلى الأتراك

des zones sèches. Genève: Graduate Institute Publications, 1993. (pp. 61-86) Web.<<http://books.openedition.org/ihed/3048>>.

(21) HAUT-COMMISSARIAT DE LA REPUBLIQUE FRANCAISE EN SYRIE ET AU LIBAN» Les Tribus Nomades et Semi-Nomades". Des Etats du Levants placés sous mandat francais, Beyrouth, Direction des Services des renseignements du Levant, 1930, p.169.

(22) Edmond Rabbath, L'évolution politique de la Syrie sous Mandat de 1920 à 1925, (Paris : Les Presses modernes, 1928), p. 255

(23) Velud Op.cit.

الذين عملوا ضدّ الفرنسيين في سورية منذ خريف عام 1919⁽²⁴⁾، فضلاً على أنه أجرى تفاهماً مع جعفر العسكري على إعاقة تقدم الفرنسيين نحو الجزيرة⁽²⁵⁾.

خامساً: السياسات الفرنسية اتجاه الحدود واللجئين

1. إنشاء (الحاميات) الحدودية

تركت أبحاث أنطوين بويدبارد Antoine Poidebard عن الرومان في بلاد ما بين النهرين، ومحاولة إسقاطه التجربة الرومانية على واقع الانتداب الجديد أثرها في السياسة الانتدابية، ولا سيما أنه طرح بإسهاب قضية استقرار اللاجئين، وضرورة إنشاء الحاميات العسكرية للمحافظة على الأمن، وتثبيت الجنود المرتزقة واللجئين والمستوطنين بمنحهم أراضي حدودية ليكون دفاعهم عن هذه الأراضي والمحصولات جزءاً من حماية وتثبيت الحدود⁽²⁶⁾؛ لذلك اتجهت السلطات الفرنسية إلى سياسة تشييد مراكز الاستقرار التي ستصبح النقاط الرئيسة للجيش المحلي في حال تشكيله، وتكون مراكز اقتصادية تستطيع الدفاع عن نفسها، فشرعت ببناء المستوطنات والبلدات الحدودية، وأدرك الفرنسيون أنَّ الأمن قضية أساس لاستقرار اللاجئين في منطقة محفوفة بالمخاطر، ومن ثم كان لا بد من إقامة حاميات قوية ومنظمة تنظيمًا جيداً لحفظ الأمن، وخاصة في الحسكة التي ستصبح العاصمة الإدارية لمنطقة الجزيرة، فخصصت أراض شاسعة ضمن الحسكة وُزعت على الأفراد العسكريين والموظفين والمساعدين والاحتياطيين. وتجنباً لإثارة السلطات المدنية السورية والسكان المحليين استعمل الانتداب تشريعاً محلياً (إقليمياً)، إذ استصدر قرارات تشريعية خاصة بالتنازل عن الأرض في المناطق المأهولة بناء على قرار من الهيئة الإدارية للواء دير الزور (القرار رقم 339 من 15 آب/ أغسطس 1922) بموافقة المتصرف والقاضي. ولأن هذا القرار الخطر لم يُنقض من المحاكم الإدارية، فقد عجلت السلطات العسكرية بالإجراءات، وخصصت قطع ما يسمى بالأرض داخل حدود بلديات الحسكة ورأس العين، وقسمتها لصالح عائلات من الجيش، وشكل المندوب الفرنسي في

(24) أوبنهايم، البدو، ج 1، ص 140.

(25) محمد جمال باروت، التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 137.

(26) Velud, Op.cit.

دير الزور بناء على اقتراح (القائم مقام) لجنة برئاسة ضابط فرنسي مسؤولة عن استعراض الطلبات، وعلاوة على ذلك ومن أجل إنعاش هذا المرسوم الصادر تقرر منح هذه اللجنة قوة القانون بحيث لا يمكن التعويض عنها في المحاكم⁽²⁷⁾.

يتضح لنا مما سبق أن مدن الجزيرة نشأت بادئ الأمر كحاميات وثكنات عسكرية نمت حولها مدن الجزيرة الحديثة، فهي (مدن عسكرية) - وفق تعبير غورغاس الذي يشير إلى ظهور النمط العسكري في هذه المراكز المدنية في هندستها- ذلك أن ضباطاً من جهاز الاستخبارات كانوا هم الذين رسموا ونفذوا الخطوط الأساس لمدن مثل الحسكة (النقيب مولر Muller)، والقامشلي (الملازم أول تيريه Tիրր)⁽²⁸⁾.

2. سياسة استيعاب اللاجئين

تبنّت المفوضية العليا سياسة استيعاب المهاجرين الذين اعتمد عليهم في تشكيل الوحدات العسكرية المحلية الخاصة المساندة للجيش الفرنسي⁽²⁹⁾، وكان مشروع التنمية الاقتصادية أحد أبرز مبررات المفوضية العليا لسياستها في توطين العناصر الأجنبية المتنوعة في الجزيرة، ومناسبة للدفاع عن سياستها تجاه الأصوات التي كانت تعارضها من داخل فرنسا؛ إذ كانت المفوضية تبرر دوماً أن التحدي الديموغرافي المتمثل بقلة عدد السكان الأصليين العرب وطبيعتهم الاجتماعية كعشائر من الرحل وأنصاف الرحل شكّل عقبة في توسع مشروعها الاقتصادي.

وقد أجرت الدائرة الزراعية التابعة للمفوضية السامية في سنجق دير الزور سنة 1925 دراسة تؤيد تلك المزاعم، واقترحت إلى جانب تشجيع البدو على الاستقرار، تنظيم سياسة استقبال وتوطين اللاجئين وتسريع حركة الهجرة، مع تفضيل واضح للسكان المسيحيين (الأشورية الكلدانية في العراق والأرمنية والسريانية تركياً).⁽³⁰⁾

ولتشجيع عملية استقطاب اللاجئين واستيطانهم في المدن الحدودية الجديدة، تم إصدار قرار إداري يعفي اللاجئين والمستوطنين ممن أنشؤوا أو سيُنشئون قبل ختام عام 1926 دوراً أو دكاكين

(27) Velud, Op.cit.

(28) جوردي غورغاس، الحركة الكردية التركية في المنفى، ترجمة جورج البطل، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص92.

(29) Oeuvre des écoles d'Orient: bulletin périodique, Paris: [s.n], 1928/01 (T32), p.275-277.

(30) Velud, Op.cit.

بإذن أو بغير إذن على الأراضي الأميرية من بدل المثل والعائدات السنوية المترتبة، ويمنحهم حق التصرف فيها مجاناً⁽³¹⁾. في أيلول/ سبتمبر 1927 صدر قرار آخر يقضي بتمديد العمل في قرار الإعفاء حتى نهاية العام 1927، وتم تبرير ذلك بأن القرار لم يبلغ اللاجئين إلا في كانون الأول/ ديسمبر 1926، وأنهم لم يتمكنوا من البناء بسبب الأمطار، ولم تسمح لهم المهلة الممنوحة في القرار (300) بإتمام معاملة الحصول على الأرض قانونياً⁽³²⁾.

كذلك اعتمد الانتداب سياسة توزيع للأراضي الزراعية بشكل مختلف عما كان سائداً في العهد العثماني، ما سمح بالحصول على الحق بالملكية الشخصية لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، وسمح بإعادة تجميع اللاجئين، وتوزيع الأراضي عليهم وتمليكهم إياها⁽³³⁾، يؤكد تلك السياسات ما جاء في تقرير الجمعية الجغرافية الفرنسية السنوي بداية عام 1927 من مقترحات لتوزيع الأراضي على المهاجرين، حيث ورد في المقترح: ((استصلاح المناطق غير المأهولة، ولا سيما على ضفاف الأنهار وفي المناطق القريبة من مواقعنا العسكرية خاصة، حيث يقيم اللاجئون المسيحيون من منطقة ماردين، واللاجئون الأكراد والشركس، ما يمكننا من تطوير عدد من الأراضي الأميرية وتوزيعها على المهاجرين من تركيا)).⁽³⁴⁾

وخلال سنوات قليلة، تحول عدد كبير من المهاجرين إلى كبار الإقطاعيين في الجزيرة، ومثال على ذلك حاجو آغا زعيم عشيرة الهفيركان الكردية، الذي وصل إلى الجزيرة مفلساً وتحول - في عقد واحد - إلى أحد كبار الإقطاعيين فيها، بعد أن سجّل الكثير من القرى باسمه⁽³⁵⁾، ومن المهاجرين من امتلك أكثر من مئة ألف هكتار، مثل المزارع معمار باشي القادم من ماردين في تركيا، وكذلك عائلة أصفر ونجار المهاجرة من ديار بكر التي امتلكت نحو مئة ألف هكتار، واستأجرت من أملاك الدولة مئة ألف أخرى⁽³⁶⁾.

(31) قرار رقم (300)، صادر عن رئيس الدولة أحمد نامي في 4-9-1926، مصدق عليه تحت رقم 527 من المندوب الممتاز بيير أليوب، للمزيد: الجريدة الرسمية العاصمة، (تشرين الثاني/ نوفمبر 1926)، ص 4-5.

(32) انظر قرار رقم (815) صادر عن رئيس الدولة، مصدق تحت رقم 2159 بتاريخ 10 أيلول/ سبتمبر 1927 من دلوله ديلوج، الجريدة الرسمية لدولة سورية العاصمة، (أيلول/ سبتمبر 1927)، ص 55-56.

(33) Velud, Op.cit.

(34) La Géographie: bulletin de la Société de géographie, Société de géographie (Paris), 1927-01, p. 196.

(35) ديفيد مكحول، تاريخ الأكراد الحديث، راج آل محمد (مترجمًا)، (بيروت: دار الفارابي، 1996)، ص 696-697.

(36) عوني فرسخ، إشكاليات الوحدة: الجمهورية العربية المتحدة بحث في المعوقات والإنجازات والإخفاقات، ط 1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011م)، ص 344. انظر أيضًا:

Doreen Warriner, Land Reform and Development in the Middle East; A Study of Egypt, Syria and Iraq (London: Royal

التقرير الذي صاغه ميشيل دوم -أحد رموز الكتلة الانفصالية في الجزيرة- في رسالة موجهة لعصبة الأمم سنة 1937 يسلط الضوء على جانب من دور الأجهزة الفرنسية في دعم اللاجئين في الجزيرة ومما جاء فيه: ((المهاجرون من جميع الأطياف وصلوا إلى الجزيرة، حيث جذبتهم هيبة العلم ذي الألوان الثلاثة، وبفضل الجيش الفرنسي، الذي أسهم في تهدئة المنطقة أولاً، ثم أسهم بشكل كبير في ترميمها، شهدنا تطوير مدينتين: الحسجة والقامشلي، وإضافة إلى ذلك ينبغي اعتبار ازدهار 500 قرية من أعماله))⁽³⁷⁾.

النتيجة هي أن جماعات من مختلف الأديان والمذاهب والإثنيات غمرت الجزيرة، إضافة إلى سكانها من العشائر الرحل وأنصاف الرحل، وكذلك مهاجري القوقاز المستقرين على الخابور. فالمهاجرون الأرمن والأكراد والسريان والكلدان والاشوريون واليهود ضخموا مجموع سكان سورية في ما بين الحربين⁽³⁸⁾، وقد وصفت الدوريات الفرنسية آنذاك الجزيرة بأنها ((أصبحت أرض اللجوء))⁽³⁹⁾، وتمت الإفادة منهم في فرق الجيش الفرنسي المتعددة العاملة في سورية (الفيلق السوري La légion Syrienne، الهجانة La garde Mobile، السرب L'Escadron) وتؤكد مذكرة للحزب الشيوعي سنة 1937 أن الجنود جميعهم تقريباً في كل هذه الفرق كانوا من المهاجرين من تركيا مثل الأكراد، الإيزيديين، والمسيحيين المعروفين (بطوغلاري)، ثم من الأشقياء الذين كانوا قبل دخولهم الجيش قطاع طرق ومهربين⁽⁴⁰⁾. ويشير ألبرت حوراني المعاصر لتلك المرحلة إلى أن الجزيرة في سنوات ما بين الحربين أعيد توطئتها بالكامل تقريباً من قبل الجماعات المهاجرة، لكنه يؤكد أن المسلمين العرب ظلوا يشكلون الجزء الأكبر من السكان⁽⁴¹⁾.

Institute of International Affairs, 1975).

(37) Archives Dominicaines, Fonds Haute Djeziréh, Série IV, Dossier 58, Rapport adressé à la SDN par Michel Dome en date du 6 Aout 1937 ayant pour la titre» La vérité sur les événements sanglants du Juillet 1937", p. 1.

See Aslo: Seda Altug, Sectarianism in the Syrian Jazira: Community, land and violence in the memories of World War I and the French mandate (1915- 1939), This is to obtain a doctoral degree , Utrecht University, 2011, p.292

(38) Mouna Liliane Samman, La Population de la Syrie , Etude geo-demographique , O.R.S.T.O.M, Paris, 1978, P.128

(39) Affaires étrangères: revue mensuelle de documentation internationale et diplomatique, (Le Proche-Orient après la signature des traités franco=syrien et franco-libanais), mars 1938, 1938/03 (A8,N3), p. 158.

(40) « مذكرة الحزب الشيوعي السوري: ماذا في الجزيرة. في أيلول/ سبتمبر 1937»، انظر في: جمال باروت، التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ص 875.

(41) A.H. Hourani, pp.140-141.

3. الهجرات المسيحية

أفادت سلطات الانتداب الفرنسي من الهجرة المسيحية من تركيا والعراق، وكانت المناطق الواقعة على طول الحدود مع تركيا من أهم المناطق التي استقبلت اللاجئين، حيث تجمعوا بالقرب من ضفاف أنهار (البليخ، الخابور، جفجغ)، فضلاً عن منقار البطة بعد عام 1930⁽⁴²⁾.

أ. اللاجئين الأرمن (1915-1925)

شكل الأرمن طلائع الهجرات المسيحية التي لجأت إلى سورية في بدايات القرن العشرين، فقد دفعت الصدامات بينهم وبين الحكومة في سنين (1895، 1908)، وحوادث الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، وما تخللها من صدامات مع الأرمن، أو ما عُرف (بمذابح الأرمن) إلى ارتفاع عدد الأرمن في سورية⁽⁴³⁾، وأدى انسحاب الفرنسيين المفاجئ من كيليكيا ضمن اتفاقية أنقرة الأولى سنة 1921 إلى زيادة معدلات هذه الهجرة أيضاً، وهناك إشارات كثيرة أيضاً إلى أن العوامل المادية والرغبة في تحسين الحالة الاقتصادية كانت وراء زيادة الهجرة، فقد أشار أحد مصادر الدبلوماسية البريطانية إلى أنه ((على الرغم من موقف أنقرة السلبي تجاه المسيحيين، ولكن يبدو أنه لا يوجد أي ضغوط متعمدة من جانب الحكومة التركية لتحقيق هذه الهجرة))⁽⁴⁴⁾، كذلك تقبل الدبلوماسيون الأميركيون ذلك وزعموا ((عدم وجود دليل على سوء المعاملة للأرمن))، وأن المصاعب الاقتصادية هي سبب رئيس للزوح الجماعي، وأضافوا أنه: ((هناك أدلة على أن الضغوط تمارس في مناطق معينة لإجبار الأرمن على دخول المدن والبلدات، وأن صعوبة الحصول على أسباب رزقهم تؤدي إلى هجرتهم التدريجية، خاصة إلى سورية))⁽⁴⁵⁾، والأخطر من هذا كله هو ذهاب بعض المصادر إلى ربط الهجرة الجماعية للأرمن بالتحريض من قبل القوميين الأرمن الذين أرادوا الحصول على أكبر عدد ممكن من مواطنيهم في سورية، على أمل إقامة وجود قوي ضد تركيا هناك، وقد لُحِظَتْ برقية في 25 حزيران/ يونيو 1929 من القنصل التركي العام في مدينة أنتويرب Antwerp البلجيكية، أن القوميين الأرمن بقيادة عضو حزب الطاشناق - حزب التحرير الأرمني- (سوتيون هاراساناريان) قد عقدوا اجتماعاً في أنتويرب

(42) Velud, Op.cit.

(43) الأب فرديناند توتل اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب، دفتر أخوية عزبان الأرمن وما إليه من الفوائد، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1950)، ص 7-9.

(44) Soner Cagaptay, Islam, Secularism and Nationalism in Modern Turkey, First published 2006 by Routledge, P.36

(45) Ibid.

لمناقشة استفزاز هجرة جماعية للأرمن من تركيا إلى سورية⁽⁴⁶⁾.

اجتاز الحدود بين عامي (1922 – 1923) حوالى أربعين ألف أرمني للإقامة في سورية ولبنان⁽⁴⁷⁾، وبين عامي (1929-1930) قدمت ثلاثمائة أسرة أرمنية من ديار بكر وشكلوا طبقة الحرفيين الأوائل⁽⁴⁸⁾، وقدّر فيلود أعداد المهاجرين من الأناضول وكيليكيا بنحو 100 ألف مهاجر، معظمهم من الأرمن⁽⁴⁹⁾. الرسولية الكاثوليكية كانت قد فتحت مجالاً واسعاً للمهاجرين الأرمن للعمل ضمن مشروع تشجيع الكتلحة المدعوم فرنسيًا، وبلغت أعداد الأرمن الكاثوليك في مناطق سورية جميعها حوالى 35,000 نسمة، مقابل 128,000 الغريغوريين⁽⁵⁰⁾، وبعد إنشاء مدينة القامشلي استقر قسم كبير منهم فيها، وأنشئت لهم كنائس وأحياء خاصة منذ بدأ تخطيط المدينة، وقد بلغت أعدادهم بموجب الإحصاءات الفرنسية في محافظة الجزيرة السورية سنة 1943 حوالى 9783 نسمة⁽⁵¹⁾.

ب. اللاجئين السريان (1922-1931)

شهدت المدة بين عامي 1922 و1926 الموجة الثانية من الهجرات المسيحية، وكان للسياسة التركية وتطبيقها الصارم القاضي بخفض نسبة المسيحيين في مدن كيليكيا والأناضول إلى 5 بالمئة أثرها الكبير في عمليات التهجير⁽⁵²⁾. بدأت الهجرات السريانية منذ عام 1922 باتجاه الحسكة مباشرة، بعد تمركز الفرنسيين فيها، وشكلت العناصر السريانية طلائع جيش المشرق الفرنسي حينذاك، وكان هناك شخصيات عملت مع الفرنسيين في المقاولات للجيش الفرنسي والوظائف الأخرى من مثل الترجمة وغيرها منذ دخول الفرنسيين الذي اعتمدوا عليهم بجزء كبير من سياستهم الإثنية، وقد انحدرت الهجرات المسيحية السريانية إلى الجزيرة السورية من منطقتين رئيسيتين هما: طور عابدين التي تضم مديات وآخ ونصيبين والقرى المحيطة بها؟، وهؤلاء كانوا محافظين في قراهم على لغتهم

(46) Ibid.

(47) غورغاس، ص 60.

(48) L'Écho du Sud: [«puis» Organe indépendant] des interest généraux du Sud de Madagascar, Fianarantsoa: [s.n.?], (A11,N536), 15/07/1939.

(49) Velud, Op.cit.

Oeuvre des écoles d'Orient: bulletin périodique, Paris: [s.n], 1928/01 (T32), p. 275-277 (50)

(51) Altug, p.9

(52) Velud,» Op.cit

السريانية، ويتحدث بعضهم كذلك الكردية، والسريان من منطقة ماردين، وتشكل العربية المصدر الأساس للغة والهوية لدى هؤلاء، وينسب السريان المهاجرون من ماردين إلى منطقتين هما قلعتما (قلعة مرة)، والقصور ويعرف أهلها (بالقصّوارنة أو القصّورانية).

وفي وثيقة عن الزيارة البطيركية التي قام بها المطران أفرام حيقاري نهاية عام 1931 إلى دير الزور والجزيرة يذكر حيقاري أنّ عدد المسيحيين يزداد يوماً بعد يوم، مستشهداً ببلدة عين ديوار التي أنشئت سنة 1930، وفي عام بات فيها حوالي ثلاثمئة عائلة مسيحية، ويشير المطران إلى لقائه بالمستشار الفرنسي الليوتنان بيريه Perrier والحديث الطويل الذي جرى بينهما بشأن مسيحيي عين ديوار وجهاتها، وطلبه تسهيل مجيء المسيحيين والعناية الخاصة بالقادمين منهم إلى عين ديوار والبلاد السورية، وضرورة فتح المجال لهم لتصبح الأكثرية مسيحية في هذه المنطقة، فهم ((أحسن عنصر صادق لدى الفرنسيين، ووجودهم بكثرة يخفف عن الفرنسيين)) - بحسب حيقاري -، مضيفاً أنه طلب بشكل خاص المساعدة للعناية بالناشئة ونشر النفوذ الفرنسي والتهديب الفرنسي.. إلخ، وقد وعده المستشار الفرنسي بتقديم المساعدة لبناء مدرسة في أحسن بقعة من البلدة، واستحصال الدعم المادي اللازم لذلك، ولا سيما أن المسيحيين كما يشير حيقاري ((لا يرسلون أولادهم إلى المدرسة الأميرية التي افتتحها وزير المعارف (محمد كرد علي) في عين ديوار سنة 1931، ولا سيما أن المعلّم مسلم))⁽⁵³⁾.

هنا يمكن أن نلاحظ أنّ هناك تناغم شديد بين السياسات الفرنسية من جهة، وفئات من اللاجئين (من مثل رجال الدين المسيحي) المنخرطين بسياسات الكتلّة التي اتبعتها الفرنسيون كذلك اتجاه المسيحيين اليعاقبة وغيرهم.

ج. الهجرات الآشورية - الكلدانية (1933-1939)

مثلت الهجرات الآشورية (النسطورية) المصدر الثالث من مصادر الهجرة المسيحية إلى الجزيرة في القرن العشرين، إذ وصل عدد من السكان (الكلدو- آشور) من العراق إلى سورية بعد المعارك التي اندلعت بينهم وبين الجيش العراقي، وبعد المذبحة التي عرفت بـ (مذبحة السُميل)، بعد أن رفضت البرازيل وبريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا والدمينون وهولندا وإسبانيا والبرتغال وتركيا والأرجنتين استقبالهم، حتى قبرص لم يكن فيها ما يكفي لاستقبال الآشوريين، فضلاً عن كينيا في أفريقيا التي

(53) أغناطيوس أنطون الثاني حايك (بطريك السريان الأنطاكي السابق)، تاريخ أبرشية نصيبين والحسكة، (بيروت: مطبعة توما، 2006)، ص 48-50.

كره الآشوريين الهجرة إليها⁽⁵⁴⁾. وكانت المفوضية الفرنسية تنوي إسكانهم في منطقة وادي الغاب نتيجة لخصوبتها، وذلك قبل اسكانهم نهائياً في منطقة الخابور⁽⁵⁵⁾. وقد قدرت أعدادهم أواسط سنة 1939م بحوالى (9000) آشوري في وادي الخابور⁽⁵⁶⁾.

أما من نسميهم كلداناً اليوم فقد كانوا جزءاً من المذهب النسطوري لكنهم اعتنقوا الكاثوليكية، وكانوا يُعرفون بمجموعة السهل، وقد أطلق الفرنسيون عام 1919 مصطلح (الكلدو- آشور) في محاولة التوحيد بينهم وبين النساطرة والسريان الأرثوذكس والكاثوليك، واستعملهم جميعاً قوات إثنية أسهمت في احتلال الجزيرة السورية وقمع الحركات المعادية للفرنسيين أو التي تميل للقيادة الكمالية⁽⁵⁷⁾. وصل الكلدان مع أشقائهم الآشوريين من مناطق نينوى والموصل، وقد بلغت أعدادهم سنة 1943 حوالى 1965 نسمة⁽⁵⁸⁾.

قدمت فرنسا للآشوريين الأراضي على ضفاف الخابور، وكذلك القروض لبدء الأعمال الزراعية، واستغلالاً لوضعهم أخذت تجندهم أيضاً في جيش المشرق الفرنسي⁽⁵⁹⁾، فالوضع الآشوري المتردي جعلهم عرضة للاستغلال، وتغنت فرنسا أمام الرأي العام بأنها حامية الأقليات من الاضطهاد، وأن الأقليات تلوذ بفرنسا لهذا السبب⁽⁶⁰⁾.

قوبلت عملية إسكان الآشوريين باحتجاجات من الكتلة الوطنية آنذاك، الذين عدّوا أن سياسة إسكان الآشوريين في سورية من قبل فرنسا بعد أن رفضت كثير من الدول استقبالهم تعد خروجاً على واجبات فرنسا تجاه سورية، وتنافي مصالح السوريين، فضلاً عن أن الآشوريين ((شعب اشتهروا بأعمال الشقاوة والثورة على حكومات البلاد، وأن وجود هذا العنصر المقلق في سورية وإسكانه على الحدود يعرض سورية لمشكلات مع الحكومات المجاورة، وما يمكن أن تسببه الهجرة من حرمان

(54) باروت، ص 273-277.

(55) الجريدة الرسمية للجمهورية السورية، وقائع المجلس النيابي، الدور التشريعي الثاني، الدورة العادية الأولى، الجلسة الخامسة عشرة في 26 أيار/ مايو 1937، ص 794.

(56) ستيفن همسلي لونكريك، تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل (بيروت: دار الحقيقة، 1978)، ص 314.

(57) باروت، ص 200.

(58) Altug, p.9

(59) قسطنطين بيتروفيتش، الآشوريين والمسألة الآشورية في العصر الحديث، ترجمة حنا. د.أ.، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر، 1989)، ص 161.

(60) Bulletin quotidien de presse étrangère, France. Ministère de la défense. (Paris), 29 août 1933, (T55, N5434).

السوريين من منافع ومنحها للأشوريين على حسابهم⁽⁶¹⁾. يذهب فيليب خوري إلى أنه كان لدى السوريين غير سبب واحد لصدد تدفق الأشوريين إلى بلدهم، ويكفي القول إنهم كانوا يخشون تحول الأشوريين إلى طابور خامس⁽⁶²⁾.

4. الهجرة اليهودية

مع بدء إنشاء بلدة القامشلي وإحكام السيطرة الفرنسية، بدأت هجرة الأسر اليهودية من بلدة نصيبين إلى المنطقة، وقد دَوَّن السيد سيلفر رئيس اللجنة المركزية الإسرائيلية العالمية تفاصيل زيارته إلى القامشلي سنة 1934، وتضمنت معلومات مهمة عن وضع البلد ونشأته، ومئات اليهود الذين وفدوا من نصيبين، وتبين أنَّ أول يهودي هاجر إلى القامشلي كان الحاخام (موشيه ناحوم عبد الله) الملقب بـ (خادم الرب)، واستطاع شراء بعض الأراضي فيها، ثم لحق به اليهود الآخرون، وبنوا المحال التجارية على الضفة الغربية لنهر جفجغ في المنطقة التي تتوسط السوق، وباتت تُعرف بالحي اليهودي، وكان الشارع يُعرف أيضًا آنذاك بالشارع اليهودي الكبير، وما يزال حتى الآن يُعرف باسم (سوق اليهود)، وكان السوق يلبي احتياجات أهل البادية والريف، ومركزًا لتبادل السلع من صوف وسمن مقابل الحبال والأقمشة والحاجيات الأخرى، ووجد اليهود فضاءً للتعايش بعيدًا عن العصبية في بلدة (القامشلية) الوليدة، وكانت علاقاتهم مع عشائر المنطقة العربية توصف بالمتانة، فضلًا عن قدرتهم على التنقل بحرية وممارسة تجارتهم مع البدو في كل المناطق، لكنهم بدؤوا يعانون تعصب المسيحيين الأكراد القادمين من تركيا بحسب تقرير سيلفر⁽⁶³⁾.

وعلى الرغم من أن أعداد اليهود المهاجرين إلى القامشلي كانت ضئيلة مقارنة بالأقليات الأخرى، إلا أنها مثلت عنصرًا حضريًا اقتصاديًا وتجاريًا مهمًا جدًا في المنطقة، وتبين إحصاءات جرت في عام 1943 أن عدد اليهود في القامشلي بلغ (1319) نسمة، في حين كانت أعدادهم في الحسكة لا تتجاوز (43) نسمة، و(76) نسمة فقط في قضاء دجلة (ديريك/ المالكية لاحقًا)⁽⁶⁴⁾، وكان لهم تجمع كبير

(61) عبد الرحمن الكيالي، المراحل، ج2، (حلب: مطبعة الضاد، 1958)، ص 252.

(62) خوري، ص 505.

(63) Leg juifs de Kamechlié, Paix et droit: organe de l'Alliance israélite universelle (Paris), Numero 2, (Avril 1934), P. 10-14.

(64) Jazira Population, 31 December 1943 (source: CHEAM, L'état Civil en Syrie en Relation avec les Questions de Nationalité et de Statut Personnel des Communautés Religieuses, Emile Taupenot, no. 50, n.d.)

في قرية العويجة قرب القامشلي، وكانوا يشتغلون بالزراعة هناك ويربون المواشي، ويتزبون بزي أهل المنطقة العربي، وفي عام 1970 وصلت أعدادهم (في مختلف المناطق السورية) إلى (4574) نسمة، بينهم (2894) في دمشق، (1266) في حلب، (414) في القامشلي في الجزيرة⁽⁶⁵⁾.

5. الهجرات الكردية

كان الموقف الفرنسي يتسم بنوع من الرفض إزاء اللاجئين الأكراد في بادئ الأمر، إذ لم يكن الفرنسيون يجدون أي مصلحة بلعب (الورقة الكردية) حينها، وكانوا يفضلون العنصر المسيحي لإحداث توازن ديموغرافي مع المسلمين، فضلا عن أن إسكان قبائل كردية من الرّحل يتعارض مع برنامج الاستعمار الزراعي في هذه المنطقة، ولم يكن الفرنسيون مطمئنين للولاء السياسي للقبائل الكردية⁽⁶⁶⁾، خاصة اتجاه أولئك الذين اشتركوا في الانتفاضة ضدّ السلطات التركيّة خاصة سنة 1925، تجنبًا لإثارة حساسية أنقرة، حيث كانت تقوم بتطبيق سياسات الإبعاد عن الحدود حتى من دون طلب تركي.

وقد أرسل المفوض السامي (في تلك المرحلة الجنرال ساريل) تعليمات في أوائل آذار/ مارس 1925 إلى موظفيه بخصوص اللاجئين تنصّ على ((مراقبة المتمردين الذين لجأوا إلى القبائل الكردية السورية، للتأكد من أنهم لا يشكلون أي مركز للاضطراب المناهض لتركيا))⁽⁶⁷⁾، ولهذه الغاية، كان يتعيّن مراقبة القبائل بعناية، وتعزيز وحدات الدرك في المنطقة.

ونصت تعليمات فرنسية إضافية أيضًا على ((إبعادهم إلى مسافة 30 كم على الأقل من الحدود التركية السورية، مراعاة لعلاقاتها الطيبة مع تركيا))، ((وينبغي نزع سلاحهم، لكيلا يشكلوا تهديدًا للأتراك شمال الحدود))⁽⁶⁸⁾، وبعد اتفاقية حسن الجوار الفرنسية التركية، في شباط/ فبراير 1926،

(65) Seurat, Michel. « IV - Les populations, l'état et la société ». Raymond, André. La Syrie d'aujourd'hui. Aix-en-Provence: Institut de recherches et d'études sur le monde arabe et musulman, 1980. (pp. 87-141). <http://books.openedition.org/iremam/731>

(66) غورغاس، ص 62-63.

(67) Benjamin Thomas White. The Emergence of Minorities in the Middle East: The Politics of Community in French Mandate Syria, Edinburgh University Press. (2011), p.109

(68) غورغاس، ص 63.

تمّ تمديد منطقة الاستبعاد عن الحدود لتصبح 50 كم، بدلاً من 30 كم⁽⁶⁹⁾.

تغيّر الموقف الفرنسي بعد وصول ضابط الاستخبارات الفرنسية الملازم أول بيير تيريه (Lieutenant Pierre Terrier) الذي قلب المنطقة رأساً على عقب عبر مشروعه الذي حمل اسمه، إذ كان على امتداد ثلاث سنوات من وجوده نصيراً للاجئين الكرد من تركيا، بعد انتفاضة عدوهم السابق حاجو آغا سنة 1926 ضدّ حكومة أنقرة خاصة، ولجوئه مع قبيلته

(الهفيران) إلى سورية، الأمر الذي شكّل بداية تحالف استراتيجي بين الملازم تيريه وبين حاجو آغا، وفي النهاية بادرت فرنسا إلى قبول وتشجيع الأكراد على الاستيطان في الجزيرة العليا وكرد داغ، وقد أسهم ذلك في زيادة أعدادهم بعد إدراكها ما يمثله الأكراد من ثقل في سياسة استعمار الجزيرة وفي حل النزاعات الحدودية مع تركيا⁽⁷⁰⁾. وحينما غادر تيريه الجزيرة وتم إلحاقه بالمكتب السياسي في المفوضية العليا، ونظراً للظروف الجغرافية للمناطق التي يتوزع عليها الأكراد، والتي لا تسمح بتحويلها إلى ولايات ذات حكم ذاتي قد اقترح تيريه على الزعماء والوجهاء الأكراد التركيز على الجزيرة، إذ يمكن وجود أمل بتطويرها إلى منطقة استقلال ذاتي للأكراد، أما فيما يتعلق بقضائي كرد داغ وجرابلس، فينبغي الاكتفاء ببعض الصلاحيات.

وقد بدأت السلطات الفرنسية عملاً بمشروع تربيته بالسماح لزعماء الحركة القومية الكردية بالإقامة في مدينة الحسكة مركز الجزيرة، وكان من المفترض اتخاذ تدابير أخرى ذات طابع ثقافي وإداري، حتى الوصول إلى استقلال ذاتي شبيه بدولتي العلويين والدروز، وقد تمّ إنجاز جزء من التدابير التي نصّ عليها مشروع تربيته بين عامي 1928 و1936 بحسب تقرير للأمن العام كتب عام 1943، ويمكن أن نذكر من تلك التدابير: تعيين موظفين كرد في الجزيرة، وتشكيل فوج من جيش المشرق يضم أكراداً ومسيحيين، وفتح صف كردي في المعهد العالي العربي في دمشق، وإنشاء صف ليلي لتعليم الكردية في بيروت، والاستحصال على رخصة لصدور مجلة هاوار، وتدخل جهاز المخابرات لإلزام الحكومة السورية بإعطاء بطاقات هوية للاجئين الكرد.

أثارت السياسات الفرنسية اتجاه الأكراد النازحين إلى الأراضي السورية شكوك ومخاوف السوريين، وكانت بعض الصحف المحلية واللبنانية تنقل تلك الشكوك والاثهامات الموجهة لفرنسا فيما يتعلق بسعيها لإقامة كيان كردي على الحدود السورية-التركية، ((وتتساءل كيف يمكن لفرنسا

(69) Benjamin, Op.cit. pp.109-110

(70) غورغاس، ص 77.

أن تتساهل بإقطاع الغرباء عن سورية أراضي سورية⁽⁷¹⁾.

تشير بنية ومحتويات المحفوظات الفرنسية إلى أنَّ الملفات التي تشير عناوينها ببساطة إلى الأكراد أو (الأكراد في سورية) تحوي دائماً تفاصيل تركز بشكل كبير على الأحداث التي كان لها تداعيات عبر الحدود أو داخل سورية، مثل: (الأكراد اللاجئيين في سورية، تجدد العنف على الحدود، تدفق المزيد من اللاجئيين).

بادئ الأمر كان المسؤولون الفرنسيون يشعرون بالقلق من أن مزيداً من الضغوط، والقوة التي يستعملها الأتراك ضدَّ الأكراد في تركيا، قد تسهم في نقل (المشكلة الكردية) إلى سورية، بما يشكل عبئاً على فرنسا، لكنهم على ما يبدو لم يكونوا مستائين من قبول الهجرة الكردية ما داموا قادرين على السيطرة عليها من طريق المراقبة ونزع السلاح كما أشرنا سابقاً، وبالتالي عملوا على الإفادة من هذه الهجرة⁽⁷²⁾ وفي السنوات التي تلت ثورة الشيخ سعيد خاصة التي أظهرت بشكل واضح تشجيع الفرنسيين على إقامة الأكراد في المناطق الحدودية في الجزيرة العليا، وفي كورد داغ، وهذا ما قام به ألوف اللاجئيين الهاربين من قمع النظام الكمالي، بعد قمع انتفاضة الشيخ سعيد⁽⁷³⁾ 1925.

بدأت تتجلى ملامح سياسة فرنسيّة لا تقبل الشك في برغبتها في الإفادة من وجود مجموعات كردية معادية للأتراك حاجزاً حدودياً في وجه الأتراك، وربما لابتزاز الموقف التركي والضغط عليه متى ما دعت الحاجة لكسب أي موقف أو تفاهم جديد، لذلك كانت الهجرات الكردية مستمرة بدءاً من عام 1925 إبان اندلاع ثورة الشيخ سعيد بيران، مروراً بانتفاضة أكري (1932-1939) وأخيراً الهجرات بدوافع اقتصادية مع السياسات الزراعية في الجزيرة بدءاً من عام 1945 واستمرت حتى بداية السبعينات من القرن العشرين⁽⁷⁴⁾.

وتشير الوثائق الفرنسية إلى أن الفرنسيين كانوا ينظرون بارتياح إلى النمو السكاني بين الأقليات في سورية لمواجهة المطالب القومية العربية؛ حيث إن وجود خليط من السكان من انتماءات مختلفة يتيح للسلطات المنتدبة تقسيم البلاد ويجعل وجود فرنسا ضرورياً لحماية حقوق الأقليات الإثنية والدينية في مواجهة الخطاب القومي المستند على عروبة سورية.

(71) صحيفة لسان حال، «الوطن الكردي»، ع: 10213، (بيروت، 21 كانون الثاني / يناير 1928).

(72) Benjamin, Op.cit, P.112

(73) غورغاس، ص 62.

(74) مكحول، ص 703-704.

وأيًا يكن الأمر فقد أخذت سياسة توطين اللاجئين، المسيحيين أولاً، ثم الكرد، بُعدًا أدى خلال عقدين إلى تغيير وجه الجزيرة السوريّة الإثني والديني تغييرًا عميقًا⁽⁷⁵⁾، وعلى الرغم من هذا بقي الأكراد أقليات عديدة في مناطق توزعهم بالشمال السوري بخلاف العلويين والدروز الذين كانت لهم كيانات (دول) شكلوا فيها أهمية عددية كبيرة أو الأغلبية العظمى كما في دولة الدروز⁽⁷⁶⁾.

مع توقيع المعاهدة السورية الفرنسية التي نصّت على استقلال البلدان السورية وانسحاب القوات الفرنسية خارج أراضيها، كان التعاون الفرنسي الكردي قد توقف، وتوقف مشروع تيريه، وجرى التراجع عن بعض التدابير التي كانت في مصلحة الكرد⁽⁷⁷⁾.

سادسًا: موقف القوى الوطنية من توطين اللاجئين

اتخذت القوى الوطنية المختلفة مواقف مناهضة لسياسات فرنسا الهادفة إلى توطين مجموعات اللاجئين سواء المسيحيين أو الأكراد، إذ كان من شأن ذلك الإخلال بالتوازن الديموغرافي وإعاقة الطموحات القومية هناك - بحسب خوري⁽⁷⁸⁾، ففضلا عن عامل اليقظة القومية الذي أضعف الرابطة الدينية كأساس لترايط الأقوام العثمانية المختلفة⁽⁷⁹⁾ فإنّ العامل الآخر لبروز مسألة الأقليات العنصرية في سورية من وجهة نظر بعض النخب الوطنية المعاصرة لتلك الحقبة تمثل بالسلطة المنتدبة التي كان من غاياتها في سورية ((إضعاف الروح القومية العربية، بخلق شتى الميول والنزعات، لهذا لم تتورع السلطة الفرنسية عن إدخال عناصر مختلفة بغية القضاء على الوحدة القومية))⁽⁸⁰⁾. كذلك استغلال السلطات الفرنسية لعامل الأقليات، في استخدامهم بأعمال عسكرية ضدّ السوريين، كما حدث في الفرات عندما استخدمت عشائر محمود باشا المليّ الكردية لقمع انتفاضة الفرات، وكذلك استخدام الكتائب الأشورية، ويشير مكحول إلى أنه حينما قام القوميون العرب والدروز بالثورة الكبرى ضدّ الحكم الفرنسي في عام 1925 استعملت فرنسا قوات

(75) غورغاس، ص 60.

(76) Benjamin, Op. cit, P.112

(77) غورغاس، ص 62-63.

(78) خوري، ص 584.

(79) George Antonius, The Arab Awakening, Beirut: Khayats, 1938, p.369

(80) نجم الدين الرفاعي، المشاكل السياسية الداخلية في سوريا، رسالة لنيل الدكتوراة في العلوم السياسية (بيروت: الجامعة الأمريكية، 1946)، ص 47.

إضافية مجندة من الأقليات لسحقها، ومن بينها قوات كردية، بعض أفرادها من المهاجرين الذين وصلوا للتو من تركيا، وبعضهم الآخر من سكان حي الأكراد الذين سُجلوا من قبل حاميمهم المحلي عمر آغا شمدين⁽⁸¹⁾، كما عبّر عبد الرحمن الكيالي عن سخط المنطق الفرنسي في تبرير استقبال اللاجئين وآخرهم الآشوريون على أراضي سورية بذريعة العمل الإنساني، وعدّ أن الهدف الحقيقي هو ((إملاء سورية بالعناصر اللاجئة، الغربية بجنسيتها ولسانها وعرقها ووطنيتها، لتقليل كثافة العناصر العربية وإضعاف شوكة السكان وخلق شغب على الحدود يهدد الكيان))⁽⁸²⁾.

ويرى خوري أنّ كشف الجزيرة واستيطانها وجعلها أهلة بالسكان أظهر مكنونها الاقتصادي الهائل، وبالتالي أهميتها بالنسبة إلى مستقبل سورية موحدة مستقلة، أما الإقليميون (الانفصاليون) من ناحية أخرى فكانوا قادة أقلية تتمنى الحفاظ على نفوذها التقليدي واستقلالها تحت الحماية الفرنسية⁽⁸³⁾.

يمكن كذلك في هذا الإطار التذكير بالتحذيرات المبكرة التي أطلقها وزير المعارف السوري محمد كرد علي، في تقريره عن لواء الجزيرة الذي رفعه في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1931 إلى رئيس الجمهورية آنذاك تاج الدين الحسيني ومما جاء فيه⁽⁸⁴⁾: ((وتعلمون- أيّدكم الله- أن معظم من هاجروا إلى تلك الأرجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والأرمنية والعربية واليهودية، وجمهرة المهاجرين في الحقيقة هم من الأكراد نزلوا في الحدود، وإنّي أرى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان؛ لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي إلى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية؛ لأن الأكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم، فالأيام كفيلة بأن تنيلهم مطالبهم، إذا ظلوا على التناغي بحقهم والإشادة بقوميتهم، ومثل هذا يقال في أتراك لواء الإسكندرونة، فإن حشد جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الأجل لا يرتاح إليها السوريون، فالأولى إعطاء من يريد من الترك والأكراد أرضاً من أملاك الدولة في أرجاء حلب وحمص))، كذلك ينصح كرد علي بعملية الدمج الاجتماعي للاجئين مع السكان المحليين لتذويب الفروقات فيقول: ((ومهاجرة الكرد والأرمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها؛ اتقاء لكل عادية تطرأ، ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير))⁽⁸⁵⁾.

(81) مكحول، ص 693.

(82) الكيالي، المراحل، ج 2، ص 255.

(83) خوري، ص 584.

(84) محمد كرد علي، المذكرات، ج 2، (الرياض: دار أضواء السلف، 2010)، ص 436-443.

(85) محمد كرد علي، المذكرات، ص 436-443.

سابعًا: سياسات فرنسا في تشجيع حوادث الانفصاليين

كان نشاط الأجهزة الفرنسية يزداد مع تنامي شعبية الحركة الوطنية في عموم أرجاء سورية، الأمر الذي دفع الفرنسيين لزيادة تشجيعهم للقوى الانفصالية لإثارة مطالبهم بالحكم الذاتي والإداري والمالي شبيه ما تم منحه للدروز والعلويين، تحت حماية الانتداب الفرنسي، وتعيين موظفين محليين تحت إمرة حاكم فرنسي، وكان ضمن الحركة الانفصالية بعض زعماء القبائل الكردية والعربية وبعض التجار والمزارعين المسيحيين.

ويعزو كريستيان فيلود روح التمرد في الجزيرة كذلك إلى الطابع غير المتجانس لسكان القامشلي ومدن الجزيرة بشكل عام⁽⁸⁶⁾، ولا نتفق كثيرًا مع هذا التفسير، بل نرى أن عقلية الغنيمة التي كانت تغلب على سكان المنطقة من مختلف الانتماءات هي الدافع الأبرز خلف مواقفهم واصطفافاتهم. فزعماء الكتلة الانفصالية (المسيحية - الكردية) كانوا بالدرجة الأولى يسعون للحفاظ على مكانتهم ووضعهم المميز الذي وصلوا إليه في الجزيرة، فقد حصلوا على الأراضي وبناتوا وسطاء بين السكان المحليين والسلطة عبر تعاونهم الوثيق مع ضباط الأجهزة الفرنسية الخاصة، وبناتوا يلعبون على ورقة الاستقلال الذاتي دفاعًا عن مكاسبهم⁽⁸⁷⁾، ويؤكد غورغاس أن أنصار الاستقلال الذاتي (من الكرد والمسيحيين) يعترفون بأنهم قدموا حديثًا إلى الجزيرة، غير أن إعمار منطقة كانت تعد صحراوية يعطي (حقوقًا) للسكان الجدد، فهم يعدون أنفسهم الصانعين الحقيقيين للجزيرة الحديثة⁽⁸⁸⁾، أما العرب فقد كانوا منقسمين إلى جبهتين تحركهما غالبًا أطماع السلطة والنفوذ داخل القبيلة، أو مسائل تتعلق بالسيطرة على الأرض؛ فاتخذوا مواقف بين مناصر أو معارض لاتجاه الكتلة الوطنية التي مثلها آنذاك دهام الهادي⁽⁸⁹⁾. فقد وقف في صف الانفصاليين في حوادث الجزيرة في تموز 1937 زعماء عشائر عربية ممن همشتهم الأحداث لاحقًا من أمثال ميزر بن عبد المحسن (شمر) ومحمد العبد الرحمن (طي) وأبناء إبراهيم باشا وقادة آخرون كرد⁽⁹⁰⁾. لكن مواقف هؤلاء الزعماء والشيوخ سرعان ما كانت تتبدل وتتغير وينتقلون إلى الضفة الأخرى من دون أي مشكلة⁽⁹¹⁾.

(86) Christian Velud, «L'émergence et l'organisation sociales des petites villes de Jézireh, en Syrie, sous le mandat français», dans Petites villes et villes moyennes dans le monde arabe, URBAMA, N° 16-17, 1986. P.95.

(87) غورغاس، ص 111-112.

(88) المرجع نفسه.

(89) خوري، ص 585.

(90) أوبنهايم، البدو، ج 1، ص 118.

(91) تبرا خليل باشا الملي في جلسة للبرلمان من الحركة الانفصالية التي كان أحد رموزها مبررًا ذلك بأنه تبين له بأنها لم تقم لتحقيق

1. حوادث الجزيرة (1937-1938)

كانت مقتضيات معاهدة عام 1936 تلزم المفوضية العليا الفرنسية بدعم دمشق في مواجهة أي عصيان أو محاولات انفصالية في الأطراف، لكن الأجهزة الفرنسية، وكذلك الإرساليات العاملة في فرنسا، وبعض أولئك المؤثرين في الرأي العام الفرنسي، لم يتوقفوا عن انتقاد ما سمّاه هيمسلي (الأنتلجنسيا) الدمشقية، وكانوا يقفون إلى جانب الانفصاليين ومنهم الحركة الانفصالية في الجزيرة، كما سارعت الأجهزة الفرنسية بعد قرار وحدة جبل الدروز ومحافظة اللاذقية -وفق ما تقرر في الاتفاقية- إلى محاولة إحباط الوحدة من طريق إثارة المشكلات والصراعات الداخلية هناك على غرار ما فعلته أجهزة الاستخبارات الفرنسية في الجزيرة، ويلحظ ألبرت حوراني أن الجزيرة شكلت نموذجاً لمشكلة معقدة تتحدد طبيعتها بعدد كبير من العوامل من حيث التوتر بين المسيحيين والمسلمين بين العرب والكرد أو التدخلات التركية والعراقية عبر الحدود⁽⁹²⁾. أضف إلى ذلك أن دعاة الحكم الذاتي كانوا واثقين -وإن لم يتم تلبية طلبهم- بأن المشاعر الفرنسية الكاثوليكية لن تسمح -لأسباب واضحة- باللجوء إلى القسر الذي كان الوضع يقتضيه⁽⁹³⁾.

امتاز النصف الأول من السنة 1937 بالتوتر في الجزيرة، ففي الوقت الذي كانت بعض المجموعات الانفصالية بقيادة المطران حي من الطائفة الكاثوليكية السريانية وخلفه الكاردينال تبوني دائبين على تنظيم قواهم، كان هناك اتهامات لموظفي العاصمة في الجزيرة بعدم المرونة، الأمر الذي أدى إلى اندلاع الصدامات الأولى في صباح 6 تموز / يوليو 1937 في الحسكة، وتعرض المحافظ بهجت الشهابي وضباط الشرطة للتهديد وهجوم السراي⁽⁹⁴⁾. أدى الهجوم لجرح أفراد من الشرطة وهرب الباقون ملتجئين إلى السراي، في اليوم التالي تم إطلاق النار على دورية من رجال الدرك أثناء مرورها أمام منزل عبد الأحد قريو (رئيس البلدية وأحد زعماء العصيان) فقتل دركيان، واعتُقل ستة آخرون، ونزع منهم سلاحهم، واقتيدوا إلى باحة الكنيسة، وهنا جاء ضابط الاستخبارات الكابتن توماس بسيارته فاستلم المعتقلين، واقتادهم إلى سراي الحكومة من دون استرداد سلاحهم، وقتل في اليوم نفسه دركي على درج السراي، وانقطعت دوريات الدرك والشرطة وحوصر الموظفون في السراي⁽⁹⁵⁾.

مطالب مشروعة وطالب بإنزال أشد العقوبات بحقها، انظر الجلسات النيابية، الجريدة الرسمية لجمهورية سورية، العدد 14، 5 أيار / مايو 1938، ص 146.

(92) A. Hourani, Syria And Lebanon A Political Essay, (London: Oxford University Press), P.141-140

(93) همسلي، تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 312.

(94) همسلي، تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ص 312.

(95) جمال باروت، ص 882.

تكررت تلك الحوادث ضدّ الموظفين الحكوميين في القامشلي ومديريات رأس العين وعين ديار وغيرها، أما في عامودا فقد بقي الأمن آنذاك مستتب مع وجود أكثرية من الأكراد المواليين للحكومة، مع ملاحظة أن عامودا والدرباسية اللتين لم يحدث فيهما العصيان لا يوجد فيهما ضباط استخبارات فرنسيون⁽⁹⁶⁾.

كانت أجهزة الاستخبارات الفرنسية متهمة بتدبير حوادث الجزيرة، وبتهريض السكان على نصب الكمائن لأجهزة الدرك بهدف التشويش على السلطة المركزية⁽⁹⁷⁾، يحدد بكداش عبر مذكرة أصدرها الحزب الشيوعي سنة 1937 وأرسلها لأصحاب القرار الفرنسي عن حوادث الجزيرة الأسباب التي تقف وراء تلك الأحداث وينفي أن تكون الحركة حركة مسيحية تدافع عن نفسها ضد (إرهاب الإسلام)، أو أنها حركة (أقلية تحمي حقوقها من تعدي الأكثرية) أو أنها (حركة عفوية جماهيرية)، ورأى أنها (مؤامرة مدبرة منذ زمن طويل) قام بترتيبها وتنظيمها وتسليحها العناصر الفاشيستية بين الموظفين الفرنسيين في الجزيرة نفسها وفي غير الجزيرة أيضاً⁽⁹⁸⁾.

ويقدّم بكداش قائمة بزعماء العصيان الذين ينتمون إلى أديان وإثنيات متعددين وهم: المطران حبي، عبد الأحد قريو (رئيس بلدية الحسجة)، ميشيل دوم (رئيس بلدية القامشلي)، حاجو آغا (أكراد هفيركان)، خليل إبراهيم باشا (أكراد مليّة)، سعيد إسحاق (سرياني)، ميزر عبد المحسن (مسيخة عرب شمّر)، محمود إبراهيم باشا (أكراد مليّة)، قدري جميل باشا (كردي)، إلياس مرشو (سرياني)، جميل الديلنجي، حبيب مريمو (سرياني)، مقسي نعوم (سرياني، رئيس بلدية الحسجة سابقاً)، محمد آل عبد الرحمن (مسيخة عرب طيء)، إبراهيم إسحاق، عبد العزيز المسلط (مسيخة عرب الجبور)، وإضافة إلى هؤلاء يجب ذكر الأجدودان⁽⁹⁹⁾ مراد، والسرجان⁽¹⁰⁰⁾ ميشيل وهما من صغار ضباط الجيش يناصران العصاة على المكشوف، ويؤكد بكداش - من طريق استعراض تلك الأسماء- أن الحركة لم تكن حركة (أقلية قومية)، ولا حركة دينية مسيحية بل مؤامرة على المعاهدة اشترك فيها نفر من الزعماء الرجعيين الذين لولا تشجيع أسيادهم الموظفين الفرنسيين لما تجرؤوا على التحرك

(96) جمال باروت، ص 883.

(97) ناهد عبد الكريم، المجالس النيابية في سورية ودورها في السياسة الداخلية والخارجية (1920-1943م)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، (دمشق: كلية الآداب في جامعة دمشق، 1983)، ص 144.

(98) جمال باروت، ص 872.

(99) الأجدودان Adjutant: رتبة عسكرية فرنسية ومستخدمة في الجيش اللبناني باسم معاون، وهي أعلى من رتبة رقيب أول، وأقل من رتبة معاون أول.

(100) السرجان sergent: رتبة الرقيب، وهي أعلى من رتبة عريف، وأقل من رتبة رقيب أول.

من مساكنهم، ويصف هؤلاء الزعماء بخدام ضباط الاستخبارات⁽¹⁰¹⁾.

ويعتقد غورغاس بأن المعاهدة الفرنسية - السورية وما تحويه من أحكام شكلت تهديداً للأجهزة الفرنسية، وحاول بعض الضباط بمختلف الطرق منع إبرام فرنسا المعاهدة أو تأخير ذلك، وانخرطوا في الحركة الانفصالية في الجزيرة، ووجد الاستقاليون الذاتيون - منذ ذلك الحين - الدعم والمساندة في العديد من المسائل مثل إيصال المذكرات إلى عصبة الأمم من جانب ضباط الأجهزة الخاصة، وفي طليعتهم الجنرال جاكو (Jacquout) قائد القوات، والنقيب بلانديل (Blandel) المفتش العام للأجهزة الخاصة في الجزيرة⁽¹⁰²⁾. وقد عبّر المندوب المساعد للمفوض السامي عن أسفه من موقف الأجهزة الفرنسية على الأرض بالقول: ((إن ممثلينا لم يستطيعوا التخلي عن المواقف التي كانوا يتخذونها في ظل حكومة الكتلة الوطنية، ويستمررون في تشجيع تقسيم السكان لمصلحة جزء منهم لا يشكل في الواقع إلا أقلية))⁽¹⁰³⁾.

في قبال ذلك كان المواليون للمعاهدة والحكومة الوطنية يشكلون ثقلًا مهمًا أيضًا ومنهم: دهام الهادي (شيخ شمر - الجزيرة)، مشعل الجريا (شيخ شمر الزور)، عبد الرزاق الحسو (شيخ عشيرة الراشد)، حسن السليمان (قبيلة طيء)، محمد الغنّام (شيخ عشيرة البني سبعة)، طاهر الأغا الحاج محمود، عيسى آل عبد الكريم (زعيم أكراد المليّة - عامودا)، يونس العبدى (أكراد كيكان - عامودا)، عيسى القطننة (أكراد كيكان - درباسية)، عبد الباقي نظام الدين، سعيد آغا الدقوري (أكراد دقورية)، عيسى السليمان (شيخ عرب بقارة الجبل)، عبد الحميد الدحام، جميل المسلط (مشيخة عرب الجبور)، علي الزوبع (مشيخة عرب الجبور) علي السلطان (مشيخة عرب الجبور)، عزت سليم بك، صالح الأتبي (من شيوخ الجيجان)، عبد الرزاق جلي، زكي جلي⁽¹⁰⁴⁾.

بالنهاية تم إخماد هذه الاحتجاجات بعد الضغط المستمر على السلطات الفرنسية للالتزام بتطبيق المعاهدة، ولكن سرعان ما عادت الاضطرابات في القامشلي وأماكن أخرى من قبل المسيحيين الذين طالبوا بقانون حكم خاص مماثل للواء الإسكندرون⁽¹⁰⁵⁾، ورفعت مطالب غاضبة تدعو إلى سحب المحافظ والموظفين التابعين له، وكانت ذروة الأحداث في القامشلي، إذ دارت - طيلة ساعتين -

(101) جمال باروت، ص 880.

(102) غورغاس، ص 104-105.

(103) غورغاس، ص 104-105.

(104) جمال باروت، ص 880-881.

(105) Hourani, Syria And Lebanon A Political Essay, P.215

معركة عنيفة في الشارع انتهت باستسلام الدرك وانسحاب المحافظ ونزول القوات الفرنسية، وقد انهالت على بيروت برقيات تطالب المفوض السامي بنظام خاص للجزيرة، وبوضع حد لتحكم موظفي دمشق بالجزيرة⁽¹⁰⁶⁾.

وما لبثت أن اندلعت حادثة عامودا (طوشة عامودا)، بين أنصار الكتلة الوطنية ممثلين بعشائر الدقورية الكردية في عامودا وآخرين، مقابل أنصار الكتلة الانفصالية في عامودا وجلهم من المسيحيين، وبلغت الأحداث ذروتها في أوائل آب/ أغسطس 1937، وسقط في المواجهات التي اندلعت بين الطرفين نحو 25 شخص ونهبت متاجر المسيحيين⁽¹⁰⁷⁾، وتدخل العسكريون الفرنسيون عبر اللجوء إلى غارات جوية تأديبية على المساكن الكردية المحيطة، دمّرت عامودا، وألقت قنابلها على أطفال الأكراد ونسائهم وشيوخهم، كما يشير بكداش، مضيئاً أن الطائرات ظلت تطارد الأكراد الهاربين من القنابل حتى ألجأهم إلى تركيا، فدخل العصاة عامودا وأعملوا فيها الحرق والتدمير والنهب أيضاً حتى أصبحت خراباً⁽¹⁰⁸⁾، وأعاد الفرنسيون تثبيت سلطتهم في مدن الجزيرة، وزادوا دعمهم للتكتل الانفصالي (الكردى - المسيحي)⁽¹⁰⁹⁾، ومع ذلك لم تستطع لجنة وصلت من دمشق إنجاز التحقيق الذي حاولت إجراءه، إذ أصيب اثنان من النواب الدمشقيين بجروح، بعدها قام المندوب الفرنسي في دمشق الكونت أوستوروغ (Ostrorog) بزيارة المنطقة للاستماع إلى الشكاوى والمطالب المعروفة⁽¹¹⁰⁾، وأدى تدخل القوات الفرنسية وإزالة المحافظ وبعض الموظفين إلى استعادة النظام لبعض الوقت ظاهرياً، ولكن الاستياء ظل مستمرّاً، وبدأ الانفصاليون تشكيل أنفسهم في تجمعات للدفاع عن مطالبهم حول الاستقلال الذاتي⁽¹¹¹⁾، ومع أن النواب عن الجزيرة ظلوا على ولائهم المعلن للحكومة المركزية فإن المطالبة المحلية بحكومة شبه مستقلة لم تخدم، واستمرت المقاطعة الواسعة للإدارة القائمة⁽¹¹²⁾.

في الوقت الذي كانت فيه هذه الأحداث تتفاقم في الجزيرة كانت القضية الانفصالية تُثار في باريس وروما من قبل المطران تبوني (رئيس الكنيسة الكاثوليكية السورية) الذي نصّب نفسه متحدّثاً

(106) همسلي، ص 313.

(107) همسلي، ص 313.

(108) جمال باروت، ص 885-886.

(109) خوري، ص 588.

(110) همسلي، ص 312-313.

(111) الكيالي، المراحل، ج 4، ص 373.

(112) همسلي، ص 312-313.

باسم الأقليات المسيحية التي كانت تعارض الحكم الوطني. وفي مذكرة قُدِّمها إلى وزارة الخارجية الفرنسية في تشرين الثاني/نوفمبر 1937 تحدث تبوني عن احتمالية ارتكاب مجزرة بحق المسيحيين في الجزيرة ومناطق أخرى، وقُدِّم مقترحات لتجنب ذلك بأنه ينبغي منح الطوائف الدينية المساواة التامة في المسائل الدينية والشخصية، وينبغي تعيين عدد عادل من المسؤولين المسيحيين، وتأمين وسائل كاملة لحماية المسيحيين الذين قد يتعرضون للتهديد، وضرورة اعتماد مبدأ اللامركزية من أجل حماية مصالح الأقليات، وجاء الرد الفرنسي على هذه المطالب بطريقة غامضة ومتصالحه، إذ إن الفرنسيين كانوا آنذاك يجرون مفاوضات مع رئيس الوزراء السوري من أجل الوصول إلى اتفاق والحصول على ضمانات معينة⁽¹¹³⁾.

ثامناً: سياسات توزيع الأرض وظهور الإقطاعيين القبليين

تميّز عهد الانتداب الفرنسي بتوسعة أراضي الإقطاعيين السابقين (الأعيان) من جهة، وبظهور طبقة إقطاعية جديدة لم تكن موجودة في العهد العثماني، وهي طبقة مشايخ العشائر التي انضمت إلى الفئات السابقة التي تكونت في العهد العثماني⁽¹¹⁴⁾، وقبل عصر الانتداب لم تكن الأرض الزراعية في الجزيرة والفرات مثلاً تحظى بقيمة اقتصادية فعلية ما خلا شواطئ الأنهار على الفرات والخابور، وكانت سهول الجزيرة مقسمة إلى مناطق نفوذ قبلية ومراعٍ أكثر منها أرضاً زراعية.

من أجل ضمان ولاء زعماء القبائل، ومقابل استعدادهم للتعاون مع الانتداب، قام الفرنسيون بإجراءات عدة، فبادئ الأمر شرعت حكومة الانتداب بمنحهم رواتب سنوية بصفتهم زعماء وشيوخ عشائر، وكانت المنح تختلف من سنة إلى أخرى، سواء بالنسبة إلى القيمة المخصصة أم الشيوخ المشمولين بالمنحة، وحينما زادت أهمية الأرض صدرت قوانين تصب في مصلحتهم، فالمرسومان رقم 132 ورقم 141 لعام 1941 تم بموجبهما منح أراضي الدولة غير المسجلة - وهي تشكل المساحات الكبرى - لزعماء القبائل، وكانت هذه المراسيم مسؤولة جزئياً عن تخصيص مساحات شاسعة، والاعتراف بها ملكية خاصة لهؤلاء الزعماء الذين باتوا من كبار الإقطاعيين، وبات الشكل الإقطاعي السمة المميزة بعد الحرب العالمية الثانية للمنطقة⁽¹¹⁵⁾.

Hourani, P. 216 (113)

(114) عبد الله حنا، الفلاحون وملوك الأرض في سورية القرن العشرين: دراسة تجمع بين التاريخ الشفهي والتاريخ المكتوب، ط 1، (بيروت: دار الطليعة، 2003)، ص 18.

(115) Velud, La politique mandataire française à l'égard des tribus et des zones de steppe en Syrie op.cit

كان ضعف سلطات الانتداب بادئ الأمر من أهم أسباب سياساتها في تخصيص الأراضي الميري (أراضي الدولة) باسم الزعماء المحليين لضمان ولأهمهم⁽¹¹⁶⁾. وفي المحصلة أفاد زعماء القبائل وحدهم من التوزيع الفرنسي للأراضي العامة في الجزيرة وحوض الفرات، وأدى التعاون الفرنسي مع الشيوخ ورؤساء القبائل الموالين إلى إبقاء الأراضي الزراعية مسجلة بموجب صكوك محلية في أيدي قلة قليلة منهم⁽¹¹⁷⁾، ويذكر الشهابي أن لجان تحديد وتحرير أملاك الدولة الخاصة كانت ألعوبة في يد المستشارين الفرنسيين ((يهبون الأرض لمن يرضى عنه المستشار))⁽¹¹⁸⁾.

تاسعاً: الخاتمة

من خلال ما تقدم في هذا البحث، يمكن لنا أن نرصد النتائج التالية لسياسات الانتداب الفرنسي في منطقة الجزيرة السورية:

1. اعتمد الفرنسيون على تأثير العشائر البدوية لتثبيت السيطرة على منطقة الجزيرة والفرات في المرحلة الأولى، كذلك فرضوا تقليص سلطة القبائل واستقلاليتها من خلال ربطها بمصلحة العشائر التابعة لأجهزة الاستخبارات الفرنسية، والتي أخذت سلطة تعيين وعزل الشيوخ مما ساهم في استثمار التناقضات والنزعات الداخلية لصالحها.
2. سياسات استقبال وتوطين اللاجئين من العناصر (غير عربية) في منطقة الجزيرة لم تكن وليدة الصدفة، ولا لدوافع اقتصادية كما كانت تبرر فرنسا، بل كانت ضمن سياسة انتدابية تم دراستها واقتراحها منذ عام 1919، أي قبل الانتداب، لكن الأحداث الأمنية والاقتصادية في تركيا بعد الاحتلال الفرنسي للمنطقة، خدم تلك السياسات وعجل في تنفيذها، وتم في إثر ذلك توطين عشرات الألوف من اللاجئين المسيحيين والأكراد في المنطقة، ولا شك في أن هذه السياسات خدمت كذلك المشروع الاقتصادي - الزراعي الفرنسي في المنطقة، لكن الغاية الفعلية كانت هي التصدي لتصاعد قوة الوطنيين القوميين في المركز.
3. على الرغم من نجاح السياسة الفرنسية الأثنية في فرض واقع ديموغرافي جديد

(Hannoyer, Jean. La Syrie d'aujourd'hui. op.cit., (pp. 273-295 (116)

(117) Thomas. 540

(118) مصطفى الشهابي، مجلة الشرق، بيروت، العدد 57، 1932، ص 444، انظر قائمة القرى التي تم بيعها في إدلب وجبل سمعان، بموجب المرسوم رقم 1416 المؤرخ 18 تموز/ يوليو 1933، الجريدة الرسمية للدولة السورية (العاصمة)، السنة 15، ع: 14، (31 تموز/ يوليو 1933)، ص 316.

ومختلف في منطقة الجزيرة السورية، إلا أنها لم تنجح دومًا في تنفيذ مخططاتها إزاء اللاجئين، وخاصة في مسألة إقامة واقع سياسي وإداري في الجزيرة شبيه بدولة الدروز والعلويين بالاعتماد على الحركة الانفصالية التي كان عمادها زعماء أكراد ومسيحيين وكذلك بعض الشيوخ العرب الذين وجدوا أنفسهم على هامش الأحداث.

4. تراجع الفرنسيون بصورة واضحة عن سياساتهم اتجاه اللاجئين في الجزيرة خاصة بعد المعاهدة السورية-الفرنسية عام 1937، وفضّل الفرنسيون الإبقاء على علاقات جيدة مع الوطنيين السوريين في العاصمة والحواضر الكبرى، وكذلك مع الأتراك في الشمال، وفرضوا عددًا من القيود بعد ذلك على النشاط القومي لأكراد المنفى في سورية.

5. على الرغم من أن السياسات الفرنسية شجعت الزراعة وزادت الاهتمام بها بصورة واضحة وكبيرة في منطقتي الجزيرة والفرات، إلا أن سياستها في توزيع الأراضي الزراعية ساهمت في تشكيل طبقة الإقطاعيين القبليين، وكان السباق على استحواد الأرض يتسارع في الأربعينيات، وأسهم في نشوب صراعات قبلية عدة في المنطقة.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. البعلبكي. منير، معجم أعلام المورد، (بيروت: دار الملايين للنشر، 1992).
2. الخوري. فيليب، سورية والانتداب الفرنسي سياسة القومية العربية 1920-1945، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1997).
3. السفرجلاني. محيي الدين، فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة، (دمشق: مطبعة الترقى، 1937).
4. العياشي. غالب، الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الإفرنسي في سورية، (بيروت: مطابع أشقر أخوان، 1955).
5. الوردى. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط2، (لندن: شركة الوراق المحدودة، 2010).
6. أوبنهايم. ماكس فون، البدو، ماجد شبر محققاً، (المملكة المتحدة: دار الوراق، 2004).
7. باروت. محمد جمال، التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحوّل من البدونة إلى العمران الحضري، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
8. بيتروفيج. قسطنطين، الآشوريين والمسألة الآشورية في العصر الحديث، دأ حنا (مترجمًا)، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر، 1989).
9. الرفاعي. نجم الدين، المشاكل السياسية الداخلية في سوريا، رسالة لنيل الدكتوراة في العلوم السياسية، (بيروت: الجامعة الأمريكية، 1946).
10. اليسوعي. الأب فردينان توتل، وثائق تاريخية عن حلب، دفتر أخوية عزبان الأرمن وما إليه من الفوائد، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1950).
11. حايك. أغناطيوس أنطون الثاني، تأريخ أبرشية نصيبين والحسكة، (بيروت: مطبعة توما، 2006).

12. حنا. عبدالله، الفلاحون وملوك الأرض في سورية القرن العشرين: دراسة تجمع بين التاريخ الشفهي والتاريخ المكتوب، (بيروت: دار الطليعة، 2003).
13. صالح. زكي، مقدمة في دراسة العراق المعاصر، (بغداد: مطبعة الرابطة، 1953).
14. الكيال. عبد الرحمن، المراحل، (حلب: مطبعة الضاد، 1958).
15. عبد الكريم. ناهد، المجالس النيابية في سورية ودورها في السياسة الداخلية والخارجية (1920-1943)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، (دمشق: كلية الآداب في جامعة دمشق، 1983).
16. عينتابي. محمد فؤاد، ونجوى عثمان، حلب في مئة عام 1850-1950، (حلب: منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1993).
17. غورغاس. جوردي، الحركة الكردية التركية في المنفى، جورج البطل (مترجمًا)، (بيروت: دار الفارابي، 2013).
18. فرسخ. عوني، إشكاليات الوحدة: الجمهورية العربية المتحدة: بحث في المعوقات والإنجازات والإخفاقات، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011).
19. كرد علي. محمد، المذكرات، (الرياض، دار أضواء السلف، 2010).
20. كوثراني. وجيه، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، ط3، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
21. مكحول. ديفيد، تاريخ الأكراد الحديث، راج آل محمد (مترجمًا)، (بيروت: دار الفارابي، 1996).
22. منسى. محمود صالح، الشرق العربي المعاصر، (القاهرة: دار الوزان للطباعة والنشر، 1990).
23. همسلي لونكريك، ستيفن، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيار عقل (مترجمًا)، (بيروت: دار الحقيقة، 1978).

بلغة أجنبية

1. Affaires étrangères, revue mensuelle de documentation internationale et diplomatique, (Le Proche-Orient après la signature des traités franco-syrien et franco-libanais), (mars 1938, 1938/03), A8,N3).
2. Altug. Seda, Sectarianism in the Syrian Jazira: Community, land and violence in the memories of World War I and the French mandate (1915- 1939), This is to obtain a doctoral degree, (Utrecht University, 2011).
3. Antonius. George, The Arab Awakening, (Beirut: Khayats, 1938).
4. Bulletin quotidien de presse étrangère, France, Ministère de la défense, (Paris), 29 août 1933, (T55,N5434).
5. Cagaptay. Soner, Islam: Secularism and Nationalism in Modern Turkey, (Routledge Studies in Middle Eastern Politics, 2006).
6. Hourani. Albert, Syria And Lebanon A Political Essay, (London: Oxford University Press, 1946).
7. La Géographie: bulletin de la Société de géographie, Société de géographie (Paris: 1927).
8. Rabinovich. Itamar, "The Compact Minorities and the Syrian State, 191845-," Journal of Contemporary History 14, no. 4 (October 1979).
9. Oeuvre des écoles d'Orient: bulletin périodique, (Paris: [s.n], 192801/, T32).
10. Paix et droit: organe de l'Alliance israélite universelle (Paris: Numero 2, Avril 1934).
11. Raymond o'zoux, Les Etats du levant sous Mandat Français, (Paris: Librairie La-rose, 1931).

12. Rabbath, Edmond, L'évolution politique de la Syrie sous Mandat de 1920 à 1925, (Paris: Les Presses modernes, 1928).
13. Samman. Mouna Liliane, La Population de la Syrie, Etude geo-demographique, (Paris: O.R.S.T.O.M, 1978).
14. Seurat. Michel, IV- Les populations, l'état et la société, Raymond, André. La Syrie d'aujourd'hui, (Aix-en-Provence: Institut de recherches et d'études sur le monde arabe musulman, 1980).
15. Thomas. Martin, «Bedouin Tribes and the Imperial Intelligence Services in Syria, Iraq and Transjordan in the 1920s», Vol. 38, No.4, (Journal of Contemporary History, Oct., 2003).
16. Thomas White. Benjamin, The Emergence of Minorities in the Middle East: The Politics of Community in French Mandate Syria, (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2011).
17. Velud. Christian, Une expérience d'administration régionale en Syrie durant le Mandat français: conquête, colonisation et mise en valeur de la Djézireh, 1920-1936, (these de doctorat, Université Lyon 2, 1991).
18. Velud. Christian, «L'émergence et l'organisation sociales des petites villes de Jézireh, en Syrie, sous le mandat français», dans Petites villes et villes moyennes dans le monde arabe, (URBAMA, N° 16-17, 1986).
19. Warriner. Doreen, Land Reform and Development in the Middle East: A Study of Egypt, Syria and Iraq, (London: Royal Institute of International Affairs, 1975).



المحور الثاني: الثقافة والأدب والفنون



مدخل إلى الأدب الفراتي

إبراهيم الشبلي⁽¹⁾

أولاً: الملخص

عبر الأدب الفراتي بأجناسه الأدبية المتنوعة عن قضايا مختلفة تتمحور حول الإطار المحلي المتصل بالبيئة الفراتية، وقضايا أكثر شمولاً تتصل بالإنسان وشواغله الوجودية ومواقفه من الموت، والحياة، والزمن.

يعاين البحث الأنواع الأدبية في الأدب الفراتي متخذاً من بعض الأعمال الأدبية نماذج يرصد بوساطتها أبرز القضايا والمشكلات التي عالجها الأدباء، فضلاً عن أشكال التعبير عن رؤى الكتاب ومواقفهم من الواقع الاجتماعي والسياسي في الفرات بصورة خاصة، وفي سورية بصورة عامة.

إشكالية البحث

انشغل البحث برصد مكثف لأهم التجارب الأدبية في الفرات عبر عرض بعض الأعمال الأدبية للتعرض إلى أبرز محطات الأدب الفراتي، وأهم سماته وموضوعاته وقضاياها.

الدراسات السابقة

يعاني الأدب الفراتي ندرة في الدراسات الأدبية حوله، وقد أسهم ذلك في صعوبة حصولنا على المراجع والأعمال الأدبية، فضلاً عن الدراسات النقدية، وفي ما يأتي رصد لأبرز الدراسات التي واجهتها بعد طول بحثٍ وتقصٍ:

(1) أستاذ مساعد، جامعة غازي عنتاب للعلوم الإسلامية والتكنولوجيا.

1. أعلام الحركة الأدبية في الرقة، مصطفى الحسون، 1985، عمل بيبلوغرافي يُقدِّم لمحة مقتضبة عن أهم الأدباء والشعراء في محافظة الرقة، ويعرض حياة كل أديب وأثارة الأدبية.
 2. تجربة الشكل الفني في روايات الفرات، سمر روي الفيصل، مجلة المعرفة، 1980، تناول أهم السمات الفنية لنماذج روائية من الأدب الفراتي.
 3. الرقة درة الفرات، مجموعة باحثين، 1992، عرض لبعض الكُتَّاب والأدباء في الرقة.
 4. الحركة الثقافية في محافظة دير الزور خلال القرن العشرين، محمد رشيد الرويلي، 2007، عرض لأهم الشعراء والأدباء في دير الزور مُعرِّفًا بحياة كل كاتبٍ وأهم أعماله.
- ولا يفوتني أن أشير إلى كثرة الدراسات المتصلة ببعض أدباء الفرات مثل «عمر أبو ريشة»، وعبد السلام العجيلي، ومحمد الفراتي وسواهم، على أنها دراسات ترصد المنجز الأدبي لأولئك الأدباء في إطار التجربة الذاتية لكل أديب، ومن ثم لا تندرج ضمن السياق العام للأدب الفراتي.

ثانيًا: مدخل

على الرغم من التطور التكنولوجي الهائل الذي تخلَّل حياتنا، وأصبح جزءًا من كياناتنا وعلاقاتنا الإنسانية، فإنَّ ذلك التطور لم يكن مصحوبًا بهمٍّ معرفيٍّ يحفر في التاريخ، ويعيد كتابةً أرشيفنا الاجتماعي والسياسي والأدبي الذي يحتاج إلى تنقيبٍ في أصوله ودوافعه وتياراته وعلائقها السياسية والاجتماعية، ولا أدعي في هذا المقال أنني أتصدى لتلك المهمة الجليلة، إذ إنَّ وقوفي على الأدب الفراتي محفوفٌ بمصاعبٍ جمَّة، فعملية تعقُّب المؤثرات الاجتماعية والسياسية في الأدب الفراتي تشبه إلى حدٍّ كبير عملية تققيب أثر من ساروا على الرمال منذ سنين.

إنَّ إرجاع قلَّة الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية حول وادي الفرات إلى التهميش المتعمَّد الذي سأمَ أهله على مدى قرونٍ كلامًا يحتاج إلى أبحاثٍ تعيد رسم خريطة الفرات الاجتماعية والثقافية والأدبية، ولا سيما في ظلِّ الانقطاع الذي عانتها التيارات الأدبية الحديثة مع التراث العربي منذ الاجتياح المغولي، وخلال زمن الحكم العثماني حتى جاءت مرحلة حكم محمد علي باشا الذي أسهم اهتمامه بالتعليم في ازدياد أعداد المثقَّفين، الأمر الذي ساعد في ظهور تياراتٍ فكرية تدعو إلى ضرورة النهوض من ركاب قرون متتالية من التخلف الحضاري، وترافقت تلك الدعوات بظهور الأدب

العربي الحديث الذي تأخّرت بواكيره إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين على نحو ما نجد في أعمال مدرستي: البعث والإحياء، والديوان، وأما الأدب الفراتي فقد تأخّر إلى ثلاثينيات القرن العشرين.

أطلق سكان دمشق وحلب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أهل دير الزور دير الشُّعَّار في دلالة على كثرة تداول الشعر في ما بينهم، ولا سيّما الشعر الشعبي الذي يستجيب لتفاعل سكّان المناطق الصحراوية بالفضاء المفتوح، والصراع القاسي للبقاء على قيد الحياة، وقد جاءت أشعارهم معظمها في المدح والرثاء والوصف الذاتي الذي أملت طبيعة الحياة القاسية في البوادي.

لا يخرج الأدب الفراتي عن المسارات التي اتخذها الأدب العربي الحديث لتشكّل ملامحه الجديدة التي تجاذبها طرفا ثنائية (الأصالة/ الحداثة)، ليطفو على سطح الأدب العربي الحديث تياران رئيسان نزع أولهما نحو إعادة إنتاج التراث العربي بأسلوبية تراعي حساسية العصر الحديث، ورغب ثانيهما في تجاوز التراث العربي عبر الولوع إلى الأشكال الأدبية الحديثة، ولا سيما الرواية وشعر التفعيلة الذي رأى النور على يد نازك الملائكة في أربعينيات القرن العشرين، وإن تأخّر ظهور التجارب الشعرية الحديثة في الأدب الفراتي في طوره التقليدي الممسك بتلابيب التراث أدى كذلك إلى تأخر ظهور الشعر الحديث.

عندما تتغير خريطة أفكارنا أو الأشياء من حولنا، تتزحزح قدرتنا على الإمساك بالحقيقة التي تتغير ملامحها مع الاكتشافات الأثرية والبيانات التاريخية التي تبدّل وفق معطيات التنقيب الأثري، ومن ذلك على سبيل المثال أنّ موقعي مدينتي دير الزور والرقّة الحاليين لم يكونا كذلك خلال القرون الماضية؛ إذ إن الاكتشافات الأثرية تشير إلى حواضر مهمة خارجهما، مثل المدن الفراتية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات بالقرب من رحبة المياذين ماري عاصمة الفرات الأوسط، أو مثل الرافقة والبيضاء في الرقة، وقد أنشئت مدينتا الرقة ودير الزور في القرن التاسع عشر، إذ كانت دير الزور تتبع لولاية حلب حتى تم فصلها وإنشاء متصرفية فيها سنة 1865م تمتد من بالس شرقاً إلى منبج غرباً، ومن تدمر جنوباً حتى ديار بكر شمالاً؛ ليسهم ذلك في تأخّر مظاهر التمدّن الحديث من مثل التعليم والصناعة وأنظمة الري الحديث عن باقي المدن الأخرى، وأسهم ذلك في تأخّر ظهور المدارس وقلّة المتعلّمين، فضلاً عن عدد السكان القليل داخل المدينتين بفعل النظام الرعوي الذي يتطلّب ترحالاً دائماً، وهجرات تفرضها الظروف المناخية، كما أن بلدتي الرحبة ودير الزور كانتا تقعان ضمن دائرة الرقة السياسية⁽²⁾، وكانت قلعة دير الزور تقع على مرتفع في منطقة الرحبة الإدارية، ومما يؤكّد أنّها لم تكن حاضرة كبيرة أنّها تعرّضت لغارات كثيرة منذ بدايات القرن التاسع عشر من قبل البدو،

(2) مجموعة مؤلفين، الرقة درة الفرات، (الرقة: مديرية الثقافة، 1992) 51-52.

وغدت كذلك حتى سيطر عليها حاكم حلب عمر باشا سنة 1857م، وأنشئت فيها بعد خمس سنوات مُتصَرِّفِيَّة، وكان أوَّل مُتصَرِّفٍ فيها حُسَني باشا.

عاش سُكَّان الفرات حياةً قاسيةً تتجلى فيها أشكال الصراع المير مع الموات الصحراوي، ولا سيما أن الفلاحين كانوا يعانون كثيراً لإيصال الماء إلى أراضيهم الزراعية، فهم مضطرون إلى رفع المياه طوال الليل بمساعدة الأبقار لتوجيه الماء عبر مشاعب إلى الحقول⁽³⁾، في تجلٍ واضحٍ لقسوة الحياة.

وعلى الرغم من أنَّ الرقة تمتلك إرثاً ثقافياً مهماً عندما اتخذها هارون الرشيد مركزاً للحكم عوضاً عن بغداد، فإن عملية المسح التي ارتكبتها الغزو المغولي بحق التراث العربي أدت إلى فقدان كثير من الكتب والمصنّفات الرئيسية في بابها، وتوسّع الشرخ بين العرب وتراثهم في زمن الحكم العثماني الذي اعتنى بالتوسع العسكري، وأهمّل الأدب العربي لأسباب مختلفة من أهمها عدم إتقان اللغة العربية، وهو ما جعل الحكّام غير مكترئين بمديح الشعراء لهم، وأسهم من ثم في اضمحلال التجارب الشعرية، ولسنا في مضممار سرد التغيرات الجغرافية التي حدثت في وادي الفرات على الرغم من أهميتها، ولكن لا بد من الإشارة إلى أثرها في التغيرات الثقافية، ولا سيما في الحواضر الكبرى، ويمكننا أن نوجز ملامح تطور السياقات التاريخية والعوامل المؤثرة في الحركة الأدبية في الفرات، كما يأتي:

1. تبدّل الخرائط الجغرافية والسياسية للمنطقة بفعل الصراعات العسكرية المستمرة للسيطرة على طرق التجارة ومصادر المياه منذ الألف الثاني قبل الميلاد، فضلاً عن الغزو الأجنبي بدءاً باحتلال الإسكندر المقدوني، وليس انتهاء بالاحتلال الفرنسي؛ إذ عرّضت تلك الصدامات العسكرية المدن القديمة للدمار، ما اضطرَّ السُكَّان إلى إنشاء حواضرٍ كبيرةٍ كما حصل في مدينة الرقة التي تغيّرت ملامحها وحدودها بعد دمجها بمدينة الرافقة، وقد وصفها الرحالة الهولندي ليونهارت راووف بقوله: ((والمدينة واهية البناء غير محاطة بسور، وقد شُيّدت بعد خراب المدينة القديمة التي كانت تقع في الجانب المرتفع منها، كما يُشاهدُ ذلك من بقايا سور، وبعض القناطر والأعمدة القديمة... وفيها بناية عالية قديمة لا تزال محتفظة بقوّتها وضخامتها... وما خلا ذلك فالمدينة مُهدّمة وأراضيها خالية))⁽⁴⁾.

2. لحضارات وادي الفرات في قسمها السوري (ماري- البيضا- الرحبة) إرث أدبي، فقد حضر الشعر فيها منذ عهد اليعاقبة، وعادت إلى النشاط الأدبي مع تأسيس مَصيف الرشيد الذي أقام فيه

(3) الوا موسيل، الفرات الأوسط، رحلة وصفية تاريخية، صديقي حمدي وعبد المطلب داوود (مترجمين)، (دم: مطبوعات المجمع العلمي العراقي، د.ت)، ص 20.

(4) رحلة الدكتور ليونهارت راووف في القرن السادس عشر الميلادي، سليم أحمد خالد (مترجماً)، ط 1، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008)، ص 143.

هارون الرشيد وأسهم في تبدل الخرائط الثقافية؛ إذ شهدت كلٌّ من منبج والرقّة حضوراً ثقافياً لافتاً. إبان عصر الرشيد، أفرز تجاربٌ شعريّةٌ مهمّةٌ في العصر الوسيط، وهو ما خلت منه دير الزور لعدم تمكّنها من أن تصبح مركزاً ثقافياً مهماً.

3. لم تضم الحواضر الفراتيّة الكبرى (الرقّة- دير الزور- جرابلس- الرحبة- منبج - الميادين) كتلاً سكانية كبيرة بتأثير السلوك المعيشي القائم على الزراعة التي تتطلب السكن في بيوتٍ مُتفرّقة قريبة من الأرض التي يزرعها الفلاحون، وكذلك في نمط الرعي المعتمد على الترحال المستمر نحو المراعي التي تخضع للتبدل وفقاً للظروف المناخية، وتشير الدراسات إلى أنّ عدد سكّان كلّ من الرقّة ودير الزور في أوائل القرن العشرين لم يتجاوز خمسة عشر ألف نسمة في كل منهما، فضلاً عن الهجرات الكبرى التي شهدتها المنطقة، ومن شواهدا أن عمرو بن كلثوم التغلبي صاحب المعلّقة والشاعرة الفارعة الشيبانية من مواليد الفرات.

4. مع تراجع النفوذ العثماني وتغلغل الاحتلال الأجنبي إلى وادي الفرات، وبسبب رفض السكان فكرة الانتداب، حاول الفرنسيون أن يبرهنوا أنّهم يطورون البلاد العربيّة من خلال إدخال أشكال جديدة من وسائل الاتصال والتواصل، ونشر التعليم، وإنشاء المدارس التي لم يتجاوز عددها في دير الزور حتى عام 1938 خمس مدارس⁽⁵⁾، وزاد الفرنسيون كذلك عدد الصحف، الأمر الذي أسهم في انتشار القراءة لدى شريحة لا بأس بها من السكان، ما شجّع بعض الأدباء على إنشاء روابط أدبية في دير الزور والرقّة في ثلاثينيات القرن الماضي، وأغلقت لاحقاً بعد أن أحس الفرنسيون بدورها السياسي وأثرها في شحذ انتباه الناس لخطر الانتداب وآثاره السياسية والاجتماعيّة والاقتصاديّة في الوطن، وبفعل انتشار التعليم، وازدياد عدد المتعلمين تزايدت الأعمال الشعريّة في وادي الفرات منذ أربعينيات القرن الماضي.

انقطاع التواصل المدني والحضاري بفعل الصراعات العسكرية، وتغيّر خرائط السيطرة والنفوذ في وادي الفرات لم يحولا عائناً أمام أبناء الفرات الذين عبّروا في قصائدهم والأشكال الأدبية الأخرى عن امتداد جذورهم في هذه الأرض عبر علامات لغوية تستمد طاقتها من زمن الصحراء الأبدية، لتلتحم الطبيعة بالرؤيا في تجلٍ واضحٍ لنسق رومانسي يتّخذ من الالتصاق بالكون واللجوء إليه أحد أشكال التعبير عن رفض الواقع، والمطالبة بتجاوز الراهن المثقل بالركود، والخمول الثقافي، والفكري، وقد مثل الفرات أحد أهم حوامل الرؤيا لدى الكتّاب؛ إذ دخل في نسيج القصيدة؛ ليُعبّر الأدباء بوساطته عن مواقفهم من الحياة، ودهشهم تجاه سيرورة الزمن وصيرورة الحياة، عبر ثنائيات ضديّة تكشف القلق الوجودي، وتُعبّر عطب الحاضر واليأس من الآتي، كما نجد في أعمال كلّ

(5) أحمد وصفي زكريا، رحلة إلى الفرات ومقالات أخرى، ط1، (دمشق: دار رسلان للطباعة والنشر، 2008)، ص 22.

من عبد الجبار الرحبي، ومحمد الفراتي، وعمر أبو ريشة، ووليد المشوّح، وتميم صائب، ومصطفى الحسون، وإبراهيم الجرادي، وسواهم.

ثالثاً: خارج الضفتين

لا يمكننا أن نتحدّث عن تيارات أدبية في الفرات، أو اتجاهات واضحة المعالم في الأدب الفراتي، إذ إنّ معظم ما أنتجه أدباؤه لا ينطلق من إطارٍ أيديولوجي إلّا في إطار ضيقٍ، فالتجارب الشعرية المبكرة اتّسمت بالذاتية والعفوية المنسجمة مع البيئة الفراتية، وإنّ تفحص خريطة الأدب الفراتي تُمكنني أن ألاحظ تفاوتاً واضحاً بين التجارب الأدبية للفراتيين من حيث الانتشار والتلقي النقدي، فثمة أدباء آثروا العزلة في نزوعٍ صوفيٍّ يرى أنّ أكبر صفةٍ يوجّهها المرء للحياة هي أن يظلّ صامتاً كالفرات، ساكناً كالصحراء، فلا يوجد كلام يمكن أن يواجه الحقيقة مثل التأمل الذاتي، وتقليب صفحات الوجود، لنرى من يحرق قصائده، ويلقي بكلماته هباءً في شكل من أشكال التّصحّر الذاتي، وترك غير أديب أعماله حبيسة الأدراج، إذ أحصى الأديب رشيد الرويلي في كتابه البيبلوغرافي (الحركة الأدبية في الفرات خلال القرن العشرين)⁽⁶⁾ أكثر من خمسين أديباً لم يطبعوا أعمالهم، ولم يصدر لأيٍّ منهم أي عمل مطبوع مكتفين بالقائها أمام الجمهور، ويقودني هذا العزوف إلى التساؤل عن أسباب إغراق بعض أدباء الفرات في محلّيّتهم، في حين تتجاوز تجارب بعضهم الآخر حدود الوطن العربي، كما نلاحظ في تجارب عمر أبي ريشة، وعبد السلام العجيلي، ومحمد الفراتي وسواهم، ولا يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال إلا بعد أن أخذ في الحساب العوامل المؤثرة في تكوين الأديب النفسي والاجتماعي والثقافي؛ إذ نلاحظ أن الأدباء الذين انتشرت أعمالهم خارج الفرات قد تكوّنوا ثقافياً أكثر من غيرهم من الأدباء الفراتيين، ويمكنني أن أوجز أهم عامل لانتشار أعمالهم الأدبية خارج منطقة الفرات في الآتي:

1. التكوين الثقافي والتعليمي الجيد؛ إذ تلقّى الفراتي تعليمه في غير بلد مثل حلب، وبغداد، والقاهرة التي تعلّم على يد أساتذتها علوم اللغة، والدين، والتاريخ، وأتقن اللغتين الفارسية والتركية، وترجم رباعيات الخيام إلى العربية، فضلاً عن تنقلاته الكثيرة التي أسهمت في تشكيل وعيه، ومده بمصادر متنوّعة للصور الشعرية، وهو ما نلمحه عند كلّ من أبو ريشة والعجيلي؛ إذ تلقّى أولهما تعليمه في حلب، ومن ثمّ تنقّل في أكثر من بلد سفيراً لسورية في الأرجنتين، والهند، والولايات المتحدة

(6) انظر: محمد رشيد رويلي، الحركة الثقافية في دير الزور في القرن العشرين، ط1، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر (2007)، ص32.

الأميركية، والنمسا، والبرازيل، ووزيراً مُفَوَّضاً في كلّ من البرازيل والأرجنتين وتشيلي، ولا يخفى أنّ عمله الدبلوماسي منحه فرصة كبيرة للاطلاع على آداب الشعوب الأخرى، وقراءة أهم الأعمال العالمية، الأمر الذي أثرى مخزونه المعرفي، فضلاً عن كونه أحد أعضاء المجمع العلمي بدمشق، وقد أسهمت تلك العوامل في انتشار أعماله الأدبية على نطاق واسع، وحصل عبد السلام العجيلي تعليمه في وقت كانت فيه المدارس نادرة في الرقة، ليدرس في حلب، ومن ثمّ تابع في دمشق، ليصبح أول طبيب في مدينته، وأصبح نائباً في البرلمان، ووزيراً للإعلام، والخارجية، وكان فضلاً عن ذلك غزير الإنتاج في القصة والرواية، وينطبق الأمر كذلك على الناقد عبد الله أبو هيف، والأديب سعد صائب، والروائي إبراهيم الجرادي، وشهلا العجيلي، وسواهم.

لقد أسهمت عوامل عدة في صقل موهبة بعض أدباء الفرات، ولا سيّما العوامل الاجتماعية والثقافية، ولا يعني ذلك أن مجرد خوض تجارب تعليمية أو مهنية أو دبلوماسية خارج الفرات يجعل الأديب أكثر انتشاراً، إذ لا بد قبل ذلك من امتلاك تجربة أدبية مهمة، ولكنّ التكوين الثقافي والتعليمي الذي حرّم منه بعض أدباء الفرات أسهم في تكريس محلّيتهم، على الرغم من امتلاك بعضهم تجارب أدبية مهمة في مختلف الأجناس الأدبية التي سنعرض لها في المباحث القادمة.

رابعا: الشعر

تعود أولى التجارب الشعرية في الفرات إلى أعمال كلّ من توفيق قنبر، وعبد الجبار الرحبي، ومحمد الفراتي، ومصطفى الحسون، وفيصل بليبل، يليهم في الزمان مروان الخاطر، وحسان عطوان، وخالد بشار، ووليد مشوّح، وعبد العزيز العزاوي، وأحمد الموح، وشفيق الكمالي، ومصطفى الغدير، وفاضل سفّان، وصلاح هوّاس عبيد، وعادل هوّاس، وعقيل محمد سعيد العرفي، وبسّام الشيخ عطية، ويعقبهم شعراء كثر نذكر منهم على سبيل المثال: تميم صائب، ودرغام سفان، وعبد الحق هوّاس، وجمال علوش، وعبد الناصر الحمد، وبشير العاني، وإسماعيل الخلف، وفاروق عبد الحميد، وماجد الراوي، وأسعد الديري، وكمال جمال بك، وإبراهيم الأسود، وياسر شكري، وعبد الناصر حدّاد، وثائر زعزوع، وإسماعيل الرفاعي، وسميرة بدران، وناظم علّوش، وهنادي كدوّ، وتماضر الموح، وشذى برغوث، وجيهان المشعان، وسواهم.

يتّشح الشعر الفراتي التقليدي بالغنائية والذاتية؛ إذ تطرّقت معظم قصائد هذا النوع إلى قضايا معاصرة بنسق كلاسيكي، ولكنّ بعض الشعراء كانوا مُقلّدين ونظّامين لا تصدر أعمالهم عن أصالة ولا

عن تجربة ولا أهمية تُسجَّل لشعرهم⁽⁷⁾، ومن أهمّ أعلام النسق الشعري التقليدي محمد الفراتي، وعبد الجبار الرحي، وعبد المنعم الرحي، ويلمهم أحمد الراوي، وعبد العزيز العزاوي، وصالح هواس وسواهم، وقد اضطبغت معظم تجارب الشعراء التقليديين بالتعبير عن هواجس الذات والإحساس بعدم الانسجام مع المجتمع، يقول محمد الفراتي:⁽⁸⁾

وما لي سوى حُسْنِ اصطباري مَغْنَمٍ	حليفُ سَهَادٍ نازِحِ الدَّهْرِ مُعَدَمٍ
وفي باطني جَمْرُ الغضا يتضَرَّمُ	أَبَيْتُ وَمِنْ دَمْعِي بِحَارِ زواخِرُ
وأرعى نجومَ الليل والناسِ نُومُ	أروح وأعدو لا أرى لي مُسْعِفًا
وطَوَّعَ لواءَ الدهرِ جيشُ عرمرمٍ	أطارِدُ دهري حاسرًا متجرِّدًا
متى يتجلَّى هذا الشقاء المُحْتَمُّ	لعمرك ما أدري وإني لصابِرُ
ولكن لسان الحال عني يترجمُ	وإني لأُخْفِي الهَمَّ عن كلِّ شامتٍ

وتنطوي موضوعات الشاعر الفراتي على نقد الاحتلال الفرنسي، وإظهار إشكالات المجتمع الفراتي، والتعبير عن الجانب الذاتي من مثل التشاؤم والاغتراب ووصف الطبيعة، كما نجد عند الشاعر عقيل محمد سعيد العرفي الذي قال واصفًا نهر الفرات:⁽⁹⁾

نهر الفرات بما أطلَّ بديعا	أبدى المحاسن للأنام جميعًا
مجدُّ أطلَّ على الزمان رفيعا	أَكْرَمَ بنهرٍ هلَّ من تاريخه
خَلَّتْ الخريف بضفتيه ربيعا	نهرُ الجمال إذا مشى في خطوه
سار مُتَّيِّدًا وسار سريعا	نهرُ حباهُ الله أبدعَ منظرٍ إنْ
محبا للبهاء مطيعا	جمع البهاء بجانبه فلا أرى إلا
اللجين بوجهه إن ميعا	في مائه الرقراق رق إن صفا وأرى

وقد تأثر الشاعر مصطفى الحسون بالشعر التقليدي، ولا سيما بتجارب المعري، وأبي تمام، والمتنبي، يقول في إحدى قصائده:⁽¹⁰⁾

رائعات الفنون من عبدِ شمس	راعَ منها السنون من بعد أنسٍ
---------------------------	------------------------------

(7) انظر: طارق علوان، ملامح الشعر الفراتي، (دمشق: دار صائب دت)، ص 13.

(8) محمد الفراتي، الديوان، المكتبة السليمية، ط 2، (دير الزور، دن، 1959)، ص 111.

(9) <https://www.almoajam.org/Encyclopedia/poet/1110.htm>

(10) حسين المعري، أعلام الحركة الأدبية في الرقة، ط 1، (دمشق: مطابع ألف باء، 1985)، ص 34.

يصيح البوم في دارها ويمسي

وبقايا طولها شاخصات

ومعظم شعره منوس بروح البحري الذي تسقى باسمه (بحري الرقة)، يقول: (11)

هذا لهذا خدنه ورديفه
عن ضده، ومحالف وحليفه
وصفاً بديعاً ضمّه موصوفه

سحر البيان من الجمال أليفه
وضرائب الأشياء ضدّ بائس
بين القصيدة والجميلة مشبه

وتتخذ قصائده طابعاً وجدانياً في موضوعاتها، ولا سيما الوصف الذي يتصل بالوطن والطبيعة مثل قصيدة دمشق، وذكرى الجلاء، ونكبة الموصل، فضلاً عن قصائده في مدينة الرقة (12) التي يقول فيها:

نهاج الحزن في قلبي وعيني
سرت نفحاتها في الخافقين
وقد كانت مفاتن حبتين
وينفث حزنه في الشاطئين

وقفت على طول الرقتين
وشطّ بي الخيال إلى عهود
خرائب تنعق الغربان فيها
يمرّ بها الفرات على أنين

وتصطبغ تجربة فيصل بلبيل الشعرية بمسحة التشاؤم والحزن بفعل الخيبات التي عاينها، فالشلل الذي أصيب به وجعله حبيس بيته لا يختلف عن شلل الأمة وهزائمها المتكررة، ولا سيما هزيمة حزيران/يونيو 1967 التي أحدثت صدعاً عميقاً في وجدان الشعب العربي، وقد سمى الشاعر أحد دواوينه (قصائد مرقها عبد الناصر) في إشارة إلى النكوص وخيبة الأمل.

صدر الشعر الحدائي عن ((بيئته الفراتية ومتمح بدلالاتها، ولكنه تعدّاها إلى آفاق أكثر رحابة، وكان الكثيرون من شعراء الحدائة يمتلكون إيديولوجيا واضحة المعالم، وأرضية ثقافية خصبة وأفقا شعرياً واسع المدى، ويتصفون بعمق المرامي وخصوصية الإبداع وتوهج الرؤى)) (13)، ومن أبرز شعراء الحدائة في الفرات مروان الخاطر، وحسان عطوان، ووليد المشوح، وخالد بشار، وخالد سلامة، وقاسم عزاوي، وتميم صائب، وإسماعيل الخلف وسواهم، يقول قاسم عزاوي: (14)

(11) حسين المرعي أعلام الحركة الأدبية في الرقة، ص 35.

(12) عبد الله أبوهيف، الموقف الأدبي، -138 139، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، د.ت).

(13) انظر: طارق علوان، ملاح الشعر الفراتي، (دمشق: دار صائب، د.ت)، ص 19.

(14) قاسم عزاوي، ديوان الخرفان المبللة، (دم: دن، د.ت)، ص 9.

لَمَلَمْتُ شَتَاتَ الصَّمَمِ
 وَسُدَّتْ فِي وَجْهِ كُلِّ شَبَابِيكِ الطُّرُقَاتِ
 وَعَلَى شُرَفَاتِ الْأَمْسِ
 بَذَرْتُ حِكَايَا الْجُوعِ
 حَصَدْتُ بَقَايَا الْوَهْمِ
 مَشَيْتُ عَلَى وَحْلِ الْكَلِمَاتِ
 وَتَشَحَّ تَجْرِبَةُ حَسَانِ عَطْوَانَ الْحَدَائِثِةِ بِالذَّاتِي وَالْوَاقِعِي الْمَشُوبِ بِالْإِغْتِرَابِ، يَقُولُ فِي دِيْوَانِ
 (إِغْتِرَابَاتِ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ):⁽¹⁵⁾
 نَثَرْتَنِي عَلَى وَجْهِهَا الصَّحَارِي
 لِبَسْتَنِي الْقِفَارُ
 يَا نَحِيلَ الْمَحَبَّةِ هَا نَحْنُ فَوْقَ يَبَابِ الْحَيَاةِ
 رِمَالٌ مَبْعَثَرَةٌ
 وَظِلَالٌ مُضَلَّلَةٌ
 وَرِقَادٌ طَوِيلٌ
 أَسْلَمْتَنِي الرِّيحَ لَوَجْهِكَ
 عَاقَرْتُ مَوْتِي زَمَانًا طَوِيلًا
 وَكَابَرْتُ
 قَلْتُ: قَاتِلْتَنِي أَنْتِ

(15) حسان عطوان، اغترابات أبي العلاء المعري، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002)، ص 29.

ما أينع الشجر المتوجّد في خلجاتي

وكنْتُ غريبًا

أليفاً لحزني وموتي

وما سلّحتني الليالي بنار الحقيقة

ويتخذ تميم صائب من حواريته مع الموت وسيلةً فنيةً يُعبر بواسطتها عن رؤاه، وعن عجزه أمام الموت، فإن حضر في قصيدته ضيقاً، فإنّه يضيف على لحظة اللقاء قلقاً لا يطيقه الإنسان، لتتداعى الذات وتضمحل شيئاً فشيئاً، يقول: ⁽¹⁶⁾

ولم تكتمل لوحتي بعدُ

مازلتُ أبحثُ عن ريشةٍ

تستحمُّ بقلبي

لتجمع كينونة اللون

أو تنتقي من قرارة روعي

زخارف روعي، وتنثرها كالسحابة

لأنعش شمساً هنا حول حرف الإطار

ويتجاوز مروان الخاطر الاغتراب الذاتي؛ ليعاين الاغتراب الطبقي للمقيمين داخل وطنهم، وطن ذي وجهين، عبوس في وجه المواطنين الفقراء، ومشرق باسم في وجه المتنفذين، وأرباب السلطة الذين:

يأتون باسم الشعب

يمضون باسم الشعب

والشعب لا يدري

(16) تميم صائب، حزن الجواد المتعب، (دمشق: مطبعة خالد بن الوليد، 1983)، ص 25.

وطن يعمر بالخيرات يترك أبناءه يرضعون الغمام، ويتوسّلون الخبر خارج حدوده، وطن يدفع
أبناءه إلى الهرب من ويلاته، باحثين عن صحوته المنتظرة، يقول حسان عطوان:

توسدتُ عيون الفقراء

وسقيت الصحراء

أبحث عن وطن يصحو

عن شجر يخضر

وقد تنامي الحضور الشعري الحدائي في الفرات منذ ستينيات القرن الماضي من ذلك تجارب كل
من خلف الشيخ إبراهيم، و خليل حمدان، وإبراهيم الجرادي، ولا سيما في الشعر الحر مثل مجموعته
(أجزاء إبراهيم خليل الجرادي المبعثرة) 1981، و(رجل يستحم بامرأة) 1983، و(شهوة الضد) 1985،
وكذلك في تجارب حمدو الخلوف، الذي أصدر أكثر من مجموعة شعرية نذكر منها (سلامات) 1989،
والشاعر عبد الرحمن مطر كما في مجموعته (أوراق المطر) 1998.

خامساً: القصة

ظهرت القصة الفراتية في وقت متأخر نسبياً مقارنة بالمدن السورية الأخرى، ولكنها ظلت محتفظةً
بخصوصية التعبير عن البيئة الفراتية في معظم ما أنتج من أعمال قصصية في الرقة ودير الزور، ففي
دير الزور نذكر بعض كُتّاب القصة فيها مثل محمد رشيد رويلي، وإبراهيم خريط، وسهيل مشوّح،
وعبد الوهاب حقي، وعبد العزيز الدروبي، ومصطفى عبد القادر، وأحمد جاسم الحسين، وشذى
برغوث، وابتسام برغوث، وجيهان مشعان، وأسماء شلاش، وأمانى المانع، وعبير عزاوي، وسواهم.

وقد تميّزت الرقة بالجماعات الأدبية، إذ أنشأ عبد السلام العجيلي عُصبة أدبية سمّاها عُصبة
الساخرين ضمّت اثني عشر عضواً أثارت ضجةً كبيرةً عند إنشائها، ونشرت بعض النتاج الخاص بها،
وأسّس إبراهيم خليل جمعية أدبية أطلق عليها (جماعة ثورة الحرف) في دلالة على السعي لتجاوز
النسق التقليدي في الكتابة نذكر من أعضائها (وفيق خنسة، عبد الله أبو هيف، خليل الجاسم
الحميدي، خلف الشيخ إبراهيم، علاء الدين حسن، إبراهيم الجرادي) وصدرت عنها مجلة الرصافة
الأدبية.

تحضر في أعمال محمد رشيد رويلي (الرباط الوهمي - هدياء- المعادة- ليل الظهيرة) رؤيا الأمل بحياة حرة كريمة بوصفها حاملاً سردياً للبنية القصصية، وتضطلع شخصياته بالتعبير عن مشكلات المجتمع الفراتي مثل شخصية (أبو عزيز) المثقل بهوموم الحياة وعبء الحاضر، وألم الفقد، وخيبة الأمل من واقع مأساوي لا خلاص منه إلا بمناجاة الطبيعة؛ إذ اتخذ من الشجرة التي تقف أمام بيته صديقةً يبثها همومه وأحزانه وأسراره⁽¹⁷⁾، ويسقيها بدموع القلب مُتخذاً كل أسباب الحيلة كي لا يسمعه أحد من المخبرين، وتنوع موضوعاته القصصية تنوع قضايا المجتمع وهمومه، كالعلاقات العاطفية وما يتخللها من خيانة، وغدر، ووفاء، وأحلام اليقظة كما في قصة (محاولة جاذة)، فضلاً عن استدعاء بعض الرموز التاريخية مثل عنتره، ومجنون ليلى، ويتخذ من تيار الوعي وسيلةً فنيةً كما في قصة (إشراقات) التي تعنى بالجانب الداخلي لبطلها؛ إذ يستدعي الذكريات، ويفتح أرشيفه الذاتي رغبةً في استعادة لحظة سعيدة تُشعره بإنسانيته، إلا أنه يُغلق دفتره ويعود إلى واقعه المرير⁽¹⁸⁾، وانتقد في أعماله العادات القبلية التي تحد من اختيارات الإنسان، وتسهم في تعميق المشكلات الاجتماعية كما في قصته (أنياب الظلمة) التي يصرخ في نهايتها البطل: ((يا قانون القبيلة والكيل والقال لن أظل في زمن الضياع أبداً))⁽¹⁹⁾، وتنطوي أعماله كذلك على نقد الواقع الاقتصادي وانتشار الفقر، وتصوير حياة الفلاحين القاسية، ليُشرح الوجد بمبضع النقد.

وتحضر الموضوعات الاجتماعية في قصص إبراهيم خريط، ولا سيما التدخل في شؤون الآخرين وتعقّبهم، في مجتمع لا يترك المرء شأنه في ظل خصوصية العلاقات الاجتماعية في مدينة دير الزور؛ إذ إنَّ الكلَّ يعرف الكلَّ مهما تباعدت الأحياء، وقد عبّر بطل القصة عن ذلك واصفاً المجتمع ((يجثم على صدري، يقيدني، يحبس أنفاسي، يتحكّم بي، يأمرني، فأطيعه، يهدّدني فأخضع لتهديده، يرصد حركاتي وسكناتي، يُعدّ كلماتي، يصادر حرّيتي، يفرض الرقابة على أحلامي))⁽²⁰⁾، وعبرت قصصه عن هموم المواطن الذي تجثم فوق صدره أعباء ثقيلة تحبس أنفاسه، وتشعره بأعباء الليل والنهار، ولا يكف عن التفكير الذي يأكل من عمره وحياته، ولا ينجو من ثقل الحاضر إلا بالحلم؛ ليحقّق فيه ما عجز عن تحقيقه في الواقع، وتناول قضية السّجن السياسي وما يُرتّبته على السجين السياسي الذي أُطلق سراحه حديثاً بعد خمسة عشر عاماً، إذ يشعر بغربة كل من حوله وما حوله، فأقرب النَّاس إليه يعاملونه بغربة: تنكره حبيبته، وينفضُّ الناس من حوله خوفاً من الأجهزة الأمنية، ويتحاشاه المارة، ليشعر في نهاية المطاف أنه خارج من سجنه الصغير إلى السجن الكبير.

(17) انظر: محمد رشيد رويلي، ليل الظهيرة: مجموعة قصصية، (دمشق: دار حسان عطوان للنشر، د.ت)، ص 7.

(18) محمد رشيد رويلي، «إشراقات»، مجلة المعرفة، ع: 465، (دمشق، وزارة الثقافة، يناير 2010)، ص 111.

(19) محمد رشيد رويلي، «أنياب الظلمة»، مجلة المعرفة، ع: 493، (دمشق، وزارة الثقافة، مايو 2012)، ص 116.

(20) إبراهيم خريط، الحصار: مجموعة قصصية، (دمشق: دار الينابيع، 1994).

ويعاين سهيل مشوح التناقض الصّارخ بين أغلبية الفقراء وأقلية الأغنياء التي تعتاش على ألم الفقير وحرمانه وتوغل في الترف والبدخ⁽²¹⁾ فحضرت قضايا الجوع، والمرض، والخوف، واغتراب الإنسان في وطنه، وصوّرت القصص الحياة في دير الزور بكلّ تناقضاتها، ومشكلاتها، والعلاقات الإنسانية في فضاءها، فضلاً عن حضور مظاهر الطبيعة مثل العجاج، وفيضان النهر، والرياح عاتية تذكّر البطل بقسوة السلطة التي لا تترك له سوى الاختيار بين الرفض أو القبول⁽²²⁾، والعلاقة بين الإنسان والقدر، وهو ما صوّرت أعمال عبد الوهاب حقّي متعرّضة لمشكلات المجتمع الفراتي.

وتتصدّى ميّة الرّحبي في أعمالها إلى قضايا المرأة والمجتمع مثل التعليم، وصورة المرأة المثقّفة، والمرأة العاملة، والأعباء التي تنوء بها المرأة في الريف، ومعاناة المطلّقة والأرملة في حياة تمور بالصعاب⁽²³⁾، وترسم القاصّة شذى برغوث في قصصها العلاقة بين الرجل والمرأة ضمن البيئة الفراتيّة؛ لتصوّر أحلامها وآمالها وآلامها عبر توظيف الضمير (هي) الذي يشير إلى المرأة بتفاعلها مع الذات والآخرين معبّرة عن الجانب النفسي لشخصيّاتها، وما ينتابها من قلق وتوتر⁽²⁴⁾.

ويتميّز أحمد جاسم الحسين بجنس القصّة القصيرة جداً التي عبّر بوساطتها عن العالم الداخلي للإنسان، ليعيد ترتيب الحياة وفق منظور تأملي ينهض على السرد الكثيف، والتقاط لحظات معبّرة عن قلق الإنسان وصراعه مع الزمن، فضلاً عن الإشادة بقدرة الذكريات التي تجعله يعيش زمنين مختلفين في خرق واضح لقوانين الفيزياء.

وأما في الرقّة فتحضر أسماء بارزة في القصة القصيرة أمثال خليل جاسم الحميدي، وإبراهيم الخليل، وإبراهيم الكبة، وسامي حمزة، وصبيح دسوقي، وعمر حمود، وماجد رشيد العويد، وبسام الحافظ، ومحمد الحاج صالح، ونجاح إبراهيم، وسحر سليمان وسواهم.

تتناول أعمال القاصين قضايا متّصلة بالواقع من مثل الغربة، والحنين، والفقر، والحلم، والتأمل، والعلاقات الاجتماعيّة، ومشكلات المجتمع الفراتي كما نلفي في أعمال خليل جاسم الحميدي الذي ركّزت أعماله على دواخل الشخصيات، وما يعتورها من حزن، وألم، مثل وصفه بطل إحدى قصصه وقد كان ولهاً بمنار: ((كل ما فيه يشي أنّه حزين ومتعب، وثمة خواء في داخله، ووجه منار يملأ القلب

(21) سهيل مشوح، رسوم غامضة للزمن المفاجئ: مجموعة قصصية، (دمشق: دار بردى للدراسات والنشر، 1994)، ص 15.

(22) سهيل مشوح، رسوم غامضة للزمن المفاجئ، ص 44.

(23) انظر: ميّة الرّحبي، امرأة متحررة للعرض: مجموعة قصصية، (دمشق: دار الأهالي للطباعة والنشر، 1995)، ص 14.

(24) انظر: شذى برغوث، اللوحة: مجموعة قصصية، (دمشق: مطبعة عكرمة، 1996)، ص 53.

والذاكرة⁽²⁵⁾، وتتناول أعماله كذلك قضايا العادات والتقاليد، والفساد الإداري، والقمع، والقهر السياسي، وهموم الفلاحين، وهو ما اشترك فيه القاص إبراهيم الكبة الذي حاول إعادة كتابة سيرة المواطن السوري، مسلطاً الضوء على مشكلات الواقع عبر إيقاف الزمن واستدعاء الماضي الذي يغدو اللجوء إليه خلاصاً من عبء الحاضر⁽²⁶⁾. وتعكس قصص إبراهيم الخليل العلاقات الإنسانية في القرية الفراتية وعادات أهلها وطقوسهم وقسوة حياتهم، فضلاً عن نظامها القبلي، وغضب الفرات أحياناً الذي يتسبب بكوارث وخيمة بفيضانه؛ ليقدم الكاتب رؤيته واصفاً المشهد السردي بخصوصيته الفراتية (الرمال، العجاج، الفيضان، السيل، حراشف السمك، الرقم الطينية، الوادي، أجراس القطن...).

وتحضر هموم المواطن السوري في أعمال سامي حمزة الذي عبّر عن مشكلات الفقر والبطالة والفساد في معظم قصصه، ولا سيما مجموعته (اضطرام الهويس)، التي أودعها رؤيته السردية، وموقفه من العوائق السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التي تحول دون تطوّر الوطن، في حين تركّز أعمال إبراهيم علّوش على خصوصية المجتمع الفراتي، والعلاقة بين الفراتي والنهر الذي يتجاوز حضوره الدور السردى المنوط باحتضان الأحداث بوصفه حيزاً تتأطر فيه المقولات السردية في القصة، إذ يدخل في نسيج ذاكرة كلّ فراتي، ولا ينفك عن أن يدخل في وعي الفراتيين، ويصبح كائناً يبتونه همومهم وأحزانهم وتطلّعاتهم.

وتتوسّع دائرة الرؤيا في أعمال ماجد رشيد العويّد؛ لتعبّر عن موقف الإنسان المعاصر من الموت، والحياة، والعبودية، والحرية، والفقر، والغنى متخذة من الثنائيات الضدية مجالاً للتعبير عن تناقضات الواقع السوري التي تدفع الإنسان إلى امتلاك فنّ الإصغاء إلى الشجر والحجر في نزوع رومانسي يتماهي مع الطبيعة؛ إذ تغدو مرآة يرى بها المواطن نفسه⁽²⁷⁾.

وتشترك الأصوات النسائية في التعبير عن قضايا المرأة كما نلمح في أعمال سحر سليمان التي ركّزت بشكل مكثّف على أثر العادات والتقاليد في البيئة الفراتية في حياة المرأة، ولا سيما المرأة الريفية التي تحمل أعباء لا يطيقها الرجال من أعمال في الحقل والبيت وواجبات اجتماعية، وتناولت أثر ذلك في بّ الكآبة في نفسها بفعل القدر، والأقنعة التي يُبدّلها من حولها في لحظة تعريّ الواقع وتظهر

(25) خليل جاسم الحميدي، المغني والنخلة، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1998)، ص 8.

(26) انظر: إبراهيم الكبة، قصة فنّان، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1997)، ص 23.

(27) انظر: ماجد رشيد العويّد، الغمام، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999)، ص 38.

هشاشة العلاقات الاجتماعية القائمة على المنفعة الآنية الملتصقة بالغدر والخيانة⁽²⁸⁾، وتعالج نجاح إبراهيم في متونها القصصية قضايا اجتماعية تتصل بالزواج من مغترب وما يخلّفه ذلك من آثار نفسية واجتماعية على المرأة، فضلاً عن عبء ذلك على العلاقة الأسرية، وتناولت كذلك معاناة المرأة المطلقة، وأحلام المرأة وتطلّعاتها نحو مستقبل أفضل، ولم تغفل عن التقاط بعض المواقف في المجتمع الفراتي، وأنماط العلاقات الإنسانية فيه.

سادساً: الرواية

تعيد رواية محمد إبراهيم العلي السيرة الاجتماعية للفرات عبر بنية سردية تقوم على السيرة الذاتية، وترصد الرواية التحوّلات الاجتماعية، وأنماط الإنتاج الزراعي في أثناء بناء سد الفرات وبعده متخذةً من المدة بين 1953-1978 إطاراً زمنياً لبدء نمو الأحداث، ومن حياة المعلم محمد الذي عُيّن مُدرّساً في منطقة عشيرة الشيخ حمد نقطة تبثّر ترصد بوساطتها الأحداث والتغيرات، إذ يرصد المُعلّم الوقائع من منظوره، ويعاين أحوال الحياة في البادية وأشكال العلاقات الاجتماعية فيها التي تقوم على تحكّم الشيخ في العشيرة واستغلاله أبناءها بتعاونه مع تجار الخان بحلب الذين يشترّون الألبان والأجبان من الرعاة بثمان بخس مستفيداً كذلك من دعم رجال الدين له من أمثال عبد الخالق، وعبد الرزاق.

يصوّر الراوي الحياة القاتمة التي تعيشها القبيلة في نمط تكراري لا يحمل معه أي جديد، نمط معيشي واجتماعي يتحرك في فضاء القبيلة وضمن حدودها وفي سبيلها؛ ليكرّس طبيعة مجتمع مغلق على نفسه، الأمر الذي يجعل بنيته هشة تجاه أي خطر، وهو ما حدث فعلاً عندما فاض النهر وأتى على المواشي كلّها، وجرف حاجيات العشيرة وأغراضها، وهو ما جعل أبناءها مشرّدين هائمين على وجوههم خلا شيخ العشيرة الذي حظي بعطايا بعض شيوخ القبائل، وقد ترك رجال الدين العشيرة قاصدين مكاناً جديداً تتحقّق فيه مصالحهم الشخصية، فيما هام الباقون على وجوههم باحثين عمّن يقرضهم مالا يسترجعون به بعض ما تعرّض للخراب، وبعض ما خسروه من مواشٍ، لكنّ التجار رفضوا إقراضهم، ولم يجدوا بداً من الأخذ بنصيحة المعلم محمد الذي أشار عليهم بالبحث عن عمل آخر في الأراضي الزراعية، أو في مهن أخرى؛ لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الحياة الاجتماعية في الفرات ولتتفرّق القبيلة -بعد أن بقيت متماسكة عشرات السنين- بفعل التهديد الوجودي الذي حلّ بها، وقد عرضت الرواية من منظور المعلم محمد مسألة الأميّة، وانتشار الجهل بين الناس، وهو ما

(28) انظر: سحر سليمان، حرق الليل، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1997)، ص 32.

أتاح لبعض المتنقّذين وأصحاب المصالح التحكّم في الطبقات الفقيرة من المجتمع، على أنّ الحلّ من وجهة نظر الراوي هو العلم.

تغيّرت حياة بعض أبناء القبيلة تغيّراً جذرياً مثل دغّاس الذي أصبح فنيّاً في سد الفرات، وأضحت زوجه فنيّة في السدّ كذلك، وأصبح ذبيان معلماً، تنتهي الرواية كما بدأت بعرس، ولكنه عرس مختلف هذه المرة، عرس الاحتفال بالتغيير الذي أحدثته التعليم في أبناء الفرات، والتحوّل الكبير الذي أصاب أبناء القبيلة من الأمية إلى التعلّم، ومن النمط الرعوي إلى أعمال ومهن أكثر تطوراً.

يحمل السد رمزية واضحة في الرواية، فلا حلّ للمشكلات الاجتماعية في الفرات سوى العلم والأخذ بأسباب التقدم، على أنّ الرواية تحتفي بالسد، وتشيد به على مدار فصولها، جاعلة منه إنجازاً منقطع النظير في تاريخ المنطقة، ومن المآخذ التي نعاينها في الرواية الاجتزاء الذي جعل مجتمع قبيلة الشيخ حمد صورة كبرى للمجتمع الفراتي؛ إذ توجد أماكن ومدن أخرى وتجمعات بشرية غير النظام القبلي الذي عرّته الرواية بوصفه سدّاً يحجب أبناءه عن التطور، فلا يمكن أن تتطابق وجهة النظر التي تعرضها الرواية مع حال مدن وأرياف أخرى لا تتطابق أوضاعها الاجتماعية مع ما عرضته الرواية، ولا سيما أنها تجاهلت الآثار السلبية للسد في النظم الزراعية، فضلاً عن التهجير القسري الذي طال عشرات القرى، وهو ما عاينته رواية (المغمورون) لعبد السلام العجيلي؛ إذ صوّرت مرحلة بناء السد وما تلاها من تغيّرات وأثرها في التحول الاجتماعي لمنطقة الفرات، ولا سيما أصحاب الأراضي التي غمرتها بحيرة السد الذين أرغموا على الانتقال إلى أماكن تحدّدها لهم الحكومة.

يتولّى عثمان الذي يملك ثقافة متواضعة اكتسبها من مطالعة بعض الصحف اليومية مهمّة إقناع الفلاحين بأن يغادروا ديارهم قبل أن تغمرها بحيرة السد والسكن في بيوت مؤقتة خصّصتها الدولة لهم بالقرب من منطقة السد في مرحلة أولى، والانتقال إلى أماكن أخرى تحدّدها لهم الدولة وفق المصلحة العليا للوطن، على أنّ مهمّة عثمان جعلته يسمع إهانات متكرّرة من الفلاحين الذين يرفضون أن يُقتلعوا من أرضهم، وتزداد مشكلات عثمان مع إخفاقه في علاقته بندى الفتاة البورجوازية التي تركت حياتها الباذخة لتعمل في السد، وتنتهي أحلام عثمان وندى والفلاحين بالرحيل؛ لتغمرهم جميعاً أزومات متعاقبة كما غمرت بحيرة السد ذكرياتهم.

إن الالتصاق بالأرض الذي أبداه سكان القرى المعرّضة للغمر يشير إلى أثر المكان في التماسك الاجتماعي، فهم ليسوا بحاجة إلى بيوت يسكنون فيها وحسب، بل هم بحاجة إلى مكان تمتد فيه جذورهم⁽²⁹⁾؛ إذ لا يوجد أصعب من اقتلاع الإنسان من بيته.

(29) انظر: إبراهيم الشيلي، الذات والآخر في الرواية السورية، ط1 (عمان: دار فضاءات للنشر، 2019)، ص 162.

يحضر الغمر في الرواية بوصفه كارثة طبيعية أملت ظروف إنشاء السد، فلقاء عثمان المنتهي إلى طبقة فقيرة بندي ذات الأصول الأرستقراطية يشير من وجهة نظر الراوي إلى أثر السد في تكوين نمط علائقي جديد بدأ يربط الطبقات الاجتماعية المختلفة بعضها ببعض وفق منظور جديد تمليه التطورات التقنية، ولا تغادر فكرة الصراع الرواية، الصراع الطبقي بين البورجوازية والفلاحين، وصراع الأجيال بين عثمان ووالده، وصراع الفلاحين مع الكوارث التي يسببها فيضان النهر، والصراع من أجل لقمة العيش الذي يضطر الإنسان إلى القتل أحياناً بسبب الخلاف على حدود الأراضي أو الأبار كما صرّح بذلك المبروك والد عثمان بدافع الاختلاف بين النمط الرعوي القائم على التنقل والنمط الزراعي المقتصر على الأراضي القريبة من النهر، ويبرز صراع آخر يعبر عنه عثمان، صراع مع قوانين القبيلة التي اضطرت عثمان إلى تحمّل عبء قتل والده ابن عمه، ما اضطّرّه وعائلته إلى الرحيل إلى قرية المزيونة، والعيش غرباء مرغمين على مراعاة الحدود التي تفرضها الحياة الاجتماعية الجديدة⁽³⁰⁾.

وتتجاوز تجربة العجيلي الإطار الفراتي في بعده المكاني والموضوعي؛ إذ تعان روايته قلوب على الأسلاك الأوضاع السياسية والاجتماعية إبّان انفصال سورية عن مصر، ودور البورجوازية في التمهيد للانفصال وإنهاء الحلم العربي، وقد عرض الأحداث من منظور طارق عمران الذي يستعيد ذكرياته في دمشق مُسجلاً انطباعاته وتفاعلاته مع الأحداث التي أعقبت الانفصال؛ لتعكس وجهة نظره التحولات التي فرضها الوضع السياسي الجديد، ولتطفو على السطح أشكال عدة من النفعيّة التي تضطلع بها البورجوازية في سبيل تحقيق مصالحها، فالبيوت تزيّن بالمكتبات واللوحات الثمينة بوصفها تعبيراً عن الهوية الطبقيّة أكثر من كونها فناً له جمالياته، فالبورجوازية القائمة على النفعيّة لا تأبه بالفن إلا بقدر ما يحقق وجودها وحضورها الاجتماعي، حتى الأمسيات الثقافية تأتي خدمة لتلك الغاية؛ إذ يرى عبد المجيد عمران أن الفن للكسب، ويؤكد تلك الفكرة زكي بيه المصري أحد الأعيان المصرية في الإقليم الشمالي السوري الذي يرى أن ((الفن للفن خدعة قديمة لم تعد تنطلي على أحد. إنه مذهب يجعل الفن غاية بذاته، بينما هو وسيلة))⁽³¹⁾، وتظهر الوسيلة لتحقيق المنفعة في العلاقات الاجتماعية عبر حفلات الكوكتيل، واللقاءات السرية التي يسعى فيها كل واحد لتحقيق مصالحه عبر التقرب من أصحاب النفوذ.

وتعان الرواية مرحلة حسّاسة ومفصلية من تاريخ سورية، وتركّز على الجانب الاجتماعي فيها، وأثره في ترسيخ هيمنة الطبقة البورجوازية على أهم المشروعات مثل مشروع تلفريك، وتطوير سكك

(30) انظر: عبد السلام العجيلي، المغمورون، ط1، (بيروت: دار الشرق، 1979)، ص 46-48.

(31) عبد السلام العجيلي، قلوب الأسلاك، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1974)، ص 69.

الحديد وغيرهما من المشروعات العملاقة التي تدُرّ عليهم مبالغ طائلة، الأمر الذي دفع بالنساء إلى اتّباع أساليب شتّى للتقرّب من كبار الضباط وصنّاع القرار، فالمراهقات ((منهنّ تعلّقن بشباب الضباط، أو بالفنانين الدون جوانات، والمحنّكات من الباحثات عن المكاسب ألّقين شباكهن على الضباط الكبار أو على المستشارين ذوي المراكز الضخمة))⁽³²⁾، على أنّ الانفصال كان نتيجة حتمية لصراع البورجوازيين السورية والمصرية وفق منظور الرواية.

ترصد رواية (حارة البدو) لإبراهيم الخليل التغيّرات الاجتماعية التي فرضها انتقال البدو من النمط الرعوي إلى الحضري وما كابدوه في سبيل التأقلم مع الفضاء الاجتماعي الجديد، ولا سيّما أنّهم اتّخذوا في حاشية المدينة (في الأرض العراء) أكواخاً صغيرة من الصفيح وبعض الأحجار والأخشاب والأكياس ليقيموا فيها؛ ولتغدو هذه البقعة موئلاً للمهاجرين الجدد، ومقصداً لغيرهم من العاطلين عن العمل والخارجين عن القانون، والهاربين من العدالة، وقد كابد البدو في سبيل اندماجهم بالمجتمع المدني، من ذلك ظروف السكن القاسية، وصعوبة تأمين عمل جديد يختلف عن أعمالهم السابقة في البراري، وقد عاين إبراهيم الخليل هذا المعضلة وفق مستويات عدة تتّصل بالجانب العمراني، إذ يرى أهل المدينة أنّ أكواخ البدو تشكّل بثوراً تشوّه جمال المدينة، وتتّصل كذلك بالتعبير عن البؤس النفسي والاجتماعي الذي يواجه الوافدين الجدد⁽³³⁾، ولا سيّما البدو الذين أرغمهم الجفاف، وطلب الثأر إلى النزوح إلى أطراف المدينة، على أنّ الرواية تنتقل بشكل مفاجئ من دون مسوغ سردي إلى أجواء حارة البدو وما يحدث فيها من توترات تخلق زمناً سردياً مغايراً لزمان البادية، زمن المدينة التي تلفظ نفاياتها وجداولها النتنة من مياه الصرف الصحي إلى الأطراف، وتحشر المنبوذين في هوامشها، لتلاحقهم تهمة الانتماء إلى المناطق العشوائية في تناقض صارخ بينها وأحياء المدينة الأخرى، وتنتقد الرواية طبيعة العلاقات في المدينة التي تقوم على الانتهازية والأنانية والطبقية، الأمر الذي يخلق مسافة اجتماعية بين الناس وفقاً لمناطق سكنهم أو مهنتهم وهو معيار المجتمع البورجوازي في الحكم على الآخرين. واتخذت الرواية من التصوير التسجيلي وسيلةً للتعبير عن الرؤية السردية، التي لم تُبرئ ساحة حارة البدو التي كانت بيئة جاذبة للمجرمين والمنبوذين، كما عاينت الرواية مزاولة البدو مهناً لا تتناسب وقيم الحياة البدوية، إذ عمل بعضهم في النوادي الليلية، وصالات القمار⁽³⁴⁾.

وأما في المسرح، فقد بدأت المسرحيات بالإعداد والاقتراس من المسرح الأوروبي منذ خمسينيات القرن العشرين، ليبدأ بعد ذلك جهد التأليف في المسرح الفراتي، كما نجد في أعمال عبد الوهاب

(32) عبد السلام العجيلي، قلوب الأسلاك، ص 284.

(33) انظر: سمر روي الفيصل، «تجربة الشكل الفني في روايات الفرات»، مجلة المعرفة، ع: 244، (دمشق: وزارة الثقافة، 1980)،

(34) انظر: إبراهيم الخليل، حارة البدو، (د.م: دار التنوير للطباعة والنشر، 1980)، ص 24 وما بعدها.

حقّي الذي ألّف مسرحيات منذ الخمسينيات نذكر منها (صناعة الاستعمار) 1955، و(مصرع شهيد) 1956، عدنان المدني) 1958، و(وظيفة شاغرة) 1988، وكما نلّفي عند سامي حمزة الذي اتسمت مسرحياته بالسخرية من مثل مسرحية (المطر في خامس الفصول) 1981، وفي مسرحيات حمدي موصلي، إذ تنوّعت موضوعاته بين التاريخي، والفانتازي، والاجتماعي، ونهضت مسرحياته على الرمزية من مثل في مسرحية (الجرذان) 1984، و(أحداث الليلة الثالثة عشر) 1986، و(موت الكلاب القذرة) 1986، وأتّسمت كتابات مصطفى حقّي بالواقعية، نذكر من مسرحياته (عودة الرحيل) 1990، و(المختير) 1992.

وفي أدب الاطفال برزت أسماء بعض أدباء الأطفال نذكر منهم: أحمد شوحان الذي ركّزت أعماله على السيرة النبوية، وأعلام الصحابة، والتاريخ الإسلامي، وجمال علوش الذي كتب قصائد للأطفال منها مجموعة (وطني العربي) 2000، وقصص قصيرة نذكر منها: (رحلة الغيمة الصغيرة) 1992، و(لمن يغني النهر) 1996، و(الشريف الإدريسي) 1998، والشاعر ياسر شكري نذكر من أعماله (عرس الطفولة) 2000، والشاعر وليد مشوح نذكر من أعماله مجموعة شعرية بعنوان (فتية الشمس) 2000، وسعد صائب الذي كتب أعمالاً كثيرة في أدب الأطفال نذكر منها: (الموسيقيون واللصوص) 1982، (الأرنب عفراء) 1980، و(الكرة السحرية) 1981، و(حديث جدتي) 1985 وسواها من الأعمال، ومن أدباء الأطفال كذلك سراج الجراد، ولمياء سليمان.

سابعاً: خاتمة

1. عبّر الأدب الفراتي عن قضايا تخصّ البيئة الفراتية في بعض الظواهر الطبيعية مثل الفيضان والجفاف والعجاج، وبعض المشكلات الاجتماعية مثل العادات والتقاليد التي تحدّ من حرية الفرد في اتخاذ قراراته الشخصية، والنظام القبلي الذي يفرض شروطه وقواعده على العلاقات الإنسانية.

2. عالجت بعض الروايات الفراتية قضايا تتّصل بهوم الإنسان المعاصر وتطلّعاته، مثل الفقر والجوع، والقمع السياسي، فضلاً عن المشكلات الاجتماعية، وتناول أدباء الفرات قضايا الأمة العربية، مثل النكبة الفلسطينية، وهزيمة حزيران/ يونيو، فضلاً عن أشكال القهر السياسي والاجتماعي.

3. رصد الأدب الفراتي التحولات الكبرى التي حصلت في الفرات مثل إنشاء السد وما فرضه من تغييرات طبيعية مثل بحيرة السد التي غمرت الأراضي الزراعية، وعايّنت التغيرات الاجتماعية التي

تمثلت في تهجير المغمورين إلى أماكن جديدة، فضلاً عن قضية التحول من النظام الرعوي والزراعي إلى النمط المدني وما فرضه من تحديات في سبيل تأقلم الوافدين الجدد مع مجتمع المدينة ومشكلاته.



المصادر والمراجع

1. أبوهيف. عبد الله، الموقف الأدبي، -138 139، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، د.ت).
2. الحسون. مصطفى، أعلام الحركة الأدبية في الرقة، (دمشق: مطابع ألف باء، 1985).
3. الحميدي. خليل جاسم، المغني والنخلة، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1998).
4. الخليل. إبراهيم، حارة البدو، (دم: دار التنوير للطباعة والنشر، 1980).
5. الرحبي. مئة، امرأة متحررة للعرض: مجموعة قصصية، (دمشق: دار الأهالي للطباعة والنشر، 1995).
6. الشبلي. إبراهيم، الذات والآخر في الرواية السورية، (عمان: دار فضاءات للنشر، 2019).
7. العجيلي. عبد السلام، المغمورون، (بيروت: دار الشرق، 1979).
8. —، قلوب الأسلاك، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1974).
9. العويد. ماجد رشيد، الغمام، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999).
10. الفراتي. محمد، الديوان، ط2، (دير الزور: المكتبة السليمية، 1959).
11. الكبة. إبراهيم، قصة فنان، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، د.ت).
12. برغوث. شذى، اللوحة: مجموعة قصصية، (دمشق: مطبعة عكرمة، 1996).
13. خريط. إبراهيم، الحصار: مجموعة قصصية، (دمشق: دار الينابيع، 1994).
14. راووف. ليونهارت، رحلة الدكتور ليونهارت راووف في القرن السادس عشر الميلادي، سليم أحمد خالد (مترجمًا)، ط1، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008).
15. رويلي. محمد رشيد، ليل الظهيرة: مجموعة قصصية، (دمشق: دار حسان عطوان للنشر، د.ت).
16. —، «إشرافات»، ع: 465، مجلة المعرفة، (دمشق: وزارة الثقافة، كانون الثاني/ يناير 2010).

17. —، أنياب الظلمة، ع: 493، مجلة المعرفة، (دمشق: وزارة الثقافة، أيار/ مايو 2012).
18. —، الحركة الثقافية في محافظة دير الزور في القرن العشرين، (دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر 2007).
19. زكريا. أحمد وصفي، رحلة إلى الفرات ومقالات أخرى، ط1، (دمشق: دار رسلان للطباعة والنشر، 2008).
20. سليمان. سحر، حرق الليل، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1997).
21. صائب. تميم، حزن الجواد المتعب، (دمشق: دار صائب للنشر، 1984).
22. عزاوي. قاسم، ديوان الخرفان المبللة، (دم: دن، د.ت).
23. علوان. طارق، ملامح الشعر الفراتي: دراسات نقدية، (دمشق، دار صائب، د.ت).
24. مجموعة مؤلفين، الرقة درة الفرات، (الرقة: مديرية الثقافة بالرقة، 1992).
25. مشوح. سهيل، رسوم غامضة للزمن المفاجئ: مجموعة قصصية، (دمشق: دار بردى للدراسات والنشر، 1994).
26. موسيل. الوا، الفرات الأوسط، رحلة وصفية تاريخية، صديقي حمدي وعبد المطلب داوود (مترجمين)، (دم: مطبوعات المجمع العلمي العراقي، د.ت).



الشعر الشعبي في الجزيرة السورية

محمود الوهب⁽¹⁾

أولاً: ملخص

الهدف الرئيس لهذا البحث هو محاولة إلقاء الضوء على ألوان الشعر الشعبي وقضاياها في منطقة الفرات والجزيرة السورية، والعلاقة الوثيقة له بالحياة اليومية، ولا سيما تعبيره عن النوازع البشرية للجماعة البشرية في تلك المنطقة. وفي سبيل تحقيق هذا الغرض، شرع الباحث بتقديم مهاد عام تكلم فيه على الثقافة اللامادية، ولا سيما الشعر الشعبي الذي يعدّ واحداً من أهم جوانب هذه الثقافة في المنطقة العربية عمومًا، وفي المنطقة الشرقية من سورية على وجه الخصوص، لأسباب تتصل بقرب عهد هذه المنطقة من حياة البداوة من ناحية، وغناها الحضاري والثقافي من ناحية أخرى. وقد عرّج الباحث على خصائص الشعر الشعبي وظروف نشأته والأقوال المتعددة في هذا، وأردف ذلك بالكلام على ألوانه المتعددة، وتاريخ نشأة كل لون وميزاته من ناحية الوزن والقافية وغيرها.

ثانيًا: مقدمة

تأتي زيادة الاهتمام بالثقافة اللامادية في حياتنا، تأكيداً للدور المهم الذي تقوم به هذه الثقافة في تفاصيل الحياة اليومية للناس، إضافة إلى أنها تعدّ -بحكم قدرتها على الاستمرار عبر أزمنة وحقب طويلة- منجمًا ضخمًا لكثير من أنواع النشاط الاجتماعي والإنساني في جوانبه المادية والروحية، تلك الجوانب التي أغفلها المؤرخون أو لم تكن في صلب اهتماماتهم.

ويعدّ الشعر الشعبي جزءًا رئيسًا من الثقافة اللامادية المتناقلة عبر الأجيال، ويأتي الاهتمام به من الأفراد والجماعات والمؤسسات الرسمية، لما يتضمنه من قدرة على توثيق العادات والتقاليد

(1) كاتب وقاص سوري.

والأعراف،⁽²⁾ وعلى نقل تفاصيل الحياة العامة للمجتمع الذي نشأ فيه، بحكم صدوره عن فئات شعبية لا تجد لها حضوراً في الثقافة العامة التي تترفع في كثير من الأحيان عن الخوض في تلك القضايا التي تهم الفئات الشعبية.

وإذا كان الإنسان في بدايات وعيه قد جسد جوانب من حياته في رسوم بدائية تركها على جدر الكهوف التي أوى إليها أحقاباً طويلة، فإن اللغة لا ترتبط بجهاز الإنسان الصوتي فحسب، بل بقدرته على التفكير الذي يلعب دوراً رئيساً في مجمل نشاطه الحياتي، الفردي منه والجماعي. واللغة أكثر قدرة على نقل صور الحياة، وتفاصيلها، فهي الأداة الأكثر شمولاً وتأثيراً من وسائل التعبير الأخرى، وطالما افتتن الإنسان بها، ولعل العرب من أكثر الأمم التي افتتنت بلغتها، ولا سيما الشعر الذي أقامت له المواسم الأدبية، ورفعت المنابر للشعراء كي يلقوا من عليها أشعارهم.

سال مداد كثير في العقود الماضية حول فقدان الشعر بريقه، ولا سيما أن أوقات الفراغ التي كان الناس يقضونها في سماع السير والقصص الشعبية في ظل طقوس وعادات عائلية معينة، تكاد تندثر في مجتمعنا المعاصر الذي استبدل الناس فيه بهذه الممارسات الترفيهية المشتركة مشاهدة برامج التلفاز المفضلة⁽³⁾، وعلى الرغم من وجهة تلك الآراء فإن الشعر الشعبي ما يزال يكافح من أجل البقاء، ولا سيما في أوساط الفئات الشابة التي استهوتها التطورات التي استجذبت على حياتنا المعاصرة. ولهذا فإن الزعم بموت الشعر، ومنه الشعر الشعبي، زعم مبالغ فيه، والدليل على ذلك قدرة الشعر الشعبي في العقود الأخيرة على توثيق كثير من المستجدات التي دخلت إلى حياتنا المعاصرة. ولهذا فالمرجح أن الشعر الشعبي، على الرغم من خفوت حضوره عموماً، سيبقى إلى أمد غير منظور. فمن بين الميزات التي يتمتع بها الشعر الشعبي أنه يستمد قدرته على الصمود من كونه إبداعاً جمعياً، فهو وإن كان يأتي أولاً على لسان مبدع فرد فإنه لا يستوي أثراً فنياً - كما يرى الدكتور حسين نصار - إلا بعد أن يتفق وذوق الجماعة، ويجري على عرفها من حيث المحتوى والشكل، ولا يتخذ شكله النهائي قبل أن يصل إلى جمهوره الذي يعطي نفسه حق التحرير والتغيير فيه ما دام يتوارثه ويعده معبراً عنه. ولذلك تتغير صورة العمل الأدبي الواحد زمنياً ومكانياً، ولا يثبت على صورة واحدة⁽⁴⁾.

ومن هذه الصبغة الجماعية أو التأليف الجماعي، يأتي غنى الشعر الشعبي، إذ لا تبقي منه الأجيال بعد الغربة إلا ما يلامس روح الجماعة وقيمها، وما يتصل منه بمشاعرها المتقلبة في لحظات الفرح

(2) أحمد علي مرسي، صون التراث الثقافي غير المادي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2013)، 24.

(3) حصة زيد الرفاعي، «الفلوكلور في الوسائط الجماهيرية: مظاهر التأثير والتأثر بين فن الإعلام والثقافة الشعبية: مجلة عالم الفكر، المجلد: 24، ع: 1-2، (1995)، ص 173.

(4) حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، ط2، (بيروت: منشورات اقرأ، 1980)، ص 13.

والحزن... إلخ.

يستند الشعر الشعبي في الجزيرة السورية إلى مخزون ثقافي يمتد إلى أعماق التاريخ المدون، ففي هذه المنطقة تجتمع ثقافات تنتهي في أصولها البعيدة إلى حضارة بلاد ما بين النهرين التي تعد واحدة من أهم الحضارات الإنسانية، وكذلك تشترك مع جملة من الثقافات التي توالى على منطقة بلاد الشام والأناضول، ولهذا تعد من أكثر المناطق السورية غنى من ناحية التراث اللامادي، لكثرة الأقوام التي تعاقبت عليها، وأثرت في تاريخها الثقافي/ الإنساني، ولأنها تقع في منطقة تلامس حضاري بين ثقافات متعددة. وإذا أضفنا إلى ما سبق أن الاستيطان البشري في منطقة الجزيرة، أي: التحول من البداوة إلى الاستقرار، لا يتجاوز عمره أكثر من قرنين من الزمن، عرفنا مقدار الارتباط بين الشعر الشعبي وسكان المنطقة، الأمر الذي يعطينا فكرة عن حضور الشعر الشعبي في الحياة العامة التي ما تزال روابطها وثيقة بالبداوة وقيمها وسلوكاتها.

ثالثاً: حول تسمية الشعر الشعبي

تعددت آراء الباحثين والدارسين في أصل تسمية الشعر الشعبي، فثمة من ينسبه إلى وادي (نبط) الواقع قرب المدينة المنورة في الحجاز، ومنهم من أعاده إلى قبيلة (نبيط) (الأنباط) التي كانت تقيم في العراق، لكن أغلب آراء الرواة والمتخصصين تتقاطع عند تسميته بالشعر (النبطي) لاستنباطه من الشعر العربي التقليدي، كذلك يطلق عليه: (الشعر البدوي)، وذلك لأن مفرداته مستمدة من اللهجة البدوية، فهذا اللون من الشعر أكثر حضوراً في البوادي والأرياف العربية، في حين إن حضوره في المدن قليل، وهو لا يقتصر على بلد عربي من دون سواه، لأنه موجود في البلاد العربية معظمها، وهو صورة للهجة البلد أو المنطقة الجغرافية الموجود فيها. ولعل أول من أشار إليه (ابن خلدون)، إذ ساواه بالشعر الفصيح:

((لما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها، وقوانين أعرابها، وفستت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة، فكانت لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات، وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف... فلم يُهجر الشعر بفقدان لغة واحدة، وهي لغة مضر... وأهل المشرق من العرب يُسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوارني والقيسي، وربما يُلجّنون فيه أحياناً بسيطة، ثم يُغنّون به ويُسمون الغناء

باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي منازل عرب البادية ومساكنهم⁽⁵⁾.

ويتضح من قول ابن خلدون أن الشعر الشعبي قديم النشأة، وأنه يعود إلى المرحلة التي كفت فيها اللغة العربية الفصحى عن كونها لغة التداول اليومي، وتحول الناطقون إلى استعمال اللهجات المحلية. وهذه المرحلة تسبق ابن خلدون بقرون، كان الشعر الشعبي فيها حاضراً إلى جانب الشعر الفصيح، وإن لم توجد له دلائل أو وثائق يعتدُّ بها، وما يدعم هذه الحجة أن أوزان الشعر الشعبي لا تباعد عن أوزان الشعر الفصيح.

رابعاً: سمات الشعر الشعبي ومحتواه ومنزلته

يعدُّ الشعر الشعبي، على نحو أو آخر، ديواناً موازياً للشعر الفصيح، فإذا كان هذا الأخير ديوان الثقافة العالمية - إن جاز التعبير - فإن الشعر الشعبي هو تعبير عن الثقافة الشعبية بما فيها من عادات وتقاليد، كذلك يعالج هذا الشعر مسائل اجتماعية، وقضايا عاطفية، وموضوعات تتصل بقيم الجماعة ونظامها القيمي. وينشد في المناسبات العامة باللهجة البدوية في أنحاء الجزيرة السورية كلها، مدناً وأريافاً، ولا يقتصر هذا اللون على منطقة الجزيرة، بل يتعداها إلى منطقة الشامية (مناطق غرب نهر الفرات)، فمجاله واسع يشمل مناطق وبلدات كثيرة، تقع على جانبي نهر الفرات، ويمتد فضاءه إلى أرياف حماة وحمص والبادية السورية. ولا تخفى تأثيرات الشعر الشعبي العراقي في إنتاج الشعراء السوريين.

والشعر الشعبي، كما أسلفنا، صورة للحياة في منطقة الجزيرة بشقيها المادي والروحي، فهو يجسد بألوانه وأجناسه كافة حياة الناس فرحاً وحزنًا ونشاطاً اجتماعياً، إذ إنه سجل لما يعتري حياة ذلك المجتمع من خلافات وصراعات، إنه بكلمة موجزة يعطي صورة صادقة عن حياة الناس، وما يؤمنون به ويمارسونه في سلوكهم اليومي، حيث تقام احتفالات الأعياد والأعراس، ولعله أيضاً يعكس الحياة العاطفية لجيل الشباب، ولا يقتصر الشعر الشعبي على الذكور بل ثمة شاعرات أيضاً. ومن شعر النساء ما يسمى بـ «نظم البنات»، وهو من أكثر الألوان الشعرية شيوعاً، وأحبها إلى القلوب لرقّة أبيات وخفتها وعفويتها وعذوبة نغمها، ودعي بالبنات لأن النساء يكثرن النظم فيه، وتتألف منظومته الغنائية من أبيات من مجزوء البسيط، ينتهي كل بيتين منها بقافية واحدة، ويتناول قضايا الحب والوقائع، ويتميز نظمه وغناؤه ببساطة الأداء، وصدق المشاعر وخفة الموسيقى ورقة العاطفة. ومن

(5) - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الله درويش، ط1، (دمشق: دار البلخي، 2004)، ج2/ 415-416.

هذا اللون:

لا يا حكيم الجاي لا تلمس لا إيدي

ماش نبضي ينبيك بوريدي

خليتني بهواي للنجم راعي

عينك تبوكل⁽⁶⁾ النوم لو مثلي واع

يالخذت⁽⁷⁾ روعي وياك رد روعي ليه

خوفي من المنام يشمت بيّه⁽⁸⁾

وثمة أشعار حزينة تختص بها النساء أيضًا، وتغنيها في المآتم في بيت المتوفي وحول قبره. أما المعادة فتختص بها العداة وتسمى القاصودة أي التي كانت تنشد القصائد في رثاء الميت، حيث تجتمع النساء حولها في حلقة واقفات يضربن صدورهن لوعة وحزنًا، أو هكذا يمثلن، والطبل يقرع، وفي داخل الحلقة رجل وامرأة، ويتقابلان بسيفهما، ويتحركان على إيقاعات الطبل والغناء. وقد اندثر هذا اللون الآن، ويبدو أنه كان منتشرًا في مرحلة سابقة في منطقة دير الزور⁽⁹⁾.

ويحفل الشعر الشعبي عمومًا بصور فنية لا يقل تأثيرها في نفوس المتلقين عن تأثير الصور الفنية التي نجدها في الشعر الفصيح، وغالبًا ما تكون الصورة الفنية قريبة مما هو مألوف أو ما هو حديث التداول. ولا يغفل الشعر الشعبي الأدوات والآلات والأجهزة التكنولوجية الحديثة التي تركت أثرًا في حياة الناس المادية أو الروحية، ومن ذلك الأدوات الزراعية الحديثة، ووسائل النقل، وأدوات الترفيه مثل الراديو والتلفزيون والهاتف التقليدي ثم الخليوي. وبذلك يثبت الشعر الشعبي أنه قادر

(6) تبوك: تسرق.

(7) يالخذت: يامن أخذت.

(8) عبد الفتاح قلعي، دراسات ونصوص في الشعر الشعبي الغنائي، (دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009م)، ص 81.

(9) عبد الفتاح قلعي، دراسات ونصوص في الشعر الشعبي الغنائي، ص 84.

على توسيع مفردات لغته، وعلى استيعاب المفردات الوافدة، وإخضاعها لسياق لغته على الرغم من غرابتها أحياناً. ففي ريف جرابلس، على سبيل المثال تتردد الأبيات الآتية:

يا تيل يا بو عمد ودي لحبيبي خبار
فاركتهم من زغر مدري شجرا⁽¹⁰⁾ واش صار

وأيضاً:

يا تيل يا بو عمد يا مرافق البومة
فنجان شغل العجم نهودك يا فطومة

وعن الجرار الزراعي

يا شوفير⁽¹¹⁾ الداركتور⁽¹²⁾ يا متعلم جديدي

لفني بحضينك لفني على الكرسي الحديدي

وبعض الناس يفضلون الشعر الشعبي على الآخر الفصيح، فيرونه أكثر ملاسمة للواقع، وأقرب إلى نبض الشارع، وأكثر محاكاة لوجدان الإنسان العامي، نظراً إلى أنه يخاطب هذا الإنسان بلهجته ومستواه اللغوي الذي يفهمه، ولا يشعر الإنسان العامي بالهوة بينه وبين الشعر الشعبي، على غرار ما يشعر بها مع الشعر الفصيح الذي يخاطبه بلغة تشعره بأنه أقل منها، لأنه لا يستطيع الكلام بها من جهة، ولأنها صادرة عن أشخاص يتمتعون بثقافة تتفوق على معارفه البسيطة من جهة ثانية.

ومزية الشعر الشعبي أنه قابل للغناء أكثر من الشعر الفصيح. يشير الرحالة المجري (مهاي الحداد) إلى أن العربي كثيراً ما يغني ((للحب وعنه، وعن فرسه.. ويمتد الشعر الشعبي من دير الزور حتى السهل الجنوبي في الصحراء العربية الحجرية، تتناقله القبائل البدوية، ولا أحد يعرف من قائله ومؤلفه أبداً. فأغنية البدوي تتكون كما تتكون الأغاني الشعبية في كل مكان..))⁽¹³⁾.

(10) شجرا: ما الذي جرى؟

(11) شوفير: سائق.

(12) داركتور: الجرار.

(13) مهاي فضل الله الحداد، رحلتي إلى بلاد الرافدين وعراق العرب، نائر صالح (مترجماً)، ط1، (بيروت: دار كتب للنشر والتوزيع،

خامساً: ألوان الشعر الشعبي (المغنى): البناء والوزن

إذا نظرنا إلى الشعر الشعبي من زاوية أنه امتداد للشعر العربي القديم، فإن المدخل الأول لتناول هذا الشعر هو تقسيمه إلى أغراض، والحقيقة أن أغراض الشعر الشعبي متعددة، تتناول المديح والهجاء والغزل والثناء والفخر وحالات الحزن والتوجع والمناسبات العامة والخاصة، ويصاغ بعضه حكماً مستمدة من أعراف حياة البدوي ومعاييره القيمية، وكذلك ينقل صورة عن الحياة الاجتماعية من مثل النصائح والعتاب والمنادمة وغير ذلك من الأمور. وقد تنقسم القصيدة الواحدة إلى أغراض عدة، فلا تختلف في هذا الجانب عن القصيدة الفصحى التقليدية حتى في بحرها الشعري إلا بأنها مكتوبة باللهجة البدوية المحلية، ويناقش بعضها قضايا حياتية تمس عيش المواطن ومشكلاته.

غير أن الثقافة الشفوية التي ترعرع فيها الشعر الشعبي لم تنظر إليه من خلال التقسيم القائم على الموضوعات أو القضايا التي يتناولها، بل نظرت إليه من زاوية سمعية، وقسمته إلى ألوان، والمقصود باللون الاسم الفرعي الذي يمتاز بالوزن الشعري، وينمط الغناء، ومناسبة القول. ولهذا انقسم الشعر الشعبي إلى عتابا ونایل وسويحلي وغيرها.

1. العتابا

تعدُّ (العتابا) من أشهر الألحان التراثية في الأغنية الشعبية، وقد تعددت آراء الباحثين حول معناها، فثمة أقوال متضاربة حول التسمية وأصلها ونشأتها. ويبدو أن لكل منطقة رأياً مستمداً من مخزونها الشعبي، وتلك التسميات أغلبها حكايات أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة الموضوعية، فمن تلك الآراء ذاك الرأي الذي يعيد أصل الموليا إلى حكاية تقول: ((إن فتى من جبل سنجار تدله بحب فتاة اسمها عتابا، كان يقضي الليل أمام دارها يعزف لها ويغني حتى استمال قلبها، فخطبها من أهلها وتزوجها، وعاش معها حياة سعيدة لا ينقصها إلا الفقر، فقد كان يعمل لدى سيد القرية بأجر زهيد، وعتابا عون له...))⁽¹⁴⁾.

ومرة لمح السيد حُسن عتابا فحام حولها إلى أن أوقعها في شباكه. وكان السيد قد أرسل زوجها في مهمة طويلة، ولدى عودته لم يجدها في منزلها، فاكتشف حقيقة ما جرى، إذ رآها تطل من شرفة السيد، وفي غمرة حزنه وألمه أخذ ينشد العتابا الأولى:

(2005)، ص 106.

(14) عبد الفتاح قلعي، دراسات ونصوص في الشعر الشعبي الغنائي، ص 24.

((عتابا بين برمي.. ولفتي عتابا ليش لغيري ولفتي

أنا ما روح للقاضي ولا أفتي عتابا بالتلات مطلقا))⁽¹⁵⁾

ومن الواضح أن الحكاية أقرب إلى الأسطورة. أما أهل الرقة فيرون أن العتابا بدأت من مدينتهم، بيد أنه لا توجد أدلة ملموسة على هذا الرأي، ويعيد آخرون التسمية إلى قبيلة الجبور التي تقطن في غرب العراق وفي شمال شرق سورية، إذ يزعم بعضهم أنه يوجد نوع من العتابا المنسوبة إلى الجبور، تسمى العتابا الجبورية التي يصل امتدادها حتى منطقة نهر الخابور الأوسط. وثمة ظن بأن القبائل العربية التي سكنت في أرض العراق هي التي بدأت هذا اللون الذي انتقل في مرحلة لاحقة إلى بلاد الشام، وأنها نشأت في أواخر العهد العباسي، بعدما فسد اللسان العربي وكثر اللحن، وقد غناها البدو الرحل مصحوبة بصوت الربابة الحزين الذي يثير الأشجان⁽¹⁶⁾.

ولعل الأقرب إلى الصواب أن التسمية مشتقة من العتاب والمعاتبة، وهذا ما تؤكد أبيات العتابا، فشاعر العتابا يعاتب حبيبته لما يبديه من صددٍ وهجران، أو يلوم صديقه أحياناً على جفائه وانشغاله عنه. وقد يكون مجيء التسمية من عتاب قسوة الحياة أو مرارة الزمن، فكثيراً ما يرد الناس معاناتهم إلى أحدهما⁽¹⁷⁾.

وتتكون العتابا من بيتين، ولكل بيت شطران، وتكون الأشطر الثلاثة الأولى على قافية مجنّسة؛ أي تتفق في اللفظ، وتختلف في المعنى، وينتهي الشطر الرابع بالباء الساكنة المسبوقة بالألف، أو بالفتحة كما في هذا المثال الآتي المنسوب إلى الشاعر المشهور عبد الله الفاضل من عشيرة الحسنة، إحدى بطون قبيلة عنزة، ويتألف من أربعة أشطر، الأَشطر الثلاثة الأولى موحدة القافية بينما ينتهي الشطر الرابع بألف وباء، ويترافق غناء العتابا مع العزف على آلة الربابة التي تعد جزءاً أصيلاً من تراث الجزيرة السورية:

هلي ما لبسوا خادم سملهم

وبكبود العدا بايت سملهم

وان كان أهلك نجم أهلي سملهم

(15) عبد الفتاح قلعي، دراسات ونصوص...، ص 24.

(16) عبد القادر عياش، «الأدب الشعبي في دير الزور»، مجلة صوت الفرات، ع: 175، (شباط، 1958).

(17) عبد القادر عياش، «الأدب الشعبي في دير الزور».

كثير من النجم على وغاب

وتتعدد أنواع العتابة في سورية فمنها: الشرقية في الجزيرة والفرات والبادية العراقية، والجبورية في منطقة الخابور وبعض مناطق الجزيرة التي تكثر فيها ألفاظ السقي والري، والفاضلية نسبة إلى عبد الله الفاضل. ويعدُّ الفاضل من أشهر شعراء العتابة، ولا سيما ما يتصل منها بقصة مرضه بالجدري حيث تركه أهله وحيداً مع كلبه يصارع الموت:

هلك شالوا على مكحول يا شير.. وخلوا لك عظام الحيل يا شير

لون تبجي طول العمر يا شير هلك شالوا على حمص وحما⁽¹⁸⁾

وحين تعبر أبيات العتابة عن الحزن والفراق، تسمى بالـ (فراقيات)، كما في الأبيات السابقة، أما حين تصف الحب والغزل، فتسمى (هواويات)، ومنها:

أمس وردن على الخابور والعين

ومعجيني سواد الهدب والعين

وجع ما بيع الرمد والعين

ومكدرة⁽¹⁹⁾ على فراق الحباب

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم:

ثلاث ريام عالعطار جنّ

ينوم حضانجن يا البيض جنة

أريد وصالجن ما ريد جنة

وخش النار لحد الركاب

(18) عبد الفتاح قلعي، ص 24.

(19) مكدرة من الكدر: الحزن.

2. النائل

ينتشر هذا اللون انتشاراً واسعاً في أنحاء الجزيرة الفراتية كافة، ويحتل منزلة رفيعة بين بقية الأشعار الشعبية الفراتية الجزرية؛ ويتصف بحزنه وسوداويته:

غصبن عليها اهلـمت والعين مو بيدي

كل ما أداوي جرح وجروحنا تزيدي

وعلى غرار ألوان الشعر الشعبي الأخرى لا يوجد رأي واحد حول أصل التسمية، إذ يقول اللغويون: إن النائل كثير العطاء - نَيْال نَيْلاً ونائلاً - صار نالاً أي جواداً، ويقال أيضاً: إن النائل الذي يهتز بمشييه، وينهض برأسه يحركه إلى فوق، كمن يعدو وعليه حملٌ ينهض به. ومن الحكايات التي تروى حول أصل النائل أنه اسم لرجل، قيل بمدحه أول بيت نظم على هذا اللون، وقد ورد ذكر لهذا الاسم فيه⁽²⁰⁾:

نائل يريد يعبر.. نائل يريد يموت

عجزت حكومة (حلب) درّمْ على (بيروت)

وهي حكاية ملفقة، كما يبدو، ولا سيما مع الإشارة إلى حكومة (حلب) وحكومة (بيروت)، فهذه ألفاظ لا تتعدى مرحلة الاستعمار الفرنسي، في حين إن النائل أقدم من ذلك كثيراً كما تظهر النصوص الموجودة بين أيدينا.

وقيل أيضاً (النائل): الأسود، وهو لون الحزن، ومن ذلك قول إحداهن:

يا ثوب حزني أجرد وأزيدك نيل/ أخوي وابني مهم بغلاة الزين

لكن الأمر الذي لا شك فيه أن (النائل) هو أحد أبرز ألوان الشعر الشعبي المغني في وادي الفرات عموماً، وفي مدينة (الرقعة) خصوصاً. و(النائل) بيتٌ منفردٌ يتألف من شطرين موحدٍ القافية. يمتاز بالرقعة والسلاسة والكلمة البسيطة سهلة اللفظ، متداولة المعنى بين العامة، وتحمل أغلب أبياته جملاً خبرية تميل كثيراً إلى السرد القصصي:

ما تنفع اللائمة وصفق باليدين

(20) محمد الموسى الحومد، «النائل من ألوان الشعر الفراتي»، موقع إي سيريا.

حزين طول العمر عالتربه عيني

وتتكثف المعاني في بيت النائل الذي يتصف كما أسفلنا بطابع الحزن الذي يضيف عليه مسحة مأساوية، تشير إلى المعاناة التي تسكن في قلب الشاعر:

قولم لولف القلب العلو لا يشباه/ اليوم عاف الحزن لقلوبنا خلاه

وأكثر ما تجد الألم والمعاناة في (النائل الرقي). ويكتب (النائل) على البحر البسيط، ووزنه على وزن (الموليا)، فهو كشطري بيت (الموليا) الأولين.⁽²¹⁾

3. الموليا

اختلف الباحثون في أصل كلمة (الموليا) ودلالاتها، ومكان نشأتها وزمانه، فمنهم من يعيده إلى أزمنة قديمة، ومنهم من يعيده إلى بدايات القرن التاسع عشر في بلاد الشام⁽²²⁾، إلا أنه لا يمكن ترجيح أي من الآراء أو الروايات التي يذكرها الباحثون، نظراً إلى انعدام المراجع المعتمدة.

والموليا ((نمط من الشعر الشعبي المغني، له حضور واضح في منطقة الجزيرة والفرات. أما من حيث الشكل والبناء فتُنظم الموليا في معظم الأحيان على البحر البسيط ومشتقاته الجوازية، وتُغنى على مقامَي البيات والهنود، وتتكون من بيتٍ بأربعة أشطر، الأشطر الثلاثة الأولى موحدة الروي، بينما يختتم الشطر الرابع بياءٍ مشددة، وهاء مهملة، مثال ذلك:

البارحة ما نمت والعين سهرانه

على حبيب القلب الراح ما جانه

الروح من فرقتو عالدوم حزنانه

يمتى يعود الولف.. يرد الهنا ليّه؟⁽²³⁾

(21) محمد موسى الحومد، «النائل من ألوان الشعر الفراتي».

(22) إياد شاكر، «الموليه والأبودية: فنون من الجزيرة السورية»، موقع شباك سوري.

(23) محمد موسى الحومد، شعراء الموليا في القرن العشرين، ط 1، (السلمية: دار الغدير، 2000م)، ص 200.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن بعض الشعراء نظموا القصيدة الهجائية من (المولياً)، وهي القصيدة التي تتكون من ثمانية وعشرين بيتاً، وهي تنظم مسلسلة وفق الأحرف الهجائية، حيث يذكر الحرف المراد البدء به، ثم يأتي الشاعر بكلمة أولها الحرف نفسه كقول الشاعر:

((الواو ولف الجهل اليوم لا حولي ما لقي توأصيفها يمههم ولا حولي

نذر يلو يحق لي زريف الطول لا حولي سبع مراحل خلا ما أذوق أنا الميّه))

4. الأبوزية

الأبوزية نوع من الشعر العامي يشيع في شبه الجزيرة العربية والعراق، ويمتدّ إلى ضفاف الفرات في الجزيرة السورية. وكلمة الأبوزية مركبة من (أبو) بمعنى (ذو) أو صاحب وكلمة (ذية)، وهي تخفيف لـ (أذية)، ومعناها (صاحب الأذية)، وسبب ذلك أنه ينظم غالباً عندما تكون العواطف متأثرة متوجّعة، وأكثر ما يستخدم هذا اللون في الغزل، إذ يعبر الشاعر من خلاله عن عذاب العشق ومعاناة العشاق من صدى وهجران وأمان.

و(الأبوزية) نوعان:

- أ. مطلقة: وهي ما كان معناها مبتكراً؛ أي إن الكلمة الأخيرة في الأبوزية مبتكرة، وهي الكلمة الرئيسة التي تكتب عليها الأبوزية.
- ب. مقيدة: وهي ما كان معناها مأخوذاً من نظم سابق كبيت شعر أو آية قرآنية أو حديث.

وتنشد (الأبوزية) في مختلف الأغراض الشعرية، ومن أمثلتها في التوجع:

عمر ما كفى لهمومي ولاسن

أكاون بالدهر وحدي والاسن

مشت الأيام ما ظلي ولا سن

ولا عين البقت تبجي عليه

وللأبوزية الغنائية أنواع ترتبط بعناصر محددة هي: المفاجأة والإدهاش والتناسق الموسيقي

صوتًا ومعنى، منها (الأبوزية المطرزة)، والمقصود بها بدء الأشطُر بأحرف اسم معين كاسم الحبيبة أو الصديق أو ما شابه، كما في هذا المثال المطرَز باسم (عبير):

ع: على لون الورد خدك تعالى

ب: بدر فوق النجم كلها تعالى

ي: ينادي خافقي المولى تعالى

ر: رجائي يصونه من شر الأذية⁽²⁴⁾

5. السويحلي

السويحلي من لواحق فن العتابا، وهو فن نظم وغناء، ويتميز هذا اللون بكلماته القليلة المكثفة بالغة التأثير، وعادة ما يحفظه العشاق، وينظمونه على أنه مونولوج داخلي، أو محاكاة للأحبة الغائبين، والتغني بهم وبأوصافهم. ويتميز (السويحلي) برقة كلماته، وعذوبة معانيه، وهو مؤلف من أربعة أشطر، توضع قافية البيت في المنتصف أي في الشطرين الأول والثالث، ومن الناحية العروضية لا ينظم على أي من بحور الشعر العربي، إلا أنه يعرف بوزنه السماعي. ومثال السويحلي:

حبر من الدموع مكتوبكم يا زين

من بين الضلوع نار الفراق تزيد

وربما يعود سبب تسميته إلى وجوده في شرق المتوسط، وهو معروف من الساحل حتى ضفاف الفرات، ويرى بعضهم أن التسمية جاءت من جرّ السفن بالحبال أي (السحل)، إذ يقال إن السكان على ضفتي الفرات كانوا يغنونه أحياناً خلال سحب السفن التي كانت تحمل الركاب والمؤونة من ضفة إلى أخرى.⁽²⁵⁾ ويشتهر هذا اللون من الشعر في منطقة (الجزيرة)، وينشد أو يغنى في كثير من المناسبات، ويردده الناس بينهم وبين أنفسهم كنوع من أنواع الطرب. وهو واسع الانتشار في وادي الفرات، وينظم في (الرقّة) على قلة، إلا أنه يُغنى بكثرة، فهو بسيط اللحن سلس الأداء، ومنه:

(24) عبد محمد بركو، أغاني العتابا والنابل والسويحلي، ط1، (دمشق: دار اليازجي، 2000)، ص 202.

(25) محمود النجرس، «أشكال الأغنية الشعبية في سوريا: السويحلي مزيج لحني وشعري»، موقع الأيام.

أشبيك تدوي يا بوم تالي الليل
 ما راح لك شي ولا مس دليلك ضيم
 وبعض الشعراء يوحدون القافيتين الثانية والرابعة:
 لا شري ولا بيع مرافج التجار
 صدور المربيع بيض الحبارى الزغار

ويؤدى السويحلي من خلال إعادة الشطر الأول وإضافة زيادة إيقاعية عادة بلفظ (أويلي) بين نطق الشطر الأول وبين إعادته، ثم تعاد الزيادة بعد الشطر الثاني والرابع وبعض الشعراء يوحدون القافية.⁽²⁶⁾

وهذا الفن كبقية الفنون الشعبية الشعرية يكتب بلغة الحياة اليومية، ولا يضبطه صرف أو نحو، ويجمع في مفرداته بين الفصحى والعاميّ القريب من الفصحى، وبين بعض من الألفاظ الدخيلة.

6. الميمر

من أنماط الشعر الشعبي العراقي، وله بحر مستقل وزنه: (مستفعلن مستفعلن مستفعلن). وقد استعمل في عدد من المقامات العراقية، ويقسم إلى قسمين: (ميمر هجيني)، و(ميمر مذيل). ويعثر الباحث على آراء عدة في أصل الميمر، فثمة رأي يعيده إلى كلمة (ما مر) التي تعني لم يمر، ويعيده رأي آخر إلى كلمة (ديرم)، وهي قشرة شجر الجوز، وكانت تستخدم سابقاً كأحمر للشفاه. أما الرأي الثالث فيقول إن أصل الكلمة آشوري، وإنها تعني (القصيدة) في الكتابات الآشورية القديمة، وهو رأي (مجيد لطيف القيسي) في كتابه (معرفة أوزان الشعر الشعبي العراقي)، بينما يذهب عبد الفتاح رواس قلعي إلى أن كلمة ميمر سريانية الأصل، وأنها تعني (أغنية)، ف(ميمرو) في السريانية قصيدة

(26) سلام محمد، «الأبوزية أشكال الأغنية الشعبية في سوريا»، موقع الأيام السورية.

مغناة، ويستدل على رأيه بأن الشاعر السرياني الكبير مار أفرام⁽²⁷⁾ كان مشهورًا بنظم الميامر.⁽²⁸⁾ ويبدو أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، ولا سيما ما نلاحظه من اتساق بين المصطلح وأصله اللغوي.

ويتناول الميمر أغراضًا شتى من مثل الغزل والفخر والحماسة والتوجع والفراق والثناء. أما بنية شعر الميمر فتتألف من أربعة أشطر، ثلاثة أشطر متحدة القافية واللفظ، أما الشطر الرابع فيختم بقافية الراء الساكنة. ومن شعر الميمر في الفخر الوطني:

احنه الذي حب الوطن عادلنه⁽²⁹⁾ والوكت⁽³⁰⁾ بلعز يا شهيم عادلنه

نسجيه⁽³¹⁾ مراللي لفه أو عادلنه⁽³²⁾ واللي يصحبينه بلوطن يتبختر

وقد أبدع شعراء الميمر في وصف المحبوب:

رمان خدك يا ترف بس حبه

ودموع عيني كالمطر بس حبه

أفديه لعيونك يا ترف بس حبه

من هالخدود الكّتها ورد أحمر⁽³³⁾

(27) مار أفرام قديس سرياني (306-379) من أعظم أدباء السريان، ترك إرثًا من الكتابات ما تزال ترنم في الكنائس الأرثوذكسية حتى الآن، وتنوع إنتاجه الأدبي والكتابي، فترك عددًا من القصائد والكتابات النثرية، وله (ميامر) كثيرة، ومنها صلاة الرجاء لسقوط الأمطار وسواها كثير. للمزيد عنه: ماريان سعيد، موقع الوطن.

(28) عبد الفتاح قلعي، ص 80.

(29) عادلنه: عاد لنا.

(30) الوكت: الوقت.

(31) نسجيه: نسقيه.

(32) عادلنه: يعاديننا.

(33) عبد الفتاح قلعي، ص 81-82.

سادسًا: غناء الشعر الشعبي وألوان منه

تتنوع أغاني سكان الجزيرة السورية وأهاليهم، فنجد الغناء في جنوب الحسكة وريف دير الزور متأثرًا بالفن العراقي، نظرًا إلى الارتباط الجغرافي والاجتماعي بين عشائر المنطقة، في ما يميل غناء سكان ريفي الحسكة والرقعة الشماليين للتأثر بالفن الكردي والتركي والأشوري والأرمني، حتى إن بعض الأغاني تضم ألفاظًا كردية وتركية وأرمنية وسريانية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرقصات والآلات الموسيقية⁽³⁴⁾.

وتستخدم في الجزيرة السورية آلات موسيقية عدة تختلف باختلاف اللون الغنائي، إذ تمتاز الرقعة ودير الزور بغلبة الطابع العربي الشرقي على آلاتها مثل (الربابة) و(المأصولة) و(الناي) و(الدف)، بينما تتميز الحسكة بآلات موسيقية كردية أو تركية مثل (البالملة)، و(المطبق). وقد كان للتنوع السكاني بين بدو وحضر وبين عرب وأكراد وأشوريين دور لا ينكر في إثراء الفن الغنائي، فكان صورة معبرة عن حياة تلك المنطقة وتنوعها القومي والديني. وقد تعددت المواويل في التراث الغنائي في الجزيرة السورية.

1. غناء السويحلي

يُغنى السويحلي على مقامات عدة، ويوجد فيه الموسيقيون راحة في اللحن لسهولة وزنه الشعري، وينسبه أهل (الرقعة) إلى الأداة الموسيقية التي ترافقه عند الأداء فيقال: (سويحلي ربابة) و(سويحلي زمارة) و(سويحلي منفرد). ومن ذلك هذه الأبيات التي تتحدث عن فتيات ديريات نزلن ظهرًا إلى النهر، وسبحن بثياهن في مكان يدعى (هرزة أبو عاشق):

على هرزة أبو عاشق يسبحان اكذلن سود والحاجب يا سبحان

ريام الدير هل وردن وسبحن ومنهن ما تهيا لي حدا

2. غناء العتابا

من الألوان الغنائية السوداوية الحزينة، لأنه مرادف للحزن والفجعة والعتاب، والنداءات التي

(34) حسام العوض، «إضاءات على التراث الغنائي في الجزيرة السورية»، أورينت نت.

تقال في بداية بيت (العتابا) ونهايته تدل على ذلك، هذا عندما كانت (العتابا) في موطنها الأصلي في أطراف الصحراء والبادية والأرياف، ولكن مع انتقالها إلى الحواضر، بعد استقرار القبائل البدوية والريفية فيها، انتقلت (العتابا) إلى المدينة، وتعددت أغراضها، ومال شعراؤها إلى الغزل والتشبيب، ووصف المحبوبة.

و(العتابا) من الألوان الغنائية البدوية الريفية بحسب تقسيمات الأغاني الشعبية التراثية، فقد أدى البدوي هذا اللون مع بدايات الاستقرار، أي عندما انتقل من حياة التنقل والترحال إلى حياة شبه مستقرة على شواطئ الأنهار، وتغنى مع الربابة، وهو ما كان شائعاً قديماً، ويجوز غناء (العتابا) من دون ربابة، أي أن تُقرأ كالشعر، أما الآن بعد أن وصلت (العتابا) إلى المدينة، أصبحت تغنى مع الفرقة الموسيقية الشرقية (الآلات الشرقية). ويرتكز غناؤها موسيقياً على نغم (البيات)، ويمكن أن يُغنى بنغم (الحجاز)، إلا أنه يتصف بالحزن في ألحانه كلها. وتُغنى العتابا غناء منفرداً من قبل الشاعر أو المغني.

سابعاً: خاتمة

الشعر الشعبي من أهم أوجه الثقافة اللامادية في منطقة الجزيرة السورية. وبخلاف الشعر الفصيح ذي البحور، فإن الشعر الشعبي ألوان، وهذه الألوان تختلف في ما بينها بناء على الأوزان الشعرية والأشطر والقوافي. ويختلف كل لون شعري عن الآخر لا في الوزن فحسب، وإنما في الموضوعات التي يتناولها، إذ توجد ألوان للفرح والبهجة، وألوان ينظمها الشعراء في لحظات الحزن والأسى. غير أن المشكلة الأساس التي بدأنا نلاحظها في السنوات الماضية أن الشعر الشعبي لم يعد له ذلك الحضور الكبير الذي كان يجده من قبل، ولا سيما بعد انصراف الأجيال الجديدة إلى وسائل تعبير مستحدثة مثل وسائل التواصل الاجتماعي التي يبدو أنها أحالت كثيراً من الفنون الشعبية إلى التقاعد.

المصادر والمراجع

1. ابن خلدون. عبد الرحمن، المقدمة، عبد الله درويش (محققًا)، ط1، (دمشق: دار البلخي، 2004).
2. الحداد. ميهدي فضل الله، رحلتي إلى بلاد الرافدين وعراق العرب، ثائر صالح (مترجمًا)، ط1، (د.م: دار كتاب، 2014م).
3. الحومد. محمد موسى، شعراء الموليا في القرن العشرين، ط1، (السلمية: دار الغدير، 2000).
4. بركو. عبد محمد، أغاني العتابا والنال والسويحلي، ط1، (دمشق: دار اليازجي، 2002).
5. زيد الرفاعي. حصة، "الفلوكلور في الوسائط الجماهيرية: مظاهر التأثير والتأثر بين فن الإعلام والثقافة الشعبية" مج: 24، ع: 1-2، مجلة عالم الفكر، (1995).
6. علي مرسى. أحمد، صون التراث الثقافي غير المادي، ط1، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2013).
7. عياش. عبد القادر، "الأدب الشعبي في دير الزور"، ع: 175، مجلة صوت الفرات، (شباط، 1958).
8. قلعي. عبد الفتاح، دراسات ونصوص في الشعر الشعبي الغنائي، (دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب 2009).
9. نصار. حسين، الشعر الشعبي العربي، ط2، (بيروت: منشورات اقرأ، 1980).

الأغنية الفراتية

سوسيولوجيا التحول من البداوة إلى الزراعة

سليمان الطعان⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

تقوم الفرضية الأساس لهذا البحث على أن الأغنية الفراتية تمثل علامة مهمة على التحولات التي مرت بها منطقة الفرات من مجتمع البداوة القائم على ركيزة أساس هي القبيلة، إلى المجتمع الزراعي الذي كان نقلة كبيرة في حياة القبائل التي أثرت حياة الاستقرار حول النهر، وتشكيل تجمعات قبلية-زراعية، بعد أن أرهقتها حياة التنقل. كذلك تعد الأغنية صدى للتطورات التي تعيشها المنطقة منذ النصف الثاني من القرن المنصرم الذي شهد تحولات اجتماعية عميقة أصابت الحياة في منطقة الفرات بفعل دخول الآلة، والهجرة إلى الدول العربية للعمل، وكذلك الثورة المعلوماتية التي تعيد صياغة كثير من المفاهيم والقضايا التي حفظت قسماً وافراً منه، مثلما أحالت جزءاً من التراث الغنائي إلى عالم النسيان.

تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الجوانب الثقافية والاجتماعية في الأغنية الفراتية في ضوء الاهتمام المتصاعد بالتاريخ الاجتماعي، وهاجس العناية بالفلكلور، ومحاورته استناداً إلى علوم اجتماعية مختلفة تعيد اكتشاف ما في هذا الفلكلور من جوانب، وتتجاوز التاريخ التقليدي القائم على عنصري السياسة والحرب. وهذا كله يأتي في إطار محاولة الجمع بين أدوات تنتمي إلى حقول معرفية متباينة، تتصل بالتاريخ الثقافي، والنقد الأدبي، والدراسات الثقافية، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا.

(1) أكاديمي وباحث سوري.

ثانيًا: مهاد عام

منذ الغزو المغولي للمشرق العربي، ودمار عمرانه في القرن الثالث عشر الميلادي، تدهورت الحضارة والمدنية في منطقتي الجزيرة والفرات، وعاد البشر إلى الحياة الرعوية بعيدًا من المدن التي ثبت أن أسوارها غير قادرة على حماية السكان من الهجمات المغولية المتعاقبة. استمرت حالة البداوة في تلك المنطقة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين بدأت القبائل الرحل بالاستقرار، والتحول التدريجي من البداوة والرعي إلى حياة الزراعة والاستقرار.

يعد التراث الشفوي الذي تشكل في هذا التيه التاريخي الطويل منجمًا ضخمًا للقيم والتقاليد، ومستودعًا للذاكرة الجمعية التي أنهكها الترحال وتتبع مساقط الغيث ومنابت الكالأ. وفي غياب أي تراث مدون نتيجة هذا التيه لا يبقى أمام الباحث إلا فرصة العمل على قراءة التراث الشفوي من أجل مساءلته عن التحولات التي مرت بها الحياة الاجتماعية في منطقة الفرات، والهموم الحياتية التي كانت تشغل بال الناس في المراحل التاريخية المختلفة، ولا سيما في المراحل الأخيرة، نعي منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى الآن. ولن نبعد عن جادة الصواب إذا قلنا: إن الأغنية الفراتية من أكثر الفنون تمثيلًا للتراث الشفوي من جهة، وللتحولات التي مرت بها المنطقة من جهة ثانية، ولا سيما مع تعايش أنواع عدة من الغناء، ومع وجود آلات موسيقية تنتمي إلى بنى اجتماعية مختلفة، وأنماط مختلفة من النشاط البشري. ويتضح هذا كله من خلال استمرار وجود الرابة إلى جانب الزمارة التي تعد بلا منازع آلة مرتبطة بعالم القرية والزراعة.

ثالثًا: خصائص الأغنية الشعبية

الأغنية الشعبية أغنية مجهولة النشأة غالبًا، تتألف من كلمات أو قصيدة شعبية (باللهجة المحكية)، وتقوم موسيقاها على السماع لا على (النوتة) المكتوبة. تشيع الأغنية الشعبية في الأوساط الشعبية، وتنتشر عادة في الأرياف والأحياء التي تقطنها الفئات القادمة من الأرياف. ومن هنا نُظِر إليها من خلال بعد طبقي في كثير من الأحيان.

الأغنية الشعبية هي الأغنية التي يغنمها الشعب، وهي غالبًا من إبداع شخص مغمور، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولكن التناقل الشفوي يجعلها عرضة للتعديلات زيادة أو نقصاناً، فمؤلف الأغنية فرد واحد، ولكن كلمات الأغنية تبقى في حالة من الهيولى تتغير من مطرب إلى آخر، ومن إنشاد إلى آخر،

لأن الأداء الشفوي أداء غير ثابت، إذ تتغير الكلمات دائماً بينما تبقى الصيغ ثابتة إلى حد ما. الأمر الذي يعطي طابع العمومية باشتراك الناس فيها. ولأنها أغنية تُتناقل على أفواه الناس، فإنها تؤدي وظائف تحتاج إليها الفئة الاجتماعية التي تغنيها غالباً⁽²⁾. ولهذا فالأغنية الشعبية تعد منجماً ثرياً للقضايا التي تؤرق الإنسان في لحظة معينة.

إذا انتقلنا إلى الأغنية الشعبية الفراتية، فسنلاحظ أن من أبرز سماتها غياب البعد الديني الذي يتمثل في القيم الدينية والإشارات والكلمات المستمدة من الحقل الديني، فالأغنية الفراتية على نحو خاص، وبخلاف الأغاني الشعبية الأخرى من مثل الأغنية الشعبية الحلبية التي نمت وازدهرت في بيئات دينية، بعيدة كل البعد من الارتباط بالمعتقدات الدينية، ولا تتطلع إلى الماورائيات إلا في حالات نادرة. فهي بمعنى من المعاني أغنية دنيوية، لا تتشكل في إطار عالم تحكمه الرموز الدينية، وتؤرقه أوامر الدين ونواهيه. وهو جانب يمكن رده إلى قلة حضور العامل الديني في حياة البدوي، فالمساحة التي يشغلها الدين في حياة البدوي ضئيلة، لا تؤثر مطلقاً في أسلوب حياته وخياراته الاجتماعية.

يغيب عن هذه الأغنية أيضاً أي بعد وطني، وهو ما اصطلح على تسميته بمفهوم الالتزام، فلا دعوة فيها للدفاع عن الأرض، ومقارعة المستعمر أو المحتل، وهي لا تطلب الثورة ضد الوجود الأجنبي كما في الأغاني الشعبية في بعض البلدان العربية الأخرى، فالعدو فيها يكمن في الآخر القبلي الذي يريد الاعتداء على القبيلة، ولهذا تبدو الحماسة فيها حماسة قبلية، والانتصار فيها انتصاراً قبلياً يتصل بالظفر على هذه القبيلة أو تلك، وإلحاق الهزيمة بها.

ربما يفسر غياب هذا (الالتزام) عنها أمران، أولهما أن الدولة العثمانية لم تكن في الوجدان الشعبي دولة احتلال، لأنها كانت تمثل دولة المسلمين كلهم، ولهذا لم تظهر حركات مناوئة لها في عموم المنطقة العربية، إلا في أواخر أيامها، حين تحولت إلى دولة قومية، تريد فرض صبغتها التركية على شعوب الإمبراطورية، فضلاً عن أن (أبناء العشائر) لم تكن تُفرض عليهم الخدمة الإلزامية في الجيش العثماني، بخلاف باقي أبناء المدن التي تشكلت فيها ذاكرة تزرخ بالمواويل و(التهاليل) التي تراثي حال من اختفوا في (السفريلك). وبخلاف ما هو عليه الأمر في الأغنية في المغرب العربي، لم يحضر الاستعمار في المشرق العربي إلا في بدايات القرن العشرين، ولهذا لم يكن له تأثير واسع في التراث الشفوي كما هو عليه الأمر في المغرب العربي⁽³⁾، أما الأمر الثاني فهو أن حضور السلطة المركزية كان باهتاً في منطقة الفرات وعموم البادية السورية وصولاً إلى قلب جزيرة العرب، إذ كانت السيطرة الفعلية

(2) انظر: شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور و الأساطير العربية، ط 1، (بيروت: دار العودة، 1982م)، ص 69.

(3) انظر على سبيل المثال: عبد الواحد المكّي، «الأغنية الشعبية والرواية الأدبية. هل هما من مصادر كتابة التاريخ؟»، مجلة أسطور، ع: 13، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني، 2021م)، ص 190 وما بعدها.

للقبائل والعشائر التي كانت تتلقى الأموال والهبات من الدولة العثمانية حتى لا تعترض قافلة الحج في أثناء توجهها من بلاد الشام إلى الحجاز. أما زمن الانتداب الفرنسي فيكاد تغيب في أغاني المنطقة، ففضلاً عن قصرها الزمني، فإن الاحتلال الفرنسي لم يكن له حضور في الفضاء العام، فاقصر على وجوده على حاميات فرنسية في مراكز المدن، قلماً كانت تعترض حياة السكان الذين كانت نزاعاتهم العشائرية والقبائلية أكثر أولوية لهم من مناهضة الاحتلال أو الانتداب.

يستفاد مما تقدم أن الأغنية الفراتية لا تعنيها الأحداث المصيرية، ولا القضايا الكبرى، ولذلك فإن البعد التاريخي فيها بعد معدوم تقريباً، فهي لا تؤرخ للأحداث المهمة في القرن العشرين على سبيل المثال، فلا نجد فيها أثراً للحروب العالمية والإقليمية بما فيها حروب العرب مع العدو الإسرائيلي، وهي الحروب القريبة، والتي تشكل جزءاً كبيراً من الذاكرة الجمعية، كذلك لا نجد فيها أي إشارة إلى أحداث شكلت علامات مهمة في القرن الماضي، من مثل انهيار الدولة العثمانية، والانتداب الفرنسي، والحربين العالميتين الأولى والثانية. هذا الانكفاء عن الاشتباك مع العالم والأحداث الكبرى فيه يعني أن الأغنية غير سياسية.

تعود أسباب هذا الانكفاء عن الانخراط في الأحداث وتسجيلها إلى عوامل تاريخية تتمثل في تهميش الجماعة البشرية، وعدم مشاركتها في الأحداث الكبرى، فقد بقيت منطقة الفرات منطقة هامشية حتى في أوج الصراع على المنطقة في بداية القرن العشرين. وكان عدم المشاركة في الأحداث السياسية نابغاً من هامشية الجماعة الفراتية - إن جاز إطلاق هذه الصفة - وعدم انخراطها في الأحداث التي كانت الجماعة تنظر إليها على أنها أحداث لن تغير في وضعيتها.

ولكن الملمح الأهم في الأغنية الفراتية هو غلبة السوداوية والحزن عليها، وهو حزن يعود في رأي بعض الباحثين إلى الاستبداد الناتج عن الغزو المغولي، والحروب التي شهدتها المنطقة في تلك المرحلة، فخلفت جيوشاً من الأرامل واليتامى، ودمرت المنطقة كلياً⁽⁴⁾، بمعنى ما فإن هذا الحزن هو بكاء على حضارة آفلة، وعمران مدمر، وحسرة على زمن فردوسي لن يعود، حزن على توحش الحضارة وتبديدها بعد التمدن. فالأغنية هنا تبدو وكأنها لحن جنائزي ينشد استذكراً أو حسرة على عالم انقضى. لكن هذا التفسير يبدو عاجزاً عن مواجهة حقيقة أن الحزن لا يقتصر على الأغنية الفراتية فحسب، ولكنه يشمل تقريباً كل الشعر الشعبي في أغلب المنطقة العربية، ولا سيما في البوادي. الأمر الذي يفرض علينا أن نبحث عن سبب آخر لهذه الكآبة التي تطبع الأغنية الفراتية، ولن نجده إلا في البيئة القاسية التي يعيش فيها ابن البادية، فالجفاف والقحط وقسوة الحياة وقلة الطعام والكألاً كلها

(4) محمد الموسى الحومد، أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي، (دمشق: وزارة الثقافة، دمشق، 2012م)، ص 11. والكتاب ذو طبيعة توثيقية، فهو لا يقدم أي قراءة للأشعار والأغاني التي يتناولها.

عوامل أسهمت على نحو مباشر في غلبة الحزن على الأغنية. ويظهر هذا في الناي، أحد أكثر ألوان الأغنية الفراتية سوداوية وكآبة:

يا غراب لا جازاك

تنغطُ بدار الغوالي

سليتهم لولاك

ذكرتني بالولف

تبدو الأغنية الفراتية، في جزء كبير منها امتدادًا للطلل الجاهلي، فمثلما كان الطلل صورة لاندثار الحضارة، والقمع الجنسي، وقحل الطبيعة⁽⁵⁾، فإن الأغنية الفراتية تعيد تأكيد هذا الثالث عبر استحضار رموز الخراب والموت (الغراب مثلاً). فالديار التي كانت تعيش فيها المحبوبة أصبحت خرابًا، لأن السماء لم تكن كريمة بمائها على الوجوه التي يئست من انتظار قطرات المطر، فارتحلت المحبوبة إلى أمكنة أخرى. أما الحديث عن المحبوب الغائب، فهو حديث دائم، بحيث يبدو سمة أساسية من سمات الأغنية:

فزيت طولي واقف

لمن لفي طارشكم

والقلب يرجف خايف

عن حالكُم سايلتو

والأغنييتان السابقتان تبرزان سمة أساسية في الأغنية، هي غياب التحيز الجنسي فيها، بمعنى أنها تقال على لسان الرجل أو المرأة على حد سواء، ومن الخصائص المهمة غلبة الجانب الحسي عليها، وعطشها الدائم إلى الماء.

رابعاً: لغة الأغنية الشعبية

تتوافر لدى المطرب الشعبي أو الشاعر الشعبي⁽⁶⁾ ذخيرة لغوية من الكلمات التي يستعملها على

(5) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط4، (بيروت: دار الحقائق، 1985م)، ص140.

(6) في الأغاني الفراتية يأتي التوكيد دائماً على غياب الفرق بين الأغنية والشعر، وهو تلازم نابع فيما يبدو من الوزن الشعري الواحد، فالأغنية هي بطريقة ما (قصيدة) أو مجموعة أبيات، كما في أغنية المولية الآتية:

من غيركم يا ترف عيّا الدليل يريد

أكتب لحالي شعر وهموم قلبي تزيد

نحو مختلف في كل مرة. فالشاعر أو المطرب يجمع مواد سابقة، ويعيدها على نحو يتناسب والمقام الذي هو فيه، إذ يتعلم الحرفة أو (الصنعة) من خلال الاستماع إلى عدد كبير من الأغاني وحفظها، ومن ثم تكرارها، والنسج على منوالها. فلدوران الأغنية يجب أن تعاد على الألسن والأفواه، وهي عملية تشبه عملية النسخ في الثقافة المطبوعة، ولكن الذاكرة قد تخطئ أو تنسى، فتلجأ إلى تعويض هذا الخطأ باستعمال كلمات قريبة من ناحيتي المعنى واللفظ. ولا تتم هذه العملية إلا بوجود عدد من الرواسم. فالأغنية الشعبية، مثلها مثل أي تراث شفوي، تتكون من عدد من الرواسم (الكليشيات) الجاهزة التي تدور حول موضوعات معينة، ولكل موضوع من هذه الموضوعات رواسم محددة، يحفظها الشعراء، ويرددونها. وهو ما يتضح جلياً في الزجل اللبناني. فالشاعر الزجلي يتعلم صياغة الشعر من خلال ملازمة الشعراء، وحفظ شعرهم، وتكراره، حتى يصل إلى مرحلة القدرة على الإبداع الشعري الخاص به.

تعتمد اللغة في الأغنية الشعبية على الصيغة، وهي ((مجموعة من الكلمات التي تستعمل بانتظام تحت الشروط الوزنية نفسها لتعبر عن فكرة جوهرية بعينها))⁽⁷⁾، إذ يتشكل البيت الشعري والمقطع الشعري من امتزاج مواد لغوية (كلمات، أشكال الكلمات، مجموعات الكلمات) تصبح ذخيرة لدى الشاعر الذي يسمعه من شعراء آخرين في مدة تكوينه⁽⁸⁾. وميزة الأغنية الشعبية وجود وفرة من الصيغ والكلمات البديلة التي تتناسب وحالة الشاعر والمقام الذي هو فيه، ففي السطرين الآتين يعدل المطرب كلمة (الطيور)، ويضع بدلاً منها كلمة (البيض) في الإشارة إلى الغيوم.

تبشّش خاطري وانسُرّ بالجو

طلع غيمٍ جديد ونهض بالجو

حزين انا على فرق الاحباب

ما دام الطيور صافات بالجو

لفهم اللغة المستعملة في الأغنية الشعبية، ينبغي أن نضع في الحسبان وجود أربعة عناصر فيها، وهي: المهمل، والجديد، والغريب، والمصنوع⁽⁹⁾. إذ تمتص الأغنية الشعبية بوصفها أغنية شفوية كلمات تعود إلى حقب تاريخية عدة، ولهذا ليس من المستغرب أن يعثر الباحث في الأغنية الشعبية على كلمات لا يجد لها معاني حاضرة، لأنها كلمات مهجورة أو مهملة، أصبحت خارج دائرة التداول

أريد ولف الجهل طول لعمر ليا

والناس تطلب ذهب ربي أنا ما ريد

(7) والتر. ج. أونج، الشفاهية والكتابية، حسن البنا عز الدين (مترجمًا)، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، فبراير، 1994م)، ص 65.

(8) Michael Zwettler, The oral tradition of classical Arabic poetry, (Ohio state university. 1978), b. 100.

(9) Op.cit, b100.

اليومي، بفعل التقادم الزمني، الأمر الذي يحتم في مثل هذه الحالة على المستمع سؤال من هم أكبر منه سنًا وخبرة عن معاني تلك الكلمات، وربما لا يعثر على إجابة واضحة لديهم، كما في المثال الآتي:

شَقَّيت مِنْ لَامِهَا مَيَّ البُسْطُمَانِي

والزاد من عقيم سم وطواعيني

فالبسْطُمَانِي يفسر على أنه نوع من التمر أو عسل التمر، ويقال أيضًا إنه كنية لرجل كان يبيع الخمر... إلخ. أما الألفاظ الجديدة فعادة ما ترتبط بالقضايا الملحة، وبالاختراعات الحديثة التي تدخل مجال الاستعمال البشري من مثل الساعة والمسجلة (جهاز الراديو)، وبعد عام 2011م، عام قيام الثورة، اشتبكت الأغنية مع الأحداث السياسية، وتفاعلت معها، وإن كانت الأغاني الثورية التي تعبر عن حالة رفض النظام نادرة، لأن منطقة الفرات دخلت إلى الثورة عسكريًا، بعد أن تجاوزت الثورة مرحلة الأغاني، ولهذا السبب كانت الأغاني التي ترفض (داعش) أكثر حضورًا من الأغاني التي تهجو النظام:

ويعذّبني بصلاتو

داعش ما ريدك داعش

البطحة جوا باطو⁽¹⁰⁾

أريد واحد عسّافي

وقد يلجأ المطرب إلى اختراع كلمات قريبة من المعنى الذي يريده، لافتقار معجمه إلى كلمات مناسبة، أو لعدم وجود كلمات تناسب الإيقاع الذي يبني عليه أغنيته، كما في المثال الآتي:

سايم عليك النبي لا تاخذ خلافي

يا بو قميص الحُمَر يا دَمَّ الرعاف

وان كان ما بو جدح لاسقيك بيديا

وان كان ميك جادور حدّر على الصافي

فالجادور هو تحريف لكلمة (الكدر) أي: الماء غير الصافي، ولكن ضرورة الوزن أجبرت المطرب على هذا التغيير الصوتي.

(10) تقول الكلمات التي تغنيها فتاة رقاوية: لا أريد شخصا ينتمي إلى تنظيم (داعش)، لأنه يكثر من الصلاة، بل أريد شابًا من عشيرة (العساف)، يضع قنينة الخمر تحت إبطه دائمًا.

خامسًا: شاعر الربابة

الشكل الأول للأغنية الفراتية هو الأغنية البدوية التي تغنى بمصاحبة الربابة، وهذا الشكل من الغناء تخصص فيه شعراء الربابة الذين كان أغلبهم من قبيلة (صُلْبَة)، ثم حين استقرت الحدود بين الدول اهتمت هذه المهنة (النَّور) أو (الفجر). في مقابل غناء القصص الشعبية كأبي زيد الهلالي وعنترة في المدن، كان شعراء الربابة يترنمون بكرم شيوخ العشائر ومآثرهم، ويمكن تشبيه هؤلاء الشعراء بالشعراء المداحين في الأدب العربي القديم. أما السبب وراء كون هؤلاء في معظمهم من (صلبة) أو (النور)، فلأن الأنفة القبلية لا تسمح للبدوي أو لابن القبيلة أن يكون مطرب ربابة، ولهذا اقتصر الغناء على الربابة على الفئات الدخيلة على المجتمع العربي⁽¹¹⁾، فكسب الرزق من (الفن) أو (الربابة) منقصة أخلاقية، ينبغي على البدوي أو ابن العشيرة تجنبها. ويجد هذا تفسيره في طبيعة الحياة البدوية القائمة على الغزوات من جهة، وعلى الأنفة من تلقي المال من الآخرين من دون مقابل يقدمه الإنسان لهم، ونمط العيش هذا يغيب عند (صلبة) كليًا⁽¹²⁾. لكن شيوع الغناء على الربابة عند (صلبة) لا يمنع وجود من يغنيها عند القبائل أو العشائر الأخرى، ولكنها حالات قليلة تؤكد القاعدة ولا تنفيها، من ناحية أن بعض المطربين لا يتخذون غناءهم وسيلة لكسب الرزق، وإنما تسلية لأنفسهم وأصدقائهم، كما في حالة المطرب الشهير (حسين الحسن) الذي يعد بلا منازع شيخ مطربي الربابة في منطقة الفرات.

السمة الأخرى التي ينبغي عدم نسيانها في هذا الموضوع أن غناء الربابة هو في أغلبه شعر شعبي (نبطي)، أنشده شيوخ عشائر، أو أفراد ينتمون إلى قمة الهرم القبلي، ثم انتقل إلى شعراء الربابة الذين غنوه على أنغامها. لكن هذا الشعر عادة يتكون من أبيات قليلة، إذ لا يتجاوز البيتين في معظم الأحيان.

انتهاء عالم البداوة القائم على الترحال كان إيذانًا بانتهاء عصر الربابة. ولذلك بدأ هذا الشكل من الغناء بالتراجع مع زيادة استقرار العشائر وتحولها إلى الزراعة، حتى بات مقتصرًا على مجموعة من الأشخاص الذين يتوارثون الصنعة من آبائهم. وفي زمن لاحق، ونتيجة لغياب دوره في الأعراس، بدأ شاعر الربابة يأتي إلى الأعراس من دون أن يغني إلا في ما ندر، إذ يقوم أصحاب العرس بـ(قطع لسان الشاعر) على نحو ما هو معروف في الأدب القديم، حيث يعطونه المال فقط. فلم يعد يجد من يستمع

(11) أغلب الروايات تشير إلى أن قبيلة (صلبة) تعود إلى بقايا الحملات الصليبية على بلاد الشام، ومن هنا جاءت تسميتهم. وكذلك تختلف عادات هذه (القبيلة) عن عادات العرب اختلافًا كبيرًا. لمزيد من الاطلاع، انظر: ه. ر. ب. ديكسون، عرب الصحراء، ط2، (دمشق: دار الفكر المعاصر، 1998م)، ص474.

(12) المرجع السابق، ص474-475.

إليه من قبل الأجيال التي لا يغيرها هذا اللون من الغناء، ولا يجذبها أنين الربابة وحزنها المفرط الذي يقطع نياط القلب. ويصعب تحديد البداية الزمنية للعزوف عن الربابة، وإن كان المظنون أنه بدأ مع استقرار العشائر على طرفي النهر.

أغنية الربابة البدوية تجسد ككل الأغاني الفراتية الحنين إلى ماضٍ موهوم. فالربابة تحضر في لحظات الندم والصفاء الروحي، ويشيع في هذه الأغنية الماضي الشخصي أو الجماعي، ويتذكر الشاعر فيها الأحبة القدماء، والحبیب الراحل الذي يستحيل التواصل معه أبداً:

عزيز قلبي رحل وين اليعزيبي والزّاد من عُقبهم سَمٌّ وطواعيني
والحزن الذي تبعه أغنية الربابة حزن شامل، لا مجال لانقضائه حتى تقوم الساعة:

قلبي طواه الحزن عليك للجامة للروح كنتَ الونس يا مزريفَ القامة
ويصادفنا فيها الشعور بوطأة الزمن والحسرة على الشباب المنصرم:

على ليالي الهنا عجالات مرّنا والبيض يا حسرتي ما عاد يارنّا
وتتكرر فيها الموضوعات التقليدية كالعدول والساعي إلى الفرقة بين الأحبة:

انت سبب فرقتنا قل لي يا عريضي اشفادك أحرمتني من ولفي ولا وصلتُ لمرادك
أما الصورة الفنية فيها فلا تخرج على المعبود، إذ تستمد تشبيهاتها من البيئة البدوية، حيث تشبه المرأة كما في كل الموروث الشعري بالغزال:

شبيهه خشف وشرد يمشي فزيز وخوف أبحر هواه بالقلب سفنٍ بلا جاذوف

والحقيقة أن تسمية هذا اللون بالغناء هو من باب التجوز، فالغناء أصلاً يأتي للتعبير عن الفرح والسعادة، ولتجسيد التجدد والولادة والانبعاث، وهو ما يفسر إقامة الحفلات في المناسبات التي تبعث الفرح، كالزواج، ذلك أن المجتمع يجد في الزواج استمراراً له من خلال الوعد بالأطفال. أما الغناء البدوي، وخصوصاً الربابة، فهو صدى لحياة البدوي في البحث عن الماء والمرعى، إذ يغيب عنه الفرح، وتغادره السعادة، والإحساس بدفع الحياة وجمالها، فكل ما فيه بكاء وعويل على ماضٍ تركه الشاعر أو المطرب وراءه من زمن.

كان من نتائج اختفاء النمط الحياتي القائم على الترحال أن انتهى الفن المرافق له، فلم تعد

الربابة تجد لها جمهورًا بين الأجيال الجديدة، فاقصر المستمعون إليها على كبار السن، أو المهتمين بالتراث الغنائي، ولهذا يمكن القول من دون تحفظ بأنها تحولت إلى أداة متحفية.

سادسًا: شاعر الزمارة

لا ينبغي أن نمر بكلمة (شاعر)، سواء تلك التي استعملت لوصف مغني الربابة أو مغني الزمارة، من دون أن نتوقف على الظلال الدلالية التي تشير إليها، إذ يبدو الأثر التراثي القديم حاضرًا في هذه التسمية، فإطلاق لقب (شاعر) لا يعني إدراك التشابه بين الشاعر القديم (والشاعر الحالي)، وإنما يعني أيضًا الإشارة إلى الوظيفة التي يؤديها كل منهما، وربما تشير إلى التحول الذي حدث للشعراء، فانتقلوا من قول الشعر إلى عزفه على الربابة. هذا أمر ضروري في تبين الدلالات والعوالم الرمزية التي يتحرك داخلها المخيل الجمعي.

في مقابل شاعر الربابة البدوي نلقى شاعر الزمارة (الزراعي) الذي بدأ دوره بالاتساع في ما يبدو مع الاستقرار الزراعي. شعراء الزمارة يغنون في الأعراس، ولا يمكن أن نحدد تاريخًا لبداية هذا الشكل، ولكننا نجده سائدًا في منطقة الفرات منذ بداية القرن الماضي، وخصوصًا أن الأعراس في تلك المرحلة كانت تمتد لأسبوع، لأنها كانت تقام عادة في الشتاء، أي في موسم الأمطار والفراغ من العمل، بعد أن يكون الناس قد انتهوا من أعمالهم الزراعية من مثل الحصاد والرّجّاد.

وبخلاف شاعر الربابة الذي كان يعزف و(يغني) في الوقت نفسه، فإن شاعر الزمارة عازف، لأن مهمته الرئيسية هي العزف، وقد يصاحب الزمارة غناء يؤديه بعض المتطوعين من الشباب الذين يؤدون الدبكة، فالزمارة تترافق مع الدبكة، وهي أنواع، غير أنها تشترك في سمة خاصة هي قلة حركاتها، فهي دبكة فقيرة من ناحية التنوع. ومع نهاية الثمانينيات اندثر تقريبًا شاعر الزمارة لأسباب تتعلق بتغلغل التيار الديني، وبمغادرة الجماعة البشرية عالم الزراعة. فقد أصبحت الهجرة إلى دول الخليج العربي وليبيا ولبنان والأردن وسيلة الفرد في الحصول على المال مع الانفجار السكاني، وتفتت الملكيات الزراعية، وانعدام فرص العمل في المنطقة. وكان من نتائج هذه العوامل مجتمعة تراجع ثقافة الدبكة حتى اضمحلالها تقريبًا، فارتباط الغناء - وخصوصًا الزمارة - بالدبكة في الأعراس، وانتفاء المشاركة الجماعية في الأعراس، وغياب الدبكات منها، أدى إلى نهاية الدبكة. أما ثقافة الرقص فهي غير موجود مطلقًا، فالرقص نشاط فردي يغيب عن مجتمع يقوم على الجماعية والتشاركية من جهة، وهو أيضًا نشاط يبرز مفاتن الجسد، وهذا تعد عيبًا في المجتمع العشائري من جهة ثانية.

سابعاً: أنواع الأغنية

تنقسم الأغنية الفراتية إلى مجموعة من الأقسام، هي: الموليا، والعتابا، والنال، واللكاحي، والسويحلي. فالعتابا تأتي في بداية الغناء، ويبدو أن التسمية مستمدة من العتاب، لما تحمله من أسى وحزن. والعتابا تتكون من بيتين (دوبيت)، وهي ليست خاصة بالبيئة الفراتية وحدها، فهي تشيع في منطقة لهلال لخصيب بأكملها. أما النال، فهو بيت شعري واحد يتكون من شطرين موحدتي القافية.

القلب منك جفل جَفلة رفيف الطَّير ترضوناً بالحكي وقلوبكم للغير

ومثله اللكاحي، وهو يتكون من بيت مكون من شطرين موحدتي القافية، مثل:

من خطمتك نادولي ما خلوني تاشوفك علام حالك رديان والزَّعل ساطي لجوفك

أما السويحلي، فتعود به المرويات الشفوية إلى غناء الناس في أثناء العمل على السفن في الفرات بين ضفتي الجزيرة والشامية. وهو أمر لا يمكن التثبت منه. وتتكون الأغنية السويحلية من أربعة أشطر، الشطر الأول والثالث موحدتا القافية، في حين لا تشترط وحدة القافية في الشطرين الثاني والرابع، مثل:

شلونك بهالعيد يا جرح دلالي

حبابي المباعيد عنم عليّ اليوم

أما أهم ألوان الأغنية الفراتية تميزا فهو الموليا، ولتميز البيئة الفراتية به سنتوقف عنده قليلاً.

الموليا

لا يعرف على وجع الدقة سبب التسمية، والمرويات تعود بهذا النوع إلى نكبة البرامكة، ويقال إن أول من نظم الموالم جارية من جوارى جعفر البرمكي بعد النكبة على يد هارون الرشيد عام 187هـ⁽¹³⁾. وهو رأي لا يمكن الجزم بصحته على الرغم من تواتر المرويات والأقوال التي تؤكد. ولكن الواضح أن هذا النمط الغنائي، من ناحية الشكل والموضوعات، ليس فناً بدوياً، بمعنى أنه أكثر تعقيداً من بساطة الأغاني البدوية، ويؤيد ذلك عروض المولية، إذ ((تنشد المولية على البحر البسيط عادة، وتتكون الأغنية من أربعة أشطر، الأشطر الثلاثة الأولى منها موحدتا القافية، أما الشطر الأخير فينتهي

(13) مأمون الجابري، المواويل الشعبية، «مجلة التراث العربي»، ع: 86-87، (نيسان/ أبريل، 2002م)، ص 270.

بياء مشددة وتاء مربوطة، تتحول عند الغناء إلى ألف ممدودة:

أ..... أ.....

أ..... أ.....⁽¹⁴⁾ ((ب.....

وبخلاف الربابة التي تثير مشاعر الأسى والشجن، فإن المولوية فن طربي، لا يؤرقها هاجس القحط، ولا احتمالات الجذب واليباب. الأمر الذي يدعم وجهة النظر القائلة إنها أغنية نهرية، تعيش على حافة النهر، حيث الماء الوافر:

يا بو قميص الحمر يا دم الرعاف سايم عليك النبي لا تأخذ خلافي
وان كان ميك جادور حدّر على الصافي وان كان ما بو جدح لارويك بيدي

لكن هذه القواعد تختفي أو يتراجع الالتزام بها في أغاني المولوية الطويلة. وقد حفظت هذه الأغاني الطويلة كثيرًا من القضايا والعادات في الزمن الذي قيلت فيه، ولا سيما مع وجود إشارات تتعلق بأشخاص معروفين، وأحداث تحفظها الذاكرة، يستنبط منها الباحث أو القارئ تاريخ الأغنية، وتلك الإشارات تعطي المتلقي لمحة عن الهموم التي كانت تهيمن على الوعي الجمعي، كما في نص المولوية الآتي الذي نقتطع منه بعض الأبيات:

والميم ما مثلها ياخود الهويدي وكحيلة محصّنه من خيل أبو زيدي
حطّو عليها حرس خوف من المعيدي وعبددين يبرولها يسقونها ميه
وعبددين يبرولها يسقونها بطاسه واربع طعش نوبجي للخود حراسه
وليد حمج ريمتي لا ينقطع راسه ونعلّقو بالتفك وبراس سنكيّه
والنهد يبرالها حين الطلاح نقوش تسوين خيل عنزة وطروشها والبوش

هذه الأغنية تعد من الأغاني القليلة النادرة التي حفظت لنا كاملة على الرغم من مرور قرن تقريبًا

(14) عبد الكريم الأشتر، المواويل الشرقاوية: محاضرة في فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب، (2000م).

على نظمها، وهي أغنية مركزية في الأغنية الفراتية، وفي المولية الفراتية على وجه التحديد، لا طولها النسبي فحسب، وإنما لأنها تحفل بمعان عدة، ودلالات تتضمن كثيرًا من العادات والتقاليد والقيم التي كانت سائدة في تلك المرحلة، أي في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن المنصرم، بحسب ما نعرفه عن المدة الزمنية التي عاشت فيها الفتاة التي تتغزل بها الأغنية. من القيم الأساس التي يصرح بها النص أن الجمال في الوعي الشعبي الفراتي جمال طبقي، فالحسن مرتبط بانتماء الفتاة إلى بيت موسر، والحسنة يجب أن تكون ابنة أحد شيوخ العشائر أو تنتمي إلى بيت من بيوتات الشرف في القبيلة، أو تكون ابنة عشيرة كبيرة مرهوبة الجانب. وهي هنا تنتمي إلى عائلة ما زالت معروفة حتى اليوم. وتشبيه المرأة بالخيّل دلالة على أصالة المرأة وعفتها وسموها، وغالبًا ما يشار إلى خيل معينة في أثناء التشبيه، هي خيل (أبو زيد) في الأغنية الحالية، وإن كنا لا نعرف من هو (أبو زيد) على وجه اليقين. ما يقوله النص أيضًا أننا ما نزال في مجتمع فيه بقايا عبودية، حيث يقوم العبيد بخدمة السادة. فالحسنة بحاجة إلى عبيدين يسقيانها الماء، فالترف وصل بها إلى درجة من الكسل لم تعد فيها قادرة على القيام لشرب الماء وحدها. وخوفًا على هذا الجمال من أولئك الذين يريدون انتهاكه، يوصي الشاعر أن يوضع حراس على بابها، لحمايتها من أي اعتداء. لكن هذا لا يكفي في نظره لردع الآخرين، إذ يبدو أن جمالها مفر إلى درجة ربما لا يجدي فيها مثل هذا الإجراء الاحتياطي، فيرسل الشاعر إشارة تحذير، فكل من يفكر بالوصول إلى الغزال، أو الريم - وهو تشبيه قار في الأغنية الفراتية - سيقتل (ينقطع راسه)، وسيمثل بجثته، إذ يعلق برأس بندقية مزودة بحربة. وفي الأغنية النص يعرج المطرب - الشاعر على الصراع القبلي الدائر آنذاك في منطقة الفرات، حين يشير إلى قبيلة عنزة التي كانت في لحظة اندفاع من نجد إلى منطقة الفرات، وما جرى في تلك الآونة من حروب بين القبائل المستقرة والقبائل الرحل.

في الأغنية - النص أيضًا إشارات إلى قدرة اللغة المحكية على امتصاص الكلمات الأجنبية، وتوظيفها، ولا سيما في مرحلة لم تكن قد ظهرت - أو شاعت - فيها مرادفات عربية للمخترعات أو الأدوات الحديثة، لهذا يلجأ الشاعر إلى استعمال كلمة (تفك) بدلًا من بندقية أو بارودة، وكلمة (سنكية) بدلًا من الحربة، وكلمة (سنكية) مثلًا هي تحريف لكلمة sünkü التركية. لهذا سنلاحظ بعد ذلك بزمان التحول نحو استعمال المرادفات العربية التي شاعت بعد ذلك:

مثل الشايل بارودة ع الدوم قليبو خايف

مثلما يشير هذا التحول من التباهي بحمل البندقية إلى الخوف من حملها إلى تبدل كبير في القيم، فالقانون لم يعد يسمح بحمل الأسلحة، وفي الأغنية إشارة واضحة إلى سطوة القانون وحضور

الدولة، والخوف من العقوبة لتي يتعرض لها الفرد⁽¹⁵⁾.

ثامناً: العداد

هو غناء الفتيات في الأعراس، ويصاحب هذا اللون عادة الدرابكة. وتغلب على هذا اللون الحسية والتعبير عن المكبوت الجنسي، حيث يتكرر الحديث عن القبل والأحضان والنهد.

الآه وه ويلي يا زعلانة وشبيدي والزين نوم الحضن لي هويت البنية
والزاد من عقهم سم وطواعيني

وتشيع في هذا اللون مواجهة الإكراهات الاجتماعية والعادات:

قلّلو يا شغير قلّلو والماضي انظّل انعيدو جكر باهلي وعمامي حبيبي اظّل اريدو

وينبغي التنويه إلى أن الحب في العرف البدوي الذي ظل متسماً حتى عهود قريبة لا يعد عيباً ولا حراماً من وجهة نظر البدوي، ولكن ما يعيننا هنا هو التعبير الصريح في مواجهة تقاليد مازالت مستمرة، فهو فيما يبدو نوع من إيجاد متنفس عن عنف هذا التقليد وقسوته.

تلهب سعاير قلبي كانون ما طفاها واسأل طبيب العلة ليش البخل بدواها

وقد بقي هذا اللون حاضراً حتى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن المنصرم، ولكن مع موجة التدين التي شهدتها المنطقة، وتراجع القيم العشائرية القائمة على الانفتاح، والانكفاء نحو العائلة الممتدة والأقارب، لم تعد الأعراس حفلات جماعية يشترك فيها كل أفراد القرية والقرى المجاورة، ولهذا اختفى تدريجياً هذا اللون حتى يمكن القول إنه اندثر تماماً في بعض المناطق الفراتية، لأن استمرار هذا التقليد الشفوي كانت يتم من خلال تدريب الجيل الجديد من الفتيات عبر الاستماع والحفظ على يد الجيل السابق، والصياغة على منواله، ولكن توقف عملية التمرين هذه كتب النهاية الفعلية لهذا اللون. لقد تلاشى الغناء النسائي، وحضر بدلاً من الفتيات في حفلات الزواج

(15) على الرغم من العقوبات القاسية المفروضة على حمل الأسلحة، فقد استمر الرجال -وخصوصاً الشباب- بحمل المسدس حتى نهاية الثمانينيات تقريبا، وكان الأمر يتم خفية في أغلب الحالات. وكثيراً ما كان إطلاق النار في الأعراس يؤدي إلى إصابات وقتلى، فقد كان إطلاق النار عادة شائعة أيضاً. ولكن مع التعليم، والاختلاط الذي سببته الهجرة الواسعة إلى الدول العربية، اختفت هذه الظاهرة التي كانت تعد من علامات الرجولة والفحولة.

المطرب الشعبي الذي يستقدمه الميسورون، والذي يؤدي الأغنيتين الفراتية والعراقية في آن معاً، أو استعيز عن هذا اللون بالاستماع إلى شريط مسجل (كاسيت) يرقص على وقعه المحتفلون في أعراس غير المقتدرين ماليًا.

تاسعاً: في التحولات السياسية والتقنية

حظيت العشيرة بحضور واضح على ساحة الصراع في أواخر أيام الدولة العثمانية، وتجلّى ذلك في رغبة كل أطراف النزاع في كسب العشائر المؤثرة إلى جانبها، وهو ما يفسر ظهور عدد كبير من الرحالة والمستشرقين وضباط الاستخبارات الذين حاولوا معرفة ولاءات العشائر وتوجهاتها، وكذلك عملوا على إغرائها لتقف إلى جانب هذا الفريق أو ذاك، أو تقف على الحياد على أقل تقدير.

لكن هذا الحضور تلاشى مع تفكك الدولة العثمانية، وظهور الدولة الوطنية الحديثة، وذلك لأسباب، منها: توزع العشائر على حدود الدول الوليدة، وسوء التنظيم المتوارث، والشكوك المتبادلة في ما بينها، وقيام السلطة الجديدة بتهميش الأرياف السورية كافة، وخصوصاً منطقة الفرات ومنطقة الجزيرة التي عوملت على أنها منطقة ملحقّة بسورية، أسهم هذا كله لاحقاً في تراجع حضور التراث الشعبي لهذه المنطقة في الحياة العامة السورية بعد الاستقلال.

واجهت الأغنية الفراتية بما هي أغنية ذات إرث بدوي في سورية عقبات لم تواجهها نظائرها في الدول العربية الأخرى، من مثل بلدان الخليج العربي وفلسطين والأردن والعراق. وقد اختلفت الدوافع وراء حضور الأغنية ذات الجذر العشائري في تلك البلدان بمثل المحافظة على الذاكرة الجماعية في الحالة الفلسطينية، وإيجاد ذاكرة مشتركة توحد الدول الوليدة في الخليج العربي، وحضور العشيرة في الحياة السياسية في كل من الأردن والعراق ودول الخليج... إلخ. في الحالة السورية كان الوضع مختلفاً، فرؤية الصفوة البرجوازية السورية هي التي هيمنت على الحياة السياسية والفكرية حتى بداية الستينيات. وهي رؤية كان لديها ازدياد عميق لهذه الأغنية، والخط من شأنها، ولم يكن هذا الازدياد خاصاً بالأغنية الفراتية وحدها. فالتوجه الثقافي والفكري بعد الاستقلال والذي شكلته الطبقة السياسية قسّم سورية من ناحية الفكر والثقافة إلى سورية مأمولة وسورية غير مرغوب بها. وفق هذا التصور كانت الأغاني المدنية - وخصوصاً أغاني المحور الممتد من حلب شمالاً إلى دمشق جنوباً - مروراً بحماة وحمص - هي الأغاني التي تمثل سورية المنشودة. ولهذا حين بدأت الإذاعة السورية في نهاية الأربعينيات لم يحظ التراث الشعبي لمناطق الفرات وحوران والساحل بأي اهتمام يذكر في

برامجها على مدى العقود اللاحقة. فأغاني مدن البرجوازية الوطنية - إن جاز التعبير - هي الأغاني التي أعطيت الأولوية على الأغاني الشعبية الأخرى التي جرى تهيمشها، بناء على ثنائية المركز والأطراف، وكان نصيب الأغنية الفراتية من التهيمش أكثر من غيرها، ولا سيما مع غياب العشائر عن التأثير في المجال العام السوري، بسبب قلة التعليم والانخراط في أجهزة الدولة، ولا سيما الإعلامية منها.

كان إهمال الأغنية الفراتية مضاعفًا، فهي ذات قيم عشائرية نكوصية تتطلع إلى الماضي، وتستدعي خلافات كانت الدولة تسعى إلى تجاوزها، والتغلب عليها، فقد حفلت بصراعات القبائل وثاراتها وخصوصياتها، وهو ما كانت الدولة الوليدة تحاول قدر الإمكان تجنبه. لهذه الأسباب انتقصت السردية التي بنيت عليها الدولة السورية من هذه الأغنية، ووصل الأمر إلى حد السخرية من المستمعين إليها في كثير من الحالات. لقد كانت الأغنية الفراتية تجسد نزاعات وماضيًا ينبغي حفظه في مكان ما، لكن من دون أن يكون له تأثير في الحياة العامة، الأمر الذي رأينا تجلياته في تخصيص فقرة أسبوعية للتراث الشعبي من المناطق السورية كلها، ومن نافل القول إن الأغنية الفراتية كانت في ذيل الاهتمام.

كانت سورية بلدًا ذا توجه قومي منذ نشوئه، ولذلك لم يكن قدوم حزب البعث إلى السلطة، وتأثيره في الفضاء الثقافي العام انقلابًا جذريًا على ما كان سائدًا من قبل، وإنما أضفى طابعًا شوفينيًا ودرجة أعلى من التعصب، فقد شرع الباب لموجة من التوجه الاستعلائي القائم على شعارات تؤكد ضرورة المحافظة على الأدب الرسمي، واللغة الفصحى، والابتعاد عن التعبيرات المحلية التي تعيق خلق فضاء من التلاقي والمناقشة مع بقية الأقطار العربية. وهكذا كان التراث الشفوي عمومًا ضحية كلتا المرحلتين، فأهمِل ولم يعتنَ بجمعه وتدوينه وأرشفته.

وعلى الرغم من أن تأثير السياق السياسي كان واسعًا، فلم يكن هو العامل المؤثر الوحيد وراء غياب الأغنية الفراتية وانتشارها في المجال العام، فقد كان لتأخر دخول التقنية والآلة إلى منطقة الفرات تأثير في انكماش الأغنية الفراتية على المستوى الوطني، وحتى على مستوى منطقة الفرات نفسها. فمع أن الفونوغراف اخترع في نهاية القرن التاسع عشر، فإنه ظل آلة مرتبطة بسكان المدن أساسًا، ولم تكن هذه الآلة في المناطق الريفية - ولا سيما وادي الفرات بطبيعته البدوية - موجودة إلا لدى بعض المهتمين بالغناء الكلاسيكي القادم من مصر، والذي لم يكن يجد رواجًا بين عامة الناس آنذاك.

من زاوية تقنية صرف، لم تمر الأغنية الفراتية بمرحلة الفونوغراف، فقد استمرت المرحلة الشفوية أو الاستماع المباشر إلى المطرب حتى نهاية السبعينيات، أي إلى مرحلة انتشار شريط الكاسيت في المنطقة. وقد أحدثت أشرطة الكاسيت ثورة في عالم الغناء والموسيقا، فقد أصبح بيع التسجيلات هو

الأساس في عالم الغناء، وأدى التسجيل إلى إزاحة الغناء الحي تدريجياً، عبر الاستعاضة عن المطرب بصوته المسجل. كان لهذا التحول نتائج واضحة، وبخاصة في تناسل عدد كبير من المطربين مدفوعين بالرغبة في الدخول إلى عالم (الشهرة) إلى تسجيل أغنياتهم، نظراً لما توفره لهم من دخل وحضور سيكونان دافعاً لاستدعائهم إلى الحفلات وغيرها، وإن كانت الدقة تقتضي القول إن هؤلاء المطربين لم يجنوا كثيراً من المال، فالمنطقة كلها كانت تعاني في تلك المدة الإهمال وقلة الاستثمارات وارتفاع نسبة الأمية والفقر، وهي عوامل أبقت نسبة الفقر في المنطقة أعلى من غيرها من المناطق الأخرى، ولم يكن المطربون إلا جزءاً من الطيف العام في المنطقة. أدى دخول الكاسيت إلى انتشار محلات التسجيل التي كانت تعد في كثير من الحالات جلسات خاصة للمطربين الذين يسجلون أغنياتهم لقاء مبلغ مالي زهيد في كثير من الأحيان.

منذ ظهور أشرطة الكاسيت، بوصفها أداة رخيصة وسهلة الاستعمال، برز نوعان من الأغاني: أغاني البيئة الفراتية، والأغاني العراقية. ولكن ما حدث هو تراجع حضور الأغنية الفراتية في مقدمة المطربين: ياس خضر، وسعدون جابر، وحميد منصور، وسعد الحلي، وغيرهم. هذا بخلاف جيل أقدم، كان يستمع لحضيري أبو عزيز وداخل حسن وغيرهما. لقد أصبح الاستماع إلى الموسيقى جزءاً من الحياة اليومية لأفراد ما كان متاح لهم الاستماع إليها من قبل. بتعبير آخر، فإن الكاسيت كان صوتاً شعبياً⁽¹⁶⁾، إذ كان دوره في المناطق الهامشية من مثل منطقة الفرات يشبه دور الفونوغراف في جعل الموسيقى فناً شعبياً لدى الطبقة العاملة في أوروبا⁽¹⁷⁾. منذ تلك المرحلة، أصبحت الموسيقى بمتناول عدد كبير من الناس، إن لم نقل كلهم. وبحلول نهاية السبعينيات، كانت (المسجلة) قد وجدت لها مكاناً ثابتاً بين أشياء المنزل الأساسية، وغدت جزءاً من الأشياء التي تشتريها العروس.

أما الجانب الأهم فهو أن الغناء الذي ارتبط بالأعراس فقط لم يعد كذلك، إذ أصبح فعالية يومية. وكانت هذه الثورة التي أحدثها شريط الكاسيت من بين الأسباب التي أدت مع مرور الوقت إلى تراجع أهمية المشاركة في الأعراس، واقتصارها في مرحلة لاحقة على المدعوين فقط، بعد أن كانت المشاركة فيها واجباً اجتماعياً مفروضاً على كل أفراد القرية.

بالمقارنة بين المدياع والكاسيت، نجد أن المدياع أداة سلطة، تختار الأغاني التي تريد بثها، وتمنع الأغاني التي لا تلائمها أو تخالف توجهاتها، وتحرم المطربين الذين لا يوافقون توجهاتها أو غير المرضي عنهم. بينما كان شريط الكاسيت شعبياً، لأنه لا يخضع لإملاءاتها. كانت وظيفة الإذاعة سياسية في المقام الأول، إضافة إلى أنها لم تكن تبث الأغاني الفراتية والعراقية التي تعد هي الطرب المفضل لدى

(16) Michael Denning, Noise Uprising, The Audiopolitics of a World Musical Revolution, (London: Verso, 2015), 109.

(17) Op. Cit, 110.

سكان المنطقة. لهذا كله، لم تتحول الأغنية الفراتية إلى أغنية تعبر عن الهوية الوطنية ولا عن جزء منها، بخلاف الأغنية القادمة من الساحل في وقت لاحق، وخصوصاً مع وصول الأسد إلى السلطة.

استمر حضور الكاسيت بوصفه الوسيلة الأساس في الاستماع إلى الأغنية حتى مرحلة البث الفضائي التي أزاحت تقريباً الأغنية، وأحلت بدلاً منها الدراما التي غدت الوسيلة الأساس للترفيه. لم يحتل التلفاز المنزل التي رأيناه عليها الآن إلا مع ظهور البث الفضائي الذي أتاح الفرصة لظهور المحطات التلفزيونية المتنوعة.

الثورة الإعلامية التي جاءت من خلال البث الفضائي قضت على الأغنية الشعبية، لضعف قدرة الأخيرة على المنافسة والتسويق، ولعدم قدرة المطربين الشعبيين على تحمل تكاليف التصوير والإخراج. أدى هذا البث الفضائي إلى تخلخل في الفضاء السمعي في عموم المنطقة العربية والعالم على حد سواء، ولكن الميزة الأساس له في المنطقة العربية هي أنه فتح المجال أمام الاطلاع على القضايا السياسية التي لم يكن الإعلام المحلي الموجه يتناولها، أو كان يتناولها من زاوية نظر السلطة، ولا سيما مع ظهور البرامج الحوارية التي تناقش القضايا السياسية. لكن الأمر الآخر هو ظهور الدراما التلفزيونية التي كانت ركيزة أساساً في تلك المحطات. فمع الدراما خفت حضور الأغنية تقريباً، وقضي تماماً على التمثيلية الإذاعية التي كان الاستماع إليها جزءاً من السلوك اليومي لكثيرين. غير أن الدراما هذه كانت دراما مدينية أصلاً، بمعنى أنها كانت محصورة في حوار بين المدن وأزقتها وشوارعها، ولم تجد فيها المناطق الأخرى -ولا سيما منطقة الفرات والجزيرة- أي اهتمام بل كرسست هذه الدراما صورة سلبية عنها.

منذ بداية المرحلة الرقمية التي ترافقت مع دخول الألفية الجديدة تقريباً، بدأت حركة واسعة لنقل التراث الشفوي الغنائي، المسجل على الكاسيتات إلى الفلاشات flash والأقراص المدمجة CD. وهو عمل أثرت فيه قوانين السوق. ثم حُمل كثير من هذه الأغاني بأصوات مطربين متعددين، وفي مواقف مختلفة، على المواقع الإلكترونية التي يبدو أنها أصبحت تشكل الخزان المشترك لكل التراث الشفوي البشري، وهي تمثل حتى الآن حلاً مقبولاً يمكن أن يساهم في حفظ هذه الأغاني من الاندثار والضياع.

وتلاحظ في السنوات الأخيرة عودة واضحة للأغنية الفراتية، وتكفي مطالعة الأغاني الفراتية في اليوتيوب للوقوف على عدد المشاهدات التي تحظى بها تلك الأغاني، وهي أرقام مرتفعة. فبخلاف ما كان يتصوره كثير من الناس من أن الأغنية الفراتية تسير في طريق الاندثار، بسبب ارتباطها بنظام اجتماعي تبدل كثيراً في العقود الماضية، فإن الأجيال الجديدة تبدي اهتماماً واضحاً بها، على نحو

ربما يغيب عن الجيل الأكبر، ولا يمكن إرجاع هذه (الصحة الفنية) إلى عامل واحد، فالحقيقة أن الثورة السورية في العشرية الماضية حررت الإنسان السوري من كثير من عقد النقص وعوامل غياب الثقة بنفسه، فإذا كانت الأغنية الفراتية تمثل في أذهان جيل سابق علامة على النقص أو التخلف، كما حاولت السلطة زرع ذلك في وعيه، فإن الأجيال الجديدة بدأت تنظر بنديّة وثقة عالية بالنفس إلى تراثها المحلي كله، وهو أمر يترافق مع تصاعد حركة المد الشعبي في عموم المنطقة والعالم، ولهذا لاحظنا في السنوات الأخيرة عدم تحرج كثيرين وعدم خجلهم من استعمال لقب (شاوي) للدلالة على انتمائهم إلى العشائر السورية، وهذا بخلاف ما كان عليه الأمر قبل عقدين من الزمن، حين كانت الكلمة تدل على شخص غير متحضر، الأمر الذي كان يتحرج منه كثيرون. في هذا السياق، بدأت الأغنية الفراتية تأخذ حيّزاً واضحاً في المجال العام السوري الذي نراه في وسائل التواصل الاجتماعي، ولم تعد نظرة الأجيال الجديدة سواء من أبناء المنطقة أم من سواهم نظرة ازدراء لهذا التراث الذي بدأ يتسع حضوره على المستوى الوطني العام، وهو أمر يوحي بتبدل في الوعي والثقافة لدى أجيال جديدة من السوريين، فتحت الثورة أمامها زاوية كبيرة للرؤية والمحكمة بدلاً من قفص السلطة السابق الذي كان يضع السوريين في قوالب لا يمكنهم الخروج منها.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. أونج. والتر. ج، الشفاهية والكتابية، حسن البنا عز الدين (مترجمًا)، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1994م).
2. الجابري. مأمون، «المواويل الشعبية»، مجلة التراث العربي، ع: 86-87، (نيسان/ أبريل، 2002م).
3. الحومد. محمد الموسى، أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي، (دمشق: وزارة الثقافة، 2012م).
4. ديكسون. ه. ر. ب، عرب الصحراء، ط2، (دمشق: دار الفكر المعاصر، 1998م).
5. عبد الحكيم. شوقي، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، ط1، (بيروت: دار العودة، 1982م).
6. المكني. عبد الواحد، «الأغنية الشعبية والرواية الأدبية. هل هما من مصادر كتابة التاريخ؟»، مجلة أسطور، ع: 11، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني/ يناير، 2021م).
7. اليوسف. يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط4، (بيروت: دار الحقائق، 1985م).

بلغة أجنبية

1. Denning. Michael, Noise Uprising, The Audiopolitics of a World Musical Revolution, (London: Verso, 2015).
2. Zwettler. Michael, The oral tradition of classical Arabic poetry, (Ohio state university, 1978).

إيقاع الكاميرا في منطقة الجزيرة السورية

أنمار حجازي⁽¹⁾

((لم يكن رواد السينما الإثنوغرافية في الحقيقة
من علماء الإثنوغرافيا. لقد ذهبوا إلى أراضٍ بعيدة
لأسباب عديدة أخرى)).
جون بول كولين

أولاً: ملخص البحث

يتناول هذا البحث 4 أفلام وثائقية، 3 لعمر أميرالاي أنجزها متفرقة على مدى ثلاثين عامًا (1970، 1974، 2003)، وفيلم لريم الغزي أنجزته عام 2006، الأفلام الأربعة تتناول المنطقة الشرقية في سورية، الكلمة ذات المعنى الفضفاض، هذه المنطقة تعرضت للتميش السياسي والثقافي، واقتصر تمثيلها في الثقافة العامة على الصور النمطية، علمًا أنها شهدت واحدًا من أكبر المشروعات السيادية في تاريخ سورية، أي بناء سد الفرات.

نقرأ الأفلام الثلاثة في محاولة لرصد خصائصها الإثنوغرافية والقيمة السياسية فيها، وعلاقة السينما مع التطور الصناعي، والهيمنة الأيديولوجية ومؤسساتها، ما أكسب الأفلام قيمة سياسية عبر خلقها إطارًا لإعادة النظر في البلاغة الرسمية، وكشف علاقتها مع الواقع المعيش في تلك المنطقة.

(1) صحافية، وباحثة سينمائية سورية، مقيمة في باريس.

ثانيًا: إشكالية البحث

يحاول هذا البحث عبر الأفلام المختارة إعادة النظر في الأفلام الوثائقية السورية التي صورت المنطقة الشرقية، بوصفها تحمل خصائص إثنوغرافية، وتوثيقية، في الوقت ذاته ذات قيمة سياسية، تعيد تقديم المتخيل عن العلاقة بين (السلطة) وسيادتها على الأفراد والتراتب، وقاطني المنطقة الشرقية، أي النظر إلى الوثيقة الفيلمية في هذه الحالة بوصفها جهدًا جماليًا يحاول رصد الاختلاف والمفارقة بين الرسمي والمشرعن والصادر عن السلطة، والواقع المعيش من قبل الأفراد، وثيقة تكشف التوتر بين الواقع وأسلوب تمثيله الرسمي.

ثالثًا: عينة البحث

اخترت لهذا البحث:

1. سلسلة عمر أفلام عمر أميرالاي
 - أ. محاولة عن سد الفرات: كُلف عمر أميرالاي بإخراج فيلم عن سد الفرات من التلفزيون العربي السوري عام 1970.
 - ب. الحياة اليومية في قرية سورية: بعد نجاح فيلمه السابق تمكن من الحصول على موافقة لإنتاج هذا الفيلم من المؤسسة العامة للسينما في سورية. 1972/1974.
 - ت. طوفان في بلاد البعث: أنتج ووزع في فرنسا، المنتج الرئيس شركة AMIP الفرنسية 2003.

2. فيلم ريم الغزي

أضواء: أنتج في سورية بعد أن قررت ريم الغزي البدء بإنتاج أفلامها، وتم هذا الفيلم بإنتاج شخصي 2006.

رابعاً: أهمية البحث

يحاول هذا البحث أن يسلط الضوء على التجربة السينمائية التي تتناول المنطقة الشرقية في سورية بوصفها محاولة جمالية لإعادة النظر في الخطاب الرسمي، وأثر القرار السيادي (بناء سد الفرات) في المنطقة وسكانها وإيقاع الحياة فيها، مستفيدين من مقارنة التمثيل الجمالي السياسي⁽²⁾، لقراءة الفيلم بوصفه وثيقة يعيد فيها الأفراد تقديم أنفسهم والمكان إما عبر مخالفة الخطاب الرسمي، أو الانصياع له وتبني بلاغته، ما يوضح سطوة نظام الأسد وقدرته في السيطرة على الكلام.

خامساً: منهج البحث

نعمد في هذا البحث على أدوات من النظرية الإثنوغرافية، لقراءة الصور بوصفها علامات على الواقع، وتمثيلات له، كذلك على أدوات من المدرسة النقدية، لقراءة الصور والأفلام، بوصفها (عينات) تخضع لمعايير جمالية و سياسية، تتحكم فيها شروط الإنتاج ورؤية المخرج لتقديم عينة مؤطرة تمثل واقعاً ما، إلى جانب أدوات من النظرية السينمائية الوثائقية تلك التي تتعامل مع الإطار السينمائي بوصفه جهداً جمالياً يحمل في الوقت ذاته معارف تطرحها الشخصيات ضمن الإطار، أي تكوين العناصر السينمائية ينقل (معرفة) للمشاهد لا تجربة جمالية فحسب.

سادساً: المقدمة

تشابه الأفلام التي اخترناها في تقديمها الإثنو-توثيقي لحال القرى في المنطقة الشرقية، إذ تعمل الكاميرا في هذه الأفلام كأداة للتعريف والتوثيق، تبدو منطقة الجزيرة بعيدة من العاصمة دمشق، وبعيدة من شكل العالم الدمشقي وما تحمله العاصمة من فرص وإمكانات، خصوصاً في ما يتعلق بالقطاع الفني والثقافي الذي يعتمد على أدوات الإنتاج التي توفرها المؤسسة الرسمية، تلك

(2) الفرد يصبح مواطناً فقط عبر التمثيل الجمالي، لأن الشخص الذي يعيش ضمن النظام السياسي من دون تمثيل أو ضمن التمثيل المحاكاتي، لا يحتاج إلى أن يخطو خارج نفسه، وأن يرى العالم من وجهة نظر أخرى، أما في التمثيل الجمالي يصبح الفرد مايكروكوسم عن كل النظام السياسي الذي يدرك ذاته ضمنه.

Franklin Rudolf Ankersmit, Aesthetic politics: political philosophy beyond fact and value, (Stanford University Press, 1996), P56.

التي تحولت مع وصول بشار الأسد إلى السلطة، إلى مؤسسات دعائية لسورية الحديثة والمتحضرة التي عملت عليها مؤسسات دعائية متكاملة⁽³⁾ لترسيخ أيديولوجيا التنوير التي يتبناها الأسد الذي تقرب من العاملين في الإنتاج الثقافي ووظفهم لنشر ((خطابات التنوير، وإقامة علاقة متينة بين قوى الدولة، ونخبة المنتجين الثقافيين، من أجل رؤية مشتركة لتقدم الأمة)).

بكلمات أخرى، الآلة والماكينة الحديثة في ما يتعلق بإنتاج الدعاية الرسمية متركز في العاصمة دمشق، ومنها (ينطلق) مخرجي الأعمال الفنية إلى أنحاء سورية لإنجاز مشروعاتهم، وهنا تبرز خصوصية تتعلق بالأفلام السابقة التي حاولت أن تكسر الاحتكار الرسمي، إما عبر مصدر التمويل (طوفان في بلاد البعث تمويله فرنسي) أو التلاعب على الرقابة (محاولة عن سد الفرات)، أو تبني صيغة الأفلام المستقلة ذات التمويل الذاتي أو غير المعلن (أضواء).

تظهر الصيغة الإثنو-توثيقية عبر اللقطات العامة في هذه الأفلام، وكأنها تعرض لنا مكاناً من زمن مضى أو مكاناً خيالياً لا يشبه سورية الحديثة كما تُقدّم، وما يلهمها من لقطات قريبة جداً لدراسة تفاصيل المكان بعين ناقدة للنظام السوري. بصورة أدق، أثره المادي أو الأيديولوجي في المنطقة، في محاولة لرسم العلاقات بين سكانها، وبينهم وبين السلطة السياسية التي قدمت وعوداً بالتغيير على مدى 40 عاماً.

نحاول في هذا البحث الإشارة إلى البعد السياسي ووجهة النظر السياسية الناقدة الواضحة في تلك الأفلام، والإشارات إلى تقصير (الدولة) في تأمين الخدمات واستبدال الوعود الكاذبة والفارغة المستقاة من الحزب الواحد بها، ففوق نظام الأسد تكمن في أن ((نظامه قادر على إجبار الناس على قول أشياء سخيفة والاعتراف بما هو لا معقول))⁽⁴⁾ واستشراء الحالة العشائرية بين سكان المنطقة، آخذين في الحسبان أن هذه الأفلام تتحدث عن هذه المنطقة كعينة عن الوضع السوري وفشل مؤسسات الدولة الرسمية في الحفاظ على حياة المواطنين.

تحمل هذه الأفلام صبغة صحافية أيضاً تتمثل في حالة الاكتشاف والتعريف بخصائص منطقة الجزيرة، وعادات سكانها وعرض الصراعات فيها، على الرغم من شعريتها السينمائية. لكن البعد الجمالي⁽⁵⁾ فيها يقدم أيضاً معارف، وعلاقات سياسية تحضر خارج الكادر بين سكان المنطقة

(3) Donatella Della Ratta, Shooting a revolution: Visual media and warfare in Syria, (Pluto Press, 2018), p18.

(4) Lisa Wedeen, Ambiguities of domination, (University of Chicago Press, 2015), P12.

(5) ينطلق جورجيو أغمبين في تعريفه للذوق والحكم الجمالي من المرئي، ويرى أن ((الذوق إحساس بالفراغ أو الإفراط، يقع بين حدود المعرفة والمتعة، هذا الفراغ أو الشدة هو ما يحدد ماهية العلمين، علم الجمال وعلم المعرفة)). ويتابع في تحليله سؤال ما هو (موضوع)

و(السيادة) السياسية.

نعمد في هذا البحث على الخصائص الإثنوغرافية في فن الفيلم الوثائقي أو التسجيلي، حيث يعتمد بعض المخرجين إلى تصوير أفلام تحمل مزايا البحث الإثنوغرافي⁽⁶⁾، إذ تحاول الأفلام دراسة المنطقة كعينة عن سياسات المنع والتمهيش التي يمارسها النظام السوري، وترى الباحثة الفرنسية سيسيل بويكس في كتابها السينما والسياسة في سورية أن المخرج بوصفه المسؤول عن تقديم المعنى في الفيلم ولا يمكن اعتبار الأفلام أدوات سياسية غير معروفة بل هي أي الأفلام على اعتبار المقاربة السيميولوجية بحسب منهج كليفورد غريتشس أوعية ممتلئة بالرموز تسمح بتقديم أنظمة تمثيلات سياسية في داخله⁽⁷⁾.

وترى أن طرح تساؤلات عن الفيلم بخاصة السياسية لا تقتصر على تحليل المحتوى، وإنما على التحديد والوصف لما نراه بالأدوات الخاصة باللغة السينمائية والاهتمام بالموضوعات والتصنيفات والأغراض التي تدل على المنحى السياسي في الفيلم على أساسها. أي يتعلق الأمر -إن ضيقنا الزاوية- بنشوء نظرة نقدية ابتداء من أدوات الكتابة. وهذا، ينبثق التحليل من (طريقة العمل) كما قال جان لويس كومولي. أي من الأدلة الملموسة والظاهرة تبعاً لما أراد المخرج أن نرى. تضع زاوية النهج هذه التحليل في صميم ترتيب الصور والأصوات وفقاً لمنهج توضيحي يركز على العلاقات المتبادلة بين ما يقدم لنا لنرى وما يعني ضمناً عبر طريقة تقديمها في الفيلم. لذلك لا يستدعي التحليل أسلوباً خبيراً للكشف عن المعاني الخفية، ولكن في تفسير الجسور بين الواقع المادي والواقع الخيالي⁽⁸⁾.

الذوق، ما يهمننا هو هذا اللبس أو اللابيق المرتبط بمفهوم الذوق أو الحكم الجمالي، والعملية العقلية التي تنلقى بها (الجميل) هي ذاتها التي نحكم فيها على صورتنا ومدى تطابقها مع هويتنا.

Giorgi Agamben, Taste, (Seagull Books, 2017), p7.

(6) يرى الباحث الأنثروبولوجي جان بول كولين أن أحد الجوانب الرئيسة للسينما الإثنوغرافية هو الملاحظة الفعلية لمجموعة معينة من الناس خلال ممارسات معينة. وهذا يختلف عن الفيلم الوثائقي القائم على جمع آراء الخبراء حول موضوع اجتماعي. لهذا بسبب طبيعتها يمكن للسينما الإثنوغرافية، بالتفاعل مع بيئتها من خلال التقاط الصور، أن يكون لها تأثير في موضوعها الخاص. ويقول لم نعد ساذجين كما كان من قبل في ما يتعلق بالاعتقاد بأنه ليس لدينا أي تأثير على ما نقوم بتصويره أو ما نشهده. الباحث الإثنوغرافي، سواء كان برفقة كاميرا أم لا، هو جزء من حقيقة أنه يلاحظ الناس الموجودين في مكان معه، يتفاعلون معه، ويفعلون أشياء من أجل الكاميرا أو يتجنبونها. لذلك لدينا تأثير كباحثين نلاحظ الأشياء، ولكن ضمن وجهة نظر محددة. علينا الاعتراف كباحثين بالمكان الذي نشغله: لأنه وبفضل التحيز الشخصي لصانع الأفلام، نرى ما نراه ونرى ما تمكن من ملاحظته. جون بول كولين في لقاء على إذاعة فرانس كولتور حول الفيلم الأنثروبولوجي في عالمنا الحالي، تشرين الثاني / نوفمبر 2020

(7) Cécile Boëx, Interroger un film politiquement, cinéma et politique en Syrie, (Harmattan, 2014), 16-17.

(8) Cécile Boëx, Pour une analyse filmique pragmatique, cinéma et politique en Syrie, (Harmattan, 2014), 21-22.

سابعًا: سلسلة عمر أميرالاي

قدم عمر أميرالاي ثلاثة أفلام كان قد صورها في منطقة الجزيرة السورية، اختلفت هذه الأفلام، لا بل تناقضت، بسبب تغير معتقدات عمر أميرالاي، إذ قال في بداية فيلم طوفان في بلاد البعث في صوته المركب فوق الصورة إنه كان يتبع تيار الحداثة في سورية وكان مؤمنًا بحدوثة بأي ثمن، لكنه اصطدم بالواقع وبسياسة الحزب الواحد ووعوده الكاذبة.

عدّ هذه الأفلام سلسلة يتيح لنا قراءتها كأسلوب لرصد التغير وإيقاع الزمن، سواء في أثره في المنطقة، أم في المخرج نفسه، وكيفية ظهور المنطقة وسكانها أمام العدسة على مر السنين، مقارنة بالخطاب الرسمي الذي يعد بالتغير، كما أنه يتيح لنا رصد التغير في الأيديولوجيا الرسمية للنظام السوري (إن حصل تغير)، وعلاقتها مع الزمن وأرض الواقع، الشأن الذي تحول لاحقًا إلى محض ترديد شعارات بصورة لا منطقية بحسب ليزا ويدن، وكأن الزمن لا يتحرك، أو أمام إيقاعات مختلفة لتطور الحياة، وهذا ما يجعل أفلام أميرالاي مميزة في علاقاتها مع المنطقة، كونها تكشف بأسلوبها الجمالي ومحتواها السياسي عن مفهوم الأبد، أو القائد الأبدى، ذاك الذي ينفي التاريخ والتغير ضمنه، أو بحسب فرضية ياسين حاج صالح هو ((حائل أمام التغير السياسي))⁽⁹⁾، ويستطرد صالح بأن الأبد نفى الحياة السياسية بأشكالها، اليمين واليسار، أي غياب أصواتهما وابتلعها.

1. (محاولة عن سد الفرات): الاحتفال بتحديث وسائل الإنتاج

(محاولة عن سد الفرات) هو الفيلم الأول لعمر أميرالاي، كُلف بهذا الفيلم من الهيئة العامة للتلفزيون السوري، لتوثيق بناء سد الفرات، ثم إرسال هذا الفيلم بعدها إلى المهرجانات الدولية، وهذا ما حصل، إذ أرسل الفيلم إلى مهرجان لايبسيك للفيلم الوثائقي حيث حاز على المركز الثاني، لكنه لم يعرض في سورية⁽¹⁰⁾.

لم يكن أميرالاي في حينها مناهضًا لفكرة التحديث والتطور ككثير من المثقفين من بني جيله⁽¹¹⁾.

(9) انظر: <https://bit.ly/39Ejxn4>

(10) Cécile Boëx, Un point de vue ambigu sur la politique des grands travaux. cinéma et politique en Syrie, (Harmattan, 2014), 98

(11) لقاء أحمد علي الزين مع عمر أميرالاي، يوتيوب.

https://www.youtube.com/watch?v=RDPygKY_eDw

وأتى التكليف لتوثيق العمل على سد الفرات، المشروع الكبير الذي تبناه حافظ الأسد ليعد من أهم منجزاته التي قدمها للشعب السوري. الهدف من السد والبحيرة خلفه كان (ترويض وحش الفرات) وهي المقولة التي تدرّس في المنهج الرسمي السوري على أنه أعظم المنجزات التي تم تقديمها لسورية. بدأ المشروع عام 1966 وانتهى بعد تسع سنوات⁽¹²⁾ واستحوذ حافظ الأسد على المشروع ودشنه بوصفه مشروعاً سياسياً واقتصادياً سيقبل حال المنطقة.

أراد أميرالاي في هذا الفيلم ولاحقاً في فيلم طوفان في بلاد البعث طرح جدلية أهمية الأيديولوجية خلف هذا السد ومساءلة الوعود التي قدمها حزب البعث للسوريين وتجنيدهم لصالح الحزب. الوعود التي رصد زمن تحقيقها في 30 عامًا، وأكسبت الفيلم لاحقاً أهمية سياسية، فهي وثائق تكشف الأثر الأيديولوجي للنظام السوري، وأثره في الواقع والتراب كحزب قائد للدولة والمجتمع.

2. الآلة: بشارة التحديث وإعادة ضبط إيقاع الحياة

نرى في الفيلم حالة مبالغة تبدأ في أول لقطة، احتفال بالآلة والصناعة الثقيلة، في منطقة لم تعرف سابقاً تدخلاً للوحوش الفولاذية الضخمة. يبدو كأن الآلة تكتشف هذا المكان الجديد، وتزحزح التراب فيه بأمر سيادي، وتعيد تكوينه ليكون صالحاً للحياة للقضاء على الكارثة الطبيعية. تتداخل أيدي العمال مع الآلة وكأنها تتلاحم لتقدم كائنًا جديدًا حديثًا قادرًا على تغيير واقعه الصعب. الكاميرا ذاتها هنا حامل لهذه (الحداثة) التي دشنها حافظ الأسد في خطاب في مدينة الطبقة، وصف فيه السد بالانتصار، ووصف الشعب السوري بأنه ((قبل بتحدى الطبيعة وواجهها بإرادة قوية))⁽¹³⁾، فالوحش أو الشر الذي كان يمثله نهر الفرات، تم ترويضه بقرار سيادي أمام الكاميرا التي زارت المكان سابقاً، ومهدت لهذا التحديث، وتعد زيارة الأسد جزءاً من عملية الانتقال من التخلف إلى التطور.

الدور الذي تلعبه السينما هنا وتمهيداً للتغيير عبر رصد المنطقة، جزء من إيقاع الآلة الحديث. وفي الحالة السورية، تحيل الصورة الرسمية على إيقاع السلطة نفسها؛ بل بصورة أدق إيقاع الحرب، فحالة الطوارئ قائمة، والمعركة مع الوحش المسمى بالفرات لا بد من صورة لها، لا بد من (تمثيل) لهذا التغيير والإيقاع الذي يحمله، بوصفه ذا علاقة وثيقة مع السيادة السياسية ف((المنطق الذي يربط

(12) انظر: <https://bit.ly/3PcXynu>

(13) انظر: http://www.presidentassad.net/index.php?option=com_content&view=article&id=352:5-7-1973&catid=255&Itemid=493

السلطة بالمعرفة قد استُبعد ليحل محله منطق آخر يربط السلطة بالحركة⁽¹⁴⁾، هذه الحركة هي حركة الآلة وحركة الكاميرا وتدفق الزمن ضمنها وتسارعه، ما يحول الفيلم ذاته إلى علامة على التغيير وعلى رغبة السلطة في تمثيل منجزها، الشأن الذي لم ينصع له أميرالاي بسبب وجهة نظره الذاتية في الفيلم، لا بل هدد هذا التمثيل إلى حد منع عرض الفيلم في سورية.

نشعر بإيقاع التغيير عبر اللقطات المتعاقبة للآلات برفقة ضجيجها الصاخب والصوت الذي يشبه الإنذار في بداية الفيلم⁽¹⁵⁾، وكأننا أمام إنذار للجهل والتخلف بأن الآلة والحادثة أتت وستغير كل شيء. نرى هذا التغيير أيضاً في اللقطات التي تتجه إلى الأعلى دائماً، مع الروافع التي تسمو كدليل على مسيرة التطور، تتلاحق بعدها لقطات من الأعلى هذه المرة وهي تنظر إلى تغير الأرض وسطوة الإسمنت القادمة إلى تلك المنطقة الجافة، وكأنها تبشر بحياة جديدة. هنا يبدو تأثير عمر أميرالاي بالمستقبلية السوفيتية⁽¹⁶⁾، وعلاقة الآلة مع التغيير المجتمعي وقدرتها الصاخبة على إعادة تكوين العالم.

أي إن المكان نفسه يتغير ويبدش بما هو جديد، كما يبشر بظهور طبقة جديدة من العمال، وازدهار أخرى بسبب السد وهي الفلاحين.

تتعاقب اللقطات بسرعة كدليل على أهمية ما يحصل وضخامته، لتتكشف أمامنا شيئاً فشيئاً حالة العمال على اختلافها؛ بين المهندسين العارفين بهذا التطور والحاملين له، بوقفاتهم الواثقة والثابتة، والعمال من المنطقة الذين يعملون من دون كلل، فليس هناك كثير من الوقت، هناك معركة ضد (وحش) لا بد من ترويضه⁽¹⁷⁾، تتداخل أيدي العمال والآلات وكأنها كتلة واحدة في محاولة لتصوير الجهد المبذول ومشاركة الجميع في ترويض الوحش وترويض أنفسهم وتحولهم إلى (عمال) ينتمون إلى طبقة اقتصادية واجتماعية تسعى الدولة الاشتراكية لحمايتها والوقوف إلى جانبها. يظهر

(14) فيريوليو بول، السرعة والسياسة من ثورة الشارع إلى الحق في الدولة، محمد الرحموني (مترجماً)، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، د.ت)، ص 65.

(15) لويجي روسولو، «أصوات المستقبلية المأخوذة من نيكولاي كوبلين، ماري مورغان دي كورساكوف»، MANIFESTO.XXI، (كانون الأول/ ديسمبر 2017).

<https://manifesto-21.com/100-ans-de-noise-russe/>

(16) فتبدو اللقطات الواسعة الشارحة كلقطات دزيغا فيرتوف في فيلم الرجل مع الكاميرا 1929، وبخاصة أنها تتلاحق بمونتاغ يحاول مشابهة الواقع وتقديم تخيل حديث له، لكن الاختلاف مع فيلم أميرالاي أن المشاهد في الرجل مع الكاميرا مقسمة بين الوثائقي والخيال الذي يعبر عن الذاتية في ذلك الوقت الذي يعلن عن حادثة نائرة.

(17) يذكر الفيلم بفيلم الأزمنة الحديثة 1936 لشارلي شابلن حيث بدأت الثورة الصناعية بمحاولة تحسين وضع الإنسان لكن لا يمكن فهمها أيضاً ويمكن أن تتسبب بخراب حياته وبإهلاك ضمن النظام الصناعي الصارم.

هذا القسم من الفيلم تأثر المخرج بالمخرج الفرنسي كريس ماركر⁽¹⁸⁾.

3. بعيداً عن الآلة- خارج الإيقاع

ينتقل أميرالاي في مخالفة لما كلف به⁽¹⁹⁾ إلى لقاء مع أحد العمال، ليتضح دور الصحافي الذي يلعبه، لنتعرف حينها إلى الطبقة الكادحة التي سيتغير مصيرها بسبب التحديث القادر على تغيير حياة الأفراد. يخبرنا العامل أن ابنه في خدمة العلم الإلزامية، وأنه يعمل وحيداً من دون كلل، بسبب أهمية هذا المشروع، لننتقل بعدها إلى (الخارج)، أي إلى ما لا يتعلق بعملية البناء والإيقاع الصناعي، تتحول الكاميرا هنا من أداة لتصوير (المعركة ضد الوحش)، إلى أداة لاستكشاف العالم، فاللقطات التي تلي هذا اللقاء تظهر سكان المنطقة من البدو، بوجوههم المتعبة والجافة، إضافة إلى اللقطات الثابتة والقريبة جداً لأقدام البدو المتشققة، والأرض المتشققة، في دلالة على الجفاف الذي يعانيه، وعلى قلة الموارد والفقر في ظل نقص الخدمات، على الرغم من الأنظمة السياسية المتعاقبة والقتال على سيادة دمشق. ما يظهر أيضاً اعتبارات الدولة الانتقائية في محاولاتها للتنمية.

عدسة أميرالاي هنا تصور البشر ضمن إيقاع (طبيعي)⁽²⁰⁾ أي ذاك الذي لم يخضع للسيادة ولم تنظم حياة المواطنين فيه في مقاربة أنثروبولوجية لتلك المنطقة، وكأنها خالية من أثر السلطة، إذ نرى الخرفان وهي تتحرك بحرية، والأمهات وهن يخزن ويهتمن بعائلاتهم، يعرفنا عمر أميرالاي في هذه المقاطع إلى منطقة الفرات بالقرب من السد، وكأننا ذهبنا في رحلة مع أحد المستكشفين إلى أماكن نائية لا نعرف عنها شيئاً، هذا الانطباع لا يحمل معاني سلبية ولا استغرابية، بل هو محاولة لكسر الحكاية الرسمية، والنظر خارج الإطار الرسمي فيما اعتبر نوعاً من الذاتية⁽²¹⁾ التي تتحدى السلطة (18) الذي تعرف عليه في متابعته لأفلامه في السينما الفرنسية، التأثر باد في التشابه في تكوين اللقطات وتكوين الضوء وتوزيع العناصر في اللقطة.

Cécile Boëx, Un point de vue ambigu sur la politique des grands travaux, 99.

(19) Cécile Boëx. (2014). Un point de vue ambigu sur la politique des grands travaux. cinéma et politique en Syrie. Harmattan, 99

(20) يشير بول فيرليو إلى مفهوم السرعة والإيقاع في أعماله المختلفة، ويرى أن السرعة «ترتبط بالسياسة» فهناك التقسيمات الطبيعية للوقت كالمواسم، والفصول، هذه السرعة ترتبط بالعلاقة مع الطبيعة والأجساد وكيفية تفاعلها، وهي تشمل المزارعين والحرفيين في علاقتهم مع موضوعات عملهم، في حين إنها في القرن العشرين، ترتبط بالثروة والنظام السياسي، ويشير إلى علوم السرعة، وعلاقتها مع النظام السياسي، وتنوع الإيقاعات في ضبط العلاقة بين الناس والطبيعة والنظام السياسي وتأثيرها في تدفق الحياة

Paul Virilio, The administration of fear, Vol. 10, (MIT Press, 2012), P27.

(21) Cécile Boëx, Un point de vue ambigu sur la politique des grands travaux, 99.

الانتقائية في خياراتها، حيث يبدو الإيقاع أبطأ ولا تضبطه الآلة، ويقسم العمل من أجل الحفاظ على الحياة واستمرارها، لا للعب دور ضمن الدولة الجديدة.

هذه العلاقة بين (مساحة العمل) و(الخارج) تعكس طبيعة الخطاب أو الصورة التي تحاول السلطة في سورية رسمها، وكأن القرار بزحزحة التراب يشمل فقط مساحة المشروع / السد، أما ما حوله فهو منفي من الزمن، وهذا ما نكتشفه لاحقاً في تاريخ المنطقة التي همّشت، أو بحسب المصطلح السياسي خضع أفرداها وأرضها لشكل من أشكال (المنع) المترافق مع قوانين الطوارئ: فالممنوع-Banned هو ((الحافة التي لا يمكن ضمها التفريق بين الحياة والقانون، بين الداخل والخارج، أي ليس من الممكن أن نعرف إن كان ممنوع داخل أو خارج النظام القضائي))⁽²²⁾، نذكر هذا التعريف لأننا لاحقاً نكتشف عدم حصول السكان الذين فقدوا منازلهم وأراضيهم من السد على تعويضات، أي إن الدولة لم تضمن حقوقهم التي أخذتها، ولم تعويضهم عما خسروه، وكأن شخصيتهم السياسية غير موجودة، بل هم أفراد بلا حقوق. يمكن فهم القسم الثاني من الفيلم الذي يوثق المنطقة، كأنه محاولة لرد الزمن وعلاقته مع التطوير والتحديث، إذ نشاهد سكان المنطقة وهيئتهم بشكل مفصل، نتلمس أدواتهم ومعاناتهم وابتعادهم عن الحياة المريحة من دون التدخل أو الحكم عليها، بل من أجل عرضها لإمكانية سبر أي تغير فيها بعد قيام السد.

4. (الحياة اليومية في قرية سورية): فضاءات الدولة الأيديولوجية

بقيت المنطقة الشرقية في مخيلة عمر أميرالاي بعد فيلمه الأول، وقرر العمل على سلسلة جديدة من الأفلام التي تتحدث عن الخدمات الحكومية في منطقة الجزيرة، كعينة عن المحافظات السورية، في تصور أنثروبولوجي- وثائقي يدرس علاقة السكان مع المكان والبيئة المحيطة، وعلاقة الدولة مع سكان هذا المكان والبيئة المحيطة.

عمل أميرالاي على فيلم (الحياة اليومية في قرية سورية) عام 1974 مع الكاتب المسرحي سعد الله ونوس بعد أن تعرف إليه خلال زيارته إلى باريس وطلب العمل معه ككاتب لهذه السلسلة عن منطقة الجزيرة، كان أميرالاي يعتقد أن تطوير وسائل الإنتاج يقدم إمكانية لتحسين وضع المجتمع والإنسان⁽²³⁾، أراد في هذا الفيلم مراقبة حالة السكان بالتركيز دور مؤسسات الدولة، وأردا الكشف

(22) Giorgio Agamben, Homo sacer, (Meridian crossing aesthetics, 1995), 27.

(23) لقاء أحمد علي الزين مع عمر أميرالاي

https://www.youtube.com/watch?v=RDPygKY_eDw

عن التطويع الإجباري لعقول السكان وتأثير المكونات السياسية، خصوصاً بعد اكتشافه أن المشكلة ليست فقط في عدم تأمين وسائل الإنتاج والخدمات، بل أعمق من ذلك وتتمثل في تعامل النظام البعثي القمعي مع السكان ووعدوه الكاذبة وتأطيرهم كجنود يعملون لصالحه وتآمر القادة الشعبيين مع الأنظمة المتعاقبة.

يقول أميرالاي في اللقاء التلفزيوني مع الصحافي أحمد علي الزين إنه يسعى عبر أفلامه إلى دفع المواطن السوري أو الإنسان إلى الابتعاد عن الإيمان الأعى بواقعه وبظروفه كي يتحرر منه ويوقف الاستغلال الممارس في حقه. أي إنه حاول في هذا الفيلم الذهاب في رحلة إلى منطقة الجزيرة السورية للتعريف بها كمكان في سورية، بعيداً من السد وعمليات إنجازه، بصورة أخرى، في محاولة لرصد ممارسات السلطة ضمن المنطقة ووظائفها كدولة تضمن حياة المواطنين لا (تمنعهم) وتهمشهم.

5. فضاءات الدولة الأيديولوجية و(الخارج) المفتوح على الحقيقة

يتحرك الفيلم بين عدد من القرى في المنطقة الشرقية، يُفتح بلقطات لأطفال يلعبون بالرمال وينشرونها على هيكل عظمي لحيوان نافق، تبدأ موسيقى بدوية مرافقة تختزل صوت المنطقة، يبدو أن الهيكل في تلك الأرض منذ مدة ليست بالقصيرة، الرمال تعبر ثقب الهيكل وينثرها الأطفال مع الرياح في حركات تبدو بلا طائل، وكأنه يحدثنا عن منطقة منسية ومهملة، الإيقاع فيها ينتهي للطبيعة وتغيراتها، ذاك الإيقاع الوحشي الذي من المفترض أن يضبطه مشروع السد، وأن يعيد توظيفه لخدمة سكان المنطقة.

يأخذنا عمر أميرالاي في الفيلم في رحلة غامضة، نتعرف فيها إلى القرى المصورة شيئاً فشيئاً ونتمكن كمشاهدين من فهمها تباعاً، لكنّ اللافت في هذا الفيلم -على الرغم من الصيغة الاستكشافية/ الأنثروبولوجية⁽²⁴⁾ فيه- أن أميرالاي يقسم العالم في تلك المنطقة إلى قسمين، الأول: هو مؤسسات السلطة الرسمية والأيديولوجية (المدرسة، المخفر، السينما، المستشفى، مكتب ممثل الحزب)،

(24) يمثل فيلم الحياة اليومية في قرية سورية فيلماً أنثروبولوجياً بامتياز حيث يحاول أميرالاي تغطية كافة المستويات المعيشية في المنطقة، يبدأ بأحوال الطقس والطبيعة الصعبة، وكيف يعيش سكانها في حالة تحد لها، هناك تشابه أو تأثيراً بفيلم الإسكيمو نانوك 1922 لعالم الأنثروبولوجيا روبير فلارتي الذي حاول التعرف على حياة الإسكيمو في الشمال الشرقي من كندا، عرض فلارتي طريقة حياة الإسكيمو، من التنقل إلى الصيد إلى صناعة الأدوات المحلية. يشكل الفيلم دراسة علمية وشخصية في الوقت نفسه فلا يمكن تجاهل وجهة نظر الكاميرا والمونتاج كعامل شخصي وسياسي في الأفلام، حيث رأى المخرج في ذلك الوقت أن السينما وسيلة ممتازة للتوثيق الأنثروبولوجي، ويعد الفيلم من أوائل الأفلام الأنثروبولوجية، وتم التبرير لاحقاً لوجهة النظر الشخصية خلف الكاميرا التي لا يمكن تجاوزها في أي حال من الأحوال. (كولين)

والثاني يتمثل في المنزل، والأرض، ونقصد بالأرض هنا؛ المساحات الزراعية وفضاء القرية وشوارعها، تلك التي تختزل معاناة السكان فيها بلقطة للرجل المسن الذي يمزق ثيابه، صورة تتكرر خلال الفيلم بشكل دائم، وتحمل معاناة خانقة يشعر بها المشاهد في كل تكرار، صورة تختزل رؤية الفيلم السوداوية وتساعد في تطور الأحداث وتؤكد أن معاناة السكان دائمة ومتكررة، كأنهم يعيشون في جحيم لا مفر منه.

التقسيم السابق يكشف لنا طبيعة عمل الأيديولوجيا ومؤسساتها وتناقضها الشديد مع الأمر الواقع، سواء في مستوى الخدمات أم المستوى المعرفي المرتبط بالعادات والتقاليد واختلاف أسلوب الحديث عن المكان، بين سكانه وممثلي السلطة، والمواجهة بين السلطة العشائرية وسلطة الحزب، نشير إلى هذه التقسيمات كونها تكشف العلاقة بين الحكاية الرسمية والواقع المعيش، وبخاصة الحكاية الرسمية بأشكالها المتعددة وعلاقتها مع الأفراد أنفسهم الذين يفترض أنها (تمثلهم) أو تخاطبهم. في حين إنهم يستهلكون ((هذا الخطاب إلى جانب ممثلي السلطة)) بحسب تعبير ليزا ويدين؛ ما ((يعزل السوريين بعضهم عن بعض، ويحوّل المساحة العامة إلى فضاء من الشعارات المونوتونية والحركات الفارغة التي تتعب عقول وأجساد منتجيها ومستهلكيها على حد سواء))⁽²⁵⁾ إذ تظهر بلاغة البعث في الحديث عن (سورية) و(القائد الخالد) و(مسيرة التطوير)، ويمكن القول إن الفيلم هنا يتحرر من الإطار الأنثروبولوجي، وتتفعل طاقة الكاميرا السحرية، بوصفها حاملاً للنداء الذي يوجهه أهالي المنطقة، صيغة الاستكشاف تكتسب بعداً سياسياً، إذ يصبح المخرج حاملاً لمطالب سكان المنطقة، لا فقط موثقاً لما يحدث فيها، كما يفقد صيغة الجامع الفيتيشي⁽²⁶⁾، موضوعاته لها حكايات وأصوات وأسماء، تتحدث مطالبة بالتغيير. ولا يحاول أميرالاي تهديد هذا السياق، بل يحافظ عليه.

يكشف المنزل الذي يفتتح الفيلم به عن بداية النهار، أي تدفق الزمن اليومي، تستيقظ العائلة وتبدأ النهار بوجبة متواضعة. يبدو الصمت مقصوداً في بعض الأحيان، فلا يمكن إخفاء عدم الارتياح لوجود أشخاص غرباء. لكن مشهد الطعام نفسه يكشف عن المستوى الاقتصادي لسكان المنطقة، لا فقط عاداتها، وطبيعة حياتها اليومية.

هنا نحذر من مقاربات الأنثروبولوجيا المرتبطة بالطعام (اليء والمطبوخ)، خصوصاً أن هذه

(25) Lisa Wedeen, *Ambiguities of domination*, (University of Chicago Press, 2015), p6.

(26) يصف جورجيو أغمبين هذا النموذج بوصفه: ((يقتبس الغرض خارج سياقه ويدمر الترتيب الذي وجد فيه هذا الغرض والذي اكتسب بسببه قيمته ومعناه، سواء كان عملاً فنياً أو سلعة... الجامع يقوم بإعادة تشكيل الأشياء، فيحرمها من قيمتها الاستخدمية ومعناها الأخلاقي والاجتماعي.))

Giorgio Agamben, *The man without content*, (Stanford University Press, 1999), P103.

المقاربة تفترض -كعلم الأنثروبولوجيا نفسه- اختلافاً بين من (يحدث/ يبحث) وموضوعاته. لذا ننظر إلى المنزل بوصفه فضاء داخلياً ذا قوانين داخلية، لكنه في الوقت ذاته، حاملاً للأسرة التي يفترض أن يتغير نمط حياتها وعاداتها مع وصول المشروعات الكبرى، وما تحمله من خدمات تقع على مسؤولية الدولة.

ينتقل أميرالاي بعدها من (المنزل) إلى (المدرسة) المساحة الثانية لزرع القيم والأخلاق والمعتقدات بعد الأسرة. فضاء المدرسة يحاول إضفاء (نظام) من نوع ما على الأطفال، يصطفون، ثم يدخلون إلى الصف، ليظهر الأستاذ، وتنصفح الكتاب المدرسي الذي يتحدث عن الزراعة وتقنيات الحصاد الجديدة التي يمكن أن يوظفها الفلاحون. هنا تتقمص الكاميرا عبر سلسلة اللقطات أعين واحد من الأطفال، بين ما يراه في الكتاب وما يراه أمامه على أرض الواقع، وهنا يظهر التناقض بين ما نراه وما نسمعه، أو ما يراه الطفل في الواقع وما يراه في الكتاب، إذ يظهر مشهد لعائلة بين السنايل الذهبية وهي تحصد برفقة الحمير، ثلاثة أشخاص وأربعة حمير بعكس درس القراءة، من دون جرار ومن دون حصّادة. هنا نعود مرة أخرى إلى إيقاع (الآلة) ذاك الصوت الذي لا أثر له في الواقع، ويتضح في تلاعب أميرالاي على إيقاعين، ماكينة استجرار المياه من الآبار، يقابلها صوت المجوز، تناقض يمثل الأول التحديث بشكله الرث، أما الآخر فيمثل الحياة التي لم تتغير وما زالت على حالها.

يظهر الصف المدرسي مرة أخرى، لتتحول الكاميرا في الصف إلى أسلوب للمقارنة. تتدفق اللقطات لتكشف عن الهوة بين الخطاب الرسمي والواقع المعيش، وكأننا أمام سؤال جمالي هنا، كيف أرى نفسي في ما أراه، السؤال الذي يمكن أن يطرحه الأطفال أو المعلم في المدرسة، ويعجزون عن الإجابة عنه، إذ يحاول الأستاذ بخجل تقريباً، إيجاد رابط مشترك بين الدرس في الكتاب والطلاب أنفسهم، يتحدث عن البيض والحليب ومشتقاته لتظهر المفارقة الكبيرة، بين الفتاة في الكتاب التي تجلس على طاولة وتأكل بطريقة مخالفة تماماً لعادات تلك المنطقة، وعن الحمام ثلاث مرات في الأسبوع في منطقة تعاني شح المياه، يتخلل تلك اللقطات حمام لطفل داخل الخيمة في جرن، لكن من دون لوم طبيعة المكان أو المجتمع، بل في تأكيد أن ما (وعدت) به (السلطة) لم يتحقق.

لا يكسر المعلم دوره لا بل يحافظ على (خطابه) سواء كان بالزي الرسمي في المدرسة، أم في ملابس النوم حول مائدة الطعام. لا يتردد في التعبير عن التزامه الحزبي وجديته وإيمانه العميق بتحسين حياة المواطن. على الرغم من كلماته النظرية إلا أنه يبدو مؤمناً بها فعلاً، إذ ينتقد كذب المؤسسات والاستغلال وهجرة المتعلمين من المنطقة. لنتعرف إلى هذه الشريحة من السكان في تلك القرى، وطموحهم الاشتراكي لتحسين المنطقة كما كان يعتقد أميرالاي في فيلمه السابق. نحن هنا أمام تناقض في أسلوب القراءة الذي نقوم به الآن. إذ يبدو ترديد بلاغة البعث جزءاً من أسلوب الهيمنة

على الناس.

هذه القراءة معاصرة، لكن في ذلك الوقت، لا يمكن لنا الجزم، هل المعلم (ساخر) أم (جدي) في ما يقوله؟ خصوصاً أنه يتحرك بين فضاءين، المدرسة (فضاء رسمي) والمنزل (فضاء خاص).

لا تهدد الحيرة وعدم التيقن من (حقيقة) ما يقال، القيمة الوثائقية وأسلوب تمثيل الذات في حينها، لكنها أكسبت الفيلم نفسه مع مرور الزمن قيمة مضافة، تتعلق بقدرته على رصد التناقض في حينها، واستمرار هذا التناقض حتى الآن.

يلتقي أميرالاي بعدها بممثلي السلطة، المختار في الفلاء؛ رئيس المخفر في مكتبه؛ ممثل الهيئة الحزبية في مكتبه؛ وممثل عن نقابة الفلاحين. واللافت بداية، أن المختار بعكس كل ممثلي السلطة، لا يظهر في مكتب، بل في الأرض، هو الذي ورث السلطة عن أبيه وجده، ويكرر رطانة حزب البعث وبلاغته وحالة توارث السلطة بشكل فارغ، أي لا يتعلم المختار إدارة المنطقة من والده. وهنا تظهر أمامنا مؤسسات الدولة البعثية بشكلها الواضح، فالمختار ذو السلطة القبليّة وحكاياته عن العلاقة مع الأرض يقابله، الخطاب الرسمي وممثلو السلطة. فالممثل عن الهيئات الحزبية مثلاً، يجلس أمام مكتبه في لقطة نصفية، ليتحدث خلال دقائق عدو من دون أن يقاطعه أميرالاي، يتحدث، بطريقة خشبية ومونتونية تبعث على النعاس، عن منجزات حزب البعث ومساوئ الاستغلال السابق لثورة الحزب.

يحاول الحزبي دائماً تذكر التعبيرات المأخوذة من الأدبيات التعليمية للحزب لينهي كلامه بصمت ساخر من قبل أميرالاي. الأمر ذاته مع مدير مخفر الشرطة في المنطقة، الدمشقي الغريب الذي يقدم خطاباً متماسكاً يظهر صعوبة التعامل مع السكان وعاداتهم العشائرية الرثة. إلى حد أن الشرطي يتحدث (عنهم) بصيغة الغائب.

نتعرف لاحقاً إلى ممثل نقابة الفلاحين في المنطقة، في مشهد يظهر تورط العشائر مع السلطات بشكل فج، ثم تتالى المشاهد التي تظهر الاختلاف بين الخطاب الرسمي وما يعانيه الفلاحون من استغلال باللقاءات المتوازية بين الفلاحين الذين يتحدثون علناً عن مشكلاتهم، على الرغم من رقابتهم الشخصية ورقابة المخرج في بعض الأحيان الذاتية خوفاً من العواقب.

كل ما سبق من بلاغة سياسية، ومواقف متنوعة لممثلي السلطة، لا تحل المشكلة التي يعانيها سكان المنطقة. تلك التي تختزل بأن الفلاح لم يتمكن من تحصيل حقه بسبب تعاون السلطات مع العشائر المسيطرة (العشائر المسيطرة في علاقة زواج مع السلطة ولا يمكن التفريق بينهما)، وكأن

المخرج يريد توثيق ما حدث مع ذلك الرجل الذي انتهى به الأمر ممزقاً ثيابه. واللافت هنا، أن أميرالاي يكشف لنا عن أثر الأيديولوجيا لا بوصفها فقط نتاج مؤسسات، بل قوة تحكم الأفراد أنفسهم؛ يجسّدونها، ويتبنونها. فضلاً عن سلطة العشيرة والتقسيمات المرتبطة بها.

من ثم، مفهوم الحق الضائع وعدم القدرة على تحصيله يعيدنا إلى تعريف (المنع): تلك الحافة بين النظام القضائي وخارجه: الفرد لا يجد تمثيلاً لذاته يتطابق معه بحيث يحصل حقوقه في أي واحدة من المؤسسات الأيديولوجية السابقة. فالمنع هنا، ينزع صفة (المواطن) عن الفرد، أي حتى لو تبنى الأيديولوجيا فهو ممنوع ولا حقوق له ضمن التشكيلة الجديدة للمجتمع.

بل هو ناج لا يعيش وعلاقته مع السلطة ومؤسساتها ندية، يترك خارج النظام الحقوقي⁽²⁷⁾ كالوحش والسيد.

6. الحياة على الحافة

مفهوم (المنع) الذي ذكرناه سابقاً، لا يقتصر على التعريف السياسي للفرد وهدر حقوقه وما يمتلكه، بل يمتد هذا المنع إلى تهديد الحياة نفسها، أي حياة الأفراد والمواطنين. إذ نشاهد امرأة قرب النهر، تقوم بتقديم المياه لطفلها، المياه وسخة لا نعرف عنها شيئاً، لكنّ حنان تلك الأم التي تتأمل ابنتها مع كل رشفة، يبدو واضحاً في حركات يديها المهتمة، لنكتشف بعدها إهمال (حياة الأفراد) من وجهة نظر السلطة، إذ يلتقي أميرالاي مع طبيب المنطقة بلقطة نصفية مركزة، لا يظهر منها إلا الطبيب والطاولة واللوحه خلفه وأحياناً الممرض الذي يشبه الحارس في مكانه خلف الطبيب. يضيق الكادر شيئاً فشيئاً مع تطور الأسئلة ومع تطور العلاقة مع المخرج. إذ يبدأ بالحديث كخطاب رسمي تقريباً، يعلق بكل ثقة ومرونة ولباقة ويرى أن المشكلات الأساسية لدى السكان هي سوء التغذية ونقص الوعي الصحي.

يقدم الطبيب كثيراً من الأمثلة على حال المنطقة ويوميات المعالجة ويقدم أرقاماً ونسباً لتأكيد معلوماته، من دون أن ينتقد فعلاً نقص الخدمات وكأنه أمر قدرى وكأنه الطبيعة وإيقاعها، على الرغم من تأكيده نقص الغذاء والمتطلبات الأساسية، وعدد السكان الكبير لمستوصف وحيد، وغيرها

(27) خارج السيادة المقصود به خارج النظام القانوني- القضائي، حيث لا يتمتع من في الخارج بحقوق المواطنين. ويمتلك سلطة استثنائية في الوقت ذاته يمكن أن يقع عليه عنف استثنائي. يمكن للاستزادة مراجعة: أوكسانا تيموفيفا، تاريخ الحيوانات: فلسفة، (دم: د.ت، 2018).

من المشكلات.

تحضر البلاغة الأيديولوجية هنا في تجاهل لحياة الأفراد، وهنا نكتشف دور المستشفى الذي تحول لاحقاً في قراءة معاصرة⁽²⁸⁾ إلى مساحة للموت، بالتالي حياة الأفراد ليست غير مهمة فحسب، بل غير مأخوذة بالحسبان. وهذا ما يهدد تعريف (الحياة) نفسه بالمعنى السياسي، أي من يستحق توفير شروط الحياة له؟ ممثل السلطة؟ أم البدوي؟ أم العامل؟ أم الفلاح؟

7. اختفاء سحر السينما

تتعمق التناقضات في مشهد الحضرة الذي يُدهش أميرالاي، مقابل مشهد حضور فيلم سينمائي، الطقسان كلاهما يشملان سكان المنطقة، لكن التناقض هنا في مستويات عدة. فالحضرة تحوي نوعاً من القدريّة ولا ينتظر أن تتحقق الوعود. هي وسيلة للصبر ونشاط جماعي يشارك فيه الرجال حد الإغماء، يمكن أن تكون ردة فعل من السكان للخلاص من كل ما يعانونه.

على النقيض، يظهر أحد ممثلي وزارة الثقافة السورية، لتقديم فيلم دعائي من إنتاج المؤسسة يشرح ما هي سورية، إذ يجلس الحضور في برية أمام شاشة السينما المعلقة، بوجوههم المتعبة وثيابهم الرثة، نرى مشاهداً من فيلم يظهر سورية أخرى، أشخاص أنيقون وجذابون على شاطئ البحر بألبستهم المعاصرة جداً ورخاء حياتهم الوردية، يوازي أميرالاي في هذا المشهد بين المشاهدين الذين لا يفهمون ما يرون على الشاشة لابتعادهم عن هذه الحياة بكل ما فيها، ووجوه شخصيات الفيلم المرتاحة، ليختتم المشهد بلقطات لأشخاص يصلون مع ماشيتهم إلى شط النهر، بملابسهم المحلية والأسلاك الشائكة أمام الشط، ما يثير مرارة شديدة وسوداوية عميقة تتعلق بالتناقض الكبير بين المقطعين.

يكشف التناقض كيف نُزع الأثر السحري⁽²⁹⁾ عن السينما، يقع بين وهم ما يراه الناس على

(28) كشفت الثورة السورية عام 2011 كيف تتحول المستشفيات إلى مساحات للموت حيث يتم قتل المعتقلين في أسرهم بسبب مواقفهم السياسية كما تشير تقارير منظمات حقوق الإنسان.

(29) يبدأ تاريخ السينما بالفانوس السحري الذي يعتمد على عرض جماعي بإسقاط الضوء. أمر كان يستخدمه الساحر روبري هوديني في منتصف القرن التاسع عشر. ثم واصل خليفته جورج ميليس طقوسه حتى وصله جهاز الأخوين لوميير وبهذا تخلص الفانوس السحري لينتقل إلى السينما.

عرف ميليس الساحر بعد مشاهدته لأفلام الأخوين لوميير يمكن للسينما أن تحل محل الفانوس، فاخترع عن طريق المصادفة مؤثرات خاصة في عام 1896 وذلك بقشط الصور، وهي أساس جميع المؤثرات الخاصة في السينما حتى الآن. استفاد من كونه رسام كاريكاتير

الشاشة بالنسبة إليهم، وحقيقة الحضرة، تلك التي يتفاعلون معها جسدياً وروحياً. بعكس السينما التي يفترض أن يتماها معها، أو يروا فيها وعداً بما هو أفضل، وربما يرون فيها أنفسهم، وكأن أميرالاي يعلق على (السينما) نفسها في سورية، وعلاقتها مع السلطة والتمثيل السياسي للأفراد، (هو نفسه جزء من هذا التمثيل)، فما يراه الجمهور لا يتطابق مع ما يختبره، بل حتى لا يشبهه ولا يشبه شرط حياته.

تشير هذه التناقضات، بين الروحي الطبيعي والسينمائي الصناعي إلى تلاشي الأثر السحري للسينما، هي (كذبة) ككل الأكاذيب التي نطقها سابقاً ممثلو السلطة، لا تمس الحاضرين ولا مخاطبيهم، كالكتاب المدرسي، وكقرارات الحزب، وكغيرها من البلاغة الرسمية.

هذا التعليق على السينما يتضح أكثر، حين يتحول أميرالاي نفسه إلى حامل للرسالة، وفيلمه نفسه إلى وسيط لمخاطبة السلطة، إذ ينهي أميرالاي الفيلم، مع شكاوى صريحة من السكان على المستغلين ومطالبات للدولة بمساعدتهم لنصل إلى المشهد الصامت المتكرر في الفيلم.

يسمح أميرالاي للصوت بالخروج هذه المرة، يريد الرجل النحيل الضعيف المسن الانتقام فقد مزق ثيابه (هي إشارة إلى بداية الثأر في العادات البدوية)، بعد أن تم استغلاله وإخراجه من أرضه، الحل الأخير بالنسبة إليه هو الثأر القاتل.

8. (طوفان في بلاد البعث): بلاغة الحزب الأبديّة

يعود عمر أميرالاي في (طوفان في بلاد البعث) إلى منطقة الجزيرة السورية بعد انقطاع طويل عن سورية، ويحاول في هذا الفيلم الرد على فيلمه الأول (محاولة عن سد الفرات 1970) معيداً طرح سؤال عما حدث بعد اكتمال بناء السد وتغير إيقاع الحياة. كما يقوم بتعريفنا بموقفه الذاتي بوصفه مخرجاً من تجربته الأولى وسورياً شهد وعد تطوير المنطقة.

أشاد أميرالاي في فيلمه الأول بمسيرة التحديث. لكنّ خيبة الأمل وفشل الآلة يتضح أكثر في هذا الفيلم. حيث تم التركيز على الأيديولوجيا لا على زحزحة التراب ولا على ما يحدث حالياً في البلاد بعد أن غُمرت قرى كاملة بسبب السد. كما اعتمد في الفيلم على الوثائق والأخبار التي تؤكد إمكانية انهيار

جيداً ولديه خيال فائض يدفعه نحو السحر. يعد السحر واحداً من الموضوعات المهمة جداً في السينما وفي تاريخها وسبباً لتطورها ولنظرية المشاهدة.

السد وسدود أخرى في سورية.

الأيديولوجيا ما زالت حاضرة، وبقيت الوعود بالرتابة المتكررة نفسها، بصورة أخرى يحاول أن يرصد أثر (المنع) عبر الزمن، وكيف هدد المكان ومن فيه.

في المستوى الشخصي، يسلط الفيلم الضوء على خيبة أمله الكبيرة بمعتقداته السابقة كلها، وبخاصة أنه حاول بفيلم الحياة اليومية لقرية سورية إيصال نداء للتغيير بعد أربعة أعوام على تسلم حافظ الأسد للسلطة وبدء نوع جديد من الحكم في سورية (كان يعتقد في حينها أن البعث هو الحاكم وليس الأسد ومنتفديه).

يحاول المخرج استعراض تطور نظريته الفنية وتطور توزيعه للعناصر في اللقطات، ليقدم لنا ثقل الأيديولوجيا بشكل صارخ. يبدأ الفيلم بلقطات من فيلمه الأول، يتحدث في هذه الصور بصوته ليبرر لنا أسفه ولينقلنا إلى عالم آخر، تصل فيه السوداوية إلى حد السخرية والحيادية.

يبدأ الفيلم بكادر ثابت للغرفة فيها شباك يطل على مئذنة ما زالت قيد البناء، يقدم لنا في هذا المشهد نيته وسبب تصوير هذا الفيلم، لينتهي في ختامه الجزء الشخصي ويبدأ الفيلم بعنوانه.

إذ يتحرك الفيلم كحلقة تبدأ في الغرفة عند النافذة في القسم الذاتي ثم قسم أهالي المنطقة، ثم الأيديولوجيا، ثم عودة إلى أهالي المنطقة ثم القسم الذاتي لينتهي الفيلم مثلما بدأ في غرفة أمام نافذة. وكأن شيئاً لم يتغير.

تبرز المشاهد سحر النهر وضخامته، لكنها تبعث على الحزن برؤية المياه المخيفة والسماء من دون أي شيء آخر، فقد غمرت قرى كانت موجودة في السابق. كأن وحش الفرات أصبح مسعوراً بدل أن يتم ترويضه. ابتلع السكان والأرض أمام أعين الجميع، من ضمنهم أميرالاي نفسه، ليسود إيقاع (الطبيعة) في تلك المساحة، إيقاع تدفق الزمن والقمع عبر الأجساد، إذ يظهر أحد السكان الذين كانوا من تلك القرى الممحية، تذكّر الخطوط العميقة على وجهه بمشاهد الجفاف في فيلي أميرالاي السابقين.

الزمن في هذا الفيلم أبطأ والإيقاع لا يتبع الآلة، هي غير موجودة خصوصاً أن الحكاية الرسمية تغيرت بعد وفاة حافظ الأسد وتسلم بشار الأسد السلطة. (التنوير) هو الأيديولوجيا الجديدة الآن، تلك التي تظهر عبر صور الكمبيوترات التي ما زالت في عليها، لم تُفتح بعد، تلك التكنولوجيا ذات الإيقاع المايكروبي، لا صوت لها، ولا أثر لها.

إذ يزور أميرالاي في هذا الفيلم المدرسة فقط، يستغني عن المؤسسات السابقة كلها، ويعود إلى دائرة (التربة الحزبية) الأولى، معتمداً على التناقض فمدير المدرسة هو ذاته رئيس الحلقة الحزبية (خلف الماشي) قريب النائب الخالد ذياب الماشي، وحارس صالة الكمبيوتر.

الوعد الجديد الذي قدمه بشار الأسد الممثل في (التنوير)، لا إيقاع سوى عبارات البعث وبلاغته التي يرددها الجميع، حتى مساحة الحرية السابقة أي الاحتجاج ومخاطبة الدولة، اختفت. لا يحمل أميرالاي هم أحد في هذا الشريط، بل إننا لا نرى السكان. المخرج هنا مستمع صامت، لا يطرح تساؤلات سوى لدفع الضيوف إلى الكلام.

ثامناً: فيلم ريم الغزي

(أضواء): الفرات مصدر للحياة، ولكن لمن؟

عملت ريم الغزي على منطقة اسمها جبل عرودة، على الضفة اليمنى من نهر الفرات، تابعت في هذا الفيلم عائلة تعيش على الصيد من النهر، تقدم في هذا الفيلم صورة أخرى لسكان منطقة الجزيرة تبدو أكثر عصرية، يبدو الفيلم كحوار بين تلك العائلة وريم، أو حوار بين الواقع والسينما، لا يتردد أفرادها بانتقاد الوضع المعيش ونقص الخدمات وما يريدون من متطلبات بسيطة. أصبح لهؤلاء القدرة على مقارنة أنفسهم بالآخرين من سكان المنطقة بسبب وصول الفضائيات إلى بعض المنازل، وسفر عدد من السكان للعمل في أماكن أخرى.

يصور الفيلم بفضاء العائلة (الفضاء الداخلي)، ونكتشف منذ بداية الفيلم تقصير السلطة في توفير متطلباته، لا كهرباء أو مياه جارية ولا ماكينات ولا براد أو تلفزيون أو مسجلة.

لقطات داكنة خلال المساء، فالضوء الوحيد هو ذلك المصباح الذي يعمل على الزيت ويستخدم أيضاً كموقد لطبخ الشاي.

يقوم إيقاع العمل على أساس العلاقة مع المكان والصيد وجمع الخردوات. لا وجود للتطوير أو التحديث، حتى أن الحركة والانتقال في أدنى مستوياتها. وهذا ما نراه في مشهد الأحذية البلاستيكية، في استعادة اللقطات أميرالاي عن الموضوع ذاته، ودلالة على ضعف الاستعداد والقدرة على التحرك

التي يفترض أن (البعث) قدم لها حلاً، فالانتقال بين المنزل والمدرسة والنهر وضمن القرية كله يحدث سيرًا على الأقدام، وكأن الفرد خارج الدولة (الحديثة) و(المتنورة)، عليه حرفيًا أن يعمل بأقل ما يمتلكه وضمن شروط قاسية من أجل النجاة والحفاظ على حياته.

تقدم ريم في هذا الفيلم تكريمًا لعمر أميرالاي، يبرز ذلك في الموضوع الذي اتخذته لفيلمها وكأنها تتابع ما بدأ وفي تشابه بوجهة النظر الناقدة. لكن هذا الفيلم لا يقدم تناقضات بين الخطاب والواقع، فقد تم التركيز على حياة الأشخاص من دون التوجه إلى الخطاب الرسمي، هو رحلة إلى تلك المنطقة المتجاهلة التي تبدو مجهولة أيضًا.

إلا أنها تتناول موضوعات كالمدرسة والأعمال اليومية، للتعريف بتلك المنطقة كتوثيق أنثروبولوجي. أخرجت ريم عدة أفلام توثيقية لمراحل معينة من سوريا خاصة منذ عام 2011 لتوثيق أحداث كان من غير الممكن توثيقها. لكن بعكس أميرالاي تقدم غزي المدرسة مثالاً كمكان يمكن للطلاب الهرب فيه من الواقع المعيش. كما أنها لا تقدم النهر على أنه وحش، هو مصدر حياة هؤلاء الأشخاص، حياة تملؤها شاعرية المكان وأصواته؛ إذ تُظهر اللقطات المتعاقبة حياة سكان جبل العرودة مع النهر. فهم يستخدمونه في كل جزء من حياتهم، يشربون منه ويصيدون أسماكهم ويسبحون فيه هربًا من الحر. هو من يقدم الحياة، وهو من يهتم بها، وهو ملاذهم الأخير.

بعد المقدمة العاتمة والانتقال إلى النهار لرؤية النهر، تأخذ الأوضاع المعيشية للنساء حيّزًا كبيرًا من الفيلم، أي بعد أن تحدّث الأب لمدة طويلة عن صعوبة الحياة، نتعرف إلى النساء وهن يقمن بمهماتهن على النهر وفي المنزل، بلقطات إما نصفية أو كاملة وسط الكادر لنفهم أن الفيلم ينتقل من جزء نقص الخدمات التعريفي إلى حياة النساء في ظل هذه الأوضاع.

نسمع صوت الأم وهي تجيب عن أسئلة المخرجة المتكررة، بعد الربع الأول من الفيلم، ثم نتعرف إلى الفتاة وما تعرفه وما تريده كمستقبل لذلك المكان. هناك مقارنات دائمة في الفيلم بين ما تقوم به المرأة وما يقوم به الرجل، وبخاصة أن أجوبة الذكور عن أسئلة المخرجة لم تعجبها درجة أنها حاولت التدخل بموضوعاتها بأسئلتها.

تحاول المخرجة إظهار التناقض بين وضع المرأة الدوني وفي الوقت نفسه سيطرتها على المكان وإمكاناتها على التحكم فيه فهي من يتدبر أمره أصلًا.

وتقديم المقاربات المتنوعة للمرأة مع الرجال بين تحميلهم جزءًا من المشكلات بسبب كسلهم وسوء إدارتهم، ثم تظهر العاملة على النهر بكل اجتهاد واهتمام وثقة. فهي من يتحمل مهمات الاهتمام

بالمنزّل ومتطلباته، وهي من يصيد ومن يهتم بالأولاد، تبدو قادرة على تدبر أمورهما، مقارنة بالرجال المتعبين والمثقلين بالفقر وقلة الحيلة.

يقوم إيقاع الأفراد في هذا الفيلم على العلاقة مع النهر، باختلاف الأدوار الجندريّة. لكنّ النهر الذي كان من المفترض أن يكون وحشاً لا بد من ترويضه منذ عقود، هو من يضبط إيقاع العمل، والتسلية، والانتقال. لا وجود للأثر السيادي في ترويضه، وكأنّ مشروع التحديث والتطوير في المنطقة كان محض ذكرى بعيدة، أو حدث على التلفزيون المفقود أصلاً ولا يمس الأفراد.

تاسعاً: الخاتمة والنتائج

لم تدرس هذه الأفلام المنطقة عبر تقسيماتها البسيطة أو التساؤلات الساذجة، بل حاولت الدخول إلى عمق تشكيلات منطقة الجزيرة من دون عدها مساحة خارج التاريخ الجمعي في سورية عبر تقديم الإنساني فيها وتعامل هذا الإنساني مع البيئة الصعبة أحياناً وتعايشه فيها.

إذ تبرز أفلام عمر أميرالاي كعرض للواقع في حينها في ظل تاريخ المنطقة الذي يفترض أميرالاي أنه واضح بالنسبة إلى المشاهد: أي يفترض أميرالاي أن المشاهد على دراية مثلاً بتاريخ المنطقة منذ بداية القرن العشرين والنمو السكاني فيها القائم بجزء منه على الهجرات من أماكن أخرى⁽³⁰⁾ على اعتبار أن هذا الأمر جزء من التاريخ السوري. في حين اتخذ فيلم ريم الغزي منحى الواقع الراهن وتحدياته القائمة، وركزت فيه على الجانب التاريخي من التعامل مع موضوع المرأة.

تحاول تلك الأفلام عرض العلاقات في تلك المنطقة في مستوى النظام البيئي (إيكو سيستم) المختزل فيها بالعائلة والعشيرة وإيقاعاته المتعددة ضمن التحديات المختلفة من الطبيعة إلى السلطات السيئة المتعاقبة إلى العادات الاجتماعية المتأثرة بالتجاذبات السياسية والاجتماعية والعقائدية. كما تركز على العلاقة مع التمثيل الرسمي والقوى المسيطرة بسبب تسليط الضوء على أحوال السكان المعيشية والأيدولوجية وصدقيتها.

يتضح من تلك المقاربات أن المنطقة الشرقية تقع ضمن علاقة متوترة مع سياسات التمثيل الرسمي وما تحويه من تهميش وصور نمطية وانعدام للصدقية وقمع وإهمال. وتكشف الأساليب

(30) في المشهد الأخير من الحياة اليومية لقرية سورية يقول الشيخ الذي مزق ثيابه من دون تكلف إننا وصلنا إلى هنا منذ العثماني ولن نتحرك ولن نترك أرضنا.

الجمالية السياسية التي حاولت هذه الأفلام أن تستعرضها التناقض ما بين الرسمي والمحلي وبين الخطاب الرسمي وما يعيشه السكان وتبنت إظهار هذا التناقض بكل أشكاله.

ما جعل الشريط الوثائقي لا يلعب فقط دورًا في كشف خصائص المنطقة وثقافتها المحلية، بل في تقديم جماليات مستقاة من المناحي الذاتية للمخرجين ليستعيد عبرها المهمشون أصواتهم المفقودة في ظل الخطاب الرسمي الرث.

ما سبق حرر الوثيقة الفيلمية من خصائصها الأنثروبولوجية وأكسبها بعدًا سياسيًا أتاح لسكان تلك المنطقة تمثيل ذواتهم (خارج الخطاب الرسمي)، وأتاحت هذه الأفلام مساحة من الحرية للمخرجين وللسكان ضمن السلطة القائمة وكأن تفاعل المخرجين أكسبهم الانتماء إلى المنطقة إن كان ذلك عبر الصورة أو عبر تدخلهم الصوتي خلال الفيلم.

للتوضيح، تظهر هذه الأفلام بحسب ما قال مخرجوها كعينة من سورية بكل ما تعنيه العينة الأنثروبولوجية من معنى، على الرغم من تحريرها من حالة الغرائبي التي تحيط بالأفلام الأنثروبولوجية، حيث تمكن المخرجون من تقديم صورة واضحة عن حياة السكان بكل مناحيها، لكنها كانت دائمًا حبيسة للخطاب الرسمي والقبلي وللأيديولوجيا القمعية والوعود الكاذبة والسلطات المتعاقبة مع أذيلها، ما كشف تقصير الدولة ودورها في (منع) السكان وتراب تلك المنطقة.

تحدثت أفلام وثائقية أخرى عن منطقة الجزيرة منها فيلم محمد الرومي أزرق رمادي 2005 والفيلم من مقتنيات مركز جورج بومبيدو للفن المعاصر في باريس، وفيلم كلام حريم 2006 لسامر البرقاوي وعدنان عودة، هذه الأفلام تناولت المنطقة بشكل نوستالجي أقرب إلى عرض عن المكان من دون محاكاته مع الواقع السياسي بشكل موضوعي.

قراءة في المشهد التشكيلي في منطقة الجزيرة السورية من جيل الريادة إلى جيل التأسيس

سهف عبد الرحمن⁽¹⁾

أولاً: مدخل

للحديث عن المشهد التشكيلي في الجزيرة السورية كان لا بد لي من التطرق إلى خصوصية البيئة الجغرافية والتنوع الثقافي هناك، حيث أرى أن للبيئة تأثيراً مهماً في تكوين اللوحة بدءاً من تدرجها من مفهوم التصوير والتسجيل الواقعي (المنظر الطبيعي والبورتريه ورصد وتصوير البيئة)، وصولاً إلى اللوحة الحديثة وصلاتها اللونية والبنوية مع مكان المنشأ، فاللوحة كفن مكاني مرتبط جذرياً بالمشهد البصري البيئي وتغيراته في الذاكرة العميقة.

في الفكر واللغة على السواء يبدأ الإنسان من المحسوس إلى المجرد، وعبر تأويله للمحسوسات يعطي الأشياء رموزاً وأسماء وصفات، ثم يربط بينها بعلاقات، لذا ترتبط الكلمة والصورة في أذهاننا منذ تشكل وعينا⁽²⁾.

إننا نرى ونشاهد قبل أن نعي، ولذلك ندرك ونجرد ما نحفظه في طفولتنا المبكرة وما يترسخ فيها من أحداث ووقائع نحفظها كصور، وترتبط ارتباطاً عضوياً مع المكان الذي حصل فيه الحدث، ومع تقدم الوقت يصبح المكان هو الدال والمفتاح الأساس لاسترجاع الحدث. الصورة، فما أن نوجد في مكان عشنا فيه ولو برهة من الزمن حتى تحضرنا مجموعة من الأحداث. الصور التي وقعت فيه، من هنا يشكل [المكان. البيئة] الفضاء الخاص الذي تتحرك ضمنه مفردات الذاكرة.

ويلعب (المكان. البيئة) دوراً مهماً في هوية الكائن البشري، وميوله، وحتى في بنية المخيال والتفكير، ويبدو تأثير (المكان. البيئة) في صناعة المشتركات البصرية لمجموعة بشرية أكثر أصالة وتأثيراً من

(1) فنان تشكيلي وناقد سوري.

(2) رفعة الجادري، دور المعمار في حياة الإنسان، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014)، ص44.

السرديات الاجتماعية المتوارثة، إذ تشكل الصور والمشاهد واللقطات التي يحتفظ بها الكائن بنيةً قبليةً فاعلةً في مشاعر الانتماء.

تقع الجزيرة في المنطقة الشمالية الشرقية من سورية (وهي المنطقة التي تقع بين نهري دجلة والفرات، والجزء الأوسط منها يشمل محافظات الحسكة والرقعة ودير الزور بحسب التقسيم الإداري لسورية اليوم).

تتمتع تلك المنطقة ببنية لونية خاصة تتدرج من الأزرق السماوي إلى الأوكر وتدرجاته وصولاً إلى البني، وتمتاز بإضاءةٍ صفراءٍ مائلة إلى الأبيض، وتؤثر الطبيعة المنبسطة والسهلية في طبيعة الضوء وانتشاره وشدته، فمن الأزرق السماوي وبيوت اللبن الطينية وسهول القمح الشقراء ولون التربة تتكون المجموعة اللونية في الجزيرة السورية.

تشكل الزراعة وتربية المواشي نمط الإنتاج الأساس والسائد عند سكان الجزيرة، وبعد منتصف القرن الماضي، وبداية اكتشاف النفط، بدأ ظهور نمط جديد من الإنتاج، ورافقت هذا النمط الجديد بعض المتغيرات في البنية الاقتصادية التي أثرت تأثيراً بسيطاً في البنية الاجتماعية التي شكلها نمط الإنتاج الزراعي.

يشكل نمط الإنتاج وتطور الأدوات عاملين مهمين في صياغة الهوية البصرية، إذ يؤثران في شكل العمران وصيغته وشكل الملبس وعناصر البيئة وأدواتها، وجد الآثاريون أن تطور الأدوات أدى إلى انفجار في الابتكارات الفنية من مثل الأشياء التي تتمثل في القواقع وخرز القلائد وتزيين العظام، ومن ثم منحوتات صغيرة⁽³⁾، ونستطيع أن نلاحظ تأثير نمط الإنتاج وتطور الأدوات في صوغ الهوية البصرية من خلال تاريخ فن الرسم من رسوم الكهوف في مرحلة الصيد إلى اللوحة المسندية، وانتقالها من مرحلة إلى أخرى مع تطور المجتمع، وتغير نمط الإنتاج فيه، حيث تزامن ظهور الحداثة الفنية مع الثورة الصناعية في أوروبا، وظهرت أنماط جديدة من التعبير والصياغات الشكلية والمدارس الفنية.

على صعيد الطبيعة السكانية والاجتماعية للمنطقة تعد منطقة الجزيرة من المناطق السورية الغنية بتشكيلاتها الإثنية من مثل الأكراد والعرب والأشور السريان والأرمن، والدينية من مثل الإسلام والمسيحية واليهود سابقاً.

أما الآشوريون فتعد منطقة الجزيرة من أهم مناطق وجودهم بعد أن نزحوا إليها من ماردين وديار

(3) كرم دولي، «السريان الآشوريون في سوريا»، مركز أبحاث ودراسات مينا، (2019)، <https://2u.pw/k4RWy>

بكر وأورفة ونصيبين وقرى ومناطق أخرى⁽⁴⁾.

كذلك تشكل الجزيرة السورية منطقة مهمة بالنسبة إلى الأكراد، إذ ترتفع نسبة وجودهم فيها عن باقي المناطق السورية، ولمجتمعهم هناك سماته الخاصة وثقافته المحلية.

ولهذا التنوع الإثني والديني أثر كبير في المرويات الاجتماعية والسرديات المكتوبة بشقيها الأدبي والسياسي، وله بعض الأثر في الهوية البصرية المتشكلة من البيئة الطبيعية ونمط الإنتاج في المنطقة.

عانت المنطقة سياسياً وإدارياً إهمالاً شديداً حتى بعد اكتشاف النفط الثقيل فيها الذي لم يسهم كثيراً في تطوير البنية التحتية والخدمات، ولم يغير من البنية الاقتصادية، إذ بقيت الزراعة المورد الأساس للسكان، ولكنه أسهم في جذب اهتمام السلطة إلى المنطقة، فعملت على إحكام سيطرتها عليها، وتضييق الهوامش الاجتماعية المتاحة، ومارست اضطهاداً ثقافياً على المكونات الإثنية الموجودة في الجزيرة، وحرمت عدداً من الجماعات الإثنية التحدث بلغتها، والاحتفال بأعيادها المحلية، وحاولت العبث في التركيبة الديموغرافية للمنطقة.

يقول الباحث محمد جمال باروت كان تعريف منطقة الجزيرة يتمّ دوماً منذ نهاية الأربعينيات بواسطة مفهوم الزراعة التي تشكل المصدر الأساس للنتاج المحلي الإجمالي السوري، لكن اكتشاف النفط الثقيل فيها بكميات تجارية أخذت تتنافس على استغلالها الشركات النفطية الأوروبية والأميركية المتوسطة في العام 1962 على وجه التحديد أضاف مصدراً ثانياً أساسياً لتعريفها، وهو تعريفها بواسطة أهمية النفط⁽⁵⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا الاستعراض الموجز ما أهمية الهوية البصرية في تلك المنطقة الغنية بمكوناتها الاجتماعية والثقافية؟ وما مفعولاتها في مجتمع يشكل فيه السرد والروي أساساً في الانتماء الاجتماعي والسياسي؟ ما الذي غلب على الخطاب البصري للوحة الجزراوية؛ السرديات السياسية والمرويات الاجتماعية والتاريخية أم أصالة المكان وخصوصيته البصرية؟

وأرى أنه إن كان للسرد الدور الأساس والظاهر في تشكل الانتماء الآني والهوية الموقته، فإن للعامل البصري الدور الفاعل في تكوين البنية العميقة للهوية والشعور بالانتماء، ومن هنا نستطيع

(4) محمد جمال باروت، «كيف نشأت مشكلة» أجنبية تركيا» في سورية؟: الإحصاء الاستثنائي في سورية وجروح الهوية الوطنية السورية»، موقع النداء لوموند ديبلوماسيك، (آب، 2009).

(5) محمد جمال باروت، «كيف نشأت مشكلة» أجنبية تركيا» في سورية؟: الإحصاء الاستثنائي في سورية وجروح الهوية الوطنية السورية»، موقع النداء لوموند ديبلوماسيك، (آب، 2009).

أن نفهم ماهية الحنين التي تصاحب المهاجر إلى قبره، حتى لو صار غريباً عن بيئته ومجتمعه الأصلي، إن للسرد طبيعية زمنية متغيرة، بينما للمشهد البصري طبيعة مكانية مستقرة وثابتة، قد تتغير السرديات مع تغير الأجيال وتعاقيها، ولكن تلك الإضاءة الساطعة على حقل الحنطة الشقراء ستبقى مستمرة جيلاً بعد جيل.

ثانياً: المشهد البصري في الجزيرة السورية ما قبل اللوحة المسندية (العمران والأزياء والفنون التطبيقية)

يقتصر المشهد البصري في منطقة الجزيرة السورية ما قبل ظهور اللوحة المسندية على الأزياء والعمران وبعض الفنون التطبيقية من مثل صناعة البسط الصوفية وأطباق القش والأواني الفخارية، إضافة إلى الحضور القوي للطبيعة بخصوصيتها وإضاءتها وألوانها المميزة. وتعرف الفنون التطبيقية بأنها جميع الفنون التي تشتمل على التصميم والديكور المتعلق بالأشياء اليومية والعملية بصورة أساس لجعلها ممتعة من الناحية الجمالية، ويُستخدَم مصطلح الفنون التطبيقية من أجل تمييزها من الفنون الجميلة، وتتداخل الفنون التطبيقية إلى حد كبير مع الفنون الزخرفية⁽⁶⁾. وتستخدم الفنون التطبيقية لتلبية مركب الحاجة الذي يعرف بأنه وعي الذات بمتطلبات وجودها، ويتألف مركب الحاجة من ثلاثة عناصر: النفسية والرمزية والإستيطيقية⁽⁷⁾، وعليه فهي ترتبط ارتباطاً عضوياً بالموثوث الثقافي للمنطقة من حيث طبيعة الأشكال الهندسية والرموز التي تستخدم في تزيين الأطباق والسجاد والملابس، ويمكن أن نلاحظ ذلك جلياً لو قارنا بين الأواني الأفريقية والأواني والأنسجة الشرق-آسيوية على سبيل المثال، يلعب نمط الإنتاج دوراً مهماً في الصياغة الشكلية العامة وطبيعة المواد المستخدمة، ففي المجتمعات الزراعية يغدو الطين وتشكيلاته في العمران والأبنية مادة مشتركة عند المجتمعات الزراعية أغلبها، وتشابه المواد الأولية في إنتاج المنسوجات، ويبقى الفارق الأساس هو شكل العناصر الزخرفية والصياغة الهندسية المستخدمة في تشكيل المنتج، وتزيينه، وتغدو بعض العناصر الزخرفية ذات دلالة ومضمون أبعد من مهمتها التزيينية، فهي في بعض الأحيان عناصر تجريدية تحمل في طياتها قوانين الماضي واختصاراته.

وتتشابه الأزياء في تلك المنطقة بالعموم، إذ يغلب عليها الطابع الفلاحي من غطاء الرأس والثوب الطويل بالنسبة إلى النساء، والشماغ والشروال والجلباب للرجال عند القبائل العربية، وبشم وبركين

(6) د.م. «أنواع الفنون التطبيقية»، موقع سطور، (2019)، <https://2u.pw/2xD3w>

(7) رفعة الجادري، دور المعمار في حضارة الإنسان، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014)، ص58.

وجمداني غطاء للرأس، وشوتك وهي قطعة قماش تلف على الوسط للرجال عند الأكراد، والدشداشة والثوب الطويل المزخرف بالعناصر النباتية التي تعتمد على الدائرة بصورة رئيسة للنساء.

أما عند السريان يعد زي (الخومالا) الأكثر انتشاراً بين النساء، ويتألف من الفستان الطويل صودرا، الصدر سنجق، الحزام كومارا، قبعة الرأس بوشية، قطعة الرقص يالخته. وتمتاز ملابس النساء بعناصر ورسومات زخرفية ذات طابع أسطوري، وكأنها معابد تاريخية مغرقة في القدم، وتتشابه في تصميمها المخروطي ورسومها مع الزقورات السومرية، ويرتدي الرجال أيضاً زي (الخومالا)، لكن بألوان وتصاميم وأقمشة مختلفة، واللافت للنظر هو المجموعة اللونية رائعة الاستخدام في الأزياء النسائية، حيث تستخدم الألوان الأساسية الأحمر والأزرق والأصفر بدرجات فاقعة وقوية، إضافةً إلى العناصر الزخرفية والرسومات، وكأننا أمام لوحة لهنري ماتيس أشهر فناني المدرسة الوحشية⁽⁸⁾، ولربما هذا الميل إلى الألوان القوية متعلق بطبيعة المنطقة الثقافية والإثنية، حيث لا نلاحظ هذه المجموعة اللونية في مناطق أخرى من سورية، ولربما الرغبة في التعبير القوي عن الذات المختلفة ثقافياً، والمهمشة أيضاً وراء تلك المجموعة اللونية، إذ تغدو هذه المجموعة اللونية أقوى حضوراً في الزي النسائي لدى الأكراد والسريان، وأقل حضوراً في الزي النسائي عند العشائر العربية.

أما بالنسبة إلى العمران، فيغلب على تلك المنطقة طابع عمراني متشابه ذو علاقة وثيقة مع نمط الإنتاج الزراعي وطبيعة المواد التي توفرها البيئة الطبيعية، إذ ينتشر نمط من البيوت الترابية المصنوعة من اللبن والقش والخشب، والمفتوحة على ساحة الدار، وذات شبابيك خشبية بسيطة الصنع مطلية إما بأزرق مخضر أو بأخضر غامق، وعلى الرغم من البساطة الشديدة للطابع العمراني إلا أنها مع باقي مفردات البيئة المحيطة تغدو لوحة ساحرة الجمال مكتملة العناصر من الإيقاع إلى السطح التصوري والبناء والهارموني اللوني.

حتى المشهد الداخلي في المنطقة منسجم مع المشهد الخارجي من أطباق القش إلى البسط الصوفية والأقمشة بألوانها الصارخة والقوية.

نستطيع مما سبق أن نحدد ملامح الذاكرة البصرية لسكان الجزيرة، وعناصرها التي شكلت بنية

(8) المدرسة الوحشية Fauvism اتجه في قام على التقاليد التي سبقتها، واهتم الوحشيون بالضوء المتجانس والبناء المسطح، فكانت سطوح ألوانهم تتألف من دون استخدام الظل والنور، أي من دون استخدام القيم اللونية، فقد اعتمدوا على الشدة اللونية بطبقة واحدة من اللون، ثم اعتمدت هذه المدرسة أسلوب التبسيط في التشكيل، فكانت أشبه بالرسم البدائي إلى حد ما، فقد عدت المدرسة الوحشية أن ما يزيد من تفاصيل عند رسم الأشكال إنما هو ضار بالعمل الفني، فقد صورت في أعمالهم صور الطبيعة بأشكال بسيطة، فكانت لصورهم صلة وثيقة من حيث التجريد أو التبسيط بالفن الإسلامي، وبخاصة أن رائد هذه المدرسة الفنان هنري ماتيس الذي استخدم عناصر زخرفية إسلامية في لوحاته مثل الأرابيسك، أي الزخرفة النباتية الإسلامية. للمزيد: <https://2u.pw/eJRLV>

قبليّة سابقة للوحة المسندية، حقول قمح شقراء، وإضاءة قوية، ونساء يلبسن أثواباً طويلة حمراء وزرقاء وصفراء، يتموجن مع حقول القمح تحت سماء زرقاء فاقعة، وبيوت ترابية بشبابيك خضر وزرق تغفو بجوار بعضها على أنغام الطنبور والناي، بينما يكمل الفرات قصيدته العابرة، وفي ما أظن يتشارك سكان الجزيرة السورية جميعهم هذا المشهد البصري أو جزءاً منه، ويشكل هذا المشهد عصب الحنين النابض في عوالم سكان الجزيرة السورية.

ثالثاً: المشهد البصري بعد وصول اللوحة المسندية

إن قصة الفن كلها ليست قصة تقدم في الكفاءة التقنية بل قصة تغيير في الأفكار والحاجات، ولربما التغير في حاجات سكان الجزيرة وأفكارهم استقطب اللوحة المسندية. كان من الصعب الوصول بدقة إلى زمن وكيفية وصول اللوحة المسندية إلى الجزيرة السورية، ولكن من الممكن الوصول إلى الجيل الذي كانت له الريادة في مجال اللوحة، والجيل الذي عمل على التأسيس لها في منطقة الجزيرة، ولكل مدينة في الجزيرة روادها، وتفاوت ظهور اللوحة المسندية في مدن الجزيرة من مدينة إلى أخرى، واختلف بحسب ظروف كل مدينة وعلاقاتها وامتداداتها الثقافية والاجتماعية.

1. جيل الريادة في مدينة الحسكة

أ. عبد الرحمن دريعي

يجمع فنانون الجزيرة أغلبهم على أن الرسام والموسيقي عبد الرحمن دريعي⁽⁹⁾ كان من أوائل الذين أدخلوا اللوحة المسندية إلى مدينة الحسكة، يقول الفنان عمر حمدي (مالفا) في أحد حواراته: ((قبل تخرجي من المعهد، بقليل، سكن في بيتنا، في الغرفة الثانية، بالإيجار، شاب في العشرينات، مع زوجته، قادمًا من عامودا، اسمه عبد الرحمن دريعي، كان يعزف على الناي مساءً، ويرسم في النهار، كان عبد الرحمن أول معلم لي في الرسم، كلما غاب عن البيت، وضعت حجرًا تحت قدمي، ونظرت عبر أسفل النافذة العريضة إلى لوحاته. مرة سمعته، يقول لوالدي: دع عمر وشأنه. دعه

(9) عبد الرحمن دريعي من مواليد عام 1938 م في قرية قزان بوك، انتقل إلى مدينة عامودا، ومن ثم درس في معهد إعداد المدرسين، أقام أول معرض له في مدينة الحسكة عام 1962، وتوفي في مدينة حلب عام 2001.

يرسم، سيأتي يوم ليتركه، حين يكبر⁽¹⁰⁾). لم يترك الفنان عبد الرحمن دريعي كثيرًا من الأعمال وراءه باستثناء بعض التخطيطات المرسومة بالقلم لوجوه نساء وعمل نحتي وضع في ساحة حي غويران في مدينة الحسكة، ما جعل من دراسة تجربته الفنية أمرًا صعبًا، ويبدو أن الموسيقى قد شغلت الفنان دريعي عن اللوحة، إذ اشتهر أيضًا عازفًا للناي، وله عدد من التسجيلات والحفلات.

ب. خلف الحسيني



تمتاز لوحاته بواقعية محلية حيث رصد في بعضها تفاصيل البيئة المحلية، وعالج موضوعات المدرسة الكلاسيكية من مثل الطبيعة الصامتة والپورتريه، وحاول إتقان صياغتها الشكلية أيضًا ضمن ما كان متاحًا في وقته. احترف الخط العربي، وأسس الجمعية الموسيقية في الحسكة، ودرّب كثيرين على الخط العربي.

يقول الفنان التشكيلي حسن حمدان العساف عنه ((الفنان الحسيني ينتهي إلى أسرة مهمة بالأدب والفن لديه من الإمكانيات الفنية والموسيقية الكثير حيث استطاع أن يلفت الأنظار بإبداعه وتواضعه وأخلاقه خلال فترة سريعة لافتًا إلى أن الراحل احترف فن الخط وكان مقصد كل من يبحث عن تخطيط محترف، كما ساهم في إنشاء الجمعية الفنية الموسيقية حيث تتلمذ على يديه الكثير

(10) د.م، «عبد الرحمن دريعي: تجربة إبداع وحياة (مشوار مع الفن والأدب والألم والفرح)»، موقع رونا هي، <https://2u.pw/snMYu>

من الفنانين الموجودين على الساحة الفنية حالياً تاركا أثراً فنياً كبيراً ومحبة صادقة في نفس كل من عرفه⁽¹¹⁾.

ج. صبري روفائيل



من جيل الريادة في تلك المنطقة الفنان صبري روفائيل، وهو من مواليد مدينة الحسكة عام 1935، للأسف لا يوجد كثير عنه سوى مجموعة من اللوحات التي تتضح فيها متانة أسلوبية في معالجة الموضوعات الكلاسيكية، ومن الصعب تحقيق أعماله، ودراستها دراسة دقيقة ضمن ما توافر عنه، ولكن نستطيع أن نميز من خلال لوحاته مرحلتين أساسيتين وهما: مرحلة البدايات التي ركز فيها الفنان على موضوعات المدرسة الكلاسيكية، وحاول معالجتها بطريقة تتوخى الأكاديمية، وتميزت تلك اللوحات من باقي لوحات معاصريه بأنها أكثر أكاديمية وأكثر احترافاً، أما بخصوص المرحلة الثانية في لوحاته فقد تميزت بالبحث الأسلوبية حيث سعى الفنان لهضم المدارس الحديثة في الفن، وحاول إيجاد صياغته البصرية الخاصة، ونلاحظ حضوراً قوياً للبنية الخطية والمستوحاة من المدرسة الوحشية، على الرغم من تباين البنية اللونية، حيث يستخدم الفنان مجموعة من الألوان

(11) ولد الفنان التشكيلي خلف الحسيني عام 1934 في ريف مدينة عامودا، وتوفي في منزله في مدينة القامشلي عام 2019، وهو فنان متعدد المواهب، إذ أجاد العزف على آلاتي العود والكمّان والغناء، ويعود له تأسيس أول مرسوم في مدينة الحسكة أواسط الستينيات، وقد تتلمذ على يده مجموعة من الفنانين. للمزيد: نزار حسن، «رحيل الفنان خلف الحسيني»، سانا، (2019). <https://2u.pw/a0Cj4>

الباردة وبعض الترابيات في لوحات تلك المرحلة، ويظهر في بعض أعماله أيضًا التأثر من حيث البناء بالأيقونات، وفيها محاولة لتبنيء الوجوه، وإعطائها طابعًا محليًا.

د. حنا الحائك



الفنان حنا حائك⁽¹²⁾ من الفنانين غزيري الإنتاج، اتسمت تجربته بالتجريب والبحث الفني. في لوحاته شفافية لونية تفضي إلى رومانسية حاملة، كتب عنه صبري يوسف في جريدة الزمان: ((حنًا الحائك فنّان تشكيلي معجون بشهوة الطّين، متعطّش إلى بهجة السّنابل وهي في أوج اخضرارها.

(12) ولد الفنان التشكيلي حنا الحائك في مدينة الحسكة السورية عام 1941، توفي عن عمر ناهز 79 عامًا في السويد، تخرّج في جامعة دمشق، قسم الدّراسات الفلسفيّة، اشتغل مدرّسًا لمادة التربية الفنيّة، ثمّ عُيّن مديراً في إعداديّات وثانويّات محافظة الحسكة، ثم انتقل إلى دمشق. سافر إلى مملكة السّويد في عام 1977، واستقر فيها، وعمل مدرّسًا للتربية الفنيّة. «أقام عددًا من المعارض الفردية والجماعيّة في سورّيّة، وهو عضو اتحاد الفنّانين في السّويد والدّول الاسكندنافيّة، وعضو الاتحاد العالمي للفنّانين.

يعدّ الفنّان حنا الحائك من الشّخصيّات النّشيطة فنّيًا، نال شهادات تقديرية عن المهرجانات الفنيّة الّتي اشترك فيها، وحصل على ميداليّة الفنّان العام لعام 1983، ونال جائزة إيكولوف الثّقافيّة عام 2000، وجائزة نغوم فائق الثّقافيّة.

تبرعمت في أعماقه منذ أن فتح عينيه على وجه الدنيا تلاوين الشمال، شمال الرُّوح، وشمال القلب، حيث معاول الأجداد، ورائحة حضارة معرّشة في أعماق الجذور، تنضج من كلّ الجهات، فتشرب من ينابيع متعدّدة، حتّى سطع لونه معانقاً ضياء نُجيمات الصّباح⁽¹³⁾.

نستطيع أن نميّز في أعمال الفنان مرحلتين أساسيتين وهما: المرحلة التعبيرية التي تعود على الأرجح إلى ما قبل هجرة الفنان، والمرحلة التجريدية التي أنجزها في مغتربه بالسويد.

عالج الفنان في المرحلة التعبيرية موضوعات تخص المرويات السريانية، وتجسد قصصاً لأحداث تاريخية، ويتضح في لوحاته بهذه المرحلة هاجس الهوية والانتماء، ويميل الخطاب في لوحات هذه المرحلة إلى الخطاب الأدبي، فعلى الرغم من مهارة الفنان مصوراً إلا أن قوة الموضوع وإصراره على تجسيده انعكسا في طبيعة الخطاب فيها، فأصبح الشكل الفني خادماً للخطاب، ووسيلة لإيصاله.

أما في المرحلة التجريدية، فقد تخلص الفنان تماماً من عبء الموضوع، واتجه إلى المغامرة مع اللون والبناء والسطح التصويري، واعتمد في بناء لوحته على الزوايا الحادة والمنفرجة والخطوط المتقاطعة متجنباً الزوايا القائمة والبناء التقليدي الأيقوني، يبدو الإيقاع في لوحته التجريدية إيقاعاً شاعرياً بطيئاً خالياً من الرتابة، يساعده في ذلك أسلوب التلوين ومنهجه، إذ يستخدم طبقات لونية عدة مبتعداً عن الأسطح اللونية الصريحة والقوية، استعمل الفنان مجموعة الألوان الباردة مع قليل من المساحات اللونية الحارة والمتضادة معها، وأرى من خلال ما وصل من تجربة الفنان أننا أمام تجربة فنية رائدة ومكتملة، وأننا أمام فنان ليس من جيل الريادة فقط ولكنه من الجيل المؤسس للوحة أيضاً.

2. جيل التأسيس

وأعني به الفنانين الذين اشتغلوا بمنهجية وعلمية لترسيخ اللوحة في المشهد الثقافي السوري، ولتغيير موقعها من حالة حرفية تزيينية إلى جزء من تعبيرات المشهد الثقافي، ومن ثم حاولوا تأصيلها وتغيير دورها واشتغالها.

(13) صبري يوسف، «في تجربة الفنان التشكيلي حنا الحائك»، موقع الزمان، (2013)، <https://2u.pw/6liAF>

أ. برصوم برصوما



تمثل تجربة الفنان برصوم برصوما⁽¹⁴⁾ مثالاً عن السرد التاريخي وتأثيره في البنية الدرامية للوحة وخطابها البصري، ويتجسد في أعماله هاجس الهوية وسؤالها في كل تفصيل من لوحته. يقول عنه الكاتب حسين بن حمزة: ((... أعمال برصوم برصوما الذي يستثمر تراث أسلافه الكلدانيين في إنجاز شخوص ووجوه باذخة وممتلئة بالزخارف والنقوش))⁽¹⁵⁾.

(14) الفنان برصوم برصوما من مواليد مدينة الحسكة 1947، درس في كلية الفنون الجميلة، وتخرج في قسم التصوير عام 1977، عمل خبيراً في الزخرفة والترميم لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق، درس في معهد إعداد المدرسين - قسم الرسم كذلك في مركز الفنون التشكيلية في مدينة الحسكة، له عدد من المعارض خارج سورية وداخلها، وهو عضو في اتحاد التشكيليين السوريين واتحاد التشكيليين العرب.

(15) حسين بن حمزة، «تجارب منسية في المحترف السوري»، جريدة الأخبار، (2012)،

يقول الفنان عن بداياته في إحدى حواراته: ((بعيدة هي البدايات.. وإنما أذكر اهتمام الآخر.. في البيت.. في المدرسة بما كنت أرسم، أو أعبر.. وكنت محظوظاً بتواجد مدرسي مادة الفن، فهم يملكون تجربتهم الغنية في الفن وفي التعليم.. وفي التوجيه لما ينبغي عمله لتعميق تجربة العمل.. ومن هؤلاء الأساتذة الفنانين حنا الحائك ورشيد شما))⁽¹⁶⁾.

في الموضوع والخطاب البصري يبدو أن تأثر الفنان بالسرديات التاريخية والمرويات الأشورية طغى على موضوعات أعماله، حيث تغدو شخوص لوحاته قادمة من مراحل تاريخية سحيقة، ويغدو عامل الزمن ضبابياً، فلا يستطيع الناظر أن يحدد إلى أي مرحلة زمنية تعود هذه اللوحات، فضلاً على أن شخوصه في حالة حركة دائمة، حركة هامسة تشي بحدث ما أو بقصة ما، ما يضيف عليها طابعاً درامياً يتناسب مع البعد السردى الميثولوجي الذي حاول الفنان تجسيده، وكما أظن فإن التأثير السردى في خطاب اللوحة أضعف خطابها البصري، فتقدم مفهوم الإيضاح والإيصال في اللوحة على مفهوم التواصل.

في الشكل والصياغة البصرية اعتمد الفنان في معالجة موضوعاته وصياغتها بصرياً على فن المنمنمات المونتور باحثاً عن صياغة شكلية تخدم الموضوع والخطاب، واستغرق في إنجاز التفاصيل الصغيرة والتجويد في رسمها، ما جعل اللوحة أقرب إلى الصياغة الزخرفية، تتنوع مجموعة الفنان اللونية، ويغدو اللون وظيفياً في خدمة الشكل والعناصر الزخرفية، يعتمد الفنان في صياغة الإيقاع على حركة الخطوط المنحنية التي تحدد الشخصيات، وتجسدها، فيغدو الإيقاع هامساً ومتناغماً، ما يضيف على أعماله طابعاً رومانسياً حالمًا.

(16) حسن حمدان العساف، «حوار مع الفنان برصوم برصوما»، ديوان العرب، (2007)، <https://2u.pw/VMvTe>

ب. بشار العيسى



يقول عنه الناقد فاروق اليوسف في جريدة العرب اللندنية: ((العيسى يخلق من خلال فنه انسجامًا بين متناقضات لكي يخلص في النهاية إلى قدرة الفن على صناعة الأمل. ما من رسام سوري شغف بالطبيعة مثله لذلك لا تخلو لوحة من لوحاته من أثرٍ لها))⁽¹⁷⁾.

في الموضوع والخطاب البصري على الرغم من الاكتناز المعرفي الذي يتميز به العيسى⁽¹⁸⁾، واتساع اهتماماته، إلا أن هذا الاكتناز لم يُجل خطاب اللوحة البصري إلى سرد أيديولوجي أو أدبي بل حافظت لوحته على ماهيتها ومجال اشتغالها ونوعية خطابها، ويعود هذا إلى قدرة الفنان على هضم الثقافة، وإعادة إنتاجها خطابًا بصريًا واعيًا وجوانيًا غير متكلف، نستطيع أن نقسم لوحة الفنان على صعيد الخطاب البصري إلى قسمين: الكائن . الإنسان والكينونة . المكان، إن معظم كائنات لوحة الفنان وشخصه من النساء، ولكنه يعالج الأنوثة بوصفها الطبقة التي تختزن كل خسارات الكائن البشري، وبوصفها الطبقة التي تدفع ثمن تلك الخسارات، ويغدو ذلك جليًا من خلال تركيز الفنان في لوحته

(17) فاروق يوسف، «بشار العيسى رسام بشر تائهين في حقول شقائهم»، جريدة العرب اللندنية، (11.10.2020).

(18) ولد الفنان في قرية الغنامية بريف مدينة الدراسة في مدينة الحسكة عام 1950، درس في دار المعلمين، ودرس في كلية الآداب - قسم التاريخ، وتخصص في التاريخ العثماني، وعمل في إدارة تحرير مجلة المنبر الثقافية السياسية الصادرة من باريس. ما بين عامي 1987 و1992. للمزيد: د.م، الفنان بشار عيسى، موسوعة جياي كرامنج، <https://2u.pw/jbyhg>

على الزيّ والوجه، وعدم تركيزه على مفهوم الجسد الأنثوي، إذ يبتعد في لوحته عن السائد الجمالي، ليذهب إلى الوظيفة العضوية والفاعلة للخطاب البصري في المجتمع والثقافة، وبهذا يحدد الشريحة التي ينوي مخاطبتها والتواصل معها، أمّا عن المكان. الكينونة، فتغدو الطبيعة حاضرة دوماً في خلفية أعماله بوصفها بيئة حاضنة وهوية شديدة الحضور أنه يرسم الكائنات على جدران طفولته التي ما تزال حاضرة في وجدانه، في لوحته انحياز حقيقي للهامشيين لضعفاء الأرض وللأضعف دوماً، ومن ذلك المكان الذي احتضنه صغيراً إلى كل بقعة على هذه الأرض بضعفاءها وهامشيتها.

أما على صعيد الشكل والصياغة يعتمد الفنان في بناء بعض لوحاته على الخطوط الأفقية التي تتصل اتصالاً مباشراً مع بيئته حيث يأخذ من ريف الحسكة امتداداته الأفقية وانحناءاته اللينة، وهذا البناء يغدو ثابتاً في لوحاته معظمها، على الرغم من ميل الفنان إلى التجريب في بعض اللوحات، والخروج عن البناء المألوف، ويتضح التجريب لديه على صعيد السطح اللوني والعجينة اللونية، إذ ينتقل في كثير من الأحيان من عجينة لونية إلى أخرى، على الرغم من تعلقه بمجموعة الألوان الترابية واشتقاقاته، وحتى حين يميل إلى استخدام بعض الألوان الحارة، فإنه يخفف من حرارتها، ويلطف وصول موجاتها إلى عين المتلقي، لتغدو نوعاً من التحريض

البصري. يتمتع السطح اللوني عند الفنان بقفلة قوية لا تترك مجالاً لضربة ريشة أخرى، إذ يجيد إنهاء سطوحه اللونية بطريقة محكمة، أما بالنسبة إلى الإيقاع يعتمد الفنان في بعض لوحاته على الإيقاع البطيء الهادئ من خلال استخدام الخطوط المنحنية اللينة الأفقية، وتنوع الفترات بينها، فكلما اتجه بالبناء إلى الأعلى، ضاقت الفترات، لتعطي طابعاً تصاعدياً للإيقاع، وبعداً ثالثاً لعين الناظر، على الرغم من تعامل الفنان مع بعدين فقط، وهنا تظهر حرفيته بالقبض على عين الناظر، وقدرته على إيهامه، وفي لوحات أخرى يلجأ الفنان إلى نثر بعض الكتل متباينة الحجم على الخلفية، معطياً اللوحة إيقاعاً بصرياً غير منتظم وغير رتيب، يتجنب الفنان لعبة منتصف اللوحة التي تتيح خياراً سهلاً للتوازن، فيلجأ نادراً إلى توسيط كائناته، ويجيد لعبة التوازن من دون اللجوء إلى خيار التوسيط، اللافت في أعمال الفنان هو الوحدة والعلاقة الجدلية بين الصياغة والخطاب، فيكاد الناظر لا يعرف من أنتج من، أو إنهما ولدا في اللحظة نفسها ومن الضرورة ذاتها.

ج. عمر حمدي (مالفا)

تعد تجربة الفنان عمر حمدي⁽¹⁹⁾ من التجارب الفنية المهمة على صعيد التجريب اللوني والمهارة

(19) عمر حمدي فنان تشكيلي كردي سوري ولد عام 1951 في قرية "تل نايف" التابعة للحسكة، والواقعة أقصى الشمال الشرقي من سورية. مارس الفن منذ الطفولة، ودرسه في ما بعد دراسة خاصة، وعين مدرساً للفنون في سورية عام 1970. ثم عمل رساماً وجرافيكياً في الصحف وفي مديرية الكتب المدرسية في سورية 1971-1978. بعد ذلك سافر إلى فيينا عام 1978، ظل مقيماً في النمسا حتى وفاته في عام 2015، كتب في النقد الفني، وله محاولات شعرية. صدر عدد من المطبوعات والكتب المصورة عن أعماله. وهو عضو في الاتحاد العام للفنانين النمساويين واليونسكو، وكذلك عضو في الكونستيلر هاوس في فيينا. يترأس لجنة التحكيم في غاليري آرت فوروم للفن الدولي المعاصر بفيينا عاصمة في النمسا. للمزيد: <https://2u.pw/aeya3>

الفنية والقدرة العفوية للحوار المباشر مع سطح اللوحة.

على صعيد الموضوع والخطاب البصري لم يعطِ الفنان كثيرًا من الاهتمام لموضوعاته، وحرص على ترك تلك المساحة تلقائية خاضعة لرغبته وميوله، لذلك نجد تنوعًا لا منهجيًا في موضوعاته، فقد رسم الطبيعة والطبيعة الصامتة كما رسم البورتريه والجسد الإنساني، واتجه في مراحل متقدمة إلى الاستغناء الكامل عن الموضوع حيث قدم عددًا من الأعمال التجريدية، ويظهر في بعض أعماله التي تجسد الإنسان ميلًا إلى إضفاء هوية ما على موضوع اللوحة من خلال معالجة الشخصيات والوجوه المحلية القابعة عميقًا في ذاكرة الفنان، والتي تحمل في تضاريسها تعب الحصادين وأناشيد البيادر الشقراء.

على صعيد الشكل والصياغة يغدو اللون ومنهج التلوين هما العنصران الأكثر أهمية لدى الفنان في صياغة لوحاته، فالعناصر الباقية كلها ناتج منهجية التلوين، ويرتكز الفنان في عفويته في التعامل مع العمل الفني على إمكاناته العالية رسامًا، فعلى الرغم من تلك العفوية نادرًا أن تجد عند الفنان خطأ تشريحيًا في الوجه أو الجسد، علاوة على أنه يتقن لعبة الضوء بشكل مميز واحترافي. اعتمد في منهجية التلوين والصياغة على المدرسة الانطباعية، وتنوعت مجموعته اللونية لتشمل كل الطيف اللوني من البارد إلى الحار والترابيات والرماديات، اهتم بالعلاقات الهارمونية بين الألوان، ما جعل عمله أقرب إلى الموسيقى، فهو يلون كما لو أنه يعزف عزفًا منفردًا بلا نوتة، سوى تلك التي تنبعث من عواطفه لحظة الرسم على صعيد الإيقاع، لا نستطيع أن نلاحظ بدقة تعامل الفنان مع الإيقاع البصري بوصفه وحدات وفترات إلا من خلال تناوب الضربات اللونية وتناغمها بين الحار والبارد، حيث تشكل إيقاعًا هارمونيًا راقصًا وتصاعديًا.

شكلت تجربة الفنان بوصفه ملونًا بارعًا ورسامًا ماهرًا ظاهرة لونية تأتّى صداها في عدد من التجارب التشكيلية الشابة، وشغلت بعض الدارسين ونقاد الفن في الشرق.

د. يوسف عبد لكي



تنوعت تجربة الفنان يوسف عبد لكي⁽²⁰⁾ على صعيد الموضوع والخطاب البصري وعلى صعيد الشكل والصياغة، ومرت بمراحل عدة، وما يجمع تلك المراحل المتنوعة هو إخلاص الفنان الأكاديمي لفن الحفر موضوعيًا، والتجريب على صعيد الشكل والتقنية.

على صعيد الموضوع والخطاب البصري في مجموعاته الأولى كرس الفنان أعماله في تجسيد الوجه الوحشي والمستبد للكائن البشري، فنشاهد كائنات تفيض بالجشع، كائنات غير أليفة وقاسية، وقد عمل الفنان على مفهوم القبح لا بقصد تكريسه، بل بقصد توضيحه وتشكيل موقف مضاد منه عند المتلقي، وكان جليًا في تلك المرحلة أثر المفهوم السياسي في خطاب اللوحة البصري إلا أن فن الحفر بطبيعته نشأته ومهامه يستطيع أن يحمل خطابًا مزدوجًا، ونستطيع أن نلاحظ ذلك جليًا في المجموعة الجغرافية المسماة (النزوات) للفنان الإسباني فرانثيسكو غويا.

في مجموعاته الأخرى ينتقل الفنان من تجسيد القبح في الكائن البشري إلى تجسيد ضحايا القبح والكائنات التي سبب حياتها قبح الآخر. السلطة، فخر في أحد أعماله امرأة تحمل صورة لشاب يتشج وجهها بحزن صامت عميق، وفي مظهرها هوية طبقية وانتماء واضح لشريحة الضعفاء.

ينتقل الفنان في مجموعاته الأخرى إلى أنسنة الكائنات والأشياء، فتارة يحمل خطابه على صهوة حصان، وتارة عصفور وتارة حذاء نسائي فارغ، ما يجمع كل تلك الأعمال على صعيد الخطاب البصري هو الشريحة التي يحاول الفنان إيصال خطابه إليها، وهي الشريحة نفسها التي يستهدفها الفنان بشار العيسى في لوحاته؛ شريحة المهمشين والضعفاء.

على صعيد الشكل والصياغة يلجأ الفنان في بناء عمله الجغرافيكي إلى الطبقات المترابطة التي يشف بعضها عن بعضها الآخر، ويغدو خيار منتصف اللوحة خيارًا دائمًا عند الفنان في إقامة التوازن، حيث تتركز عناصر العمل، وتغدو الخلفيات عنده خدمية من الممكن الاستغناء عنها، ولا تقف عين الناظر عندها مطلقًا، قلما نجد في أعمال الفنان الحديثة منها تأليقًا بصريًا بمعنى مزاجية العناصر في بناء اللوحة لإيصال الخطاب بل يعتمد على تفجير مفرداته من داخلها لتكون الخطاب والموضوع، وليكون الجدل والحوار مع الناظر، وليس مع عناصر من داخل اللوحة. أعمال الفنان معظمها منفذة بأسلوب جغرافيكي، ولكن ليس بتقنية الحفر المطبوع، إذ أعمال الفنان معظمها تقنية جغرافيكية

(20) ولد الفنان يوسف عبد لكي في مدينة القامشلي عام 1951، وحصل على إجازة في كلية الفنون الجميلة بدمشق عام 1976، ودبلوم حفر من المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في باريس عام 1986، ثم الدكتوراه في جامعة باريس الثامنة عام 1989. يعد يوسف عبد لكي اليوم من أشهر فناني الحفر عند العرب، وأبرز فناني الجغرافيك وتصميم الملصقات والأغلفة والشعارات، ويعد أيضًا من الفنانين المهمين في مجال الكاريكاتير. صدرت له دراسات عدة في الكاريكاتير العربي. للمزيد راجع: د.م، «شخصيات عربية الفنان يوسف عبد لكي»، موقع من هم: دليل الشخصيات العربية، <https://2u.pw/G61t2>

بالحبر أو الفحم مباشر على اللوحة. أظن أن تجربة الفنان يوسف عبد لكي شكلت علامة فارقة في الغرافيك العربي، وأنه قدم للمشهد التشكيلي العربي مشروعاً كاملاً وتجربة ثرة.

ثمة عدد من الأسماء التي أسهمت في التأسيس للمشهد التشكيلي في الجزيرة السورية من مثل الفنان عمر حسيب، وهو من مواليد مدينة الحسكة 1951، توفي عام 1998م. وقد تميز بصدقه الفني وجدية تعامله مع اللوحة، وكذلك الفنان فؤاد كمو، وهو من مواليد مدينة الحسكة عام 1951، ويعيش في ألمانيا، ويحمل الفنان ذاكرة خصبة وثرة، إذ ربطته علاقات مع العاملين في الوسط الثقافي جميعهم من شعراء وكتاب وفنانين، ويختزن كثيراً من الذكريات والأحداث عن تلك البرهة الزمنية. والفنان خليل عبد القادر وهو من مواليد مدينة الحسكة عام 1955، ويقوم في ألمانيا منذ ثلاثة عقود، عرف الفنان بغزارة إنتاجه، وكان مرسمه في مدينة الحسكة ملتقى لكثير من الفنانين والمواهب الشابة، وما زال يتابع عمله الآن في ألمانيا ساخراً من لعبة الحياة. والفنان سرور العلواني، وهو من مواليد مدينة القامشلي عام 1959.

لم ينقطع الفيض البصري من الحسكة منذ جيل الريادة إلى الآن، ولم تزل ترفد المشهد التشكيلي بعدد من التجارب والأسماء، فبعد جيل التأسيس تابع فنانون الحسكة اشتغالهم وبحثهم، وبرز عدد من الأسماء من مثل زهير حسيب وبشير الأنصاري وأحمد الأنصاري وعبد السلام عبد الله وخضر عبد الكريم ورشيد حسو، واستمرت المشروعات التشكيلية في الجيل اللاحق، لتبرز أسماء وتجارب جديدة من مثل سمر دريبي وعدنان عبد الرحمن وعمران يونس وعبد الكريم مجدل بيك ولقمان أحمد وعادل داوود وإبراهيم حسو وخديجة بكر وجيهان عبد الرحمن وآخرين.

أما مدينة دير الزور، فقد شهدت مبكراً دخول اللوحة المسندية على يد مجموعة من الرواد الأوائل في أواسط العشرينيات من القرن المنصرم، ومن هؤلاء الفنانين الفنان محمد الضلي والشاعر محمد الفراتي الذي كان رساماً ومدرساً للتربية الفنية في المدينة، كذلك الفنان إسماعيل حسني والفنان محمد ناجي عبيد. وبعد مرسوم الفنان الجزائري محمود جلال بلحاج أول مرسوم يفتتح بالمدينة عام 1947، وقد أسهم في تمكين وتشجيع كثير من المواهب في المدينة، وفي عام 1952 افتتح الفنان خالد الفراتي مرسماً في المدينة، ولم يستمر إلا سنة واحدة فقط⁽²¹⁾.

وأظن أن لقرب المدينة من العراق أثراً واضحاً في وصول اللوحة المسندية إليها قبل مدن الجزيرة السورية الأخرى، إذ أسس المعهد العراقي للفنون الجميلة عام 1936، وكان العراق قد عرف اللوحة

(21) غسان الشيخ الخفاجي، «الفن التشكيلي والتطبيقي في مدينة دير الزور خلال مئة عام»، موقع حضارة وتراث دير الزور،

<https://www.deirez-zor.com/>

المسندية من بدايات القرن، وكان أن أرسلت الحكومة عددًا من الموفدين لتعلم أصول الرسم في الدول الأوروبية من مثل الفنان فائق حسن ومجموعة أخرى من أبناء جيله، ففي حين تأخر ظهور اللوحة في مدينة الحسكة إلى أواسط الستينيات، وصلت إلى دير الزور في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي.

3. جيل الريادة في دير الزور

أ. إسماعيل حسني



يقول طاهر البني عن تجربة الفنان إسماعيل حسني⁽²²⁾: ((مهما يكن من أمر فإن الفنان „إسماعيل

(22) ولد الفنان إسماعيل حسني في مدينة رأس العين عام 1920، انتقل مع أسرته إلى حلب حيث درس فيها، وفي المرحلة الثانوية تتلمذ على يد الفنان منيب النقشبندى. أوفد الفنان عام 1952 لدراسة الفنون الجميلة في روما، وتخرج في قسم الخزف، وتابع دراسته في التمثيل والإخراج المسرحي. عاد إلى سورية عام 1956 ليدرس الفنون في مدارس دير الزور وثانوياتها. انتقل لاحقًا إلى مدينة حلب، واستقر فيها، لرأس مكتب نقابة الفنانين، ويؤسس مركزًا للفنون الجميلة أسماه (فتحي محمد) حيث بقي مديرًا له حتى عام

حسني" كان يعالج موضوعاته المستمدة من الطبيعة برؤية انطباعية تظهر نزوعه نحو استخدام الألوان بلمسات انفعالية تضيف على الأشكال إحساساً مفعماً بالعاطفة الإنسانية الصادقة التي تؤكد حضوره وخصوصيته في عدد من اللوحات التي صور فيها مشاهد من ريف "حلب" ودير الزور وجبال اللاذقية⁽²³⁾.

نستطيع مما بقي من لوحاته ومما وصلنا منها أن نلاحظ المرحلة الواقعية التي بدأت بعد تخرجه واشتغل فيها الفنان على موضوعات المدرسة الكلاسيكية من مثل البورتريه والمنظر الطبيعي. وفي المنظر الطبيعي كان الفنان أكثر إخلاصاً للقيم الأكاديمية لفن التصوير، بينما تأرجحت البورتريهات التي أنجزها بين الكلاسيكية والانطباعية. وفي البورتريه الذي رسمه الفنان للكاتب وليد إخلاصي نستطيع أن نلاحظ القلق الأسلوب في إنجازه حيث نلمس تناقضاً أسلوبياً في فرش اللون ما بين الموضوع والخلفية، وأسهم استخدام اللون الأبيض في تغيير الهوية اللونية للألوان، والتأثير في أصل اللون وقيمته، بينما في لوحته (المرأة) التي يصور فيها الفنان امرأة بشكل أمامي، تغدو المعالجة قوية وواحدة، ولا يوجد فيها أي مشكلات تشريحية، ويميل أسلوب الفنان فيها إلى المعالجة الانطباعية من حيث فرش اللون وضربات الريشة وإيقاعها.

أما في ما وصلنا من أعماله التي خرج فيها عن المدرسة الكلاسيكية، وبدأ فيها الفنان في البحث عن أسلوبه الخاص، اعتمد الفنان على البنية الخطية، واستخدم الخط المنحني في البناء، واستفاد من دراسته بقسم الزخرفة إذ تغدو خطوطه المنحنية مأخوذة من العناصر الزخرفية الإسلامية.

1965. توفي عام 1980 م. للمزيد راجع:

د.م، الفنان إسماعيل حسني: فنان فراتي بنكهة عالمية، موقع هنا دير الزور، <https://2u.pw/VrjRI>

(23) طاهر البني، مطالعات في التصوير السوري، (دمشق: الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة السورية، 2011)، ص 5.

ب. محمد ناجي عبيد



تتميز أعمال الفنان محمد ناجي عبيد⁽²⁴⁾ بخصوصية أسلوبية عالية، وقد ترك بصمته المميزة وأثر أسلوبه في عدد من الفنانين.

على صعيد الموضوع والخطاب البصري حاول الفنان رصد البيئة المحلية، واستقى موضوعاته منها، في محاولة لإيجاد هوية فنية خاصة عبر تبني الشكل والموضوع، ولا شك في أنه نجح إلى حد كبير، فما أن تصادف لوحة له حتى تنتقل معها إلى دير الزور والموشى بالكحل العربي والمطرز بالفرات.

على صعيد الشكل والصياغة يستقي الفنان خلفيات لوحاته من التراث البصري في دير الزور، إذ

(24) ولد الفنان العبيد عام 1918 في مدينة دير الزور، عمل الفنان في مجالات عدة من مثل الصحافة وتدريس الموسيقى والخط العربي قبل أن يتفرغ في النهاية للرسم، ترك الفنان رصيذاً كبيراً من الأعمال الفنية، إذ يعد من الفنانين الجادين والمؤسسين الأوائل لنقابة الفنون الجميلة، إذ يحمل البطاقة رقم 4 بعد الفنانين عفيف بهنسي ونعيم إسماعيل وممدوح قشلان، وهو كذلك مؤسس لنقابة الفنون التشكيلية بدير الزور وعضو في اتحاد التشكيليين العرب وعضو في جمعية أصدقاء الفن بدمشق، توفي عام 2019. للمزيد: بطرس المعري، «محمد ناجي عبيد: مثنوية الفنان صاحب البطاقة رقم أربعة»، العربي الجديد وضافة ثالثة.

تغدو الخلفيات منسوجة وكأنها قطعة من البسط الصوفية البدوية ومن أطباق القش التي تعتمد بشكل أساس على المثلث والخط المستقيم في إنشاء العنصر الزخرفي، والتي تتقاطع بصرياً مع الفن الأفريقي من حيث الطابع الفطري. من حيث البناء لم يعط الفنان أهمية كبرى لبناء لوحته، إذ ترك البناء لعفوية أدت إلى عشوائية منفلتة في الإيقاع، في أعمال الفنان أغلبها نجد سطحين تصويريين فقط هما الخلفية التي يعالجها الفنان بحساسية خشنة أقرب إلى ملمس الصوف وإحساسه، أما الوجوه فعالجها بنعومة وتأنٍ. استخدم الفنان في لوحاته معظمها مجموعة من الألوان الترابية من الأوكر متدرجاً إلى البني الغامق، بالإضافة إلى أنه استخدم في بعض اللوحات اللون الذهبي.

أما على صعيد الموضوع والخطاب البصري ركز الفنان في أعماله معظمها على الوجوه النسائية ذات الطابع المحلي، وعمد في كثير منها إلى إخفاء نظرة العينين، ورسمها من دون تفاصيل باللون الأسود مما أضفى على موضوعاته مسحة تعبيرية، وقد أولى الفنان اهتماماً بالشكل والصياغة أكثر من اهتمامه بالموضوع، ما جعل لوحته تنوس ما بين مفهوم الزخرفة ومفهوم التصوير.

ج. خالد الفراتي



على صعيد الموضوع والخطاب البصري عالج الفنان خالد الفراتي⁽²⁵⁾ بما وصل إلينا من لوحاته موضوعات البيئة والطبيعة والنشاط الإنساني، وغلبت على لوحاته مسحة شاعرية رومانسية، تجنب الفنان الحداثة والتجريب في لوحاته، وحافظ على موضوعات تخص بيئته المحيطة باحثاً من خلال الموضوع عن هوية اللوحة وضرورتها واشتغالها في البيئة والمجتمع، بقي خطاب لوحته البصري بعيداً عن الأيديولوجيا والسرديات السائدة، وحافظ الفنان على خطاب جمالي ذي صبغة رومانسية في أعماله.

على صعيد الشكل والصياغة امتاز أسلوب الفنان بالشاعرية والنعومة في معالجة السطح اللوني، واستخدم مجموعة الألوان الترابية والباردة، ولم يعتمد الفنان على الخط بوصفه عنصراً مستقلاً، بل بوصفه الحد الفاصل بين سطحين لونيين، أعطى أسلوب الفنان الشاعري للمعالجة رومانسية للموضوع ودرامية هادئة وجذابة للوحة.

د. عبد الجبار ناصيف



(25) ولد الفنان «خالد الفراتي» ابن الشاعر السوري محمد الفراتي في مدينة دير الزور عام 1925، درس الفن في أكاديمية روما، وحصل على دبلوم في الخزف ودبلوم في الحفر على الخشب. عمل مدرساً للتربية الفنية في مدينته دير الزور، وموجهاً اختصاصياً لمدة عشرين عاماً عن المحافظات الشرقية «دير الزور» - «الرقعة» - «الحسكة»، حصل على جوائز عدة، شارك في معارض فنية عدة في سورية وإيطاليا، لم يغادر مدينته منذ أن عاد من إيطاليا، وتوفي فيها. للمزيد: إسماعيل نجم، «الفنان خالد الفراتي: الحركة الإيقاعية الفراتية للفن التشكيلي»، إي سيريا، <https://2u.pw/fkTZm>

على صعيد الموضوع والخطاب البصري اهتم الفنان عبد الجبار ناصيف⁽²⁶⁾ في لوحاته معظمها بموضوعات المدرسة الكلاسيكية، فعالج الطبيعة والبيئة المحلية والبورتريه، ونسخ عددًا من

لوحات الاستشراق. في بعض لوحاته زواج الفنان بين البورتريه الأنثوي والخلفيات الزخرفية محاولاً الوصول إلى صيغة تعبيرية تتجاوز المفهومات الكلاسيكية، ولكنها لم تثمر بالشكل المطلوب، إذ بقيت في مجال التعبير المبسطة، فلم يستطيع تفجير الطاقة التعبيرية في الوجه، أما المنظر الطبيعي فقد تأرجح بين الكلاسيك والانطباعية.

على صعيد الشكل والصبغة البصرية اهتم الفنان بالصباغة الكلاسيكية في بعض لوحاته، فنجد في البورتريهات التي أنجزها حرصاً على التشريح والإضاءة ونعومة السطح اللوني، بينما تجاوز هذا في صباغة خلفيات اللوحة، حيث نجد ضربات واضحة للفرشاة ومنهجاً تلوينياً أقرب إلى المنهج الانطباعي، أما بالنسبة إلى المجموعة اللونية استخدم الفنان مجموعة الألوان الباردة والترابية، وقلما تعامل مع مجموعة الألوان الحارة، تغدو الطبيعة أقرب إلى ذات الفنان، وهو يجيد التعامل مع المنظر الطبيعي، وله لمسة دافئة في معالجته.

(26) الفنان من مواليد دير الزور عام 1946، خريج كلية الفنون الجميلة بدمشق عام 1981. أقام أول معرض فني له في دير الزور عام 1965، وأقام معارض فردية وجماعية عدة، وهو عضو نقابة الفنون الجميلة وعضو اتحاد الفنانين التشكيليين العرب. عمل مدرساً للتربية الفنية والزخرفة في ثانويات دير الزور، وشغل منصب المفتش التربوي للفنون والرسم بمديرية تربية دير الزور لسنوات طويلة. للمزيد راجع:

د.م، «عبد الجبار ناصيف: صاحب أول مرسوم في دير الزور»، موقع هنا دير الزور، <https://2u.pw/2dPHU>

هـ. هشام رمضان



على صعيد الموضوع والخطاب البصري في ما وصلنا من لوحات الفنان هشام رمضان⁽²⁷⁾ نجد اهتماماً بالطبيعة والنشاط الإنساني فيها، وتغلب على الأعمال البيئة الفراتية، فما إن تشاهد العمل، تحدد منطقته الجغرافية، ويبدو أن هاجس البيئة والهوية حاضرًا بقوة في لوحاته واشتغاله الفني، فلجأ الفنان إلى تصوير المشاهد التي تحمل عناصر وهوية البيئة الفراتية من الزي النسائي إلى البيوت الطينية.

(27) من مواليد دير الزور 1947، ومن مؤسسي نادي الفنون. أقام أول معرض له في المدينة عام 1967 بعنوان (الخريف)، وقد احتوى على خمسين عملاً، منها خمسة عشر عملاً مائياً. درس أهلية تعليم، وتخرج معلمًا درس في ريف المدينة. انتقل الفنان في بداية السبعينيات إلى دمشق حيث قُبل في كلية الفنون الجميلة، ثم تخرج منها 1975، وعاد إلى مدينته مدرّسًا. توفي عام 1994. للمزيد: أصف شويع، «هاشم رمضان: الفنان الذي رسم بروحه وريشته»، موقع إي سيريا، (2009)، <https://2u.pw/H8dnl>.

على صعيد الشكل والصياغة كان الفنان مخلصًا للمدرسة الانطباعية في معالجة اللوحة، ويغدو ذلك جليًا في منهج التلوين وضربات الفرشاة الواضحة والإضاءة. استخدم الفنان مجموعة الألوان الباردة والترابية، وكان ماهرًا في التعامل مع الظلال واستخدام الأبيض من دون أن يؤثر في قيمة اللون وأصله في لوحته. ألونه حية، فقد أخذ من المدرسة الكلاسيكية أناقة اللون وهويته الواضحة، وأخذ من المدرسة الانطباعية منهج التلوين والإضاءة، تغدو الوحدة الأسلوبية في أعماله ناضجة ومستقرة، إذ لا يلحظ تضاد أو شذوذ في علاقة الشكل والصياغة مع الخطاب والموضوع.

و. إبراهيم حميد



في الموضوع والخطاب البصري تجربة الفنان إبراهيم حميد⁽²⁸⁾ غنية، وفيها بحث فني دأب الفنان على العمل عليه لسنوات، حيث تركز أعمال الفنان معظمها على مشروع الهوية البصرية، ويغلب عليها هاجس إنتاج لوحة بمفردات وخصوصية محلية ضمن إطار الحدائق الفنية، إن التأكيد على الهوية الذي مارسه الفنان أثمر بإنتاج عمل فراتي بروح ميثولوجية، عالج الفنان الوجه الأنثوي،

(28) ولد في مدينة البوكمال التابعة لمحافظة دير الزور عام 1959، درس في كلية الفنون الجميلة بدمشق، وتخرج فيها عام 1986. عضو في جمعية الفنانين العرب، أقام عددًا من المعارض في سورية وخارجها، وشارك في عدد من المعارض الجماعية، يقيم حاليًا في دولة الإمارات العربية، ويعمل فيها. للمزيد: ريم السيد، إبراهيم حميد في الخانجي، إي سيريا، (2008)، <https://2u.pw/GiGKT>

وحوّره، واختزله مقارِبًا الفهم والصياغة اللذين اختزل فيهما الفنان السوري فاتح المدرس وجوهه، وقدم من خلال هذا الاختزال خطابًا بصريًا قادمًا من الماضي البعيد، ومفتوحًا على اللحظة الراهنة، لا يستهدف الفنان شريحة بعينها بخطابه البصري بقدر ما هو مهجوس بالبحث الفني وسؤال الهوية والخصوصية، إن الزمان المفتوح على القديم الميثولوجي في عمل الفنان لم يحرر المكان في اللوحة بل بقي المكان محددًا أسير الهوية والبيئة. قدم الفنان في بعض أعماله رؤية جديدة لأساطير ما بين النهرين، ففي لوحته عشتار لا يذهب الفنان لتأكيد الخصوصية من خلال تضخيم الأنوثة - كما جرت العادة - بل يعتمد على تكرار العيون، لتغدو عشتاره بعيون كثيرة وجوه تتماهى مع الخلفية، كذلك في لوحته (جلجامش) يعالج الفنان شخصية جلجامش بعيدًا عن منطق الإله. البطل، إذ يصوّر الجانب الآخر لجلجامش، جلجامش الباحث المصاب بقلق الوجود وسؤاله، ويغدو تعدد العيون في الجانب الأيسر من وجه جلجامش تمثيلًا للجانب العقلي والفكري لديه، بينما العين واحدة فقط في الجانب اليميني لوجهه، والذي يمثل السلطة والقوة.

على صعيد الشكل والصياغة يعتني الفنان بعناصر لوحته، وبخاصة بناء اللوحة، ونلاحظ قوة البنية الخطية بنيةً قبلية على اللون، ويستخدم الأشكال الهندسية في بناء اللوحة ومعمارها حيث نجد المستطيل والمربع وحدة هندسية أساسية في معمار اللوحة، ويغدو الإيقاع البصري ناتجًا طبيعيًا للبناء والمعمار حيث يغدو الإيقاع منتظمًا وقويًا، وفي بعض الأحيان رتيبًا ولكنه مضبوط يقود عين الناظر في غالب اللوحات إلى بؤرة اللوحة، أما بالنسبة إلى السطح التصويري، فلا يغيب عن الفنان المعالجة المتنوعة والمختلفة للسطح، لتنتقل العين من سطح إلى آخر بمن دون ملل وبمتعة. ونلاحظ في بعض السطوح معالجات غرافيكية تعطي متانة وتماسكًا للوحة. يميل الفنان إلى مجموعة الألوان الترابية والباردة، وتغدو هذه المجموعة منسجمة مع ما يطرحه الفنان وطبيعة خطابه البصري، لا يميل الفنان إلى التلوين، إذ إن اللون هو حالة وظيفية في لوحته، وليس غاية وهدفًا، ثمة جدل عالٍ بين موضوع اللوحة وخطابها عند الفنان وصياغتها البصرية، فلوحته استمرار للفن التدمري شكليًا ولتاريخ بلاد ما بين النهرين موضوعيًا.

لم تزل التجربة التشكيلية في مدينة دير الزور حبلًا بالمشروعات كما لم تزل حبلًا بتاريخ غني وخصب، ولم تزل ترفد المشهد التشكيلي بعدد من الأسماء والتجارب كعبد الزهان وجمعة الزهان وأكرم سفان وأحمد صبحي الخلف وغسان عكل وخالد الساعي وصفاء فتيح وبتول الضلي وماري روز سعيد، وتطول القائمة، وما يزال الفرات يرفد الأرض خصبًا وزينفونًا.

4. جيل الريادة في مدينة الرقة

شهدت الرقة مبكراً عدداً من التجارب الفنية التي بقيت في إطار التجارب الشخصية، ولم تتحول تلك التجارب إلى ظواهر أو تجمعات فنية، وكما ورد، فإن أول من مارس الرسم في مدينة الرقة كان سامي سعدية وتوقان الحاج باكو وحسن مصطفى العبيد البليل وأحمد فائز الفواز واسماعيل الحمود البليل، ولم تنقطع الحركة التشكيلية على صعيد الأفراد، وتأخر تمأسسها إلى الخمسينيات، وربما يعود ذلك إلى تأخر ظهور المدارس، وقلة المواد اللازمة لإنتاج اللوحة، إضافة إلى النمو البطيء للمدينة وخصوصيتها بوصفها حاضرة زراعية، وارتباط مفهوم العمران فيها بالمهمة الوظيفية التي تؤديها في تلك المنطقة.

شهدت الرقة أول معرض في عام 1964 للفنان محمود فياض في استوديو كوكو، وهو من مواليد مدينة حلب عام 1937، ومارس الفن منذ عام 1956، وشارك في عدد من المعارض، وفي العام 1966 شهدت الرقة أول معرض مدرسي عرضت فيه أعمال لطلاب برنار محفوظ الذي كان أول مدرس للفنون في الرقة⁽²⁹⁾.

وهكذا في منتصف ستينيات القرن المنصرم بدأت الحركة التشكيلية بشكل منظم، إذ توافد عدد من الفنانين إلى المدينة، وأسهموا في تكوين مشهدها التشكيلي.

للأسف ما بقي من لوحات الرواد وما وصلنا منها لا يتيحان لنا على الإطلاق تقديم قراءة حقيقية فيها، لذلك سنكتفي بقراءة أعمال بعض فناني جيل التأسيس وما تلاه من الأجيال الشابة.

(29) عبد الكريم الأسعد، «أول معرض فن تشكيلي في مدينة الرقة»، التاريخ السوري المعاصر، <https://2u.pw/f6ozd>

5. جيل التأسيس في مدينة الرقة

أ. عنايت عطار



على صعيد الموضوع والخطاب البصري شغلت المرأة الأنثى. عالم الفنان عنايت عطار⁽³⁰⁾، فكانت موضوعه الأكثر حضوراً الذي استحوذ على فضاء لوحته، وكانت مشروع خطابه البصري، عالج الفنان المرأة بوصفها كائنًا جماليًا لا كائنًا اجتماعيًا يرتبط بمجموعة من العلاقات، ويشتبك مع المجتمع والتاريخ، ولا بوصفها كائنًا عاطفيًا يحب ويحزن ويتألم، بل بوصفها كائنًا أثريًا قوامها الريح وخطاها قوس قزح، لم يعتمد الفنان إلى إضفاء أي هوية على المرأة في لوحاته لا من خلال الأزياء، ولا من خلال تعابير الوجه، إذ يعد الفنان الأنوثة هوية مطلقة من غير الجائز طبعها بطابع ما أو تبيئتها،

(30) ولد الفنان في منطقة عفرين التابعة لمحافظة حلب عام 1948، انتقل إلى مدينة الرقة عام 1970، أسهم مع فنانين آخرين بتأسيس (تجمع فنان الرقة)، أقام الفنان أول معرض فردي له في مدينة الرقة عام 1981، سافر إلى فرنسا في منتصف الثمانينيات، وما يزال مستقرًا فيها. بير رستم، «عنايت عطار»، <https://2u.pw/Rv58I>

المرأة في لوحة الفنان هي انتصار لمفهوم الأنثى. الآلهة، والأنوثة في جوهرها لديه هي الجمال المطلق.

على صعيد الأسلوب والصياغة البصرية تغدو لوحة الفنان شلاً من الألوان المتدفقة من الجسد الأنثوي باتجاه عين الناظر، واللون في لوحة الفنان العنصر الأساس، وينتج عن حركته باقي عناصر اللوحة، فالإيقاع في اللوحة ناتج من تناوب الألوان الباردة والحارة، إذ لا يعتمد على الخط في صياغة بناء اللوحة وإقامة الإيقاع، وتنوع مجموعة الفنان اللونية، إذ ينتقل بسلاسة بين البارد والحار، ويغدو الأبيض وسيطاً لونياً للعلاقات المتضادة والمتعاكسة، يستخدم الفنان المنهج الانطباعي في التلوين، إذ لا يميل إلى العجينة والمساحة اللونية، تتمتع لوحة الفنان بوحدة أسلوبية من الموضوع إلى الخلفية وعناصر اللوحة كافة من حيث المعالجة، يوهم الهارموني اللوني العالي الناظر بالعمق والبعد الثالث من دون أن ينتجه، إن لوحة الفنان قصيدة لونية متدفقة على جسد أنثوي.

ب. محمد صفوت



على صعيد الموضوع والخطاب البصري لم يعطِ الفنان محمد صفوت⁽³¹⁾ بالأهمية بالموضوع ومشروعية الخطاب البصري وأهدافه بقدر ما اهتم بالتقنية وعملية الرسم وإنتاج اللوحة، من هنا نجد تركيز الفنان على البورتريه بقيمه التصويرية الكلاسيكية لا بقيمه التعبيرية أو الحداثوية، ربما يعود ذلك إلى إتقانه رسم البورتريه، وعدم الرغبة في الخوض بمفاهيم الحداثة الفنية والتجريب، وما يترتب عليها كمغامرة من احتمال الفشل والنجاح، ونجد في لوحاته إخلاصاً لقيم التصوير الكلاسيكي، إذ يقدم محمد صفوت مفهوم المصور الرسام على مفهوم الفنان، ويؤكد من خلال موضوعاته الخطاب الجمالي التقليدي للوحة، وحتى مغامرته الانطباعية في تصوير المنظر الطبيعي كانت حذرة ومتأنية.

على صعيد الشكل والصبغة يبدو أن الشكل رزح تحت وطأة مفهوم الفن عند الفنان، ولا يمكن التحديد بدقة من أنتج من الشكل، وهاجس الصباغة الكلاسيكية أنتج الموضوع والخطاب البصري التقليدي أم العكس. في لوحات البورتريه يميل الفنان إلى مجموعة الألوان الترابية الهادئة مع تنوع في نوعية الإضاءة ولونها وشدتها، ويظهر الأزرق بدرجاته الباردة في الخلفية أحياناً، يتقن الفنان المحافظة على المسافة الحيادية بينه وبين موضوعه، فنادرًا ما نلاحظ دخول ذات الفنان في صباغة اللوحة، لا من حيث اللون، ولا من حيث البنية الخطية، يلتزم الفنان بمعايير المدرسة الكلاسيكية تمامًا في تصويره، وتقدم تجربته نموذجًا مهمًا عن مفهوم المصور بمعايير كلاسيكية أنيقة وصارمة.

(31) ولد الفنان التشكيلي محمد صفوت في مدينة حلب عام 1949، درس الفن دراسة خاصة، وتخصص بالتصوير الزيتي، وهو عضو بنقابة الفنون الجميلة في حلب، وعضو باتحاد الفنانين التشكيليين العرب، متميز في رسم الوجه الإنساني (البورتريه)، انتقل إلى مدينة الرقة عام 1972، ليسهم مع زملائه من الفنانين التشكيليين من أبناء الرقة في تأسيس (تجمع فناني الرقة) في عام 1967، أقام أول معرض له في عام 1970، له تسعة معارض فردية حتى الآن، وشارك في عدد من المعارض الجماعية داخل القطر العربي السوري وخارجه. للمزيد:

فراس الهكار، «شيخ البورتريه محمد صفوت: اتحاد التشكيليين السوريين لافتة فقط»، قلم رصاص، <https://2u.pw/TAc2s>

ج. عبد الحميد الفياض



على صعيد الموضوع والخطاب البصري من الملاحظ في لوحات الفنان عبد الحميد الفياض⁽³²⁾ حضور الهم الإنساني في موضوعاته، إذ دأب الفنان على تصوير الكائن البشري بوصفه غاية الخطاب البصري، وهدفه الأسمى. يعالج الفنان الكائن البشري بوصفه كينونة قائمة على مفهوم النوع لا على مفهوم الهوية السردية وتجلياتها، فالكائن البشري في لوحته صالح لكل زمان ومكان، وقضيته هي ذاتها منذ خروجه من الكهف منتصباً على قدميه إلى اليوم، قد تشاهده منفرداً في لوحة ما، وتشاهده بين مجاميع نوعه في لوحة أخرى، وذلك لا يغير من طبيعة المفهوم الذي ينطلق منه الفنان، وهو وحدة النوع البشري ووحدة آلام البشر والتحديات التي تواجهها، ويستخف الفنان بتلك المحاولات للتصنيف الطبقي والهوياتي ضمن النوع الواحد من خلال تصوير الكائن عارياً، فالدكتاتور في لوحته يساوي بصرياً الكائن البشري الضعيف، إنها سخرية وجودية عميقة من وهم القوة والسيطرة، وتلك العوالم الغريزية التي شوهت مسيرة الإنسان، وعرقلت قدرته على عيش هذه البرهة الزمنية على كوكب الأرض آمناً ومستقراً، يسخر عبد الحميد فياض بمرارة من الوعي والتاريخ، وكمبشر يقول للمتلقي: هذا الآن حاول أن تتغير، فالحياة في الضفة الأخرى.

(32) من مواليد الرقة عام 1953 تخرج في كلية الفنون الجميلة - قسم الحفر بجامعة دمشق عام 1983، مارس النشاط الفني منذ عام 1970، وأقام معارض فردية، وشارك في عدد من المعارض الجماعية، وعمل في تدريس الفن بالمعاهد والجامعات الخاصة وكلية الفنون الجميلة، متفرغ للعمل الفني حالياً. للمزيد: دم، «الفنان السوري عبد الحميد فياض»، منتديات مجلة أقلام الثقافية،

على صعيد الشكل والصياغة تتمتع لوحة الفنان بخصوصية شكلية فرضتها خصوصية المفهوم والخطاب البصري الناضج في داخل الفنان الذي أنتج صياغة شكلية خاصة، فمن حيث المجموعة اللونية، تغدو مجموعة الفنان متنوعة وغنية، وهي تشكل الفضاء العاطفي للموضوع، فتارة نرى الفنان يستخدم مجموعة الألوان الحارة، ويحضر الأحمر بدرجاته بقوة في كثير من اللوحات، وتارة يذهب الفنان إلى تحديات الأخضر، إذ يحاول الفنان قتل حياده وبروده من خلال استعمال درجات معينة مشبعة بالإضاءة، أما على صعيد البناء، فنلاحظ أن لوحة الفنان قائمة على بناء خطي في البداية، ومن ثم يقوم بعملية التلوين والصياغة، يستخدم الفنان المنهج الحديث في التلوين وصناعة السطح، إذ يهتم بالحركة الداخلية في السطح اللوني التي تصنعها حركة الريشة في اتجاهات عدة، أما الإيقاع، فلا يركن الفنان إلى إيقاع واحد في لوحاته بل تتعدد أشكال الإيقاعات ونوعها، ففي بعضها يجنح الفنان لإنشاء إيقاعات منتظمة من خلال تكرار الوحدات والفترات وانتظامها وأحياناً يجنح الفنان للإيقاعات الحرة التي تفرضها الضربات اللونية وحركة الفرشاة، الوحدة الأسلوبية متماسكة وقائمة بين كل عناصر اللوحة، فالفنان يعالج الموضوع بالأسلوب نفسه الذي يعالج فيه باقي عناصر اللوحة.

في مشروع الفنان نلاحظ جلياً قوة الخلفية المعرفية والنظرية الكامنة وراء العمل، وتماسكها، ما يضفي على طبيعة المشروع صيغة رسولية واضحة، وخطاباً بصرياً عميقاً وصادقاً أنتج أشكاله، وتخلق عن صياغات بصرية خاصة.

ثمة عدد من التجارب والأسماء في الرقة من مثل أيمن الناصر وياسين الجدوع ومصطفى سليمان وموسى الرمو، ويوجد تجارب شابة أيضاً ما زالت في طور البحث والتجريب، ولا ندري أي وعي جديد وأي تجارب نضجت في وطأة النار التي التهمت المدينة بعد أن ثارت.

رابعاً: الخاتمة

شكلت التجربة التشكيلية في الجزيرة السورية رافداً مهماً للتجربة التشكيلية في عموم سورية، وإن تأثرت بعض التجارب فيها بالسرديات القومية والتاريخية والأيدولوجيا، إلا أنها اتسمت بالبحث الفني الجاد كما نلاحظ الحضور القوي للتعبير في اللوحة، وابتعاد الفنانين في الجزيرة السورية معظمهم عن التجريد، إذ انحصرت تجاربهم ما بين الواقعية والانطباعية والتعبيرية، وغلب سؤال الهوية على خطاب اللوحة، وكان له حضور قوي. وعلى الرغم من التنوع الثقافي واختلاف السرديات

التاريخية وسؤال الهوية حافظت اللوحة على المشتركات الشكلية والمستمدة من خصوصية البيئة من مثل البنية اللونية والتكوين والعناصر، والسؤال الذي يطرح نفسه في ما لو دخل المشهد التشكيلي في الجزيرة السورية مرحلة التجريد: هل سنلمس فروقات الهوية السردية أم سينتصر المكان بخصوصيته اللونية والشكلية؟

على الرغم من مرور قرن من الزمن على قدوم اللوحة المسندية إلى سورية، لم تزل إلى اليوم تصارع لدخول الحياة الثقافية والاجتماعية كضرورة على الرغم من افتقادها الصيرورة التاريخية، ولم تزل تحاول أن تنحت لنفسها موقعاً في الواقع الاجتماعي والاقتصادي في واقع يطوف على بنية سردية لها طابع الأفقون على العقل الجمعي، هذا العقل الحكائي الذي يفضل أن يصغي لوقائع سحرية وللمتخيل الاجتماعي على أن يعيش الواقع الحسي، ويتلمسه، ويراه، ويفكر بإيجاد المخارج والحلول لأزماته. ضمن هذه المعطيات الشائكة والمعقدة تعيش اللوحة تحدياً كبيراً بوصفها إنتاجاً مادياً محسوساً يحمل بعداً عقلائياً، ويحفز التحليل والاستقراء، ويحمل بعداً عاطفياً وقيميّاً، يطرح أسئلة عميقة على عالم القيمة الجمالي والأخلاقي، فهل تجد حيزاً لاشتغالها أو ستبقى فائضاً جمالياً تتسول جدران محدثي النعمة، لتجد لنفسها مبيتاً بعيداً عن تلك المخازن الرطبة للمؤسسات الثقافية الرسمية في ظل حالة عامة ترى الفن مجرد بطالة والفنان كائنًا حالمًا عاطلاً عن العمل، أسئلة متروكة لحركة الواقع والتاريخ في مجتمعات ما يزال أفرادها تحت وطأة الحاجات الأساسية للبقاء العضوي، مجتمعات قلقها الوجودي هو ما تحت الإنساني بأميال كثيرة.

وهل تعيد الثورة التي اشتعلت في أنحاء سورية كافة البصر والبصيرة للجيل الشاب الذي عايش الأحداث، ورأها بعينه، وذاق مرارتها، إن الثورة في أحد وجوها انتصار للحسي المعيش على السردى والمتخيل، فكل مرويّات المجتمع وسرديات التاريخ لا تضيف شيئاً لرجل عاشها وصنعها. كانت اللوحة عبر تاريخها أداة تعبير وشاهدًا حسيّاً صادقاً على الحدث، تختصر وتختزن وتبوح بطريقة تحترم عقل الإنسان وعواطفه، اللوحة لا تجيش، ولا تستثير الغرائز الضالة في عمق الكائن، إنها تحاور طويلاً، وتبوح همساً، وتستهدف الروح البشرية القلقة لتهددها، لم يزل مجتمعنا الشرقي بعيداً عن تلقي خطابها والتفاعل معها، وحتى اللوحة المشرقية لم تزل تبحث عن خطابها في مجتمع المسموع فيه أكثر يقيناً من المرئي، وأقرب إلى قلب أفرادها.

تنبيه وشكر

في منهج تحليل اللوحات ودراستها كان الاعتماد على كتاب عبد الفتاح رياض (التكوين في الفنون التشكيلية)، وما فيه من عناصر أساس في تكوين اللوحة، وأود أن أشكر كلاً من الفنانين بشار العيسى وفؤاد كمو وخضر عبد الكريم ولقمان أحمد لما زودوني به من معلومات، وللحوار الغني الذي أسهم في إغناء البحث، وذلك لقلّة المصادر والمراجع أو ندرتها في ما يخص تاريخ الفن التشكيلي في الجزيرة السورية.

المصادر والمراجع

1. البني. طاهر، مطالعات في التصوير السوري، (دمشق: الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة السورية، 2011).
2. الجادرجي. رفعة، دور المعمار في حضارة الإنسان، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014).
3. دعدوش. أحمد، قوة الصورة، (د.م: دار ناشري ودار السبيل، 2015).
4. رياض. عبد الفتاح، التكوين في الفنون التشكيلية، ط5، (بيروت: دار النهضة، 2000).
5. غومبرتش. إرنست، قصة الفن، عارف حديفة (مترجمًا)، (البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار، د.ت).
6. مايرز. برنارد، الفنون التشكيلية وكيف نتذوقها، سعد المنصوري ومسعد القاضي (مترجمان)، (الرياض: مكتبة النهضة المصرية ودار الزهراء، د.ت).



آثار الجزيرة السورية: الواقع و آفاق المستقبل

فاروق إسماعيل⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

تُعدّ مناطق (الجزيرة السورية) من أغنى مناطق الشرق القديم بآثار مراحل العصرين البرونزي والحديدي (الآلاف الثلاثة ق.م). وقد لفت ذلك أنظار الباحثين منذ زمن مبكر، فبدأت التنقيبات الأثرية فيها منذ أواخر الحكم العثماني، وازدادت، ونشطت نشاطاً مثيراً للانتباه منذ سبعينيات القرن الماضي، إذ سمحت الجهات السورية الرسمية (وزارة الثقافة - المديرية العامة للآثار والمتاحف) لعشرات البعثات الأجنبية بالتنقيب في شتى أرجاء سورية، وخاصة في الجزيرة السورية. وقد أسفر ذلك عن اكتشاف مدن عدة لعبت دوراً مهماً في التاريخ السياسي لبلاد الرافدين، ووُجدت في مبانيها الرسمية والشعبية شواهد أثرية متنوعة على أنماط الحياة الاجتماعية، وأوضاع الحياة الاقتصادية، وطبيعة المعتقدات الدينية، ما يسهم في فهم التاريخ الحضاري.

إنها آثار شعوب عدة تجاوزت في المنطقة ضمن أطر ممالك أو إمارات، وتعايشت بسلام أحياناً، وتحالفت، وتصارعت أحياناً، وأبرزها: الحوريون والأموريون والآراميون.

يعتمد البحث على المنهج الوصفي في عرض صورة عن الوضع الأثري في الجزيرة السورية، ويهدف هذا إلى تقديم مختصر عن تاريخ التنقيب الأثري، ثم وصف تعريفي لأهم المواقع الأثرية ومكتشفاتها المادية (العمرانية، الفنية وغيرهما) والكتابية، ومن ثم تصنيفها ضمن السياقات التاريخية، وبيان أهميتها. ويتناول وضع المواقع الأثرية خلال عشر سنوات من الحرب السورية بين 2011-2021، وما أصابها من تخريب ودمار، ويبين الآمال المعقودة على المستقبل لتحسين الوضع الأثري في البلاد.

إن أبرز ما كشف عنه البحث هو أن الجهات المعنية لم تؤهل خلال بضعة عقود من النشاط الأثري الأجنبي في المنطقة بعثة أثرية وطنية واحدة متكاملة يمكن أن تقوم بمفردها بالتنقيب وفق منهج

(1) أكاديمي وباحث سوري، أستاذ فقه اللغات السامية وحضارات الشرق القديم في جامعة برلين الحرة.

علمي حديث، ولذلك اقتصرَت الإنجازات السورية القليلة على جهد أفراد من الباحثين. وقد أدى ذلك إلى أن الاهتمام بالبحث في التاريخ والآثار القديمة، ظل ضمن إطار نظري محض اقتصر على ترجمة التقارير الأثرية ومختارات من المنشورات الأجنبية، ومن ثم التأليف اعتماداً عليها، وهو أمر لا ضير منه، لكنه غير كاف، وأدى بمرور الزمن إلى أن كثيرين من المختصين والهواة راحوا يفسرون ويحللون المعطيات الأثرية والتاريخية على هواهم تحليلاً يتناغم مع المشاعر بعيداً عن الأسس العلمية.

ثانياً: مصطلح (الجزيرة السورية)

إن استخدام مصطلح (الجزيرة) تسمية للمناطق المحصورة بين نهري دجلة والفرات قديم، وهو مختصر من (الجزيرة الفراتية) المعروفة في كتب البلدانين العرب من مثل ابن خلكان والقلقشندي وابن خلدون، وثمة من استخدم تسمية (الجزيرة العراقية) للقسم الواقع ضمن أراضي العراق، من مثل الاصطخري.⁽²⁾ وقد شاع في التاريخ المعاصر استخدام تسمية (الجزيرة السورية) للدلالة على القسم السوري من الجزيرة الفراتية، وهي تشمل إدارياً ثلاث محافظات، هي: الحسكة، دير الزور، الرقة، وثمة قسم رابع صغير ضمن نطاق الجزيرة، يتبع إدارياً لمحافظة حلب، وهو في هيئة مثلث يقع في الزاوية الشمالية الغربية منها (مناطق كوباني، جرابلس، صرّين). وتبلغ مساحة الجزيرة 76 ألف كم²؛ أي حوالي 40 بالمئة من مساحة سورية.

وقد أطلق على هذه المنطقة منذ عهد الإسكندر المكدوني (القرن الرابع ق.م) اسم ميزوبوتاميا Mesopotamia، أي ما بين النهرين أو الرافدين، وهو المستخدم في البحوث الأجنبية الحديثة المتعلقة بالحضارات القديمة في المنطقة ذاتها؛ مع تخصيص الجزيرة السورية بتسمية بلاد الرافدين العليا Upper Mesopotamia.

ثالثاً: لمحة عن تاريخ التنقيب الأثري في الجزيرة السورية

تعد سوريا واحدة من أبرز مناطق الشرق القديم غنى بالمواقع الأثرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ ومراحل العصور التاريخية المختلفة؛ ولا سيما قبل الإسلام. وتتميز مناطق الجزيرة السورية

(2) عبد الحكيم الكعبي، الجزيرة الفراتية وديارها العربية (ديار بكر، ديار ربيعة، ديار مضر) دراسة في التاريخ الديني والسياسي والاجتماعي قبل الإسلام، (دمشق: دار صفحات، 2009)، ص 29.

بأنها تضم العدد الأكبر من التلال الأثرية التي تعود إلى ما قبل الإسلام، إذ تشير إحصاءات مديريات الآثار في المحافظات الثلاث إلى وجود حوالي 1700 موقع أثري فيها، معظمها في محافظة الحسكة (حوالي 1100)، وفي محافظة دير الزور (حوالي 50)، وفي محافظة الرقة (حوالي 500)، وفي القسم التابع إداريًا لمحافظة حلب (حوالي 50) موقعًا أثريًا. (انظر المصور 1).

بدأ الاهتمام بالكشف عن الآثار المطمورة ضمن تلال الجزيرة في زمن مبكر، ويمكن إيجاز تاريخ التنقيب الأثري فيها ضمن ثلاث مراحل أساس؛ تبعًا للتطورات السياسية التي طرأت على المناطق السورية عامة، هي الآتية:

1. مرحلة ما قبل الاستقلال (1946)

تعود بداية الاهتمام بالتنقيب عن الآثار في الجزيرة السورية إلى زمن الحكم العثماني فيها، حيث كان رحالة وهواة أوروبيون يتنقلون في أرجائها، ويبحثون عن مكتشفات أثرية وتراثية، ويدونون خلال ذلك مشاهداتهم ضمن مذكرات.

في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؛ قام أوستن هنري ليارد Austen Henry Layard في ربيع سنة 1850م بجولة قصيرة في تلال أثرية جنوبي مدينة الحسكة خلال سفره إلى نينوى (الموصل)، وأجرى تنقيبات اختبارية لمدة ثلاثة أسابيع في موقع عربان (قرب عجاجه جنوبي الحسكة، قديمًا شديكني Shadikanni)، لم تسفر عن نتائج مشجعة لمتابعة العمل.⁽³⁾

وكان موقع جرابلس (عند دخول نهر الفرات الأراضي السورية، قديمًا كركميش Kargamish) قد ذُكر منذ القرن السابع عشر م ضمن تقارير الرحالة الأوروبيين، فأرسل المتحف البريطاني بعثة للتنقيب فيه بين 1879 – 1881م، ثم استؤنف العمل فيه سنة 1911م بإدارة دافيد هوجرث David Hogarth، وكانت بعثته تضم آنذاك توماس إدوارد لورنس Thomas Edward Lawrence الشاب الذي عُرف في ما بعد باسم (لورنس العرب)، ودعم حرب الاستقلال التي خاضها السكان المحليون ضد الحكم العثماني. وقام الألماني إرنست هرتسفلد Ernst Herzfeld بجولة في تلال المنطقة سنة 1910، وكان أول من أعلن أن الاسم القديم لتل العشارة (جنوب شرقي دير الزور) هو ترقا، وذلك بناء على نص مدون على رقيم وجده هناك، وهو يتحدث عن بناء معبد للإله دجن في ترقا، وهو أول

(3) Austen Henry Layard, Discoveries in the Ruins of Niniveh and Babylon; with Travels in Armenia, Kurdistan and the Desert. (London: 1853), 270f.

رقيم مسماري عثر عليه في سورية.⁽⁴⁾

وبدأ الألماني ماكس فون أوبنهايم Max von Oppenheim في صيف 1911م أعماله التنقيبية في موقع تل حلف (بجوار مدينة رأس العين، قديمًا جوزان Guzan) حيث نقب لمدة سنتين من دون انقطاع طويل، ثم عاد للعمل فيه خلال سنتي 1927 و1929م.⁽⁵⁾

انتهى الحكم العثماني في سورية، وخضعت للانتداب الفرنسي (1920-1946)، فنشط الدور الفرنسي في الاستئثار بالأعمال الأثرية، ففي 1923 قام الفرنسيان تورو-دنجان Thureau-Dangin ودورم Edouard Dhorme بجولة في منطقة وادي الفرات، وقاما بتنقيبات سريعة في تل العشارة. ثم انتقل تورو-دنجان للتنقيب في أرسلان طاش سنة 1928-1929 حيث كشف عن مدينة خداتو Hadattu، ثم في تل أحمر 1929-1931.⁽⁶⁾

في خريف سنة 1927 قام الفرنسي بويديبار Boidebard بأول مسح أثري شامل في منطقة الجزيرة، سجل خلاله عشرات المواقع التي ظهرت على سطوحها بقايا من القطع الفخارية التي تعود إلى مراحل مختلفة من العصور التاريخية القديمة.⁽⁷⁾

في سنة 1933 صودف اكتشاف مدينة ماري Mari - التي كانت معروفة في مصادر كتابية مكتشفة في العراق بوصفها إحدى المدن المهمة التي نشأت بعيد الطوفان في تل الحريري قرب البوكمال والحدود السورية-العراقية، وبدأ التنقيب الفرنسي فيه بإدارة أ. بارو A. Parrot، واستمر حتى قبل الثورة السورية. وقامت البعثة نفسها بتنقيبات في الموقع القريب تل باغوز خلال سنتي 1935 و1936، حيث كشفت عن آثار من عصور ما قبل التاريخ.⁽⁸⁾

وانصرف البريطاني ماكس مالوان Max Mallown إلى التنقيب في موقع جاجر بازار بين 1935-1937، وقام إلى جانب ذلك في 1936 بمسح أثري في المنطقة المحيطة، وتنقيبات سريعة في تل

(4) Georgio Buccellati and Marilyn-Kelly Buccellati, "Terqa", in: Eric M. Meyers (Ed.), The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5, (Oxford: Oxford University Press, 1997) 188.

(5) نادية خوليديس ولوتس مارتين، تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم، فاروق إسماعيل (مترجمًا)، (دمشق: دار الزمان، 2006).

(6) François Thureau-Dangin – Maurice Dunand, Til Barsip, (Paris: P. Geuthner, 1936); François Thureau-Dangin et al., Arslan Tash, (Paris: P. Geuthner, 1931).

(7) A. Poidebard, "Mission archéologique en Haute Jezireh, Automne 1927", Syria, 9, (Paris: 1928) 216-223.

(8) Le Comte Mesnil du Buisson, Baghouz, l'ancien Corsote, (Leiden: 1948).

قريبة (تل أسود، كرمير، تل عربيد)، ونظم فريق عمل مواز في موقع تل براك (1936-1937).⁽⁹⁾

وقد أدى اكتشاف ماري وأوجاريت Ugarit (رأس شمرا، قرب اللاذقية) إلى ازدياد اهتمام المتاحف والجامعات الأوروبية بالبحث في تاريخ سورية وآثارها، وبيان أهمية تاريخها الحضاري القديم، وصلاتها مع مناطق آسيا الصغرى وبلاد الرافدين ومصر، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية تسببت في تأجيل أعمال التنقيب، باستثناء تنقيبات أميركية سريعة، بإدارة مك إيوان McEwan، جرت في تل فخرية بجوار رأس العين سنة 1940.⁽¹⁰⁾

2. من الاستقلال حتى حكم البعث (1946-1963)

تأسست المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال سنة الاستقلال 1946، وتركز عملها على مواقع أثرية محددة؛ ولا سيما في دمشق وحلب. وشهدت سورية خلال هذه المرحلة عدم الاستقرار السياسي الداخلي، وانعكس ذلك في مجال الآثار أيضاً، وتوقفت النشاطات الأثرية في الجزيرة السورية، فلم تحصل فيها سوى تنقيبات معدودة للألماني مورتكات Moortgat في تل فخرية 1955-1956، وفي تل إيلون 1957 وفي تل خوبرة 1958. وكذلك تنقيبات فرنسية في بقرص (جنوب شرقي دير الزور) بين 1960-1965 حيث تم الكشف عن آثار من العصر الحجري الحديث.

3. خلال حكم البعث (1963-2011)

لم يحصل تنقيب في الجزيرة خلال الستينيات، أما في السبعينيات فقد استؤنف تنقيب البعثة البريطانية في تل براك سنة 1976 بإدارة (الزوجين) أوتس Oates. ونقبت بعثة هولندية في بقرص بين 1976-1978 وبدأت تنقيبات بعثة أميركية بإدارة جورجيو بوتشيللاتي Giorgio Buccellati في تل العشارة سنة 1976، ونقبت أيضاً في تل قريّا المجاور بين 1977-1979، وكشفت عن آثار من عصر العبيد (الألف الرابع ق.م) وعصر أوروك المتأخر (بداية الألف الثالث ق.م). وخلال ذلك بدأت أعمال البعثة الألمانية بإدارة هاتموت كونه Hartmut Kühne في تل شيخ حمد، سنة 1978، وأعمال البعثة

(9) Max Mallowan, Twenty-five Years of Mesopotamian discovery, (London: 1956).

(10) C. W. McEwan et al., Soundings at Tell Fakhariyah, (Chicago: Oriental Institute Publications 79, The University of Chicago, 1957),

الأميركية بإدارة هارفي وايس Harvey Weiss في تل ليلان 1979، وتنقيبات سريعة لجامعة إدنبرة البريطانية سنة 1979 في تل عقب قرب عامودا، بإدارة دافيدسن Davidson.⁽¹¹⁾

تعود إلى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي بداية معظم الأعمال التنقيبية المعروفة في الجزيرة السورية، ومعظمها ظل مستمرًا حتى قبيل اندلاع الثورة السورية. وثمة مصنف فهرسي شامل يتضمن معلومات أساسية عن التنقيب فيها، اعتمدنا عليه فيما يأتي:⁽¹²⁾

البعثة الإيطالية في تل بري منذ 1980، البعثة الألمانية في تل البيعة 1980-1995، البعثة الهولندية في حمّام التركمان منذ 1981، البعثة الأميركية في تل موزان منذ 1984، البعثة السويدية في تل حميدي منذ 1984، البعثة الهولندية في صبي أبيض منذ 1986، البعثة الأميركية في تل مبطوح الشرقي بين 1986-2001، البعثة الألمانية في تل بديري منذ 1987، البعثة الفرنسية في تل محمد دياب منذ 1987، البعثة الأميركية في تل تنينير منذ 1987، البعثة الروسية في تل خزنة منذ 1988، البعثة الاسترالية في تل أحمر منذ 1988، البعثة الفرنسية في تل شرمولا (عامودا) 1991، البعثة الأوربية في تل بيدر منذ 1992، البعثة البولونية في تل عرييد منذ 1996، البعثة اليابانية في تل طابان منذ 1997، البعثة البلجيكية في تل خشام منذ 1998، البعثة البلجيكية في جاجر بازار منذ 1999، البعثة الأميركية في تل حموكر منذ 1999، البعثة اليابانية في سكر الأحير منذ 2000، البعثة الألمانية في تل فخيرية منذ 2001، البعثة الألمانية الجديدة في تل حلف منذ 2006، البعثة الفرنسية في تل فرس منذ 2006.

إن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة؛ بعد عرض الجهد الأثري السابق الذي اقتصر على الباحثين الأجانب هو: أين الجهد الوطنية؟ لماذا لم نجد بعثة سورية بينها؟ وهل هناك بعثات سورية حالياً؟

إن الجواب مؤسف مر، فلم توجد بعثة أثرية سورية متكاملة بعد. بدأت في أواخر الثمانينيات ظاهرة تسمية بعض البعثات بأنها مشتركة مع جانب أجنبي، ضمت عادة موظفًا أو اثنين من مديرية الآثار إلى جانب عدد من المتخصصين الأجانب وطلابهم وأجهزتهم التقنية اللازمة للتنقيب. وكان دور أولئك الموظفين شكليًا إلى أبعد الحدود، بل إن معظمهم لم يكن يمتلك أدنى مستوى من الخبرة اللازمة، ولم يكن يمارس مهمته في موقع التنقيب، بل يبقى في مكتبه أيامًا، ويزور الموقع يومًا، ومع

(11) Th. E. Davidson, „Tall Aqab (Wādi Dara)“, in: Hartmut Kühne (Ed.), Ausgrabungstätigkeit in Syrien, Archiv für Orientforschung, 26, (Wien: 1978-1979) 149.

(12) Stefano Anastasio, The Archaeology of Upper Mesopotamia. An Analytical Bibliography for the Pre-Classical Periods, Subartu I, (Turnhout: Prepols Publishers, 1995).

ذلك يسجل اسمه على التقارير العلمية التي تنشرها البعثة (المشتركة)؛ كما هي الحال في البعثة البلجيكية-السورية في جاجر باز أو البعثة الألمانية-السورية في تل فخيرية، وغيرهما.

ويمكن أن نستثني من ذلك تجربة اعتمدت على جهد فردي متميز، هي تنقيبات المرحوم حميدو حمادة أمين المتحف الوطني في حلب في تل العبر (15 كم جنوبي جرابلس).⁽¹³⁾

إن البعثة الأثرية تضم عادة فريقاً متكاملًا من المتخصصين بالآثار واللغات القديمة والرسم المعماري والطبوغرافيا وعلم الآثار البيئي Environmental Archaeology وغير ذلك، وتحرص البعثات الأجنبية على أن يشارك الطلاب في أعمالها حتى يتمرسوا ويكتسبوا الخبرات اللازمة ليتوالى الجهد والمعارف جيلاً بعد جيل. ومن المؤسف أن سورية فشلت حتى الآن في أن تؤهل الكوادر العلمية اللازمة للاستقلال بالنشاط الأثري، رغم المدى الزمني الطويل.

رابعاً: أهم المواقع الأثرية المنقّبة في الجزيرة السورية

إنها كثيرة العدد، ولذلك سنكتفي بعرض لمحة موجزة عن أهمها، مركزين على الأهمية التاريخية لها، وأبرز الآثار المكتشفة فيها.

1. في محافظة الحسكة

تعد محافظة الحسكة المحافظة الأغنى بمواقع آثار العصور التاريخية القديمة في سورية، ولا مبالغة إذا قلنا: أتت التفت المرء رأى تلاً أثرياً، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد التلال الأثرية المسجلة فيها يبلغ نحو 1100 تلاً، لم يتم التنقيب الأثري في غير خمسة وعشرين منها حتى الآن.

إنها تلال متفاوتة من حيث الأهمية التاريخية، نذكر من أهمها التلال الآتية:

(13) Hamido Hammade, Tell 'Abr. In: Rouault, O. and Masetti-Rouault, M. (Eds.) L'Euphrate e il tempo, Le civiltà del medio Euphrate e della Gezira siriana, (Milano: 1993) 135-137; Hamido Hammade and Yayoi Yamazaki, Tell al-'Abr (Syria) Ubaid and Uruk Periods, (Louvain: Peeters, 2006).

أ. تل ليلان

يقع جنوب شرقي قامشلي. كشفت البعثة الأمريكية المنقبة فيه عن مدينة شُبت إنليل عاصمة مملكة أبوم خلال القرن 18 ق.م، وقد ضمت شواهد معمارية عدة، أهمها:⁽¹⁴⁾

1 - مجمع ديني ضخم في هيئة معبدتين، في القطاع الشمالي الشرقي من المدينة العليا، وهما متميزان بنمط الزخرفة في الواجهتين.

2 - قصران ملكيان في المدينة السفلى، من القرن 18 ق.م.

3 - أجزاء من المنطقة التجارية (كاروم) في الجنوب الغربي من المدينة السفلى.

4 - مقاطع من سور المدينة الذي يمتد نحو 1000 م من الشمال إلى الجنوب، و900 م من الشرق إلى الغرب.

وكُشف عن أرشيف ضخم من الكتابات المسمارية يضم نحو 1350 وثيقة تتحدث عن موضوعات متنوعة، تتعلق بتاريخ المدينة والمملكة وعلاقاتها الخارجية، وأهمها:⁽¹⁵⁾

- نصوص إدارية - اقتصادية تمثل سجلات موظفي القصر الملكي المسؤولين عن المخازن والورشات الحرفية، وتوثق حركة الواردات والصادرات المستهلكة لخدمة الملك وضيوفه، أو في المناسبات الدينية.

- رسائل مرسلة من ملوك أو موظفين كبار في مدن الجزيرة العليا وسنجار وحلب إلى ملوك ليلان الثلاثة (موتيا، تيل أبنو، يكون أشر) الذين حكموا بين نحو 1763-1728 ق.م. وهي تتناول مسائل تتعلق بالأوضاع الداخلية في المدينة والبلاد عامة، وعلاقاتها الخارجية.

- معاهدات مطولة عقدها ملوك المدينة مع ممالك مجاورة تتعلق بمسائل تنظيم الحدود وحمايتها، وحفظ الأسرار، وتبادل المعلومات، والتعاون العسكري في مواجهة الأعداء، والتعاون في إنقاذ الأسرى، وقمع المتمردين في مناطق المملكتين، وتسليم الفارين مرتكبي القتل والسرقة والهروب واللجوء وغير ذلك، وحماية التجارة بين المملكتين المتعاهدتين.

إنها توفّر -بصورة عامة- مادة علمية تاريخية لم تكن معروفة عن المرحلة الواقعة بين دمار مدينة

(14) فاروق إسماعيل، شُبت إنليل «تل ليلان» حاضرة الجزيرة السورية في القرن 18 ق.م، (دمشق: دار الزمان، 2018)، ص 39-57.

(15) فاروق إسماعيل، شُبت إنليل «تل ليلان»، ص 71.

ماري وانهيبار مملكتها، ودمار مدينة شُبَّت إنليل نفسها؛ أي بين 1728-1762 ق.م.

ب. تل براك

يقع بين قامشلي والحسكة، قرب مجرى نهر ججغ. كان الفرنسي بويديبار Boidebard قد ميّز أهمية التل في إثر المسح الأثري الذي أجراه في المنطقة سنة 1927، ثم أجرى فيه البريطاني ماكس مالوان تنقيبات سنة 1936-1937، وكشف عن معبد من عصر فجر السلالات السومرية (مطلع الألف الثالث ق.م) تميز بالدمى الطينية البشرية التي تركز على شكل العين إيماناً بقوتها السحرية، ولذلك اشتهر المعبد بتسمية (معبد العيون). وكشف عن معالم قصر حصين يعود إلى الملك الأكدي نرام سين (القرن 23 ق.م). ويرجح أن اسم الموقع آنذاك كان نَجَار Nagar.

وفي 1976 استأنفت التنقيب في الموقع بعثة بريطانية بإدارة (الزوجين) دافيد وجون أوتس Oates وفق أسس منهجية علمية، وتم توضيح تسلسل الاستيطان في الموقع: عصر حلف (الألف الخامس ق.م)، الألف الثالث ق.م، ثم الاستيطان الميتاني (القرون 16-13 ق.م) حيث يعتقد أن الموقع حمل آنذاك اسم تئيدو Ta'ídu، وظهرت آثار عمرانية وفنية عدة، ولا سيما من العصر الميتاني.⁽¹⁶⁾

ت. تل موزان

يقع قرب مدينة عامودا، وقد كشفت البعثة الأميركية المنقبة في الموقع عن آثار دالة على مراحل استيطان متعاقبة في الموقع تمتد بين عصر حلف (الألف الخامس ق.م) والعصر الأشوري الوسيط (نحو 1300 ق.م).⁽¹⁷⁾

برزت أهمية الموقع عندما صار عاصمة الحوريين في القرن (23 ق.م). والحوريون هم أحد شعوب الشرق القديم، لا ينتمي إلى مجموعة الشعوب التي يصطلح على تسميتها بالشعوب السامية، وتعدّ المناطق الواقعة جنوبي بحيرة وان وامتداداتها في الشرق والغرب الموطن الأم لهم، هاجروا منها إلى المنطقة المنخفضة الواقعة بين أطراف جبال طوروس الشرقية، والأجزاء الشمالية من سلسلة جبال زغروس، ومناطق شرقي دجلة والجزيرة السورية العليا حتى شرقي الفرات. وقد عرفت أجزاء هذه المناطق الجغرافية المتصلة في النصوص المسمارية منذ القرن 25 ق.م معظمها بتسمية سوبرتو

(16) David Oates-Joan Oates-Helen McDonald, Excavations at Tell brak, Vol. 1, The Mitanni and Old Babylonian Periods, (London: British School of Archaeology in Iraq, 1997).

(17) Georgio Buccellati and Marilyn-Kelly Buccellati, "Urkes and the Question of the Hurrian Homeland", Bulletin of the Georgian National Academy of Sciences, 175, (2007) 141-150.

Subartu⁽¹⁸⁾ ويبدو أن الحوريين تجمعوا بشكل مكثف في مدينة أوركيش التي أضحت مركز حكم مستقل لهم، يحكمه توبكيش في أواسط القرن 23 ق.م. وازدادت أهمية الموقع من الناحيتين السياسية والحضارية، ثم حكم بعده حاكم نجهل اسمه، ولكن المعروف أنه كان متزوجاً من (تْرَأَم أكد) ابنة الملك الأكدي نرام سين. ولعل ذلك يؤكد بوضوح أيضاً أهمية أوركيش، وحرص ملوك أكّد على عقد صلات سلمية معها، ولا سيما بعد أن عانى نرام سين التمردات في المناطق المكتظة بالحوريين.⁽¹⁹⁾

من أهم الآثار المكتشفة في الموقع، نذكر الآتية:

- قصر ضخّم مؤلف من أجنحة للإدارة والاستقبال والسكن ولوازمه، يعود إلى عهد الملك توبكيش.⁽²⁰⁾ وعند مدخله في جهة الجنوب كهف أو حفرة عميقة مكسوة من الداخل بحجارة، ويمكن النزول إليها بشكل متدرج، عُرفت في النصوص باسم «آبي»، ويظن أن الغرض من إنشائها هو ممارسة شعائر الطهارة وغسل الذنوب، وكان يتم النزول إليها ثم الصعود وفق شعائر معينة.⁽²¹⁾

- معبد مقام على مصطبة عالية (نحو 25 م)، يتم الوصول إليه بدرج عريض يقود إلى ساحة مكشوفة واسعة، أقيم في أواسط القرن 24 ق.م، وكان مخصصاً للمعبود كوماري: أبي الآلهة لدى الحوريين.

وكشفت البعثة عن قطع فنية كثيرة، ونماذج متنوعة من الأختام الأسطوانية وطبعاتها، وكتابات مسمارية.⁽²²⁾

(18) Piotr Steinkeller, "The Historical Background of Urkesh and the Hurrian Beginning in Northern Mesopotamia", in: Georgio Buccellati and Marilyn-Kelly Buccellati, *Urkesh and the Hurrians. Studies in Honor of Lloyd Costen*, (Malibu: Undena Publications, 1998) 76-95; Georgio Buccellati, "The Semiotics of Ethnicity: The Case of Hurrian Urkesh", *Festschrift für Gernot Wilhelm* (Dresden: ISLET, 2010) 79-90.

(19) فاروق إسماعيل، «الحوريون في بلاد أبوم خلال العصر البابلي القديم»، مجلة النقوش والرسوم الصخرية، ع 1، (عمّان: 2007)، ص 81-116.

(20) Federico Buccellati, *Three-dimensional Volumetric Analysis in the Archaeological Context. The Palace of Tukki at Urkesh and its Representation*, (Malibu: Undena Publications, 2016).

(21) Georgio Buccellati and Marilyn-Kelly Buccellati, „Der monumentale Palasthof von Tall Mozan/Urkesh und die stratigraphische Geschichte des ābi“, *Mitteilungen der Deutschen-Orient Gesellschaft zu Berlin*, 136, (Berlin: 2004) 13-39.

(22) Lucio Milano, *The Epigraphic Finds of the Sixth Season*, (Malibu: Undena Publications, 1991)

فقدت أوركيش أهميتها خلال الألف الثاني ق.م، حتى تعرضت للدمار خلال الحملات الآشورية، في حوالي 1300 ق.م، وحلت محلها مدينة وُشوكاني (قرب رأس العين) عاصمة للمملكة الحورية اللاحقة التي عرفت باسم مملكة ميتاني.

ث. تل جاجر بازار

يقع جنوبي مدينة عامودا. نقت فيه بعثة بريطانية بإدارة ماكس مالوان بين 1935-1937، وكشفت عن آثار من عصر حلف (الألف الخامس ق.م) ومن الألف الثالث والنصف الأول من الثاني ق.م، حيث عُرف باسم أشنكُوم Ašnakkum. ثم استأنفت التنقيب بعثة بلجيكية في بإدارة أورهان تونجا Tunca منذ 1999، وتم الكشف عن آثار متنوعة لمدينة أشنكُوم التي كانت مركز مملكة صغيرة خلال القرن 18 ق.م، شغلت القسم الأكبر من المنطقة الواقعة بين مجرى نهر جفجغ وعامودا، وكانت تخضع لنفوذ مملكة ماري أحياناً، وتتمرد عليها وتستقل أحياناً.⁽²³⁾

ج. تل بيدر

يقع التل على وادي عويج، بين الحسكة ودرباسية. وهو يعد أنموذجاً لما يعرف بـ«التلال التاجية»، وهي تلال محاطة عادة بسور دائري لافت للنظر، وتضم ضمن نطاقها تلاً مركباً من مجموعة ارتفاعات متصلة لها شكل التيجان المتجاورة.

كشفت بعثة (التنقيبات الأوربية في سورية E.E.S) بإدارة الباحث البلجيكي مارك لبو Marc Lebeau في الموقع عن أجزاء من سور المدينة ذي المعالم الواضحة، وعن آثار متنوعة من الألف الثالث ق.م، أهمها قصر ملكي ضخيم من عصر فجر السلالات الباكرا (نحو 2600 – 2350 ق.م)، وهو محاط من جهة الجنوب بأربعة معابد، ومن الشرق بمنطقة سكنية فسيحة، ومن الشمال بحضائر ذات مساحات واسعة؛ إضافة إلى آثار من بواكير العصر الأكدي (نحو 2350 – 2300 ق.م)، وفوقها سويات من أواخر الألف الأول ق.م.

وُكُشف عن أرشيف صغير (216 وثيقة) من الكتابات المسمارية يعود إلى القرن (24 ق.م)، ويمثل أقدم مجموعة كتابات مكتشفة في منطقة الجزيرة السورية حتى الآن، وثاني أكبر مجموعة كتابات

(23) Önhun Tunca et al., Chagar Bazar (Syrie) I: Les Sondages Préhistoriques (19992001-), Publications de la Mission Archéologique de l'Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2007); II: Les vestiges «Post-akkadiens» du chantier D et études diverses, Publications de la Mission Archéologique de l'Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2007); III: Les trouvailles épigraphiques et sigillographiques du chantier I (20002002-), Publications de la Mission Archéologique de l'Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2008).

من الألف الثالث ق.م تكتشف في سوريا عامة، بعد كتابات إبلا (تل مردوخ، شرقي ادلب). ويتضح فيها أن المدينة كانت تُعرف باسم نبادا Nabada، وكانت بمنزلة العاصمة الاقتصادية لمملكة مركزها مدينة نَجار (حاليًا تل براك) الواقعة على بعد نحو 45 كم شرقًا.

تبحث الوثائق في موضوعات الإدارة الاقتصادية غالبًا، ولا سيما ما يتعلق بتربية الحيوان التي كانت تشكل عماد الحياة الاقتصادية في المدينة ومناطقها. وتتناول مسائل تتعلق بزراعة الحبوب (القمح والشعير) أهم مزارعات المنطقة، وكانت تخصص لأغراض التغذية والأعلاف والمقايضة. وتجدر الإشارة إلى أن الوثائق تخلو من معلومات عن التاريخ السياسي للمنطقة.⁽²⁴⁾

ح. تل حلف

يقع قرب مدينة رأس العين، والحدود السورية-التركية. كشف الألماني فون أوبنهايم فيه عن آثار حضارة متميزة صنع أصحابها أدوات فخارية ملونة ومزخرفة بأسلوب فني متميز، وشكلوا تماثيل طينية صغيرة أظهروا فيها اهتمامًا بالغًا بتصوير أعضاء الجنس والخصب، ويرجح أن ذلك كان تجسيدًا لمعتقدات دينية تتمثل في عبادة الإلهة الأم، وبنوا بيوتًا دائرية ذات قباب من اللبن والطين، وهي مظاهر حضارية خاصة (حلفية) انتشرت على نطاق جغرافي واسع خلال الألفين السادس والخامس ق.م. ثم فقد الموقع أهميته حتى صار خلال القرن 10 ق.م عاصمة مملكة بيت بخياني الآرامية بين نحو 1000 – 894 ق.م، ثم خضعت للانتداب الآشوري (894 – 808 ق.م) فمركز مقاطعة من المقاطعات الآشورية الغربية (808 – 612 ق.م).

كشفت التنقيبات فيه عن قصر للملك كابارا الآرامي، تميز بضخامته وواجهته المؤلف من تماثيل كائنات مركبة ضخمة تسند السقف بأعمدة ممدودة فوق رؤوسها، وقد قامت البعثة بنقل هذه الواجهة ومعظم التماثيل والمنحوتات الحجرية والمنحوتات الجدارية وأرشف الكتب المسمارية إلى برلين، ثم بنيت واجهة متحف حلب الوطني تقليدًا لتلك الواجهة. ولم يبق في سورية إلا القليل منها، وهو معروض في قاعة خاصة ضمن متحف حلب الوطني. وتم الكشف عن أجزاء من سور المدينة، ومدخلها الرئيس، وعن مبنى صغير (شمالي) ومعبد المدينة وقاعة الشعائر ومقر حكومي.⁽²⁵⁾ يعود الأرشف الكتب الصغير (127 وثيقة) إلى القرون الثامن والسابع والسادس ق.م، ويكتسب أهمية

(24) فاروق إسماعيل، «الكتابات المسمارية المكتشفة في تل بيدر»، مجلة المعرفة، ع 492، (دمشق: 2004)، ص 119-130.

(25) نادية خوليديس ولوتس مارتين، تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم، فاروق إسماعيل (مترجمًا)، (دمشق: دار الزمان، 2006).
(Winfried Orthmann, Die aramäisch-assyrische Stadt Guzana, (Wiesbaden: Harrassowitz, 2005).

خاصة لأنه يسلط الضوء على طبيعة الحياة في المدينة خلال الحكم الآشوري.⁽²⁶⁾

2. في محافظة دير الزور

أ. تل الحريري

يقع جنوب شرقي دير الزور، على الضفة اليمنى لنهر الفرات؛ أي ضمن منطقة الشامية، ولكن تاريخه القديم مرتبط بالجزيرة. كشفت التنقيبات الفرنسية الجارية في الموقع منذ سنة 1933 عن مدينة ماري التي كانت معروفة في المصادر الكتابية، فقد ورد ذكرها ضمن قائمة الملوك السومرية بوصفها عاشر سلالة حكمت بعد الطوفان (القرن 28 ق.م)، وبرزت أهميتها خلال العصر الأكدي، وخضعت لسيادة شروكين (سرجون) ملك أكد (2284-2340)، وتذكر الوثائق أن نرام سين حفيد شروكين جعل إحدى بناته كاهنة عليا للإله شمش في ماري، ولعله أراد بذلك أن يؤكد تبعية ماري الكاملة للأكّد. وتشير النصوص المكتشفة في كل من ماري وإبلا (القرن 24 ق.م) إلى حصول صراع بين المملكتين أدى في النهاية إلى دمار إبلا. وفي القرن 21 ق.م خضعت لحكم سلالة أور (الثالثة) وصار يحكمها حكام يحملون لقب (شكنكو).

في الألف الثاني ق.م أضحت ماري أهم مركز للقبائل الأمورية في وادي الفرات الأوسط والجزيرة السورية. ونظرًا لوفرة النصوص الأكديّة (البابلية القديمة) المكتشفة (حوالي 10 آلاف) التي تعود إلى هذه المرحلة؛ يمكن الحديث عن المراحل التاريخية التي مرت بها بكثير من التفصيل، وهي ثلاث مراحل أساس:

- مرحلة يَجِيد ليم وابنه (أواخر القرن 19 ق.م): كان يجيد ليم أحد وجهاء الأموريين، دخل في صراع مع إبلا كبكبو الحاكم في مدينة ترقا (تل العشارة) المجاورة، وضمها إلى حكمه، ووسع نطاق نفوذه في وادي الفرات الأوسط. وعندما آل الحكم إلى ابنه يخدون ليم (نحو 1810-1794 ق.م) صار يلقب نفسه بملك ماري وخانا، وازدهرت البلاد اقتصاديًا، وقويت عسكريًا حتى اغتاله سومو ياميم أحد موظفي القصر الملكي، وحكم فترة قصيرة (نحو 1793-1792 ق.م).

- مرحلة حكم شمسي (سمسي) أدو الأول وابنه (-1792 1775 ق.م): تمكن شمسي أدو بن إبلا كبكبو الهارب إلى المناطق القريبة من آشور (قلعة الشرقاط، بين سامراء والموصل) استلام الحكم فيها، ومد نفوذه غربًا إلى الجزيرة السورية، وأعاد بناء شُخنا/ شُبْت إنليل (تل ليلان) ووسّعها لتكون

(26) Johannes Friedrich, G. Rudof Meyer, Arthur Ungnad, Ernst F. Weidner (Hrsg.), Die Inschriften vom Tell Halaf, Archiv für Orientforschung, Beiheft 6 (Berlin: 1940).

عاصمة ثانية له، ثم سار إلى ماري وديار أسلافه في وادي الفرات الأوسط، وسيطر عليها، وعيّن ابنه يسمخ أدو على حكمها، وبذلك صارت له مملكة واسعة في شمالي بلاد الرافدين، ولكن مملكته انهارت بُعيد موته.

- مرحلة حكم زمري ليم (-1775 1762 ق.م): كان زمري ليم بن يخدون ليم قد لجأ إلى حلب، واستطاع بدعم من حميه يريم ليم ملك يمشد أن يعود إلى الحكم في ماري، وسيطر على معظم مناطق الجزيرة السورية، وأضحى الحكام الصغار في مدنها يتبعون له، كما عقد تحالفًا مع حلب وبابل لمواجهة هجمات قوات من بلاد عيلام (جنوب غربي إيران) على شمالي بلاد الرافدين.

استفاد حمورابي ملك بابل من هذا التحالف في مواجهة خصومه، وبعد أن خفت التحديات التي تواجهه، تغيرت علاقاته مع ماري، بل صار يخطط لاحتلالها، وهذا ما حصل في السنة 33 من حكمه (حوالي 1762 ق.م).⁽²⁷⁾

وتم الكشف في ماري عن آثار عمرانية عدة؛ أهمها قصر زمري ليم الضخم الذي نال شهرة واسعة، وكان يعدّ فريداً في عصره، ويضم نحو 300 قاعة وغرفة ذات وظائف عديدة (الإدارة، الاستقبال، السكن، ممارسة الحرف، العبادة، التعليم، التخزين)، وحملت جدران عدد منها لوحات جدارية ملونة،⁽²⁸⁾ ومنها معابد عدة للآلهة الرئيسة المعبودة في المنطقة (شمش، عشتار، أنونيتُم، دَجَن). ووجدت فيها أعمال فنية كثيرة في صيغة النحت المجسم (الكامل) والنافر، تصور شخصيات مهمة في القصر الملكي، وآلهة معبودة.

ب. تل العشارة

أشرنا إلى أن الألماني إرنست هرتسفلد Ernst Herzfeld كان أول من أعلن سنة 1910 أن الاسم القديم لتل العشارة (جنوب شرقي دير الزور) هو ترقا. وكان تورو-دنجان ودورم Dhorme أول من أجرى تنقيبات سريعة في الموقع سنة 1923، ثم عملت في بعثة من جامعة جون هوبكنز خلال 1974-1975، ثم استأنفت التنقيب فيه بعثة من جامعة لوس أنجلوس بإدارة (الزوجين) بوتشيللاتي Buccellati سنة 1976، وعملت فيه حتى 1983 ثم انتقلت للعمل في تل موزان، وسلمت العمل في الموقع إلى بعثة بلجيكية بإدارة رُو Olivier Rouault.⁽²⁹⁾

(27) Dominiq Charpin, Nele Ziegler, Mari et le Proche-Orient à l'époque amorrite, Essai d'histoire politique, FM V (Paris: sepoa, 2003).

(28) Marie-Henriette Gates, "The Palace of Zimri-Lim at Mari", The Biblical Archaeologist, Vo. 47/2, (1984), 70-87.

(29) Georgio Buccellati and Marilyn-Kelly Buccellati, Terqa, in: Eric M. Meyers (Ed.) The Oxford Encyclopedia of

اتضح أن الاستيطان في الموقع بدأ في مطلع الألف الثالث ق.م، وشُيّد سور المدينة وتحصينات تقمها من فيضان نهر الفرات، واتسعت المدينة في أواخر الألف الثالث ق.م، وصار لها مبنى إداري ضخم، وخضعت لنفوذ مملكة ماري حتى دمارها في 1762 ق.م. ثم بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المدينة، حيث صارت مركزاً لمملكة جديدة عُرفت باسم (خانا)، نسبة إلى قبيلة خانا الأمورية. وقد كشف عن معبد للإلهة نين كَزْك إلهة الشفاء، وأرشيف من الكتابات المسمارية من هذه المرحلة، وأظهرت المكتشفات استمرار السكن خلال العصر الميتاني (النصف الثاني من الألف الثاني ق.م).⁽³⁰⁾

ت. تل شيخ حمد

يقع على نهر الخابور على بعد نحو 70 كم شمال شرقي دير الزور. نقت فيه بعثة من جامعة برلين الألمانية منذ 1978، وكشفت عن مدينة مهمة باسم دور كَتْلِيمو خلال العصر الأشوري الوسيط (القرن 13 ق.م)، وباسم مَجْدَلَا خلال العصر الأشوري الحديث (القرنين السابع والسادس ق.م). تعود بداية الاستيطان في الموقع إلى أواخر الألف الرابع ق.م، وظلت مدينة صغيرة حتى النصف الأول من الألف الثالث ق.م، واكتسبت أهمية خاصة خلال العصر الأشوري الوسيط، وعُثر على أرشيف من الوثائق التي تؤكد ذلك.⁽³¹⁾

أضحت المدينة في القرن التاسع ق.م مركزاً إدارياً لمقاطعة آشورية في منطقة الخابور السفلية، واستمرت حتى انهيار المملكة الآشورية، وقد عثر على أرشيف من الكتابات المسمارية (الأكدية) والنقوش الآرامية، وهي ترصد طبيعة الحياة الاقتصادية والإدارية في المدينة والمقاطعة، وتبين أن السكان معظمهم كانوا آراميين، ولذلك صارت تحمل اسماً آرامياً (مجدل) أيضاً.⁽³²⁾

من أهم الآثار العمرانية المكتشفة في الموقع مبنى ضخم يضم 85 غرفة موزعة حول خمس ساحات داخلية، يُعرف بتسمية (البيت الأحمر) لوجود طلاء أحمر على أجزاء من جدرانه، وقد كان مقرّاً لحاكم المقاطعة والموظفين الإداريين خلال العصر الأشوري الحديث، ومنها حصن في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة قرب مجرى نهر الخابور، إضافة إلى معبد للمعبود (سلمان) المعبود الرئيس في

Archaeology in the Near East, Vol. 5, (Oxford: Oxford University Press, 1997), 188.

(30) Ibid, 188-190; Amanda H. Podany, Hana. Kings, Chronology and Scribal Tradition, (Bethesda: CDL Press, 2002).

(31) Eva Cancik-Kirschbaum, Die Mittelassyrischen Briefe aus Tall šēḫ Ḥamad. Berichte der Ausgrabung Tall šēḫ Ḥamad/Dūr-Katlimmu Bd. 4, (Berlin: 1996).

(32) Karin Radner, Die neuassyrischen Texte aus Tall šēḫ Ḥamad, Berichte der Ausgrabung Tall šēḫ Ḥamad / Dūr-Katlimmu Bd. 6, (Berlin: 2002).

المدينة، وهو غير معروف بصورة جيدة في مصادر أخرى.⁽³³⁾

3. في محافظة الرقة

أ. تل البيعة

يقع تل البيعة بالقرب من مدينة الرقة، في شمال شرقها؛ حيث يمر نهر البليخ. نقت فيه بعثة من جامعة برلين الألمانية بإدارة إيفا شترومنجر E. Strommenger وكشفت عن مدينة مهمة خلال الألف الثالث والنصف الأول من الألف الثاني ق.م تُدعى توتول.

كانت توتول تابعة لمملكة ماري عندما احتلها الملك الأكدي شروكين، وظلت كذلك حتى القرن 19 ق.م، حيث تمردت مع غيرها من مدن وادي البليخ على سلطة ماري، ثم بدأت تفقد أهميتها تدريجياً بعد انهيار مملكة ماري وسيطرة قوات الملك البابلي حمورابي على وادي الفرات الوسط. وتعود آخر أخبارها التاريخية القديمة إلى زمن الصراع الحثي-الأشوري على المنطقة خلال القرن 14 ق.م، ثم انقطع الاستيطان في الموقع حتى الحقبة الرومانية-البيزنطية، حيث وجدت أبنية سكنية ومقبرة كبيرة منها، ثم أضحى الموقع مركزاً دينياً مسيحياً خلال القرنين الخامس والسادس الميلادي، يدل عليه مبنى دير عُرف باسم (دير زكي).⁽³⁴⁾

كشفت التنقيبات في الموقع عن أجزاء من سور المدينة خلال الألف الثالث ق.م، وفوقه سور من الألف الثاني ق.م بُني بعرض نحو 6-7 م مقوى ببروزات خارجية من الطين المدكوك، وله ثلاث بوابات. وتم الكشف عن قصر إداري من القرن 18 ق.م، مبني من القرميد البني المائل إلى الاحمرار، ومجموعة من المباني الطينية تظهر تبايناً في النماذج العمارية، ومعبدان؛ أحدهما مخصص لعبادة الإله دجن.⁽³⁵⁾

ومن الأعمال الفنية المتميزة المكتشفة لوحتان ضخمتان من الفسيفساء الملون وجدتتا ضمن (دير زكي)، تحملان مشاهد من الطبيعة وعناصرها (شجر الرمان والسرو، طيور البط والحمام والعنقاء

(33) Hartmut Kühne, Tell Sheikh Hamad: The Assyrian-Aramaean Centre of Dūr-Katlimmu/Magdalu, in: Dominik Bonatz-Lutz Martin, 100 Jahre archäologische Feldforschungen in Nordost-Syrien – eine Bilanz, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2013), 235-258.

(34) Manfred Krebernik, Die Altorientalischen Schriftfunde, Ausgrabungen in Tall Bi'a/Tuttul, Band II, (Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag, 2001).

(35) Eva Strommenger – Kay Kohlmeyer, Ausgrabungen Tall Bi'a/Tuttul, Band I, (Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag, 1998).

والطواويس)، وعليهما كتابات سريانية ولاينية.⁽³⁶⁾

ب. تل خويرة

يقع التل بجوار الحدود السورية-التركية، وسط المسافة بين نهري البليخ والخابور. تنقب فيه منذ 1958 بعثة ألمانية، كشفت فيه عن آثار من الألفين الثالث والثاني ق.م، وعن أرشيف من النصوص الكتابية المسمارية من القرن 13 ق.م، اتضح من خلاله أن الاسم القديم للموقع كان (خره).⁽³⁷⁾

ت. حمّام التركمان

يقع بجوار قرية حمّام التركمان جنوبي تل أبيض. نقبت فيه بعثة هولندية منذ 1980، وكشفت عن آثار استيطان يمتد من العصر الحجري الحديث، وشمل مراحل العصور التاريخية القديمة جميعها. ويرجح أن الاسم القديم للموقع هو زلّبا Zalpa، المدينة المعروفة في المصادر الكتابية الحثية، كنقطة انطلاق للقوات الحثية نحو شمالي سورية وداخلها.⁽³⁸⁾

ث. صبي أبيض

يقع على نهر البليخ، شمال شرقي حمّام التركمان. نقبت فيه بعثة من جامعة أمستردام الهولندية، وكشفت عن آثار قرية من أواخر العصر الحجري الحديث، تعرضت لحريق ضخم، وجدت في مساكنه كميات ضخمة من الأختام المسطحة، وآثار من عصر حلف (الألف السادس ق.م)، ثم هجر الموقع زمنًا طويلاً. ظهرت أهميته من جديد في العصر الآشوري الوسيط، وإليه يعود مجمع معماري ضخم يضم قصرًا ومساكن ومخازن ومشاكل حرفية، وكذلك عثر على أرشيف من الكتابات يعود إلى القرن 13 ق.م، ويوضح تبعيته للملك آشور.⁽³⁹⁾

(36) Gábor Kalla, „Das ältere Mosaik des byzantinischen Klosters in Tall Bi ‘a“, Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft zu Berlin, 123 (Berlin: 1991) 35-39.

(37) Winfried Orthmann, Tell Chuera in Nordost Syrien. Bericht über die Grabungskampagnen 1986 bis 1992, (Saarb.-(rück): Saarbrücker Druckerei und Verlag, 1995.

(38) (Maurits N. van Loon (Ed.), Hammam et-Turkman I, (Istanbul, 1988 (38)

(39) Peter M. Akkermans, I. Rossmeisl, „Excavations at Tell Sabi Abyad, Northern Syrien: A Regional Centre on the Assyrian Frontier“, Akkadica, 66, (Brussel: 1990), 13-60.

4. ضمن الجزيرة، تابعة لمحافظة حلب

أ. تل جرابلس

تل ضخمة بجوار مدينة جرابلس. يقطعه خط الحدود السورية التركية، فيقسمه قسمين، شمالي تركي بدأ الاهتمام بالتنقيب فيه منذ 1908، وجنوبي سوري اقتصر العمل فيه على مسح أثري جرى سنة 1992، وبين وجود آثار تعود إلى ما بين الألف 6 - 3 ق.م. بينت مكتشفات الألف الأول ق.م في القسم التركي أن الاسم القديم للموقع هو كركميش.⁽⁴⁰⁾

ب. تل أحمر

يقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات عند مصب نهر الساجور فيه، جنوبي جرابلس. نقب فيه الفرنسي تورو-دنجان Thureau-Dangin بين 1929-1931، ثم استأنف التنقيب فيه الأسترالي بونينس G. Bunnens سنة 1988 ولم ينته من عمله بعد. واتضح أن الاستيطان في الموقع بدأ في عصر العبيد (الألف الخامس ق.م)، وتطور خلال الألفين الثالث والثاني ق.م، ولكن أهمية موقعه التجاري كمعبر مهم على الفرات نحو بلاد الأناضول، فاحتلها الحثيون وأطلقوا عليه اسم مازواتي Mazuwati، ثم مسواري Masuwari.

صارت خلال القرن العاشر ق.م مركز مملكة (بيت عديني) الآرامية، وتدعى تل برسيب Til-Barsib، التي تجنبت الحملات الآشورية بدفع الجزية، وأسهم مهجرون منها في بناء القصور الملكية الآشورية، ورغم ذلك قام شلمنصر الثالث بحملات عسكرية إليه، ودمر كثيرًا من مدنها، وحاصر العاصمة ونهبها سنة 856 ق.م، وبدل اسمها إلى كار شلمنصر أي (حصن شلمنصر).

كشفت في الموقع عن قصر ملكي من زمن الاحتلال الآشوري، ومعبد ضم أنصابًا حجرية لإله الطقس، معظمها معروض في متحف حلب الوطني. كما وجدت في الموقع كتابات آشورية ونقوش حثية-لوفية بالكتابة التصويرية.⁽⁴¹⁾

(40) Edgar Peltenburg, „Tall Ġarabluš-Taḥṭani“, in: Hartmut Kühne (Ed.), Archäologische Untersuchungen in Syrien (5), Archiv für Orientforschung, 40-41, (Wien, 1993-1994), 230-231.

(41) Guy Bunnens, Tell Ahmar I; 1988 Season, (Leuven: Peeters, 1990); Tell Ahmar II: a new Luwian Stele and the cult of the Storm-God at Til Barsib-Masuware, (Louvain: Peeters, 2006).

ت. أرسلان طاش / شيران

يقع قرب مدينة كوباني في الجنوب الغربي منها. في سنة 1883 اكتشف فيها ضابط نصبين بازلتين ضخمين لأسدين، تم نقلهما فيما بعد إلى متحف الآثار في إسطنبول. ثم زار الموقع عدد من الرحالة وهواة الآثار حتى بدأت فيه خلال 1928-1929 تنقيبات فرنسية بإدارة تورو-دنجان Thureau-Dangin اكتشف خلالها سور المدينة المبني من القرميد فوق قاعدة حجرية بعرض 4 م، وثلاث بوابات، وقصر إداري ضخم في أعلى التل وجدت على جدرانه رسوم جدارية ملونة، وآخر صغير وجدت فيه كثير من القطع الفنية المصنوعة من العاج، ومعبد مخصص لعبادة للإلهة عشتار، وأنصاب حجرية تمثل أسودًا تم نقلها إلى متحف حلب الوطني وإلى حديقة الرشيد بالرقعة، وقد قام تنظيم داعش بتدمير الأخيرة سنة 2014، يضاف إلى ذلك الكشف عن قطع أثرية كثيرة نُقلت إلى متحف اللوفر بباريس.⁽⁴²⁾

خامسًا: المواقع الأثرية خلال عشر سنوات من الحرب في سورية (2011-2021)

أدى اندلاع الثورة في سورية إلى أن تتوقف أعمال البعثات الأثرية، ثم تسببت حال الفوضى وغياب إمكان الرقابة الإدارية إلى تعرض المواقع الأثرية معظمها إلى العبث والنهب والحفر العشوائي غير القانوني من قبل أفراد، بحثًا عما يمكن أن تتم التجارة به، أو من قبل فصائل وتنظيمات للاستفادة من تجارة القطع الأثرية في تمويل أعمال عسكرية. وقد تم ذلك باستخدام أدوات يدوية بسيطة، وأحيانًا آليات ثقيلة.

ويمكن تصنيف ما حصل في ثلاث مراحل، هي:⁽⁴³⁾

(42) Hannes D. Galter, „Die Torlöwen von Arslan Tash, Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 97, (Wien: 2007), 193-211.

(43) تعتمد معلوماتنا عما حصل في المنطقة على المتابعة الشخصية مع زملاء وطلاب سابقين في الداخل السوري، ما يزال بعضهم يعمل في دوائر الآثار، وعلى التقارير المنشورة في صفحة هيئة الثقافة - الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا www.Desteya-shunwaran.com وفي صفحة «التراث من أجل السلام» التي تحررها مجموعة من الباحثين المهتمين بالآثار السورية، منذ 2013: <https://www.heritageforpeace.org>

1. مرحلة سيطرة الفصائل المعارضة المسلحة

سيطرت فصائل عسكرية معارضة عديدة على مناطق واسعة متفرقة في وادي الفرات ومحيطه (2012-2013)، وانتشرت آنذاك الفوضى الإدارية في المنطقة، فاستغل مواطنون ذلك، وحصلت تعديات على التلال الأثرية من خلال الحفر العشوائي السري فيها،⁽⁴⁴⁾ أو نقل مواد بناء منها، كما تم البناء في حرم المواقع الأثرية، ونهب مقرات البعثات الأجنبية في المواقع التي كانت تنقب فيها، كما حصل في المواقع: ماري، صالحية الفرات، تل شيوخ تحتاني، منباقة، حموكر، احمدي وغيرها.

ولعل أوضح مثال على ذلك هو ما تعرض له موقع صالحية الفرات (دورا أوروبوس) الذي مورست فيه كل أشكال التخريب، وقد روى لنا أحد الثقات من أبناء قرية أبو حمام (قبيلة الشيعيات) المجاورة أن تنظيم الدولة الإسلامية لدى سيطرته على المنطقة وجد أن هذا الموقع قد تم حفر مئات الحفر، وعلم من أعوانه أن كثيرين تاجروا بقطع أثرية مستخرجة، فأدرك أنه لم يبق له ما يفيد، فقام التنظيم بجمع أهالي القرى القريبة، وفرض عليهم ضرائب مالية تعويضاً عما نهبوه، وقد كان هذا أحد أسباب صراع دام بين التنظيم والقبيلة انتهى بمجازر أودت بحياة المئات.

وتعرض موقع تل الحريري (ماري) للنهب وتخریب أجزاء منه، وتعرض متحف الرقة للنهب، واختفت حوالي 550 قطعة أثرية ثمينة كان قد تم إيداعها في المصرف المركزي بالرقعة.

2. مرحلة سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) في مناطق وادي الفرات ومحيطها (2013-2019)

تتميز هذه المرحلة بأن تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) قام بأعمال مخططة هادفة، إذ كلف أشخاصاً متعاونين معه بالبحث عن الآثار لمصلحته وفق تراخيص، وذلك باستخدام كل ما يلزم من آليات ثقيلة بهدف إخراج الآثار وبيعها لتمويل التنظيم؛ كما حصل في تلال عجاجة، مؤزر، سورة، حمام، شيخ حمد، وغيرها. وكانت صعوبة نقل التماثيل الحجرية الضخمة المكتشفة تدفعه إلى تحطيمها لأنها (أصنام) لا يستطيع الإتجار بها بسهولة.

ولجأ التنظيم إلى استخدام المواقع الأثرية نقاطاً عسكرية تحصينية، كما فعل في تل براك، وتل

(44) على سبيل المثال: نشير إلى أن التقارير المنشورة في www.Desteya-shunwaran.com تذكر أن فرق المتابعة رصدت حصول تنقيب سري عبر استخدام آليات ثقيلة حفرت أكثر من 27 حفرة، بأحجام وأعماق مختلفة في تل مؤزر، جنوب غربي الحسكة.

احمدي، وتل محمد دياب، وتل الحريري، وجرف أجزاء منها، ورفع سواتر ترابية، وحفر خنادق وأنفاقاً ضمن التلال لاستخدامات عسكرية، كما في تل احمدي، تل البيعة، قصر البنات.

وتعرضت تلال للدمار خلال عمليات تبادل القصف العسكري، مثل تلال: خويرة، عجاجة، حلاوة، سويحات، منباقة، الشيخ حسن، الشيخ حمد، تل البيعة، حمام التركمان، تل العبر.

إن ما حصل لمتحف الرقة الواقع في وسط المدينة يشكل حالة كارثية متميزة، فقد تعرض للقصف والحريق، ونُهبت موجوداته بصورة شبه كاملة، وحُوّل إلى مطعم، ووُضعت مولدة كهربائية في حديقته الخارجية. ويُظن أن القطع المنهوبة نُقلت إلى مطار الطبقة العسكري، ثم اختفت، وبعد تحرير المطار وجد المعنيون بقايا قليلة منها مرمية.

3. مرحلة سيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد) والإدارة الذاتية في الجزيرة (2014-2021)

أعلنت الإدارة الذاتية في الجزيرة في مطلع 2014، وبدأت قوات سوريا الديمقراطية (قسد) العسكرية تسيطر على القسم الأكبر من مناطقها. ثم أُسست هيئة خاصة بالآثار بهدف حماية المواقع الأثرية من التعديات عليها، ومنع التجارة بالقطع الأثرية المنهوبة، وتوثيق حالة المواقع والمتاحف. وعُيّن كوادر شابة من المتخرجين في أقسام الآثار في جامعات دمشق وحلب والفرات.

وبذلك برز وضع جديد في مجال إدارة شؤون الآثار في محافظات الجزيرة الثلاث، ففي دير الزور لا توجد جهة مشرفة إشرافاً مباشراً، وفي الرقة تشرف هيئة الآثار التابعة للإدارة الذاتية وحدها، أما في الحسكة فتشرف الهيئة إلى جانب مديرية الآثار التابعة للنظام (في الحسكة وشعبة القامشلي) التي يداوم موظفوها في مكاتبتهم من دون أي دور عملي، ويحصل تعاون بين الطرفين عند اللزوم.

انتظم الوضع بصورة أفضل، حيث قامت الهيئة بجولات ميدانية لمتابعة حالة التلال الأثرية، وقمع المخالفات،⁽⁴⁵⁾ وحماية مقبرات متميزة للبعثات الأثرية الأجنبية، مثل مقر بعثة تل موزان، وأمنت موجودات مقبرات أخرى، مثل بعثات التلال (حموكر، ليلان، جاجر بازار، بيدر، فخيرية، تينير، خويرة)، وازدادت المراقبة والمتابعة. وتمارس الهيئة جزءاً من عملها بالتعاون مع أجهزة الأمن

(45) ورد في تقرير هيئة الآثار في الجزيرة رقم 126، أنها رصدت 56 مخالفة خلال سنة 2016، وحُوّلت إلى الجهات القضائية المختصة، راجع: www.Desteya-shunwaran.com

الداخلي (الأسايش) التي تلقي القبض على تجار الآثار، وتحجز المقتنيات المسروقة، وتحفظها في مكان مجهول.

والمثير في الأمر أن هيئة الآثار التابعة للإدارة نفسها، وشعب الآثار التابعة للنظام لا علم لها بمصير تلك القطع الأثرية. وهذا يعني أنها بعيدة عن إشراف مختصين، وقد يكون حفظها يحصل بطريقة غير علمية تعرضها للتلف بمرور الزمن، وبذلك ليس هناك معنى للحماية بهذا الأسلوب.

وثق العاملون في هيئة الآثار توثيقاً مفصلاً حال التلال الأثرية في الجزيرة معظمها، ونشروها في موقع الهيئة الإلكتروني، وأنجزوا أعمال الترميم في عدد من المواقع، أبرزها موقع تل بيدر وتل موزان (بتمويل من البعثة الأميركية المنقبة في الموقع) وبلاستفادة من دعم منظمات أوروبية، مثل منظمة (التحالف الدولي لحماية التراث في مناطق الصراعات ALIPH) السويسرية. وتحسن الوضع في متحف الرقة، حيث أعيد ترميمه بدعم من منظمة مدنية فرنسية تدعى La guild، ويقوم حالياً فريق ألماني وهولندي بالتعاون مع هيئة الآثار بمشروع لوضع قاعدة بيانات للقطع الأثرية الباقية فيه، والمكتشفة في مواقع المحافظة.

أنجزت الهيئة حملات توعية بين المواطنين لتوضيح أهمية المحافظة على التراث، وأقامت معرضاً تصويرياً لأهم المكتشفات الأثرية في المنطقة، وأعدت فيلماً وثائقياً عن آثار تل موزان، وعرضته في صالات عدة ضمن مناطق الجزيرة.

4. دور النظام السوري

لم يظهر لأجهزة النظام السوري أي دور في المحافظة على الآثار في الجزيرة السورية، باستثناء قيامها بنقل مقتنيات متحف دير الزور معظمها، ومن تبقى من الكوادر العاملة فيه إلى دمشق، ثم تحويل المتحف إلى مركز عسكري. كما حولت متحف الحسكة الواقع في وسط المدينة الذي كان في المراحل الأخيرة من إنشائه إلى مركز عسكري أيضاً.

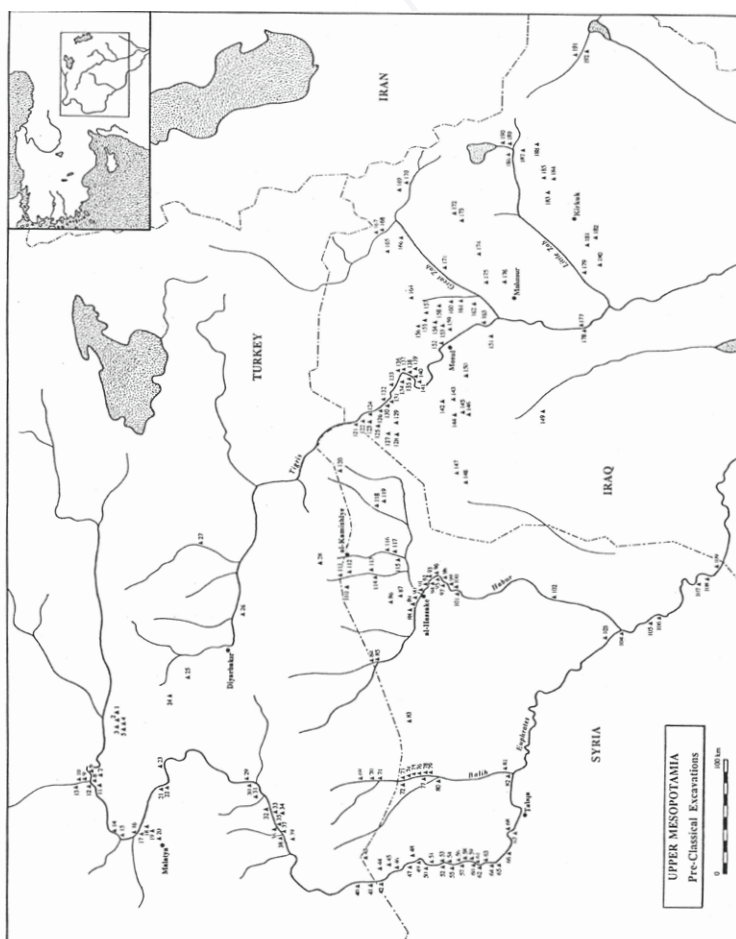
سادساً: آفاق المستقبل

ثمة مهمات كثيرة يجب التفكير فيها لتحسين الوضع الأثري في الجزيرة السورية وسورية عامة،

وذلك في مجال حماية المواقع الأثرية، والتنقيب الأثري، وتأهيل كوادر وطنية، وتنظيم العلاقة مع البعثات الأجنبية، والتوعية الشعبية بأهمية الآثار، والاهتمام بالمتاحف وتطويرها، وتنشيط المنشورات الثقافية والعلمية، وغير ذلك. ولا شك في أن ذلك يتطلب جهداً علمية وإدارية مكثفاً، ويمكن الاستفادة من مساعدات منظمات وجهات دولية تُعنى بالآثار والتراث الثقافي. ويمكن طرح تصورات أولية عما يمكن القيام به مستقبلاً؛ بعد الانتقال إلى مرحلة سياسية جديدة ونظام حكم مختلف، نوجزها بالآتي:

1. متابعة الآثار السورية المنهوبة التي وصلت إلى دول الجوار وغيرها، والمطالبة باستردادها؛ عبر القنوات الرسمية، ووفق القوانين الدولية.
2. زيادة عدد العاملين في مديريات الآثار، فليس من المنطق أن يشرف نحو عشرين موظفاً على أكثر من ألف موقع أثري في محافظة الحسكة، ولا يختلف الوضع في محافظتي دير الزور والرقعة، والمحافظات السورية الأخرى. وبالمقابل نجد أن أقسام الآثار تخرج سنوياً من 500 شاب وشابة في مقتبل العمر، ولا يجدون فرصة للعمل.
3. أن يكون في كل محافظة متحف خاص مناسب يضم آثار مواقعها، وفي الجزيرة بناء متحف مناسب في الرقة بعد دمار متحفها، وتأهيل متحف الحسكة شبه المنتهي، تمهيداً لنقل آثار المحافظة الموجودة في متحف دير الزور، وافتتاح صالات العرض فيه.
4. البعثات الأثرية الأجنبية المنقبة في سوريا عامة كثيرة العدد، بلغت حتى الآن نحو مئة بعثة، وهو أمر يحتاج إلى مراجعة للتحقق من مؤهلاتها، وإنجازاتها، ووضع ضوابط لعملية النشر العلمي للمكتشفات، فقد تبين من الوضع السابق أن بعثات كثيرة تتوقف عن العمل سنوات ثم تعود، وأخرى تتأخر في نشر نتائج أعمالها سنوات عديدة من دون مبرر.
5. التوقف عن أكذوبة (بعثة...-سورية مشتركة)، والبدء بتأهيل كوادر وتشكيل بعثات تنقيب وطنية، وذلك ببذل الجهد لتحقيق عودة عدد وفير من الباحثين السوريين في المهجر، وفرض تدريب طلاب الآثار في الجامعات السورية ضمن البعثات الأجنبية، بأن تضم كل بعثة عدداً صغيراً منهم، خلال مواسم التنقيب التي تتم عادة خلال العطلة الدراسية الصيفية.
6. التعاون والتنسيق مع وزارة التعليم العالي لتطوير مستوى أقسام الآثار في الجامعات؛ من حيث المناهج والبرامج التدريبية العملية. لقد تأخرت سوريا كثيراً في افتتاح أقسام الآثار في الجامعات، فقد افتتح القسم لأول مرة في جامعة دمشق 1996؛ أي بعد أن كانت عشرات البعثات الأجنبية تنقب في سورية. وشهدت الآونة الأخيرة افتتاح ستة أقسام جديدة بشكل اعتباطي؛ فهي تفتقر إلى الكوادر التعليمية، ويدرس فيها غير المتخصصين غالباً، ما يؤدي إلى تخريج أعداد كبيرة لا تمتلك معرفة حقيقية بالتخصص.

7. التنسيق مع وزارة السياحة لتنشيط السياحة الأثرية، فمقومات الجذب السياحي متوافرة بشكل واسع في سورية، ويمكنها أن تكون إضافة مهمة إلى الاقتصاد الوطني. ارتباط الآثار بجوانب الحياة الثقافية أمر صحيح، ولكنها من الناحية العملية ذات مسالك خاصة. ولذلك فإن ارتباطها بوزارة الثقافة يؤدي -كما بينت تجربة الفترة الماضية- إلى هامشية الاهتمام بها، ومن الأفضل أن تكون ضمن اهتمام وزارة خاصة بها؛ كما هي الحال في مصر.



المصور (1): المواقع الأثرية المنقبة في الجزيرة السورية

Anastasio, Stefano, The Archaeology of Upper Mesopotamia, 348.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. إسماعيل. فاروق، «الحوريون في بلاد آبوم خلال العصر البابلي القديم»، مجلة النقوش والرسوم الصخرية، ع 1، (عمّان: 2007).
2. —، «الكتابات المسمارية المكتشفة في تل بيدر»، مجلة المعرفة، ع 492، (دمشق: 2004).
3. —، شبت إنليل «تل ليلان» حاضرة الجزيرة السورية في القرن 18 ق.م (دمشق: دار الزمان، 2018).
4. خوليديس. نادية، لوتس مارتين، تل حلف والمنقب الأثري فون أوبنهايم، فاروق إسماعيل (مترجمًا)، (دمشق: دار الزمان، 2006).
5. الكعبي. عبد الحكيم، الجزيرة الفراتية وديارها العربية (ديار بكر، ديار ربيعة، ديار مضر): دراسة في التاريخ الديني والسياسي والاجتماعي قبل الإسلام، (دمشق: دار صفحات، 2009).

بلغة أجنبية

1. Akkermans, Peter M., I. Rossmesl, "Excavations at Tell Sabi Abyad, Northern Syrien: A Regional Centre on the Assyrian Frontier", Akkadica, 66, (Brussel: 1990).
2. Anastasio. Stefano, The Archaeology of Upper Mesopotamia. An Analytical Bibliography for the Pre-Classical Periods, Subartu I, (Turnhout: Prepols Publishers, 1995).
3. Buccellati. Federico, Three-dimensional Volumetric Analysis in the Archaeological Context. The Palace of Tughlati at Urkesh and its Representation, (Malibu: Undena Publications, 2016).
4. Buccellati. Georgio and Marilyn-Kelly Buccellati, "Terqa", in: Eric M. Meyers (Ed.) The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, Vol. 5, (Oxford: Oxford Uni-

versity Press, 1997).

5. -----, „Der monumentale Palasthof von Tall Mozan/Urkeš und die stratigraphische Geschichte des ābi“, Mitteilungen der Deutschen-Orient Gesellschaft zu Berlin, 136, (Berlin: 2004) 13-39.

6.-----, „Urkesh and the Question of the Hurrian Homeland“, Bulletin of the Georgian National Academy of Sciences, 175, (2007) 141-150.

7. Buccellati, Giorgio “The Semiotics of Ethnicity: The Case of Hurrian Urkesh”, Festschrift für Gernot Wilhelm (Dresden: ISLET, 2010).

8. Bunnens, Guy, Tell Ahmar I; 1988 Season, (Leuven: Peeters, 1990).

9. -----, Tell Ahmar II: a new Luwian Stele and the cult of the Storm-God at Til Barsib-Masuwari, (Louvain: Peeters, 2006).

10. Cancik-Kirschbaum. Eva, Die Mittelassyrischen Briefe aus Tall Šēḫ Ḥamad. Berichte der Ausgrabung Tall Šēḫ Ḥamad/Dūr-Katlimmu Bd. 4, (Berlin: 1996).

11. Charpin. Dominiq — Nele Ziegler, Mari et le Proche-Orient à l' époque amorrite. Essai d'histoire politique, FM V (Paris: sepoa, 2003).

12. Friedrich. Johannes, G. Rudof Meyer, Arthur Ungnad, Ernst F. Weidner (Ed.), Die Inschriften vom Tell Halaf, Archiv für Orientforschung, Beiheft 6 (Berlin: 1940).

13. Galter. Hannes D., „Die Torlöwen vo Arslan Tash, Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 97, (Wien: 2007).

14. Gates. Marie-Henriette, “The Palace of Zimri-Lim at Mari”, The Biblical Archaeologist, Vo. 47(1984), 2/).

15. Hammade. Hamido, Tell ‘Abr. In: Rouault, O. and Masetti-Rouault, M. (Eds.) L’Euphrate e il tempo, Le civiltà del medio Eufrate e della Gezira siriana, (Milano: 1993).

16. Hammade. Hamido and Yayoi Yamazaki, Tell al-'Abr (Syria) Ubaid and Uruk Periods, (Louvain: Peeters, 2006).
17. Kalla. Gábor, „Das ältere Mosaik des byzantinischen Klosters in Tall Bi'a“, Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft zu Berlin, 123 (Berlin: 1991).
18. Krebernik. Manfred, Die Altorientalischen Schriftfunde, Ausgrabungen in Tall Bi'a/Tuttul, Band II, (Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag, 2001).
19. Kühne. Hartmut, Tell Sheikh Hamad – The Assyrian-Aramaean Centre of Dūr-Katlimmu/Magdalu, in: Dominik Bonatz-Lutz Martin (Eds.), 100 Jahre archäologische Feldforschungen in Nordost-Syrien – eine Bilanz, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2013).
20. Layard. Austen Henry, Discoveries in the Ruins of Niniveh and Babylon; with Travels in Armenia, Kurdistan and the Desert. (London: 1853).
21. Mallowan. Max, Twenty-five Years of Mesopotamian discovery, (London: 1956).
22. McEwan. C. W. et al., Soundings at Tell Fakhariyah, (Chicago: Oriental Institute Publications 79, The University of Chicago, 1957).
23. Mesnil du Buisson. Le Comte, Baghouz, l'ancien Corsote, (Leiden: 1948).
24. Milano. Lucio, The Epigraphic Finds of the Sixth Season, (Malibu: Undena Publications, 1991).
25. Oates. David -Joan Oates-Helen McDonald, Excavations at Tell Brak, Vol. 1: The Mitanni and Old Babylonian Periods, (London: British School of Archaeology in Iraq, 1997).
26. Orthmann. Winfried, Tell Chuera in Nordost Syrien. Bericht über die Grabungskampagnen 1986 bis 1992, (Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag, 1995).

27. Orthmann, Winfried Die aramäisch-assyrische Stadt Guzana, (Wiesbaden: Harrassowitz, 2005).
28. Peltenburg. Edgar, „Tall Ġarabluš-Taḥtani“, in: Hartmut Kühne (Ed.), Archäologische Untersuchungen in Syrien (5), Archiv für Orientforschung, 40-41, (Wien, 1993-1994).
29. Podany. Amanda H., Hana. Kings, Chronology and Scribal Tradition, (Bethesda: CDL Press, 2002).
30. Poidebard. A. „Mission archéologique en Haute Jezireh, Automne 1927“, Syria, 9, (Paris: 1928).
31. Radner. Karin, Die neuassyrischen Texte aus Tall Šēḥ Ḥamad, Berichte der Ausgrabung Tall Šēḥ Ḥamad / Dūr-Katlimmu Bd. 6, (Berlin: 2002).
32. Steinkeller. Piotr, The Historical Background of Urkesh and the Hurrian Beginning in Northern Mesopotamia“, in: Buccellati, Giorgio and Marilyn-Kelly Buccellati (Ed.), Urkesh and the Hurrians. Studies in Honor of Lloyd Costen, (Malibu: Undena Publications, 1998).
33. Strommenger. Eva, Kay Kohlmeyer, Ausgrabungen Tall Bi‘a/Tuttul, Band I, (Saarbrücken: Saarbrücker Druckerei und Verlag, 1998).
34. Thureau-Dangin. François— Maurice Dunand, Til Barsip, (Paris: P. Geuthner, 1936).
35. Thureau-Dangin. François et al., Arslan Tash, (Paris: P. Geuthner, 1931).
36. Tunca. Önhân et al., Chagar Bazar (Syrie) I: Les Sondages Préhistoriques (1999-2001), Publications de la Mission Archéologique de L’Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2007).

37. Tunca. Önhan et al., Chagar Bazar (Syrie) II: Les vestigs "Post-akkadiens" du chantier D et études diverses, Publications de la Mission Archaeologique de L'Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2007).

38. -----., Chagar Bazar (Syrie) III: Les trouvailles épigraphiques et sigillographiques du chantier I (2000-2002), Publications de la Mission Archaeologique de L'Université de Liège, (Leuven: Peeters Publishers, 2008).

39. van Loon, Maurits N. (Ed.) Hammam et-Turkman I, (Istanbul: 1988).



القضاء العشائري في الجزيرة الفراتية

أنطون قس جبرائيل⁽¹⁾

ملخص البحث

لسنوات عدة سابقات لعام 2011 تراجعت ظاهرة لجوء المتخاصمين (في الجزيرة الفراتية) إلى القضاء العشائري لحل خلافاتهم، إلا أن غياب سلطة الدولة بعد الأحداث التي عصفت بسورية، وعدم قدرة سلطة الأمر الواقع (الإدارة الذاتية لشمال سورية وشرقها) على تقديم بديل قضائي مقبول جعل أعداد الراغبين في حل خلافاتهم عن طريق القضاء العشائري بازدياد ملحوظ.

يقدم هذا البحث دراسة تحليلية للقضاء العشائري في منطقة الجزيرة الفراتية التي تشمل المحافظات السورية الثلاثة (الحسكة ودير الزور والرقعة). ويدرس البداوة بوصفها ظاهرة سكانية، ويتحدث عن خصائصها، ويورد عدداً من التعريفات المهمة التي تساعد في مقاربة الموضوع. ويقدم لمحة عن الطرائق المتبعة لحل الخلافات لدى العشائر العربية والكردية وبقية المكونات السكانية في الجزيرة الفراتية. ويلقي الضوء على محاولات توطين البدو تاريخياً وقانونياً، وأثار التحضر في بدو المنطقة، وإيجابيات القضاء العشائري وسلبياته وصولاً إلى نتيجة مفادها عدم تمكن القضاء العشائري من أن يكون بديلاً من القضاء الرسمي في حال استقرار الأحوال ووجود سلطة الدولة والقانون.

أولاً: المقدمة

عُرِفَ القضاء السوري تاريخياً بنزاهته، وسرعته في الفصل في القضايا، والفهم القانوني المتميز لدى القضاة والمحامين السوريين. إلا أن تلك السمعة الحسنة بدأت بالتلاشي شيئاً فشيئاً مع انتشار الفساد في الجسم القضائي، ولم يعد للأعداد المحدودة من القضاة والمحامين النزهاء القدرة على

(1) محام سوري، محكم دولي ومحلي، مؤسس ورئيس مجلس إدارة مركز الشرق للتوفيق والتحكيم التجاري الدولي والمحلي.

إعادة الأمور إلى جادة الصواب، وبات القضية عرضة للنقل التعسفي أو التسريح في ما لو تجرأ أحدهم وأصدر قراره بالقضية المعروضة أمامه وفق أحكام القانون، وبما يمليه عليه ضميره خلافاً لرغبة هذا المسؤول أو ذاك المتنفيذ.

وبعد الأحداث التي عصفت بسورية عام 2011 ازدادت أحوال القضاء سوءاً، إما لتدمير مباني المحاكم، أو لهرب القضاة والموظفين العدليين للنجاة بأرواحهم بعد تدهور الأوضاع الأمنية، أو لصعوبة وصول المتداعين إلى المحاكم. لهذه الأسباب وغيرها من مثل إطالة أمد التداعي، وتكلفة التقاضي العالية، عمد كثير من المتخصصين إلى اللجوء إلى التوفيق والتحكيم التجاري في المدن، وإلى القضاء العشائري في الأرياف. وحيث إن الدراسات التي تتعلق بموضوع القضاء العشائري في الجزيرة الفراتية قليلة جداً، لذا فإن البحث يهدف إلى سد هذه الفجوة ولو جزئياً.

ثانياً: منهجية البحث

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي حيث يدرس البداوة بوصفها نمط معيشة ويدرس خصائصها، ولتوضيح مفهوم القضاء العشائري يدرج عدداً من التعريفات المهمة. ويتطرق البحث إلى محاولات توطين البدو، وآثار التحول إلى التحضر في بدو الجزيرة الفراتية، وأخيراً يقارن البحث بين سلبات القضاء العشائري وإيجابياته في محاولة لمعرفة مدى إمكان حله بديلاً من القضاء الرسمي.

ثالثاً: البدو

عرّف حليم بركات في كتابه (بحث في تغير الأحوال والعلاقات) البداوة بأنها:

((نمط معيشة متميز، يقوم في أساسه على تربية المواشي والإبل والأغنام والترحال بحثاً عن الماء والكأ، تلازماً مع البيئة الصحراوية أو البادية، فقد نشأ هذا النمط من المعيشة في البادية (في البداية أو بدء الحياة في الصحراء) وتكوّن تاريخياً نتيجة تفاعل دائم وعميق ولزمن طويل مع هذه البيئة.))⁽²⁾

(2) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000)، ص 187.

وأشار ابن خلدون إلى أن وجود البدو متقدم على وجود المدن، ووصف طباعهم بالقول:

((وقد صار لهم البأس خلقاً، والشجاعة سجية. إن البدو لا ينقادون إلى السياسة وهذه طبيعة منافية للعمران ومناقضة له... فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم.))⁽³⁾

والبدواة بوصفها ظاهرة سكانية لها خصائص جعلت أسلوب حياة البدوي متميزاً من سواه من أساليب حياة المجموعات السكانية الأخرى في كل من القرى والأرياف والمدن. وهذه الاختلافات تظهر في مستويات عدة. ففي المستوى الاجتماعي تمتاز حياة البدو بالبساطة، وعدم التعقيد، وذلك يمتد ليشمل المستوى الصحي والثقافي أيضاً. ويصف الدكتور إبراهيم المشهداني أبرز خصائص الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية البدوية بالآتي:

((... فبيوتهم بسيطة، تتكون عادة من الخيم التي يسهل نقلها، وملابسهم مقتصرة على ما يرتدونه، وطعامهم مقتصر على إنتاجهم، وتسود بينهم روح القبيلة التي تملها عليهم ظروف البيئة بما تتطلبه من تعاون وتقارب، وتسود بينهم حياة مشتركة ويتساوى بينهم الغني والفقير، ومركزهم الاجتماعي يتوقف على نسبهم ونشاطهم في الدفاع عن قبيلتهم... لا زالت الحياة الاقتصادية للمجتمع البدوي بسيطة، وليست معقدة، فهم يكتفون بالأشياء الضرورية، كما أن احتياجهم محدود، نتيجة لطبيعة حياتهم، ففي الوقت الذي يبذل سكان المدن أقصى جهودهم في بناء البيوت وتأثيرها نجد الجماعة البدوية تكتفي بخيمة بسيطة بجانب بعض الأثاث الذي يسهل نقله... لا زالت بعض القضايا السياسية والإدارية غير واضحة بالنسبة للمجموعات البدوية فحركتها الواسعة تجعلها لا تعترف بالحدود السياسية، وقلة ثقافتها جعلتها تجهل المفاهيم الإدارية، الحديثة، لذلك فقد جاءت معظم الحكومات في المنطقة العربية مشكلة تتعلق بأحوال المجموعات البدوية.))⁽⁴⁾

إن السعي إلى تحقيق الأمن البدوي في مستوى الفرد والعشيرة، وتحقيق العدالة والاستقرار الاجتماعي، والبعد عن أعين السلطة المركزية (التي كانت تكتفي بولاء القبائل السياسي لها تاركة لشيوخهم مهمة إدارة شؤونهم) إضافة إلى أسباب أخرى، جعلت البدوي يتمسك بالأعراف العشائرية، ويعمل على تقنينها وتطويرها وتكريس مبدأ سيادتها في مجتمعه، حتى أصبحت جزءاً من موروثه من الصعب عليه مخالفتها، لما تتمتع به من مؤيدات اجتماعية، قد تصل إلى حد تخلي العشيرة عنه، ونبذ انتمائه إليها، وهذه أقصى عقوبة يمكن أن يتلقاها البدوي.

(3) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، علي عبد الواحد وافي (محققاً)، ج4، (القاهرة: لجنة البيان، 1957-1962)، ص 165.

(4) إبراهيم المشهداني، محاضرات في جغرافية العالم العربي، ج1، (بغداد: جامعة بغداد، 1969)، ص 133-134.

رابعاً: التعريفات المهمة

ولتوضيح مفهوم القضاء العشائري وفق ما يقتضيه سياق هذا البحث، نورد تعريفات بعض المصطلحات المهمة للأعراف والعادات العشائرية:

1. القضاء العشائري: أسلوب أو طريقة أو نهج يُلجأ إليه في حل النزاعات أو الخلافات معتمداً على مجموعة من المفاهيم والقيم المتفق عليها التي لاقت قبولاً لدى العشائر البدوية ويرونها ملزمة.⁽⁵⁾ مع التنبيه إلى أن مرونة القضاء العشائري ساعدت في بقائه وتكيفه مع محيطه على الرغم من المتغيرات في الزمان والمكان.

2. العرف العشائري: هو ما تعارف عليه أبناء العشيرة الواحدة والعشائر الأخرى في ما بينهم من عادات وتقاليد وأعراف، اعتادوها في حياتهم اليومية، وعدّوها مرجعاً خاصاً بهم، ((فالعرف العشائري هو قانون غير مكتوب، ولكنه محفوظ في صدور القضاة المعنيين بالعرف العشائري، لحل الخلافات والنزاعات القائمة بين القبائل والعشائر جميعها في المحافظة)).⁽⁶⁾ وهو بذلك القانون البدوي الذي يهدف من حيث النتيجة إلى تكريس مبدأ السلم الأهلي والعيش المشترك.

العارفة: هو القاضي العشائري ويتميز غالباً بالفطنة والمعرفة الواسعة بأنساب العشائر وذو دراية بعلاقاتهم، وله منزلة اجتماعية، ويتصف بالنزاهة والقدرة على الحوار، وغالباً ما يكون سليل أسرة مارست القضاء العشائري ومشهود لها بالعدل والهيبة، ويعتمد العارفة في حكمه على العرف العشائري والشريعة الإسلامية والاجتهاد الشخصي والقياس.⁽⁷⁾ مما سبق يتضح أن العارفة هو الشخصية المحورية في القضاء العشائري الذي أدى خدمات كثيرة للمجتمع البدوي بفضل بعد نظره، ومخزونه المعرفي، وقدرته على حل المشكلات بأسلوب واقعي بعيداً من الأهواء والمحسوبيات وغير ذلك.

3. البشعة: هي عملية يوضع فيها قضيب حديد ملتهب على لسان المتهم، وتستخدم عندما لا تتشكل القناعة التامة لدى العارفة، فيرسل المتهم إلى شخص يدعى (المبشع) الذي ينجز الأمر

(5) ثابت محمود سالم، القضاء العشائري عند قبائل بئر السبع، (غزة: أم الكتاب للأبحاث والدراسات الإلكترونية، 2006)، ص 21.

(6) رامي المنادي، وآخرون، القضاء العشائري في دير الزور أدوار محلية في بناء السلم المجتمعي، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2021)، ص 9.

(7) معلومات استقاها الباحث من الشيخ عباس متعب السلطان من عشيرة جبور بالحسكة، وقوطعت عبر اتصالات مع عدد من وجهاء العشائر في منطقة البحث.

بحضور المدعي أو وكيله، وبكل سرعة ولباقة يسمح لسان المتهم بالقضيب، ثم يعطيه شربة ماء، فإذا حدث ضرر في اللسان يعلن (المبشع) أن لاقع النار مجرم، وبالعكس إذا لم يحصل ضرر للسان، أعلن المبشع براءة المتهم من الجرم المنسوب إليه⁽⁸⁾.

4. شيخ القبيلة: هو أحد أفرادها المسؤول عن كل ما يخص القبيلة تقريباً، لذلك فهو صاحب السلطة العليا في أمورهم كلها، وهو الذي يحفظ أنسابهم، ويعين لهم أوقات الترحال والمناطق التي يرى أنها أجدى للرحيل إليها، وعليه أيضاً أن يقوم بواجبات الضيافة⁽⁹⁾. ولا يعني ذلك تفرد به بممارسة مهمات المشيخة، بل هو عادةً يعتمد على مشورة رؤساء (الأفخاذ) وكبار السن وذوي الخبرة في معرض ممارسته مسؤولياته.

5. الرزقة: هي رسم المحاكمة الذي يدفعه أحد الخصمين للقاضي العشائري، وهي

6. الوثاقة (الوسقة): وهي طريقة يلجأ إليها الدائن أو مجيره بعد أن يرفض المدين طلب مقاضاته، حيث يعمدان إلى مصادرة أموال أي فرد من أسرة المدعى عليه أو عشيرته، وهي طريقة مخالفة للشرع، وقد نشأت من كون أفراد العشيرة أو الأسرة متكاتفين⁽¹⁰⁾. وهي إحدى الطرائق التي أدى تحضر بدو الجزيرة الفراتية إلى الاستغناء عنها.

7. العطوة: هي المدة الزمنية التي يمنحها أهل المجني عليه للجاني وأهله بعد وقوع الجناية مباشرة، نتيجة توسط أهل الخير⁽¹¹⁾. وقد أثبتت العطوة جدواها في وأد الفتنة، وحقق دماء المتخاصمين.

8. الجاهة: مجموعة من الرجال ذوي المنزل، يتدخلون بين المتنازعين، ويطلبون عطوة (مدة زمنية) يحاولون خلالها حل الخلاف، ولو على حسابهم الشخصي، وغالباً يرفضون أي تعويض مادي، ويقومون بالمبادرات ذاتياً أو بعد الطلب منهم بأخذ هدنة أو عطوة وتكون الجاهة حيادية⁽¹²⁾. وعملياً ثبت أنه كلما كانت الجاهة تضم أشخاصاً ذوي منزلة اجتماعية مرموقة، وعرفوا بالنزاهة، كانت النتائج أكثر إيجابية، وأسرع في حل النزاع.

(8) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ط2، (دمشق: دار الفكر، 1983)، ص259.

(9) مكي الجميل، البدو والقبائل الرحالة في العراق، (بغداد: مطبعة الرابطة، 1956)، ص41.

(10) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ص270.

(11) إدريس محمد جرادات، الصلح العشائري وحل النزاعات، (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2014)، ص32.

(12) إدريس محمد جرادات، الصلح العشائري وحل النزاعات، ص39.

9. الكفيل: هو شخص يلتزم بإحضار الذي يكفله بأي صورة، وضمان ما يترتب عليه من واجبات، وهي أنواع أهمها: كفيل دفع أي دفع كافة ما يستحق لصاحب الحق (المجني عليه)، وكفيل دفا أي حماية الجاني من اعتداءات المجني عليه⁽¹³⁾. وفي الواقع فإن الرجال المشاركين في الجاهة كلهم يعدّون كفلاء (معنويين) لمن كلفهم بإنهاء الخلاف.

10. الدخالة: حالة يكون فيها الجاني قد ارتكب جريمة من الكبائر (العرض، الدم)، فيذهب خوفاً على نفسه إلى رجل عزيز في قومه يطلب منه الحماية⁽¹⁴⁾. وما زالت الدخالة منتشرة بين القبائل العربية، وما يزال (حامي الدخيل) يبذل أقصى مساعيه لإنهاء الخلاف وحماية الدخيل.

11. الطنب: وهي حالة تشبه الدخالة يقوم بها شخص ضعيف وخصمه أقوى منه، ولا يريد أن يعطيه حقه، فيلجأ إلى رجل قوي، ويطلب عليه لأخذ حقوقه من المنكر⁽¹⁵⁾. وكالوثاقة أصبح الطنب في الجزيرة الفراتية إحدى الطرائق التي أدى التحضر إلى الاستغناء عنها.

خامساً: طرائق تسوية المنازعات وفق العرف العشائري

كان للأعراف والعادات؛ ومن ثم للقضاء العشائري، منزلة متميزة لدى البدو على الرغم من أن بعض الباحثين جانبوا الصواب في تعريفه، ومنهم الباحث أحمد وصفي زكريا في كتابه (عشائر الشام) الذي جاء فيه:

((القضاء عند البدو يتبع العرف والعادة، وليس ثمة قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة، وهذا القضاء في أيدي شيوخ العشائر ... وهم إذا لم يتولوا القضاء بأنفسهم ينيبون عنهم رجالاً أخصائيين في القضاء البدوي يدعونهم (عوارف) جمع عارفة، والشيخ أو العارفة يحكم من بنات أفكاره، بما اكتسبه من الاختبار والتعامل القديم والوقائع السابقة المناسبة.))⁽¹⁶⁾.

وهذا دليل على أن للتقاضي البدوي منهجاً منظماً يستند إلى المنطق في سعيه لتحقيق العدالة.

(13) إدريس محمد جرادات، الصلح العشائري وحل النزاعات، ص 40.

(14) إدريس محمد جرادات، الصلح العشائري وحل النزاعات، ص 41.

(15) إدريس محمد جرادات، الصلح العشائري وحل النزاعات، ص 41.

(16) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ص 257.

وعملياً كانت طرائق تسوية المنازعات ترتبط بمدى خطورها، ففي القضايا البسيطة كانت تنتهي الخصومة عادة باعتذار الطرف المعتدي. أما حل القضايا الأكثر خطراً، فكان يتم عن طريق الصلح بين الطرفين بوساطة طرف ثالث محايد، غالباً ما يكون شيخ عشيرة أو وجهاً له منزلته في المجتمع، ويتصرف وفق العادات المتعارف عليها. أما في القضايا الكبيرة التي استعصت على الحلول الودية، فتمارس الضغوط على الطرفين المتنازعين للجوء إلى القضاء العشائري بغض النظر عن نتيجة الحكم الذي سيصدر، لأن العشائر كانت تخشى أن يؤدي إهمال القضية إلى تفاقمها، وحدوث ما لا تحمد عقباه. وعادة يتفق الطرفان على تسمية (العارفة) الذي سينظر في الخلاف وفق الأعراف العشائرية⁽¹⁷⁾.

أما إجراءات الصلح العشائري، فتختلف بحسب الزمان والمكان، وعادة تبدأ بالاتصالات الأولية لأخذ (العطوة)، يليها اختيار الشخصيات التي ستشارك في (الجاهة)، وترتيب اجتماعها (ويجب ألا تضم الجاهة أحد أقرباء المتهم)، ويختار ذوو المجني عليه شخصاً للتحدث باسمهم غالباً ما يكون كبيرهم، وتنتهي المساعي عادة بالموافقة على (الدية) والشروط التي يكفلها (كفيل الوفا)، وأخيراً تُنظم وثيقة خطية تثبت الصلح، وتعلن انتهاء حالة العداء بين الطرفين⁽¹⁸⁾.

وهكذا يمكننا الاستنتاج بأن هناك نوعاً من التصنيف للقضايا كما هو الحال في القانون المدني والجزائي، فالبدوي بفطرته اهتدى إلى وجوب أن تكون المحاكم ذات درجات تناسب مع جسامته الجرم أسوة بتقسيم المحاكم العادية إلى (محاكم صلح وبداية واستئناف ونقض). ذلك كله بهدف إحقاق الحق، وجبر الضرر، والحيلولة دون تفاقم النزاعات. وهذه أدلة تثبت مدى الوعي الذي كان البدو قد توصلوا إليه في تنظيم علاقاتهم مع الآخر ومع بعضهم، وتدحض الافتراءات التي تنال منهم وتصممهم (تعسفاً) بالهمجية.

وإن القضاء العشائري الذي يتألف من درجات عدة يتفق على طرائق إثبات تكاد تكون واحدة في الحالات جميعها مع التنبيه إلى أن عدداً من طرائق الإثبات التي أوردها الباحث محمد حمدان أبو حسان، وسيرد ذكرها أدناه، قد أصبحت في منطقة الجزيرة الفراتية بحكم المنسية. وهذه الطرائق هي (بتصرف واختصار):

أ. الاعتراف: ويُقسم إلى الاعتراف الصريح الذي يدلي به المتهم بنفسه أو كبير قومه، والاعتراف الضمني، كأن يقوم المتهم أو أقاربه بتصرفات تدل على ذلك من مثل الجلاء أو التفاوض من

(17) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ط55، (عمان: مدينة الثقافة الأردنية، 2017)، ص 164.

(18) علاء ناجي، «الصلح العشائري ودوره في تحقيق العدالة الاجتماعية»، موقع شبكة نبأ المعلوماتية، (2018/08/20).

أجل الصلح... إلخ.

أما بالنسبة إلى قيمة الاعتراف، فإنه يقول: ((والبدو مثل المحاكم الحديثة لا يأخذون الاعتراف مسلماً به إذ لربما يُقصد بالاعتراف إخفاء مرتكب الجريمة الحقيقي... إلخ))⁽¹⁹⁾. في هذه الحالة يبقى الاعتراف الصادر من المتهم أو من كبير قومه محض دليل يجب التأكد من صحته وعدم الأخذ⁽²⁰⁾ به على عواهنه.

ب. اليمين: هي صيغة درجت المحاكم العادية على الطلب من الشاهد قولها قبل الإدلاء بشهادته، وصيغتها على الأغلب هي (أقسم بالله العظيم أن أقول الحق دون زيادة أو نقصان). ويترافق مع أدائها وضع اليد اليمنى للشاهد على الكتاب الذي يؤمن به. أما في القضاء العشائري، فإن اليمين إما أن تتم بشكل فردي، أو يمين بخمسة، وهي عادة قديمة يزكي فيها أربعة شهود من أقارب المتهم اليمين التي حلفها على أنه بريء، وإنّ تخلّف أحد الشهود الأربعة عن حلف اليمين على صدق المتهم يجعله يخسر القضية. واستطراداً فقد أورد الباحث أبو حسان حالة فريدة من نوعها، وهي (حلف اليمين عن الغير) حيث يقول: ((... كما أباحت للشخص المعروف بصدقه في عشيرته أن يحلف اليمين عن أي قريب له في حدود قرابة الدرجة الخامسة))⁽²¹⁾. وهذه حالة غريبة لا تتعدى مفهوم التزكية استناداً إلى الثقة الكبيرة بالشخص المعروف بصدقه، ولم يُعرف ما إذا كان معمولاً بها في الماضي في الجزيرة الفراتية.

ج. الشهود (الورود): يشترط في الشاهد أن يكون مشهوراً بالصدق وعفة النفس وحسن السيرة والسلوك، وللقاضي البدوي صلاحية الاستماع إلى الشهود، ومناقشتهم، ولكل من الطرفين هذا الحق⁽²²⁾. وفي هذا الأمر يتشابه القضاء العادي والعشائري اللذان يتيحان للمتخاصمين مناقشة الشهود سعياً للوصول إلى الحقيقة.

د. قص الأثر: وهو من طرائق الإثبات التي تعتمد القدرة على تتبع الآثار إلى مسافات طويلة بحيث يستطيع القصاص أن يتعرف على صاحب الأثر من إنسان أو حيوان أو يحدد كل ما يتعلق بقدمه أو حذائه من تفاصيل تساعد على كشف الجريمة. ويعد قص الأثر من أهم الأساليب التي تؤدي إلى اكتشاف الجرائم في المجتمع البدوي، إلا أن القاضي البدوي لا يعترف

(19) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 203-206.

(20) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 207.

(21) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 213.

(22) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 223.

إلا بخبرة القصّاص الذي سبق ونجح باقتفاء الأثر في حوادث سابقة⁽²³⁾. وهنا التشابه كبير مع التحريات التي تجريها أجهزة (الشرطة) بعد وقوع الجريمة، حيث للقاضي الجنائي كما للعشائري الحق في الاستناد إليها كأدلة للإثبات أو النفي وفق القناعة التي يكونها من مجمل مجريات القضية.

هـ. البشعة: وقد سبق التحدث عنها في التعريف رقم (4) من هذا البحث، وإضافة إلى التعريف يقول محمد حمدان أبو حسان في المرجع السابق ذكره إن أكثر البدو يفضلون اللجوء إلى عملية البشعة على باقي طرائق الإثبات الأخرى في حالة عدم استطاعة المدعي إثبات دعواه لأنهم يرون بأن البشعة (تخيف من لا يخاف من الله)⁽²⁴⁾. وهي طريقة مستهجنة ليس لها أصل في القواعد الشرعية أو القانونية، ولم يعد التعامل بها جاريًا.

و. القيافة: وهي أسلوب لإثبات النسب بطريق الشبه للإنسان والحيوان⁽²⁵⁾. وهذا أمر تفردت به القبائل البدوية يدل على مدى ما يتمتع به البدوي من فطنة ودقة الملاحظة.

ز. المناداة: وهي قيام المدعي الذي لا يستطيع إثبات ادعائه باستحلاف الموجودين ليعلموه ما لديهم من معلومات حول القضية التي يسأل عنها⁽²⁶⁾.

ح. طريقة المنقط: وهي من وسائل الإثبات المعترف بها بين البدو. والمنقط يفترض به أن يكون من الأشخاص الصالحين المعروفين بالأمانة والصدق، وبحضور الطرفين يحضر المنقط نارًا كثيفة يتصاعد منها الدخان بكثرة، ويبدأ بإحراق البخور، ثم يبدأ جسمه وأعضاؤه كلها بالارتجاف، ويخرج الزبد من فمه، ثم يعلن النتيجة سواء كانت بالبراءة أم الإدانة⁽²⁷⁾. وهذه الطريقة تشبه طريقة البشعة التي تحدثنا عنها سابقًا، وطريقة التوسيد المذكورة لاحقًا، وجميعها طرائق مستهجنة ليس لها أصل في القواعد الشرعية أو القانونية، وهي تعود إلى معتقدات قديمة سابقة لظهور الإسلام تتعلق بالسحر والكهانة، ولم يعد يلجأ إليها أحد وبخاصة في الجزيرة الفراتية.

(23) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 230.

(24) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 238.

(25) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 251.

(26) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 254.

(27) محمد حمدان أبو حسان، تراث البدو القضائي، ص 257.

ط. طريقة التوسيد: وهي طريقة يأخذ فيها المشتكي -بالاتفاق مع المتهم أو من دون اتفاق- شيئاً من ملابس المتهم أو شعرات عدة من جسمه، ويسلمها (للمتوسد) الذي يضعها تحت الوسادة التي ينام عليها، وبعد أن يقوم في الصباح يعلن النتيجة⁽²⁸⁾.

إن صلاحيات القاضي العشائري في سعيه للوصول إلى الحقيقة تكاد تكون مطلقة، بخلاف القضاء الرسمي الذي يلزم القاضي المدني بالتقيد بأحكام (قانون البينات) التي لا تجيز إثبات العلاقات العقدية بالبيئة الشخصية (بوساطة الشهود).⁽²⁹⁾

ومما سبق نرى أن للقضاء العشائري منهجاً منظماً يستند إلى المنطق في سعيه لتحقيق العدالة.

سادساً: محاولات توطين البدو

تتالت المحاولات الهادفة لتوطين البدو في سورية بعامة، والجزيرة الفراتية بخاصة، وتحويلهم من البداوة إلى التحضر، وقد أدى تأثير هذه المحاولات إلى تسريع عملية التوطين هذه التي كانت ستتم حتماً بسبب عدد من العوامل التي سنتحدث عنها في (الفقرة السابعة)، وخصوصاً تدهور أحوال البوادي نتيجة انحباس الأمطار، وغير ذلك من الأسباب، وفي ما يأتي نورد أهم هذه المحاولات:

1. محاولة السلطنة العثمانية تشجيع العشائر البدوية العربية والكردية على التحضر، وقد أخفق برنامج الإعمار العثماني الأول في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن برنامجها الثاني نجح في تحويل بعض عشائر البدو الرحّل من نمط العشائر (الجمّالة) إلى نمط العشائر (الغنّامة)، ومن نمط العشائر الرحّل (الجواله) إلى الاستقرار النصف الرعوي -البعلّي⁽³⁰⁾.

2. تابعت سلطات الانتداب الفرنسي بعد سيطرتها على الجزيرة الفراتية اتباع سياسة تشجيع الإنتاج الزراعي، وإنشاء القرى عن طريق توسيع الحيازة الزراعية. وأدى ذلك إلى التنافس بين رؤساء العشائر ولا سيما الرعوية منها، وبخاصة بعد إصدار المفوضية الفرنسية قانون الأراضي الجديد (رقم 3339 لعام 1930) الذي أجاز لمن وضع يده على عقار ما وأحياء تسجيل

(28) المادة (55) من قانون البينات السوري رقم 59 لعام 1947 وتعديلاته.

(29) محمد جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 123-124.

(30) محمد جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 324-326.

- حق تصرفه به⁽³¹⁾، ما ساعد على تسريع وتائر تحول العشائر البدوية إلى حياة الاستقرار. ونصت المادة 113 من الدستور السوري الصادر في عهد الانتداب الفرنسي عام 1930 م على ما يأتي: ((تقوم بشؤون العشائر البدوية إدارة خاصة، تُحدد وظائفها في قانون تراعي فيه حالتهم الخصوصية.)) وعام 1940 صدر القرار رقم 132 الذي تضمن نظام العشائر⁽³²⁾.
3. أما خلال عهد الاستقلال، فقد ((اتبعت الحكومة القومية سياسة عشائرية عدوانية تهدف في نهاية المطاف إلى إلغاء جميع المزايا والسلطات العشائرية... واعتبر الانتقال إلى الزراعة وإلى مزارع تربية الأغنام النموذج المناسب، وهو ما دعمته وكالات إنمائية دولية مختلفة.))⁽³³⁾.
4. في عام 1953 لم يبق سوى عدد قليل من العشائر الرحالة في الجزيرة الفراتية، وقد سمحت التشريعات بخضوعهم لقواعد العرف والعادة في منازعاتهم وإخراجها من اختصاص دوائر العدل الرسمية، إلا إن أهم القرارات كان عدّ الغزو جرماً جزائياً أخضعته للعقوبات المحددة للجنايات⁽³⁴⁾.
5. في 1958/09/28 أصدر رئيس الجمهورية العربية المتحدة القرار بالقانون رقم 166 ألغى بموجبه قانون العشائر السوري رقم 31 لعام 1956، وأخضعهم للقوانين والقرارات والأنظمة كافة المطبقة على المواطنين الحضريين في الإقليم السوري. وبصدور القرار المذكور انتهت حياة البداوة في سورية من الناحية القانونية⁽³⁵⁾.

سابعاً: آثار التحضر في بدو الجزيرة الفراتية

أسهم عدد من العوامل في إنهاء حياة البداوة في الجزيرة الفراتية، نذكر منها:

1. المحاولات الحثيثة للعثمانيين وبعدهم الفرنسيين ثم الحكومات السورية المتعاقبة بعد الاستقلال لتوطين البدو.
 2. النزاعات المسلحة بين العشائر التي أدت إلى خسائر فادحة بالأرواح والممتلكات من مثل النزاع
- (31) عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، (جامعة الدول العربية: معهد الدراسات العربية العليا، 1955)، ص 40.
- (32) داون تشاتي، «القبائل والقبلية والهوية السياسية في سوريا المعاصرة»، دورية عمران للعلوم الاجتماعية، ع15، مج:4، (شتاء 2016)، ص 90.
- (33) عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، ص 40.
- (34) الجريدة الرسمية السورية، العدد 29 مكرر، (1958/09/29).
- (35) محمد جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 501.

- بين (شمر والبقارة)⁽³⁶⁾، و(شمر الخرصية وطي)⁽³⁷⁾.
3. اكتساح الحضارة السريع مظاهر البداوة وتقاليدها كلها، مع زيادة وسائل التواصل، إضافة إلى عوامل الجذب (المدينية) وبخاصة لفئة الشباب.
 4. تنبه البدو إلى أهمية التعليم والاستقرار والتطور، والحصول على الخدمات الصحية، والسكن الملائم، ومياه الشرب غير الملوثة وغير ذلك.
 5. تدهور أحوال البوادي نتيجة انحباس الأمطار سنوات متتالية عدة، وانجراف التربة وتذريتها بسبب الرعي الجائر والفلاحات التي أضرت بالغطاء النباتي للبادية.
 6. عدم الاهتمام الحكومي بالبوادي التي تحتاج إلى تأمين بذور للأعشاب الرعوية تلائم الجزيرة، وزيادة السدود الترابية السطحية لتأمين المياه لشرب المشية... إلخ

لقد أدى تحضر البدو في الجزيرة الفراتية إلى عدد من المتغيرات في حياتهم، عبّر عنها محمد جمال باروت بالقول:

((تماشياً مع التحول من حياة البدو إلى حياة الرعاة المزارعين وتغيير الذهنية والمدرجات من اقتصاد الغزو والغنيمة إلى اقتصاد الاستقرار والاعتماد على الإنتاج الحيواني والزراعي في بيئة تتطلب الأمن والاستقرار.))⁽³⁸⁾

ولا يتسع المجال للحديث عن التحولات كافة التي طرأت على حياة البدو نتيجة استقرارهم، وبالتواصل مع عدد من الفعاليات العشائرية بمنطقة البحث⁽³⁹⁾ اتضح حدوث عدد من التحولات التي يمكن تلخيصها بالآتي:

1. لم تعد إجراءات إجلاء ذوي القاتل تشمل أقرباء جميعهم، كما كانت العادة في السابق، فهي الآن لا تتعدى شخصه، وفي بعض الحالات الذكور من أفراد أسرته (والده وأشقائه وأولاده) باستثناء النساء والأطفال الذين لم تعد العشائر تطالب بإجلائهم.
2. تم التخلي عن عدد من وسائل الإثبات السابقة (من مثل البشعة والقيافة والمناداة والنقط والتوسيد واليمين بخمسة... إلخ)

(36) محمد جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 577.

(37) محمد جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 81.

(38) معلومات استقاها الباحث من الشيخ عباس متعب السلطان من عشيرة جبور بالحسكة، وقوطعت عبر اتصالات مع عدد من وجهاء العشائر في منطقة البحث.

(39) عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، ص 20.

3. أصبح من العادة اشتراط تسليم المتهم نفسه للقضاء العادي شرطاً للقيام بمساعي المصالحة.
4. ازدياد أعداد المتخاصمين الذين يختارون سلوك القضاء العشائري لحل خلافاتهم من المكونات كلها بعد أحداث عام 2011.
5. إنَّ انتقال ملكية الأراضي الزراعية من عامة وجماعية لأفراد القبيلة كلهم إلى الحالة الفردية، حيث تُسجل باسم الشيخ وأولاده، ويصبح أفراد العشيرة فلاحين أجراء، ساعد على تحليل الروابط القبلية، وتفسخ النظام الاجتماعي القبلي⁽⁴⁰⁾.

ثامناً: إيجابيات القضاء العشائري وسلبياته

لكل نظام مهما كان بسيطاً أو بدائياً إيجابيات وسلبيات متعلقة بظروف الزمان والمكان، وهي أمور متغيرة بتغير الظروف والعوامل المتحركة في حياة المجموعات البشرية بدوً كانوا أم حضراً. وفي النص الوارد أدناه والمأخوذ من كتاب عشائر الشام لأحمد وصفي زكريا سرد لما يقوله أنصار القضاء البدوي وخصومه، حيث جاء فيه:

((يقول أنصار القضاء البدوي، أن هذا القضاء سريع في مرافعاته عاجل في أحكامه... وإن التنادي والتناصر الناجمين عن (العصبية العشائرية والحمية البدوية) لا بد منها لإقرار السلم وحفظ التوازن في هذه البوادي المترامية الأطراف، البعيدة عن مراكز الدول ومحاكمها وقوانينها، ويقول أخصام القضاء العشائري إن الإسلام قد أزال العرف العشائري الجاهلي في القضايا العامة، وأمر باتباع الشرع، وصرح بأن الحكم بمقتضى هذا العرف مخالف للآية {ولا تزر وازرة وزر أخرى})⁽⁴¹⁾.

وبذلك يمكننا تلخيص إيجابيات القضاء العشائري بسهولة الإجراءات، وسرعة البت في القضايا، وقلة التكاليف، وتأمين درجة عالية من الحماية والأمن للمتخاصمين بوجود الكفلاء العشائريين، وحرية اختيار القاضي، وهو يعالج الآثار النفسية السلبية من خلال الصلح النهائي الذي ينهي الخلافات مادياً ومعنوياً، إضافة إلى النزاهة والكفاءة. وقد نجح في حل عدد من القضايا، وتكريس السلم الأهلي. ويضيف الدكتور عفيف طنوس حول هذا الأمر ما يأتي:

(40) أحمد وصفي زكريا، عشائر الشام، ص 251.

(41) عفيف طنوس، «المجتمع العربي»، مجلة الأبحاث، ع: 2، (بيروت: هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت، حزيران/ يونيو 1953)، ص 45.

((وتطبق أنظمة وقوانين الحياة القبلية على الجميع بالسواء، دون تفريق بين الكبير والصغير. مصدره الانضباط الاجتماعي المبني على اختيار القبيلة في تنازعها البقاء على مر القرون الطويلة.))⁽⁴²⁾.

ومن الإيجابيات كذلك قبول بقية المكونات في الجزيرة الفراتية اللجوء إلى القضاء العشائري بارتياح، نظرًا إلى موروثهم الاجتماعي المشجع، لذلك الذي يعد رفض (الجلوس للحق والإذعان له) تصرفًا معيبًا اجتماعيًا.

أما أهم سلبات القضاء العشائري فهي (مع الأخذ بالحسبان أنه من الإجحاف تقييمه بمفهومات الحداثة) اعتماده على قاعدة تحميل ذوي المتهم تبعات ما قام به قريتهم حتى لو لم يكن أولئك شركاء في الجرم. ومخالفته مفهومات العدالة، وحقوق الإنسان، والمواثيق الدولية، إضافة إلى عدم مسيرته التطور والحداثة، ومعاملة الفرد على أساس عشائري بعيدًا من مفهومي المسؤولية الشخصية والمواطنة.

تاسعًا: لمحة عن طرائق حل الخلافات لدى بقية المكونات في الجزيرة الفراتية

لجوء سكان الجزيرة الفراتية إلى حل خلافاتهم بالطرائق الودية، والابتعاد بقدر الإمكان عن القضاء الرسمي ليس حكرًا على العشائر العربية، وإنما هو موروث متأصل لدى مكونات المنطقة كلهم منذ القديم. فعن القضاء العشائري لدى الكرد تحدث باسيلي نيكيتين في كتابه (دراسة سوسيولوجية تأريخية)، قائلاً:

((... ومن المؤكد أن هذه الصلاحيات القضائية قد تقلصت ولم يبق منها شيء الكثير... كانت العقوبة الشديدة التي تفرض على المدان هي نهب أملاكه متى ما أقدم شخص على خطف فتاة أو امرأة متزوجة رغمًا عن إرادتها، وبالنسبة للجرائم الأخرى كانت العقوبة حرق منزل المرتكب (مال سوتي) أو قطع كروم بستانه (رزبريم)، ولكن العقوبة التي كان الكرد يخشونها أكثر من غيرها عقوبة الطرد من العشيرة (كريادر). وهناك عقوبات أخف وطأة من الطرد ونهب الممتلكات يفرضها الزعيم على الذنوب الخفيفة))⁽⁴³⁾.

(42) باسيلي نيكيتين، الكرد: دراسة سوسيولوجية تاريخية، نوري طالباني (مترجمًا)، ط 1، (أثينا: دار أخيل للطباعة والنشر، 1998)، ص 220.

(43) قاسم عيسى إبراهيم، الميراث في إمارة بوطان، ط 1، (د.م: دار الينابيع، 2007)، ص 25.

وعلى كل حال تعد شخصية رئيس العشيرة الضمانة الكبرى لتحقيق العدالة بين أفرادها، مع ملاحظة أن العشائر الكردية أغلبها كان رئيس العشيرة فيها يقوم بدور (العارفة). وقد ذكر قاسم عيسى إبراهيم في كتابه (الميران في إمارة بوطان) أنه منذ عهد إبراهيم آغا الأول رئيس عشيرة الميران الكردية كان رئيس العشيرة هو من يحل الخلافات بمشاورة وجهائها⁽⁴⁴⁾.

وواقع الحال أن كرد سورية قد ابتعدوا نوعاً ما عن العشائرية، ومن ثم عن سلوك طريق القضاء العشائري الذي بقي مرتبطاً بالذاكرة الجمعية لديهم. وهم حالياً عندما يضطرون إلى اللجوء سلوك طريق الصلح العشائري يقتفون أثر العشائر العربية في هذا الشأن.

وكذلك الحال لدى المسيحيين بمختلف طوائفهم، حيث اعتادوا قروناً عدة على قيام رؤسائهم الروحيين بحل خلافاتهم عملاً بأحكام (نظام الملة العثمانية)⁽⁴⁵⁾. ما جعلهم يتقبلون العرف والقضاء العشائري بإيجابية، وأسهموا في استمراره في الجزيرة الفراتية، وخلافاتهم المتعلقة بالأحوال الشخصية ما زال النظر فيها حتى الآن يعود إلى محاكمهم الروحية⁽⁴⁶⁾.

وللأشوريين الذين توزعوا بعد قدومهم من العراق عام 1933 في تجمعات قروية على ضفاف نهر الخابور نظامهم العشائري⁽⁴⁷⁾ الذي بقي متبعاً، إذ يلجؤون إلى عرف العشائر الأشورية في حل نزاعاتهم الداخلية.

أما بالنسبة إلى السوريين الشاشان، (فإنهم بالأصل قد وفدوا من الشيشان إلى سورية بين عامي 1864 و1890 في إثر تهجيرهم من قِبَل روسيا القيصرية. وهم مسلمون سنة، وقد وطنتهم السلطات العثمانية في قرى السفح وجوارها التابعة لمنطقة رأس العين). ويلجؤون في حل خلافاتهم إلى ذوي الخبرة والدراية من كبار السن، ولا يعتدّون بالعرف العشائري، بل يعملون بعاداتهم وتقاليدهم التي لا تتنافى مع أحكام الشريعة الإسلامية⁽⁴⁸⁾.

(44) خالد سعيد دنو، السريان الأرثوذكس في أواخر العهد العثماني وما بعده: من أزمت إلى نهضة، ط1، (دمشق: دائرة الدراسات السريانية، 2019)، ص55.

(45) قانون الأحوال الشخصية لطائفة السريان الأرثوذكس الصادر عام 2003، (بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، دائرة الدراسات السريانية 2003).

<https://dss-syriacpatriarchate.org/>

(46) ستيفن هيمسلي لونفرغ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيار عقل (مترجماً)، (بيروت: دار الحقيقة، 1978)، ص357.

(47) معلومات استقاها الباحث من المحامي رياض أوسترخان من أهالي قرية السفح ومقيم حالياً بالحسكة. قوطعت مع عدد من السوريين الشاشان من أهالي المنطقة.

(48) عبد الجليل الطاهر، البدو والعشائر في البلاد العربية، ص2.

عاشراً: الخاتمة

مما أوردناه يتضح أن القبائل البدوية انفردت بإنتاج نوع خاص من التنظيم القضائي قريب جداً من القضاء العادي حيث الأعراف السائدة والمتوارثة، تعد القوانين النازمة لعمله، ويُعد (العوارف) بمنزلة قضاة النقض لديه.

هذا الكيان القضائي الخاص توصل إليه البدو بعد تجارب كثيرة جعلتهم يقتنعون بأن تطبيقه سيؤدي إلى حماية كيانهم القبلي، فأسبغوا عليه نوعاً من القوة الإلزامية التي أصبحت تمارس شيئاً من السيطرة على ضمايرهم.

ولئن كان اللجوء إلى القضاء العشائري ضرورة أملت لها حياة البداوة، إلا أن الانتقال إلى أوضاع معيشية مغايرة تماماً جعل بعضهم يظن

هذه العودة إلى تراث الأسلاف وإلى الولاءات القبليّة، ولو بصورة نسبية أدت إلى بقاء القضاء العشائري خياراً يلجأ إليه كثير من المتخاصمين. ولعقود عدة عمل المساران القضائيان في منطقة الجزيرة الفراتية مساعدين ومكملين لبعضهما البعض، وأدّيا إلى ترسيخ السلم الأهلي، وتحقيق العدالة في كثير من الحالات المستعصية. إلا أن اللجوء إلى القضاء الرسمي انتهى بصورة شبه كاملة بعد الأحداث التي عصفت بسورية عام 2011، وأصبح القضاء العشائري الملاذ الوحيد للذين يريدون فضّ نزاعاتهم في ظل غياب سيادة الدولة والقانون، وعدم الارتياح للبديل الذي تمثله الإدارة الذاتية لشمال سورية وشرقها.

وفي النتيجة إن ما ورد في هذا البحث يقودنا إلى أن سلوك طريق القضاء العشائري لحل القضايا المتنازع عليها مرتبط بالأوضاع الأمنية السائدة في المنطقة، مع بقاء تأثير محدود لإيجابيات هذا القضاء أو سلبياته. ففي حالة سيادة القانون يتحول دور القضاء العشائري إلى دور مساعد ومكمل للقضاء الرسمي يتم اللجوء إليه لما له من دور في استتباب السلم الأهلي، وتفادي سلبيات القضاء الرسمي وبخاصة فساده، ولكن ليس بديلاً منه.

أما في حالة غياب سلطة الدولة والقانون فإن (واقع الحال) يجعل من اللجوء إلى القضاء العشائري بإيجابياته وسلبياته أمراً (مفروضاً) لا خيار فيه.

المصادر والمراجع

1. ابن خلدون. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، علي عبد الواحد وافي (محققًا)، ج4، (القاهرة: لجنة البيان، 1957-1962).
2. أبو حسان. محمد حمدان، تراث البدو القضائي، ط5، (عمان: مدينة الثقافة الأردنية، 2017).
3. الجميل. مكي، البدو والقبائل الرحالة في العراق، (بغداد: مطبعة الرابطة، 1956).
4. المشهداني. ابراهيم، محاضرات في جغرافية العالم العربي ج1، (بغداد: جامعة بغداد، 1969).
5. باروت. محمد جمال، التكون التاريخي للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
6. باسيلي. نيكيتين، الكرد: دراسة سوسيولوجية تاريخية، نوري طالباني (مترجمًا)، ط1، (أثينا: دار أخيل للطباعة والنشر، 1998).
7. بركات. حليم، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000).
8. دنو. خالد سعيد، السريان الأرثوذكس في أواخر العهد العثماني وما بعده: من أزمات إلى نهضة، ط1، (دمشق: دائرة الدراسات السريانية، 2019).
9. زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، ط2، (دمشق: دار الفكر، 1983).
10. قاسم. عيسى إبراهيم، الميران في إمارة بوطان، ط1، (دم: دار الينابيع، 2007).
11. لونغرغ. ستيفين هيمسلي، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيار عقل (مترجمًا)، (بيروت: دار الحقيقة، 1978).
12. محمد جرادات. إدريس، الصلح العشائري وحل النزاعات، (نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2014).



المحور الثالث: سياسات آل الأسد في الجزيرة قبيل الثورة وبعدها



السياسة الأمنية لآل الأسد في سورية

الجزيرة السورية نموذجًا

عبد الله النجار⁽¹⁾

أولاً: المقدمة

تعكس السياسة الأمنية لبلد ما حرص قيادته على تأمين مواطنيها تأميناً مطلقاً حاضراً ومستقبلاً، بما يشمل توطيد أركان الدولة عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً عبر استراتيجية شاملة تهدف إلى المحافظة على رفاهه ورخائه بالتصدي للتهديدات بإجراءات زجرية، أو استباقها بأخرى وقائية، واقتناص الفرص بما لديها من نقاط قوة للتعويض عن الفرص الضائعة، وتمويه نقاط الضعف قدر الإمكان.

بينما يشير إلحاق كلمة الأمن أو أحد مشتقاتها بمصطلح ما في بلادنا إلى عكس المرجو منه، فتأمين السياسة يعني القضاء على أي براعم للديمقراطية فيها، بينما يوحى تأمين الاقتصاد بسحق أي تنمية محتملة فيه لصالح مؤسسة الفساد، أما إدخالها في الحياة الاجتماعية فيعني تقسيم المجتمع على أسس طائفية وقومية ودينية إلى موالاة ينبغي لها أن تذوب في بوتقة النظام بغض النظر عن مصلحة الوطن، ومعارضة لا مكان لها إلا في خانة الأعداء، وصولاً إلى تفكيك المجتمع شاقولياً وأفقياً، وتفكيك تماسكه في العمق في سبيل ضمان استمرار سيطرة النظام على الحكم.

وهكذا تتحول السياسة الأمنية في بلادنا من وسيلة لحفظ البلاد وصيانتها إلى مطية يستخدمها النظام لمحاربة خصومه، وضمان استمراره بالمعنى الضيق الذي يشمل الفرد الحاكم أو أسرته أو حزبه، واستدامة بقائه على حساب الفرد والدولة، وهو ما فعله نظام آل الأسد، حيث لا يكاد الباحث يلمح أي أهمية للدولة السورية، إلا عندما تذوب في بوتقة النظام، أو تصبح هي هو والعكس صحيح.

(1) ضابط أمن سياسي سابق، باحث في القضايا الأمنية والعسكرية.

ينقسم البحث إلى قسمين؛ يركز القسم الأول على المرتكزات الأساس للسياسات الأمنية العامة لآل الأسد في سورية، وما يترتب على تلك السياسات من قضايا تتعلق بأمننة الحياة العامة، وكيفية صناعة القرارات الأمنية، والاستراتيجيات الأمنية في تفكيك البنى الاجتماعية وتعويضها بالزبائنية. أما القسم الثاني فيدخل في دهاليز سياسات آل الأسد في الجزيرة السورية، وما يتفرع من تلك السياسات التي تتعلق بالتعامل مع الأكراد، وتوظيفهم في الصراعات مع العراق وبعثه أو مع تركيا، علاوة على التعامل مع عرب الجزيرة سواء عبر تهميشهم والاستقواء الأمني عليهم، أو عبر النظر إليهم بوصفهم متعاطفين مع صدام حسين، من دون أن ننسى تحريض المكونات القومية للجزيرة بعضها ضد بعض، لنختم هذا القسم بتحليل سياسات آل الأسد في الجزيرة في مرحلة ما بعد الثورة.

تتمثل مشكلة البحث في الآتي: كيف نجح آل الأسد في سياساتهم الأمنية في الجزيرة السورية، وما الآليات التي لجؤوا إليها لضمان أمنهم في هذه المنطقة البعيدة نسبياً عن العاصمة من دون اللجوء إلى تخصيص المنطقة بجزء من الجيش، ثم لماذا لجؤوا إلى إدارة المنطقة، في مرحلة ما بعد الثورة، عبر وكلاء محليين، ولكن لهم ارتباطات عالمية؟

ثانياً: مرتكزات السياسة الأمنية لآل الأسد في سورية

اختزل حافظ الأسد الدولة في نظامه، ثم اختزل النظام في شخصه إلى أن صارت البلاد وحافظ الأسد صنوان لا ينفك أحدهما عن الآخر، حتى خُيِّلَ للسوريين في لحظة ما أن حافظ الأسد لن يموت، ولذلك لم يستعدوا لهذه اللحظة، وحين مات انتقل الأمر بسلسلة شديدة إلى ورثته الذي لم يغير شيئاً في أركان النظام ومقوماته، ولا في أساليب الحكم وأدواته، بل يمكن القول إنه نجح مؤقتاً في تقديم نفسه بوصفه صاحب مشروع للتطوير والتحديث قبل أن يسقط في أيدي الجميع حين تبين أن الوريث ليس أقل إجرأاً من أبيه، وأن الدبلوماسية التي كان يحاول مهادنة الشارع بها لم تكن سوى ضحك على الذقون⁽²⁾، وأن استمراره لم يكن سوى تكريساً للأركان والمقومات التي قام عليها نظام أبيه، فما مقومات السياسة الأمنية لآل الأسد في سورية؟

(2) العقد الضائع: حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد، هيومن رايتس ووتش، (16 تموز/ يوليو 2010)، ص 1.

ثالثاً: مقومات الأمن والاستقرار

1. الحكم بالقوة

إن المواطنة المتساوية وتكافؤ الفرض والعدالة والضمان الاجتماعي، إذا ما أضيفت إليها المشاركة الديمقراطية في الحياة السياسية عبر صناديق الانتخاب، والجيش الوطني وقوى الأمن والشرطة التي تتبنى عقيدة وطنية لاحتزبية، تشكل في مجموعها أبرز مقومات الأمن والاستقرار الذي يعتبر وليد تدابير سياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية، وليس وليد القوة العسكرية والأمنية فقط.

غير أنه على الرغم من انتفاء هذه المقومات فقد استطاع النظام الذي بناه حافظ الأسد فرض الاستقرار السياسي والاقتصادي لعقود من خلال اعتماد سياسة القوة والبطش أو (الحكم عن طريق القمع) وفق هيومن رايتس ووتش⁽³⁾، وقد عبر عنها تعبيراً واضحاً شعار (الأسد أو نحرق البلد) الذي رفعه أتباع النظام منذ اليوم الأول للثورة، وشرحه بوضوح رئيس جهاز المخابرات الجوية اللواء جميل الحسن في لقائه اليتيم مع وكالة سبوتنك الروسية عام 2016 عندما نفى وجود ما يسمى بحقوق الإنسان، واتهم السنة الذين يشكلون 80 بالمئة من مجموع السوريين بنشر الفكر المتطرف الوهابي من خلال حلقات الذكر الديني التي كان يتابعها من موقعه في المخابرات الجوية بحسب زعمه، مضيقاً بأنه لا يؤمن سوى بالقوة⁽⁴⁾، واستشهد بيت شعر لبديوي الجبل يقول فيه ((الحق ما سنّ القوي بسيفه... فبحده التحليل والتحريم))، وبذلك فقد أفصح عن الحقيقة التي يقوم عليها الحكم والأمن والاستقرار في نظام الأسد.

ويؤكد محمد مخلوف خال رأس النظام أن بشار الأسد لن يستطيع أن يحكم مثل أبيه ما لم ينل الحكم بالقوة العسكرية في إشارة إلى أحداث الثمانينيات من القرن الماضي، وذلك في حديث مباشر جمعه بالدكتور رياض حجاب رئيس وزراء سورية سابقاً⁽⁵⁾.

فمع انتهاء أحداث الثمانينيات تمكن حافظ الأسد من ترسيخ القوة الأمنية والبطش العسكري مقوماً وحيداً للأمن والاستقرار في البلاد، ومن أجل الوصول إلى ذلك كان قد لجأ إلى ضمان ولاء

(3) العقد الضائع: حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد، ص4

(4) د.م. «اللواء جميل الحسن: الغرب يشبه الراعي الذي يربي ذئبا في منزله»، وكالة سبوتنك الروسية، (3 تشرين الثاني/نوفمبر 2016)، <https://2u.pw/vE0Px>

(5) مقابلة للباحث مع الدكتور رياض حجاب رئيس وزراء سورية سابقاً، (د.ت).

الجيش والأمن عبر تطييفهما، ووضع أكثر المقربين إليه على رأس قيادتهما.

بدأت عملية تطييف الجيش العربي السوري مع استيلاء حزب البعث على السلطة في إثر انقلاب 8 آذار/ مارس 1963، وقيام الانقلابيين بتسريح غير الموالين لهم من الضباط وصف الضباط، واستبدال ضباط وصف ضباط بهم من الموالين من أقاربهم وعشائريهم ومناطقهم التي ينحدرون منها، وبما أن القيادة العليا للجنة الحزبية⁽⁶⁾ كانت في قبضة ثلاثة من أبناء الطائفة العلوية هم محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد فقد جاءت غالبية المنتسبين الجدد تنتهي إلى هذه الطائفة.

ومع وصول حافظ الأسد إلى السلطة عام 1970 باتت النخبة الحاكمة السياسية والعسكرية أكثر تجانساً⁽⁷⁾ من الناحيتين الطائفية والإقليمية، كونها استندت إلى قاعدة أضيق من ذي قبل، تمثلت بالطائفة التي تغلبت على باقي أنواع التمثيل المناطقي والعشائرية.

وهكذا فقد شكلت النخبة الحاكمة المتجانسة طائفيًا والجهاز الأمني الموثوق مطلق الصلاحيات أهم مقومات الأمن والاستقرار في نظام الأسد، وقد تم ذلك من خلال ثلاث أدوات هي: مؤسسة الطائفية، والواجهة الحزبية التي مثلها حزب البعث العربي الاشتراكي، واعتماد سياسة العصا تجاه المعارضين.

2. مؤسسة الطائفية

مع إحكام قبضته على البلاد بعد التخلص من آخر المناوئين، وضربة حماة⁽⁸⁾ التي ضمن بها حكم البلاد لعقود أخرى، ومن أجل تبرير توجهه الطائفي ومصادرته الجيش والأمن؛ توجه حافظ الأسد إلى مؤسسة الطائفية في الحزب والدولة والمجتمع، ففرضها بوصفها نظامًا تمثيليًا بديلاً من صناديق الاقتراع إلى جانب الإقليمية والعشائرية وباقي التقسيمات ما دون الوطنية تقوم على أسس مذهبية ودينية وقومية وعشائرية ومناطقية بذريعة ضمان تمثيل المكونات كلها، حتى بات هذا التمثيل عرقاً

(6) محمد الحاج علي وخالد ابراهيم، «إعادة هيكلة الجيش في سورية الجديدة»، مركز حرمون، (28 حزيران/ يونيو 2021)، ص 8.

(7) نيقولاس فاندان، الصراع على السلطة في سورية، طبعة إلكترونية باللغة العربية، (د.ن: كانون الأول/ ديسمبر، 2006)، ص 191.

(8) في 2 شباط/ فبراير 1982 دخلت قوات النظام السوري مدينة حماة، ونفذت فيها عملية عسكرية ضد مسلحين من تنظيم الطليعة المقاتلة، استمرت طيلة شهر شباط، أدت إلى مقتل ما يزيد على 30 ألفاً، واختفاء أكثر من 17 ألفاً من أبناء المدينة بحسب تقديرات الشبكة السورية لحقوق الإنسان في تقريرها الصادر بعنوان ((الذكرى الأربعون لمجزرة حماة 1982 تتزامن مع عودة رفعت الأسد إلى بشار الأسد))، 28 شباط/ فبراير 2022، <https://2u.pw/Vidvx>

تحول مع الزمن إلى مؤسسة قائمة بذاتها، متراجعاً بذلك خطوات إلى الخلف عن الهوية الوطنية السورية الجامعة، الأمر الذي أسهم في إحياء المنافسات (النزعات) ما قبل الوطنية، وتنشيطها، وإذكاء روح التنافس والتناحر البيني بين هذه المكونات لضمان ولائها للنظام.

وبطبيعة الحال فقد باتت الطائفية إحدى الميزات الملتصقة بالجيش والأجهزة الأمنية، وصار هذان القطاعان المهمان من نصيب طائفة واحدة، وإن كان الأمر لا يخلو من تمثيل ضعيف لبعض الطوائف تختلف نسبته من جهاز إلى آخر، بينما حرم بعض المكونات من أي تمثيل فيها من مثل الكرد⁽⁹⁾، ومع تقدم التجربة تحولت الطائفية إلى مؤسسة تقوم على الأركان الأربعة الآتية:

- أ. إقصاء السوريين عن الجيش والأمن مقابل فتح الباب على مصراعيه أمام الطائفة التي ينتمي إليها رأس النظام التي بلغت حصتها فيه أكثر من 80 بالمئة⁽¹⁰⁾ على الرغم من أن نسبتها لا تزيد عن 12 بالمئة إلى سكان سورية.
- ب. ترسيخ التمثيل (المحاصصة) الديني والطائفي والإقليمي والعشائري، وجعله سنة متبعة في المناصب الحكومية والمواقع الحزبية والوظائف العامة⁽¹¹⁾، وتخصيص كل مكون بحصة خاصة به، وتحويل ذلك إلى عرف قائم بذاته تتمسك به المكونات وتدافع عنه وتتنافس للفوز به.
- ت. شرعنة هذه المؤسسة وحمايتها قانوناً عبر منع أي رأي أو حديث ينتقدها، واتهام منتقديها بإثارة النعرات الطائفية، في حين يمكن للمنتميين إلى طائفة النظام التنظير لها، والحديث عنها، والعمل على تعزيزها من دون أن يتعرضوا للمساءلة⁽¹²⁾.
- ث. تتمتع هذه المؤسسة بحماية الأجهزة الأمنية لأنها تشارك في اتخاذ قرارات التمثيل وتقاسم المناصب من خلال ممثلها في اللجان الأمنية صاحبة الاختصاص الأصيل في عمليات التوزيع والتخصيص والتقسيم، حيث يشارك فيها أربعة ممثلين عن الأجهزة الأمنية بحوزة كل منهم قائمة تتضمن مرشحيه⁽¹³⁾.

وفي خطوة استباقية لأي صراع محتمل بين العسكر، ولأن حافظ الأسد يعلم مسبقاً أن أي تهديد

(9) حتى نهاية عام 2012 لم يكن في أجهزة النظام الأمنية أي ضابط سوري من أصول كردية.

(10) محمد الحاج علي وابراهيم الخالد، «هيكلية الجيش في سورية الجديدة»، ص 23.

(11) هذه المعلومات استقاها الباحث من واقع خبرته بوصفه ضابط أمن لمدة 12 عاماً في محافظة الحسكة.

(12) محمد الحاج علي وابراهيم الخالد، هيكلية الجيش، ص 16.

(13) توزع المناصب (في المحافظات) من قبل اللجنة الأمنية التي يشارك فيها أربعة ممثلين عن الأجهزة الأمنية بحوزة كل منهم قائمة تتضمن مرشحيه.

حقيقي لا يمكن أن يأتيه إلا من جهة الجيش، فقد نظمته وأقامه على أسس طائفية وعصبية عشائرية ومناطقية⁽¹⁴⁾، ابتداءً من المراحل الأولية للقبول في الكليات والمعاهد العسكرية حتى القيادات العليا، مروراً بقيادة الكتائب والألوية التي يجب أن توزع فيها الوظائف الأساس بحيث تكون الغلبة فيها لطائفة الرئيس، وذلك للقضاء على أي بيئة مساعدة لنشوء مراكز قوى داخل الجيش حتى إن كانت تنتمي للطائفة، وهو ما يفسر عدم وصول رياح ما اصطلاح على تسميته بالموجة الثالثة للتحويل الديمقراطي إلى البلاد في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته⁽¹⁵⁾، وعدم حدوث انشقاقات كبيرة لكتائب وألوية أو فرق عسكرية إبان انطلاق الثورة في آذار/ مارس 2011.

وكادت بعض الأجهزة الأمنية تخلو من أي انتماء غير علوي، مثل إدارة المخابرات الجوية التي يشكل العلويون أكثر من 95 بالمئة من كادرها البشري، في حين يشكلون ما نسبته 80 بالمئة من شعبة المخابرات العسكرية، و60 بالمئة من شعبة الأمن السياسي، وحوالي 70 بالمئة من الكادر البشري في إدارة المخابرات العامة⁽¹⁶⁾، ويعزى انخفاض نسبتهم في الجهازين الأخيرين إلى بعدهما عن الجيش وسيطرة ضباط الشرطة والمدنيين من حملة الإجازة في الحقوق عليهما، الأمر الذي يحتم ولوج نسب أكبر من باقي المكونات.

كذلك تُتقاسم المناصب الحزبية من أصغر وحدة حزبية، وهي الفرقة، حتى القيادة القطرية، وهي أعلى سلطة حزبية، على أسس طائفية ودينية وإقليمية وعشائرية، وكذلك الحال بالنسبة إلى ما يسمى بمجلس الشعب الذي سيطرت عليه مؤخراً قادة المليشيات التي قاتلت إلى جانب النظام، في ما يشير إلى تحوله إلى ميدان تمثيلي لتلك الكتائب والفصائل العسكرية، حيث ضم أكثر من 150 (شبيحاً) وقائد مليشيا⁽¹⁷⁾ من مجموع أعضائه البالغ عددهم 250 عضواً.

وهكذا ظن آل الأسد أنه في سبيل التعويض عن صناديق الاقتراع يمكنهم فرض تمثيل مضمون لرؤساء العشائر والواجهات الدينية والاجتماعية في الحزب والدولة والجيش والأمن والبرلمان، وبهذا الشكل يكون قد تم تمثيل المجتمع.

وقد بدت نتائج هذه السياسة شرخاً اجتماعياً عميقاً إبان انطلاق الثورة، فإضافة إلى الانقسامات

(14) رضوان زيادة، «تفكيك العصبية العلوية»، السورية نت، 24 حزيران/ يونيو 2021.

(15) عبدالفتاح ماضي، «الجيش والانتقال الديمقراطي: كيف تخرج الجيوش من السلطة؟»، مجلة سياسات عربية، ع: 24، (كانون الثاني/ يناير 2017)، ص 8.

(16) استمد الباحث هذه التقديرات من واقع خبرته بوصفه ضابط أمن سابق، بينما لا توجد أية أرقام أو تقديرات رسمية.

(17) دراسة خاصة غير منشورة أجراها الباحث على أعضاء مجلس الشعب في الدور التشريعي الثالث، (تموز/ يوليو، 2020).

القومية والدينية والطائفية التي تعرض لها المجتمع السوري، فإنه تعرض لانقسامات على أسس عائلية أيضاً، فالعائلات التي التحقت بالثورة وقف خصومها أو منافسوها إلى جانب النظام.

3. الواجهة الحزبية

أسوة بانقلاب آذار 1963 الذي لم يكن للبعث حزباً وقيادةً أي دور فيه، وحيء به لشرعنة الاستيلاء على السلطة، كذلك فإن انقلاب 1970 الذي أطاح بالقيادة القومية للحزب لصالح وزير الدفاع النافذ، جاء بالحزب هذه المرة ليس لشرعنة الاستيلاء على السلطة فقط، وإنما من أجل تحويله إلى واجهة تتلظى خلفها القيادة الطائفية، وترمي عليه كل أوزارها، وتمهر باسمه كل أحكام النفي والإعدام والمصادرة، لذلك نصت المادة الثامنة من دستور 1973 على أنه الحزب القائد في الدولة والمجتمع، وبذلك تمت شرعنة الاستيلاء على السلطة من قبل أقلية طائفية عسكرية اشترطت الانتماء البعثي للولوج إلى الوظائف العامة والمناصب الحكومية العسكرية والمدنية، ثم أمسكت بتلابيب الحزب، وحولته إلى فرع أمني كبير، تتم فيه تنقية المجتمع المطلوب إنتاجه وتصفيته من كل من تربطه علاقة أو قرى - حتى وإن كانت بعيدة - بالتنظيمات والأحزاب المعارضة، أو أحد المنتسبين إليها، عبر دراسات تجريها مكاتب التنظيم في الفروع الحزبية مرفقةً بتزكية أعضاء عاملين في الحزب، يتحملون على عاتقهم مسؤولية انضمام العضو الجديد، الأمر الذي كان يعجز عن تأمينه من يلوذ بقرى أحد (المغضوب عليهم) سياسياً، الأمر الذي يعني ببساطة حرمانه الالتحاق بأي وظيفة حكومية ذات قيمة، ولا سيما إذا كان من حملة الشهادات الجامعية، أو ضياع كمٍ ليس قليل من الدرجات عليه إذا كان من طلاب الثانوية (البكالوريا) عند التقدم إلى مفاضلة الجامعات السورية، كان يحصل عليها منتسبو حزب البعث عبر التحاقهم بدورات عسكرية حزبية كان يطلق عليها معسكرات الصاعقة، وبذلك حوّل الحزب إلى بوابة عبور إجبارية للشأن العام يُختبر فيه مدى الولاء للنظام، وتلتقي فيه كل الاشتراطات ما دون الوطنية، الطائفية والسياسية والاجتماعية العشائرية والعائلية والمناطقية تحت بند الانتماء إلى حزب البعث.

4. لا تنازل، والعصا للمعترضين

منذ استيلائه على السلطة رسخ حافظ الأسد سياسة عدم التنازل أو الاستجابة لرغبات

الجماهير، واعتبرها رضوخاً في غير محله⁽¹⁸⁾، وقد سار ابنه على نهجه من بعده عبر إقحام الجيش في قمع المتظاهرين.

وفي هذا السياق يعتمد النظام قاعدة أساساً تقوم على الامتناع عن تقديم أي تنازل للمجتمع حتى لا يعتاد الأخير على انتزاع التنازلات بالقوة، حتى وإن كانت محقة، وهو ما قيل للكرد عن مشكلة أجنب الحسكة بعد أحداث آذار/ مارس 2004، بأن ملفهم كان أمام السيد الرئيس إلا أن ما فعلوه أدى إلى وضعه في الأدراج، كذلك فرض عليهم النظام تحمل تكاليف إصلاح ما خُرب خلال أحداث الشغب كعقابٍ جماعي على ما فعلوه⁽¹⁹⁾.

وعبر بشار الأسد عن ذلك صراحة في خطابه أمام مجلس الشعب في 30 آذار/ مارس 2011 حين عدّ تلبية الدولة مطالب شعبها تحت الضغط ضعفاً داخلياً، لا يختلف عن الضغط الخارجي الذي يطبقه الأعداء. ولذلك يفضل النظام اعتماد مبدأ التفضل والمنحة الرئاسية والعفو بدلاً منها، وتشكل هذه العقدة إحدى أبرز أسباب الاستعصاء القائم حتى الآن، إذ يظن النظام أن أي تنازل مهما كان بسيطاً سوف يؤدي إلى انفراط حبات المسبحة في نظام متصلب لا يحتوي على أي قدر من المرونة.

ولمعاقبة المدن والبلدات الثائرة، فقد اعتمد النظام ما سمي بسياسة (التعفيش) التي تم بموجبها نهب وسرقة كل ما يمكن نقله من الأثاث المنزلي ومخازن المستودعات والمحلات التجارية، حتى طال النهب إكساء المنازل وأسلاك الكهرباء داخل الجدران، وأرضيات المطابخ والحمامات إمعاناً في التنكيل والمعاقبة، وقد بدأ تنفيذ هذه العقوبة انطلاقاً من ريف حماة الشمالي بداية عام 2013 ثم شملت كل المناطق السورية الثائرة كعقاب جماعي للسكان.

(18) «العقد الضائع: حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد»، هيومن رايتس ووتش، 16 تموز/ يوليو 2010، ص 4.

(19) كان الباحث مسؤولاً أمنياً في محافظة الحسكة، وعاین ذلك بنفسه.

(20) خطاب الرئيس السوري بشار الأسد في مجلس الشعب، 30 آذار/ مارس 2011، <https://www.youtube.com/watch?v=S89q-tVZp0o>، شوهد في 27 آذار/ مارس 2022.

ثالثاً: فرض التصحر السياسي

1. تأميم السياسة

ترجع علاقة السوريين بالعمل الحزبي إلى بداية القرن الماضي، وقد برزت بروزاً واضحاً في العهد الفيصلي، واستمرت كذلك إبان الانتداب الفرنسي، فعرفت دمشق ما يزيد على 25 حزباً، وشهدت المرحلة اللاحقة لنيل الاستقلال نشاطاً شعبياً وحزبياً واسعاً وملحوظاً أيضاً⁽²¹⁾.

وعرفت هذه المرحلة تشكيل أحزاب كثيرة منها الحزب الوطني، ثم ظهرت الكتلة الوطنية⁽²²⁾، إضافة إلى أحزاب خارج البرلمان منها حزب البعث نفسه⁽²³⁾، والحزب السوري القومي، والشيوعي والإخوان المسلمون، وكان لكل منها منابر إعلامية تمارس من خلالها حرية الرأي، وأدى ذلك كله إلى نضج الوعي السياسي الذي كان من ثمراته سنّ دستور 1950.

وعلى الرغم من حلّ الأحزاب خلال عهد الوحدة بطلب من جمال عبدالناصر، إلا أن بعثيين وناصريين وقوميين ومستقلين شاركوا في انقلاب الثامن من آذار⁽²⁴⁾، ولكنهم سرعان ما تصارعوا في ما بينهم على النفوذ والسلطة، وتغلب البعثيون على خصومهم، ثم بدأ الصراع بين هؤلاء الآخرين أنفسهم، فتغلب الضباط الصغار الذين تنتمي غالبيتهم إلى الأقليات على القيادة التاريخية للحزب، ثم انتقل الصراع في ما بين هؤلاء الضباط، وانتهى أخيراً بسيطرة حافظ الأسد على السلطة وإقصاء الجميع، ومن ثم إلغاء الحياة السياسية بموجب المادة الثامنة من الدستور الصادر بالمرسوم التشريعي رقم 208 لعام 1973 التي نصت على أن ((حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد في المجتمع والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية))، وبذلك قضى على الحياة السياسية والتعددية الحزبية، وفرض التصحر السياسي في البلاد، وصادر الدولة لصالح الحزب، ثم صادر الأخير لخدمته، فأقام دكتاتورية فردية بواجهة حزبية من دون أن يترك لمعارضيه ومنافسيه مكاناً في الحكم ولا في المعارضة، قبل أن تتزاح الائتلتان في مرحلة الثمانينيات عن دكتاتورية عائلية بواجهة طائفية ما زالت مستمرة حتى الآن.

(21) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية في سوريا، ط1، (د.م: منشورات دار الرواد، 1955)، ص116.

(22) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية في سوريا، ص222.

(23) محمد حرب فرزات، الحياة الحزبية...، ص233. يذكر محمد حرب فرزات في ص233 أن حزب البعث العربي ناهض محاولة خنق الحريات في المرسوم رقم 50 المعروف، واعتقل صلاح الدين البيطار لإصدار الحزب منشوراً بهذا المعنى، واعتُقل مرتين، وطالب بعض النواب بترك أمره إلى القضاء.

(24) محمد حاج علي وخالد إبراهيم، هيكلية الجيش، ص8.

خلال السنوات اللاحقات تحول حزب البعث إلى جهاز أمني وشبه عسكري في آن معاً، وبات إحدى أدوات النظام في تنفيذ سياسته والتجسس على معارضيه، ومن ثم ملاحقتهم، إذ فضلاً عن كتابة التقارير في إطار العمل الاستخباراتي التي كلفه به حافظ الأسد، بات لحزب البعث كتائب عسكرية وقوات مسلحة ما تزال قائمة حتى الآن.

ليس هذا فقط بل سحب الحزب معه نحو القاع أحزاب ما سمي بالجهة الوطنية التقدمية، فتضاءل العمل الفكري لديها قبل أن تتحجم تنظيمياً بسبب تحديد مجالات نشاطها، وتتحول سريعاً إلى مجموعات من المنتفعين.

وعلى الرغم من أن المؤتمر العاشر لحزب البعث الذي عقد في حزيران/ يونيو 2005 كان قد أوصى بإصدار قانون للأحزاب يسمح بتشكيلها وينظم الحياة السياسية، إلا أن تلك التوصية ظلت حبيسة الأدراج كغيرها من وعود الإصلاح الكثيرة⁽²⁵⁾.

2. قولبة السياسة وتدجين الأحزاب

قسمت الأحزاب إلى أربعة أصناف؛ معادية وجبهة⁽²⁶⁾ وصديقة من خارج الجبهة ورابعة ليست موالية ولا معادية، وتسمى بأسمائها فقط من دون أي إضافات.

يندرج الإخوان المسلمون وبعض الأحزاب الشيوعية (رابطة العمل- المكتب السياسي) وبعث العراق تحت التصنيف الأول، وهؤلاء لا تهاون معهم أبداً، وقد تمكن النظام من إنهاء وجودهم خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، وزج بهم في السجون، ولم يتبق منهم سوى النشاط الخارجي لجماعة الإخوان المسلمين الذي يتابعه حتى انطلاق الثورة، ولم يعجز عن رصد آخر التحركات والاجتماعات للجماعة عبر مصادر خارجية أو عن طريق التعاون الاستخباري مع الدول التي يقيمون فيها⁽²⁷⁾.

(25) د.م، «العقد الضائع: حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد»، هيومن رايتس ووتش، ص3.

(26) أي أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية وضمت حتى انطلاق الثورة ثمانية أحزاب يقودها حزب البعث الحاكم هي: الاتحاد الاشتراكي، والوحدويين الاشتراكيين، والعهد، والشيوعي «بكداش»، والشيوعي «حنين نمر»، والسوري القومي الاجتماعي-المركز، والاتحاد العربي الديمقراطي، والاشتراكيين العرب.

(27) استمد الباحث هذه المعلومات من واقع عمله السابق.

بينما تنسدل قائمة الجبهة الوطنية التقدمية والأحزاب المنشقة عنها تحت التصنيف الثاني، وهؤلاء بعضهم مرتبط بأجهزة الأمن، وبعضهم الآخر يُستوعب من قبل فروع الحزب، وتتنحصر هموم أعضائها في تقاسم المكاسب الحزبية بدءاً من مقاعد التفريغ في مديريات التربية وانتهاءً بالمقاعد المخصصة لهم في مجلس الشعب وبعض الوزارات، بينما تتسابق قياداتها في تقديم الولاء، وتتنافس على إظهار فروض الطاعة للفوز بمقاعد اللجنة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية التي تعني الترخيص للحزب بالنشاط العلني.

وفرت أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية مساحة مضبوطة للمرفوضين أو غير الراغبين بالانتماء إلى حزب البعث، وشكلت بديلاً يحتاج إليه النظام للدعاء بوجود حياة حزبية في سورية.

بينما انفردت اللجنة الوطنية لوحدة الشيوعيين السوريين ضمن التصنيف الثالث، وكانت تعامل أحزاب الجبهة، فلا يلاحق المنتسبون إليها على الرغم انتقادهم المتكرر الوضع الاقتصادي والمعيشي في البلاد، حتى إن جريدة قاسيون الصادرة عنها كانت تطبع بالألوان، وتباع في الأسواق.

أما الأحزاب الكردية والأشورية والأرمنية وحزب الاتحاد الاشتراكي المعارض فتصنف في الخانة الرابعة، وعلى الرغم من أنها تشترك في التصنيف إلا أنها تختلف في أسباب ذلك.

فالأحزاب الكردية حتى إن نجحت في السيطرة على الشارع الكردي عبر ضم الشباب الكردي إلى صفوفها، فإنها لم تشكل في يوم من الأيام خطراً على النظام، لأنها لا تستهدفه، ولا تهدد وجوده أصلاً، بل إن الشعارات القومية التي ترفعها، والبيانات المتطرفة التي تصدرها في مناسباتها الكثيرة جعلتا منها فزاعة استخدمها النظام لتخويف العرب وشدّ عصبتهم خاصة بعد احتلال العراق، وقد أفاد من ذلك أيضاً إبان انطلاق الثورة السورية.

ولا يقيم النظام وزناً للأحزاب الأشورية والأرمنية، فهي فضلاً عن عدم رفعها أية شعارات ضده، فإنها تشكو من قلة المنتسبين، فضلاً على أنها مستوعبة من جوانب عدة.

أما بالنسبة إلى حزب الاتحاد الاشتراكي فلم يعد يشكل تهديداً للنظام منذ جُففت منابع منتسبيه الشباب الذين توجهوا إلى حزب البعث لضمان مستقبل أفضل، وتحول الحزب إلى نادٍ لكبار السنّ من المعارضين القدامى الذين لم يتمكنوا من انتزاع أي اعتراف أو تنازل من النظام على الرغم من عقود طويلة من النضال السلمي.

وعموماً، لم تعد الأحزاب تشكل خطراً على النظام بعد أن تمكن من إغائها من حياة السوريين.

ومنذ غزو العراق توجه اهتمام النظام إلى مراقبة التوجهات ذات النزعة الإسلامية التي باتت تنتشر بين الشباب على وقع الغزو الأميركي الذي وظفه النظام في خدمة مآربه.

3. ملاحقة الأحزاب من دون تمييز

تتضمن الأجهزة الأمنية كلها فروعاً مركزية للأحزاب وأخرى للمعلومات تركز نشاط كليهما في متابعة نشاط الأحزاب والهيئات والتنظيمات والتجمعات أيّاً كان النشاط الذي تمارسه سياسياً أو دينياً أو خيرياً... إلخ، وتتضمن فروع المحافظات أقساماً مماثلة أيضاً تعمل كلها على متابعة النشاطات العامة، سواء كانت حزبية أم سياسية أم ثقافية أم دينية، يتم فيها العمل على محورين يتضمن الأول كشف الهياكل التنظيمية لهذه الكيانات، بينما يتضمن الثاني مراقبة التوجهات للوصول إلى الأهداف التي تعمل عليها. وفي الأحوال كلها، فإنه على هذه الأحزاب كلها أن تستعد لمزيد من الضغوط التي قد تصل إلى السجن، الأمر الذي يبقها ضعيفة مشلولة غير قادرة على المنافسة، ويسري هذا على كل الأحزاب، سواء كانت قومية أم يسارية أم دينية، ما يعني أن الأيديولوجيا التي تتبناها ليست معياراً لملاحقتها، بل إن أي نشاط توعوي قد يؤدي إلى التفاف الناس من كل الإثنيات والطوائف حول فكرة أو شخص هو محل ملاحقة من قبل النظام للقضاء على كل مراكز القوى، وإبقاء الساحة خالية من أي منافسة قد تتحول إلى تهديد. إذ يجب إبقاء الساحة خالية من قادة يتبع بعضهم بعضاً وفق تسلسل تنظيمي رصين.

هكذا اعتُقل اليساريون من رابطة العمل الشيوعي، وبالطريقة نفسها اعتُقل الناشطون الإسلاميون على الرغم من عدم ثبوت أي صلات لهم بالتنظيمات الإرهابية، والسبب فقط هو أن نشاطهم أدى إلى تجميع أشخاص حولهم، فجاء اعتقالهم لتأديبهم وتأديب من حولهم وتأديب المجتمع أيضاً. وسرى ذلك على الناشطين كلهم بغض النظر عن نوعية نشاطهم، أو انتمائهم القومي، أو السياسي أو الطائفي.

وللغاية ذاتها أُبقي على أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية الموالية فارغة من دون أي هياكل تنظيمية أو سياسية نشيطة، ومنع عليها النشاط في الجيش أو في الجامعات، وبطبيعة الحال في المدارس، وبسبب عدم السماح لمنتسبيها بولوج الوظائف المهمة علاوة على سيطرة المتزلفين والانتهازيين عليها، فقد ابتعد الشباب السوري عنها.

إن الأنظمة العسكرية التي حكمت خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين أغلبها تركت هامشاً

لنشاط الأحزاب، مكن الطرفين في مراحل لاحقة من الانتقال إلى الديمقراطية بوسائل سلمية، إما بالاتفاق، أو عبر مسارات قدمت فيها ضمانات أدت في النتيجة إلى التحول الديمقراطي للبلاد، مثلما حصل في البرازيل وإسبانيا وغيرهما⁽²⁸⁾، إلا أن نظام آل الأسد خلال زمني الأب والابن بقي مصرّاً على إغلاق أي هامش لعمل الأحزاب، حتى بعد مرور إحدى عشرة سنة على الثورة السورية، فإنه لا يمكن العثور على أي مجال للتعبير عن الرأي أو الاجتماع أو ممارسة النشاط الحزبي في مناطق سيطرة النظام بخلاف المناطق التي خرجت عن سيطرته، ويفسر ذلك بخوفه من نمو أي قوى للتغيير في المجتمع حتى داخل طائفته.

رابعاً: أمانة الحياة العامة في البلاد

أقرّ قانون (إعلان حالة الطوارئ) في سورية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم 1 لعام 1962 في مادته الرابعة للحاكم العرفي متمثلاً بالسلطة التنفيذية صلاحيات كثيرة وسلطات استثنائية واسعة وموقته، حولها نظام آل الأسد إلى صلاحيات دائمة عبر الاستمرار في إعلان حالة الطوارئ المعلنة منذ 8 آذار/ مارس 1963 من دون انقطاع، وبذلك فقد شرعن القانون للنظام التدخل في كل صغيرة وكبيرة، واتخاذ إجراءات احترازية بذريعة حالة الطوارئ.

لا ينازع أحد في ضرورة أخذ رأي الأجهزة الأمنية في بعض التعيينات المتعلقة بالوظائف الحساسة في البلاد من مثل الجيش والخارجية والاستخبارات، ولا حتى في بعض الموافقات التي تتطلب وضعا أمنياً لصاحب الترخيص أو المعاملة من مثل الأشغال المتعلقة بأعمال المقالع وما يلزمها من متفجرات لأجل العمل، غير أنه ليس منطقياً أخذ رأي الأجهزة الأمنية في مسائل تعد من الحقوق الوطنية التي يقرها مبدأ المواطنة من مثل التحقيق في مسألة استبدال بطاقة شخصية تالفة، أو تسجيل مولود تجاوز أهله مدة الخمسة عشر يوماً على تسجيله في سجلات الأحوال المدنية، أو موافقات السماح بإقامة الأعراس في الصالات العامة على سبيل المثال، أو تعيين الموظفين العاديين وإعادتهم إلى العمل، وغيرها من الشؤون التي لا تمثل تهديداً لأمن الوطن، ولا تدخل ضمن المناطق الحساسة فيه، إذ أن رأي الأجهزة الأمنية في هذه المسائل لن يقدم ولن يؤخر، وسوف يحصل المواطن على مسألته، ما يثير تساؤلاً حول الغاية من اشتراط التحقيق الأمني في ذلك، الذي لا يمكن تفسيره إلا في نطاق أمانة الحياة العامة للمجتمع، وجعل الأجهزة الأمنية المتعددة تتدخل في أدق التفاصيل وأصغرها، بهدف تحوي المواطنين كلهم إلى عملاء ومخبرين ومصادر معلومات، للتجسس عليهم وعلى بعضهم بعضاً،

(28) عبد الفتاح ماضي، «الجيش والانتقال الديمقراطي: كيف تخرج الجيوش من السلطة؟»، مجلة سياسات عربية، ص 12-24.

ولذلك فقد ربط إجراء أي نشاط مهما قلت قيمته بموافقة أمنية مسبقة في سبيل وضع كل مطارح النشاطات العامة والخاصة تحت المراقبة، ذلك لأن العقيدة الأمنية تقوم على حماية النظام لا حماية البلاد، ولذلك سوف نرى أن النظام الذي لاحق تنظيمات سياسية لمجرد أنها تشكل تهديدًا لوجوده على المدى الاستراتيجي، قد أطلق العنان بعد عام 2011 لأحزاب وتنظيمات عسكرية تهدد وحدة البلاد لمجرد أنه يستفيد منها أو أنها لا تشكل تهديدًا لوجوده من مثل حزب العمال الكردستاني⁽²⁹⁾ والمليشيات الطائفية المدعومة من إيران⁽³⁰⁾.

خامسًا: مركزية صناعة القرار الأمني

لقرون عدة بقي الشأن الأمني حكرًا على السلطة، إلا أن التقدم الحقوقي والسياسي والتطورات التي لحقت بالأنظمة والمجتمعات السياسية، والتي تكللت بتعدد الفاعلين⁽³¹⁾ أدت إلى توسيع دائرة المشاركين والمتدخلين في صناعة القرار الأمني وتعدد مرجعياتهم الرقابية⁽³²⁾، وبات الحديث عن السياسات الأمنية شأنًا عامًا، ولم يعد حكرًا على الحكومة أو الحاكم.

ولما كانت الفكرة الأمنية مرتبطة تاريخيًا بالنظام السياسي القائم، وبسبب غياب الديمقراطية وتداول السلطة والتعددية السياسية، وسريان قانون الأحكام العرفية، ومنع الأحزاب، وتجريم حرية التعبير، ومنع الرأي والرأي الآخر، فإن صناعة القرار الأمني في بلادنا بقيت في يد حافظ الأسد، ثم انتقلت بعد موته إلى نطاق الأسرة الحاكمة.

1. مكتب الأمن القومي وخلية الأزمة

في عام 1966 أسس مكتب الأمن الوطني أو القومي سابقًا قبل أن يقوم بشار الأسد بتغيير

(29) عبدالله النجار، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي PYD الانفصالي شرق الفرات»، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (13 نيسان/ أبريل، 2020)، ص 23.

(30) محمد الحاج علي وخالد الابراهيم، هيكلية الجيش، ص 28.

(31) إحسان الحافظي، السياسات الأمنية في المغرب: في السلطة وأدوار النخب السياسية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020)، ص 25.

(32) إحسان الحافظي، السياسات الأمنية في المغرب، ص 23.

التسمية⁽³³⁾، وهو أحد مكاتب القيادة القطرية في حزب البعث، وعلى الرغم من أنه من المفترض أن يتم النص في الدستور على آلية تشكيل مكتب الأمن القومي، وصلاحياته، والشروط الواجب توافرها في المرشح لرئاسته، إلا أن آل الأسد أبقوا عليه واجهة إعلامية ليصادروا باسمه صلاحيات المكتب الرسمية التي تعرفها كل دول العالم.

وأسوة بدستور 1973 فقد خلا دستور عام 2012 أيضاً من أي إشارة إلى مكتب الأمن الوطني (القومي) أو موقعه في ترتيب الجهات المسؤولة، ولم يتم التطرق فيه إلى آلية إنتاج السياسة الأمنية للبلاد، بينما احتكر رئيس الجمهورية منفرداً في المادة 106 بصلاحيات تعيين الموظفين المدنيين والعسكريين وإنهاء خدماتهم في تكرار حرفي للمادة 109 من الدستور السابق، ما يعني أنه لا شركاء ولا فاعلين آخرين في صناعة القرار الأمني على الإطلاق، بما في ذلك السلطة التشريعية التي تشركها أغلب الدساتير في تعيين كبار الموظفين، ومنهم قائد الأركان ورئيس مكتب الأمن القومي على الأقل.

وتاريخياً أخذ مكتب الأمن القومي أهميته من شخصية رئيسه، وعملياً فإن أقوى رؤساء المكتب في عهد آل الأسد كان علي مملوك القادم من إدارة المخابرات العامة، والذي ترأس المكتب بعد وفاة رئيسه هشام اختيار في تفجير خلية الأزمة.

يرى كثيرون أن مكتب الأمن القومي هو المولج برسم السياسة الأمنية في البلاد، غير أن هذا ليس حقيقياً، فالمكتب لا يملك صلاحية اتخاذ القرار، وهو مجرد أداة تنسيقية بين الجهات الأمنية لتنفيذ القرارات التي يتخذها الرئيس، بمعنى أنه ينسق العمل بين الأجهزة الأمنية لتنفيذ القرارات المتخذة.

إضافة إلى ذلك فإن مكتب الأمن الوطني ليس له دور رئاسي ولا إشرافي ولا رقابي على عمل الأجهزة الأمنية كما يظن بعضهم، فالأجهزة تخاطب مكتب الرئيس مباشرة، وتلقى التوجيهات منه أيضاً، أما علاقتها بالمكتب فهي محصورة في إرسال بعض التقارير الإعلامية فقط، أي تلك التي يراد منها إعلامه بما يجري، ولا ينتظر منه رد أو جواب أو توجيه، إذ لا تنتظر الأجهزة الأمنية أي توجيهات من مكتب الأمن القومي على الإطلاق.

كذلك فإن اللجان الأمنية في المحافظات التي يرأسها عادة أمناء فروع حزب البعث يقتصر دورها على التنسيق غالباً وتتقمص دور مكتب الأمن القومي، بينما يتخذ رؤساء الأجهزة قراراتهم بعد إعلام رؤسائهم في دمشق، وهو غالباً القرار المتفق عليه في مكتب الأمن القومي.

لم تكن خلية الأزمة التي شكلها النظام بعد انطلاق الثورة صاحبة قرار في ما كلفت به، بل كانت

(33) غُيّرت تسمية مكتب الأمن القومي إلى (الأمن الوطني) بالمرسوم التشريعي غير المنشور رقم 36 الصادر في تموز/ يوليو 2009.

محض واجهة تتلقى قراراتها من مكتب الرئيس، ولذلك لم يثابر رؤساء الأجهزة الأمنية الأربعة على حضور اجتماعاتها⁽³⁴⁾، وهذا سبب نجاتهم من التفجير الذي تعرضت له في 17 تموز/ يوليو 2012، وعلى الرغم من مهنية الأشخاص الذين ضمتهم الخلية وخبرتهم الأمنية الواسعة، إلا أنه لم يتح لهم اتخاذ قرار أممي فيما يتعلق بالأحداث الدائرة، لأن هذا الأخير هو اختصاص حصري للأسرة الحاكمة، حتى ولو جاء بخلاف ما يراه الخبراء الأمنيون والقادة المتخصصون.

وبتعبير أوسع تسيطر المركزية الشديدة على صناعة القرار الأمني بغض النظر عن حجمه ومستوى أهميته، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فحتى القرارات المتعلقة بأصغر القضايا الأمنية تكون صلاحية اتخاذ القرارات فيها من اختصاص المركز في دمشق، الأمر الذي أدى إلى جمود السياسة الأمنية، ومحافظة على شكلها القديم، وقساوتها، وابتعادها كثيراً عن الواقع، وعدم تأثرها به، لأنه ليس للمسؤول المحلي المباشر صلاحية اتخاذ القرار المناسب، وتقتصر سلطاته على سرد القضايا، واقتراح القرارات اللازمة بشأنها، وكثيراً ما تأتي القرارات أكثر قساوة وتصلباً من اقتراحاته.

سادساً: تفكيك البنى الاجتماعية القائمة وإنشاء بنى زبائنية

نصت المادة الثالثة من دستور حزب البعث العربي الاشتراكي على أنه حزب قومي، وأكدت المادة 15 منه أن ((الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية.. وتكافح سائر العصبية المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والإقليمية))⁽³⁵⁾، غير أن النظام الذي أسسه حافظ الأسد، وعزز من بعده ابنه بشار، رسخ الطائفية والعشائرية والإقليمية كما رأينا آنفاً بعكس المبادئ المعلنة.

إن المثالية التي جاءت في نصوص الدستور بقيت بعيدة كل البعد عما نُفِّذَ على أرض الواقع، وهو ما يؤكد نيقولاوس فان دام، إذ تبين أن الولاءات الطائفية والإقليمية والعشائرية القائمة حورت بولاءات طائفية وإقليمية وعشائرية موالية للنظام، حلت محلها، ومارست كل صلاحياتها، بل كانت أشد قسوة وانتقاماً لأنها بنيت على قاعدة أضيق، وصبت كلها في صالح الولاء الطائفي الذي جبر الولاءات السابقة كلها لمصلحته وفي صالح استمرار نظامه، ولذلك فإن تعبير الحلقة المفرغة الذي تحدث عنه فان دام ليس دقيقاً تماماً⁽³⁶⁾.

(34) عبدالله النجار، مقابلة خاصة مع الدكتور رياض حجاب رئيس وزراء سورية سابقاً.

(35) دستور حزب البعث العربي الاشتراكي المادة 15.

(36) نيقولاوس فان دام، الصراع على سورية، ص 199.

وفي خضم معركته أنهى نظام الأسد كل القيادات الاجتماعية القائمة من رؤساء عشائر ووجهاء، سواء أولئك القادمين من منابت عشائرية أم حضرية، وأوجد قيادات انتهازية مصلحة بدلية، تسير في الاتجاه الذي يرسمه لها، وهكذا بات للسوريين رؤساء عشائر ووجهاء وفاعلون اجتماعيون ومسؤولون معينون من قبل النظام رغمًا عن إرادتهم، وهو التغيير الاجتماعي الأهم الذي أنجزه خلال العقود الماضية.

وعلى الرغم من قضاء النظام على خصومه الاجتماعيين في الطرف الآخر أو تحجيمهم وإنهاء أي خطر لهم، فقد استمر في اعتماد الطائفية والإقليمية والعشائرية ركنًا أساسًا في الحكم، إلى الحد الذي تبين فيه أنها لم تكن وسيلة تغيير فقط بل كانت غاية في حد ذاتها، وربما كان هذا مثار أسئلة سابقة أجابت عليها الثورة حين أعاد بشار تطبيق سياسات أبيه القديمة، فتم إحياء النزعات العشائرية والدينية والمذهبية والطائفية والقومية، وشجّدت من خلال تشكيل ميليشيات تحت هذه المسميات قاتلت إلى جانبه، ما يجعل هذا الركن أساسًا في بناء النظام الذي قام عليه حكم آل الأسد.

1. السياسة الأمنية لنظام الأسد في الجزيرة السورية

تعرضت الجزيرة بوصفها جزءًا من سورية، للسياسات ذاتها التي طبقها النظام، سواء الاقتصادية منها أو السياسية والاجتماعية وكذلك الأمنية، وربما امتازت ببعض السياسات بحكم موقعها الجغرافي والجيوسياسي وامتداداتها الإقليمية مع العراق وتركيا، إضافة إلى احتضانها أهم نهريْن عابرين للحدود هما دجلة والفرات، ما جعل لها موقعًا جيو-استراتيجيًا مهمًا لم يحاول النظام استثماره في صالح البلاد، ولا حتى في صالح أبناء الجزيرة التي ربما تكون الأشد إهمالًا، وخاصة من الناحية الاقتصادية، وقد يكون لموقعها الجغرافي الطرقي علاقةً بذلك.

وعمليًا لم تختلف سياسة النظام الأمنية في الجزيرة السورية من حيث اعتماده القوة والبطش سبيلًا وحيدًا لفرض الأمن والاستقرار عن باقي سورية، ومثل اللواء محمد منصور القاد من حمام القراحلة في ريف القرداحة، والذي شغل منصب رئيس فرع المخابرات العسكرية في القامشلي، دور الوصي السياسي والأمني والوكيل الحصري لتنفيذ سياسات النظام في الجزيرة السورية لمدة تزيد على عقدين من الزمن، أشرف خلالها على دعم كرد العراق، وملاحقة العرب المتعاطفين مع حزب البعث العراقي الذي كان يطلق عليه في المراسلات الداخلية عبارة (اليمن المشبوه)، واستبدل البنى الاجتماعية القائمة للعشائر العربية أو أقصاها بحجة تأييدها لصدام حسين.

وفي المقابل تمخضت حقبة منصورة عن انتشار الوعي القومي الكردي، وانقشاع الألفية الثانية عن قائمة من الأحزاب الكردية يتجاوز عددها عشرة أحزاب تغطي أماكن الوجود الكردي معظمها من الجزيرة إلى حلب ودمشق، بالتزامن مع استفاقة الكردي على غربة وطنية بات يشعر معها بأنه مواطن من الدرجة الثانية، ما ولد لديه مظلوميتين سورية يتساوى بها مع السوريين جميعهم، وأخرى كردية تتضمن حزمة من التعاملات التي ترتبط بانتمائه الإثني بات يفقد معها أي انتماء لهذا الوطن.

حضرتُ شخصيًا تغني محمد منصورة وتباهيه باختراق حرس الحدود العراقي، ومعرفته قاداته وعناصره بالاسم كما لو كان اختراقًا لحدود الكيان المحتل في فلسطين، ونقل إليّ تباهيه برعاية انشقاقات الأحزاب الكردية، متجاهلاً أن سياسات نظامه كانت أحد أهم مقومات استمرارها.

2. وثيقة محمد طلب هلال

ربما تكون أبرز وثيقة مسربة عن سياسات حزب البعث الأمنية في الجزيرة السورية هي تلك المنسوبة للملازم الاحتياط والمعلم القادم من سلك التربية المدعو محمد طلب هلال رئيس شعبة الأمن السياسي في الحسكة عام 1963⁽³⁷⁾، لذلك فإن أي باحث يريد التصدي إلى السياسات الأمنية لا بد أن يعرج على الوثيقة المذكورة.

بداية لا بد عند دراسة ما دونه محمد طلب هلال، والأصح ما هو منسوب إليه، أن نأخذ في الحسبان ملاحظات عدة، أولها أنه حتى وفاته عام 2011 لم يُسأل محمد طلب هلال عن صحة نسب الوثيقة إليه، فهو لم ينشرها، ولم ينسبها إلى نفسه كما أنه لم ينفيها، وربما لا يعلم بها أصلاً، وكوني عملت لمدة 12 عامًا ضابطاً في الأمن السياسي في محافظة الحسكة، فلا بد أن أبين أنني حصلت على الوثيقة عام 2003 من أحد الأصدقاء، وثانيها أن الرجل كان حديث العهد في العمل الأمني عمومًا وفي محافظة الحسكة، وقدم الدراسة بصفته عضوًا في قيادة فرع الحزب في محافظة الحسكة وليس بصفته رئيساً لشعبة الأمن السياسي في الحسكة⁽³⁸⁾، وثالثها أن دراسته جاءت في ظروف معارك ضارية بين الحكومة العراقية وتمرد البرزاني الذي يطلق عليه ثورة أيلول، وشارك الجيش العربي السوري في قمعها إلى جانب الجيش العراقي بلواء اليرموك الذي قاده العقيد فهد الشاعر عضو مجلس قيادة

(37) محمد جمال باروت، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص735.

(38) محمد طلب هلال، «دراسة عن الجزيرة السورية»، منشورات موقع عامودا، (12.12.1963)،

<http://www.amude.net/erebi/mihemed-taleb-hilal-lekolin.pdf>

الثورة في زمن الرئيس أمين الحافظ، أي إن هلال وضع دراسته في ظروف حرب تشارك فيها حكومته ضد من يعدهم أعداء، فلا غرابة أن تكون المصطلحات والمقترحات قاسية لتجاري الحرب الدائرة. أما رابع تلك الملاحظات فهي أن هجومه لم يقتصر على الكرد فقط، بل هاجم كل الأحزاب الموجودة في ذلك الوقت من الشيوعيين إلى القوميين السوريين والإخوان المسلمين والناصريين والاشتراكيين وغيرهم، واتهم الجميع إما بأنهم صنيعة الاستعمار أو عملاء له، ولم ينج منه حتى الوندويون الاشتراكيون الذين كانوا بعثيين قبل الوحدة ولا عبدالناصر نفسه⁽³⁹⁾، مستمداً ذلك من خلفيته البعثية التي يحملها، حتى إن هجومه طال فئات جهوية معينة من مثل الديريين الذين ذكرهم بالاسم، ولذلك فإن الدراسة التي جاء بها سياسية مستنسخة من أفكار حزبه ليس لها علاقة بالعمل الأمني، ولم يتبناها المؤتمر بل لم تُناقش أصلاً.

يقدم محمد طلب هلال مثلاً للبعثي الملتزم بمنهاج حزبه الذي يصفه قائلاً: ((أثبت الزمن جدارته بقيادة هذه الأمة إلى شاطئ السلام ولا بعث لهذه الأمة غير هذا البعث))، فهو مشبع قومية إلى الحد الذي يبدو فيه مستعداً لسحق الآخر المغاير. ويشبه المشكلة الكردية بالانتفاخ (الورمي الخبيث) الذي ليس له علاج سوى البتر، مطالباً باستغلال الوضع الملائم في ذلك الوقت، والالتحاق بركب الدول المجاورة التي تكافحهم بحسب رأيه، فالعراق يحاربهم من جهة، وتركيا تلاحق العناصر الخطرة فيهم، وترحلها إلى الداخل من جهة أخرى، لأن مشكلة كرد الجزيرة بحسب رأيه مرتبطة بكرد العراق وتركيا وإيران، وهي تهدد الكيان القومي العربي.

ثم يقترح 12 إجراءً يرى أنها كفيلة بالقضاء على (الخطر الكردي)، تبدأ بتهجير العناصر الخطرة منهم، وتوزيعها على الداخل، واعتماد سياسة التجهيل تجاههم، وسدّ باب العمل أمامهم، ونزع الصفة الدينية عن مشايخهم، وهو يقصد آل الخزنوي، وإسكان عناصر عربية قومية على الحدود من عشيرة شمر بالتحديد لأسباب يقدمها، وإنشاء مزارع جماعية مدربة ومسلحة شبيهة بالمستوطنات اليهودية.

غير أن الدراسة رفضت كلياً من قبل مؤتمر حزب البعث⁽⁴⁰⁾، ولم ينفذ منها أي مقترح، حتى إن عملية توطين عرب الغمر الذين جيء بهم رغماً عنهم بعد عقد من الزمان من ريفي حلب والرقعة، وأسكنوا قرب الحدود التركية لم تكن واردة في الدراسة، فهو كان قد اقترح توطين عرب عشيرة شمر، وليس عرب الفرات، ولذلك فإنه لم تُنفذ أي من مقترحاته، بل على العكس سوف تأتي السنوات اللاحقة بنقيضها تماماً، لم يهجر أي كردي من الجزيرة، وبنيت المدارس، ودعمت الزراعة مصدر رزقهم، ودُعم رجال الدين الكرد، وبات لآل الخزنوي مشايخ الطريقة النقشبندية في تل معروف

(39) محمد طلب هلال، «دراسة عن الجزيرة السورية»، ص 51.

(40) جمال باروت، التكوين التاريخي للجزيرة السورية، ص 740.

حظوة ومنزلة لدى المسؤولين في الحزب والدولة، فأسسوا المدارس والمعاهد الشرعية، وبات أئمة الجزيرة وخطبائها كلهم سواء كانوا كردًا أم عربيًا من أتباع الطريقة النقشبندية الخنزوية، وكذلك طلابهم وخريجوا مراكزهم الدينية إلا قلة، ولم يتم تسليح العرب، ولم تُحوّل المنطقة الشمالية إلى منطقة عسكرية مثلما طلب هلال، بل بخلاف ذلك ذلك بقيت الجزيرة السورية من دون أي قطعة عسكرية حتى أحداث 2004.

هذا كله قبل أن يتسلم صدام حسين الحكم في العراق وتنطلق بعد سنتين الحرب العراقية الإيرانية التي اصطف فيها حافظ الأسد إلى جانب إيران في مواجهة العراق عبر دعم الكرد خارقًا بذلك كل جدران الأمن القومي والوطني ملقيًا خلف ظهره كل محاذير السياسة الأمنية ومغامرًا بمستقبل أمة في سياسة تخالف كل ما قام عليه حزب البعث.

الطريف في الأمر أنه إبان انفجار الصراع بين جناحي الأسد-جديد في آذار/ مارس 1969 كان هلال أحد المدنيين الثلاثة إلى جانب عبدالحليم خدام ومحمد حيدر الذين أيدوا الفريق حافظ الأسد، وبعد قيام الحركة التصحيحية عين عضوًا في القيادة القطرية المؤقتة، ثم نائبًا لرئيس مجلس الوزراء وسفيرًا في بولونيا⁽⁴¹⁾، وبدلًا من أن يرسخ المذكور تطبيق دراسته المشار إليها، فقد سلك مع الانقلابيين سياسة براغماتية مخالفة لكل مبادئ الحزب عبر تأييد إيران ضد العراق، وتبني الحقوق القومية للشعب الكردي في كردستان العراق بما فيها قبول الحكم الذاتي لكردستان العراق في أول مؤتمر لحزب البعث في عقب انقلاب تشرين الثاني⁽⁴²⁾ 1970، ما يشكك في مبدئيته البعثية، وي طرح تساؤلات حول قبوله ورضاه بكل تلك السياسات المعارضة لمشروعه، ويدرج اقتراحه تحت بند المزاوادة النابعة من التعصب القومي أكثر من استنادها إلى قناعاته الحزبية.

3. الإهمال والاستباحة، أبرز سياسات النظام في الجزيرة

شكلت الجزيرة السورية سلة غذاء سورية وخزان نفطها، غير أن الثروة الزراعية التي تدفقت لعقود عدة بدأت في التراجع بدءًا من تسعينيات القرن الماضي لأسباب عدة يأتي في مقدمتها الإهمال الحكومي الذي تمثل في غياب أي دراسات علمية أو مشاريع اقتصادية لتنميتها، أو التفكير في استخراج المياه من نهري دجلة والفرات لتعويض نقص الأمطار.

(41) جمال باروت، التكوين التاريخي، ص 736، الهامش.

(42) د.م، «مذكرات الرئيس جلال طالباني: رحلة ستين عامًا من النكية إلى قصر السلام (لقاء العمر): الحلقة 65»، صحيفة الصباح الجديد، (10 شباط/ فبراير 2019).

ونتيجة لذلك فقد شهدت بداية الألفية هجرة كبيرة لأبناء الجزيرة نحو باقي المحافظات لم تحرك الحكومة حيالها ساكنًا لوقف هذا الانهيار الاجتماعي والاقتصادي، بل بخلاف ذلك، فقد زادت من إجراءاتها الضريبية، ورفعت أسعار الوقود والأسمدة، ولم تعد الزراعة مجددة.

وكالعادة مثلت الأجهزة الأمنية رأس الحربة في ممارسة الفساد من خلال فرض الأتاوات، ومشاركة الناس في لقمة عيشهم، وسرقة المال العام. وتعد قضية المصرف الزراعي التعاوني في عامودا عام 1997 مثالاً واضحاً على ذلك، حيث سُرق حوالي مبلغ مليار وسبعمئة واثنتين وستين مليون ليرة سورية من مستودع المصرف الذي كان في عهدة شقيق أحد ضباط فرع الأمن السياسي في القامشلي الذي كان يرأس مكتب الأمن الاقتصادي حينئذ، والمفترض به ملاحقة مثل هذه القضايا.

وفي حين أوقف مدير المصرف، وحوكم، وسجن، فإن أمين المستودع لم يتعرض إلى أي محاكمة أو ملاحقة ولا حتى مجرد السؤال، ولم يتمكن القضاء من استدعائه ولا من استرجاع الأموال المنهوبة. وطبعاً، فإن قصص الفساد والسرقات أكبر من أن تعد، وأضخم من أن تحصى، فكل شخص من الجزيرة السورية يحفظ عشرات القصص، ويستطيع أن يعطي كثيراً من الأرقام المؤلمة.

4. اللعب على وتر التناقضات القومية

أ. دعم كرد العراق في مواجهة صدام حسين

حصل أول لقاء لكرد العراق مع السوريين عام 1957 حيث التقى ثلاثة كوادر من (البارتي) هم جلال الطالباي وكمال فؤاد والدكتور عبد الرحمن الذبيعي في دمشق كلاً من عميد حزب البعث ميشيل عفلق ورئيس البرلمان أكرم الحوراني⁽⁴³⁾ وعبد الحميد السراج رئيس المخابرات العسكرية الذي اتفقوا معه على دعمهم بالسلاح للضغط على الحكومة العراقية التي كان يقودها نوري السعيد⁽⁴⁴⁾.

أما التواصل الثاني فقد حصل بعد قصف بارزان في 16 أيلول/ سبتمبر 1961 حيث حاول الملا

(43) د.م، «مذكرات الرئيس جلال طالباي رحلة ستين عاماً من التكية الى قصر السلام (لقاء العمر): الحلقة 62»، جريدة الصباح الجديد، (4 شباط/ فبراير 2019).

(44) صلاح الخرسان، التيارات السياسية في كردستان العراق، ط1، (بيروت: مؤسسة البلاغ، 2001)، ص 62.

مصطفى البرزاني التواصل مع السوريين طالبًا اللجوء السياسي إلا أنهم رفضوا⁽⁴⁵⁾.

ويؤكد الرئيس العراقي جلال الطالباني أنه منذ الأيام الأولى لانتصار ثورة تموز/ يوليو 1968 في العراق بدؤوا العمل للانقلاب عليها، بالاشتراك مع البعثيين اليساريين الموالين لسورية، والحركة الاشتراكية العربية، إذ كان النظام وحزب البعث ضعيفين⁽⁴⁶⁾.

وفي سبعينيات القرن الماضي استضيف جلال الطالباني من قبل حافظ الأسد الذي كان يؤيد استمرار الثورة الكردية ضد العراق، بعد الاعلان عن اتفاقية الجزائر في آذار/ مارس 1975 بين بغداد وطهران، ومن دمشق⁽⁴⁷⁾ أعلن الطالباني تأسيس حزبه الاتحاد الوطني الكردستاني في أيار/ مايو من العام نفسه⁽⁴⁸⁾ الذي مثل أول تحرك كردي بعد انهيار الثورة، وتحدثت عنه صحيفتا تشرين والثورة الرسميتين⁽⁴⁹⁾، ومنح الطالباني جواز سفر سوري بقي بحوزته حتى احتلال العراق عام 2003 حيث أعاده مرفقًا برسالة شكر وتقدير⁽⁵⁰⁾، وبقي الطالباني حافظًا للفضل والجميل لآل الأسد حتى وفاته، وعارض مشاركة الكرد السوريين في الثورة السورية، وكان له دور في شق الصف الكردي والتأثير في اتجاه تحييد الأكراد.

وشكلت دمشق والسفارة السورية في طهران ملاذًا للمعارضة الكردية الراضية انتهاء الثورة، وعلى وجه الخصوص تلك التي كان يقودها جلال الطالباني⁽⁵¹⁾ الذي اتخذ من دمشق مقرًا لقيادته ومنطلقًا لتحركاته. وكان للمساعدات التي تلقاها من حزب البعث والدولة في سورية دور كبير وحاسم في تلك المرحلة الدقيقة والحساسة التي كاد أن يسدل فيها الستار على القضية الكردية في العراق⁽⁵²⁾، حيث

(45) صلاح الخرسان، التيارات السياسية في كردستان العراق، ص 96.

(46) معد فياض، «من ذاكرة المام . رئيس . طالباني: مفاوضات 1983 مع صدام كانت الأنجح.. لكن الأتراك أفسدوها في اللحظة الأخيرة»، الشرق الأوسط، (10 آب/ أغسطس 2009).

(47) د.م، مذكرات الرئيس جلال طالباني...، الحلقة 65.

(48) معد فياض، «من ذاكرة المام . رئيس . طالباني: أسسنا الاتحاد الوطني في مقهى وسط دمشق.. وتلقينا دعما من سورية وليبيا والاتحاد السوفياتي»، الشرق الأوسط، (18 أغسطس/ آب 2009).

(49) صلاح الخرسان، التيارات السياسية في كردستان العراق، ص 316.

(50) د.م، «طالباني يتخلى عن جوازات سفره السوري التركي والإيراني، صحيفة الدستور»، (2 آذار/ مارس، 2004).

<https://2u.pw/djsTS>

(51) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 337.

(52) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 343.

شكلت دمشق أيضًا مكانًا لإعادة تجميع الكوادر العسكرية من مقاتلي الكوملة⁽⁵³⁾ وقادة البشمركة ومجاميع الضباط الأكراد، بعد أن حظرت إيران عليهم القيام بأي نشاط مضاد للنظام الحاكم في العراق انطلاقًا من أراضيها، تطبيقًا لبنود اتفاقية الجزائر⁽⁵⁴⁾.

وأسس الاتحاد الوطني الكردستاني إذاعة تبث من القامشلي⁽⁵⁵⁾، واحتضنت سورية بعد انهيار الثورة الكردية ((العديد من مقاتلي البشمركة من سكان سنجار وتلعفر وزمار وزاخو... ولهم أقارب ومعارف بين كرد سورية، وقد سهل المسؤولون السوريون الأمر لهم، ولم يمنعوهم من عبور الحدود، وبرز الحزب العديد من كوادره لتعبئة هؤلاء وتنظيمهم، وكان أغلبهم قد استقر في قرى القامشلي وديرک والحسكة وهذه المنطقة بمحاذاة الحدود العراقية... ويمكن منها التسلل إلى كردستان العراق))⁽⁵⁶⁾، وما يزال بعض هؤلاء العراقيين يقيمون في محافظة الحسكة حتى الآن.

وفي مدينة القامشلي افتُتح مقران رسميان؛ أحدهما للاتحاد الوطني الكردستاني والثاني للحزب الديمقراطي الكردستاني، أكبر حزبين كرديين في شمال العراق، مارس المقران مهمات سياسية وأخرى تنسيقية عسكرية وأمنية لتزويد المقاتلين الأكراد بالسلح، وتبادل المعلومات الاستخباراتية بالتنسيق مع فرع المخابرات العسكرية بالقامشلي الذي كان يرأسه محمد منصور، والذي تولى إدارة الملف، وأقاما علاقات تعاون مع باقي الأجهزة الأمنية أيضًا.

وفي سورية وُضعت خطة إشعال الثورة مجددًا في كردستان، ومنها أُعلن الكفاح المسلح في يونيو/ حزيران 1976، وكان للاتحاد معسكران في سورية؛ أحدهما قرب دمشق، والآخر على مقربة من مدينة القامشلي⁽⁵⁷⁾ لتدريب المقاتلين وإعادة تأهيل المدربين منهم⁽⁵⁸⁾، ومن هناك انطلقت أولى مجموعات المقاتلين الأكراد، وعددهم 37 بقيادة النقيب المهندس إبراهيم عزو نحو الأراضي العراقية عبر

(53) هي العصابة الماركسية اللينينية الكردستانية تعرف اختصارًا بهذا الاسم، وهي تنظيم سري كان يعمل داخل العراق، وكان أول من تواصل مع جلال طالباني وقيادة الاتحاد الوطني الكردستاني فور صدور بيان تأسيسه الأول، ثم اندمجت تنظيميًا ضمنه، وكان من كوادرها سالار الحفيد وفريدون عبدالقادر.

(54) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 345.

(55) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 326.

(56) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 346.

(57) معد فياض، «من ذاكرة المام. رئيس. طالباني: أسسنا الاتحاد الوطني في مقهى وسط دمشق.. وتلقينا دعما من سورية وليبيا والاتحاد السوفياتي».

(58) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 346.

تركيا⁽⁵⁹⁾.

من ليبيا كانت تأتي الأموال، ومن دمشق كانت تتدفق الأسلحة⁽⁶⁰⁾ إما مباشرة للاتحاد الوطني الكردستاني⁽⁶¹⁾ أو بصورة غير مباشرة⁽⁶²⁾ عن طريق إيران⁽⁶³⁾ حيث كان التنسيق العسكري والسياسي مع طهران قائماً على قدم وساق⁽⁶⁴⁾، وبعد تقسيم كردستان إلى قاطعين عسكريين تمركزت قيادة قاطع (بادنان) في منطقة المالكية السورية على مقربة من الحدود العراقية في ما يعرف بمنقار البطة، بينما تمركزت في القامشلي لجنة التنسيق بين القيادة السياسية الموجودة في دمشق والقيادات الميدانية في كردستان⁽⁶⁵⁾.

ومثلت سورية والقيادة القومية لحزب البعث فيها وسيطاً مقبولاً لفض المنازعات وإنهاء الخلافات بين الحزبين الكرديين⁽⁶⁶⁾، ويعادل ما قدمت سورية -على قتلته- ((النفس التي كانت على وشك الهلاك))، ما يجعل حافظ الأسد صاحب فضل لا ينسى وفق تعبير الرئيس العراقي جلال الطالباني⁽⁶⁷⁾، وله فضل كبير على الأمة الكردية⁽⁶⁸⁾.

وبعد نشوب الحرب العراقية الإيرانية في أيلول 1980 شهدت دمشق نشاطاً محمومًا لتشكيل تحالفات سياسية معارضة، عراقية وكردية، اتخذت من دمشق مقراً لها أيضاً⁽⁶⁹⁾، بينما مثل لبنان ساحة التدريب العسكري الذي قدمته بعض الفصائل الفلسطينية المقربة من المخابرات السورية⁽⁷⁰⁾،

(59) صلاح الخرسان، ص 349.

(60) معد فياض، «من ذاكرة المام. رئيس. طالباني: أسسنا الاتحاد الوطني في مقهى وسط دمشق...».

(61) صلاح الخرسان، التيارات السياسية، ص 373.

(62) د.م، «مذكرات الرئيس جلال طالباني: رحلة ستين عاماً من التكية إلى قصر السلام (لقاء العمر): الحلقة 65».

(63) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 397.

(64) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 427.

(65) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 349.

(66) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 357.

(67) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 383.

(68) د.م، «مذكرات الرئيس جلال طالباني... الحلقة 65».

(69) صلاح الخرسان، التيارات السياسية...، ص 264.

(70) درست بعض الفصائل الفلسطينية المقربة من النظام السوري مقاتلين أكراد قبل إرسالهم إلى قتال الجيش العراقي في ثمانينيات القرن الماضي.

وهو ما استلزم شكرًا خاصًا بالجمهورية العربية السورية من الحزب الديمقراطي الكردستاني على موقفها التضامني مع قضية الشعب الكردي التحررية والمعارضة العراقية عمومًا، وذلك في ختام مؤتمره العاشر الذي عقد بين 02 و12 كانون أول 1989 في محافظة أذربيجان الإيرانية.

وابان غزو الكويت وحرب الخليج الثانية تحولت دمشق وطهران بالتوازي إلى ساحة تنسيق وتوحد واتفاقات وعمل مشترك لأحزاب المعارضة العراقية، ومن ضمنها الأحزاب الكردية⁽⁷¹⁾.

أدت سياسات النظام السابقة التي كان رائدها العداء لجناح القيادة القومية لحزب البعث الحاكم في العراق إلى تعزيز النزعة القومية لكرد سورية وفق نموذج أكراد العراق، لأن الأحزاب الكردية أغلبها مارست نشاطها بصورة شبه علنية من دون أن يمنحها حافظ الأسد رخصة رسمية⁽⁷²⁾، وأدت أيضًا إلى تنشيط الحزب الديمقراطي الكردي في سورية من جهة أخرى، وإعادة هيكلة التمايزات الثلاثة فيه، بحيث انتظمت في الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي، وحزب اليسار الكردي، والحزب الديمقراطي الكردي، وعلى الرغم مما اعتراها من صدمات إلا أنها هيأت الأرضية السياسية لتشكيل منظومة حزبية كردية في سورية بلغ عددها عند انطلاق الثورة أحد عشر حزبًا، انتظمت في ثلاثة تكتلات، وأبرزت نخبةً سياسيةً كردية لم يعكس صفو قيادتها إلا دخول حزب العمال الكردستاني على خط المواجهة بالتنسيق مع النظام السوري بعد انطلاق الثورة.

ب. احتضان عبدالله أوجلان وحزب العمال الكردستاني

ومن جانب آخر فقد احتضن نظام حافظ الأسد⁽⁷³⁾ في بداية ثمانينيات القرن الماضي زعيم حزب العمال الكردستاني عبدالله أوجلان الذي استباح ((الساحة الكردية السورية، فجّى التبرعات وجنّد المقاتلين وأرهب معارضيه، ونكّل بكثيرين منهم، حتى غدا الحزب الأقوى والأكثر انتشارًا بين الأحزاب الكردية، وجيّر الساحة السورية، مألًا ورجالًا، لخدمة معركته مع تركيا⁽⁷⁴⁾))، ومن سورية أعلن الحزب انطلاق كفاحه المسلح ضد الأتراك في الخامس عشر من آب 1984، وغدت سورية وحديقتها الخلفية في لبنان ساحة تدريب ودعم سياسي وعسكري ولوجستي للحزب، واستمرت كذلك حتى بعد

(71) صلاح الخرسان، التيارات السياسية، ص 523-524.

(72) د.م، مذكرات الرئيس جلال طالباني... الحلقة 65.

(73) عبدالله النجار، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي PYD الانفصالي شرق الفرات»، ص 15.

(74) عبدالله النجار، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي...»، ص 13.

التوقيع على اتفاقية أضنة الأمنية عام 1998، وأفسح المجال للحزب للنشاط بين الكرد السوريين وتجنيدهم في قواته العسكرية، حيث شكلوا الأساس الذي قامت عليها قوات الحماية الكردية YPG عام 2012⁽⁷⁵⁾ التي شكلت الأساس بعد ذلك لإنشاء قوات سوريا الديمقراطية ومجلس سوريا الديمقراطية عام 2015⁽⁷⁶⁾.

ج. إبعاد العرب وعشائريهم بحجة تعاطفهم مع النظام العراقي

وفي مقابل ذلك أبعد نظام حافظ الأسد العشائر العربية، وخاصة تلك الموجودة في محافظتي الحسكة ودير الزور، بحجة تعاطفها مع حزب البعث الحاكم في العراق، واتهم العرب فيها عمومًا بأنهم صداميون إلى أن ثبت العكس، ولوحق أبناءها بحجة انتمائهم لما كان يسميه ((اليمن المشبوه في العراق))، وعومل ذووهم معاملةً أمنيةً لا تقل عن ذوي الإخوان المسلمين، واستمرت تلك النظرة التخوينية حتى أحداث الشغب في القامشلي عام 2004 التي قلب فيها الأكراد ظهر المجن للنظام، فعاد هذه المرة للاستقواء بالعشائر العربية في مواجهتهم، في محاولة إنتاج شريحة من (الشبيحة العرب) تتكون من مجموعة من البعثيين الذين يأترون بأوامر فرع الحزب والشعب الحزبية التابعة له.

((هؤلاء هم الذين قريتهم وأبعدتنا طيلة عقدين من الزمن⁽⁷⁷⁾))، هكذا قال اثنان من شيوخ العشائر العربية⁽⁷⁸⁾ مخاطبين اللواء محمد منصور⁽⁷⁹⁾ في اجتماع عقد في مقر مديرية منطقة القامشلي مع اللجنة الأمنية⁽⁸⁰⁾ التي حضرت من دمشق في اليوم الثالث للأحداث التي بدأت يوم الجمعة 12 آذار/ مارس 2004 من أجل تهدئة الموقف، وتطويق الأحداث التي اندلعت بعد عام على احتلال العراق، وقرأ فيها كثيرون استجراً للتدخل الأميركي في سورية.

(75) عبد الله النجار، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي...»، ص 59.

(76) عبد الله النجار، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي...»، ص 37.

(77) عبد الله النجار، مقابلة خاصة مع العميد عبد الباسط عبد اللطيف رئيس قسم شرطة مدينة القامشلي آنذاك، ومدير منطقة القامشلي حتى 2012.

(78) الشيخان هما محمد الفارس شيخ عشيرة طي، وحמיד الأسعد شيخ بني سبعة.

(79) المقصود بعبارة (عقدين من الزمن) المدة التي ترأس فيها محمد منصور فرع المخابرات العسكرية بالقامشلي، والتي امتدت منذ عام 1980 حتى بداية 2002 عندما نقل إلى دمشق.

(80) ضمت اللجنة الأمنية التي حضرت من دمشق كلاً من اللواء هشام اختيار مدير إدارة المخابرات العامة، واللواء ابراهيم موصلي معاون وزير الداخلية، واللواء محمد منصور معاون رئيس شعبة الأمن السياسي.

شكل غزو العراق ومن بعده أحداث في منطقة القامشلي نقطة انعطاف في علاقة النظام بالعشائر العربية في الجزيرة السورية، فتم تقريهم، وتعيين عدد منهم في مجلس الشعب، إلا أنهم لم يحوزوا ثقته الكاملة على الرغم من وقوف غالبيتهم على الحياد حيال الثورة.

وعلى الرغم من تأسيس بعضهم كتائب تابعة لما يسمى ميليشيا (الدفاع الوطني) التي قاتلت إلى جانب النظام، إلا أن الأخير فضل عليها حليفه القديم حزب العمال الكردستاني، فوضع حقول النفط ومعامل الغاز في رميلان أمانةً لديه، ثم سلمه الشريط الحدودي مع تركيا في تموز/ يوليو 2012 الذي كان النواة الأولى لتشكيل سلطة الأمر الواقع شرقي الفرات، والذي يعد استمراره تهديدًا حقيقيًا لوجود الكيان السوري، فضلًا عما تولده السياسات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية التي يطبقها أتباع حزب العمال الكردستاني من أحقاد وضغائن بين مختلف المكونات سوف تستمر آثارها طويلاً.

خلاصة القول إنه في إطار استغلال النظام للتنوع الإثني والديني والطائفي والمناطقى والطبقي على مستوى البلاد، فقد استُغلَّ التنوع الإثني في الجزيرة السورية، لضبطها ووضعها في خدمة استمراره من جهة، ومناكفة خصومه في العراق لصالح حلفائه في إيران من جهةٍ أخرى، بغض النظر عن النتائج السلبية لتلك السياسات على مستوى الثقة العامة والعلاقات الاجتماعية.

5. السياسة الأمنية للنظام في الجزيرة بعد انطلاق الثورة

في إطار الجهد الرامي إلى عزل الثورة، وحصرها بالملكون العربي السني، عمل النظام على استيعاب التظاهرات الكردية بمرجعياتها الثلاث (المجلس الوطني الكردي - التنسيقيات - حزب الاتحاد الديمقراطي) وعلى الرغم من أنها - باستثناء الأخيرة - تضمنت الشعارات المطالبة بإسقاط النظام ذاتها، والتهتافات ضد حافظ الأسد نفسها، إلا أنه لم يفكر للحظة واحدة باستخدام القوة ضدها، وذلك بخلاف ما فعله تجاه حي غويران⁽⁸¹⁾ العربي في مدينة الحسكة الذي سقط فيه أكثر من شهيد برصاص قوات النظام خلال التظاهرات، وبخلاف ما جرى في باقي المحافظات الثائرة أيضًا.

وفي سبيل المحافظة على التهدة كان النظام يلجأ في كل مرة إلى إطلاق سراح من يُعتقل على الحواجز من الكرد بسبب المشاركة في التظاهرات، ومن بينهم قيادات في الأحزاب الكردية، وذلك منذ الأيام الأولى للثورة.

(81) حي غويران هو الحي العربي الوحيد في محافظة الحسكة الذي واطب على التظاهرات منذ انطلاق الثورة.

وفي مرحلة لاحقة لجأ كوادر حزب العمال الكردستاني في ربيع عام 2012 إلى خطف عناصر النظام من الشرطة والأمن، ومقايضتهم بمن يُوقَفون من مؤيديه⁽⁸²⁾، في خطوة كان من المفترض أن تفجر الأوضاع قياسًا بما يحدث في باقي المحافظات، إلا أن النظام رضخ لها بصمت، وبعد أشهر قليلة بدأت عملية الاستلام والتسليم بين الحزب والنظام التي أشرنا إليها آنفًا.

يطرح أسلوب النظام في التعامل مع التظاهرات الكردية تساؤلات كثيرة، يبدو أكثرها إلحاحًا ومباشرةً في الأسباب التي تقف وراء اختلاف المعاملة، ماذا لو تعامل النظام بالأسلوب ذاته مع التظاهرات كلها على امتداد الوطن؟ هل كنّا وصلنا إلى ما نحن عليه الآن؟

يبدو الجواب بسيطًا جدًا ومرتبطةً بنظرة النظام إلى الأقليات عمومًا في أنها لا تشكل خطرًا عليه، أيًا كان شكلها دينيةً أو قومية، وقناعته في أنه إذا ما طُوِّعت الأكثرية، فإن الأقليات سوف ترضخ للأمر الواقع.

وكان النظام قد أصدر في السابع من نيسان/ أبريل 2011، وذلك بعد أيام قليلة من انطلاق الثورة، المرسوم التشريعي رقم 49 الذي منح بموجبه الجنسية العربية السورية للکرد المسجلين في سجلات أجانج الحسكة، وذلك بعد خمسة عقود من تجاهل مأساتهم، وإهمالها، في محاولة لتحديدتهم عن الثورة، وهو ما تلقفه حزب الاتحاد الديمقراطي الذي أعلن تبنيه النهج الثالث الزائف قبل أن يكشف عن حقيقة معاداته الثورة، ووقوفه إلى جانب النظام عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا، بوصفه الواجهة السورية لحزب العمال الكردستاني الذي تربطه بالنظام علاقات تاريخية قوية تمثلت في معاداة الثورة، ورفض التصرف بالنفط السوري من دون موافقة دمشق⁽⁸³⁾، والمحافظة على موقعه في تحالف الأخيرة مع طهران، واستدكار العلاقة الدافئة والصدقة التي ربطت أوجلان بالأسد بكثير من التقدير، ما يمنعه من الوقوف مع الثورة. ((لا يمكننا أن نكون مناهضين لسورية أو ضد الأسد))، هكذا يصرح جميل بايق الرئيس التنفيذي للحزب الذي يرى أن نضال أتباعهم في شمال شرق البلاد صَبَّ في صالح ضمان نفوذ الأسد⁽⁸⁴⁾، وبالمقابل فإنه لم يسجل أي موقف عدائي أو تصريح سلبي من دمشق تجاه PKK طيلة السنوات الماضية، وعلى الرغم من الهجمات الإعلامية على حزب الاتحاد

(82) كان الباحث حينئذ مسؤولاً أمنياً في محافظة الحسكة، ولذلك فقد كان مطلعاً، ومتابعاً عن قرب ما جرى.

(83) في لقاء على قناة ستيرك الكردية بتاريخ 10 آب/ أغسطس 2020 رفض جميل بايق الرئيس التنفيذي لحزب العمال الكردستاني الاتفاق الذي وقعت عليه الإدارة الذاتية مع شركة دلتا اكسنت إنرجي الأميركية بشأن تسويق النفط في شرق الفرات، بحجة أنه غير شرعي، لأنه لم يتم عبر الحكومة السورية في دمشق.

(84) د.م، «العمال الكردستاني» ما زال قوياً... وتركيا تستخدم الكيماوي ضدنا (1): جميل بايك لـ «النهار العربي»: الحزب يقدر الصداقة التي ربطت أوجلان بعائلة الأسد»، صحيفة النهار العربي، 26 تشرين أول/ أكتوبر 2021.

الديمقراطي و(الإدارة الذاتية) التي يطلقها رئيس النظام ومسؤولوه من زمن لآخر لإرضاء مؤيديه من العرب هناك، فإن حزب الاتحاد الديمقراطي ما يزال هو الحزب الوحيد من خارج الجبهة الوطنية التقدمية الذي يمارس نشاطاً علنياً في قلب العاصمة دمشق⁽⁸⁵⁾، ويستشفى مسؤولوه في مستشفيات العاصمة، وبالمقابل يستضيف في مستشفياته الميدانية المصابين من عناصر النظام⁽⁸⁶⁾، وتسافر قياداته وقيادات مسد وقسد والإدارة الذاتية من مطاري القامشلي ودمشق بجوازات سفر سورية إلى موسكو وواشنطن وغيرهما من العواصم.

تبدو السياسة الأمنية للنظام في الجزيرة السورية منذ انطلاق الثورة حتى الآن خليطاً من العامل الخارجي والسياسة الإثنية اللذين يجيد اللعب عليهما، ويفهم ديناميكياتهما أكثر من غيره، وله أساليبه وأدواته الخاصة بهما، وهو ظن أن خلط الأضداد وتخويف بعضها من بعض سوف يؤدي إلى إفشال أي خطوة باتجاه تبلور البديل الذي بات أحجية الحل.

وفي مرحلة لاحقة دخل فاعلون آخرون الأرض، كانت البداية بتنظيم داعش الذي قُضي عليه⁽⁸⁷⁾، واستوطنت بدلاً منه قوات التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة شرقي الفرات.

ودخل الأتراك أيضاً بدءاً من عملية درع الفرات ضد تنظيم داعش⁽⁸⁸⁾، وليس انتهاءً بنبع السلام⁽⁸⁹⁾ التي تزامنت مع تمدد روسيا شرقاً بوصفها فاعلاً إضافياً على حساب الانسحاب الأميركي الذي انكفأ إلى حدود مدينة القامشلي. وبذلك باتت توجد في الجزيرة السورية جيوش أربع دول أجنبية، إضافة إلى الوجود الجوي الإسرائيلي، وميليشيا PKK وباقي داعش وقوات النظام، بما يعنيه ذلك من سياسات أمنية متنوعة، وأهداف مختلفة ومتضاربة، ومن الصعب تقاطعها في نقطة مشتركة، الأمر الذي يجعل استمرار الأمر الواقع ومن ضمنه بقاء النظام -على ضعفه- السيناريو الأكثر احتمالاً الذي يتمناه الأخير، ويشكل جوهر السياسة الأمنية التي انتهجها في عموم البلاد، وما يزال، أملاً باستعادة نفوذه لاحقاً بعد انتهاء الأزمة، ورحيل الأجانب ما دام لا وجود لبديل وطني.

(85) د.م، «استدكار المناضلات الثلاث في العاصمة السورية دمشق»، وكالة هاوار للأخبار، (18 كانون الثاني / يناير، 2022)،

<https://www.hawarnews.com/ar/haber/-h60630.html>

(86) د.م، «إصابة عنصرين من قوات حكومة دمشق في قرية ام الكيف»، وكالة هاوار للأخبار، (21 كانون الأول / ديسمبر 2021)، <https://2u.pw/0Fgli>

(87) بتاريخ 23 آذار / مارس 2019 أعلن التحالف الدولي القضاء على خلافة داعش في سورية.

(88) عملية عسكرية سورية- تركية انطلقت في 24 آب / أغسطس 2016 لاستعادة مدينة جرابلس من التنظيم.

(89) عملية عسكرية سورية- تركية انطلقت في 7 تشرين الأول / أكتوبر 2019 طُردت وحدات حماية الشعب YPG من منطقتي رأس العين وتل أبيض المحاذيتين للحدود التركية.

وعموماً باتت حدود السياسة الأمنية للنظام محصورة بالمناطق التي يسيطر عليها منفرداً، وهي أقل من حدود الوطن بكثير، وتكاد تكون على شكل جزر متناثرة وسط سيطرات صديقة ومعادية كثيرة، ولم تعد ميادينها واضحة أيضاً بعد أن تحول النظام إلى أحد الفاعلين، وشاركه الحلفاء قيادة ما تبقى من قواته، وتحولت سورية إلى استطالة أمنية للدول الفاعلة، أو ورقة مقايضة في ملفات إقليمية ودولية، وباتت مقارنة النظام للأمن أكثر رجعية من ذي قبل، في ظل تصاعد الطائفية وسيطرتها ديمغرافياً على الجيش والقوات المسلحة وسط غياب شبه كامل لباقي المكونات السورية، وتمسك النظام بمقاربتة القديمة القائمة على الحكم عن طريق القمع، وعجزه عن تقديم أي مشروع يتبنى تنمية سياسية أو اقتصادية واجتماعية، وكأنه لم تمرّ على البلاد إحدى عشرة سنة من الحرب، ما يؤكد عمقه وعدم قدرته على استيعاب التطورات التي طرأت خلال عقد ونيف من الزمن على الجغرافية والإنسان السوريين.

سابعاً: خاتمة

تنطلق السياسة الأمنية لآل الأسد من ضرورة إحكام السيطرة على الجيش والأمن، والقضاء على أي مراكز قوى منافسة داخلهما من جهة، ومنع نمو أي قوى سياسية للتغيير داخل المجتمع قابلة للحياة من جهة أخرى، والاستعاضة عن الشرعية الداخلية التي تنتجها الانتخابات الديمقراطية بالنزعة بالشرعية الخارجية الإقليمية والدولية المستمدة من النجاح الذي حققه في الملفات التي كُلف بها إقليمياً ودولياً.

احتكر حافظ الأسد صناعة السياسة الأمنية للبلاد من دون شركاء، فانفرد في تعيين القادة العسكريين والأمنيين وإقالتهم، وإعلان حالتي الحرب والطوارئ من دون مشاركة أحد أو استشارة أي سلطة أخرى بما في ذلك التشريعية، وانفرد باتخاذ كل القرارات الأمنية والعسكرية بدءاً من التدخل في دول الجوار، وانتهاءً بخوض المعارك العسكرية في المدن، وقد سار ابنه على نهجه، فأقحم الجيش في مواجهة المدنيين، وأدخل الأجانب ميليشيات وجيوشاً إلى البلاد بقرارات منفردة.

ولم يسجل للسلطات الرقابية أو الوصائية أن مارست أو تجرأت على ممارسة أي دور رقابي أو تفتيشي سابق أو لاحق على أي من تلك القرارات، ولا حتى في الجانب المتعلق بالموازنة العامة التي تعد من اختصاص السلطة التشريعية الأصيل.

كذلك لا يمكن الحديث عن أي رقابة تشريعية أو قضائية ولا حتى إدارية على عمل الفاعلين الأمنيين والعسكريين، أو تقييم الأعمال التي يقومون بها.

وعلى الرغم من مرور أحد عشر عامًا على الثورة السورية، فإن مقومات السياسة الأمنية للنظام، وأدواتها، وأهدافها لم تتغير، ولم تتطور، وما تزال معنية بإعادة عقارب الساعة إلى ما قبل آذار/ مارس 2011، على الرغم من كل الخسائر التي تعرضت لها البلاد، وفي مقدمتها فقد أكثر من نصف الشعب بين قتيل أو مهجر ونازح.



المصادر والمراجع

1. الحاج علي. محمد، وخالد ابراهيم، «إعادة هيكلة الجيش في سورية الجديدة»، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 28 حزيران/ يونيو، 2021).
2. الحافظي. إحسان، السياسات الأمنية في المغرب: في السلطة وأدوار النخب السياسية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020).
3. الخرسان. صلاح، التيارات السياسية في كردستان العراق، ط1، (بيروت: مؤسسة البلاغ، 2001).
4. النجار. عبدالله، «مشروع حزب الاتحاد الديمقراطي PYD الانفصالي شرق الفرات»، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 13 نيسان/ أبريل، 2020).
5. باروت. محمد جمال، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
6. د.م، العقد الضائع: حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد، (هيومن رايتس ووتش، 16 تموز/ يوليو، 2010).
7. فان دام. نيقولاوس، الصراع على السلطة في سورية، (د.م: طبعة إلكترونية باللغة العربية، دن، كانون الأول/ ديسمبر، 2006).
8. فرزات. محمد حرب، الحياة الحزبية في سوريا، ط1، (د.م: منشورات دار الرواد، 1955).

قرارات الإدارة العامة في سورية وأثرها في التنمية المحلية

واقع الجزيرة السورية

عبد الناصر الجاسم⁽¹⁾

أولاً: ملخص

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على واقع العلاقة بين الإدارة العامة التي تعاني تسلط النظام السياسي وهيمنتته عبر أدواته المختلفة على أجهزتها الحكومية والنظام السياسي في سورية، وتأثير ذلك في التنمية المحلية في واقع الجزيرة السورية، من خلال جوهر الإدارة الذي يتمثل في عملية صنع القرارات والعوامل المؤثرة فيها، حيث يطرح البحث سؤالاً أساسياً: كيف تنعكس قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية في الجزيرة السورية؟ ويتفرع عنه ستة أسئلة لمناقشة واقع صناعة القرار الحكومي والمتغيرات التي تؤثر فيه. تأتي أهمية طرح هذا الموضوع من الناحية النظرية والمعرفية من خلال محاولة تحليل العلاقة بين الإدارة العامة والنظام السياسي في سورية عبر مدخل عملية صنع القرارات، أما من الناحية العملية والتطبيقية، فلعل هذا البحث يقدم بعضاً من الرؤية المفيدة لصناع القرارات والسياسات من خلال رصد الفجوة الواقعية، والخلل الذي ينعكس في واقع التنمية المحلية في الجزيرة السورية من جراء عملية صنع القرار الإداري الحكومي في صيغته الحالية متأثراً بجملة من المتغيرات. يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي للظاهرة البحثية، ومحاولة تفسيرها، باعتماد المسح المكتبي للدراسات والبحوث والتقارير والمؤشرات والمراجع المختلفة، وقد تم الرجوع إلى عدد من الدراسات السابقة للاستفادة منها في تحقيق أهداف هذا البحث، والاجابة عن التساؤلات المطروحة في سياق التعبير عن مشكلة البحث. توصل البحث إلى عدد من الاستنتاجات التي تشير بمضمونها إلى أن اختلال العلاقة بين الإدارة العامة والنظام السياسي في سورية أدى إلى تركيز سلطة صنع القرارات التنموية لدى المستويات العليا في الحكومة، ما تسبب بمشكلات تنموية عدة، وأبرزها الاختلالات التنموية بين المحافظات، وبروز القصور التنموي بصورة واضحة في منطقة الجزيرة السورية.

(1) أكاديمي وباحث سوري، أستاذ إدارة الأعمال في جامعة ماردين الحكومية وفي جامعة حلب سابقاً.

ثانيًا: المقدمة

مرت العلاقة بين الإدارة العامة والسياسة بعدد من المراحل، من تبعية الإدارة العامة وخضوعها للسياسة، إلى مرحلة فصل السياسة عن الإدارة العامة، ثم مرحلة التكامل والترابط بين السياسة والإدارة والتوازن في ما بينهما، وحافظت الأنظمة الدكتاتورية والتسلطية على نمط هيمنة النظام السياسي على الإدارة العامة، ونظام الحكم في سورية واحد من هذه الأنظمة التي ترى بأن أجهزة الإدارة العامة والحكومية أداتها التنفيذية التي تطيع أوامرها، وتدين لها بالولاء، فتكون مخرجات الإدارة العامة وقراراتها مرتبطة بإرادة النظام السياسي وليس بإرادة السكان والمواطنين، وحققهم في الحصول على التنمية المطلوبة، ومن ثم، إن معرفة طبيعة العلاقة بين الإدارة العامة والنظام السياسي في الدولة أمر في غاية الأهمية، حيث تعد الإدارة العامة هي المعنية بتنفيذ الأهداف العامة للدولة، وأن تطور الشعوب ومستوى تقدمها مرتبط بصورة وثيقة بمستوى معيشة أفرادها، وما يحصلون عليه من سلع وخدمات عبر إدارة وتنظيم قطاعاتها الإنتاجية، والاستثمار الأمثل للموارد فيها، وتقديم ما هو ملائم لتلبية احتياجاتهم، وذلك لا يتحقق إلا بوجود إدارة علمية سليمة تجيد تحديد الأهداف، ورسم السياسات، وتكييف أوضاعها بما يتناسب مع ظروف البيئة المحيطة بنشاطها حتى تحقق أهدافها بنجاح وفاعلية. أصبحت الإدارة اليوم معيارًا للتقدم، سواء كان ذلك على مستوى المنظمات الخاصة من شركات وأعمال أم على مستوى الحكومات والدول، وتكاد لا تخلو أي جامعة أو معهد من تدريس علوم الإدارة ومهاراتها، وذلك في بلدان العالم جميعها، ولا سيما المتقدمة منها، وتفرعت الإدارة إلى تخصصات وأقسام، ومنها الإدارة العامة أو الإدارة الحكومية التي تتخصص بتخطيط السياسة العامة للدولة والبحث عن الأساليب الفعالة لوضع تلك الخطط حيز التنفيذ، وتحويلها إلى نتائج ملموسة يقطع ثمارها كل مواطن⁽²⁾. تعد عملية صنع القرارات محور العملية الإدارية بوظائفها الأساس من التخطيط والتنظيم والقيادة والرقابة، فهي من أهم الوسائل التي تستخدمها للقيام بوظائفها، وتنفيذ المهمات المترتبة عليها، ما يقودها إلى تحقيق أهدافها بنجاح، وهذا النجاح يتوقف على مدى كفاءة القرارات وفعاليتها، وذلك هو الجذع المشترك بين إدارة الأعمال والإدارة العامة، وتعد عملية التنمية الوطنية والمحلية من أبرز أولويات وأهداف الحكومات من خلال أجهزة الإدارات العامة لديها، والمؤسسات المحلية والتنفيذية.

(2) عمار بوحوش، الاتجاهات الحديثة في علم الإدارة، ط2، (الجزائر: دار البصائر، 2008)، ص15.

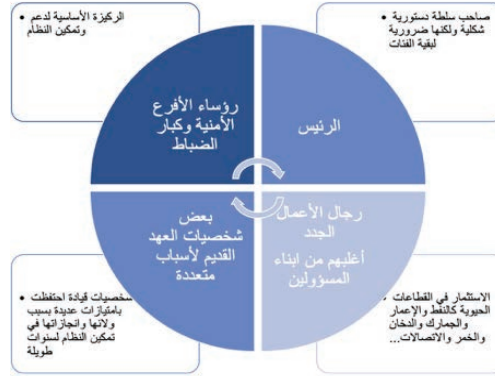
جدول رقم (1) يوضح بعض الفروق بين الإدارة العامة وإدارة الأعمال⁽³⁾:

العنصر	الهدف	المستفيدون	المسؤولية	طبيعة النشاط	حجم الأعمال
إدارة الأعمال	زيادة الربح وتعظيمه	أصحاب العمل والشركاء وجمهور الشركة	أمام مجلس الإدارة أو صاحب العمل وبنطاق محدود أمام المجتمع	ذات طبيعة اقتصادية استثمارية وتجارية	تحدد بحسب مصادر العلاقة بين التكلفة والعائد
الإدارة العامة	تحقيق المصلحة العامة للدولة	المجتمع وأفراده	أمام الحكومة والجهات الرقابية والجمهور العام	تحقق المصلحة العامة في التنمية والأمن والدفاع وخدمات السكان	بحسب المنفعة العامة ومصلحة المجتمع

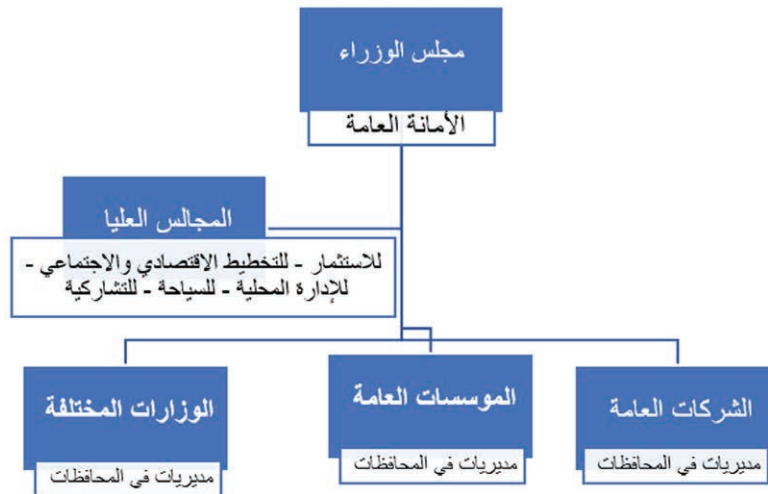
ولدى البحث في أسباب تخلف التنمية المحلية في سورية من منظور الإدارة العامة، نجد أن العلاقة المشوهة وغير السليمة بين النظام السياسي وأجهزة الإدارة العامة تلعب الدور الأساس في ذلك، حيث أصبحت سورية في عهد حكم عائلة الأسد بلدًا طارديًا للكفاءات، ومغلقًا أمام الابداع والتطوير، وتمحورت مهمة الإدارة العامة والأجهزة الحكومية حول تسخير موارد البلاد ومقدراتها للمحافظة على السلطة، والاحتفاظ بالحكم، وتبنت أسلوب المركزية الإدارية في إدارة شؤون البلاد، ولم تكن التنمية من أولوياتها، وذلك انسجامًا مع رؤية النظام السياسي المسيطر.

(3) قريب علي، دور الإدارة العامة في صنع وتنفيذ السياسات العامة، رسالة ماجستير، (الجزائر: جامعة زيان عاشور، 2020)، ص 12.

الشكل رقم (1) النظام السياسي في سورية (4)



الشكل رقم (2) مخطط مختصر لجهاز الإدارة العامة في سورية



المصدر: إعداد الباحث

(4) خالد تركاوي، «أولويات التنمية الاقتصادية في سورية»، مركز إدراك للدراسات والاستشارات، (2018)، <https://2u.pw/ZYAWt>

يوصف رئيس الجمهورية بالرئيس الإداري الأعلى في الدولة، وتتركز في يده سلطات شبه مطلقة وفق الدستور ووفق العرف السائد، ومن وحي التسلط الأمني غير المباشر والمحسوس لدى المواطنين جميعهم، وكذلك العاملين في جهاز الإدارة العامة جميعهم، ابتداءً من نواب الرئيس، وانتهاءً بأدنى درجة وظيفية في القطاع الحكومي، إضافة إلى وجود مكاتب في القصر الجمهوري هي المؤثر الرئيس في صنع القرارات، وعملها موازٍ لعمل الوزارات بما يتصل بالتخصصات، مثل الاقتصاد والمالية والداخلية والثقافة، وهكذا، وهنا يجدر بنا الإشارة إلى وسيلة من وسائل التأثير في صناعة القرارات العامة، وهذه الأداة معروفة بـ (التوجيه)، وهو توجيه شفوي إيحائي غير مكتوب، يأتي عبر اتصال هاتفي أو منقول عبر مبعوث شخصي من مكاتب القصر أو مكاتب القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي أو الأجهزة الأمنية المختلفة. ويُمارَس التوجيه في المركز (العاصمة)، وكذلك في المحافظات، ولكن فاعلية التوجيه في المحافظات تكون أكثر منها في المركز، لا سيما حين يكون التوجيه من العاصمة، وحتماً في كل توجيه خرق للمعايير، ومرتببط بالفساد الإداري.

ونظراً لكون الإدارة العامة في سورية تعمل في إطار بيئة تتضمن كثيراً من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية، ما يجعل قراراتها تتأثر بمجمل هذه المتغيرات، ومن ثم ينعكس ذلك في أهدافها المختلفة، وفي مقدمتها خططها في التنمية بالعموم، وتحديدًا في التنمية المحلية بشقيها الملموس والمعنوي، حيث توجد فجوة واضحة في التنمية المحلية في سورية، ومن أبرز مظاهرها وجود تفاوت تنموي بين مختلف المحافظات السورية، وتجلى ذلك بصور مختلفة مثل الخلل في العلاقة بين النمو السكاني والحيز الجغرافي حيث تركز 60 بالمئة من السكان على مساحة 13 بالمئة من مساحة سورية، وغير ذلك من الخلل التنموي⁽⁵⁾.

ونتيجة لأسباب عدة من أبرزها غياب التخطيط الإقليمي، وفشل سياسات التنمية المتوازنة والمتكاملة، برزت الخصوصية التنموية في منطقة الجزيرة السورية التي تضم ثلاث محافظات هي: الحسكة، دير الزور، الرقة، وعلى الرغم من وجود موارد نفطية وزراعية ومائية وحيوانية فيها، وتشكل 41 بالمئة من مساحة سورية، ولكن الفشل واضح في استثمار هذه الموارد وإدارتها من قبل أجهزة الإدارة العامة، وسمة القصور التنموي تتجلى في المجالات الاقتصادية والتعليمية والصحية جميعها.

(5) مجموعة من الباحثين، «حول المركزية واللامركزية في سورية: بين النظرية والتطبيق»، عمران للدراسات الاستراتيجية، الكتاب السنوي الرابع، (2018)، ص 105.

ثانيًا: مشكلة البحث

تعاني الإدارة العامة وأجهزتها الحكومية تسلط النظام السياسي وهيمنته عبر أدواته المختلفة، ومن ثم، فإن عملية صنع القرار الإداري الحكومي تتأثر بعدد من العوامل، وفي مقدمتها العامل السياسي، وينعكس ذلك في مخرجات القرارات على التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية في سورية بالعموم، لكن محور التركيز في هذا البحث سيكون التنمية المحلية في منطقة الجزيرة السورية.

ويمكن التعبير عن المشكلة البحثية المطروحة في هذا البحث من خلال السؤال الرئيس الآتي:

كيف تنعكس قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية في الجزيرة السورية؟

ويتفرع إلى الأسئلة الآتية:

1. ما واقع عملية صنع القرار الإداري الحكومي من خلال العوامل المؤثرة فيها؟
2. كيف ينعكس المتغير السياسي في قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية؟
3. كيف ينعكس المتغير الاقتصادي في قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية؟
4. كيف ينعكس المتغير الاجتماعي في قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية؟
5. كيف ينعكس المتغير التنظيمي في قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية؟
6. كيف ينعكس متغير الفساد الإداري في قرارات الإدارة العامة في التنمية المحلية؟

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على واقع صناعة القرار الإداري الحكومي في سورية، وانعكاس ذلك في واقع التنمية المحلية في الجزيرة السورية، وكذلك يحاول تحليل العلاقة بين العوامل المؤثرة في صنع القرار الإداري الحكومي من مثل العامل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتنظيمي والفساد الإداري من جهة، ومستوى التنمية المحلية في الجزيرة السورية من جهة ثانية.

تتأتى أهمية طرح هذا الموضوع من الناحية النظرية والمعرفية من خلال معالجة العلاقة بين متغير عملية صنع القرار الإداري الحكومي الذي يمثل جوهر عمل الإدارة العامة في سورية، وانعكاس هذا القرار في متغير التنمية المحلية في منطقة الجزيرة السورية، وذلك وفق منهجية ومنطق البحث العلمي السليم الذي قد يقدم إضافة في هذا المجال من الدراسات والمعارف، أما من الناحية العملية

والتطبيقية، فلعل هذا البحث يقدم بعضاً من الرؤية المفيدة لصناع القرارات والسياسات من خلال رصد الفجوة الواقعية والخلل الذي ينعكس في واقع التنمية المحلية في الجزيرة السورية من جراء عملية صنع القرار الإداري الحكومي في صيغته الحالية متأثراً بجملة من المتغيرات.

منهجية البحث: يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي للظاهرة البحثية، ومحاولة تفسيرها باعتماد المسح المكتبي للدراسات والبحوث والتقارير والمؤشرات والمراجع المختلفة للاستفادة منها في تحقيق أهداف هذا البحث، والاجابة عن التساؤلات المطروحة في سياق التعبير عن مشكلة البحث.

ثالثاً: الدراسات السابقة

تناول عدد من الدراسات والبحوث عملية صنع القرار الإداري، والمتغيرات المؤثرة فيه، وعني بموضوع التنمية المحلية بجوانبها المختلفة. سلطت دراسة (قريب علي، 2020)⁽⁶⁾ الضوء على دور الإدارة العامة في صنع السياسات العامة، وأشارت إلى تطور علاقة الإدارة العامة مع السياسة من التغول والهيمنة إلى الاستقلالية، وهدفت دراسة (أريج الخطيب، 2020)⁽⁷⁾ إلى التعرف على واقع عملية صنع القرار في أجهزة الإدارة العامة الفلسطينية، وعلاقتها بكفاءة الموظفين من وجهة نظر العاملين فيها، وتوصلت إلى عدد من النتائج وكان أبرزها: ضرورة العمل على رفع مستوى المشاركة في عملية صنع القرار لدى العاملين في الإدارة العامة الفلسطينية وتفعيل دور التفويض، وتعديل الأنظمة والقوانين المعمول بها لتيسير إجراءات التفويض، وأوصت بضرورة تطوير أنظمة المعلومات اللازمة لعملية صنع القرار.

وسعت دراسة (هاني يوسف، 1990)⁽⁸⁾ إلى التعرف على عملية صنع القرار الإداري في ثلاث منظمات إدارية في القطاع العام السعودي، فقد تطرقت الدراسة إلى مشكلة مدى صواب افتراض ترتيب المراحل، وتعاقيها على النحو الذي تتناوله كتابات علماء الإدارة ومناقشتهم العملية. وقد أوضحت الدراسة أن هناك دلالة - ولو بصورة نسبية - بوجود تشابه في ترتيب مراحل عملية صنع

(6) قريب علي، دور الإدارة العامة في صنع وتنفيذ السياسات العامة، رسالة ماجستير، (الجزائر: جامعة زيان عاشور 2020).

(7) أريج الخطيب، عملية صنع القرار في الإدارة العامة الفلسطينية وعلاقتها بكفاءة الموظفين، رسالة ماجستير، (فلسطين: جامعة الخليل، 2020).

(8) هاني يوسف، عمليات صنع القرار الإداري في القطاع العام في المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية مقارنة، (السعودية: جامعة الملك عبد العزيز، 1990).

القرار الإداري في الممارسات العملية وتعاقيها بالمراحل التي يتناولها علماء الإدارة في كتاباتهم، وذلك بعد أن قارن الباحث المراحل العلمية بالمراحل العملية. وتبين من الدراسة بأن عملية صنع القرار الإداري في الممارسات العملية لا تتم بمعزل عن بعض العوامل المختلفة التي تؤثر فيها، الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة تقسيم مراحلها من الناحية العملية لتتطابق مع المراحل العلمية تمامًا. كذلك قدمت الدراسة تصورًا عامًا لمجموعة العوامل التي تؤثر في عملية صنع القرار الإداري في الحياة العملية للمنظمات الإدارية مجال البحث.

وهدفت دراسة (خالد عبد الله إبراهيم، 2015)⁽⁹⁾ إلى التركيز على أهم العوامل البيئية الداخلية وهو التدريب وأثره في اتخاذ القرارات الإدارية لدى عينة من صانعي القرارات الإدارية من منظمات حكومية، وهدفت الدراسة إلى التعرف على شكل العلاقة المتشابكة بين التدريب واتخاذ القرارات والعمل على ترتيب المتغيرات بحسب أهميتها في تأثير التدريب في متخذ القرار عند ممارسته عملية اتخاذ القرارات الإدارية.

ويرى (محمد عبده علي القطراني، 2011)⁽¹⁰⁾ أن المشكلات والمعوقات التي تواجه عملية اتخاذ القرارات في الإدارة العامة في اليمن معظمها تنبع من اعتبارات سياسية واجتماعية وفنية وضغوط وتأثيرات شخصية تمارسها الجماعات الضاغطة أو الأحزاب والمنظمات المهنية، ومشكلات ذات صلة بعدم استقرار الأنظمة السياسية، وكذلك جمود الأنظمة والقوانين واللوائح وعدم الاستفادة من التقدم التكنولوجي في مجالات التنمية، فهي تحول دون التزام صناع القرار بالموضوعية، وتؤدي إلى عدم اتخاذ قرارات سليمة.

يسلط دليل وضع وتنفيذ استراتيجيات تنمية الاقتصاد المحلي وخطط العمل بها لعام، الصادر عن دراسة مشتركة للبنك الدولي 2004⁽¹¹⁾؛ الضوء على أمثلة من القواعد والتجارب الجيدة في مجال التخطيط الاستراتيجي للتنمية الاقتصادية المحلية، وفي تنفيذ عملية التنمية، فضلاً عن استخلاص الدروس التي اكتسبت من شبكة (مدن التغيير) للتنمية الاقتصادية المحلية، ويعد هذا الدليل من أهم أدوات البنك الدولي للوصول إلى تفهم أفضل للتنمية المحلية الاقتصادية.

(9) خالد عبد الله إبراهيم، التدريب وأثره في اتخاذ القرارات الإدارية الرشيدة دراسة استطلاعية لآراء عينة من المدراء العاملين في العراق، (العراق: جامعة الفلوجة، 2015).

(10) محمد عبده علي القطراني، قرارات الحكومة وأثرها في تنفيذ الاستراتيجيات في وحدات الإدارة العامة، (اليمن: جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا، 2011).

(11) فيرجس ميرفي وآخرون، «التنمية الاقتصادية»، البنك الدولي، (2004). <https://2u.pw/eRhNU>

أشار (صبيح فرحان، 2018)⁽¹²⁾ في دراسته ((السلطات المحلية والتنمية: تحليل في اللامركزية الادارية والتنمية المحلية مع اشارة الى التجربة العراقية)) إلى ضرورة حتمية اليوم، وهي توزيع السلطات والمهام بين الحكومة المركزية والسلطات المحلية، بما يضمن قيام هذه السلطات بدور أكثر فاعلية في التنمية الوطنية نتيجة لقربها من المواطنين، ومن ثم فهي أكثر قدرة على تحديد المشكلات والتحديات والطموحات، وكذلك تحديد الإمكانيات التنموية المحلية، وبما يؤهلها لرسم الحلول الناجعة لتلك المشكلات، وتعد اللامركزية أحد أهم حلول الحكومات من أجل تحقيق أهداف خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، من ناحية أخرى من دون اللامركزية لا يمكن الحديث عن الديمقراطية بأشكالها المختلفة، ولا سيما السياسية والإدارية.

وقد عرض (عبد الجبار سعد الدين وعمر شتاتحة، 2018)⁽¹³⁾ في دراستهما أركان التنمية المحلية المستدامة وأواصرها في ضوء المقاييس العالمية، وخاصة بما يتعلق بالبيئة والمحافظة على حظوظ الأجيال القادمة في حقها بالعيش الكريم، وهذا لا يتحقق إلا بتحريك عجلة التنمية وإدارتها بصورة صحيحة ومتوازنة ومستدامة.

ودرس (جوزيف نعمة موسى، 2020)⁽¹⁴⁾ العلاقة بين مستوى الفساد الإداري ومستوى التنمية الاقتصادية في سورية، وتوصل إلى عدد من النتائج، وأبرزها وجود علاقة عكسية قوية بين مستوى الفساد الإداري وتدني نصيب الفرد من الناتج المحلي ومن الدخل القومي، وكذلك علاقة عكسية قوية بين مستوى الفساد الإداري وانخفاض الناتج الإجمالي المحلي، كذلك هناك علاقة عكسية بين مستوى الفساد الإداري وانخفاض الصادرات (الانكشاف التجاري).

وتناول الكتاب السنوي الرابع لمركز عمران للدراسات الاستراتيجية⁽¹⁵⁾ حول المركزية واللامركزية في سورية بين النظرية والتطبيق في المبحث الخامس، وأشار إلى مفهوم التنمية المحلية، ودوافع تبني اللامركزية، ومحددات نجاحها.

(12) صبيح فرحان، «السلطات المحلية والتنمية: تحليل في اللامركزية الادارية والتنمية المحلية مع اشارة الى التجربة العراقية»، (د.م: إثراء للنشر والتوزيع، 2018)، <https://2u.pw/bsahj>.

(13) عبد الجبار سعد الدين وعمر شتاتحة، «التنمية المحلية المستدامة محصلة حتمية لكونولوجيا التنمية في الفكر الاقتصادي»، مجلة إدارة الأعمال والدراسات الاقتصادية، ع: 3، (2018).

(14) جوزيف نعمة موسى، «أثر الفساد الإداري على التنمية الاقتصادية في سورية»، مجلة البحوث الاقتصادية والمالية، مج: 7، ع: 1، (2020).

(15) مجموعة من الباحثين، «حول المركزية واللامركزية في سورية: بين النظرية والتطبيق»، عمران للدراسات الاستراتيجية، الكتاب السنوي الرابع، (2018)، ص 102.

لا شك في أن هناك دراسات أخرى تناولت البحث في موضوعي القرارات الإدارية وقرارات الإدارة العامة والتنمية المحلية، إلا أن محور تركيز هذه الدراسة هو الربط من متغيرات عملية صنع قرارات الإدارة العامة في سورية، وانعكاس مخرجات هذه القرارات في التنمية المحلية بمختلف مجالاتها في منطقة الجزيرة السورية.

رابعاً: صنع القرارات: المفهوم والعملية

كما أشرنا آنفاً بأن عملية صنع قرارات الإدارة العامة تمثل جوهر العملية الإدارية الديناميكية في جميع المستويات التنظيمية في أجهزتها الحكومية من الإدارة العليا، المتمثلة بالرئيس الإداري الأعلى، ومن ثم الوزراء والمديرين العامين، ومديري الفروع والمديريات، وصولاً إلى الإدارة التنفيذية المباشرة، وتمثل هذه القرارات بمضمونها ترجمة للأهداف والسياسات التي تعتمدها الدولة.

تشير كثير من الأدلة والدراسات في علم الإدارة إلى أن عملية صنع القرارات تمثل المسؤولية الكبرى بالنسبة إلى القائد الإداري، ولا سيما في مجال الإدارة العامة والحكومية التي يُبنى عليها سير العمل في الدولة بصورة عامة نحو تحقيق أهدافها في تنمية البلاد والموارد، وفي مقدمتها المورد البشري.

1. ماهية القرار ومفهومه

يشير مفهوم القرار إلى عملية اختيار بديل من بين بدائل عدة متاحة لمواجهة موقف ما أو لحل مشكلة، ويمكننا ملاحظة وجود ثلاثة جوانب في مفهوم القرار، وهي⁽¹⁶⁾:

وجود البدائل: وهذا يعني أن عدم وجود بدائل لعدم القرار، وتنتهي عملية الاختيار إلى إجبار.

حرية الاختيار: وجود البدائل من دون وجود حرية اختيار البديل الأمثل لعدم القرار أيضاً.

وجود الهدف: وراء كل قرار هدف يسعى لتحقيقه، ومن دون وجود هذا الهدف لا معنى لاتخاذ القرار.

(16) صالح العامري وطاهر الغالي، الإدارة والأعمال، ط8، (الأردن: دار وائل للنشر، 2008)، ص 302.

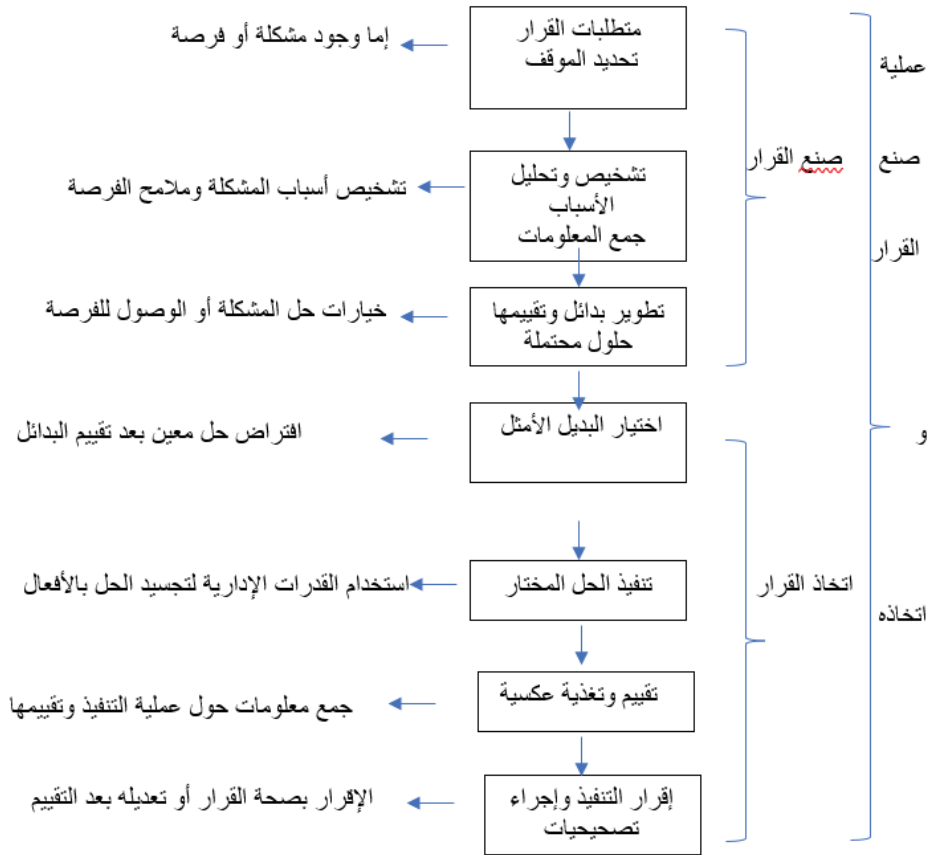
والقرار في الإدارة العامة لا بد أن يكون هادفًا لحل مشكلة أو مواجهة موقف متصل بالشأن العام، ومرتبطة بوظائف الإدارة العامة الحكومية في مختلف المستويات الإدارية، وغالبًا القرارات ذات الصلة بقضايا التنمية تكون مشتقة من أهداف خطط التنمية التي تقرها المستويات العليا في الدولة من مثل الوزارات باختصاصاتها المختلفة أو هيئة تخطيط الدولة أو المؤسسات العامة المتخصصة في قضايا الشأن العام. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هناك فرقًا في المفهوم بين اتخاذ القرار وصنع القرار، حيث إن اتخاذ القرار هو جزء أو مرحلة من مراحل صنع القرار، وهو الجزء الذي يتعلق بعملية اختيار بديل من بين بدائل عدة، ويقع على عاتق المدراء والفرق التي تعمل معهم أو اللجان والمجالس المتخصصة ذات الصلة، وتلعب العوامل الشخصية والمهارات التي يمتلكها المدير مثل المهارات الفكرية والإدراكية من مثل القدرة على التحليل والتفكير العلمي والمنطقي ومهارات حل المشكلات ومواجهتها والتنبؤ بها قبل وقوعها، وكذلك المهارات الإدارية المتعلقة بتنظيم العمل ومستوياته الإدارية، ومستوى ممارسة المسؤوليات والصلاحيات وتخطيط الأهداف، إضافة إلى المهارات الفنية المتصلة بطبيعة العمل ذاته سواء كان عملاً صناعياً أو زراعياً أو صحياً أو تعليمياً، ومستوى الخبرات والتأهيل في طبيعة التخصص، وهنا تظهر مشكلات عدة في الإدارة العامة في سورية، أبرزها مشكلات اختيار المديرين وتعيينهم، وآليات الاختيار والتعيين، وغياب الوصف الوظيفي، ووجود تدخلات كثيرة من الجهات الوصائية تلغي حرية الاختيار، وتؤثر في مضمون عملية الاختيار، والخلل الواضح في آليات تقييم الأداء ورسم المسار الوظيفي رسمًا صحيحًا.

2. عملية صنع القرار

وهي عملية إدراك طبيعة القرار، وتعريفه، من حيث الحاجة إلى القرار أو مبرر اتخاذ، ومستوى القرار، ومدى تأثيره في الموقف المراد معالجته، وتطوير البدائل المختلفة من خلال جمع البيانات وحصر المعطيات المتعلقة بالقرار، ومن ثم اختيار البديل الأمثل بعد تقييم البدائل التي طُورت بحسب المعطيات المتاحة، ومن ثم وضعه موضع التنفيذ، ومراقبة مفاعيل القرار، ونتائج تطبيقه، وقراءة التغذية العكسية، والاستفادة منها في التعديلات الممكنة إن تطلب الموقف ذلك.

ويمكن توضيح نموذج عملية صنع القرار من خلال الشكل الآتي:

الشكل رقم (3) عملية صنع واتخاذ القرار⁽¹⁷⁾



3. نماذج صناعة القرار

نظرًا إلى كون عملية صنع القرارات معقدة، ويشارك فيها عدد كبير من الأفراد، وتتضمن كمًا كبيرًا من المعلومات والمعطيات، وتتأثر بالمتغيرات البيئية المحيطة، وكذلك تضارب المصالح، وتعارض الأهداف، فهناك مداخل ونماذج لصناعة القرار يمكن أن تساهم في تطوير حلول وبدائل أفضل

(17) صالح العامري وطاهر الغالي، الإدارة والأعمال، ص 302

لمواجهة المواقف والمشكلات، سوف نسلط الضوء عليها باختصار من خلال الجدول الآتي:

الجدول رقم (2) نماذج صناعة القرارات⁽¹⁸⁾

النموذج التقليدي للقرار	النموذج السلوكي للقرار	النموذج السياسي للقرار
مشكلة واضحة وأهداف واضحة	مشكلة غامضة وأهداف غير واضحة	أهداف متعددة ومتعارضة
حالة تأكد ومخاطرة	حالة عدم تأكد	حالة عدم تأكد وإبهام
معلومات كاملة حول البدائل ونتائجها	معلومات بسيطة عن البدائل ونتائجها	رؤية غير مستقرة ومعلومات مهمة
العقلانية والرشد في اختيار المدير للقرار لتعظيم النتائج	خيارات مرضية لحل المشكلات باستخدام الحدس	مساومات وحوار بين أعضاء التحالف أو صناع القرار

المصدر: صالح العامري وطاهر الغالي، الإدارة والأعمال⁽¹⁹⁾

4. العوامل التي تؤثر في عملية صنع واتخاذ القرار

تتأثر عملية صنع قرارات الإدارة العامة في سورية بجملة المتغيرات الموجودة في بيئة العمل العام، ويمكن تصنيفها بحسب الآتي:

أ. المتغير السياسي: تؤثر القيود السياسية وتوجهات نظام الحكم في حرية صانع القرار ومتخذه كي ينسجم القرار مع فلسفة إدارة الدولة ومع رؤيتها السياسية. والرؤية التنموية لنظام الحكم في سورية توضحت منذ استيلاء حافظ الأسد على السلطة الذي بدأ عبر تجهزته الأمنية والحزبية يلوي عنق التنمية والاقتصاد لصالح العامل السياسي، ومن المسلم به أن العلاقة السليمة بين الإدارة العامة والإرادة السياسية تشكل دافعاً للإنجاز، والقائد الإداري الذي يتمتع بثقة القيادة السياسية يشعر بالمساندة، ويكون أقدر على الإنجاز، أما في واقع الإدارة العامة في سورية فقد كانت العلاقة مشوهة وغير سليمة ابتداءً بتوصيف منصب

(18) صالح العامري وطاهر الغالي، الإدارة والأعمال، ص 313.

(19) صالح العامري وطاهر الغالي، الإدارة والأعمال، ص 313.

رئيس مجلس الوزراء وتحديد مهماته وفق الدستور، وتفرغها من محتواها، ثم طريقة اختياره وتعيينه، وهو الرئيس الإداري الأعلى في الحكومة التنفيذية للإدارة العامة، حيث لا معايير إدارية واضحة تتعلق بالكفاءة والمهارة والتخصص، إنما المحسوبية والولاء السياسي والطاعة العمياء وضعف الشخصية والفساد في مناصب سابقة لتعيينه، ويحتاج إلى موافقة الجهات الأمنية كلها، وهي الحاكم الفعلي وصانعة قرار التعيين، وهذا ينسحب على تعيين الوزراء والمديرين العامين في مركز العاصمة ومديري الفروع في المحافظات، تكون الآلية النظرية لتعيين القادة الإداريين في القطاع العام بترشيح ثلاثة أسماء للمنصب الشاغر من قبل القيادة القطرية لحزب البعث، ثم تجري الدراسة الأمنية على الأسماء المقترحة، وتعد صفقات الفساد وترجيح كفة مرشح على مرشح آخر، وتنتهي المساومات بتعيين أحد المرشحين للمنصب المذكور حاملاً معه دين الولاء لكل الجهات التي لعبت دوراً في تعيينه، ويكون السداد والوفاء من خلال التدخل بقراراته في إدارة المرفق العام، مهما كان مستوى هذا المرفق، ولو كان رئيس مجلس الوزراء. والأمر ذاته ينسحب على التعيينات في المحافظات، حيث تسهم فروع الحزب والفروع الأمنية بمجريات الترشيح وتعيين المديرين على مستوى المحافظة. كل ما تقدم من معطيات قرارات تعيين القادة الإداريين سوف يؤدي بصورة منطقية إلى الحد من حرية صانع القرار الإداري الحكومي، وتوجيهه نحو تنفيذ إرادة نظام سياسي فاسد ومستبد لم يعط التنمية الأولوية.

ب. المتغير الاقتصادي: إن نظام الحكم في سورية لم يعتمد نهجاً اقتصادياً واضحاً، على الرغم من إعلان التوجه الاشتراكي، وإقرار التعددية الاقتصادية بقيادة القطاع العام، إلا أن ذلك كان مجرد شعارات نظرية بعيدة عن التطبيق، ومن ثم تخطت الإدارة العامة بقراراتها المتصلة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية، واعتمدت الخطط الخمسية التي تراكمت من دون تنفيذ، إضافة إلى سوء تخطيط المالية العامة للدولة، وتوزيعها، وتعطيل الاعتمادات، ونقلها إلى مواضع غير تنموية، وعدم تنمية استثمار الموارد استثماراً مطلوباً، ولإسيما الموارد الطبيعية والثروة الباطنية التي تتركز بغالبيتها في منطقة الجزيرة السورية، وكذلك أوضاع المنافسة مع قطاع الأعمال الذي أصبح بيد فئات محددة بفعل انتشار الفساد وتحالفات السلطة مع المال، كل ما تقدم ذكره يقيد عملية صنع القرار الإداري الحكومي، ويربكها، ويعطل هدف القرار، وغايته.

ج. المتغير الاجتماعي: ويتمثل بالبيئة الاجتماعية التي يصنع فيها القرار الإداري الحكومي، وهي تؤثر في عملية صنع القرارات، وتتأثر بها من خلال علاقات العمل الرسمية وفق الهياكل التنظيمية، وعبر علاقات العمل غير الرسمية وكذلك المنظمات والنقابات العمالية والمهنية،

والانتماءات الاجتماعية المختلفة للطائفة أو القبيلة أو المنطقة. وقد كرس نظام الحكم ذلك من خلال سياسات تعيين القادة الإداريين في القطاع العام بموجب مزيج من اعتبارات اجتماعية وسياسية ومناطقية وفساد ومحسوبية، ووفق هذه المعطيات تواجه عملية صنع القرار قيوداً كثيرة تنعكس سلباً في تحقيق أهدافها، ولعل مثال تعيين المحافظين والقوى الموازية من قادة الشرطة وقوى الأمن وضرورة كونهم من خارج المحافظة ومكوناتها فيه إشارة إلى بعض التحديات الاجتماعية المؤثرة في صناعة القرار الإداري الحكومي، ولا سيما في منطقة الجزيرة السورية التي تتشابه فيها البنى الاجتماعية العشائرية والريفية، وفي الوقت ذاته فيها تنوع عرقي وديني وطائفي، حيث استثمر النظام السياسي في هذا التنوع بصورة سلبية وبعيدة عن تطوير المجتمع وتنميته.

- د. المتغير التنظيمي: تعد أبعاد المتغير التنظيمي عاملاً مؤثراً في اتخاذ القرار الإداري الحكومي، وتتضمن: نمط السلطة وآليات ممارستها، والمعلومات ومدى توافرها، وانسياب تدفقها، ومدى كفايتها، والهيكل التنظيمي ومدى مرونته، وتأثير العلاقات غير الرسمية في صناعة القرار، ومعايير الكفاءة ومدى الالتزام بها، والولاء للمنظمة العامة. حيث يشير واقع الإدارة العامة في سورية إلى أن سلطة اتخاذ القرار مركزية، ولا سيما في ما يتعلق بالقرارات والخطط التنموية، ونظم المعلومات في كفايتها وتدفقها معطلة بصورة كبيرة، وهناك خلل واضح في صياغة معايير الكفاءة، وكذلك في اتباعها، والالتزام بها، والهيكل التنظيمية مترهلة وقديمة، وتفتقر إلى التوازن في الأداء التنظيمي، وكل ما تقدم ذكره حتماً سيؤدي إلى إضعاف الولاء للقطاع العام من قبل العاملين فيه، وسيؤثر ذلك في الصورة العامة لدى عموم المواطنين.
- هـ. الفساد الإداري⁽²⁰⁾ إن ظاهرة الفساد الإداري ظاهرة متعددة الجوانب، لا تظهر فقط في القطاع العام، وإنما تبرز في المجال الاقتصادي والاجتماعي والمالي وغيره من المجالات، إلا أننا سنشير هنا إلى الفساد في القطاع العام، وقد عرفت منظمة الشفافية الدولية الفساد بأنه كل عمل يتضمن سوء استخدام المنصب العام لتحقيق مكاسب شخصية. وهناك أسباب عدة لانتشار الفساد العمومي، وأبرز هذه الأسباب غياب المحاسبة بمختلف أشكالها، وانطلاقاً من تبعية الإدارة العامة لنظام سياسي فوق المساءلة والمحاسبة المستند إلى حكم الفرد الواحد والطائفية السياسية والدينية حيث يسخر مقدرات البلاد ومواردها عبر التدخل بقرارات الإدارة العامة لصالح فئة محددة تؤثر تأثيراً مباشراً في صناعتها، وتتحكم بها، هذا إضافة إلى أسباب أخرى اجتماعية واقتصادية وقانونية وتنظيمية، ويظهر الفساد من خلال الرشوة والمحسوبية وسرقة المال العام، وسوء الاختيار والتعيين، وغياب الشخص المناسب

(20) علي الحمادي، «الفساد الإداري في سورية وسبل معالجته»، المنتدى القانوني السوري، (2019). <https://2u.pw/jOHAG>

في المكان المناسب، وانتشار مظاهر البيروقراطية، وهذا تسبب في هدر الإمكانيات المتاحة، وإدارة القطاع العام بأساليب غير علمية إضافة إلى قتل الروح المعنوية، وضعف الانتماء وسيادة روح الأنانية واستغلال الفرص، ما جعل أجهزة الإدارة العامة مشلولة وغير فعّالة⁽²¹⁾.

رابعاً: التنمية المحلية في الجزيرة السورية

جاء طرح مفهوم التنمية المحلية في سياقات تنمية المجتمعات في البلدان النامية بقصد رفع المستوى الاقتصادي والصحي والتعليمي للسكان، إضافة إلى تنمية القدرات والمهارات للأفراد والفئات لمساعدتهم في مواجهة تحدياتهم ومشكلاتهم.

ويمكن تعريف التنمية المحلية بأنها⁽²²⁾: ((عملية التغيير المقصود والمرغوب التي تتم في إطار سياسة عامة محلية تعبر عن احتياجات الوحدة المحلية، من خلال القيادات المحلية القادرة على استغلال الموارد المحلية المتاحة ضمن مناطقها، وإقناع السكان المحليين بالمشاركة في هذا التغيير، والاستفادة من الدعم المادي والمعنوي الحكومي، وصولاً إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي)).

وتعد التنمية المحلية من أهم أدوات التنمية لدى الحكومات الساعية للارتقاء بمستوى معيشة أفرادها، حيث يمكن عدّها أداة ذكية، ويتم من خلالها التركيز على الاحتياجات المحلية الحقيقية والداعمة لخطط التنمية الشاملة للبلاد.

ووفق مفهوم التنمية المحلية، لا يمكننا فصل مؤشرات التنمية المحلية في منطقة الجزيرة السورية عن واقع ممارسات الإدارة الحكومية المركزية وقراراتها المُجففة والجائرة بحق تلك المنطقة التي أقل ما يمكن وصفها بأنها سلة غذاء سورية، والتي يصّر النظام الحاكم على وصفها بالمنطقة النائية.

المقصود بالجزيرة السورية في سياق هذا البحث كامل الأراضي السورية الواقعة شرقي وشمال نهر الفرات، وتضم منطقة الجزيرة السورية إدارياً محافظة الحسكة بكاملها، والأرياف الشمالية والشرقية لمحافظة دير الزور، ومركز محافظة الرقة وريفها الشمالي بالكامل، وتتبع مدينة كوباني/ عين العرب في شمال غربي الجزيرة إدارياً لمحافظة حلب. ومنطقة الجزيرة هي إحدى أكثر المناطق

(21) مصطفى كافي، الإصلاح الإداري بين النظرية والتطبيق، (دمشق: دار رسلان للطباعة والنشر، 2020).

(22) عبد الجبار سعد الدين وعمر شتاتحة، «التنمية المحلية المستدامة محصلة حتمية لتكنولوجيا التنمية في الفكر الاقتصادي»، ص 124.

السورية تنوعاً على الصعيد الاثني والديني، وقد أدت سياسات حكم البعث في عهد الأسد ووريثه إلى تهميش عموم سكانها، وغياب أي خطط جدية للتنمية الاقتصادية فيها وتحسين أوضاعها، ما ولد شعوراً عاماً لدى أبنائها بالظلم الشديد نتيجة احتواء مناطقهم على جزء كبير من أهم ثروات سورية، وعلى وجه الخصوص النفط والقمح والقطن، من دون أن يكون لهذا مردود مباشر في أوضاعهم وأحوال حياتهم العامة⁽²³⁾.

1. موارد الجزيرة السورية

إن توافر الموارد الاقتصادية والبشرية العامل الأهم في عملية التنمية المحلية، وهذه الموارد في معظمها متوافرة في الجزيرة السورية، ولكن غياب الإرادة السياسية وفساد الإدارة العامة حالاً دون تحقيق هذه التنمية، ففي قطاع الزراعة⁽²⁴⁾ حيث تزدهر فيها زراعة المحاصيل الحقلية (القمح والشعير والعدس والقطن) نتيجة المناخ المناسب، وتوافر السهول الواسعة؛ تقدر مساحة الأراضي القابلة للزراعة في محافظة الحسكة (1.578.000 هكتار)، وفي محافظة الرقة (813.000 هكتار)، وفي محافظة دير الزور (224.000 هكتار)، ومن ثم، تشكل الأراضي القابلة للزراعة في المحافظات الشرقية (عدا منطقة عين العرب) 43 بالمئة من إجمالي الأراضي القابلة للزراعة في عموم سورية المقدرة بنحو (6.068.000 هكتار). بلغ على سبيل المثال إنتاج المحافظات الشرقية نحو 2.147.826 طن من القمح سنة 2011، وتشكل هذه الكمية ما نسبته 55 بالمئة من مجموع إنتاج سورية من القمح ذلك العام البالغ 3.858.331 طن، في حين بلغ إنتاج القطن من المحافظات الشرقية في العام نفسه 522.966 طن والذي يمثل 78 بالمئة من إجمالي إنتاج القطن في سورية الذي بلغ 671.668 طن. ويعتمد السكان بعد الزراعة على تربية المواشي، وبصورة رئيسة الأغنام، ويشكل سكان الريف 61 بالمئة من إجمالي سكان المنطقة. تعد منطقة الجزيرة من أغنى مناطق سورية بمصادر المياه، لا سيما السطحية منها، إذ تقدر ثروتها السنوية بنحو 64 بالمئة من مجموع مياه سورية، بكمية تزيد على 13.93 مليون متر مكعب من أصل 20.647 مليون متر مكعب، ويعد نهر الفرات المورد الأساس لهذه المصادر، ويسهم فيها نهر الخابور من خلال مجموعة الينابيع الموجودة في رأس العين. وكذلك الملح الصخري يعد من أهم الثروات الطبيعية في الجزيرة، ويتصف بجودة عالية ونقاء، ويتموضع الملح الصخري في تشكيلة تعرف بتشكيلة الديبانة، تمتد على مساحات واسعة بين دير الزور والبوكمال،

(23) تغطية «تحولات تسع سنوات من تاريخ الجزيرة السورية»، الجمهورية نت، (2019). <https://2u.pw/MJJMt>

(24) مهند القاطع، «شرق الفرات الاقتصاد والثروات الطبيعية»، نون بوست، (2019).

تقدر بنحو 8000 كم مربع، ويعد هذا الاحتياطي من الملح كبيراً وبكراً ورصيداً اقتصادياً مهماً.

وفي قطاع الثروة النفطية تعد سورية من الدول المكتفية ذاتياً في مجال الطاقة، حيث تشير الأرقام إلى أن حجم الإنتاج النفطي اليومي وصل إلى 422 ألف برميل قبل عام 2011، وكان يُستهلك منه 245 ألف برميل، ويصدر الباقي نفطاً خاماً، وهناك تضارب في أرقام الإجمالي الاحتياطي النفطي، فبعض المصادر تقدره بـ 24 مليار برميل، بينما قدر وزير النفط السوري الأسبق الاحتياطي النفطي بـ 6.7 مليار برميل فقط⁽²⁵⁾، وهذا الرقم ليس بقليل، ولا شك في أن عملية استخراج النفط، واستثماره، والانتفاع به في مجالات التنمية مرتبطة بالتكنولوجيا والقدرات، ولكن بالدرجة الأولى مرتبطة بالإرادة السياسية لنظام الحكم في الدولة.

تتوزع حقول النفط والغاز في محافظات الجزيرة السورية وفق الآتي⁽²⁶⁾:

حقول محافظة الحسكة: في منطقة رميلان مجموعة من الحقول وتضم (مكامن قره تشوك، حمزة، السويدية الأولى، السويدية الثانية، رميلان، عليان، باباسي، وناغور)، إضافة إلى حقول الغاز في كل من (ديريك، ليلان، عليان، خربة، حقل عودة، الباردة، البواب).

في منطقة الجبسة مجموعة من الحقول وتضم (جبسة، الشيخ منصور، جنوب الحسكة، جريبة، تشرين، الهول الغونة، وكبيبة، والجبسة، والصالحية، والمناجيد، وأم مضياف، مركدة).

حقول محافظتي دير الزور والرققة: وهي منطقة المثلث الجنوبي في منطقة الجزيرة السورية، وتضم كثيراً من الحقول النفطية، مثل (حقول نفط الذرو، وشمال عطه الله، والهدية، والجفرة، والغواري، والرصين، والورد، وسيجان، والجزيرة، وجرنوف، وعمر، وثعبان، ومقعات، والشبلي، والمالح، وطيانة، والعشارة، وغلبان، وبرقة، والبرغوت، ويونس، والجيدو، وشديهة، والقشة، وغيرها). أما مكامن الغاز فإنها تضم كلاً من: (حقل الطابية، حقل العبد، شمال العمر، حقول النفط-الغاز المشترك في حقل الغزية، والأزرق، والتتنك، وأبو حردان).

وبمراجعة عدد من المصادر والتقارير يمكن إيراد بعض الأرقام عن نسب إسهام موارد الجزيرة في الناتج الإجمالي المحلي⁽²⁷⁾:

43 بالمئة من المساحة القابلة للزراعة على مستوى سورية موجودة فيها.

(25) قاسم البصري، «ثروات لن تراها الأجيال القادمة»، موقع الجمهورية نت، (2020). <https://2u.pw/qwz8U>

(26) مهند القاطع، «شرق الفرات الاقتصاد والثروات الطبيعية»، نون بوست، (2019). <https://2u.pw/dfjA3>

(27) زياد غصن، «الجزيرة السورية من يمكن أن يلوم الفقراء»، موقع الأخبار، (2014). <https://2u.pw/SkYAt>

56 – 58 بالمئة نسبة إنتاجها من محصول القمح قياساً بإجمالي إنتاج البلاد.
68 – 78 بالمئة نسبة إنتاجها من القطن قياساً بإجمالي إنتاج البلاد، ويُغزل 10 بالمئة منه فقط في الجزيرة.

62 – 72 بالمئة نسبة إسهامها في إنتاج محصول الذرة الصفراء.
36 – 41 بالمئة نسبة عدد رؤوس الأغنام إلى إجمالي القطيع السوري.
360 ألف برمیل إنتاج محافظتي الحسكة ودير الزور من النفط.

41 بالمئة من إجمالي مساحة سورية، ويقيم فيها 8.16 بالمئة من عدد السكان.

57 بالمئة من الموارد المائية السورية في الجزيرة.

2 بالمئة نسبة السياح العرب، وكذلك 2 بالمئة نسبة السياح الأجانب في الجزيرة من إجمالي السياح في سورية.

وعلى الرغم من غنى الجزيرة بمواردها وثرواتها وموقعها ومكانتها بوصفها مصدراً رئيساً للغذاء والطاقة، إلا أنها بفعل سياسي واضح بدأ منذ سبعينيات القرن الماضي محرومةً من فرص التنمية، حيث شهدت هجرات معاكسة للهجرات التي كانت قادمة إلى الجزيرة في عشرينيات القرن نفسه⁽²⁸⁾، ويشير جمال باروت في كتابه (التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية) إلى أن هناك ثلاثة عوامل لعبت دوراً طارداً، وهي:

1. فقر الدخل والخدمات والتنمية البشرية.

2. تأجير الفلاحين أراضيهم الزراعية لمستثمرين، والتوجه إلى المدن بحثاً عن عمل.

3. تصحر الأرض الزراعية بسبب التملح.

بالتأكيد هذا يعكس الإهمال المقصود لسلطة نظام الحكم، وفشل الإدارة العامة في منطقة الجزيرة السورية.

وتشير أرقام أممية للفقير إلى أن أكبر تركيز للفقراء في سورية يقع في الجزيرة السورية، ولا سيما في ريف تلك المنطقة، الذي يمثل فيه الفقراء نحو 37 بالمئة من إجمالي الفقراء فقراً شديداً في سورية،

(28) محمد جمال باروت، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

و28.8 بالمئة من إجمالي الفقراء في سورية. وهذا يفوق بكثير نسبة سكان هذه المنطقة إلى إجمالي سكان البلاد التي لا تتجاوز 23.3 بالمئة. فضلاً على أنها تدفع سريعاً ثمنًا كبيراً للقرارات الحكومية، وذلك نظراً لضعف الإمكانيات والتحسين التنموي في المجالات كلها، فمثلاً تشير التقديرات إلى أن نسبة الفقر الإجمالي في هذه المنطقة ارتفعت سريعاً بعد أول قرار لرفع سعر مادة المازوت في أيار/ مايو من عام 2008، وما رافق ذلك من ارتفاع في أسعار السلع الغذائية، فقد ارتفعت النسبة من 39 بالمئة في عام 2007 إلى 45.7 عام 2008، ورافق ذلك تدني مستوى الخدمات والمرافق العامة.

وفي سنوات الجفاف الممتدة بين عامي 2006 و2008 التي كانت الأسوأ في البلاد منذ 40 عاماً، دفعت بنحو 60 ألف عائلة، بينها 37 ألف عائلة من محافظة الحسكة وحدها، إلى ترك منازلها ومناطقها، والإقامة في خيم على أطراف محافظات المناطق الجنوبية والساحلية والوسطى بحثاً عن مصدر لتأمين متطلبات استمرار الحياة، في ما كانت الحكومة القائمة آنذاك تواجه المشكلة وتداعياتها المتلاحقة على الورق وبعقد مزيد من الاجتماعات.

الجدول رقم (3) أرقام دالة تنموياً في محافظة الحسكة حتى 2011⁽²⁹⁾

الناحية التنظيمية	الثقافة	الصحة	المرافق العامة	التعليم
16 منطقة وناحية 2381 قرية	مركز ثقافي واحد	97.8 بالمئة من القرى لا يوجد فيها مستوصف	53.9 بالمئة من المساكن تستخدم شبكة عامة للصرف الصحي	31.5 بالمئة نسبة الأمية
		99.2 بالمئة لا يوجد فيها عيادة طبيب	37.2 بالمئة تستخدم حفرة فنية	28.4 بالمئة يقرأ ويكتب
		98.7 بالمئة لا يوجد فيها صيدلية	7 بالمئة تستخدم مجاري مكشوفة	2.3 بالمئة حملة شهادة جامعية وما فوق
			90 بالمئة من شوارع قرى الحسكة ترابية	9.2 بالمئة حملة شهادة ثانوية
			3.4 بالمئة من طرقها معبدة	

الجدول من إعداد الباحث

المصدر: تقرير هيئة التخطيط الإقليمي⁽³⁰⁾ حول مؤشر الحرمان من فرص التنمية⁽³¹⁾

والأرقام والمؤشرات في محافظتي دير الزور والرقبة ليست بأفضل حال، حيث يظهر تقرير هيئة التخطيط الإقليمي حول مؤشر الحرمان من فرص التنمية الذي استند إلى أرقام المكتب المركزي للإحصاء لعام 2009، والمركب من ثلاثة مؤشرات رئيسية هي: البطالة والفقر والحرمان من التعليم، وتتفرع إلى خمسة مؤشرات فرعية: مؤشر فجوة الفقر، مؤشر التسرب من التعليم، مؤشر نسبة الأمية، مؤشر البطالة العام، ومؤشر بطالة الشباب (15-35 سنة)،

(29) زياد غصن، «الجزيرة السورية من يمكن أن يلوم الفقراء».

(30) تأسست هيئة التخطيط الإقليمي في سورية عام 2010 بموجب القانون رقم 26، ومهمتها التخطيط والتطوير الإقليمي المكاني في أراضي سورية كافة.

(31) تقرير اقتصادي، «مؤشر الحرمان من فرص التنمية»، موقع حزب الإرادة الشعبية، (2014). <https://2u.pw/zc6bF>

بحسب تقرير هيئة التخطيط الإقليمي، فإن مؤشر الحرمان من فرص التنمية مركب من خمسة مؤشرات فرعية هي:

بناء على مؤشر الحرمان تصنف النواحي التابعة للمدن في المحافظات المتنوعة ضمن خمسة تصنيفات من الأقل حرماناً (أ) إلى أكثرها حرماناً (هـ)، وسننشر هنا نسب الحرمان في كل محافظة سورية، والمحددة عن طريق نسبة المناطق غير المحرومة أو ذات الفرص الأعلى في التنمية والتطور (أ) إلى إجمالي المناطق، ونسبة المناطق المتوسطة (ب) + (ج)، والمناطق المحرومة (د) + (هـ) إلى إجمالي مناطق كل محافظة.

الجدول رقم (4) ويبين معدلات الحرمان من فرص التنمية في كل محافظة وبحسب المناطق

المحافظة	مجمل المناطق	عدد - نسبة المناطق «أ»	نسبة المناطق «ب-ج»	نسبة المناطق «د-هـ»
دمشق	1	100%	لا يوجد	لا يوجد
حلب	40 منطقة	3 - 7,5%	30 - 75%	7 - 17,5%
ريف دمشق	34	23 - 67%	11 - 33%*	لا يوجد
حمّاة	22	10 - 45%	12 - 55%	لا يوجد
إدلب	25	13 - 52%	12 - 48%	لا يوجد
حمص	23	7 - 30%	15 - 65,6%	4,4%
الرقّة	10	10%	7 - 60%	30%
الحسكة	16	لا يوجد	11 - 69%*	5 - 31%
دير الزور	14	7%*	12 - 86%	7%
طرطوس	27	لا يوجد	27 - 100%	لا يوجد
اللاذقية	22	لا يوجد	20 - 91%	9%
درعا	17	8 - 47%	9 - 53%	لا يوجد
السويداء	3	لا يوجد	3 - 100%	لا يوجد
المجموع	253	66 - 26%	169 - 67%	18 - 7%

نلاحظ من الجدول أن محافظة الحسكة لا توجد فيها أي منطقة في التصنيف (أ) الذي يعني الفرص التنموية المرتفعة، و69 بالمئة من مناطقها محرومة، و31 بالمئة منها أشد حرماناً، كذلك نلاحظ في محافظة دير الزور 7 بالمئة فقط لديها فرص تنموية عالية، و86 بالمئة محرومة، و7 بالمئة الأكثر حرماناً، ولو نظرنا إلى محافظة الرقة كذلك نلاحظ بأن 10 بالمئة فقط لديها فرص تنموية عالية، و60 بالمئة محرومة من الفرص، و30 بالمئة الأشد حرماناً.

إذاً في محافظتي الحسكة والرقة في الجزيرة السورية أعلى مؤشرات الحرمان من فرص التنمية، وأكثر نسبة من المناطق المحرومة، أما دير الزور فتشهد معدلات فقر مرتفعة جداً كما في موحسن 0.86 مؤشر فجوة الفقر، ومؤشرات حرمان تعليم مرتفعة 0.56 في موحسن، 0.52 هجين، 0.49 في مركز منطقة البوكمال. لتكون الجزيرة السورية بمحافظاتها الثلاث هي المنطقة التي تتركز فيها أعلى نسب الحرمان من فرص التنمية.

خامساً: الخاتمة

أدى اختلال العلاقة بين الإدارة العامة والنظام السياسي في سورية إلى تركيز سلطة صنع القرارات التنموية لدى المستويات العليا في الحكومة، ما تسبب بمشكلات تنموية عدة، وأبرزها الاختلالات التنموية بين المحافظات وبروز القصور التنموي بصورة واضحة في منطقة الجزيرة السورية.

الاستنتاجات

1. تتأثر قرارات الإدارة العامة في سورية بعدد من المتغيرات، والمتغير الأكثر تأثيراً هيمنة النظام السياسي عبر أدواته المختلفة على نشاط الأجهزة الحكومية.
2. قصور الرؤية التنموية لدى الحكومة المركزية، ولا سيما في ما يتعلق بالتنمية المتوازنة بين المحافظات، واتباع أساليب إدارية تقليدية لا تلبى متطلبات تنمية المجتمع ولا سيما في مناطق الجزيرة.
3. عدم تمكين المجتمع المحلي في الجزيرة السورية من استثمار الموارد المتاحة بما يتفق واحتياجاتها.
4. تغلغل الفساد الإداري والمالي في أجهزة الإدارة العامة، وغياب المساءلة الحقيقية والنزاهة،

- وانعكاس ذلك سلباً في التنمية المحلية، يشير جوزيف نعمة موسى⁽³²⁾ إلى وجود علاقة عكسية بين مستوى الفساد الإداري في سورية ومؤشرات التنمية الاقتصادية.
5. التوزيع غير المنصف وغير العادل من عوائد استثمار الموارد، حيث لم تستفيد الجزيرة السورية من عوائد النفط أو الزراعة أو الموارد المائية في دعم تنميتها المحلية.
 6. ضعف الاستثمارات حيث تعتمد التنمية الاقتصادية بالدرجة الأولى على زيادة عدد الاستثمارات التي تخلق فرص عمل جديدة، وتسهم في خلق القيم المضافة، والتوسع في الإنتاج، وتوليد دخول جديدة داخل الاقتصاد، وتعد المحرك الأساس للطلب، ومن ثم، تحريك العجلة الإنتاجية والاقتصادية بصورة عامة.
 7. انتشار نمط الزراعات البعلية بنسبة 80 بالمئة، وتراجع المساحات المروية، وأدى ذلك إلى انخفاض الإنتاجية الزراعية، وارتفاع تكاليف الإنتاج الزراعي، وضعف البنى المؤسساتية من مثل وحدات الإرشاد الزراعي، والمراكز البيطرية، ومؤسسات الائتمان الزراعي، ومؤسسات تسويق المنتجات، أو مؤسسات إنتاجية صناعية مرتبطة بالمنتجات الزراعية⁽³³⁾.
 8. غياب فرص العمل، وانخفاض مستوى الدخل، وانتشار الفقر في عموم الجزيرة، ولا سيما في الأرياف.
 9. النقص الواضح في الخدمات العامة ومرافقها، وتخلّف البنى التحتية من طرق ومواصلات وجسور واتصالات وحدائق وملاعب وغيرها في عموم منطقة الجزيرة.
 10. تخلّف البنى الاقتصادية وانخفاض إنتاجية العمل، وتقادم الأساليب الإدارية، وتخلّف آليات التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة وصناعة القرارات.
 11. عدم الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة بالشكل المطلوب في مجالات التنمية المختلفة، وغياب الكوادر الفنية المتخصصة، والنقص الكبير في رأس المال المستثمر في هذا القطاع.
 12. أثرت الهجرة من الريف إلى المدينة وكذلك من الجزيرة عمومًا إلى المدن الكبرى في سورية أو إلى خارج البلاد في عملية التنمية المحلية، حيث تفقد تلك المنطقة ذوي الكفاءات والمهارات من المورد البشري بصورة مستمرة منذ بداية حكم آل الأسد.
 13. عدم تمكين المرأة وإدماجها في عملية التنمية المحلية، وابتعادها عن التعليم والتدريب والتأهيل، وانشغالها بالعمل الزراعي اليدوي في الأرياف، إضافة إلى متغيرات اجتماعية وثقافية من خصوصية مجتمع الجزيرة السورية.

(32) جوزيف نعمة موسى، «أثر الفساد الإداري على التنمية الاقتصادية في سورية»، ص 14.

(33) شوقي محمد، «واقع التنمية الريفية في إقليم الجزيرة: الفرص والإمكانات»، مركز الفرات للدراسات، (2021).

لعل شكل النظام السياسي القادم في سورية بعد نهاية الصراع يكون فرصة لتصحيح العلاقة مع الإدارة العامة، لتأخذ دورها في خدمة البلاد وتنميتها بصورة متوازنة، واعتماد اللامركزية في تنمية المحليات.



المصادر والمراجع

1. إبراهيم. خالد، التدريب وأثره في اتخاذ القرارات الإدارية الرشيدة: دراسة استطلاعية لآراء عينة من المدراء العامين في العراق، (العراق: جامعة الفلوجة، 2015).
2. الخطيب. أريج، عملية صنع القرار في الإدارة العامة الفلسطينية وعلاقتها بكفاءة الموظفين، رسالة ماجستير، (فلسطين: جامعة الخليل، 2020).
3. العامري. صالح، وظاهر الغالبي، الإدارة والأعمال، ط8، (الأردن: دار وائل للنشر، 2008).
4. علي. قريب، دور الإدارة العامة في صنع وتنفيذ السياسات العامة، رسالة ماجستير، (الجزائر: جامعة زيان عاشور، 2020).
5. القطراني. محمد عبده، قرارات الحكومة وأثرها في تنفيذ الاستراتيجيات في وحدات الإدارة العامة، (اليمن: جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا، 2011).
6. باروت. محمد جمال، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
7. بوحوش. عمار، الاتجاهات الحديثة في علم الإدارة، ط2، (الجزائر: دار البصائر، 2008).
8. كافي. مصطفى، الإصلاح الإداري بين النظرية والتطبيق، (دمشق: دار رسلان للطباعة والنشر، 2020).
9. يوسف. هاني، عمليات صنع القرار الإداري في القطاع العام في المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية مقارنة، (جدة: جامعة الملك عبد العزيز، 1990).

أثر سياسات آل الأسد في الثقافة السياسية للجزيرة السورية

الثقة الاجتماعية، المشاركة السياسية، الهوية

رشيد الحاج صالح⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

ينطلق البحث -كما هو واضح من العنوان- من أن لسياسات الأنظمة السياسية دوراً كبيراً في (الثقافة السياسية) للشعوب. وهذا يعني أن الثقافة السياسية للناس التي تنشأ في ظل أنظمة تسلطية، على سبيل المثال، تتشكل وتتفاعل بدرجة كبيرة مع سياسات الأنظمة التي تهيمن عليها، وليس فقط وفق ثقافتها التقليدية الشعبية. ولذلك سيتناول البحث أثر سياسات آل الأسد المديدة (أكثر من نصف قرن) في منطقة الجزيرة السورية والفرات في الثقافة السياسية التقليدية لهذه المنطقة⁽²⁾، الأمر الذي أدى في النهاية إلى عدم تحول الثقافة السياسية الجزراوية نحو ثقافة سياسية منفتحة تعطي وزناً أكبر ل: قيم التسامح، وقبول الآخر، والثقة الاجتماعية، والهوية الوطنية، وقيمة الحرية، وبقائها، في جزء منها على الأقل، ثقافة سياسية تقليدية تعلي من: قيم الطاعة، والشك في الآخر، ولا تؤمن بالقانون ولا بالمؤسسات، ولا بالمشاركة السياسية، وتفرد منزلة خاصة لولاءات ما تحت الدولة (العشيرة، المنطقة، المذهب الديني..)، وإن كانت ولاءات غير متينة عند حدوث تغيرات كبرى.

(1) عضو هيئة التحرير في مجلة قلمون.

(2) على الرغم من توزيع سكان الجزيرة السورية بين أربع محافظات هي: دير الزور والحسكة والرقعة والمنطقة الشرقية من حلب، فإن هناك سمات عامة يشترك فيها سكان المنطقة الأمر الذي يسمح بدراستها بوصفها وحدة قائمة بحد ذاتها، من دون أن يعني ذلك عدم وجود خصوصيات لبعض مناطقها. وتعود تلك المشتركات إلى أن سكان المنطقة معظمهم أبناء عشائر يحترفون الرعي والزراعة، إضافة إلى اشتراكهم في عادات وتقاليد وأعراف متوارثة مستمدة من بيئتهم وتاريخهم المشترك. النقطة المشتركة الثالثة هي الإهمال المتعمد من النظام لمجالات التعليم والاقتصاد ومختلف قطاع الخدمات. حول عد شرقي حلب جزءاً من الامتداد التقليدي والثقافي للجزيرة يقول عبد الرحمن حميدة «يميز عادة في محافظة حلب بين أهل الديرة الغربية أو «أهل مغرب» وبين الشرقيين أو أهل الديرة الشرقية.. أهل المنطقة الغربية.. مستقرون وفلاحون عريقون من مئات السنين.. وهم في تقاليدهم ومسكنهم ومأكلهم ومشربهم أقرب لطباع سكان المدن في حين يختلفون نسبياً عن سكان أرياف المنطقة الشرقية الذين لم يتخلصوا بعد من الرواسب البدوية والعشائرية مما يدل على حداثة استقرارهم..». راجع: عبد الرحمن حميدة، محافظة حلب، (دمشق: وزارة الثقافة، 1992)، ص 127.

ويريد البحث دراسة (الثقافة السياسية) لمنطقة الجزيرة السورية والفرات وتحليلها، قبيل الثورة السورية وبعدها، لأنه ينطلق من أن لخصوصية هذه المنطقة أثراً في نشوء ثقافة سياسية تميزها من غيرها من المناطق السورية الأخرى، وإن كانت هذه الثقافة تشكل في النهاية، جزءاً لا يتجزأ من الثقافة السياسية للسوريين بل من الثقافة السياسية العربية، فالبحث ينتهي إلى أن الاختلافات هي في الدرجة لا في النوع.

يستعين البحث ببعض النظريات الحديثة التي تفسر الثقافة السياسية، ولا سيما نظريات (الموند وفيربا)، والتصنيفات التي قدمها كل من بيتر هـ. ميركل، وأصحاب (نظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو) Viability Cultural-Socio of Theory. لم ألجأ إلى الدراسة الميدانية لصعوبتها بسبب وجود سلطات أمر واقع عدة تتقاسم المنطقة، ولوجود القسم الأكبر من الجزراويين في الشتات، فضلاً عن غياب الإمكانيات، ولذلك لجأت إلى أسلوب المقابلات الهاتفية التي أجريتها مع عدد من أهل الجزيرة المطلعين على الحياة السياسية والثقافية ولديهم تجارب لها أهميتها في اعتقادي، وإلى أدب المنطقة لتحديد مضمون بعض أنماط الثقافة السياسية في بعض تلك الأعمال الأدبية.

يحلل البحث الثقافة السياسية للمنطقة من خلال ثلاثة مكونات لهذه الثقافة: عدم الثقة الاجتماعية، المشاركة السياسية والإحساس بالهوية. ويحاول قراءة هذه المكونات من خلال تصنيفات (الموند⁽³⁾ - فيربا⁽⁴⁾) للثقافة السياسية إلى ثقافات ضيقة (تقليدية)، رعوية ومشاركة، وأيضاً من خلال تصنيف أصحاب «نظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو» الثقافة السياسية إلى ثقافات ذات أنماط تراتبية، مساواتية، مستقلة، فردية وقدرية.

يحاول البحث تتبع أسباب ارتفاع درجة عدم الثقة بين السوريين الذين يعيشون في منطقة الجزيرة

(3) يعد غابرييل الموند (1911-2002) من أبرز علماء السياسة الأميركيين الذين تناولوا موضوعات الثقافة السياسية والسياسة المقارنة. وتعد مؤلفاته مرجعاً أساسياً في هذين المجالين. وقد أراد الموند وغيره من المشتغلين في علم السياسة تحقيق ثلاث قضايا من وراء مفهوم الثقافة السياسية: الأولى: لفت الانتباه إلى السلوك السياسي غير الرسمي، أي ما يراه الناس ويعتقدونه حول أمور السياسة والحكم. الثانية: أن هناك مجموعة من القيم والاتجاهات السياسية الخاصة بكل قومية أو شعب من الشعوب، أي وجود نمط خاص من الثقافة السياسية عند كل من الصينيين والألمانيين والإيطاليين والأميركيين والإنكليزيين وغيرهم، يميزهم من باقي الأقوام، بحيث يمكن القول إن شعباً ما أميل إلى الديمقراطية من غيره، أو إن شعباً ما متعصب قومياً أكثر من غيره. الثالثة: معرفة البلدان التي تتمتع بثقافة ديمقراطية راسخة، ولا سيما في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، لأن الثقافة السياسية الديمقراطية الراسخة، عُدّت -من وجهة نظر الموند- من العوامل التي تساند الديمقراطية في بلد ما على الرغم من تعرض هذا البلد لظروف وكوارث كبرى من مثل الحرب والانهييار، إذ تم التوصل إلى أن الثقافة الديمقراطية راسخة في الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر منها في إيطاليا وألمانيا على سبيل المثال.

(4) سيدني فيربا (1932- 2019) (Sidney Verba) عالم سياسة أميركي وأستاذ سابق بجامعة هارفارد. مؤلف مشارك في كتاب (الثقافة المدنية) مع غابرييل الموند.

والفرات، وكيف استمر غياب هذه الثقة حتى بعد خروج مناطقهم من سيطرة النظام الأسد. مثلما يوضح سبب العزوف عن المشاركة السياسية وكيف ميّع النظام فكرة المشاركة وجعلها عملية لا جدوى منها. ويتناول البحث الملمح الأهم لتشكيل الهوية من حيث هي هوية تتنازعها الأخلاق من جهة والانتماءات الأيدولوجية والإثنية من جهة ثانية.

تعود أهمية البحث إلى أن تغيير (الثقافة السياسية) السائدة يعد من أكبر التحديات التي واجهت الثورات وتواجهها. بل إن أي ثورة لا تنجح في تغيير الثقافة السياسية التقليدية؛ كثيرًا ما تتعرض لمصاعب وإشكالات تبعدها عن تحقيق الأهداف التي ثار الناس من أجلها. فالنظام الأسد لم يسيطر على سورية فقط بالقوة العسكرية، بل كان للثقافة السياسية «الرعوية» التي تبناها وفرضها على السوريين، دور كبير في بقائه هذه السنين كلها، إذ دمر أي إمكانية لظهور ثقافة سياسية تساند الديمقراطية، أو تسمح بهوية وطنية.

ثانيًا: حول مفهوم الثقافة السياسية

ظهر مفهوم الثقافة السياسية لأول مرة في 1956 على يد غابرييل ألوند الذي يعرفها بأنها ((التوجهات السياسية والمواقف تجاه النظام السياسي بمؤسساته المختلفة، والمواقف تجاه دور الذات في النظام.. إنها مجموعة من التوجهات نحو مجموعة خاصة من الأشياء والعمليات الاجتماعية))⁽⁵⁾. وعرفها آخرون بأنها ((القيم والسلوك السياسي للأفراد والجماعات))⁽⁶⁾، وعرفها كمال المنوفي بأنها ((القيم والاتجاهات والسلوكيات والمعارف السياسية لأفراد المجتمع))، مثلما تبين له أن الثقافة السياسية هي في النهاية ثقافة فرعية أو جزء من الثقافة العامة للمجتمع على الرغم من استقلالها النسبي، ويدلل على ذلك بأن مهادنة السلطة الحكومية في (البيئات الزراعية النهرية) لا يمكن فصلها عن التعامل القديري المعهود للفلاح مع قوى الطبيعة⁽⁷⁾. هكذا فإن مفهوم الثقافة

(5) Gabriel A. Almond & S. Verba, The Civic Culture - Political Attitudes and Democracy in Five Nations, (London: Sage publication, 1989), p12.

(6) The International Encyclopedia of Political Communication, Edited by Gianpietro Mazzoleni, 1. Ed., (UK: John Wiley & Sons, 2016).

(7) كمال المنوفي، مفهوم الثقافة السياسية: دراسة نظرية تأصيلية، (القاهرة: المركز الدولي للدراسات المستقبلية والاستراتيجية، 2008)، ص4.

السياسية أخذ يربط ((سلوك الأفراد (السياسي) بالنظام الذي يعيشون فيه))⁽⁸⁾.

أما بيتر ه. ميركل peter H. Merkl فيركز على أهمية الثقافة السياسية من حيث هي (عملية تكيف) من الأفراد والجماعات مع المواقف الجديدة، أو لمواجهة تحديات الصراعات الثقافية والتغيرات الاجتماعية⁽⁹⁾.

وبين لنا (ألموند - فيربا) أن مفهوم الثقافة السياسية مفهوم مركب، أي: تدخل في تكوينه جوانب عدة؛ نفسية واجتماعية وأنتروبولوجية وسياسية وتربوية وأخلاقية. والحدود فيه بين الثقافة والسياسة ليست صارمة. فهو مفهوم نفسي من حيث تركيزه على (التوجه النفسي) للأفراد والجماعات تجاه النظام السياسي، أي (النظام السياسي كما هو داخل الإدراك والمشاعر والتقييمات) لدى السكان. وتدخل في المفهوم عمليات: التنشئة الاجتماعية، والثقافة بين الناس، والصراعات الثقافية، والتوجيه الاجتماعي الذي تمارسه الحكومات تجاه الناس⁽¹⁰⁾. من دون أن ننسى أن الثقافة السياسية هي في النهاية نتاج توتر وتفاعل بين ((مجالين أساسيين هما الحداثة والتقاليد))⁽¹¹⁾. ولا يمكن رصد التغيرات فيها بدقة على أي حال لأنها نتاج عوامل مختلفة يأتي في مقدمتها ((مدى ومعدل التغير في الأبنية لاقصادية والاجتماعية والسياسية))⁽¹²⁾، فضلاً عن سياسات النظام الحاكم المديدة، والعوامل الخارجية المستطيلة والتراث والتقاليد، وغيرها.

1. تصنيفات الثقافة السياسية

هكذا حددت الثقافة السياسية بدراسة نقاط عدة هي: أولاً معرفة الناس بلدانهم وتاريخها ومؤسساتها وإدراكهم حقوقهم وواجباتهم، ثانياً مشاعر المواطنين وعواطفهم تجاه النظام السياسي، ثالثاً تقييمهم للنظام السياسي. وعندما وجد (ألموند وفيربا) أن ثقافة الناس السياسية تختلف من أمة إلى أخرى حاولا تصنيف الثقافة السياسية المنتشرة في العالم، بعد دراسة ميدانية واسعة شملت

(8) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، علي سيد صاوي (مترجماً)، الفاروق زكي يونس (مراجعاً)، سلسلة عالم المعرفة، ع: 223، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997)، ص 315.

(9) peter H. Merkl, Modern of comparative politics, (New York/ London: Rinehart and Winston, 1970), p 149.

(10) peter H. Merkl, Modern of comparative politics, p 12-13.

(11) Gabriel A. Almond & S. Verba, The Civic Culture, p5.

(12) كمال المنوفي، مفهوم الثقافة السياسية: دراسة نظرية تأصيلية، ص 9.

خمس دول، في ثلاثة أنماط أساسية تنتظم فيها الثقافات السياسية على اختلافاتها، وهذه الأنماط هي⁽¹³⁾:

أ. الثقافة السياسية الضيقة أو المحلية التقليدية: لا يفصل الناس في هذه الثقافة توجهاتهم السياسية عن توجهاتهم الدينية والاجتماعية، مثلما «لا توجد أدوار سياسية متخصصة»، بحيث يمكن أن يكون لرجل الدين دور سياسي، مثلما يمكن لزعماء العشائر أن يلعبوا أدوارًا سياسية ودينية، وهلم جرا. يضاف إلى ذلك أن توقعات الناس من النظام السياسي في التغيير تكون ضعيفة في هذا النمط. أما توجهات الأفراد في هذه الثقافة فهي عاطفية ومعيارية أكثر منها إدراكية أو معرفية. بمعنى أن لديهم مشاعر حب وكراهية تجاه النظام ومؤسساته، ويستطيعون تقييمه، ولكن ليست لديهم تصورات عن حقوقهم وواجباتهم، ومعرفتهم بالنظام السياسي ومؤسساته ليست دقيقة. وتنتشر هذه الثقافة في البلدان القبلية والتقليدية.

ب. الثقافة السياسية الرعوية: في هذا النمط توجد أدوار سياسية متخصصة إلى حد ما، ولكن الناس لا يميلون إلى المشاركة السياسية، مثلما يظنون أن لا قدرة لهم على التأثير في نظام الحكم والسياسة إجمالاً. وعلى العموم فالناس في هذا النمط يميلون إلى المهادنة مع النظام السياسي وطاعته أكثر كثيرًا من ميلهم إلى مواجهته، على الرغم من معرفتهم السياسية به، ولديهم مشاعر حب أو كراهية تجاهه. وينتشر هذا النمط في البلدان التسليطية والشمولية.

ت. الثقافة السياسية المشاركة: يعتقد الأفراد الذين ينتمون إلى هذا النمط بالدور الناشط للذات في النظام السياسي، مثلما يتميزون بتوجه إيجابي نحو قيم الديمقراطية، ومعرفة عالية بالمجال السياسي ومؤسسات الحكم والعملية السياسية برمتها. وهذا النمط موجود في الدول الديمقراطية.

ويذهب (ألموند وفيربا) إلى أن الثقافة السياسية ليست سوى دراسة التوزيع الخاص لأنماط التوجه الثلاثة السابقة نحو المجال السياسي بين أعضاء أمة ما⁽¹⁴⁾، أي إنه عندما يدرس المرء الثقافة السياسية لأمة ما، فإنه يقيس عواطفها ومعرفتها وتقييمها للنظام السياسي ومؤسساته.

وعلى الرغم مما بين هذه التصنيفات من فوارق كبيرة فإن (ألموند وفيربا) لا يفترضان أن نمطًا واحدًا يمكن أن يسيطر على أمة ما سيطرة كاملة، فالثقافة الرعوية مثلًا لا تلغي الثقافة الضيقة

(13) Gabriel A. Almond & S. Verba, The Civic Culture, pp16- 17.

(14) Ibid, p 13.

تمامًا، وقد تحتوي في الوقت نفسه على أنماط من الثقافة الضيقة كالتوجه القوي نحو النسب والقرية والجماعات الدينية المحلية. مثلما أن الثقافة المشاركة لا تلغي كليًا النمطين الرعوي والضيق. وهذا يعني أن أنماط الثقافات السياسية الثلاث يمكن أن تتعايش وتتبادل التأثير والتأثير بين بعضها، مثلما يمكن أن نجد فردًا أو جماعة تنتمي جزئيًا إلى هذا النمط بينما جزؤها الآخر ينتمي إلى نمط آخر في الوقت نفسه... إلخ، على الرغم من سيطرة أحد الأنماط بمفرده على الثقافة السياسية في المجتمع⁽¹⁵⁾.

أما بيتر هـ. ميركل فيضع خمسة مكونات للثقافة السياسية، يعتقد أن علينا أن نركز عليها، ونعرف أفكار الناس وسلوكاتهم حولها: وهذه المكونات هي⁽¹⁶⁾:

أ. عدم الثقة الاجتماعية: social distrust تعود أهمية عدم الإحساس بالثقة الاجتماعية إلى أن المرء لا يمكنه القيام بأدوار اجتماعية وسياسية في الحياة العامة من دون الثقة بالآخرين والمجتمع. والشخص الذي ليس لديه إحساس بالثقة الاجتماعية لا يثق بالانتخابات والقوانين والأحزاب وأجهزة الدولة. ويتجلى سلوك عدم الثقة في العائلة ومع الجماعات القريبة والغرباء، فتجدهم قليلي الثقة بالمجموعات الاجتماعية البعيدة من قبائل، أو أعضاء أحزاب أخرى، أو جيران جدد، أو غرباء، أو كل من هو من خارج المجتمع المحلي. وبالمقابل نجد أن ارتفاع إحساس المرء بالثقة بالآخرين يجعله أكثر تعاونًا معهم وفهمًا لمصالح الكل الاجتماعي. ويضيف ميركل أن الشكاكين يثقون بالمسؤولين المحليين أكثر من ثقتهم بالمسؤولين القادمين من مكان آخر، من دون أن ينسى الإشارة إلى أن عدم الثقة قد تكون من منطلق ديني أو قومي أو لغوي أو حتى جنسي. بل إن ثقة المرء المفرطة بمجتمعه المحلي هي (السبب المنطقي) في ارتفاع درجة شكوكه في المجموعات الأخرى بوصفها (رمزًا للعالم الخارجي المعادي).

ب. الإحساس بالاستقلال Sense of autonomy: وهو شعور يرتفع في البلدان التي يسود فيها القانون والعدالة، ولا سيما في بلدان الغرب. وهو أساس (للصرح الكامل للتمثيل الانتخابي والحقوق الفردية). ويقابله في البلدان التسلطية والشمولية مفهوم (الإجماع)، وظاهرة (الحزب الواحد). ثم إن الشعور بالمسؤولية ينمو في ظل البلدان ذات أنظمة الانتخابات التنافسية.

ت. الإحساس بالمبادرة Sense of initiative: وهو مرتبط بالشعور الفردي بالذنب،

(15) Ibid, pp 18-19.

(16) peter H. Merkl, Modern of comparative politics, pp 157- 164.

بمعنى أنه يمكن للمرء أن يثور على نظام غير عادل كلما ارتفع شعوره بالذنب، لأنه يؤنب نفسه كيف ترك المبادرة للمنافقين. وعلى العموم هو شعور مرتبط بـ (احترام الذات المتجذر). ث. الإحساس بالمتابعة والإنتاجية Sense of generativity: الذين يمتلكون هذا الإحساس ينظرون إلى الحكومة بوصفها مسؤولة عن تطوير المجتمع والاهتمام بالمستقبل وجعله أكثر ازدهاراً، بعكس الذين لا يمتلكون هذا الإحساس، إذ يكتفون بالنظر إلى الحكومة بوصفها محض مسير (للأوضاع الحالية). وهو الفرق بين من يتبنون منظوراً راكداً وتراجعياً للسياسة، ومن يتبنون منظوراً تقدمياً ودينامياً للسياسة.

ج. الشعور بالهوية Sense of identity: ويعدده ميركل من المكونات (الحاسمة) في الثقافة السياسية للناس. وهو شعور يتعلق بالإحساس الفردي بـ (الهوية الاجتماعية والسياسية). ويرجع ميركل لعلم النفس الاجتماعي - ولا سيما إلى أريك أريكسون Erik H. Erikson⁽¹⁷⁾ - ليقول إن الحاجة إلى الهوية حاجة (وجودية) للتماهي مع صورة الأفراد عن أنفسهم، وتتكون من: (1) منزلتهم في المجتمع، (2) دورهم الأخلاقي، (3) هدفهم من الحياة وعقيدتهم وأيديولوجيتهم التي تضيف المعنى على حياتهم، وتجعل العالم ملكاً لهم. وهو إحساس ينمو ويتأثر بعوامل التنشئة الاجتماعية وبيئة الأقران، وكثيراً ما تدخل الدول لتعزيز هوية معينة يلتف حولها المجتمع أو تعديلها أو تخيلها، مثلما قد تلجأ تلك الدول، إلى تفسير التاريخ من منظور أيديولوجي لبناء هوية وطنية معينة. يضاف إلى ذلك أن ضعف الإحساس بالهوية يجعل المرء ميالاً إلى الانسحاب من الحياة السياسية والعكس صحيح أيضاً.

يذكر أن السوسيولوجيين المعاصرين لم يتفقوا حول عدد الأنماط الثقافية في الثقافة السياسية وطريقة تصنيفهم إياها، فإذا كانت ثلاثة أنماط عند (ألموند وفيريا) وخمسة عند ميركل، فإنها أيضاً خمسة أنماط عند أصحاب نظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو، ولكنها مختلفة⁽¹⁸⁾:

أ. النمط التراتبي: يعطي الفرد التراتبي في أي مجتمع التدرجية الاجتماعية دوراً كبيراً في حياته ويركز على الالتزام بقواعد الجماعة. مثلما يعتقد أن السياسة ليست مجالاً مفتوحاً للجميع، وأنها يجب أن تقتصر على أهلها من المحترفين، وأن أقصى ما يمكن فعله سياسياً هو المشاركة في الانتخابات. يضاف إلى ذلك أن التراتبيين يحرصون على مناداة الآخرين بألقابهم، وعلى ضبط عواطفهم وانفعالاتهم. ويؤمنون بأهمية المؤسسات من أجل تشكيل السلوك

(17) إيريك أريكسون (1902-Erik H. Erikson) عالم نفس معاصر وتلميذ لآنا فرويد. معروف بنظريته الاجتماعية عن الهوية التي ترى بأن الهوية هي اجتماعية أولاً وليست فردية.

(18) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، ص 36-45.

وضبط المجتمع، لأنهم يعتقدون أن الإنسان ليس خيراً بطبعه. ب. النمط المساواتي: يعتقد المساواةيون أن السياسة هي المجال الطبيعي أمام الأفراد لتحقيق ذواتهم، مثلما يتميزون بالتخفيف من القيود التراتبية لصالح المساواة بين مختلف الأطراف الموجودة في المجتمع. ويفضّلون المشاركة السياسية ويجلون من يضي من أجل تحقيق أهداف عامة. كما يرى المساواةيون أن البشر يولدون خيّر، ولكن المؤسسات الاجتماعية تفسدهم، وهذا يعني أنهم متفائلون وأن على البشر العودة إلى فطرتهم الخيرة، وأن هذه العودة تحدث من خلال تعاونهم ومقاومة كل ما يفسدهم ويسبب لهم القهر. ت. نمط المستقلين: وهم الذين يميلون إلى الانعزالية كنوع من رفض العلاقات القهرية الموجودة في المجتمع. ويحاول المستقل -بقدر الإمكان- تجنب أي تأثير يأتي من الخارج، ويميل إلى الاكتفاء بذاته، ولا يدين بالفضل لغيره. ولا يهتم المستقلون كثيراً بالمستقبل ولا بصغائر الأمور وتفاصيلها.

ث. نمط الفرديين: وهم الأكثر تجاسراً على نقد الجماعة والتحرر من ضوابطها، ولذلك تجدهم يحافظون على مسافة مريحة عند تعاملهم مع الجماعة. مثلما تجدهم كثيراً ما يتهمون الآخرين بتسييس الأمور، ويميلون إلى إحلال التنظيم الذاتي محل السلطة ولا يفضلون التعامل مع المؤسسات السلطوية. يعتقد الفردي، كذلك، أن الإنسان سيظل أنانياً مهما بذلنا من جهد ولذلك يفضل الابتعاد.

ج. النمط القَدري: يفضل القَدريُّون الابتعاد عن السياسة بقدر الإمكان، فهي عندهم مصدر للخوف والقلق الدائمين، وهدفهم النهائي هو النجاح الفردي والعائلي، ولا يهتمون بمصادر الصعوبات، ولا يولون تلك المصادر (الأسباب) أي أهمية، كما أنهم لا يميزون بين الحياة العامة والخاصة، ولا يضعون حدوداً واضحة بينها بخلاف الفرديين. وهم يؤمنون بالحد لا بالمهارة. في ما يتعلق بالقَدري، فإن الطبيعة الإنسانية لا يمكن التنبؤ بها، فهو غير موقن إذا ما كان الإنسان شريراً أم خيراً بطبعه، لذلك تجده لا يثق بالآخرين، وكثير التشكك. ويميل القَدريون إلى التكيف مع الأوضاع لا سيما أنهم مقتنعون بأنهم لا يستطيعون السيطرة عليها، غير أن تكيفهم لا يعني أنهم، بعيداً من المنطق، لا يتوقعون ساعات الحظ السعيدة.

وقد وجد أصحاب هذا التصنيف أن هناك تعايشاً بين النمطين الفردي والمساواتي في المجتمع الأمريكي، وبين النمطين التراتبي والفردي في المجتمع البريطاني، مثلما أن أقوى نمطين في الصين هما التراتبي والمساواتي⁽¹⁹⁾. ومن ميزات هذا التصنيف أنه لا ينظر إلى الأنماط الثقافية في حالة ثباتها، بل في سياق التغيرات التي تطرأ عليها، ووجدوا أيضاً أن أهم العوامل التي تدفع إلى تحول الناس من نمط

(19) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، ص 11.

إلى آخر هي تراكم الواقع ومفاجآته، الأمر الذي يجبر الناس على أن يعيدوا التفكير بطريقة تكييفهم مع الواقع الاجتماعي بحيث يكونون أكثر تلاؤماً مع العالم كما هو⁽²⁰⁾.

2. انتقادات لمفهوم الثقافة السياسية التقليدي

تعرّض مفهوم الثقافة السياسية لانتقادات عدة أفضت إلى تحولات في المفهوم، وتغليب فهم على فهم آخر له. ومن تلك الانتقادات أن المفهوم ينظر إلى القيم الثقافية بوصفها أمراً مسلماً به أولاً، مثلما ينظر إلى الثقافة السياسية بوصفها سبباً للأبنية المؤسساتية وسياسات الأنظمة وليست نتيجة لها، في حين يمكن النظر إلى الثقافة السياسية بوصفها سبباً ونتيجة في الوقت نفسه، بل إنها نتيجة في بعض الأحيان⁽²¹⁾. يذهب بريان باري Brian Barry، مثلاً، إلى أن الثقافة السياسية الديمقراطية (التي تؤمن بالديمقراطية ويكون فيها دور الذات والمشاركة السياسية مرتفعاً) هي نتيجة للعيش في نظام ديمقراطي وليست التزاماً قيمياً مسبقاً يضغط على النظام السياسي للتحويل نحو الديمقراطية كما اعتقد (ألموند وفيربا)⁽²²⁾.

ونحن، في بحثنا، نسير في طريق الانتقادات التي وُجّهت إلى مفهوم الثقافة السياسية الذي جعل من هذه الثقافة أمراً قَبلياً. بخلاف ذلك، فإن البحث سيأخذ بمعنى للثقافة السياسية يجعل من علاقة التأثير والتأثير بين تلك الثقافة والنظام السياسي علاقة متبادلة. أما النقطة الثانية التي سيأخذ بها البحث فهي اقتراح وجود مفهوم (الانتظار المتحفز) داخل الأنماط الثقافية، ولا سيما داخل النمط الرعوي، بمعنى أنه إذا كان السائد في هذا النمط من الثقافة هو الطاعة، وعدم انتظار شيء من النظام السياسي ومؤسساته، فإن وراء تلك القنوات والسلوكات كلها حالة من الانتظار المتحفز لرفض النظام السياسي وتغييره، وإن الطاعة وعدم المشاركة هي حالة من القنوات المؤقتة، لأنها تدخل في باب التكيف الظرفي المؤقت، بسبب اختلال موازين القوة. فالناس يطيعون غير أن لديهم إحساساً بأنهم مكروهون على الطاعة، وهم يعرفون في داخلهم أن هذه الطاعة ليست السلوك الطبيعي والخيار الأفضل.

سياسات الأنظمة التسلطية والشمولية توضح هذه النقطة، لأنها سياسات لا تتعامل مع شعوبها

(20) المرجع السابق نفسه، ص 12.

(21) المرجع السابق نفسه، ص 319.

(22) المرجع السابق نفسه، ص 319.

على أنها ذات نمط رعوي تقليدي من السهل السيطرة عليها. العكس هو الأقرب إلى الواقع، فهي تصرف جل ميزانياتها وتجند جيوشها وأجهزتها الأمنية ومؤسساتها القضائية والتشريعية والتنفيذية والإعلام والنقابات والاتحادات والأحزاب ومناهج الدراسة والمؤسسات الدينية لتنويم «الانتظار المتحفز» وتعطيله وتفتيره في نفوس الناس. هي أنظمة سياسية تعرف أكثر من غيرها، بحكم خبرتها ومكوئها في سدة الحكم سنين طويلة، أن سلوك الطاعة من باب قلة الحيلة، وأنه تكيف مؤقت ناتج من غياب الإمكانيات الأخرى، على الرغم من تسرب تبريرات الطاعة إلى عقول الناس وتحولها إلى عادات.

في البلدان التسلطية والشمولية (ومنها سورية في عهد آل الأسد) مُنعت الأحزاب، و(فُرِغَت) الانتخابات من محتواها، وحُوِّلَت إلى عملية بلا جدوى، لكي تُحَبِّط رغبة الناس في المشاركة الفعلية في الحكم. حتى إننا إذا أردنا اختصار السياسة الداخلية بمجملها في سورية في هذه الحقبة لقلنا إنها تتمحور -من أولها إلى آخرها- حول تكثيف رأي عام وفرضه وعقلنته؛ رأي يتبنى قيم الأنماط الرعوية والتراتبية والضيقة، ويحبط قيم نمط التشاركية. وقد وصل الأمر بحافظ الأسد أن أعلن فوزه بالانتخابات في عام 1971 بنسبة 99 بالمئة، على الرغم من وصوله إلى سدة الحكم قبل أشهر عبر سلسلة من الاغتيالات والعمليات العسكرية، وبعد خسارته حرب حزيران المدوية، وعدم قبول عدد كبير من البعثيين به، ما اضطره إلى سجن بعضهم وطرد بعضهم الآخر. كان يستطيع أن يضع نسبة عادية تزيد على النصف لتسير الأمور بصورة طبيعية، ولكن النسبة المذكورة كانت بمنزلة رسالة مقصودة بأن على الشعب ألا يفكر بأن للمشاركة السياسية أي جدوى ترتجى. ما يعني في النهاية أن الثقافة السياسية الرعوية هي -في جزء كبير منها على الأقل- نتيجة سياسات مديدة، على الرغم من وجودها في المجتمعات بوصفها ثقافة تقليدية. أما الدول التسلطية فتلجأ إلى توجيه الثقافة الرعوية لأن هذ التوجيه -بكل بساطة- يشكل بحد ذاته سلطة فاعلة في الحكم (سلطة معرفة بالمعنى الذي يستخدمه ميشيل فوكو)، أهم من السلطة العسكرية، بل إن القوة العسكرية لا تفعل فعلها إذا لم يكن لوسائل توجيه الثقافة السياسية عمل كبير تنجزه.

تبين استطلاعات الرأي العلمية أن الشعوب في البلدان التسلطية مقتنعة بالديمقراطية وأهمية المشاركة السياسية، في دواخلها، أكثر كثيرًا مما يظن الباحثون ومراكز الدراسات التي تدرس الثقافة السياسية في تلك البلدان. وهذا يعني أن طغاة المنطقة أدرى بشعوبهم من مستشرقين وباحثين كبار ومراكز دراسات مهتمة بالثقافة السياسية في البلدان التسلطية والشمولية.

ومن تلك الاستطلاعات استطلاع (المؤشر العربي)، وهو أضخم مسح عن الرأي العام في المنطقة العربية، ويشمل الدول العربية أغلبها، ويجري سنويًا منذ عام 2011، يبين هذا المؤشر أن نحو 76

بالمئة من العرب يؤيدون مقولة أن (الديمقراطية أفضل من غيرها من الأنظمة)، وأن نحو 16 بالمئة يعارضونها. ويوضح الاستطلاع توجهات العرب نحو قضايا سياسية مختلفة، إذ اتضح أن نحو 33 بالمئة فقط يؤيدون نظام شريعة إسلامية من دون أحزاب وانتخابات، على الرغم من أن من يعرفون أنفسهم بأنهم متدينون جدًا ومتدينون بلغت حوالى 85 بالمئة، ويوضح المؤشر العربي أن حوالى 36 بالمئة يؤيدون نظام حكم يقوده العسكر، في حين وجود حوالى 74 بالمئة يريدون حكمًا ديمقراطيًا، وحوالى 50 بالمئة يعتقدون أن الربيع العربي سيحقق أهدافه في نهاية المطاف، وأن حوالى 80 بالمئة من العراقيين، و67 بالمئة من المصريين يؤيدون فصل الدين عن السياسية⁽²³⁾.

من مجمل ما سبق نريد أن نقول ثلاثة قضايا أساس في هذا المقام:

الأولى؛ أن الثقافة السياسية تؤثر في النظام السياسي وتؤثر به، وليست فقط عاملاً مسبقاً يفسر النظام السياسي.

الثانية؛ أنه ليس هناك ثقافة سياسية معينة خاصة بأمة من الأمم موجودة بصورة جوهرية، وأن الثقافة السياسية هي وليدة عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية، لا أكثر من ذلك.

الثالثة؛ أن هناك مستويين للثقافة السياسية في وجدان الناس ودواخلهم، الأول علني وظيفته التكيف وحماية الذات، والثاني طبيعي مضمّر يعرف الحقيقة ويتحفز للانحياز لها عندما تحين الظروف المناسبة.

ثالثاً: الثقافة السياسية في الجزيرة ومنطقة الفرات

يتناول هذا القسم من البحث أثر سياسات آل الأسد في الثقافة السياسية الحديثة لأهالي منطقة الجزيرة والفرات. وسنتناول هذا الأثر من خلال ثلاثة مكونات للثقافة السياسية هي: عدم الشعور بالثقة الاجتماعية، المشاركة السياسية والإحساس بالهوية. أما خصوصيات هذه المكونات في منطقة الجزيرة فنابعة من أوضاع المنطقة الخاصة، خصوصيات سياسة آل الأسد في المنطقة، إضافة إلى ثقافتها التقليدية الصوفية.

(23) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، «برنامج قياس الرأي العام، المؤشر العربي».

<https://arabindex.dohainstitute.org/AR/Pages/Index.aspx>

1. عدم الشعور بالثقة الاجتماعية

بالعودة إلى التاريخ القريب لمنطقة الجزيرة والفرات نجد أن الصراعات المحلية، والمذابح، والتنقل الدائم، ومواسم الجفاف وما تسببه من ترحال وجوع وصراعات، والسكن في مناطق بعيدة عن سلطة الدولة، عوامل ساندت كثيرًا ثقافة عدم الشعور بالثقة، وعدم الشعور بالأمان. ويبين ذلك التاريخ، وبوضوح، أن الحروب والصراعات بين عشائر المنطقة لم تهدأ حتى ظهور الدولة السورية الحديثة بعد انتهاء الاحتلال الفرنسي⁽²⁴⁾، وأن نظرة سريعة على واقع القرى في المنطقة عمومًا يبين أنه لا تكاد تخلو قرية واحدة من الاقتتال شبه الدائم بين الأهالي على الحدود بين الأراضي، أو من أجل المراعي. ومهمة تأمين الأمان وحماية السكان بقيت مهمة ذاتية، حتى سبعينيات القرن المنصرم، وبخاصة في المناطق البعيدة نسبيًا عن الحاميات والمخافر ومراكز المدن، ولذلك كان سكان تلك المناطق يحرصون على امتلاك السلاح وتدريب أبنائهم على استخدامه منذ سن المراهقة. أما استمرار امتلاك السلاح حتى بعد تولي بشار الأسد السلطة، فيوحي بأن أهل الريف خصوصًا، لم يستقر شعور الأمان في داخلهم. حتى إن حزب البعث أغرى عددًا كبيرًا من المنتسبين إليه في المنطقة بإعطائهم (رخصة حزبية) بحمل السلاح، منذ السبعينيات، على الرغم من عدم وجود حاجة إليها في تلك المنطقة آنذاك.

منطق القوة هو المسيطر حتى على العلاقات الاجتماعية والعائلية داخل العائلة، ولذلك فإن العشائر الكبيرة مهابة، وحقوقها مصانة، أكثر كثيرًا من العشائر الصغيرة، وأن ابن العم في الريف -مثلًا- يستطيع أن (يحيّر) ابنة عمه بسهولة (يخبرها بين الزوج منه أو البقاء من دون زواج لبقية حياتها). وهذا يعني أن الحق في ذهن الجزراوي كان مرتبطًا بدرجة كبيرة بالقوة. ويعود ربط الحق بالقوة هذا -في تقديرنا- إلى صعوبات الحياة الريفية أولًا، وإلى أن (العامل الاجتماعي)، في النهاية، أقوى من (العامل الديني) في المجتمعات التقليدية ثانيًا. ولعل هذا ما يفسر أن مفهوم «العيب» في الجزيرة السورية أقوى كثيرًا من مفهوم «الحرام». ولذلك نجد أن أهل الجزيرة عمومًا يخافون على سمعتهم وصورتهم الاجتماعية، ويتحسسون ما هو مقبول أو مرفوض اجتماعيًا أكثر من خشيتهم مما هو (حرام) دينيًا. خصوصًا إذا تعلق الأمر بحقوق المرأة في الميراث والتعليم واختيار الزوج، أو توزيع الميراث بين الأولاد في حال تعدد الزوجات. حتى الاحتكام إلى القضاء العشائري أو (العارفة/ قاضي عشائري)، عند حدوث المنازعات، لا يكون إلا بوصفه حصيلة لتوازن القوى؛ إذ يمتلك الأفراد الأقوياء حق عدم الذهاب إلى ذلك القضاء والإصرار على الموقف، حتى لو أدى الأمر إلى اقتتال. ولعل هذا ما يفسر

(24) يورد جمال باروت أحداث تصل فيها الأوضاع الأمنية في الجزيرة السورية إلى حالة تسمى بـ (حالة الفلت)، وهي حالة تخرج فيها منطقة معينة في بعض الأحيان من سيطرة السلطة المركزية بصورة شبه كاملة، راجع:

محمد جمال باروت، التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، 2013)، ص 138، 145، 153، 437، 527.

انتشار النزعة التسويغية الذاتية، أكثر من النزعة الموضوعية المنطقية في التفكير، من حيث إنها نزعة تسوغ الحق عبر القوة لا عبر العقل. بمعنى أن العقل وطرائقه في المحاكمات العقلية معروف لديهم، ولا معنى للحديث عن هذا الجانب الذي كثيراً ما يغمز من قناة أهل المنطقة، ولكن موازين القوة، وليس العقل، هي التي تحدد ما هو مقبول وما هو غير مقبول اجتماعياً، أو ما هو الحق.

وعموماً يمكن تحديد أربعة عوامل جديدة، في عهد آل الأسد، كانت وراء ارتفاع الشعور بعدم الثقة لدى أهل الجزيرة تجاه السلطة في سورية.

أ. العامل الأمني: على الرغم من ازدياد حضور مؤسسات الدولة وأخذها زمام المبادرة حيث أصبحت هي المالكة الوحيدة للسلطة الفعلية، بقي الشعور بعدم الثقة قابلاً في وجدان أهل المنطقة. كثرة المدارس وافتتاح المصارف الزراعية وشق الطرق رافقه أيضاً إنشاء فروع ومقارز أمنية في البلدات الكبيرة كلها. وهذا يعني أنه إذا كان أهل الجزيرة لا يشعرون بالثقة والأمان في المرحلة السابقة على آل الأسد بسبب الصراعات المحلية وضعف السلطة المركزية وطبيعة المنطقة، فإن تلك المشاعر بقيت بسبب تسيد الهاجس الأمني في الساحة العامة. يضاف إلى ذلك أنه مع منتصف السبعينيات أصبحت عدائية الأجهزة الأمنية أوضح، وزاد تنمرهم على أهل المنطقة، محتمين بقانون الطوارئ الذي فرض على سورية منذ الستينيات.

ثم إن الشعور بعدم الثقة تفاعل مع الشعور بعدم الأمان، على الرغم من أن النظام الأسدي جعل من «الأمان» أحد عناوين الأساسية التي حاول تركيز ثقافته السياسية حولها، وتحويل ذلك الشعور إلى منجز عزيز من منجزاته. يمكن للتحليل النفسي أن يساعد على الكشف عن حقيقة مفهوم الأمان لدى النظام الأسدي؛ ذلك أن الشعور بالأمان بالنسبة إلى النظام السوري هو شعور السوريين بالخوف منه. الخوف من النظام يجعل النظام أكثر أماناً ويجعل السوري أكثر حرصاً على عدم المس بالخطوط الحمراء للنظام. عندما يؤسس الشعور بالخوف الإحساس بالأمان لدى الناس يتحول الإحساس بالأمان إلى وسيلة للحرص على الخوف والعيش في نعيم هذا الخوف. يقول إبراهيم السلامة، وهو من أهالي الحسكة⁽²⁵⁾: ((أنا لم أشعر بالأمان إلا في عهد حافظ الأسد، الناس لا يحكمون إلا بالقوة وما عدا ذلك كلام فارغ. إذا احترمت الدولة لا أحد يتعرض لك. لا تتدخل فيما لا يعينك لا تجد إلا ما يرضيك. كل الناس يريدون أن يصبحوا زعماء. ولم يدركوا أهمية الأمان الذي وقّرت له الدولة إلا بعد عام 2012، وما الحرية التي ينادون بها سوى وسيلة لجلب الفوضى)).

(25) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع إبراهيم، (07.04.2022).

الحاجة إلى الأمان تأتي في المرتبة الثانية بعد الحاجات الفيزيولوجية في هرم (ماسلو)⁽²⁶⁾ الشهير عن الحاجات الأساس التي لا يمكن للإنسان أن يعيش حياة سليمة من دونها. وإذا كان النظام يوفر الأمن للناس، فإن ذلك على حساب الحاجتين الرابعة والخامسة في هرم (ماسلو)، ألا وهما الحاجة إلى التقدير، والحاجة إلى تحقيق الذات، وهي حاجات مرتبطة بالكرامة.

يقول إبراهيم الأحمد الخلف: ((متى كان الناس يفهمون بالسياسة، اليوم الأجيال الجديدة أصبحت وقحة ولا تحترم الكبير، الدولة تاج رأسنا وحاميتنا ومصدر الأمن والأمان، ولولاها لكنت رأيت الناس يقتلون بعضهم في الشوارع، صحيح هناك أخطاء وفساد، ولكن الأمور لا تنصلح بين ليلة وضحاها. أسأل أجدادك عن المذابح التي كانت تقوم بها العشائر صاحبة القوة، عندما لم يكن لدينا دولة.. إذا لم نتوحد لن نقوم لنا قائمة وسنبقى تابعين والقوى الكبرى تلعب بنا كما تريد.. يريدون من الدولة أن تقوم بكل شيء وكأنها خادمة عند أهلهم وينسون ما عليهم القيام به من واجبات. لا يستطيع الرئيس الدخول في أعماق الناس لمعرفة من الصالح ومن الطالح. أعود لأقول لك بأن الحرامية في كل مكان -هذا صحيح- ولكن الكل عليه مواجهة هذه المشكلة وليس فقط الدولة))⁽²⁷⁾.

هاجس الأمان كان أحد الهواجس التي لا تفارق الجزراوي بسهولة. تروي لنا رواية (شهادة آتان) كيف أن مخفر الشرطة في إحدى بلدات الجزيرة ظل مستنفراً طوال الليل، وأطلق عناصره النار بشكل كثيف، لاعتقادهم أنهم يتعرضون لأمر جلل، إلى أن تبين الأمر لهم في حقيقته، وكان محض حمار صغير تائه تجاوز سياج حرم المخفر⁽²⁸⁾.

أكبر قضية أمنية أشغل بها نظام الأسد الجزيرة، خلال الثمانينيات، لابتزازاتهم أمنياً كانت توجيه التهم إليهم بالانتماء إلى بعث العراق بقيادة صدام حسين التي أودت بعدد لا يستهان به إلى السجون، مثلما شكلت الشغل الشاغل للرأي العام. وقد حرصت الأجهزة الأمنية على إبقاء هذه القضية كمصيبة حلت على المنطقة ولا بد من معالجتها. يقول أحمد الناصر، من أهالي دير الزور: ((لدى

(26) هرم ماسلو وضعه عالم النفس الأمريكي إبراهيم ماسلو (1908- 1970) Abraham H. Maslowm) وحدد فيه الحاجات الفيزيولوجية والنفسية الأساسية للإنسان الحديث التي من دونها لا تستوي حياته ويبقى يعاني الضغوط النفسية التي قد تصل به إلى درجة المرض. وهذه الحاجات بالترتيب هي: (1) الحاجات الفيزيولوجية (أكل، شرب، جنس، نوم..)، (2) الحاجة إلى الأمان، (3) الحاجات الاجتماعية (الحب، الأسرة، الأصدقاء..)، (4) الحاجة إلى تقدير الآخرين له والشعور بالثقة بنفسه، وحصوله على المكانة الاجتماعية، (5) تحقيق الذات وتطويرها والحصول على ترقيات نفسية ومعنوية ومادية. راجع حول ذلك:

Abraham H. Maslowm, Motivation and Personality, Harold, Paul, and Lew of the Universal Container Corporation, 1970.

(27) رشيد الحاج صال، مقابلة هاتفية مع إبراهيم الأحمد الخلف، (18.02.2022).

(28) محمد إبراهيم الحاج صالح، شهادة آتان، (بيروت: درا الآداب، 2008)، ص 26.

كل عناصر الأمن العسكري الذين التقيتهم شعور شبه يقيني أنني (صدّامي)، وأنه عليّ أن أثبت لهم العكس في كل مرة أُطلب بها للاستجواب بسبب أحد أقاربي الذي هرب إلى العراق في الثمانينيات، علماً أنني معروف لديهم بعدم اهتمامي بالسياسة ومشاغليها، غير أنهم يرون ذلك خبثاً وتحوّطاً مني، أعرف كثيرين ممن يكرهون النظام والحزب لأنهم يرون أن هذه الكيانات عبئاً عليهم أكثر مما يرونها ممثلاً لهم. لا يحب الناس البعث العراقي لسواد عينيه وإنما يغيظون النظام الذي لا يحترم كبيراً ولا صغيراً. هم ينظرون إلى أهل الموصل كيف يصلون ويجولون في المؤسسات العراقية بينما الديري ليس له قيمة تذكر في دمشق⁽²⁹⁾.

يمكن تفسير تعاطف قسم من أهل الجزيرة مع حزب البعث العراقي وصدّام حسين، بثلاثة أمور: الأول؛ وهو العامل الأهم، الانتقام من حافظ الأسد الذي همش المنطقة وأفقرها، إذ كان صدام عدوه التقليدي خلال مرحلة الثمانينيات.

الثاني؛ نتيجة استقطاب صدام حسين للقيادة القومية التي طردها حافظ الأسد وحلفاؤه من الحزب، ولا سيما ميشيل عفلق وصالح البيطار، وتعيين عفلق أميناً عاماً لحزب البعث العراقي. ذلك أن البعثيين الجزراويين أغلبهم -ولا سيما الديريين- كانوا محسوبين على القيادة القومية التي تم الانقلاب عليها وتصفيتها في أواسط الستينيات تدريجياً.

الثالث؛ أن القيادات البعثية في مرحلة الأسد الأب كانت أغلبها ريفية بسيطة غير متمرسة في السياسة، والكل أخذ يدرك أنها محض واجهة سياسية، وأن السلطة الحقيقية للأجهزة الأمنية وليست لها، فتحوّل التعاطف مع البعث العراقي إلى نوع من التقليل من منزلة تلك القيادات.

ويمكن تقسيم بعثي الجزيرة إلى قسمين:

الأول ذو نمط ضيق/ محلي لديه مشاعر وعواطف قومية جياشة، ولكن ليست لديه معرفة/ إدراك سياسي بالحقوق وما على الحكومة من واجبات، ويكفيه أن يكون الحزب قومياً، وهو يفتخر بذلك ويتبنى موقف الأجهزة الأمنية بأن كل من يخالفه رأيه هو عميل وخائن، وفي أحسن الأحوال مغرر به.

أما القسم الثاني فهو تراتبي/ رعوي لديه عواطف قومية ومعرفة سياسية في الوقت نفسه، وهو مدرك في قرارة نفسه أن حزب البعث لم يعد له أي قيمة في الحياة السياسية السورية، ولذلك انتسب

(29) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع أحمد الناصر، (12.04.2022).

إلى الحزب من باب الواجهة أو للحصول على مكاسب، أو لتجنب المضايقات الأمنية. ليس لدى هذا القسم ثقة كبيرة بالحزب والنظام السياسي، ولذلك تجده يناقش في السياسة من منطلق ما يجب أن يكون الأمر وليس من منطلق ما هو كائن، لأن ما هو كائن مزر ولا يستطيع الدفاع عنه فيضطر مثلاً إلى الكلام عن الإصلاح القادم في المستقبل إلى أن يوقع نفسه تدريجياً في الأساطير المؤسسة الأربع للثقافة السياسية للبعث الأسدي، وهي: (1) الأولوية للسياسة الخارجية والأهداف القومية وتحرير فلسطين، (2) الرئيس جيد ولكن المشكلة في الحاشية، (3) الناس فاسدون ومرتشون ويستغلون انشغال القيادة بالقضايا الكبرى (الإنسان سيئ بطبعه)، (4) أفكار البعث صحيحة، لكن المشكلة في التطبيق.

ب. عامل الفساد: يقول عبد الله حنا، أحد المؤرخين المعروفين لأوضاع الفلاحين في سورية: إن ((الطبقة الجديدة التي نشأت في الربع الأخير من القرن العشرين سارت على الطريق نفسه في التملك وخرن الأموال والاستغلال والاستثمار الذي سلكه كبار ملاك الأرض الإقطاعيين))⁽³⁰⁾. حتى أن بعض الفلاحين ذكر له أن أيام الاستعمار الفرنسي كانت أرحم كثيراً (يقصدون الأحوال الاقتصادية). السردية التي تنظر إلى التاريخ على أنه يسير باتجاه الانحدار وليس التقدم، وبخاصة في ما يتعلق بالفساد وتراجع الأخلاق والظلم وقلة القيمة والفقر، أصبحت إحدى السرديات الأساسية المكونة للثقافة السياسية لفلاحي الجزيرة وأهل المنطقة عموماً. غير أنها أحاديث تجري في الجلسات الخاصة، وبعيداً عن أنظار من يمكن أن يشوا بها للأجهزة الأمنية، والأمر يتعلق طبعا بمدى خطورة مضمون تلك الجلسات، فالحديث عن فساد وزير أقل خطورة كثيراً من الحديث عن أموال باسل الأسد في (البنوك السويسرية) التي كثر الحديث عنها بعد وفاته 1994. ويمكن القول إن ثقافة المنطقة كانت أميل إلى الثقافة الرعوية التي تعرف كل شيء، ولكنها تميل إلى المهادنة وعدم المواجهة.

يحدثنا خلف الأحمد أن الرشوة كانت شبه معدومة في مناطق الجزيرة والفرات في مرحلة الخمسينيات والستينيات، ولا يمكن لأي موظف أن يكون فاسداً ويستمر في عمله، ولا أن يترفع إلى مرتبة أعلى. ((المرتشون في كل محافظة الحسكة كانوا، في الستينيات، ثلاثة موظفين أو أربعة على الأكثر، وجميعهم من خارج المحافظة)). في التسعينيات أصبحت الوظائف تباع وتشترى على نطاق واسع، ولم يعد كبار المرشحين يهتمون بإخفاء ثرواتهم، حتى إن غير المرثشي (إذا كان يتولى منصبا رفيعاً) أصبح ينظر إلى نفسه على أنه شبه مستهدف من جموع الفاسدين المحيطين به وعليه الحذر

(30) غسان ناصر، «مقابلة عبد الله حنا: انزلاق التحركات الشعبية السلمية نحو العمل المسلح جرف الوطنية الجامعة»، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (05.2021). <https://2u.pw/tHVdn>

أكثر من غيره. نظافة اليد والنزاهة كانت إحدى الشعارات التي يتفاخر بها بعض قادة سورية (حسني الزعيم). أما الأعراف التي تفرض على كبار المسؤولين تقديم سجل بممتلكاتهم قبل استلام المنصب، وشعار (من أين لك هذا؟)، فلم نعد نسمع بها منذ أيام رئيس الوزراء السابق عبد الرؤف الكسم، آخر مسؤول سمعت أنه قدم سجلاً بممتلكاته⁽³¹⁾.

ت. عامل التهميش: يصرح أحد كبار مشايخ عشيرة عنزة: ((كيف أثق بالدولة وهي لا تثق بي، وأنا شيخ عشيرة لا أستطيع قضاء أي مراجعة لأي فرد من أفراد عشيرتي))⁽³²⁾. ويصف أحد شخصيات قصة (المخبر) للروائي إبراهيم العلوش، تعامل الموظف معه عندما قدم له أوراق معاملته: ((كان يمحس في كل نقطة على الورقة، كأنه يطارد خطأ، أو كلمة، أو شخطة، قد تبدو غير معتادة النظر، فيستطيع أن يبني عليها حجة تقلعني من أمامه))، كان يستمتع بـ ((تأجيل طلبات المراجعين))⁽³³⁾.

تفوح أجواء عدم الثقة بين الأهالي حتى إن بطل قصة (اللقاح القرمزي) شك في أن اللقاح الذي أخذه، وتسبب في ألم في الرقبة، إنما أعطته الحكومة للناس بقصد جعل رقابهم مطأطئة⁽³⁴⁾. وتمتد مشاعر عدم الثقة لتشكّل حتى نظرة الناس إلى بعضهم، فبطل رواية (الرجل الذي أكل نفسه) يردد على الدوام: ((الناس ألسنة فحسب، ألسنتهم كأذرع الأخطبوط.. جارنا هذا التعيس، لو لم يكن أردأ منا لما كلمنا))⁽³⁵⁾.

ث. عامل الوجود المحدود لأهل المنطقة في الجيش والأمن وإدارات مؤسسات الدولة: بالنسبة إلى الإدارات والوزارات فإن الأمر يعود إلى ضعف التعليم في المنطقة، وبعدها عن العاصمة. أما بالنسبة إلى الجيش والأمن فإنه يعود إلى عدم ميل الجزراوي إلى الحياة العسكرية المقيدة، فضلاً عن البعد الجغرافي لأماكن الخدمة العسكرية. غير أن السبب الأكثر أهمية في تقديرنا يعود إلى غلبة الطابع (الأقلوي) على الجيش الذي أسسه الفرنسيون في سوريا بعد استتباب الأمر لهم مع بدايات العقد الثالث من القرن العشرين⁽³⁶⁾، وهو أمر دأب حافظ

(31) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع خلف الأحمد، (20.02.2022).

وخلف الأحمد اسم مرمز بناء على رغبته الشخصية لأنه يعيش في مناطق سيطرة النظام.

(32) د.م، «تصريح للشيخ نواف طراد الملحم»، صحيفة الوطن السورية، 26.12.2017.

(33) إبراهيم العلوش، البحر الأسود المتوسط، (دمشق: دار الفرق، 2010)، ص 19-22.

(34) إبراهيم العلوش، البحر الأسود المتوسط، ص 39.

(35) خليل النعيمي، الرجل الذي يأكل نفسه، (نسخة إلكترونية)، ص 120. <https://bostan-ekotob.com/bostan/15.pdf>.

(36) يقول حنا بطاطو: ((من بين سرايا الخيالة الاثنتي عشر التي تتوافر عنها البيانات، تألفت واحدة فقط، هي السرية 24، من عرب

الأسد على المحافظة عليه وتوسيعه. أكثر من ينتسب إلى الجيش من أهالي المنطقة هم أبناء دير الزور، وهذا يعود إلى أن انخراط أهلها بالسياسة والحياة المدنية كان أكثر من باقي المناطق، إضافة إلى الجفاف الذي أخذت تعانيه المدينة وريفها مما قلل الأرزاق. ويبدو أن قلة عدد الجزراويين في الجيش قد تكون إحدى العوامل التي قللت من الوزن السياسي للمنطقة وشجعت عناصر الأمن على التنمر على أبناء المنطقة أكثر من بقية المناطق في سورية.

وتبقى ثقافة أهل المنطقة مثلها مثل باقي المناطق النائية تخشى من الغريب، لا سيما إذا كان هذا الغريب مسؤولاً أو صاحب قرار ولا يأبه بأهل المنطقة. ما يعني انتشار النمط القُدري المتشكك. يقول أحد أبطال قصص محمد إبراهيم الحاج صالح الذي جعل بعضاً من قصصه تتكلم بلسان الحيوانات، على طريقة ابن المقفع، وبطل القصة هنا هو كلب غريب يخاطب حصاناً أصيلاً: ((نعم أنا مجلوب إلى هذه البلاد التي ملكها أسيادي بالسيف فما أنت وما هي قصتك يا ذا العتق والأصالة))⁽³⁷⁾. يذكر أن قضية كبار الموظفين القادمين من خارج الجزيرة، تفاعلت كثيراً مع عدم الشعور بالثقة تجاه مؤسسات الدولة، بل خرجت إلى العلن. ولا سيما بعد قيام مشروع سد الفرات الذي جلب آلاف الموظفين من خارج المنطقة. وقد بلغ كبر حجمه حدّاً أن خُصصت وزارة خاصة به سميت (وزارة سد الفرات)، وبقيت حتى أواخر السبعينيات. وكان أول وزير لسد الفرات عينه حافظ الأسد عام 1970 هو (منير ونوس)، وقد استمر في منصبه وزارات عدة⁽³⁸⁾. وعين الأسد الأب بعد ذلك قيس الأسد مديراً عاماً لمشروعات سد الفرات، حيث تحول قيس إلى شخصية اجتماعية معروفة ونافذة يأتي إليه الناس للتوسط عنده والدفع له لقضاء حاجتهم عند مؤسسات الدولة، حتى إن المستشار السابق في محكمة الاستئناف بالرقّة، عبد الرزاق الحسين، وهو من سكان مدينة الطبقة، (أكبر مدن محافظة الرقة) يصف شعور أبناء منطقته بأنهم كانوا يشعرون أنهم ((مواطنون من الدرجة الثانية))، وأن موظفي سد الفرات القادمون، يعاملون أبناء المنطقة وكأنهم ((سوريون سود))، بينما هم ((سوريون بيض))، حتى تخال مركز منطقة الطبقة ((مستعمرة لمستوطنين غرباء)). ويضيف الحسين هناك ((شبكة عنكبوتية ضخمة ومغلقة للوظائف)) الكل يشعر بها، ويسعى إلى الاستدلال على مداخلها، حتى إن قرارات التوظيف تتخذ بلمح البصر ومن دون قواعد واضحة، والنتيجة هي

سنة ريفيين من دير الزور والرقّة، وضمت اثنتان، هما السرية 21 و25، بعض العناصر العربية من قبيلة شمر أو من مدينتي إدلب وحمص. وجميع الوحدات الأخرى كانت من الدروز، أو الشركس، أو الأكراد، أو الأرمن، أو الإسماعيلية)). راجع: حنا بطاطو، فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين والأقل شأنًا سياساتهم، عبد الله فاضل-ورائد النقشبندى (مترجمين)، نائر ديب (مراجعا)، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 304.

(37) محمد إبراهيم الحاج صالح، قمر علي بابل، (اللاذقية: دار الحوار، 1993)، ص 24.

(38) راجع: د.م، «حكومة حافظ الأسد»، موقع التاريخ السوري المعاصر. <https://2u.pw/nx1MT>

تراكم آلاف الوظائف للمتنفذين ومن يدور في فلهم⁽³⁹⁾.

أما خلف الغازي، وهو أحد موظفي مؤسسة الحبوب المعروفين في الرقة، فقد روى أنه أحصى نحو 84 رئيس دائرة، من خارج محافظة الرقة، عيّنوا في المحافظة خلال مرحلتَي السبعينيات والثمانينيات، وأن (العقيد عزيز) رئيس فرع أمن الدولة بالرقة في مرحلة الثمانينيات، وأحد رموز الرعب فيها، قد استدعاه غاضباً بسبب الإحصائية التي انتشرت على ألسنة الخاصة. ويضيف الغازي أن المحافظة كانت تسمى بين موظفي اللاذقية المتنفذين بـ (خليج الساحل)، وأن أحد مديري مؤسسة الحبوب ذكر له أنه اشترى المنصب بـ 6 ملايين ليرة سورية في تلك المرحلة، وأن المناصب الإدارية أغلبها، خصوصاً في الدوائر الغنية مالياً، موصى بها من رؤساء الفروع الأمنية والمحافظ، وأن أي تجاوز من أحدهم على حصة الآخر من المناصب يعد خرقاً لقوانين اللعبة⁽⁴⁰⁾. مفارقة رهيبة ومحنة أن توصف المنطقة الأكثر فقراً في سورية من قبل موظفين مستفيدين بأنها خليج الساحل.

2. المشاركة السياسية

يمكن تصنيف ثقافة الناس في الجزيرة السورية ومنطقة الفرات حول المشاركة السياسية بالنمط الرعوي، إذ لا يعتقد الأهالي بأن مشاركتهم السياسية ذات جدوى، وليس لديهم اعتقاد بأنهم يستطيعون التأثير في النظام السياسي أو أن يفرضوا عليه ما يريدون. ولكنه على أي حال ليس نمطاً ضيقاً بشكل كامل لأنهم يعرفون ما يريدون ولدى قسم كبير منهم إدراك لطبيعة النظام الأسدي.

بعد عام 1970 أُفرغت المشاركة السياسية من محتواها وأصبحت بلا معنى. فالرئيس أصبح يُستفتى⁽⁴¹⁾ عليه ولا ينتخب، ويُرشح من القيادة القطرية لحزب البعث حصراً. و«نسبة الثلثين» من مقاعد مجلس الشعب، ونقابات المحامين والأطباء والمهندسين، واتحادات العمال والفلاحين

(39) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع عبر الرزاق الحسين، (07.02.2022).

(40) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع خلف الغازي، (02.02.2022).

(41) المصطلح الرسمي للانتخابات في سورية منذ تولي حافظ الأسد السلطة هو (الاستفتاء)، وليس الانتخاب. والاستفتاء يعني وجود مرشح واحد فقط للانتخاب من دون منافس. يذكر أن حافظ الأسد جلب مفهوم الاستفتاء الذي يطبق في حال كانت السلطة تريد معرفة رأي الناس حول الدستور وتعديلاته. أما حافظ الأسد فحولته إلى طريقة لانتخابه، وهو يعني، من مجمل ما يعني أنه محض سؤال أو استطلاع رأي السوريين في استمراره في سدة الحكم، أكثر منه انتخاباً بالمعنى المتعارف عليه في الدول الديمقراطية. فهو (قائدنا إلى الأبد) بحسب الشعارات التي ترفع في كل استفتاء. كما أن هناك إشاعة سرت بين السوريين، مصدرها الفروع الأمنية والحزبية، تقول إن حافظ الأسد أصبح قائد سورية إلى الأبد بعد الاستفتاء عليه للمرة الثالثة، ولذلك فوجئ بعض السوريين عندما أجري الاستفتاء الرابع عام 1992.

والحرفيين أصبحت من حصة الجبهة الوطنية التقدمية. واحتكر حزب البعث لنفسه اتحاد الطلبة منفرداً، ومُنعت الأحزاب. يذكر أن ترشيحات أعضاء الجبهة الوطنية التقدمية للانتخابات كانت تُتخذ من الدوائر الأعلى لا من الدوائر القاعدية؛ بمعنى أن أسماء مرشحي حزب البعث لمجلس الشعب مثلاً؛ تحددها القيادة القطرية في العاصمة بالتشاور مع الفروع الأمنية. وهذا يعني أن الجزراوي البعثي ليس هو من يقرر أعضاء مجلس الشعب من البعثيين، على الرغم من أنه لا يستطيع القيام بأي نشاط سياسي إلا عبر حزب البعث والجبهة الوطنية التقدمية؛ أي إن مشاركة الجزراوي السياسية بلا جدوى في الأحوال كلها.

كان حافظ الأسد يطلق على نفسه ألقاباً تستحضر المقومات الأساسية في الثقافة السياسية الضيقة، وهي ثقافة تقوم على مفهومات: (1) الطاعة، (2) الولاء من دون مقابل، (3) تبجيل الزعماء، (4) تقديم واجبات الفرد تجاه الدولة على حقوقه، (5) ترك السياسة لأهلها... فهو ((راعي العلم والعلماء))، وهو ((الملهم))، و((المناضل الأول))، و((القائد إلى الأبد))، و((القاضي الأول))، و((المعلم الأول))، و((الفلاح الأول)). أما الاستفتاء فقد أطلق عليه في ما بعد مصطلح (البيعة)، للاستفادة من دلالات كلمة البيعة في التراث السياسي، من ناحية أن البيعة تجري مرة واحدة وإلى الأبد، وأن المحكومين لا يمكنهم خلع الحاكم إلا في حالات نادرة، وأنها مرتبطة بحكم سلالات وعائلات مكثت في الحكم مدة طويلة، وحولت السلطة إلى محض عملية توارث⁽⁴²⁾. أما أهم شعار كان يرفع في أثناء الاستفتاءات فهو ((منك العطاء ومننا الوفاء)).

ضمن وضع كهذا كان النظام الأسدي يدرك أن الناس أغلبيهم لن يشاركوا في عمليات الاستفتاء على الرئيس، ولذلك جعل الفروع الأمنية تراقب من كُتب تلك المشاركة. وأصبح الناس يشاركون في الاستفتاء حتى لا تشملهم الشبهات. فالإقطاعي يشارك لئلا يقال إنه غير راض عن النظام الاشتراكي، والفلاح يشارك حتى يضمن الموافقات الأمنية لأولاده عندما يتقدمون للحصول على وظائف، ومَن يعمل في الخليج يشارك حتى لا تُعرق الموافقات الأمنية سفره عندما يجدد جواز سفره، وهكذا. وعلى الرغم من ذلك كله بقيت المشاركة في الاستفتاء على منصب رئيس الجمهورية منخفضة. وهو ما دفع الفروع الأمنية إلى تمهيد عملية الانتخابات وإفراغها من مضمونها. يقول المستشار عبد الرزاق

(42) يذكر أن مفهوم البيعة يستخدم بكثافة وسهولة لافتة للانتباه في العالم العربي الحديث، سواء من قبل الأنظمة العلمانية أم الإسلامية على حد سواء، مثلما تستخدمه التنظيمات الإسلامية في نظيرها للسياسة. ويعكس ذلك سعي تلك الأطراف الحثيث لترسيخ ثقافة سياسية رعوية في المجتمع. فبيعة أبو بكر البغدادي، مثلاً، تمت في بدايتها عبر مبايعة عدد من أصدقائه له، اعتبرهم هو ((أهل الحل والعقد))، وبذلك أصبح خليفة المسلمين، هكذا وبكل بساطة. للاطلاع على أن البيعة تتم لمرة واحدة فقط، وأنها ملزمة للمبايعين طوال حياتهم، وأنها أتت من فعل يبيع، وتعني السمع والطاعة للمبايع، راجع:

أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام: تاريخها أقسامها بين النظرية والتطبيق، (البحرين: كلية الآداب، د. ت)، ص 18-28.

الحسين: ((كان بعض البعثيين يفاخر بأنه أدلى بصوته أكثر من خمس مرات في يوم الاستفتاء من دون أن يسأله أحد عن هذه المخالفة)). ويفسر الحسين السهولة في مخالفات كهذه بأن الإجراءات التنفيذية لتنظيم عملية الانتخابات جرى اللعب بها بدرجة كبيرة بحيث فقدت معناها، ففي المراكز الانتخابية لم يعد هناك سجل لما يسمى بـ((المواطن الانتخابي))، ومن ثم أصبح بإمكان الناس الإدلاء بأصواتهم في يوم الاستفتاء مئات المرات لا خمس مرات فقط، لا سيما مع غياب مندوبي المرشحين المتنافسين في مقرات الصناديق، وكون رؤساء الصناديق أغلبهم من البعثيين، والمرشح بعثي أيضاً، وهي ((مهزلة قانونية)) بكل ما تحمل كلمة مهزلة من معنى. ويضيف الحسين أنه في قريته (غرب الرقة) كان أمين الصندوق الانتخابي يملأ الأوراق الانتخابية كلها بـ(نعم) في نهاية يوم الاستفتاء، كان يخاف من أن يتهم بأن نسبة التصويت في مركزه قليلة فيتعرض للمساءلة الأمنية. عدد (كتبة التقارير) كان يقضي كامل اليوم في المركز لرصد من يدلي بصوته ومن لا، وعلى الرغم من ذلك كان كثير من الأهالي لا يبالي⁽⁴³⁾. في قصة (البحث) يقول بطلها، وهو من الموظفين المشرفين على صندوق انتخابي لرجل يريد أن يصوت بـ (لا) في الاستفتاء على رئيس الجمهورية: ((لا يجوز يا أخ.. سيأتيني وجع رأس!))⁽⁴⁴⁾.

ولا يمكن تجاهل انتشار النمط الضيق الذي تسوده العواطف السياسية بدلاً من الإدراك السياسي. إذ يعد مصطلح (الوفاء) من المصطلحات التي شكلت لازمة لحديث المؤيدين لتولي بشار الأسد السلطة بعد وفاة والده. حتى إنهم أطلقوا على مصطفى طلاس لقب (أبو الوفا) لتمسكه ودفاعه عن خيار تولي بشار الأسد رئاسة سورية، في وقت خاف فيه بشار وموالوه من حدوث طارئ ما يعوق انتقال السلطة من الوالد إلى الولد.

يقول أحمد الناييف⁽⁴⁵⁾ كانت كلمة الوفاء تستخدم من مؤيدي بشار الأسد كتعويذة، مثلما كانوا يتهمون من يعارض بشار بـ(عدم الوفاء) لوالده، صاحب (العطاءات). هكذا يصبح الرفض لذلك الانتقال للسلطة (بلا أخلاق) وعديم الوفاء. كان رؤساء المفاوز الأمنية يقولون لي إنكم أوفياء لأن أحد أفراد قريتي أولم وليمة كبيرة بعد فوز بشار الأسد بأول استفتاء له، وكان صاحب الوليمة يطرب لسماع ذلك الوصف، ويشعر بالفخر والاعتزاز، وبأن قريته مدينة له لأنه جعل سيرتها على لسان ذوي الشأن في المنطقة. ويضيف أن حافظ الأسد أوقف انتخابات المؤتمر القطري لحزب البعث لمدة خمسة عشر عاماً (من 1985 حتى 2000)، وهي أهم انتخابات في مستوى حزب البعث في سورية، ولا

(43) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع عبد الرزاق الحسين.

(44) إبراهيم العلوش، البحر الأسود المتوسط، ص 14.

(45) رشيد الحاج صالح، «مقابلة هاتفية مع أحمد الناييف»، (24.02.2022).
(أحمد الناييف اسم مستعار بناء على رغبة صاحبه الشخصية لأنه يعيش في مناطق سيطرة النظام).

يوجد سبب واضح لإلغائها سوى أنه يريد إهانة البعثيين أنفسهم، والقول لهم إنني أنا من يقرر كل شيء. بعد انتخابات المؤتمر القطري في الرقة 1985 اعتُقل قادة حزب البعث أغلبهم، وسجنوا أكثر من خمس سنوات (بعضهم عشر سنوات)، ولقّقت لهم تهم بانتمائهم إلى بعث العراق. طبعًا كانت التهم محض أكاذيب، واعتقالهم كان بقصد تخويف المنطقة لا أكثر بدليل أن بعض المعتقلين بعد خروجهم عادوا إلى الحياة السياسية، وتقلدوا مناصب كبيرة وصلت إلى العضوية في مجلس الشعب.

يلجأ المؤيدون إلى ثلاث حجج، في تبريرهم تضيق النظام مجال المشاركة السياسية؛ الأولى أن آل الأسد أفضل الخيارات المتاحة، والثانية أن الذي تعرفه خير ممن تتعرف إليه، أما الحجة الثالثة فهي أن لكل نظام مفسده، وأن بشار الأسد سيصلح ويحدّث ويعيد الأمور إلى نصابها. تعكس مثل هذه الحجج، وتلك الشعارات ثقافة سياسية ضيقة حُقزت عبر عشرات السنين، ثقافة تقدم للزعيم دعمًا غير محدود، وتجعل الثقة به أمرًا مسلمًا به، ومن ثم لا معنى لمشاركة الناس في أمور الحكم، فهو يعرف كل شيء، ويستطيع ترتيب الأوضاع كلها. وكما مر معنا فإن (ألموند وفيربا) يريان أن لدى أصحاب الثقافة السياسية الضيقة مشاعر تجاه الدولة/ النظام، ولكن ليس لديهم معرفة سياسية، أو إدراك سياسي بحقوقهم وواجبات الدولة تجاههم، وأن مواقفهم السياسية عاطفية أكثر منها معرفية أو إدراكية.

ومن العوامل الأخرى التي زادت من شعور الناس بلا جدوى المشاركة السياسية نذكر الثقافة التراتبية/ الضيقة التقليدية للمنطقة التي تعلي من شأن الزعماء والقادة والحكام. ((النظام مفضل على الناس)) شعار يرفعه أصحاب هذه الرؤية لاعتقادهم أن السلطة هي التي تعيل المجتمع، وأنها تُحاسب ولا تُحاسب، وهذا يعكس ضعفًا في المعرفة السياسية. ولذلك لا يعطي هؤلاء في ثقافتهم السياسية دورًا كبيرًا لحقوقهم تجاه النظام بقدر ما يعطون الأولوية لواجباتهم تجاه ذلك النظام.

أما تدني مستوى المعرفة السياسية في الجزيرة السورية، وهي إحدى صفات النمط الضيق، فيعود إمّا إلى انخفاض مستوى تعليمهم، (أعلى نسبة أمية في سورية هي في محافظات الجزيرة)، أو إلى تنشئتهم السياسية التي كانت وسط عائلات فقيرة في معرفتها السياسية. هناك عامل آخر أثر في ازدياد مظاهر الثقافة الضيقة، ونقصد به تغيير المقررات التي تتناول السياسة وعلم الاجتماع وحقوق المواطنين، في أواسط الثمانينيات، بمقررات سميت بـ ((الثقافة القومية الاشتراكية))، وهي منشورات في هيئة كتب (بروباغندا سياسية)، تشرح المنطلقات النظرية لحزب البعث، وتقدم حافظ الأسد بوصفه زعيمًا تاريخيًا للأمة العربية، وتحول الفرد إلى محض شيء من أجل الوطن وقائده. وحُذفت -تقريبًا- الفصول كلها التي تتحدث عن حقوق الإنسان ومفهوم المواطنة. وقد قرّرت هذا الكتب في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية.

يقول الأستاذ (عيدو) بطل قصة (الرغيل الثالث) مادحًا الخدمات والتعليم: ((كل ذلك بفضل حكومتنا الرشيدة التي تسهر الليل من أجل رعايتنا وتوفير السعادة لنا.. لا يكفي أن نقول بالروح بالدم نفدي قادتنا، لا أبدًا. يجب أن تتحرك فينا روح الفداء الأصلية))⁽⁴⁶⁾.

3. الإحساس بالهوية ومشاكل الانتماءات

يزخر تاريخ الجزيرة الحديث في النصف الأول من القرن العشرين بتحولات كبرى سببتها المنازعات المحلية، الهجرات، والصراعات الدولية. ويحدثنا جمال باروت عن تلك الأوضاع المعقدة نسبيًا التي أدت إلى عدم استقرار وضع الجزيرة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. فقد كان وضع دير الزور معلقًا بين سورية والعراق، وخضع لمساومات فرنسية بريطانية، ثم إن قسمًا من الجزيرة ذهب إلى تركيا بموجب تفاهات وتقاسم مصالح بين فرنسا والجمهورية التركية الناشئة، مثلما انقسمت المنطقة بين مؤيد لحكومة الملك فيصل ومؤيد للفرنسيين، فضلًا عن الذين كانوا يريدون بقاء السلطنة العثمانية، ثم إن الهجرات الكردية والأرمنية لم تهدأ في تلك المرحلة. وقد وصلت حالة الاستقطاب حد أن أعلنت (دولة الرقة المستقلة)⁽⁴⁷⁾ 1920. هذا الوضع غير المستقر يعد من العوامل الأساس التي أبقت نوعًا من القلق بين الجزراويين على هويتهم ومصيرهم السياسي. ومع ذلك يبقى من الصحيح القول إن حاجة الجزراوي إلى الانتماء والهوية، ومضمون هذه الهوية، ترتفع وتنخفض، تتجه باتجاه الانتماء الديني أو الأصل القومي، أو البعد العشائري والمحلي، بحسب الأوضاع المحلية والعامة.

وستتناول قضية الهوية والانتماءات في الجزيرة ومنطقة الفرات من خلال النقاط الخمس الآتية:

أ. الانتماءات المحلية (ريف ومدينة): يحدثنا الدكتور عبد السلام العجيلي (1918-2006) عن انتخابات عام 1947 النيابية بأن قائمته الانتخابية التي نجحت في حينها، كان نصفها من أبناء العشائر ونصفها من حضر المدينة⁽⁴⁸⁾، في ما يمكن أن نعدّه إشارة واضحة إلى أن الانقسام بين العشائر وسكان المدن لم يكن ضاعطًا في مناطق الجزيرة، في تلك المرحلة، وأن الحديث اليوم عن ذلك الانقسام من باب وعي رجعي يسقط انقسامات تالية على وضع سابق.

(46) إبراهيم العلوش، البحر الأسود المتوسط، ص 77.

(47) محمد جما باروت، التكوين التاريخي، ص 138.

(48) عبد السلام العجيلي، أيام ذكريات السياسية، (لندن: رياض نجيب الريس، 2002)، ص 47.

أما بعد انتصار حافظ الأسد والقيادة القطرية لحزب البعث الداعمة له على القيادة القومية (المؤسسة للحزب)، فقد أخذت الانقسامات بين الريف والمدينة بالبروز، لأن القيادة القطرية التي كانت تقاد من قبل بعثيين وعسكر من أصول ريفية قد أبعدت البعثيين المنتمين إلى المدن والعائلات الحضرية أغلبهم (القيادة القومية)⁽⁴⁹⁾. ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في ما يتعلق بدير الزور، حيث كان لأبناء المدينة دور سياسي بارز منذ أن شكلت العائلات الثلاث الرئيسية القاطنة في المدينة حكومة محلية في المدينة في مرحلة تحول السلطة من السلطنة العثمانية إلى الفرنسيين⁽⁵⁰⁾، إضافة إلى وجود عدد من الديريين في القيادة القومية لحزب البعث، في مرحلة ما قبل حافظ الأسد⁽⁵¹⁾. أما في مرحلة ما بعد 1970 فقد تصدر أبناء الريف قيادة حزب البعث على حساب أهل المدينة.

إذا كانت الانقسامات بين سكان المدن والريف ظاهرة معروفة عالمياً فإنها في الجزيرة، وسورية عموماً، ظاهرة عُرِّزت وتفاقت بسبب سياسات حافظ الأسد الذي جعل للريفيين (أمنيين وبعثيين) صدر المجلس وهمّش أهل المدن. ويمكن القول إن المشاعر السلبية لأهل المدن تجاه أهل الريف مشاعر (متخيلة) لأنها في حقيقتها مشاعر كره تجاه حافظ الأسد ونظامه الفاسد، ولكنها لا تملك القدرة على التعبير عن تلك الكراهية علانية فتلجأ إلى تفرغ تلك المشاعر في مَنْ يعتقدون أنهم يمثلوا نظام حافظ الأسد، أي أهل الريف.

ب. الانتماء السياسي هو الأقوى: الثقافة العشائرية منوثة للعشائر الأخرى، فالكيان القبلي وُجد أصلاً لحماية أعضائه من الكيانات الأخرى، ولكنها ثقافة تميل أيضاً إلى التعاون مع الحكومات المركزية ككيان ينظم الأمن والحياة العامة بين الجميع، إذ يبين تاريخ المنطقة أن شيوخها كانوا يتعاونون مع الحكومات المركزية، ولم ينقسموا إلا بخصوص الموقف من الاستعمار الفرنسي بين متعاون ومقاوم. غير أن التعاون مع تلك السلطات كان يخضع لمعادلات المصالح والدعم، والخلافات القبيلة، حتى ثورات أهل المنطقة كانت ثورات قبلية، أي إن الكيان الذي يقوم بالثورة هو (القبيلة)⁽⁵²⁾، بصورة أساس، وليس المدينة أو الأحزاب

(49) حنا بطاطو، فلاحو سوريا، ص 284.

(50) جمال باروت، التكوين التاريخي...، ص 139.

(51) نذكر منهم: جلال السيد (1913-1992) الذي رأس المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث عام 1947، وكان أحد المؤسسين الكبار للحزب مع ميشيل عفلق ونديم البيطار. كما قال السيد في كتابه إن سياسات حزب بعث بعد توليه السلطة تخالف بشكل كامل دستور الحزب، مثلما كان يفرق بشكل كامل بين حزب البعث القديم وحزب البعث الجديد، حتى إنه استقال من الحزب راجع: جلال السيد، حزب البعث العربي، (بيروت: دار النهار، 1973)، ص 213-214.

(52) يبين جمال باروت أن زعماء القبائل هم في الأغلب قادة الثورات التي كانت تقود حركات العصيان في منطقة الجزيرة. راجع: محمد جمال باروت، التكوين التاريخي...، ص 139.

على سبيل المثال.

يحدثنا جلال السيد عن الثقافة السياسية للريف السوري القَبلي وكيف يتفاعل مع الأحزاب السياسية. يقول عن بلدة يعرفها هو شخصياً، ويبدو أن الحديث عن مرحلة ما قبل السبعينيات: ((هناك قبيلة أكثرها ناصريون وهناك قبيلة أكثرها بعثيون. أما القبيلة الأخرى المنافسة فإنها تريد التعبير عن استقلالها ووجودها، ومجرد قبولها بالناصرية أو البعثية يعد تبعية لغيرها. فوقفت بين لا ناصرية ولا بعثية، ولكنها كانت تتعاطف قليلاً مع التيارات المناهضة للبعثية والناصرية كالسورية القومية. والقبيلة تلك لا تعرف شيئاً عن المذهب السوري القومي ولا تؤيده وإنما هي عربية المشاعر، وموقفها هذا مستمد من المحاولة العفوية والإرادية لإثبات استقلالها))⁽⁵³⁾. ويمكن تفسير ملاحظة السيد المهمة في نقطتين: الأولى أن السياسة في منطقة الجزيرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوجاهة الاجتماعية، ومن ثم تتحول السياسة لتصبح وسيلة للوجاهة، أو تكون السياسة مرغوبة بقدر ما تقدم من وجاهة. وتعود النقطة الثانية إلى أنه من الواضح أن الثقافة السياسية الضيقة لها حضور في ذهن الجزراوي، من حيث إن لديه مشاعر سياسية قوية، ولكن ليس لديه معرفة سياسية (الحقوق السياسية، والواجبات، والدستور، والمعرفة بالأحزاب وبرامجها)، وإلا كيف يمكن تفسير انخراطه في أحزاب قومية (ضد عشائرية) على أسس عشائرية؟

غير أن الأمور لم تبق كما هي. فإذا كانت الرابطة بين أفراد العشيرة تشكل متنفساً لهويات محلية فإن استقرار العشائر وتوقفها عن الترحال خفف من مشاعر الانتماء إليها، وأصبح الانتماء إلى الأرض (بعد الاستقرار) أقوى. مثلما أن العشيرة لم تعد مصدر الأمان الأول ولا حتى مصدر الرزق الأساسي، فالناس أخذوا يبحثون عن أرزاقهم خارج إطار العشيرة؛ بمعنى آخر، لو أن أموراً مهمة لاحت في الأفق فإن الجزراوي غير مهتم بالعشائرية سياسياً، هو يحتفظ بها بوصفها كياناً ثقافياً واجتماعياً فحسب، يعزّه ويحترمه. والدليل على ذلك أنه عندما اندلعت الثورة السورية تراجع الانتماء العشائري وتقدم الاعتبار السياسي، بحيث انقسمت العشائر أفقياً في مواقفها من الثورة، حتى داخل البيت الواحد، حيث وقف قسم من العائلة الواحدة مع الثورة، وقسم ضدها، وثالث أخذ يدعو أن يحلها الله بنوره. الأمر الذي يعني أيضاً أن الوزن السياسي لشيوخ العشائر اليوم هو وزن «زائف» سياسياً، وأن شيوخ العشائر يدركون ذلك أكثر من غيرهم، ولعل هذا ما يفسر سهولة استمالتهم من جانب القوى الفاعلة في المنطقة، وبخاصة بعد الثورة السورية. يضاف إلى ذلك فإن مواقفهم تنطلق من مصالحهم الشخصية أكثر مما هي تعبر عن موقف أبناء العشيرة.

(53) جلال السيد، حزب البعث العربي، ص 252-253.

ت. تداخل الانتماءات والمصالح: وعلى الرغم من ذلك فقد لوحظ أن هناك عشائر كانت معارضة للنظام أكثر من غيرها أو كانت موالية للنظام أكثر من غيرها، وهذا مرده إلى موقع بعض أفراد العشيرة في الوظائف في سلك الدولة، فالعشائر التي لديها عدد كبير من كبار الموظفين كانت أقرب إلى الوقوف مع النظام، والعكس صحيح أيضاً، (بدا هذا الأمر واضحاً في الحسكة أكثر من غيرها). وهذا يعني أن الوظائف كانت تستخدم وسيلة لضمان الولاء، سيما أن الوظائف أغلبها -حتى الدخول إلى المعاهد الملتزمة بتوظيف خريجيها- تتطلب (الموافقات الأمنية) المعروفة للسوريين.

وعموماً ليس لدى أهل الجزيرة ولاء مطلق للنظام لأنهم يشعرون في قرارة أنفسهم أنه لا يمثلهم، ولأنه نظام تسلطي لا يحفظ كرامتهم ولا يصون حرمة مجتمعهم. يشترك في ذلك قسم كبير من العرب والكرد. يقول فيصل النعيمي: ((كيف أوّمن بنظام لا يؤمن بي، لا بحقوق ولا بشخصيتي ولا بهويتي. نظامنا، وبكلمة واحدة، نظام لصوص وحرامية، وكل الحديث عن الهوية والقومية وما إلى ذلك مجرد تمويه على تلك الحقيقة. في نهاية موسم القمح عليّ أن أذهب إلى ثلاثة رؤساء مفارز أمنية وأعطي كل واحد منهم عشرة آلاف ليرة، لكي آمن جانبهم. أعين رجال الأمن على جيوبنا منذ بداية المواسم حتى نهايته. الهوية الوطنية بدون كرامة كلام فاضي، والوطن بدون مواطنة حقيقية حديث جرائد. النظام يضحك على الناس ويمنحهم بعض المزايا والوظائف ليشترتهم ويشترى عشائريهم، والمصيبة أن كبار الموظفين يعرفون ذلك جيداً في قرارة أنفسهم، ويعرفون أيضاً أن الولاء وليس الكفاءة هو من أجلسهم على كراسيهم))⁽⁵⁴⁾. يذكر أن ماكس فيبر ركز كثيراً على نقطة شراء الولاء عبر «سوق المناصب»، وعدّها أهم استراتيجية تُحوّل من خلالها السياسة من حيث هي عمل يعيش الإنسان من أجله إلى عمل يعتاش الإنسان منه. وأن ذلك السوق هو البديل الجديد «للغنائم» التي كان يوزعها رؤساء العصابات وقطاع الطرق على عناصرهم⁽⁵⁵⁾.

ث. سياسات الهوية تجاه الكرد: القضية الأساسية التي حاول النظام توظيفها من أجل تشكيل هويات متناحرة بين أهل المنطقة هي تسييس الهوية الكردية وتخويف العرب والكرد من بعضهم. سياسات الهوية هذه ساعدته على تقوية النمط التراتبي الذي ينطلق تفكيره في السياسة من أن السلطة القوية هي التي تستطيع ضبط الأمور وحماية الأطراف كلها من بعضها، بوصفها ضامن السلم الاجتماعي بالقوة. وبذلك اقتضت السياسة بين الأهالي على طريقة للتنافس على الخطوة عند رموز السلطة في المنطقة، وهم بالطبع قادة

(54) رشيد الحاج صالح، «مقابلة هاتفية مع فيصل النعيمي»، (28.02.2022).

(55) ماكس فيبر، العلم والسياسة بوصفهما حرفة، جورج كتورة (مترجماً)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2011)، ص 275.

الفروع الأمنية، بافتراض أن الجميع يسلم بأن النظام يحميه من الآخر. ولعل هذا ما يفسر أن مناطق الحسكة أغلبها، من كرد وعرب، تهادن النظام، أكثر من غيرها من مناطق الجزيرة، بوصفه حامياً للعرب من الكرد، وحامياً للكرد من العرب. وهو ما يفسر أيضاً قبول نسبة كبيرة من الكرد بسلطة حزب PYD على الرغم من أنه حزب تسلطي عسكري ومصمم على طريقة حزب البعث في عهد حافظ الأسد.

يقول عبد الرحمن شيخ نبي⁽⁵⁶⁾، وهو كردي من مدينة القامشلي: الكرد مكون أساسي في الجزيرة السورية، ومع ذلك لا يشعرون بالاستقرار، والسبب في ذلك أنهم موضوع مساومات منذ أكثر من نصف قرن، وهذا أمر متعب ومقلق جداً لنا. تصور أنك تعيش طوال عمرك وأنت متوجس من أطراف تحكمك، ولكنها لا تنظر لك إلا بوصفك جزءاً من صفقة، أو غنيمة تريد أن تسيطر عليك. الأكراد أغلبهم كانوا مع الثورة والمشروع الوطني الذي نادى به. بعد اندلاع الثورة بأشهر عدة أدرك النظام ذلك فقرر دعم حزب PYD والتنسيق معه، فقتل الطرفان (مشعل تمو)، وطرد كل من لا يتعاون معهم. الكرد يعرفون كثيراً عن السياسة وصفقاتها أكثر من غيرهم. حزب PYD حزب تابع لـ PKK، والأخير هو حزب إيراني، بكل بساطة. والحديث عن كردستان وحقوق الأكراد السياسية والتاريخية هو محض كلام يشبه حديث حافظ الأسد عن الوحدة العربية. لا تستطيع أن تفكر بوطن أو مشروع وطني سواء كنت كردياً أم عربياً، لأنك تجبر على الانشغال بقضايا أخرى: المعيشة، الأمان، تعليم الأولاد، الحصول على عمل، وهذه أمور قد تجبرك -وبخاصة بعد الثورة- على بيع قناعاتك ورأيك، وخفض جناح وطنيتك، حتى تتمكن من تأمينها، بالحد الأدنى. هويتنا أصبحت أن نخاف من بعضنا بكل بساطة، إذا أردت العمل بالسياسة فكأنك تعمل في حقل الغام، حتى أن بعض الكرد المتابعين للوضع كان يتوقع اغتيال بعض الشخصيات الفاعلة قبل اغتيالها. هناك أصدقاء لي توقعوا اغتيال عمر علوش⁽⁵⁷⁾، وهناك من توقع اغتيال مشعل تمو⁽⁵⁸⁾. أن تعمل بالسياسة يعني (أن تحمل كفنك بيدك)، وأن تكون منافقاً ونصّاباً وبلا مبادئ، وإلا فإن مصيرك سيبقى مجهولاً. قبل الثورة كانت أجهزة الأمن الأسدية تشتغل بنا، بعد الثورة تولى (الأسايش)⁽⁵⁹⁾ المهمة وبهمة عالية أيضاً.

من الواضح أن النمط التراتبي هو المسيطر في الشارع الكردي، أما الإحساس بالهوية الوطنية فهو في أدنى مستوياته. فالبيئة السياسية سواء في عهد آل الأسد أم حزب PYD بيئة طاردة للهوية

(56) رشد الحاج صالح، «مقابلة هاتفية مع عبد الرحمن شيخ نبي»، (24.04.2022). والاسم مستعار بناء على رغبته.

(57) أحد القيادات الكردية المدنية في مناطق سيطرة قسد، اغتيل في ظروف غامضة في مناطق سيطرة (قسد).

(58) ناشط سياسي وحقوق، وسجين سياسي كردي اغتيل في بداية الثورة.

(59) الجهاز الأمني التابع لحزب pyd.

الوطنية، بل تنظر إلى هذه الهوية بوصفها خطرًا لا بد من العمل على تشييته.

يمكن تحديد ثلاثة ركائز يقوم عليها نهج النظام الأسدي وحزب PYD في سياسيات الهوية:

- 1 - تقديم الأمن على الهوية (أمننة الهوية) أو تأسيس الهوية على الأمن، بل التشويش على الهوية الوطنية عبر التخويف ورفع مستوى الشعور بعدم الأمان. فالخائف لديه «أزمة هوية» بصورة دائمة بحسب أيريك أريكسون⁽⁶⁰⁾.
- 2 - الولاء مقابل الغنائم؛ أي تحويل الدولة أو السلطة أو الحزب إلى (وقف) لمجموعة من المستفيدين الذين تتحول الدولة بالنسبة إليهم إلى مصدر للثروة والجاه والمنزلة، بحيث تتحدد ولاءات الجماعات المحلية (عشائر، عائلات، جماعات دينية وقومية) بقدر ما تحصل على مكاسب من مؤسسات الدولة. وهو ما يعرف بالنزعة الوقفية أو الغنيمية (Perbendalism)⁽⁶¹⁾. ويشير هذا المفهوم في الدراسات السياسية المعاصرة إلى تحويل الدولة إلى غنيمة، ويكون الولاء لها أكبر كلما حصلت الجماعة على غنائم ومكاسب ووظائف أكثر وليس بوصفها إطارًا للوطن. بحيث تجد الأفراد الذين لعشيرتهم عدد أكبر من الوظائف، هوية انتماء إلى الدولة أكثر ممن لهم عدد أقل من الوظائف والمكاسب، مثلما تجد أن مفهوم الوطن نفسه تحول إلى صراع على غنيمة، بحيث نجد نوعًا من التضامن المؤيد (للدولة) بين من لديهم مكاسب، ونوع من النقد (للدولة) بين المحرومين من الغنائم.
- 3 - توظيف الانتماءات المحلية من أجل الصراعات البينية أو تحويل الصراعات والمماحكات إلى (الحالة العادية) للحياة السياسية، سواء كانت تلك الصراعات انتماءات عشائرية أم قومية أم دينية أم عائلية. وهذه التوظيفات بقصد (تأييد) حالة عدم الثقة والتشكك في الآخر، أو جعلها الحالة الطبيعية بحيث ينظر إلى من يثق بالآخرين، المختلفين في القومية أو الدين أو المذهب، بوصفه شخصًا ساذجًا أو غير طبيعي.

ج. الهوية الأخلاقية والهوية الأيديولوجية: يقول أحمد الكردي⁽⁶²⁾: ((الله وكيلك كرهنا

(60) بيتر كوسين، البحث عن الهوية، سامر جميل رضوان (مترجمًا)، (العين: دار الكتاب الجامعي، 2010)، ص 111.

(61) Felix Onen Eteng, Ikechukwu Jonathan Opara & Hilary Adie, Prebendalism and Rural Poverty in Cross River State, Nigeria, Journal of Sustainable Development; Vol. 14, No. 6, (2021), p 90.

وهذا البحث هو دراسة لتأثيرات الفقر الريفي في نيجيريا، حيث يبين أثر سياسات تحويل الدولة إلى وقف للمتنفذين وأقربائهم، حيث تحل مشاغل الحصول على وظائف ومكاسب في ظل بيئة فاسدة محل الشعور بالهوية الوطنية.

(62) رشيد الحاج صالح، مقابلة هاتفية مع أحمد الكردي، (12.04.2022). (الاسم مستعار بناء على رغبته الشخصية).

كل شيء اسمه قومية وأيديولوجية ويمين ويسار واشتراكية ورأسمالية... لا نريد سوى نظام يحقق المساواة للجميع ويعمل على تأمين حقوق الناس السياسية والاجتماعية والعيش بكرامة، حتى أنك تشعر أن الحديث في العقائد والأيديولوجيات التفاف على تلك الحقوق. الكرد والعرب وأهل المنطقة كلهم من الملل والطوائف الأخرى لديهم هذه القناعة بعد عشر سنوات من الأحداث. ومع ذلك تجد من يعتقد -وهم كثر- أن قوميته هي حبل نجاته ومستعد لأن يحرق نفسه من أجلها، حتى لو كان المستفيد زعيم لا يعنيه الانتماء القومي لا من قريب ولا من بعيد)).

يمكن القول إن الجزراويين تتقاسمهم هويتان؛ (هوية أخلاقية) و(هوية أيديولوجية)، أصحاب الهوية الأخلاقية (يبررون قناعاتهم بمبادئ أخلاقية عامة) يريدون نظاماً عادلاً بغض النظر عن الأيديولوجية التي ستوصلهم إلى ذلك سواء كانت قومية أم إسلامية أم يسارية أم غير ذلك. أما أصحاب الهوية الأيديولوجية القومية فيعتقدون أن القومية فوق الأخلاق السياسية، وأن عليك أن تكون قومياً أولاً حتى تكون صاحب أخلاق ثانياً. هذه الطرائق في التفكير تدل على وجود نمطين متداخلين في مقاربة الجزراوي لوضعه، فهو لا يثق بالقيادات والأحزاب السياسية، ويعتقد أنها هي التي أفسدت الناس (صحاب الهوية الأخلاقية)، وهذه هي طريقة تفكير النمط المساواتي الذي يعتقد أن فطرة الإنسان خيرة غير أن مؤسسات السلطة هي التي تفسد كل شيء. ومن جهة أخرى يوجد نمط آخر منافس لا يقل عن النمط المساواتي وهو النمط الضيق الذي لا يثق إلا بجماعته، سواء كانت قومية أم دينية أم عشائرية. وهو نمط تكون فيه الهويات حاضرة بقوة، ولكنها عاطفية، يسهل توجيهها.

يضاف إلى ذلك أن النظريات الحديثة في العلوم السياسية المعاصرة ترفع من درجة الارتباط بين الثقافة السياسية الديمقراطية والهوية الوطنية، حتى إن تشارلز تايلر⁽⁶³⁾ يربط بين الهوية الحديثة والديمقراطية؛ وهذا يعني أن هناك صعوبة في أن تنمو هوية وطنية حديثة في الدول غير الديمقراطية، لأن الدولة الحديثة بحكم كونها ديمقراطية تجعل أفرادها يحملون شعوراً قوياً بالتماهي معها لأنها تحترم حقوقهم وتحرص على العدالة والمساواة بين الجميع، بقدر الإمكان. ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بتايلر إلى التأكيد أن الهوية الوطنية اليوم لا يمكن إلا أن تكون مرتبطة بـ (المواطنة)⁽⁶⁴⁾. ولعل هذا ما يفسر أيضاً حرج بعض الجزراويين عندما يعبرون عن عدم حبهم لوطنهم، لأنهم في الحقيقة

(63) تشارلز تايلر (1931) Charles Taylor)، فيلسوف كندي معاصر يعرف باهتماماته حول قضايا الهوية والتعددية الثقافية.

(64) تشارلز تايلر: منابع الذات، تكوين الهوية الوطنية الحديثة، حيدر حاج إسماعيل (مترجماً)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2014)، ص 770.

يريدون القول إن وطنهم لا يهتم بمواطنتهم، أي إنهم يريدون وطنًا، لكن ليس من دون مواطنة، أو (وطنًا خالي الدسم) كما علق أحدهم ساخراً.

رابعاً: خاتمة

يمكن القول إن النمطين الأساسيين في الثقافة السياسية الجزراوية هما التراتبي والقدري بحسب تصنيف أصحاب نظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو، أو الضيق والرعي بحسب تصنيف (ألموند وفيربا)، من دون أن يعني ذلك عدم وجود بعض السلوكيات والأفكار الاجتماعية والسياسية التي يمكن تفسيرها بالنمط المساواتي. فالإيمان بأهمية المشاركة السياسية يكاد ينعدم بين أهل الجزيرة، والثقة الاجتماعية في أدنى مستوياتها، أما إحساسهم بالهوية فهو مشتبك بين هويات قبلية وأيديولوجية قومية، وذلك على حساب الهوية الوطنية التي نخرها الفساد المنتشر وسياسات آل الأسد الأمنية.

ولا يستطيع البحث تجاهل العلاقة الواضحة بين سياسات آل الأسد الأمنية والاقتصادية وانتشار أنماط معينة من الثقافة السياسية في المنطقة. فالرغبة في المشاركة السياسية موجودة (لتأكيد الذات) ولكن النظام السياسي هو من حولها إلى عملية لا جدوى منها. ثم إن المشاعر الوطنية والقومية مرتفعة، ولكن سياسات آل الأسد لعبت الدور الأكبر في بعثرة هذه المشاعر وتحويلها إلى مشاعر عدم ثقة بالآخرين وخوف على الذات؛ إذ تدل المقابلات التي أجريت مع أهل المنطقة أن هناك تراجع في مشاعر الثقة بالدولة (والوطن السوري) إلى مستويات متدنية، وحجج بعض المؤمنين بـ (الدولة السورية) تعكس تدنيًا واضحًا في (المعرفة السياسية) أكثر مما تعكس مشاعر وطنية، ومن الواضح أن الوطن هنا لا يعني دولة المواطنين، بقدر ما يعني كيانًا يستتر به الناس من نائبات الدهر؛ بحيث تحول الوطن إلى محض (كيان أمني)، مثلما أُمِنَت الهوية، لتصبح (هوية أمنية) إذا جاز لنا هذا التعبير.

وتبين للبحث أنه من دون افتراض وجود (الانتظار المتحفظ) القابع في وجدان الناس الداخلي لا يمكن لنموذج أصحاب نظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو، ونموذج (ألموند وفيربا)، تفسير حدوث ثورات كبرى في مجتمعات فُرضت عليها قيم الثقافة الرعوية مدة زمنية طويلة. لا سيما أن الثورة السورية لم تحدث في لحظة تعرض فيها النظام لهزة كبيرة (انقسامات داخلية، حرب خارجية، انهيار اقتصادي..)، بل على العكس اندلعت الثورة السورية في وقت كان النظام السوري في أوج قوته وتوحده.

أما مضمون الانتظار المتحفز فهو مضمون (قيم الحداثة الأوروبية) التي أصبحت قيمًا كونية، بحسب تشارلز تايلر؛ بمعنى أن الجزراوي يحمل أمنية عزيزة في داخله بأن يعيش حياة شبيهة بحياة الأمم المتقدمة، تقوم على المساواة والعدالة وحقوق الإنسان، وأنه على الرغم من كل ما قلناه، فإنه يعرف كل شيء في داخله، ولكنه لا يملك إلا أن ينتظر الفرصة المناسبة. وقد استثمرها في عام 2011، ودفع ثمنًا باهظًا مثل بقية السوريين، وهو ما زال يعتقد أن الأمور لم تنته بعد على الرغم من كل الخسائر، ولا سيما أن نصف العرب ما زالوا يعتقدون أن الربيع العربي سينجح في النهاية، كما تقول استطلاعات الرأي العلمية.

وعلى الرغم من التجهيل الكامل الذي فرضه النظام على المعارف السياسية، وسعيه الحثيث لتحويل السياسة إلى عواطف وانفعالات (نمط ضيق/ تقليدي)، حتى يسهل عليه السيطرة على السوريين، فإن المرء لا يستطيع إلا أن يرفع القبعة لقسم كبير من الناس العاديين الذين تمكنوا من تكوين معرفة سياسية شبه عفوية وذاتية، ما يدفعنا إلى القول إن المعرفة السياسية (أو الإدراك السياسي) لا ترتبط بالكتب ووسائل الإعلام والجامعات فقط، بل إن جزءًا منها يعود إلى فطرة الإنسان. وهي فطرة مجبولة لدى الناس في العصور الحديثة على طلب حياة كريمة وعادلة لأنفسهم وللآخرين، بالمعنى الذي طرحته الحداثة الأوروبية، وهي قيم مؤسسة على (الأنطولوجية الأخلاقية الحديثة) للإنسان المعاصر⁽⁶⁵⁾. ولعل هذا ما يفسر عدم نجاعة حتى نصائح الأهالي لأبنائهم التي تخبرهم بأن (السياسة كثيرًا ما خربت البيوت)، وأن (اليد التي لا تستطيع كسرها قبلها وادع لها بالكسر)، و(أن العين لا تقاوم المخرز). فالحاجة إلى تقدير الذات والمنزلة بلغة ماسلو، أو الحاجة إلى الاعتراف بلغة أكسيل هونيث⁽⁶⁶⁾، أو الأنطولوجية الأخلاقية الحديثة بلغة تايلر، يشعر بها البشر بغض النظر عما إذا كانوا قديرين أو ترابيين أو مساواتيين أو غير ذلك. وبغض النظر عما إذا كانوا شرقيين أو غربيين. فالفلسفات السياسية المعاصرة، ولا سيما فلسفة جون رولز⁽⁶⁷⁾ تذهب إلى أن الإنسان الذي لا يُعترف بحقوقه وكرامته لا يشعر براحة البال أيًا كانت الأحوال، وأن العدالة مقولة مزروعة داخل الإنسان منذ آلاف السنين، ولن ينساها بهذه السهولة. والجزراوي هو جزء من هذا العالم بكل بساطة.

يذكر أننا لم نلاحظ وجود فروق تذكر في الثقافة السياسية في منطقة الجزيرة والفرات بين

(65) تشارلز تايلر، منابع الذات، ص 225.

(66) أكسيل هونيث (1949) Axel Honneth، أحد أبرز أعلام مدرسة فرانكفورت المعاصرين. تركز اهتماماته البحثية حول الهوية، ولا سيما دور الاعتراف في الهوية، وأثر الاحتقار الاجتماعي في الهوية.

(67) جون رولز (1921-2002) John Rawls، فيلسوف أميركي معاصر، يوصف بأنه أهم من اشتغل في الفلسفة السياسية في القرن العشرين، تركزت اهتماماته البحثية حول العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد المجتمع.

متوسطي التعليم من جهة وذوي التعليم الجامعي من جهة أخرى. ففي التظاهرات كان يسير أبناء العشائر ووجهاؤها، والأولاد الذين يعملون بالمنطقة الصناعية، وطلاب المدارس، والمصلون، والمهندسون إلى جانب بعضهم. الأمر الذي يعني أن النظريات التي تربط بين مستوى التعليم والثقافة السياسية ليست دقيقة. ونحن هنا لا نتحدث عن الوعي السياسي، بل عن المعرفة السياسية البسيطة التي يكونها الناس أغلبهم عن الظلم والعدالة والمساواة.

ومن الواضح أن المقابلات التي أجريتها مع عدد من الجزراويين تشير إلى أن الانتظار المتحضر الجزراوي، والسوري عمومًا، يرنو باتجاه النمط المساواتي، من حيث إنه يحمل يوتوبيا متشربة بقيم ذلك النمط. ولذلك يمكن القول إن ما يسمى بالثورة المضادة، سواء عن طريق عسكرة الثورة وسعي الكتائب المسلحة الإسلامية لإنهاء تجربة الجيش الحر والمجالس المحلية والتنسيقيات الشعبية أم التدخلات الخارجية، هذه الثورة المضادة أتت لكي تلتف على هذه الثقافة السياسية الديمقراطية التي أخذت تلوح في أفق الجزراوي، والسوري عمومًا. وهذا ما يفسر إلحاح النظام على اتهام أهل الجزيرة بأنهم (حاضنة لداعش)، وهو اتهام يريد أن يطعن بالثقافة السياسية لأهل المنطقة.

وهنا يمكن أن نذكر بأن المزاج الديني لأهل المنطقة مزاج صوفي، ويمكن القول إن الجزراوي هو شخص مؤمن بالقضايا الأساسية في التصوف من مثل لإيمان المطلق بالقضاء والقدر، والتسامح، والإعلاء من منزلة الصالحين وكراماتهم، والاعتقاد بالخلاص الفردي عن طريق الزهد والعبادة، إضافة إلى الابتعاد عن السياسة كليًا وتركها لأهلها. وهو الأمر الذي يفسر الحضور القوي للنمط القُدري بين الجزراويين، وبخاصة بشأن ترك السياسة لأهلها. ولعل هذا ما يسمح لنا ليس فقط بدحض الادعاءات التي تجعل من الجزيرة حاضنة للتنظيمات الإسلامية المسلحة التي سيطرت على المنطقة لمدة من الزمن، بل أن نضيف أن تنظيم الإخوان المسلمين لم ينتشر في الجزيرة في ثمانينيات القرن المنصرم بسبب ذلك المزاج الصوفي الذي لا يفضل العمل السياسي من مدخل ديني. يقول عواد الأحمد⁽⁶⁸⁾: ((الدين عندنا للعبادة وإصلاح النفس وليس له أي علاقة بالسياسة وخططها. في السياسة يمكن أن نختلف، وحتى نتحارب، ولكن الدين يجمعنا على الأخلاق الحميدة وحب نبينا والصالحين والامتنال لتعاليمهم. بمجرد ما يتكلم بعض مشايخ الدين بالسياسة فإنهم إما ينافقون للرئيس أو للمحافظ، على أمل الحصول على مكسب ما. وعلى العموم «الشيوخ لا يفكرون إلا بأنفسهم وبطونهم»)).

حتى شعارات تنظيم الدولة الإسلامية الذي سيطر على الجزيرة السورية بصورة شبه كاملة بين عامي 2014 و2015 كانت في قسم كبير منها موجهة ضد ثقافة سياسية مساواتية/ مشاركة

(68) رشيد الحاج صالح، مقابلة مع عواد الأحمد، (15.02.2022). (الاسم مستعار بناء على طلب الشخص نفسه).

لمسّ التنظيم دوراتها في خلد الجزراويين. شعارات (الديمقراطية طريق الكفر)، (تبًا للديمقراطية)، (الديمقراطية صنم العصر)⁽⁶⁹⁾ التي رفعت على مداخل الرقة والميادين وتل أبيض وغيرها من المناطق، تعكس قلق تنظيم الدولة الكبير من النمط المساواتي الثقافي الذي شعر أن المواجهة يجب أن تكون معه أولاً. ولذلك عومل الجزراوي من جانب تنظيم الدولة بوصفه (مرتدًا) من حيث المبدأ حتى يثبت العكس، أي ملوئًا بثقافة سياسية تميل إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان. هذا الخوف جعل (المرتد)، أي الجزراوي من منظور التنظيم، أخطر حتى من (الكافر) في أدبيات التنظيم، أي أخطر حتى من النظام الأسدي، بل من إسرائيل وأميركا. وأكثر من ذلك فإن أبو مصعب السوري (أحد أهم منظري السلفية الجهادية في سورية والعالم) توصل إلى نظرية تقول بأن الجهاد ضد المسلمين الملوئين بثقافة الديمقراطية وقيم الغرب (الجهة الداخلية) أولى من الجهاد ضد الدول الغربية (الكافرة) (الجهة الخارجية) لأن الجبهة الداخلية أخطر من الجبهة الخارجية⁽⁷⁰⁾. وتعكس هذه النظرية مدى خشية الميليشيات الإسلامية من الثقافة السياسية المتقبلة للديمقراطية في مناطق المسلمين. ولا سيما أن استطلاعات الرأي التي تجرّها المراكز العلمية العالمية تقول إن نحو 86 بالمئة من المسلمين الذين يعيشون في دول تسلطية يريدون نظامًا يحمل قيمًا ديمقراطية، ولا يجدون تعارضًا بين الإسلام والديمقراطية⁽⁷¹⁾.

لا يمكن تفسير العدائية المفرطة من الكتائب الإسلامية المسلحة والنظام الأسدي وحزب PYD تجاه الجزراويين إلا لقناعة هذه الأطراف جميعًا بأن أهل المنطقة في النهاية لا يؤمنون بتلك التنظيمات وأفكارها، وأن مظاهر الثقافة الرعوية التي يظهرونها وميلهم إلى المهادنة والقبول بحكومات الأمر الواقع هو فقط من باب التكيف المؤقت ليس إلا. ولعل هذا ما يفسر أن سياسات الأطراف الثلاثة متشابهة إلى حد التطابق تجاه أهل المنطقة.

وتبين للبحث أن البيئة السياسية التي أوجدها كل من نظام آل الأسد وحزب PYD بيئة طاردة للهوية الوطنية. حتى أنه يمكن اختصار السياسة بالنسبة إليهم بأنها تتمحور حول عدم تمكين أهل المنطقة من تكوين هوية وطنية تجمعهم. حيث استخدمت العوامل الطاردة أو المثبطة للإحساس بالهوية الوطنية كلها، ولا سيما الخوف وعدم الأمان، والنيل من كرامة الناس ومن تقديرهم لذاتهم.

مثل تلك السياسات هي التي تقف وراء ظهور ما يسمى بـ(المظلوميات) في السياق الثقافي/ السياسي

(69) رشيد الحاج صالح، «المؤسسة العسكرية والميليشيات الإسلامية السنيّة وتغييب السوريين»، ع: 11، مجلة قلمون، (آذار/ مارس، 2020)، ص 307.

(70) أبو مصعب السوري، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (د.م: دن، 2004)، ص 98، 99.

(71) لاري دايموند، روح الديمقراطية، عبد النور الخرافي (مترجمًا)، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014)، ص 61-62.

السوري. فالجميع يشعر بالمظلومية، والجميع يشعر بأن حقوقه قد انتهكت ومنزلته قد تراجعت، وأن مثل تلك الأمور تحصل بقصدية من جانب الأطراف الأخرى. وهذه تعكس إحدى مشكلات الهوية في سورية ألا وهي أن الحديث (المتضخم) عن الهوية -في البلدان التسلطية عمومًا- كثيرًا ما يخفي ويموه مشكلات أخرى، هي في غالبيتها ذات طبيعة سياسية. وهذا يوحي بأن مشكلة سورية هي في جانب كبير منها، مشكلة طائفية في حين إن الطائفية هي نتيجة لسياسات آل الأسد، وظهرت بسبب إرادة سياسية تريد تحويل الانتماءات القومية والدينية إلى خيار سياسي.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. آل محمود. أحمد محمود، البيعة في الإسلام: تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق، (البحرين: كلية الآداب، د.ت).
2. الحاج صالح. رشيد، «العشائر والثورة السورية. الأدوار والإمكانات»، ع: 5، مجلة قلمون، (نيسان/ أبريل، 2018).
3. —، «المؤسسة العسكرية والميليشيات الإسلامية السنيّة وتغييب السوريين»، ع: 11، مجلة قلمون، (آذار/ مارس، 2020).
4. الحاج صالح. محمد إبراهيم، شهادة أتان، (بيروت: دار الآداب، 2008).
5. —، قمر علي بابل، (اللاذقية: دار الحوار، 1993).
6. السوري. أبو مصعب، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، (دم: دن، 2004).
7. السيد. جلال، حزب البعث العربي، (بيروت: دار النهار، 1973).
8. العجيلي. عبد السلام، أيام ذكريات السياسية، (لندن: رياض نجيب الريس، 2002).
9. العلوش. إبراهيم، البحر الأسود المتوسط، (دمشق: دار الفرقد، 2010).
10. المنوفي. كمال، مفهوم الثقافة السياسية - دراسة نظرية تأصيلية، (القاهرة: المركز الدولي للدراسات المستقبلية والاستراتيجية، 2008).
11. النعيمي. خليل، الرجل الذي يأكل نفسه، (نسخة إلكترونية).
12. باروت. محمد جمال، التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، 2013).
13. بطاطو. حنا، فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين والأقل شأنًا سياساتهم، عبد الله فاضل (مترجمًا)، رائد النقشبندى، ثائر ديب (مراجعًا)، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة

(السياسات، 2014).

14. تايلر، تشارلز، منابع الذات - تكوين الهوية الحديثة، حيدر حاج إسماعيل (مترجمًا)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2014).

15. حميدة. عبد الرحمن، محافظة حلب، (دمشق: وزارة الثقافة، 1992).

16. دايموند، لاري، روح الديمقراطية، عبد النور الخرافي (مترجمًا)، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014).

17. زكريا. أحمد وصفي، عشائر الشام، (دمشق، دار الفكر، 1983).

18. فيبر. ماكس، العلم والسياسة بوصفهما حرفة، جورج كتورة (مترجمًا)، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2011).

19. كوسين. بيتر، البحث عن الهوية، سامر جميل رضوان (مترجمًا)، (العين: دار الكتاب الجامعي، 2010).

20. مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، علي سيد صاوي (مترجمًا)، الفاروق زكي يونس (مراجعًا)، سلسلة عالم المعرفة، ع: 223، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997).

بلغة أجنبية

1. Abraham H. Maslowm, Motivation and Personality, (Harold, Paul, and Lew of the Universal Container Corporation, 1970).
2. Gabriel A. Almond & S. Verba, The Civic Culture - Political Attitudes and Democracy in Five Nations, (London: Sage publication, 1989).
3. peter H. Merkl, Modern of comparative politics, (New York/ London: Rinehart and Winston, 1970).
4. The International Encyclopedia of Political Communication, Edited by Gianpietro Mazzoleni, 1. Ed., (UK: John Wiley & Sons, 2016).

سياسات النظام الأسدي التعليمية

في الجزيرة السورية

محمد نور النمر⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

حققت البشرية في القرن العشرين تقدماً ملحوظاً في مجال التعليم، وأصبح أحد أهم البنى الرئيسة في الدول المعاصرة، فتصدّر سياساتها الأساسية في إدارة شؤون شعوبها، لأنه يحدد مستوى الدولة وتقدمها من جهة، ويعكس منزلتها بين دول العالم من جهة أخرى. ووفق هذه النظرية الواعية أهميته لم يعد التعليم حقاً أساسياً في شرعة حقوق الإنسان فحسب، بل إنّ ضمان هذا الحق لا يكون إلا بوجود تكافؤ الفرص وتمتع أفراد المجتمع جميعهم بالتعليم⁽²⁾.

وقد نصّ دستور المملكة السورية عام 1920 على أن التعليم والتربية في المدارس الرسمية والخاصة واحد على أساس المبادئ الوطنية في المقاطعات السورية كلها، وأن التعليم الابتدائي إجباري ومجاني في المدارس الرسمية، إضافة إلى حرية تأسيس المدارس الخاصة ضمن قانونها الخاص⁽³⁾.

أما في مرحلة ما بعد الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي، فقد أكد دستور سورية لعام 1950 أن التربية والتعليم حق لكل مواطن، وأن التعليم إلزامي مجاني في مدارس الدولة وموحد البرامج، وعلى الدولة أن تجعل أولوية في الموازنة لنشر التعليم الابتدائي والريفي والمهني وتعميمه تحقيقاً للمساواة

(1) عضو هيئة التحرير في مجلة قلمون.

(2) انظر: الموقع الرسمي لليونسكو <https://ar.unesco.org/themes/right-to-education>

(3) الدستور السوري عام 1920.

https://ar.wikisource.org/wiki/%D8%AF%D8%B3%D8%AA%D988%D8%B1_%D8%B3%D988%D8%B1%D98%A%D8%A7_1920

بين السوريين⁽⁴⁾.

حافظت الحكومات السورية التي شكّلت بعد الاستقلال إلى ما قبيل الوحدة المصرية السورية على هذه السياسة التعليمية الوطنية، فقد وصلت ميزانية التعليم إلى (19 بالمئة) من ميزانية الدولة العامة. ما يشهد على أن التعليم في سورية في مرحلة ما بعد الاستقلال قد عاش عصرًا ذهبيًا في تلك المرحلة، واستقطب كثيرًا من الطلاب العرب للدراسة في الجامعات السورية، منهم المفكر المغربي محمد عابد الجابري⁽⁵⁾ والمفكر التونسي راشد الغنوشي وغيرهما، إضافة إلى النخب السورية في الميادين الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية.

أما في المرحلة اللاحقة في السبعينيات من القرن المنصرم، فلم يستطع النظام الأسد في مدى خمسين عامًا أن ينتج إلا نخبته الموالية في الميادين كافة، وبخاصة تلك الصفوة العسكرية والأمنية التي حفرت أسماءها في الوجدان السوري بوصفها رموزًا للشر والظلم والقهر والطغيان.

ثانيًا: الإطار المنهجي للبحث

1. مشكلة البحث وأسئلته

أدرك النظام الأسدى باكراً أهمية التعليم في صناعة سورية التي يريدها (سورية الأسد)، فسعى إلى تربية الشخصية السورية على الطاعة، بديلاً من التعليم الهادف إلى صناعة الإنسان الفاعل في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، لذلك بنى استراتيجيته على السيطرة على حاضر الطفولة السورية ومستقبلها عبر تبني تطبيق سياسات تعليمية اختلفت بين منطقة سورية وأخرى، تبعاً لأهدافه الاستبدادية التي تركز أبعديته المزعومة.

يتناول هذا البحث السياسات التعليمية التمييزية التي تبناها النظام الأسدى تجاه منطقة الجزيرة السورية (الحسكة والرقّة ودير الزور) منذ بدايات حكمه 1970 وصولاً إلى عام 2011؛ العام الذي

(4) دستور سوريا لعام 1950. https://constitutionnet.org/sites/default/files/syrian_constitution_1950-arabic.pdf

(5) درس المفكر المغربي محمد عابد الجابري في جامعة دمشق، وكان فيها آنذاك (أحزاب سياسية متصارعة متنافسة، ومناقشات برلمانية صاخبة، وصحافة حرة تزخر بأنواع من المقالات السياسية والفكرية والأدبية). محمد عابد الجابري، حفريات في الذاكرة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، ص 160).

قامت فيه الثورة ضد هذا النظام. ولا يستهدف البحث التحولات في العملية التعليمية بعد انطلاق الثورة عام 2011 التي خضعت أولاً لسيطرة الجيش الحر ثم جبهة النصرة ثم داعش وأخيراً قوات الإدارة الذاتية (قسد)؛ لأنها باعتقادنا ليست إلا نتائج لتلك السياسات الكارثية التي مارسها النظام الأسد في الجزيرة السورية.

لا يختلف اثنان على أن هناك سياسات تعليمية تمييزية مارسها النظام الأسد في الجزيرة السورية، إلا أننا نختلف حول تجليات سياسات التمييز وأشكالها في تلك المنطقة، وآليات تطبيق هذه السياسات فيها، إضافة إلى اختلافنا حول طبيعة أثرها وأهدافها في تخلف الجزيرة السورية تنموياً عن غيرها من المحافظات السورية الأخرى، لذلك يروم البحث الإجابة عن سؤالين أساسيين، هما:

- أ. كيف طبق النظام الأسد السياسات التعليمية التمييزية في الجزيرة السورية؟
- ب. ما أثر هذه السياسات في إعاقة التنمية في الجزيرة السورية؟

2. أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف لعل من أبرزها:

- أ. محاولة تقديم فهم موضوعي للسياسات التعليمية التمييزية التي قام بها النظام السوري في منطقة الجزيرة السورية، استناداً إلى الإحصاءات التي قدمها المكتب الوطني للإحصاء لعام (2003) في مجال التربية والتعليم بمراحلها المختلفة ما قبل الجامعية.
- ب. يهدف البحث إلى تنبيه المؤسسات الدولية المهتمة بالتعليم في الجزيرة السورية إلى عيوب السياسة التعليمية التي طبقها النظام في تعليم المنطقة سابقاً.
- ت. أما من الناحية العملية، فإن البحث يهدف إلى الكشف عن أثر تطبيق هذه السياسات التعليمية في تجهيل المنطقة؛ لإعاقة تنميتها الشاملة.

3. منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج الوصفي وأدواته الرئيسة من مثل الملاحظة والاستقراء والتحليل، وهو منهج يقوم ((على دراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع، ويهتم بوصفها وصفًا دقيقًا))⁽⁶⁾، بهدف التعرف إلى قيمة الإحصاءات الخاصة بالعملية التعليمية في الجزيرة السورية في المراحل الدراسية ما قبل الجامعية من نواح عدة. ثم تحليلها للكشف عن تجليات السياسات التعليمية التمييزية التي طبقها النظام الأسد في الجزيرة السورية. واستعان البحث بالمنهج المقارن لمقارنة اختلاف سياسات النظام الأسد بين المنطقة التعليمية التي يستهدفها البحث، وغيرها من مناطق سورية التي تتشابه معها في عدد السكان أو غيرها من الخصائص.

4. أهمية البحث

تتمثل أهمية البحث في كشف آلية تحويل النظام الأسد التعليم إلى أداة سياسية لصناعة تخلف الجزيرة السورية من خلال تتبعنا لتطبيقات السياسة التعليمية التمييزية فيها في المراحل الدراسية كلها.

وتنبع أهمية البحث من إقامة علاقة تفسيرية بين التعليم والتنمية، لكشف أثر تطبيقات السياسات التعليمية التمييزية في إعاقاة التنمية في المجالات كافة لتكريس تخلف الجزيرة السورية وديمومته أطول مدة ممكنة.

(6) ينظر: محمد خليل عباس وآخرون، مدخل إلى مناهج البحث في التربية وعلم النفس، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2006)، ص74.

ثالثاً: الإطار النظري للبحث

1. السمات العامة للتعليم في سورية

لم يكن التعليم في دستور عام 1973 خارج المنظومة السياسية الاستبدادية⁽⁷⁾ في سورية بل كان أداتها الناعمة في صناعة سورية الأسد في السيطرة على براعم السوريين وشبابهم أيديولوجيًا، ومحاصرتهم من أطراف عدة لتحقيق هذه الغاية؛ إذ جسدت وزارة التربية رؤية الدستور الجديدة باكراً بتغيير المناهج الدراسية كاملة (1970-1975) التي حفلت بالقيم القومية والأيديولوجية المنبثقة من مبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي، فحلت مادة التربية القومية الاشتراكية بدلاً من مادة الوطنية التي كانت تقدم الفكر السياسي ونظرياته ومفهوماته. وفرضت في تلك المرحلة التربية العسكرية (الفتوة) مادة دراسية يدرسها خريجو معهد التربية العسكرية الذي أنشئ في المحافظات السورية لهذا الغرض بخاصة⁽⁸⁾.

وبعد نجاح حافظ الأسد في القضاء على حركة الإخوان المسلمين في الثمانينيات من القرن المنصرم أجريت تعديلات عدة على المناهج الدراسية، فكرست الأسد قائدًا متفردًا إلى جانب المنظومة القومية الأيديولوجية، وأدخلت خطابات (حافظ الأسد) في المناهج الدراسية وسوّقته بطلاً قومياً، ناجحاً في قمع ثورة الإخوان في الداخل، ومنتصراً خارجياً ضد إسرائيل في حرب تشرين الأول/أكتوبر (التحريرية) عام 1973.

ولم تخرج التغييرات التي أجرتها وزارة التربية للمناهج الدراسية في التسعينيات (1993 - 1995) من القرن ذاته عن هذه الرؤية الأيديولوجية، بل كانت تغييرات شكلية تعيد تكريس (حافظ الأسد) بعد حرب الخليج الثانية بطلاً قومياً منتصراً في الحروب الإقليمية أيضاً، ولم تتغير هذه المناهج الدراسية مع مجيء الأسد الابن بل استمرت حتى عام 2010 - 2011، حيث أجرت وزارة التربية تغييراً

(7) ينظر: المادة الثامنة من دستور سورية 1973.

(8) التربية العسكرية: مادة دراسية أحدثت بالمرسوم الجمهوري رقم 72 لعام 1973، باسم الأشبال للمرحلة الإعدادية والفتوة للمرحلة الثانوية، وفرض اللباس العسكري الخاكي على الطلبة. وفي الثمانينيات وُحِدَ اسمها بـ التربية العسكرية في المرحلتين المذكورتين. ولها حصتان دراسيتان، ويرسب الطالب في صفه إن غاب ثلاثة دروس متتالية. يدرس هذه المادة خريجو معهد التربية العسكرية الذي يعد جزءاً من معهد التربية الرياضية، أو خريجو معهد دار المعلمين شرط إنهاءهم الخدمة الإلزامية مع احتفاظهم برتبتهم العسكرية التي كانوا عليها في أثناء تأديتهم الخدمة الإلزامية العسكرية، ويشرف على تعليم هذه المادة مكتب التربية العسكرية الفرعي الذي يرأسه ضابط عسكري بالضرورة في فرع اتحاد شبيبة الثورة في كل محافظة، ويشرف على المكاتب الفرعية مكتب مركزي في دمشق يرأسه ضابط عسكري برتبة لواء أيضاً. نقلاً عن غسان حمدان خليل، مدرب سابق للتربية العسكرية في مدارس حلب.

شاملاً للمناهج الدراسية.

لم يكن التعليم الرسمي وحده يسعى إلى هذا الهدف، بل كانت المنظمات الحزبية طرفاً أساسياً في السيطرة على وعي الطفولة السورية وشبابها، أولى هذه المنظمات منظمة طلائع البعث وثانيها اتحاد شبيبة الثورة⁽⁹⁾. تختص الأولى التي أسست عام 1974م بالمرحلة الابتدائية ونشاط تلاميذها وتلميذاتها. وتتولى الثانية الإشراف على النشاط الطلابي والثقافي والرياضي والفني لطلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية كافة⁽¹⁰⁾، وعلى الرغم من أن اتحاد شبيبة الثورة قد أسس عام 1970، إلا أنه لم يمارس صلاحياته عملياً حتى عام 1973 بموجب مرسوم تشريعي رقم (65) خاص بذلك.

ونتيجة التعاون بين وزارة التربية واتحاد شبيبة الثورة فُرض الزي العسكري لباساً رسمياً لطلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية في بداية السبعينيات، بعد أن كان لباساً خاصاً بالفاعليات العسكرية التي عمل النظام على توسيعها وجعلها مغرية لطلاب المرحلة الثانوية، بعضها كان إجبارياً مثل معسكر الفتوة الصيفي لطلاب الصف العاشر (بأشكاله كلها) وبعضها الآخر كان اختياريّاً مثل دورات الإنزال المضلي التي يشرف عليها رفعت الأسد مباشرة. فيحصل الطالب الذي اتبع هذه الدورات على درجات إضافية (قد تصل إلى 40 درجة) تضاف إلى معدله العام في شهادة الثانوية العامة، فتؤهله للحصول على مقعد جامعي في كلية أعلى من الكلية التي يؤهله مجموعته الأصلي الالتحاق بها.

ومع أهمية التعليم الرئيسة في استراتيجية النظام السوري الأيديولوجية في بناء سورية الأسد، إلا أنه لم يكن هو من سنّ قانون إلزامية التعليم، وجعله متاحاً للسوريين كلهم مجاناً، بل كانت إلزاميته مادة أساسية في كل دساتير سورية السابقة (دستور 1920 و 1950)، فأقرّها النظام الأسدي لكنه بالمقابل عمل على تقليص ميزانية التعليم في الموازنة العامة للدولة، فشهدت ميزانية التعليم⁽¹¹⁾ انخفاضاً حاداً بعد وصول (حافظ الأسد) إلى السلطة، فبينما كانت ميزانية التعليم بين (1950 - 1960) قد وصلت إلى (18 - 19 بالمئة) من نسبة الموازنة العامة، وصلت في عهده بين (1970 - 1975) إلى نسبة (7 - 9 بالمئة)، ثم انخفضت بين (1975 - 1980) إلى (4.5 بالمئة) فقط، ثم استقرت

(9) تنطلق هاتان المنظمتان من فكر حزب البعث العربي الاشتراكي في مبادئهما النظرية، ويستخدم المنتمون رسمياً إلى هاتين المنظمتين (وهم طلاب المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية كلهم) في التخاطب مفهوم الرفيق الطليعي أو الرفيق الشبيبي.

(10) الموقع الرسمي لاتحاد شبيبة الثورة في سوريا

<https://ryu-sy.org/%D985%D986-%D986%D8AD%D986%/>.

(11) مدى شريقي، تطور الخصوبة السكانية في سورية منذ الاستقلال 1947 - 2005، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 466.

نسبتها في العقدين الأخيرين (1980 – 2000 م) بين (7 – 9 بالمئة)⁽¹²⁾.

2. أهمية الجزيرة السورية

تعدّ الجزيرة واحدة من أهم المناطق السورية من جوانب عدة؛ ففي المستويين التاريخي والسياسي شهدت نتيجة موقعها الجيوسياسي والاقتصادي صراعاً سياسياً دولياً في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وبخاصة ما بين فرنسا وبريطانيا وتركيا، ثم كانت الجغرافية المرغوب فيها لمشروع الولايات المتحدة الأميركية بشأن توطين اللاجئين الفلسطينيين فيها⁽¹³⁾.

ويرتبط المجال السياسي والاجتماعي، إذ تضم الجزيرة في بنيتها الاجتماعية مزيجاً من إثنيات عرقية من (العرب والكرد والتركمان والأشوريين والأرمن)، وامتاز هذا النسيج الاجتماعي بتعدد ديني وطائفي يميز المنطقة من غيرها ففيها (المسيحية والإسلام والسريان واليزيدية وغيرها). إضافة إلى الطبيعة العشائرية القوية التي تميز محافظات الثلاث (الرقّة والحسكة ودير الزور) عن غيرها من المدن السورية الأخرى، وقد أضافت الهجرات الكثيرة إليها من (الأرمن والكرد) عنصراً بارزاً في تكوينها التاريخي والاجتماعي.

أما في المستوى الاقتصادي، فإن منطقة الجزيرة تحتل منزلة كبيرة في الاقتصاد السوري، إذ ((تبلغ مساحتها (7602 ألف هكتار)، أي (41 بالمئة) من المساحة العامة للجمهورية العربية السورية، وتمثل على مستوى مصادر الدخل المحلي الإجمالي (الدخل القومي) مخزن الغلال والطاقة في الاقتصاد السوري))⁽¹⁴⁾.

ومع أهمية الجزيرة السورية في المستويات المختلفة التي ذكرناها أعلاه، إلا أنها واجهت سياسات تمييزية من السلطة الأسدية التي اتبعت سياسة التجهيل والإفقار لضمان تخلفها ثقافياً ونهبها اقتصادياً واستمرار ولائها سياسياً أطول مدة زمنية ممكنة. فالجزيرة السورية مع أنها خزان الثروة المادية لسورية (النفط والقمح والقطن⁽¹⁵⁾)، نسبة سكانها ((الذين يعيشون بأقل من دولار في اليوم،

(12) المركز الوطني للإحصاء، المجموعة الإحصائية، التعليم والثقافة، (2002).

<http://cbssyr.sy/yearbook/2003/chapter%2011/TAB120-%2011%.htm>

(13) ينظر: جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 23.

(14) جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 24-25.

(15) يطلق الباحث جمال باروت على الجزيرة السورية مفهوم «كاليفورنيا سورية» نتيجة الثورة الزراعية التي شهدتها الجزيرة السورية

عشرة أضعاف نظرائهم في المناطق الأخرى. وبالطريقة نفسها، يزداد الفقر المدقع في الإقليم الشرقي أربع مرات عن الإقليم الساحلي⁽¹⁶⁾.

لا شك في أن هذه السياسات التمييزية العامة التي اتبعتها النظام الأسد في الجزيرة السورية قد تركت أثرًا واضحًا في الحقل التعليمي في مراحلها الدراسية ما قبل الجامعية كلها، أما المرحلة الجامعية وما بعدها، فيكفي أن نذكر أن هذه المنطقة بأهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية لم تؤسس فيها جامعة حتى عام 2006 حيث افتتحت فيها جامعة الفرات، بينما أسست جامعة تشرين في المنطقة الساحلية عام 1971، مع أن عدد سكان المنطقة الشرقية يتجاوز عدد سكان المنطقة الساحلية بنحو (179000) نسمة بحسب إحصاءات المكتب المركزي للإحصاء، لذلك نتساءل: ما سر تأخر تأسيس الجامعة في الجزيرة السورية حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، إن لم تكن هناك سياسات تعليمية تمييزية مبيتة ومقصودة تستهدف تجهيل المنطقة وتكريس تخلفها في المجالات كافة.

رابعًا: الإطار العملي للبحث

1. السمات العامة لعينة البحث

يتحدد مجتمع البحث بالجزيرة السورية، في المرحلة الزمنية الممتدة بين عام 1970 و2010، لذلك اعتمد البحث على البيانات التي أوردها المكتب المركزي للإحصاء لعام 2003، لأنها تعبر عن اكتمال مرحلة (الأسد الأب) حتى عام 2000، وتكشف لنا السياسات التي تبناها (الأسد الابن) في أولى سنوات توليه السلطة، وكانت استمرارًا لسياسات سلفه التمييزية في منطقة الجزيرة السورية.

اخترنا مدينتين سورييتين للبحث؛ مدينة دير الزور ممثلة للجزيرة السورية التي يفترض البحث

في الخمسينيات من القرن المنصرم التي ترتبط بالثورة التقنية لعوامل الإنتاج التي تمثلت في التحول من عصر الفدان إلى عصر الجرارات والحصادات، ومن عصر الغراف الخشبي والمعدني التي تروي بالكاد نحو هكتار إلى عصر المضخة التي تروي عشرات الهكتارات. وأدى هذا التحول إلى اتساع مساحة الأراضي المزروعة والمستصلحة القابلة للزراعة، ورفع إنتاجيتها من مستوى إنتاج الكفاف إلى مستوى التصدير، وتسريع وتيرة التحضر لدى العشائر الرحل الكردية والعربية. ينظر: جمال باروت، التكون التاريخي للجزيرة السورية، ص 537.

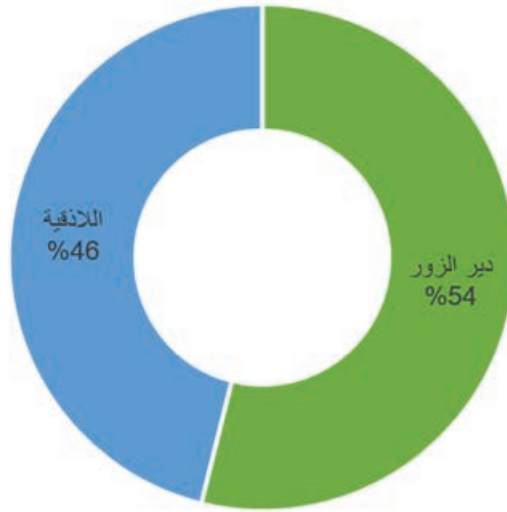
(16) هبة الليثي وخالد أبو اسماعيل، الفقر في سورية: 1996 – 2004 م، (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2005)، ص-28 و 29 و 42.

تعرضها للتهديم والتمييز. ومدينة اللاذقية ممثلة للمنطقة الساحلية التي نفترض أنها نالت اهتماماً كبيراً من النظام الأسد. وقد اختيرت هاتان المدينتان الممثلتان نظراً إلى تقارب عدد السكان بينهما.

مدينة دير الزور: كبرى محافظات الجزيرة السورية، يبلغ عدد سكانها بحسب إحصاء 2003 (1.244.000) نسمة، أي ما يشكل (6.4 بالمئة) من مجموع سكان سورية. وتمتد هذه المحافظة على مساحة جغرافية مقدارها (33060) كم².

مدينة اللاذقية: كبرى مدن الساحل السوري، ويبلغ عدد سكانها بحسب إحصاء 2003 (1.025.000)، أي ما يشكل (5.5 بالمئة)، وتمتد على مساحة جغرافية قدرها (2297) كم².

عدد السكان



2. واقع التعليم في الجزيرة السورية

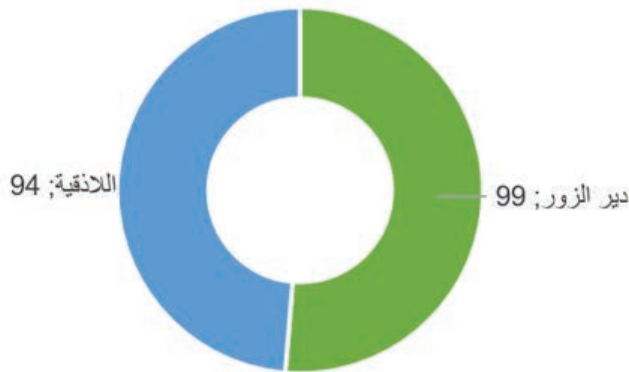
للتعرف إلى السياسات التعليمية التمييزية التي مارسها النظام الأسد في الجزيرة السورية ما بين 1970 و2010 ومآلاتها، نتناول المراحل التعليمية التي تتبع لوزارة التربية السورية من رياض الأطفال والتعليم الأساسي (الحلقة الأولى والثانية) إلى التعليم الثانوي العام، وصولاً إلى التعليم المهني/ الفني بأشكاله المختلفة على الشكل الآتي:

أ. مرحلة رياض الأطفال

تنتهي إلى مرحلة ما قبل التعليم المدرسي، ومع أنها ليست إلزامية في سورية، إلا أن وزارة التربية تشرف رسميًا عليها بمجملها وتفرض عليها مناهجها الدراسية كلها. وقد ((وضعت وزارة التربية لرياض الأطفال في إطار استقلاليتها الإدارية والمالية نظامًا داخليًا موحدًا، تتمتع باللامركزية والمرونة والمؤسسية في تطبيق المنهاج التربوي والخطة الدراسية الموضوعة من قبل الوزارة))⁽¹⁷⁾.

ليست وزارة التربية وحدها من ينشئ رياض الأطفال، بل تشاركها منظمات مدنية، منها: الرياض الخاصة والاتحاد النسائي ونقابة المعلمين ووزارات أخرى، وقد بلغ إجمالي هذه الرياض في اللاذقية (94) روضة، مقابل (99) روضة في دير الزور.

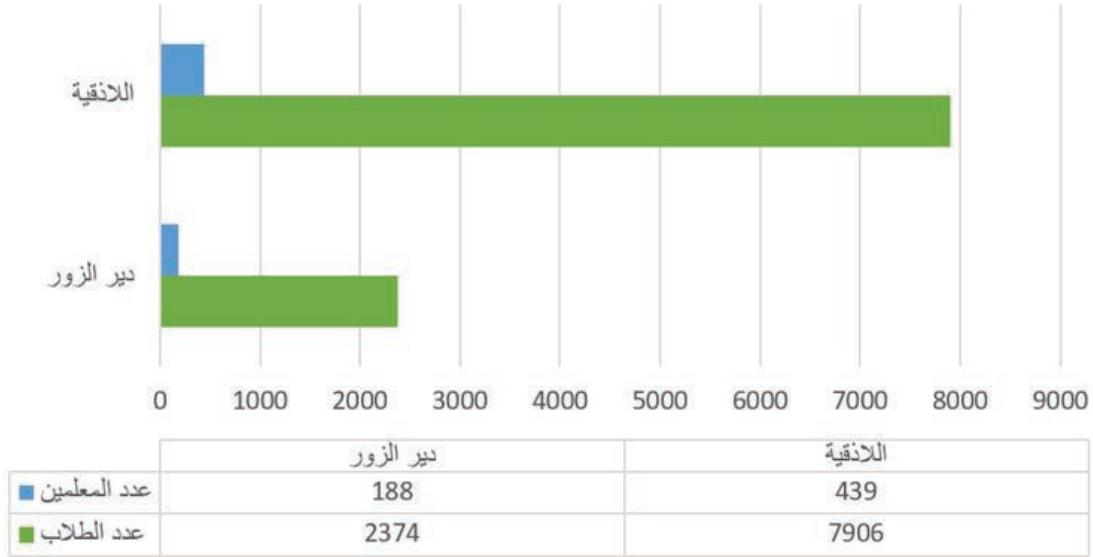
عدد الروضات



ويدرس في رياض الأطفال في اللاذقية (7906) طلاب، بينما كان عددهم في دير الزور (2374) طالبًا. بلغ عدد المعلمين في هذه الرياض في اللاذقية (439) معلمًا، وفي دير الزور اقتصر على (188) معلمًا.

(17) جمال باروت وآخرون، التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، (البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، 2005)، ص 33.

عدد الطلاب والمعلمين في مرحلة رياض الأطفال



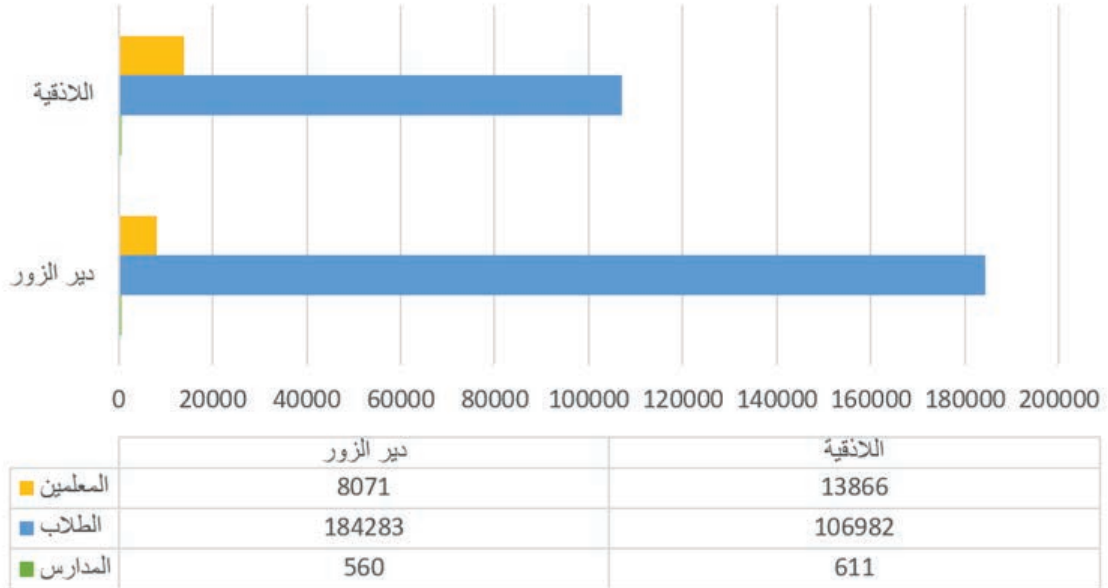
ب. مرحلة التعليم الابتدائي

تعد المرحلة الابتدائية العمود الفقري للتعليم في سورية، وهي مرحلة إلزامية ومجانية منذ 1920 حتى الآن، على الرغم من تشدد النظام الأسدي بأنه قد اهتم بهذه المرحلة اهتمامًا خاصًا، وجعلها مجانية متاحة للسوريين كلهم ريفًا ومدينة.

تشكل هذه المرحلة صلب وزارة التربية، ومحور اهتمامها، وتشاركها منظمة طلائع البعث التي خصصت لها الوزارة مديرية باسمها (مديرية الطلائع) لتنظيم نشاط الطلاب وفاعليتهم في المدارس السورية كلها. وتشرف الوزارة على هذه المرحلة من ألقها إلى يائها: الأبنية المدرسية، والمناهج الدراسية والمعلمين، وكل ما يتعلق بالعملية التعليمية، إضافة إلى أن هذه المرحلة بقيت حكومية ولم يسمح بإنشاء المدارس الخاصة لها حتى العام الدراسي 2002 – 2003.

بلغ عدد المدارس الابتدائية في دير الزور (560) مدرسة، بينما بلغ عددها في اللاذقية (611) مدرسة، وكان عدد طلابها في دير الزور (184283) طالبًا، بينما عددهم في اللاذقية (106982) طالبًا. وبلغ عدد المعلمين في هذه المدارس في دير الزور (8071) معلمًا، وكان عددهم في اللاذقية (13866) معلمًا.

عدد المدارس والطلاب والمعلمين



نختم هذه المرحلة بأن نشير إلى طبيعة الأبنية المدرسية في هاتين المدينتين، فبينما توجد مدرسة طينية واحدة فقط في اللاذقية، بلغ عددها في دير الزور (63) مدرسة طينية، و(6) مدارس خيم وكرفانات⁽¹⁸⁾.

ج. مرحلة التعليم الإعدادي والثانوي العام

حتى عام 2003 لم يكن التعليم الإعدادي تعليمًا إلزاميًا، فقد كان مرتبطًا بالتعليم الثانوي، ويخضع كلاهما لوزارة التربية كليًا في نظامهما الداخلي، وتشارك منظمة اتحاد شببية الثورة الوزارة بالإشراف على نشاط طلابها وفعالياتهم كلها، وكان لباس طلاب المدارس الرسمي وفقًا لهذه الشراكة لباسًا عسكريًا موحدًا. وبعد ذلك العام دُمجت المرحلة الإعدادية بالمرحلة الابتدائية، تحت اسم مرحلة التعليم الأساسي، فأصبحت الابتدائية حلقة أولى، والإعدادية حلقة ثانية. لم تتضمن هذه التغييرات الشكلية للأسماء تغييرات جوهرية أبدًا، بل بقيت السياسات التعليمية ذاتها، لذلك؛ لا

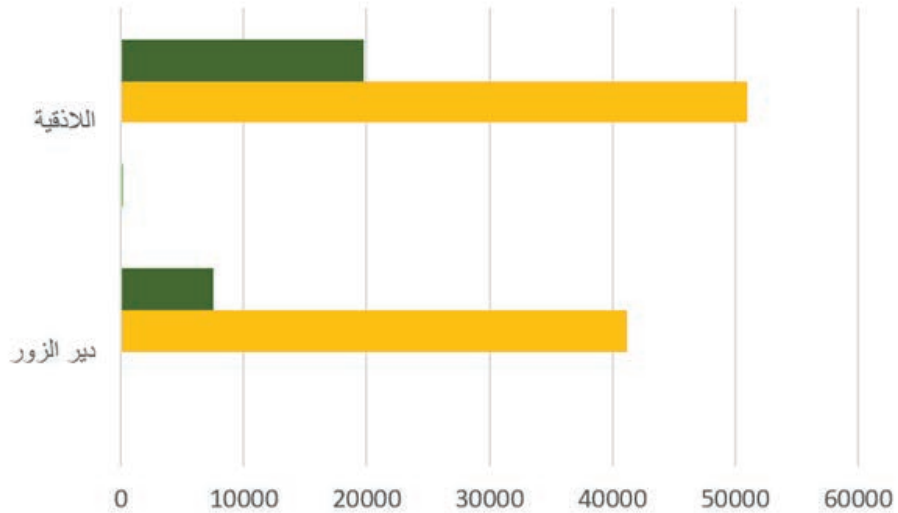
(18) ماهر الرزوعبير الحداد، «دراسة تحليلية حول التعليم الأساسي»، المكتب المركزي للإحصاء والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، ص36. <http://cbssyr.sy/studies/st20.pdf>

يغير استخدامنا التسميات القديمة في الأمر شيئاً، لاعتمادنا على إحصاءات المكتب المركزي للإحصاء الذي يستخدم هذه المفاهيم.

بلغ عدد مدارس المرحلة الإعدادية في اللاذقية (214) مدرسة، بينما كان العدد في دير الزور (123) مدرسة. ووصل عدد طلاب المرحلة الإعدادية في اللاذقية إلى (50974) طالباً، بينما كان عددهم في المرحلة ذاتها في دير الزور (41227) طالباً.

بالنسبة إلى المرحلة الثانوية، بلغ عدد مدارسها في اللاذقية (115) مدرسة، وعددها في دير الزور (37) مدرسة. وكان عدد طلاب هذه المرحلة في اللاذقية (19798) طالباً، وعددهم في دير الزور (7524) طالباً.

عدد المدارس والطلاب في المرحلة الإعدادية والثانوية



	دير الزور	اللاذقية
عدد الطلاب المرحلة الثانوية	7524	19798
عدد الطلاب المرحلة الإعدادية	41227	50974
مدرسة المرحلة الثانوية	37	115
مدارس المرحلة الإعدادية	123	214

وتُظهر النتيجة النهائية لهاتين المرحلتين أن نسبة ((حملة الشهادة الإعدادية في اللاذقية قد بلغ (19.4 بالمئة)، في حين لم تتجاوز نسبتهم في دير الزور (8.7 بالمئة)، أما المرحلة الثانوية فبلغ عدد

حملتها في اللاذقية (17.4 بالمئة)، بينما كانت نسبتهم في دير الزور (4.6 بالمئة))⁽¹⁹⁾.

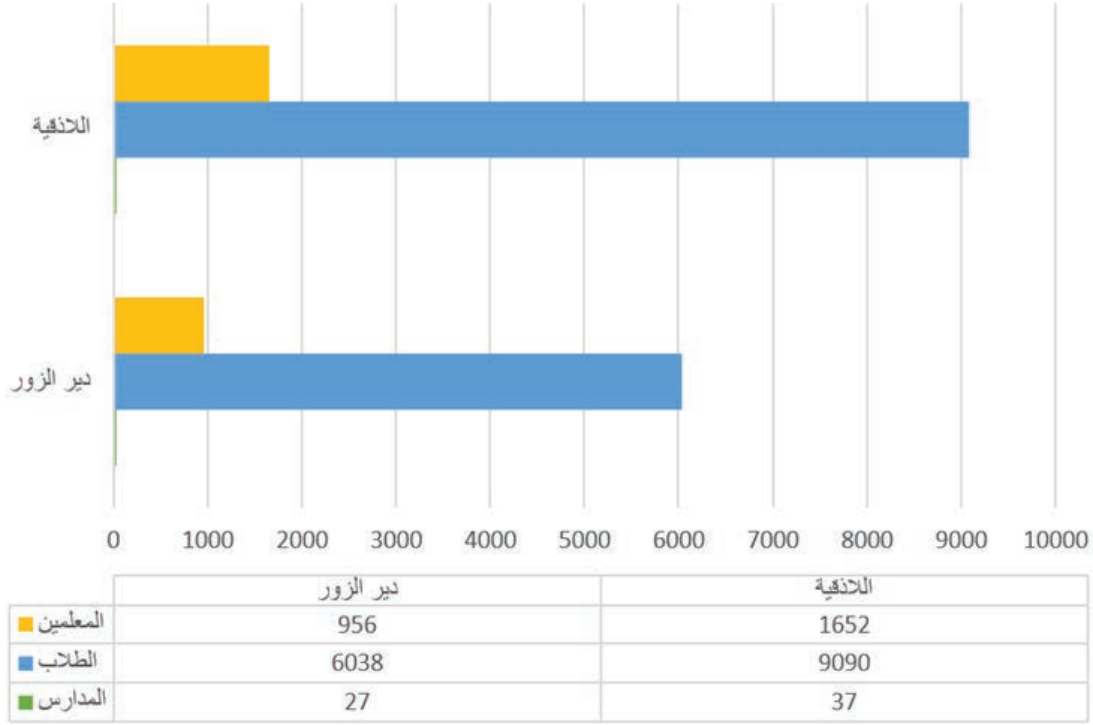
د. التعليم الثانوي الفني أو المهني

هو نظام تعليمي في المرحلة الثانوية يسعى إلى إكساب طلابه المهارات العملية، من خلال الشراكة التي تقيمها وزارة التربية مع عدد من القطاعات والوزارات الأخرى لتلبية متطلبات سوق العمل، ويضم: التعليم الصناعي، التعليم النسوي، التعليم التجاري، التعليم الزراعي والبيطري، التعليم الشرعي، وتشرف عليه وزارة التربية كلياً من خلال مديرية التعليم المهني والتقني.

يبلغ إجمالي عدد مدراس التعليم المهني بأشكاله المختلفة في اللاذقية (37) مدرسة، بينما يبلغ عددها في دير الزور (27) مدرسة. أما عدد طلاب التعليم المهني في اللاذقية فبلغ (9090) طالباً، بينما كان عددهم في دير الزور (6038) طالباً. وعدد مدرسي التعليم المهني والفني في اللاذقية (1652) مدرساً، بينما بلغ عددهم في دير الزور (956) مدرساً.

(19) عصام الشيخ أوغلي وفؤاد اسماعيل، «تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية دراسة مقارنة (1994 - 2004)»، المكتب المركزي للإحصاء، (2007)، ص 49 و 51.

عدد المدارس والطلاب والمعلمين



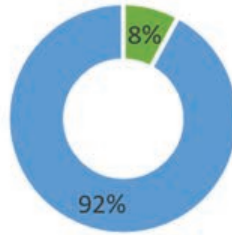
بعد أن عرضنا لمراحل التعليم ما قبل الجامعي كلها في المدينتين المذكورتين، بقي لنا أن نذكر ما يتعلق بالعملية التعليمية ونعني قضية الإرشاد النفسي والاجتماعي فيهما، وهي التجربة التي بدأت فيها وزارة التربية عام 2001، وجرى تعيين (1931) مرشداً ما بين 2002 و2004، وزعتهم الوزارة في المحافظات السورية المختلفة، وكان إجمالي عدد من عيّنتهم الوزارة في مراحل التعليم ما قبل الجامعي كلها (التعليم الأساسي والثانوي العام المهني والفني) في اللاذقية (257) مرشداً نفسياً واجتماعياً، بينما كان إجمالي عددهم في مدينة دير الزور في المراحل المذكورة (22) مرشداً نفسياً واجتماعياً⁽²⁰⁾.

(20) بيانات الإرشاد النفسي والاجتماعي مستمدة من بيانات داخلية لوزارة التربية السورية، نقلاً من تقرير التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، جمال باروت وآخرون، ص 59.

عدد المرشدين النفسيين والاجتماعيين

Diagrammbereich

■ دبير الزور ■ اللانقية



خامسًا: نتائج البحث وتفسيرها

وفيه نحاول الإجابة عن سؤال البحث الأساسي، من خلال تحليل السياسات التعليمية التمييزية التي طبقها النظام الأسد في الجزيرة السورية وتفكيك بنيتها، لمعرفة الغايات والأهداف التي سعى إلى تحقيقها من خلال مفهومي التجهيل والإفقار.

1. سياسة التجهيل

في المستوى النظري أكدت كل المصفوفات النازمة للعملية التعليمية في سورية حق السوريين جميعًا من دون تمييز مناطقي أو عرقي أو طائفي بالوصول إلى التعليم، ومنها الدستور السوري لعام 1973 الذي ذهب إلى أن التعليم حق تكفله الدولة، وهو مجاني في مراحله كلها، وإلزامي في مرحلته الابتدائية، وتعمل الدولة على مدِّ الإلزام إلى مراحل أخرى، وتشرف على التعليم وتوجهه بما يحقق الربط بينه وبين حاجات المجتمع والإنتاج⁽²¹⁾.

أما السياسات العملية التعليمية التي طبقها النظام الأسد في مدى أربعين عامًا، فهي لا تخالف نص الدستور في أن يكون التعليم حقًا تكفله الدولة للسوريين جميعهم، لكنها تكشف في الوقت نفسه وعيًا يميز بين السوريين على أساس مناطقي لخدمة أغراضه التسلطية، عبر سياسة التجهيل لأبناء المنطقة الشرقية التي قامت على استهدافين رئيسين:

(21) المادة: 37، دستور الجمهورية العربية السورية، عام 1973.

أ. استهداف أسس العملية التعليمية: تكشف لنا الإحصاءات التي ذكرناها في تناولنا لواقع التعليم في الجزيرة السورية، كيف بنى النظام الأسدسي سياساته التعليمية على أساس مناطقي تميز بين منطقة سورية وأخرى، وتستهدف أسس هذه العملية التعليمية وعناصرها كافة، وسيقتصر حديثنا على الفوارق في عدد المدارس والمعلمين بين المدينتين المذكورتين، ولن نذكر الأسس التعليمية الأخرى، مثل المخابر المدرسية، المكتبات المدرسية، التأهيل التربوي والمعلوماتي، أو معدل الإنفاق المدرسي وحصة كل طالب منه في كل محافظة، بسبب عدم توفر المعلومات الخاصة بهذه القضايا. في مستوى عدد المدارس كانت الفوارق التمييزية كبيرة بين المدينتين المستهدفتين في البحث، وفي المراحل التعليمية ما قبل الجامعية كلها؛ إذ كان عدد مدارس دير الزور دائماً أقل من عددها في اللاذقية والفارق بينهما وفق المراحل: المرحلة الابتدائية (51) مدرسة، المرحلة الإعدادية (91) مدرسة، المرحلة الثانوية العامة (78) مدرسة، أما في مرحلة التعليم المهني والفني، فكان الفارق (10) مدارس.

من الطبيعي أن يُنتج فارق عدد المدارس بين المدينتين فارقاً كبيراً في عدد المدرّسين بينهما، فكان عددهم أقل في دير الزور دائماً؛ ففي رياض الأطفال كان الفارق (251) معلماً، وفي المرحلة الابتدائية (5795) معلماً، وفي المرحلتين الإعدادية والثانوية (3758) مدرساً، بينما كان الفارق في التعليم المهني والفني (696) معلماً.

وتجب الإشارة إلى أن هناك عدداً لا بأس به من المعلمين والمدرّسين أغلبهم من المنطقة الساحلية، تُعيّنهم الدولة في المراحل الدراسية المختلفة في المنطقة الشرقية، بحجة قلة الكوادر التعليمية المحلية فيها، أو ليقضوا سنوات تعيينهم الأولى في ما يسمى (خدمة المناطق النامية)، وسرعان ما يعود هؤلاء المعلمون إلى مدنهم التي جاؤوا منها.

ب. استهداف جودة التعليم: من الطبيعي أن يترك استهداف أسس العملية التعليمية أثره الكبير على جودة التعليم ونوعيته. ونتعرف في ما يأتي على آلية استهداف جودة التعليم في مراحل التعليم ما قبل الجامعي من حيث عدد الطلاب في كل مدرسة، وعدد المعلمين فيها، وعدد الطلاب في الشعبة الصفية، وصولاً إلى عدد الطلاب بالنسبة إلى عدد المعلمين.

في مرحلة رياض الأطفال بلغ متوسط عدد الأطفال في كل روضة في اللاذقية (175) طفلاً، بينما كان عددهم في كل روضة في دير الزور (328) طفلاً. وبلغت حصة كل روضة في اللاذقية من المعلمين (22) معلماً، بينما كانت في دير الزور (14) معلماً، وبناء عليه تمايزت رياض الأطفال في اللاذقية عن مثيلاتها في دير الزور، فكان لكل (8) أطفال معلم في اللاذقية، ولكل (23) طفلاً معلم في دير الزور.

أما في المرحلة الابتدائية التي تعد مرحلة تأسيسية في سياسة استهداف جودة التعليم، فقد ضمت كل مدرسة في دير الزور (330) طالبًا، بينما ضمت مثلتها في اللاذقية (176) طالبًا. وكان لكل (8) طلاب معلم في اللاذقية، ولكل (24) طالبًا معلم في دير الزور. وبلغت نسبة عدد المعلمين في كل مدرسة في اللاذقية (22) معلمًا، بينما كان عدد معلمي كل مدرسة في دير الزور (14) معلمًا.

إن خطة النظام الأسدّي التمييزية في المرحلتين الإعدادية والثانوية تستكمل ما بدّأته في مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية من سياسة استهداف جودة التعليم ونوعيته، إذ بلغ عدد طلاب كل مدرسة في المرحلة الإعدادية في اللاذقية (228) طالبًا، بينما كان عددهم في كل مدرسة إعدادية في دير الزور (335) طالبًا. وهذا التمايز ينطبق على المرحلة الثانوية أيضًا، فكان عدد الطلاب في كل مدرسة ثانوية في اللاذقية (172) طالبًا، وعددهم في كل مدرسة ثانوية في دير الزور (203) طالبًا. أما إجمالي عدد مدرسي المرحلتين الإعدادية والثانوية في اللاذقية فبلغ (7130) مدرسًا، بينما عددهم في المرحلة ذاتها في دير الزور (3372) مدرسًا، وهذا أدى إلى أن يكون لكل (10) طلاب في المرحلتين الإعدادية والثانوية في اللاذقية معلم، بينما كان لكل (15) طالبًا في المرحلتين ذاتهما في دير الزور معلم.

وتؤكد نسبة المتسربين من التعليم في المرحلتين الإلزاميتين الابتدائية والإعدادية في منطقة الجزيرة ما ذهبنا إليه، هناك سياسة تجهيل طبّقها النظام الأسدّي تجاه الجزيرة السورية، فكانت نسبة التسرب الأعلى بين المناطق السورية، إذ بلغت (4,9 بالمئة) في دير الزور والرقّة. ونحن نتفق مع ما وصلت إليه الدراسة الرسمية المنشورة على موقع المكتب المركزي للإحصاء التي كانت ثمرة التعاون بين هذا المكتب والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، في أن التسرب يعود إلى أسباب داخلية خاصة بالنظام التعليمي تتمثل في الكثافة الطلابية العالية في الشعبة، ونقص المعلمين المؤهلين وغير ذلك⁽²²⁾، وهي العوامل التي استهدفتها النظام الأسدّي في سياسة التجهيل: من خلال استهداف أسس التعليم (المدارس والمعلمين) أولاً، واستهداف نوعية التعليم وجودته ثانيًا، وهي السياسة التي جعلت مدن المنطقة الشرقية (الرقّة ودير الزور والحسكة) في أدنى سلم ترتيب المحافظات بحسب متوسط الدراسة (ذكورًا وإناثًا)، بينما كانت المدن الساحلية من المحافظات المتقدمة تعليميًا وفي أعلى سلم الترتيب⁽²³⁾.

وتكشف دراسة علمية رسمية صادرة من المكتب المركزي للإحصاء منشورة على موقعه الرسمي،

(22) ماهر الرز وعبير الحداد، «دراسة تحليلية حول التعليم الأساسي»، ص 25.

(23) عصام الشيخ أوغلي وفؤاد اسماعيل، «تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية دراسة مقارنة (1994 - 2004)»، ص 23.

آلية سياسة التجهيل تجاه الجزيرة السورية بتبريرها تفاوت المستوى التعليمي بين أعلى سلم الترتيب وأدناه، فتقول: ((إن هذا الوضع يتلزم بشكل دائم مع المحافظات التي تتميز بطابع زراعي، فأغلب السكان في تلك المحافظات سواء الذكور أو الإناث يعملون بالزراعة، ولا يحتاج العاملون في هذا القطاع إلى معرفة القراءة والكتابة أو الحصول على مستوى تعليمي متقدم، نظراً للطريقة التقليدية التي يتم بها إنجاز العمل الزراعي)).⁽²⁴⁾

لم يناقض النظام نفسه في علاج آثار سياسته التمييزية القائمة على التجهيل وما أنتجه من تفشي ظاهرة الأمية في المنطقة الشرقية وهي النسبة العليا بين المناطق السورية، بل رسخها بأن افتتح (371) صفًا لمحو الأمية في دير الزور، مقابل (1137) صفًا لمحوها في اللاذقية⁽²⁵⁾.

2. سياسة الإفقار

يعد التعليم عنصراً رئيساً في بناء التنمية البشرية، ومؤشراً مهماً على مستواها، فلا تعليم ناجح من دون تنمية شاملة، ولا تنمية حقيقية من دون تعليم فاعل، لذلك سعت استراتيجيات التعليم المعاصرة إلى ربط التعليم بالتنمية البشرية لما يتركه من أثر كبير في صناعة حياة الإنسان الجديدة، ولكي ينهض التعليم بهذه المهمة الأساسية، بينت هذه الاستراتيجيات أنه لا بد من أن يقوم التعليم على أربعة أعمدة أساس⁽²⁶⁾ هي:

- أ. التعليم من أجل توسيع الإدراك المعرفي وهي الوظيفة التقليدية للتعليم التي تنهض بمهمة زيادة حصيلة الطالب بالمعارف والأفكار التي يقدمها المعلم أو المدرس لطلابه.
- ب. التعليم من أجل العمل، ويسعى إلى تزويد الطلبة بالمهارات العملية بحيث تلبي مخرجات العملية التعليمية حاجات سوق العمل.
- ت. التعليم من أجل بناء الشخصية الإنسانية التي تتضمن غرس القيم الروحية والإنسانية والأخلاقية في هذا العالم المتغير، لبناء الشخصية المستقلة والتفكير النقدي وغيرها من قيم التفكير المنفتح.
- ث. التعليم من أجل فهم المجتمع الإنساني ككل وبناء الشخصية الإنسانية الكونية

(24) عصام الشيخ أوغلي وفؤاد اسماعيل، «تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية، ص 24.

(25) الموقع الرسمي للمكتب المركزي للإحصاء:

<http://cbssyr.sy/yearbook/2003/chapter%2011/TAB35-%2011.htm>

(26) ينظر: جمال باروت وآخرون، التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، (البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، 2005)، ص 22-24.

المهيئة للدخول إلى عصر العولمة والانفجار المعرفي.

لا شك في أن المعايير السابقة للتعليم الفاعل في عملية التنمية تبدو مثالية بالنسبة إلى نظام استبدادي حوّل مجمل العملية التعليمية في سورية إلى أداة أيديولوجية لترسيخ حكمه لها، وبخاصة في منطقة الجزيرة السورية التي جعل فيها خطة التجهيل عنصرًا رئيسًا في سياسة إفقار أبناء المنطقة الشرقية لضرب أي تنمية اقتصادية أو اجتماعية محتملة، وهما اللتان تشكلان الحجر الأساس لأي تنمية شاملة في المنطقة، ولتحقيق هذه الغاية، استهدفت بنية التعليم وجودتها لاستدامة تخلف المنطقة عن غيرها من المناطق السورية.

التنمية الاقتصادية: شكلت سياسة التجهيل ركنًا أساسيًا في بناء خطة الإفقار الاقتصادي التي طبقها النظام الأسدّي تجاه الجزيرة السورية، لأن «الفقر يرتبط عكسيًا بمستوى التعليم، حيث يؤدي أي تحسن طفيف في المستوى التعليمي إلى تراجع أعداد الفقراء»⁽²⁷⁾. فإذا كان النظام الأسدّي قد نجح في تجهيل منطقة الجزيرة السورية ونشر الأمية بين أبنائها، فإن سياساته التربوية التمييزية كانت سبيلًا لتحقيق الإفقار الاقتصادي المنشود، فجعل المنطقة الشرقية الأفقر اقتصاديًا في خريطة توزيع الفقر السورية، إذ «تركز نسبة (1، 58) من فقراء سوريا في الإقليم الشمالي والشرقي، وهو الإقليم الذي يعيش فيه (44.8 بالمئة) من إجمالي السكان»⁽²⁸⁾، مع أنها أغنى المناطق السورية اقتصاديًا فهي خزان النفط والقمح والقطن كما ذكرنا سابقًا.

تعد معايير من مثل مستوى الفقر، ونصيب الفرد القومي والمحلي ومستوى التغذية والرعاية الصحية، والتعليم، إضافة إلى توفر البنية التحتية الأساسية، معايير الحد الأدنى من مؤشرات التنمية الاقتصادية الأساسية التي يقاس من خلالها نفع التحولات الاقتصادية لمواطني أي دولة في العالم.

لو نظرنا في التقارير الصادرة من الحكومة السورية أو تلك التقارير الدولية الصادرة من البرامج المختلفة للأمم المتحدة، فإن ما يدهشنا ليس فقط أن تكون الجزيرة السورية المنطقة التي لم تنل حقها من التنمية الاقتصادية على غرار غيرها من المناطق السورية الأخرى، فهي المنطقة الأكثر تخلفًا وفقًا لكل المؤشرات (العامة والفرعية) لتقارير التنمية الاقتصادية في سورية⁽²⁹⁾، بل إن ما يدهشنا

(27) هبة الليثي وخالد أبو اسماعيل، الفقر في سورية: 1996 – 2004، ص 61.

(28) هبة الليثي وخالد أبو اسماعيل، الفقر في سورية، ص 43.

(29) في كل مؤشرات التقرير الخاص بسوريا: التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، كانت الجزيرة السورية بعيدة عن المستوى العام كثيرًا، منها مؤشر: العمر المتوقع عند الولادة، ومؤشر التحصيل التعليمي، ومؤشر الناتج المحلي الإجمالي، ومؤشر العمر المتوقع

حقاً في هذه التقارير (الحكومية والدولية) هو اتفاقها في أن مرد التخلف هو السياقات الاجتماعية مثل القيم والعادات والثقافة المجتمعية⁽³⁰⁾، وأيضاً السياقات الاقتصادية مثل العمل بالزراعة التي يحكم الجزيرة السورية بمحافظاتها الثلاث، متجاهلة بذلك السبب الرئيس وهو السياسات الإقصائية القصصية التي طبقها النظام الأسد في هذه المنطقة، وإلا كيف نفسر هذا الوضع الكارثي للتنمية الاقتصادية لمنطقة الجزيرة السورية بعد خمسين عاماً من خطط التنمية الشاملة (الخمسية) التي تطبقها الحكومة بعنوان المناطق النامية⁽³¹⁾، إذا لم تكن الغاية الرئيسة لهذه السياسات هي ترسيخ الإفقار الاقتصادي وضمان ديمومته فيها.

التنمية الاجتماعية: كان لخطة التجهيل أثر كبير في بناء سياسة الإفقار الاجتماعي لأبناء منطقة الجزيرة السورية، وبخاصة في قضية تعليم المرأة وتمكينها اجتماعياً، إذ بلغت نسبة حضورها في التعليم الإعدادي في مدينة دير الزور (39 بالمئة)، بينما كانت نسبتها في اللاذقية (50 بالمئة تقريباً)، أما بالنسبة إلى حضور الإناث في المرحلة الثانوية في مدينة دير الزور فبلغ (6,39 بالمئة)، مقابل (7,53 بالمئة) في اللاذقية⁽³²⁾.

لا شك في أن حرمان الإناث في الجزيرة السورية من الالتحاق بالتعليم، أدى إلى تفشي الأمية، لتشكل النسبة الكبرى في معدل أمية المرأة السورية، فبينما بلغت نسبة أمية المرأة في اللاذقية (13 بالمئة)، فإن نسبتها في دير الزور وصلت إلى (1,34 بالمئة)⁽³³⁾. وهذه النسبة العالية أفضت بالضرورة إلى حرمانها من حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كغيرها من نساء سورية، وتركت أثراً كبيراً في حياتها الأسرية والاجتماعية، ما أسهم في إعاقة تنمية المنطقة وتكريس تخلفها عن المناطق السورية الأخرى، وهو الهدف الرئيس لسياسة الإفقار التي طبقها النظام الأسد تجاه منطقة الجزيرة منذ تسلمه السلطة من 1970 حتى 2010.

الموزع بالتساوي، ومؤشر التحصيل التعليمي بالتساوي، ومؤشر الدخل الموزع بالتساوي، ومؤشر الحرمان من مستوى المعيشة اللائق، ومؤشر الفقر البشري. ينظر: جمال باروت وآخرون التعليم والتنمية نحو كفاءة أفضل، ص-202 206.

(30) ينظر: مجموعة من المؤلفين، التقرير الوطني الثالث للأهداف التنموية للألفية في الجمهورية العربية السورية، البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، 2010، ص28. وعصام الشيخ أوغلي وفؤاد اسماعيل، تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية دراسة مقارنة (1994 – 2004)، ص41.

(31) منها مفاضلة القبول الجامعي الخاصة بأبناء المناطق النامية، ولاحقاً المرسوم التشريعي رقم 4 لعام 2004 الخاص بالعاملين بوظائف تعليمية في المناطق النائية.

(32) جمال باروت، التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، ص151.

(33) عصام الشيخ أوغلي وفؤاد اسماعيل، تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية دراسة مقارنة (1994 – 2004)، ص41.

لم تقتصر استفادة النظام الأسد في تطبيق سياساته التعليمية التمييزية القائمة على التجهيل والإفقار تجاه الجزيرة السورية في جعل أبنائها عبيدًا لسياسات نهيه للمنطقة اقتصاديًا، لضمان ولائهم سياسيًا وأبديًا، بل وظّف هذه السياسة التعليمية التمييزية في تفسير ثورة أبناء هذه المنطقة وخروجهم على نظام حكمه، واتخذها ذريعة لاتهم أهلها بالإرهاب عندما خرجوا مطالبين بالحرية والكرامة والعدالة عام 2011، وترى إحدى الدراسات الصادرة من أهم مراكزه البحثية التي تتساءل بعد مطابقة خريطة عدم الاستقرار الأمني الذي شهدته المناطق السورية مع مستويات التعليم في هذه المناطق ومؤثراته، فتتساءل هل يمكن القول مثلاً: إن مستويات التعليم المرتفعة في دير عطية وطرطوس واللاذقية والسويداء ودمشق كان لها تأثيرها في عدم تكوينها لبيئات حاضنة للإرهاب أو على الأقل مقاومة لانتشاره وسيطرته، بالمقابل هل معدلات الأمية المرتفعة في محافظات إدلب ودير الزور والرقّة وريف حلب ودرعا وانخفاض مستويات التعليم كان لها دورها في تشكيل بيئات حاضنة للإرهاب؟⁽³⁴⁾

سادساً: الخاتمة

لا شك في أن السياسة التربوية التي طبقها النظام الأسد في مدى أربعين عامًا (1970 – 2010م) تجاه الجزيرة السورية، ليست إلا جزءًا من سياساته التمييزية العامة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وإداريًا وقانونيًا وديموغرافيًا وغيرها. فلم يسعّ التعليم في المرحلة الأسدية إلى بناء الإنسان الواعي فكريًا واجتماعيًا وأخلاقيًا وجماليًا، كي يكون المواطن السوري فاعلاً ومشاركًا في حياته الوطنية والإنسانية، بل كان تعليمًا أيديولوجيًا مغلقًا جعل فيه النظام الأسد تعليم السوريين مطية للتربية على الاستبداد وتكريس ثقافة الطاعة والولاء الأعلى للنظام الدكتاتوري في وجدان النشء السوري، إذ مثلت هذه الشريحة الأوسع في البنية الاجتماعية السورية هدفًا أساسيًا للسياسات الأسدية التعليمية كي تصنع منهم جيلاً كاملاً من السوريين لا يرى في الأسد (الأب والابن) إلا صانعاً لحاضر سورية ومستقبلها بل حتى ماضيها.

صاغ النظام الأسد سياساته التعليمية على أساس مناطقي وفقاً لأهدافه التسلطية التي تضمن له البقاء الأبدي في السلطة، فلم يكن اهتمامه بالتعليم في المدن الساحلية إلا لتشجيع أبنائها لدخول الحياة العسكرية والأمنية التي شكلت النواة الصلبة لسورية الأسد. ولم تنل المحافظات

(34) مجموعة باحثين، «التعليم في سورية بين نمطية التحليل وأفق الأهداف»، سلسلة قضايا التنمية البشرية، العدد الثالث، مداد: مركز دمشق للأبحاث والدراسات، 2018م، ص 39.

الكبرى والصغرى وأريافهما مستوى التعليم المتوسط إلا لدفع أبنائها ليكونوا موظفين صغاراً يهتفون لأبدية سورية الأسدية. ولم يكن تطبيق سياسة التجهيل والإفقار تجاه المنطقة الشرقية إلا لإبقاء أهلها عبيداً لسلطة الأسد الأبدية أو مهاجرين خارج حدود بلادهم، تاركين خيارات أراضهم وكنوزها الدفينة لقمة سائغة لنظام الأسد الذي كانت نظرفته إلى تلك المنطقة الجغرافية من سورية نظرة طمع في خيراتها، وقد أدرك هذا النظام في وقت باكر من حكمه أن هدفه في الاستحواذ على ثروات تلك المنطقة واستمرار استغلالها ونهبها أطول مدة ممكنة؛ لن يتحقق إلا بصناعة تخلف أهلها في المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والتربوية كافة، وهي الحجة -أي التخلف الاجتماعي والفكري- التي يستخدمها النظام الأسد لتبرير حالة التخلف التعليمي للمنطقة الشرقية التي يقر بها هذا النظام سواء في إحصاءاته الحكومية أم دراساته العلمية التي تصدر من مؤسساته الرسمية، على الرغم من أن الحالة المذكورة لم تكن إلا نتاجاً طبيعياً لسياساته المختلفة وجزءاً منها، بل أداة فاعلة لها في صناعة تخلفها العام.

وإذا كان هذا حال منطقة الجزيرة السورية بعد أربعين سنة من إطلاق النظام الأسدسي سياساته الخاصة بها تحت اسم المنطقة النامية أو النائية التي بينتها إحصاءات النظام الرسمية الصادرة من المكتب المركزي للإحصاء، فإن ما خفي أعظم، وما لم تذكره هذه الإحصاءات أخطر، وما مصير المنطقة الحالي المدمر إلا نتيجة تلك السياسات التمييزية الإقصائية التي كانت المنظومة التعليمية -القائمة على سياسة التجهيل- إحدى أهم أدواته في صناعة التخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وغيره.

المصادر والمراجع

1. الرز. ماهر وعبير الحداد، «دراسة تحليلية حول التعليم الأساسي»، المكتب المركزي للإحصاء والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب المركزي للإحصاء.
2. الشيخ أوغلي. عصام وفؤاد اسماعيل، «تطور التركيب التعليمي لسكان الجمهورية العربية السورية: دراسة مقارنة (1994 – 2004)»، المكتب المركزي للإحصاء، (2007).
3. الليثي. هبة وخالد أبو اسماعيل، الفقر في سورية: 1996 – 2004، (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2005).
4. باروت. جمال، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية: إشكالية التحول من البدونة إلى العمران الحضري، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
5. باروت. جمال وآخرون، التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل، (البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، 2005).
6. الجابري. محمد عابد، حفريات في الذاكرة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997).
7. شريقي. مدى، تطور الخصوبة السكانية في سورية منذ الاستقلال 1947 – 2005، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).
8. عباس. محمد خليل وآخرون، مدخل إلى مناهج البحث في التربية وعلم النفس، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2006).
9. مجموعة باحثين، «التعليم في سورية بين نمطية التحليل وأفق الأهداف»، سلسلة قضايا التنمية البشرية، ع:3، مداد: مركز دمشق للأبحاث والدراسات، (2018).
10. مجموعة من المؤلفين، التقرير الوطني الثالث للأهداف التنموية للألفية في الجمهورية العربية السورية، (البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، 2010).

المحور الرابع: تفاعل الجزيرة مع وقائع الثورة السورية وتطوراتها



تفاعل قبائل الجزيرة السورية مع الثورة وتطوراتها

أحمد الشامام⁽¹⁾

أولاً: ملخص

تمثل البقعة الواقعة شرقي نهر الفرات من سورية أو ما اصطلح عليه الجزيرة السورية بيئة اجتماعية ذات خصائص متقاربة من عادات وتقاليد وأحوال اجتماعية وثقافية، وخضعت لعوامل سياسية عدة، ولأن الغالبية السكانية هي لقبائل عربية، فقد حكمت القبلية كثيراً من تفاعلات المنطقة وأبنائها، ولا سيما مرحلة الثورة. يتناول البحث مواقف القبائل من الثورة السورية وأسباب كل منها، ودوافعه، ويرصد ممارسات القوى التي تبادلت السيطرة على هذه المنطقة وقبائلها لتجسيروها لمشروعاتها، وأثر انضمام هذه القبائل إليها. ويدرس البحث تبدلات هذه المواقف والعوامل بتغيرات تناوب قوى النظام ثم الثورة ثم تنظيم الدولة الإسلامية داعش، ثم (قوات حزب العمال التركي الكردية P.K.K) في السيطرة على المنطقة، ويسعى البحث إلى تفكيك بنية العلاقات البينية ضمن كل قبيلة، وبين القبائل المتجاورة، ومحاولة فهم البيئة القبلية بدلالة المواقف المتغيرة والمتبدلة تبعاً للظروف المحيطة بالقبيلة، ويذهب البحث إلى أن أي قبيلة من القبائل لم تعد متماسكة ولا موحدة الموقف قبالة المشكلات العارضة أغلبها، وما عادت تتقدم وتراجع ككتلة واحدة متسقة وفقاً للصورة القديمة القارة في الأذهان في حروب القبائل، وأن تفاعلها مع أي حدث لا ينتج موقفاً واحداً بل تشظيلاً وتفرقاً، وأن القبيلة حملت في مخيالها الجمعي كثيراً من القيم من مثل الأصالة والنخوة والشرف والكرم، واختزنت في بنيتها العميقة ذهنية الغنيمة والاستحواذ والنكاية والعصبية، ولا يمكن التعويل عليها بوصفها كتلة في أي مشروع سياسي خلافاً لأبناء القبائل ونخبها الجديدة التي تنحو المدنية في نشاطها الاقتصادي والثقافي، ولا تعتمد العصبية والنزعة القبلية رصيماً لها.

(1) كاتب وشاعر سوري.

ثانيًا: مقدمة

عانت القبيلة في عهد البعث سياسةً مركبةً لجهة تجهيلها، ولجهة تكريسها في أوساطها عبر ربط أبنائها بشيوخهم المرتبطين بالنظام عبر أجهزة أمنية احترفت تأطيرهم للسيطرة على قبائلهم، ودُجّنت القبيلة وطُوّعت ذهنية الفلاحين - جمهور القبيلة - بعد قانون الإصلاح الزراعي وحل الملكية وتشكيل اتحاد الفلاحين، وعمل النظام على صنع وجاهات لتوزيع النفوذ ضمن القبيلة تحسبًا لخروج مشيخاتها عليه. اندلعت ثورات الربيع العربي الشعبية مطالبةً بالحرية والعدل وإسقاط الأنظمة، وانتفض الشعب السوري الذي عانى بطشًا مركبًا في عقود حكم البعث، ولعل مقولة إن الشعوب تجاوزت نخمها تلامس الحقيقة في مواطن كثيرة؛ إذ خرج جيل الشباب محطّمًا الأسوار التي طالما رزح تحت وطأتها آباء عانوا القسوة والظلم عقودًا، وسرعان ما انضم قسم من الآباء إلى الشباب مدفوعين بما خبروه من ظلم النظام، وانكسرت عقدة الخوف، فتهاوى النظام في مواقع كثيرة، وانحسرت سلطته إلى مساحة تقارب ثلث سورية. وكانت الرقة أول محافظة تسقط في يد الثورة، وحرّ ريف دير الزور، وأجزاء من الحسكة، وهي مناطق تقطنها القبائل، وشارك أبنائها من الشباب في بداية الحراك المدني، ثم اتسعت دائرة الحراك، ودخلت وجوه قبلية وفعاليات اجتماعية، ثم سُلحت الثورة مدفوعةً من بطش النظام والقتل المتعمد والاعتقال التعسفي والتصفية.

وانشطر المكون القبلي بين ثائر وموالٍ، وظهرت نوازع ودوافع قديمة وجديدة حكمت مواقف القبائل بأشكال وحوامل مختلفة، ولا سيما في غياب القانون سلطةً رادعة تحتكر العنف والبت في اختلاف المصالح. وهكذا ظهرت فصائل جديدة لم تشترك بالثورة، هدفها الانتفاع من الغنائم والنفط تحت شعار الثورة عمومًا، والمحافظة على منعة القبيلة في خطابها الداخلي المحلي، مقابل فصائل ثورية بات يخفت صوتها وسط فوضى التسليح في ظل عجزها عن تشكيل نظام قضائي مركزي ونظام مدني محلي يكونان مرجعية لها، ويضبطان عملها، الأمر الذي كان منوطًا بمؤسسات الثورة السياسية. يضاف إلى ذلك ظهور داعمين جدد وقوى جديدة دولية ومحلية، ثم دخل (تنظيم الدولة الإسلامية) المنطقة القبلية، وبسط سيطرته عليها، وهو بدوره حاول الاستثمار في القبيلة. وانطلاقًا من كون القادة العراقيين في تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام - داعش) ذوي منشأ قبلي، فقد استغل قاداته ذلك لتكوين بنية مماثلة، فخضعت القبيلة لاستقطاب داعش، وانخرط شيوخ ووجاهات وأفراد في صفوفها لغايات عدة، وعمل التنظيم على تنظيم بيعة له معلنة ومشهرة من شيوخ العشائر.

ومع بدء الحرب على التنظيم من قوات التحالف مستخدمة قوات حزب العمال التركي - كردية المنشأ والقيادة - وعلى الرغم من أنّ ذلك استفزاز لمشيخات القبائل من منظورهم القبلي والقومي،

وعلى الرغم من ارتكاب هذه القوات جرائم حرب بحق العرب⁽²⁾، فقد اختلفت المواقف منها اختلاف المواقف من النظام؛ ثم ما لبثت تلك القوات بعد زهوة انتصارها أن ضربت بقسوة كل مخالف فيها، ثم حذت حذو نظام بشار الأسد في إخضاع القبائل عبر ضم شيوخها ووجاهاتها وإبراز وجاهات جديدة، وضمها إلى منظومتها شكلياً لقاء بعض الامتيازات. في الطرف المقابل شكلت مجموعة من شيوخ القبائل أو فروع من بيوت المشيخة المؤيدة للثورة (مجلس القبائل السورية) في تركيا، وبات ينشط بهدف ألا يبقى تمثيل القبائل محصوراً فيمن كان مؤيداً للنظام.

ثالثاً: الإطار المنهجي للبحث

1. مشكلة البحث وتساؤلاته

دخلت الكيانات القبلية في الحدث السوري بثقلها كله، وانخرطت بنشاط عبر مشيخاتها وقواعدها، وتبدلت مواقفها تبعاً للقوى المسيطرة، وانشطرت على نفسها على الرغم من ظهورها كبنية صلبة متماسكة، وتناحرت في ما بينها، واختلفت دوافع المواقف وحواملها باختلاف القوى المسيطرة، الأمر الذي يضعنا أمام سؤال رئيس هو: كيف تفاعلت قبائل الجزيرة السورية مع الحدث السوري بتحولاتها المختلفة على الرغم من اشتراكها بذهنية واحدة؟ وهو ما يتفرع عنه أسئلة عدة: ما عوامل هذا التفاعل ودوافعه؟ وما مدى تأثيرات هذا التفاعل في بنية القبيلة وتغير ذهنيته وانعكاساته في تماسكها وأشكال تعاضدها؟

2. أهداف البحث

- أ. التعرف إلى مواقف القبائل في الثورة وتفكيكها.
- ب. تحليل هذه المواقف، ودراسة انعكاساتها بتغير موازين القوى في المنطقة، وتتبع تأثيراتها في الجماعات البشرية الأصغر ضمن القبيلة.
- ت. دراسة دوافع المواقف المتنوعة، وحالات التشظي ضمن القبيلة ودلالاتها.

(2) د.م، «لم يعد لنا مكان نذهب إليه»، منظمة العفو الدولية إنمستي، (2015)، <https://cutt.us/Ppoa6>

3. منهج البحث

إن البحث الذي يدرس القبيلة بوصفها كياناً اجتماعياً له أثره الذي طبع به منطقته وحكم مواقفها في حدثٍ من مثل الثورة السورية، لا بد أن يجمع بين الدراسات السياسية والاجتماعية والتاريخية؛ لذا وجدنا أنه لا يمكن اعتماد منهج واحد، بل اعتماد مركّبٍ منهجيٍّ يجمع بين المنهجين الوصفي والتحليلي وأداة المقابلة الشخصية.

المنهج الوصفي: يمكننا من وصف موقف القبائل والعشائر⁽³⁾ من الثورة السورية، ورصد مواقفها المتغيرة، والمنهج التحليلي يحلّل مواقف القبائل وأسباب تحولاتها عبر دراسة العلاقات ضمن القبيلة وعشائرها ومحيطها، وتحليل التوازنات ضمن القبيلة الواحدة، وبين العشائر المكونة لها، وبين القبائل في منطقة جغرافية محددة.

أما المقابلة الشخصية فهي للحصول على معلومات من المجتمع المستهدف لعينتنا أو من يمثلها من الشخصيات الاعتبارية.

4. أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يحاول التعرف إلى بنية العشائر المكونة للقبيلة، ومدى تركز العصبية القبلية في ذهنيتهما، واختلافات نسبهما بين عشيرة وأخرى ضمن القبيلة وبين قبيلة وأخرى. ويدرس أثر اختلاف مستويات معيشة أبنائها في الاصطفافات الطبقيّة ضمنها. ويعمل على تحليل العلاقات المتشعبة داخلها ومع محيطها سعياً للوصول إلى مقارنة القبيلة بدلالة موقفها ودوافعه.

ويحيل البحث إلى ضرورة تمييز الانتماء القبلي بشكله العام الرمزي، عن النزعة القبلية الحاكمة والناظمة لنشاط أبناء القبائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في محيطهم، وإلى دراسة فاعلية تشكل أنساق جديدة ضمن القبيلة في مرحلة الثورة وظهور نزعات جماعية خرجت عن شكلها التقليدي الموروث في مستوى علاقاتها وطموحاتها.

وتكمن أهمية البحث في دراسة إمكانية مدى حمل القبيلة مشروعاً سياسياً وطنياً، ومعرفة مدى انخراط أبناء المجتمع القبلي في مشروع تغيير الذهنية القبلية وعطالتها، سعياً للتفكير في سبل تثوير أبناء القبائل والتنوير الذي يروم الارتقاء بالبيئة القبلية عموماً للتوائم مع متطلبات الدولة الوطنية الحديثة.

(3) غالباً ما ذكرت القبيلة بصورة مرادفة للعشيرة في المجال التداولي لاشتراكهما في الدلالة نفسها معرفياً، لكن القبيلة أكبر من العشيرة، وتتألف من عشائر عدة تتفرع كلّ منها إلى أفخاذ. وقد أوردنا في بحثنا القبيلة بدلالة ضمها لعشائر أخرى، وأوردنا العشيرة بوصفها إحدى العشائر التابعة للقبيلة المدروسة.

5. صعوبات البحث

واجه البحث صعوبات عدة، منها قصر الفترة المدروسة وراهنيتها، وقلة المراجع والدراسات التي ترصد قبائل الجزيرة ومواقفها السياسية؛ لذا لجأ الباحث إلى المقابلات المباشرة مع شخصيات حضرت عياناً أو شاركت في مواقف تلك القبائل، وناشطين محيطين بها ممن اتفقوا معها أو اختلفوا من مثقفين وكتاب وثور من أبناء القبائل. ومن بين أهم الصعوبات التي واجهها البحث في التواصل مع كثير من الناشطين تخوفهم من ورود أسمائهم في البحث وتهيبهم من المحيط القبلي، على الرغم من وجود بعضهم في بيئات بعيدة عن قبائلهم في بلدان المهجر.

رابعاً: دراسات سابقة

تعد القبيلة أحد مكونات المجتمع العربي وأحد تعبيراته الاجتماعية؛ لذا اهتمت دراسات عدة بها من حيث أدوارها وتاريخها وتأثيراتها، وقد اخترنا اثنتين من هذه الدراسات التي ترتبط بموضوع بحثنا ارتباطاً مباشراً، وهي:

1. العشائر والثورة السورية، الأدوار والإمكانات⁽⁴⁾

يهدف التعرف إلى الاستخدام السياسي للعشائر منذ عام 2011، خلص الباحث (رشيد الحاج صالح) إلى وجودها الرمزي، وفقدانها ثقلاً سياسياً حقيقياً، وإلى نضوب رصيدها لدى أبنائها معظمهم؛ إذ لم يعد لهم أي اهتمام بالهوية العشائرية بصفتها هوية سياسية. واستناداً إلى فقدانها وسائل التأثير الممكنة من عمل مؤسسي يقوم به جهاز الدولة، فقد توصل إلى استنتاج أن لا دور محتملاً لها، وأثبت دورها كمطية لمشروعات سياسية لمختلف القوى المتنازعة على الأرض السورية.

يُحسب للباحث أنه منذ البداية عني بدور العشيرة بوصفها أداة للهيمنة، وبأهميتها التي اكتسبتها كوسيلة في تصارع القوى التي عملت على استثمارها في مشروعات سياسية شتى بالمنطقة.

تنطلق الدراسة من أن العشيرة كيان سياسي، وهو أمر نختلف معه فيه، على الرغم من تحليله

(4) رشيد الحاج صالح، «العشائر والثورة السورية: الأدوار والإمكانات»، مجلة قلمون، ع: 5، (إسطنبول/ الدوحة: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2018)، ص 448.

الدقيق لموقفها، وتسليطه الضوء على استخدامها أداة، وهو ما ذهب إليه منذ بداية بحثه؛ لكنه عدّها كياناً سياسياً مُهيمنًا عليه، بينما نرى أن العشيرة هي موضوع سياسي أكثر من كونها كياناً سياسياً، حتى إن كان مُتحكِّماً فيه، وبحسب للباحث في بحثه القيم تمييزه بين الوجود المعنوي والرمزي للعشيرة، والوجود والدور السياسي والاقتصادي الوظيفي لها.

وقد أفرد فقرة مستقلة لموضوع تمدين المجتمع والأرياف من جانب النظام، بقصد دراسة أحد التغييرات التي طرأت على بنية القبيلة وعلاقاتها ووضعها الاقتصادي والتواصلي. ونتفق معه جزئياً في ذلك، لكنه أغفل الإشارة إلى أن التمدين كان اقتصادياً وأداتياً؛ بهدف تطوير اقتصاد النظام، واختراق الريف لاستغلاله واستثماره بما يصب في مصلحته، وتقوية رأسماله الرمزي، وتطويع مخيلة أبناء الريف عمومًا، وإيهامهم بحدوث تنمية. وقد تساوق هذا الفعل مع عمل النظام على مبدأ آخر أكثر عمقاً وتأثيراً في مستوى الدولة، وهو تعريف المدينة في مستوى سورية، ليواجه تحولات التمدين الذاتي وإمكاناته لدى المدينة وأبنائها وطبقاتها، وإرباك قيم التواصل الحضري الذي يستبطن التعدد والاختلاف والتجانس العام في آن معاً. وليس بخافٍ أن المدينة أس الدولة من حيث إنها الشكل الأرقى للتفاعل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكسر نمط العلاقات المبنية على القربى والعصبية، فضلاً على أن الباحث في سرده بعض الأحداث قد وقع في بعض الأخطاء، وهي:

أ. أوردت الدراسة أن تمويل نشاط (حميدي دهام الجربا) العسكري والسياسي هو من ميسوري الحال من أبناء قبيلته شمر، ويبدو أن الباحث اعتمد تصريحات حميدي في لقاءاته التلفزيونية⁽⁵⁾، بينما نجد أنّ تمويل حميدي الدهام الجربا كان حقيقةً ممّا حصّله من تمويلات سابقة على الثورة السورية في سني خروجه من سورية، خصوصاً إقامته في الأردن، حتى بلغت قدرته المالية درجة توزيع الأموال على شخصيات من قبيلته، كذلك ممّا حصّله في مرحلة الثورة من خلال حصته الهائلة من آبار النفط التي مُنحت له لقاء مشاركته (قسد) في نهاية 2013.

ب. تحدثت الدراسة عن تزايد رصيد قوات (وحدات حماية الشعب) الكردية التي شكلها حزب العمال الكردي وقتاله جبهة النصرة برأس العين غرب الحسكة، لكننا نرى أن تلك (الوحدات) شكلها النظام لقتال الجيش الحر، وقد كانت في بلدة (رأس العين) متفقة مع (جبهة النصرة) على عدم القتال، وحصلت الهدنة بعد محادثات أجراها المعارضان (ميشيل كيلو وعبد الباري عثمان) مع الطرفين، وعادت تلك الوحدات إلى نقضها حتى رعت (جبهة النصرة) اتفاق الهدنة

(5) رابط المراقبة التلفزيونية التي أورد فيها أن تمويله ذاتي: <https://cutt.us/aWI7C>

بين الجيش الحر و(الوحدات الكردية) في المعركة الثالثة⁽⁶⁾ 2012، وكانت (جبهة النصرة) هي الطرف الضامن في الاتفاق المذكور، وتقاسمت في ما بعد مع مليشيات حزب العمال الكردية المزرعة الليبية للأبقار في تل تمر ربيع 2012.

ج. على الرغم من تعرية (رشيد الحاج صالح) ممارسات قسد، إلا أنه أورد أن الأكراد بمواجهة تنظيم داعش وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التعاون مع العشائر العربية للمساعدة في إدارة المناطق، وهذا سبب تشكيل (قسد). لكننا نقترح التصويب الآتي: تشكلت (قسد) بتوجيه أميركي لمليشيا مشكلة من قبل حزب لا يمثل الأكراد، وبطشت بمخالفها كلهم، ولم تضم عرباً لا شركاء ولا مستخدمين عبر سنوات سيطرتها الأولى، بل اعتمدت العنصر الكردي حصراً حتى بسطت سيطرتها، ففرضت التجنيد الإجباري على العرب وغيرهم، ثم قبلت المتطوعين منهم برواتب، وأشركت وجهات قبلية في مشروعها ذي القيادة والرؤية الخاصة بحزب العمال الكردي التركي شكلاً ومضموناً، ولم يكن هؤلاء حتى الآن سوى رتوش تجميلية.

2. القبيلة والسياسة في سورية⁽⁷⁾

بهدف بناء تصور ومعرفة أكثر دقة وقرباً من واقع العشيرة وبنيتها وتحولاتها عبر مراحل مختلفة، ودراسة الدور الذي لعبته في شرق سورية -دير الزور- إبان الثورة السورية، والصراعات الناجمة عنها، للوصول إلى فهم يساعد في استشراق دورها مستقبلاً؛ خلص الباحث (مناف الحمد) إلى جملة استنتاجات:

- أ. شكل القبيلة متحول، وقدرتها على التكيف محمولة على ترابطها ورصيدها المتبقي، وتتبع المشيخات مصالحها غالباً.
- ب. محافظة القبائل على دور لها على الرغم من تشظيها. ولئلا يستخدم هذا الدور سلبيًا، افترض الباحث لها دوراً مهماً في التغيير لأجل دمجها في أي عمل وطني حقيقي عبر مثقفها الذين عليهم حمل هذه المسؤولية.

وخلص الباحث إلى أن الانتماء القبلي متجذر لدرجة يصعب اجتثاثه، ونختلف معه في وصف (صعوبة اجتثاثه)، لأن تلطيف حدة هذا التجذر وشكله مشروط بالبرامج الاجتماعية والاقتصادية المدنية والدولية التي يمكن أن تغير في مستوى هذا الانتماء وأثره وعمقه. ولعل الباحث عني بالانتماء القبلي الشعور المشترك لدى أبناء القبائل بالاعتزاز بأصولهم القبلية وأنسابهم في مجتمع شرقي يولي

(6) يظهر في الروابط أدناه أحد قادة النصرة يتلو بيان الاتفاق بتوقيع الطرفين، ويظهر تحفظ الطرفين على ذكر الطرف الضامن، أي جبهة النصرة: <https://cutt.us/11Nt2> ، <https://cutt.us/Cmpmm>

(7) مناف الحمد، «القبيلة والسياسة في سوريا-تحولات البنية وتنوع الدور دير الزور نموذجاً»، (إسطنبول/ الدوحة: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، تشرين الثاني/ نوفمبر، 2021)، <https://cutt.us/9EEIq>

الأصل والنسب اهتمامًا كبيرًا، وليس النزعة القبلية التي نرى أنها موجودة، لكننا ندعي أنها باتت أضعف مما مضى لأسباب عدة منها: نشوء نخب جديدة لا تعتمد القبيلة رصيدًا لها في فعاليتها الاجتماعية ونشاطها الحياتي والسياسي، إضافة إلى انخفاض مستوى التواصل والتآزر ضمن القبيلة والعشيرة إلى مستوى الجماعات الأصغر في أجزاء العشيرة من مثل الأفخاذ والبطون والعائلات، ولم تعد تظهر تلك النزعة إلا في النزاعات الحادة ذات الطابع القبلي التي تنذر باقتتال أو تصل إليه، خصوصًا أن استقرار القبيلة في منطقة ما قد أنتج تخالفًا في المصالح وطرق تحقيقها بين أفرادها وجماعاتها، وأصبحت الحياة اليومية الأرضية الواقعية لصور التناوب والاختلاف كلها في معيش أفرادها اليومي واختلاف مصالحهم.

ونتفق مع ما اقترحه الباحث في السعي إلى دمج القبيلة في مجتمع الدولة عبر خلق شبكات ثقة تطرح نفسها بديلة من شبكة الثقة التقليدية ضمن القبيلة أساسًا لبناء دولة ديمقراطية تبنى أساسًا على الثقة بين مواطنيها ونظامها.

خامسًا: الإطار العملي للبحث

تتصف محافظات الحسكة ودير الزور والرقعة - مع جزء من ريف حلب الجنوبي والشرقي - بوجود قبائل مستقرة تجمعها حزمة صفات متقاربة، وعاشت تحولات الحدث السوري، وقد اختلفت مواقفها من الثورة السورية، فتناوبت السيطرة عليها قوى عدة: الجيش الحر، ثم تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، ثم قوات حزب العمال التركي الكردية التي سُميت في ما بعد بـ(قسد). اتجه البحث إلى عينات تتضمن سياقات تحول ودوافع وحوامل مختلفة، ولاحتواء كل منها على عامل يستدعي التحليل من حيوية وتحول أو ثبات، وقد تكونت عينة البحث من ست قبائل منتشرة في محافظات (شرق الفرات) أو ما اصطلح على تسميته (الجزيرة)، وهي: (شمر) و(طيء) في الحسكة - القامشلي، و(العكيدات) و(البكارة) في دير الزور، و(الولدة) و(العفادلة) في الرقعة، وهي عينات بحثية لا تعني دراستنا إياها بالضرورة أنها تمثل أكثرية قبلية على قبائل لم يتناولها البحث.

1. محافظة الحسكة – القامشلي وريفها

قبيلة شمر⁽⁸⁾: تعد من القبائل قليلة العدد في محافظة الحسكة - في أعلى تقديرات أبنائها بحدود 20 ألفاً⁽⁹⁾ - تعيش بجوار قبائل تعداد أي منها يصل إلى 100-130 ألفاً، وهي قبيلة قوية التأثير في تحالفاتها وسياساتها، وتضمّر بنيتها ومخيلاتها وعلاقاتها المتشعبة ما يدعو إلى دراستها.

تنظر شمر إلى نفسها على أنها ذات طابع بدوي لا تشاركها بقية القبائل فيه إلا قبيلة عنزة، وانعكس ذلك في الزيجات المنحصرة ضمنها فقط أو بين القبيلتين، انطلاقاً من عدّها نفسها قبيلة بدوية وبقية القبائل (ديرية)⁽¹⁰⁾. ولئن قيل إن حدود الدول ترسم بالدم، فإن حدود القبائل رسمتها الدماء كذلك، وقد قر هذا في الضمير الجمعي لأبناء القبيلة عموماً، حتى إذا سُئل الشمر عن أصله في دول الخليج يجيب أنه من جزيرة (غلبة)، أي الجزيرة السورية التي غلبت بها شمر أهل الديار واستوطنتها ضمن أدبياتها الداخلية⁽¹¹⁾. وعلى الرغم من أن الغزو والغلبة عادة القبائل، لكن ما تكرر في مخيلاتها قدومها من هضبة نجد موطناً للبدو رعاة الإبل الذين هم أكثر غلظة وشجاعة وشظفًا وكرماً إلى أرض قبائل تعيش على رعي الأغنام والزراعة. وهذا التعالي له أصل لدى ابن خلدون الذي ميز البدو من غيرهم⁽¹²⁾. ويرأس القبيلة الشيخ (حميدي دهام الهادي الجربا) بن (دهام الهادي الجربا) الذي كان عضواً في الكتلة الوطنية التي رفضت قرارات الاحتلال الفرنسي لتقسيم سوريا، ونُفي مع رموز في الكتلة الوطنية إلى جزيرة كمران التابعة لليمن في البحر الأحمر 1939.

وبموجب علاقة قبيلة شمر مع الخليج كانت علاقة وجهائها قوية مع النظام في سورية، وبقي شيوخ القبيلة وأبنائها في يسر اقتصادي لا يضطرهم إلى العمل في أي مهنة سوى الإشراف على زراعة أراضيهم إضافة إلى المال الوافد من الخليج. كان عام 2003 نقطة فارقة في تحول علاقة شمر مع النظام، فبعد احتلال بغداد سافر شيخها (حميدي الدهام الجربا) إلى العراق سعياً لرئاسته اعتماداً على ثقل شمر هناك وعلى علاقاته الوثيقة مع (مسعود البرزاني)، لكنه قوبل برفض من شمر العراق. وتبنى خطاب العداء لـ (حزب البعث العربي الاشتراكي) الحاكم في العراق وسورية، بما فيه من إشادة بأميركا لإسقاطها الجناح العراقي للبعث، وتبنّ لدعوته إسقاطه في سورية أيضاً، ما شكل قطيعة بينه

(8) إن ما نورد في وصف شمر وعقليتها وسياساتها في الحسكة لا يسري على أجزاء شمر في محافظات سورية أخرى.

(9) أحمد الشام، مقابلة مع أحد أبناء شمر، عبر الواتساب، (2022/2/14).

(10) ديرية بكسر الدال، وهي كلمة مشتقة من أهل الديار، الديرة مشتقة من الديار، وهي المنطقة التي تشغلها القبائل المستقرة سابقاً.

(11) أحمد الشام، مقابلة مع أحد أبناء شمر في سورية، عبر الواتساب، (2022/2/1)، ولا تظهر تلك المقولة إلا بين أبناء القبيلة، ولا تقال خارجها احتراماً.

(12) ابن خلدون، المقدمة، ط1، (بيروت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1978)، ص 122.

وبين النظام، وبقي متنقلاً بين العراق وقطر، ثم استقر في الأردن، ومن هناك سافر إلى ليبيا للحصول على تمويل من القذافي⁽¹³⁾، ثم عاد إلى سورية بوساطة قطرية 2008، وعند اندلاع الثورة السورية غارد دمشق إلى قريته في ريف القامشلي - ناحية اليعربية.

تمثل شمر مثلاً دقيقاً للتعصب القبلي، وتعيش ضمن فضائها وعالمها الخاص وشبكة علاقاتها التي تضع القبيلة فوق أي اعتبار، والتزم أطرافها ووجاهاتها بموقف شيخها الذي حمل طموحاً سياسياً وظف القبيلة لغاياته، مستمداً من تاريخها ما يدفعهم إلى الالتفاف حول من يسعى لتحقيق مأرب تفاخر به، وتنتفع منه؛ خصوصاً أنه لا يتطلب دماً تقدمه، بل عبر مغامرات سياسية يلزمها التحزب لا أكثر. لزم حميدي منزله بعد تقدم فصائل الجيش الحر وتحرير ريف القامشلي حتى معبر اليعربية، تواصل مع الفصائل حرصاً منه على تجنب قبيلته أي تجاوز قد يصدر عن أي فصيل⁽¹⁴⁾، أما فصائل الجيش الحر من أبناء القبائل الأخرى ذات الأثرية السكانية في المنطقة فقد تجنبته ضمن سياسة عدم الاصطدام بشيوخ القبائل نزاعاً لفتيل فتنة تصب في صالح النظام. وعلى صعيد القواعد دخل جزء من شباب شمر في الثورة، ومعظمهم من ذوي التوجه الإسلامي، ما دفع حميدي إلى دعوة وجهاء القبيلة ومطالبهم بالالتزام بمصلحة شمر، وعدم التشتت خلف أي مبدأ يضر بمصلحة شمر.

وفي ما بعد تشكل من قبيلة شمر فصيلان في الجيش الحر، هما: (كتيبة صقور سنجار) ضمت مقاتلين من خارج شمر بقيادة (مثقال كلمن الجربا)، بعد تحرير اليعربية استولى على آبار نفطية عدة في قرى (تل مشحن) و(علي آغا)، ثم صالح القوات الكردية حتى قبل تقدمها نحو بلدة اليعربية؛ والثاني هو (لواء أحرار الجزيرة) ضم 23 مسلحاً فقط؛ بقيادة (عبد الرحمن النواف العواصي وهو أخو علي العواصي مدير مكتب أحمد الجربا) في قرى شمر، ولم يشارك المذكور بمعارك التحرير، وبعد تحرر اليعربية على أيدي (جبهة النصرة وكتائب الفاروق) استولى على كثير من آبار النفط التابعة لحقول نفط (رميلان)، حتى صار يهدي بعضاً من أبناء القبيلة حق التناوب على بعض الآبار ليستفيدوا منها، واستثمر صوامع حبوب (تل علو) ذات المخزون الاستراتيجي الكبير مع مركز إكثار البذار، وتبلغ طاقتها التخزينية 150 ألف طن من القمح⁽¹⁵⁾، وكان يحرسها ضمن عقد موقع عليه بينه وبين محافظ الحسكة قبل التحرير، كما وقّع في اليعربية المحررة آنذاك بحضور الفصائل

(13) أحمد الشام، مقابلة مع حسن العبد الله في سورية عبر واتساب، (2022/2/15)، عن لقاء صرح به حميدي الدهام شخصياً له في إحدى الجلسات، وقال فيه إنه تسلم مساعدات من القذافي بلغت 200 مليون دولار، ويظن المتحدث أن المبلغ ضخم للغطية على مبالغ كسبها حميدي الدهام من حصته في النفط.

(14) تواصل حميدي الدهام مع الألوية القادمة من حلب من مثل (غرباء الشام)، وقيادات (كتائب الفاروق).

(15) كان الباحث بصفته مهندساً زراعياً موظفاً فيها سابقاً، ويعرف بدقة طاقتها التخزينية.

جميعها على عقد مع مندوبين عن النظام لحماية قوافل نقل الحبوب من العراق عبر معبر اليعربية، وإيصالها إلى حدود مدينة القامشلي⁽¹⁶⁾، وهرب للنظام جزءاً من مخزون الصوامع المذكورة عبر تجار مدنيين ضمن حركة البيع المستمرة لديه منها آنذاك. على الرغم من ذلك لم تصطدم الفصائل التي شاركت في الثورة مع الفصيل الذي يقوده (عبد الرحمن النواف) تجنباً لصراعات عشائرية تخدم نظام الأسد. أما (حميدي الدهام)، فقد حافظ على التواصل مع الجميع من دون خطة واضحة، إلى أن تقدمت قوات حزب العمال التركي لاحتلال (اليعربية - تل كوجر) بدعم من النظام، فدعا أبناء شمر - آنذاك - إلى عدم الدخول في قتال حزب العمال PKK المدعوم من نظام الأسد⁽¹⁷⁾.

يمكننا رصد موقفين لنخبة شمر القبلية في مرحلة الثورة؛ الأول: التقليدي المهادن لكل القوى بانتظار لحظة حسم بقيادة (حميدي الدهام)؛ والثاني: المحسوب على الثورة بقيادة (أحمد الجربا) عندما كان عضواً في الائتلاف ورئيساً له، ومدعوماً من السعودية سياسياً، ومتحكماً -استناداً إلى هذا الدعم- في الائتلاف وسياساته إلى حدٍ كبير. ومن أتباعه في محافظة الحسكة سائرها فصيل وحيد هو فصيل (أحرار الجزيرة) الذي يقوده (عبد الرحمن النواف)، ولا يتجاوز عدد أفراد 23 مسلحاً بمن فيهم حراس الآبار النفطية، والذي عُيِّن في هيئة التسليح في الأركان بالجيش الحر عبر علاقته الوظيفية مع (أحمد الجربا)، وبموجب ذلك تسلم شحنات سلاح تفوق أضعاف عدد أعضاء فصيله، وزع قسماً منها على أفراد من القبيلة لجلب تأييدهم لمشروع (أحمد الجربا) السياسي الذي ينازع حميدي الدهام في مركزه ودوره ضمن شمر من دون تصادم بين الاتجاهين.

شكل احتلال حزب العمال PKK بدعم من قوات الأسد بلدة اليعربية بمعبرها الحدودي مع العراق 2013 النقطة التي تكشف فيها رؤية قوى القبيلة الرسمية. أسلفنا أن (حميدي) وجّه بعدم المقاومة، وفي الجانب (الثوري) لم يشارك فصيل (أحرار الجزيرة) في الدفاع عن اليعربية، وبدوره طلب (أحمد الجربا) من شخصيات شمريّة في الجبهة عدم الدفاع عن اليعربية عند تقدم قوات حزب العمال لاحتلالها بدعم من قوات النظام ودباباته⁽¹⁸⁾.

حرص (أحمد الجربا) عبر وجوده في الائتلاف على تثبيت سياسة عدم تسليح ثوار الحسكة، وألزم قيادة الأركان التابعة للثورة بذلك، علماً أن تحرير بلدات (رأس العين) و(تل حميس) وريف القامشلي

(16) كان الباحث حاضراً الاتفاق في بلدة اليعربية حينئذ.

(17) كان اسمها قوات الحماية الشعبية YPG، وقوامها كوادر حزب العمال في تركيا وسورية، وقد سلحها نظام الأسد، وسلمها مقراته وسلاح كتائبه وحقول النفط والغاز بموجب عقود حماية، إضافة إلى تسليمها مفارزه الأمنية في شتى المدن باستثناء المربع الأمني بالقامشلي الذي يضم الفروع الأمنية، سميت بعد سنوات وبتوجيه من الأميركيين (قوات سوريا الديمقراطية) - (قسد) اختصاراً.

(18) أحمد الشام، مقابلة مع أحد أبناء شمر في سورية ممن كانوا في جبهة النصرة، عبر الواتساب، (2022/01/10).

الجنوبي ثم (اليعرية بمعبرها الحدودي مع العراق) كان قد تم بأسلحة فصائل ليست من الجزيرة؛ من مثل أحفاد الرسول، وغرباء الشام، وكتائب الفاروق، واللواء 313، وكان قتال ثوار الحسكة بسلاح فردي ومن هذه الفصائل⁽¹⁹⁾.

لم تشهد البقعة الجغرافية التي تقطنها قبيلة شمر مع بقية القبائل من (طيء، وشرابين، وجبور) في شرق الحسكة مرحلة طويلة من سيطرة داعش واستقراره، ولا سيما أن قيادة داعش وسطوته كانت في بلدة (الشداي) جنوب غربي الحسكة على حدود دير الزور، وقد أزاحت الحرب الدولية على داعش من تلك البقعة التي يقطنها شمر والقبائل المجاورة، مقابل تمدد حزب العمال الكردي على حسابها، لذا لم يخرج موقف القبيلة عن إطار تنسيقها واشتراكها مع (حزب العمال التركي الكردي) في الحرب ضد التنظيم المذكور. وقد شهدت مرحلة الحرب الدولية على داعش في جنوب الحسكة اتصالات وتنسيقات بين شمر الحسكة وشمر العراق، ومداولات لإنشاء إمارة شمر⁽²⁰⁾، ومُني المشروع بالفشل لعدم وجود راعٍ دولي.

شكل حميدي الدهام (قوات الصناديد) من أتباعه وفقراء منطقتهم بحوالي 250 فرداً⁽²¹⁾ لقاء رواتب، عبر التنسيق مع حزب العمال الذي منحه مجموعة من آبار النفط، وعُيّن رئيساً مشاركاً لإقليم الجزيرة، واشترك بقوة في سياسة (قسد) الإعلامية، والتصويت للفدرالية، وألف حزباً أسماه (حزب المحافظين الديمقراطي) 2017، وهو ما يُعدّ نقلة نحو تكوين واجهة سياسية رسمية تستقطب بعضاً من المخاتير وبعضاً من مثقفي العشائر الأخرى ومنتفعيها، ولم يشهد أثراً أو انتشاراً في المنطقة، وبقي محصوراً بنشاط (حميدي الدهام).

استثمرت (قسد) وجود (حميدي الدهام) الرمزي حتى استتب لها الأمر، ثم تخلت عنه مبقية على منزلته الرمزية من دون التعرض له، ثم خُفّضت حصته من حقول النفط في المنطقة. نحا بعد ذلك نحو النظام عبر وساطة عراقية من نافذين في قيادة مليشيا (الحشد الشعبي العراقي)، ليلتقي بالنظام والروسين في مطار (حميميم) لإعلان تأييده نظام الأسد والتفاوض حول دور يلعبه في المنطقة بوصفه ممثلاً للقبائل العربية كلها بحسب زعمه في 19 شباط/ فبراير 2019.

(19) كان المجلس العسكري لثوار الحسكة في رأس العين يستلم التسليح من لواء أحفاد الرسول في معاركه الثلاث مع حزب العمال الكردي المسلح من قبل نظام الأسد برأس العين بعد تحريرها من النظام 2012-2013.

(20) تداول ذلك عدد من أبناء شمر، وعبر حميدي الدهام في لقاء تلفزيوني عن أحقية التفكير في إمارة. المزيد في الرابط الآتي:
<https://www.youtube.com/watch?v=FQWOgHhF27U>

(21) أحمد الشام، مقابلة مع أحد منتسبي قوات الصناديد من أبناء قريته في سورية، عبر الوتساب، (2022/2/2).

حديثاً نشطت وجهات من شمر باتجاه تشكيل أحزاب جديدة تنافس (حميدي) صدارته للفعل القبلي التحشدي، وتحاول أن تجد لها مكاناً في أفق الحكم السياسي في الحسكة تحت سلطة (قسد)، وبتشجيع منها، مثل (حزب البناء والتطوير) بقيادة (قانع الحران) شقيق (رافع الحران) الذي يقود (جيش الفزعة) المشكل منذ سنتين بالتنسيق مع الأميركيين عبر (قسد) التي أسهمت في إبراز دوره بصفته نداءً محتملاً لـ (حميدي الجربا) بعد زيارة الأخير قاعدة (حميميم) الروسية في سورية، ويشغل (جيش الفزعة) بحماية الحدود، وينشط في أعمال التهريب عبر الحدود العراقية، وقد انسحب قسم كبير من متطوعي قوات (الصناديد) التابعة لحميدي الجربا، وانضموا إلى قوات (جيش الفزعة)⁽²²⁾.

في الضفة المقابلة، استثمر (أحمد الجربا) ما اقتطعه من مساعدات مالية للائتلاف⁽²³⁾، وما قدمته السعودية له هبات للعمل في مشروع مستقل؛ إذ بعد توتر علاقته مع تركيا، غادرها إلى مصر، وشكل (تيار الغد) 15 حزيران/ يونيو 2016، وعقد مؤتمره التأسيسي في القاهرة بحضور (محمد دحلان) وشخصيات تدل على ارتباطات التيار الدولية. استطاع اعتماداً على الدعم السعودي ضم بعض من معارضي النظام إلى تياره، ووضعهم في الحلقات القيادية الأولى التي تحيط به بصفته رئيساً، أما على صعيد القواعد، فقد اعتمد على بعض الناشطين الثوريين مع ناشطين في الداخل من غير ذوي الخبرة في مسيرته إبان عمله في الائتلاف، إذ انتسبت إلى تياره مجموعة كبيرة من حوالى 1500 شخص بحسب تصريح أحد أعضائه⁽²⁴⁾. وبعد لقائه مع أبرز قادة (قسد) (ألدار خليل) في القاهرة، وانكشف التنسيق بينهما، خرجت قواعد تياره معظمها (1200 عضو) دفعة واحدة⁽²⁵⁾ ببيان معلن أشير فيه إلى مناقضة أحمد الجربا الرؤية التأسيسية للتيار، ومبادئ الثورة عمومًا في 17 أيلول/ سبتمبر⁽²⁶⁾ 2016، ولم يبقَ في تياره إلا الدائرة المحيطة به في حلقة رئاسة التيار التي انفرط عقدها في ما بعد.

وكوّن (أحمد الجربا) ما سمي بـ (قوات النخبة) المسلحة جناحاً عسكرياً للتيار، ليقاتل داعش إلى جانب (قسد)، وسرعان ما انفصلت عنه هذه القوات، وانضمت إلى (قسد) برعاية أميركية في 26

(22) أحمد الشام، مقابلة مع أحد منتسبي جيش الفزعة -الصناديد سابقاً- في سورية، عبر الوتساب، (2022/3/24).

(23) من حديث رئيس الحكومة المؤقتة في جلسة مع مستشاريه -حضرها الباحث شخصياً- أشار إلى أن أحد التحويلات السعودية كانت بقدر 100 مليون دولار وضعها في حسابه البنكي، وبعد أن ناقشه أعضاء من الائتلاف حول نصفها إلى حساب الائتلاف، وأكد الحادثة أعضاء من الائتلاف.

(24) أحمد الشام، مقابلة مع مطيع السهو عضو المكتب الإعلامي للتيار في أورفا، في ألمانيا، (فيزيائية)، (2022/3/23)، ووردت المعلومات نفسها في لقائه في قناة حلب 24، <https://youtu.be/6OpNuG3jnXQ>.

(25) من لقاء ناشطي التيار المنسقين للانسحاب الجماعي، قناة الجسر الفضائية. <https://youtu.be/UEd77rrq3r0>.

(26) المصدر السابق نفسه.

آب/ أغسطس 2019. عقد (أحمد الجربا) في القاهرة عام 2017 مؤتمراً لتشكيل تحالف عشائري عربي «المجلس العربي في الجزيرة والفرات» دعماً لتياره (الغد) الذي انفطرت كتلته تقريباً، وفشل في إنجاز حشد شعبي للمجلس؛ إذ لم تشترك في المؤتمر سوى ثلاث وجاهات قبلية متفرقة من أوروبا مع أربعة من المثقفين المتنفعين، إضافة إلى بعض موظفي تياره، وقد كان ذلك محاولة منه لإيجاد حصة له للمشاركة مع (قسد) برعاية أميركا؛ لكنه فشل، فذهب باتجاه النقيض الكردي (لقسد) -أي المجلس الوطني الكردي- بمشاركة (المنظمة الأثرورية الديمقراطية) ليشكلاً معاً (جبهة الحرية والسلام) في تموز/ يوليو 2020. وزار موسكو للتنسيق مع روسيا بشأن دور الكتلة في الحل السوري، خصوصاً أنه اشترك مع تياره في سوتشي 2018.

ثوار شمر

لم يكن أبناء شمر أقل من غيرهم من أبناء القبائل ثواراً وشهداء، ودار سردنا السالف حول كتائب ذات طابع وحامل قبليين. ويلاحظ أن ثوار شمر قد ذهبوا باتجاه فصائل كبيرة ذات امتداد سوري اتقاء لشر التوجه العام للقبيلة وشيخها، إضافة إلى كون من تبني الثورة منهم وشارك فيها بجدارة كان إسلامي النهج غالباً، فانخرط جزء معتدل منهم في كتائب الفاروق، وذهب البقية للانضمام إلى (كتائب أحرار الشام)، و(جيش التوحيد)، و(جبهة النصرة). أما المثقفون، وقياساً بعددهم في القبيلة، فلم يشارك إلا قلة منهم في الثورة في شتى تحولاتها من التظاهرات إلى العسكرية، مع عجزهم عن الوقوف بوجه الاتجاه العام للقبيلة، وقد نشط بعضهم في الحراك السلمي خارج أرض القبيلة في مدينة القامشلي، أو في اليعربية في زمن تحررها بمجهودات مدنية وإغائية لتحاشي الاصطدام بأي من الوجاهات القبلية وأتباعها. أما بعض مثقفي قبيلة شمر، ممن اهتموا بالثورة السورية، وظهر طموحهم بدولة تعددية أو ليبرالية تتعالى على شتى الانتماءات الدينية والقومية، وانتقدوا الدكتاتورية ونظم الاستبداد؛ فقد كانوا يرفضون أي انتقاد لشيخ القبيلة (حميدي الدهام) أو (أحمد الجربا)، على الرغم من كونهم ليسوا محاطين ببيئة قبلية مثل المهاجرين في الخليج؛ بل من هاجروا إلى أوروبا⁽²⁷⁾.

(27) من منشورات فيسبوك لبعض مثقفها في أوروبا، ممن كان خطابهم مع الثورة.

قبيلة طيّ⁽²⁸⁾

تعد طيّ من كبريات القبائل العربية في الحسكة، وتضم عشائر كثيرة تتركز في مدينة القامشلي وجوارها، انضمت إليها عشائر كثيرة، وبقيت ضمن امتدادها، تعيش شعورًا بالتحقق على أراضيها، وهي في ثقافتها وتاريخها القديم ومسامها القبلي القديم (إمارة طيّ)، وتسمى في الثقافة الشائعة قبيلة طيء أو طي، وشيخها حتى الآن يقال له (أمير طي)، ما أكسبها مزية قدرتها على احتواء عشائر أخرى لتدخل في صلبها نسبيًا؛ فعند قدوم عشائر (الغنامة) و(البي سبعة) منذ قرنين وأكثر، و(حرب) و(البوعاص) و(المعامرة)⁽²⁹⁾ اندمجت في قبيلة طيء بقانون واحد ضمن (مضبطة) من دون تمييز ولا (خوة - أتاوة)، ومنحتها طيء جزءًا من أراضيها، ولها مضبطة عُرفت بين العشائر المشكّلة لها، والقبائل المجاورة حتى صارت مرجعية في التقاضي بين القبائل وضمها، ما أنتج توافقًا قبليًا في طيء وعشائرها، وبين طيء وقبائل لا تتبع لها أيضًا. ويُصادق على بنود المضبطة وتحديثاتها بأختام شيوخ عشائر طيء: (الجواله، الراشد، الحريث، اليسار، البوعاص، حرب، زبيد، الغنامة، معامرة طيء)، مع قبائل مستقلة من مثل (قبيلة الشرايين)، والأكراد من (آل حاجو)، و(الأكراد الآشيتية)⁽³⁰⁾.

إن استقرارها الزراعي في منطقة القامشلي وريفها بالشراكة والجوار الآمن مع سريان وأشوريين وأكراد وأرمن منذ قرن ونصف على الحدود التركية طبعها بطابع أقل عصبية. انحصرت المشيخة فيها في فخذ (العساف - عائلة العبد الرحمن) من دون منازع، وبقية عشائرها منضوية تحت هذه المشيخة، ولكل منها شيخ، ويشكلون (مجلس رؤوس طيء) الذي يُعقد عند وفاة الشيخ لتنصيب غيره. وقد عمل النظام على ربط شيوخ العشائر به من دون أن يمكن أحدهم الخروج عليه. انتهج النظام سياسة تعدد أجهزة الاستخبارات، وأن تعنى كل إدارة أمنية بطرف من أجل ربطهم بها، أو إشعار كل منهم بحضورها وتأثيرها، فضلًا على تسابق كل إدارة إلى دعم طرف على آخر تتبناه إدارة أمنية أخرى.

فرضت سطوة الأمن العسكري بقيادة (اللواء محمد منصور) نفسها على مفاصل الحياة في الحسكة منذ ثمانينيات القرن المنصرم، وفرضت على شيخ القبيلة (محمد الفارس العبد الرحمن) عدم الترشح أو الانسحاب في عدد من دورات مجلس الشعب، كان آخرها عام 1998 لصالح قائمة الجبهة التي أغلقت حينئذ. يمكن تمييز تلك المرحلة بتوتر العلاقة مع الإبقاء على بعض خطوط

(28) طيّ بتشديد الياء ووضع الهمزة على النبرة هو اسم القبيلة في معاجم اللغة العربية من مثل لسان العرب، وتاج العروس، ولكن نسائي القبائل ومثقفها وأبناءها وأبناء باقي القبائل تداولوا تسميتها (طيء) بلا شدة، وأحيانًا بلا همزة (طي) في مروياتهم كلها، حتى استقرت في الثقافة المتداولة كلها.

(29) معامرة طيء في القامشلي وريفها، وليست قبيلة المعامرة المستقلة عنها بالحسكة وخارجها.

(30) أحمد الشام، مقابلة مع الشيخ غوار الحسو في سورية، عبر الوتساب، (2022/2/12).

التواصل الشككية، الأمر الذي طبع نزوع شيخها (محمد الفارس) بالاكْتفاء بتوثيق العلاقة مع النظام ورجالاته مع طموح ومنافع شخصية من دون النزوع إلى لعب دور سياسي أكبر.

بعد أحداث الكرد في ملعب القامشلي 2004 تعززت علاقة الشيخ (محمد الفارس) مع الأمن العسكري والنظام، وانتهت الصراعات الداخلية لصالحه، ما أفرز نمطاً جديداً من العلاقات بين (محمد الفارس) والنظام الذي ظهر بمظهر الحامي له، وهو ما شكل استجابة لطموح وأطماع شخصية لديه، ومنفعة للنظام في تظهير قوة السلطة عبر أدوات أهلية من شأنها كبح جماح أي تهديد، ما شكل إضافة جديدة إلى آليات الحكم والقيادة لدى (محمد الفارس) في علاقاته ضمن قبيلته وجوارها من دون خروجها عن طموحه النفعي في إطار رجل قبيلة يمتح شرعيته من قبيلة تتخادم مع النظام.

إبان الثورة 2011 دخل (محمد الفارس) بثقله القبلي رفقة شيوخ (عشائر طيء) في حلف النظام، وقوى جبهة العشائر التي دعا إليها النظام، وشارك في تجميع أكبر عدد من شيوخ (عشائر طيء) والقبائل المجاورة للتعاون مع النظام الذي طلبهم مرات عدة لاجتماعات أمنية بدمشق. وفي قرية (جرمز) -المقر الرمزي لمضافة طيء- عقدت استخبارات النظام اجتماعات مع شيوخ العشائر لتأليها على الكرد الذين يتظاهرون ضد النظام -بحسب روايته- في محاولة استعادة لسيناريو 2004، لكن دخول شباب عربي من مختلف قبائل القامشلي وريفها وشباب طيء في التظاهرات كان عامل ردع، وأفشل المحاولة. وتسلم السلاح والمال أيضاً مع بقية شيوخ القبائل لترهيب المتظاهرين، ونسق مع شيوخ (عشائر طيء) ووجهاتها في الأرياف لتنشط بالتزامن معه ضد المتظاهرين ضمن الخط العام المناوئ للثورة، حينئذ ضربت جماعات بعثية من عشيرة (الجواله) -التي ضمت ثواراً من أبنائها في ما بعد- المتظاهرين نهاية 2011 في بلدة (القحطانية)، واشتركت في ما بعد عصابات من عشيرة (الغنامة) من مؤيدي النظام في محيط القامشلي بالقتال لصعد هجوم الجيش الحر على محيط القامشلي، على الرغم من وجود نخبة من أبناء عشيرتهم في الطرف المقابل، وشكل (محمد الفارس) مليشيات لمؤازرة النظام من مختلف عشائر طيء في الأرياف في مرحلة العسكرية، وقد سميت تلك المليشيات بداية بـ (كتائب الدفاع الوطني) ثم ربطت نفسها بالفروع الأمنية المختلفة بصورة مباشرة مع احتفاظها بالتنسيق المشترك مع شيخ طيء (محمد الفارس)، وصارت كل كتيبة منسوبة باسمها إلى الفرع الأمني الذي يشرف عليها من مثل (أنصار أمن الدولة) و(أنصار الأمن العسكري)، وقوام هذه الكتائب اثنتان من عشيرة (البوعاص) بقيادة (خطيب الطلب) و(عبد الفتاح الليلو)، وثلاث كتائب من عشيرة (البنّي سبعة)؛ الأولى بقيادة (سالم الهلوش) عضو قيادة شعبة الحزب، والثانية بقيادة (عبد العزيز الغنام)، والثالثة بقيادة (حميد الأسعد)، وكتيبة واحدة من عشيرة (الراشد) بقيادة (فاضل

الحوار)، واشترك (محمد الفارس) أيضاً في مؤتمر القبائل في دمشق 2015 الذي عقده النظام ضد دعوة الملك الأردني لتسليح العشائر.

أمام ظهور قوة كردية ممثلة بـ (حزب العمال التركي الكردي) وتسليم النظام إياها قسمًا من القامشلي، استمر الشيخ (محمد الفارس) في العمل معها لصالح نظام لن يسقط بحسب رؤيته، لذا عدّ كل ما عدا ذلك من الإرهابيات والتقلبات سياسات مؤقتة. وسرى ذلك الفهم في شيوخ عشائر طيء، وقد شارك مع عشرين من شيوخ العشائر ووجاهاتها في استقبال (اللواء علي مملوك) رئيس مكتب الأمن الوطني للنظام في مطار القامشلي 2019 الذي قدم للشيوخ تطمينات أن كل شيء تحت السيطرة.

أمام سيطرة (قسد)، وقسوة تعاملها، وفجاجة طروحاتها السياسية في بيئة مختلطة مثل القامشلي بأكثرية عربية-دُجّنت وربطت بالبعث عبر تنسيب العرب معظمهم إلى حزب البعث-، وتكشف مؤامرة النظام لتسليم (حارة طيء) معقل طيء الرمزي في المدينة إلى قوات (قسد)؛ بقي (محمد الفارس) وأتباعه من الشيوخ معولين على النظام، ولم يستطع الخروج من الدائرة التي أحكمت حوله، وبقي يدور في فلك النظام حتى توفي 15 سبتمبر/ أيلول 2021.

في مقابل ذلك، كان من بيت المشيخة في طيء الشيخ (محمد الشبيب العبد الرحمن) ابن عم الشيخ (محمد الفارس العبد الرحمن) وهو من أوائل المتظاهرين والمطالبين بسقوط النظام، انخرط في التظاهرات، ثم اعتقل، وبعد خروجه التزم بالتظاهرات، وعمل على دعوة أبناء عشائر طيء للتظاهر خلافاً لشيوخهم. انضم الشيخ (نواف الفرحان العبد الرحمن) أحد أبناء عمومة شيخ طيء إلى الثورة 2013، لكن بقيت طاقتهم في التحشيد داخل القبيلة محدودة لاضطرار كل منهما إلى الهجرة إلى تركيا خارج المجال الحيوي لأبنائهما.

ثوار طيء

كان ثوار طيء من أوائل المتظاهرين، اشتركوا في الحراك في الريف ثم نقلوا نشاطهم إلى القامشلي برفقة شباب القامشلي وريفها من مختلف القبائل والفئات الاجتماعية الأخرى. وبسبب حرص النظام عبر رجاله على ألاّ يمتد الحراك إلى الأحياء العربية الأوسع رقعة في المدينة، وضربه تلك التظاهرات بقسوة، وتأليب مؤيديه عليها، نظّم الثوار العرب من قبائل عدة -ومنهم ثوار طيء- نقاط تظاهر للثوار العرب في أحياء كردية يخشى النظام اقتحامها ثم تسييرها باتجاه (جامع قاسملو)، أي نقطة التقاء

الجميع في نقطة التظاهر الرئيسية في مدينة القامشلي، وانضمت مجموعة من الشباب المثقف إلى التظاهرات، فضمت من أبناء طيء فلاحين وطلبة، وفعاليات اقتصادية مدنية من حرفيين وعمال وموظفين ومهندسين وأطباء ومحامين، لم يشكلوا وزنًا قليلًا نسبةً إلى مجموع أبناء (طيء) ممن هم في صف النظام والحاصلين على تعليم جامعي. وعند تحول الثورة إلى العمل المسلح خرجت قلة من هذه النسبة إلى المنطقة المحررة لتمارس دورَ توعية وعمل مدني في أطر الإغاثة والإعلام، وتنوعت توجهاتهم السياسية بين علماني وليبرالي وقومي ناصري وإسلامي، بينما ذهبت قواعد المتظاهرين إلى تشكيل فصائل منذ اليوم الأول لتحرير رأس العين، وعملت عمل فصائل جيش حر بتمويل ذاتي معظمه، وانضم قسم من هذه الكتائب إلى (اللواء 313) المشكل من قبل (الهيئة العامة للثورة السورية). وانضم قسم من ثوار طيء إلى الفصائل الإسلامية؛ (أحرار الشام، وجهة النصر، وداعش) في ما بعد.

في شباط/ فبراير 2012 حرّر (اللواء 313) منطقة (تل حميس) جنوبي القامشلي رفقة فصائل أخرى -من طيء ومن خارجها- و(كتائب أحرار الشام). وقد مثلت منطقة (تل حميس) خزانًا بشريًا لكثير من شباب القبائل من فقراء وفلاحين ومعلمين وطلبة بعيدًا من استقطابات النظام وشيوخه، وتشكلت فصائل من قبائل أخرى كبيرة في تل حميس وجوارها، وشكلت المنطقة حاضنة لثوار مختلف القبائل في توافق لم يشهد صراعًا بينها، وبعد صدها هجمات مشتركة لقوات النظام وقوات حزب العمال آخرها عام 2014، أجبر (تنظيم الدولة الإسلامية-داعش) (جهة النصر) على مبايعته، ثم أجبر (كتائب أحرار الشام) على مبايعته كذلك، ما اضطر كتائب الجيش الحر إلى الوقوع بين خيارين: النظام وحزب العمال، أو الانضمام إلى داعش بعد مصادرة (داعش) عتاد كثير منها، فاختر قسم البقاء تحت قيادة (داعش)، وآخر الخروج من المنطقة إما إلى محافظة إدلب لاستكمال عمله العسكري هناك أو الهجرة إلى تركيا 2015.

كانت بلدة (تل حميس) المحررة بريفها الذي تقطنه شتى عشائر طيء وقبائل أخرى موقعًا لتجمع فصائل الجيش الحر أغلبها، وكان ثقل ثوار طيء مساويًا ثقل الثوار من قبائل أخرى تشاركها البقعة الجغرافية تلك، ولم تشهد المرحلة خلافًا ولا اقتتالًا بينهم، وقد كان المنتسبون إلى (ثوار طيء) من ذوي التدين الشعبي وذوي العلاقات الجيدة مع فصائل جيش حر كردية قاتلت معهم في رأس العين، من مثل (لواء الشهيد مشعل تمو) و(كتيبة آزادي)، ولم تشهد خلافًا قليلًا، ولم تستثمر أنبوب نقل النفط العابر من البلدة باتجاه مصفاة حمص بل أغلقته، ولم تستثمر صوامع الحبوب الموجودة فيها.

توزعت نسبة مثقفي طيء المنخرطين في الثورة بين مؤيد للثورة يقطن مدينة القامشلي تحت سيطرة النظام بلا جهد يذكر، ومهاجر إلى تركيا نشط في مجالات إعلامية وثقافية وإغاثية. وشهدت

حال ناشطها توزعاً بين التيارات الفكرية والسياسية المختلفة.

لم تشهد المنطقة المحررة جنوبي القامشلي وفي جنوبها الشرقي حالات يمكن رصدها من تحولات في سلوك شيوخ عشائر طيء، لكونهم خارج تلك البقعة. ولم يوجد حينئذ إلا (محمد جدعان الغنام) شيخ عشيرة (بني سبعة) من طيء التي ضمت ثواراً لم يعمل ضدهم، ولم يعملوا ضده، وبعد تقهقر كتائب الجيش الحر أمام سطوة (داعش) بقي في ظل سلطته القصيرة من دون بيعة - لم تطلبها أصلاً -، وبعد سيطرة (قسد) بقي ملتزماً بارتباطه بالنظام وبرامجه، ثم سافر إلى إيران، واشترك في مؤتمر سوتشي ضمن فعاليات قبلية نسقها النظام لمؤيديه وعملائه.

في شرق القامشلي والقحطانية بقي شيوخ عشائر (طيء) محافظين على ارتباطهم بالنظام رمزياً، وانتظارهم عودة سلطته، مع تعاملهم مع (قسد)، ودخولهم في برامجه وبعض ما استحدثته من مؤسسات بغية تجنيد الفئات الاجتماعية لصالح برامجه. وفي مستوى العلاقات بين القواعد وبيوت المشيخة، فإنه على الرغم من وجود فرق في مستوى المعيشة بين الطرفين، إلا أن أبناءها لم يشهدوا في ماضيهم حال أن يكونوا فلاحين عند سادة وإقطاعيين على الأقل منذ خمسينيات القرن المنصرم. لم ينتقل التمايز المعيشي في عشائر طيء لأن يصبح طبقياً متحزباً ضد إقطاع متسيد، لأن توزيع الحيازات مر عبر وسيط هو (شيوخ عشائرها) الذين أقطع لهم أمير طيء أراضي وقرى وزعوها بدورهم على أبناء كل عشيرة، ولكنه دفع باتجاه توليد اتجاهات ثقافية متنوعة في شتى مجالات الإبداع والأدب أو اتجاهات ثقافية سياسية وأيديولوجية، انطلاقاً من انهماك أفراد منها بالاقتصاد المديني ونشاطهم المعيشي في مجتمع متعدد.

ثمة نقطة يمكن تمييزها بين محافظتي (الحسكة) و(دير الزور) المتجاورتين والمجاورتين حدود العراق تستدعي الدراسة الدقيقة، وتحليلها بما لا يتسع له بحثنا حول السياسة المركبة التي اعتمدها النظام، منذ ثمانينيات القرن المنصرم في الحسكة، وفي إثر خلاف نظامي البعث العراقي والسوري، حيث تمثل القبائل امتداداً واحداً على طرفي الحدود، ويخشى من إقلاقها له. فشلت هذه السياسة جزئياً في دير الزور، بينما نجحت كلياً في الحسكة، ومثال ذلك عندما فرض (اللواء محمد منصور) 1998 على (محمد الفارس) شيخ طيء الانسحاب من انتخابات مجلس الشعب، فاجتمعت القبيلة، وطلبت منه الاستمرار، لتصب أصواتها كلها لإنجاحه، وتخرق قائمة الجبهة، فرفض. حينذاك ظهرت قوة القبيلة في جهد مدني استطاعت قبيلة العكيدات بدير الزور فعله مع (فيصل النجرس) في إحدى دورات مجلس الشعب، فأنجحته، وهو ما يدعو إلى التفكير بمستوى عمق الممارسات والسياسات التي اتبعها النظام في الحسكة، وأثرها في تغيير مستوى استجابة القبائل في الحسكة خلافاً لدير الزور، والتنبه للاختلاف بين ذهنييتين أفرزت كل منهما موقفاً مختلفاً؛ فقبائل دير الزور كانت أكثر

جراً من قبائل الحسكة في أكثر من حادثة وموضع. نذكر ذلك في معرض سردنا لندل على السياسة التي اتبعها النظام في الحسكة التي تعد أكثر تعقيداً وشراسة مما كانت عليه في مكان آخر، ومنها اعتماد النظام على الأحزاب الكردية، والعمل على تقويتها ودعمها -ضمن حدود محلية- بوصفها تعمل ضد نظام البعث العراقي⁽³¹⁾، وقد تبنت الإدارات الأمنية هذا الموقف بصورة تبقي على مشكلة كردية في المستوى الحقوقي الوطني، مع تأليب كل طرف على آخر من العرب والكرد للتحكم في فعل كل منهما⁽³²⁾، فضلاً على اختراق النظام كل بيت في الحسكة، وفي حين يمكن أن يفر شخص مطلوب من النظام في دير الزور، لا يمكن لمطلوب أن يفر في الحسكة ليقينه بأنه سيلبغ عنه أينما تنقل. نذكر هذه النقطة لأنها تعد أيضاً عاملاً مهماً في تفسير تدني نسبة من ثار من أبناء القبائل العربية ضد النظام في الحسكة نسبة إلى ثوار دير الزور. ويذكر موظف في ديوان النيابة بمحكمة الحسكة⁽³³⁾:

((إن نسبة المعتقلين العرب الذين تم تحويلهم للمحكمة من الفروع الأمنية هي 90 بالمئة من مجموع المحولين بالحسكة على خلفية التظاهرات))، علماً بأن قسماً كبيراً منهم اعتُقل من جراء تقرير يثبت أنه قال في جلسة: ((ربما تسقط الدولة))، بكل ما تحمله الجملة من احتمالات التوقع أو التفسير بعيداً من موقف التأييد والمعارضة، وعلى الرغم من أن العرب يشكلون أكثرية سكانية نسبة إلى باقي المكونات في محافظة الحسكة؛ فإن التظاهرات العربية في القامشلي كانت أقل عدداً في مجموع أفرادها من التظاهرات الكردية -على النقيض من الحسكة-، وهو ما انعكس في ما بعد في كثرة عدد العرب في إطار العمل المسلح نسبة إلى القواعد الشبابية الكردية الحزبية، ما يعكس نسبة الخوف العميق من النظام ومخبريه ومشيوخ القبائل المرتبطة به، واحتلال ثقافته المجال العام للقبيلة بنسبة أكبر مما هي الحال لدى الكرد الذين نشؤوا على موقف عدم التماهي مع النظام أو الدولة لأسباب سياسية كثيرة، مع ضرورة التذكير بتشكيل ألوية وكتائب كردية ضمن صفوف الجيش الحر، وقدمت شهداء أيضاً؛ إلا أن الشباب الكردي المستقل الذي كان عماد التظاهرات الكردية، وجسد حقيقة أن الشعوب تجاوزت نخمها التقليدية والسياسية، وكوّنت تسيقيات مستقلة وحراراً شبابياً

(31) أحمد الشام، مقابلة مع صالح الخضر في سوريا، عبر الوتساب، (11 شباط/ فبراير، 2022)، أورد مداخلته -بوصفه عضو مؤتمر قطري- الموجهة للدكتور (غياث بركات) عضو القيادة القطرية لحزب البعث 2005م في جلسة الانتخابات الأولية للمؤتمر بأن الرؤية الحزبية السابقة التي نقلت من قبل أمين فرع الحزب إبراهيم عزو لحافظ الأسد كانت في أن المسيحيين كتابيون، والعرب يمينيون أو صداميون، والأكراد هم جند الثورة، وتبنتها الإدارات الأمنية في مرحلة الثمانينيات حتى عام 2000م بتوجيه من اللواء محمد منصور، وأكد المعلومة محمود الناصر رئيس إحدى المفارز الأمنية المنشق عن النظام في مقابلة شخصية في هولندا، عبر الوتساب، (28 شباط/ فبراير، 2022).

(32) أحمد الشام، مقابلة مع محمود الناصر رئيس إحدى المفارز الأمنية المنشق عن النظام في هولندا، (فيزيائية)، 25 آذار/ مارس، 2022.

(33) أحمد الشام، مقابلة مع أحد موظفي ديوان النيابة في الحسكة لم يذكر اسمه لأسباب أمنية، عبر وسائل الاتصال الإلكتروني، (22 شباط/ فبراير، 2022).

مستقلًا عن الأحزاب، وتجاوزها، لم ينضم إلى العمل الثوري المسلح بحجم يتوافق مع مشاركته في التظاهر نظرًا إلى تلقف الأحزاب الكردية الموقف، وفرض سيطرتها ورؤيتها على المشهد.

محافظة دير الزور

غطى الباحث مناف الحمد في بحثه المشار إليه آنفًا موقف العشائر من الثورة في المحافظة والفصائل، ودرس تقلباتها درسًا عميقًا يُحسب له في مستوى وصفه ونهجه واستنتاجاته، ما جعلنا في بحثنا نتجاوز سرد تلك التحولات في دير الزور وتوصيفها لضيق مساحة بحثنا، لكن لنا بعض نقاط الاختلاف والإضافة نوردها في ما يأتي:

كان الحيز الأكبر من بحثه مخصصًا لتغطية موقف الريف، ولم يتحدث عن المدينة ودور أبناء العشائر فيها وفصائلها، خصوصًا أن الحراك بدأ مدينيًا على الرغم من تركيز قوى النظام في المدينة وخطر ذلك، وبقي الحراك في مدينة دير الزور متماسكًا ومتصاعدًا، ولعب دورًا وازنًا قبيل قدوم داعش.

لقد تشكلت مدينة دير الزور من عشائر مهاجرة من الجزيرة العربية وعشائر من الريف هاجرت إلى المدينة بقصد العمل والتعليم، ولهم أراضٍ في الريف ونشاط وارتباطات قبلية. ولم تكثف أي عائلة من سكان دير الزور باسمها مستغنية عن التعريف القبلي بها في تعاملاتها في ما بينها في المناسبات والفضاء التواصل على أقل تقدير، لكنها أقرت في مستوى علاقات أبنائها وتعاملاتهم عقلية مدينية تمثلت في اندماج حضري أسس فضاء المدينة وأفاقها الثقافية والسياسية والاجتماعية، وصنع عالم المدينة المتجاوز والمفكك للقبيلة وذهنيتها من دون نسيان الانتماء القبلي في ذاكرتها الجمعية مع عدم استبطانها عصبية القبيلة أو الدوران في فلك شيوخها.

نرى أن الباحث مناف الحمد أغفل هذا الدور للمدينة، ولعله تعمد ذلك لأن بحثه وُسِمَ بدور القبائل وآثارها تبعًا لنواظمها وحواملها القبلية، ولكن لأنه عرّج في نتائج بحثه على إمكانات تطوير القبيلة ودمجها المديني، نجد ضرورة الاهتمام بحراك المدينة لأنه يمثل نقطة مضيئة في آليات تطور القبيلة، وصور هذا التطور من الريف المنغلق إلى المدينة مفتوحة الأفاق والثقافة، المفردة لوجهات اجتماعية مدينية.

اخترقت تلك الفعاليات المدينية الريف، وجذبتة خلافًا لتلك المعتمدة على المشيخات ومفهوماتها

القبلية، فالثورة تفجرت أولاً في المدينة، وجذبت تظاهراتها أبناء المدن الأخرى من مثل (الميادين) و(البوكمال)، ليأتوا للاشتراك فيها في 2011. وقد نظمت نخب اجتماعية حديثة ومثقفة التظاهرات بطرائق تجاوزت العفوية، فأنجزت تظاهرة للأطباء بلباسهم، يتبعهم الشباب الثائر، وتظاهرة أخرى للمحامين بلباسهم، وتظاهرة للمدرسين، فأنتجت حراكاً سلمياً مدينياً في مستوى منظمها وحشودها، وهم جميعاً أبناء عشائر سكنت في المدينة، فأبناء المدينة - وإن كانوا ذوي أصل قبلي- أبدوا ثقافة والتزاماً عاليين بنهج الثورة، بل ألف منظمو حراك المدينة المثقفون مع منظمي حراك مدن (الميادين) و(البوكمال) لجنة عن محافظة دير الزور سائرها من 40 شخصية لها رصيدها في المجتمع، حملت مهمة وضع خطط العمل الثوري السلمي.

عند تحول العمل الثوري إلى التسليح استنكف بعضهم، وبقي بعض آخر من نخب المدينة -معظم من بقي كان من الملتزمين دينياً- وفي نهاية 2011 حشد النظام الدبابات في شوارع دير الزور لتهديد المدينة بنية ورمزية، ما دفع أبناء دير الزور إلى تنظيم عمليات سريعة وخاطفة ضدها، وتنفيذها، واتخذ منظمو الحراك واللجنة الأنف ذكرها موقفاً رافضاً لـ(أبي ماريا القحطاني) و(أبي محمد الجولاني) ولدعوتهما تشكيل (جبهة نصرة أهل الشام)، وبقوا على موقفهم، ما يشير إلى أن المدينة كانت أكثر حصانة ضد داعش من الريف القبلي، وبقيت كذلك حتى 2014، إذ خسرت فصائلهم المدينة قبالة حصار داعش، وأمثلة تلك الفصائل (جيش التوحيد)، و(لواء المهاجرين إلى الله)، و(لواء العباس)، وكلها فصائل من المدينة، والقسم الأكبر منها إسلامي رافض لـ(جبهة النصرة) و(داعش)، مع وجود كتلة مختلطة من أبناء الريف والمدينة، ولكن بقيادة مدينية كما في (لواء جيش القادسية)⁽³⁴⁾.

في مرحلة العسكرية كانت أعمال الكتائب متناثرة في الريف كخاصرة ضعيفة للنظام وغير منتظمة، وبدأ التحرير بتخطيط من أبناء المدينة، وتوجههم، ومشاركتهم، وشكلت المدينة فصائل عسكرية، منها جيش التوحيد الذي كان يمثل خطأ إسلامياً معتدلاً مقارنة بداعش والجبهة، وتشكلت فصائل يقودها جامعيون ومثقفون مثل خليل البكر، وخليل البورداني الذي كان مدرساً في جامعة الجزيرة، وأحد قادة الحراك، واستشهد في قصف مبنى النفوس، ومنهم أطباء ومثقفون مثل عبد الكريم حريب، ومروان نزهان في الميادين، وغيث الظلي، وهم جميعاً أبناء عشائر. وأرسلت دير الزور كتيبة بقيادة عبد الكريم حريب للاشتراك في تحرير آخر نقطة عسكرية في الميادين. وبقيت هذه الفصائل صامدة ضد النظام، وكانت جيهاً العسكرية في المدينة آخر جيهاً العمل الثوري التي سقطت قبالة داعش في المدينة المجتاحة من أطرافها⁽³⁵⁾.

(34) أحمد الشام، مقابلة مع الناشط حسين علي البسيس في تركيا، عبر الوتساب، (20 نيسان/ أبريل، 2022).

(35) أحمد الشام، مقابلة مع حمزة اللطيف في ألمانيا، (16 شباط/ فبراير، 2022).

محافظة الرقة

دمرها المغول عام 1360، وبقيت مهجورة ستة قرون، حتى أصدر السلطان عبد الحميد قراراً بإنشاء (القرغول- المخفر)⁽³⁶⁾ في الرقة 1850 بين إسطنبول وبغداد بعد نشوء سنجق دير الزور، ونشأ حوله تجمع سكاني بسيط من جماعات صغيرة من غير ذوي العصبة حول زاوية صوفية تعتاش على أجور تأدية الخدمات للمخفر العثماني، وتحتمي به من دون أملاك ولا فضاء اقتصادي معيشي رعوي أو زراعي، إلى أن جاءت القبائل، واستقرت حوله على ضفاف الفرات بامتداد شاسع، ما أضاف قوة إلى السلطنة في حماية القوافل؛ لعبت القبائل حينذاك دوراً مفيداً للسلطنة التي أقطعت لها مساحات شاسعة بلا شاغل لتستقر بها، وتملكها، فانتقلت من نمط الاقتصاد المعتمد على الترحال إلى الاستقرار في الزراعة والرعي، وتحولت المشيخة من فعالية تعتمد القيادة القبلية رصيداً اجتماعياً إلى نمط جديد تعين بتكون الإقطاع إضافة إلى المشيخة بكل ما يضيفه من سلطة وتكريس نسقية جديدة في مستوى العلاقات الاجتماعية والدوافع والذهنيات.

ظلت الرقة تتبع دير الزور حتى أعلنها جمال عبد الناصر عام 1958 محافظة، ولم تنجز تطورها بعد، وبدا القرار أكبر من طاقة البلدة الناشئة على دخول عالم المدن، حيث كانت أراضي المدينة مملوكة من القبائل، وكان أي توسع عمراني يعني وصول المدينة عمرانياً إلى القبيلة لا انتقال القبيلة إلى المدينة. ظهر ثقل ذلك، وعُبر عنه بإطلاق تسمية (القول- أي المخفر) على أوائل سكانها من قبل أبناء القبائل، فولد لدى سكانها الأول -القول- إحساساً عميقاً بالضعف⁽³⁷⁾، فالتزموا الحياد والتوفيقية في كل حدث فارق، ما أعطى الرقة طابعاً ريفياً وبنية عشائرية من اللحظة الأولى، حتى إن القبلي يعتز بنسبه ويقول: ((أنا ابن القبيلة، لكن القولى ابن المخفر))⁽³⁸⁾.

خضعت الرقة لموجات هجرات من مدن أخرى؛ كما كانت وظائفها غنيمة يوزعها النظام ومسؤولوه لأقاربهم، وقد نشأت فئة من محدثي الثروة تمايزت اقتصادياً واجتماعياً وارتبطت ثقافتها بالميل نحو الفئة الأقوى، الأمر الذي ((أسلمها إلى حالة من التآرجح الانحيازي، وتعدد الاصطفاف والتأييد

(36) القول: كلمة تركية اختصاراً من القره غول، وتعني الكف الأسود باللغة التركية، وهي تسمية تطلق على المخفر في العهد العثماني، اختصرها العرب هناك بكلمة (القول)، وبعد استحداثه في الرقة سكنت حوله عائلات مهاجرة، وعند قدوم القبائل إلى المدينة أطلقت تسمية القول على سكان المدينة الأول الذين جاؤوا إليها بالهجرة من دون نسب قبلي وازن ولا عصبة للسكن جانب المخفر والاحتماء به.

(37) معبد الحسون، «الرقة من العشيرة إلى المدينة»: مخطوط، موقع العالم.

<https://alaalam.org/ar/society-and-culture-ar/item/538655160617->

(38) أحمد الشام، مقابلة مع أحد ناشطي الرقة في ألمانيا، فيزيائية، (19 شباط / فبراير، 2022).

وتركها موكولة إلى ظنونها وحساباتها حول الجهة التي ستميل لها كفة الظفر⁽³⁹⁾.

ثمة نقطة لا بد من الإشارة إليها، وهي أن الرقة أول محافظة حُررت بالكامل من قبضة النظام -باستثناء لواءين يشغلان حيّزاً صغيراً ومنحصرًا ومحاصرًا- ولا يخفى على أحد أن سقوط النظام في مدينة يعني غياب الأصوات التي كانت تؤيده، وقد فرض تحررها هذا نفسه على المواقف والنشاط العام للجميع، لذا نجد أن عشائر أيدت النظام إبان الحراك المدني قبل الحسم؛ ذهبت باتجاه تأييد الثورة وتشكيل فصائل ثورية بعده، مع ضرورة التذكير بأن سقوط النظام قد أدى إلى انحسار أصوات المؤيدين له وتراجعها من أبناء تلك العشائر الذين حاولوا فرض موقفهم على أبناء عشائريهم لإحباط أي توجه ثوري فيها، ما أعطى فرصة لشباب تلك العشائر بعد التحرير للنشاط الثوري وبصورة قوية ومعلنة، لذا فإن رصدنا لعشيرة ما أيدت النظام في مرحلة الحراك المدني لا ينفي بروز جهد ثوري لدى شبابها في ما بعد التحرير. علمًا أن كثيرين ممن أيدوا النظام وجابهوا المتظاهرين في الحراك المدني قد انضموا إلى فصائل الجيش الحر بعد التحرير، وانخرطوا في العمل العسكري بكل ما يعني ذلك من تبعات ومواقف أيضًا.

قبيلة الولدة

توزعت في الرقة ضمن حيزين جغرافيين: شامية، وجزيرة⁽⁴⁰⁾، وفي ريف حلب الشرقي تمتد الولدة من سد تشرين إلى شمال (مسكنة). وقد توزعت مشيختها بين عشيرتين، كل منهما على جزء من الولدة من دون تنازع في ما بينهما. فالمشيخة من شمالي (مسكنة) حتى سد تشرين في ريف (منبج) -التابع إداريًا لمحافظة حلب- لعشيرة (المحمد الغانم) الذي يعد البيت الكبير لقبيلة الولدة قاطبة باعتراف مشيخات العشائر المؤلفة لها؛ أما المشيخة في الرقة وشرقها فهي محصورة بـ (عشيرة الناصر) التي ضمت مشيختين؛ واحدة تمثلت في الرقة-شامية بـ (بيت الفرج السلامة)، أما في الجزيرة شرقي الفرات حتى الحسكة فقد تمثلت بـ بيت (البرسان) من (عشيرة الناصر) أيضًا. وامتاز بيتا المشيخة كلاهما بملكيات كبيرة، إذ كان بيت (البرسان) يملك أراضي شاسعة بحدود 37 ألف هكتار طابو عثماني، أما بيت (الفرج السلامة) في الرقة شامية فأملكه أضعاف ذلك.

(39) معبد الحسون، الرقة والثورة من التحرير إلى التدمير، ط 1، (إسطنبول: دار موزاييك للدراسات والنشر، 2020)، ص 14.

(40) اصطلاح السوريون تسمية (الشامية) على الأراضي التي تمتد غرب نهر الفرات أو على ضفته اليمنى في مسير جريانه من تركيا شمالاً نحو العراق جنوباً، وتسمية (الجزيرة) على الأراضي التي تقع شرق الفرات أو على ضفته اليسرى لكونها محصورة جغرافيًا بينه وبين نهر دجلة شرقاً؛ وتسمية (الجزيرة) قديمة قصد بها الجزء السوري مما أطلق عليه تاريخيًا ما بين النهرين، أي دجلة والفرات.

عشيرة (الناصر-جزيرة) في الحسكة (أي البرسان) معظمهما والت النظام بموجب انتفاعها بأراضي أملاك الدولة بعد خسارتها أراضيها في مشروع غمر الفرات، حتى إن من ثار من شبابها من طلاب الجامعات في بعض قرى الحسكة من مثل (مهيّة) و(الجابرية) نشط خارج المنطقة تحاشياً للاصطدام مع موقف التأييد القار لدى القبيلة المنتفعة، بينما انحاز أفراد (الناصر) معظمهم في الرقة إلى الثورة، وانحاز بيت المشيخة الرئيس إلى الولادة قاطبة، وانحازت عشيرة (الغانم) في (منبج) في ريف حلب مع الولادة فيها إلى الثورة، وما زال شيخها (واصل المحمد الغانم) مخفياً عند النظام في إثر اعتقاله من قبل المخابرات الجوية.

وفي ما يتصل بمنزلة بيوت المشيخة القائدة لقبيلة الولادة والعشائر التابعة لها، ثمة عشائر تتبع قبيلة (الولدة) لم تعد تقدم أي ولاء للمشيخات السابقة إلا في حدود الاحترام الرمزي، وتقودها وجاهات عشائرية منها من مثل عشائر الـ (بومسرة)، (العامر)، و(الوردات)⁽⁴¹⁾ على الرغم من انتمائها إلى قبيلة الولادة نسباً لا حلقاً. والعشائر الأخيرة معروفة بقلّة حيازاتها، إلى أن انتفعت بحيازات صغيرة من قانون الإصلاح الزراعي، وشهدت نظام معيشة مختلف في المناطق التابعة لريف حلب، تميز بوجود نسبة جيدة من الدارسين بين أبنائها. وقد ظهرت الهوة بين العشائر المنتفعة، والعشائر المملّكة التي تبنت الثورة -من مثل الناصر- فبلورت افتراقاً وموقفاً مضاداً لها منذ بداية الحراك السلمي، فذهبت تلك العشائر إلى تأييد النظام ضد (الولدة-الناصر) من مثل عشيرتي (الجعابات) و(الحيويات). ولما انتفضت مدينة الطبقة -مقل الولادة- في مطلع نيسان/ أبريل 2011 بمشاركة سكانها من ذوي الأصول خارج المحافظة من (منغ) و(إدلب)، ونفذت التظاهرات عند (جامع الحمزة)، قبولت بمسيرات مؤيدة للنظام في (دوار الكنيسة بالطبقة)، واصطدمت معها بالعصي والهرارات قادمة من قرى (كديران وسويدية) عشيرة (البوجابر)، وقرى (السحل والمحمودلي) عشيرة (العجيل)، و(دبسي عفنان): عشيرة (الحيويات)، لكن شباباً من تلك العشائر نفسها انضموا إلى تشكيلات الجيش الحر، وإن بنسب غير وازنة، وقد لعب تأخر انضمام شبابها إلى الثورة دوراً في قلة تسليحهم، ما شكل حالة ندية اتسمت بالغيرة أو الشعور بالظلم، تبلورت في ما بعد بمواقف مختلفة نتيجة بحثهم عن قوة داعمة، وهو ما هيا لفاعلية (داعش) في المنطقة.

في نهاية 2011 قَدِمَ الشيخ (محمود الشواخ البرسان) من عشيرة (الناصر-جزيرة) من الحسكة بمهمة من النظام والتقى بنشطين من (الولدة) لإقناعهم بعدم النشاط ضد النظام، وباءت محاولته بالفشل. وكانت زيارته الثانية لقريته القديمة قبل سبعينيات القرن المنصرم (شمس الدين) نهاية 2012، وطالب بأرض بعد انحسار نهر الفرات عنها، فأعطي مساحة دار واسعة، لكنه أكد أن

(41) أحمد الشام، مقابلة مع أحد ناشطي الثورة من الولادة بريف حلب الشرقي، عبر الوتساب، (21 شباط/ فبراير، 2022).

المقصود هو آلاف الدونمات، في إشارة إلى ملكه القديم⁽⁴²⁾.

في بدايات التسليح ظهر شكلان للمال الخاص بالتسلح؛ أولهما المال الأهلي الوافد من دعوات سوريين في الخليج إلى نصرة الثورة، وكان الارتجال وعدم التنظيم سمته الأساس، فذهب قسم كبير منه إلى علاقات المهاجرين مع ذويهم في الرقة، والثاني كان من ناشطين إسلاميين في جبهة النصرة، قدموا المال للإسلاميين من معتقلي النظام قبل الثورة⁽⁴³⁾، فحاز ناشطو عشيرة (الناصر) من قبيلة (الولدة) مع كثرة معتقليهم الإسلاميين على غيرهم من باقي عشائر (الولدة) نصيباً أكبر لتشكيل فصائلهم المسلحة. ونتيجة اختلاف طرائق التمويل ظهرت تشكيلات ثورية مشوهة تعمل لإسقاط النظام، وتنزع إلى الشهرة والسلطة في عموم المحافظة من قبائل شتى، ونشأت فصائل عدة ضمن العائلة نفسها في الولدة، إذ كوّن (عبد الفتاح الحج عبد) لواء (أويس القرني)، وأخوه (محمود الحج عبد) (أحرار الطبقة)، وابن عمهما (عبد الرحيم الحاج عبد) (سرايا الفرات). وقد كوّن فصائل الجيش الحر من قبيلة (الولدة) عماد قوة الجيش الحر في الرقة - المدينة، وفي الطبقة من الفصائل غير الإسلامية⁽⁴⁴⁾، واضطلعت بدور في تحرير الريف مع ثوار باقي القبائل من بلدة (تل أبيض) شمالي الرقة، وشاركت في تحرير المدينة أيضاً. وقد فقدت عشيرة (الناصر) التي فيها مشيخة الولدة من أبنائها 254 شهيداً عدا الجرحى⁽⁴⁵⁾.

تجدر الإشارة إلى أن قوة قبيلة أو عشيرة ما في الثورة إضافة إلى حجمها ونسبة من ثار منها كانت مقرونة بعدد مقاتليها ومستوى تسليحهم، ما يعني أن تمويل التسليح لعب دوراً في إظهار قوة فصائل وضعف أخرى، الأمر الذي أدى إلى تهافت الفصائل ضعيفة التسليح إلى أي جهة تدعمها، وهو ما أدخل الفصائل الصغيرة في سباق حميم للبحث عن يدعمها.

عند قدوم داعش وجد معارضو الولدة وأندادها وموالو النظام فرصة مواتية للانتقام، تلقف داعش فرصة الاختلاف، فجندت عشيرة (العجيل)، ومنهم (أبو لقمان) أمير الرقة الذي كان أحد مؤسسي التنظيم منذ بدايته، وجندت عشيرة (البوجابر) لزيادة قوتها الضاربة، وانضمت إليهما عشيرتا (الوهب) من قبيلة (شمر)، و(بو خميس) من قبيلة (الدليم)⁽⁴⁶⁾.

(42) أحمد الشام، مقابلة مع أحد ناشطي الثورة من القبائل في سورية، عبر الوتساب، (21 شباط/ فبراير، 2022).

(43) أحمد الشام، مقابلة مع أحد ناشطي الثورة من عشيرة الحويوات في ألمانيا، فيزيائية، (23 آذار/ مارس، 2022).

(44) أحمد الشام، مقابلة مع عبد الرزاق الشلاش من عشيرة الناصر قبيلة الولدة في تركيا، عبر الوتساب، (23 شباط/ فبراير، 2022).

(45) أحمد الشام، مقابلة مع ناثر موسى الحجي في ألمانيا، فيزيائية، (1 آذار/ مارس، 2022).

(46) أحمد الشام، مقابلة مع ناشط ثوري من قبيلة الولدة في ألمانيا، فيزيائية، (18 شباط/ فبراير، 2022).

بعد جملة التحشيدات في العسكرية التي اعتمدها داعش لتقوية جبهته ضد الجيش الحر ضمن الرقة وجوارها استهدف الفصائل السابقة من قبيلة (الولدة)، وهزمها، وشرّد من تبقى منها، وسيطر على الرقة 2014، وفي مقابل بيعة شيخ العفادلة (هويدي الشلاش الهويدي) داعش، لم يبايعه شيوخ (الولدة) بسبب التنكيل الذي طال فصائلها بل بايعته وجاهات قبلية من (الناصر) ومحيطهم، مثل (عواد الشلاش) الذي كانت تربطه علاقة صداقة قديمة بـ(بريج العبد الهادي قبل وفاته، وبابنه توباد) الذي لعب دورًا في تكوين داعش في ما بعد، وبايعته شخصيات من آل البرسان - الرقة أيضًا⁽⁴⁷⁾.

وعند تقدم قوات (قسد) ودحر داعش اشتركت تلك المشيخات التي بايعت داعش جميعها في مجالس (قسد) التي أنشأتها لاحتواء القبائل، وظهرت غالبًا الشخصيات نفسها التي اشتركت في بيعة (داعش) في مؤتمرات (قسد) لشيوخ العشائر، وولت (قسد) بعض المشيخات الجديدة ودعمتها لتكون نافذة وقوية لتجبرها لصالحها على الرغم من بنيتها وعقليتها وقوانينها التي لا تقل عن داعش غرابة عن مجتمع القبيلة وثقافتها.

وقد حضر الشيخ (محمود الشواخ البرسان) قبل سقوط الرقة بيد (قسد) اجتماعًا في عين عيسى، وعُيّن رئيسًا مشتركًا للمجلس المدني في الرقة، وشارك (عواد الشلاش) الذي بايع داعش سابقًا في نشاط (قسد) الخاص باستخدام القبائل. فضلًا على أن شيخ الولدة حاليًا (حامد عبد الرحمن محمد الفرج) الذي التزم منزله في زمن حكم (داعش) قد انضم إلى (قسد)، وهو حاليًا رئيس المجلس التشريعي المشترك في مدينة الطبقة.

العفادلة

استقرت قبيلة (العفادلة) بعددها الكبير -وتعود في أرومتها إلى (البوشعبان) التي منها (الولدة)، وقاسمتها ثقل الوجود والسطوة وملكية الأرض في محافظة الرقة، بتوزع سكاني كبير يقارب أكثر من ربع سكان الرقة مدينة وريفًا- على ضفاف الفرات وبعض الأرياف الغربية. تتألف من خمسة بطون، أصبح كل منها عشيرة، وهي: (المدلج الظاهر، الموسى الظاهر، الغانم الظاهر، البريج الظاهر، والأحوس الظاهر). بيوت المشيخة في (الذياب)، والمشيخة تنحصر بـ(آل الهويدي) منهم. تتركز ملكية الأراضي معظمها بيد (الهويدي) التي نشأ أبناؤها على ذهنية المشيخة والتملك والسطوة منذ أيام الإقطاع -كما أسلفنا في تشكّل هذا النسق لدى (الناصر) في (الولدة). على الرغم من ذلك بقيت

(47) أحمد الشام، مقابلة مع أحد منظمي الحراك الثوري بالرقة من قبيلة الولدة في تركيا، عبر الوتساب، (2 شباط / فبراير، 2022).

القبيلة محافظة على علاقاتها مع النظام بصورة عامة قبل الثورة ضمن ديناميات إثبات الوجود والقوة والتمثيل، ووزعت جهدها وثقلها في التعامل مع محيطها المحلي وعلى صعيد السياسة مع الدولة ضمن اتفاق قديم باتجاه خطين؛ الأول مشيخة العشيرة عند مجرم بشير الهويدي، الثاني تمثيلها السياسي لفصيل المحمد الهويدي. واستمرت بتوارث الدور -أولاد (مجرم بشير الهويدي) المشيخة، وأولاد (فصيل الهويدي) الدور السياسي- وحافظت على رمزية تأثيرها السياسي عبر مجلس الشعب من خلال (محمد الفصيل الهويدي) الذي تكرر تعيينه عضوًا في دورات مجلس الشعب معظمها الذي مثل الصف المؤيد للنظام بوضوح، وأشرف بُعيد التحرير على وساطات لم تنجح لفك جنود النظام ورموزه في الرقة.

انطلقت تظاهرات الرقة من جامع الفردوس 25 آذار/ مارس 2011 بجهد من شباب ثوري وطلاب جامعات من مشارب شتى بالاشتراك مع وجهات من العفادلة (بيت الهويدي) من مثل (محمد زكي الهويدي) -ناصر- وابن أخيه (قصي مسلط الهويدي) - شيوعي من الموقعين على إعلان دمشق؛ وهم إضافة إلى بعض الشخصيات الناصرية كانوا بين من أسسوا للحراك، ما طبع الحراك بجزء منه بطابع يساري وقومي. واشترك شباب وناشطون من محافظات أخرى في التظاهرات والتنسيق لها، ولعبت التظاهرات في المحافظات الأخرى دورًا في تثوير الشباب من طلبة الجامعات وغيرهم. تزايدت أعداد المتظاهرين بعد استشهاد الشاب (علي البابنسي) الذي كان استشهاداً حدثاً فارقاً في تاريخ الرقة⁽⁴⁸⁾. وقد انضم إلى تظاهرة الرقة الأولى (هويدي الشلاش الهويدي) بن شيخ (العفادلة)، مع مجموعة من شباب العفادلة تحركت ضمن عمقها البشري في محيطها، واشترك بها (العفادلة) في جماعات عدة. تبلور في ما بعد مركزان لتنسيق التظاهرات؛ الأول في مضافة بيت (المنادي) من (آل الهويدي) مثل أصحاب التوجه اليساري⁽⁴⁹⁾، والثاني في شارع مجاور مثل أصحاب التوجه الإسلامي من دون تنازع، مع اجتماع أنصارهما في التظاهرات في تنسيق مشترك. اشترك أبناء المحافظات الأخرى المستقرّون قديمًا في الرقة من مثل (السخنة) و(تادف)، و(سفيرة) وريف حلب الشمالي، وكان لهم أثر قوي في تأمين حشد جماهيري جيد.

وقد حاول النظام استمالة الشيخ (شلاش المجرم الهويدي) عبر بعض الامتيازات البسيطة من مثل منحه حق استثمار حرم النهر مقابل أرضه الزراعية في منطقة أملاك قديمة له مصادرة للدولة،

(48) ابن عائلة ملتزمة دينيًا ومحمودة السيرة لدى أبناء الرقة، وهو من بلدة بابنس في محافظة إدلب، كان قتله في تظاهرة عابرة مساء الخميس 15 آذار/ مارس 2012 المتوافق مع الذكرى السنوية لانطلاقة الثورة صدمة لأبناء الرقة، بوصفها أول حادثة قتل لمظاهر مدني، ومع تخوف الغاضبين من محاولة قوات النظام اختطاف جثته تحلق كثير من أبناء المدينة حول دار عائلته لحماية الجثمان، حتى ظهر اليوم الثاني الجمعة الذي يوافق يوم تظاهرات المدينة، فخرجت أكبر تظاهرة في تاريخ المحافظة في الثورة.

(49) أحمد الشام، مقابلة مع قصي الهويدي من مثقفي وثوار قبيلة العفادلة في ألمانيا، عبر الهاتف، (25 شباط/ فبراير، 2022).

إلا أنه على الرغم من رؤيته المعارضة لنظام البعث - انطلاقاً من منشئه القبلي وإرث أملاكه المصادرة - اتخذ موقفاً مهادئاً يتوافق وشخصية الشيوخ عموماً. ولم يُظهر (شلاش المجحم الهويدي) موقفاً معلناً ضد النظام، ولم يعارض ابنه (هويدي شلاش الهويدي) الذي شارك في أول تظاهرة بالفردوس. بعد وفاة الشيخ (شلاش مجحم الهويدي) 2013 تسلم ابنه (هويدي شلاش الهويدي) الذي نشط في التظاهرات بتوجه إسلامي واضح على الرغم من عدم اتصافه بعلم أو تفقه ديني أو عقيدة سلفية، لكنه تعاون مع السلفيين، وحاولوا الاستفادة منه كواجهة اجتماعية، فدعمهم على الرغم من ندرة التوجه الإسلامي لدى (العفادلة) عموماً.

وعند سيطرة داعش على الرقة بايعها شيخ العفادلة (هويدي شلاش الهويدي)، وأصبح مسؤول الاستتابة في الرقة، وتبعه في ذلك نفر من العفادلة الذين كانوا مؤيدين للنظام، وعند اندحار داعش انضم إلى (قسد) مستفيداً من وجود قريبه (عبد المهباش) من قبيلة العفادلة - عشيرة (الأحوس الظاهر) - رئيساً مشتركاً لمجلس (قسد) المدني في شمال شرق سورية.

كان عدد المنتسبين إلى الجيش الحر من قبيلة (العفادلة) أقل منهم في قبيلة (الولدة) بسبب انخفاض نسبة من التزم منهم الثورة مقارنة بـ (الولدة)⁽⁵⁰⁾، وقد شكل مجموعة ضباط شرطة منشقين من العفادلة (لواء المنتصر) بقيادة (فايز الكاطع) لحماية خط العفادلة، وعندما قويت (جبهة النصرة) بايعوها، وسلموها أسلحتهم، وبعد خروج قسم منهم إلى تركيا، عادوا إلى الداخل لتسليم (داعش) سلاحهم الثقيل، ثم رجعوا إلى تركيا.

وقف (العفادلة) غالبيتهم وقفة صلبة إما مع النظام أو مع داعش، أما في مستوى الأفراد، فقد لعب كثير من شباب (العفادلة) دوراً استثنائياً في الثورة، لكن دورهم كان أضعف من القدرة على تأمين حشد يمثل اتجاهاً خارج ذهنية القبيلة، واتخذت عشائر قبيلة (العفادلة) الآتي ذكرهم موقفاً تأييد النظام: (المدلج الظاهر، الموسى الظاهر، الغانم الظاهر، والأحوس الظاهر)، أما عشيرة (البريج الظاهر)، فقد تحول موقفها من تأييد النظام إلى داعش باستثناء بعض الشخصيات التي التفت حول (فايز الكاطع)، وقد لعبت عشيرة البريج الظاهر دوراً محورياً في تطورات الأوضاع الرقة، إذ انضم عدد ضخم منها إلى (داعش)، ومنهم (توباد بن شيخهم بريج العبد الهادي) الذي كان في العراق، وتربطه علاقات مع القادة العراقيين من داعش بعثية المنشأ⁽⁵¹⁾، وعلى الرغم من مشاركته في التظاهرات السلمية بوصفه علمانياً مختلفاً بشدة مع الإسلاميين، فإنه بايع (داعش)، وأصبح رئيساً لـ (مكتب العشائر) فيها، وهو الذي نظم البيعات، وعمل بتأطير (العفادلة) ضمن فاعليات

(50) أحمد الشمام، مقابلة مع أحد الناشطين من قوى اليسار في الرقة في ألمانيا، عبر الهاتف، (19 شباط / فبراير، 2022).

(51) معبد الحسون، الرقة من العشيرة إلى المدينة، ص 46.

(داعش) القَبَلِيَّة مستثمرًا علاقاته مع أحواله (الهويدي)، ومستغلًا مركزه ابنًا للشيخ المتوفى (بريج العبد الهادي)، ويروي أبناء المحافظة قصصًا عن قسوته حتى قتل في غارة جوية لقوات التحالف في نيسان/ أبريل 2018.

سادسًا: نتائج البحث

وفيما نحاول الإجابة عن السؤال المُشكّل في البحث، وفهم صور هذا التفاعل المختلف والمتحول في أجزاء عَيَنَة البحث، وسعيًا منا لتفكيكه وفهم دوافعه سنحاول قراءته من خلال المفاهيم الآتية: الذهنية القبلية وديناميات البقاء والسلطة والخضوع، الصراع الطبقي ضمن القبيلة، شكل الارتباط بالمدينة/ الدولة، العشائرية السياسية.

قبل تناول المفاهيم التي تتناول ذات القبيلة ومضامينها وذهنيتها وتحولاتها، ولضرورة الإنصاف العلمي، نرى ضرورة الحديث عن الموضوعي الذي أثر في القبيلة، وكرس بعضًا من صفاتها، وهو:

الدولة والقبيلة

إن القبيلة بوصفها بنية اجتماعية موروثية العلاقات والتلاحم والعصبية خاضعة لتطورات المجتمع والدولة، ولا تعدّ تأثيرات أي منهما فيها. وقد حولت الأنظمة الدول إلى رعوية بحسب عادل الشرجي، وحولت القبيلة من كيان قابل للتجاوز إلى كيان معاد إنتاجه وتقويته في محيطه وفقًا لمصالح الأنظمة ((بحيث لا يُعدُّ الشيوخ ممثلين لقبائلهم أمام الدولة، بل ممثلين للنظام أمام دوائرهم الخاصة))⁽⁵²⁾، ما لعب دورًا سلبيًا في استيعاب القبيلة لفضاء الدولة المشوه من قبل السلطة المشتغلة على تكريس النزعات القبلية بقدرٍ يضمن استمرارها وتكريس تبعيتها للسلطة الحاكمة في آن معًا. علاوة على أن مفهوم الدولة بمعناها المؤسسي الحديث خديج وجديد على مجتمعاتنا ونخبها في مرحلتي الاحتلال والاستقلال. ويرى حمزة علوي أنه ((على العكس من الدول الغربية، لم تنشأ الدولة في هذه المجتمعات لرغبة قوى داخلية في سيطرتها السياسية على المجتمع وإنما كانت نشأتها لتلبية لرغبة الدول الاستعمارية في إقامة هياكل تسمح لها بإحكام سيطرتها على الأقاليم، التي وقعت في إطار

(52) مجموعة من الباحثين، الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص578.

إمبراطورياتها⁽⁵³⁾. وعلى الرغم من شهود مرحلة ما بعد الاستقلال في خمسينيات القرن المنصرم حراكاً سياسياً وتنافساً ديمقراطياً نفسه العسكر، اختُزلت الدولة وقوانينها ومؤسساتها بالسلطة. وبدلاً من عدّ السلطة أحد تجليات الدولة، أصبحت الأخيرة مفهوماً وكياناً ترسخه السلطة، تولده وتحترك تخارجاته، وهو ما رسّخ لدى كثير من الجماعات البشرية والشعوب الشعور بضرورة موالاة السلطة طلباً للاستقرار، ما شكّل موقفاً سلبياً لدى كثيرين في ثورات الربيع العربي، خصوصاً في غياب وعي حقيقي بالدولة، وغياب أي تصور لها خارج التجليات السالفة. وتأتي الجماعات البشرية في الأطراف والتكوينات الاجتماعية البعيدة من التعليم والتحول المدني في آخر الحلقات التي يمكن أن تصلها مؤسسة الدولة المعبر عنها بوسائل غير القوة والمنعة والسطوة.

1. الذهنية القبلية بين ديناميات البقاء، والسلطة، والخضوع

كانت علاقة الأنظمة العربية عمومًا مع مجتمعاتها علاقة سلطة مع كيانات تريد إخضاعها واستثمارها، ولم تكن علاقتها في التعامل مع القبيلة سوى علاقة تصادم وتخادم بين طرفين ينزع كلاهما إلى السلطة في مجاله⁽⁵⁴⁾. وهذا التخادم دفع بالسلطة إلى إعادة إنتاج القبيلة لأهداف سياسية، ما انعكس في وظائفها الاجتماعية التي تحولت إلى نوع من التوظيف السياسي يلعبه أبناؤها تبعاً لمصالحهم ودوافعهم الشخصية باستخدام القبيلة⁽⁵⁵⁾. وفي مقابل ذلك، على الرغم من تجذر قيم قبلية نبيلة من مثل المروءة والكرم والشرف، قرّرت عناصر سلبية في البنى العميقة للشخصية القبلية من حقبة الغزو منها الاستحواذ والغلبة والغنيمة والنكاية. حكمت العلاقات ضمن القبيلة وخارجها، فانخرطت قبائل في الثورة، وأيدت أخرى النظام نكايةً بها؛ وما إن ظهرت (داعش) حتى بايعتها الأخيرة لتغتني الفرصة. مثال ذلك موالاة قبيلة (العفادلة) النظام أمام انحياز جموع من قبيلة (الولدة) إلى الثورة، ثم مبايعتها (داعش) تسابقاً بالمنفعة ونكاية بـ (الولدة)، ثم انخراطها في مشروعات (قسد).

وأدت هذه الذهنية داخلياً إلى ظهور صراع على السلطة في القبيلة من خلال نزوع كل وجهة لتحصيل السلطة ضمن القبيلة عبر مسعى عشائري داخلها، أو وظيفي بالعلاقة مع أي سلطة تقدم

(53) Hamza Alavi, "The State in Post-Colonial Societies: Pakistan and Bangladesh," New Left Review, 74, (1973), p. 61

(54) انظر: كريم حمزة، «تاريخ الاستخدام السياسي للهوية المحلية العشائرية في العراق»، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، ع: 5/19، (2017)، ص 90.

(55) انظر: عبد الواحد مشعل عبد، «بنية القبيلة والتغيرات التي طرأت عليها، بحث أنثروبولوجي عن النظام القبلي في محافظة الأنبار»، مجلة كلية الآداب في بغداد، مج: 2، ع: 101، (بغداد، كلية الآداب، 2012)، ص 746.

لها بعض عناصر القوة والدعم، ومثاله عشيرة (البريج) في (العفادلة)، وسعيها إلى الصدارة، ما أدى إلى تشتت مراكز القوة ضمن القبيلة الواحدة، ما يحيل إلى ضرورة النظر إلى القبيلة بوصفها مجموعات لا مجموعة واحدة في أطر المشروعات التي يمكن طرحها.

2. الصراع الطبقي ضمن القبيلة

إن تركيز ملكيات الأراضي بيد قلة من بيوت المشيخة، واشتغال قواعد القبيلة بالفلاحة ضمن حياتهم الصغيرة، أو فلاحين أجيرين لدى المالكين، رسخ تمايزاً معيشياً ذا ملمح طبقي ضمن القبيلة. ومنذ اتباع وسائل الزراعة الحديثة استفادت البيوتات ذات الملكيات الكبيرة، فسيطرت على الاقتصاد الزراعي، وتنامى الفرق بين الملاك والفلاحين⁽⁵⁶⁾، إضافة إلى سعي هذه المشيخات إلى احتكار تمثيل القبيلة سياسياً عبر طرحها نفسها وسيطاً بين المواطن والدولة، ما أدى إلى تشكيل طبقة من المتضررين، وإن لم تكن تختزن في عقليتها وعياً طبقياً متميزاً له أدواته ومفعولاته، أنتج تناشراً اجتماعياً حتى بات يرى بعض المثقفين من فلاحي القبائل أن تلك المرحلة تمثل عبودية مقنعة على الرغم من حساسية أبناء القبائل من معنى العبودية بصورة عامة⁽⁵⁷⁾. هذا المعنى ابتدع تأثيلاً لذهنيته في مقولات وأمثال يستشهد بها في المتداول الشفاهي، منها مقولة ترددها نساء بيوت المشيخة في المجتمع القبلي حتى الآن هي: ((عبد أهلكنا ما يصير فحلنا))، في إشارة للفلاحين الأجيرين.

إن بيئة تركز تمييزاً كالذي سبق ذكره أفرزت من بين ما أفرزته بيئة مولدة لتحسين الوضع المعيش، وإثبات الجدارة والوجود، ما ولّد دافعاً للفقراء والفلاحين للدراسة والتعلم، وجعل نسبة خريجي الجامعات من عامة قبيلة ما أكثر منها لدى أبناء بيوتات المشيخة، وقد طرح خلدون النقيب أن التعليم في المجتمع العربي ((إضافة لكونه لطلب العلم كان بقصد تحسين المستوى المعيشي والترقي في السلم الاجتماعي))⁽⁵⁸⁾، ما يحيل إلى دافع طبقي، ونمط جديد من التعامل مع المدينة.

كان الإقطاع في الداخل السوري (حلب وإدلب ودمشق وحماة) أشبه بطبقة تنحو باتجاه تقاليد حضرية، حيث درّس أبناءه وأوصلهم إلى الجامعات، فضلاً عن نزوعه إلى النشاط الاقتصادي توافقاً

(56) انظر: حنا بطاطو، فلاحو سوريا، عبد الله فاضل ورائد نقشبند (مترجمان)، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 64.

(57) أحمد الشام، مقابلة مع أحد ناشطي الثورة في الرقة، عبر الوتساب، (18 شباط/ فبراير، 2022).

(58) خلدون حسن النقيب، «المشكل التربوي والثورة الصامتة دراسة في سوسيولوجيا الثقافة»، ع: 174، المستقبل العربي، (1993)، ص 76.

مع عالم المدينة، بينما تخلف إقطاع الجزيرة عن نظرائه، فضلاً على نزعة التعالي المتطرفة لدى الشيوخ التي قرت في ضمير القبيلة ولاوعمها الجمعي، فابنة الشيخ أصعب من أن تخطب في القبائل معظمها؛ مثلاً لا يزوج (آل الهويدي) من شيوخ العفادلة بناتهم خارج العائلة⁽⁵⁹⁾، وكذلك لا تزوج عشيرة (الناصر) من قبيلة (الولدة) من لم يكن أباًؤهم وأمهاتهم من الناصر⁽⁶⁰⁾.

ذلك كله جعل الثورة تمثل مفهوماً مختلفاً عليه لدى أنصارها وأضدادها في الجزيرة السورية، فبينما انطلقت في الداخل تحت عنوان عدالة ومواطنة وحريات، تضمنت في الجزيرة أهدافاً متباعدة ومتنافرة، إذ خرج جزء للمطالب نفسها أعلاه من مثل المثقفين والطلبة من القبائل الذين انخرطوا في المدينة مثل أبناء طيء في القامشلي وريفها، وأبناء القبائل في مدينة دير الزور، ومثقي الرقة وطلبته من الولدة، ومثقفين من (العفادلة)، ومنهم من خرج ضد الظلم والفقر من أبناء الأرياف الفقيرة عموماً في المحافظات الثلاث، بينما وقف نفر كبير من العشائر الفقيرة من مثل (العجيل، الوردات، البوجابر، الحويوات، والوهب) ضد الثورة في الرقة مدفوعاً بتصوره أن اشتراك عشيرة (الناصر) من قبيلة (الولدة) في الثورة كان لاستعادة امتيازاتها الإقطاعية مع إقرار شخصيات من الناصر بوجود هذه النزعة لدى جزء منها⁽⁶¹⁾، مع ملاحظة أن شباب عشيرتي (الوردات) و(الحويوات) شكلوا فصائل عسكرية ثورية بعد تراجع وجاهات عشائريهم الموالية للنظام بتحرير الرقة، وملاحظة أن عشيرة (العجيل) نفسها في اعزاز في غياب عشيرة (الناصر) والهواجس المرتبطة بها؛ قد اشتركت في الثورة بعكس ما ذهبت إليه أطرافها في الرقة، حتى إنها بلورت موقفاً عشائرياً فارقاً ضد شيخها الموالي للنظام، فعزلته، ونصبت شيخاً غيره من دون تنسيق أو تأثر من الخارج أو من مجلس القبائل التابع للثورة⁽⁶²⁾.

3. شكل الارتباط بالمدينة/ الدولة

يكون نمط العلاقة مع المدينة بوصفه جزءاً من التفاعل الاجتماعي وأحد محددات بناء الهوية الاجتماعية عاملاً مهماً في المواقف المتخذة من أبناء القبائل في الحدث السوري، فهو في حدوده الدنيا لدى المحصورين بمجتمع القبيلة وعلاقاتها، ما يكرس الشعور بأنها -القبيلة- الإطار العام والأكبر

(59) أحمد الشام، مقابلة مع قصي الهويدي من قبيلة العفادلة-الهويدي، عبر الهاتف، (19 شباط / فبراير، 2022).

(60) أحمد الشام، مقابلة مع عبد الرزاق شلاش من قبيلة الولدة في تركيا، عبر الوتساب، (17 شباط / فبراير، 2022).

(61) أحمد الشام، مقابلة مع عبد الرزاق شلاش من قبيلة الولدة في تركيا.

(62) مقابلة شخصية فيزيائية مع أحد ناشطي الثورة من عشيرة العجيل في الرقة في ألمانيا، بتاريخ 2022/2/25.

وربما الوحيد لهويتهم، بوصفها تمثل مشتركاً رمزياً واحداً، ويبني في بيئة كهذه نسقَ تفاعل محدداً يحاكيه الفرد بهدف التلاؤم، ثم يتماهاى معه، ويصير جزءاً منه، ويصير كل ما هو خارج ذلك عالمًا خارجيًا مجاورًا يتعامل معه بحكم الضرورة كما تتعامل دولة/ جماعة مع دولة مجاورة في إطار تبادل سلمي عبر نقطة حدودية لا أكثر. وقد كان التفاعل مع المدينة متعدد الأوجه، وحاكمًا لكثير من التفاعلات مع اشتراط نجاة هذا التشابك بالاندماج المدني، والاشتراك في مؤسسات الدولة عبر العمل في وظائفها المختلفة.

فمدينة دير الزور التي أنجز فضاؤها المدني ومجالها العام من قبل أبناء القبائل -من دون أن يفوتنا قدم عهدها بالمدينة، فقد كانت بمرتبة سنجق عام -1860 لعبت دورًا مركزيًا في الثورة. وعلى الرغم من تمايز المدينة عن الريف بثقافة ونمط حياة واضحين، إلا أنَّ المدينة كانت مفتوحة للاندماج بها، ومن ثَمَّ نيل حصة من وظائف الدولة فيها. انعكس ذلك في استحضار مقولة: (ديري وشاوي) التي عكست حساسية أبناء المدينة من تنامي حصة أبناء الريف من الوظائف.

شكل الاشتراك في مؤسسات الدولة استقطابًا في الثورة بين موظف شريك للدولة، سواء كان مدينيًا أم ريفيًا، وآخر يقرؤها انطلاقًا من مفهوم سياسي حقوقي، لكن اشتراك الطرفين في ذهنية خاصة نتجت عن رؤية أبناء المحافظة لأنفسهم حملت مفهومي الأنفة والجرأة في التعامل مع النظام والدولة واستقرار مفهوم الفزعة، خفف من الاستقطاب السابق، وحصر تأييد النظام بشخصيات قليلة شريكة للنظام في مراتب عليا من هرميته.

أما الرقة فقد كان أبنائها منشطين بين هويتين: واحدة مَعيشة، وأخرى متخيلة تنتهي إلى مدن آبائهم من مدن أخرى من مثل (إدلب، سفيرة، وتادف) و(رقبي) مدينة، و(رقبي ريف شوايا). ((كان هاجس الثنائية الانتمائية مسيطرًا مهممًا على الذهنية العامة لكل الرقايين... ما أعطى هويتين في تعريف السكان الحاليين، حتى بعد ولادة ثلاثة أجيال أو أربعة، وقد فصلت فصلًا نفسيًا حادًا في المخيلة الجمعية، غير مدرك ولا مشعور به، فصلًا يوحي للفرد أنه مادام يحمل هويتين فإنه ينتهي لمكانين)).⁽⁶³⁾ وقد مثلت المدينة سوقًا ومجالًا لاستعراض سطوة قبائل الريف عليها، حتى تناقل أبناء الرقة قولًا للعجيلي بأنَّ ((الرقة قرية كبيرة))⁽⁶⁴⁾، فضلًا على رأس المال الجبان الذي حكم الفئة محدثة الثروة، فبقيت حيادية أمام تحولات القوى.

على الرغم مما سبق أحرز حَصَر الرقة من أبناء المحافظات الأخرى خرقًا في هذه القاعدة، وشاركوا

(63) معبد الحسون، الرقة من العشيرة إلى المدينة، ص 24.

(64) أحمد الشام، مقابلة مع حسن علي الخلف في ألمانيا، أكد فيها تداول مقولة عبد السلام العجيلي عن الرقة.

بصورة مؤثرة في الحراك المدني، وكذلك في تكوين فصائل مسلحة من مثل (لواء أحفاد الرسول) من أبناء (منغ، وتاداف، وإدلب)، وهم من تلقوا أول ضربة من (داعش) في عملية تفجير مقرهم بمحطة القطار بالرقّة، وكان لمفهوم اشتراك أبناء العشائر في مؤسسات الدولة عبر وظائفهم دور أيضاً في موقف عشيرة (الناصر - شامية) الذين عانوا تهميش النظام وقلة توظيفهم على الرغم من كثرة خريجها الجامعيين مقارنة بأبناء عشائر (الولدة) الأخرى؛ ما شكل أحد الدوافع الثورية لدى جزء من أبنائها، وبالمقابل كانت الوظائف الحكومية دافعاً لتأييد النظام ممن عدّوا أنفسهم شركاء للدولة من أبناء عشائر أخرى تتبع لـ (الولدة) مثل عشائر (الحيوات، الجعابات، العامر، والبومسرة).

أما القامشلي، المدينة الناجزة بتعدد أديانها وعرقياتها، فلم تشكل لدى أبناء قبيلة شمر عالماً محيطاً بقدر ما هو عالم مجاور؛ إذ لم يشترك أبنائها بالوظائف. وعلى الرغم من تخصيص النظام للقبيلة (شمر) بعض أنواع التمثيل في عضوية مجلس المحافظة بصورة متوالية، وعضوية فرع الحزب أو الاتحادات بصورة متقطعة، تلك التي ما كانت لتحصل عليها عبر انتخابات لقلّة عدد أفرادها نسبة إلى باقي القبائل، ولم ينخرط أبنائها في العمل الوظيفي غالباً، الأمر الذي حكم عالم الفرد بأفق القبيلة التي يظن أنها حلقة مستقلة تضمن حقوقه في شتى الأحوال، وجعل المدينة سوقاً وموضع تملك عقاري من دون اندماج بالنسبة إلى أبناء (شمر). وفي مقابل ذلك شكلت المدينة بالنسبة إلى قبيلة طيء وسطاً لنشاط حياتي من عمل ودراسة وتجارة ووظائف، مع اضطرار أبنائها إلى التوافد اليومي إلى المدينة أو سكنها استئجاراً أو تملكاً أو دمجهم في فاعليتها، فشكّل مستوى الارتباط بالمدينة/ أو الدولة -عبر الوظائف- بما ينتجه من اختلاف فهم هذا التشابك الناجمة عنهما عامل استقطاب قوي بين من ثار منهم في تنوع دوافعه وثرائها، ومن وإلى النظام من موظفين بوصفهم شركاء للدولة عبر وظائفهم تلك.

4. العشائرية السياسية

تختلف العشائرية السياسية عن القبلية السياسية في دول كانت القبيلة فيها إحدى مؤسسي الدولة، كما في الخليج العربي واليمن. ولا تختلف عن الطائفية السياسية في كون الأخيرة تمتح من المرجعيات الحقوقية والشرعية الدولية في الأمم المتحدة، وتستند إليها تحت عناوين حماية الأقليات والطوائف.

تمثل العشائرية السياسية في الجزيرة السورية شكلاً متطوراً ومتضخماً من الطموح المصلحي

سعيًا لتقليد قبائل الخليج، واعتُمد فيه التحشيد القبلي، لتلعب القبيلة دورًا وازنًا في مستوى الدولة، وهو يضمن بروز القبيلة على قبائل وكيانات اجتماعية أخرى من دون أن تقع في صدام مباشر يشبه غزوات القبائل في ماضيها على الرغم من اعتماده منطق الغلبة والغنيمة. وغالبًا ما كان ذلك سعيًا لمكاسب فردية لشيخ القبائل مع ما يمكن أن يصيب أفراد القبيلة من نفع عبر محاصصة شيوخهم السلطة السياسية المرجوة في محيط القبيلة الإقليمي، ولم تظهر العشائرية السياسية في رقعة بحثنا إلا لدى عدد من شيوخ القبائل: (شمر في الحسكة، البكارة في دير الزور). استخدمت هذه المشيخات أدوات عدة منها العصبية القبلية، والذهنية الخاصة بأبنائها، وهويتهم القبلية الصرفة، والمستوى العالي من التماهي بين الولاء للشيخ والولاء للقبيلة، أو الولاء لمصلحة القبيلة أينما ذهبت في تحالفاتها. كما هو الأمر في قبيلة (شمر) في الحسكة ونزوع شيخها (حميدي الدهام الجربا) إلى تحقيق وزن في محيطه بل تجاوزه حتى وصل إلى مستوى التنظير والتفكير المصريح به بإمكان أن تتحول القبيلة إلى إمارة مستقلة.

وقد انقسمت الأجوبة التي حصل عليها الباحث في تفسير موقف حميدي الجربا إلى رأيين، هما⁽⁶⁵⁾:

الرأي الأول: فسر الموقف بذكاء وحنكة (حميدي الدهام) التي ميزته من غيره من الشيوخ ورؤيته لنفسه على أنه لاعب سياسي. وجاء ذلك متساوقًا مع مرحلة خروجه إلى العراق 2003، ومرور المنطقة بتغيرات كبيرة تمس تشكيلها السياسي إقليميًا، ما شكل دافعًا وعاملاً مهمًا في صناعة مواقفه وتحولاته، وأكسبه حنكة سياسية وخبرة وقدرة على التحول ومسك أوراق كثيرة.

أما الرأي الثاني: فذهب أصحابه إلى أن ما قام به الشيخ ما هو إلا استجابة لشعور ضمني مختزن في ذهنية القبيلة، ووعيمها الجمعي، ورؤيتها لنفسها بوصفها كيانًا مستقلًا ثقافيًا واجتماعيًا ووظيفيًا عن الدولة على الرغم من كل تشابكاتها معه، وانعكس في مقولة شمر عنه (راعي الجزيرة)، على الرغم من كونه شيخ قبيلة بتعداد صغير في المحافظة -الحسكة-، ولا تمتلك قدرة تجيش باقي فروعها في محافظات أخرى لعدم اتصافهم بذهنيتها المحلية الخاصة التي تحملها. ولم يكن نهج (حميدي الدهام الجربا) سوى انعكاس لهذه الذهنية مع تمثله لها، وابتداعه وسائل السعي كلها لتحقيقها.

وقد اتفق الفريقان على أن ذلك كان نزوعًا لمصلحة شخصية تستخدم القبيلة أداة لها. قابلت ذلك في (طيء) رؤية (محمد الفارس) لنفسه على أنه شيخ قبيلة سقف طموحه الاستفادة الشخصية من علاقته مع النظام من دون أي نزوع للعب دور سياسي، وما كان ليطمح بأكثر من عضوية مجلس

(65) توجه الباحث بسؤال: ((ما أسباب ظهور هذه النزعة لدى الشيخ حميدي الدهام؟)) إلى مجموعة من المثقفين والناشطين في مقابلة صوتية عبر الوتساب، (15 شباط/ فبراير، 2022).

الشعب، والاستفادة منه بمنافع شخصية، على الرغم من كاريزميته في إدارة التحالفات ضمن القبيلة.

أما في دير الزور فقد اشترك شيخ البكارة (نواف البشير) في إعلان دمشق، وعقد مؤتمرًا لقوى المعارضة في منزله 2005، ثم ما لبث أن انضم إلى الثورة ومجلس القبائل المشكل في تركيا في إثر اندلاع الثورة. ولأن قبيلة البكارة لم تحمل النزوع الفائض الذي يواكب سعيه هذا، لم ينجح في تحقيق تبعيتها له؛ خصوصًا مع وجود مثقفين وناشطين أثروا في أبناء القبيلة من الثوار، فانحصر حضوره الثوري بين عامة ثوار القبيلة بصورة فخرية غالبًا، ما سلبه القدرة على التأثير في شباب البكارة من الثوار.

ومنهم من أبدى في الثورة وعيًا سابقًا لمدركاته السياسية، وكان قرار فصائل عسكرية ثورية كبيرة مثل (لواء القادسية) مستقلًا عن التبعية له بل سابقًا له في قراءته التدخل الإيراني - ومنها جاءت تسميته القادسية- وبعد فشل نواف البشير من تحقيق أثر سياسي، وعدم سقوط النظام، عاد أدراجه إلى سورية، وشكل (لواء الباقر) نسبة إلى آل البيت لتوثيق علاقته مع إيران، وبقي رصيد طموحه السياسي ضمن جزء من أبناء البكارة من ذوي الحاجة والرواتب في الداخل، وكان موقف مثقفي البكارة من المنتمين إلى الثورة واضحًا في تعرية العشائرية السياسية لدى البكارة، وتعرية موقف الشيخ نفسه⁽⁶⁶⁾.

سابعًا: الخاتمة

من الطبيعي لأي مشروع سياسي أن يستهدف أنماط الوجود الاجتماعي كلها تطويرًا أو ترميمًا، نقضًا أو استخدامًا، لكن مثار التساؤل هو مدى القدرة على الاستثمار فيها، وكيفية التعامل معها خارج إطارها الأداتي بوصفها تستبطن قدرًا من العصبة التي لا تنفع في تأييد من دون قناعة، ولا رفض من دون فهم، ومن ثم يجب التوجه نحو الأفراد لتحريك البيئة المولدة ضمن القبيلة، لأن النظر إلى القبيلة بوصفها كيانًا ناشئًا اجتماعيًا يجب نقضه أو تقويضه؛ يستدعي استفزازًا وتوليدًا جديدًا لأدواتها الحشدية، وعليه لا يمكن التفكير في موت القبيلة بل تفتيت القبيلة والذهنية المفوّتة لتجاوز عطالتها، ولا يتم ذلك إلا عبر رعاية التحول ضمن القبيلة الناحي باتجاه التمدن، إذ لم يكسر نمط التفكير القبلي والعصبي سوى عاملان الديني والثقافي، سواء كان الأخير محمولًا على حامل اقتصادي أم نمط معيش، أم ثقافة حقيقية بناءة كما في مفهومها التداولي، ما يغير في بنية العلاقات،

(66) عبد الناصر العايد، «العشائرية السياسية غير الممكنة»، المدن، (2022)،

<https://www.almodon.com/opinion/202230/1//>

ويخل بالنسقية التقليدية للقبيلة.

وبناء عليه نخلص إلى ما يأتي:

1. لا يمكن البت بالقول إن قبيلةً ما دخلت برمتها في الثورة، بل انقسمت على نفسها بين فريقين، مؤيد للنظام وآخر ثائر، واتخذ كل طرف موقفه بحزم وصار التجاذب والاستقطاب والتنافس والتناحر ضمن كل قبيلة على الرغم من عدم وجود اقتتال داخلي ضمن القبيلة الواحدة، خلا مرحلي داعش وقسد.
2. على الرغم من بقاء الذهنية القبلية لدى أبناء القبائل عمومًا، انحسر الترابط التعاضدي إلى مستوى الأفخاذ والعائلات في أوضاع اختلافات الأفكار والفرص ونزاعات السيادة الداخلية، حتى ما كان ثمة حاجة إلى مشيخة القبيلة الرئيسة إلا في المشكلات التي تحتاج إلى شخصيات ذات منزلة ومرجعية لحلها، وما عادت القبيلة تحضر حشدًا في الغالب إلا عند حدوث مشكلة مباشرة مع قبيلة أخرى.
3. يمكننا البت بأن ثمة إشكالية في بنية التفكير القبلي المشتركة لدى الثائر والموالي، ومن ثَمَّ، فإنه لا يمكن التعويل على الوجهاء القبليين وأطراف بيت المشيخة في إنجاز تغيير حقيقي ينتقل بالقبيلة إلى مستوى التفاعل الحيوي البناء ضمن مسارات العمل الوطني والأطر الحداثية للعمل السياسي. وهنا يجب التفريق بين قبلي حامل للزعامة القبلية، وابن قبيلة ومثقف وسياسي منعتق من ثقافة القبلية عمومًا من دون خروجه على القبيلة أو إنكاره أصله في مجتمع شرقي تسوده ثقافة الاهتمام بالأصل والنسب.
4. إن النظرة التقليدية للقبيلة التي اقتصر على النظر إليها من حيث فعلها الكلي الحشدي ولجهة التخارجات النهائية الموجهة إلى الآخر أو المحيط الذي شكل غالبًا جبتي استقطاب في أعلى حد للتعامل معها، وهو ما كان بتأثير قوى خارجية كسبًا لاستخدامها الأدوات غالبًا. قباله ذلك نطرح ضرورة البحث في عوامل الصيرورة والفعل بداخلها لجهة الصراع بين نخب تقليدية وأخرى جديدة ضمنها، ودراستها انطلاقًا من بنية العلاقات والطموح والاختلافات والدوافع التي تفضي إلى نجاعة التأثير الثقافي والسياسي المأمول ضمن برنامج وطني مدروس.
5. العمل في أطر الاشتغال الثقافي السوري على تفتيت العصبية القبلية بصورة سلسة واعية واستثمار الإيجابي منها، والبحث عن إيجاد رؤى مفاهيمية تعتمد فتح المجال القبلي للتنافس البناء باتجاه الفعل الإيجابي، وتأطير أبناء القبائل ليكونوا إحدى نويات العمل المجتمعي السياسي الوطني في تحقيق مجتمع العدالة والحرية. وأمام ضرورة إدماج القبيلة

المتسلسل بالمدينة لا بد من إدراك أن هجرتها على شكل جماعات كبيرة قد تشكل تهديداً لبنية المدينة⁽⁶⁷⁾.

6. إن عالماً متسقاً مفطوراً على جملة عادات وتقاليد ونسق علاقاتي محدد تحت عناوين واسعة وفضفاضة لا تعير انتباهاً لخصوصية كل فرد كما في مجتمع الريف والقبيلة، يختلف عن مجتمع المدينة الذي يتضمن تنوعاً وثراء وتعدداً. ويكون التوافق أو الاختلاف بين جماعات المدينة الحاملة لأفكار فنية وثقافية أو سياسية مبنياً على مبادئها وغاياتها وأدواتها ومنهجها، حتى تفاصيلها؛ بل غالباً ما كان ذلك عامل تعدد جماعات المدينة وتوجهاتها وتماييزها من الريف، وانعكس ذلك في كثرة جماعات المدينة، وقلة منتسبي كل منها، وقلة عدد جماعات الريف، وكثرة منتسبي كل منها، لانهيار مشتركات الريف والقبيلة في تنوع أقل ينسدل تحت عناوين عامة في الفكر القبلي والريفي عمومًا، لذا يعد استثمار العلاقات الاجتماعية البسيطة في الريف أكثر بساطة وسهولة وقابلية للتوسع، لارتباط الفرد في القبيلة بعلاقات قري وصدقات -على الرغم من ضحالة مستويات فهمها وثقافتها- أسهل من تقييم ابن المدينة المنهمك بالعمل والمتشابك مع محيطه بجملة علاقات قد يكون أفقها الثقافي وضوابطها أكثر اتساعاً، لكنها تتضمن عدداً أقل من المعارف أو الأصدقاء الثقات المتفقيين مقابل اهتمامات سياسية متنوعة وكثيرة.

وعليه، فإن أي منبر أو أي قوة محلية مناطقية أو وطنية أو دولية تسعى إلى جمع عدد من المؤيدين لمشروع ثقافي أو سياسي أو حركي، سرّاً كان أم علنياً، ستجده نحو القبيلة لضمان قاعدة لها، ولوجود معرفة مسبقة لدى الأفراد عمومًا بمحيطهم من خلال ما يتداوله أبناء الريف والقبيلة عن سلوك من حولهم من مخبرين ومصلحين وطالبي وجاهة ونزهاء، وهو ما يفتقر إليه ابن المدينة المنحصر بالصدقات القليلة الدقيقة في تفاصيلها، وتداولات الجيران، والشارع، ومقر العمل، ليس أكثر؛ ما يحيل إلى ضرورة الاشتغال على مجتمع الريف والقبيلة بوصفه بيئة خصبة وبكراً للاستثمار فيها سلباً أو إيجاباً، وإن أي تجاوز أو إهمال لها يعني ذهابها جزئياً أو كلياً باتجاه استثمار آخر مضاد.

7. تفعيل دور المثقف وفتح أبواب المنابر للشباب من أبناء القبائل لإثبات وجودهم، وتأطير دورهم باتجاه مبرمج يهدف إلى التنوير والحدثة من أجل العمل في بيئاتهم، مع ضرورة التزام المثقفين من أبناء هذه البيئات بعدم التعالي عليها وهجرها أو اعتزالها بحثاً عن بيئات مريحة من أوساط ثقافية سورية مدنية، وأن يلتزموا بتنوير بيئاتهم وتنوير أبنائها وفق برامج بعيدة عن الارتجال والتأطير الأيديولوجي.

(67) زياد عواد، «العشائر والسلطة في مدينة حلب»، مركز روبرت شومان للدراسات العليا، (2022)، <https://cutt.us/VnN6S>

إن القبيلة كيان لا يمكن أن يكون حاملاً لأي مشروع تغيير، لأن بنيته تعتمد ذهنية مشتقة من سياق تاريخي قديم من العلاقات وآفاق التفكير، وترفض أي تجديد إلا في إطار يرمم قديمها⁽⁶⁸⁾، فضلاً على أن هاجس الوجود والبقاء ينهل من عصبية متوارثة وقابلية للتحويل، فلا يُضمن موقفها النهائي، ما يوصلنا إلى المعادلة الحاضرة في أذهان كثيرين في قراءة القبيلة سابقاً، وهي: قبيلة = عصبية، بينما نقترح معادلة جديدة: قبيلة = كيان اجتماعي قادر على تبديل مواقفه وولاءاته، ومن ثم لا فائدة حقيقية مستدامة من استمالته أو تأييده، ولا بد من تغييره من داخله بعيداً عن القسر عبر الاندماج المدني والثقافة والتعليم من دون الطعن في مستوى قيمه العليا التي اختزنت في ضمير أفرادها الجمعي.

(68) انظر: جان ماري دانكان، علم السياسة، محمد عرب صاصيال (مترجماً)، ط1، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1997)، ص11.

المصادر والمراجع

1. ابن خلدون، المقدمة، ط1، (بيروت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1978).
2. الحسون. معبد، الرقة والثورة من التحرير إلى التدمير، ط1، (إسطنبول: دار موزاييك للدراسات والنشر، 2020).
3. الحسون. معبد، الرقة من العشيرة إلى المدينة، (مخطوط).
4. النقيب. خلدون حسن، بناء المجتمع العربي: بعض الفروض البحثية، ط2، (دم: مركز دراسات الوحدة العربية، 1989).
5. بطاطو. حنا، فلاحو سوريا، عبد الله فاضل ورائد نقشبندي (مترجمان)، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).
6. دانكان. جان ماري، علم السياسة، محمد عرب صاصيال (مترجمًا)، ط1، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1997).
7. مجموعة من الباحثين، الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).



دور الفصائل العسكرية في الجزيرة السورية

مجد وهيبة⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

شكلت الثورة السورية علامة فارقة في تاريخ سورية المعاصر، فلم تعد الأخيرة بعد شهر آذار/ مارس من عام 2011 كما كانت قبله في المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. لم تكن المنطقة الشرقية بمحافظاتها الثلاث (الحسكة ودير الزور والرقعة) بمنأى عن التحولات الكبرى التي مرت بها سورية، بل كانت في صلب أحداثها المختلفة وتحولاتها الأساسية.

تعد المرحلة العسكرية نقطة تحول كبرى في تاريخ الثورة السورية، فبعد أن أفرط النظام الأسد في استخدام القوة الأمنية والعسكرية في مواجهة الشعب الثائر على ظلمه، شكّلت النواة الأولى للجيش الحر بفصائل محلية عسكرية لحماية المتظاهرين من ظلم النظام القاتل.

اكتسبت منطقة الجزيرة الفراتية في الثورة السورية بفضل مكانتها الجيوسياسية والاجتماعية والاقتصادية في الصراع عليها داخلياً وإقليمياً ودولياً أهمية قصوى. لذلك تبدو محاولة الكشف عن الدور الذي لعبته هذه الفصائل في مجريات الثورة السورية مهمة، وبخاصة في التعرف إلى مدى تأثيرها في الأحداث في المنطقة، إضافة إلى انعكاساتها المختلفة في المناطق السورية الأخرى.

(1) مجد وهيبة: دراسات عليا قسم الفلسفة، كاتب وباحث في الشأن السوري.

ثانيًا: الإطار المنهجي

1. مشكلة البحث

مرت الثورة السورية بتحولات عدة أولها المرحلة السلمية التي طبعت التظاهرات التي عمّت المدن السورية كافة، ومن ثم حمل السلاح لحماية المتظاهرين من عنف القوى الأمنية والعسكرية، لذلك شكّلت الفصائل العسكرية في المناطق السورية كافة.

وكحال المناطق السورية الأخرى شاركت (الجزيرة) بأطيافها المتنوعة في الحراك الثوري السلمي والعسكري، ولا سيما أنها المنطقة الأكثر تهميشًا على الرغم من أنها الأغنى اقتصاديًا بين المناطق السورية الأخرى كلها، إذ تعدّ خزانًا للنفط والقمح والقطن.

شكل أبناء الجزيرة، كغيرهم من أبناء المناطق السورية الأخرى فصائل وكتائب ثورية عدة، بعضها كان جزءًا من حركة سورية كبرى، وبعضها كانت فصائل محلية شكلها أبنائها لحماية أنفسهم وتحرير مناطقهم، الأمر الذي يضع أمامنا أسئلة مُشكلة رئيسة، وهي:

- أ. ما العوامل التي أثرت في بنية الفصائل العسكرية في الجزيرة السورية وتحولاتها؟
- ب. هل لعبت هذه العوامل دورًا في تحديد مآلات هذه الفصائل العسكرية ومصائرهما؟

2. منهج البحث

لا يمكن اعتماد منهج علمي واحد في دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة. وينطبق هذا الأمر على دراسة ظاهرة الفصائل العسكرية في الجزيرة السورية، فأدوار هذه الفصائل العسكرية لم تكن منفصلة عن مجموعة معقدة من التغيرات، وأهمها البنية القبلية، لذلك اعتمدنا على مركب منهجي يجمع بين المنهج الوصفي والتحليلي، وأداة المقابلة الشخصية، فالمنهج الوصفي يمكننا من التعرف إلى نشأة الفصائل العسكرية الفراتية ودورها وتنظيمها، والمنهج التحليلي لتحليل بنيتها التنظيمية وتأثير العوامل الاجتماعية القبلية والإثنية والتمويلية، أما المقابلة الشخصية فهي للوصول إلى معلومات عن الموضوع المدروس مستمدة من بعض من كان على صلة وثيقة بهذه الفصائل العسكرية.

3. أهداف البحث

التعرف إلى الفصائل العسكرية الوازنة الموجودة في الجزيرة السورية، يمكننا من الوقوف على تكوينها وبنيتها ومصادر تمويلها. وهذا يمدنا بفهم موضوعي يساعدنا على تحديد دورها العسكري في الجزيرة السورية، ويسهم بدوره في كشف طبيعة التحولات التي لعبت دورًا في تغيير واقع المنطقة ومستقبلها.

4. أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في محاولته كشف السياقات الاجتماعية والإثنية والتاريخية والتمويلية التي لعبت دورًا أساسيًا في ولادة الفصائل العسكرية وتطور أدوارها وفعاليتها في مسار الثورة في الجزيرة السورية. وتكمن أيضًا في سعي البحث إلى إقامة علاقة تفسيرية بين العوامل الذاتية المرتبطة ببنية الفصائل العسكرية ومشروعها، والعوامل الموضوعية المرتبطة بالسياقات الاجتماعية أو التمويلية، وأثرهما في المآلات التي وصلت إليها الفصائل العسكرية والمسارات التاريخية التي انتهت إليها.

ثالثًا: الإطار النظري

1. تحولات الثورة السورية

إن خضوع سورية لقانون الطوارئ لأكثر من خمسين سنة منع الشعب السوري من الصحافة والسياسة والتواصل، بالتوازي مع استلام حافظ الأسد السلطة عبر انقلاب عسكري، رسخ الحكم الاستبدادي لأقلية سياسية ارتبطت مصالحها بتكريس سلطة الحزب الواحد والفرد الواحد، في مقابل الأكثرية السياسية التي تمثل عموم السوريين، وهو الوضع الذي استمر مع وراثة بشار السلطة عام 2000.

من الطبيعي أن يترك الوضع السياسي الاستبدادي العام أثره الكبير في الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ما تجلّى في ارتفاع قلة من السوريين من الحكم الدكتاتوري، فكان من الطبيعي أن تتزايد

معدلات الفقر والبطالة، إضافة إلى انتشار الفساد والرشى في دوائر الدولة جميعها حتى القضائية منها، ورافق ذلك القبضة الأمنية في تلك المدة بذريعة مكافحة الفساد.

فعلى الرغم من أهمية التعرف إلى ((الخلفية الاقتصادية الاجتماعية، كخلفية أساسية في فهم الحركات الاجتماعية الأخيرة التي اندلعت في المدن السورية))⁽²⁾، إلا أنها لا تكفي لتفسير طبيعة الحرك الثوري السوري، لأننا نرى أن طبيعة النظام الاستبدادي السياسي هي التي أنتجت هذه الكارثة اقتصاديًا واجتماعيًا.

وجد السوريون في الربيع العربي فرصة تاريخية في الانعتاق من السياسات الاستبدادية التي استهدفت كرامة السوريين وحريتهم الإنسانية والوطنية، فكانت مرحلة التظاهرات السلمية التي شكلت قيم العدالة والحرية والكرامة منظوراتها الأساس التي حكمها البعد الوطني لأبناء سورية وأطيافها ومناطقها كلهم من دون تمييز عرقي أو ديني وطائفي.

((لم ترفع حركته الاحتجاجية شعار إسقاط النظام كهدف يحدد توجهاتها منذ البداية، وإنما سارت تفاعلاتها في إطار مطالب الإصلاح والحرية وصولاً إلى مطلب إسقاط النظام، بعد انتهاء النظام الخيار العسكري كوسيلة وحيدة للتعاطي معها))⁽³⁾، ومع تسارع الأحداث واتساع ميادين الاحتجاج السلمي ضد النظام، ومع رفع سقف المطالب الشعبية إلى المناداة بإسقاط النظام وأجهزته الأمنية، ذهب النظام إلى مزيد من التعسف والتعصيد باستخدام الجيش قوة أمنية لقمع هذه التظاهرات، الأمر الذي أدى إلى نقطة تحول جديدة في الثورة السورية تجلت في المظاهر العسكرية للثورة، أو ما سمي في ما بعد (عسكرة الثورة)، كان دافعها الأول حماية الأرواح ومواجهة الآلة العسكرية للنظام بعد تزايد عدد الشهداء في صفوف المتظاهرين. وكان للضباط المنشقين عن الجيش السوري الدور الأبرز في تشكيل هذه المجاميع العسكرية في دمشق وإدلب ودرعا ودير الزور، إلى أن أعلن المقدم المنشق (حسين هرموش) تشكيل لواء الضباط الأحرار الذي يضم العناصر والضباط المنشقين عن الجيش، فانطلقت مرحلة تحول الثورة من السلمية إلى العسكرية.

كان هدف النظام من مرحلة العسكرة الانتقال إلى مرحلة تدويل القضية السورية إقليمياً ودولياً، ليس في المستوى السياسي فحسب، بل في المستوى العسكري، وذلك لاستقدام الميليشيات الطائفية المتطرفة وأطراف إقليمية مثل إيران، وأطراف دولية مثل روسيا التي أحدث تدخلها العسكري فرقاً كبيراً في الموازين العسكرية والسياسية، الأمر الذي أدى إلى تحول سورية إلى ساحة حرب دولية

(2) محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سوريا، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 166.

(3) حمزة مصطفى، المجال العام الافتراضي في الثورة السورية، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 89.

تقاسمت أطرافها الغنيمة السورية من دون أن يرضى كل طرف بما حقق حتى الآن.

2. الخصائص الأساس للجزيرة السورية

تتميز الجزيرة ببيئة قبلية وتعدد ديني وإثني، بنت جماعاتها علاقات اجتماعية راسخة من التعاون والتواشج في ما بينها من دون خلافات أو صراعات خارج إطار صراعات القبائل البيئية. تعد الحسكة مثالاً لهذا التنوع والتعدد نسبة إلى وجود الإثنيات والأديان فيها أكثر من باقي محافظات الجزيرة، وعلى الرغم من التعايش الأهلي بين العرب والسيّريين والوافدين من كرد وأرمن، وعلاقات حسن الجوار والعيش المشترك، عمل النظام على تغذية الحس العرقي لدى أبناء المنطقة، وأدخلهم في حال تنافس في الولاء عبر ربطه القبائل الكردية والعربية به من خلال بعض الامتيازات الفردية لشيوخها، إذ جهد النظام عبر سني حكم البعث في إيجاد حالة تنافس بين العرب والكرد للحصول على الوظائف الحكومية عبر الارتباط به، وغض النظر عن نشاط الأحزاب الكردية طوال مرحلة خلاف جناحي البعث السوري والعراقي حتى 2003 واحتلال بغداد، ودعم نشاط بعضها الآخر، وأنشأ لها محطة إذاعية تبث من القامشلي إلى شمال العراق، ما أدى إلى تنامي خطاب سياسي كردي حديث يرى في الجزيرة جزءاً رابعاً (لكردستان المقسمة بين ثلاث دول في الأدبيات الحزبية الكردية الأقدم) تحت مسمى (كردستان سورية)، ارتفعت وتيرته بعد احتلال بغداد، وظهور بوادر انفصال شمال العراق تحت عنوان كيان سياسي كردي مستقل، وطموح أميركي في تحقيق مثل له في سورية. أما في دير الزور فقد لعب النظام على تقوية أبناء الريف الطامحين إلى دور في الحياة العامة والوظائف على حساب أبناء المدينة، حتى كُرس ذهنية الثنائيات المتنافرة بين ريف ومدينة بصيغة هوية أعمق منها في مجتمعات أخرى، ورسخت في الضمير الجمعي ثنائية (ديريين وشوايا)، وتعصب كل من الطرفين، وحضر ذلك في ثقافة كل منهما. أما الرقة فقد كانت المدينة المفتوحة بوظائفها وخبراتها لأعوان النظام ومواليه من محافظات أخرى، مع تطويع القبائل وترييف المدينة عبر سطوة النظام، أما من الناحية الاجتماعية فقد كانت الجزيرة تعيش حالاً من الاحتقان ضد النظام السوري، وبخاصة مع ارتفاع مستوى البطالة، لأنها كانت الأفقر اقتصادياً في خريطة الفقر السوري على الرغم من احتواء المنطقة على ثروة نفطية وثروة زراعية لا تنافسها في ذلك أي منطقة سورية أخرى.

رابعاً: الإطار العملي

نتعرف فيه إلى طبيعة الفصائل العسكرية وبنيتها التنظيمية ونشأتها وتمويلها ونشاطها العسكري وتطوراتها وتحولاتها الأساس في محافظات الجزيرة السورية الثلاث، وهي:

1. الحسكة

تتميز محافظة الحسكة وثوارها بوضع خاص، ففيها الوجود الوازن والأغلبية السكانية للقبائل العربية التي فُرض عليها الانتماء إلى حزب البعث وسيلة وحيدة لمقاومة نشاط الأحزاب الكردية التي رعاها، وجُعِل هذا الانتماء شرط القبول الاعتباري بمشايعها وتم ربط الوظائف الحكومية بالانتماء الحزبي، وقد أدت أحداث الكرد 2004 إلى تشنج القبائل العربية أغلبها بسبب المطالب والممارسات الكردية، ما أدى نظرياً إلى تخوف النظام مما غض الطرف عنه سابقاً، واتباع سياسة أمنية جديدة استخدم فيها القبائل لدعم موقفه، ما أنتج تعاملًا جديدًا بين تلك القبائل والنظام بوصفه يمثل الدولة، وضرورة لعب دور في مواجهة الحركة الكردية. ذلك كله كرس رؤية عامة لدى الشارع السياسي الكردي تُماهي بين النظام والعرب⁽⁴⁾. نجح النظام في تكريس العشائرية التي اشتغل على إذكائها الأسد الأب، وعمل الأسد الابن على تأطيرها أمنياً ثم في عسكرتها مع انطلاق الثورة، إذ سلح النظام رجالاً من القبائل عبر شيوخها.

هذه الأوضاع كلها جعلت الثورة مفهوماً ملتبساً في بيئة قبلية محكومة برؤية النظام ومختركة أمنياً، ما جعل ثوار الحسكة أقل من نظرائهم في محافظات أخرى نتيجة لإمساك القبائل زمام التأثير والتحكم، فبقي الثوار والحال هذه غرباء ومنبوذين في محيطهم. ما يثير الاهتمام أن الثورة من التظاهرات إلى العسكرة شهدت تعاوناً وتشاركاً حقيقين بين الشباب العربي والكردي في مستوى التنسيق والتظاهرات المستقلة عن الأحزاب.

حاربت فصائل الجيش الحر النظام، ثم أطلق النظام يد قوات حزب العمال التركي الكردية PKK بعد تسليحها حتى إن شهداء الحسكة في الثورة معظمهم من عرب وكرد قُتلوا على أيدي ميليشيات حزب العمال التركي الكردية بالوكالة عن النظام⁽⁵⁾.

(4) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع معتصم الحسن، (16.05.2022).

(5) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع محمود الماضي رئيس الهيئة السياسية لثوار محافظة الحسكة، (02.06.2022).

تتميز الحسكة من غيرها بإشكالية غير موجودة في المحافظات الأخرى، إذ إن تلك المحافظات وبعيداً عن النظام، والكتائب الإسلامية، ولم يكن فيها مشاريع انفصالية، أو صدامات كبيرة بين مكوناتها. في حين تناهبت الحسكة ثلاثة مشروعات سياسية لها تعبيراتها العسكرية على الأرض -بعد استثناء النظام والفصائل الإسلامية الكبرى- أولاًها قوات حزب العمال الكردي -الحماية الشعبية- التي فرضت نفسها على الساحة بدعم وتسليح من النظام وتحت شعار حماية القرى والبلدات الكردية، ما أفاد في تحشيد حجم لا بأس به من الكرد لصالحها، وثانيها قوات الصناديد التي على الرغم من قلة عديدها كانت تمثل حالة تحشيد قبلي ينذر بحرب قبلية لمن يواجهها من الثوار؛ ولها مشروعاتها السياسي الخاص بها، وثالثها الجيش الحر غير الممول في شتى شؤون تسليحه من أي من هيئات الثورة، فبقي على شكل كتائب متناثرة وغير وازنة ولا مؤثرة عسكرياً، أمام هذه الحال نجد أن الجيش الحر لم يمثل حالة وازنة في أوضاع عدم التمويل، وعدم دعم العشائر إياه؛ تلك التي كانت في معظمها موالية للنظام ورافضة ومطاردة لكل من يثور من أبنائها، لذا ذهب بحثنا إلى تغطية الفصائل العسكرية لقوات حزب العمال (قسد) في ما بعد، وقوات الصناديد بوصف كل منهما يمثل كتلة واحدة، وذهبنا في تغطية الجيش الحر إلى مجموعات كتائب كانت تتسم بصفات واحدة وتابعة لإدارة عسكرية واحدة، واتخذت منهج عمل واحد أو خضعت لأوضاع متماثلة في سير عملها، وذلك لأن كتائب الحسكة -باستثناء لواء شهداء غويران- متفرقة، ولا يحوي أي لواء منها عدداً كبيراً أو قوة تمثل حالة مستقلة بذاتها.

أ. كتائب اللواء 313

بعد تحرر أول بلدة في محافظة الحسكة (رأس العين) بفضل كتائب (غرباء الشام) غير الحسكاوية؛ توجه الشباب الثائر أغلبه إليها لتشكيل كتائب انضوت تحت تشكيل المجلس العسكري الذي كان يأخذ تسليحه من كتائب (أحفاد الرسول) غير الحسكاوية أيضاً. استفادت الكتائب المحررة -غرباء الشام- من الحبوب، بينما بقيت فصائل الحسكة بلا تمويل رسمي من المجلس، ولا إطعام ولا ما كان يطلق عليه (غنائم الحرب)، وخاضت المعارك الثلاث مع ميليشيات حزب العمال دفاعاً عن رأس العين.

أنشأ اللواء 313/ المشكل من الهيئة العامة للثورة عام 2012 معسكراً للتدريب في تل أبيض من شباب وضباط من ريف حمص وريف إدلب بغرض إيجاد عمل عسكري ضد النظام في المنطقة بأيدي أبنائها بعد تأهيلهم عسكرياً، وتسليحهم، وبقيادة اللواء، فانضمت إليه كتائب الجيش الحر، ولا سيما تلك التي كان عمادها ثوار القامشلي وريفها. فانضمت كتيبة عمرو بن معدي يكرب الزبيدي،

ولواء شهداء الظاهرية، وكتيبة جيش العسرة، وكتيبة عمر بن الخطاب، وكتيبة آزادي الكردية، ولواء مشعل تمو، وسلحها اللواء (313) حيث بلغ قوام أبناء القامشلي منها النصف مقابل النصف المؤسّس من باقي المحافظات. في (02.2012)⁽⁶⁾.

حرر اللواء بلدة تل حميس بريف القامشلي الجنوبي شباط 2012، لضمان تحرير الريف، وتسهيل انخراط الشباب الثائر هناك في الثورة، وتحديد نفوذ شبيحة العشائر، واستطاع بمشاركة كتائب أحرار الشام السيطرة عليها، وتحرير الريف الجنوبي حتى حدود مدينة القامشلي، حاول النظام تنفيذ هجمات عدة لاستعادة تل حميس، ثم أوكل النظام الحرب لقوات حزب العمال الكردية لقاء تسليحها، وفي نيسان/ أبريل (2013) أطلقت قيادة اللواء 313 معركة تحرير القامشلي، إلا أن اللواء اقتصر على ضرب المواقع العسكرية على مشارف المدينة من دون استهدافها أو محاولة دخولها⁽⁷⁾، ليثبت في ما بعد أن قيادة اللواء بقيادة الرائد (محي الدين محيو) نفذت العملية لاستجلاب دعم لها، وإرساله إلى جهات الداخل في محافظات أخرى⁽⁸⁾، واستطاعت الكتائب المحلية المذكورة أعلاه السيطرة على أحد نقاط التحكم في خط أنابيب النفط القادم من حقول النفط في الشمال الشرقي والذهاب إلى مصافي النظام في حمص وبانياس⁽⁹⁾، وأغلقت من دون استثماره في شؤون التمويل.

شكّلت كتائب من المناطق المحررة في ريف تل حميس وجوارها من القبائل أغلبها من دون صراعات قبلية أو مصلحة في ما بينها، وكان عملها مشتركاً، وقد ضمت كتائب كردية مثل كتيبة آزادي ولواء مشعل تمو، وتعاونت مجتمعة في صد هجمات النظام وحزب العمال. في 2014 خرج اللواء (313) بسلاحه وعتاده، وبقيت الكتائب التي شكّلت بمعزل عن التمويل والتدخّل صامدة من دون تمويل من المجلس العسكري أو من أي جهة من مؤسسات الثورة من هيئة الأركان وغيرها، ولم تستثمر صوامع حبوب تل حميس بمخزونها الاستراتيجي من القمح، ولم تتناحر في ما بينها، ولم يظهر بينها أي تعصب قبلي. بعد تغول تنظيم الدولة ومصادرته سلاح جبهة النصرة، واضطرار كتائب أحرار الشام إلى مبايعته؛ اضطر قسم قليل من ثوار الكتائب إلى الانضمام إلى تنظيم داعش لمحاربة النظام و(قسد)، بينما اضطر قسم آخر إلى الخروج من المنطقة لاستكمال نشاطه الثوري في إدلب وريف حلب.

(6) وائل فتحي، «انطلاق عملية تحرير الحسكة»، الوطن العربي، (2012)، <https://bit.ly/3wY4azn>.

(7) د.م، «الجيش الحر يعلن بداية معركة القامشلي»، أورينت نيوز، (2013)، <https://bit.ly/3PlmKmc>.

(8) مجد وهيب، مقابلة عبر الوتساب مع أحمد الحموي من مقاتلي كتائب ال 313 في تل حميس، (15.05.2022).

(9) د.م، الحر يسيطر على محطة نفط بالحسكة، الدرر الشامية، 2013، <https://bit.ly/3NAdfUi>.

ب. قوات الصناديد

شكّلت قوات الصناديد لحماية مناطق قبيلة (شمر) بعيداً عن الثورة وأهدافها، وقد أسسها شيخ القبيلة (حميدي دهام الجربا) الذي كان يتميز بعلاقاته السياسية المواربة والتوفيقية مع القوى جميعها، إذ حرص على عدم الاصطدام بكتائب الجيش الحر. وبعد تقدم قوات حزب العمال الكردي PKK على حساب الجيش الحر في بلدات اليعربية وجزعة، كان قد جهز فصيل الصناديد الذي اشترك مع حزب العمال في قتال الجيش الحر في بلدة تل حميس وما بعدها. اعتمد على عناصر من قبيلته في البداية، وعندما حصل على نسبة من آبار النفط منحتة إياها (قسد) استغل الحاجة المادية للناس، وعمل على ضم بعض المرتزقة من الجوار القبلي المحيط تحت مسمى (حماية المنطقة)، واستغل عصبية القبيلة للتحشيد لمشروعه الباحث عن حصة في حكم المنطقة بعيداً عن مبادئ الثورة، مع طرحه مشروعاً خاصاً بقبيلة شمر وحققها في إمارة مستقلة إذا ساعدت الظروف⁽¹⁰⁾، وقد لعب على عامل عصبية القبيلة لضمان تأييد أغلبية القبيلة إياه، ومحاربة الثوار منها. وقد عينته (قسد) حاكماً مشتركاً لمقاطعة الجزيرة،⁽¹¹⁾ ومنحته امتيازات مالية وحصة مهمة من آبار النفط لتمويل عمله العسكري والتحشيد لصالح (قسد)، وضمان إنجاح مشروعها.

وقد خاض فصيل الصناديد المكون مما لا يزيد على 150 عنصراً معارك في الشدادي بقيادة التحالف و(قسد) ضد داعش، واشترك في عمليات (قسد) المدعومة من التحالف لدحر تنظيم داعش في الرقة، ثم قطعت (قسد) الإمداد المالي عنه، وانشق عناصره أغلبهم عنه بحثاً عن رواتب، فاتجهوا نحو (قسد) نفسها أو قوات أخرى وليدة تشتغل مع (قسد) في حماية الحدود، وتستفيد من التهريب. ثم نسق مع الروسين للقاء معهم في قاعدة حميميم بحثاً عن دور في المرحلة القادمة، فهو يعتمد البراغماتية، وينظر إلى الأوقات العصبية أنها يمكن أن تكون في الوقت نفسه أوقاتاً جيدة بعيداً عن حسابات الثورة ومطالب الحرية والعدالة⁽¹²⁾.

ت. وحدات حماية الشعب التابعة لحزب العمال الكردي PKK

أسسها حزب الاتحاد الديمقراطي وأشراف الأمن السوري عليها في محافظة الحسكة، عناصرها

(10) عبر حميدي الدهام عن حق القبيلة في تكوين إمارة في لقاء تلفزيوني، الرابط <https://www.youtube.com/watch?v=FQWOgHhF27U>

(11) محمود الحسين، عشائر الجزيرة والفرات في سورية: التحالفات الهشة من البعث إلى الثورة، سلسلة تقييم حالة (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، ص5.

(12) رشيد الحاج صالح، «العشائر والثورة السورية: الأدوار والإمكانات»، ع: 5، مجلة قلمون، (2018)، <https://bit.ly/3LQqM8V>.

من الأكراد السوريين، وقيادتها من جبال قنديل في تركيا. كانت مهمتها في الحراك السليبي تخريب التظاهرات وضربها، ثم انتقلت في مرحلة العسكرية إلى قتال الجيش الحر. كانت بداية ظهورها عام 2012 عندما انسحبت قوات النظام من مناطق شمال شرق سورية، وسلمتها لقوات الوحدات الكردية⁽¹³⁾. تعتمد الوحدات على التجنيد الإلزامي للذكور والنساء بمن فيهم الأحداث في ضم المقاتلين إلى صفوفها، وعلى تطوع من هم دون 18 سنة، وهي حزب قديم عمل على نشر أفكاره في إعادة إحياء كردستان، وغرس العداء لتركيا وكره العرب⁽¹⁴⁾. تمكنت الوحدات من السيطرة على رأس العين بدعم من قوات النظام، وعلى قرى بريف حلب الشمالي بعد معارك مع فصائل الجيش الحر. وبعد دخول التحالف الدولي في الحرب على داعش واستخدامها في هذه الحرب سميت بـ (قوات سوريا الديمقراطية - قسد)، وبدعم من التحالف الدولي استطاعت السيطرة على ريف الحسكة ودير الزور والرقعة وريفها وريف حلب الشرقي. يقود وحدات حماية الشعب «سيان حمو» ومن قبل أيضا قائد قوات HPG - قوات الدفاع الشعبي - «فهمان حسين»، أما من الناحية السياسية «صالح مسلم» قائد حزب الاتحاد الديمقراطي. ويظهر جليا ارتباط الوحدات بإقليم كردستان العراق من خلال النظام الداخلي الناظم لها، فتنص المادة الأولى: تنظم نفسها كقوة أساسية في غرب كردستان⁽¹⁵⁾. بالإضافة إلى تدريب العناصر في إقليم كردستان وإشراف قيادات الإقليم في قيام معسكرات تدريب داخل سوريا. وتضم الوحدات كتيبة الحرية العالمية التي ضمت مقاتلين أجنبيا للقتال إلى جانب الوحدات ضد تنظيم الدولة وفصائل الجيش الحر، بهدف الدفاع عن الغرب في مواجهه الحركات الجهادية⁽¹⁶⁾.

وقد شكلت الوحدات الكردية في مناطق سيطرتها ما يسمى بالإدارة الذاتية لإدارة المنطقة، ولم تشرك العرب إلا صورياً، واحتفظت لنفسها بالأدوار القيادية ورسم الاستراتيجية، بينما بقي العرب مجندين إجباريين ضمنها، مع قسم متطوع لقاء أجور شهرية توزعها من ضرائها المفروضة على النشاط كله، ومن عائدات حقول النفط في منطقة سيطرتها التي تشكل أغلب احتياطي الدولة السورية إضافة إلى معلمي الغاز بالسويدية والشدادية. وقد جرفت قرى عربية كثيرة في مسيرة حربها ضد الجيش الحر، منها ما حصل في تل براك حيث قتل أكثر من (40) مدنياً، واعتقل عدد كبير من المدنيين⁽¹⁷⁾، وارتكبت جرائم التطهير العرقي بحق العرب في قرى تل حميس والحسينية وقرى

(13) مجموعة من الباحثين، قوات سوريا الديمقراطية العناصر المكونة والهيكليّة الحاكمة، (تركيا: مركز الأناضول لدراسات الشرق الأدنى، 2020)، ص 4.

(14) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع أسامة منصور الهلالي قائد لواء مشعل تمو سابقاً، (09.06.2022).

(15) بدر ملا رشيد، البنى العسكرية والأمنية في مناطق الإدارة الذاتية، (اسطنبول، مركز عمران، 2017)، ص 17.

(16) ماتيو بوليز، المتطوعون الأجانب في صفوف وحدات حماية الشعب الكردية، عين أوروبية على التطرف، 2019،

<https://bit.ly/3PxjQd>.

(17) خولة حسن الحديد، «جرائم حزب العمال الكردستاني بين العنصرية والعمالة»، الأيام السورية، (2020).

ريف جزعة حتى إن منظمة إمنستي الدولية نشرت في موقعها قرارًا بعدّها ممارسات ترقى إلى جرائم حرب⁽¹⁸⁾.

ث. لواء شهداء غويران

أسّس عام 2012 بقيادة (سامر الخليف) من عشيرة الظفير⁽¹⁹⁾. ويتكون اللواء من مختلف العشائر بتعداد 150 مقاتل، تسلح عبر معاركه في رأس العين من خلال ألوية أحفاد الرسول غير الحسكاوية التي كانت تتسلم السلاح وتخزنه باسم الحسكة ثم ترسل معظمه إلى الداخل إلى بلدة (كنصفرا) بريف إدلب، وتترك بعضًا من قطع السلاح الفردي للمجلس في الحسكة بقيادة (حسن العبد الله).

شُكل اللواء من كتيبي (شهداء الحسكة وعباض الفهري). خاض معارك عدة في مركدة ورأس العين، وفي (12.2012)، اشتبك اللواء مع مليشيات حزب العمال الكردية المدعومة من نظام الأسد في معارك عدة للدفاع عن رأس العين المحررة، اشترك اللواء في معارك تحرير الشدادي، وتحرير حقل العمر النفطي ورابط على جبهة مطار دير الزور.

عام 2014/ تقدم تنظيم الدولة باتجاه الشدادي؛ ما اضطر اللواء إلى الانسحاب إلى حي غويران بمدينة الحسكة الذي لم يدخله النظام؛ لوجود مقرات للجيش الحر وحركة أحرار الشام الإسلامية، وعناصرها أغلبهم من أبناء الحي. وهناك اشتبك اللواء مع قوات حزب العمال PKK وقوات النظام، وبعد حصار النظام وقوات حزب العمال الحي، وقطع خطوط الإغاثة والإمداد،⁽²⁰⁾ اضطر اللواء إلى التفاوض وتم الاتفاق على خروج المقاتلين مع عائلاتهم من الحسكة، الأمر الذي أدى إلى فرط عقد اللواء، وتوجه المقاتلين إلى جبل عبد العزيز ومدينة الشدادي التي يسيطر عليها التنظيم، وانتقل البقية فيما بعد إلى ريف حلب وإدلب ثم إلى منطقة غصن الزيتون.

بعد عرضنا الفصائل المذكورة أعلاه نشير إلى معاناة ثوار الحسكة من عرب وكرد حربين؛ واحدة

<https://bit.ly/3Q5b9Oc>

(18) د.م، لم يعد لنا مكان نذهب إليه، إمنستي الدولية، (2015)،

<https://www.amnesty.org/ar/latest/news/201510/syria-us-allys-razing-of-villages-amounts-to-war-crimes/>

(19) مجد وهيبية، مقابلة عبر واتساب مع صدام العليوي، أحد قيادات لواء شهداء غويران، (01.06.2022).

(20) محمد حسين، «نزوح 10 آلاف من حي غويران بالحسكة والنظام يهدد بتدمير الحي»، أورينت نت، (2014)،

<https://bit.ly/3x1e6qt>

ظاهرة مع النظام، وأخرى مضمرة ومؤثرة اجتماعياً هي المشيخات العشائرية في الجانب العربي، أما الثوار الكرد فقد تمثلت حريهم الثانية المضمرة في نشاط الأحزاب الكردية للإمساك بالشارع في الحراك الكردي الشبابي المستقل الذي تجاوز نخبه. ولدت المعاناة الواحدة حالة من التآخي بين المتظاهرين نجم عنه في مرحلة العسكرية تشكيل كتائب جيش حر كردية وعربية، أو كتائب مختلطة العناصر، عملت جميعها بتمويل ذاتي. قبالة ذلك كانت رؤية المجلس الوطني السوري ثم الائتلاف السوري المعارض تنص على عدم تمويل الجيش الحر بالحسكة، وهو ما يثير تساؤلاً عن الرؤية التي شكلت في هذه المؤسسة، والمؤثرين فيها والراسمين خططها، ذلك كله ولد حالة من الضعف في التسليح والإمكانات، وهو ما أثر في بنيتها ومسيرة عملها، وجعل قسمًا من أبناء الحسكة على اختلاف مشاربهم يضطرون إلى أحد خيارين؛ الانتساب إلى فصائل عسكرية ذات امتداد سوري من مثل كتائب الفاروق، وأحفاد الرسول، وغرباء الشام -التي لم يكن لهم دور قيادي فيها، ولا مجال لتوجيه رؤيتها بخصوص المنطقة- أو الانتساب إلى فصائل إسلامية سواء كان المنتسبون إسلامي التوجه أو مضطرين إلى العمل ضد النظام، فلم يجدوا بداً من الانتساب إلى جبهة النصرة وأحرار الشام ثم تنظيم الدولة الإسلامية في ما بعد.

2. الرقة

تضم الرقة عشائر عدة، أهمها وأقدمها الولادة والعفادلة اللتان تعودان إلى أرومة واحدة هي البو شعبان، إضافة إلى مهاجرين استقروا فيها منذ عقود من (السخنة، والسفيرة، وإدلب، وحلب، ومنغ). هذا التنوع في سكانها وعدّها مجاًلاً حيويًا لاستثمارات مهاجرة استقرت فيها مع عدم وجود نواة مدنية أولى ثابتة تشكل أفقاً مشتركاً لسكانها، شكل عاملاً في تطورات تقدم داعش وقسد. وبعد سيطرة حزب البعث على السلطة كرس العشائرية وربط العشائر به، ما زاد من الحالة التنافسية بين قاطنيها، ذلك كله عزز مشاعر الانتماء إلى المكان، وأنه ليس وطنًا نهائيًا يملك قابلية التذويب المحلوي لسكانه وأفراده جميعهم⁽²¹⁾.

ومع بداية الثورة السورية كان الموقف بين أبناء الرقة بوصف بيئتهم قبلية وريفية من وجود مهاجرين حضر من مدن أخرى متنوعاً، وحكمت القبلية الموقف بصورة واضحة، وقد كانت قبيلة الولادة - عشيرة الناصر خصوصاً أولى وأقوى القبائل مانصرة للثورة، بينما كان موقف قبيلة العفادلة مؤيداً للنظام باستثناء نخبة من أفرادها المثقفين، في حين ذهبت القبائل الموالية للنظام

(21) انظر: معبد الحسون، «الرقة من العشيرة إلى المدينة»، (د.م: معهد العالم للدراسات، 2017)، ص 4.

بعد تحرير الرقة إلى الانتماء إلى داعش للفتك بمن ثار.

شُكِّلَت فصائل عدة من قبيلة الولدة، منها (لواء أحرار الطبقة بقيادة محمود الشيخ، لواء أويس القرني بقيادة عبد الفتاح الشيخ الحاج عبد، كتيبة محمد بن عبد الله، لواء ثوار الرقة).

أ. لواء أويس القرني

شُكِّلَ اللواء بمدينة مارع في أيار/ مايو 2012 من قبل (عبد الفتاح الشيخ أبو محمد) ومجموعة من ثوار عشيرة الناصر بحوالي 300 مقاتل بتمويل ذاتي، ثم من تبرعات ممولين مدنيين في الخارج من المهاجرين من أبناء القبيلة وخارجها، ما أعطاه فيما بعد رؤية مستقلة عن الممولين من ائتلاف وغيره. في تموز/ يوليو 2012 اشترك اللواء في تحرير مسكنة، ثم خاض معركة تحرير دبسي عفنان التي تعد بوابة الرقة من جهة حلب، وأولى معارك بدء تحرير أراض من محافظة الرقة في آب/ أغسطس 2012، قاتلت كتائب كثيرة تحت قيادة اللواء، ولكن بعد تحرير الطبقة في كانون الثاني/ يناير 2013 استقلت هذه الكتائب، فخرجت كتيبتنا أحرار الطبقة وأحرار الرقة من اللواء، وانضمتا إلى أحرار الشام، كان السبب المباشر لهذا الخروج تعيين مؤسس اللواء (عبد الفتاح الشيخ) الرقيب المنشق (أبو قتادة) قائداً عسكرياً للواء، وهو من عشيرة العجيل التي مارست التشبيح للنظام، ما ولد ردّة فعل عند المقاتلين الأوائل، إضافة إلى النظرة الفوقية لدى هؤلاء القادة من عشيرة الناصر التي امتلكت قيادة قبيلة الولدة تجاه بعض العشائر التابعة للولدة التي تقع في مرتبة قبلية أدنى وفقاً لمنظور إقطاعي بحسب ذهنية بعضهم في سيادة عشيرة الناصر⁽²²⁾، ما دفع باتجاه الانشقاقات المذكورة. أما الأسباب العميقة التي برزت بعد تحرر المناطق هي اختلاف الموقف حول الغنائم والدعم، فقد كان موقف عبد الفتاح الشيخ يتمركز حول ضرورة نظافة الدعم، وعدم الاستفادة من الغنائم المدنية التي تعد مآلاً عاماً، بينما لم يهتم قادة الكتائب المنفصلة عنه بمصدر التمويل، بينما اغتنمت كتيبة أحرار الطبقة صومعة البوعاص بمخزون 100 ألف طن من القمح، فوزعت مخصصات الأفران، وباعت البقية لأغراض التسليح والتمويل.

مع تقدم داعش في الرقة ومحاولتها السيطرة عليها، حاصرت أولاً لواء التوحيد المكون من أبناء المحافظات الأخرى خصوصاً أبناء مدينة منغ من سكان الرقة، فصادرت سلاحه، ونفت عناصره إلى ريف حلب، بعد ذلك دعي عبد الفتاح الشيخ – قائد لواء أويس القرني إلى مؤتمر دولي في إسبانيا، فخرج إلى تركيا للسفر، عند ذلك قصف النظام مقر لواء أويس القرني، فقتل القائد العسكري للواء (محمد أحمد الفرج - أبو حمود)، وبقي اللواء بلا قيادة، فعاد عبد الفتاح الشيخ قبل إتمام رحلته،

(22) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع محمود علي الناصر، (11.06.2022).

ولكن قبل وصوله إلى الرقة هاجمت داعش اللواء، فحاصرت، وسيطرت على سلاحه، واعتقلت مقاتليه، وحلته، حينئذ كان يحتفظ بحوالي خمسين أسيراً من النظام، وطالبته داعش بتسليمهم لها، فرفض، إلى أن قرر أن يبادلهم مع النظام مقابل 36 معتقلاً⁽²³⁾، وفي أثناء عملية التبادل تعرض لكمين من النظام وشبيحة عشيرة العجيل، ليعتقله النظام على حاجز (أثريا)، واستمر اعتقاله أربعة أشهر، ثم خرج بواسطة الأسرى المحرّرين، وسطوة أحدهم (المهندس لؤي سلهب) المرجع في الطائفة العلوية، وذهب إلى شمال حلب، وفي 2015 طلب منه الأميركيون تشكيل قوة عربية من الرقة ومن كبار ثوار العشائر لحرب داعش، ولكن اشتراطوا أن يكون الجميع تحت إمرة (قسد)، ورفض.

ب. لواء ثوار الرقة

أسس اللواء عام 2012 في بلدة سلوك في مدينة الرقة بقيادة (أحمد علوش أبو عيسى) من قبيلة الولدة⁽²⁴⁾. يضم اللواء في صفوفه أفراداً من مختلف العشائر في الرقة، وقد بلغ عدد مقاتليه 1500 مقاتل قبل قتال داعش، وهو يتبع المجلس العسكري التابع للائتلاف المعارض، واشترك في معارك تحرير مدينة تل أبيض، وتحرير مدينة الرقة، وله نقاط رباط على جبهات مع النظام السوري في الفرقة (17).

في آب/ أغسطس 2013 استقر الأمر بالرقة باستقرار ثلاث قوى عسكرية كبيرة هي جبهة النصرة وأحرار الشام وتنظيم الدولة الإسلامية، بقي لواء ثوار الرقة الوحيد من الجيش الحر في الرقة يعاني أزمة ابتلاع أحد القوى الكبرى إياه، فوقف أمام خيار الانتماء إلى أحد المكونات العسكرية الثلاثة، واختار الانتماء إلى جبهة النصرة لضمان عدم ابتلاعه، كان تعداد جبهة النصرة 300 مقاتل، في حين بلغ عدد مقاتلي لواء ثوار الرقة 1200 مقاتل، فصار القوة الضاربة لها، أصبح مركز القيادة في مقام أويس القرني -مختلف عن لواء أويس القرني طبعاً- فجرت داعش ببداية معاركها مع جبهة النصرة المقام - المقر، وبدأت المعارك مع داعش التي استمرت 17/ يوماً⁽²⁵⁾، ما أدى إلى هزيمة أحرار الشام، وذهبت باتجاه دير الزور، وذهبت الجبهة مع لواء ثوار الرقة باتجاه صرين بريف حلب، يلاحظ أنه مع دخول تنظيم الدولة مدينة الرقة خاض اللواء معارك مع التنظيم أدت إلى هزيمة اللواء، وانسحابه من المدينة باتجاه صرين في ريف حلب الشرقي في 2014.

ومع إنشاء قوات التحالف الدولي ضد تنظيم الدولة (قوات سوريا الديمقراطية)، انضم اللواء

(23) مجد وهيبة، مقابلة عبر واتساب مع محمد حرشة، (13.06.2022).

(24) مجد وهيبة، مقابلة عبر واتساب مع عبد الرزاق الشلاش، كاتب وباحث في الشأن السوري واحد قيادات الثورة في الرقة، بتاريخ 2022/5/29.

(25) معبد الحسون، الرقة والثورة من التحرير إلى التدمير، (اسطنبول، دار موزاييك، 2020)، ص 124.

إلى القوات، وشارك في المعارك ضد تنظيم الدولة في تل أبيض وعين عيسى ومدينة الرقة، ظهرت الخلافات بين اللواء نتيجة تهميش قياداته وعدم إعطائها أي دور في مدينة الرقة، وقامت (قسد) بحملة اعتقالات في صفوف اللواء، واعتُقل (أبو عيسى)، ووضع رهن الإقامة الجبرية في محافظة أخرى بمدينة القامشلي لمدة 3 سنوات. ثم أعيد إلى منزله بإقامة جبرية بوساطة أميركية 2021م لئلا يتم اغتياله من قبل قسد، لم يدخل اللواء في معارك ضد فصائل الجيش الحر، وإنما بدأ بقتال النظام السوري، ومن ثم تنظيم الدولة، وانتهى اللواء بذلك.

ت. كتيبة القادسية

أول كتيبة شُكِّلت في محافظة الرقة في بلدة سلوك شمال الرقة، شبابها أغلبه من أبناء مدينة سلوك وقرائها من مختلف القبائل بحوالى 100 مقاتل، وكان تمويلها من داعمين خارجيين، وعبر رياض الحسن عضو المجلس الوطني والائتلاف في ما بعد، شاركت في تحرير بلدي سلوك وتل أبيض، ويقودها فيصل البللو من قبيلة (جيس)، وينحدر رياض الحسن عضو المجلس الوطني عن مدينة دير الزور من قرية الكلبة، وهو من القبيلة نفسها، أعطى رياض الحسن 200.000 يورو لفيصل البللو مكافأة تحرير تل أبيض⁽²⁶⁾، وهو الذي أصبح في ما بعد من قيادات داعش. انضمت الكتيبة قبل تحرير الرقة إلى كتائب أحرار الشام، بعد تحرير سلوك حُررت تل أبيض، واستقرت الفصائل في تل أبيض، فبايع (البللو) جهة النصرة، فرفض مقاتلوه البيعة، وبقوا مستقلين عنه لشهرين، وعملت الكتيبة بصورة مستقلة، وفي بداية 2013 انضمت إلى كتائب أحرار الشام الإسلامية، وذابت ضمنهم، بعد خسارة أحرار الشام في معارك دير الزور أمام داعش، وتشتتهم، تجمع أعضاء القادسية من جديد في بداية 2015، وأعادوا تشكيلها في شمال حلب، وانضموا إلى عملية نبع السلام.

ث. لواء المنتصر بالله

أسس نهاية 2012 قبل عملية تحرير مدينة الرقة من قبل وجهات اجتماعية بهدف حماية خط العفادلة، أي المنطقة من الرقة غرباً انتهاء بقرى الأحوس شرقاً، وهي التي يسكنها غالبية من قبيلة العفادلة، قاده ثلاثة ضباط شرطة منشقين هم كريم الكريم من عشيرة الذياب التابعة لقبيلة العفادلة، وإبراهيم العبد الله من عشيرة المدلج - عفادلة، وفايز الكاطع من عشيرة البريج- عفادلة أيضاً. ويروي ناشطون أنهم في مرحلة تحرر الريف قبلوا بالتفاوض مع النظام عبر وسيط لحمايتهم من القصف، وتزويدهم بالمزوت مقابل أن يحمي اللواء محطة الجركة النفطية بريف الرقة الشرقي،

(26) - مقابلة شخصية مع عبد الرزاق شلاش عبر الواتساب بتاريخ 2022/6/13م قال فيها أنه حضر تسليم المبلغ

ويقدم النظام خمسة ملايين ليرة سورية شهرياً لقاء ذلك، واتفقوا على ذلك. وبعد تحرير الرقة انتهى الاتفاق، وبعد سيطرة جبهة النصرة على مدينة الرقة خرج قادة اللواء إلى خارج سورية، واحد إلى الإمارات، والثاني إلى السويد، والثالث فايز الكاطع في تركيا بعد تسليمه سلاح اللواء.

3. دير الزور

تعد منطقة دير الزور من المناطق العشائرية في منطقة الجزيرة، كبرى القبائل المنتشرة في المنطقة وأهمها قبيلتا العكيدات والبكارة، إضافة إلى عدد من القبائل والعشائر ذات التعداد الكبير نسبياً. عند اندلاع الثورة والحراك السلمي شارك أبناء المدينة بزخم، فنزلت المدينة بتظاهرات مثلت قوة وأغلبية لها وزنها، ونظراً إلى نشاط شخصيات معارضة للنظام في تنظيم الحراك، وضبط سلميته، دفع النظام نحو استفزاز أبناء المدينة، وضرب بقسوة، واستشهد كثيرون، ما دفع باتجاه تسليحها، تميزت بنضج حراكها المدني، إذ خرجت العائلات كاملة، ونفذت تظاهرات مليونية من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، وهذا ما أخاف النظام، فأمعن في حرفها عن سلميتها، قبالة ذلك نشطت مجموعة من الشباب المثقف من ذوي التجربة من أبناء المدينة، حاولت المحافظة على سلميتها وتنظيمها بطرائق واعية ومدروسة من أطباء ومحامين وقضاة ومعلمين، هذا العمل المنظم كان من جملة توجيهاث المثقفين وناشطين إسلاميين وأئمة مساجد ومعارضين قديمين للنظام، وتخطيطهم، ولم يبتلع المنظمون الطعم في التعامل مع عسكرة النظام بالمثل لوعيمهم درجة بطشه، ووعيم خطة النظام لعسكرة الثورة، لكن أبناء الريف من العشائر أمام العنف المفرط اندفعوا إلى حمل السلاح ومحاربة النظام سواء في داخل مدينة دير الزور أم في ريفها، وقد استطاعت الفصائل المسلحة تحرير ريف المحافظة بصورة شبه كاملة وفي وقت باكر من مرحلة الحراك المسلح.

أ. جيش القادسية

أسس جيش القادسية مع بداية انتقال الثورة إلى المواجهة المسلحة، وشُكِّل في مدينة البصرة من قبل مجموعة ثوار من مناطق عدة متجاورة، قائده الملازم أول فاضل الخضر الملقب بـ (نمر)، تنقلت القيادة بين قادة عدة، وفي 2013 بعد إصابة قائده (نمر) انتُخب (إبراهيم العطية أبو بكر) من عشيرة (البكير)، ضم اللواء مقاتلين من انتماءات قبلية عدة من قرى البصرة، والصباحة، والدحلة، وجديد بكارة، وجديد عكيدات، وخشام، والصالحية.

وبلغ عدد مقاتليه حوالي 250 مع منشقي الجيش من محافظات أخرى، وقد أسهم في معارك

عدة من أهمها معارك تحرير (بلدة الصور، ودوار المعامل، وحاجز مراط، وحاجز البصيرة، وحاجز الحلبية، وتحرير فرع الأمن السياسي بدير الزور⁽²⁷⁾، والثانوية الصناعية، وبعض المعاهد). وكانت منطقة عمله في ثلاثة قطاعات بالمدينة، وهي (الجبيلة، وحويجة صكر، والصناعة). عمل عبر منتسبيه من مختلف القبائل على ضبط عدد من الخلافات القبلية وخلافات السيطرة على الآبار بين النصرة والقبائل في خشام في محيط مدينة دير الزور على تقاسم فوائد آبار النفط، ولعب دورًا في فك أزمات قبلية حتى سمي بين بعض القرى بـ (قوات حفظ السلام)⁽²⁸⁾، وتتبع للواء كتيبة حمزة العاملة في ريف دمشق. كان تمويل اللواء ذاتيًا ومن غنائم حروبه مع النظام، استطاعت بعض الكتائب المنتمية إلى قبيلة البكارة مثل كتائب (الدحلة، وجديد بكارة، والصالحية) ضمان تمويلها بالاستحواذ على حصة من النفط الذي استولت عليه قبيلتهم (البكارة) في الريف الشمالي للكسرة، وتنفعت (كتيبة خشام) من عشيرة (العنابزة) التابعة لقبيلة البكير أيضًا من أقاربها في قرية خشام من دعم أقاربهم لخدمة اللواء وتذخير، وقد بلغت مدة التمويل هذه ستة شهور. وتنفعت (كتيبة البصيرة) من عشيرة (الكبيصة) التابعة لقبيلة البكير التي وضعت يدها على آبار (السياد) ودعمتهم بتمويل الغذاء⁽²⁹⁾، وبقيت تلك الكتائب مرتبطة ومتماسكة مع جسم اللواء. ضم اللواء كثيرًا من أبناء مدينة دير الزور، وقاتل في صفوفه شباب من درعا وحماة واللاذقية من المنشقين، استشهد قسم، وعاد قسم آخر إلى منطقتهم لتشكيل فصائل ثورية في درعا مثلاً.

حصلت مشكلات وصدامات بينه وبين النصرة من آب/ أغسطس 2012 حتى حزيران/ يونيو 2014، ومشكلات مع أحرار الشام، واعتقالات متبادلة، ثم عند قدوم داعش، اعتزل قتال داعش، وحرص على مقاتلة النظام، وترك قرار مقاتلة داعش خيارًا حرًا للكتائب التابعة له. مع بدء حرب تقدم داعش في ريف دير الزور والقرى التي ينتمي إليها جزء من مقاتلي كتائب اللواء، انسحبت كتائب الريف من مواقع رباطها على جبهات النظام في المدينة للقتال دفاعًا عن أهلهم وقراهم من دون توريط اسم اللواء في الحرب، فتشظى اللواء، وبقيت منه بعض كتائب المدينة، واستشهد قسم كبير من (كتائب الصبحة وجديد بكارة) في حروب الدفاع عن مناطقهم ضد داعش. اعتقل تنظيم الدولة الإسلامية فاضل الخضر (نمر) وصُفي مع زياد الجاموس، وقسم كبير من مقاتليه بعد سيطرته على ريف دير الزور، وبعد أن تبينت قوة التنظيم وقدرته على اختراق الفصائل ومعرفة عناصرها واعتقال كثير من قادتها وأفرادها وتصفيهم، واعتقال قائده إبراهيم العطية (أبو

(27) مناف الحمد، القبيلة والسياسة في سورية، (إسطنبول: مركز حرمون للدراسات، 2021)، ص 27.

(28) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع حسين الحجي، (16.06.2022).

(29) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع حسين يسيس، (15.06.2022).

بكر) الذي استطاع الهرب منهم والخروج إلى تركيا⁽³⁰⁾ في أيلول/ سبتمبر 2014 رفقة خليل الوحش قائد كتيبة معاوية بن أبي سفيان، فانفرط عقد اللواء. ثم عاد أبو بكر إلى مدينته البصيرة بعد هزيمة التنظيم حتى اغتيل في البصيرة بريف دير الزور من قبل ملثمين، واتهمت (قسد) باغتياله بسبب مواقفه الصريحة الراضية استمرار سيطرة (قسد) على مدينة دير الزور بعد طرد تنظيم الدولة.

ب. لواء الأحواز

أسس اللواء في نهاية عام 2011 بقيادة فهد عايش العبد الله أبو عبد الله من أبناء عشيرة البكير في مدينة البصيرة بريف دير الزور، تشكل اللواء من 4 كتائب تعمل جميعها في دير الزور، وهي (كتيبة جنود بيت المقدس، كتيبة ذو الفقار، كتيبة بابا عمرو، كتيبة أنصار السنة) من أفراد من عشائر مختلفة.

بلغ عدد مقاتليه 800 مقاتل، وقد شارك اللواء في معارك عدة، في الصور والبصيرة وحاجز السياسية وحاجز المعامل. قتل قائده فهد عايش في معركة دوار الحلبيّة في دير الزور بداية تشرين الأول/ أكتوبر 2012، وخلفه شقيقه إسماعيل عايش العبد الله أبو إسحق.

وبعد دخول تنظيم الدولة إلى المنطقة وبدء المعارك معه، انضم اللواء إلى بقية الفصائل لقتال التنظيم في الريفين الشمالي والشرقي لمدينة دير الزور، وخصوصاً قرية جديد عكيدات معقل تنظيم الدولة ومسقط رأس والمها في دير الزور عامر الرفدان، أدت هذه المعارك إلى مقتل 58 عنصراً من الطرفين⁽³¹⁾، ومع انسحاب اللواء من المنطقة بعد الهزيمة في معركة (قرية بريهه) تفرق اللواء إلى مجموعات عدة، إحداها اتجهت إلى ريف حلب الشمالي، وشكلت فصيل أحرار الشرقية، وانضم قسم آخر إلى قوات (قسد)، واشترك في معارك عدة ضد تنظيم الدولة. عُيّن قائد اللواء ضمن قيادات مجلس دير الزور العسكري التابع لقسد.

وفي عام 2020 تعرض قائد اللواء للاغتيال في قرية التوامية بريف دير الزور الشرقي، اتُهمت قوات الأسايش بالاغتيال.⁽³²⁾

(30) د.م، «أبو بكر قادسية ليس أولهم.. قادة سابقون في الجيش الحر قُتلوا في دير الزور»، عنب بلدي، (2020)،

<https://bit.ly/3PY3QI3>

(31) عمر العبد الله، «القاعدة تحارب نفسها في دير الزور»، المدن، (2014)، <https://bit.ly/3NJOTYg>.

(32) مراسلون، «مقتل أبو إسحاق الأحواز أحد أبرز القيادات العسكرية في دير الزور»، صحيفة جسر الالكترونية، (2020)،

<https://bit.ly/3GF6K0e>

ت. لواء ابن القيم

شُكل في نهاية 2012 بقيادة أبو رتاج الملقب بالسيد، ومعه المحامي محمود الحماش الملقب أبو سراج، واعتمد تشكيكه على بناء على مقدرات النفط في (بئر الملح) غزير الإنتاج في منطقة الشيعيات، اشتهر منه قادة قاتلوا النظام في بعض المواقع، واشتهر رافع العكلة (أبو عكلة) قائدًا لإحدى الكتائب التابعة له سميت لواء (أحمد بن حنبل).

ويروي ناشطون من المنطقة أنه كان أشبه بمتعهد، يأخذ مجموعة من المقاتلين إلى أي هدف عسكري أو مدني محمي من قبل عساكر من مثل صوامع الحبوب وغيرها، ليحتله، ويستثمر خياراته، حتى إنه انتقل إلى الحسكة، وضرب صوامع حبوب تل براك في الحسكة، ونهبها، وحاول الاستفادة من صوامع حبوب تل حميس بعد تنفعه من خيارات مصرف تل حميس الزراعي، لكن الفصائل الحسكوية طردته مع عناصره خارج الحسكة⁽³³⁾، رابط اللواء بدير الزور، وقاتل النظام بالكتائب التي يقودها أبو خالد القيم، ثم ذهب إلى القلمون، استغل موضوع الشيعيات، وتكلم باسمهم، ويعمل ضمن فصائل الجيش الحر في إدلب الآن.

ث. جيش التوحيد

إن الناشطين من مثقفين ورموز إسلامية وشخصيات مدنية معارضة في دير الزور المدينة الذين نظموا الحراك السلمي، وعملوا على ضبطه والمحافظة على سلميته، كما أسلفنا أعلاه في الحديث عن حراك المدينة، وهم من وعوا خطة النظام بالدفع باتجاه التسليح، وهم ممن عملوا ناشطين مؤسسين في (اللجنة الشعبية لنصرة العراق وفلسطين) لعقد من الزمن قبل الثورة، وعملوا من خلال تظاهراتهم على العمل في هامش معارض للنظام، صار لهم رصيد في الشارع، وكانت خطتهم في الثورة أن يوصلوا الناس إلى العصيان المدني، ومن خلال عملهم في اللجنة التي كانت وعاء متنوعاً احتضن شخصيات من مرجعيات عدة قومية ووطنية وإسلامية، وبينهم الناشط المسيحي جاك عبدالله الذي نشط برفقة الإسلاميين، استطاعوا تنظيم حراك دير الزور - المدينة، وضبطه حيناً.

خارج الإطار السابق من العمل والعلاقات كان شباب من دير الزور موظفين وعمالاً نهاراً، ومقاتلين لضرب حواجز النظام ليلاً في رحلة التسليح قبل التحرير، بدأت الكتائب الإسلامية في المدينة بالعمل

(33) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع جواد الحسن من مقاتلي بلدة تل حميس، (17.05.2022).

متأخرة في الدير نتيجة لهذه الرؤية، فشكل الإسلاميون من ناشطي اللجنة الشعبية لنصرة العراق وفلسطين كتائب جيش التوحيد أواخر⁽³⁴⁾ 2011، ضمن عمل مؤسساتي ومنظم في دير الزور والحسكة والميادين والرقعة، وشكل الجيش المذكور الهيئة الشرعية لحفظ الأمن في المدينة ولم يستثمر نهائياً الغنائم المدنية، وقد ضم جيش التوحيد عشر كتائب بالمدينة وثلاثاً بالحسكة واثنين بالرقعة واثنين بالميازين وواحدة بالبوكمال، وكان القادة أطباء ومهندسين وأساتذة لم يخرجوا من الدير بمواجهة داعش إلا بعد خروجهم ومغادرتهم المدينة بعد معارك ضارية بقيادة مؤسسه (أبو دجانة الفراتي)، وقد كان التمويل ذاتياً أو من متبرعين مدنيين في الخارج، خاض جيش التوحيد معارك التحرير، وكان له دور فاعل في تحرير المدينة، وخصوصاً منطقة (الحويقة) الخاضعة للنظام بمؤازرة البعثيين، وفيها بيت المحافظ، واستطاعت حفر أنفاق، وتلغيم مبنى الحزب والمحافضة.

حرر هذا جيش التوحيد المعهد الصناعي بعد محاصرة الجيش الحر إياه أشهراً عدة⁽³⁵⁾، نلاحظ أن مؤسسي جيش التوحيد هم من كانوا ضد التسليح، فبدؤوا متأخرين، وقادته هم من رفضوا الدخول في جبهة النصرة وداعش في بداية نشاطهما في المنطقة، وانتشر في محافظات أخرى وكان جزءاً من الجبهة الإسلامية السورية التي قادها (أبو دجانة الفراتي) في الداخل، وقادها في الخارج (حسان عبود) الذي قاد كتائب أحرار الشام في ما بعد، نشأت اختلافات فكرية بين قيادة جيش التوحيد وبقيّة قادة الجبهة الإسلامية السورية بسبب إدخال الأخيرة (جيش الإسلام) في تشكيلها⁽³⁶⁾، وحذف الجبهة كلمة (السورية) من اسمها، فخرجت كتائب جيش التوحيد، وشكلت مع كتائب أخرى في دير الزور (حركة أبناء الإسلام)، وعندما اقتربت داعش من المدينة انحصرت بين فكي كماشة؛ داعش القادمة من الشمال، والنظام الموجود في الجنوب والغرب، فقاتلت الطرفين. وقد كانت آخر نقاط الرباط داخل المدينة على المطار والجبل وباتجاه النهر قبالة داعش، وبعد تمكن تنظيم داعش من كسب بعض المقاتلين في الحركة، واختراقهم، ومحاولات اغتيال قادتها، وتقدم داعش على محاور المدينة الأخرى، انسحبت كتائب جيش التوحيد من الحركة ومن الدير، ودخلت داعش المدينة 2014.

ما يمكن تمييزه في حراك دير الزور أن الحراك المدني المدني رسم في جزء منه -عبر منظميه- شكل جزء من العمل العسكري، وسياسته، وترك أثره في قسم من أتباعه في الريف، لكن الشكل الغالب الذي يمكن قراءته في الريف أن الفصائل تكونت من أبناء عشائر عدة في بداية الحراك، إلا أن البناء السكاني القائم على العشيرة ظل بارزاً ومؤثراً في حركة الفصائل وتموضعها. فغاب التنظيم والإدارة

(34) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع حمزة اللطيف، (30.05.2022).

(35) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع إسماعيل الصباح، (13.06.2022).

(36) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع إسماعيل الصباح.

داخل هذه الفصائل، إضافة إلى بقاءها ضمن محيطها المكاني لحماية ممتلكاتها، ولم تشارك في مناطق أخرى إلا مشاركة ضيقة ومحدودة. كان للنفط أهمية كبيرة في التأثير في بنية العشيرة في دير الزور بعد طرد النظام السوري، ما أدى إلى ظهور أطماع داخل بعض العشائر، ومن ثم الصراع في ما بينها، وفي فصائل أبنائها، واستثمر تنافسها تنظيم الدولة بالسيطرة على المحافظة⁽³⁷⁾.

وقد وجد تنظيم داعش أرضية له من خلال أبناء العشائر الذين قاتلوا في العراق ضد القوات الأميركية، وعادوا إلى سورية، فجبهة النصرة أسست في بلدة الشحيل بريف دير الزور الشرقي، لكن سياسة التنظيم المتشددة التي قامت على تهميش دور العشائر، وحاولت فرض نفسها بالقوة على بنية العشائر، وتفكيكها لفرض سيطرتها الكاملة على المنطقة. دفعت عددًا من أبناء العشائر إلى الالتحاق بمجلس دير الزور العسكري المنضوي آنذاك في صفوف (قسد) المدعومة من قوات التحالف، وليشكلوا رأس حربة في المعارك كلها التي خاضتها قسد ضد التنظيم في ريف دير الزور. وبعد القضاء على تنظيم الدولة لم يستقر الأمر للعشائر، لأن الانتهاكات المتراكمة التي خلفتها سياسة (قسد) في المنطقة، أدت إلى إشعال المنطقة من جديد، ولعل أهم الخلافات بين (قسد) وأبناء المنطقة هي: إطلاق (قسد) سراح أبرز عناصر تنظيم الدولة المحليين، وإشراكهم في مجلس دير الزور العسكر،. وتصفية شخصيات قيادية في الجيش الحر حظيت بتقدير أهالي المنطقة من مثل إسماعيل العبد الله (أبو إسحق)، قائد لواء الأحواز، وياسر الدحلة اللذين اغتيلتا بطريقة تثير الشكوك في تورط (قسد)، وتبني شخصيات قبلية ذات سمعة سيئة، ومنحهم مناصب، وفرض مناهج تعليمية لا تتسق وطبيعة سكان المنطقة وإرثهم الثقافي والاجتماعي والديني، وملاحقة الناشطين المدنيين في دير الزور، ولصق تهمة (داعش) بكل منائهم⁽³⁸⁾. وجاءت محاولة اغتيال أبرز شيوخ العشائر في ريف دير الزور، وهو إبراهيم خليل عبود الجدعان الهفل، شيخ عشيرة العقيدات، كبرى العشائر العربية في هذا الريف⁽³⁹⁾، والتي أدت إلى مقتل أحد وجهائها، لتحرك مجمل القبائل والعشائر في منطقة شرق نهر الفرات، ما أدى إلى تدخل مباشر من التحالف الدولي لتهدة الأوضاع ومنعها من الوصول إلى الصدام المسلح بين العشائر و(قسد).

(37) محمد حسان، «إضاءات على العشائرية في دير الزور، الجمهورية»، (2017)، <https://bit.ly/3GxjmGj>

(38) أحمد طلب الناصر، «عشائر دير الزور رحلة التهميش من الأسد إلى قسد»، تلفزيون سوريا، (2020)، <https://bit.ly/3x2t4MM>

(39) أمين العاصي، «سورية: حرب على عشائر شرقي الفرات»، العربي الجديد، (2020)، <https://bit.ly/3NK547T>

خامساً: النتائج والتحليل

في محاولة الإجابة عن سؤال البحث الرئيس نقترح طرح ثلاثة مفهومات تداخلت حيناً، وتساوقت حيناً في تبادل التأثير في بنية تلك الفصائل ودورها ومآلاتها، وهي:

1. الشرعية والشرعية الثورية

إن قيام جماعات الشباب النائر بعمليات عسكرية ضد نظام غاصب للسلطة، ومنتك للحريات، ويهدد الناس في أمنهم، خصوصاً بعد حشر هذا النظام مؤسسة الجيش التي ينتسب إليها أبناء الشعب عموماً بكل ما يعنيه من وضع مؤسسة مكونة من أبناء هذا الشعب لضربه وقتله، دفع بعدد من الثوار إلى التسلح، وسحب العسكريين من الجيش عبر عملية الانشقاقات التي حصلت، وتشكيل كتائب الجيش الحر لحماية التظاهرات ثم تحرير بعض المناطق.

ذلك كله فتح باب التحرر من النظام الذي اختزل الدولة بالسلطة عبر عقود، ما جعل مفهومات الدولة والمواطنة والحق العام مفهومات وليدة غير متمايز وغير ناجزة معرفياً لدى كثير من الشعوب التي خضعت لتلك الحالة، لذا عندما تحررت المناطق الثائرة على يد ثوارها من المقاتلين، باتت كل من تلك الفصائل ترى نفسها سلطة ثورية تمتلك شرعية ثورية انطلاقاً من عملها ونضالها العسكري وتقديمها الجهد والمال والأرواح، ما جعل الأفراد والجماعات موقنة بشرعيتها وحقها في السلطة والمقدرات التي اغتُبت، ودفع بجماعات كثيرة إلى كثير من التجاوز بحق المدنيين أيضاً، بل ذهب قادة إلى عد أنفسهم محررين وذوي فضل على كل من لا يحمل سلاحاً بمقولة ((أين كنت عندما كنا نقاتل النظام)) التي توجه لأي مدني، ودفع الفصائل نحو مزيد من الغطرسة، والاعتداد بالشرعية الثورية للقيام بأي عمل من مصادرة أموال وأموال تحت مبررات عدة، إضافة إلى عدها كل ما كان يديره النظام من مؤسسات ملكاً قابلاً للاغتنام من دون احترام للمال العام وحرمة وقديسيته بوصفه مأللاً عاماً للشعب، وليس لفصيل، أدى ذلك التغول على الحقوق والحريات في بيئة ريفية وقبلية إلى تزلزلت جماعات كثيرة في موقفها المؤيد للنظام، حتى وإن كان في مناطق أبعد من هذه الأحداث، عبر تسويق النظام سردياً أن بديله الفوضى والخراب، وأدى أيضاً في أوساط الحدث إلى أن يفكر كثيرون في الانضمام إلى فصائل قوية بغية نيل القوة والمنعة والحظوة ثم الانشقاق عنها في ما بعد، ما أدى إلى تشكل فصائل لا انتماء ثوري حقيقي لها.

استثمرت كتائب الرقة التابعة للواء أويس القرني صوامع الحبوب للتسليح، واستثمر قسم مهول

من كتائب دير الزور معظمها آبار النفط، وذهبت كتائب (رافع الرجو-أبو عكلة) إلى الحسكة لنهب مراكز الحبوب، قبالة ذلك ظهر ضعف كتائب الجيش الحر التي لم تستثمر تلك المقدرات مع عدم تمويلها من قبل هيئة الأركان، فاضطرت للانضمام إلى أحرار الشام كما في الفصائل أغلبها، ومنها كتيبة القادسية في تل أبيض بعد رفضهم موقف قائدهم في مبايعة النصرة، فاستقلوا زمناً ثم بايعوا كتائب أحرار الشام، وعلى الرغم من كون المقاتلين على الجبهات مثلوا شكلاً ناصعاً من النضال العسكري الصعب ضد نظام مجرم وعانوا صعوبات كثيرة في أوضاع القتال والصمود، فإن حاجتهم إلى الذخيرة والتمويل وضعتهم في حال ارتهان لمن يشرعن عملهم، ولعدم وجود وعي سياسي لدى كثير من قادتهم، أدى ذلك انطلاقاً من إحساسهم بشرعية عملهم إلى إنشاءهم تحالفات أوهن من خيط العنكبوت لاستكمال عملهم، بل ذهب بعضهم إلى عدّ التبنّي الأميركي لهم شرعية ثورية حقيقية، فانخرطوا في حرب (قسد) التي استخدمتهم، ثم ما لبثت أن أقصتهم واحداً تلو الآخر، ومثال ذلك لواء ثوار الرقة حيث اعتقلت (قسد) قائد اللواء أبو عيسى وابنه لثلاث سنوات ثم فتّنت لواءه كاملاً.

إن مفهوم الشرعية الثورية في مرحلة ما بعد التحرير انحرف إلى أي شكل من أشكال حمل السلاح، وهو ما جعل كثيراً من الجماعات تحمل السلاح، وتحتل آباراً نفطية لمجرد أن تلك الآبار تقع في مكان سكنها، مثل ما حصل في عدد من الكتائب بدير الزور، وكتائب الطبقة التي يكفي أن نذكر أن ثلاثة ألوية حررتها، وبعد يوم من التحرير بلغ عدد الكتائب المعلن عنها 101 كتيبة في مدينة صغيرة مثل الطبقة وريفها⁽⁴⁰⁾، وبلغ الأمر أضعاف ذلك في ريف دير الزور النفطي.

2. الفصائلية المناطقية والمال السياسي

تحالف ثوار سورية في شتى المناطق، وتشاركوا خدمات كثيرة في مرحلة العمل السري وبدايات المعلن في المناطق المحررة، لكن تلك الفصائل باتت تتسابق في تقوية نفسها انطلاقاً من تسابقها في غنائم المعارك، ما أنشأ عقلية مصلحة تصارعية في البحث عن أهداف لتقوية نفسها، والاستئثار بالغنائم، إضافة إلى أن الفصائل معظمها شكّلت ضمن وسطها الحيوي ونطاق معيشتها وضمن علاقات أفرادها وتشابكاتهم وشبكات الثقة القريبة، ولم تخرج منها.

نجد مفهوم الفصائلية-المناطقية وما نتج منه في ممارسات كثير من الفصائل حاكماً لمآلاتها عبر فسادهما الذي استشرى، إذ ذهبت الفصائل الوافدة من حلب (غرباء الشام) التي حررت رأس العين

(40) مجد وهيبه، مقابلة عبر واتساب مع حسن محمود العلي، (11.06.2022).

إلى شحن مخزون القمح كاملاً في صومعة حبوب رأس العين إلى حلب انطلاقاً من كونها حررت المدينة، بينما كان المجلس العسكري في الحسكة عاجزاً عن التدخل، وسعت وجهات اجتماعية للتخاطب مع النظام لتزويد الأفران بالخبز، إضافة إلى أن لواء (أحفاد الرسول)، وقيادة (اللواء 313) خاضا معارك في الحسكة وريف القامشلي لأجل استرجار تسليح وتمويل لدعم محافظتهم في أحسن تقدير، إن لم نقل لجيوب قادتها، أما على مستوى الفصائلية بين فصائل كل منطقة، فنجد أنها شكلت رابطاً عضوياً خاصاً بين منتسبي كل فصيل حتى وصلت الفصائل إلى عدد كل فصيل معبراً عن بلدة أو قرية، وسكانها من عشيرة أو فخذ، وعدم قبولها بقيادة أحد من عشيرة أخرى ضمن القبيلة نفسها، ومثال ذلك الكتائب التي خرجت من لواء أويس القرني بالرقعة ردّاً على تعيين قائد اللواء قائداً عسكرياً من عشيرة ضعيفة بحسب رؤيتهم. ولم تفكر الفصائل في التشارك لبناء كتلة عسكرية موحدة تضمن تشاركات كبيرة للمؤازرات والتنسيق المشترك المتكامل في المعارك الأقسى، ما جعلها عرضة لحرب داعش وعاجزة أمامها.

وقد لعب المال السياسي دوراً بارزاً في الفصائل العسكرية من حيث تشكيلها وبنيتها ودورها ومآلاتها، ولعل مرحلة المعارك الأولى للفصائل التي اعتمدت التمويل الذاتي كانت أنصع تلك المراحل باعتمادها على مقدرات ذاتية وغير مرتبهة لأي جهة، لكن ارتفاع وتيرة القتال والحاجة إلى التذخير وضع الفصائل العسكرية في وضع الحاجة إلى درجة قبولها بالتمويل الخارجي سواء من أحد محاور الائتلاف أم أحد المحاور الدولية، وهو ما رهن معاركها وجعلها عرضة للتحكم والسيطرة، وأوقعها في مغبة خوض معارك لا قيمة استراتيجية لها، حيث انعزلت كتائب عن قياداتها بسبب التمويل وشبهته -كتيبة القادسية بتل أبيض- وخرجت كتائب لواء أويس القرني سعيّاً للغنائم ثم القبول بتمويل الائتلاف، إضافة إلى أن المعارك والجهات كانت تخاض وفقاً لقرار الممول، فكتائب الفاروق في منطقة (كبيبة) النفطية بريف الحسكة الجنوبي والغربي وريف الشدادي لم تتقدم بسلاحها النوعي لتحرر القامشلي ولا الحسكة لعدم وجود أوامر من الجهة الممولة، وخرج جيش التوحيد من الجهة الإسلامية بسبب رفضه التمويل الخارجي وقبول الجهة به، لقد رهنّت فصائل نفسها لـ (قسد) لأجل التمويل مثل قوات الصناديد ولواء ثوار الرقة وبعض كتائب المجلس العسكري بدير الزور، مع ملاحظة أن تمويل الائتلاف كان خاضعاً لاعتبارات شخصية وتحالفات هشة، فقد مُوّل (صدام الجمل) من قبل رئيس الائتلاف حينئذ -أحمد الجربا، وقد رابط صدام الجمل بدير الزور، ولم يخص معارك بعد تحريرها حتى جاء تنظيم داعش، وصار أحد قادتها، وسلمها السلاح الذي اشتراه بأموال الثورة المخصصة له من الائتلاف، ومُوّل (فيصل البللو) من رياض الحسن ثم ما لبث أن بايع داعش بعد مدة، واضطر مقاتلو كتيبته الكثر إلى البقاء من دون ممول حتى انضموا إلى كتائب أحرار الشام. مقابل ذلك نجد استقلالاً حقيقياً لدى جيش التوحيد الذي كان يعتمد تمويلًا ذاتيًا وتبرعات من

مدنيين في الخارج، وعمل ضد داعش والنظام، ورفض مساعدات الائتلاف وهيئة الأركان.

3. القبلية

تنطلق الذهنية القبلية عمومًا من مبدأ مصلحة القبيلة والمحافظة على وجودها بعيدًا عن المبادئ والتغيرات الأخرى، وبما أن القبائل ارتهنت عبر مشايخها المرتبطين بالنظام في محاولات التدجين المكرسة خلال سني حكم البعث، فقد كان موقف القبائل مواربًا وتوفيقيًا، لولا أن تحررت مناطقها، فاضطرت إلى القبول بالأمر الواقع، في حين إن تلك القبائل التي بقي النظام فيها قويًا من مثل الحسكة بقيت موالية للنظام، واشتركت في العسكرة لصالحه، ومارست دورًا قبليًا داخليًا ضمن القبيلة لنبذ كل من ينتسب إلى الثورة والجيش الحر، ومحاصرته، وشكلت كتائب (دفاع وطني) حاربت الجيش الحر.

لقد كان دور القبائل سلبياً سواء تلك التي كانت موالية واشتغلت ضد ثوارها كما في الحسكة أم تلك التي دخلت الثورة من منظور قبلي بحت، ففرضت ذهنيته بطرائق شتى على سير عمل الفصائل عبر تجاذباتها وتحزباتها وتنافساتها غير المحدودة كما في الرقة ودير الزور إذ كانت نسبة القبائل في الثورة وازنة، وأثرت في العمل العسكري بالثورة تأثيراً سلبياً، ففي غمرة التحرير ومع ظهور الغنائم والسطوة للقبيلة التي منها ثوار وفصائل جيش حر، ذهب عموم القبائل إلى تشكيل كتائب عسكرية لإظهار سطوتها، مع وجود النفط في دير الزور، ومقدرات اقتصادية أخرى مثل الحبوب، ومؤسسات الدولة في الرقة، وذهبت مجاميع الشباب غير الثائر أيضاً إلى تشكيل كتائب عسكرية لنهب المال العام، بحجة الانتساب إلى الثورة مع جملة الكتائب التي تشكلت بعد التحرير، وعندما تكشف ذلك للثوار وفصائلهم تجنبوا الاصطدام بها حرصاً على عدم إثارة القبلية والدفع باتجاه حرب قبلية، حيث احتمت الكتائب الجديدة الصنيعة بقبائلها في بيئة قبلية يمكن لأي تصادم فيها أن يولد حرباً واقتتالاً.

وقبالة تشكل كتائب جيش حر شاركت في التحرير ومن بيئة قبلية قد تؤثر في بنيتها ومسار عملها، شكلت كتائب بذريعة الثورة أيضاً بدوافع قبلية للعب توازنات معينة في أطر تنافس القبائل في محيطها وجوارها، وعلى الرغم من أن كثيراً من الفاعليات الثورية خرجت من رحم قبلي في بيئة تحترم الأصل القبلي في تقاليدها، وبقعة تقطنها القبائل، ووسمت جزءاً من تاريخها، لكن النزعة العشائرية لدى الفصائل أثرت في سلوكها، فضلاً على أن القوى التي نشأت تحت مسمى حماية القبيلة كانت تنطلق

في رؤيتها من مبدأ مصلحة العشيرة/ القبيلة، ومن ثم حكمت الذهنية المصلحية النفعية للقبيلة رؤية تلك الفصائل وفعلها وتحالفاتها، وهو ما جعل أي فصيل يحمل هذه الصفة محكومًا بسياسة مشيخة القبيلة ومصلحتها بعيدًا عن أي مبادئ سوى مصلحة القبيلة أينما ذهبت في تحالفاتها، ومثال ذلك قوات الصناديد التي أنشأها شيخ قبيلة شمر حميدي الدهام، ولواء المعتصم بالله الذي أنشئ لحماية مجال سكنى قبيلة العفادلة، ولم يجد أي منهما حرجًا حتى في التفاوض مع النظام.

سادسًا: الخاتمة

بالنظر إلى أوضاع تشكل الفصائل العسكرية نجد أن كلاً منها كان رهين أحوال نشأته ودوافعها، فمن كان قبلياً حكمت القبيلة مسيرة عمله، ومن كان ثورياً صار رهين التحولات التي مرت بها الساحة السورية المحررة من ممارسات تلك الفصائل أو داعش أو ظروف التحكم الدولية التي أدارت الملف السوري، وتحكمت به. على الرغم من مآلات الفصائل العسكرية بعمومها، فإننا نجد أن الفصائل العسكرية الثورية في مستوى المنظور الأيديولوجي استمرت بمواقفها الراضية للأيديولوجيا المتشددة - تنظيم الدولة- وأيضاً الراضية للأفكار الانفصالية -وحدات حماية الشعب- على الرغم من كل الهزات التي لحقت بها حتى الآن، أما على المستوى الديناميكي الذي يرتبط بالدعم المادي والعسكري والمشاركة في تخطيط المعارك نرى هذه الفصائل لم تتشبث بطرف دون آخر، وإنما كانت متماهية مع القوى المسيطرة في محاولة لضمان استمرارها، وإن كان على حساب مكتسباتها السابقة.

إن الحالة الفصائلية التي مرت بها الفصائل العسكرية أدت إلى تأخر إنهاء الصراع، وإطالة مدة الحسم أو أعطى مبرراً للقوى الدولية في إطالته، حيث كان الدور الأكبر في ذلك للجهاز الداعمة التي كرسست الحالة الفصائلية، وشجعت عليها، ليمكنها ذلك من إدارة الصراع بما يتوافق مع مصالحها. بذلك خسر الثوار القدرة على امتلاك القرار الوطني، وأصبح بيد الداعمين الذين تحكموا بالقرار، وأبقى الفصائل مجرد أداة لتنفيذ القرارات الصادرة عن اجتماعات الدول المتحكمة بالقرار السوري من دون أن يكون لهم أي دور في هذه القرارات.

لقد شهدنا في هذا البحث أن الفصائل العسكرية تعرضت إلى تغيرات كثيرة في فاعليتها وتأثيرها وسيطرتها على مناطق انتشارها، إضافة إلى أن التغيرات طالت بنيتها التنظيمية والبنوية، وفي بعض الأحيان أيديولوجيتها، ما جعلها فصائل غير مستقرة على مستوى الواقع والمجتمع الذي تنتشر فيه. إن فقدان النظام المركزي للقيادة والتوجيه والتنظيم في صفوف الجيش الحر جعل منه كتائب متناثرة

غير مندمجة، حتى لو تعاونت، ما جعل جهدها مشتتاً وغير قابل لخوض حرب مركزة واستراتيجية ضد النظام أو تنظيم داعش، وهو ما أكسب داعش قدرة على هزيمتها واحدة تلو الأخرى، وبعيداً عن المبادئ أو توافق المشروع الأميركي في تقوية (قسد)، وتكريس نفوذها، نجد أن التحالف اعتمد على (قسد) نظراً إلى إدارتها المركزية في المجالين السياسي والعسكري، إذ لم يستطع الائتلاف أن يوحد الجيش الحر تحت مظلة هيئة الأركان وإدارتها نظراً إلى تشتت قوى الائتلاف بين محورين أو أكثر بحسب ارتباطاتهم الدولية بين القوى المؤثرة في الملف السوري.

لم ينجح الائتلاف ومؤسسات الثورة المنضوية تحته في إنضاج مشروع وطني يستقطب مؤيدي الثورة من المدنيين والعسكريين، الأمر الذي دفع كثيراً من عناصر الجيش الحر إلى الانتماء إلى جبهة النصرة ثم داعش؛ لأن كليهما يحملان مشروعاً واضحاً وتماسكاً لم يشهده منتسبو كتائب الجيش الحر على الرغم من أنهم لم يكونوا سوى أفراد من عموم السوريين من ذوي التدين الشعبي.

إن القيادة المركزية سياسياً وعسكرياً بنظام إداري وعسكري متسلسل تمثل شكلاً مشابهاً أو موازياً للدولة من حيث المؤسسة والمركزية والمراقبة والضبط، مترافقاً مع برنامج سياسي وطني للتعبئة الثورية والتنوير وإنشاء مؤسسات رقابية وقانونية في المناطق المحررة لضبط مخالفات الكتائب، وتغولها على مصالح المواطنين، ما يشكل اللبنة الأولى في المحافظة على ما تبقى من الثورة في حياة المواطنين في أي منطقة محررة، وعلى من تبقى من ثوار هاجروا أو هجروا للمحافظة على قيم الثورة في نفوس الجيل الجديد الذي يكبر الآن في المخيمات والمدن المحررة أو في بلاد اللجوء.

المصادر والمراجع

1. باروت. محمد جمال، العقد الاخير في تاريخ سوريا، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).
2. الحاج صالح. رشيد، «العشائر والثورة السورية: الأدوار والإمكانات»، ع: 5، مجلة قلمون، (2018).
3. الحسون. معبد، الرقة من العشيرة إلى المدينة، (دم: معهد العالم للدراسات، 2017).
4. الحسون. معبد، الرقة والثورة من التحرير الى التدمير، (إسطنبول: دار موزاييك، 2020).
5. الحسين. محمود، عشائر الجزيرة والفرات في سورية: التحالفات الهشة من البعث إلى الثورة، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022).
6. الحمد. مناف، القبيلة والسياسة في سورية، (إسطنبول: مركز حرمون للدراسات، 2021).
7. رشيد. بدر ملا، البنى العسكرية والامنية في مناطق الادارة الذاتية، (إسطنبول: مركز عمران، 2017).
8. مجموعة من الباحثين، قوات سورية الديمقراطية العناصر المكونة والهيكلية الحاكمة، (تركيا: مركز الأناضول لدراسات الشرق الأدنى، 2020).
9. مصطفى. حمزة، المجال العام الافتراضي في الثورة السورية، (قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري

دير الزور أنموذجاً 2012-2021

محمود الحسين⁽¹⁾

أولاً: ملخص البحث

يتمثل الهدف الأساس لهذا البحث في تسليط الضوء على الدور الذي لعبته العمليات العسكرية في فرض حالة (التهجير القسري) على المدنيين في محافظة (دير الزور)، وقد كانت هذه الحالة من الوسائل التي لجأت إليها الأطراف الغازية بشتى مسمياتها -النظام السوري وتنظيم الدولة داعش والمليشيات الإيرانية وقوات سوريا الديمقراطية قسد- وذلك بغية تحقيق هدف أبعد يتجاوز إكراه السكان على ترك بيوتهم ومدنهم، تحت ضغط العمليات العسكرية، إلى إجبارهم على عدم العودة إليها لاحقاً. وهذا يعني أن النية المسبقة إحداث (تغيير ديموغرافي) ليكون المستجلبين بمقتضاه متماثلين مع المحتل في العقيدة الدينية أو السياسية أو كليهما، أو على الأقل شركاء له في العرق والإثنية. وهذا ما نطلق عليه في بحثنا مصطلح (التجانس) الذي يناقشه البحث بوصفه مفهوماً أيديولوجياً قائماً على أساس ضمان الولاء السياسي أو الديني أو العرقي، حيث تسعى لتحقيقه الأطراف العسكرية التي مرت على محافظة دير الزور خلال عقد من الزمن، بفرض رؤية أيديولوجية معينة على السكان المدنيين عبر سلسلة من الأدوات المختلفة، تبدأ بعمليات القتل الوحشية والممنهجة التي تعد جريمة ضد الإنسانية، وذلك ما يؤدي إلى تهجير السكان الأصليين ودفعهم إلى النزوح هرباً من أماكن سكنهم، لتكتمل هذه السلسلة بعملية التطهير العمراني (الأوربسايد) التي تُدمر بموجبها المدن، بما فيها من مساكن وبنى تحتية، ليتعذر على سكانها الأصليين العودة إليها بعد توقف العمليات العسكرية.

يستعرض البحث بدايةً الجانب التاريخي والمكون الاجتماعي لمحافظة دير الزور، ومن ثم يشرح البحث الأطر المفاهيمية والنظرية لمفاهيم مختلفة يمر عليها البحث منها انتهاكات القانون الدولي

(1) باحث سوري، حاصل على شهادة الماجستير في إدارة النزاع والعمل الإنساني. عمل سنوات عدة في مجال العمل الإنساني مع منظمات دولية عاملة في الشأن السوري. تركز اهتماماته البحثية على دراسات ما بعد النزاع والتنمية وإعادة الإعمار.

الإنساني والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية والهجرة القسرية الناجمة عن العمليات العسكرية، ومفهوم الأوريسايد، وهدف الأطراف العسكرية بخلق منطقة متجانسة أيديولوجيًا لا مكان فيها للمختلف عنها. ويسعى هذا البحث أيضًا إلى تحليل السياق الذي مرت به محافظة دير الزور من خلال استعراض حملات عسكرية عدة شهدتها المحافظة، وذلك خلال المرحلة الزمنية الممتدة من عام 2012 حتى عام 2021 التي تعرض فيها أبناء المحافظة إلى تهجير قسري ممنهج، ولعل دراسة هذه المتغيرات كلها التي مرت بها المحافظة في تلك المرحلة تهدف إلى تفسير النتائج التي شهدتها المحافظة لاحقًا من تهجير قسري وتغيير في بنية المجتمع، وما دور العمليات العسكرية في استدامة هذا التهجير القسري، وما الأساليب والأدوات التي اتبعتها كل طرف من الأطراف العسكرية التي مرت على المحافظة بهدف فرض التهجير القسري.

يستعرض البحث حملات عسكرية عدة، منها الحملة الأولى لجيش النظام السوري، ومن ثم الحملة التي شنها اللواء 105 من الحرس الجمهوري التابع للنظام السوري بقيادة ضباط وعناصر أغلبهم من الطائفة العلوية في أيلول/ سبتمبر 2012، ومن ثم حرب تنظيم الدولة داعش على محافظة دير الزور بهدف السيطرة عليها في عام 2014، وأخيرًا الحملة العسكرية التي شنت من قبل طرفين يهدفان إلى السيطرة على محافظة دير الزور عام 2017، الطرف الأول هو النظام السوري والمليشيات الإيرانية مدعومًا بالطيران الروسي، والطرف الثاني هو ما يعرف بقوات سوريا الديمقراطية مدعومًا بطيران التحالف الدولي. ويستعرض البحث أهمية محافظة دير الزور بالنسبة إلى إيران، ومشروعات إيران والمليشيات المرتبطة بها للتغلغل تدريجيًا في تلك المنطقة بهدف العبث في النسيج الاجتماعي وإحداث تغيير ديموغرافي في محافظة دير الزور.

ثانيًا: مقدمة

تقع محافظة دير الزور في شرقي سورية، على الحدود السورية العراقية، وتترع على مساحة جغرافية تقدر بنحو 33 ألف كم مربع، ويقدر عدد سكانها قبل اندلاع الثورة السورية بنحو 1692000 نسمة، وذلك بحسب المكتب المركزي للإحصاء⁽²⁾، وتعد دير الزور ثالث كبريات محافظات سورية في مستوى معدل النمو السكاني خلال العقد الأخير الذي سبق انطلاق الثورة السورية (2000-2010)، بنسبة 32 بالألف بعد محافظتي القنيطرة وريف دمشق⁽³⁾. ولا بد من الإشارة إلى أن المكون الاجتماعي

(2) المكتب المركزي للإحصاء، السكان السوريون بحسب الجنس والمحافظة وفق سجلات الأحوال المدنية في 01.01.2011

(3) المكتب المركزي للإحصاء، نسبة سكان المحافظات ومعدل النمو السنوي للسكان خلال الفترة (2000-2010).

لأهالي محافظة دير الزور يتمثل في العرب السنة بأغلبية عظمى.

عانت المحافظة التهميش عقوداً طويلة من الزمن، على الرغم من المقدرات التي تتمتع بها كلها، من موارد طبيعية تتمثل في حقول البترول والزراعة، إلا أنها لم تشهد عمليات تنمية حقيقية، حيث شهدت المحافظة افتتاحاً متأخراً لجامعة الفرات عام 2006. أما الحالة الاقتصادية وبحسب برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، فقد بينت دراسة متعلقة بقياس المستوى المعيشي والاقتصادي للسكان بين المرحلتين الزمنية (1997-2004) و(2004-2007) أن أكثر من ثلث سكان المنطقة الشمالية الشرقية، يعيشون في فقرٍ مدقع بنسبة تصل إلى حد 62 بالمئة⁽⁴⁾.

ولا بد من الإشارة إلى أن المحافظة شهدت نزوحاً مرتفعاً في السنوات التي سبقت انطلاق الثورة السورية، حيث تعرضت سورية إلى أكبر موجة جفاف في تاريخها الحديث⁽⁵⁾، وقد كان نصيب المحافظات الشرقية كبيراً من هذه الموجة، التي ترافقت مع سوء إدارة حكومة النظام السوري لشبكات المياه، ولم تكثر إطلاقات لنزوح حوالي 300 ألف مدني من أبناء المنطقة الشرقية الذين نزحوا باتجاه أطراف المدن الرئيسة وسط أوضاع معيشية مزرية⁽⁶⁾.

فضلاً عن تهميش أبناء محافظة دير الزور من قبل نظام دكتاتوري أمني، يُرافق ذلك المناخ العام الذي يسود المحافظة منذ وصول حافظ الأسد إلى السلطة، وهو القائم على القمع والاستبداد والظلم وانعدام فرص العمل وتراجع التنمية والغياب الكامل لأي شكل من أشكال الحريات والتمثيل السياسي أو المجتمعي.

شكلت هذه العوامل مجتمعة نقمة كبيرة لدى أهالي محافظة دير الزور التي انتفض أبناؤها بصورة لافتة في عقب اندلاع الثورة السورية ربيع عام 2011، وتظاهروا بأعداد كبيرة رافعين شعارات الحرية والعدالة والكرامة ومطالبين بإسقاط النظام السوري ورحيل أركان حكمه.

(4) Isam Al Khafaji, «De-Urbanizing the Syrian Revolution», Arab Reform Initiative, (March 2016) <https://cutt.us/SVcdx>

(5) Carl Wege, "Urban and rural militia organizations in Syria's less governed spaces" Contemporary Voices: St Andrews Journal of International Relations 6, no. 3 (2015).

(6) محمود الحسين، مقابلة شخصية مع الدكتور تيسير رداوي، عبر الهاتف، (1 نيسان / أبريل 2022)، حيث يذكر الدكتور تيسير أن هناك عشرات القرى تركها أهلها، وأصبحت فارغة بالكامل، وهي القرى الواقعة على مجرى نهر الخابور من محافظة الحسكة شمالاً حتى مدينة البصرة في محافظة دير الزور شرقاً.

ثالثاً: الإشكالية البحثية

يطرح البحث المشكلة البحثية الآتية وهي دور العمليات العسكرية التي شهدتها محافظة دير الزور في مراحل زمنية مختلفة منذ 2012 حتى 2021، في فرض التهجير القسري بحق أبناء المحافظة، وذلك من خلال سعي الأطراف العسكرية المختلفة، المتمثلة في النظام السوري وروسيا والمليشيات الموالية لإيران، وتنظيم الدولة داعش، وقوات سوريا الديمقراطية، لفرض حالة من التجانس السياسي أو الأيديولوجي الذي يناسب توجهات هذه الأطراف، ويخدم مصالحها في تعزيز وجودها وضمان بقائها، ويدفع عنها الخطر المتمثل في وجود مكون آخر يهددها، وقد استخدمت هذه الأطراف العسكرية ضمن المدد التي سيطرت فيها على محافظة دير الزور سلسلة من الآليات والأدوات المختلفة لفرض التجانس والتهجير القسري لضمان عدم عودة السكان إلى مناطق سكنهم الأصلية.

يؤطر البحث هذه الأدوات نظرياً ومفهومياً، ويربطها تجريبياً بأرقام ووقائع حدثت على أرض الواقع في سياق العمليات العسكرية منها ارتكاب المجازر والقتل الجماعي بحق المدنيين، وتلك انتهاكات صارخة للقانون الدولي الإنساني تصل إلى حد تصنيفها جرائم ضد الإنسانية، وكذلك يستعرض البحث الدور الرئيس للألة العسكرية، وبخاصة للنظام السوري وروسيا، في تدمير المدن والقرى والبنى التحتية والمنشآت الحيوية، واستهداف مساكن المدنيين وتدميرها تدميرًا كاملاً، ضمن ما يطلق عليه (الأوربسايد)، وهو التطهير والتدمير الممنهج المستند إلى أساس عمرائي، بحيث لا يمكن للمدنيين العودة إلى مناطق سكنهم الأصلية، حتى بعد انتهاء العمليات العسكرية، وذلك بسبب الدمار الهائل الذي تعرضت له منازلهم فضلاً عن الممارسات التي تقوم بها هذه المجموعات العسكرية المختلفة، وبالأخص في الجزء الأيمن لنهر الفرات الذي تسيطر عليه قوات النظام السوري والمليشيات الإيرانية.

يحاول البحث الإجابة عن سؤال رئيس، وهو: كيف لعبت العمليات العسكرية دوراً رئيساً في فرض حالة التهجير القسري التي تعرض لها المدنيون من أبناء محافظة دير الزور، وذلك من قبل أطراف عسكرية مختلفة تعاقبت على محافظة دير الزور، ضمن مدد زمنية مختلفة بدءاً من 2012 وحتى 2021؟ ويتصل بسؤال البحث الرئيس مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي:

1. ما الأدوات التي استخدمتها الأطراف العسكرية المختلفة لفرض التجانس والتهجير القسري؟
2. ما مفهوم التجانس؟ وما الآليات التي استخدمتها المجموعات العسكرية التي سعت من خلالها إلى فرض حالة التجانس على سكان محافظة دير الزور؟
3. كيف برز مفهوم (الأوربسايد) في السياق السوري؟ وكيف وظفه النظام السوري

وحلفاؤه من أجل إحداث تهجير قسري وتغيير ديموغرافي لاحقاً؟
 4. ما المنهجية التي تتبعها الميليشيات الإيرانية ليكون التهجير القسري مستداماً؟ وما مشروعات الميليشيات الإيرانية التي تسمح لها بالعبث بالنسيج المجتمعي في المناطق التي تسيطر عليها في محافظة دير الزور بهدف إحداث التغيير الديموغرافي لاحقاً؟

رابعاً: الإطار المنهجي وأهداف البحث

يعتمد البحث على المنهج التحليلي الذي يهدف إلى تفسير أصل المشكلة البحثية ومناقشة الأدبيات المتعلقة بالمفاهيمات التي يمر عليها البحث من خلال تأطيرها بشكل نظري ومفهوماتي، فضلاً عن دراسة الممارسات والأعمال الوحشية والاستهداف الممنهج للمدنيين في سياق العمليات العسكرية التي شهدتها محافظة دير الزور خلال مدة زمنية محددة يدرسها البحث، من 2012 حتى 2021، وفي سياق هذه العمليات العسكرية، يقترن المنهج التحليلي ببعض الجوانب التاريخية والوصفية للديناميات والأحداث ضمن المدة الزمنية المدروسة، واستعراض الفاعلين الرئيسيين لكل عملية من العمليات العسكرية المشار إليها في البحث، مع الأخذ بالحسبان الدوافع الأيديولوجية والسياسية والعسكرية لهذه المجموعات العسكرية.

ويستند البحث إلى تحليل بعض نتائج المقابلات التي أجراها الباحث في سبيل الحصول على معلومات أولية من وقائع وأرقام وبيانات وأعداد للنازحين والمهجرين قسرياً. إضافة إلى مراجعة المصادر الثانوية المتوفرة حول هذا الموضوع، واستعراضها منها المقالات العلمية المحكمة وتقارير الوكالات الأممية ذات الصلة، وأخيراً الاتكاء على معرفة الباحث بالتفاصيل الدقيقة للمحافظة كونه ينتهي إليها، ولديه اطلاع على تفاصيل هذه العمليات العسكرية معظمها.

من خلال استعراض الأدبيات المتوفرة حول ظاهرة التهجير القسري، يتبين لنا وجود كثير من الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة في مناطق سورية مختلفة، أما محافظة دير الزور فإن الأدبيات المتوفرة عنها تعد قليلة نوعاً ما، والمتوافر منها يدرس فقط سياق الثورة ومآلات الحرب في دير الزور، والأطراف الرئيسة فيها، أي المتوافر حول ظاهرة التهجير القسري من محافظة دير الزور قليل نسبياً، ومن هنا تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على ظاهرة التهجير القسري للمدنيين من محافظة دير الزور، بوصفها أثراً مباشراً للعمليات العسكرية التي شهدتها المحافظة، وهو ما يتقاطع مع أهداف البحث في تفسير دقيق لدوافع الأطراف العسكرية المختلفة ورغباتهم في استدامة التهجير

القسري بصورة ممنهجة على المدنيين القريب منهم والبعيد، وفرض حالة من التجانس السياسي أو الأيديولوجي أو كليهما معاً في آن معاً. ويهدف البحث إلى تحليل السياق التاريخي لمحافظة دير الزور ضمن المدة الزمنية المدروسة، مع النظر في خصوصية محافظة دير الزور من خلال استعراض جذور النزاع ومسبباته ومآلاته. أيضاً من ضمن أهداف البحث إظهار دور الميليشيات الإيرانية في العبث في النسيج المجتمعي لمحافظة دير الزور عبر أدوات مختلفة يشرحها البحث، بالتزامن مع استعراض البعد الجغرافي والإقليمي لمحافظة دير الزور بالنسبة إلى إيران وميليشياتها وذلك ضمن سياق مشكلة البحث الرئيسية (ظاهرة التهجير القسري).

خامساً: الإطار النظري والمفهوماتي

في 2012 بدأت الأمور تأخذ طابعاً مسلحاً بوصفها نتيجة عنف غير مسبوق أصر عليه النظام لمواجهة الثورة السورية، وعليه وصفت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن النزاع في سورية أصبح بمنزلة (نزاع مسلح غير دولي)⁽⁷⁾، وهذا ما يتطلب من أطراف النزاع الالتزام بالأعراف الدولية ومنها القانون الدولي الإنساني لتجنب استهداف المدنيين، بل يجب على طرفي النزاع حمايتهم، وتأمين الممرات الإنسانية لخروجهم من المناطق التي تشهد أعمالاً عسكرية، ولكن النتيجة كانت مغايرة على أرض الواقع، حيث أدت الحرب المستمرة لأكثر من عشر سنوات إلى تهجير أكثر من نصف الشعب السوري، وعلى الرغم من انتهاء العمليات العسكرية في بعض المناطق، إلا أن ظروف العودة الآمنة ما تزال غير متوافرة بعد⁽⁸⁾، وهذا ما يندرج ضمن سياق البحث حول أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري، بسبب العمليات الممنهجة التي طبقتها أطراف ومجموعات عسكرية مختلفة

(7) ICRC, «Syria: ICRC and Syrian Arab Red Crescent maintain aid effort amid increased fighting», (June 2012), <https://bit.ly/36Hs9YR>

(8) هذا ما تؤكدته التقارير الصادرة عن المنظمات الحقوقية بحسب التقرير الأخير الصادر عن منظمة العفو الدولية - Amnesty International التي وثقت 66 حالة للاجئين سوريين عادوا من تركيا ولبنان والأردن وفرنسا وألمانيا، وتعرض فيها 5 للقتل تحت التعذيب بعد اعتقالهم تعسفياً من أجهزة الأمن السورية، فيما ما يزال مصير 17 شخصاً منهم مجهولاً حتى الآن، (المصدر: تقرير منظمة العفو الدولية الأخير) <https://bit.ly/3wMV6LY>

وهذا ما يؤكدته تقرير منظمة Human Rights Watch الصادر في شهر أكتوبر/ تشرين الأول 2021، أن اللاجئين السوريين يواجهون انتهاكات جسيمة مثل القتل والإخفاء القسري والتعذيب حتى الموت من جانب النظام السوري والميليشيات التابعة له وذلك عند عودتهم إلى سوريا خلال المدة الممتدة ما بين 2017 و2021، وبأن ((حياتهم أشبه بالموت)).

Human Rights Watch, «Our Lives Are Like Death» Syrian Refugee Returns from Lebanon and Jordan», (October 2021), <https://bit.ly/306FTJE>

مرت على محافظة دير الزور، من مثل النظام السوري وتنظيم داعش وقوات سوريا الديمقراطية والمليشيات الإيرانية، هذه الأطراف العسكرية مارست أعمال عنف غير مسبقة ضمن مدد زمنية مختلفة، والهدف هو إنفاذ حالة من التجانس الأيديولوجي الذي يخدم مصالحها على أساس عرقي أو ديني أو سياسي ضمن سلسلة مركبة من الممارسات والآليات، بدءاً من الانتهاكات الصارخة للقانون الدولي الإنساني التي تجلت بالاستهداف المباشر للمدنيين وعدم حمايتهم أو توفير المخرج الآمن لهم واستهداف البنى التحتية والمنشآت المدنية والطبية⁽⁹⁾، فضلاً عن ممارسة جرائم القتل والإبادة الجماعية التي تُصنف على أنها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، كما سعت المجموعات العسكرية من خلال ارتكاب هذه الجرائم إلى فرض رؤية معينة على سكان تلك المناطق، ومن لا يذعن سيكون مصيره التهجير القسري، ومن ثم تقوم هذه الأطراف العسكرية بتطبيق مفهوم (الأوربسايد) من خلال إحداث دمار هائل عبر قصف عنيف وممنهج لتدمير مراكز المدن والمنشآت الحيوية ومنازل المدنيين لجعل عودتهم إليها أمراً مستحيلاً.

ولأن البحث يتطرق إلى بعض المفاهيم التي ظهرت في نزاعات مختلفة سابقاً، وظهرت مجدداً في سياق النزاع السوري، بوصفها سلسلة من الأدوات التي استُخدمت لفرض التجانس والتهجير القسري، فلا بد من تقديم إطار نظري لهذه المفاهيم، بصفتها توطئة مهمة لتفسير المشكلة البحثية وتحليلها، وهي أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري.

1. القانون الدولي الإنساني

وهو ما يعرف بقانون الحرب والنزاعات المسلحة، ويتمثل في مجموعة من القواعد المنصوص عليها في المعاهدات، ولعل من أهم أهدافه توفير الحماية للمدنيين والحد من معاناتهم، إضافة إلى توفير الحماية للمقاتلين السابقين الذين لم يعد لديهم أي نشاط عسكري، ومنهم أسرى الحرب. وتعد الانتهاكات الجسيمة بمنزلة جرائم حرب، بما في ذلك جرائم الإبادة الجماعية والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية⁽¹⁰⁾.

ويمكن تعريف الإبادة الجماعية بأنها: ((كل سلوك يرتكب بقصد القتل أو إلحاق الأذى أو بهدف

(9) نزار أيوب، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، مدخل قانوني عام إلى النزاع المسلح في سورية التدخل الدولي الإنساني ومساءلة مرتكبي الجرائم الأشد خطورة، (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 294.

(10) منظمة العفو الدولية، «النزاعات المسلحة»، <https://www.amnesty.org/ar/what-we-do/armed-conflict>

تدمير فئة سكانية معينة على أساس إثني، أو عرقي، أو ديني، كلياً أو جزئياً، وقد تصل لحد فرض تدابير تستهدف منع الإنجاب داخل هذه الجماعة، مما تسبب في إلحاق أضرار بدنية أو نفسية خطيرة بأفرادها⁽¹¹⁾.

في السياق السوري كان مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة قد أقر منذ عام 2014 أن النظام السوري والمليشيات التابعة له ارتكبوا انتهاكات جسيمة وممنهجة على نطاق واسع، بأفعال تنافي القانون الدولي الإنساني ومبادئه في حماية المدنيين، ومن هذه الانتهاكات القصف الجوي للمناطق المدنية والاستخدام العشوائي للبراميل المتفجرة وغاز الكلور والقنابل العنقودية، وغيرها من الأعمال التي قد ترقى إلى جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية⁽¹²⁾.

2. جرائم ضد الإنسانية

ظهر هذا المفهوم أول مرة في إبان الحرب العالمية الأولى، ومن ثم ظهر المصطلح مجدداً في الحرب العالمية الثانية بسبب جرائم ألمانيا النازية آنذاك، وهذا ما يعرفه نظام روما الأساسي بأنه أفعال ترتكب في إطار ممنهج على نطاق واسع ضد المدنيين⁽¹³⁾، وبحسب ما تتضمنه المادة السابعة من نظام المحكمة الجنائية الدولية للجرائم ضد الإنسانية بأنها أفعال صادرة عن نظام سياسي تنفذه جهات عسكرية رسمية منها الجيش والأمن أو غير رسمية، وتتمثل في المليشيات التابعة لها. وهو ما تجلى بوضوح خلال سنوات الحرب في سورية، وبحسب أدبيات النزاع فإن استمرار الحرب يؤدي إلى ارتفاع حدة العنف، وهذا يعني أن العنف قد يذهب باتجاهات مختلفة لا يمكن السيطرة عليها، وأدواته كثيرة منها القتل الجماعي والإخفاء والتشريد القسري⁽¹⁴⁾، وبسبب فشل النظام في قمع الثورة ونتيجة اتساع رقعتها وخروج مناطق كثيرة عن سيطرته، مارس جيش النظام السوري والأجهزة الأمنية التابعة له عنفاً غير مسبوق بعقلية (ميليشياوية)، يرافقه في ذلك ميليشيات غير رسمية

(11) عبد الله عيسى الكواري، حماية المدنيين أثناء النزاعات المسلحة الحالة السورية نموذجاً، رسالة ماجستير، (الدوحة: جامعة قطر، 2021).

(12) Leila Nadya Sadat, "Genocide in Syria: International legal options, international legal limits, and the serious problem of political will", Impunity Watch LJ 5, (2014), b.1.

(13) نزار أيوب، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، مدخل قانوني عام إلى النزاع المسلح في سورية التدخل الدولي الإنساني ومساءلة مرتكيي الجرائم الأشد خطورة، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 300

(14) نزار أيوب، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، ص 301

مشحونة طائفياً، وهذه القوى جميعها تعتمد إلى ممارسة أقصى درجات العنف في سبيل قتل الآخر الذي يهددها، وبحسب الأدبيات غالباً ما يكون هناك دافع سياسي يقف وراء هذا العنف الوحشي، والنتيجة تكون تهجير السكان بهدف إضفاء تجانس سكاني على بعض المناطق في سورية⁽¹⁵⁾. وهو ما يفسره البعض بمفهوم (القابلية للعنف)⁽¹⁶⁾ لإظهار جوانب العنف غير المسبوق التي استحدثها النظام الأمني في سورية بهدف إجهاض الثورة ووأدها بصورة كلية، وهو بذلك -أي النظام السوري- يمارس عنفاً شرساً ممنهجاً متعمداً بهدف (اقتلاع جذور) المجتمع السوري نهائياً⁽¹⁷⁾، أي تهجيرهم قسرياً من مناطق سكنهم الأصلية، ما يؤدي إلى ازدياد أعداد النازحين في الداخل واللاجئين إلى دول الجوار، وفي ذلك ارتدادات طويلة الأجل على المجتمع السوري والهوية السورية.

3. التهجير القسري

يُعرف التهجير القسري بأنه مجموعة من الأفعال العسكرية المباشرة التي تهدف إلى إجبار مجموعة من المدنيين الذين يقيمون بصورة قانونية في أراضيهم على الانتقال والنزوح إلى منطقة أخرى ضمن أراضي الدولة نفسها أو خارجها، بناء على منهجية وتخطيط يشرف عليه النظام الحاكم والمليشيات التابعة له، بهدف التطهير على أساس إثني، أو قومي، أو ديني، أو سياسي⁽¹⁸⁾. وقد يحدث التهجير القسري نتيجة ممارسات عدة منها الإبادة الجماعية والقتل المتعمد وجرائم التطهير العرقي والتدمير المادي للمناطق السكنية، وهي في مجملها جرائم ضد الإنسانية. ولذلك يعد التهجير القسري جريمة ينص عليها ميثاق روما الأساسي، وكذلك البروتوكول الثاني الإضافي الملحق باتفاقيات جنيف الأربع الذي يحظر تهجير السكان المدنيين أو إبعادهم قسرياً في أثناء النزاعات المسلحة الدولية أو غير الدولية، كما في الحالة السورية، وكذلك منع البروتوكول إجبار المدنيين على ترك ديارهم أو دفعهم إلى مغادرتها لأي سبب كان⁽¹⁹⁾. وهذا ما يشرحه بحثنا الخاص بمحافظة دير الزور، حيث إن

(15) عزمي بشارة، سورية درب الآلام نحو الحرية محاولة في التاريخ الراهن، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 329.

(16) عزمي بشارة، سورية درب الآلام نحو الحرية محاولة في التاريخ الراهن، ص 33.

(17) محمد فاوبار، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، الخطاب العربي المعاصر وصيرورة العنف والسياسة في المجتمعات العربية بحث في التجليات الفكرية للتحوّل السياسي الراهن، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 189.

(18) صباح حسن عزيز، جريمة التهجير القسري دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، (العراق: جامعة النهدين / كلية الحقوق، 2015)، ص 21. <https://bit.ly/3wQJABk>

(19) صباح حسن عزيز، جريمة التهجير القسري دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، ص 23.

عمليات التهجير القسري أغلبها جاءت نتيجة مباشرة للعمليات العسكرية التي أدت إلى طرد السكان الأصليين، وإحلال مقاتلين أجانب عوضاً عنهم بشكل مفرد أو مع عائلاتهم للإقامة في بيوت المدنيين الذين هُجروا، وهؤلاء المقاتلون الأجانب مختلفون غالباً عن السكان الأصليين للمنطقة، والاختلاف يندرج تحت مسميات مختلفة سياسياً أو دينياً أو عرقياً، وهذا ما مارسه المجموعات المختلفة العسكرية التي مرت على محافظة دير الزور.

4. ظهور مفهوم (الأوربسايد) Urbicide في السياق السوري

ظهر مفهوم (الأوربسايد) في حروب سابقة، منها حرب البوسنة، وحرب لبنان، وفي سياسات إسرائيل ضد الفلسطينيين، ولعل طبيعة هذا المفهوم من حيث المبدأ مشابهة لمفهوم الإبادة الجماعية، ولكن من منطلق عمراني، وهو نوع من أنواع الحروب التي تُخاض باسم سياسات الهوية⁽²⁰⁾، وجزء أساس من أدوات هذا المصطلح قائم على إحداث الدمار المادي في المدن أي جعل الحياة فيها أشبه بالمستحيل عبر استهداف المنشآت الحيوية المتمثلة في محطات الكهرباء والمياه والصحة والتعليم وشبكات المواصلات. والهدف في الحصيلة هو خلق مجتمع متجانس أيديولوجياً من خلال القضاء على الجماعات المختلفة دينياً، أو عرقياً، أو سياسياً⁽²¹⁾. وهذا أيضاً ما تُصنّفه اتفاقيات جنيف الأربع بأنه انتهاكات جسيمة بسبب ((تدمير الممتلكات أو الاستيلاء عليها على نطاق واسع لا تبرره الضرورات الحربية، وبطريقة غير مشروعة وتعسفية))⁽²²⁾.

ظهر مفهوم الأوربسايد في سورية في إبان أحداث مدينة حماة عام 1982، بسبب استخدام النظام السوري الآلة العسكرية الذي نتج منه دمار هائل وتهديم مبان كاملة، وعمليات قتل جماعي ممنهجة أودت بحياة آلاف من السوريين، وتحويل حماة إلى كومة أنقاض، حيث يشرح مفهوم الأوربسايد في حالة مدينة حماة كيف استأصل النظام السوري مكوناً بشرياً مختلفاً عنه من خلال استخدام الآلة العسكرية وإحداث دمار هائل في المباني التي تقطنها تلك المجموعات البشرية⁽²³⁾.

(20) سوسن أبو زيدان، «كيف انتزع الأسد منا سوريا المتجانسة»، موقع الجمهورية، (نيسان/ أبريل 2019).

<https://bit.ly/3tFLCAZ>

(21) سوسن أبو زيدان، «كيف انتزع الأسد منا سوريا المتجانسة».

(22) عمر مكي، القانون الدولي الإنساني في النزاعات المسلحة المعاصرة، (جنيف: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، د.ت)، ص 237.

(23) Gabriel Garroum, "Urbicide and the Subject of Politics: Notes on the Syrian Civil War", E- International relations (May 2021) <https://2u.pw/A5wWy>

عاد مفهوم الأوربسايد إلى الظهور مجدداً بعد اندلاع الثورة السورية، نتيجة استخدام النظام السوري مراكز المدن على أنها مسرح للعمليات العسكرية، كما حدث في أحياء بابا عمرو والخالدية في مدينة حمص، وأحياء الحويقة والحميدية والجبيلة في مدينة دير الزور، وهو ما تناقشه الأدبيات في الحالة السورية بوصف مفهوم urbicide فعلاً حكومياً مباشراً باتجاه مراكز المدن الرئيسية، من خلال إحداث دمار عسكري شامل عبر قصف عنيف بالآلة العسكرية التابعة للنظام السوري والهدف هو إعادة ترتيب هذه المدن، وفرض تجانس يخدم النظام الحاكم والأيديولوجيا التي تضمن بقاءه في الحكم.

وبالنسبة إلى بعض الباحثين في هذا المجال، فإن استعمال مفهوم الأوربسايد هو جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية التي تتبع في سياق الحرب التي تهدف من خلالها الأطراف العسكرية إلى تدمير النسيج الاجتماعي لمراكز المدن الرئيسية⁽²⁴⁾، بحيث يُفرض تجانس أيديولوجي معين يخدم مصالح الطبقة الحاكمة التي ترفض الآخر المختلف عنها. ولذلك تتفق الأدبيات في هذا المجال مع أن الدمار الذي أحدثته الآلة العسكرية التابعة للنظام السوري في عدد من مراكز المدن الرئيسية ليس ضرراً جانبياً ناتجاً من النزاع المسلح فحسب، وإنما هو عمل متعمد وسلاح حرب اتبعه النظام السوري لهدف بعيد المدى يخدم مصالحه في المحافظة على الحكم والبقاء في السلطة وإلغاء المكون الآخر الذي يختلف عنه ويعد تهديداً له⁽²⁵⁾.

سادساً: الأثر المباشر لاجتياح دير الزور عسكرياً صيف عام 2011: النزوح مدة من الزمن

بعد أن اندلعت الثورة السورية في 2011، كانت دير الزور أحد أهم هذه المناطق المنتفضة ضد النظام، رغبةً من شعب دير الزور التوافق إلى الحرية والعيش بكرامة وعدل ومساواة، ورداً على عقود طويلة من القمع والاستبداد والتهميش.

وبسبب خوف النظام من اتساع رقعة التظاهرات الشعبية وازدياد الحراك الداخلي المرافق لضغط دولي، أدى إلى سيناريو مشابه تماماً لما حدث في الثورتين التونسية والمصرية، الأمر الذي دفع

(24) Martin Coward, "Urbicide'Reconsidered." Theory & event 10, no. 2, (2007).

(25) SAWSAN ABU ZAINEDIN HANI FAKHANI, SYRIA'S URBICIDE THE BUILT ENVIRONMENT AS A MEANS TO CONSOLIDATE HOMOGENEITY, (Central Europe University. School of Public Policy, July 2019).

النظام السوري إلى ارتكاب أقصى درجات العنف على مدار العقد الأخير، وبقي مُصرّاً على الحلين العسكري والأمني طوال هذه السنوات، ولكنه في البداية كان حذراً في التعامل مع التظاهرات في بعض المناطق، ومنها محافظة دير الزور، بسبب الطبيعة العشوائية هناك، وهو ما يفسر ازدياد أعداد المتظاهرين ازدياداً لافتاً، حيث وصل عدد المتظاهرين إلى أكثر من نصف مليون في جمعة (أحفاد خالد)⁽²⁶⁾ واستمرار التظاهر السلمي في كامل أرجاء محافظة دير الزور، حتى شهر رمضان/ آب/ أغسطس 2011 الذي شهد اجتياح جيش النظام السوري للمحافظة بنحو 200 دبابة وآلية عسكرية⁽²⁷⁾، وتعد هذه الحملة العسكرية شرارة بدء ظاهرة النزوح⁽²⁸⁾ التي نزح فيها عدد من سكان محافظة دير الزور، باتجاه المدن الكبرى، منها دمشق وحلب اللتين كانتا مستقرتين نوعاً ما.

ويمكن تعريف النزوح، بأنه إشكالية تواجه المجتمعات وتتسبب في نزوح المدنيين بفعل عوامل مختلفة، منها الصراعات العسكرية والحروب الأهلية ذات الطابع الإثني والعربي والديني، وهي الأكثر خطورة بسبب فرض الأطراف المختلفة للنزاع أجندات الأيديولوجية من خلال أدوات كثيرة، إما القتل الجماعي أو التهجير القسري وصولاً إلى التغيير الديموغرافي لفرض التجانس الأيديولوجي الذي يلي رغبات الفصيل العسكري.

سابعاً: حملة الحرس الجمهوري في دير الزور: عنف مُباح وإبادة جماعية

مع بدء فصائل المعارضة المسلحة سيطرتها على مدينة دير الزور، كان النظام السوري يرد بقصف عنيف مُتبعاً سياسة الأرض المحروقة، وبخاصة أنه بدأ يخسر المناطق تدريجياً سواء في دير الزور المدينة، أم في ريف المحافظة، وهو ما دفع النظام إلى التفوق داخل مراكز المدن أولاً، ثم أُجبر على الانسحاب من بعضها بفعل ضربات فصائل المعارضة المسلحة، ولكنه بقي مُصرّاً على المحافظة على

(26) بحسب المرصد السوري لحقوق الإنسان الذي قدر أعداد المتظاهرين بحوالي 550 ألف متظاهر، موقع عرب 48، جمعة «أحفاد خالد»: مظاهرات تجاوزت المليون في دير الزور وحماة، وسقوط قتلى وجرحى، (22 تموز/ يوليو 2011). <https://bit.ly/3tpIGfM>

(27) عزمي بشارة، درب الآلام نحو الحرية، محاولة في التاريخ الراهن، (الدوحة/ بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، ص 153.

(28) بحسب الباحث جمال باروت فإن الاستراتيجية الأمنية للنظام السوري واستخدام الجيش بديلاً من العجز الأمني تسببت في إحداث كوارث إنسانية تمثلت بالنزوح القسري.

محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية جدلية الجمود والإصلاح، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 290.

المربع الأمني في مركز مدينة دير الزور، لتشهد المدينة بعد ثلاثة أشهر من سيطرة فصائل المعارضة المسلحة على المدينة حملة عسكرية شرسة للواء 105 من الحرس الجمهوري التابع للنظام السوري، وهي الحملة العسكرية الثانية التي تشهدها محافظة دير الزور، وقد أدت إلى مقتل عدد كبير من المدنيين أولاً، ونزوح قسم كبير من عائلات المدينة ثانياً وذلك خوفاً من عمليات الانتقام التي ستحدث، وقد قدرت بعض الإحصاءات نزوح حوالي 30.000 مدني من مدينة دير الزور إلى مناطق متفرقة من سورية⁽²⁹⁾، وقد بدأت الحملة في أواخر شهر أيلول/ سبتمبر عام 2012 عندما أرسل النظام السوري اللواء 105 من الحرس الجمهوري بقيادة ضباط معظمهم من الطائفة العلوية، ومنهم الضابط علي خزام⁽³⁰⁾، حيث اقتحمت مدينة دير الزور حوالي 150 مدرعة ودبابة عسكرية، وحوالي 2400 عنصر، وقد شهدت الحملة عمليات انتقام واسعة وإبادة جماعية بحق مدنيين لم يكن لديهم أي نشاط عسكري آنذاك⁽³¹⁾. فعندما يقتحم الجيش المدينة يبدأ بتصفية الجميع حيث يصفهم بتهمة معلبة وجاهزة وهي أنهم خلايا نائمة، وذلك يحصل للناس البسطاء الذين يحسبون أن عدم انخراطهم في الثورة سيحميهم من آلة القتل التي لا تفرق بين معارض أو موال.

وفي هذه الحملة ارتكب اللواء 105 من الحرس الجمهوري انتهاكات صارخة تتعارض مع أساس القانون الدولي الإنساني وهو حماية المدنيين في أثناء النزاعات المسلحة، وذلك من خلال عقاب المدنيين جماعياً بقتلهم لمحض وجودهم في مناطق تخضع لسيطرة المعارضة المسلحة، حيث تُعرف أفعال العقاب الجماعي هذه على أنها ((جرائم مرتكبة بحق المدنيين من خلال قتلهم عمداً أو إبادةهم أو تهجيرهم))⁽³²⁾، وذلك فعل مناف لمبدأ القانون الدولي الإنساني الذي يطالب أطراف النزاع بالتمييز بين المدنيين والمقاتلين، بحيث لا يجوز استهدافهم عمداً⁽³³⁾ بل يجب توفير الحماية لهم، ومعاملتهم معاملة إنسانية بما يحفظ لهم كرامتهم.

هذه الممارسات الوحشية دفعت القسم الأكبر من المدنيين إلى الهرب والتهجير قسرياً خوفاً من عمليات الانتقام الجماعية التي حدثت في بداية هذه الحملة العسكرية، وشهدت هذه الحملة

(29) Office for Coordination Humanitarian Affairs OCHA, Humanitarian Bulletin issue 3, (July 2012), <https://bit.ly/37mBSEb>

(30) Uğur Ümit Üngör, Ali Khizam and the specter of sectarian violence in Syria, (The Routledge Handbook of Religion, Mass Atrocity, and Genocide, 2021), 56.

(31) محمود الحسين، مقابلة شخصية مع خالد مهدي، عبر الهاتف، (27 شباط/ فبراير 2022).

(32) عبد الله عيسى الكواري، «حماية المدنيين أثناء النزاعات المسلحة الحالة السورية أنموذجا».

(33) منظمة العفو الدولية، «النزاعات المسلحة»، <https://bit.ly/3JuOUO3>

مشاركة عسكرية ميدانية مباشرة لضباط من الحرس الثوري الإيراني⁽³⁴⁾، وبحسب شهادات أهالي مدينة دير الزور الذين شهدوا الحملة العسكرية، فقد ارتكب لواء الحرس الجمهوري عمليات قتل ممنهجة ومتعمدة بحق المدنيين، وطهر عناصر هذا اللواء - بإشراف مباشر من الضابط علي خزام- المنازل واحدًا تلو الآخر، وأعدموا المدنيين ميدانيًا⁽³⁵⁾، وهو ما يخالف القانون الدولي الإنساني الذي ينص على وجوب حماية المدنيين في أوقات النزاعات المسلحة. وبحسب ما هو موثق فإن عدد ضحايا هذه المجزرة يتجاوز 150 ضحية من المدنيين الذين تم التعرف إليهم⁽³⁶⁾، إضافة إلى عدد كبير من الضحايا يصل عددهم إلى حوالي 90 مدنيًا دفنوا في إحدى الحدائق، ولم يتم التعرف إليهم بسبب آثار الحرق والتشويه التي طالت جثثهم⁽³⁷⁾.

وهذا يعني أن الأدوات التي يستخدمها النظام السوري لفرض حالة التجانس، قائمة على أساس الولاء السياسي، عبر الحملات العسكرية نحو المناطق المنتفضة، وتشارك فيها قوات رسمية كالجيش وقوات الأمن، وقوات غير رسمية كقوات الشبيحة والمليشيات المشحونة طائفيًا، وفيها يمارس العنف بطريقة غير مسبقة بهدف العقاب والقتل الجماعي، ومن ثم تهجير السكان عنوة. وتستهدف أيضًا منازل المدنيين والمنشآت الحيوية من خلال استخدام قوة نارية كبيرة جدًا تهدف إلى إحداث أكبر قدر من الدمار المادي في المناطق التي تسيطر عليها فصائل المعارضة المسلحة، وهذا ما يُطلق عليه في المجال العمراني بالأوربسايد⁽³⁸⁾ Urbicide، وهي الحروب التي تستهدف المدن وساكنيها بهدف تشريدتهم قسرًا منها، ومنع عودتهم إليها في ما لو هدأت العمليات العسكرية، ومن ثم الوصول إلى مجتمع «متجانس» لا مجال فيه للآخر، بل القضاء على المختلف، وطمسه كليًا، سواء كان الاختلاف سياسيًا أم عرقيًا أم دينيًا. وهو ما يتطابق تمامًا مع الخطاب الذي أصدره رئيس النظام السوري بشار الأسد في العام 2017⁽³⁹⁾ الذي قال فيه:

((خسرنا خيرة شبابنا وبنية تحتية كلفتنا الكثير، صحيح لكننا بالمقابل ربنا مجتمعًا أكثر صحة

(34) Uğur Ümit Üngör, Ali Khizam and the specter of sectarian violence in Syria, (The Routledge Handbook of Religion, Mass Atrocity, and Genocide, 2021), b. 56.

(35) Uğur Ümit Üngör, Ali Khizam and the specter of sectarian violence in Syria, b.56.

(36) د.م، «انتهاكات الحرس الجمهوري» وخفايا مجزرة حي «الجورة و» القصور» في دير الزور»، مع العدالة، (أيلول/ سبتمبر 2018)، <https://bit.ly/3twA2ld>

(37) د.م، «مجزرة في دير الزور وتصاعد القصف بسوريا، شبكة الجزيرة»، (أكتوبر/ تشرين الأول 2012)، <https://bit.ly/3Mo3zMW>

(38) سوسن أبو زيدان، كيف انتزع الأسد منّا سوريا المتجانسة.

(39) جاء هذا المفهوم ضمن خطاب بشار الأسد خلال افتتاح مؤتمر وزارة الخارجية والمغتربين عام 2017، <https://bit.ly/31EDVxv>

وأكثر تجانسًا بالمعنى الحقيقي وليس بالمعنى الإنشائي أو بالمجاملات، هذا التجانس هو أساس الوحدة الوطنية، تجانس العقائد، تجانس الأفكار، التقاليد، العادات، المفاهيم، الرؤى، على تنوعها واختلافها. التجانس لا يعني التطابق، التجانس يعني أن تكون متكاملة مع بعضها البعض⁽⁴⁰⁾.

تشير أدبيات البحث إلى أن كمًا هائلًا من الدمار الذي لحق بمراكز المدن الثائرة نتيجة العمليات العسكرية المستمرة للنظام السوري ومن ثم إيران وروسيا بعد تدخلهما المباشر في الحرب السورية على التوالي، ولم يكن ذلك إلا جزءًا من سياسات فرض التجانس ضمن سياسة التهجير القسري الممنهج والدمار الواسع للبنى التحتية في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، وهو ما يؤكدته تقرير الممنهج والدمار الواسع للبنى التحتية في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، وهو ما يؤكدته تقرير Human Rights Watch الذي حمل عنوان (التسوية بالأرض: عمليات الهدم غير المشروع لأحياء سكنية في سوريا في 2012-2013)⁽⁴¹⁾، حيث يخلص التقرير إلى أن كثيرًا من المباني والمنازل السكنية التي سُويت بالأرض لم تكن أهدافًا عسكرية فقط، بل كانت تُستهدف بغرض التدمير وبهدف حرمان قاطنيها من العودة إليها لاحقًا، ولذلك تبقى هذه المدن خالية من السكان وهو ما حدث فعليًا في محافظة دير الزور، وذلك يفسر أيضًا بأنه نوع من الانتقام الشامل فاليبيت يعد شيئًا غاليًا لأهله (انظر الصورة رقم 1 أدناه).



الصورة رقم 1: تظهر الدمار في أحد أحياء مدينة دير الزور⁽⁴²⁾

(40) وزارة الخارجية والمغتربين التابعة للنظام السوري، كلمة بشار الأسد خلال افتتاح مؤتمر وزارة الخارجية والمغتربين، آب/ أغسطس 2017 <https://bit.ly/3ImrQQh>

(41) Human Rights Watch، «Razed to the Ground: Syria's Unlawful Neighborhood Demolitions in 2012-2013»، January 30, 2014(، <https://bit.ly/3hUM2Os>

(42) تلفزيون سوريا، أحياء دير الزور غارقة بالركام والنظام يتجاهل إزالتها، أكتوبر/ تشرين الأول 2020، <https://bit.ly/3MIQbTB>

يظن النظام السوري أن هذه الاستراتيجية قد أثبتت (فاعليتها) في مناطق مختلفة من سورية، كما حدث في حي بابا عمر في والغوطة الشرقية في أوقات مختلفة من عام 2012⁽⁴³⁾، وهو ما دفع النظام السوري إلى إرسال اللواء نفسه 105 من الحرس الجمهوري على رأس هذه الحملة العسكرية، والنتيجة كانت، بحسب مدنيين من المحافظة، أولاً قتل عدد كبير من أبناء المحافظة، وثانياً تهجير قسم كبير من المدنيين، ما أدى إلى أن أول قرار يتخذه الإنسان هو النزوح والهجرة خوفاً من عمليات القتل التي لا يراعى فيها أي اعتبار لحق حماية المدنيين في أثناء النزاعات المسلحة، أو حتى السماح بممرات إنسانية تتيح لهم الخروج من المناطق المحاصرة. وبحسب ناشطين من أبناء المدينة⁽⁴⁴⁾، فإن عدد المدنيين الذين بقوا في مدينة دير الزور بعد هذه الحملة كان أقل من 500 مدني فقط، مقارنةً بعدد قاطني المدينة قبل اندلاع الثورة الذي كان يقدر بنحو نصف مليون نسمة⁽⁴⁵⁾. أما الأغلبية العظمى من أبناء المدينة فقد أجبروا على النزوح قسراً خارج المحافظة. وهذا هو الانتهاك الثاني (التهجير القسري) الذي يعرفه القانون الدولي الإنساني بأنه: ((الإخلاء القسري وغير القانوني لمجموعة من المدنيين كنتيجة لممارسات مرتبطة بعمليات التطهير ضمن بقعة جغرافية محددة، يقوم بها فصيل عسكري باستخدام العنف والقتل الجماعي على أساس ديني أو عرقي أو سياسي لدفعهم للهروب وهم مرغمون من منطقتهم))⁽⁴⁶⁾.

ثامناً: تنظيم الدولة (داعش) يشن حرباً على محافظة دير الزور

بدأ تنظيم الدولة داعش بالتغلغل تدريجياً في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام السوري في نهاية عام 2013، مستفيداً من سيطرة فصائل إسلامية على تلك المناطق، منها جبهة النصرة التي سيطرت بشكل شبه كامل على ريف دير الزور الشرقي وفرضت فيها قوانينها وأحكامها، وأنشأت محاكم شرعية، منها تلك التي أحدثتها في مدينة الميادين عام 2013⁽⁴⁷⁾، وفي هذه المرحلة بدأ بعض

(43) Üngör, Uğur Ümit. "Ali Khizam and the specter of sectarian violence in Syria." The Routledge Handbook of Religion, Mass Atrocity, and Genocide (2021): 56.

(44) محمود الحسين، مقابلة شخصية مع خالد مهدي، عبر الهاتف، (27 شباط/ فبراير 2022).

(45) مقابلة شخصية عبر الهاتف مع عدد من ناشطي مدينة دير الزور الذين كانوا موجودين في مدينة دير الزور في أثناء الحملة العسكرية للحرس الجمهوري في شهر أيلول/ سبتمبر 2012، (شباط/ فبراير 2022).

(46) Dalal Sadek Ahmed, "النزوح وجرائم الحرب (الموصل) نموذجاً"، Journal of University of Babylon for Humanities 26, no. 8 (2018), b. 566-580.

(47) د.م، «هيئة شرعية» إسلامية جديدة «تتولى شؤون الناس» في شرق سوريا، فرانس 24، (تشرين الأول/ أكتوبر 2013).

المدنيين بالتفكير جدياً بالهجرة خارج سورية، وهذا يعود إلى أسباب كثيرة أولها طول مدة النزاع وازدياد الوضع الميداني تعقيداً، وغياب الحل السياسي ثانياً، الممارسات المرتكبة من جبهة النصرة تجاه المدنيين ثالثاً.

في هذه المرحلة، أي في أواخر عام 2013 وبدايات عام 2014، بدأت تلوح في الأفق حرب قادمة باتجاه المناطق الشرقية، سببها الخلاف الذي بدأ يظهر للعلن بين جبهة النصرة وحركة أحرار الشام الإسلامية التي تعرف بفصائل الجبهة الإسلامية من جهة، وتنظيم الدولة من جهة أخرى، في إثر هذا الخلاف طردت فصائل الجبهة الإسلامية عناصر تنظيم الدولة من محافظة دير الزور بصورة كاملة في كانون الثاني/يناير 2014. إلا أن التنظيم بدأ يعد العدة ويستجمع قواه للعودة مجدداً إلى محافظة دير الزور، وهو ما حدث فعلاً، بعد معركة استمرت حوالي سبعة أشهر، خسرت محافظة دير الزور عدداً كبيراً من أبنائها⁽⁴⁸⁾، ومع دخول شهر رمضان في عام 2014 سيطر تنظيم الدولة على الجزء الأكبر من محافظة دير الزور، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تسارع الأحداث في العراق كان له تداعياته على محافظة دير الزور، وبخاصة بعد تيسير سقوط الموصل في يد عناصر تنظيم الدولة واستحواذه على أسلحة ومعدات كثيرة⁽⁴⁹⁾ ساعدته في حربه ضد فصائل المعارضة في محافظة دير الزور⁽⁵⁰⁾، ولعل ذلك كان مقصوداً حيث ترك بنك الموصل من غير إخلاء وترك أسلحة فرق كاملة، وكان أن تنظيم داعش لم يعلن عن (خلافته) إلا بعد السيطرة على كامل محافظة دير الزور⁽⁵¹⁾، وبذلك بدأ الأهالي بالنزوح والهجرة خارج المحافظة كلياً، ويعود كل من النزوح والهجرة إلى الأسباب الآتية:

1. الحرب الطويلة التي دارت بين التنظيم وفصائل المعارضة في محافظة دير الزور، ولا سيما على الضفة اليسرى لنهر الفرات التي يطلق عليها الجزيرة، طول مدة هذه الحرب سبب

<https://bit.ly/3J5nChc>

(48) تشير بعض الإحصاءات إلى أن عدد الضحايا من أبناء محافظة دير الزور خلال الحرب مع تنظيم الدولة داعش يقدر بحوالي 6000 شخص.

د.م، تنظيم الدولة بهجر الآلاف من بلدة بدير الزور، شبكة الجزيرة، (يوليو/تموز 2014)، <https://bit.ly/3t4XDRh>.

(49) w.r, How ISIL seized most of its weapons from Iraq military, Al Jazeera English, (December 2015), <https://bit.ly/3L0uUDm>

(50) بوغلام غبشي، «ما هو السر وراء «القوة العسكرية» لتنظيم «الدولة الإسلامية»؟»، شبكة فرانس 24، (آب/أغسطس 2014)،

<https://bit.ly/314jIDW>

(51) د.م، «داعش يعلن إقامة «الخلافة الإسلامية» ويابع زعيمه خليفة للمسلمين»، BBCعربي، (يونيو/حزيران 2014)،

<https://bbc.in/3CLUclX>

للتنظيم خسائر كثيرة في عناصره، وهو الأمر الذي لم يحصل في أي منطقة أخرى، وهو ما زاد من نقمة التنظيم وعناصره على أهالي محافظة دير الزور، ولذلك بدأت أعداد المهجرين بالارتفاع بعد سيطرة تنظيم داعش على المحافظة خوفاً من عمليات الانتقام والقتل والعقاب الجماعي.

2. بعد أن سيطر تنظيم الدولة على محافظة دير الزور بعد معارك عسكرية طويلة، هُجّر أهالي بعض القرى الواقعة في الريف الشرقي للمحافظة، منها قرى الشحيل وطابية جزيرة وخشام، وعلى الرغم من مبايعة هذه القرى للتنظيم⁽⁵²⁾، إلا أن الأخير هَجَرهم خارج قراهم وفرض بحقهم شروطاً قاسية⁽⁵³⁾، بحجة أنهم قاتلوا تنظيم داعش، ويقدر عدد المدنيين الذين هجروا بحوالي 35.000 مدني من قرية الشحيل وما يقارب 30.000 مدني من قريتي طابية جزيرة وخشام في ريف دير الزور الشرقي⁽⁵⁴⁾. وهذا ما يندرج ضمن أهداف تنظيم داعش في سعيه إلى فرض مجتمع «متجانس» أيديولوجياً لا مكان فيه للآخر الذي يرفض وجوده كلياً في محافظة دير الزور. ولذلك مارس تنظيم داعش أقصى درجات العنف بحق المدنيين ضمن سياسة إدارة التوحش⁽⁵⁵⁾ التي يؤمن بها بهدف التضييق على السكان الأصليين ودفعهم إلى مغادرة مناطقهم قسراً، وذلك بالتزامن مع ارتفاع أعداد المقاتلين الأجانب الوافدين لمناطق سيطرته، الذين يؤمنون بمعتقدات التنظيم وأفكاره، وهو ما يخدم أهدافه في فرض التجانس الأيديولوجي الذي يسعى إليه.
3. التضييق الذي مارسه التنظيم بحق أبناء محافظة دير الزور في المناطق التي يسيطر عليها، والمتعلقة في الأمور الحياتية اليومية، منها اللباس والعمل من خلال جهاز أحدثه التنظيم وأطلق عليه (الحسبة)، وكانت العقوبات تراوح بين السجن والجلد أمام المارة أو احتجاز الشباب وسوقهم إلى مطار دير الزور العسكري لحفر الخنادق وتنصيب المتاريس.
4. عمليات القتل والإعدام وقطع الرؤوس التي مارسها تنظيم داعش بحق أبناء محافظة دير الزور بعنف بربري وحشي لا مثيل له، والهدف هو ترهيب السكان وفرض أيديولوجية التنظيم وعدم السماح بأي تحرك للمجتمعات المحلية قد يقوض حكم التنظيم، ولهذا

(52) محمد فتوح، «داعش يهجر سكان ريف دير الزور عقاباً لهم»، عربي 21، تموز/ يوليو 2014، <https://bit.ly/3w7mDcJ>

(53) د.م. تنظيم دولة العراق والشام يهجر مدن وبلدات ريف دير الزور الشرقي، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، (تموز/ يوليو 2014)، <https://bit.ly/3pUHCLR>

(54) د.م. تنظيم الدولة يهجر الآلاف من بلدة بدير الزور، شبكة الجزيرة، (يوليو/ تموز 2014)، <https://bit.ly/3t4XDRh>

(55) د.م. كتاب إدارة التوحش.. «دستور» داعش لإرهاب الشعوب، قناة الحرة، (فبراير/ شباط 2016)، <https://arbne.ws/39DccnT>، فالح عبد الجبار، دولة الخلافة التقدم إلى الماضي، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تشرين الأول/ أكتوبر 2017)، ص 89.

الهدف كان يمارس عمليات قطع الرؤوس وحز الأعناق ودحرجتها علناً أمام الناس⁽⁵⁶⁾، بوصفها عقاباً لا يتساوى إطلاقاً مع جنس العمل، ومع عمليات القتل هذه كانت ترتفع أعداد المهجرين، بالمقابل كانت أعداد المقاتلين العرب والأجانب وعائلاتهم القادمة إلى محافظة دير الزور في ازدياد مستمر. وفي ذلك تجسيد عملي لخطاب نظري أيديولوجي تؤمن به الجماعات الدينية، وهو (الهجرة) إلى (دار الحرب) أو (أرض الخلافة)، وهذا ما تؤكد الإحصاءات عن سفر عشرات آلاف من المقاتلين العرب والأجانب إلى (أرض الجهاد) في سورية، وهم من جنسيات مختلفة تصل إلى ثمانين جنسية⁽⁵⁷⁾، وهذا ما يمكن وصفه بالتغيير القائم على أساس أيديولوجي يهدف فرض التجانس الديني، أي استبدال مقاتلين من جنسيات مختلفة مع عائلاتهم بسكان المجتمعات المحلية، فقط لأنهم متفقون من حيث الأيدولوجية، ويؤمنون بفكر واحد لأن تنظيم داعش يرى الإسلام على طريقته، (كإسلام جهادي)، وهذه المناطق دار حرب ينبغي الجهاد فيها، وليس الإسلام الوسطي المعتدل الذي يؤمن به أبناء محافظة دير الزور، وعلى الرغم من أنهم مسلمون سنة، إلا أنه يرى القسم الأكبر منهم مرتدين لأنهم لم يبايعوا التنظيم بالطريقة التي يرغب فيها، ولذلك يجب عليهم (الاستنابة)، وكذلك يعتقد التنظيم أن أسلوب تدين أهالي المناطق التي سيطر عليها، منها محافظة دير الزور، لا يتناسب مع النهج الذي يسعى إليه القائم على التوحش ووأد الطرف المختلف وأدًا كاملاً ومطلقاً.

5. حرمان الموظفين المدنيين الذين يعملون في مؤسسات الدولة السورية من رواتبهم وإجبارهم على الخضوع لدورات شرعية أطلق عليها تنظيم داعش (دورات استنابة) لأنه يرى أن من كان يعمل لدى مؤسسات الدولة السورية، وخصوصاً المنتسب إلى وزارتي التربية والتعليم ((بحكم الشخص الواقع في الكفر والردة والخارج عن ملة الإسلام))⁽⁵⁸⁾، ولذلك يجب عليه التوبة وحضور هذه الدورات الشرعية وإكمالها، وإلا سيكون مصيره القتل. وبذلك أصبح هؤلاء المدرسون جميعهم بلا مصدر دخل بعد قرارات تنظيم داعش الأخيرة، وهو ما دفع عددًا كبيرًا منهم إلى الهجرة خارج سورية.

6. الحاجة إلى العنصر البشري: بعد أن سيطر داعش على محافظة دير الزور، وأعلن (الخلافة)، حاول إدارة المناطق التي يسيطر عليها عبر مؤسسات عدة أطلق عليها اسم (الدواوين)، إضافة إلى فتحه معارك عدة على جبهات عسكرية مختلفة، منها حربه ضد

(56) فالح عبد الجبار، دولة الخلافة التقدم إلى الماضي، ص 100.

(57) علي صالح المولى، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: الجزء الثاني ثنائية الثقافة والخطاب، ثقافة النحر وحرفة قطع الرؤوس أي معقولة؟ مقارنة تحليلية نقدية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 52.

(58) ياسر العيسى، «ماذا بعد «استنابة» تنظيم الدولة المعلمين في دير الزور؟»، شبكة الجزيرة، (فبراير/ شباط 2015)،

<https://bit.ly/3MFX7Bb>

النظام السوري وفصائل المعارضة المسلحة، ومن ثم ما يعرف بقوات سوريا الديمقراطية لاحقاً، ولذلك أصبح بحاجة إلى العنصر البشري، إما للعمل أو القتال، ولذلك كان يستهدف فئة الشباب بخاصة، وكذلك الأطفال الذين يطلق عليهم مصطلح (أشبال الخلافة)، وكان يخضعهم لدورات تدريب عسكرية وأمنية وشرعية، لأنه يعول عليهم كثيراً، لأنه يعرف أنهم مادة خام ويمكن غسل أدمغتهم بخطاباته البراقة وشعاراته الوهمية، وبذلك كان استهداف الشباب من تنظيم داعش أكبر هاجس وتخوف لدى أهالي المحافظة، وهو ما دفع عددًا كبيراً من العائلات إلى الهجرة خارج مناطق سيطرة التنظيم خوفاً على أبنائهم من الالتحاق بتنظيم داعش.

ولأن التنظيم سعى إلى إثبات فشل (تنظيم القاعدة) في طريقة تعامله مع الأطراف المختلفة -ومن ضمنها المجتمعات المحلية- عمل على فرض مجتمع متجانس أيديولوجياً، وهندسته اجتماعياً بطريقة شمولية كما فعلت سابقاً الأنظمة الدكتاتورية في الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية⁽⁵⁹⁾، وقد كان شعار التنظيم غير المعلن: ((من ليس معنا، فهو ضدنا بالضرورة))، معادلة صفرية، والنتيجة كانت تهجير فئات كبيرة من الأهالي في المناطق التي سيطر عليها التنظيم، وهذا ما يدحض فكرة أن البيئة السنية هي ((حاضنة للتنظيم))⁽⁶⁰⁾. في المقابل السماح لمقاتلي التنظيم من العرب والأجانب بالسكن والإقامة في منازل وبيوت من يراهم التنظيم (كفاراً أو مرتدين).

ويمكن إجمال مراحل التهجير القسرية من محافظة دير الزور التي حدثت خلال مدة سيطرة تنظيم داعش على المحافظة من منتصف عام 2014 حتى عام 2017 بالمراحل الآتية:

المرحلة الأولى: وهي التي اشتد فيها القتال مع تنظيم داعش خلال سعيه إلى السيطرة على محافظة دير الزور في النصف الأول من عام 2014، وفي هذه المرحلة وتحديداً في رمضان 2014 وبعد سيطرة داعش على كامل المحافظة، خرجت أفواج كبيرة من المدنيين من المناطق التي سيطر عليها داعش، وكانت وجهتهم الرئيسة في ذلك الوقت هي تركيا⁽⁶¹⁾.

(59) عزمي بشار، تنظيم الدولة المكنى داعش، الجزء الأول: إطار عام ومساهمة نقدية في فهم الظاهرة، (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص 199.

(60) عزمي بشار، تنظيم الدولة المكنى داعش، الجزء الأول: إطار عام ومساهمة نقدية في فهم الظاهرة، ص 14.

(61) كاتب هذه المقالة كان من ضمن المهجرين الذين غادروا مدينة الميادين في شهر رمضان 2014 باتجاه ولاية أورفة في تركيا، وذلك بعد سيطرة تنظيم داعش على كامل محافظة دير الزور، وما لاحظته هو وجود أعداد كبيرة من المدنيين الذين يغادرون يومياً محافظة دير الزور باتجاه الحدود السورية التركية، ومن ثم يعبرون إلى الأراضي التركية، حيث كانت طرق التهريب سهلة نوعاً ما ولا توجد عوائق كبيرة في دخول الأراضي التركية.

المرحلة الثانية: بعد سيطرة تنظيم داعش على محافظة دير الزور، وبسط سيطرته الأمنية، بدأ بالتضييق على المدنيين شيئاً فشيئاً، وقتل عدداً كبيراً من أبناء المحافظة، وقطع رؤوسهم أمام المدنيين في ساحات المدينة⁽⁶²⁾، خصوصاً أن هذه المرحلة قد شهدت المجزرة الشهيرة التي قام بها تنظيم داعش بحق أبناء عشيرة الشيعيات الذين يقدر عددهم بنحو 100.000 مدني ويقتنون قرى (أبو حمام، غرانيج، الكشكية) في ريف محافظة دير الزور الشرقي، حيث انتفض أبناء العشيرة في وجه تنظيم داعش بعد سيطرته على تلك القرى، ليرد التنظيم بطريقة وحشية جداً من خلال محاصرته تلك القرى، والانتقام منهم جماعياً، وإصدار فتوى بقتل كل من (أنبت)، وتجاوز 14 عامًا، وتشريد أهالي تلك القرى وتهجيرهم مدة طويلة من الزمن. ويقدر عدد الذين قتلهم تنظيم داعش في تلك المرحلة بنحو 1200 مدني من أبناء عشيرة الشيعيات وحدها⁽⁶³⁾، وهو ما بث الرعب في نفوس المدنيين في تلك المناطق ورفع أعداد المهجرين قسراً من مناطق سيطرته. وهو ما تناقشه بعض الأدبيات بأن المجازر الجماعية عادةً ما يسبقها خطاب أيديولوجي يصور الطرف الآخر بأنه مهدد له وعدو ينبغي محاربته والقضاء عليه⁽⁶⁴⁾.

المرحلة الثالثة: بعد بدء التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حربه ضد تنظيم داعش في أواخر عام 2014⁽⁶⁵⁾، بدأ طيران التحالف الدولي باستهداف تنظيم داعش والنقاط العسكرية، وعلى الرغم من إعلان التحالف الدولي استهدافه المقار العسكرية التابعة لتنظيم داعش فقط، قُتل ضحايا مدنيون كثر نتيجة غارات التحالف الجوية⁽⁶⁶⁾، إضافة إلى إحداث دمار كبير جداً في البنى التحتية، وهذا ما يؤكدته تقرير صادر عن مؤسسة رند للأبحاث، بأن حجم الدمار كبير جداً بسبب العمليات العسكرية والقصف الجوي من جانب التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت النتيجة بعد انتهاء عمليات التحالف الدولي العسكرية أن 80 بالمئة من منازل المدنيين أصبح غير صالح للسكن في مدينة الرقة⁽⁶⁷⁾، وهكذا سببت هذه الدينامية العسكرية -أي غارات التحالف

(62) صادق عبد الرحمن، «ميادين الفرات الرحبة (2 من 2)»، شبكة الجمهورية، (أيلول / سبتمبر 2016)، <https://bit.ly/3MKoGcf>

(63) د.م، «مذبحة الشيعيات في دير الزور»، دير الزور 24، <https://bit.ly/3MOsyIE>

د.م، «مجزرة الشيعيات - دير الزور (كنت هناك)»، التلفزيون العربي، (كانون الثاني / يناير 2020)، <https://bit.ly/3i0guGH>

(64) Haian Dukhan, "The ISIS Massacre of the Sheitat Tribe in Der ez-Zor, August 2014", Journal of Genocide Research (2021), 19-.

(65) ACAPS, Regional Analysis for Syria Q3 2014 | 13 October 2014, <https://bit.ly/3J6mZDS>

(66) تلفزيون سوريا، البنتاغون يعترف بقتل عشرات المدنيين في سوريا والعراق وأفغانستان، أيار / مايو 2020، <https://bit.ly/3J74jnl>

(67) Michael J. McNerney et al, Understanding Civilian Harm in Raqqa and Its Implications for Future Conflicts, (RAND Corporation, 2022), <https://bit.ly/3xcWoSG>

الدولي - ارتفاعاً في أعداد المهجرين من محافظة دير الزور أيضاً.

من جانب آخر شهدت هذه المرحلة حصار تنظيم داعش أحياء مدينة دير الزور الواقعة تحت سيطرة النظام السوري، وقد استمر الحصار حوالي ثلاث سنوات، 2015-2017، حيث كان يقطن في تلك الأحياء حوالي ربع مليون مدني⁽⁶⁸⁾، تعرضوا لحصار قاسٍ لم تشهده المدينة في تاريخها الحديث قط، ولذلك نشطت عمليات التهريب من تلك الأحياء باتجاه ريف دير الزور ومن ثم باتجاه الشمال السوري وإلى الداخل التركي وصولاً إلى أوروبا.

المرحلة الرابعة: بدأت مع انطلاق الحملتين العسكريتين اللتين سعنا إلى استعادة السيطرة على محافظة دير الزور، حيث كان الطرف الأول للحملة هو ما يعرف بقوات سوريا الديمقراطية بدعم جوي لا محدود من الولايات المتحدة الأمريكية والتحالف الدولي، والطرف الثاني هو النظام السوري والمليشيات الإيرانية بإسناد جوي من الطيران الروسي. وفي هذه المرحلة حدثت كبرى موجات التهجير القسري لأبناء محافظة دير الزور نتيجة هاتين الحملتين العسكريتين.

تاسعاً: حملتان عسكريتان للسيطرة على محافظة دير الزور، والنتيجة تدمير المحافظة وتهجير الأهالي

يهدف محاربة تنظيم داعش، شُكِّل التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب من 80 دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر عام 2014، وبما أن تنظيم داعش كان يسيطر على المحافظات الشمالية الشرقية من سورية، وبالتحديد محافظتي الرقة ودير الزور، حيث كانتا مسرحاً للعمليات العسكرية التي تهدف إلى القضاء على التنظيم، وبلا شك سيدفع المدنيون ثمنًا باهظاً لتداعيات هذه العمليات العسكرية على مناطقهم، وأمام حالة تراجيدية قائمة كهذه سيكون التهجير والهرب الحل الوحيد.

منذ أواخر عام 2014، كان هناك ديناميات عسكرية عدة في الملف السوري، بدءاً بعمليات التحالف الدولي التي بدأت في شهر أيلول/ سبتمبر 2014، ومن ثم التدخل العسكري الروسي في أيلول/ سبتمبر 2015 الذي زاد من عدد المهجرين السوريين زيادة حادة جداً، حيث شهدت المرحلة

(68) الشبكة السورية لحقوق الإنسان، نداء استغاثة لربع مليون سوري محاصرين في أحياء دير الزور وأحياء الجورة والقصور بين فكي

كماشة، (نيسان/ أبريل 2015)، <https://bit.ly/3Mlon1H>

أخبار الأمم المتحدة، «الأمم المتحدة تحشد الجهود لمساعدة آلاف المحتاجين في دير الزور»، (أيلول/ سبتمبر 2017)، <https://bit.ly/3MKqUZ9>

التي تلت التدخل العسكري الروسي، وحتى نهاية عام 2021 حوالي 16 حالة تهجير قسري جماعي للمدنيين في المناطق التي كانت تسيطر عليها فصائل المعارضة المسلحة⁽⁶⁹⁾.

في محافظة دير الزور كان لا بد للمدنيين من أن يدفعوا ثمنًا للعمليات العسكرية في مناطقهم، وذلك لأسباب عدة، أولاً لأن تنظيم داعش يسيطر على هذه المحافظة، فأى عملية عسكرية تستهدف التنظيم سيكون للمدنيين نصيبٌ منها، ثانياً: إن استثناء محافظة دير الزور مما يعرف بمناطق خفض التصعيد ضمن مفاوضات أستانة بين النظام السوري والمعارضة، إضافة إلى الدول الضامنة الثلاث: روسيا وتركيا وإيران، ما أدى إلى بقاء هذه المحافظة مسرحاً للعمليات العسكرية التي أدت بدورها إلى تهجير المدنيين، ثالثاً: مع بدء العمليات العسكرية للحملتين الأخيرتين من جانب النظام السوري والتحالف الدولي، استُهدفت البنى التحتية بوضوح ومباشرة، وكان أبرزها تدمير الجسور المطلة على نهر الفرات التي تصل ضفتي النهر ببعضهما، وقد تضرر 19 جسراً خلال العمليات العسكرية من أصل 25 جسراً، خرج منها 14 جسر من الخدمة⁽⁷⁰⁾، وهذا ما جعل الحياة في المحافظة تكاد تكون ضرباً من المستحيل، وقيد حركة السكان بصورة كبيرة وأضاف أعباء مالية إضافية على كاهل المدنيين، ودفعهم ذلك إلى استخدام القوارب النهرية لعبور نهر الفرات التي لم تسلم هي الأخرى من الضربات الجوية، حيث استهدف الطيران الروسي والسوري المعابر المائية في أثناء محاولة المدنيين النزوح والفرار من عمليات القصف والعمليات العسكرية التي تنفذها قوات النظام السوري برّاً تجاه مناطق المدنيين، حيث وثق تقرير صادر عن الشبكة السورية لحقوق الإنسان ما لا يقل عن 25 حادثة اعتداء على المعابر المدنية، استهدف المدنيين فيها، وتسببت هذه الهجمات الجوية في مقتل 241 مدنياً⁽⁷¹⁾. استخدم الروس أيضاً القنابل العنقودية خلال عامي 2016 و2017 استخدمت القنابل العنقودية من جانب الطيران الروسي 121 مرة، وتسبب ذلك في مقتل 93 مدنياً، بينهم 24 طفلاً، وإصابة ما لا يقل عن 417 شخصاً آخرين، وبحسب الإحصاءات، فإن الطيران السوري قد استهدف المدنيين فقط خلال إلقائه هذه القنابل، ولم يوجه ضرباته إلى أهداف عسكرية، وهذا انتهاك مباشر

(69) محمود الحسين، الديمغرافيا السورية في حسابات التسوية، مركز الجزيرة للدراسات، (تشرين الثاني/ نوفمبر 2021)، <https://bit.ly/3t4BDpv>

(70) الشبكة السورية لحقوق الإنسان، دير الزور محافظة مقطعة الأطراف 29 حادثة اعتداء على الجسور 15 منها على يد قوات التحالف، (2017)، <https://bit.ly/3qvsepx>

(71) كانت حصيلة الضحايا المدنيين بحسب مرتكبي المجازر: النظام السوري: 98 بينهم 7 أطفال، و9 سيدات أما القوات الروسية فقد قتلت 143 مدنياً بينهم 21 طفلاً، و14 سيدة، ترافقت هذه الهجمات مع 15 مجزرة، ارتكب النظام السوري منها 9 مجازر في حين ارتكبت القوات الروسية 6 مجازر.

د.م، «تقرير عن استهداف المعابر المائية بعد تدمير الجسور في محافظة دير الزور»، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، (2018)،

<https://bit.ly/3uuPWml>

للقانون الدولي الإنساني وما ينص عليه من وجوب حماية المدنيين وتمييزهم من الأهداف العسكرية، وهو ما يرقى إلى جرائم حرب ارتكبتها القوات الروسية في سورية⁽⁷²⁾.

وأخيراً سببت العمليات العسكرية البرية المباشرة التي بدأت في الربع الأول من 2017 وقوع ضحايا مدنيين كثيرين من أبناء محافظة دير الزور، كان سببها الطيران الروسي وطيران النظام السوري فضلاً عن طيران التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، وقد سجلت الإحصاءات الصادرة عن الأمم المتحدة نزوح ما لا يقل عن 95.000 شخص من محافظة دير الزور خلال ثمانية أيام فقط في شهر تشرين الأول/ أكتوبر⁽⁷³⁾ 2017، ومع نهاية عام 2017 وصل عدد المهجرين إلى نحو 400.000 مدني أغلبهم نساء وأطفال، وذلك بسبب الحملة العسكرية والطلعات الجوية للنظام السوري وحليفه الروسي⁽⁷⁴⁾. ومع نهاية عام 2018 قُدر عدد النازحين من محافظة دير الزور بنحو 107.000 مدني⁽⁷⁵⁾.

وقد وُصفت دير الزور بأنها برلين الشرق الأوسط⁽⁷⁶⁾، بسبب السباق الذي كان حاصلاً بين الولايات المتحدة الأميركية عبر حليفها قسد وروسيا وحليفها النظام السوري لأن المحافظة كانت المعقل الأخير لتنظيم الدولة داعش، ومع نهاية آذار/ مارس 2019 سيطرت ما تسمى بقوات سوريا الديمقراطية على مدينة الباغوز في ريف محافظة دير الزور المعقل الأخير لتنظيم الدولة داعش⁽⁷⁷⁾، وبذلك أفضت الحملتان العسكريتان إلى شطر محافظة دير الزور إلى نصفين، الأول يُطلق عليه اسم الشامية وهو الضفة اليمنى لنهر الفرات، وتسيطر عليه قوات النظام السوري والمليشيات الإيرانية، أما النصف الثاني الذي يطلق عليه اسم الجزيرة وتسيطر عليه الولايات المتحدة الأميركية عبر

(72) د.م، «القوات الروسية تتفوق على النظام السوري في استخدام الذخائر العنقودية ما لا يقل عن 121 هجمة في عام واحد، و175 هجمة منذ التدخل الروسي»، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، (2017)، <https://bit.ly/3iASHgV>

(73) طارق محمد، «الأمم المتحدة: نزوح 95 ألف شخص بدير الزور السورية في 8 أيام»، شبكة الأناضول، (تشرين الأول/ أكتوبر 2017)، <https://bit.ly/3ML6PSi>

(74) د.م، «قراية 370.000 نازح في دير الزور والرقعة في إثر هجمات الحلف السوري الروسي»، الشبكة السورية لحقوق الإنسان، (تشرين الأول/ أكتوبر 2017)، <https://bit.ly/37eQ3ei>

(75) Reach Initiatives, Northeast Syria: Area-Based Assessment of Deir-ez-Zor Governorate, November 2018, (<https://bit.ly/3tUBTXs>)

(76) Richard Spencer, Powers at war in Syria scramble forces to capture desert 'Berlin', The Times, May 2017, (<https://bit.ly/35Tsyaj>)

(77) Katie Rogers, Rukmini Callimachi and Helene Cooper, Trump Declares ISIS '100%' Defeated in Syria, The New York times, February 2019, (<https://nyti.ms/3a1q34f>)

حليفها قوات سوريا الديمقراطية قسد، ومن دفع المدنيون الثمن الباهظ لهذه العمليات العسكرية، إذ قُتل في غارة جوية واحدة للولايات المتحدة الأميركية حوالي 70 مدنيًا جُلهم من النساء والأطفال، وذلك بعد إلقاء قنبلة تزن 500 طن على تجمع بشري في قرية الباغوز⁽⁷⁸⁾.

في المقابل كان كل من طيران النظام السوري والروسي ينفذان الطلعات الجوية باتجاه محافظة دير الزور بحجة محاربة تنظيم داعش، وبحسب الإحصاءات الصادرة عن وزارة الدفاع الروسية، خلال الحملة العسكرية ضد محافظة دير الزور كان الطيران الروسي ينفذ من ثلاث إلى أربع طلعات جوية في اليوم الواحد، وخلال ثلاث سنوات من التدخل العسكري الروسي في سورية نفذ الطيران الروسي حوالي 92.006 غارات جوية على المناطق التي تسيطر عليها فصائل المعارضة المسلحة وتنظيم داعش⁽⁷⁹⁾، ففي يوم واحد فقط قتل 45 مدنيًا في ريف محافظة دير الزور نتيجة استهدافهم المباشر من الطيران الروسي⁽⁸⁰⁾، والحصيلة دمار شاسع في البنى التحتية ومنازل المدنيين. وفي هذه المرحلة تحديدًا برز مفهوم الأوربسايد جليًا، لأن طيران النظام السوري والروسي كانا يسعيان إلى إلحاق أكبر قدر ممكن من الدمار لتهجير المدنيين وضمان عدم عودتهم، وهذا ما يصب أيضًا ضمن مصلحة الميليشيات الإيرانية التي بدأت تتغلغل شيئًا فشيئًا في المجتمع المحلي في محافظة دير الزور.

عاشراً: نتائج الحملات العسكرية على محافظة دير الزور

1. كان تداعيات العمليات العسكرية التي شهدتها محافظة دير الزور كارثية على المدنيين، وتسببت في تهجيرهم من مدنهم وقراهم، ولم يستطع القسم الأكبر منهم العودة إلى مناطقهم حتى بعد انتهاء العمليات العسكرية بزمان طويل بسبب الدمار الكبير الحاصل الذي تسبب فيه أطراف مختلفة، منها طيران النظام السوري والروسي والتحالف الدولي.
2. برزت أهمية دير الزور بوصفها موقعًا حيويًا لإيران، إذ تقع محافظة دير الزور على الطريق البري الواصل بين إيران ولبنان عبر العراق ثم سورية، ولأن إيران لا حدود برية لها مع سورية، فإن وجود طريق بري مثل هذا أمر في غاية الأهمية لطهران التي ستبقى مصرّة على تأمين

(78) Dave Philipps and Eric Schmitt, How the U.S. Hid an Airstrike That Killed Dozens of Civilians in Syria, The New York Times, November 2021, <https://nyti.ms/3l0c9hu>

(79) د.م، «بالأرقام حصاد عامين من المشاركة الروسية في سوريا»، روسيا اليوم، (2017)، <https://bit.ly/36LakrV>

(80) جلال بكور، «45 قتيلاً بقصف الطيران الروسي على دير الزور»، العربي الجديد، (أيلول/سبتمبر 2017)،

<https://bit.ly/374oB2L>

هذا الطريق لوجستياً، ولذلك فإن إيران وخلاياها والمليشيات المرتبطة بها تنتشر انتشاراً مكثفًا غرب الفرات، وتمارس النشاط الديني والثقافي بهدف التغلغل في نسيج المجتمع السوري على المدى الطويل، مستغلةً حاجات المدنيين وظروفهم المادية الصعبة وذلك من خلال توزيع بعض (المساعدات) من خلال منظمتي (جهاد البناء والرضوان) اللتين تنشطان في الضفة اليمنى لنهر الفرات⁽⁸¹⁾، ولأن دير الزور تعد مهمة لإيران فقد زارها القائد السابق (لفيلق القدس) قاسم سليمان والرائد الحالي إسماعيل قاني مرات عدة، وينشط في منطقة غرب الفرات عدد من المليشيات الإيرانية أبرزها: ميليشيا (الحرس الثوري الإيراني) وفوج أبو القري ومليشيات أبو الفضل العباس ومليشيات فوج السيدة زينب ومليشيات لواء الشيخ ولواء الحسين، إضافة إلى عدد من المليشيات الأخرى العابرة للحدود، منها (فاطميون وزينبيون) وحزب الله اللبناني، ومليشيات الحشد الشعبي العراقي وعصائب أهل الحق وحركة النجباء⁽⁸²⁾، وقد استجلبت إيران عناصر لمليشيات تابعة لها مع عائلاتهم وأسكنتهم في منازل المدنيين، وبخاصة في مدينتي الميادين والبوكمال، ففي البوكمال على سبيل المثال، في 2018 عمدت المليشيات الإيرانية إلى تحويل بناء طيني مهدم يطلق عليه اسم (قبة علي) إلى مزار شيعي⁽⁸³⁾، من أجل استقطاب الشيعة من مناطق مختلفة. في تلك المرحلة؛ فعلى الرغم من انتهاء العمليات العسكرية، كان عدد المدنيين مساوياً تقريباً لعدد المليشيات الإيرانية التي تنشط في مدينة البوكمال وريفها⁽⁸⁴⁾، وفي ذلك إجابة واضحة عن مشكلة البحث، حيث إن العمليات العسكرية تؤدي إلى استدامة تهجير السكان الأصليين قسراً، وفرض حالة من التجانس الذي يخدم أيديولوجيا الفصيل العسكري المسيطر على المنطقة.

3. من جانب آخر استولت هذه المليشيات على 14 هكتاراً من الأراضي الزراعية القريبة من موقع يُسمى عين علي في بادية الميادين وذلك بغية استثمارها في مشروعات دينية ومزارات

(81) عدنان الأحمد، «جهاد البناء ذراع إيران «الاقتصادية والخيرية» للقبض على سورية»، العربي الجديد، (تموز/ يوليو 2019)،

<https://bit.ly/3i3MbyY>

عبد القادر الضويحي، «من بوابة الجوع.. إيران تزيد من تغلغلها في دير الزور»، تلفزيون سوريا، (آذار/ مارس 2021)،

<https://bit.ly/3w1lodC>

(82) د.م، «المليشيات الإيرانية العاملة في دير الزور.. عناصرها.. قاداتها.. مهامها وتبعيتها»، شبكة نهر ميديا، (تموز/ يوليو 2021)،

<https://bit.ly/3KFmWil>

(83) زياد عواد، «إيران في دير الزور: الاستراتيجية والتمدد وفرص التغلغل»، مركز روبرت شومان للدراسات العليا، (2019)،

<https://bit.ly/3tOxYwA>

(84) زياد عواد، «إيران في دير الزور: الاستراتيجية والتمدد وفرص التغلغل».

للحجاج الشيعة⁽⁸⁵⁾. وهو ما استطاعت تنفيذه إيران في 2018 ببناء مزار يقصده الشيعة لأغراض دينية، وهذا ما ينعكس على القرى القريبة من هذا المزار، منها قرية القورية التي يقيم فيها حوالي 5.000 مدني من أصل 50.000 قبل اندلاع الثورة⁽⁸⁶⁾، إذ هُجّر أهالي هذه القرية معظمهم بفعل العمليات العسكرية، ولم يستطيعوا العودة خوفاً من الانتقام أو الاعتقال من الميليشيات الإيرانية ونظام الأسد.

ويقدر عدد عناصر الميليشيات الإيرانية الموجودين في محافظة دير الزور بنحو 15910 عنصر⁽⁸⁷⁾، بعضهم من سورية ويعمل مع هذه الميليشيات مقابل أجر مادي بسيط نتيجة صعوبة الحياة وتقطع السبل ومقابل الحصول أيضاً على بعض الامتيازات الأمنية.

4. لذلك يظهر جلياً أن إيران تهدف إلى إبقاء سيطرتها على محافظة دير الزور ضمن ثلاثة أهداف رئيسية؛ الأول هو المحافظة على الممر البري الواصل بين طهران لبنان الذي يمر بمحافظة دير الزور، والهدف الثاني الضغط على القوات الأميركية المتمركزة في الضفة المقابلة من نهر الفرات، وذلك عبر ميليشياتها المنتشرة في منطقة الشامية، أما الهدف الثالث فهو ديني بعيد المدى تهدف إيران من خلاله إلى نشر التشيع في المحافظة وتغيير المجتمع ديموغرافياً عبر أدوات عدة. ولذلك تصل باستمرار عائلات مقاتلي الميليشيات الشيعية إلى مدينتي البوكمال والميادين بهدف الاستقرار فيها لأن هذه الميليشيات تستوطن في هذه المناطق منذ أن انتهت العمليات العسكرية ضد داعش في⁽⁸⁸⁾ 2018، وبعض الأحياء أصبح تحت سيطرة الميليشيات الإيرانية بالكامل، يقطنها عناصر الميليشيات الأجنبية وعائلاتهم، منها حي التمو في مدينة الميادين. وفي ذلك مثال واضح على السعي الإيراني الواضح إلى إحداث تغيير ديموغرافي مقترن بفرض التجانس الأيديولوجي على من تبقى من السكان الأصليين، لأن الميليشيات الإيرانية المنتشرة في المنطقة الشرقية من سورية تستخدم المحرك الطائفي والمذهبي لفرض التشيع على سكان المنطقة الأصليين.

5. ولأن أثر الحرب كان ساحقاً للمجتمع المحلي في محافظة دير الزور، بحيث أفقدهم القدرة على التأثير، وأجبر الشباب أغلبهم على النزوح والهجرة هرباً من الملاحقات الأمنية والاعتقالات

(85) ضياء أبو زيد، «التغيير الديموغرافي في شرق سوريا يحمل تحذيراً ينذر بالسوء على مستقبل البلاد»، الرابطة السورية لكرامة المواطن، (آب/ أغسطس 2021)، <https://bit.ly/3iku20d>

(86) زياد عواد، «إيران في دير الزور: الاستراتيجية والتمدد وفرص التغلغل».

(87) Omar Abu Layla, How Iranian Militias Have Swallowed Deir Ezzor, Fikra Forum.) February 2022 (<https://bit.ly/3IPaETy>)

(88) من خلال متابعة حسابات الناشطين من محافظة دير الزور على وسائل التواصل الاجتماعي، ومنها حساب السيد زين العابدين الذي ينشر باستمرار معلومات عن الميليشيات الإيرانية في محافظة دير الزور. <https://bit.ly/381Z8rt>

والقتل والإخفاء القسري، فضلاً عن الوضع الاقتصادي السيئ للغاية الذي تعانيه النسبة الكبرى من سكان محافظة دير الزور، جعل الأهالي بلا أي حامل اجتماعي أو سياسي يدفع عنهم أثر التغيير الديموغرافي الذي تمارسه إيران وميلشياتها المتنفذة في المنطقة.

6. يوجد في محافظة دير الزور، على ضفتي النهر وبحسب مناطق السيطرة، حوالي 37 قاعدة ونقطة عسكرية (انظر الخريطة رقم 1 أدناه) تتوزع على الشكل الآتي:

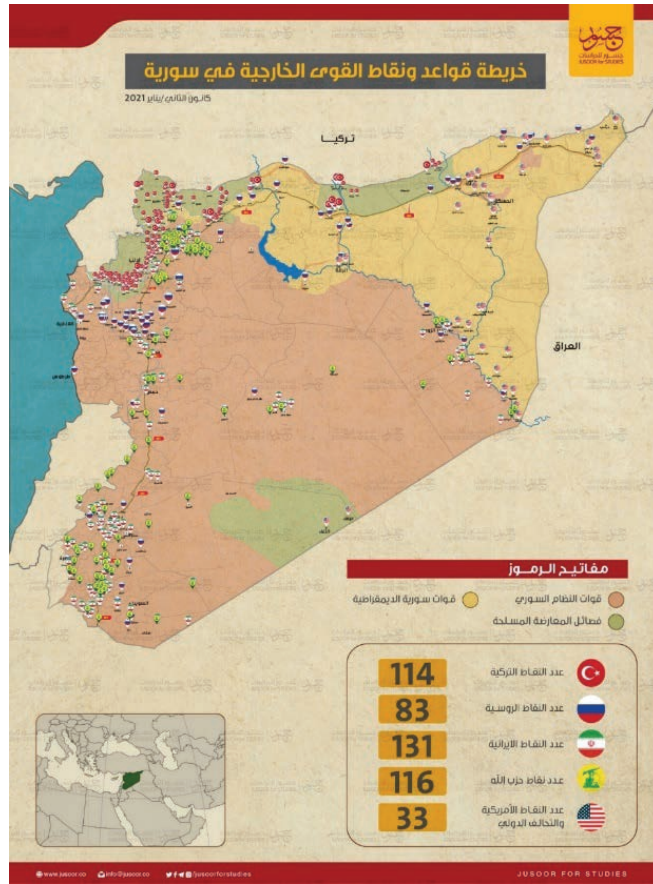
- أ. 10 نقاط عسكرية أميركية
- ب. 7 نقاط عسكرية روسية
- ت. 13 نقطة عسكرية إيرانية
- ث. 7 نقاط عسكرية لقوات حزب الله الإيراني

ولعل وجود هذه القوى الأجنبية والنقاط والقواعد العسكرية كلها، يجعل الاستقرار أمراً بعيد المنال، ما يؤدي إلى أن عودة المدنيين أصبحت أمراً صعباً، فضلاً عن غياب الخدمات الأساسية المتمثلة في المياه والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية، وسط غياب حل سياسي للصراع السوري الذي تجاوز العقد من الزمن. إضافة إلى الدمار الكبير الذي أحدثته الآلة العسكرية لهذه الأطراف المسيطرة على محافظة دير الزور، ولا سيما الدمار الهائل الناتج من الطيران الروسي والسوري (انظر الصورة رقم 2 أدناه) في تجسيد مباشر لمفهوم الأوربسايد الذي يعد جزءاً أساساً من أدوات المجموعات العسكرية في فرض التهجير القسري والتجانس الأيديولوجي.



الصورة رقم 2: صورة للأقمار الصناعية لمدينة دير الزور تظهر حجم الدمار الهائل الذي تعرضت له المدينة خلال عقد من الزمن وبسبب الاستهداف الممنهج لمركز المدينة ومنازل المدنيين ضمن مفهوم الأوربسايد لمنع عودة المدنيين إلى مناطقهم حتى بعد انتهاء العمليات العسكرية.

المصدر: صورة للأقمار الصناعية نقلاً عن ناشطين من مدينة دير الزور



الخريطة رقم 1: تظهر قواعد القوى الأجنبية ونقاطها في سورية⁽⁸⁹⁾

7. على الرغم من إعلان الأطراف العسكرية (الانتصار بالقضاء على تنظيم داعش في محافظة دير الزور)، إلا أن بادية دير الزور بقيت مسرحاً لعمليات داعش تجاه أطراف عسكرية مختلفة⁽⁹⁰⁾، ويستهدف بكمان عسكرية واغتيالات مباشرة أناس مدنيون في مناطق سيطرة قوات سوريا الديمقراطية تارةً أخرى، ولذلك فإن خلايا التنظيم المنتشرة هناك تشكل خطراً وشيئاً على عودة المدنيين، وهذا ما يؤخر حالة الاستقرار، ما يصعب على المدنيين العودة

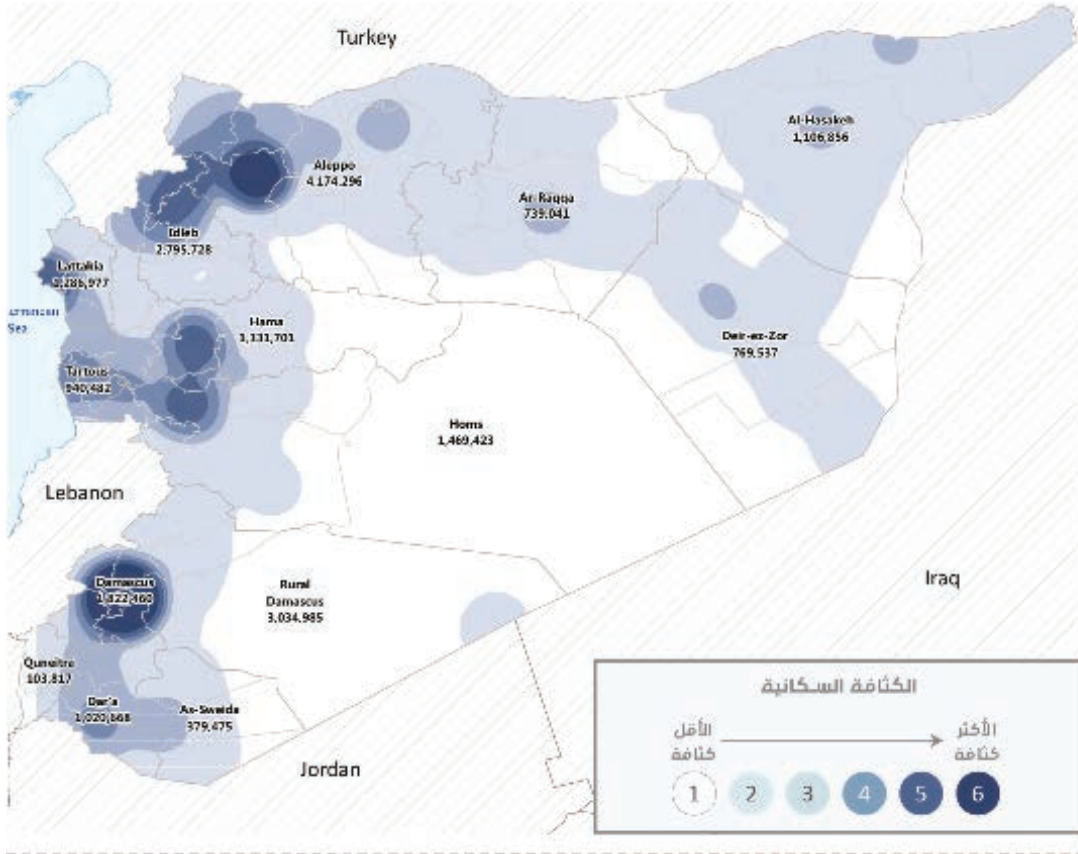
(89) المصدر: مركز جيسور للدراسات، خريطة قواعد ونقاط القوى الخارجية في سورية، تشرين الأول/ أكتوبر 2021، <https://bit.ly/3qmu4lp>

(90) Louisa Loveluck, How the Islamic State used bullying and bribes to rebuild in Syria, The Washington Post, Feb-ruary 2022, <https://wapo.st/3lk3bMI>

إلى مناطقهم.

8. خلال سنوات الحرب، حدثت عمليات انتقام وحشية قام بها النظام السوري والمليشيات المرتبطة به، كما حدث في محافظة دير الزور خلال حملة الحرس الجمهوري التي أشرنا إليها سابقاً، ولذلك بقيت في مخيلة أهالي محافظة دير الزور عمليات الانتقام هذه، وبخاصة أن من يسيطر على منطقة غرب الفرات ليس النظام السوري وحده فحسب، وإنما أيضاً المليشيات الإيرانية التي تمارس عمليات تغيير ديموغرافي بوصفها انتقاماً مباشراً بحق المدنيين هناك، ولذلك فإن أهالي محافظة دير الزور بقوا متخوفين من هذا الأمر، ولذلك تشير الإحصاءات الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة HNAP Humanitarian Need Assessment Program⁽⁹¹⁾ إلى أن عدد المدنيين الذين عادوا إلى المنطقة التي تسيطر عليها المليشيات الإيرانية والقوات السورية، أي منطقة الشامية، ضئيل على الرغم من انتهاء العمليات العسكرية منذ مدة طويلة، وعدد المدنيين الذين يقطنون في هذه المنطقة قليل جداً (كما تشير الخريطة رقم 2 أدناه)، وذلك مقارنة بعدد الذين يقطنون في منطقة شرق الفرات أو منطقة الجزيرة التي تسيطر عليها ما تسمى بقوات سوريا الديمقراطية، يقيم في محافظة دير الزور حالياً حوالي 769537 مدني أي أقل من نصف عدد السكان وذلك قبل بدء العمليات العسكرية في 2012، ولذا فقد لعبت هذه العمليات دوراً كبيراً في تهجير المدنيين قسرياً عن مدنها ومناطقهم، ولم تسمح الأطراف العسكرية المختلفة التي تسيطر على المحافظة بعودتهم، وبخاصة النظام السوري والمليشيات الإيرانية، لأن المدنيين سيشكلون خطراً عليهم في حال عودتهم إلى تلك المناطق، لا سيما أن القسم الأكبر من المهجرين يعد من المشاركين في الحراك الثوري والعسكري، ولذلك لا مصلحة للنظام السوري وحلفائه بعودتهم إلى ديارهم.

(91) وذلك بحسب التقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة HNAP في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2021.



خريطة رقم 2: توضح التوزيع السكاني للمدنيين بحسب المحافظات السورية، وكما هو واضح في الخريطة، فإن الكثافة السكانية الكبرى في محافظة دير الزور تقع في منطقة شرق الفرات (الجزيرة)، بعكس الضفة اليمنى لنهر الفرات (الشامية) التي تسيطر عليها قوات النظام السوري والمليشيات الإيرانية التي تنشط هناك.

Source: HNAP Humanitarian Needs Assessment Program – October 2021

المصادر والمراجع

بالعربية

1. أيوب. نزار، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، مدخل قانوني عام إلى النزاع المسلح في سورية التدخل الدولي الإنساني ومساءلة مرتكبي الجرائم الأشد خطورة، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).
2. باروت. محمد جمال، العقد الأخير في تاريخ سورية جدلية الجمود والإصلاح، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).
3. بشارة. عزمي، تنظيم الدولة المكنى داعش، الجزء الأول: إطار عام ومساهمة نقدية في فهم الظاهرة، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018).
4. بشارة. عزمي، سورية درب الآلام نحو الحرية محاولة في التاريخ الراهن، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
5. صالح المولى. علي، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: الجزء الثاني ثنائية الثقافة والخطاب، ثقافة النحر وحرفة قطع الرؤوس أي معقولة؟ مقارنة تحليلية نقدية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).
6. عبد الجبار. فالح، دولة الخلافة التقدم إلى الماضي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (بيروت: تشرين الأول / أكتوبر 2017).
7. فاوبار. محمد، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة: مقاربات سوسيولوجية وحالات، الخطاب العربي المعاصر وصيرورة العنف والسياسة في المجتمعات العربية بحث في التجليات الفكرية للتحويل السياسي الراهن، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).
8. عمر مكي، القانون الدولي الإنساني في النزاعات المسلحة المعاصرة، (جنيف: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، د.ت).

بلغة أجنبية

1. Üngör. Uğur Ümit, Ali Khizam and the specter of sectarian violence in Syria, (The Routledge Handbook of Religion, Mass Atrocity, and Genocide, 2021).

تنظيم داعش وأثره في المنطقة

دير الزور أنموذجاً

مناف الحمد⁽¹⁾

أولاً: ملخص تنفيذي

في المذكرة الاستراتيجية وفي كتاب إدارة التوحش اللذين صدرا عن تنظيم القاعدة تعثر على تخطيط مشفوع بتنبؤات رغبوية عن مراحل الطريق إلى الخلافة الإسلامية، ولعل الناظر بعمق في هاتين الوثيقتين يلحظ رؤية يمكن وصفها بالاستراتيجية في تقسيم الطريق المفضي إلى الهدف، ولكنه لا يستطيع إقصاء الشك الذي يعتريه عندما يجد تنبؤات تحققت وكأن لمن تنبأ بها دوراً في صنعها مع أن أحداً لم يكن يجرؤ على ترجيح حصولها. ففي النصين مثلاً تنبؤ بحدوث ثورات الربيع العربي وبالفوضى التي حصلت بعد حصول بعضها، ولا تحتاج إلى أن تتبنى نظرية المؤامرة لكي تضع احتمال ضلوع جهات ذات نفوذ في المساهمة في صياغة هذه التنبؤات فضلاً عن المساهمة على الأقل في توجيه مساراتها بعد انطلاقها.

ومع غزارة الأبحاث التي اهتمت بتنظيم داعش تلحظ علة تمثل محوراً لعلل ظهور ما يسمى بـ (دولة الخلافة)، وهي الأزمة السنية، وهي الأزمة التي تبدو ظاهرة للعيان بحيث يصعب إنكارها، ويقصد بها ما تعرض له أهل السنة من إقصاء في العراق، وما تبع ذلك في سورية من كارثة طالتهم في المستويات جميعها.

لا شك -كما قلت- في أنها أزمة لا يحتاج المرء إلى أن يكلف نفسه مؤونة كبيرة لرؤيتها، ولكنها -في رأيي- لا تصلح لوحدها لاحتلال نقطة المركز في التفسير، فالتنظيم المتطرف لا يعدم جذوراً في أدبيات الإسلام السياسي قبل عقود، ولا يعدم منطقاً يصلح للاستثمار في المنظومة التراثية الأقدم بكثير.

(1) باحث سوري.

وقد اتبع الباحث منهجاً يجلي الآثار عن طريق محاولة تبين الملامح العامة لاستراتيجية تنظيم داعش خلال المراحل المختلفة لأن القبض على هذه الملامح العامة لاستراتيجية تنظيم داعش يساعد في القبض على ما خلفه من آثار وما يحدثه من أثر مستمر بشكله الحالي بعد انهيار دولته وتحوله إلى تنظيم متمرّد يظهر، ويختفي، ويتبع نهج التخويف الذي طالما كان نهجه المتبع.

وفي ما خص الآثار التي خلفها تنظيم الدولة في منطقة الفرات التي كانت إحدى مدنه عاصمته -وهي مدينة الرقة-، فإن هذه الآثار ليست نتيجة مباشرة لسبب هو ممارسات التنظيم، وإنما هي آثار تخلقت في تفاعل جدلي مع تلك الممارسات، ومع بنية تكونت قبل سيطرته، وهي بنية صنعها مزاج فكري وسيرورة تاريخية ونظام استبدادي.

يحاول هذا البحث المكثف أن يتتبع بصورة سريعة المحطات التاريخية لنشوء دولة الخلافة الإسلامية وانهيارها، ثم يحاول رصد ما خلفته دولة الخلافة من آثار لا يمكن قياس معظمها بدقة، هذا فضلاً عن آثار لا يمكن إطلاق حكم تعميمي بتشابهها في كل مكان سيطر فيه تنظيم داعش في سورية، وأصبح جزءاً من تاريخها. وقد حاول البحث تتبع أثر تنظيم داعش في البنية القبلية في منطقة شرق سورية المدروسة، وبعض الآثار الاجتماعية التي خلفها تنظيم داعش بممارسته إبان وجوده بصفته سلطة، وعرض لحالة مخيم الهول التي تكتف آثاراً مهمة لتركبة تنظيم داعش. ثم ختم الباحث ببعض النتائج والتوصيات.

عمد الباحث إلى مراجعة مصادر ثانوية لدراسة أثر تلك المرحلة تمثلت في كتب وأبحاث، واعتمد لأجل مقارنة الآثار على مقابلات معمقة مع معاصرين لدولة الخلافة في مراحل متفاوتة من وجودها، وقد وجه الباحث أسئلة محددة لمن أجريت معهم المقابلات من أبناء المنطقة.

لا يمكن للبحث ادعاء الإحاطة بكل تركبة تنظيم داعش في المنطقة من حيث الأثر، وخصوصاً أن تنظيم داعش ما يزال موجوداً، وما يزال ينفذ عمليات ضد خصومه الذين يحددهم، ولا يقتصر وجوده على مناطق البادية -كما يظن- أو على أوقات الظلام، بل إن عناصره يظهرون في مناطق مأهولة وفي وضوح النهار.

ثانيًا: تمهيد

إن بحث أثر تنظيم داعش في شرق سورية أمر عسير لأسباب عدة منها: أن التنظيم ما يزال موجودًا، وما يزال ينفذ عملياته، وما يزال يقضّ مضجع خصومه، ويبعث البشرى في قلوب أنصاره، فانهيار آخر معقل لدولته في الباغوز في أقصى شرق دير الزور عام 2019 لم يكن يعني القضاء عليه، فقد اتخذ التنظيم تكتيكًا جديدًا حوّله إلى شبح يظهر ويختفي مستخدمًا الصحراء مقرًا بديلًا. ومن الصعوبة بمكان قياس الأثر الذي خلّفه تنظيم الدولة، وهو لما يختف من الوجود بعد، وما يزال أثره متغيرًا رئيسًا من متغيرات الواقع في تلك المنطقة.

ومن أسباب صعوبة قياس الأثر الرعب الذي نشره التنظيم في قلوب الناس، والذي يصلح أن يكون أثرًا من آثاره؛ الأمر الذي جعل انتزاع شهادات من عدد كبير من معاصري المرحلة وما تلاها ليس بالأمر الهين، ففضلاً عن الخوف على الذات -الذي قد يكون مبالغاً فيه- من طرف من نجا بنفسه، ثمة خوف مبرر من طرفه على ذويه ممن ما يزالون في المناطق التي يتسلل إليها عناصر تنظيم داعش ليلاً من مخابئهم الصحراوية أو يظهرون فيها في وضح النهار.

1. مشكلة البحث

امتلك تنظيم الدولة الإسلامية استراتيجية ذات ملامح محددة، وتمفصل كيانه مع كيانات قوى مختلفة ذات مصالح في المنطقة، وخلف أثرًا متعدد المستويات متفاوت العمق -إبان هيمنته على منطقة شرق سورية- في بنية المجتمع على صعد مختلفة دينية واجتماعية واقتصادية.

تشتق من المشكلة فرضيات أساس:

- أ. امتلك تنظيم الدولة استراتيجية واضحة المعالم وبعيدة المدى مكّنته إحداث أثر ملموس في المنطقة المدروسة.
- ب. استثمرت أجهزة العالم المختلفة في ظاهرة تنظيم الدولة لغايات متنوعة، ولم يكن في الأصل مصنوعًا على أيدي هذه الأجهزة.
- ت. أحدث التنظيم أثرًا ملموسًا في نمط التدين والتعليم والبنية العشائرية وفي الحالة الاقتصادية.

2. أهداف البحث

يهدف البحث إلى:

أ. رصد أثر تنظيم الدولة في الواقع الاجتماعي في منطقة وادي الفرات كدراسة حالة عبر الإجابة عن أسئلة أساس تتعلق باستراتيجية التنظيم الكفيلة -باكتشاف نوعها- في معرفة عمق هذا الأثر وتحديد جنسه.

ب. اقتراح حلول لتجفيف تركة تنظيم داعش عبر مناقشة حالات معينة تجسد هذا الأثر من أجل التمكين من مقارنة المشكلة وعلاجها مقارنة واقعية.

3. أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في تسليطه الضوء على أثر لا يمكن إغفاله لتركة تنظيم الدولة عبر سنوات سيطرته على المنطقة بمناقشة حالات حية، وربطها بإطار كليّ ترسم حدوده فرضيات معينة مشتقة من دراسة معمقة للواقع الحالي وعلل حدوثه الفاعلة واستشراف معلولاته.

4. منهجية البحث

استخدم الباحث منهج دراسة الحالة التي هي حالة منطقة محافظة دير الزور، وقد اتبع الباحث من أجل دراسة هذه الحالة أداة المقابلات المعمقة حيث أجرى خمس عشرة مقابلة مع أفراد عاصروا تنظيم داعش وباحثين مختصين في ظاهرة التنظيم من أبناء المنطقة وجه فيها أسئلة محددة، كما عمد الباحث إلى مراجعة مصادر ثانوية لدراسة أثر تلك المرحلة تمثلت في كتب وأبحاث بعضها ناقش ظاهرة تنظيم داعش قبل تحوله إلى دولة خلافة وفي أثناء سيطرته كدولة، وبعضها ناقش الظاهرة بعد سقوط الدولة.

5. الدراسات السابقة

استفاد الباحث من دراسات سابقة من أهمها كتاب ((تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنوية والجهاد العالمي))، وهي دراسة مهمة ناقش فيها الكاتبان (حسن أبو هنية) و(محمد أبو رمان) جذور تشكل الدولة الإسلامية، والطريق إلى إعلان الخلافة، والصراعات الأيديولوجية داخل التنظيم والانشقاقات التي حصلت والحرب التي شنت على الدولة الإسلامية. وقد تميزت الدراسة بواقعيته، وغنى معلوماتها، وعانت عند الإشارة إلى شرق سورية ما يعانيه عموم الباحثين من غير أبناء المنطقة من الوقوع في بعض التعميمات التي لا تستند إلى أساس علمي.

وما يميز الدراسة الحالية هو اختيارها مجاًلاً محدداً من جهة، وبحث تركة تنظيم داعش في هذا المجال من جهة أخرى عبر حوارات معمقة مع معاصرين للتنظيم من أبناء المنطقة.

ومن الدراسات دراسة: ((تنظيم داعش وأخواتها من القاعدة إلى الدولة الإسلامية)) للكاتب محمد علوش، وقد تميزت باتساعها، وعودتها إلى التاريخ المبكر لنشوء القاعدة، وشرحها المفهومات الأساس التي تشكل فكر تنظيم القاعدة والخلافات بين القاعدة وتنظيم الدولة، وأنها سلطت الضوء على مقدمات السلفية الجهادية في سورية، وناقشت حضور تنظيم القاعدة في دول عربية عدة وقدمت عرضاً لمراجعات للتجربة.

تميزت الدراسة باتساعها الأفقي والعمودي، وباستنادها إلى مصادر موثوقة في عرض الوقائع التاريخية، وهو اتساع يمثل نقطة قوتها وضعفها في آن؛ فهو نقطة قوة لثراء الصورة التي يقدمها، ونقطة ضعف لأنه لا يساعد في رصد الأثر الذي لا يمكن أن يكون متطابقاً في البيئات المختلفة، وهي نقطة ضعف تحاول الدراسة الحالية تلافيه.

كتاب ((ما بعد دولة الخلافة: الأيديولوجيا، الدعاية، التنظيم والجهاد العالمي هل سيعود تنظيم داعش من جديد؟)).

والكتاب شارك فيه مجموعة من الخبراء والباحثين العرب والأجانب، وكان المحور الذي دارت حوله مجموعة الأبحاث المختلفة هو مستقبل تنظيم داعش بعد انهيار الخلافة واستراتيجيتها الإعلامية والعسكرية ومستقبل تركتها البشرية من عائدين ومعتقلين، ومستقبل الجهادية العالمية بصورة عامة، واستراتيجيات مكافحة التطرف.

تميز هذا الكتاب بتنوع الرؤى وزوايا النظر، ولكن بدا في بعض أبحاثه الموقف الأيديولوجي الطاعي

على الموقف العلمي، ولم يحاول الحفر شاقوليًا في منطقة محددة كما تحاول ذلك الدراسة الحالية.

ومن المراجع المهمة البحث المكتوب باللغة الإنكليزية بعنوان:

ISIS'S SECOND COMEBACK: ASSESSING THE NEXT ISIS INSURGENCY

للباحثين: Jennifer Cafarella with Brandon Wallace and Jason Zhou

والصادر عن مؤسسة: Institute for the study of war

وقد ركز البحث على تحول التنظيم بعد هزيمته إلى تنظيم متمرّد، وتميز البحث بدقة تفصيله في هذا التحول، وهو تفصيل مدعوم بخرائط انتشار التنظيم في سورية والعراق وعملياته التي تعزز حضوره في مناطق الانتشار الجديدة. ويؤكد البحث أن التنظيم أشد خطرًا اليوم في مرحلته هذه من مرحلته السابقة، وأنه قد هباً نفسه لتحوله الحالي قبل هزيمته الأخيرة، وأن الوقت الذي طال من أجل تخليه عن آخر معاقله في الباغوز كان كافيًا لإعادة التموضع.

ويضعف البحث إغفاله التدمير الذي سببته قوات التحالف للحواضر التي استهدفتها، وتحمله مسؤولية هذا التدمير لتنظيم تنظيم داعش بعده استراتيجية مقصودة اتبعها تنظيم داعش من أجل عزل السنة من أبناء هذه المناطق وإشعارهم بالضعف.

ثالثًا: مقدمة

لم يكن يدور في خلد كثيرين أن دولة العراق الإسلامية التي ظهرت في العراق بعد الاحتلال الأميركي ستكون ذلك الطفل الذي سيبلغ أشده بعد بضع سنوات متحوّلًا إلى كيان يشغل الدنيا، ويحرّض جيوش العالم على التحالف لمحاربته. وقد كان جليًا أن التنظيم يمتلك تصورًا للتعامل مع المناطق التي تسودها الفوضى في استراتيجيته التي تتوج مراحلها بإعلان دولة الخلافة. وقد أطلق على أسلوبه في إدارة مناطق الفوضى اسم (إدارة التوحش) بمعنى إدارة الفوضى المتوحشة في مناطق وقعت تحت سيادة قانون الغاب بعد انهيار الأنظمة الحاكمة إياها.⁽²⁾

(2) انظر أبو بكر ناجي، إدارة التوحش أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، (د.م: مركز البحوث والدراسات الإسلامية، نسخة الكترونية، دت)، ص 13.

وكما جرت العادة، فقد جعل المتابعون من هذه الظاهرة ميداناً لاستعراض مسبقتين أساسيتين:

1. مؤامرة تنسج خيوطها استخبارات محلية وإقليمية ودولية.
2. مظلومية تعانيها شريحة من المجتمع يمكن لمن يستثمرها أن يحولها من الممكن إلى الفعل.

وفي رأي الباحث أن المسبقتين التي احتلتا مقدمات المتون التحليلية قاصرتان ما لم يُضَف إليهما حقيقة أخرى، وهي قابلية المنظومة التراثية لأن تكون رحماً يتخلّق فيه جنين التطرف ويتولد منه كيان مشوه إذا عبثت بهذه المنظومة عقول انتقائية ونفقت في زواياها سوق ظاهرية تستند إلى مرجعية سلفية تتباين تنويعاتها وجمعها جذر مشترك هو الخطاب الهوياتي الذي مهما تكلف صاحبه توسيع حدوده، فإنه سيظل مانعاً له من مد جسور مع الآخر المختلف.

لا شك في أن لأجهزة الاستخبارات باعاً في التعامل مع أي كيان متطرف ذي برنامج سياسي وغايات ألفية ومع غيرها من الكيانات، ولا شك في أن استضعاف سنة العراق وسورية يصلح عاملاً تفسيراً لتولد نقمة من أهل السنة على من يقصوهم ويرتكبون الجرائم بحقهم، وهي نقمة استطاعت دولة العراق الإسلامية استثمارها في العراق بخطابها الهوياتي، وتمكنت للعب عليها دولة العراق والشام الإسلامية في سورية بخطاب صريح في طائفته.

وقد ناقش الباحث فرضية صنع تنظيم داعش على أيدي أجهزة استخبارات دولية وإقليمية، وخُص إلى أن ما يساق من أدلة لإثبات هذه الفرضية لا يعدو أن يكون تعبيراً عن مواقف فردية مشفوعة بأدلة انتقائية، وأن أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه البحث العلمي هو أن التنظيم مخترق من طرف أجهزة استخباراتية وأن تمفصلاً بينه ككيان وبين كيانات أخرى هو الوصف الأكثر دقة لعلاقته بهذه الأجهزة.

كما أن الأزمة السنية التي توضع كعلة فاعلة رئيسة لظهور تنظيم داعش ليست في نظر الباحث علة رئيسة، إنما هي علة من العلل الفاعلة، فلا شك في أن استهداف أهل السنة واقع لم يعد ممكناً إنكاره، وقد أصبحت ملامحه ملء السمع والبصر، فتهميش السنة على يد نظام حكم أقلوي في سورية وإفساح المجال له لكي يكون الطرف الأقوى في معركة البطون الحوامل، وهو التعبير المجازي عن التغيير الديموغرافي الذي بات صريحاً في عزمه على تنفيذه في سورية بتهجير السنة وتوطين الشيعة مع حليفه القوي نظام الملالي في إيران. وما جرى في العراق من تغلغل للنفوذ الإيراني وهيمنة لحلفائها بالتزامن مع ما يسميه أحد الباحثين (أبلسة السنة) يجري شبيهه في اليمن بدعم إيران للحوثيين،

وتمكن حزب الله أن يكون اللاعب الأقوى في لبنان. هذه الوقائع الفارقة كلها تصلح أدلة قاطعة على استهداف لأهل السنة يخدم استراتيجية إيرانية برضى إسرائيلي وبدعم غربي روسي لخلق شرق أقليمي يحكمه النفوذ الشيعي ولا أثر فيه لنفوذ سني.

وهي أزمة سنية كفيفة بتوليد نقمة تمثلها تنظيمات متطرفة تجد الساحة أمامها خالية في ظل خلو هذه الساحة المستهدفة من مشروع حدائي معاصر يناقش قضايا راهنة ويدفع بالفكر الإسلامي إلى ذرى تجديد تخلف عنها منذ قرون ما خلا تصورات فردية لمفكرين مثلت جزراً منفصلة لم تقو على مواجهة المد الطاغى لخطاب التطرف والتكفير الذي ملأ الساحة صراحاً نقمة على التغول الشيعي المدعوم إسرائيليّاً وغربيّاً وروسياً، ولكن بخطاب يرتد فيه التاريخ إلى الماضي وفق منحى دائري بدل من أن يندفع إلى المستقبل وفق مسار تصاعدي.⁽³⁾

ولكن في الاكتفاء بحقيقة ما يسمى الأزمة السنية وبالمؤامرة الاستخباراتية إغفالاً لحقيقة إمكان موجود في المنظومة نفسها لتهيئة التربة للتطرف، وهو إمكان لا تخلو منه أي منظومة قائمة على الإغلاق العقيدي، تحتكر الحقيقة وتقدّم نصوصها على أنها مطلقة بحكم مصدرها الإلهي، وهو ما يجعل بذرة الإقصاء حاضرة فيها، وهي بذرة لا يمكن منع تبرعمها إلا بجعل تبنيها كحقيقة ممكناً بين ممكنات في فضاء تعددي يفسح فيه المجال للحوار الندي بين مختلفين من أجل الوصول إلى اتفاقات عابرة للعقائد. فلم يعد ممكناً مثلاً قبول فقه يفاضل بين الناس على أساس الانتماء الديني ويجعل التكافؤ بين الزوجين منعدماً إذا كان أبوا الزوجة مسلمين وأبوا الزوج ليسا مسلمين في تفضيل لصالحها بالطبع، بل إنك تجد في هذا الفقه تفضيلاً لمن له أب واحد في الإسلام على من أسلم لوحده فقط.⁽⁴⁾ كما أن مفاهيم من قبيل (دار الإسلام) و(دار الكفر) لا يمكن لها أن تتعايش مع عالم معلوم سالت فيه الحدود وأصبح فيه للزمان والمكان معنيان مختلفان عن معناهما الصلب المطلق الذي نوقشت وفقهما النصوص الدينية واستخرجت منها أحكام المنظومة الفقهية، فلا تخوم فاصلة بصرامة اليوم بين الأمم، ولا حاجز يمكن أن يمنع التأثيرات المتبادلة بين الثقافات في ظل ثورة الاتصالات والزمان والمكان السائلين.

إن التطرف -كممكن تربي المنظومة التراثية له التربة لكي يستنبت- ممكن العثور على جذوره في

(3) للمزيد حول استهداف السنة انظر: نبيل خليفة، استهداف أهل السنة، من يتزعم العالم العربي- الإسلامي: السعودية أم إيران؟ المخطط الاستراتيجي للغرب وإسرائيل وإيران للسيطرة على الشرق الأوسط واقتلاع النفوذ السني منه، (لبنان: مركز بيلوس للدراسات، 2014)، ص 20-37.

(4) انظر محمد سعيد المجاهد، الأحوال الشخصية، المقارن بين مذهبي الحنفية والشافعية، (ماليزيا: كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، 2016)، ص 33.

إمكانية حرف هذه المنظومة عن نطاقها المركزي، وهو نطاق الأخلاق إلى نطاق الدولة، وجعل الأخيرة غاية لا تعدلها في الأهمية غاية، وهو حرف لها كرسته قوى الإسلام السياسي منذ بدايات بزوغها. فضلاً على أن في المنظومة إمكاناً قابلاً لتهيئة تربة للتطرف في حطّ للأخلاق من مكانتها السامية إلى مكانة ثانوية لا تليق بها.

أما الإمكان الأول فقد بات دليل عمل لقوى الإسلام السياسي مبنياً على مقدمات تقدم على أنها مسلمات في مقدمتها وجوب إقامة الدولة التي تقيم شرع الله، وهو واجب يعد من يتخلف عن السعي إلى تحقيقه عاصياً ومن ينكر وجوبه كافراً.⁽⁵⁾

وأما الإمكان الثاني، فإن العثور عليه ممكن بتأمل بسيط في المنظومة الأصولية التي جعلت فيها مكارم الأخلاق في صنف التحسينيات لا في صنف الضروريات ولا الحاجيات، وقد احتلت منزلتها تلك في مقاصد الشاطبي التي تعد من أنضج تجليات هذه المنظومة وأرقاها.⁽⁶⁾

ففي مقاصد الشاطبي نجد التقسيم الثلاثي للمصالح إلى ضروريات: هي مصلحة الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وحاجيات دائرة على هذا الترتيب وهي ما يوقع عدم مراعاتها المكلف في حرج وضيق، وتحسينيات⁽⁷⁾ يقول الشاطبي إنها: ((راجعة إلى العمل بمكارم الأخلاق وما يحسن في مجاري العادات)).⁽⁸⁾

فمكارم الأخلاق كما نرى في المرتبة الثالثة في سلم المصالح، وهو خلل كبير في المنظومة المقاصدية، لأنه لا يضعها في مكانها الذي تستحقه في قلب هذه المنظومة، ولا شك في أن البعد الأخلاقي موجود في كل صنف من أصناف الشاطبي، ولكن مأخذنا على تصنيف الشاطبي هو عدم جعل الأخلاق في قلب المقاصد الشرعية، وعدم الأخذ في الحسبان كونها غاية الغايات. وليست مكارم الأخلاق التي وضعها الشاطبي في صنف التحسينيات مطابقة للأخلاق بمعناها المعاصر، ولكن الاعتراض إنما هو على التصنيف الذي لم دفع بمكارم الأخلاق إلى أدنى السلم التفاضلي، ولم يجعل من القيم الأخلاقية نواة تسبح في فضائها مقاصد التشريع. ولعل إغفال مصلحة العدل مثلاً وعدم إدراجها في الضروريات ما هو كفيل بكشف الخلل في تصنيف الشاطبي من جهات عدة:⁽⁹⁾

(5) انظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ط11، (القاهرة: دار الشروق، 1987)، ص 68-70.

(6) انظر طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2007)، ص 113.

(7) انظر: أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ص 739-740.

(8) أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ص 741.

(9) انظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 113-114.

الأولى: عدم استغراق تقسيم الشاطبي كل المصالح، وهو قصور في التقسيم الذي ينبغي لكي يكون تقسيمًا صحيحًا أن يستغرق كل جزئياته.

والثانية: إغفال قيمة أخلاقية مركزية في المنظومة الإسلامية لا يمكن ألا توضع في رأس سلم المصالح، وهي قيمة عدها الله من أسمائه الحسنی.

إن المقاصد في رأي الباحث هي من أرقى ما أنتجت المدونة الأصولية، ولكن أوجه القصور المذكورة فيها أنفًا، والتي يمكن اختصارها بعدم تسنم القيم الأخلاقية العليا التي تستبطنها كل أصناف المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية المرتبة الأعلى، وعدم جعلها غاية الغايات هي ما يطالب الباحث بإعادة النظر فيه من أجل اجترح تقسيم جديد للمصالح تتبوأ فيه القيم الأخلاقية منزلتها التي تليق بها بحيث تصبح كل أصناف المصالح خادمة لها بما تتصف به هذه المصالح من تداخل، وبما تنطوي عليه من قيم أخلاقية.

لا شك في أن المتطرفين ليسوا نتائجًا مباشرًا لما ذكر من خلل في المنظومة، ولكن ما يراه الباحث أن هذا الخلل إنما هو كفيل بخلق مساحات مفاهيمية رخوة تنطوي على قابليات توليد الفهم المنحرف.

وقد بدا عدم الاكتراث اللازم بالأخلاق صريحًا في حادثة ترويه بعض الروايات عن فخر الدين الرازي، وهو في مجلس وعظه حيث كانت ترفع له رقاع تتضمن شتمه ولعنه والظعن في عرضه حتى بلغ من فجور من يرفعونها في الخصومة أن رفعوا إليه يومًا رقعة كتبوا فيها أن ابنه يفسق، ويزني، وأن امرأته كذلك، فما كان منه إلا أن قال:

((إن هذه القصة تتضمن أن ابني يفسق ويزني وذلك مظنة الشباب فإنه شعبة من الجنون ونرجو من الله تعالى إصلاحه والتوبة، وأما امرأتي فهذا شأن النساء إلا من عصمه الله وأنا شيخ ما في للنساء مستمتع هذا كله يمكن وقوعه وأما أنا فوالله لا قلت إن الباري -سبحانه وتعالى جسم ولا شبهته بخلقه ولا حيزته والله الحمد أن ابني لا يقول إن الله جسم ولا يشبه به خلقه ولا زوجتي تعتقد في ذلك ولا غلامي فأبي الفريقين أوضح سبيلًا؟)).⁽¹⁰⁾

وليست قسمة العالم إلى فسطاطين؛ فسطاط حق وفسطاط باطل التي صرح بها أسامة بن

(10) صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ط2، (فيسبادن: فرانز شتاينر، 1974)، ص 250.

لادن⁽¹¹⁾ ببعيدة عن المجتمع الجاهلي الذي تحدث عنه سيد قطب (ت 1966)⁽¹²⁾، وهو مجتمع يقع على عائق الفئة المؤمنة تحويله إلى مجتمع يلتزم بأوامر الله.

رابعاً: طريق تنظيم داعش إلى الخلافة

توجت دولة الخلافة مسيرة بدأت مع جماعة التوحيد والجهاد في العراق بقيادة الزرقاوي⁽¹³⁾ التي تحولت إلى قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين، ومن ثم سميت بـ (دولة العراق الإسلامية) قبل أن تتحول إلى (دولة العراق والشام الإسلامية)، وكان من السمات المميزة للحركة عبر التحولات المختلفة خطابها الطائفي الموجه ضد الشيعة الموصوفين بالكفار، وهو خطاب يجد تبريره في مظلومية أسهم في صنعها حكام العراق بعد سقوط نظام البعث العراقي والحليف الإيراني الذي لم يدخر جهداً في محاولة الإمساك بالقرار السياسي في العراق، ومن سماتها البنيوية تبنيها خطاباً جهادياً يستهدف أميركا والغرب الصليبي المتهم بالتآمر على الإسلام والمسلمين، وتتبنى أيضاً ضرورة قيام دولة يحكمها الشرع الإسلامي، لأنه لا يمكن لمهمة الاستخلاف في الأرض أن تتحقق من دون قيام هذه الدولة، وهي بالطبع تتبنى تصوراً لنهاية العالم سيبدأ مع قدوم المهدي المنتظر. وكان إعلان الخلافة في المسجد النوري الكبير في الموصل على يد الخليفة أبي بكر البغدادي محطة فاصلة في تاريخ هذه الحركة بعد أن كسرت الحدود بين سورية والعراق في عملية سبت عملية كسر الحدود.⁽¹⁴⁾

ففي يوم 29 حزيران / يونيو عام 2014 بثت مؤسسة الاعتصام التابعة لتنظيم الدولة الإسلامية شريطاً مصوراً تظهر فيه العملية التي أسماها تنظيم الدولة (عملية كسر الحدود بين العراق وسورية) في منطقة حدودية بين البلدين، وقد ظهر في الشريط الناطق باسم الدولة الإسلامية أبو محمد

(11) انظر النص الحرفي الكامل لكلمة أسامة بن لادن على الموقع الإلكتروني: إيلاف عبر الرابط:

<https://elaph.com/Web/Archive/1002493570416644600.html>

(12) انظر: سيد قطب، معالم في الطريق، ص 10-11.

(13) أحمد فضيل نزال الخلافة، قيادي أردني في تنظيم القاعدة، كان مؤسس ما يسمى تنظيم التوحيد والجهاد وهي الجماعة التي عرفت لاحقاً بقاعدة الجهاد في بلاد الرافدين بعد مبايعة الزرقاوي لأسامة بن لادن عام 2004، قتل عام 2006 بقصف أميركي

(14) انظر: حسن أبو هنية ومحمد أبو رمان، تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية، (عمان: مؤسسة فريدريش ايبرت، 2015)، ص 26-45 وص 111-127.

العدنانى⁽¹⁵⁾ ومعه أبو عمر الشيشانى⁽¹⁶⁾ وتونسي وليبي، وقد ظهر العدنانى مموهاً وجهه، وهو يقول:

((فما بعد إزالة هذه الحدود حدود الذل وكسر هذا الصنم صنم الوطنية إلا خلافة على منهاج النبوة))⁽¹⁷⁾، وبعد بث الشريط بساعات أعلن التنظيم قيام الخلافة الإسلامية التي يقوم عليها الخليفة أبو بكر البغدادي الذي وصفه العدنانى في تسجيل صوتي بأنه:

((الشيخ المجاهد العالم العامل العابد الإمام الهمام المجدد سليل بيت النبوة عبد الله إبراهيم بن عواد بن إبراهيم بن علي بن محمد البدرى القرشي الهاشمي الحسيني نسباً السامرائي مولداً ومنشأً))⁽¹⁸⁾. ولم يذكر العدنانى حدود الخلافة، ولكنه قال إن سلطانها يمتد من حلب في سورية إلى دىالى في العراق، وإن اسم التنظيم قد تغير من: (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام) إلى (الدولة الإسلامية فقط).

ومع إعلان العدنانى قيام الخلافة وجه تهديداً مباشراً بالقتل لكل خارج على الخلافة:

((ومن أراد شق الصف فافلقوا رأسه بالرصاص وأخرجوا ما فيه كائناً من كان ولا كرامة))⁽¹⁹⁾، وبعد ذلك بأيام ظهر الخليفة المبايع ليخطب الجمعة في جامع الموصل.

خامساً: تنظيم داعش في دير الزور

1. لمحة عن محافظة دير الزور

تقع محافظة دير الزور على حدود شرق سورية، وتمتد على مساحة تقارب 33 ألف كيلومتر مربع.

(15) طه صبحي فلاح، سوري من إدلب كان الناطق الرسمي لتنظيم الدولة الإسلامية، قتل في أثناء مشاركته مع التنظيم في أحد المعارك في حلب عام 2016.

(16) اسمه الحقيقي طرخان باتيرشيفلي وهو جورجي كان يشغل منصب وزير الحرب في تنظيم الدولة الإسلامية. أعلنت وكالة أعماق التابعة لتنظيم الدولة مقتله في تموز/ يوليو 2016 في أثناء مشاركته في صد هجوم على مدينة الموصل.

(17) https://www.youtube.com/watch?v=wLCSj6RS_Ts

(18) السابق نفسه.

(19) انظر تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية، ص 130.

يقسمها نهر الفرات الذي يمر عبر المحافظة إلى قسمين؛ واحد في الجنوب يمتد إلى الصحراء السورية (بادية الشام بالعامية الشامية)، وواحد في الشمال مرتبط بشبه الجزيرة السورية يسمى (الجزيرة). يعيش غالبية السكان على ضفاف نهري الفرات والخابور، حيث توجد أراضي زراعية خصبة، وتقدر مساحتها حوالي 1.69 مليون متر مربعاً.

تقسم محافظة دير الزور إلى ثلاث مناطق إدارية: دير الزور، الميادين، البوكمال. كما أنها مقسمة إلى 14 ناحية فرعية و25 بلدة، و40 بلدية، و76 قرية.⁽²⁰⁾

كبرى قبائل محافظة دير الزور هي: (العكيدات) و(البكارة) و(البوسرايا)، وثمة عشائر أخرى تتبع قبائل في مناطق سورية أخرى أو تتبع قبائل خارج سورية، مثل عشيرة (البوليل) التي تنسب نفسها إلى قبيلة شمر في الجزيرة، و(الدليم) التي تنسب إلى قبيلة الدليم في العراق.

وثمة عشائر موجودة في المدن مثل عشيرة (الخرشان) و(الجويشنة) و(المعامرة) و(الظفير) في مدينة دير الزور، و(الراويين والعانيين) في البوكمال نسبة إلى مدينتي راوة وعانة في العراق، و(القلعيين) في الميادين. ولا شك في أن حدة الانتماء القبلي ليست متساوية، فهي تخف عند الانتقال من الريف إلى المدن.⁽²¹⁾

تنسجم المحافظة بطابع قبلي في الأصل، وإن كانت هذه الصفة تمارس تضليلاً في بعض الأحيان عندما تؤخذ من دون ملاحظة السيرورة التاريخية التي جعلت من سمة القبيلة سمة ذات أشكال مختلفة عبر الأزمنة المختلفة، فخففت من حدتها طوراً، وزادت من هذه الحدة أطواراً أخرى. بدأت القبائل في الاستقرار على ضفاف النهر خلال زمن التنظيمات العثمانية الثانية عام 1856 التي سعت إلى جعل القبائل والعشائر المتصارعة تستقر، وتتحول إلى مجتمعات زراعية مستقرة.⁽²²⁾

كان للسياسات النيوليبرالية التي انتهجها نظام بشار الأسد أثر بالغ السوء في مناطق القبائل، وتحديدًا في شرق سورية، فبين عامي 2003 و2004، تحولت نصف الآبار من ضحلة إلى عميقة، وضرب الجفاف الشديد المنطقة في عامي 2007 و2008، وحررت أسعار الأسمدة في عام 2008، وفشلت السياسة الهادفة إلى ترشيد الري خلال السنوات السابقة. هذا كله أدى إلى فشل جهد الإصلاح الزراعي، وتملح جزء كبير من الأراضي المخصصة، والسماح بالاستثمار الزراعي من دون أي

(20) Rudayna Al-Baalbaky, Ahmad Mhidi, TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, (Beirut: Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, 2018), p.28.

(21) Ibid., p.24.

(22) Ibid., p. 22.

حد ملكية الأراضي في عام 2007، إضافة إلى مشاركة الشركات متعددة الجنسيات في صناعة المواد الغذائية في سورية. في عام 2010، عدّت الجزيرة أفقر منطقة في سورية، ما أدى إلى زعزعة استقرار الهياكل القبلية في دير الزور التي كانت تتطلع الآن إلى تغيير جذري في السلطة المركزية في دمشق.⁽²³⁾

2. سيطرة تنظيم الدولة على دير الزور

بعد أن كان وجود تنظيم داعش في المنطقة مقتصرًا على خلايا نائمة في مناطق محددة أعلن عن وجوده الصريح بانشقاق عامر الرفدان⁽²⁴⁾ عن جبهة النصرة وإعلان نفسه أميرًا للتنظيم في قرية (جديد عكيدات). وكان رفض النصرة التبعية لتنظيم داعش سببًا في اندلاع معارك، وكان معظم الرافضين لهذه التبعية قادة محليين للنصرة؛ لأن في هذه التبعية خسارة للنفوذ والمكتسبات.⁽²⁵⁾

إن رصدًا سريعًا لسلوك تنظيم داعش في المحافظة يمكن أن يكون وسيلة ناجعة للوصول إلى غايتين:

الأولى: معرفة تركبة تنظيم داعش في بنية المجتمع عبر جدل حلقات حاضره بماضيه.

والثانية: المساعدة في الوصول إلى أجوبة عن أسئلة معينة أهمها السؤال عن استراتيجية التنظيم، فهو سؤال يمكن عبر الإجابة المشفوعة بالأدلة عنه فهم ما جرى بعد سقوط دولة الخلافة، وما يمارسه التنظيم اليوم.

قلنا إن منطقة دير الزور منطقة ذات طابع قبلي، وقد كان لتنظيم داعش موقف سلبي من البنية القبلية يجد جذوره في تجربته في العراق الذي واجه فيه بعد الاحتلال الأميركي حركة الصحوات التي كان قوامها الأساس من عشائر وقبائل العراق، ومن هنا يتبين الفرق بين سلوك النصرة تجاه العشائر الذي كان ينحو نحو التطويع عبر التحالفات والتفاهمات، وسلوك تنظيم داعش الذي كان ينحو

(23) Ibid., P.14

(24) شاب من أبناء قبيلة البكير كان موظفًا في إحدى مؤسسات الدولة في مدينة دير الزور، بدأ مسيرته بالانتماء إلى النصرة وكان صعب المراس متمردًا، وقد انشق عن النصرة وأصبح من أمراء داعش في المنطقة.

(25) كان المجلس العسكري لدولة العراق الإسلامية قد أوفد أبا محمد الجولاني إلى سورية بين تموز وآب 2011 مع ثمانية آخرين من أجل تهيئة الأرض لتكوين تنظيم جهادي يكون تابعًا لدولة العراق الإسلامية. وعندما قرر البغدادي دمج الفرع السوري إلى الدولة وتسميتها دولة العراق والشام الإسلامية رفض الجولاني ذلك، وأكد تمسكه بالبيعة لتنظيم القاعدة المركزي بقيادة الظواهري الذي أيد الجولاني، وتبرأ من داعش.

نحو التطويع بالقوة، ولكن مع مراعاة بعض الاعتبارات القبلية التي قد تترد على التنظيم بالسوء.

وجدير بالذكر دعماً لفرضية البحث الأساس عن استراتيجية حقيقية لدى تنظيم داعش أن تنظيم داعش قد استطاع اللعب على التناقضات في المنطقة، فانشقاق الرفدان كان بتحريض من أحد قادة تنظيم داعش المدعو (أبو أسامة العراقي) الذي استغل نقمة الرفدان على النصر بعد استيلائها على معمل غاز كونكو الذي كان الرفدان هو الذي سيطر عليه، وكان واقعاً في قرية أهله. وقد أدت سيطرة الجبهة على الحقل، واستئثارها بما يستخرج منه، ومنع الرفدان من الاستفادة منه إلى نقمة لديه كانت سبباً من أسباب انشقاقه عن جبهة النصر، وانضمامه إلى تنظيم داعش.

لم يتمكن التنظيم من السيطرة على المحافظة بسهولة، فقد انسحب بعد معارك عدة تسبب فيها تصعيده وتأليب قبائل وفصائل ضده إلى معقله في الشداوي جنوب مدينة الحسكة، وصار يعتمد على خلايا يشكلها في المنطقة متبعاً أسلوباً شبيهاً بأسلوب العمل السري، وكان انتقائياً في تشكيله لأفراد هذه الخلايا الذين كان ينتقمهم من قاع المجتمع العشائري ممن لا يأبه بهم أحد إلا على سبيل الاجتناب أو الاستعلاء، ومن بعض قيادات الجيش الحر الذين استطاع التنظيم اجتذابهم. وقد ارتكبت جبهة النصر خطأ استغله تنظيم داعش من أجل العودة إلى المنطقة عندما داهمت النصر بيتاً يقطنه رجل من قبيلة (البكير) (وهي فرع مهم من فروع قبيلة العكيدات) يُشك أنه ينتمي إلى خلية من خلايا تنظيم داعش، وتسبب هجومها على منزل فيه نساء من دون احترام حرمة البيت في فرقة عشائرية من أبناء قبيلة البكير الذين هاجموا النصر، خصوصاً بعد أن تسربت أنباء عن إصابة إحدى النساء في البيت، وكان استغلال تنظيم داعش الحادثة بتقديمه الدعم لمحاربي النصر. ولكن هذه الحادثة التي تسببت في فرقة عشائرية كانت سبباً قريباً يكمن خلفه جذر أعمق، وهو نقمة عموم الناس على جبهة النصر بعد سيطرتها على مصادر الثروات التي كان من أهمها حقل غاز (كونكو)، وهو الحقل الواقع في قرية (خشام) من قرى (البكير) في خط الجزيرة. يضاف إلى هذه النقمة حساسية قديمة متجذرة بين أبناء (البكير) و(البوكامل)، وخصوصاً أن الجبهة اتخذت في دير الزور طابعاً قبلياً بسبب ارتباطها في الأذهان بـ (الشحيل) مركز (البوكامل) أكبر فروع قبيلة (العكيدات)، وهي حساسية استطاع تنظيم داعش استغلالها بالتحريض ضد الجبهة.

ومن الحوادث ذات الدلالة في إثبات قدرة تنظيم داعش على التخطيط المشتق من معرفة بواقع المنطقة ما حدث في قرية (الهرى)، وهي من قرى منطقة البوكامل التي تقطنها عشيرة (الجغايفة) التي تعود في أصولها إلى قبيلة (الدليم). كان (الجغايفة) يمتنون منذ زمن طويل مهنة التهريب، وقد تمرسوا في هذه المهنة التي أضافت إلى شدة بأسهم جرأة على السلطات، ولهذا فقد رفضوا محاولة النصر فرض أتاوة على إيراداتهم من التهريب. وكان رفضهم سبباً في اندلاع معارك بينهم وبين جبهة

النصرة. وقد استغل تنظيم داعش ما جرى في إقناع قسم من أبناء العشيرة بالانتماء إلى التنظيم الذي بدا -بالمقارنة- بديلاً أفضل، خصوصاً بعد تجربته في الرقة التي أوحث لكثيرين أنه يسلك سلوك الدول من حيث مركزية القرار والعناية بتأمين الخدمات الحيوية للناس.⁽²⁶⁾

استمر تنظيم داعش في سياسة تغذية الخلافات العشائرية وفي استغلال نقمة بعضهم على سلوك النصرة، وبعد معارك كَرْ وفرّ تمكن تنظيم داعش من السيطرة على كامل المنطقة. وقد بدأت سيطرة تنظيم داعش على المنطقة بعد معركة مركدة القرية الواقعة (جنوب مدينة الحسكة) في ربيع عام 2014، وهي الملاحمة الكبرى التي شكلت فيها الفصائل المختلفة مع جبهة النصرة تحالفاً ضد تنظيم داعش سمي بـ (مجلس شوري المجاهدين)، وهي معركة قتل فيها حوالي 800 شخص، ويبدو أن تنظيم داعش قد حشد فيها خيرة مقاتليه، وتمكن من إلحاق الهزيمة بأعدائه. ظلت (البصيرة) و(الصباحة) و(الدحلة)، وهي قرى لعشائر (البكير) و(المشاهدة) و(الفليتة) و(البكار)، مواضع استعصاء في وجه هيمنة تنظيم داعش، ولكن بمجرد تمكن تنظيم داعش من السيطرة على (البصيرة) سقطت المحافظة في يد تنظيم داعش. ولا يمكن إغفال الأثر النفسي الذي سببه سقوط الموصل في المدة نفسها في نفوس خصوم تنظيم داعش الذين يبدو أنهم وصلوا إلى قناعة أنهم ليسوا أنداداً لتنظيم داعش. انسحبت قيادات الجبهة من (الشحيل) باتجاه (العشارة) في معارك السيطرة على (البصيرة)، ولما أعلن تنظيم داعش السيطرة على حاجز العتال -وهو النقطة الفاصلة بين (البصيرة) و(الشحيل)- تداعت المنطقة بالكامل. بعد سقوط البصيرة سيطر تنظيم داعش على (الشحيل) معقل النصرة، وفرض على الأهالي التهجير إلى حدود حقل العمر النفطي.

والحادثة التي شكلت مفصلاً، وكان لها أثرها الكبير، ويتوقع أن آثارها لن تختفي في المدى المنظور، هي المجزرة التي ارتكبتها تنظيم داعش بأبناء عشيرة (الشعيطات)، وهي فرع مهم وكبير من فروع قبيلة (العكيدات)، ففي منتصف 2014 بعد سيطرة تنظيم داعش تداول أبناء (الشعيطات) حول البقاء في المنطقة أو الخروج منها، وقد استقر رأيهم على البقاء. كان تنظيم داعش قد طالب أفراد الجيش الحر من أبناء (الشعيطات) بتسليم أسلحتهم، وقد قدح زناد الحرب دفاع أبناء (الشعيطات) عن آبار النفط في مناطقهم، وكان قسم من أبناء (الشعيطات) من الذين التحقوا بتنظيم داعش هم الذين يلاحقون أبناء عموماتهم من الجيش الحر بدوافع لها صلة بنزاعات قديمة وأحقاد متجذرة، ولما لم تفلح المفاوضات بين (الشعيطات) وتنظيم داعش أقدم تنظيم داعش على الهجوم على (الشعيطات)، وارتكب مجزرتة التي ستترك أثرها الذي يصعب أن يندمل.⁽²⁷⁾

(26) مناف الحمد، مقابلة مع أحد الناشطين من أبناء قبيلة البكير، (27-3-2022).

(27) د.م. القبيلة والسياسة في سورية، تحولات البنية وتنوع الدور، قبائل دير الزور أنموذجاً، مركز حرمون للدراسات المعاصرة.

سادساً: استراتيجية تنظيم داعش

يروى الذين التقى بهم الباحث روايات تؤكد وضوح استراتيجية تنظيم داعش قبل قدومه، فمن ذلك العثور على مخططات تفصيلية لجغرافية المنطقة، كما أن تنظيم داعش بسيطرته على البادية كان يقصد تسهيل وصوله إلى المدن، فعبر البادية يمكنه الوصول إلى جنوب سورية، وإلى حمص عبر تدمر، وإلى تلعفر في العراق.⁽²⁸⁾

كما أن وجوده في سورية يجعله يفك عزلته المفروضة بحكم جغرافيا العراق التي تمنع الوصول إلى البحر وتجعلها محاطة بموانع طبيعية يصعب اختراقها، أما الحدود السورية العراقية والحدود السورية التركية والبحر وبادية الشام فهي كفيلة بجعل الحركة والتمدد ممكنين.⁽²⁹⁾

ولكن هذه الاستراتيجية الواضحة قد ابتلعها الاستراتيجية الأم، وهي الاستراتيجية الأمنية التي اتبعها تنظيم داعش قبل وصوله عبر خلاياه النائمة، وعبر جعل المسؤولين الأمنيين على رأس أصحاب القرار، فلا قرار آخر بعد قرار الأمني سواء أكان شرعياً أم إدارياً أم تقنياً، والأكثر أن الشرعي يطلب منه تأصيل قرار الأمني تأصيلاً شرعياً وصياغة المبررات الشرعية له صياغة انتقائية تلفيقية.

فقرار مقاتلة العدو القريب، وهو في نظر تنظيم داعش فصائل المعارضة المسلحة، سيق له تبرير شرعي بالحكم بردة قادة هذه الفصائل، ووجوب قتالهم وقتلهم من دون رحمة. والتمكين من أجل إعلان الخلافة لم يعد ضرورياً بمعناه الذي تفرقه الأدبيات المرجعية، وقد سيق التبرير لذلك بوجوب الانصياع لأوامر الخليفة بعد وجوب مبايعته. وفي ما يتعلق بردة فصائل المعارضة يقول أبو عبد الله المهاجر -وهو أحد أهم منظري الدولة الإسلامية- في كتابه: ((سائل من فقه الجهاد)) الذي يعد الأساس الفقهي لتنظيم الدولة الإسلامية:

((لم يختلف أحد من فقهاء الإسلام في مشروعية قطع رؤوس الكفرة المحاربين، وحزها سواء كانوا أحياء أو أمواتاً بل ذلك عندهم من البديهيات المسلمات لتواتر المسلمين عليه في جهادهم لأعداء الله جيلاً بعد جيل وقبلاً بعد قبيل من عهد النبوة وإلى يوم الناس هذا)).⁽³⁰⁾

(2021)، ص 34-36.

<https://2u.pw/yO439>.

(28) مناف الحمد، مقابلات مع ناشط من مدينة البوكمال، (2-2022)، ومقابلة مع الباحث في التيارات الجهادية سعد الشارع، (2-2022).

(29) مناف الحمد، مقابلة مع سعد الشارع.

(30) حسن أبو هنية ومحمد أبو رمان، تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية، ص 185.

أما في ما يتعلق بالتمكين الذي يعني إعلان دولة الخلافة، وتعيين الخليفة، فقد أقره مجلس شورى تنظيم الدولة بحسب ما صرح الناطق باسم التنظيم أبو محمد العدناني:

((بعد أن اجتمع مجلس شورى الدولة الإسلامية وتباحث هذا الامر بعد أن باتت الدولة الإسلامية بفضل الله تمتلك كل مقومات الخلافة والتي يأتى المسلمون بعدم قيامهم بها وأنه لا يوجد مانع أو عذر شرعي لدى الدولة الإسلامية يرفع عنها الإثم في حال تأخرها أو عدم قيامهم بالخلافة، فقررت الدولة الإسلامية ممثلة بأهل الحل والعقد فيها من الأعيان والقادة والأمراء ومجلس الشورى إعلان قيام الخلافة الإسلامية وتنصيب خليفة للمسلمين ومبايعة الشيخ المجاهد العالم العامل العابد الإمام الهمام المجدد سليل بيت النبوة عبدالله إبراهيم بن عواد بن إبراهيم بن علي بن محمد البديري القرشي الهاشمي الحسيني)).⁽³¹⁾

مما سبق يمكن أن نخلص إلى أن تنظيم داعش ليس تنظيمًا ساذجًا تحركه دوافع دينية محضة، فعلى الرغم من أن التنظيم ارتكب أخطاء فادحة، فإن هذا لا ينفي امتلاكه استراتيجية يمكن وصفها بأنها استراتيجية قاصرة تؤطرها مقولات عقديّة وفقهيّة، ويطغى عليها سمتها الأمنيّة، وهي السمة التي يتجلى فيها سلوك التنظيم بشكله الأبرز، وقد أثبت التنظيم براغماتيته العالية في قدرته على التكيف مع الأوضاع المتغيرة، فوجوده الحالي في شرق سورية كان مخططًا له كبديل قبل هزيمته على يد قوات التحالف وقسد، فقد غير التكتيك، واعتمد أسلوب التمرد واستنزاف الخصوم كما عبر أبو بكر البغدادي:

((معركتنا اليوم هي معركة استنزاف وإضعاف العدو. يجب أن يعلموا أن الجهاد مستمر حتى يوم القيامة))⁽³²⁾، إضافة إلى أن تعامله متعدد المستويات مع القبائل من أجل تحقيق اختراقها وما مارسه من عنف غير مسبوق بقصد نشر الرعب في قلب كل من تسوّّل له نفسه التمرد كما فعل مع عشيرة (الشعيطات)، هذا كله يقول إن التنظيم ليس خلوًّا من قدرة على التخطيط متوسط المدى على الأقل.

وقد لاحظ الباحث في الحوارات التي أجراها أن من عايشوا تنظيم داعش عبر صلة حية طويلة، ومن ما يزالون على صلة حية بما يجري في المنطقة، يؤكدون امتلاك التنظيم استراتيجية واضحة، وأن من ينكرون ذلك كانوا -غالبًا- نفرًا ممن يسمون أنفسهم سلفيين معتدلين، ويعزو الباحث ذلك

(31) السابق نفسه، ص 206.

(32) محمد أبو رمان وآخرون، دولة ما بعد الخلافة، الأيديولوجيا، الدعاية، التنظيم والجهاد العالمي، هل سيعود تنظيم داعش من جديد؟ (عمان: فريدريش ايبرت، 2021)، ص 118.

إلى نزوع نفسي بعد أن صار التيار السلفي موضع نفور من نسبة لا يستهان بها من أبناء المنطقة لوجود جذر مشترك في نظر العموم بينه وبين تنظيم داعش، أو من جهاديين سابقين تحولوا إلى الخطاب الديمقراطي وصار محو ذلك التاريخ من حياتهم -في رأي الباحث- ضرورة نفسية ومصلحية.⁽³³⁾

صحيح أن دولة تنظيم داعش قد زالت بصفتها مؤسسات ومسيطرة على مناطق شاسعة، وأن الهزيمة التي لحقت بالتنظيم دولة كانت حدئاً يتوقعه كثيرون؛ لأنه لن يستطيع أن يصمد في بيئة لا تستسيغ تطرفه، وتحت نيران قصف قوى جوية متفوقة، ولكن وقائع كثيرة تثبت أن استراتيجيته موجودة، ولا يكفي إنكار وجودها لنفيه، ومن هذا:

1. استغلاله نقمة الشعوب على أنظمة الاستبداد، واستثماره الأزمة السنوية في العراق وسورية، ونفخه في الهوية الطائفية بطريقة استغلال ما هو موجود أصلاً.

2. وآلته الإعلامية التي لا يمكن إنكار حرفيتها وفعاليتها، والتي اعتمدت الدعاية السياسية الأفقية القادرة على الوصول إلى أكبر عدد ممكن عبر استخدام خطاب قادر على تلبية حاجات كامنة -كما يقال في علم التسويق- لدى متلقي هذا الخطاب، فإذا كان قياس كفاءة التنظيم ممكناً، فإن متابعة متبصرة لتطور القسم الإعلامي لديه كفيلاً بأن يسمح بهذا القياس. فهزيمة التنظيم العسكرية في العراق عام 2007 لم تكن كفيلاً بالقضاء عليه وعلى آليته الإعلامية التي اضطلع أبو محمد الفرقان⁽³⁴⁾ وأبو محمد العدناني بعبء تجديدها، وقد شملت آلة التنظيم الإعلامية مؤسسات عدة، وخصص بعضها لترجمة المضمون الإعلامي إلى لغات أجنبية عدة.⁽³⁵⁾

ومنذ البداية كان ثمة هيكلية إعلامية بيروقراطية ومتناسكة وعالية التنظيم والحرفية، فقد وجد قسم إعلام مركزي وفروع في مناطق مختلفة، وأديرت الهيكلية الإعلامية بشكل هرمي، كما وجدت أقسام تقنية يشرف عليها مختصون، فقد وجد لدى القسم الإعلامي مكاتب للعلاقات العامة والتوزيع والإنتاج والمحفوظات والتدقيق. وما يزال القسم الإعلامي فعالاً بعد سقوط الخلافة، وإن كان التحدي الذي يواجهه اليوم هو التنسيق بين مناطق متباعدة. وقد طرأ تغير على نوع المادة الإعلامية وعلى كمّها، فالأخير قد انخفض انخفاضاً بالغاً، فأصبحت نسبته عام 2021 (7 بالمئة) من

(33) مناف الحمد، مقابلات مع أحد شيوخ السلفية في مدينة الميادين، (2022-2-19)، ومقابلة مع مقاتل سابق من جبهة النصرة، (2022-2-12).

(34) وائل عادل الفياض، عراقي كان أميراً لديوان الإعلام المركزي في التنظيم، قتل في غارة جوية في الرقة عام 2016.

(35) انظر: أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، الدعاية، التنظيم والجهاد العالمي، هل سيعود تنظيم داعش من جديد، ص 30-34.

نسبته عام 2016، وتغير المحتوى من التركيز على القضايا المدنية وتوظيف عناصر جديدة إلى التركيز على القضايا العسكرية، واستبقاء العناصر الموجودة.

وعلى الرغم من خسارة التنظيم أراضيه لا يمكن إنتاج عمل إعلامي كثيف من دون وجودها لتأمين الاستقرار للإعلاميين، وعلى الرغم من خسارته عددًا كبيرًا من خبرائه الإعلاميين، وعلى الرغم من تضيق الفضاء السيبراني في وجهه بسبب الحملة العالمية ضده، فإن وجوده الإعلامي يؤكد ما افترضناه من امتلاك هذا التنظيم استراتيجية قابلة للتعديل والتكيف مع تغير الأحوال.⁽³⁶⁾

مما يقوي فرضية استراتيجية التنظيم أنه بعد سقوط الباغوز آخر معاقله في آذار عام 2019 انتشر انتشارًا يرجح أنه كان قد خطط له قبل مدة طويلة في الصحراء، وكانت مناطق انتشاره الرئيسة هي:⁽³⁷⁾

- أ. جبل البشري جنوب شرق الرقة.
- ب. منطقة الدفينة جنوب غرب دير الزور.
- ت. المنطقة الصحراوية بني تدمر والسخنة من الغرب ومنطقة الـ 55 من الجنوب ومنطقة التي تو من الشرق.
- ث. منطقة فيضة ابن موينع في الشمال.

ومن هذه المناطق يمكن الولوج إلى معظم المناطق السورية، كما يمكن التسلسل منها إلى مناطق في العراق.

ولا يخفى أن اختياره الانتشار في مناطق صحراوية كفيلا بتمكينه من التخفي في وديانها وكهوفها الجيرية العميقة واستفادته من عواصفها الرملية لإخفاء آثار تحركاته، كما أن اتساع المنطقة الصحراوية يمكنه من تنفيذ عمليات خاطفة لا تحتاج إلى عدد وعدة كبيرين⁽³⁸⁾. ومما يؤكد ذلك أن عملياته التي يستهدف بها خصومه من الصحراء لم تبدأ بعد سقوطه، وإنما قبل ذلك، فقد نفذ عمليات اغتيال وتفجيرات قبل سقوط آخر معاقله، وما يزال ينفذ عمليات تجاوز عددها المئات بحسب ما تؤكد إحصاءات رسمية.⁽³⁹⁾

(36) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 35-38.

(37) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 79.

(38) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 81.

(39) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 79.

إنه موجود في مناطق في الجزيرة السورية جنوب الحسكة التي تصله بما يسمى في العراق ببادية الحضر في منطقة تلعفر، وهي مساحة كبيرة غرب الموصل يشن منها عملياته على كردستان العراق وعلى الموصل.⁽⁴⁰⁾ وقد وصف جنرال بريطاني مشارك في التحالف ضد تنظيم داعش استراتيجية تنظيم داعش العسكرية بعد انهيار دولتها بقوله:

((تعمل داعش على إعادة تنظيم صفوفها على هيئة شبكات من الخلايا مصممة على استهداف كبار القيادات ومشايخ القرى والعسكريين بهدف ضرب الأمن والاستقرار في العراق وسورية. ما زال مقاتلو تنظيم داعش ينصبون الكمائن للدوريات الأمنية ويفجرون العبوات الناسفة اليدوية الصنع ويخطفون. وبالرغم من الانتكاسات التي مني بها التنظيم من حيث سيطرته على الأراضي لا يزال يحقق الانتصارات ولا تزال عقيدته تلهم الناس من مختلف أنحاء العالم)).⁽⁴¹⁾

كما أن تهديد التنظيم لأعدائه يعبر عن استعداده لخسارة الأراضي التي لا تفت في عضده ولا تكسر عزيمته كما عبر أبو محمد العدناني الناطق باسم تنظيم الدولة:

((هل تظنين أميركا أن النصر بقتل قائد أو أكثر. إنه إذاً للنصر مزور إن النصر أن يهزم الخصم... أم تحسبي أميركا أن الهزيمة فقدان مدينة أو خسارة أرض وهل انهزمنا عندما خسرنا المدن في العراق وبتنا في الصحراء بلا مدينة أو أرض وهل سنهزم وتنتصرين إذا أخذت الموصل أو سرت أو الرقة أو جميع المدن وعدنا كما كنا أول حال؟ كلا إن الهزيمة فقدان الإرادة والرغبة في القتال)).⁽⁴²⁾

ومما يدعم فرضية البحث عن استراتيجية تنظيم داعش وجود قياديين أو عناصر يقدمون وجهًا أليفاً لأبناء المجتمع الذي يسيطرون عليه، وقد تمكن هؤلاء -إلى حد ما- من تهدئة روع البعض عبر نقد المتطرفين من عناصر التنظيم، وعبر بذل الوعود التي تخاطب فطرة الناس عن تطبيق شرع الله.⁽⁴³⁾

وما أخطأه الفادحة إلا نتيجة للرغبة في قطف ثمار العمل بتتويجها بدولة الخلافة، وهو تحول لا يقوم على أساس موضوعي؛ فالتنظيم، بقرار التحول، هذا قد جعل نفسه مكشوقاً من طرف كل خصومه، وبات استهدافه أسهل منه عندما كان تنظيمًا متمرّدًا فحسب. ولم ينفع في تمكينه

(40) مناف الحمد، مقابلة السابقة مع سعد الشارع.

(41) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 105.

(42) أبو رمان وآخرون، ما بعد دولة الخلافة، الأيديولوجيا، ص 127.

(43) مناف الحمد، مقابلة مع أحد الناشطين من أبناء مدينة دير الزور، (2022-2-3).

من تأسيس دولته تأسيساً متيناً ضباط جيش صدام السابقون، ولا موظفو النظام البعثي البائد، فكل الصنفين بقايا نظام استبدادي لم يع تغيرات العصر، ولا يمكن بأي حال مناحرة واقع العالم المعولم بمقولات مستوردة من الماضي مهما بلغت درجة إيمان أصحابها بها. ولعل العجز في التصور الاستراتيجي على المستوى السياسي لا الأمني إنما يمكن أن يكون واضحاً في عدم إدراك هذا التنظيم وأمثاله أن سمة التصغير التي تصبغ الكيانات اليوم من منظمات الأعمال الصغيرة إلى التكنولوجيا النانوية هي التي أفسحت المجال لظهور تنظيمات ذرية تستفيد من سيولة الحدود بفعل العولمة كالتنظيمات المتطرفة.

فضلاً على أن تكفير كل مخالف يعبر عن هذا العجز؛ لأنه يفقد التنظيم المتطرف خزاناً كبيراً من الداعمين الذين يمكن أن يكسروا طوق عزلته عن محيطه الإقليمي والمحلي، إن بخبراتهم العملية، أو بحضورهم الديني.

وقد كانت فرضية صنع تنظيم داعش على أعين أجهزة استخباراتية ذات صلة بالواقع، ولكن ليس بمعنى أن أجهزة استخبارات إقليمية ودولية قد خلقت تنظيم داعش خلقاً من عدم، وإنما بمعنى استثمار ظهورها من أجل خدمة غايات لهذه الأجهزة وتسهيل وصولها إلى مناطق معينة من أجل اتخاذ سيطرتها على مناطق معينة ذريعة للتدخل في هذه المناطق، وهذا ما حدث في تسهيل سقوط الموصل في فترة قصيرة في يد مسلحي التنظيم وسقوط البوكمال في يده أيضاً، وهما عمليتان اتخذتهما إيران ذريعة للوصول إلى مناطق لم تكن تجد ذريعة للوصول إليها.⁽⁴⁴⁾ كما أن ما يرويه شهود عيان من إنقاذ مروحيات أميركية لعناصر من تنظيم داعش في فترات عصيبة -كما حدث في قرية غانم العلي القريبة من معدان، حيث روى شهود عيان نقل طائرة هيلكوبتر أميركية لأحد قيادي التنظيم- يؤكد اختراق أجهزة استخباراتية للتنظيم، ولا ينفع أبداً في دعم فرضية صنعها أصلاً على أعين هذه الأجهزة.⁽⁴⁵⁾

وقد كان ثمة شبه إجماع بين من حاورهم الباحث على هذا الاستنتاج، ولم يشفع من خالفهم ممن يؤكد أن تنظيم داعش صنيع استخباراتي حجته إلا بنظريات فيسبوكية لا قيمة لها⁽⁴⁶⁾، أو بكلام مرسل عن نظرية مؤامرة تستند إلى أن هزيمة تنظيم داعش على يد الصحوات لم تستكمل بقضاء

(44) مناف الحمد، مقابلة مع سعد الشارع.

(45) مناف الحمد، مقابلة مع الصحفي حسام الحمد من مدينة الرقة والمتخصص بالتيارات الجهادية، (2022-2-21).

(46) مناف الحمد، مقابلة مع أحد شيوخ السلفية ممن أبناء مدينة الميادين.

ميرم عليه وترك التنظيم على الحدود الأردنية السعودية لكي يستثمر لاحقاً⁽⁴⁷⁾. لا يمكن إنكار أن استثمار التطرف ديدن قوى إقليمية ودولية ولكن اختزال التنظيم في كونه صنيع استخبارات-فضلاً عن أنه لا يمكن إثباته بأدلة قاطعة- يغفل السيرة التاريخية للتيار الجهادي الذي يجد جذره في أيديولوجيا سلفية جهادية تشتق من تأويل معين للتراث وتستند إلى أدبيات مؤسسين إسلاميين، فمفهوم الحاكمية الذي استمدّه أحد أهم منظري جماعة الإخوان المسلمين سيد قطب من أبي الأعلى المودودي (ت 1399هـ)⁽⁴⁸⁾ لا يمكن الضرب صفحاً عن تأثيره بوصفه مرجعية من مرجعيات السلفية الجهادية بأشكالها المختلفة، فهو المفهوم الذي يجعل كل حكم مغاير لحكم الشريعة حكماً كافراً:

((إن العالم يعيش اليوم كله في جاهلية من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها))⁽⁴⁹⁾.

وهو يؤسس لعزلة الجماعة المؤمنة عن المجتمع الجاهلي، وهي في مضمار تغيير حاله، وهي عزلة لا مساومة فيها، ولا يمكن نزول المقيمين فيها من أبراجهم العالية للتفاوض حول تسويات مع المجتمع الجاهلي:

((إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصورات. وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق))⁽⁵⁰⁾.

وكان سيد قطب أصلاً استمدت منه السلفية الجهادية مفهومها للجهاد بوصفه واجباً على المؤمنين لتخليص الأرض من طواغيتها، وهو يشن حرباً شعواء على أولئك الذين يختزلون الجهاد في الإسلام في صد العدوان الخارجي فيقول:

((إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميعاً بتخليه عن منهجه، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخليفة بينهم وبين هذه العقيدة...))

(47) مناف الحمد، مقابلة مع أحد أبناء قبيلة البكير الذي عاش في ريف دير الزور لمدة عامين في ظل سيطرة داعش، (2022-2-28).

(48) مفكر هندي يعد واحداً من أبرز قادة التيار الإسلامي، كما يعد مرجعية للكثير من التيارات السلفية، أسهم في تأسيس (الجماعة الإسلامية) في الهند بعد تأسيس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين بثلاثة عشر عاماً تقريباً.

(49) سيد قطب، معالم في الطريق.

(50) سيد قطب، معالم في الطريق، ص 22.

بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلى بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها⁽⁵¹⁾.

ويجد التيار الجهادي مبرراته في منظومة عربية رسمية متهاكة لم تنجح في تحقيق أي خطوة إلى الأمام على أي صعيد، وأمعنت في دفع عامة شعوبها إلى وهدة التخلف والبؤس.

يغفل هذا الاختزال لتنظيم داعش بوصفه تياراً جهادياً متطرفاً في عدّه مصنع أجهزة استخبارات عن حقيقة ما خلفه التشكيل الاستعماري من وقائع كرسست الاستقطاب بين أبناء الوطن الواحد، بين متغربين وتراثيين من جهة، وأبناء الثقافات المختلفة التي يصم بعضها الآخر بالتخلف، ويدفع الموصوم التهمة بوصف الآخر بالانحلال.

ليس تنظيم داعش وغيره إلا مفرزاً من مفرزات سيرورة تاريخية كرسست فيها عدم التوازن منظومة دولية غير عادلة وأنظمة استبداد أسرفت في قهر شعوبها وحرمانها من أبسط مقومات الحياة الكريمة، وقد تفاعل مع هاتين العلتين نفوق سوق ظاهرية في مقارنة النصوص الدينية يمكن فهم نفوقها بمحاولة الدفاع عن الوجود بتناول جزئيات تكرس العداء وتبرر العنف من دون ربطها بما ينظمها من كليات تمد جسور التواصل وتؤسس للخطاب الإنساني الشامل.

ولم يكن اختراق تنظيم داعش أمراً صعباً، فلا يتطلب قدوم أوربي من بلده سوى القدوم بالطيارة إلى تركيا والاتفاق مع مهرب في أورفا لإدخاله إلى مناطق سيطرة التنظيم، وقد استطاع التنظيم اكتشاف بعض العناصر التي اخترقته ومن الحوادث المهمة إعدام التنظيم لعنصر فلسطيني من عناصره بعد اكتشاف أنه عميل للموساد الإسرائيلي⁽⁵²⁾.

إن التمهصل بين الكيانات هو ما يصلح وصفاً دقيقاً للعلاقة بين التنظيم والقوى الدولية والإقليمية، وليس الصنع على يد هذه القوى.

(51) سيد قطب، معالم في الطريق، ص 65.

(52) مناف الحمد، مقابلة مع الصحافي حسام الحمود.

سابعاً: الآثار الاجتماعية

1. أثر تنظيم داعش في البنية القبلية

يمكن تصنيف تعامل تنظيم داعش مع القبائل تصنيفاً ثلاثي المستويات: (53)

أ. تحالف مع قبيلة (البكير) عن طريق عامر الرفدان المذكور سابقاً الذي أصبح فيما بعد أميراً بارزاً من أمراء تنظيم داعش، وقد استغل الرفدان نقمة البكير عقب الهجوم الذي شنته النصرة وموالوها من (البوكامل) على (الشحيل) وتسبب في قتل وجرح وتهجير مدنيين من قرية (جديد عكيدات).

ب. تحالفات سرية مع أفراد من خصوم جبهة النصرة من قبائل وفصائل مختلفة، ومن أبرز أمثلة هذا المستوى التحالف مع المدعو (صدام الجمل) قائد لواء الله أكبر من كتائب الجيش الحر في البوكامل، وهو شاب من مدينة البوكامل من أصول عراقية، كان يمتن تهريب الدخان، وخلال الثورة عمل في تهريب السلاح، وكان ينتمي إلى لواء أحفاد الرسول، (54) وقد قتلت النصرة إخواناً له، فانتهى إلى تنظيم داعش، وانتقم من كل شخص ظن أنه أسهم في قتل أشقائه بعد أن أصبح أمير البوكامل. (55)

ت. تحالفات سرية مع مجموعات قبلية تسعى للعب دور أكثر بروزاً مثل قبيلة (البوعز الدين) في قرية (الزر) تحت قيادة (أبو دجانة الزر)، وكان مقاتلاً بارزاً دموياً في صفوف الجيش الحر في مدينة دير الزور التي عانت التهميش تحت سيطرة جبهة النصرة، حيث عين تنظيم الدولة الإسلامية أبا دجانة قائداً عسكرياً في معارك دارت ضد فصائل جبهة النصرة في المنطقة.

استغل تنظيم الدولة الإسلامية الخلاف بين عشيرتي (الشعيطات) و(البو خابور) التي يستقر أبناؤها معظمهم في مدينة موحسن القريبة من مدينة دير الزور لإقامة تحالف مع مجموعات مسلحة من المدينة. وقد ساعد ذلك لاحقاً في السيطرة على أجزاء كبيرة من المحافظة من دون قتال سابق،

(53) TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, P. 35-36.

(54) تشكل تجمع أحفاد الرسول في مدينة دير الزور في أغسطس/ آب عام 2013، من اندماج عدد من مجموعات المدينة، وذلك بقيادة فراس خرابة من أبناء مدينة دير الزور.

(55) مقابلة متاحة على اليوتيوب مع صدام الجمل من سجنه في العراق: سيرة صدام الجمل من تهريب التبغ إلى قيادي في داعش.

<https://www.youtube.com/watch?v=dIZWRmaC6Wo>

وكان الخلاف بين العشيرتين قد نشب بعد إقدام بعض أبناء (البو خابور) على تسليم أسلحة مقدمة من المجلس العسكري⁽⁵⁶⁾ لتنظيم داعش، فانتقم أبناء (الشعيطات) من (البوخابور) بقتل ضابط يدعى أبا هارون ينتمي إلى (البو خابور). وقد تأكد استثمار تنظيم داعش الخلاف بعد انتماء ضابط كبير متقاعد من أبناء (موحسن) يدعى (سكر الموسى) لتنظيم الدولة، وأصبح عنصرًا فاعلاً فيه.⁽⁵⁷⁾

وقد تمكن التنظيم في شهر تموز/ يوليو في ذلك العام السيطرة على المنطقة الشرقية بعد تفرغ كامل لقتال الفصائل المعارضة له، وتأجيل القتال ضد النظام بذريعة أن هذه الفصائل قد انغمست في الكفر والردة، وشكلت ضده صحنات شبيهة بالصحنات التي حاربته في العراق بالعمالة للغازي الأميري الصليبي.⁽⁵⁸⁾

إن هذا التعامل متعدد المستويات مع الواقع القبلي والقدرة على استثمار الخلافات لصالح تحقيق المشروع ينبي عن قدرة لا يستهان بها على التخطيط على المدى القصير على الأقل، ويؤكد هذا الاستنتاج العمل على الجانب النفسي بزرع الرعب في نفوس الخصوم، فبعد سقوط الموصل بالطريقة التي سقطت بها أمام حفنة من مقاتلي التنظيم دخل في روع كثيرين من أبناء المنطقة أن هذا التنظيم أشبه بكائنات خارقة لا قبل لأحد بمواجهتها.

ولقد تابع تنظيم داعش سيرة بدأتها جبهة النصرة في إحداث الشروخ بين العشائر، فقد كانت النصرة محسوبة على قبيلة (البوكامل) أكبر فروع (العكيدات) كما ذكرنا سابقاً، وكان ثمة حساسيات قديمة بين (البوكامل) وأبناء عمومتهم من قبيلة (البكير)، وقد تفاقم الحساسية بعد سيطرة النصرة على المشهد وفي صدارتها من أبناء المنطقة أبناء (البوكامل)؛ الأمر الذي دفع قسمًا من أبناء البكير للاستقواء بتنظيم داعش لتحقيق التوازن مع غرماهم من أبناء عمومتهم، ومثال عامر الرفدان من عشيرة البكير مثال بارز.

ومن هنا يتضح أن الاستقطاب بين العشائر قد تكرر بسبب تنظيم داعش، ومن الأمثلة الواضحة ما جرى مع عشيرة (القضاة)، وهي أقلية عشائرية تنتمي إلى قبيلة الجبور تقطن في قرية (الريضة) على طريق دير الزور - الحسكة، وقد كان قسم من أبنائها قد انضموا إلى تنظيم داعش ونكلوا ببعض أبناء (البكير) من فرع (الخبيلات) بحجج شرعية حيث كان نفر من هؤلاء يمتنون السرقة وقطع

(56) هو المجلس الذي أعلن عن تشكيله في كانون الأول/ ديسمبر عام 2012 بدعم من قوى عربية وإقليمية لكي يكون قيادة موحدة للجيش السوري الحر.

(57) د.م، القبيلة والسياسة، ص 37

(58) انظر: داعش وأخواتها، محمد علوش، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2015)، ص 212.

الطريق، وبعد انهيار تنظيم داعش جرى الانتقام من عشيرة القضاة، وجرى تهجير قسم كبير منهم من قريتهم الربيضة.⁽⁵⁹⁾

إن محاولة تفتيت البنية العشائرية لصالح فكر أممي يزيل كل الفوارق، كما تفترض الأيديولوجيا الإسلامية، شأها أثر آخر، وهو هزّ صورة الرموز العشائرية القديمة في نظر أبناء العشيرة الذين أقصاهم تنظيم داعش واستبدل بهم وجوهاً من الدرجة الثانية أو رعاغاً لم يكن أحد يقيم لهم وزناً في السابق. ولكنّ ثمة إجماعاً بين من التقاهم الباحث على أن هذا الأثر كان عرضياً؛ لأنه كان قائماً في جذره على الخوف وبعد زوال نفوذ تنظيم داعش المباشر عاد ارتباط الفرد بعشيرته كما كان.

2. أثر تنظيم داعش في النسيج الاجتماعي ونمط التدين والتعليم

تعامل تنظيم داعش مع البنى المجتمعية في المحافظة تعاملاً كفيلاً بإحداث شرخ كبير في وحدات المجتمع بدءاً بالعائلة وصولاً إلى العشيرة، ففي الريف حيث تسود النزعة العشائرية تمكن تنظيم داعش بتصديده لوجوه عشائرية جديدة من تغيير البنية السائدة، فقد تضاعف مثلاً دور شيخ عشيرة البكير أمام دور الشاب ضئيل الوزن العشائري عامر الرفدان الذي أصبح أمير تنظيم داعش في المنطقة. وفي العائلة نفسها أصبح الشرخ عميقاً، ففي مدينة البوكمال التي ترجح فيها الصبغة العائلية على العشائرية جند تنظيم داعش أفراداً من العائلات، وأدرجهم في دورات استتابة هي أشبه ما تكون بعمليات غسل دماغ، فأصبح الفرد المتخرج من هذه الدورة يبرر قتل تنظيم داعش أمّه -مثلاً- لأن في قتلها تطهيراً لها من الذنوب بحسب قناعاته الجديدة.⁽⁶⁰⁾

ولا يزال هذا السلوك الذي اتبعه تنظيم داعش ذا أثر إلى اليوم، فتجد شقيقين لا يتواصلان أبداً بسبب انتماء أحدهما إلى تنظيم داعش، ويمكن أن تعثر على عائلة كاملة قطعت صلتها بعائلة ابنها الذي قتل في معارك بعد انتمائه إلى تنظيم داعش.⁽⁶¹⁾

وقد كرس تنظيم داعش بسلوكه العنيف استسهال رؤية الدم والرؤوس المقطوعة، وصار القتل أكثر سهولة بعد بحر الدماء الذي أغرق فيه تنظيم داعش المنطقة.⁽⁶²⁾ ولكن استسهال رؤية العنف

(59) مناف الحمد، مقابلة مع أحد أبناء قبيلة البكير الذي عاصر داعش، (5-3-2022).

(60) مناف الحمد، مقابلة مع خطاب العواد أحد الناشطين من مدينة البوكمال، (3-2-2022).

(61) مناف الحمد، مقابلة مع أحد الناشطين من مدينة دير الزور، (15-2-2022).

(62) مناف الحمد، مقابلة مع حسام الحمود.

لا يعني استسهال ارتكاب أفعال عنيفة، فيروي أحد أبناء قبيلة البكير ممن عاشوا في ظل تنظيم داعش أن أحقادًا تفاقمت في قلوب أبناء عمومة من نفس القبيلة بسبب انتماء أحدهم إلى تنظيم الدولة إلى درجة أنه هدد من طرف ابن عم له بقتله إذا وجده حيًا، ونبش جثته، وإطلاق النار عليها إذا وجده ميتًا. ولكن ما جرى بعد زوال دولة تنظيم داعش أن وجهاء القرية اجتمعوا وأجمعوا أمرهم على قرار يقضي بالتسامح وتناسي الخلافات السابقة، ولم تسفك نقطة دم واحدة بين أبناء القرية.⁽⁶³⁾

وهو ما يفند تنبؤات شائعة بين غرباء عن المنطقة ممن يستندون في تنبؤاتهم إلى فرضيات خاطئة، وهي تنبؤات فحواها أنهم من الدم بسبب ثارات بين أبناء القبائل، وهي تصورات خاطئة مشتقة من الافتقار إلى الفهم العميق لواقع تلك المنطقة. فلا شك أن الشرخ الذي ساهم تنظيم داعش في صنعه بين بعض القبائل ليس بسيطاً وأن عوامل الثأر والانتقام لا يمكن ألا تكون قد حفرت في نفوس الكثيرين، ولكن هذا لا يكفي للتنبؤ بانفلات نوازع الثأر من عقالها بدون رادع بعد انهيار تنظيم داعش.

وقد كان لتنفيذ تنظيم داعش حدودًا بحق متهمات بالزنا ومتهمين بالسرقة من رجم وقطع يد أثر واضح في إخراج من نفذت بحقهم الحدود وإخراج ذويهم من النسيج الاجتماعي، فعلى عكس أصول الشريعة الإسلامية التي تضع حواجز كثيرة قبل تنفيذ الحد، وتترك فسحة لمن يطبق عليه الحد للعودة إلى المجتمع طبق تنظيم داعش الحدود من دون نظر للأثار الاجتماعية المدمرة لأسلوبها بالغ القسوة، ففي حادثة رجم متهمة بالزنى حتى الموت وصمت وصمة العار أهلها وأبناءها، وبعد تبين براءتها قال من امتلك دليل البراءة لأهلها إنه يستطيع تبرئتها بنشر دليل البراءة، فلم يلق عرضه استجابة بدعوى أن وصمة العار قد لحقتهم إلى الأبد ولا جدوى من هذه المحاولة⁽⁶⁴⁾. وأصبح من قطعت يده بتهمة السرقة يروج -لكي يستطيع الاستمرار في حياته في مجتمعه- بأن يده قد قطعت بعد ضرر كبير ألحقه بها حادث سير، وبعضهم فضل الهجرة إلى خارج سورية لكي يتكفل الزمن بمحو ما لحقه من عار.

ولكن هذه الحدود لم تطبق إلا على نطاق ضيق، وكان التحري في إثباتها من طرف شرعي التنظيم قائمًا، وليس صحيحًا أنه كان متعسفًا من دون البحث عن أدلة، وإن كان التنظيم قد وقع في أخطاء في تطبيقه بعض الحدود على برآء، ولكن المهم أنه من غير العلمي تضخيم سلوك تنظيم داعش في ما خص تطبيقه الحدود المتعلقة بالجنايات.⁽⁶⁵⁾

(63) مناف الحمد، مقابلة مع أحد أبناء قبيلة البكير.

(64) مناف الحمد، مقابلة مع صاحب دليل براءة المتهم بالزنى، وهو ناشط من مدينة البوكمال، (2022-2-2).

(65) مناف الحمد، مقابلة مع الصحفي عبد الله الغضوي من ريف البوكمال، (2022-2-23).

ومن الآثار الخطرة -بحسب روايات بعض الناشطين الذين التقاهم الباحث- ظهور أطفال لا يعرف أبائهم من ذريات منتمين مهاجرين لتنظيم داعش يعرفون بألقابهم، وليس بأسماء محددة، وبعد أن اختفى الأب أو قتل صار الولد يعرف بابن (أبي فلان العراقي أو المصري)، ما اضطر بعض الأمهات إلى عقد قرانهن مؤقتاً على أقاربهن لكي يسجلن أبناءهن مجهولي النسب بأسمائهم.⁽⁶⁶⁾

أما أثر تنظيم داعش في نمط التدين، فقد تمثل في تقوية التيار الصوفي على حساب السلفي، وجدير بالذكر أن التيار السلفي كان ذا حضور في المحافظة في مدنها وريفها، ولكنه لم يكن ذا صوت عال بسبب سياسات النظام التي أفسحت المجال للتيار الصوفي لكي يرفع عقيرته على حساب التيار السلفي لأنه تيار مهادن لا يكتثر للشأن السياسي، وليس صحيحاً وصف بعض الباحثين لتدين المنطقة بأنه تدين صوفي شعبي⁽⁶⁷⁾ لأن مدينة دير الزور ومدينتي البوكمال والميادين كانت تشهد صعوداً للتيار السلفي المدعوم سعودياً كما ان الريف لم يخل من هذه النزعة التي عززها عمل الكثيرين من أبناء المنطقة في الخليج وتأثرهم بالتيار السلفي القوي هناك، فقد كان مسجد الروضة في مدينة دير الزور مكان تجمع للتيار السلفي الذي دخل في صراع منذ تسعينيات القرن المنصرم مع التيار الصوفي المتهم من طرف التيار السلفي بترويج البدع والتنكب عن الصراط المستقيم. كما وجدت التيارات السلفية من سلفية علمية⁽⁶⁸⁾ وجهادية في مدينة البوكمال، ولم تخل مدينة الميادين من تيار سلفي نازع الطرق الصوفية مساحة تأثيرها، وقد تعززت هذه النزعة السلفية بعد غزو العراق حيث اندفع مئات الشباب للجهاد في العراق ومواجهة ما أسموه بالغزو الصليبي والصفوي للعراق.

بعد هزيمة تنظيم عاد التيار الصوفي للظهور بقوة، وأصبح وصف شخص بأنه سلفي يعني وصفه بأنه تنظيم داعشي، والآخر الأكبر هو وصف من يتحدث عن السنة بمنطق السلفيين بذات الوصف، وهو ما يفتح نوافذ أمام التمدد الشيعي الذي بات يفصح عن نفسه بلا موارد في إنشاء الحسينيات في المدن والقرى ومراكز تدريب وتثقيف الشباب وفق مناهج شيعية.⁽⁶⁹⁾

كان الأثر على الصعيد الاجتماعي أثراً مدمراً بحسب ما سبق، ولم يحدث أثر إيجابي يذكر إلا في إقناع عموم الناس بضرورة الكف عن بعض الممارسات التي عدت بدعاً دخيلة على الدين الإسلامي

(66) مناف الحمد، مقابلة مع الصحفي عبد الله الغضوي من ريف البوكمال.

(67) تنظيم الدولة الإسلامية، رجع سابق، ص 74.

(68) هي ذلك التيار السلفي الذي يهتم في المقام الأول بالنواحي التعليمية المرتبطة بعلوم القرآن والسنة النبوية؛ لذلك فإن العلماء والدعاة المنتسبين للاتجاه السلفي العلمي يركزون جهدهم في تنشئة جيل جديد من الشباب المسلم الملتزم دينياً، ويطلقون على ذلك المنهج اسم التصفية والتربية.

(69) مناف الحمد، مقابلات مع ناشطين من مدينتي البوكمال والميادين (2022-1-28).

من قبيل الكف عن الاحتفال بليلة النصف من شعبان، والكف عن دفع شموع الخضر في نهر الفرات، وهي الشموع التي توضع في صحن، وتدفع في النهر للاستبشار بعودة من غادر، إذا طفت الشموع على سطح النهر بحسب ما يقول الموروث الشعبي.⁽⁷⁰⁾

تأثير تنظيم داعش في مسيرة التعليم لم يكن سلبياً بفعل تنظيم داعش لوحده، فقد أغلقت كثير من المدارس بسبب الحرب التي شُنت على تنظيم داعش، ولكن تنظيم داعش لم يعمد إلى إغلاق المدارس رغبة منه في إغلاقها، فقد أكد معاصرون لدولة الخلافة أن أبناءهم وبناتهم استمروا في بداية سيطرة التنظيم في ارتياد المدارس وتلقي مناهج العلوم كلها ما عدا بعضها مثل مادة القومية الاشتراكية والتاريخ. وأضيف خط تعليمي آخر للمدارس، وهو حلقات العلم التي تعقد في المساجد والتي يتلقى فيها العلم الشرعي ودروس القرآن⁽⁷¹⁾. وإذا كان ثمة أثر سلبي مباشر لمناهج تنظيم داعش التعليمية، فقد تمثل بصورة أساس في استخدام لغة غريبة كقيلة بجعل لغة العنف لغة مألوفة، فيمكن أن تعثر في بعض مسائل مادة الحساب مسألة حسابية من قبيل: فجرنا خمس طائرات من أصل سبعة فكم طائرة بقي؟⁽⁷²⁾

3. الأثر الاقتصادي

إن سياسة السوق الحرة التي اتبعتها تنظيم داعش أنعشت أحوال الناس الاقتصادية، فقد باتت الحدود التي تعيق العمل التجاري في خبر كان في ظل سيطرة تنظيم داعش، إضافة إلى أن الثروة النفطية التي استغلها تنظيم داعش كمورد مالي أساس قد زادت زيادة كبيرة من حجم العملة المتداولة في السوق، وهو ما لم يتحقق في المرحلة السابقة لتنظيم داعش، ولا في المرحلة الحالية تحت سيطرة قسد.

صحيح أن تنظيم داعش لم يحدث تطويراً على طريقة استخراج الثروة النفطية، وحافظ على الأسلوب البدائي الذي اتبعه من استغلال آبار النفط في المرحلة السابقة لسيطرة التنظيم، غير أن احتكاره الثروة، ومنع تشظيها بين فصائل وعائلات مختلفة قد أسهم في إحداث طفرة اقتصادية في المنطقة انعكست في حياة الناس في رفاهية لم يعهدها في السابق. خصوصاً وأن التنظيم كان براغماتياً في تعامله مع الثروة، فهو يتعامل مع النظام الذي يعدّه من ألد خصومه عن طريق رجل

(70) مناف الحمد، مقابلة مع سعد الشارع.

(71) مناف الحمد، مقابلة مع أحد الوجاهات الدينية ممن عاش في ظل سيطرة داعش في إحدى قرى خط الجزيرة، (6-2-2022).

(72) مناف الحمد، مقابلة مع خطاب العواد.

النظام المدعو القاطرجي، ويبرر ذلك بأنه جائز لأنه في مصلحة الخلافة واستقرارها وبقائها.

وما أسهم في تحقيق هذا الرفاه لعموم الناس هو ما حققه تنظيم داعش من أمان، ففي ظل وجود صاحب نفوذ واحد يفرض هيمنته على الجميع، ولا يقيم وزناً لأي تراتب سابق اجتماعي أو عشائري، وفي ظل وجود قضاة وشرعيين يستطيعون تحصيل الحق لمن يقصدهم تحقق قدر كبير من الشعور بالأمان بحسب ما يؤكد من عاشوا في ظل الخلافة في شرق سورية.

ولكن انهيار الخلافة بعد تحالف ثمانين دولة بمساعدة قوات قسد جعل ذاك الأثر الاقتصادي يرتد دماراً اقتصادياً، فقد سحب عناصر التنظيم السيولة المادية التي حققوها من استخراج النفط والاتجار به، وعادت الحدود إلى سابق عهدها، فاستحالت المنطقة قفراً كما لم تكن بالأمس، وعاد الناس إلى سابق عهد الحاجة وضيق ذات اليد.⁽⁷³⁾

وقع الناس بين أنواع مختلفة للاستبداد أسدي وتنظيم داعشي وقسدي، وأصبحت المقارنات محصورة بين هذه الأصناف الثلاثة للاستبداد، وأصبح الحديث عن الحريات والحقوق ترفاً لا ظل له على الأرض.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي الإشارة إليها المورد المالي بالغ الأهمية بالنسبة إلى تنظيم داعش، وهو من الآثار التي لم تكن في منجى عن الاستغلال قبل سيطرة تنظيم داعش، ولكن التنظيم تابع مسيرة نهب هذه الثروة بأسلوب الاستئثار بها كما فعل مع الثروة النفطية، ولم يعدم تبريراً شرعياً بعده هذه الآثار ركازاً⁽⁷⁴⁾ أسس له التنظيم ديواناً أسماه (ديوان الركاز)، وبما أنه ركاز فهو من حق الدولة ولا قيمة كما ظهر للوسيلة فقد اشتغل على الحفر لاستخراج الآثار تجار آثار من خارج التنظيم مقابل حصص اتفق عليها بينهم وبين التنظيم.⁽⁷⁵⁾

4. تركة تنظيم داعش الثقيلة كما تبدو في مخيم الهول

ولعل مخيم الهول الذي جمع فيه عناصر تنظيم داعش مع من كانوا في مناطق التنظيم في آخر معاقله يصلح أنموذجاً مجسداً لركة تنظيم داعش الثقيلة، فعقب سقوط الباغوز في آذار عام

(73) مناف الحمد، مع عبد الله الغضوي وخطاب العواد وأحد أبناء قبيلة البكير.

(74) الركاز على قول جمهور الفقهاء هو ما دفنه أهل الجاهلية، ويطلق على كل ما كان مألأ على اختلاف أنواعه.

(75) مناف الحمد، مقابلة مع أحد أبناء قبيلة البكير.

2019 اعتُقل من ألقى القبض عليه من عناصر تنظيم داعش، وألقي بالرجال في السجون، أما النساء والأطفال دون سن العاشرة فقد أودعوا في مخيم الهول ومخيم روج. والهول منطقة واقعة شرق مدينة الحسكة على بعد 40 كيلو متراً منها. قدّر عدد الذين يعيشون في مخيم الهول بحوالي 60 ألف شخص، بينهم نحو 40 ألف طفل من ستين جنسية. وبحسب البيانات الصادرة عن الإدارة الذاتية الكردية، فإنّ المخيم يضمّ حوالي 11 ألف رجل من عناصر تنظيم داعش، بينهم 2.000 من الأجانب، والبقية من السوريين والعراقيين.

تتوزّع عائلات العراقيين المنتسبين للتنظيم على القطاع الأول والثاني والثالث والسابع، بينما تتوزّع عائلات السوريين على القطاع الخامس والسادس والثامن، والقطاع الرابع فيه خليط من العائلات السورية والعراقية، وتجمع إدارة المخيم المهاجرات الأجانب وأطفالهن في قسم خاص⁽⁷⁶⁾. وهذا القسم الخاص يمثل مكان البناء العقائدي لأطفال تنظيم داعش بحسب أحد الصحفيين الذين زاروا المخيم.⁽⁷⁷⁾

يخضع المخيم لحراسة أمنية من قبل قوات سوريا الديمقراطية وقوى الأمن الداخلي (الأسايش) إضافة إلى الاستخبارات التابعة للإدارة الذاتية، ووفقاً للإجراءات الأمنية المتبعة، فيمنع خروج النساء المحليات من المخيم إلا بإذن خطّي من إدارة المخيم وبرفقة عناصر من (الأسايش)، في ما يمنع خروج الأجانب من المخيم إلا في حالات الطوارئ أو بهدف تسليمهم إلى دولهم.⁽⁷⁸⁾

يمثل المخيم تجسيداً لجحيم أرضي، ففي روايات لصحافيين زاروه لا يستغرب وجود سيدة تبحث عن إسعاف لطفلها الذي كسرت قدمه منذ أيام، وهي لا تجد ملبئاً لها، والنوم في مكان جمع القمامة بسبب الاكتظاظ أمر مألوف، فالأصل أن المخيم يتسع لحوالي عشرة آلاف شخص، بينما الحقيقة أن قاطنيه يتجاوزون ستة أضعاف هذا العدد.⁽⁷⁹⁾

إن استغاثت تلك السيدة التي لا تلقى صدئاً ليست مستغربة بسبب كثرة قطاعات المخيم، وتخصيص نقطة طبية واحدة لكل قطاع؛ أي بمعدل ست نقاط طبية فقط مع ثلاث عيادات متنقلة لا تقدم إلا الحد الأدنى من الخدمات الطبية. عام 2019 توفي 517 شخصاً داخل المخيم أغلبهم

(76) عرابي عبد العي عرابي، مخيم الهول بين سوء الإدارة ومخاطر التطرف، موقع مصير، (2020)

<https://maseer.net/archives/19093>

(77) المقابلة السابقة مع الصحفي حسام الحمود..

(78) عرابي عرابي، مخيم الهول بين سوء الإدارة ومخاطر التطرف.

(79) المقابلة السابقة مع حسام الحمود.

من الأطفال بسبب نقص التغذية، ولأسباب أخرى منها البرد، وعدم توافر وسائل التدفئة، وانتشار أمراض الملاريا والحصبة والسل واللشمانيا.⁽⁸⁰⁾

الأمر الذي يرى الباحث ضرورة تسليط الضوء عليه أيضاً هو احتواء هذا المخيم على عناصر من تنظيم داعش من النساء ومن أطفالهن الذين لم يعرفوا الدنيا إلا في ظل تنظيم داعش، وما يزيد الأمر خطراً أن أولئك النسوة ينتمين إلى جنسيات مختلفة أجنبية وعربية وسورية، وعلى الرغم من أن قوة انتمائهن إلى تنظيم داعش ليست متساوية، فبعضهن مؤدلجات بشكل حقيقي، وبعضهن انتمين إلى التنظيم لأسباب مختلفة منها الخوف ومنها التزوج بأحد عناصر التنظيم، فإن جمع كل هذا العدد غير المتجانس في مكان واحد في ظل أوضاع الحياة القاسية تلك يمكن أن يمثل قنبلة موقوتة لتخريج جيل متطرف. وما يجعل هذا الاحتمال راجحاً تشكيل بعض النسوة جهازاً للحسبة في المخيم مهمته:⁽⁸¹⁾

1. نشر فكر التنظيم.
2. ومراقبة تطبيق الفرائض الدينية.

ويمارس هذا الجهاز سلوكاً عنيفاً مع من يرفضون تطبيق الفرائض الدينية تصل أحياناً إلى القتل بحسب ما روى عدد من المصادر، وقد تمكنت النسوة المضطلعات بمهمات الحسبة التواصل مع الخارج عبر استغلال فساد بعض عناصر الأسايش (جهاز قسد الأمني)، وتمكن من الحصول على المال والسلاح.

تسهم بعض الدول في تفاقم خطر هذا المخيم، ورجحان تحوله إلى خزان لجيل من المتطرفين بسبب رفض بعض الدول استعادة مواطنيها كما فعلت الدانمارك التي صرح بعض مسؤوليها باحتمال سحب جنسيات بعض مواطنيها المنتمين لتنظيم داعش.⁽⁸²⁾

ويسهم في ترجيح هذا الاحتمال ضعف الخبرات في إعادة التأهيل النفسي للأطفال الذين لم يعرفوا العالم إلا مقسوماً إلى أهل حق يمثلهم أفراد التنظيم وأهل باطل يمثلهم كل مخالف لهم. وليس هذا الضعف مقتصرًا على الخبرات المحلية العاملة في مجال إعادة التأهيل، وإنما هو موجود في دول غربية لم يسبق للمتخصصين في هذا المجال أن تعاملوا مع حالات كهذه. ففي حالة طفلين لأباء

(80) عرابي عرابي، مخيم الهول بين سوء الإدارة ومخاطر التطرف.

(81) عرابي عرابي، مخيم الهول بين سوء الإدارة ومخاطر التطرف.

(82) للمزيد عن موقف الدانمارك من بعض مواطنيها المنتمين إلى داعش، انظر المقال بعنوان: ((مقاضاة حكومة الدانمارك بسبب سحب الجنسية من 11 مواطناً))، موقع العربي الجديد عبر الرابط: <https://2u.pw/bYb40>

فرنسيين كانوا في مخيم الهول استعادت فرنسا الطفلين، ولم تستقبل والدتهما، وكان الطفلان قد قتل أبواهما في معركة الباغوز، فضم الطفلان إلى أطفال من عائلة داعشية فرنسية أخرى، من دون الأخذ في الحسبان خطر عدم عزل الطفلين اليتيمين عن أفراد تنظيم داعش وخطر عزل الطفلين عن أمهما.

وقد شرعت التجارب الأولية في إثبات ضرورة المحاولة؛ ففي حالة طفلة بلجيكية تدعى (مريم) تبلغ من العمر الآن اثنتي عشر عامًا من أب داعشي من جنسية بلجيكية استطاعت عمته أن ترفع دعوى لكي تستعيدها وتشرف على إعادة تأهيلها، والعمة مسلمة ترتدي الحجاب. وقد أثبتت التجربة أن تعامل عمته الحسن معها، وتعريفها إياها على عوالم جديدة قد غير شخصيتها تغييرًا ملموسًا، فقد كانت الثقة التي زرعت بينها وبين عمته عاملاً في إضعاف أثر ما عانتها من رعب القصف، ومن التنقل بين أربع عائلات. وقد أدركت أن ما شاهدته من زيّ، وما اعتادته من رؤية الرجال والنساء حاملي السلاح ليس أمرًا طبيعيًا.⁽⁸³⁾

ثامنًا: نتائج

1. يمكن مما سبق القول إن أثر تنظيم داعش في المنطقة أثر متعدد المستويات متفاوت القوة، وهو صعب القياس؛ لأن تنظيم داعش لم يخفف بعد انهيار دولته، وإنما غير أسلوب عمله، وصار يفضل تجنب السيطرة على المدن لكي يتجنب الاستهداف، وتحول إلى كيان أكثر خطرًا من السابق، لأن ضربه أدى إلى انتشاره⁽⁸⁴⁾، ولأن الكر والفر باستخدام الصحراء المترامية الأطراف قد أحاله إلى عدو يصعب تحديد مكانه بدقة. وما يؤكد تعاظم خطره أن أفرادًا من التنظيم ما يزالون يعيشون بين ظهرائي الناس في بعض قرى المنطقة الشرقية، وهم يفرضون الأتاوات على أصحاب المهن مستغلين الخوف الذي زرعوه في قلوب الناس من عقابهم الذي طالما ذاق الناس علقمه إبان سيطرتهم.

2. ومن آثار تنظيم داعش المهمة عقد الناس مقارنات بينه إبان سيطرته وبين ما سبقها وما لحقها، ففي المقارنة يخلص بعضهم إلى تفضيله على سابقه ولاحقه؛ لأنه حقق الأمان، وأزال الفروق بين الناس، ومكن كثيرين أخذ حقوقهم عبر اللجوء إليه وإلى قضائه الشرعي،

(83) المقابلة السابقة مع الصحفي حسام الحمود.

(84) See: Jennifer Cafarella with Brandon Wallace and Jason Zhou, ISIS'S SECOND COMEBACK, ASSESSING THE NEXT ISIS INSURGENCY, (Washington: Institute for the study of war, 2019). P. 42

وعدم تدخله في شؤون الناس شديدة الخصوصية من قبيل تجنيد البنات كما تفعل قسد، بينما يخلص آخرون إلى أن استبداد النظام كان أفضل لأن الخدمات في ظله -على سوءها- كانت ذات جودة أكبر.

3. يمكن القول -من دون خشية من المبالغة- إن أثر تنظيم داعش الفكري يكاد لا يذكر، فقد شوش شعارهم الأثير عن منهاج النبوة ما شهده الناس من انحرافاتهم في تطبيق الشرع، وما أفصح عنه سلوكهم من براغماتية متطرفة لا يمكن للحس البسيط أن يجد لها تبريراً تحت أي مسمى.

4. ولكن الأثر على صعيد الشروخ التي حدثت بين أبناء القبائل لا يمكن إنكارها، وإن كانت تنظيم داعش ليس إلا حلقة من سلسلة في إحداث هذا الشرخ، إلا أنه شرخ -على خطورته وظهور بعض نتائجه في بعض الأحداث- يمكن تضيق مساحته بحكمة بعض العقلاء كما وضحنا في مثال في البحث.

5. ثمة أثر بالغ الخطر، هو الجيل الذي تعرف على الحياة في مخيم الهول، ويعيش أفراد في كنف نسوة يقمن سداً منيعاً بين فسطاط الحق الذي يعتقدن أنهن يمثلنّه، وفسطاط الباطل الذي يمثلّه كل معاد لدولة الخلافة أو مخالف لها، وقد تبين من حالة المذكورة في البحث أن اهتماماً جدياً لا بد أن يولى لهذه الظاهرة قبل أن تصبح السيطرة عليها أكثر صعوبة، وأن هذا الاهتمام مسؤولية لا ينبغي أن يتخفف من عبئها أي قادر سواء أكان دولة أم منظمة إنسانية.

6. وقد تبين أيضاً من خلال البحث أن ما تسببت به حالات زواج أفراد مجهولي الهوية من عناصر تنظيم داعش من نساء من أبناء المنطقة قد خلفت أطفالاً لا يعرف لهم آباء بعد قتل أو اختفاء آبائهم، وهو أثر لا يعرف إلى الآن -بحسب علمي- مدى انتشاره، ولكن وجود هذه الحالات يحرض على التركيز على استقصاء هذه الحالات والشروع في وضع حلول لأصحابها.

7. أما ما أحدثه تنظيم داعش من شروخ بين أفراد من العائلة نفسها، فلم يستطع الباحث أن يحدد مدى اتساعه، وكل ما تمكن منه هو الإشارة إلى وجوده بحسب شهادات معاصرين لزمان الخلافة في المنطقة، ولكن تنبؤاً بتضاؤله مع الزمن -إذا جرى تجفيف آثار التطرف وشرع في إعادة إعمار المنطقة ووضعها على سكة تنمية حقيقية- هو التنبؤ الذي يتبناه الباحث.

8. إن إشارة البحث إلى وجود حالات ظلمت بإخراجها من نسيج المجتمع لا ينبغي المبالغة

فيه وتحويله إلى ظاهرة؛ لأن تطبيق الحدود المتعلقة بالجنايات كان محدوداً، إذا استثنينا أحكام الردة، ولكن هذا لا يعني أنه ليس أثراً بالغ القسوة مهما ضعفت نسبة المتعرضين له

تاسعاً: توصيات

1. إن ما ذكرناه من قابلية أي منظومة دينية على توليد التطرف لا يستلزم مطالبة المؤمنين بعقائد هذه المنظومة بالتخلي عن اعتقاداتهم، ولكن المطلوب الشروع في تأسيس مجال عام يكون فيه للمتدين حضوره مع غير المتدين، ويكون فيه للحوار الندي الديمقراطي بين المتدينين من مختلف الأديان من جهة، وبينهم وبين غير المتدينين من جهة أخرى الكلمة العليا في تحديد الغايات المشتركة وتحديد وسائل تحقيقها. إن انعدام المجال العام الديمقراطي الذي يتسع للجميع بوصفهم مكونات في إطار تعددي سبب من أسباب هيمنة خطاب أحادي لا يقبل الترجمة إلى خطاب عام، وهو الخطاب العام الذي لا يفتقر إلى أساسه الديني بما يعنيه من احتفاظه بإمكاناته الحيوية القادمة من التقاليد الدينية، ولا يعجز في الوقت نفسه عن الوصول إلى الآخرين المختلفين كما يدعو هابرماس.⁽⁸⁵⁾

2. ما ذكره الباحث في المقدمة عن خلل في المنظومة المقاصدية التراثية كامن في حط الأخلاق إلى مرتبة لا تليق بها لم يكن منبت الصلة بموضوع البحث كما يمكن أن يظن للوهلة الأولى، فليس صحيحاً كفاية تفسير ظهور التطرف بمؤامرة حاكتها قوى ذات مصالح، كما أنه ليس كافياً تفسير نفوق هذه السوق الظاهرية في التعامل مع الأحكام الشرعية بجهل منظرها بالمقاصد، ولا بغفلتهم عن ضرورة جدل الجزئيات في نسيج كلي ينظمها نظاماً يتوخى المصلحة.

أما ما يخص قصور فرضية المؤامرة، فقد أتينا على ذكره في متن البحث، وأما القصور في المنظومة المقاصدية، فقد أشرنا إشارة خاطفة إلى عوارها الأساس القائم على دفع الأخلاق إلى أدنى السلم التفاضلي للمصالح. ويرى الباحث أن الفضاء الذي تسوده منظومة مقاصدية تعاني هذا الخلل جدير بتقبل فكر متطرف يضرب صفحاً عن الأخلاق ويستبدل بالنطاق المركزي الذي تمثله نطاقاً مركزياً آخر هو الدولة.

وهو قصور في المنظومة يجعل الفروق بين تيارات الإسلام السياسي معتدلاً ومتطرفاً فروقاً لا

(85) انظر: يورغن هابرماس وآخرون، قوة الدين في المجال العام، فلاح رحيم (مترجماً)، (بغداد: دار التنوير للطباعة والنشر، 2013)، ص 27.

تطال الجوهر - في رأي الباحث - فما دامت المصالح الحيوية واقعة في رأس سلم المصالح وما دامت المصالح الروحية واقعة في أدناها، وما يحمله هذا من قابلية حرف النطاق المركزي في الإسلام من الأخلاق إلى الدولة، فإن إمكان إفراز اللون المعتدل للتطرف يظل قائماً.

مهما ضوّلت نسبة تأثير تنظيم داعش الفكري في المناطق التي هيمن عليها، فإن تأثيره واقع لا يمكن نكرانه، وهو تأثير نجزم بأن من علله فوات هذه المنظومة المقاصدية التي ما لم يجر تجديدها تجديداً يجعل الأخلاق مركزها، ولا يكتفى بلفت النظر إليها بوصفها إطاراً ناظماً للأحكام الجزئية، فإن استخدامها استخداماً أداتياً من طرف ذوي المشروعات السياسية ممكن بتمحّل أدلة وصياغة مصالح نهائية عامة لا يلقي من يصوغها بالألوان لوسائل تحقيقها.

إن التوصية الأولى بناء على ما سبق هي إعادة النظر في المنظومة المقاصدية وإدراك أنها لا تنفك عن الأخلاق وحجة ارتباطهما قاطعة، فإذا كانت علل الأحكام تستنبط وفق منهجية سببية، فإن المقاصد تستنبط بعلة غائية، ولا يخفى أن الأخلاق هي مملكة الغايات.

لقد تنوعت أشكال التدين في الحالة التي حاول البحث مقارنة أثر تنظيم داعش فيها، ولكن التأخر الذي ذكرناه في بنية المنظومة، والذي يعانيه النمط الصوفي والسلفي وما يسمى بالمعتدل هو قاسم مشترك بينها، وقد تداخلت هذه الأنماط كلها مع سمة عشائرية تصبغ عموم المنطقة على تفاوت كمي لا نوعي بين منطقة وأخرى.

ولعل ما عرضناه من استقطاب بين النصر وتظيم داعش محمول في جزء مهم منه على استقطاب عشائري ما يصلح دليلاً على ما نقول، ولأجل هذا فإن تجاوزاً جديلاً للمنظومة الفكرية الفاتنة بقطيعة معرفية لا تنكر لما يمكن استثماره منها مع إغنائها بما يجعلها متضمنة لفكر مقاصدي مشتق من واقع المجتمع ومصالحه الراهنة، وتجاوزاً جلياً للبنية العشائرية عبر تحويل حقيقي لنمط الاقتصادي الريعي إلى اقتصاد إنتاجي كفيّل بتفتيق الوعي بالفردية والحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نقول إن هذين التجاوزين الجدليين يقعان في رأس أولويات العمل المطلوب لبناء سدود تحول دون تسلل الفكر المتطرف ودون تمكين مسوخته من العبث بالمنطقة وأهلها، والتهديد بمسح قيمهم بله سفك دمائهم.

3. تعاني منطقة شرق سورية إهمالاً طالما عانت في عهود الاستبداد، وقد كان النظام الأسد قد همّشها وحرّم أبناءها من ثروات مناطقهم ودفع بكثيرين منهم إلى الضرب في الأرض بحثاً عن مستقبل لم يكن ممكناً بناؤه في بلدهم. وقد تحولت تلك المنطقة بعد اندلاع الثورة

إلى مرتع خصب لكل طامع وامتدت الأيدي من جهات شتى للعبث بها، وكان تنظيم داعش حلقة في سلسلة طويلة، وما زال بعد انهيار دولته ذا حضور في المنطقة.

ولكن قوة الأمر الواقع التي خلفت تنظيم داعش في قسم من المنطقة والنظام الذي استعاد سيطرته على قسم آخر مع التغلغل الإيراني الكبير بتجلياته المختلفة تسهم كلها في تعميق مشكلات أبناء المنطقة وتضعهم أمام بدائل لا يختلف بعضها من بعض إلا بتفاوتها في درجة السوء. وقد سبق أن ذكرنا في البحث أن المقارنات باتت تعقد بين تنظيم داعش وقسد النظام؛ أي بين ثلاثة كيانات مستبدة، وصار البحث قائمًا عن الأقل سوءًا.

إن التغلغل الشيعي يعمق ما يسمى بالأزمة السنية التي نوافق غيرنا في أنها سبب رئيس من أسباب ظهور تنظيم داعش، كما أن هيمنة قوات الأمر الواقع الكردية على منطقة قبلية تأنف من سيطرة غير العربي، خصوصًا وهو يحاول التدخل فيما يعد خطوطًا حمراء كشؤون النساء، كما يحاول فرض فكر غريب عن المزاج السائد قد يحرض على نتائج لا تحمد عقباها؛ إذ قد يذهب الناس بعيدًا في الانغلاق على بناهم الضيقة وقد يندفعون في تطرف مقابل.

كما أن عودة النظام فاقد السيادة والذي لم يبق منه إلا تماسك عصبي بدعم حلفائه لا يمثل إلا بديلاً من البدائل السيئة التي لا يمكن لها أن تؤسس لمستقبل ينتشل المنطقة وأبناءها من التطرفين الديني والقومي المتريصين بها.

تحتاج تلك المنطقة لكيلا تتحول إلى حاضن للتطرف إلى إرادة حقيقية من الفاعلين الحقيقيين، إرادة لمنح أبنائها حقوقهم الكاملة من سياسية واقتصادية واجتماعية، وإخراج كل قوة لا تنتمي إليهم، والشروع في إعادة إعمار حقيقية تؤسس لمسيرة تنمية حقيقية تضع لبنات لاقتصاد إنتاجي كفيل بتخلق فرد حر مستقل تنسج علاقته مع عشيرته مفهومات مغايرة لمفهومات الذوبان في تلك البنية بقصد الاستقواء أو الاحتماء من الأقوى.

4. إن ما خلفه تنظيم داعش من آثار عرضنا بعضها يمكن فرزها، ومعالجة كل منها معالجة منفصلة بعد نشر فكر معتدل، وهو فكر لا يعدم جذوره في تلك المنطقة، وهو قادر على محو أي أثر فكري لتنظيم داعش؛ لأن أثرًا فكريًا كبيرًا لتنظيم داعش ليس موجودًا أصلًا في رأي الباحث. ولكن هذا مشروط بوضع استراتيجية حقيقية للقضاء على خلايا تنظيم داعش، ونظن أن القوى الدولية والإقليمية قادرة على تحقيق جزء كبير من هذا الهدف إذا أرادت فعل ذلك.

5. إن الجيل الذي نبه البحث إلى خطر تنشئته على فكر تنظيم داعش في مثال مخيم الهول مشكلة لا تتحمل رفاهية المعالجة المسترخية، وينبغي على الدول والهيئات أن تبدأ في معالجتها منذ اللحظة بتخطيط جدران هذا السجن الذي يسمى مخيمًا، واستعادة الدول مواطنيها، وتطوير برامج تعنى بتنشئة الجيل الجديد على مفهومات إنسانية تنتشله من براثن الفكر المتطرف.

6. ومن المهم الإشارة إلى أن سبر أثر تنظيم داعش في المنطقة يحتاج إلى أبحاث ميدانية تضطلع بها مؤسسات؛ لأن التفاصيل من الكثرة والتعقيد بحيث يستحيل أن يحيط بها باحث فرد.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. أبو رمان. محمد وآخرون، دولة ما بعد الخلافة: الأيديولوجيا، الدعاية، التنظيم والجهاد العالمي، هل سيعود تنظيم داعش من جديد؟ (عمان: فريدريش إيبيرت، 2021).
2. أبو هنية. حسن، ومحمد أبو رمان، تنظيم الدولة الإسلامية، الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية، (عمان: مؤسسة فريدريش إيبيرت، 2015).
3. الشاطبي. أبو اسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004).
4. الصفدي. صلاح الدين، الوافي بالوفيات، (فيسبادن: فرانز شتاينر، 1974).
5. المجاهد. محمد سعيد، الأحوال الشخصية، المقارن بين مذهبي الحنفية والشافعية، (ماليزيا: كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، 2016).
6. خليفة. نبيل، استهداف اهل السنة، من يتزعم العالم العربي- الإسلامي: السعودية أم إيران؟ المخطط الاستراتيجي للغرب وإسرائيل وإيران للسيطرة على الشرق الأوسط واقتلاع النفوذ السني منه، (لبنان: مركز بيبيلوس للدراسات، 2014).
7. عبد الرحمن. طه، في تجديد المنهج في تقويم التراث، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2007).
8. علوش. محمد، تنظيم داعش وأخواتها، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2015).
9. قطب. سيد، معالم في الطريق، ط11، (القاهرة: دار الشروق، 1987).
10. هابرماس. يورغن وآخرون، قوة الدين في المجال العام، فلاح رحيم (مترجمًا)، (بغداد: دار التنوير للطباعة والنشر، 2013).

بلغة أجنبية

1. Al-Baalbaky. Rudayna, Ahmad Mhidi, TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, (Beirut: Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, 2018).
2. Cafarella. Jennifer & Brandon Wallace and Jason Zhou, ISIS'S SECOND COME-BACK, ASSESSING THE NEXT ISIS INSURGENCY, (Washington: Institute for the study of war, 2019).



المخفون قسراً على يد تنظيم (داعش): التغيب المضاعف

خليل الحاج صالح⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

لازمت ظاهرة الإخفاء القسري الثورات والتحولت السياسية الكبرى معظمها، لكنها ارتبطت بشدة بممارسات الأنظمة الاستبدادية من الأنماط كافة، إلا أن إخفاء أشخاص عبر خطفهم أو اعتقالهم من دون تقديم معلومات عن مصائرهم بغرض إزاحتهم من ساحة العمل العام أو تصفيتهم ليس حكراً على الدول، ذلك أن أطرافاً دون دولتية مارست هذه السياسية في مناطق سيطرتها وتمارسها.

في سورية، يُدير النظام السوري سياسة إخفاء قسري للتخلص من معارضييه السياسيين؛ هذه السياسة رافقت قيام نظام الأسد الأب والابن منذ عام 1970. إلا أن تصاعدها منذ انطلاق الثورة في 2011 كشف عن صناعة متكاملة للإخفاء القسري هي الأوسع نطاقاً والأبعد أثراً في المجتمع السوري في تاريخه الحديث، تديرها أجهزة أمن النظام والمليشيات الملحققة به. بموازاة ذلك مارست أطراف ظهرت في سياق النزاع اللاحق على قيام الثورة سياسة إخفاء قسراً بحق معارضين لها وبدوافع شبيهة بتلك التي لدى النظام. بطبيعة الحال، فإن نتائج سياسات هذه الأطراف في الإخفاء القسري لا تقل خطراً على مستقبل السوريين ومستقبل الحل السياسي واستدامة السلام في البلاد لاحقاً عما مارسه النظام، وإن لم تصل من حيث اتساعها وشدتها موصلاً صناعة الإخفاء قسراً.

تُشير تقديرات متداولة اليوم إلى أن أكثر من 100.000 سوري أُخفوا قسراً منذ ربيع عام 2011. النظام السوري وحده مسؤول عن إخفاء حوالي 85 بالمئة من هؤلاء، بينما تتوزع مسؤولية إخفاء 15 بالمئة ببقية أطراف النزاع: تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، وفصائل الجيش الوطني، وقوات سوريا الديمقراطية (قسد) وهيئة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقاً). إلا أن للإخفاء القسري على يد تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) في سورية طبيعته الخاصة. فقد استمر إخفاء المختطفين والمعتقلين إلى أن انهارت البنية المركزية للتنظيم، وآلت مناطق سيطرته ومعتقلاته

(1) كاتب وباحث سوري، عضو تحالف أسر الأشخاص المختطفين لدى تنظيم الدولة الإسلامية داعش (مسار).

ومقراته إلى الأطراف الأخرى. هذه الحقيقة تُشكّل جوهر الإشكال الذي يواجه ملف هؤلاء المخفيين وأُسْرهم. فإذا رجح كون قوى الصراع القائمة حالياً أطرافاً مُرشحة للمشاركة في الحال السياسي المحتمل، فليس لأي منها مصلحة سياسية في السعي إلى كشف مصائر المخفيين سواء كانوا أحياء أم أمواتاً، وهذه الأطراف عينها تتشارك المسؤولية عن الأغلبية العظمى من حالات الإخفاء القسري الأخرى في سورية خلال العقد الماضي. تالياً، فإن المختطفين والمفقودين على يد تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) يُخضعون لتغييب مُضاعف سواء بإرادة سياسية من الأطراف الوارثة للتنظيم أم عن قصور وسوء تدبير.

ثانياً: إشكالية الدراسة وأهميتها

تُركز هذه الدراسة على تبين ملامح ملف الإخفاء القسري خلال السنوات الأخيرة في سورية عبر منظورات ومستويات متداخلة ومتشابكة تشمل الحقوق والقانوني والسياسي. وتستهل التفكير في إمكان بقاء ملف الإخفاء القسري مسكوتاً عنه أو مغيباً لدى الأطراف التي يُحتمل أن تُشارك في صوغ (الحل السياسي) في سورية. عملياً، هذه الدراسة تبني إشكاليته الرئيسة حول ما إذا كانت تعقيدات الصراع في السياق السوري ستؤدي إلى احتمال أن تُغبن حقوق المنتهكين مرة أخرى من جانب المنتهكين، وما إن كان ثمة احتمالات أخرى تُنقذ ملف المفقودين في سورية جملة من تغييب إضافي، ومن ضمنهم المخفون قسراً على يد تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام داعش).

لهذه الغاية فإن سير الدراسة يستهدف التعريف بالأطر القانونية الدولية بوصفها إطاراً ناظماً للمحاكمة والتفكير في هذا النوع من الملفات؛ وفي السياق ذاته يُعرج على القوانين السورية ذات الصلة بالفقدان والغياب موضحاً قصورها عن معالجة ظاهرة بهذا الحجم، حتى إن توفرت إرادة سياسية في المستقبل لتناول هذا الملف. وتُسمي الدراسة أيضاً أبرز المنتهكين في الساحة السورية خلال العقد الأخير في ما يخص المسؤولية عن الإخفاء القسري. وتركز في هذا المضمّن على سيرونة تكون سياسة الإخفاء القسري على يد تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام/ داعش) في محاولة لإظهار طبيعته الخاصة وتعرضه لمساعي طمس إضافية من قبل ورثة السيطرة على مناطق سيطرة التنظيم السابقة، قوات سوريا الديمقراطية. في هذا السياق توضح مخاطر مسارعة دول متدخلة في الشأن السوري إلى دعم إجراءات ما بعد الصراع عبر تمويلات أعمال نبش غير مهنية وغير محايدة لمقابر جماعية في الرقة، على الرغم مما يمكن أن تسببه هذه الإجراءات من خلق أسباب جديدة للصراع في المستقبل. تُجيب هذه الدراسة أخيراً عن سؤال (ما الملجأ الأخير لملف المخفيين قسراً في

سورية؟)، لتوضح دور روابط الناجين وأسر الضحايا في خلق مسار لمعالجة ملف الإخفاء القسري في سورية عبر العمل مع مؤسسات الأمم المتحدة وهيئاتها تلافياً لطمسه وتغييبه وسعيًا إلى تحويله من ملف إلى قضية.

تكمن أهمية هذه الدراسة في محاولتها النظر في موضوع الإخفاء القسري في سورية عبر منظور يجمع ما بين التاريخ لجوانب منه ومعاينتها في ضوء القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان والمعطيات السياسية في السياق السوري. وهي بهذا محاولة مبكرة لجمع شتات هذا الملف بينما ما يزال الصراع متواصلًا. وتنال الدراسة جزءًا من أهميتها من لفتها الأنظار إلى احتمالات أن يطغى السياسي على الحقوقي فتتكرر ظاهرة الإخفاء القسري من دون معالجة أو محاسبة فيتكرر إفلات المنتهكين من العقاب مرة أخرى خلال نصف قرن.

ثالثًا: الإخفاء القسري؛ التعريف والنصوص الدولية الأساسية

يُعرّف الإخفاء⁽²⁾ القسري في المادة الثانية من ((الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الإخفاء القسري))⁽³⁾ بأنه ((الاعتقال أو الاحتجاز أو الاختطاف أو أي شكل من أشكال الحرمان من الحرية يتم على أيدي موظفي الدولة أو أشخاص أو مجموعات من الأفراد يتصرفون بإذن الدولة أو بموافقتها، ويعقبه رفض الاعتراف بحرمان الشخص من حريته أو إخفاء مصير الشخص المخفي أو مكان وجوده، مما يحرمه من حماية القانون))⁽⁴⁾.

ولئن كانت الاتفاقيات تُعقد بين الدول، فإن الدول ليست الفاعل الوحيد في ما يخص المسؤولية عن إخفاء الأفراد بالقوة، هذا يصدق بوجه خاص في أزمنة النزاعات وتحلل سلطة الدولة وتفتت إرادتها الكلية. ولهذا فإن المادة الثالثة من هذه الاتفاقية تشمل أطرافًا دون الدولة يُحتمل أن تُخفي أشخاصًا قسرًا، لكنها تنص على مسؤولية الدولة عن التحقيق ومحاكمة المجموعات أو الأفراد المتورطين: ((تتخذ كل دولة طرف التدابير الملائمة للتحقيق في التصرفات المحددة في المادة الثانية

(2) سنستخدم عبارة (إخفاء قسري) بدلاً من المصطلح الشائع (اختفاء قسري) الدارج في الأدبيات معظمها ذات الصلة، اتساقاً مع منطق اللغة العربية في كل موضع من هذا البحث. فما دامت علة اختفاء الشخص خارجه، أي، إذا لم يخنف بإرادته، فالأصوب أن نقول (مخفياً).

(3) لم توقع سورية على هذه الاتفاقية حتى اليوم.

(4) مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان-اللجنة المعنية بحالات الإخفاء القسري.

[مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان | الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري \(ohchr.org\)](https://www.ohchr.org/)

التي يقوم بها أشخاص أو مجموعات من الأفراد يتصرفون دون إذن أو دعم أو موافقة من الدولة، ولتقديم المسؤولين إلى المحاكمة⁽⁵⁾.

تاليًا، فإن إشارة التعريف إلى الدولة والمجموعات والأشخاص المرتبطين بها لا يعفي المجموعات المسلحة غير الدوليّة من مسؤولياتها القانونية، فالبرتوكول الإضافي الثاني الملحق باتفاقية جنيف 1949 الصادر في 1977 يرتب المسؤولية، وفق منطق القانون الدولي الإنساني، باستخدام معايير بعينها. بعبارة أخرى، هذه المعايير هي ما يجعل طرفًا ما مسؤولًا حين لا يكون دولة ((مسلمة ومنظمة، وتحت قيادة مسؤولة، وتمارس سيطرة على جزء من الأراضي، وتقوم بأعمال عسكرية متواصلة (ومُنسقة)). ويمكن استخدام عبارة (إخفاء قسري) عندما يمارس هؤلاء الفاعلون غير الدولتين ((بشكل متكرر الإخفاء بشكل منهجي أو على نطاق واسع يبلغ مستوى الجرائم ضد الإنسانية⁽⁶⁾.

في السياق السوري، تنطبق المسؤولية عن انتهاكات حقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي كلها على أطراف الصراع كافة، إذا استثنينا العامل الثقافي الذي يميز الجماعات الجهادية وعلاقتها بالقانون الدولي وحقوق الإنسان وتضمناتهما. لكن بما أن المسؤولية عن أفعال محددة هي مسؤولية فردية قانونًا، فإن ملاحقة المسؤولين عن الانتهاكات تبقى ممكنة حتى في حال لم تتول الدولة المعنية مسؤولياتها في الملاحقة القانونية، كما في عدم إقرار التنظيم أو التشكيل المعني بمرجعية نصوص القانون الإنساني الدولي والقانون الدولي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية ذات الصلة وحتى في حال تفككت سلطة التنظيم أو التشكيل المركزية وفقد السيطرة على الأرض كما في حالة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). ثم إن ارتباط أطراف النزاع معظمها في سورية بدول متدخلة في الشأن السوري الداخلي، وتاليًا تشابك المسؤوليات عن الانتهاكات الواقعة بحق سوريين، كما في حال النظام السوري وقوات سوريا الديمقراطية (قسد)، يمكن أن يعطل احتمالات المساءلة والمحاسبة لاحقًا. بيد أن هذا الواقع لا يُلغي ولا يُصادر حقوق الأفراد في مطلبين، الحقيقة: ماذا ولماذا ومن وكيف ومتى وأين؟، والعدالة: المساءلة والمحاسبة والمعاقبة وحفظ السردية، ما لم يتنازلوا هم عن هذه الحقوق.

((اتفاقية حماية جميع الأشخاص من الإخفاء القسري)) تتأسس على مفهوم ((الحق في معرفة الحقيقة))، سواء كان حقًا لفرد أم لجماعة، وغالبًا ما تكون هذه الأخيرة هي أسرة المخفي. هذا الحق يعني، في هذا السياق، معرفة ما حدث ولماذا وكيف ومن المسؤول. وهو مفتاح الوصول إلى العدالة

(5) المصدر السابق.

(6) SARKIN, Jeremy Julian, The Conflict in Syria and the Failure of International Law to Protect People Globally: Mass Atrocities, Enforced Disappearances and Arbitrary Detentions, Routledge, London and New York, 2022, p.82.

المتمثلة في مساءلة مرتكبي الانتهاكات ومحاسبتهم. ظهر هذا المفهوم للمرة الأولى في أثناء انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة 1977. والحق في معرفة الحقيقة ينسب بدوره على ((الحاجة إلى معرفة مصير الأحبة المخفيين))⁽⁷⁾ التي أقرت هي الأخرى بوصفها ((حاجة إنسانية أساسية)) من الجمعية نفسها عام 1974. تاليًا، فإن الاعتراف بالحاجة إلى معرفة الحقيقة هو ما أوصل إلى تأطير هذا الحق في اتفاقية بين الدول.

أما آخر النصوص القانونية الدولية ذات الصلة بقضايا الإخفاء القسري فهو قرار مجلس الأمن الدولي رقم 2472 الذي صدر عام 2019. ((تهيب)) المادة الثانية من هذا القرار ((بأطراف النزاعات المسلحة اتخاذ جميع التدابير المناسبة للبحث بنشاط عن الأشخاص المبلغ عن فقدانهم، والتمكين من إعادة رفاتهم، ومعرفة مصير الأشخاص المبلغ عن فقدانهم دون تمييز سلبي، وإنشاء قنوات مناسبة تتيح الاستجابة والتواصل مع الأسر في عملية البحث، والنظر في توفير معلومات بشأن الخدمات المتاحة في ما يتعلق بالصعوبات والاحتياجات الإدارية والقانونية والاقتصادية والنفسية الاجتماعية التي قد يواجهونها نتيجة لفقد أحد الأقارب، بوسائل منها التفاعل مع المنظمات والمؤسسات الوطنية والدولية المختصة)). وتخطب المادة الثالثة من القرار نفسه ((أطراف النزاعات المسلحة أن يتخذوا وفقا لالتزاماتهم الدولية التدابير المناسبة لمنع فقد الأشخاص نتيجة للنزاعات المسلحة، من خلال تيسير لم شمل الأسر المشتتة نتيجة النزاعات المسلحة والسماح بتبادل الأخبار العائلية))⁽⁸⁾.

مجموعة النصوص المذكورة هذه تُشكّل الإطار النظري المرجعي القانوني والحقوقى للعمل على ظاهرة الإخفاء القسري بمعايير كونية. وتوفر مجموعة المفهومات التي تنبني عليها أي آليات أو أدوات تساعد في الكشف عن مصائر المخفيين قسرًا في سياقات مخصصة وجزئية.

(7) Editorial , la magazine semestriel de la fédération euro-méditerranéenne contre les disparitions forcées, devoir de vérité,)septembre 2018(, p. 5.

(8) الأمم المتحدة: مجلس الأمن. [الأمم المتحدة - مجلس الأمن | \(un.org\)](https://www.un.org/)
القرارات التي اعتمدها مجلس الأمن في عام 2019 [القرارات التي اعتمدها مجلس الأمن في عام 2019 | الأمم المتحدة - مجلس الأمن \(un.org\)](https://www.un.org/)

رابعاً: السياق السوري

1. الإخفاء القسري في سورية

لازمت ظاهرة الإخفاء القسري إعلان العمل بحالة الطوارئ في البلاد منذ عام 1963. فكان نظام حكم الحزب الواحد الذي كرسه انقلاب 1963 المسؤول الأول والأكبر عن أعمال الإخفاء القسري طوال ما يقارب ستين سنة سابقة. إلا أن شدة الظاهرة واتساعها وتكرارها ارتبطت بقوة بعهدي الأسدين الأب والابن منذ عام 1970. إذ يبدو أن انقلاب الأسد الأب نجح في استثمار وتوظيف خليط المزايا التي وفرها نظام الحزب الواحد ونظام حكم الطغمة العسكرية الحاكم في حينه إلى تلك التي يقدمها نظام الحكم الفردي والبعدين الطائفي والعشائري في خلق دوائر مغلقة تتحكم الأضيق فيها بالأوسع بكفاءة واضحة. تتبدى فعالية هذه الدوائر، بوجه خاص، في وفرة الأجهزة الأمنية والعسكرية شبه الرسمية وأدوارها. كما تظهر في تحويل عدد من مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني إلى أجهزة ضبط ومراقبة ومعاينة رديفة. إذ لا يُعرف تسلسل هرمي للقيادة يربط سرايا الدفاع بوزارة الدفاع في ثمانينيات القرن الماضي، كما يُحاجج بعضهم في عدم دستورية ما يُسمى بالمخابرات الجوية) والأمن العسكري)، إضافة إلى أجهزة قضائية استثنائية مثل (محاكم الميدان) و(محكمة أمن الدولة)، السلف المباشر (لمحكمة الإرهاب) المعمول بها حالياً. هذه الأجهزة جميعاً مارست الاعتقال وإعادة الاعتقال والإخفاء القسري والتعذيب والقتل تحت التعذيب قبل عام 2011 وبعده.

اعتمد نظام الأسد على الاعتقال السياسي طوال سني حكمهما بوصفه آلية نشطة ودائمة في إزالة أشكال الاعتراض كلها بغض النظر عن طبيعة هذا الاعتراض ودوافعه. ولنظام الاعتقال هذا طبيعته الفريدة؛ إذ ينبي ويستمد سطوته من حالة استثناء مُستدامة. استثناء النظام نفسه من كل مسلك دولتي واستثناء معارضيهِ من أي حقوق أو ضمانات بما فيها تلك المنصوص عليها في الدساتير السورية، إذ يلجأ القضاء عادة إلى تكييف التهم كي تتناسب مع نصوص مواد قانون العقوبات التي تُسهل إصدار الأحكام في حال وصل المُعتقل إلى القضاء. في سورية، وخلال مواجهات ثمانينيات القرن العشرين كما في أثناء ثورة عام 2011 وتداعياتها، كان كل اعتقال، من حيث المبدأ، مقدمة لإخفاء قسري. ووراء كل إخفاء قسري عمد الإبادة السياسية للمعارضين أفراداً أو تنظيمات، والشواهد المؤثقة المكتوبة والمصورة أكثر من أن تُحصى، لا سيما تلك التي تراكمت بعد ثورة عام 2011 وتداعياتها.

على صعيد القانون الدولي، جابه نظام الأسد الابن كل محاولة لتصنيف (النزاع في سورية) (نزاعاً مسلحاً غير دولي). وهو بذلك يتسق شكلاً مع متطلبات القانون الدولي الذي يتحول في هذه الحالة إلى غطاء لتطبيق (مبدأ السيادة) بوصفه نظاماً سياسياً يحكم دولة سيدة تُحارب (عصابات مسلحة) و(إمارات سلفية) و(إرهابيين) و(مندسين) و(جراثيم)، بحسب اللغة التي استخدمها رأس النظام السوري بعد عام 2011؛ ويصب ذلك في سياق كسب نوع من شرعية الأمر الواقع تجاه القوى الدولية، الأمر الذي تحقق بوجه خاص بعد تبلور ملامح الحالة الجهادية في سورية بعد عام 2013.

ظاهرة الإخفاء القسري في سورية بعد عام 2011 فريدة بين مثيلاتها في تاريخ النزاعات الداخلية من حيث اتساعها وتنوع ضحاياها ومُسببها وأسبابها كما من حيث شدتها واتساع نطاقها الجغرافي. إذ إن مسالك السوريين نحو الشتات شهدت أيضاً فقد آلاف ممن لا تُعرف مصائرهم اليوم. ويُرجح أن يواجه المجتمع السوري عقابيل الإخفاء القسري في المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية لأجيال قادمة حتى في حال توفرت الإرادة والموارد والأدوات اللازمة لمعالجة كل ما يتصل به من مشكلات.

2. المنتهكون في السياق السوري

لا تتوافر إحصاءات رسمية لأعداد المعتقلين والمخفيين في سورية ((نتيجة مسعى ملموس من النظام لإغلاق منافذ الوصول إلى مراكز الاحتجاز))⁽⁹⁾. لكن قاعدة بيانات الشبكة السورية لحقوق الإنسان تُشير إلى أن 102287 شخصاً في عداد المخفيين قسراً في سورية. هذا العدد، بحسب الشبكة، يغطي المدة الفاصلة بين آذار/ مارس 2011 وآب/ أغسطس 2021، ويشمل المخفيين قسراً لدى أطراف النزاع وقوى الأمر الواقع كلهم على التراب السوري. وتُفصل الشبكة أرقامها كالاتي:

أ. النظام السوري الذي يُخفي قسراً 86.792 شخصاً، منهم 4986 امرأة و1738 طفلاً؛ ويُشكّل مجموع المغيبين على يد نظام الأسد ما نسبته 84,85 بالمئة من إجمالي المخفيين قسراً في سورية بين التاريخين المذكورين.

ب. في المرتبة الثانية، بعد النظام السوري، يأتي تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) المسؤول عن الإخفاء القسري لـ 8648 شخصاً، بينهم 255 امرأة و319 طفلاً؛ وهؤلاء يشكّلون ما نسبته 8,45 بالمئة من مجمل حصيلة المخفيين قسراً في سورية في المدة نفسها.

(9) SARKIN, Ibid, p.73.

- ج. تلي تنظيم داعش فصائل الجيش الوطني المسؤولة عن تغييب 2567 شخصاً، بينهم 446 امرأة و237 طفلاً؛ أي إن هذه الفصائل مسؤولة عن تغييب ما نسبته 2,51 من مجمل أعداد المخفيين قسراً في سورية في المدة عينها.
- د. تلي فصائل الجيش الوطني في حجم المسؤولية عن الإخفاء القسري قوات سوريا الديمقراطية (قسد) التي تُخفي قسراً 2216 شخصاً، بينهم 86 امرأة و98 طفلاً؛ وتُشكل نسبة من غيبتهم هذه القوات 2,17 بالمئة من مجمل ظاهرة الإخفاء القسري في سورية في المدة المدروسة.
- هـ. وأخيراً تُظهر قاعدة بيانات الشبكة هذه مسؤولية هيئة تحرير الشام، جبهة النصرة سابقاً، عن إخفاء 2064 شخصاً قسراً، بين هؤلاء 28 امرأة و13 طفلاً؛ وتالياً فإن مسؤولية هذه الهيئة تغطي ما نسبته 2,02 بالمئة من إجمالي حصيلة المخفيين قسراً في سورية خلال المدة المذكورة نفسها.

لكن ثمة عوامل عدة تدعو إلى الحذر من اعتماد هذه الأرقام من دون نقدها، على الرغم من عدم وجود مصادر بديلة لتقدير حجم ظاهرة الإخفاء القسري في سورية. بطبيعة الحال، لا ينصب الحذر النقدي على أرقام الشبكة السورية لحقوق الإنسان وحدها، بل يطال أي محاولة لتقديم بيانات دقيقة في الحالة السورية بعد عام 2011. فبينما اتسم العامان الأولان من الثورة في سورية بطابع المواجهة بين النظام وقطاعات واسعة من الشعب السوري، اتخذ النزاع في البلاد بشكل متدرج، بعد عام 2013 على الأقل وخروج النزاع عن إطاره الوطني وبدء التدخلات الخارجية المباشرة، صورة حرب بالوكالة متشابكة بعناصر من حروب الجيل الرابع؛ ومن سمات هذا النوع من النزاعات انمحاء الفوارق الجوهرية بين المدنيين والمقاتلين المسلحين بالنسبة إلى أطراف النزاع. هذه الأطراف معظمها أنزلت عقوبات جماعية من دون تمييز بالبيئات الاجتماعية لطرف أو أطراف أخرى، مثل التهجير والاعتقال والقتل والإخفاء القسري ومصادرة الممتلكات.

وكانت موجات التهجير والنزوح مع كل تغير حدث في السيطرة على الأرض خلال السنوات الماضية عاملاً إضافياً في تفتيت المجتمعات المحلية، وتالياً في مصائر آلاف ممن غادروا مناطق سكنهم الأساسية وممن فقدوا في أثناء رحلات الفرار. فلا تُعرف حتى اليوم مصائر من اختطفهم تنظيم (داعش) أو ممن كانوا في سجنونه عشية انهياره، وتلاشي سيطرته على مناطق واسعة في سورية بين عامي 2013 و2019.

ثمة أيضاً الدور الذي تلعبه الثقافة السياسية لأطراف النزاع في سورية. فأطراف الصراع المسلح الأساسية، المعتمدة حالياً من قوى إقليمية أو دولية، تبني دعاواها على دوافع دينية أو قومية أو طائفية، مضمرة كانت أم صريحة. يُضاف أن لبعضها دعاوى قومية أو دينية أبعد من الكيان

السوري القائم ما يزيد حدة الصراع ويحد من التزامها بالقانون الدولي والإنساني وبالقانون الدولي لحقوق الإنسان، كما يحد من مسؤولياتها الأخلاقية والقانونية تجاه المجتمعات المحلية. بموازاة ذلك، يرتبط بهذه النقطة الأخيرة حقيقة أن طرفين، على الأقل، من أطراف النزاع في سورية، النظام السوري وقوات سوريا الديمقراطية، يصوغان جُل دعاوَاهما، ويُشكِّلان خطابيهما ودوريهما وفق سردية (محاربة الإرهاب). وهذا يوفر لهما هوامش واسعة جداً من العمل من دون اعتبار أي معايير قانونية أو حقوقية أو أي رقابة من أطراف ثالثة، بل بكثير من القبول والتساهل من الدول الداعمة.

يُضاف إلى ذلك أن المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة أوقفت، في مطلع عام 2014، ((محاولات إحصاء قتلى الحرب في سورية... لأن أفراد المفوضية لا يستطيعون الوصول بشكل كافٍ إلى مناطق القتال للحصول على أرقام دقيقة))⁽¹⁰⁾. بطبيعة الحال، توقف المفوضية عن عملها لم يقتصر على تعداد أعمال القتل، بل طال مراقبة الانتهاكات المرتكبة كافة. كما لم يكن اعترافاً بالعجز عن مراقبة انتهاكات النظام وحده، بل إخلاء الساحة أمام النظام وأطراف النزاع الأخرى والاكتفاء بمراقبة المشهد من الخارج. وما تزال قدرة الوكالات والهيئات والمنظمات الأممية والدولية في الوصول إلى مصادر معلومات مستقلة أو إلى أماكن النزاع مقيدة أو منعدمة.

ضعف الرغبة في الوصول إلى المناطق المشتعلة أو القلقة في سورية أو غيابها ينطبق بالأحرى على منظمات المجتمع المدني السورية المعنية بالقضايا الحقوقية، سواء تلك المستقلة والمهنية منها أم تلك المنشأة كواجهات مدنية لجهات سياسية أو قوى أمر واقع. معظم هذه المنظمات مُرخّص في الخارج أيضاً ما يجعله رهن الأجندات، المُعلنة أو المُضمرة، للممولين؛ وهذه الأخيرة مبنية على اعتبارات سياسية تخص المانحين والأطراف المحلية المرتبطة بهم، لمعظم الدول المانحة انخراط مباشر في مجريات الصراع في سورية ولعدد منها حضور عسكري مباشر. تاليًا، فإن المآزق الحاصل في عمل هذه المنظمات هو أن تعمل عن قرب، لكن من دون أن توثق لقوة الأمر الواقع المسيطرة في منطقة عملها، أو أن تعمل عن بعد وتوثق انتهاكات هذه القوة لكن مع فقدان أعمال التوثيق جزءًا على الأقل من موثوقيتها.

بإيجاز، في ظل تورط أطراف النزاع كلهم في سورية في انتهاكات، من ضمنها الإخفاء القسري، وغياب الوكالات الأممية والمؤسسات الدولية المستقلة والمحايدة، وغياب منظمات مجتمع مدني محلي مستقلة ومهنية وموضوعية تعمل وترصد عن قرب، ستبقى أعداد المخفيين قسراً في سورية غير مؤكدة ولا دقيقة وستبقى خاضعة لإعادة النظر. ولا يُتوقع أن يحصل توافق بين أطراف النزاع وقوى الأمر الواقع القائمة حالياً، بما فيها النظام، للعمل على ملف المخفيين قسراً بغية كشف مصائرهم

(10) العربية نت، [توقف الأمم المتحدة عن تحديث إحصائيات القتلى بسوريا](http://alarabiya.net) (alarabiya.net)

وتحقيق العدالة لهم ولأسرهم.

3. المفقودون في القوانين السورية

ينص القانون المدني السوري رقم 48 للعام 1949 في المادة 34 على ما يأتي: ((يسري في شأن المفقود والغائب الأحكامُ المقررة في قوانين خاصة؛ فإن لم توجد فأحكام الشريعة الإسلامية)). ويورد قانون الأحوال الشخصية السوري رقم 59 للعام 1959 تعريف المفقود بأنه: ((كل شخص لا تُعرف حياته أو مماته أو تكون حياته مُحَقَّقة، ولكنه لا يُعرف له مكان)). ويُضيف هذا القانون نفسه: ((يُحكم بموت المفقود بسبب العمليات الحربية أو الحالات المماثلة المنصوص عليها في القوانين العسكرية النافذة والتي يغلب عليها الهلاك وذلك بعد أربع سنوات من تاريخ فقدانه)). وعاد المرسوم التشريعي رقم 15 للعام 2019 إلى تأكيد مدة السنوات الأربع هذه في المادة الأولى منه: ((يُعد المفقود الذي تحققت واقعة فقدانه اعتباراً من تاريخ 2011/03/15 بسبب الحرب أو العمليات الحربية أو على يد عصابة إرهابية أو عناصر معادية شهيداً بعد أربع سنوات من فقدانه وصدور حكم بوفاته)). ربطاً بما سبق، فإن سورية تفتقر إلى بيئة تشريعية أو مؤسساتية تصلح لمعالجة ملف المخفيين قسراً. فعلاوة على قدمها وتخلّفها عن التغيرات الحادثة في المجتمع السوري وتعقده كما عن التطورات المتسارعة في البيئة التشريعية الدولية، فإن القوانين المتوفرة في التشريعات السورية موزعة بين (قانون الأحوال الشخصية العام) و(القانون المدني). ولا توجد أي هيئة أو مؤسسة تعنى بملفات المفقودين. بل يُحتمل أن تبدأ صعوبات النظر في هذا الملف ومعالجته في المستقبل من التعريفات والدلالات اللغوية. فبينما يُحيل الإخفاء القسري على سياسات -أو على الأقل ممارسات مقصودة وممنهجة- فإن القوانين السورية تُشير إلى (مفقود أو غائب) في سياق معالجة مشكلات الإرث أو الولاية على قاصر أو الزواج أو ترسيم المفقود (شهيداً).

ربطاً بما سبق، فإن سورية تفتقر إلى بيئة تشريعية أو مؤسساتية تصلح لمعالجة ملف بحجم ملف المخفيين قسراً بعد عام 2011. فعلاوة على قدمها وتخلّفها عن التغيرات الحادثة في المجتمع السوري وتعقده، وعن التطورات المتسارعة في البيئة التشريعية الدولية، فإن القوانين المتوفرة في التشريعات السورية موزعة بين (قانون الأحوال الشخصية العام) و(القانون المدني) وُضعت لتغطي حالات فقد أشخاص في أحوال طبيعية وبأعداد محدودة. ولا توجد أي هيئة أو مؤسسة تعنى بملفات المخفيين قسراً. بل يُحتمل أن تبدأ صعوبات النظر في هذا الملف ومعالجته في المستقبل من التعريفات والدلالات اللغوية. فبينما يُحيل الإخفاء القسري إلى سياسات أو ممارسات مقصودة وممنهجة، على

الأقل، فإن القوانين السورية تُشير إلى (مفقود أو غائب) في سياق معالجة مشكلات الإرث أو الولاية على قاصر أو الزواج أو ترسيم المفقود شهيداً.

4. المخفون قسراً على يد (داعش): التغييب المضاعف

لا تتوقف النتائج السلبية المباشرة لظهور تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وصعوده في سورية عند ما لحق بالحراك الشعبي وما حمله من وعود في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية من أضرار سياسية وتشوهات غيّرت طبيعة الصراع في سورية وصورته في الخارج لصالح النظام القائم، بل تعدتها إلى خلق وقائع اجتماعية وقانونية وحقوقية وسياسية يصعب تصور تجاوزها في المدى المنظور. ولعل ملف المخفين قسراً على يد التنظيم واحد من أبرز تبعات سيطرة التنظيم على مناطق في سورية وأكثرها تمثيلاً على طبيعة (داعش) ودوره الموضوعي سياسياً في سورية منذ خرجت بعض مناطق البلاد عن سيطرة نظام الأسد في عام 2013.

أ. المخطوفون لدى (داعش)

قضية المخفين قسراً على يد تنظيم (داعش) تشكلت زمنياً وسياسياً في سياق ما تصطلح أدبيات التنظيم على تسميته مرحلة (التمكين). شملت هذه المرحلة أعمالاً عسكرية وتدابير أمنية واجتماعية. عسكرياً، استهدف التنظيم توسيع رقعة سيطرته الجغرافية خارج مواضع تجمعه وتشكله الأولى؛ فتوسع على حساب ما كان يُسمى وقتئذ بـ(الجيش الحر) كما على حساب فصائل إسلامية أخرى منافسة، بما فيها (جبهة النصرة) التنظيم الحاضن له قبل تمايزهما وتشكلهما تنظيمين مستقلين ومتنافسين. ثم توسع في مناطق ومواقع كان يُسيطر عليها نظام الأسد حينذاك. هذه المناطق تقع في محافظات حلب والرقعة ودير الزور والحسكة وإدلب.

لكن قُبيل بدء حملاته العسكرية خارج مواضع تجمعه الأول في مدينة الرقة، كان تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) قد شَنَّ منذ أيار/ مايو 2013 حملة اغتيالات وخطف ممنهجة لحركيين وناشطين سياسيين وقادة مجموعات داخل المدينة التي كانت تشهد وقتها، ربيع عام 2013 وصيفه، حراكاً سياسياً شبابياً غير مسبوق في تاريخها. هذا الحراك الذي كان قادته ومادته شباب الثورة جرى في حينها بانفصال ظاهر عن المجموعات المقاتلة المسلحة. إذ كانت تعبيرات الثورة تأخذ

في وقتها شكلاً مدنيًا سلميًا وآخر مسلحًا من دون كثير من التفاهم أو التنسيق بينهما، بل بشيء من عدم الثقة والترصد في كثير من الأحيان، من دون حساب موقف المجموعات الجهادية التي كان لها نظرة مختلفة كليًا لهذه القضايا.

ظهر آنذاك 36 تجمعًا شبابيًا، نشأ معظمها بمناسبة خروج النظام من المدينة، هذه التجمعات الشبابية كانت تنشط من دون مران في العمل العام المنظم ومن دون برنامج سياسي واضح. ومع ذلك، تنوع نشاطها بين الإسهام في تقديم الخدمات ومحاولات تنظيم شباب الحراك في أجسام سياسية أو حقوقية. كما كان مجتمع الثورة المحلي في المدينة يعاني انقسام التمثيل بين مجلسين محليين. الأول يُسمى المجلس (المنتخب) شكل في بلدة تل أبيب التي كان النظام قد خرج منها قبل طرده من الرقة بأشهر. أما المجلس الثاني فيُوصف بـ(المُعَيّن)، وهو المجلس الذي شكّل بالتزامن والتعاون مع الائتلاف تلبية في ما يبدو لخلق تمثيل محلي جديد للمدينة يتوافق مع بنية الائتلاف وتوجهاته السياسية.

عمليًا، كان هذا الحراك، إلى جانب عكسه حيوية مجتمع الثورة المحلي وصراعاته، فرصة لانكشاف التجمعات المدنية والسياسية التي تمارس للمرة الأولى عملاً علنيًا منظمًا نوعًا ما، وتصدر خطابًا صريحًا وتعكس انحيازات سياسية واجتماعية واضحة، بعد أن كانت مجموعات سرية تعمل على تنسيق التظاهرات والاحتجاجات وتقديم المساعدات الإغاثية للنازحين في المدينة من بداية الثورة في ربيع عام 2011 حتى خروج النظام منها في ربيع عام 2013.

كان تنظيم (داعش) في هذه المرحلة يقرأ الوضع كقراءته كتابًا مفتوحًا، ولهذا فقد بدأت خلايا تنظيم داعش الأمنية بأعمال خطف وتصفية انتقائية في أوساط ناشطي الحراك بكثير من السهولة. بمنظور راجع، يمكن القول إن لجوء التنظيم إلى هذه الممارسات هي طريقته الخاصة في تسوية الأرضية الاجتماعية السياسية والثقافية من أجل تفرد مشروعه بالتنفيذ والنجاح عبر ممارسات سياسية وأمنية مشابهة. وهذا أسلوب تلجأ إليها الأنظمة الشمولية بعامة من أجل القضاء على ما يعترضها من أشكال المقاومة السياسية أو الاجتماعية. تاليًا، فإن أعمال الخطف والاعتقال في هذا السياق هي أعمال إرهابية تستهدف تحقيق غايات تكتيكية في مسار مشروع التنظيم في حينها. بطبيعة الحال، نتائج هذه الأعمال لم تقتصر على الأفراد المُستهدفين بها ومحيطهم القريب وحسب، بل شملت قطاعات واسعة من المجتمعات المحلية التي فرض التنظيم رؤيته عليها بين عامي 2013 و2019.

كانت مدينة الرقة في ربيع عام 2013 وصيفه أول مخبر يُجمّع التنظيم فيه مناصريه ومنه ينطلق سواء في عملياته العسكرية أم في تنفيذ إجراءاته الأمنية والسياسية والاجتماعية. وإذ استهدف بداية

ناشطين ومسلحين أقرب إلى أن يوصفوا بلغة فضفاضة (علمانيين) مستغلاً أجواء الانقسام بين (بني علمان) و(المجاهدين) بحسب خطابه في تلك المرحلة، فإنه لاحقاً وسَّع دوائر الاستهداف لتتطال بصورة متدرجة كل صور الاحتجاج والاختلاف على أيديولوجيته وممارساته وصولاً إلى معاقبة كل من لا يبايع التنظيم لاحقاً. في المرحلة المذكورة، وإذ استغل التنظيم كثرة المجموعات وتناحرها، فقد استثمر أيضاً في تردد قطاعات لا بأس بها من الممتلكين الذين ظنوا أن ممارسات التنظيم ستُزيح من ساحة العمل السياسي المحلي منافسين لهم في تمثيل المجتمع، ما دام تنظيم داعش لا يريد الأجسام السياسية المُشكلة في وقتها ولا يعترف بها؛ بوجه خاص المجالس المحلية على صعيد تمثيل الوحدات الإدارية والمجلس الوطني ولاحقاً ائتلاف قوى الثورة والمعارضة لتمثيل مجتمع الثورة أمام النظام والمجتمع السياسي الدولي.

عمليات الخطف المترافقة بتهديدات ورسائل صريحة وأخرى مبطنه، منها تسريب مقصود لقائمة اسمية تضمنت أسماء عشرات الناشطين والمعارضين، خلقت أجواء من الخوف والتشكك وزادت الفوضى والانقسامات في أوساط الناشطين. وبموازاة ممارسات تنظيم (داعش) داخل المدينة، كانت قوات النظام السوري تقصف المدينة بالمدفعية بصورة منهجية من مواقع الفرقة العاشرة، في شمال المدينة. كذلك تعرضت المدينة لعدد من الغارات الجوية والصاروخية⁽¹¹⁾ خلفت في وقتها ثلاث مجازر كبرى: واحدة في شارع المتحف وأخرى في شارع 23 وثالثة في ثانوية ابن طفيل.

هذه الأجواء دفعت مَنْ نجوا من القتل والخطف إلى الفرار من المدينة، وبخاصة بعد انهيار آخر خط للدفاع عن المدينة ومجتمعها في المعركة الفاصلة بين (لواء ثوار الرقة) من جهة، الفصيل الوحيد ذي الطابع المحلي الشعبي بين المجموعات التي ساهمت في عملية طرد نظام الأسد من الرقة في ربيع عام 2013، وخلايا تنظيم داعش في مطلع عام 2014 من جهة ثانية. هذه المرحلة وممارسات التنظيم المتشددة حيال المجتمع لاحقاً ساهمت في خلق شتات واسع النطاق في البيئات كلها التي حكمها التنظيم، وما عاد الأمر يقتصر على مجتمع الثورة وحده، بل شمل قطاعات واسعة من موالي النظام والحياديين غير المكترئين. عملياً، شكَّلت خريطة تشتت السكان المحليين تبعاً لمواقفهم السياسية فتوزعوا في أربعة فئات أساسية: ففيما اختار ناشطو الثورة والمعارضون السياسيون الخروج إلى تركيا، وأكمل كثيرون منهم طريقهم إلى أوروبا في السنوات اللاحقة، اختارت فئة أقل اهتماماً بالشأن العام وذات أصول ريفية العودة إلى قراها، بينما اختار الموالون والمتربطون اقتصادياً بالنظام الالتحاق بمؤسساتهم وإداراتهم التي بدأت تباغاً العمل في مناطق سيطرة النظام، في مدينتي

(11) يذكر السيد مصطفى سليمان في شهادة له أمام كاتب هذه المادة أن النظام السوري أطلق 73 صاروخ سكود على مدينة الرقة في هذه المدة. ويُشير أن معظم هذه الصواريخ تحطم أو سقط قبل أن تصل أهدافه، كما يُرجح أن المدينة كانت ستُدمر بالكامل لو أن هذه الصواريخ ضربت أهدافها داخل المدينة.

حماة ودمشق بالدرجة الأولى فيما بقي في المدينة الفئات الأكثر قابلية للتعايش مع أي سلطة. وهؤلاء كانوا من أهالي المدينة ومن سكانها ومن الوافدين من باقي المحافظات، إضافة إلى موالى التنظيم⁽¹²⁾. هذا الشتات سيكون واحدًا من العوامل المؤثرة سلبيًا في قدرة فرق (الاستجابة الأولية) لاحقًا على تحديد هويات القتلى المدفونين في المقابر الجماعية التي بقيت من مرحلة سيطرة التنظيم بعد عام 2017، وتاليًا على إمكان كشف مصير آلاف من الجثث المكتشفة في هذه المقابر.

بالمقابل، كانت أعداد الجهاديين الأجانب تتزايد باضطراد وقدراته العسكرية تتعاظم وعملياته القتالية تشتد وجهاته تتعدد. وتوسعت أعمال الخطف والاعتقال والإعدام، القصاص، وقطع الأيدي لتشمل فئات جديدة من المعاقبين بعد أن بدأ التنظيم في تطبيق رؤيته الأيديولوجية على المجتمعات المحلية.

قبل انتهاء عام 2014، أصبح الجوف العربي السني في سورية معظمه تحت سيطرة تنظيم (داعش). شمل هذا كامل محافظة الرقة ومعظم محافظة دير الزور والريف الجنوبي كله من محافظة الحسكة والريفين الشمالي والشرقي من محافظة حلب معظمهما وأجزاء واسعة من ريف إدلب، إضافة إلى البادية معظمها التي تتقاطع فيها أرياف محافظات دمشق وحمص وحلب وحماة والرقة ودير الزور. وممارسات التنظيم المتبعة في الرقة تكررت في المناطق كلها التي توسع إليها التنظيم لاحقًا، إلا أن صدامه مع عشيرة (الشعيطات) في ريف دير الزور الشرقي أخذ طابعًا خاصًا إذ ارتبط بمقاومة شرسة من أبناء العشيرة لسيطرة التنظيم على منطقتهم التي تحتوي على عدد من آبار النفط في إضافة إلى أهمية الموقع الجغرافي لبلدات الشعيطات الثلاث، أبو حمام والكشكية وغرانيج⁽¹³⁾، بالنسبة إلى مسالك التنظيم بين سورية والعراق. ولذلك كان انتقام (داعش) من أبناء هذه العشيرة واحدًا من أشنع ارتكابه في سورية وأكبرها حجمًا تجاه مجموعة سكانية بعينها. فقد أستبيح أبناء هذه العشيرة للقتل والإخفاء القسري والتهجير الشامل وإغلاق بلداتهم أمام المرور لأشهر. بلغت الحصيلة النهائية التي انتهت إليها معركة السيطرة على منطقة (الشعيطات) ما يقارب 700 قتيل ومفقود.

(12) ALHAJ SALEH, Khalil, Le phénomène Da'ech dans les écrits des révolutionnaires de Raqqa, non publié, version PDF, EHESS-ENS, 2019, p. 59-60.

(13) تحالف أسر المختطفين لدى تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام/ داعش: مسار، «مجزرة الشعيطات»، (15 آب/ أغسطس 2021).

مجزرة الشعيطات - (Massar (massarfamilies.com

ب. خارج الحسابات

بقيت ممارسات تنظيم داعش في سورية خارج رادار المجتمع الدولي، لكن تمدد التنظيم إلى العراق واستيلائه على مدينة الموصل في حزيران/ يونيو 2014 دفع إلى تشكيل تحالف دولي عسكري من 60 دولة لمحاربة داعش. إلا أن هجوم التنظيم على عين العرب/ كوباني، ذات الأغلبية الكردية، في حزيران/ يونيو 2015 وقّر لهذا التحالف الدولي فرصة وقضية للتدخل في سورية.

بعد أن استقر التحالف الدولي على إعداد شريك محلي، (وحدات حماية الشعب)⁽¹⁴⁾ الكردية، في الحرب على (داعش)، بدأت سلسلة طويلة من العمليات العسكرية والقصف الجوي ضد التنظيم. استمرت العمليات العسكرية حتى خريف 2019. سير العمليات قضم تدريجيًا مناطق سيطرة التنظيم ودفع قواته إلى التراجع باتجاه الجنوب.

بدأت عملية تطويق مدينة الرقة في 6 حزيران/ يونيو 2017، وهذه انتهت إلى دخولها في 17 تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. العمليات القتالية في الرقة انتهت بمغادرة ((مقاتلي (الدولة الإسلامية)، وعددهم بالمئات، الرقة بأمان مع التمتع بالحصانة التامة من المساءلة))⁽¹⁵⁾. إلا أن القصف الجوي والمدفعي من جانب التحالف الدولي وقوات (قسد) خلال ثلاثة أشهر كان قد دَمَّر (80% من عمران المدينة) وخلف (1600) قتيلًا في (مصيصة الموت) هذه⁽¹⁶⁾.

لكن ملف المخفيين والمعتقلين لدى (داعش) بقي مغيبًا عن المناقشة العامة كما عن اهتمام الأجسام السياسية المعبرة عن الثورة والمعارضة طوال هذه المدة وما تلاها. الأرجح، في مستوى التحليل، أن التغييرات السياسية التي أحدثت في بنية هذه الأجسام وتحالفاتها الإقليمية ودور هذا التغيير وهذه التحالفات في تبديل لا أولويات هذه الأجسام وحسب، بل قلب سياساتها ومساراتها هي أسباب إهمالها لهذا النوع من الملفات. كما أنها، حالها في ذلك حال منظمات المجتمع المدني السوري،

(14) يُشير هذا الاختصار بالأحرف الأولى إلى (قوات سوريا الديمقراطية). وهذه في أصلها هي (وحدات حماية الشعب) الكردية، ويُرجح إن هذه الأخيرة كانت أنشئت في عقب أحداث مدينة القامشلي عام 2004. إلا أنها بقيت تنظيمًا سرّيًا حتى الإعلان عنها عام 2012 بالتزامن مع انسحاب قوات النظام السوري من القرى والبلدات ذات الكثافة الكردية في سورية، مثل عين العرب وعامودا والقامشلي وعفرين. ثم اقترح الأميريون الاسم الجديد (قوات سوريا الديمقراطية) لدى اعتماد هذه الوحدات لمقاتلة تنظيم (داعش) كما دُفعت إلى ضم مجموعات مقاتلة عربية، بعضها معارض وبعضها موال، قبيل التوجه إلى القتال خارج المناطق العربية في سورية، في تل أبيب ولاحقًا الرقة ودير الزور.

(15) منظمة العفو الدولية (أمнести)، حرب الإبادة: خسائر فادحة في صفوف المدنيين في الرقة بسورية، (2018)، ص 50.

سوريا: حرب الإبادة: خسائر فادحة في صفوف المدنيين في مدينة الرقة بسوريا - منظمة العفو الدولية (amnesty.org)

(16) منظمة العفو الدولية، (أمнести)، «حرب الإبادة: خسائر فادحة في صفوف المدنيين في الرقة بسورية».

اكتفت بالعمل من الخارج بما يحمله ذلك من عيوب. ولعل أبرز مثال يوضح هذا القلب هو انخراطها في مسار (أستانة) للتفاوض مع النظام برعاية مشتركة روسية-إيرانية-تركية. هذا المسار جاء فعلياً على حساب مسار (جنيف) القائم على قرار مجلس الأمن الدولي رقم 2254 الذي ينص على انتقال سياسي ويفترض تالياً احتمال بناء برنامج عدالة انتقالية يمكن تصور معالجة الملفات الحقوقية عبره. وتالياً فقد كان مسار (أستانة) إطاراً لتبادل الأسرى بين النظام وفصائل المعارضة المسلحة والفصائل الإسلامية التي تُقاتله، وبذلك فقد خرج المعتقلون السياسيون والمخفون قسراً لدى النظام أو على يد الأطراف الأخرى من حسابات هذا المسار.

ولم تلفت قوة الأمر الواقع المستجدة، قوات (قسد) ومن ورائها التحالف الدولي التي ورثت السيطرة على مناطق سيطرة التنظيم السابقة أي اهتمام بملف المخفيين على يد تنظيم (داعش). بل صبّت كثير من ممارسات (قسد)، موضوعياً على الأقل، في مسار طمس أي آثار يمكن أن تساعد في الكشف عن مصائر المخفيين والمعتقلين لدى (داعش). ففي الرقة، سارعت هذه القوات إلى الاستيلاء على مقرات تنظيم (داعش) حال خروجه من المدينة، وبدأت سريعاً أعمال ترميم جدر السجون والمعتقلات، فيما كانت آلاف الوثائق الورقية ملقاة على الأرض يجمعها أفراد أو تتعرض للتلف. يُرجح أيضاً أن تجاهل قوات (قسد) لهذا الملف مرده أيضاً إلى حساسيته السياسية بالنسبة إلى الصورة التي اختلقت لها في الغرب بوصفها الطرف الوحيد الذي قاتل تنظيم (داعش)، في حين إن ظهور السؤال عن مصير كل هذا العدد من المخفيين قسراً سيُشير إلى واقع مختلف. يُضاف إلى ما سبق أن خطاب (قسد) السياسي لا يُميز إجمالاً بين السكان المحليين وتنظيم (داعش)، ذلك أنه درج استخدام مصطلح (البيئة الحاضنة) للإشارة إلى المجتمعات المحلية التي كانت محكومة من (داعش). وتعامل قوات (قسد) اللاحق مع المقابر الجماعية التي اكتشفت في مناطق سيطرة (داعش) السابقة، يسير في اتجاه محو أي آثار أو دلائل تساعد في معرفة مصير المخفيين قسراً.

بالمقابل، فإن عددًا من أسر المغيبين على يد تنظيم (داعش) يُبقي حتى اليوم على آمال في عودتهم أحياء. هذه الآمال وجدت تعزيزاً لها من أخبار غامضة كانت تظهر عند كل مفصل من مفصل معركة طرد تنظيم (داعش). فقد أُشيع خروج عشرات من المعتقلين لدى (داعش)، بينهم معتقلين على خلفية سياسية، عند استيلاء (قسد) على الطبقة؛ كما ظهرت أخبار شبيهة عند دخول قوات من التحالف الدولي و(قسد) إلى الرقة إذ تواترت ((أنباء بأن قسم من السجناء قد تمّ التحفظ عليهم، ونقلهم إلى أحد سجون مدينة عين العرب (كوباني) أو سجونها في الحسكة، بغرض التحقق من الشخصيات))⁽¹⁷⁾.

(17) الرقة تُذبح بصمت، قسد تعترف ببعض المعتقلين لدى (داعش) سابقاً، (24 نيسان/ أبريل 2018).

الرقة تُذبح بصمت قسد تعترف ببعض المعتقلين لدى داعش سابقاً (raqqa-sl.com)

ثم للمرة الثالثة بُني خبر بالفحوى ذاتها في أثناء حصار (الباغوز) عام 2019 حيث نقلت وسائل إعلام، منها صحيفة التايمز البريطانية، خبر يفيد ((أنّ تنظيم الدولة يسعى إلى التوصل لاتفاق مع قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي، لتأمين ممر آمن لعناصره للخروج من المنطقة، ويستخدم في مفاوضاته ورقة الرهائن المختطفين لديه للتوصل للاتفاق، وأشارت إلى أنه من بين الرهائن (الأب باولو دالوليو) والصحفي البريطاني (جون كانتلي)، وممرضة تابعة للصليب الأحمر من نيوزيلندا))⁽¹⁸⁾.

إلا أن الأنباء هذه جميعاً بقيت في حيز القيل والقال، ولم يتضح من أي جهة رسمية ما إذا كان لهذه الأخبار أساس فعلي أم أنها نوع من الحرب النفسية ومحاولات كسب الوقت من (داعش) أم، بالمقابل، محاولة من بعض منتسبي (قسد) لابتزاز أهالي المغيبين، على ما يتكرر وتعرض له كثير من أسر المخفيين قسراً لدى أطراف النزاع كافة.

ت. المقابر الجماعية في الرقة: طبقة جديدة من التغييب عبر إجراءات ما بعد الصراع⁽¹⁹⁾

بين خريف 2017، لحظة انسحاب تنظيم (داعش) من الرقة وصيف 2019، لحظة انتهاء سيطرة التنظيم على أي بقعة من التراب السوري في معركة (الباغوز)، انخفضت توقعات أسر المغيبين لدى (داعش). فبينما كان ثمة آمال قبل انتهاء سيطرة التنظيم على التراب وانهيار سلطته المركزية في رؤيتهم أحياء، تحول اهتمام الأسر إلى ما يمكن أن تجلبه المقابر الجماعية المتخلفة في مناطق نفوذه السابقة من أخبار.

يذكر (دليل الأمم المتحدة لمنع ممارسات تنفيذ الإعدام خارج القانون والإعدام التعسفي والإعدام دون محاكمة، والتحقيق في تلك الممارسات)، يُعرف باسم (بروتوكول مينيسوتا المتعلق بالتحقيق في حالات الوفاة التي يُحتمل أن تكون غير مشروعة 2016 The Minnesota Protocol on The Investigation of Potentially Unlawful Death 2016 ، عددًا من المعايير التي تحدد أفضل الممارسات الممكنة في مجال نبش واستخراج الجثث من المقابر الجماعية. إذ يجب أن يتألف الفريق العامل على النبش والاستخراج من خبير في القضايا الجنائية وطبيب شرعي⁽²⁰⁾ ومصور فوتوغرافي

(18) حلب اليوم، منظمة دولية، الأب باولو على قيد الحياة وتنظيم الدولة يفاوض لإطلاق سراحه، (4 آذار / مارس 2019).

منظمة دولية: الأب باولو على قيد الحياة وتنظيم الدولة يفاوض لإطلاق سراحه (halabtodaytv.net)

(19) تشمل إجراءات ما بعد الصراع ميادين عمل عامة قد تتباين بحسب مواضيع المسببة للصراع وطبيعة أطراف الصراع، لكنها إجمالاً: التنمية وسيادة القانون وحفظ الأمن والعدالة والمواطنة.

(20) المفوضية السامية لحقوق الإنسان، بروتوكول مينيسوتا المتعلق بالتحقيق في حالات الوفاة التي يُحتمل أن تكون غير مشروعة

وموثّق وخبير آثار إضافة إلى العمال العاملين في الحفر والانتشال والنقل وإعادة الدفن؛ كما يجب أن يكون كل هؤلاء مؤهلين للتعامل مع خطوات العمل وحساسيته، مدركين لطبيعة العمل وموضوعيين ومستقلين عن أي تنظيم أو هيئة سياسية، وكذلك على وعي كامل بطبيعة المهمة والسياقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية والقانونية التي يعملون في إطارها. كما يتطلب هذا النوع من العمل توثيقاً دقيقاً ومستمرّاً لكل خطوة من الخطوات، إضافة إلى الحرص على ملاحظة كل يتعلق بالمقبرة وما يُحيط بها من عوامل التربة وطبيعة المكان من أجل استخلاص سليم للعينات. وهذه الأخيرة تتضمن عينات بشرية ومادية، غير بيولوجية، وتربة إضافة إلى التدقيق في الأنماط: تناثر الدماء، الحروق، تحليل الكسور وغيرها مما يساعد على تحديد سبب الوفاة.

كما أن أعمال النُش والاستخراج وتحديد الهويات والكشف عن المصير تجري عادة في مرحلة ما بعد نهاية الصراع⁽²¹⁾، إذ تتطلب استقراراً سياسياً وشرعية قانونية تجعل من نتائج عمل الفرق العاملة على المقابر الجماعية مقبولة من قبل كل الأطراف المعنية؛ أي إن هذه الإجراءات تتطلب انتقالاً سياسياً وإطاراً قانونياً، قد يكون في سياق برنامج للعدالة الانتقالية، كي تُصبح نتائجه مُلزَمة قانوناً للمعنيين حتى لو لم تكن مقبولة منهم. ولذلك يُستحسن أيضاً أن يشمل الفريق العامل ممثلاً عن أهالي المخفيين قسراً أو المفقودين عامة أو عن الهيئة الممثلة لهم في حال وجودها

أما مجريات الواقع، وحال عودة سكان الرقة إلى المدينة بعد أسابيع من انتهاء القتال فيها، فقد بدأ أفراد من (فوج الإطفاء) في رفع الجثث المتناثرة في الشوارع وتحت ركام المباني المدمرة بصورة تطوعية. تطور عمل هؤلاء الأفراد بعد تحول المجلس المحلي المعين من جانب (قسد) للإشراف على عمل الفريق. وبدأت منظمات دولية محلية عاملة في المنطقة بجلب التمويل لاستمرار عمل الفريق⁽²²⁾.

2016، (نيويورك وجنيف، 2017).

[بروتوكول مينسوتا المتعلّق بالتحقيق في حالات الوفاة التي يحتم أن تكون غير مشروعة \(2016\): دليل الأمم المتحدة لمنع ممارسات تنفيذ عمليات الإعدام خارج نطاق القانون والإعدام التعسفي والإعدام دون محاكمة، والتحقيق في تلك الممارسات | مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان \(ohchr.org\)](#)

(21) توصي الجهات الدولية والفرق المهنية والمحترفة العاملة على التحقيق في شأن المقابر الجماعية ونشها وتحديد هويات المدفونين فيها برسم حدود هذه المقابر أولاً وحمايتها من العبث إلى حين توفر البيانات السياسية والاجتماعية والقانونية والمناهج والأدوات الضرورية للعمل عليها.

(22) درجت المنظمات الممولة لفريق الاستجابة الأولية، وهي بدورها ممولة أميركياً بالدرجة الأولى، على تكرار عبارة (أماكن حيوية) في الإشارة إلى مواقع المقابر الجماعية في الرقة وفي معرض تبريرها لسرعة نبش وانتشال الجثث على الرغم من عدم مهنية فريق العمل على المقابر واستقلاله واكتماله. والحقيقة أن أيّاً من هذه المواقع، وبخاصة مواقع المقابر الجماعية الكبرى ليس حيويّاً بأي معنى من المعاني. بل الأرجح أن عدم أهمية هذه المواقع هو ما شجع في الأصل على تحويلها إلى مقابر على الرغم من قلة أو انعدام الخيارات في وقتها. فمقبرة (معسكر الطلائع) هي أرض خالية والمعسكر نفسه، أملاك دولة، لم تعد له وظيفة؛ والأمر ينطبق على مقبرة (الفخيخة أو مركز البحوث العلمية الزراعية) حيث شكلت المقبرة في أرض تابعة للمركز، كما ينطبق على مقبرة (ملعب ثانوية الرشيد)، وهو ملعب

فزاد عدد أفرادها، أصبح نحو 40 شخصًا مؤخرًا، وأصبح اسمه (فريق الاستجابة الأولية) ثم (فريق الطب الشرعي)، وضم إليه طبيب عام، ثم طبيب شرعي لاحقًا، وهؤلاء كان يلزمهم دائمًا عنصر من مخبرات (قسد). لكن عمل هذا الفريق افتقر إلى المهنية في عمليات نبش المقابر واستخراج الجثث وأخذ العينات، مئات الجثث في مقبرة (ملعب ثانوية الرشيد) لم تؤخذ منها عينات قط، تاليًا، لم تحدد هويات معظم الجثث المدفونة في هذه المقابر.

فتح (فريق الاستجابة الأولية) هذا نحو 30 قبرًا ومقبرة جماعية بين عام 2018 ونهاية عام 2020، واستخرج منها 6072 جثة. كبرى هذه المقابر الجماعية هي مقبرة (البانوراما) ومقبرة (معسكر الطلائع) ومقبرة الفخيلة أو مركز البحوث العلمية الزراعية) ومقبرة ملعب ثانوية الرشيد. بلغ عدد الجثث التي عُرفت هويات أصحابها وتاليًا سُلمت إلى ذوي القتلى لدفنها 629 جثة فقط. بلغ عدد الجثث التي عُرفت هويات أصحابها وقام فريق الاستجابة الأولية بدفنها بناءً على طلب ذوي المقتول 35 جثة فقط. تاليًا بلغ عدد الجثث المُنتشلة التي لم تُعرف هويات أصحابها، إما لعدم معرفة أهل القتل بمكان مقتله أو لعدم توفر إثباتات أو بيانات تساعد على معرفة هوية الجثة، 5404 جثة. إذن، فإن نسبة تزيد على 88% من الجثث المُنتشلة بقيت مجهولة الهوية.

بطبيعة الحال، فإن جزءًا من عبثية عمل هذا الفريق ناتج من تعامله بطريقة غير احترافية مع مقابر شكلت في أثناء حصار المدينة حيث عجز السكان عن دفن قتلاهم في المقابر الرسمية، ومن خليط الجثث الذي تحويه هذه المقابر، إذ يُخمن العاملون في (فريق الاستجابة الأولية) في الرقة إلى أن ظاهر الجثث المستخرجة، الثياب والأوراق والمقتنيات وهيئة الجسد، من هذه المقابر يُشير إلى أنها:

- جُثث أشخاص مدنيين كان قتلهم (التحالف الدولي) المناهض لتنظيم (داعش) بالقصف الجوي والمدفعي خلال مرحلة حصار المدينة والأيام الأخيرة من معركة السيطرة عليها.
- جُثث أشخاص مدنيين قتلهم ميليشيا (قوات سوريا الديمقراطية) بالقصف المدفعي خلال الأيام الأخيرة من حصار المدينة أو قنصًا في أثناء خروجهم من المدينة.
- جثث أشخاص كان قتلهم تنظيم (داعش) قنصًا بينما كانوا يسلكون معابر خصصها (التحالف الدولي) و(قسد) لفرارهم من المدينة في الأيام الأخيرة من المعركة على الرقة في خريف 2017.
- جُثث عناصر تنظيم (داعش) نفسه ممن قُتلوا في أثناء القتال.
- احتمال وجود جثث لمعتقلين عند (داعش) قُتلوا تحت التعذيب أو أُعدموا أو قُتلوا بقصف مقرات ومعتقلات (داعش) في المدينة.

عملياً، تُضيف الممارسات غير المهنية وغير الشرعية من قبل (فريق الاستجابة الأولية)، في الرقة على الأقل، طبقة إضافية من التعتيم على مصائر من أُخفوا واعتقلوا في الرقة خلال سيطرة تنظيم (داعش) عليها، كما على مصائر ما لا يقل عن 1600 مدني قُتلوا في أثناء الأعمال العسكرية لطرد التنظيم منها.

ث. هل من سياق سياسي مُفسّر لإجراءات ما بعد الصراع؟

في أواخر 2015 طرحت مؤسسة راند Rand الأمريكية ما أسمته (خطة سلام من أجل سورية)⁽²³⁾. الخطة بُنيت وقتها على تصور محوري هو (مكافحة الإرهاب)، أي دحر تنظيم (داعش) وما كان يُعرف في وقتها بـ (جبهة النصرة) والتوسع على حسابهما. تنطلق خطة المؤسسة المقربة من وزارة الدفاع الأمريكية من أن قوى الأمر الواقع القائمة وقتها-النظام والمعارضة وقوات حماية الشعب الكردية التي غيّر الأمريكيون في تلك المرحلة اسمها إلى قوات سوريا الديمقراطية- هي الأطراف المخولة، برعاية أطراف إقليمية ودولية، بصناعة السلام في سورية والقضاء على الإرهاب وبناء دولة سورية جديدة ونظام سياسي جديد في سورية.

لكن الخطة، في الآن ذاته، تقرر ضمناً بحق هذه الأطراف في أن تنحو نحواً مغايراً متى أصبح لديها احتمالات تُشير إلى أن تدخلات العملية السياسية تختلف عما تريده هي منها. وهذا يعني عملياً أن هذه الأطراف مُلزَمة بالمشاركة في محاربة الإرهاب-داعش والنصرة- لكن يمكنها ألا تنخرط في عملية بناء سورية جديدة وتشكيل نظام سياسي جديد لها، إذ يمكن أن تكون لها خياراتها الخاصة.

بالفعل، فقد اكتملت الخطوط العامة لهذا التصور قرابة نهاية عام 2019 باستثناء وضع درعا التي أُعيدت إلى سيطرة النظام، فبقيت ثلاث مناطق بدلاً من أربع اقترحها الخطة في البداية. كما أن توسع فصائل (الجيش الوطني) الذي حل محل (الجيش الحر)، على حساب تنظيم (داعش) بقي محدوداً، واستمر على تعايش قلق مع (هيئة تحرير الشام)، (جبهة النصرة) سابقاً، نظراً إلى تداخل مناطق سيطرتهم في شمال البلاد وشمال غربها. في الحصيلة انتهت تركة (داعش) الترابية كالآتي:

- النظام السوري في أجزاء من ريف حلب الشمالي والشرقي والجنوبي كما في ريف الرقة الجنوبي

(23) James Dobbins, Philip Gordon and Jeffery Martini, A Peace Plan for Syria, (Rand Corporation, December 2015).

[A Peace Plan for Syria | RAND](https://www.rand.org/pubs/peace_plans/2015/12/a-peace-plan-for-syria.html)

وقد ترجمت تحت عنوان: (خطة سلام من أجل سورية)، خليل الحاج صالح (مترجماً). ونشرت في عدد من المواقع السورية.

[خطة مؤسسة راند الأمريكية للحل في سورية - مركز حرمون للدراسات المعاصرة \(harmoon.org\)](https://www.harmoon.org/)

- والجنوبي الشرقي وريف دير الزور الشرقي والغربي من جانب البادية (الشامية) إضافة إلى مناطق واسعة من البادية السورية التابعة إداريًا لمحافظة حمص وحماة والرقعة ودير الزور.
- قوات سوريا الديمقراطية في محافظات الجزيرة السورية الثلاث، الرقة ودير الزور والحسكة، مدعومة من التحالف الدولي المناهض لداعش.
- فصائل (الجيش الوطني) في الأجزاء الشمالية من محافظات إدلب وحلب والرقة مدعومة من تركيا.

إذن، إذا دُفعت الأطراف الثلاثة القائمة اليوم، النظام وما يمكن أن يكون حاصل تجمع فصائل (الجيش الوطني) والجماعات الجهادية (ما يزال لجهة النصرة وضعها الخاص)، وقوات سوريا الديمقراطية لتدخل في عملية سياسية لتحقيق السلام في سورية، إن قُيُض للبلاد أن تعود لتُشكل كياناً سياسياً واحداً، فستكون هذه الأطراف الثلاثة مسؤولة عن الإخفاء القسري لما مجموعه 93639 شخصاً⁽²⁴⁾. وهذا العدد يُشكّل ما نسبته 93 بالمئة من عدد المخفيين قسراً في سورية؛ بعبارة أخرى، كل المخفيين قسراً في سورية ما عدا مَنْ أخفاهم قسراً تنظيم داعش: 8648 شخصاً. تالياً، هل يمكن تصور انخراط الأطراف المسؤولة عن الشطر الأكبر من الانتهاكات، بما فيها الإخفاء القسري، في مسار عدالة انتقالية يمكن أن يُفضي إلى محاسبة المنتهكين؟

من منظور مقارن، تُظهر تجارب مجتمعات أخرى خرجت من صراعات داخلية مماثلة خلال العقود الأخيرة أن مساراً للعدالة الانتقالية لا بد أن يسبقه تحقق انتقال سياسي جدي. أبرز مثال على حالة من هذا النوع دولة جنوب أفريقيا. بينما بُنيت حلول سياسية توافقية في صراعات أخرى، مصحوبة بإجراءات وترتيبات مختلفة، على دفن الملفات الحقوقية والقانونية تجنباً للمساءلة والمحاسبة، مثل لبنان ونيبال وقبرص، على الرغم من اختلاف السياقات من بلد إلى آخر.

ربطاً بما سبق، يبدو مستقبل الملفات الإنسانية والحقوقية في سورية، بما فيها ملف المخفيين قسراً لدى كل الأطراف ومن ضمنهم المخفيين قسراً على يد تنظيم (داعش)، من المعالجة والحل وبما يتوافق مع مبدأي الحق في المعرفة والمساءلة والمحاسبة المرتبطين والمفضيين إلى العدالة في أدنى حظوظها. إذ يقدم النظر في ملف المخفيين على يد (داعش) بوجه خاص فرصةً فريدة وملموسة لقراءة الخطوط العامة لمستقبل باقي الملفات عبر ما يوفره عامل تقدم الزمن في التعامل مع مصير المخفيين والتعامل مع المقابر الجماعية. عملياً، لم يقف دور (قسد) وما ومَنْ تمثله من قوى خارجية متدخلة عبرها في النزاع السوري في هذا السياق عند حد تجاهل الملف أو العجز عن تناوله بمنهجية سليمة، هذا إذا افترضنا حسن النيات، بل يصل إلى أن يتكامل دورها مع دور تنظيم (داعش) في

(24) انظر في فقرة (المنتهكون في السياق السوري).

استدامة طمس مصير المخفيين قسرًا. وهي بذلك تترجم لا موازين القوة القائمة اليوم وحسب، بل تُشير سلفًا أيضًا إلى رغبتها في صورة الواقع السوري المقبل.

خامسًا: خط الدفاع الأخير

يقول الخبير في القانون الدولي جيريمي ساركن⁽²⁵⁾ ((المشكلة الحقيقية في العالم في ما يخص انتهاكات حقوق الإنسان ليست في أن العالم لا يمتلك الأدوات أو المفاهيم لاتخاذ الخطوات الضرورية. المشكلة الحقيقية هي انعدام الإرادة لفعل لاتخاذ الخطوات الضرورية⁽²⁶⁾)). والأرجح أن تكون الملفات الحقوقية في سورية آخر ما يمتحن به السوريون إرادة الدول المتدخلة لا في ما يخص مجريات الصراع الراهن فحسب، بل في ما يخص شكل الدولة وطبيعة النظام السياسي وعلاقته بالمجتمع لاحقًا.

فإذ تحلل الحراك الشعبي الذي انطلق في سورية عام 2011 إلى عدد من القضايا والملفات والمسارات الجزئية: السياسية والحقوقية والاجتماعية والإنسانية والقانونية، فإن هذا التجزئ خلق أيضًا حالة من اللاتيقن تُحيط باحتمالات الحل السياسي: شكله ونتائجه وأدوار الفاعلين المحليين فيه، وتاليًا احتمالات حل الملفات الحقوقية التي تشكّلت على مدار الصراع.

لكن ما تزال ثمة فرصة أخيرة وقد تكون وحيدة لإبقاء الملفات الحقوقية، الاعتقال والتعذيب والقتل تحت التعذيب والإخفاء القسري تحديدًا، على قيد الأمل في الحل والمعالجة وفي تقديمها إلى صدارة الملفات تناوّلًا في سورية بصرف النظر عن شكل الواقع السياسي لاحقًا. فقد شهدت السنوات الأخيرة، بعد عام 2017 تحديدًا، ظهور عدد من روابط الضحايا وأسره وروابط الناجين والناجيات من المعتقلات والتعذيب. وما تزال سيروية تشكل مزيد من الروابط قائمة بالنظر إلى تعدد الأطراف المنتهكة وتعدد أنواع الانتهاك مضافة إلى استحالة بناء منظمات أو مؤسسات جامعة نظرًا إلى استمرار الصراع، حتى مع تقلص تكرار الأعمال القتالية في سورية وحجمها.

ومنذ عام 2019، بدأت خمس من هذه الروابط، (رابطة عائلات قيصير) و(حملة عائلات من أجل الحرية) و(رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا) و(مبادرة تعافي) و(تحالف أسر الأشخاص

(25) أستاذ في القانون الدولي والقانون المقارن من جنوب أفريقيا. ترأس لجنة حقوق الإنسان في جنوب أفريقيا بين عامي 1994 و1998، ثم عمل رئيسًا مُقرّرًا للفريق العامل على الإخفاء القسري أو غير الطوعي التابع للأمم المتحدة عامي 2002 و2003.

(26) Sarkin, Ibid, p. 38

المختطفين لدى تنظيم (داعش) في توحيد مبادئ عملها ورؤاها في ما يخص الموضوعات التي تعمل عليها كل رابطة منها منفردة. وهذه جميعاً تشكّلت، كل على حدة، ردّاً على تراجع الاهتمام بالملفات الحقوقية من المعارضة الرسمية ودور الفاعلين غير الدولتيين في الساحة السورية في أثناء الصراع وربما بعده، الأمر الذي يضيف مزيداً من التعقيد على فرص المعالجة والحل.

أثمر العمل المشترك بين هذه الروابط الخمس (ميثاق الحقيقة والعدالة). وهو ورقة تتضمن رؤية الضحايا والناجين وأسرهم للملفات الحقوقية ذات الصلة. وتُكثف هذه الفقرة من (الميثاق) طبيعة العمل الذي انتدبت هذه الروابط نفسها له: ((ينطلق الميثاق من المقاربة التي تركز على الضحايا في أي مسار أو عمل حقوقي أو سياسي أو قضائي يتناول حقوقهم/هن أو يؤثر عليهما. تنشأ هذه المقاربة على أساس الأهمية المركزية لصوت الضحايا واحتياجاتهم/هن الصريحة كما يحددونها بأنفسهم. على المقاربة أن تركز على تلبية رؤية وتطلعات واحتياجات الضحايا من خلال إتاحة المجال لدورهم/هن المركزي في مسارات العدالة الانتقالية والمحاسبة. كما يجب أن تتحدى الضغوط والأجندة النخبوية والخارجية التي قد تتعارض مع رؤية الضحايا فيما يخص مسارات العدالة والمحاسبة وعمليات التفاوض والانتقال السياسي))⁽²⁷⁾.

مفردات هذه الرؤية تتكثف في فهمها لجوانب من تحقيق العدالة بوصفها جوانب مُلحة تستلزم إجراءات عدالة قصيرة الأجل، مثل وقف الانتهاكات، وسيرورة بعيدة الأجل، مثل آليات منع التكرار في المستقبل. وقد صاغ ميثاق الحقيقة والعدالة رؤية الضحايا والعائلات لسيرورة تحقيق العدالة هذه في 6 مطالب محددة:

1. الإفراج الفوري عن المعتقلين/ات وكشف مصير المخفيين/ات والمغييبين/ات قسراً.
2. الوقف الفوري للتعذيب والمعاملة اللاإنسانية والجرائم الجنسية.
3. تسليم رفات المتوفين نتيجة لظروف الإخفاء القسري والاعتقال.
4. إلغاء المحاكم الميدانية والاستثنائية.
5. توفير محاكم مدنية مستقلة عادلة تراعي المعايير الدولية.
6. التعويض وجبر الضرر.
7. الاعتراف بالحقيقة وتخليد الذكرى.
8. التغيير في المؤسسات الأمنية والقضائية وممارساتها.

(27) ميثاق الحقيقة والعدالة، موقع مسار، تحالف أسر الأشخاص المختطفين لدى تنظيم الدولة الإسلامية-داعش، (شباط/فبراير، 2021).

وتدفع رؤية روابط الضحايا وأسرههم باتجاه محاسبة المنتهكين عبر تشكيل ((آلية محاسبة عادلة بضمانات دولية تشمل جميع الضالعين بالانتهاكات في سورية دون أي ضمانات لحصانات دبلوماسية أو سياسية))⁽²⁸⁾؛ وإحالة ملف سورية إلى محكمة الجنايات الدولية أو إنشاء محكمة دولية خاصة في سورية، إضافة إلى دعم الآلية الدولية المحايدة والمستقلة IIIIM، على أن يتم ذلك في إطار ((عدالة انتقالية لضمان استدامة السلام وتفادي الانجرار إلى عمليات الانتقام))⁽²⁹⁾ في المستقبل.

تشمل رؤية الضحايا أيضًا توصيات تتعلق بمسارات السلام واستدامته ومستقبل سورية. أولى هذه التوصيات في ما يخص التفاوض وتبادل الأسرى تلحظ ضرورة ألا ((يكون الإفراج عن المعتقلين/ات والكشف عن مصير المختفين قسرًا رهناً بالمفاوضات أو اتفاقيات التبادل بين أطراف النزاع وضامنهما، أو التعامل مع المعتقلين/ات والمختفين/ات قسرًا كأسرى حرب)). في ما تتعلق الثانية بالدستور وآليات التطبيق حيث ترى أن دستور البلاد يجب أن ((يتضمن مكونات أساسية وبنودًا تفصيلية تضمن حقوق المواطنين/ات وكرامتهم/هن بشكل كامل، وتجرم الإخفاء القسري والتعذيب والاعتقال والمحاكمة خارج إطار القضاء، ويُعرّف بدقة الأجهزة الأمنية ويحدد صلاحياتها وألا يحيل هذه التفاصيل إلى القوانين)). وتركز التوصية الثالثة على ضرورة ربط إعادة الإعمار ((بكشف مصير المختفين/ات قسرًا وتسليم رفات المتوفين/ات، ولا يمكن بحال أن تنطلق هذه العملية أو ما يسبقها من عمليات تعاف مبكر على الأرض، يُحتجز ويُغيب ويُعذب فيها آلاف من المواطنين السوريين، ويوارى آلاف غيرهم/هن في مقابر جماعية تحتها أيضًا)). وتختتم الروابط المنشئة للميثاق توصياتها بضرورة اتخاذ إجراءات بناء الثقة تمهيدًا لعودة اللاجئين والنازحين عبر ((إطلاق سراح المعتقلين/ات، والكشف عن مصير المفقودين/ات، ووقف التعذيب، وإلغاء المحاكم الاستثنائية والاعتقال خارج إطار القضاء في سورية لطمأننتهم بأنهم لن يواجهوا نفس الانتهاكات التي أجبرتهم على المغادرة عند عودتهم))⁽³⁰⁾.

لكن توفر وثيقة تتضمن رؤية شاملة مثل (ميثاق الحقيقة والعدالة) لا يكفي وحده لخلق مسار من أجل معالجة الملفات الحقوقية المضمنة فيه، فكان لا بد من البحث عن قوة دفع سياسي وقانوني تضع (الميثاق) على سكة التحقيق. ولهذه الغاية كلفت روابط (ميثاق الحقيقة والعدالة السيد جيري مي ساركن بإجراء دراسة تنظر في أفضل السبل الممكنة لخلق رافعة تحول (الميثاق) إلى آلية لكشف مصائر المعتقلين والمختفين قسرًا في سورية. أطلقت هذه الدراسة في شهر حزيران/ يونيو 2021

(28) ميثاق الحقيقة والعدالة.

(29) ميثاق الحقيقة والعدالة.

(30) ميثاق الحقيقة والعدالة.

بعنوان ((إنهم بشر وليسوا أرقامًا: في وجوب إقامة آلية دولية للتعامل مع أزمة المعتقلين والمخفيين قسرًا في سورية)). وتخلص هذه الدراسة إلى ضرورة ((إنشاء هيئة تجمع المنظمات والمؤسسات ذات الصلات بملفات الاعتقال والتعذيب والإخفاء القسري إلى روابط الضحايا وأسر الضحايا في سورية ضمن إطار عمل واحد من أجل العمل على الإفراج عن المعتقلين، والكشف عن مصير المفقودين، والبحث والعثور على رفات من فارقوا الحياة. هذه الآلية، حسب رؤية (مجموعة الميثاق) لها، تحتاج إلى تفاهم سياسي دولي وإطار قانوني يحكم شرعيتها، قد يكون قرارًا من مجلس الأمن الدولي أو من الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما تحتاج إلى مؤسسات مختصة ومؤهلة وذات مصداقية قادرة على العمل على الأرض))⁽³¹⁾.

(ميثاق الحقيقة والعدالة) ثم صياغة مطلب الآلية أعاد الاعتبار إلى ملفات الاعتقال والإخفاء القسري في سورية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة على الأقل، وهذه طلبت مؤخرًا من الأمين العام للأمم المتحدة إنجاز دراسة بهذا الخصوص. وبناءً على هذه الدراسة التي تقوم بها حاليًا مفوضية حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، يُرجح أن يصدر قرارًا خلال صيف 2022 عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ينص على إنشاء آلية يؤمل أن تساعد في تحويل هذا الملفات المؤلمة إلى قضية كبيرة للسوريين كلهم، قضية يعمل حلها عمل جسر نحو مستقبل أكثر أمانًا واستقرارًا لعموم السوريين. إن الدور الموصوف أعلاه للضحايا والعائلات والناجين خلال المرحلة الأخيرة يمكن أن يفتح مسارًا عجزت عنه باقي التشكيلات السياسية والمدنية السورية لأنه، إذ يركز على الحق الشخصي والتحرر من الاعتبارات السياسية المتغيرة والمتضاربة يستطيع أن يقاوم أجندات التسوية والتميع وتقديم الأولويات الذي يُرجح أن يواجهها في المرحلة المقبلة.

(31) د.م، «إطلاق دراسة حول آلية دولية لمعالجة قضايا المعتقلين والمخفيين قسرًا في سورية»، موقع مسار، (23 حزيران / يونيو، 2021).

[إطلاق دراسة حول آلية دولية لمعالجة قضايا المعتقلين والمخفيين في سورية - \(massar\(massarfamilies.com](http://massar(massarfamilies.com)



المحور الخامس: استشراف مستقبل منطقة الجزيرة



الفاعلون الدوليون من غير الدول

(الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا) نموذجًا في السياق السوري

طارق عزيزة⁽¹⁾

أولاً: ملخص تنفيذي

لمراحل طويلة من التاريخ اقتصرت منظومة العلاقات في (المجتمع الدولي) على الدول، بوصفه متشكلاً منها فقط، قبل أن تنضم إليها فئة أخرى من الشركاء سُميت (الفاعلون من غير الدول) أو (الفاعلون الذين لا يشكلون دولاً)، مثل المنظّمات الدولية، ومنها الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي، ثم ظهرت الشركات العابرة للحدود والقوميات. بات الشركاء الجدد (أشخاصاً قانونيين) في منظومة العلاقات الدولية، يبرمون اتفاقات ومعاهدات مع الدول أو في ما بينهم، تنظّمها قواعد قانونية دولية. ومع تطوّر المصالح والصراعات الدولية وتشابكها المتزايد، برزت فئات جديدة من الفاعلين الذين لا يشكلون دولاً لها تأثيرها الملحوظ في العلاقات الدولية، من أهمّها (حركات التحرر الوطني) والمنظمات المسلحة (الدينية أو القومية) العابرة للحدود، وشبكات الإرهاب الدولي.

في سياق الصراع الدائر على الأرض السورية، يمكن رصد فاعلين لا يشكلون دولاً من الفئات كافة، قاموا بأدوار متفاوتة التأثير في المشهد العام، في ما لم تقتصر تداعيات بعض الأدوار على سورية بل امتدّت خارجها، تحالفاً أو خصومةً أو غير ذلك. وإذا كان ظهور بعض أولئك الفاعلين، بما هم امتداد لمنظماتٍ سياسية أو مسلّحة، سابقاً على الثورة والحرب التي تلتها، فإن دورهم الفاعل الدولي، ما فوق الوطني/ المحلي، ازدهر في سياق الصراع السوري، وبصورة رئيسة بعد عام 2013. لعلّ النموذج الأكثر وضوحاً تجسّده الحالة القائمة في مناطق الجزيرة السورية، بعد أن أسّس حزب (الاتحاد الديمقراطي – PYD) سلطة (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا) التي تولّت ما يُفترض أنها اختصاصات الدولة من مثل الأمن والدفاع والعلاقات الخارجية، وسواها.

(1) كاتب وباحث سوري.

لقد أدّى انخراط عناصر جديدة من غير الدول في العلاقات الدولية إلى نقد كثير من أدبيات العلاقات الدولية ونظرياتها، وظهرت مقاربات جديدة مختلفة. إلا أنّ فقه العلاقات الدولية لم يستقرّ على رأي واحد في شأن ظاهرة الفاعلين من غير الدول، كونها حديثة نسبياً وذات طابع شديد التعقيد، بفعل تداخل الأبعاد الجيوسياسية والأمنية والأيدولوجية فيها، علاوةً على الأسباب الاجتماعية - الاقتصادية التي أسهمت في نشوئها، ثم في تعزيز دورها، وتكريس حضورها. ومن ثمّ، فإنّ تأثير الفاعلين الدوليين الذين لا يشكّلون دولاً، وأبرزهم في سورية سلطة (الإدارة الذاتية)، في الصعيدين الإقليمي والدولي، لا سيما أمنياً وسياسياً، وانعكاسات ذلك على سياسات الدول المعنية بالشأن السوري، يستدعي مزيداً من التحليل، وبحث ارتباط الظاهرة بظروف تفكك الدول أو فشلها وتمالكها، فضلاً عن تراخي سلطة الدولة نفسها في عصر العولمة.

يرمي البحث إلى الإضاءة على مفهوم (الفاعلين من غير الدول/ الذين لا يشكّلون دولاً)⁽²⁾، من خلال بعض ما تناولته أدبيات العلاقات الدولية حوله، ومقارنته في سياق الصراع في سورية، عبر نموذج (الإدارة الذاتية) في منطقة الجزيرة، وبيان تجسيدها هذا المفهوم الذي يبدو أنه لم ينل بعد ما يستحقّ من البحث في المقاربات التي تتناول الأحوال السورية. فالفاعلون الذين لا يشكّلون دولاً أصبحوا فئة ذات تأثير واضح في العلاقات والسياسات الدولية (والسياق السوري ليس استثناءً)، ولا يمكن إغفالها عند بحث سبل حلّ النزاعات، واستشراف مآلاتها، بصرف النظر عن تقييم الفاعلين أنفسهم أو الموقف منهم، وما يعتري أدوارهم من إشكاليات، سواء من حيث المشروعية أم الدوافع الأيدولوجية التي يستندون إليها، أم حتى مدى قانونية الممارسات التي تصدر عنهم.

ثانياً: مقدّمة

بعد تعثّر الثورة السورية، وانزلاق البلاد في فوضى النزاع المسلّح والتدخلات الخارجية، ازداد المشهد تعقيداً بفعل الطبيعة المركّبة للصراع، وتداخل أسبابه، وتنوّعها، فضلاً عن تعدّد المنخرطين فيه بفاعلية. فالأمر لم يقتصر على الأطراف السورية، وإنما شمل جهات إقليمية ودولية، ممن وقفوا بجانب نظام الأسد لدعم سلطته، أو ساندوا الجهد الساعي لإسقاطه، إضافةً إلى من استغلّوا التطوّرات الجارية لتحقيق أهدافهم الخاصة، بمعزل عن جذر التناقض بين النظام والمعارضة،

(2) يُترجم مصطلح Non-State Actors إلى العربية بطرق عدّة، أبرزها: (الفاعلون الذين لا يشكّلون دولاً) و(الفاعلون من غير الدول)، ويُلاحظ أنهما يُستعملان بالمعنى نفسه، وعلى هذا النحو وردا معاً في البحث، حيث استُخدِم أحدهما أو كلاهما في المراجع والمصادر المختلفة التي استند إليها الباحث.

والموقف منهما.

لم يكن أصحاب الفعل والتأثير من الدول فقط، إذ كان بينهم فئة تسميها أدبيات العلاقات الدولية الحديثة بـ(الفاعلين الذين لا يشكّلون دولاً، أو الفاعلين من غير الدول Non-State Actors)، لا سيما من المنظّمات المسلّحة عابرة الحدود. وقد فرضت هذه الفئة من الفاعلين نفسها في صراعات منطقة الشرق الأوسط وغيرها، وتأثيرها السياسي والأمني أخذ في التصاعد إقليمياً ودولياً، بما لدورها العابر للحدود من انعكاسات على السياسات الدولية عموماً، وفي الدول المعنية مباشرةً بصورة خاصة.

إنّ موضوع (الفاعلين من غير الدول) مستجدّ في الكتابة السورية، وعادةً ما تقتصر الدراسات الأولى التي تبحث ظواهر مستجدّة على جوانب نظرية تصف الظاهرة المبحوثة في إطارها العام، لتأتي لاحقاً دراسات أكثر تعمّقاً، تقارب الموضوع بتفصيل أكثر، ومن زوايا مختلفة. لكن هذا البحث يحاول ألاّ يكتفي بمناقشة المفهوم نظرياً، فيسلّط الضوء على نموذج عياني في سياق الصراع السوري بتشعباته الإقليمية والدولية بالتركيز على منطقة الجزيرة السورية وسلطة (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا)، بوصفها أحد أبرز الفاعلين الدوليين الذين لا يشكّلون دولاً في المشهد السوري الراهن، إن لم تكن الأبرز.

على الرغم من عدّ ((العلاقات الدولية حقلاً أكاديمياً منفصلاً، فإنّها تتأثّر دائماً بالمجالات الدراسية الأخرى))⁽³⁾، وغالباً ما تتطلّب دراسة الظواهر المتّصلة بهذا الحقل الاستعانة بمنهجيات بحثية عدّة، من مثل المنهج التاريخي والوصفي التحليلي وسواهما، وهذا ما سار عليه البحث. وإذ يقتصر النطاق الجغرافي لسلطة (الإدارة الذاتية) على الأراضي السورية فقط، إلا أنّ صلتها بالقضية الكردية، ولا سيما ارتباطها المباشر مع (حزب العمال الكردستاني - PKK) التركي، يستوجب معاناة السياسة التركيّة في هذا الشأن. فتركيا لاعبٌ رئيس في سوريا حالياً، وسياساتها الخارجية تجتهد في توظيف تفاعلاتها الإقليمية والدولية من أجل (احتواء) المسألة الكردية، وهذا الموضوع ((دائم الحضور في جدول أعمالها، وربما البند الأول للسياسة الداخلية والخارجية بلا منازع، لسنوات عديدة، بدءاً من أوائل الثمانينيات من القرن العشرين عندما شرع ((حزب العمال الكردستاني)) في عملياته المسلّحة ضد الحكومة «1984»)).⁽⁴⁾

في سورية يعدّ حزب (الاتحاد الديمقراطي - PYD) امتداداً لحزب PKK، وقد استفاد من السياسة

(3) سكوت بورتشيل وآخرون، نظريات العلاقات الدولية، محمد صفار (مترجماً)، ط1، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014)، ص33.

(4) عقيل سعيد محفوض، السياسة الخارجية التركية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص83.

الأميركية في محاربة الإرهاب في عهد إدارة الرئيس أوباما، سياسة أثرت عدم إرسال قوات عسكرية كبيرة للقتال مباشرة، وقدمت عوض ذلك السلاح والعتاد لشركاء محليين، ودعمتهم بسلاحها الجوي لمحاربة تنظيم (الدولة الإسلامية). هذا الموقف الأمريكي الداعم أسهم في تمكين مقاتلي PYD (ثم قوات سوريا الديمقراطية - قسد) من السيطرة على مناطق الجزيرة السورية معظمها، وطردهم مقاتلي (الدولة الإسلامية) منها، ما عزز مشروع سلطة (الإدارة الذاتية) كأمر واقع، حتى باتت أحد الفاعلين الأساسيين في المشهد السوري.

لكنّ التنسيق مع الولايات المتحدة، والحصول على دعمها، لا يكفيان لتفسير ظهور هذه السلطة واستمرارها، وهي لن تزول بمجرد توقّف الدعم. فثمة عوامل سياسية وأيديولوجية واقتصادية واجتماعية متداخلة، تنطوي على عناصر قوّة وضعف في هذا المشروع الذي يمكن إدراجه ضمن تلك الفئة من (الفاعلين من غير الدول) التي ((أُست أكثر تعبيراً عن إفرزات محلية و(هوياتية)، وليس فقط تشابكات عالمية، كما هو الحال مع الموجة الأولى من الفاعلين)) [أي المنظمات الدولية، والشركات متعددة الجنسيات]⁽⁵⁾.

من هذا المنظور، يمكن تمييز منطقة الجزيرة السورية بأنها تخضع لسلطة (فاعل دولي من غير الدول)، تجسده (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا)، في ما يسيطر على بقية المناطق السورية إما جيش النظام السوري، أو قوات عسكرية لدولة بعينها (روسيا)، أو ميليشيات خاضعة مباشرة لدول ذات وجود ومصالح ولها وجود عسكري أيضاً في سورية، من مثل الميليشيات المرتبطة بإيران وتركيا⁽⁶⁾. وبمثل ما تتأثر الحالة القائمة في منطقة الجزيرة السورية بمآلات الصراع السوري بكلّيته وتفاعل معطياته الداخلية والخارجية، فإنّ تأثيرها أيضاً غير قليل في المشهد بمجمله، خصوصاً مع تنامي اتجاه عالمي ((يتعامل مع الموجة الجديدة من الفاعلين من غير الدول بمنطق الاحتواء، وإعطاء الشرعية لهم، إثر ضعف الدولة، والإقرار بدورهم في الاستقرار))⁽⁷⁾.

(5) جاسم محمد طه، «أثر أدوار الفاعلين من غير الدول على الاستقرار السياسي والأمني في المنطقة العربية»، مجلة تكريت للعلوم السياسية، ع: 14، ص 278.

(6) يذهب بعضهم إلى تصنيف (حزب الله) وبقية الميليشيات الشيعية التابعة لإيران بوصفهم فاعلين من غير الدول، لكن على الرغم من كونها منظمات مسلحة عابرة للحدود، إلا أنّ ارتباطها العضوي بالحرس الثوري الإيراني، أي بالحكومة الإيرانية، يُفقدّها صفّي الاستقلالية وحمل مشروعها الخاص، مما يُفترض أن يتوقّر في الفاعلين من غير الدول، ومن ثمّ تصنيفها ضمن هذا الإطار يبقى مثار جدل.

(7) جاسم محمد طه، «أثر أدوار الفاعلين على الاستقرار السياسي»، ص 278.

ثالثًا: العلاقات الدولية و(الفاعلون الدوليون من غير الدول)

يعود تاريخ العلاقات الدولية إلى نشوء الدول نفسها، أي إنّ تاريخها مرتبط بتاريخ ظهور الدولة، بمختلف أنواعها (دولة/ مدينة، إمبراطوريات، دولة/ أمة)، منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا. غير أنّها لم تنهض بوصفها حقلاً معرفياً مستقلاً هو (علم العلاقات الدولية) إلا مع بدايات القرن العشرين، وبالضبط بعد الحرب العالمية الأولى، انطلاقاً من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، حيث عرف هذا العلم انتشاراً واسعاً وتطوراً وازدهاراً سريعاً⁽⁸⁾، بعدما كان ملحقاً بدراسة العلوم السياسية.

وإذ تحيل لفظة (دولي) في الاصطلاح اللغوي إلى الدول وما بينها، إلا أنّ معناها ((ينسحب أيضاً على مجمل العلاقات القائمة بين أعضاء المجتمع الدولي الآخرين، من منظمات دولية حكومية وغير حكومية، وحركات التحرر الوطني))⁽⁹⁾. وتعني عبارة (العلاقات الدولية) وجود فرع معرفي وأكاديمي قائم بذاته، ينصبّ اهتمامه بالأساس على دراسة الوقائع والظواهر ذات البعد الدولي مصدراً وتنظيماً وتنظيراً⁽¹⁰⁾. ويتناول هذا العلم مختلف عناصر (النظام الدولي) الذي يشمل ((هؤلاء الفاعلين الذين تأخذ الدول الأخرى أعمالهم وردود أفعالهم في صياغة السياسة الخارجية))⁽¹¹⁾، من حيث سلوكهم وأثره، على اختلاف نوع هذين السلوك والأثر وحجمهما، وبصرف النظر عن المشروعية من عدمها، سواء من منظور القانون الدولي، أم تبعاً لموقف هذه الدولة أو تلك من الفاعل المعني.

وبحسب البروفيسور مارسيل ميرل الذي يعدّ من كبار أساتذة العلاقات الدولية بجامعة السوربون، فإنّ احتكار الدول، من الناحية القانونية، السلاح وحقّ اللجوء إلى القوة لا يعني بالضرورة استبعاد وجود مراكز أخرى تصنع القرار وتستطيع بدورها أن تلجأ إلى استخدام أشكال أخرى للقوة⁽¹²⁾. ومن ثم ((الاكتفاء بدراسة العلاقات بين الدول يقصر عن الإحاطة بمجمل الظواهر الدولية المعقدة))⁽¹³⁾، مع التأكيد أنّه ((ليس من الضروري استبعاد الدولة كي نقبل بوجود أنواع أخرى من اللاعبين، وأنّ إحدى الصعوبات الأساسية، في العلاقات الدولية المعاصرة، تكمن تحديداً

(8) صليحة بوعكاكة، مدخل إلى العلاقات الدولية، ط1، (فاس: أنفو- برانت للطباعة والنشر والتوزيع، 2017، ص5.

(9) صليحة بوعكاكة، مدخل إلى العلاقات الدولية، ص7.

(10) صليحة بوعكاكة، مدخل إلى العلاقات الدولية، ص8.

(11) روبرت غيلين، الحرب والتغيير في السياسة العالمية، عمر سعيد الأيوبي (مترجماً)، ط1، (بيروت: دار الكتاب العربي، 2009)، ص60.

(12) مارسيل ميرل، سوسيولوجيا العلاقات الدولية، حسن نافعة (مترجماً)، ط1، (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1986)، ص64.

(13) مارسيل ميرل، سوسيولوجيا العلاقات الدولية، ص65.

في تعدّد وتنوّع اللاعبين على المسرح))⁽¹⁴⁾.

وُجّهت انتقادات عدة للفرضية القائلة بأنّ الدول هي القوة الفاعلة الوحيدة في السياسة العالمية، وهي تخضع لمراجعة الباحثين والباحثات، ((وأصبح تعريف الفاعلين كل أولئك الذين تؤثر قراراتهم على الموارد والقيم، والذين يؤثر أحدهم على آخر فيما وراء الحدود. والمسألة لا تتعلق بأهمية الدول، بل هي أن المزيد من هذه القوى أصبح يمارس تأثيراً على المحصلة النهائية في السياسة العالمية))⁽¹⁵⁾.

كانت المنظمات الدولية الحكومية أولى أنواع الفاعلين من غير الدول، وأولى هذه المنظمات هي (اللجنة المركزية للملاحة في الراين) التي تأسست عام 1815. ومع تكاثر هذه المنظمات، وحيويتها، باتت إحدى السمات المميزة للمجتمع الدولي المعاصر، فلا يمكن تصوّر معالجة العلاقات الدولية بدون الإشارة إلى منظمة الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية المتخصصة أو حلف الناتو. والأصل الذي انبثقت منه المنظمات الدولية هو نظام المؤتمرات الدبلوماسية، فمن خلال تعديل أسلوب عمل هذه المؤتمرات (كأن تصبح دورية لمعالجة عدد محدد من القضايا، وإنشاء مكتب أو سكرتارية لتحقيق الاتصال بين المشاركين فيها واستمرارية العمل ما بين مُدد الانعقاد) أصبح لهذه المؤتمرات صفة الديمومة التي تشكّل السمة الرئيسة للمنظمات الدولية مقارنةً بالمؤتمرات الدبلوماسية⁽¹⁶⁾.

بعد ذلك ظهر فاعل آخر من غير الدول هو (الشركة متعددة الجنسيات)، وهي ((الشركة التي تمتلك وتدير وحدات اقتصادية في قطرين أو أكثر. وفي معظم الأحيان، فإن ذلك يستلزم استثماراً أجنبياً مباشراً تقوم به شركة ما وكذلك امتلاك وحدات اقتصادية (مثل خدمات، وصناعات استخراجية، أو تجهيزات صناعية) في عدّة أقطار. ومثل هذا الاستثمار (بعكس الاستثمار في السندات والأوراق المالية) يعني امتداد السيطرة الإدارية عبر الحدود القومية))⁽¹⁷⁾. كثير من هذه الشركات مؤسسات قوية للغاية، تمتلك موارد تتجاوز ما تملكه دول أعضاء في الأمم المتحدة. ويمتدّ مجال عملياتها واتّساع المنطقة التي تنشط فيها بعض الشركات متعددة الجنسيات بما يفوق في اتّساعه الجغرافي أي إمبراطورية سبق أن وجدت في الماضي⁽¹⁸⁾. وبحسب بعض التقديرات فإنّ ((40% من التجارة العالمية

(14) مارسيل ميرل، سوسيولوجيا العلاقات الدولية، ص 68.

(15) أنور محمد فرج، نظرية الواقعية في العلاقات الدولية دراسة نقدية مقارنة في ضوء النظريات المعاصرة، ط 1، (السليمانية: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، 2007)، ص 284.

(16) مارسيل ميرل، سوسيولوجيا العلاقات الدولية، ص 354 (بتصرف).

(17) روبرت غيلبين، الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، ط 1، (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص 287.

(18) روبرت غيلبين، الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، ص 288.

تدار بصورة مركزية داخل الشركات عابرة القوميات⁽¹⁹⁾، كما أنّ قدرة رأس المال والتكنولوجيا على الحركة، والدرجة التي تصل إليها التجارة بين الشركات، تعني ((أن الحكومات في جميع المجتمعات الصناعية تقريباً تهتم الآن بشكل فاعل بمحاولة تيسير العلاقات بين شركاتها الوطنية، بما في ذلك فروع الشركات عابرة القوميات لديها والشبكات العالمية في الصناعات الاستراتيجية))⁽²⁰⁾.

خلال الحرب الباردة وما بعدها بدأ يظهر الدور النافذ لفئة جديدة من الفاعلين الذين لا يشكّلون دولاً في صنع السياسات الخارجية، فقد ((حوّل بروز سلسلة من المجموعات الإثنية والسياسية - الدينية ذات التوجهات الراديكالية انتباه العلاقات الدولية بعيداً من الهيمنة الحصرية للعلاقات بين الدول))⁽²¹⁾، حيث يسعى بعضهم لتأسيس دولة، في ما يسعى بعضهم الآخر لتحرير دولة قائمة، أو تغيير الأوضاع فيها. وتأتي حركات التحرر الوطني في مقدّمة هذه الفئات، إذ أسهمت أوضاع الصراع بين الاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة الأميركية في تعزيز حضورها على المسرح الدولي، وانخراطها في العلاقات والسياسات الدولية، مثل بعض الحركات اليسارية الثورية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وغيرها ممن يتباين تصنيفها تبعاً للموقف السياسي، فقد تُصنّف إحداها من قبل الحلفاء والداعمين بصفقتها حركة تحرر وطني، في ما يعدّها الخصوم والأعداء منظمة إرهابية، أو ثلّة مخربين خارجين عن القانون.

على أي حال، بروز هذه الفئة الجديدة من الفاعلين الذين لا يشكّلون دولاً، لم يقتصر أثره على المجال السياسي والدبلوماسي في العلاقات الدولية فحسب، وامتدّ إلى طبيعة الحروب أيضاً، والتي كانت في السابق إمّا في شكل حروب أهلية بين أطراف متصارعة في بلد واحد أو حروب ما بين دولتين أو دول وأحلاف دولية عدة. وظهر شكل جديد للحروب ما بين دولة (أو أكثر) وأحد الفاعلين المسلّحين من غير الدول⁽²²⁾، وبات لزاماً على هؤلاء التقيّد بـ(قانون الحرب) أو (القانون الدولي الإنساني) المؤلّف من اتفاقات جنيف الأربعة لعام 1949. على هذا الأساس، نصّ الملحق (البروتوكول) الأول الإضافي إلى اتفاقيات جنيف، الموقع عام 1977 في الفقرة الرابعة من مادته الأولى على شمول الاتفاقيات ((المنازعات المسلحة التي تناضل بها الشعوب ضد التسلط الاستعماري والاحتلال الأجنبي وضد الأنظمة العنصرية، وذلك في ممارستها لحق الشعوب في تقرير المصير، كما كرسه ميثاق الأمم

(19) سكوت بورتشيل وآخرون، نظريات العلاقات الدولية، ص 120.

(20) سكوت بورتشيل وآخرون، نظريات العلاقات الدولية.

(21) ماريانا خاروداكي، الكرد والسياسة الخارجية الأميركية، خليل الجبوسي (مترجماً)، ط 1، (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 146.

(22) منها: حروب إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في الأردن ولبنان، وحروب الصحراء الغربية بين إسبانيا وجبهة (البوليساريو)، ثم الجبهة والمغرب.

المتحدة)).

رابعاً: الأكراد بوصفهم فاعلاً دولياً لا يشكّل دولة

تذهب بعض الأدبيات الحديثة في العلاقات الدولية إلى القول ((إن دور الشعوب بوصفها فاعلاً دولياً هو أمر لا يمكن أن نغفل عنه في واقعنا المعاصر، والجهود النظرية في حقل العلاقات الدولية بهذا الخصوص تعدّ أمراً مطلوباً ولا غنى عنه، بل إن ابتكار أدوات تحليل أو نماذج نظرية من شأنها أن تفتح مجالاً خصباً لدراسات حول دور الشعوب بوصفها لاعباً دولياً))⁽²³⁾. ضمن هذا السياق، يمكن فهم بروز دور الأكراد في السياسات الدولية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط (وهم لا يشكّلون دولة، ويطمحون - أو ما زال قسم كبير منهم يطمح - إلى ذلك) بوصفهم شعباً يسعى إلى تقرير مصيره. وكان من تجليات ذلك إعلان (جمهورية مهباد) في شمال غرب إيران في إثر نهاية الحرب العالمية الثانية، بدعم من الاتحاد السوفياتي المتنافس حينها مع بريطانيا على النفوذ في إيران. لكنّ الجمهورية الوليدة لم تستمر سوى عشرة أشهر (كانون الثاني/ يناير - تشرين أول/ أكتوبر 1946)، قبل تصفيتها على يد القوات الإيرانية المدعومة من الإنكليز، وإعدام مؤسسها قاضي محمد.

ومنذ خمسينيات القرن العشرين ((تعزّز أكثر التدخل الخارجي في الشؤون الكردية بسبب تنافس لا متناهٍ بين القوى الدولية، خصوصاً الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وفي هذا الجو التنافسي، عومل الكرد كأدوات وكفاعلين معاً. وهكذا استخدمت القوى العظمى القضية الكردية بهدف الهيمنة على المنطقة، فيما كان على الكرد، كأدوات، أن يصارعوا من أجل الاعتراف بوضعهم كلاعبين لا يشكّلون دولة))⁽²⁴⁾. والقضية الكردية عبر تاريخها لم تكن مرتبطة بالكرد فقط بل كان لها تداعيات إضافية على السياسة الإقليمية والدولية، وما زالت كذلك. وكان لتطوّراتها، كمن مثل نشوء حكومة إقليمية في كردستان العراق، أن عزّزت الاستنتاج بأن ((اللاعبين الذين يشكّلون دولاً لم يعودوا الوكلاء الوحيدين في عملية صنع السياسة الخارجية))⁽²⁵⁾.

لم يكن أكراد العراق (بصورة خاصة حكومة إقليم كردستان العراق لاحقاً) الفاعل الوحيد

(23) نادية محمود مصطفى (محررة)، العلاقات الدولية في عالم متغيّر منظورات ومداخل مقارنة، ج1، ط1 (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 2016) ص742.

(24) ماريانا خاروداكي، الكرد والسياسة الخارجية الأميركية، ص112.

(25) ماريانا خاروداكي، الكرد والسياسة الخارجية الأميركية، ص149.

من غير الدول، المؤثر في القضية الكردية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إذ شاركهم في هذه الصفة أكراد تركيا، لا سيما (حزب العمال الكردستاني - PKK) الذي زاد عليهم في تأثيره العابر للحدود. وهو في نشاطه هذا (العابر للحدود) يعطي فكرة أساساً عن خصائص هذا النوع من الفاعلين الذين لا يشكّلون دولة. فإذا كان احترام الحدود بين الدول من المبادئ الراسخة في القانون الدولي والعلاقات الدولية، نظرياً على الأقل، فإنه ليس كذلك لدى اللاعبين من غير الدول، لأنهم، في الغالب، لا يكتثرون لهذه المسألة. وفي منطقة الشرق الأوسط، تبدو هذه الأمور أكثر تعقيداً، ذلك أنّ الحدود السياسية ((تشبه جداراً مغلخ البناء مفكك اللبنة)). وتدرك القوى الدولية أن تحريك أية لبنة من لبنات ذلك الجدار المغلخ يعني انهياره؛ وهي بطبيعة الحال لا ترغب في البقاء تحت حطام جدار متهدم، ولذلك فهي تسعى إلى تغيير ملامح الجدار دون هدمه⁽²⁶⁾.

لم يقتصر نشاط (العمال الكردستاني) على الجغرافيا التي شهدت تأسيسه وانطلاق عملياته الأولى، أي الأراضي التركية، إذ راح يتوسّع باتجاه إيران وشمال العراق، وأصبح مقر قيادته في جبال قندیل على الحدود العراقية الإيرانية غير بعيد من نقطة التقاء حدود البلدين مع تركيا. وامتدّ نشاطه إلى الأراضي السورية، وأصبح طرفاً رئيساً في مشكلة سياسية وأمنية مزمنة تتعلق بدول عدة، وممارس أدواراً متعددة أرخت بظلالها على علاقات تلك الدول (وهي تعريفاً (علاقات دولية)) من دون أن يكون هو نفسه دولة.

في سورية احتضن نظام حافظ الأسد PKK وزعيمه عبد الله أوجلان منذ مطلع الثمانينيات، وقدّم له مختلف أشكال الدعم. وتوطّدت العلاقة بينهما لدرجة أنّه في عام 1990 عندما قرّر الأسد ضمن إصلاحات سياسية شكلية زيادة عدد مقاعد (مجلس الشعب) من 195 إلى 250 مقعداً لتوسيع تمثيل المستقلين الذين نالوا ثلث المقاعد تقريباً، كان من بينهم ممثلو الأكراد القريبون من (حزب العمال الكردستاني) الذي كان متحالفاً مع السلطة⁽²⁷⁾. لكنّ الموقف تبدّل أواخر التسعينيات، فبدأ النظام بالتضييق على عناصر الحزب، وغدّر بأوجلان، وطرده من سورية في تشرين الأول (أكتوبر) 1998، لنزع فتيل حرب كادت تشنّها تركيا على سورية نتيجة دعم نظامها حزب العمال، وبعد أقلّ من ثلاثة أشهر انتهى أمر أوجلان معتقلاً في السجون التركية. ((كانت مشكلة حزب العمال الكردستاني والأزمة السورية - التركية خلال عقد التسعينيات قد لعبت دوراً كبيراً في تعطيل تركيا عن النفوذ إلى الشرق

(26) أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل (مترجمان)، ط2، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2011)، ص357.

(27) محمد جمال باروت، العقد الأخير من تاريخ سوريا جدلية الحمود والإصلاح، ط1 (بيروت: المركز العربي للدراسات وبحوث السياسات، 2012)، ص162.

(الأوسط))⁽²⁸⁾.

هكذا طويت صفحة PKK في سورية، لكن إلى حين. ففي سنة 2003 تأسّس تنظيم كردي سوري جديد حمل اسم (حزب الاتحاد الديمقراطي - PYD)، وكان واضحاً أنّه امتداد لحزب العمال الكردستاني، سواء من خلال أدبياته التي تلتزم الخط الأوجلاني ونظرياته عن (الأمة الديمقراطية) و(أخوة الشعوب) وسواها، أو لنجاحه في استقطاب عدد من أنصار حزب العمال في الأوساط الكردية السورية، وتنظيمهم في صفوفه بالتنسيق مع قيادات PKK من وراء الحدود، بل إنّ من بين مهمات أعضاء الحزب الجديد وفق نظامه الداخلي ((النضال من أجل حرية القائد عبد الله أوجلان))⁽²⁹⁾ من دون أن يعني ذلك حلول PYD بالكامل مكان PKK في سورية، حيث استمر قسم من كوادره في العمل بمعزل عن التنظيم الجديد.

خلال الأحداث التي شهدتها مدينة القامشلي في آذار (مارس) 2004، وامتدّت إلى الأحياء ذات الكثافة الكردية في دمشق وحلب، والتي عُرفت بـ (انتفاضة الكرد)، سقط عشرات القتلى والجرحى برصاص قوات النظام. حينئذ أسهم حزب (الاتحاد الديمقراطي) إسهاماً فعّالاً في الأحداث، واعتُقل عدد من قادته، بينهم من قضى تحت التعذيب. وفي العام التالي أعلن الحزب عن سلسلة من الاحتجاجات طالت المناطق الكردية معظمها، وأسفرت عن مزيد من الاعتقالات في صفوف أعضائه ومؤيديه، وهو ما تكرر في إثر مظاهرة نظّمها الحزب في القامشلي بتاريخ 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 2007، في إطار تفاعله مع المستجدات الأمنية بين الحكومة والأكراد في تركيا، وأيضاً للاحتجاج على تطوّر علاقات بشار الأسد مع الجانب التركي، وإطلاقه تصريحات مناهضة لتطلعات الأكراد، بعد زيارته الرسمية إلى تركيا⁽³⁰⁾.

خامساً: (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا)

بعد انطلاق الثورة السورية أواسط آذار (مارس) 2011، تنامي دور (حزب الاتحاد الديمقراطي - PYD) - (ومن ورائه PKK) - في المشهد السوري العام السياسي ثم العسكري والأمني. وكان من بين

(28) أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص 613.

(29) يمكن الاطلاع على (النظام الداخلي) في الموقع الرسمي للحزب، <https://2u.pw/iOQeG>

(30) المؤسسة الإعلامية في منظومة المجتمع الكردي في غرب كردستان، (2007 عام طويت صفحته بختم القتل والاعتقال)،

<https://2u.pw/jZx3A>

أسباب الهدوء النسبي الذي شهدته حلب في بدايات الثورة، قياساً على دمشق، أن مشاركة أكراد المدينة بقيت محدودة لأسباب سياسية ترتبط بقوة حزب العمال الكردستاني فيها⁽³¹⁾. وفي نهاية حزيران (يونيو) 2011، شارك PYD في تأسيس (هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي)، وفي صيف العام التالي (2012) سيطرت الميليشيا المسلحة التابعة له على المدن والبلدات ذات الثقل السكاني الكردي التي انسحبت منها قوات النظام السوري، وبصورة رئيسة مدن محافظة الحسكة وبلداتها (عامودا، القامشلي، مدينة الحسكة). وشكل قوات (الأسايش)، وهي جهاز للشرطة والأمن الداخلي، إضافة إلى (وحدات حماية الشعب (YPG)) و«وحدات حماية المرأة (YPJ)»، لتكونا ذراع الحزب العسكرية، ورُفعت صور أوجلان والأعلام الحزبية على المباني الحكومية، مكان صور الأسد (الأب والابن) ورموز نظام البعث⁽³²⁾.

في العام التالي بدأ الحزب الترويج لمشروع (الإدارة المرحلية) في المناطق التي سيطر عليها، ثم أعلن في تشرين الثاني (نوفمبر) 2013 عن تشكيل (المجلس العام التأسيسي للإدارة المرحلية المشتركة)، وانبثق عنه هيئة متابعة لإعداد الوثائق وصياغتها، إلى أن أُعلن رسمياً عن (الإدارة الذاتية الديمقراطية) في 21 كانون الثاني (يناير) 2014، وشملت حينئذ ثلاث مقاطعات هي الجزيرة وكوباني وعفرين⁽³³⁾. وجاء التحول الأهم في مسيرة المشروع بعد نجاح الوحدات الكردية في قتال تنظيم (الدولة الإسلامية) أو (داعش) بدعم من التحالف الدولي الذي قاده واشنطن لمحاربة التنظيم الإرهابي بدءاً من صيف العام 2014. وكان لمقاتلي حزب العمال دور مهم في التدخل لإجلاء الإيزيديين المحاصرين في سنجار بعد حملة الإبادة التي شرع بها تنظيم الدولة ضدهم، ساعد في ذلك الطبيعة الجغرافية وتداخل الحدود العراقية السورية في تلك المنطقة، وأنشأت (وحدات حماية الشعب) سلسلة من نقاط التجميع والمعسكرات على طول الطريق إلى الداخل السوري، وأحضرت اللاجئين من الجبل، وجهزت النقاط الأممية بأطباء وماء للشرب، وما بين 9 و14 آب/ أغسطس أُنقذ ما بين 40.000 و50.000

(31) محمد جمال باروت، العقد الأخير من تاريخ سوريا، ص 381.

(32) كانت مدينة كوباني/ عين العرب أول مدينة كردية تفلت من قبضة النظام، في 19 تموز/ يوليو 2012 وهو تاريخ تأسيسي في سردية PYD و(الإدارة الذاتية) عن (ثورة روجافا) أي (غرب كردستان)، وشكّلت رمزاً للصمود بعدما استعصت على تنظيم داعش. في الشهر نفسه انسحب النظام من القامشلي، واقتصر وجوده على مرتع أمني فيها، وسلم إدارتها لمسلحي حزب الاتحاد الديمقراطي، وانسحب من عامودا بالكامل، وفي آب/ أغسطس 2012 انسحبت غالبية قوات النظام من مدينة الحسكة نحو ريفها الشمالي، وسلم النظام مواقعها إلى مسلحي (الاتحاد الديمقراطي)، لتسيير المدينة، لقاء عدم التعرض لمقرات النظام في مرتعه الأمني. مزيد من التفاصيل في: فريق عمل، قصة مكان قصة إنسان، بدايات الثورة السورية 2011-2015، ط 1، (بيروت: موقع الذاكرة الإبداعية للثورة السورية ومؤسسة فريدريش إيبتر، 2017).

(33) في آذار (مارس) 2018 خرجت عفرين عن سيطرة (الإدارة الذاتية) بعد (عملية غصن الزيتون) لتصبح بيد القوات التركية وميليشيات سورية تابعة لها.

إيزيدي عبر الطريق الالتفافية عبر سورية، في واحدة ((من أكبر وأكثر عمليات الإنقاذ درامية خلال العقود الماضية))⁽³⁴⁾.

وعملًا بسياسة إدارة أوباما في محاربة الإرهاب، والتي تتبع أسلوب دعم وتسليح مجموعات محلية عوضًا عن إرسال قوات أميركية للقتال على الأرض، أعلنت الولايات المتحدة نيّتها تقديم أسلحة لمجموعة مختارة من القوى المسلحة لمحاربة تنظيم الدولة، فوسع نطاق الاعتماد الأميركي على المقاتلين الأكراد لمواجهة (داعش). لكن الجهد العسكري لم يقتصر على الأكراد، إذ انضمت إليهم مجموعات عسكرية من العرب والسريان وغيرهم، لتتشكّل في تشرين الأول/ أكتوبر 2015 (قوات سوريا الديمقراطية) التي عرّفت نفسها في بيانها الأول بأنها ((قوة عسكرية وطنية موحدة لكل السوريين تجمع العرب والكرد والسريان وكافة المكونات الأخرى))⁽³⁵⁾. وبعد نحو شهرين، عُقد المؤتمر التأسيسي لـ (مجلس سوريا الديمقراطية - مسد) في مدينة ديريك شمالي شرق سورية في 9 كانون الأول/ ديسمبر 2015، وبحسب الوثيقة التأسيسية للمجلس ((هو المرجعية والمظلة السياسية للإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وقوات سوريا الديمقراطية، وهي المخوّلة في إجراء أية عملية تفاوضية))⁽³⁶⁾.

1. اختصاصات دولة لسلطة ليست دولة

مع تحوّلها إلى سلطة أمر واقع فعلية، وإمساكها بشؤون السكان كافة في مناطق سيطرتها، حاولت (الإدارة الذاتية) تقديم صورة مختلفة عن الحال في بقية المناطق الخارجة عن سيطرة الأسد، والتي تتوزّع السيطرة فيها على فصائل مسلحة مناهضة للنظام، سواء كانت إسلامية لها مشروعها الخاص مثل (هيئة تحرير الشام/ جبهة النصرة سابقًا) و(حكومة الإنقاذ) التابعة لها، أو تعمل تحت إشراف تركي باسم (الجيش الوطني)، ومعها (الحكومة السورية المؤقتة) المرتبطة بـ (الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة). وبالتوازي مع تلك التطورات كلها اتخذ النظام السوري مواقف ملتبسة ومتقلّبة من الوضع الجديد في شمال وشرق سوريا، بدت مزيجًا من القبول الضمني على مفض، وإجراء مفاوضات بين ممثلين عن الجانبين حينًا، وكذلك العداء الصريح والتحريض الإعلامي أحيانًا، وصولًا

(34) كريستوف رويتر، السلطة السوداء الدولة الإسلامية واستراتيجيو الإرهاب، محمد سامي الحبال (مترجمًا)، ط1، (الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2016) ص219.

(35) د.م، «نبذة عن قوات سوريا الديمقراطية»، موقع (بي بي سي عربي)، <https://www.bbc.com/arabic/middleeast-40172429>

(36) يمكن الإطلاع على الوثيقة التأسيسية للمجلس على الرابط: https://m-syria-d.com/?page_id=8821

إلى اشتباكات دامية بين ما تبقى من قوات النظام في المنطقة، ومسّحي (الإدارة الذاتية)⁽³⁷⁾.

وفي محاكاة لآليات عمل (الدولة)، لدى (الإدارة الذاتية) مجلس عام تشريعي يسنّ القوانين (سلطة تشريعية) إلى جانب مجلس تنفيذي يضمّ هيئات ومكاتب بمنزلة وزارات (سلطة تنفيذية)، منها هيئات الداخلية، والمالية، والاقتصاد والزراعة، والمرأة، والصحة، والشؤون الاجتماعية والعمل، ومكاتب النفط، الإعلام، الشؤون الإنسانية، وغيرها، إلى جانب (مكتب الدفاع) والقوة العسكرية المتمثلة بـ(قوات سوريا الديمقراطية). وتشكّلت إدارات محلية ومجالس تمثيلية في مختلف البلديات والمدن والقرى الخاضعة لسلطة (قوات سوريا الديمقراطية)، وتالياً (الإدارة الذاتية)، بالتزامن مع نشاط تنظيمي وتشريعي ملحوظ شمل إصدار قانون لمكافحة الإرهاب، وقوانين تنظّم (الدفاع الذاتي)، والتجنيد الإلزامي، والجمارك، والأحوال المدنية للسكان، وحتى تنظيم مزاولة بعض المهن، وغيرها من القوانين والقرارات التي تهدف لضبط تفاصيل الحياة اليومية كافة، وتسييرها، بما يتطلبه ذلك من فرض الضرائب والرسوم، وتقديم الخدمات في منطقة غنية بثرواتها ومواردها الطبيعية. على الرغم من ذلك ما زال الارتجال والارتباك في القرارات من السمات الواضحة في عمل هيئات الإدارة ومكاتبها، فضلاً على ممارسات القوى الأمنية التابعة للإدارة الذاتية، وانتهاكاتها بحقّ معارضها تتنافى مع مزاعمها بشأن الديمقراطية وحقوق الإنسان و(أخوة الشعوب). والأهمّ أنّ مظاهر التشاركية والتعددية السياسية الشكلية لم تكن لتلغي حقيقة هيمنة (حزب الاتحاد الديمقراطي)، وبصورة كبرى كواد (العمال الكردستاني)، على سياسات (الإدارة الذاتية) في المجالات كافة، وفق تأكيد مصادر متقاطعة⁽³⁸⁾، على الرغم من الموقف الرسمي لقيادات (الإدارة الذاتية) الذي ينفي أي تمثيل لـ PKK فيها⁽³⁹⁾.

(37) في 2015/1/19، وصل إلى القامشلي (حيث مقر القيادة العامة للأسايش) علي مملوك، وكان رئيساً للمخابرات العامة، إضافة إلى الأمين العام المساعد لحزب البعث هلال هلال، ومحافظ الحسكة، ومسؤول حزب البعث فيها، واجتمعوا مع قيادات عسكرية وأمنية كردية، لإعلان هدنة تنص على وقف الاشتباكات التي دارت بين قوات النظام والأسايش في مدينة الحسكة في إثر خلاف حول انتشار الحواجز وتقاسم الوجود. انظر/ي: فريق عمل، قصة مكان قصة إنسان، ص 231. وتكرّرت المفاوضات والاشتباكات، في أكثر من مناسبة لاحقاً.

(38) أكد هذا للباحث مصادر عدة، منهم أشخاص على صلة بمجلس سوريا الديمقراطية ونشطاء مدنيون، كرد وعرب، طلبوا عدم الكشف عن أسمائهم لأسباب أمنية. ويرى أحد المصادر أنّ (الإدارة الذاتية) تضمّ تيارين؛ أحدهما، وهو الأقوى، يتبع مباشرة لقيادة PKK في جبال قنديل، ويعمل وفق توجهاتها، في ما يسعى التيار الثاني إلى الحدّ من تدخّلات كواد PKK، والمحافظة على استقلالية قرار الإدارة بوصفها مشروعاً سورياً، بصرف النظر عن سياسات (العمال الكردستاني) وأولوياته. لكن الواقع لا يعطي مؤشرات كافية على وجود التيار الثاني حقاً.

(39) خلال ندوة سياسية افتراضية عقدها معهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط، صرّحت السيدة إلهام أحمد، الرئيسة المشاركة للمجلس التنفيذي في الإدارة الذاتية، بأنّ (حزب العمال الكردستاني) لا يحظى بأي تمثيل في (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا). وعلى الرغم من أن (مجلس سوريا الديمقراطية) ممثّل لـ (حزب العمال الكردستاني) لجهده في مكافحة الإرهاب في سنجار، وكركوك،

ومن المؤشرات على دور (الإدارة الذاتية) المتزايد، بوصفها من الفاعلين الذين لا يشكّلون دولةً، إنشاؤها (دائرة العلاقات الخارجية)، والنشاط الملحوظ لهذه الدائرة، من خلال استقبالها وفوداً رسمية سياسية وبرلمانية ودبلوماسية من الدول الغربية، لا سيما في إطار سعي عدد من الحكومات لاستعادة رعاياها ممن انضموا إلى تنظيم (الدولة الإسلامية) وعائلاتهم⁽⁴⁰⁾. وكذلك افتتاح مكاتب تسمّيها (ممثلات) في عدد من دول العالم، تعمل على الترويج لمشروع (الإدارة الذاتية)، سياسياً وإعلامياً عبر التواصل مع سياسيين ودبلوماسيين في تلك الدول، سعياً للحصول على اعتراف رسمي. والأهم أنّ مسؤولي بعض تلك الدول، على أعلى المستويات، استقبلوا ممثلين عن (الإدارة الذاتية) بصفتهم هذه، بمثل ما فعل الرئيس الفرنسي ماكرون، وهو ما أدانته الخارجية التركية رسمياً⁽⁴¹⁾.

2. الهاجس التركي وموقف الحليف الأميركي

شكّلت الإدارة الذاتية الكردية في شمال وشرق سوريا هاجساً تركياً منذ تأسيسها، حيث رأت فيها أنقرة تهديداً لأمنها القومي، وهي تخشى أن يؤدي مشروع الحكم هذا إلى تحريض أكراد تركيا على الانفصال، خصوصاً بسبب محاذاته القسم الأكبر للحدود التركية الجنوبية مع سورية، وامتداده من حدود العراق وحتى عفرين غير البعيدة عن البحر المتوسط. وقد تلخّص الهدف الاستراتيجي للسياسة التركية بتحطيم الكيان الكردي بالقوة، والتعامل مع التحدي الأمني الناجم عن ذلك كأولوية مطلقة⁽⁴²⁾. هذا يساعد في تفسير ما جرى في أكثر من مناسبة، من ((تقاعس تركيا في ضبط حدودها والتساهل في مسألة تدفق الجهاديين))، حيث كان لها هدفان سياسيان ((يعارض أحدهما الآخر: يسعى أردوغان إلى إسقاط الأسد، ولكن في الوقت ذاته يواجه واحدة من تبعات إضعاف نظام الأسد، التي تنعكس على تركيا))، حيث ((نجح الأكراد السوريون في فرض أمر واقع وإنشاء مناطق حكم ذاتي. وهذا التطور يلامس المخاوف الأزلية للمؤسسة التركية ... في البداية كانت نية أنقرة السياسية استخدام المقاتلين الإسلاميين المتشددين ضد الأسد، ولكن أيضاً ضد حزب العمال الكردستاني

وأربيل، وغيرها من المناطق، إلا أن (الإدارة الذاتية) لا تضم أي عناصره. وفق أحمد. جدير بالذكر أنّ صوراً جرى تداولها على الانترنت تُظهر السيدة نفسها في زي مقاتلي (العمال الكردستاني). موجز الندوة على الرابط: <https://2u.pw/vt5Nc>

تفاصيل لقاءات كهذه متاحة في موقع (الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا المجلس التنفيذي) تحت تصنيف (دائرة العلاقات (40) الخارجية <http://smne-syria.com/eb/?cat=106>، (الخارجية

(41) د.م، «ماكرون يستقبل ممثلين عن «الإدارة الذاتية» الكردية بسورية وأنقرة تدين»، العربي الجديد، (20 تموز/ يوليو، 2021).

(42) خير الله الحلو، «التدخل التركي في شمال سوريا: استراتيجية واحدة وسياسات متباينة»، مركز روبرت شومان، <https://medirections.com/index.php/201927-50-15-07-05-/wartime/202021-09-14-22-12->

الاتفصالي. وشعرت بالتهديد، عندما رأت كيف استطاع الفرع السوري لحزب العمال الكردستاني أن يدير محلياً المناطق الثلاث التي يسيطر عليها⁽⁴³⁾.

وبالفعل، نفذ الجيش التركي عمليات عسكرية عدة داخل الأراضي السورية، شاركت فيها فصائل من المعارضة السورية الموالية لتركيا، وانتهت إلى السيطرة على عفرين وريفها (عملية (غصن الزيتون))، ومناطق من الأرياف الشمالية لمحافظتي الحسكة والرققة (عملية (نبع السلام))، شملت مدن رأس العين وتل أبيض والقرى المحيطة بهما، بعد أن كانت تحت سيطرة (قوات سوريا الديمقراطية - قسد)، وخاضعة لسلطة (الإدارة الذاتية).

ولعل من الأمثلة المهمة على المفارقات التي ينطوي عليها تداخل المصالح وتشابكها في هذه المنطقة، أنّ المسألة الكردية تمثل ((عامل صدام أو صراع بين تركيا والولايات المتحدة في عدد من الوجوه على الرغم من أنها هي نفسها عامل تنسيق وتحالف لجهة التزام الولايات المتحدة بأمن ووحدة تركيا باعتبارها عضواً في حلف الناتو، لكن لا يبدو أن ذلك الالتزام من الحسم بحيث يُطمئن تركيا، ويستجيب لها وجسها بهذا الصدد، وبخاصة أن الولايات المتحدة لم تعد تقرأ الموضوع الكردي - في داخل تركيا وخارجها - في إطار الحرب الباردة، وهي لا تعدّ الكرد خطراً على سياساتها الإقليمية⁽⁴⁴⁾، لذلك ((يبدو أن نقطة الضعف الرئيسة في سياسات تركيا الهادفة إلى احتواء التهديد الكردي (القائم أو المفترض) هي في مدارك ومواقف الولايات المتحدة الحليف الأوثق خلال عقود عدة، حتى الآن⁽⁴⁵⁾، ولا توجد مؤشرات على تغيير السياسة الأميركية تجاه الوضع في شمال وشرق سورية في المدى المنظور.

على الرغم من الموقف المتوتر بين حليفي الولايات المتحدة للدودين، إلا أنّها باسم التحالف الدولي الذي تقوده لمحاربة تنظيم (الدولة الإسلامية)، تحرص على التنسيق مع كليهما عندما تقتضي الترتيبات الأمنية ذلك. فعند بدء تسيير دورات عسكرية مشتركة بين الجيشين التركي والأميركي في أيلول (سبتمبر) 2019، في (منطقة الآلية الأمنية المحاذية للحدود السورية التركية) نشر (مكتب الدفاع) التابع للإدارة الذاتية بياناً رسمياً قال فيه: ((إن الإدارة الذاتية الديمقراطية ممثلة بكل مؤسساتها وقواتها العسكرية، على اطلاع مسبق بها وهي جزء من التفاهات التي عملت عليها قوات التحالف الدولي لنزع فتيل الحرب وتأمين الاستقرار في المناطق الحدودية وجزء من خارطة طريق للوصول إلى تفاهات مستدامة تؤمن الاستقرار بما يساهم بشكل فعال في دعم جهود قوات سوريا الديمقراطية (ملاحقة داعش)). وختم البيان بتوجيه الشكر (للشركاء) في التحالف الدولي والجيش الأميركي على

(43) كريستوف رويتر، السلطة السوداء، ص 310.

(44) عقيل سعيد محفوض، السياسة الخارجية التركية، ص 254.

(45) عقيل سعيد محفوض، السياسة الخارجية التركية، ص 319.

الجهد المبذولة ((للتوصل إلى تفاهمات تؤمن الاستقرار والسلام))، وشكر البيان ((قوات أمن الحدود والمجالس العسكرية المحلية التي لعبت دورًا مهمًا في تهيئة الأرضية لإنجاح مهمة هذه الدوريات وفق التفاهمات والتنسيق المتفق عليه))⁽⁴⁶⁾.

سادسًا: خاتمة

في ضوء ما تقدّم، يمكن القول إنّ التوصيف الملائم للحالة القائمة في منطقة الجزيرة السورية، خضوعها لسيطرة (فاعل دولي من غير الدول) هو سلطة (الإدارة الذاتي) التي تبدو كغيرها من الفاعلين الجدد من غير الدول الذين ((لا ينافسون الدولة على وظائفها فقط، بل ويلعبون قوة موازية، ويفرضون قوانينهم الخاصة))⁽⁴⁷⁾. ومن ثمّ يمكن لدراستها اعتمادًا على هذا المفهوم كأداة تحليل رئيسة أن تساعد الباحثين والسياسيين في التوصل إلى مقاربات أكثر واقعية وموضوعية، عند تناول أوضاع هذه المنطقة، واستشراف السيناريوهات المستقبلية المحتملة. هذا يتطلب إدراك المعطيات التي تحدّد بصورة فعلية الموقع الحقيقي للفاعل المعني ضمن خريطة المصالح الدولية والإقليمية المتشابكة في هذه المنطقة. وكذلك فهم بناءه وتناقضاته الداخلية، وسياساته وآليات اشتغاله في إدارة المنطقة التي يتحكّم بها، خصوصًا أنّه يمتلك هامشًا واسعًا للتعامل مع المعطيات المتبدّلة، نظرًا للاستقلالية النسبية التي يتمتع بها، بمعنى عدم تبعيته بالكامل لأي فاعل من الدول، وإمكان تكريس نفوذه، بما في ذلك استثمار الموارد والتحكم بها، فضلًا عن قدرته على التأثير والتفاعل مع غيره من الفاعلين الآخرين في العلاقات الدولية من الدول أو غيرها.

وبالنظر إلى توضع (الأمن القومي) في مقدّمة سلّم أولويات الدول عمومًا، وباعتبار أنّ مصادر تعرّضه للتهديد لم تعد مقتصرة على دول أخرى، وكذلك الحال في إيجاد شركاء لحمايته، فإنّ موقع الفاعلين من غير الدول يزداد أهميّة عند وضع سياسات الأمن القومي، بوصفهم حقيقة لا يمكن تجاهلها ضمن بنية (المجتمع الدولي) المعاصر، بعلاقاته المعقّدة، وتشابك مصالح أطرافه. ولأنّ مما ((يمكن أن يزعزع الاستقرار هو خطر تورّط القوى الكبرى في طموحات الحلفاء الصغار ومصاعيمهم))⁽⁴⁸⁾، فإنّ من المحتمل أن يحصل ذلك عند انحياز دولة ما لحلفاء (صغار) لا يشكّلون

(46) يمكن الاطلاع على البيان كاملاً عبر الرابط: <http://smne-syria.com/eb/?p=337>

(47) نادية محمود مصطفى، العلاقات الدولية في عالم متغيّر، ص 750.

(48) روبرت غيلين، الحرب والتغيير في السياسة العالمية، ص 283.

دولاً، على حساب دول أخرى تجد في هذا الانحياز تهديداً لمصالحها.

الإقرار بهذه الوقائع وأخذها بالحسبان لا شأن له بتحديد الوضع القانوني لهذا الفاعل أو ذاك والموقف السياسي تجاهه، خصوصاً إن كان يندرج ضمن أولئك الفاعلين الذين يعبرون، إلى حدّ ما، عن إفرازات نابغة من داخل المجتمعات لتسدّ احتياجات معيّنة، وبمقتضى ذلك يحوزون على التأثير والشرعية محلياً، الأمر الذي أمكن ترجمته إلى مكتسبات سياسية، مع القدرة على التكيف مع المتغيرات المصاحبة للمراحل الانتقالية، ليصبحوا تدريجياً مكوناً ثابتاً في التفاعلات السياسية والأمنية في المنطقة⁽⁴⁹⁾.

(49) روبرت غيلبن، الحرب والتغيير في السياسة العالمية، ص 304، 305 (بتصرف).

المصادر والمراجع

1. أوغلو. أحمد داود، العمق الاستراتيجي موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل (مترجمان)، ط2، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2011).
2. باروت. محمد جمال، العقد الأخير من تاريخ سوريا جدلية الحمود والإصلاح، ط1، (بيروت: المركز العربي للدراسات وبحوث السياسات، 2012).
3. بورتشيل. سكوت، وآخرون، نظريات العلاقات الدولية، محمد صفار (مترجمًا)، ط1، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014).
4. بوعكاكة. صليحة، مدخل إلى العلاقات الدولية، ط1، (فاس: أنفو- برانت للطباعة والنشر والتوزيع، 2017).
5. خاروداكي. ماريانا، الكرد والسياسة الخارجية الأميركية، خليل الجيوسي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2013).
6. رويتر. كريستوف، السلطة السوداء الدولة الإسلامية واستراتيجيو الإرهاب، محمد سامي الحبال (مترجمًا)، ط1، (الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2016).
7. سعيد محفوظ. عقيل، السياسة الخارجية التركية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).
8. غيلبين. روبرت، الحرب والتغير في السياسة العالمية، عمر سعيد الأيوبي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار الكتاب العربي، 2009).
9. —، الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، ط1، (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004).
10. فريق عمل، قصة مكان قصة إنسان، بدايات الثورة السورية 2011-2015، ط1، (بيروت: موقع الذاكرة الإبداعية للثورة السورية ومؤسسة فريدريش إيبيرت، 2017).
11. محمد فرج. أنور، نظرية الواقعية في العلاقات الدولية دراسة نقدية مقارنة في ضوء النظريات المعاصرة، ط1، (السليمانية: مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، 2007).

12. مصطفى. نادية محمود، (تحرير)، العلاقات الدولية في عالم متغير منظورات ومداخل مقارنة، ط1، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 2016).
13. ميرل. مارسيل، سوسيولوجيا العلاقات الدولية، حسن نافعة (مترجمًا)، ط1، (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1986).





الإدارة الذاتية والمسألة الكردية

دراسة للعلاقة والمستقبل في ضوء الخيارات السياسية المتاحة

سقراط العلوي⁽¹⁾

أولاً: ملخص

تناولت هذه الدراسة موضوع الارتباط بين الإدارة الذاتية والمسألة الكردية في سورية، وجادلت بأن حزب الاتحاد الديمقراطي نجح في تحويل الإدارة الذاتية من مشروع حزبي إلى مشروع قومي، وذلك عبر ضم أغلب الأحزاب الكردية إلى الإدارة الذاتية ومجلس سوريا الديمقراطية، وتوصله مع ما تبقى من أحزاب في المجلس الوطني الكردي إلى توافقات حول الرؤى لمستقبل الكرد السياسي في سورية، ومنها الحكم الذاتي بشكل الإدارة الحالية. ومن خلال هذا الارتباط أصبح الحل المستقبلي للمسألة الكردية في سورية رهناً إلى حد كبير بمصير الإدارة الذاتية، وذلك وفقاً لثلاثة سيناريوهات ناقشتها الدراسة بناءً على الواقعين السياسي والعسكري السوريين، والمواقف الإقليمية والدولية، إضافة إلى الاعتماد على أدبيات السياسة المقارنة وتجارب الحكم الذاتي في دول أخرى، وهي:

1. الاعتراف الرسمي بالإدارة بشكلها الحالي كإقليم على غرار التجربة العراقية، 2. إنهاء وجود الإدارة عسكرياً وإعادة المسألة الكردية في سورية إلى مربعها الأول، 3. تنازل الإدارة عن الحكم الذاتي مقابل اللامركزية الإدارية والحقوق الثقافية. وتوصلت الدراسة إلى أن السيناريو الأول مستبعد نتيجة لعوامل ذاتية وموضوعية، وأن السيناريو الثاني أكثر ترجيحاً من سابقه، ولكنه بالمقابل الأخطر لآثاره المباشرة وبعيدة المدى، أما الثالث فهو الأكثر واقعية والأقل تكلفة، على الرغم من احتوائه على احتمال استخدام الضغط العسكري لتحريك جمود المسارات التفاوضية. وختاماً أشارت الدراسة تبعاً لنتائجها إلى أن الأحزاب الكردية وهي تسعى إلى معالجة إحدى إشكالاتها المزمنة في سورية - وهي الانقسام - لا بد أن تأخذ بالحسبان تكلفة خياراتها السياسية، وتُقارب تطلعاتها من زاوية الحقائق

(1) باحث سوري.

التاريخية والديموقراطية، وليس من زاوية الفرصة التاريخية.

ثانيًا: مدخل

مرت الحركة السياسية الكردية في سورية منذ نشوئها بثلاث مراحل، شكلت الأولى منها بوادر تفتح الوعي القومي على يد قوميين أترك مُهجرين، أما المرحلة الثانية كانت مرحلة توطين التجربة القومية في سورية عبر إنشاء أول حزب كردي سوري عام 1957 الذي تأثر بالحالة العراقية، وانقسم تبعًا لانقساماتها، ثم جاءت المرحلة الثالثة على يد حزب العمال الكردستاني الذي سيطر على الساحة الكردية في ظل تحالفه مع النظام السوري وحالة الضعف والانقسام لباقي الأحزاب الكردية في سورية، وأعاد إحياء الهوية القومية الكردية بمفهومها الواسع العابر للحدود. وخلال تلك المراحل تطورت طروحات الأحزاب السياسية الكردية تطورًا منغلقًا من حيث انحسار نشاط الأحزاب على مناطق الكثافة الكردية، وانعدام التواصل والمناقشات نسبيًا مع باقي الأحزاب السورية، ومن ثم، لم تأخذ المسألة الكردية في سورية بعدها الوطني إلا بعد انتفاضة عام 2004، وانفتاح الأحزاب الكردية على المعارضة السورية في إعلان دمشق. وبصورة عامة لم تكن الحركة السياسية الكردية ممثلة بأحزابها وازنة سياسيًا في سورية كمثيلاتها في تركيا والعراق، الأمر الذي جعل طروحاتها متأثرة بتلك الحاليتين ورموزهما السياسية من ناحية، وبقوة السلطة الحاكمة في دمشق من ناحية أخرى، إذ بقيت الطروحات القومية الكردية في سورية تراوح بين حدين: أعلى قومي (كردستاني)، وأدنى وطني (كردي)، وبينهما انقسمت الأحزاب الكردية أيديولوجيًا وتنظيميًا.

ومع اندلاع الثورة السورية انقسمت الأحزاب الكردية بين مؤيد ومعارض لها ومتردد، إلا أن الاتجاه العام للأحزاب الكردية مال نحو المطالب القومية على حساب الوطنية، ومحاولة التوحد لخلق جبهة كردية تستطيع تعظيم مكاسبها القومية من طرفي الصراع السوري (النظام والمعارضة) بناءً على شعور بحاجة الطرفين إلى كسب الدعم الكردي. لم تفض مساعي التوحد إلى خلق مظلة كردية شاملة، بقدر ما أنتجت قطبين رئيسيين هما: الاتحاد الديمقراطي والأحزاب المتحالفة معه، والمجلس الوطني الكردي، وعلى الرغم من عدم القدرة على الاندماج بين الطرفين إلى الآن نتيجة عوامل داخلية وتأثيرات إقليمية؛ إلا أنهما خلقا أرضية مشتركة ورؤية موحدة للمسألة الكردية في سورية عبر اتفاقات وجولات تفاوض عدة، الأمر الذي جعل الإدارة الذاتية والفدرالية السياسية والمطالب الدستورية نقاط إجماع للأحزاب الكردية.

وعليه تجادل هذه الدراسة بأن تجربة الإدارة الذاتية هي أكثر التجارب الكردية نضجًا في إطار مطالبهم القومية في سورية؛ فالإدارة الذاتية لم تخلق حكمًا ذاتيًا فقط، وإنما احتكرت تمثيل المسألة الكردية أيضًا بحكم الأمر الواقع وما طورته من قدرات إدارية وعسكرية وسياسية على مدى السنوات الماضية بصورة لا يمتلكها أي من التيارات الكردية الأخرى في سورية. وهي بذلك لم تعد مشروعًا حزبيًا بل تحولت إلى مشروع قومي نقل مستوى المطالب الكردية من الاعتراف الثقافي إلى الاعتراف بالحكم الذاتي ضمن إقليم رسمت هي حدوده وموارده، ووسعته خارج مناطق الكثافة الكردية في سورية، ومن ثم أحدثت حالة أشبه بالتوأمة بين مصيرها المستقبلي ومصير المسألة الكردية في سورية. وهنا تسعى هذه الدراسة لاستشراف نتائج تلك التوأمة وآثارها في إطار ثلاثة احتمالات لمصير الإدارة الذاتية في شمال سورية وشرقها، وهي:

1. الاعتراف الرسمي بالإدارة بشكلها الحالي كإقليم على غرار التجربة العراقية.
2. إنهاء وجود الإدارة عسكريًا، وإعادة المسألة الكردية في سورية إلى مربعها الأول.
3. تنازل الإدارة عن الحكم الذاتي مقابل اللامركزية الإدارية والحقوق الثقافية.

وتكمن أهمية الدراسة في كونها تركز على الارتباط بين الإدارة الذاتية في سورية والمسألة الكردية من خلال مراجعة طروحات الحركة السياسية الكردية وتطوراتها منذ نشوئها، وبخاصة مرحلة ما بعد الثورة. وتستشرف آثاره المستقبلية بالاعتماد على أدبيات السياسة المقارنة وتحليل الواقع السوري، إضافة إلى القياس على تجارب مماثلة، وهو طرح غير مسبوق في الدراسات التي تناولت الإدارة الذاتية -بحسب اطلاع الباحث.

ولتحقيق أهداف الدراسة كان الاعتماد على التحقيق التاريخي في تتبع نشوء المسألة الكردية وتطورها في سورية، والمنهج الوصفي التحليلي في توصيف الإدارة الذاتية وتجربتها. واعتمدت الدراسة على الكتب والدراسات والصحف والمواقع الإلكترونية مصادر للبيانات.

ثالثًا: الحركة السياسية الكردية وتطلعاتها منذ النشأة إلى الثورة السورية

يعد التعاطي مع الحركة السياسية الكردية في سورية كأحزاب مهمة شاقة، نتيجة كثرة الأحزاب وانقساماتها، ولذلك سننعمد تقسيمها إلى مراحل تاريخية نتعاطى فيها مع الأحزاب التي تُكوّن نقاط عَلام لكل حقبة مع التركيز على وجهة نظرها من المسألة الكردية في سورية.

1. مرحلة خويبون

تعاظم الوجود الكردي في شمال سورية بالتهجير القسري نتيجة للقمع التركي بعد ثورة الشيخ سعيد بيران عام 1925، حيث تشير الإحصاءات إلى زيادة عدد القرى الكردية في المنطقة من 45 في 1927 إلى 700 في 1939، ومن بين المهجرين بطبيعة الحال كان هناك قوميون أكراد انتظموا في جمعية تُعنى بالهم القومي لأكراد تركيا عُرفت بـ(جمعية خويبون) وتعني (كن أنت نفسك) بالعربية. عقدت الجمعية مؤتمرها التأسيسي في تشرين الأول/ أكتوبر 1927 في لبنان، ونشطت في أوساط الكرد المهجرين إلى سورية من تركيا ظناً منها بأنهم الأكثر تأثراً بالخطابات المعادية للكمالية⁽²⁾. وكان جهد الجمعية يتمحور حول (کردستان تركيا)، إلا أن قياداتها المقيمين في الجزيرة السورية انشقوا بين جناحين آل بدرخان- حاجو آغا⁽³⁾ الذي انخرط ضمن الخطط الفرنسية في الثلاثينيات لإقامة كيان كردي- مسيحي في الجزيرة السورية، وجناح آل قدري جميل باشا الذي عارض تلك الخطط، وعدّ قادة خويبون محض لاجئين سياسيين في سورية⁽⁴⁾. ولم يُحدث هذا الانشقاق تغييراً في نظرة الجمعية في المستوى الأيديولوجي للوجود الكردي في سورية، إذ خلت خرائطها التي تصور كردستان حتى نهاية الجمعية في أواخر الأربعينيات من أي ذكر لمناطق وجود الأكراد في سورية (الجزيرة، عفرين، عين العرب)⁽⁵⁾، ولكنه قد يكون أحدث أثراً سيظهر لاحقاً في طروحات بعض القوميين الأكراد.

2. مرحلة الحزب الديمقراطي الكردي (البارتي)

اقتصرت النشاط الكردي في الخمسينيات على الجمعيات والأندية الثقافية التي مارست نشاطها في دمشق وحلب والقامشلي، وتُوّج هذا النشاط في العام 1957 بتشكيل أول حزب كردي في سورية، وهو

(2) مهند الكاطع، بواكير الحركة السياسية الكردية في سوريا: المنفى، جمعية خويبون، اختراع «غرب كردستان»، معهد العالم للدراسات، (2016)، <https://bit.ly/3IF5iei>

(3) حاجو آغا: زعيم قبلي من اتحاد هفيركان، وهو وافد جديد إلى سورية بين 1925-1928 في زمن تهدة القبائل مع تركيا التي شهدت عملية نزوح كثيفة لها باتجاه سورية. وصل الرجل مفلساً إلى سورية، ولكنه استطاع الحصول على مساحات من الأرض في القحطانية حالياً، ونفذ نتيجة لتحالفه مع الفرنسيين وتوجهه القومي الكردي الذي جعله أبرز زعماء خويبون في سورية.

(4) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا: الواقع، التاريخ، الأسطورة، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص75.

(5) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية في ضوء تحول اتجاهات النخب والأحزاب الكردية السورية، (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016)، ص3.

الحزب الديمقراطي الكردي (البارتي)⁽⁶⁾. تأثر الحزب تأثراً كبيراً بالحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، حيث بدأ أول اتصال بينه وبين الملا مصطفى البرزاني عام 1959، ونتيجة ذلك التأثر انقسم الحزب في مرحلة الستينيات إلى جناحين يساري ويميني، واستمرت الانقسامات حتى تفرع عن الحزب أكثر من أحد عشر حزباً وحركة؛ لتنتهي تجربة الحزب في أواسط الثمانينيات⁽⁷⁾.

شهدت مرحلة (البارتي) بداية طرح الأسئلة الجوهرية حول الوجود الكردي في سورية من قبيل: هل الكرد في سورية جزء من أمة (كردستان الكبرى) ويعيش على أرضه التاريخية، أم إنهم أقلية قومية في سورية ولا تقيم في وطنها التاريخي؟ وخضعت أجوبة تلك الأسئلة لانقسامات الحزب، فتشكل تيار يساري قومي متشدد ومتأثر بالحالة العراقية بقيادة عثمان صبري⁽⁸⁾، وتيار يميني معتدل أكثر عقلانية وواقعية في مقاربة الوجود الكردي في سورية بقيادة عبد الحميد درويش، ونشأت بين التيارين خلافات اتهم فيها اليساريون الطرف الآخر بخفض سقف المطالب الكردية إلى أدنى درجاته بعد الكرد في سورية أقلية قومية لا تقيم على أرضها التاريخية. ثم بدأت طروحات الجناح اليساري المدعوم من البرزاني تبلور باتجاه عدّ الكرد في سورية جزءاً من كردستان، وتبني شعار (تحرير ووحدة كردستان)، ليتراجع قليلاً في 1964 بعد مؤتمر للحزب، ويطرح فكرة ((أن الأكراد هم القومية الثانية في سورية، وليسوا أقلية، وأن لهم حقوقهم السياسية والاجتماعية والثقافية))، ولكن من دون توضيح ماهية تلك الحقوق. وانتهت رؤية هذا الجناح في 1965 بعد هيمنته على الحزب إلى أن ((الحقوق المشروعة للشعب الكردي في سوريا ترتبط عضوياً بتحقيق الاشتراكية، أي ربط النضال القومي بالطبقي، وأن الشعب الكردي في سوريا جزء من الأمة الكردية المقسمة بين أجزاء كردستان الأربعة))⁽⁹⁾.

3. مرحلة حزب العمال الكردستاني (PKK)

مع وصول حافظ الأسد إلى السلطة كانت الأحزاب الكردية في سورية في حال تفكك وضعف، الأمر الذي انعكس بالإضافة إلى قوة نظام الأسد في علاقتها به. فمنذ السبعينيات استبدل بكلمة (كردستاني) كلمة (كردي) في أدبيات الأحزاب الكردية في إشارة إلى حصر نشاطها ضمن الكرد

(6) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية في ضوء تحول اتجاهات النخب والأحزاب الكردية السورية، ص 5.

(7) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا: الواقع، التاريخ، الأسطورة، ص 76.

(8) عثمان صبري (1905-1993): كاتب وشاعر من أصل تركي سجن في عقب مشاركته في ثورة الشيخ سعيد، وانتقل بعد خروجه من السجن إلى سورية في 1930.

(9) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية في ضوء تحول اتجاهات النخب والأحزاب الكردية السورية، ص 6-9.

السوريين، والتنازل عن مطلب توحيد كردستان، وهي محاولة لتطمين حافظ الأسد لاقت ارتياحاً من قبله؛ فعلى الرغم من عدم اعتراف النظام قانونياً بالأحزاب الكردية إلا أنها استمرت بالعمل، وكان النظام متسامحاً معها.⁽¹⁰⁾

ومع مطلع الثمانينيات وانتقال قيادة حزب العمال الكردستاني PKK إلى سورية، بدأ الحزب يسيطر على الساحة الكردية، وذلك نتيجة لعوامل عدة أهمها: تراجع الأحزاب الكردية السورية التي كان حزب العمال يرى ألا مبرر لوجودها في مقابل خطاب حزب العمال الكردستاني الداعي إلى (الكرد الجديد) الذي أسهم في إعادة إحياء أو تكوين هوية كردية مشتركة. وأثار الصراع المسلح الذي قاده الحزب أيضاً مشاعر التعاطف لدى الأكراد السوريين، لأنه وفر إمكان تحقيق إنجازات سياسية ملموسة، وذلك خلافاً للنشاط السياسي الذي اضطلعت به الأحزاب الكردية السورية الأخرى والذي نادراً ما أتى أكله، ومن ثم وجد كُرد سورية في شخص أوجلان قائداً كاريزمياً للقومية الكردية بعد مصطفى البرزاني. يضاف إلى ذلك ما أتاحه تحالف الحزب مع نظام الأسد من أمان للمنتسبين من ناحية، وموارد مادية كبيرة من الأتاوات المفروضة على المؤسسات التجارية المملوكة لأكراد، والسيطرة على التجارة غير الشرعية الرابحة من مثل المخدرات والأسلحة على طول الحدود التركية - السورية من ناحية أخرى، لذا وجد شباب المناطق الفقيرة أن انخراطهم في الحزب قد يتيح لهم تحقيق تقدم اقتصادي واجتماعي⁽¹¹⁾.

وفي ما يخص رؤية الحزب لأكراد سورية، فمنذ دخوله إلى سورية رأى أن لا أكراد في سورية، وأنهم لاجئون أترك، وقد عبر عبد الله أوجلان بصراحة عن ذلك، حيث قال: ((إن سوريا والكرد سيكونون مسرورين بحركة عودة نحو الشمال {يقصد تركيا}))⁽¹²⁾، ومن ثم، فليس ثمة مسألة كردية في سورية. إذ يبدو أن سورية بالنسبة إلى الحزب كانت قاعدة لتنظيم صفوفه واستئناف نشاطه في تركيا من جهة، وخزاناً بشرياً لرفد مقاتليه من جهة ثانية، حيث تشير التقديرات إلى أن أكراد سورية شكلوا 25 بالمئة من مقاتلي الحزب⁽¹³⁾.

حقق تحالف الأسد وأوجلان مكاسب للطرفين في مستوى الساحة الكردية في سورية؛ فبالنسبة إلى النظام أسهمت هيمنة الحزب الأيديولوجية في سورية في توجيه النزعة القومية الكردية السورية

(10) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية...، ص 10.

(11) جوردي تيجيل، أكراد سورية: بين ماضي مضطرب ومستقبل غير مؤكد، مركز مالكوم كير- كارنيغي الشرق الأوسط، (2012)، <https://bit.ly/3MLji8T>

(12) ديفيد مكدول، تاريخ الأكراد الحديث، راج آل محمد (مترجماً)، (بيروت: دار الفارابي، 2004)، ص 714.

(13) جوردي تيجيل، أكراد سورية: بين ماضي مضطرب ومستقبل غير مؤكد.

نحو تركيا، وأسهم هذا التحالف بفتح أبواب كانت مغلقة سابقاً في وجه الأكراد من مثل الانتساب إلى أجهزة الأمن وقطعات عسكرية معينة مثل سرايا الدفاع إضافة إلى مؤسسات الدولة، وتراخي النظام في تقييد نشاط ثقافي كردي من مثل الاحتفال بالنوروز⁽¹⁴⁾. ولكن بالمقابل أسهم ترك النظام الحزب يتحرك بحرية في الساحة الكردية في إعادة إحياء الهوية الكردية، وتوطيد القومية الكردية في سورية. وكانت النتيجة السياسية الأكثر وضوحاً لذلك هي اعتماد الأحزاب الجديدة، مثل حزب يكي تي (الوحدة) مصطلح (كردستان سورية) للإشارة إلى شمال سورية، عوضاً عن المصطلح التقليدي (المناطق الكردية في سورية)⁽¹⁵⁾.

في 1998 وضمن السياق المعروف للضغط التركي أنهي الوجود العسكري للحزب في سورية قيادة ومعسكرات، واستمر نهج التضييق على الحزب في عهد بشار الأسد نتيجة التحسن في العلاقات مع تركيا، إذ سُلم عشرات الناشطين التابعين لحزب العمال إلى السلطات التركية، وصدرت أحكام بالسجن راوحت بين سنة وعشر سنوات بحق مقاتلي الحزب السابقين العائدين إلى سورية⁽¹⁶⁾. وعلى الرغم من تلك الإجراءات التي اتخذها النظام السوري لم تنقطع العلاقة بصورة نهائية مع الحزب، فقد كانت سورية من ضمن الدول التي طالبتها مراجعات أو جلان التي تضمنت حل حزب العمال وتشكيل أربعة أحزاب تابعة للعمال الكردستاني في تركيا وإيران والعراق وسورية، ففي عام 2003 شكّل حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD) الفرع السوري للحزب⁽¹⁷⁾، وتركز جهده في المحافظة على تأييد آلاف من أعضاء حزب العمال الكردستاني ومناصريه⁽¹⁸⁾.

ومنذ تأسيس (PYD) بقيت العلاقة بينه وبين النظام السوري من جهة وبين قيادة حزب العمال من جهة أخرى مهمة، ففي مستوى العلاقة مع النظام السوري استمرت قنوات الاتصال مفتوحة بين الطرفين على الرغم من أن النظام كان يضيق على نشاط الحزب، ويعتقل أعضائه من مدة إلى أخرى⁽¹⁹⁾، وهو ما بينه موقف ((PYD من انتفاضة 2004، حيث اتخذ الحزب موقفاً ملتبساً منها

(14) ديفيد مكدول، تاريخ الأكراد الحديث، راج آل محمد (مترجمًا)، ص 710-714.

(15) جوردي تيجيل، أكراد سورية: بين ماضي مضطرب ومستقبل غير مؤكد.

(16) جوردي تيجيل، أكراد سورية: بين ماضي مضطرب ومستقبل غير مؤكد.

(17) : هوشنك أوسي، «حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD): محنة الهوية والتباس المشاريع والأدوار المرسومة له محلياً وإقليمياً (2)»، موقع ياكيتي ميديا، (2017)، <https://bit.ly/3t9lQ9f>

(18) جوردي تيجيل، أكرتد سورية...

(19) جوردي تيجيل، أكراد سورية.

أعاق امتدادها إلى مناطق الكثافة الكردية كافة، ولا سيما عفرين⁽²⁰⁾. أما في مستوى العلاقة مع قيادة حزب العمال فقد تم تجاهل وجود (PYD) ونشاطه وقياداته في سورية من قبل إعلام حزب العمال الرسمي، بل تم تجاهل تغطية أخبار كرد سورية حتى في حوادث مفصلية من مثل انتفاضة عام 2004 واغتيال معشوق الخزنوي في 2006،⁽²¹⁾ وهو استمرار على ما يبدو لنهج الحزب في التحالف مع النظام السوري، وعدم اعترافه بالمسألة الكردية في سورية.

ومن خلال المراجعة السالفة يمكن تكثيف بعض النقاط حول الحركة السياسية الكردية في سورية قبل الثورة:

أ. تعاني الحركة السياسية الكردية أزمة تجذّر وتوطّن في المستوى السياسي في سورية، وهي أزمة هوية تتجلى في انقسام الأحزاب الكردية حول ماهية الوجود الكردي في سورية، وغموض مطالبهم المتعلقة بالحقوق الثقافية والسياسية، إضافة إلى اقتصر نشاط الأحزاب على الوسط الكردي فقط من دون وجود أي احتكاك مع الأحزاب السورية الأخرى، ولا سيما المعارضة منها حتى ما بعد عام 2000، إضافة إلى التأثير الكبير للحالة الكردية في العراق وتركيا في نظيرتها السورية، حيث يصل هذا التأثير إلى حد التبعية. ويغيب عن تاريخ الحركة الكردية في سورية وجود شخصية قيادية كاريزمية، إذ لطالما كانت الرموز لدى كرد سورية غير سورية، وهي بالتحديد الملا مصطفى البرزاني، ولاحقاً عبد الله أوجلان. ويمكن إرجاع هذه الحالة إلى طبيعة تشكل الحركة السياسية الكردية في سورية التي بدأت مع سياسيي خويبون المشغولين بالهمّ التركي، ومن ثم تطورت بدلالة الحالة العراقية، ولتنتهي إلى ما بدأت منه مع حزب العمال الكردستاني.

ب. تنعكس أزمة الهوية لدى الحركة السياسية الكردية في طروحات وتصورات أحزابها لحل المسألة الكردية في سورية، وهو أمر يتضح من خلال استخدام كلمتي (كردي) و(كردستاني) في أدبيات تلك الأحزاب منذ نشوئها إلى ما قبل ثورة م 2011، ففي حين يرى الحزب التقدمي الديمقراطي أن ((أكراد سوريا هم مكون من النسيج الوطني السوري))، يرى تيار المستقبل أن ((أكراد سوريا جزء من الشعب الكردي وأرضهم جزء من كردستان))، وتطرح الأحزاب الكردية كافة فكرة الإدارة الذاتية، وإن كانت بتصورات مختلفة، ويستثنى من هذا الطرح الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي والبارتي جناح نصر الدين إبراهيم⁽²²⁾.

(20) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا...، ص 96.

(21) : هوشنك أوسي، «حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD): محنة الهوية والتباس المشاريع والأدوار المرسومة له محلياً وإقليمياً (2)».

(22) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا، ص 86-87.

إلا أن انتفاضة 2004 كانت حاسمة في تصورات الأحزاب الكردية، فقد أحدثت تقارباً مع المعارضة السورية في إعلان دمشق، ومن ثم عمقت البعد الوطني للطرح القومي الكردي الذي تجلّى في عدّ المسألة الكردية جزءاً من القضية الديمقراطية في سورية، والنضال المشترك من أجل الديمقراطية هو في الوقت نفسه نضال من أجل حلّ عادل للقضية الكردية⁽²³⁾.

ت. تميزت العلاقة بين الحركة السياسية الكردية والحكومات السورية المتعاقبة منذ ما قبل الاستقلال وصولاً إلى البعث بعدم الثقة، وهو أمر يعود إلى طبيعة الطرفين القومية من ناحية، وارتباط الحركة السياسية الكردية بأطراف إقليمية من ناحية أخرى، يضاف إلى ذلك مواقف بعض رموز الحركة الكردية المتطرفين قومياً من قضايا تعدد ذات أهمية وطنية كبرى للسوريين، مثل الموقف من الحكومة الوطنية 1936 والموقف من الحرب مع إسرائيل 1948 والوحدة مع مصر 1958⁽²⁴⁾. وقد أنتجت حالة عدم الثقة بربواغندا حكومية معادية ضد الأكراد تعدّ الجزيرة أكثر المحافظات السورية خطراً على الحكم القومي في دمشق، وسياسات متفاوتة من التضييق بدأت منذ الخمسينيات بالإقصاء من الجيش وصولاً إلى الإحصاء الاستثنائي وسياسات التعريب. وتزايد خوف دمشق من الجزيرة بعد عام 1945 حين تدفق آلاف من الفلاحين الأكراد من تركيا نتيجة البطالة إلى سورية، ما أسهم في زيادة عدد السكان في الجزيرة بنسبة 27 بالمئة بين 1954 و1961، وهو الأمر الذي شكل الدافع للإحصاء الاستثنائي في عام 1962⁽²⁵⁾.

ث. تمتاز الحركة السياسية الكردية في سورية بطغيان التوجه القومي وعدم وجود تيار إسلام سياسي فاعل، إضافة إلى عدم تبنيها العنف كوسيلة لنيل الحقوق على غرار الحالتين الكرديتين في العراق وتركيا⁽²⁶⁾. وهو أمر أدى إلى نشاطها في مناطق الكثافة الكردية فقط

(23) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية، ص 13.

(24) بعد معاهدة الاستقلال 1936 ظهرت حركة معادية للحكومة في دمشق ومطالبة بالحكم الذاتي من قبل المسيحيين والكرد في الجزيرة ممثلة بحاجو أغا ومحمود المليلي، أدت تلك الحركة إلى صدام عنيف مع الحكومة في العام 1937 ثم انعقاد مؤتمر الجزيرة برئاسة حاجو أغا، ناشد فيه فرنسا بإعطائه حكماً ذاتياً تاماً، لتستجيب فرنسا في العام 1939 بفرض حكم فرنسي مباشر على الجزيرة استمر حتى الاستقلال. وبعد الاستقلال وبخلاف أكراد دمشق وحلب المرشحين بالحكومة الوطنية، كان هناك تلمل لدى القوميين الكرد في الشمال، وبقيت نزعة الاستقلال تشغل بال المتطرفين منهم، الأمر الذي دفع كاميران بدرخان ممثل الحركة القومية الكردية في أوروبا لإعداد تقرير بتكليف من إسرائيل، يقترح فيه دعم تمرد للأقليات في سوريا ولبنان والأردن بعد حرب 1948 لإعاقة الجهد العسكري العربي، ولكن إسرائيل لم تأخذ التقرير على محمل الجد، وعلى أي حال لم يكن التواصل مع الوكالة اليهودية حكراً على قوميين كرد، وإنما كان لأقليات أخرى التواصل ذاته في سورية ولبنان. ديفيد مكحول، تاريخ الأكراد الحديث، ص 670-678. وفي زمن الوحدة تعرضت قيادة البارتي للاعتقال بعد رفضها حل الحزب، وتغير موقفها الداعم للوحدة إلى موقف معادٍ تماشيًا مع موقف عبد الكريم قاسم في العراق. شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية، ص 6.

(25) ديفيد مكحول، تاريخ الأكراد الحديث، ص 703.

(26) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا، ص 84-85.

إضافة إلى عدم ملاحقة قياداتها أو التنكيل بأحزابها كما حدث لغيرها من الأحزاب السورية، فعلى الرغم من عدم اعتراف حافظ الأسد بالأحزاب الكردية وصل ثلاثة من قياداتها إلى مجلس الشعب في 1990.

ج. تتصف الأحزاب الكردية السورية بالتشظي والانقسام، وعلى الرغم من اتخاذ تلك الانقسامات والانشقاقات الحزبية طابعاً أيديولوجياً أحياناً، إلا أن جوهرها الغالب تنافس على القيادة في تناقض مع كلمة (ديمقراطي) التي تستخدمها تلك الأحزاب معظمها في مسمياتها. إذ عادةً ما يحيط زعيم الجماعة المنشقة نفسه بمجموعة من أقربائه؛ فيتخذ الحزب الطابع العائلي، وهذا عائد إلى طبيعة المجتمع الكردي الريفية، حيث تعتمد القيادة السياسية على العلاقات العائلية والقربى⁽²⁷⁾. ولذلك فإن عدد منتسبي الأحزاب الكردية في أحسن أحوالها لا يتجاوز بضعة آلاف بحسب مصادر الأحزاب ذاتها⁽²⁸⁾، ومن ثم، فالسلطات السورية المتعاقبة لم تأخذها على محمل الجد لأنها لا تشكل تحدياً لها، الأمر الذي سبب إحباطاً للشارع الكردي الذي يتطلع إلى قوة سياسية تمثله⁽²⁹⁾. وهو أمر جوهري في فهم سيطرة حزب العمال على المشهد السياسي الكردي منذ الثمانينيات من خلال قدراته التنظيمية وعدم اعتماده على علاقات القربى.

ح. تنظر الأحزاب الكردية معظمها إلى الأحزاب السورية الأخرى من زاوية قومية مبنية على موقف تلك الأحزاب من وجهة النظر السياسية الكردية، وفي حال لم تكن منسجمة معها بالمطلق في طروحاتها، فتلك الأحزاب ((لم تتحرر من المنظومة المفهومية التي رسخها حزب البعث))، وهو التعبير الذي استخدمه عبد الباسط سيدا في وصف أحزاب إعلان دمشق بعد الحوارات التي عقدت إبان التحضير للإعلان مع الأحزاب الكردية⁽³⁰⁾. وهذا أمر يعكس أزمة ثقة بين الطرفين، فعلى الرغم من انضمام أحزاب كردية إلى إعلان دمشق على قاعدة عدّ القضية الكردية قضية وطنية سورية، ورفع الظلم الواقع على الكرد بما يحقق لهم المساواة الكاملة مع غيرهم بوصفهم مواطنين سوريين في إطار وحدة سورية⁽³¹⁾، إلا أن هذا التقارب كان هشاً، وهو ما ظهر لاحقاً في الثورة السورية.

(27) ديفيد مكبول، تاريخ الأكراد الحديث، ص 712.

(28) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا، ص 80-81.

(29) ديفيد مكبول، تاريخ الأكراد الحديث، ص 712.

(30) عبد الباسط سيدا، «الكرد والثورة السورية»، مجلة سياسات عربية، ع: 29، (تشرين الثاني/ نوفمبر، 2017)، ص 76.

(31) شمس الدين الكيلاني، المسألة الكردية، ص 14.

رابعاً: الثورة السورية ونشوء الإدارة الذاتية

مع اندلاع الثورة السورية كان الشارع الكردي غير الحزبي سبّاقاً إلى المشاركة فيها، إذ بدأت تظاهرات تقدر بالمئات منذ 1 نيسان/ أبريل في عامودا وعين العرب بتنظيمات شبابية خارج الأحزاب الكردية التقليدية أبرزها (حركة شباب الكرد) التي تفرعت منها التنسيقيات اللاحقة أغلبها. ويذكر أن النظام السوري حاول احتواء الحراك الكردي، فبخلاف المناطق النائية الأخرى لم يسقط أي قتيل في التظاهرات الكردية حتى تشرين الأول/ أكتوبر 2011 في التظاهرات التي أعقبت اغتيال مشعل تمو.

أما في ما يخص الأحزاب الكردية، فقد بقيت بمنأى عن الحراك الشعبي، في ما يبدو أنها قراءة قومية للحدث السوري تبتزّ النظام لتحصيل مكاسب في هذه المرحلة أفضل من استفزازه، خصوصاً أنه يحتاج إلى تهدئة المناطق الكردية. وفعلياً لم تشارك القواعد الحزبية الكردية في الاحتجاجات، الأمر الذي جعلها محدودة العدد والانتشار في الشارع الكردي⁽³²⁾، ولم يكسر هذا الموقف الحزبي إلا أحزاب يكيي وآزادي وتيار المستقبل التي اتخذت قراراً مبكراً بالمشاركة الرسمية في الاحتجاجات عبر بيان أصدرته في 7 حزيران/ يونيو 2011.⁽³³⁾

وعلى الجانب الآخر اتخذت أحزاب الديمقراطية التقدمي واليساري الكردي والاتحاد الديمقراطي وحزب الوحدة الديمقراطي مواقف معادية للثورة السورية⁽³⁴⁾. ومع تصاعد المواقف الدولية الداعمة للثورة السورية، دخلت الأحزاب الكردية المترددة على خطها، وأسهم دخول كوادرها في حرف مسار الاحتجاجات الكردية نحو التحول من الشعارات الوطنية إلى شعارات قومية. وفي المستوى السياسي شاركت أحزاب كردية في مؤتمرات المعارضة السورية وتشكيلاتها اللاحقة (هيئة التنسيق والمجلس الوطني) كلها، ولكن بصفتها كتلة كردية متميزة، وهو الهاجس الذي كان يشغل الأحزاب الكردية لتشكيل جبهة موحدة قادرة على التفاوض مع النظام والمعارضة من زاوية مصالحها مستغلة رغبة الطرفين في كسب التأييد الكردي⁽³⁵⁾. وعُقد عدد من محاولات التوحيد؛ إلا أن أيّاً من هذه المحاولات لم يفلح في خلق موقف كردي موحد، وإنما أنتجت طرفان كرديان بارزان، وهما حزب الاتحاد الديمقراطي والأحزاب المتحالفة معه والمجلس الوطني الكردي⁽³⁶⁾.

(32) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا، ص 98-106.

(33) مهند الكاطع، «مراجعات حول الأكراد والثورة السورية»، معهد العالم للدراسات، (2018)، <https://bit.ly/38lAiq>.

(34) علي بدران، «دور الكرد والثورة السورية»، المركز الديمقراطي العربي، (2016)، <https://bit.ly/377foHh>.

(35) مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا، ص 116 - 123.

(36) تشكّل المجلس الوطني الكردي في سورية في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 2011 في أربيل بالعراق، برعاية مسعود بارزاني رئيس حكومة إقليم كردستان العراق. ويضم ستة عشر حزباً كردياً. للمزيد حول المجلس راجع: د.م، «المجلس الوطني الكردي في سوريا»، مركز

وعلى الرغم من انقسامها الداخلي، تشترك الأحزاب الكردية في تصعيدها لمطالبها القومية بعد الثورة، فبالنسبة إلى المجلس الوطني الكردي كانت طروحاته تتمحور حول الاعتراف الدستوري بـ (الأمة الكردية)، أي إن الأكراد السوريين يعيشون على أرضهم التاريخية، وبأنهم القومية الثانية في البلاد، ولهم حق تقرير المصير، ويقترح اللامركزية السياسية بشكلها الفدرالي نظامًا للحكم مستقبلاً⁽³⁷⁾. أما بالنسبة إلى حزب الاتحاد الديمقراطي، فقد اتخذ مبكرًا خطوات باتجاه التطبيق الفعلي لرؤيته للحل، وهو الإدارة الذاتية، كان أبرز هذه الخطوات تشكيل مجلس شعب غرب كردستان في أيلول/ سبتمبر 2011،⁽³⁸⁾ وبصورة عامة أصبح مصطلح (كردستان) هو الغالب على لسان السياسيين الكرد في إشارة لتغليب القومي على الوطني.

أدى تصاعد مطالب الأطراف الكردية وانقلابها على تفاهات إعلان دمشق مع المعارضة السورية إلى توتر العلاقة سواء مع هيئة التنسيق أم مع المجلس الوطني السوري والائتلاف، ولاحقًا الهيئة العليا للتفاوض، وفي حين أبعد حزب الاتحاد الديمقراطي عن تشكيلات المعارضة السورية، بقي طابع العلاقة بينها وبين المجلس الوطني المشارك فيها جميعًا يتسم بعدم التوافق حول الرؤية المتعلقة بالمسألة الكردية، إذ ترفض المعارضة فكرة اللامركزية السياسية، وتطرح لامركزية إدارية لكامل سورية فقط⁽³⁹⁾. وفي ما يخص العلاقة بين قطبي السياسة الكردية بعد الثورة (حزب الاتحاد الديمقراطي والمجلس الوطني)، كان هناك توافق على المطالب العامة، وأهمها الفدرالية نظامًا سياسيًا مستقبليًا لسورية موحدة، وضرورة وجود إدارة ذاتية للمناطق الكردية، وهو ما عكسته الاجتماعات بين الطرفين التي رعاها مسعود البرزاني في إقليم كردستان العراق، وهي اجتماعات (هولير 1 و 2) في 2012 التي أنتجت مجلسًا مشتركًا⁽⁴⁰⁾، واتفاق دھوك في 2014 الذي حدد نسب تقاسم الإدارة بين الطرفين في مؤسسات الإدارة الذاتية بـ 40 بالمئة لكل طرف و 20 بالمئة للمستقلين عنهما⁽⁴¹⁾. وكان عدم تطبيق تلك الاتفاقات ناجم عن رفض الاتحاد الديمقراطي الالتزام بها، وبخاصة التقاسم الفعلي للإدارة⁽⁴²⁾، إضافة إلى استمراره في استخدام التهريب أداة للضغط على أحزاب المجلس الوطني من

مالكوم كير - كارنيغي، <https://bit.ly/3K0P2VH>

(37) د.م، المجلس الوطني الكردي في سوريا، مركز مالكوم كير - كارنيغي.

(38) د.م، «مجلس الشعب في غرب كردستان يصدر البيان الختامي لأعمال مؤتمره الأول»، موقع (ANF News)،

<https://bit.ly/38oCiug>

(39) عبد الباسط سيدا، «الكرد والثورة السورية»، ص 81.

(40) د.م، حزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني.

(41) أحمد محمد، «ما هي بنود اتفاقية دھوك؟»، موقع <https://bit.ly/3DNcLGV>، (2020)، ANHA.

(42) محمد عبد الستار إبراهيم، «المفاوضات الكردية-الكردية: تفاهم أولي مشوب بالشك والقلق»، موقع سوريا على طول، (2020).

خلال اعتقال قياداتها وتهجيرهم، ومداومة مكاتبتها في مناطق الإدارة عبر أذرعه الأمنية، وإغلاقها⁽⁴³⁾. وفي الحصيلة يمكن القول إن حزب الاتحاد الديمقراطي قد تمكن الهيمنة على الساحة السياسية الكردية، إذ انسحبت الأحزاب المكونة للمجلس الوطني الكردي معظمها، وانضمت إلى الإدارة الذاتية ومجلس سوريا الديمقراطية التابعين للحزب⁽⁴⁴⁾.

الإدارة الذاتية

في نيسان / أبريل 2011، وجه عبد الله أوجلان رسالة مباشرة للنظام السوري عبر محاميه بعد لقاء بشار الأسد بممثلي العشائر الكردية، وكان مضمونها ((هنالك أخبار بشأن لقاء الأسد مع العشائر الكردية في سوريا، بينما على الأسد أن يلتقي بالتنظيمات الكردية، فهناك حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD)، وإذا أجرت سوريا والأسد إصلاحات ديمقراطية، فإننا سندعمها، حيث يمكن الاعتراف بالحقوق الثقافية والإدارة الذاتية أي الإدارة الذاتية الديمقراطية ضمن هذه الإصلاحات))⁽⁴⁵⁾.

ويبدو أن أنصار أوجلان والنظام السوري التقطوا الإشارة، ودخلا في تحالف غير معلن، نتج منه السماح لصالح مسلم بالعودة إلى سورية، وإطلاق سراح زوجته، وتدفق مقاتلي حزب العمال إلى سورية لقمع الاحتجاجات في المناطق الكردية، وتنفيذ اغتيالات بحق الناشطين، ومن ثم تهيئة الأوضاع لاستلام إدارة المناطق ذات الكثافة الكردية مع بقاء سلطة النظام الأمنية فيها⁽⁴⁶⁾. فمنذ منتصف عام 2012 بدأ النظام بالانسحاب من المناطق الكردية وتسليمها لعناصر PKK وفق محاضر تسليم في بعض المناطق مثل عفرين، حتى إن ((مزحة راجت بين الأهالي حينها، مفادها أن محاضر

<https://bit.ly/3qX7ebc>

(43) في أثناء إعداد هذه الدراسة وتحديثاً في النصف الثاني من نيسان / أبريل 2022 شهدت مقرات المجلس الوطني الكردي في الحسكة وتل تمر وعين العرب / كوباني سلسلة من الحرائق المتعمدة على يد ما يعرف بالشبيبة الثورية (جوانن شورشكر) التابعة لحزب العمال الكردستاني. للمزيد راجع: «د.م»، «الشبيبة الثورية» تحرق أربعة مقار للمجلس الوطني الكردي في عين العرب وتل تمر»، موقع تلفزيون سوريا، 2022،

<https://bit.ly/3skZMYv>

(44) لمزيد حول الأحزاب التي انشقت عن المجلس وانضمت إلى الإدارة الذاتية ومجلس سوريا الديمقراطية، انظر: سردار إبراهيم، «ماذا بقي من المجلس الوطني الكردي؟»، موقع <https://bit.ly/35zbRkz>، (2021)، XEBER24،

(45) هوشنك أوسي، «حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD): محنة الهوية والتباس المشاريع والأدوار المرسومة له محلياً وإقليمياً (2)».

(46) هوشنك أوسي، «حزب الاتحاد الديمقراطي...».

الاستلام شملت حتى صور الأسد⁽⁴⁷⁾، وبذلك يكون الحزب قد ضبط للنظام الساحة الكردية ونقاهها من المعارضين له بالقمع والاعتقال والإبعاد، وفي المقابل ملكه الأسد المناطق الكردية، وهو ما روجه الحزب لأنصاره على أنه ثمرة لثورة (روجافا) كما أسماها.

ومنذ أواخر 2011 بدأ حزب الاتحاد الديمقراطي باتخاذ خطوات جدية نحو الإدارة الذاتية التي أوعز بتشكيلها أوجلان؛ ففي كانون الأول/ ديسمبر 2011 أُعلن تشكيل مجلس شعب غرب كردستان، وحركة المجتمع الديمقراطي لغرب كردستان (TEV-DEM) وهي ائتلاف أحزاب تمثل هيئة الحكم، إضافة إلى المحكمة الشعبية العليا، واللجنة العليا للانتخابات⁽⁴⁸⁾. وبعد فشل التفاهات التي توصل إليها الحزب مع المجلس الوطني الكردي للتوحد، ورفض طلبه الانضمام إلى الائتلاف الوطني السوري بالتزامن مع حوار مع الحكومة التركية، ومن ثم انضمام المجلس الوطني الكردي للائتلاف، أقدم الحزب على خطوة إعلان الإدارة الذاتية⁽⁴⁹⁾.

أُعلنت الإدارة الذاتية في آذار/ مارس 2014، وضمت ثلاثة أقاليم بحسب توصيفاتها: إقليم الجزيرة، وإقليم الفرات، وإقليم عفرين. وهي المناطق التي سيطرت عليها ميليشيا PYD وأجنحتها العسكرية حينئذٍ، ومع التحالف بين حزب الاتحاد الديمقراطي والولايات المتحدة الأمريكية، وبدفع من الأخيرة وسع الحزب حركة المجتمع الديمقراطي لغرب كردستان (TEV-DEM) إلى ما يسمى (مجلس سوريا الديمقراطية - مسد)، وفي المستوى العسكري أُعلن في العام نفسه 2015، عن تشكيل (قوات سوريا الديمقراطية) التي تضم تشكيلات عربية وتركمانية وسريانية إلى جانب قوات (وحدات الحماية ذراعه العسكرية. ومع استحواذ (قوات سوريا الديمقراطية) على مدينة الرقة والطبقة وأجزاء من ريف دير الزور، ضُمَّت تلك المناطق إلى الإدارة الذاتية، وشكّلت مجالس محلية لإدارتها؛ لتعلن بعدها الإدارة الذاتية بشكلها الحالي في 6 أيلول/ سبتمبر 2018 على مساحة تعادل ثلث الأراضي السورية، وتضم ثروات مهمة باطنية وزراعية ومائية، وخليطاً متنوعاً من السكان.⁽⁵⁰⁾

تُعرف الإدارة الذاتية نفسها بأنها نظام إداري وسياسي للمجتمع، وهي بذلك أعلنت عقداً اجتماعياً خاصاً بها كدستور ناظم لمكونات المجتمع في مناطق سيطرتها، وهو يقوم على رفض الدولة المركزية، وتبني اللامركزية السياسية نموذجاً للإدارة الذاتية، ويطالب بتعميمها في سورية. وتتكون

(47) حسين جلبي، روجافا خديعة الأسد الكبرى: قراءة في ست سنوات من التيه الكردي، ص 146.

(48) دم، مجلس الشعب في غرب كردستان يصدر البيان الختامي لأعمال مؤتمره الأول.

(49) عبد الباسط سيدا، «الكرد والثورة السورية»، ص 83.

(50) سقراط العلو، «تداعيات التنافس في شرق الفرات على الفاعلين المحليين والأزمة السورية»، مركز الجزيرة للدراسات، (2020)،

<https://bit.ly/3u0t1kf>

الإدارة في المستوى المركزي من (المجلس العام) الذي يمثل السلطة التشريعية، (المجلس التنفيذي) يمثل السلطة التنفيذية، (مجلس العدالة) السلطة القضائية، أما في المستوى الفدرالي فلكل إقليم من الأقاليم إدارته المدنية والعسكرية وسلطاته التشريعية والتنفيذية والقضائية⁽⁵¹⁾. وتشكل الإدارة الذاتية نموذجًا حوكميًا متكاملًا، إضافة إلى أنها كيان إداري متضخم، إذ يبلغ عدد موظفيها المدنيين بحسب تصريحات رسمية 120 ألف موظف مدني من دون حساب مقاتلي (قوات سوريا الديمقراطية)⁽⁵²⁾، في ما يبدو أنها محاولة لاستنساخ تجربة الدولة العربية في ربط أكبر قدر من الأفراد بمصالح اقتصادية معها في مقابل التنازل عن الحقوق السياسية.

وعلى الرغم من امتلاكها نموذجًا حوكميًا متكاملًا، تعاني الإدارة الذاتية مشكلتين جوهريتين، وهما⁽⁵³⁾:

1. مشكلة الهوية: تواجه الإدارة الذاتية إشكالية في علاقتها مع المكونات الخاضعة لسيطرتها تتعلق بهويتها وتوجهها السياسي. وهي ناتجة من تبني حزب الاتحاد الديمقراطي الفكر (الأوجلاني)⁽⁵⁴⁾، والترويج له عبر المناهج التعليمية ومؤسسات الإدارة الذاتية⁽⁵⁵⁾، بما يحمله ذلك الفكر من مضامين وأبعاد لا تتناسب مع توجهات الأغلبية العظمى من الأهالي، وخاصة في المناطق العربية. إن إيمان الحزب المُعلن على الأقل بنظرية الأمة الديمقراطية التي تتجاوز القضية القومية للأكراد يضعف دعم حاضنته الشعبية الكردية في سورية وما يمثلها من أحزاب⁽⁵⁶⁾. ويضاف إلى ذلك موقف الحزب والإدارة الذاتية تجاه الثورة السورية، إذ تصنف الإدارة نفسها طرفًا ثالثًا بين المعارضة والنظام، في حين ينتمي أبناء المناطق التي تهيمن عليها الإدارة إلى الثورة السورية⁽⁵⁷⁾.
2. مشكلة الشرعية: لا يعترف أي من الأطراف الإقليمية والدولية الداعمة للإدارة الذاتية

(51) ساشا العلو وشادي أبو فجر وفاضل خانجي، الإدارة الذاتية: مدخل قضائي في فهم النموذج والتجربة، ط1، (إسطنبول: مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، 2021)، ص14.

(52) المهباش: عدد موظفي الإدارة الذاتية تجاوز 120 ألف موظف خلال عام 2020، المجلس التنفيذي للإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا، (2021)، <https://bit.ly/3u1qw14>

(53) سقراط العلو، وآخرون، الإدارة الذاتية: مدخل قضائي في فهم النموذج والتجربة.

(54) سبهانوك ديبو، «حل الأزمة السورية في الفكر الأوجلاني»، موقع حزب الاتحاد الديمقراطي، (2019)، <https://bit.ly/2U20KY8>

(55) د.م، «مؤتمر التربية للمجتمع الديمقراطي يواصل أعماله بالمصادقة على جملة قرارات»، موقع (ANF NEWS)، (2015)، <https://bit.ly/2XTjaM6>

(56) للمزيد حول مفهوم «الأمة الديمقراطية» وتعارضها مع موقف الأحزاب الكردية الأخرى، انظر: فؤاد عليكو، «نظرية الأمة الديمقراطية تتسبب في نكسة للقضية الكردية إقليميًا»، موقع يكيي، (2015)، <https://bit.ly/3doieps>

(57) د.م، «مظاهرات في ريف دير الزور ترفض دخول قوات النظام السوري»، جريدة عنب بلدي، (2019)، <https://bit.ly/3cvklqj>

في المستوى العسكري والإداري بها (منطقة فدرالية)، حتى أقرب حلفائها، فإلى الآن لم تعترف الولايات المتحدة أو فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية بالإدارة الذاتية كياناً سياسياً، وما تزال مكاتبها التمثيلية في تلك الدول بما فيها روسيا مرخصة كجمعيات مجتمع مدني وليست هيئات دبلوماسية⁽⁵⁸⁾، الأمر الذي يجعل مستقبل تلك الإدارة ومشروعها الفدرالي ضبابياً في ظل غياب أي اعتراف رسمي.

خامساً: الإدارة الذاتية والمسألة الكردية (العلاقة وسيناريوهات المستقبل)

شكلت ذروة نشاط حزب العمال الكردستاني (PKK) في سورية بين 1980 و1998 مرحلة مهمة من مراحل الحركة السياسية الكردية، أعاد فيها الحزب إحياء الهوية القومية الكردية بعد تراجع الأحزاب التقليدية، وحقق للكرد خلالها مكاسب لم تتمكن باقي الأحزاب من تحقيقها نتيجة لتحالفه مع النظام. وفي مرحلة ما بعد الثورة كان الحزب بذراعه السوري حزب الاتحاد الديمقراطي هو أكثر الأحزاب الكردية في الساحة السورية وضوحاً للرؤية حول المسألة الكردية في المستوى النظري (الأمة الديمقراطية) وفي مستوى أدوات التنفيذ لجهة علاقته مع النظام السوري وإيران وامتلاكه آلاف المقاتلين المدربين ومركزية القرار، ومن ثم فهو الأقدر على ملء فراغ السلطة في مناطق الكثافة الكردية بدايةً، ثم التوسع خارجها بدعم أميركي.

والحزب بإعلانه الإدارة الذاتية حقق مطلباً من مطالب عدد من الأحزاب الكردية كما أوضحنا سابقاً، ومكسباً لم يكن لغيره من تلك الأحزاب أن تحققه؛ وهو بذلك رفع سقف مطالب الحركة السياسية الكردية في سورية من دائرة المطالب بالحقوق الثقافية إلى التفاوض حول الاعتراف بحكم ذاتي قائم فعلياً. ويمكن الاستدلال على قبول باقي الأحزاب الكردية بما أنجزه حزب الاتحاد الديمقراطي من خلال أمرين، أولهما: تحالف أغلب الأحزاب الكردية ومنها أحزاب تركت المجلس الوطني الكردي مع حزب الاتحاد الديمقراطي، وتشكيل مظلة من 25 حزب تحت اسم (أحزاب الوحدة الوطنية الكردية)⁽⁵⁹⁾. وثانيهما: جولات التفاوض التي جرت بين الحزب والمجلس الوطني الكردي، وإن كانت هذه الجولات لم تفض إلى نتائج نهائية بعد، فإن الطرفين توافقا على أن ((سورية دولة ذات سيادة، يكون نظام حكمها اتحادي فيدرالي يضمن حقوق جميع المكونات))، واعتبار ((الكرد قومية ذات

، (بدر ملا رشيد، «الإدارة الذاتية في الشمال السوري: إشكاليات الشرعية والهوية»، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، (2018) (58)

<https://bit.ly/2AEERaK>

(59) دم، تشكيل «أحزاب الوحدة الوطنية الكردية»، موقع <https://bit.ly/3NDZAMK>، (2020)، ANHA،

وحدة جغرافية سياسية متكاملة في حل قضيتهم القومية))، إضافة إلى تشكيل (المرجعية الكردية العليا)، وتقاسم الإدارة بالنسب المتفق عليها في اتفاق دهبوك.⁽⁶⁰⁾

ويمكن تفسير البند المتعلق بعدّ الكرد وحدة سياسية وجغرافية بموقف المعارضين الكرد لفكرة (الأمة الديمقراطية) و(تآخي الشعوب) التي ترفعها الإدارة الذاتية شعاراً، وهو أمر تثبتته رسالة مسعود البرزاني أحد رعاة التفاوض إلى الطرفين وطالهما فيها بـ ((إلغاء نظام الكانتونات (الإدارة الذاتية للأحياء)، وتخلي الإدارة الذاتية عن مشروع نظام إخوة الشعوب القائم على الشراكة بين الكرد والعرب والسريان كون الاتفاق هو على تبني مشروع قومي كردي، ضمن نظام فيدرالي تعددي تشاركي يضمن حقوقنا القومية في سوريا)).⁽⁶¹⁾ ومن ثم، فإن مشروع الإدارة الذاتية لم يعد مشروعاً لحزب الاتحاد الديمقراطي وحده، وإنما أصبح مشروعاً للحركة السياسية الكردية في سورية، وحتى إن كان المجلس الوطني خارجه إلى الآن؛ فالخلاف ليس على الفكرة من ناحية، وليس للمجلس الوطني الكردي أو سواه من الأطراف الكردية وزن أو مشروع مكافئ للإدارة الذاتية أو بديل منها، أي إن الإدارة الذاتية باتت تمثل المسألة الكردية السورية، وتحتكرها إلى حد كبير، ومآل هذه الإدارة ومستقبلها سيؤثران تأثيراً مباشراً في مصيرها. وسنسعى من خلال هذه الدراسة إلى استشراف نتائج هذا الترابط وآثاره في إطار ثلاثة احتمالات لمصير الإدارة الذاتية في شمال سورية وشرقها، وهي:

1. الاعتراف الرسمي بالإدارة بشكلها الحالي إقليمياً على غرار التجربة العراقية

تُجادل الأدبيات السياسية عموماً بأن اللامركزية السياسية هي الحل الأمثل للدول الكبرى متعددة الأعراق والثقافات، وأن الديمقراطية الراسخة في العالم جميعها تعتمد النظام الفدرالي، ويضيف المشتغلون في حقل الدراسات السياسية المقارنة نتائج تشير إلى أن حصول الأقليات العرقية على حكم ذاتي يقلل من نزعتها القومية وشهيتها للانفصال، ويحافظ على نظام سياسي موحد للدولة⁽⁶²⁾. وعلى الرغم من أن تلك النتائج يمكن البرهنة عليها من خلال أمثلة كثيرة، إلا أنها قابلة للدحض أيضاً من خلال أمثلة أخرى، مثل حالة إقليم كردستان العراق، فعلى الرغم من تمتع هذا الإقليم بالحكم

(60) د.م، «الحوار الكردي-الكرد في سورية.. المجريات والدوافع والمصير»، مركز جسر للدراسات، (2020)،

<https://bit.ly/3DCFHkv>

(61) محمد عبد الستار إبراهيم، «المفاوضات الكردية-الكردية: تفاهم أولي مشوب بالشك والقلق».

(62) David S. Siroky and John Cuffe, Lost Autonomy, Nationalism and Separatism, Vol. 48(1), (Comparative Political Studies, 2015), 3–34.

الذاتي ذهب إلى الاستفتاء على الانفصال. إضافة إلى ذلك، فإن استقرار الدولة يعد عاملاً مهماً في اختيار نظام لامركزي سياسي أم إداري؛ ففي حالة الدول الخارجة من الصراع مثل الحالة السورية، حيث يكون الشحن الطائفي والقومي في أعلى مستوياته نتيجة الصراع، والنظام السياسي في حالة ضعف، من المرجح أن اختيار نظام لامركزية سياسية سيؤدي إلى التقسيم.

ومن الناحية العملية، تعتري خيار الاعتراف بالإدارة الذاتية لشمال سورية وشرقها بشكلها الحالي جملة من المعوقات الذاتية والموضوعية. أما الذاتية، فتتعلق بتجاوز الإدارة حدود المناطق ذات الكثافة الكردية بالقوة وبدعم أميركي إلى مناطق عربية يكاد يكون الوجود الكردي فيها معدومًا، الأمر الذي أدى إلى جعلها غير مقبولة، إضافة إلى ممارستها في تلك المناطق، حيث تشهد المناطق العربية احتجاجات مستمرة ضدها. ويضاف إلى ذلك عدم اتصال مناطق الكثافة الكردية في سورية جغرافيًا، ومن ثم فإن الاعتراف بها في وحدة سياسية سيجعل بالضرورة ضم مناطق تقطنها مكونات أخرى، وهو أمر سيخلق نزاعات داخلية تجعل هذا الخيار غير قابل للتطبيق لما فيه من قفز على الحقائق التاريخية والديموغرافية.

ومن الناحية الموضوعية، يرفض النظام السوري والمعارضة هذا الطرح، ومن غير المرجح أن أي نظام حكم في سورية سيقبل بمثل هذا الخيار بالتفاوض، وخصوصًا مع ما تحويه المنطقة من ثروات باطنية وزراعية ومائية، ومن ثم، فتمسك حزب الاتحاد الديمقراطي ومن خلفه الأحزاب الكردية الداعمة بالفدرالية من طرف واحد سيؤدي إلى الصدام مع دمشق بغض النظر عن نظام الحكم المستقبلي. وما يضعف هذا الخيار من الناحية الموضوعية بطبيعة الحال الموقف التركي الراض، والتدخل العسكري في سورية، وما أحدثه من تقطيع للاتصال الجغرافي بين المناطق الكردية، إضافة إلى دخول قوات النظام السوري وروسيا إلى مناطق سيطرة الإدارة الذاتية بالتوافق معها لمواجهة التمدد التركي، وبالنسبة فإن بقاء الإدارة الذاتية بشكلها الحالي يبدو احتمالاً ضعيفاً في ظل موقف أميركي ضبابي منها في مستوى الاعتراف.

2. إنهاء وجود الإدارة عسكرياً وإعادة المسألة الكردية في سورية إلى مربعها الأول

يُعد هذا السيناريو أكثر احتمالاً من سابقه، نظرًا إلى إمكان تحقيقه بالصدام العسكري بين قوات (قسد) والجيش التركي أو قوات النظام السوري، أو من خلال التفاوض بين قيادة حزب العمال الكردستاني وتركيا والنظام السوري على التخلي عن مشروع الإدارة الذاتية، والانسحاب من سورية

كلياً أو جزئياً مقابل مكاسب قد تتجاوز حدود سورية خاصة بالحزب، ويرتبط هذا السيناريو وقابليته للتحقق بمدى جدية واشنطن بالبقاء في سورية، وحماية حلفائها في (قسد) في ظل الموقف التركي المعارض، وتفاهماتها مع موسكو حول الحل السياسي في سورية.

وبالمقابل، فإن هذا السيناريو يعد الأخطر لآثاره طويلة المدى في سورية الناجمة عن ارتباط مصير الإدارة الذاتية بالمسألة الكردية؛ فالتكلفة البشرية العالية للحل العسكري من ناحية، وخسارة الحكم الذاتي من دون ترتيبات بديلة مُرضية من ناحية أخرى، سيؤديان إلى التمرد المدفوع بنزعة انفصالية ناتجة من خلق مظلومية قد تكون هي الكبرى للأكراد في سورية، ومن ثم توحد التيارات السياسية الكردية خلفها بغض النظر عن خلافاتهم، وتحول المسألة الكردية إلى حال من الصراع الاجتماعي الممتد. هذا ما تؤيده أدبيات السياسة المقارنة في حال فقد الحكم الذاتي؛ ففي أغلب الحالات التي خسرت فيها الجماعات العرقية الحكم الذاتي، كانت النتيجة تعزيز العمل الجماعي للمجموعة العرقية، وتنحية الأصوات المعتدلة لصالح الأكثر تطرفاً، إضافة إلى فقد الثقة بالحكومة المركزية وأي حوافز بديلة تقدمها، وانتهت تلك الحالات معظمها إلى صراع ممتد أفضى إلى الانفصال، ولعل أوضح الحالات في هذا المجال حالتا كوسوفو وجنوب السودان. إذ تشير الحالتان إلى أن الجماعات العرقية التي خسرت الحكم الذاتي أصبحت أكثر ميلاً إلى الانفصال من تلك التي لم تحظ بالحكم الذاتي من قبل، حيث تطور الجماعة العرقية خلال الحكم الذاتي مهارات قيادية وإدارية تنظيمية إضافة إلى القدرات العسكرية والعلاقات الخارجية في حالة الإدارة الذاتية تكون غير مسبقة، ما يعطيها القدرة على الحركة والمقاومة، ويعزز رغبتها في الانفصال وعدم العودة إلى الحكم الذاتي بعد فقده⁽⁶³⁾.

وتقدم العمليات العسكرية التركية ضد مناطق سيطرة قوات سوريا الديمقراطية، وبخاصة عفرين، مؤشرات على نتائج هذا السيناريو، فقد خلقت تلك العمليات مظلومية كردية جامعة وحدت التيارات السياسية الكردية كلها والشارع الكردي خلفها، إضافة إلى سلسلة من الأعمال الانتقامية الدموية التي مازالت تمارسها (قسد) ضد تلك المناطق، وأودت بحياة عشرات من المدنيين المهجرين الذين تعددهم (مستوطنين) قياساً بالحالة الفلسطينية، ومن ثم دماؤهم مُباحة.

(63) Ibid, 13- 14.

3. تنازل الإدارة عن الحكم الذاتي مقابل اللامركزية الإدارية والحقوق الثقافية

يعد هذا السيناريو الأكثر واقعية والأقل تكلفة على المدى البعيد، والأقدر على إنتاج تسوية تاريخية للمسألة الكردية في سورية، وذلك لأنه ينتج عن طريق التفاوض. فعلى الرغم من أن مسارات التفاوض خلال السنوات الماضية لم تنتج توافقاً نهائياً سواء بين المجلس الوطني الكردي ومؤسسات المعارضة، أم بين الإدارة الذاتية والنظام السوري؛ إلا أنها بينت أن الأطراف جميعها لديها القابلية للتفاوض، حتى وإن كانت وجهات النظر ما تزال متباعدة وتبدو المواقف صلبة غير قابلة للتغير.

إذ تتمسك الأطراف الكردية بالطرح الفدرالي الكردي في حالة المجلس الوطني وفدرالية المكونات في حالة الإدارة الذاتية إلى الآن، وتطالب الإدارة الذاتية في مفاوضاتها مع النظام بضم قوات (قسد) إلى الجيش السوري، وإيجاد صيغة لتقاسم ثروات المنطقة مع النظام⁽⁶⁴⁾، في حين يركز المجلس الوطني في تفاوضه مع المعارضة على الاعتراف الدستوري بالأكراد شعباً يعيش على أرضه التاريخية، وبأنه القومية الثانية في سورية، إضافة إلى الفدرالية، مع المطالبة بحذف كلمة (العربية) من اسم الدولة. أما بالنسبة إلى المعارضة والنظام السوري؛ فكل منهما يرفض اللامركزية السياسية، وي طرح لامركزية إدارية لكامل سورية، وفق قانون الإدارة المحلية الذي صدر بالمرسوم 107 لعام 2011 في حالة النظام⁽⁶⁵⁾، في حين لا تملك المعارضة تصوراً ناجزاً للامركزية الإدارية. ويرفض الطرفان أيضاً من منطلقين مختلفين المطالب الدستورية الكردية، فلطالما عبر الموقف الرسمي لمؤسسات المعارضة عن عدم منطقية الطروحات القومية للمجلس الوطني الكردي التي لا تستند إلى حقائق التاريخ والديموغرافيا، أما بالنسبة إلى النظام، فقد ثبت في الجولة الأخيرة من اجتماعات اللجنة الدستورية موقفه الأيديولوجي كحزب بعث من التغيير في ما عدّه (رموز الدولة) التي يرفض أي مساس بها بما فيها اسم الجمهورية واللغة وعدّ سورية جزءاً من الوطن العربي⁽⁶⁶⁾، وهو أحد الاعتراضات الدستورية للمجلس الوطني الكردي⁽⁶⁷⁾.

ولا يعدم التصلب بالمواقف احتمال هذا السيناريو، ولكن يجعل القابلية للتنازل والوصول إلى تسوية رهناً بالمواقف الإقليمية والدولية التي تؤثر في توازنات القوة الداخلية بين الأطراف الكردية والمعارضة ومن خلفها تركيا، إضافة إلى النظام وروسيا وإيران، وهو ما يعني إمكان اللجوء إلى التحريك

(64) يمان نعمة، «(مسد) تشكك بقبول نظام الأسد التفاوض معها»، موقع عربي 21، (2021)، <https://bit.ly/3E2PYXL>

(65) للمزيد حول المرسوم وبنود القانون، انظر: لمرسوم التشريعي 107 لعام 2011 قانون الإدارة المحلية، موقع مجلس الشعب السوري، (2011)، <https://bit.ly/3LRbFg1>

(66) د.م، «(رموز الدولة) السورية تفجر خلافاً عميقاً في جنيف»، صحيفة الشرق الأوسط، (2022)، <https://bit.ly/3LQz5lJ>

(67) : مهند الكاطع، «مراجعات حول الأكراد والثورة السورية».

العسكري للجمود في المسارات التفاوضية، أي استخدام السيناريو الثاني جزئياً، وتكلفة أقل.

سادساً: الخاتمة

لا يمكن عدّ الإدارة الذاتية لشمال سورية وشرقها محض كيان إداري أفرزته الحرب، وسيزول بتوقفها والوصول إلى تسوية سياسية، فضم الإدارة إلى الكتلة الكبرى من الأحزاب الكردية، وسعيها إلى جسر الهوة مع المجلس الوطني الكردي المتوافق معها أساساً حول التصور للمستقبل الكردي في سورية، أخرجها الإدارة من إطارها الضيق بوصفها مشروعاً لحزب الاتحاد الديمقراطي، ومن خلفه حزب العمال الكردستاني، إلى مستوى مشروع كردي سياسي في سورية، وهو الأمر الذي تسعى إليه أطراف عدة داعمة للمشروع من مثل الولايات المتحدة وإقليم كردستان لإعطاء شرعية قومية لمشروع حزب مصنف على لوائح الإرهاب.

وبالمقابل، لا تحظى الإدارة الذاتية بوصفها مشروع حزب أو مشروعاً قومياً بالقبول من الأطراف السورية الداخلية أو من قوى وازنة إقليمية، ولا سيما تركيا. لذا فإن التمسك بالمشروع قد يقود إلى سيناريو المواجهة الذي ظهرت ملامحه في العمليات العسكرية التركية داخل الأراضي السورية، بما يحمله من تكلفة بشرية ومادية وديموغرافية سيتحملها أكراد سورية نتيجة للخيارات السياسية للأحزاب الكردية، إضافة إلى ما يمكن أن يتركه هذا السيناريو من شروخ عميقة في النسيج السوري على المدى البعيد. ولذلك، لا بد للأحزاب الكردية وهي تسعى إلى معالجة إحدى إشكالاتها المزمنة في سورية، وهي الانقسام، من أن تأخذ بالحسبان تكلفة خياراتها السياسية، وتقارب تطلعاتها من زاوية الحقائق التاريخية والديموغرافية، وليس من زاوية الفرصة التاريخية، وهو الأمر الذي يتطلب مراجعة شاملة لتاريخ الحركة السياسية الكردية، مراجعة تؤدي إلى حسم الجدل حول القومي والوطني في أدبياتها، وبالنتيجة التجذر السياسي في سورية من موقع القوة والقرار الذاتي، وليس من موقع الخيبة وانعدام الخيارات الناتج من الوضع الدولي والإقليمي.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. العلو. ساشا، وشادي أبو فجر، وفاضل خانجي، الإدارة الذاتية: مدخل قضائي في فهم النموذج والتجربة، ط1، (إسطنبول: مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، 2021).
2. الكيلاني. شمس الدين، المسألة الكردية في ضوء تحول اتجاهات النخب والأحزاب الكردية السورية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016).
3. جلبي. حسين، روج آفا خديعة الأسد الكبرى: قراءة في ست سنوات من التيه الكردي، ط1، (إسطنبول: دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع، 2018).
4. سيدا. عبد الباسط، «الكرد والثورة السورية»، ع: 29، مجلة سياسات عربية، (تشرين الثاني/ نوفمبر، 2017).
5. مجموعة من الباحثين، مسألة أكراد سوريا: الواقع، التاريخ، الأسطورة، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
6. مكحول. ديفيد، تاريخ الأكراد الحديث، راج آل محمد (مترجمًا)، (بيروت: دار الفارابي، 2004).

بلغة أجنبية

1. Siroky. David S. and John Cuffe, Lost Autonomy, Nationalism and Separatism, Vol. 48 (1) (Comparative Political Studies, 2015).

ثالثاً: الدراسات



نوستالجيا السجون في رواية (قبل حلول الظلام)

للكاتب معبد الحسون

فاطمة علي عبود⁽¹⁾

أولاً: التمهيد

يقول معبد الحسون ابن مدينة الرقة الذي قضى من عام 1980 م حتى عام 1991 م في سجون الأسد الأب في بداية روايته (قبل حلول الظلام) الصادرة عام 2019 م: ((لست أدري ما الذي يحفزني على الكتابة عن هؤلاء اليوم، فهي ذكريات انصرفت منذ عشرات السنين، ذكريات طواها الزمان مثلما طواها المكان، فأنا الأبعد عنها بجسدي، وإن ظلت عالقة في ثنايا الروح وخفاياها، وفي شقوق الذكريات التي لا تنطفئ، وكما تمنيت لها في سري أن تنطفئ! وكما رجوت وتضرعت إليها، لكنها أبت))⁽²⁾. تلك الذكريات التي يحاول الحسون أن يوثقها لئلا تنفلت من الذاكرة هي سرد روائي للماضي الذي يشكل الحاضر امتداداً طبيعياً لأحداثه، فبين الثورة الأولى والثورة الثانية بحسب ما يسميها الحسون طريق طويلة مليئة بعذابات عاناها السوريون في ظل نظام ظالم وقاهر، فالثورة الأولى حدثت في ثمانينيات القرن الماضي وكانت ثورة شاملة لا ترتبط فقط بالإخوان المسلمين الذين حاولوا أن يظهروا على أنهم قادتها الوحيدون، هذه الثورة التي تمت مصادرتها آنذاك هي الجذوة التي اختبأت تحت رماد السنين لتعود فتشتعل في عام 2011 م.

يحاول الحسون أن يستعيد من خلال النوستالجيا الماضي المرتبط بزمان اعتقاله من قبل نظام الأسد الأب، بسبب مناهضته إياه ومؤسساته الاستبدادية من خلال خلية سرية ارتبطت بالحزب الشيوعي، وداخل جدران السجن الذي تحول إلى فضاء روائي تعود الحكاية المشبعة بالزمن اللامتناهي لتنبش في الذاكرة، وتحكي قصص هؤلاء المعتقلين الذين تحولت أجسادهم إلى فصول من حكايا

(1) فاطمة علي عبود: ناقدة سورية، تقيم وتعمل في تركيا، حاصلة على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، اختصاص نقد حديث، تعمل لدى منظمة كارا للأكاديميين السوريين، مهتمة بالدراسات النسوية.

(2) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، حين يصير الدم ماء، (غازي عينتاب/ حلب: نون 4 للنشر والطبع والتوزيع، 2019)، ص 9.

طويلة تروي كيف يصير الإنسان ذئبًا على أخيه الإنسان، وكيف يصبح الدم المراق ماءً.

ولعل من أهم أسباب اهتمام الرواية العربية ((بالتعبير عن تجربة السجن السياسي، واتخاذها موضوعاً روائياً: نزوع الأدب بطبيعته إلى الحرية، ورغبة المبدع في تحدي القامع، ومجابهته مسلحاً بالكلمة⁽³⁾))، ويؤكد الحسون من خلال توثيقه الروائي جرائم القتل والتعذيب التي شهدتها في سجون النظام (فرع فلسطين، سجن المزة العسكري، سجن تدمر، وسجن صيدنايا العسكري) أن غايته هي أن يعيد صياغة الحكاية من خيوط الذاكرة ليرتق انكسار الذات الإنسانية التي تحاول أن تكمل طريق المواجهة ضد الظلم والطغيان، فما وراء الذاكرة التي يحاول الحسون استرجاعها حاضر سيصبح في يوم ما ذاكرة لمستقبل السوريين الذين ما يزالون يسرون على درب الجلجلة.

ثانياً: المعتقلات؛ أحجار الذاكرة

يعطي المكان بأبعاده المختلفة دلالة ذات معنى تحمله الحكاية بصورة عامة والسرد الروائي بصورة خاصة؛ لأن المكان هو الحيز النفسي للحكاية مثلما هو فضاءها، وكلما ضاق هذا الحيز كثفت محتويات الذاكرة بوصفه معادلاً موضوعياً لنفسية السجين بوصفه مقيداً فيزيائياً لحريته التي تم استلابها بمجرد أنه حمل رقم الزنزانة التي ستصبح جزءاً لا يتجزأ من حياته الطويلة هناك، ومن ثم سيتحول إلى نكرة أو إلى شيء منزوع الهوية. ولا يعني الخروج من السجن بحال ذلك التحول من الفضاء المغلق إلى الفضاء المفتوح بوصفهما مفهومين متضادان، إذ قد يحمل السجين ذلك الفضاء داخله، بمعنى سيطرة الانغلاق والمحدودية على شخصيته لمدة قد تستهلك ما تبقى من حياته بعد خروجه من السجن، وبهذا المعنى يكون الفضاء الروائي ((عنصرًا مساهمًا في عملية إنتاج المعنى⁽⁴⁾))، وذلك للتلاحم الشديد بين الحدث وهذا الفضاء ذي الحيز المحدد والمغلق.

في الرواية أربعة سجون (فرع فلسطين، سجن المزة العسكري، سجن تدمر، وسجن صيدنايا العسكري) تتناوب بشكل متسلسل الواحد تلو الآخر في هذه الرحلة النوستالجية على تكوين إطار العذاب المستمر على جسد الإنسان الذي طالما كانت الحرية هي فضاء أحلامه اللامتناهية، ويتكلم الحسون على السجن في (فرع فلسطين) وقد وصل إليه مع مجموعة من المسجونين بعد رحلة طويلة

(3) عمار علي حسن، النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية، ط1 (القاهرة: مركز الدراسات السياسية، 2002)، ص180.

(4) سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2001)، ص141.

تقلهم فيها شاحنة كبيرة ومغلقة لنقل المعتقلين، تجمع المسجونين فيها قضية واحدة كما كانت سلسلة حديد واحدة تجمع معاصمهم المدماة، يقول: ((دخلنا زنزانة القبو، كان العدد مكتظاً، ولكن مهما كان الأمر سيئاً، حيث لا نافذة ولا إضاءة، إلا أنه هون علينا أخيراً أنهم فكوا الأغلال الموثقة عن أيدينا وأرجلنا، وحشرونا حشراً... حتى أصبح حجم الزحام لا يطاق داخل تلك الطبقة الأرضية التي تشبه قبراً محجوباً عن المكاتب وبقية الزنازين التي يوصل إليها عبر درج ضيق قديم، متآكل ومتسخ، بيد أن الأمور كانت انفراجاً ملحوظاً بالنسبة للجميع، فوجود دورة مياه إلى جانب القبو كان ترفاً، ورفاهية يصعب تصديقها))⁽⁵⁾، قد لا يكون هناك اختلاف كبير بين السجن والقبر بوصفهما مكانين مغلقين عما حولهما، فإذا كان الأول يشير إلى المكان المظلم الذي تتحقق فيه العزلة التامة للمسجونين عن الحياة السياسية التي امتهنوا فيها الفعل السياسي المقصود، فإن الثاني يشير إلى المكان المظلم أيضاً الذي يؤول إليه جسد كل إنسان في هذا العالم وانقطاعه عن كل ما فيه من ملذات ومسرّات، ولعل هذا التحول المستمر الذي تستخدمه أنظمة الاستبداد في سورية عبر الانتقال من فرع إلى فرع آخر يقدم شكلاً من أشكال التعذيب التي تتكون في لاوعي السجين جراء تصورات المسبقة عن ذلك المكان المجهول الذي يساق إليه.

وقد يكون الفضاء المكاني لأي رواية غير مخطط له مسبقاً بصورة كاملة، إذ قد تنبثق الفضاءات المكانية في أثناء السرد الروائي من غير تفكير مسبق بها، ولكنها، أي الفضاءات، في رواية تتحدث عن السجون تتشكل مع الحدث بشكل تلقائي؛ لأنها لا تخرج عن أمكنة عدة تنقل داخلها الشخصيات وهي الزنازين أو المهاجع وغرف التحقيق والممرات الموصلة بينهما، وكذلك الشاحنات التي تنقلهم بين سجن وآخر. ويتحدث الحسون عن الثيمات التي تفرزها السجون حينما انتقلوا من سجن المزة إلى سجن تدمر، يقول: ((وصل رتل السيارات التي كانت تنقلنا، وتوقف عند البوابة الخارجية، على البوابة الخارجية لسجن تدمر لوحة قديمة كتب عليها: «السجن العسكري»، وتحته ثلاث عبارات: «تأهيل - تأديب - إصلاح»، ولعل الكلمات الثلاث، هي الانعكاس الظلي لشعارات: وحدة، حرية، اشتراكية))⁽⁶⁾، إن العزل الذي يقوم به نظام الأسد للناشطين السياسيين عن العالم خوفاً من انتشار فكرهم الحر بين الناس هو إلغاء لوجود الآخر، وتثبيط أي فعل منتج هادف لا يصب في مصلحة النظام الأسدي، إذ ((يصبح المكان إشكالية إنسانية إذا ما اغتصب، أو إذا حرمت منه الجماعة، ولذا فإنه يكتسب قيمة خاصة ودلالة مأساوية))⁽⁷⁾، فالشعارات المكتوبة على لوحة السجن في تدمر تختصر عملية غسل الأدمغة التي سيتعرض لها السجين بعد التعذيب اللاإنساني الذي لا يتوقف ليل نهار، وتعكس

(5) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص15.

(6) المصدر السابق، ص106.

(7) مجموعة من المؤلفين، جماليات المكان، ط2 (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1988)، ص3.

تلقيين شعارات الحزب الأيديولوجية الجامدة وغير المتحققة والتي شكلت واجهة وهمية للحزب البعثي وللنظام الذي يحكم باسمه.

ولكي يصل القارئ إلى حالة من الخلق الخيالي لذلك المكان يحاول الحسون أن يستعين بعناصر خارجية يمتلك القارئ معرفة مسبقة عنها، يقول: ((أستطيع أن أعطيك فكرة عامةً مختصرةً عن السجن وعن السوريين بشكل عام كيف يعاملون. هل قرأت الكوميديا الإلهية لدانتي؟ يقول دانتي في وصفه للجحيم في الكوميديا الإلهية: «مكتوب على بوابة جهنم الخارجية: أيها الداخل إلى هذا المكان، تخل عن كل أمل»، وتدمر شيء يشبه هذا الذي وصفه دانتي))⁽⁸⁾، إن فكرة الجحيم سواء تكونت عند الإنسان من ثقافته الدينية أو من ثقافته الأدبية هي ذلك المكان الذي يتجاوز القبر زمانيًا، ويدخل في مرحلة الخلود أو الزمن اللامتناهي، وخلود الإنسان في الجحيم يعني فقدانه الأمل بالنجاة التي كانت يمكن أن تتحقق لولا تحقق الدخول إلى ذلك المكان، وكل ذلك وفق تصورات متخيلة لم يعاينها الإنسان في الواقع، لذلك جاء التشبيه تعبيرًا عن أقصى ما يمكن للخيال أن يتصوره من العذاب والألم والإذلال.

وهذا المعنى لا تختلف عوالم السجن عن السياسة الاستبدادية الممارسة خارجه و((الأصدق أنهما قد يتشابهان في النواتج والمآلات من حيث أن الاستبداد واحد؛ فهو قهر لحرية الإنسان وانتزاع لقراره وخياراته الحرة. دون أن يعني ذلك بأن هذا التشابه في بنية الشكل أو في مضمونه وجوهره، فلكل استبداد ظروفه وعالمه وطبيعته الخاصة به، المنفصلة عن الآخر شكلاً، والمتصلة بخيط رفيع غير مشاهد مضموناً))⁽⁹⁾، وهذه المفارقة بين الداخل والخارج تخلق مجموعة من الرؤى والتصورات، تصب كلها في مفاهيم الحرية بوصفها المعنى المناقض لحيز السجن. إن ذلك المكان المحدود والمغلق، القارس والقائظ، الذي أوجده النظام الأسدي الأب الجائر لاستلاب الحريات والتسلط على المواطنين هو صورة مصغرة عن السجن الأكبر الذي ابتكره خلفه بشار حين استطاع أن يحول سورية كلها إلى سجن كبير.

ثالثاً: الزمن بين الوجود والعدم

تتعلق النوستالجيا بالزمن الماضي، ذلك الزمن الذي يحمل خيارين بالنسبة إلى الإنسان؛ إما أن

(8) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 177.

(9) معبد الحسون، مقابلة شخصية، فاطمة عبود، عبر الهاتف، (فرنسا: 23 فبراير/شباط، 2022).

يحقق فيه وجوده، وإما أن يكون وجوده محض مرور عابر في الزمن، ففي اللحظة التي يطأ فيها المعتقل أرض السجن يتوقف الزمن عن إعطاء أي معنى للوجود، فيتساوى هذا الوجود مع عدمه، وغالبًا ما يكون سبب هذا التوقف هو الصدمة التي يتلقاها السجين نتيجة الانكسار والخيبة وانعدام الأحلام والآمال والرغبات التي تجعله يفقد شعوره بالزمن، فيتشظى الزمن عبر متاهات الحكاية السردية التي تقدمه على أنه فضاء ملتصق بالمكان، بوصفهما ثنائية لا يمكن الفصل بينها، كما أكد على ذلك ميخائيل باختين إذ يقول عن الزمكان الفني: ((هو انصهار علاقات المكان والزمان في كل واحد مدرك ومشخص، الزمان هنا يتكثف، يترص، يصبح شيئاً فنياً مرئياً، والمكان أيضاً يتكثف، يندمج في حركة الزمن والموضوع بوصفه حدثاً أو جملة أحداث التاريخ، علاقات الزمان تتكشف في المكان، والمكان يدرك ويقاس بالزمان، هذا التقاطع بين الأنساق، وهذا الامتزاج بين العلاقات هما اللذان يميزان الزمكان الفني))⁽¹⁰⁾.

إن الزمن بالنسبة إلى المعتقل مختلف تمامًا عنه بالنسبة للسجان، فبينما يكون حسابه بأقل وحدة زمنية عند السجين يغدو بلا قيمة عند السجان، ومن المفارقات التي تؤكد سخرية القدر كيف يحاول السوريون تصغير أبنائهم لشهور في دوائر النفوس لكي يكسب الطفل سنة دراسية من حياته، بينما، في المقابل، يسلبه النظام كامل حياته ويصادرها لصالح استبداده، يقول الحسون في ذلك ((ولدت في الشهر الأخير من عام 1957 في الرقة، وثبت والدي قيود ولادتي المدنية في تاريخها الحقيقي، رغم أن والدتي عارضت ذلك... لكي «لا تضيع على الولد سنة من عمره» كما كانت تقول، ولست أدري حتى اليوم، لو أن والدي سايرها واستجاب لها في هذا الأمر، كيف كان يمكنني أن أكسب سنة من عمري؟!))⁽¹¹⁾، هذه السنة تفقد قيمتها عندما تتحول في المعتقل إلى سنوات تتمطى، فالنظام الأسدي المتعالي على الزمن لا تهمة السنوات التي يمكن أن تهدر من عمر مواطنيه، وذلك كما حصل مع أحد المحكومين الذين حكمهم القاضي بثلاث سنوات، لكنه ((تم الاحتراز عليه عرفياً بعد انقضاء فترة حكمه، وأفرج عنه من سجن تدمر، بعد حوالي اثني عشر عاماً))⁽¹²⁾، تلك المفارقة تؤكد ضياع قيمة السوري في وطنه، وتساوي وجوده وعدمه بالنسبة لحكومته التي تعمل على تعجيل دورة الزمن لإبادة الشعب والتفرد بالسلطة، إن النظام اليوم يحاول المتاجرة بالزمن، فالزمن عنده هو فقط مدة استمراره في الحكم، ولا يمكن أن تعني ما يمكن أن ينجزه خلال ذلك.

ويتجرد الزمن داخل السجن من ماهيته الحقيقية، وهو أيضاً ليس الزمن الروائي، إنه زمن

(10) ميخائيل باختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، يوسف حلاق (مترجمًا)، (سورية: وزارة الثقافة، 1990م)، ص 6.

(11) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 17.

(12) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 223.

مختلف تماماً عن كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه، وإذا كان الحسون يحاول أن يستجدي ذلك الزمن عن طريق الذاكرة فإنه يستنطق الماضي الذي مر كأبطاً ما يكون، يقول: ((تمر الأسابيع الثلاثة الأولى، بعدها تتحول الفيزيائية والكيميائية والجينية لديه تحولاً غير مدرك، إذ تتحول بنيته النفسية تحولاً جذرياً، ليصبح كائنًا مفتوح النفس والعقل والجسد على كل الاحتمالات المتوحشة المتخيلة))⁽¹³⁾، هذه المدة الزمنية التي يتحدث عنها الحسون هي المدة الكافية لقتل الإنسانية لدى الإنسان نتيجة لما يتعرض له هو ومن حوله من تعذيب وإذلال، إذ يصبح السجين كتلة صماء تزداد قسوة، حيث لا يؤثر فيها ما يجترحها من قهر يتضاعف يوماً بعد يوم ((وتخلو الأيام من المفاجآت المدهشة، بعد أن يصبح التعذيب سمةً رتيبةً في الحياة اليومية، وكذلك الموت المحموم فوق الرؤوس كل حين، سواء في حلبات التعذيب التي لا تفتقر همتها، أم عبر حفلات الإعدام الجماعية، التي تحصد سنابلها كل أسبوع))⁽¹⁴⁾، وإذا كانت الأسابيع الثلاثة الأولى تجعل من السجين كائنًا مفتوح النفس لتقبل العذاب فإن الحسون يضيف إلى هذه المدة سنوات طويلة ليتحول السجين إلى سجين حقيقي، يقول ((إن السجين يحتاج إلى كثير من الشهور، وربما إلى سنوات حتى يتحول إلى (سجين حقيقي)، إذ عليه أن يتدرب تدريجاً شاقاً، وأن يتمرن على ذلك حتى تلين طبيعته، ليغدو سجيناً حقيقياً فلا يتحطم))⁽¹⁵⁾، هذا التآرجح بين الذاكرة الحية والذاكرة هو ما يراهن عليه النظام الأسدي، وهو ما يريده من شعبه، لئلا يطالب بحريته، وذلك حين تصبح أقصى آماله هي التحرر من قضبان السجن لا أكثر.

ومع كل ذلك يحاول المسجونون تحدي العدم والخواء الذي أصبحوا جزءاً من نسيجه عن طريق كسر الزمن ورتابته ((فقد كان لوجود أساتذة وخبرات من كافة الاختصاصات في كل المهاجع، ما منح وزود المعتقلين بوفير من المعرفة والعلم الذي كان يتداول داخل المهاجع، بطريقة المشافهة أو تلقيناً، الأمر الذي أتاح للسجناء، لا فرصة للثقف والاستفادة والاستزادة من كافة أنواع العلوم فحسب، بل ما ساعد على قتل الوقت الطويل، وزحزحة ذلك الركود السكوني، الذي يشبه الموت داخل السجن، حيث الفراغ واللامعنى هما سيدا الموقف، وهما برنامج الفصول والسنين المتعاقبة))⁽¹⁶⁾، ولا يعني ذلك أن السجن كان فضاء محفراً على الحياة، ولا فضاء منتجاً، بل يعني محاولة أخيرة للتمسك بالحياة ومقاومة الموت الذي يواجهه المسجونون بأشكاله كلها، ومحاولة لتجاوز الوقت الذي كان يمر بطيئاً ومن دون معنى.

(13) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 27.

(14) محمد برو، السجن ونسيج الزمن، موقع تلفزيون سوريا، 2020/11/26، <https://2u.pw/Zy08W>

(15) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 29.

(16) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 149.

رابعاً: هسيس ذكريات الجسد

إن ما نقرؤه في رواية الحسنون هو في معظمه ذكريات يسردها عن الآخر، وقلما تكلم على تجربته الشخصية، ولعله في ذلك يحاول الابتعاد عن تلك المساحات الحالكة المختبئة في عمق الذاكرة، وهو بذلك أيضاً يحاول الابتعاد عن الظهور بمظهر البطل التراجيدي الذي تهاوى قبل أن يحقق ما كان يصبو إليه، فهو لا يريد من القارئ أي مشاعر يشوبها التألم والشفقة، ولا يريد من القارئ أن يشهد سقطته الأخيرة المدوية، و((من هنا جاء هذا السيل الجارف من العواطف، الذي نعبر بواسطته عن إحساسنا بالبطل؛ لأننا نتمثل أنفسنا، ونذكر نهايات الأمور التي تؤدي إلى أن تصبح تجربتنا أكثر عمقاً، ومعرفتنا أوسع مجاًلاً، بمعنى آخر: إن البطل التراجيدي، هو البطل الذي يجعلنا أكثر توازناً مع الحياة))⁽¹⁷⁾، هذا ما كنا قد تكهننا به من وجهة نظر القارئ الناقد، إلا أن الحسنون عقب على ذلك قائلاً: ((إن الحدث العام، المهول والفاجعي الخطير، الذي كان يفتك بكل هذه الشرائع المجتمعية، ويشكل إطاراً أساسياً للوحة مشهد الاعتقال، ربما كان أبلغ وأدعى للتذكر من مصير الكاتب/ السارد نفسه، والذي غدا تفصيلاً صغيراً أمام مشاهد الأهوال التي تحسسها من حوله))⁽¹⁸⁾. إننا نستعرض شريط ذكريات الحسنون معه، وكأن السارد والمتلقي اتحدا في كونهما شاهدين على عذابات المسجونين الذين ما أنصفهم حقوق الإنسان في إعلانها، لذلك فإن الحسنون يفتتح روايته بهذا الإعلان الذي صدر عام 1948م ويسميه (حبر على ورق)، فتلك المبادئ التي صدرت لتصون كرامة الإنسان عقب الحربين العالميتين ما استطاعت أن تصون كرامة السوري المهدورة والمستباحة.

لم يكن هذا النظام المستبد ليعرف أن الحقيقة أكبر من أن تخفيها جدران السجون الممتدة حتى السماء، هذا النظام الذي حفت مسيرته الدماء والأشلاء يخشى من أولئك المصفدين بأغلال الظلم والافتراء، لذلك فهو يحاول تصفيتهم الواحد تلو الآخر، ويخبرنا الحسنون عن عدنان مستو الشاب العشريني الذي قبض عليه وعلى أسرته بعد أن وجدوا أسلحة مخبأة في بيته، فقد عدنان القدرة على الحركة وقد تفطر جسده من التعذيب الوحشي، كان الشاب ينطفئ بسرعة قصوى قبل أن يتم استدعاؤه، وحينها لم يستطع المشي على قدميه المحطمتين، فحمل جسده المهالك في بطانية، ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك أي خبر⁽¹⁹⁾، إن النظام الأسدي يتعامل مع الشعب على أنهم أرقام مجردة، ويسعى إلى تحويل المختلف معه إلى الصفر، حيث تنعدم القيمة المقابلة لوجوده، لذلك فإن

(17) عبد الرحمن العابو، البطولي في أساطير الشرق القديم وملاحمه، (سورية: دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، 2014م)، ص 17.

(18) معبد الحسنون، مقابلة شخصية، فاطمة عبود، عبر الهاتف، (فرنسا: 23 فبراير/ شباط، 2022).

(19) معبد الحسنون، قبل حلول الظلام، ص 18-21 بتصرف.

شروعه بالتصفيات الجسدية هو تمثيل حي لمشروعه أحادي الجانب، فقد ((كان الأسد شأنه شأن كل الطغاة لا يجيد التعامل إلا بأسلوب القبضة الحديدية، فعني بإنشاء العديد من الأجهزة الأمنية... وكانت الميزانية الأمنية هي الأضخم بين المجالات المختلفة، وقياساً على هذا كانت الأجهزة الأمنية من أمن الدولة إلى الأمن العام إلى المخابرات الجوية التي أنيط بها وأد أي تمرد في الجيش، بمثابة ذراعه اليمنى التي تدق وبكل عنف رؤوس معارضيه وتلقيهم في السجون التي اكتظت بمئات الآلاف من سجناء الرأي))⁽²⁰⁾.

إن التنكيل بالمسجونين لا يقتصر على الحرب النفسية التي يعاني منها المعتقلون نتيجة الضغوطات التي تمارس على المعتقلين أو على أحد أقربائهم، ولكنه يطال أيضاً الأجساد التي تبدو عليها المهانة كوصمة عار، إذ يحاول النظام الأسدي إظهار ضعف السجين وعدم قوته على حمل القضية والاستمرار بالمقاومة، إذ غالباً ما يخلف السجن وراءه أجساداً بعاهات دائمة، وتبقى الندبات فيها دليلاً على الضعف وقصور الحيلة أمام جبروت الظالم وقهره، ويصور الحسون قدرة الجسد الهائلة على المقاومة العجيبة قائلاً: ((رأيت كثيراً من الأشخاص يجلدون على مركز العينين ومساحتهما حصراً، ولساعات طويلة، وبكل غليظ، في غلاظة معصم اليد، كبل متين، قادر على كسر العمود الفقري لحمار، بحيث يحول الوجه والأجفان وحواف العين إلى كتلة متفحمة من السواد بحجم أصغر من كرة القدم بقليل، والمثير للجنون حقاً، أن أكثر المعذبين كانوا يشفون خلال شهرين أو ثلاثة بصورة طبيعية، وبدون أي علاج من أي نوع كان))⁽²¹⁾، إن ما يريد النظام الأسدي إيصاله هو شيفرة واضحة استطاع الشعب السوري فهمها آنذاك، فتجذر الخوف داخله حتى أصبح شعوراً طاغياً على أي شعور آخر لسنوات طويلة، فكيف تنفصل ذاكرة اليوم عما حدث بالأمس؟ وكيف يمكن للجسد المتآكل وغير المرئي أن يستمر بالمقاومة لولا الإيمان المترسخ داخله بالحرية التي تم استلابها منه بالقوة؟

ولكن السؤال الأهم هو ذلك الذي طرحه الحسون حين قال: ((وفي سجن تدمر العسكري، ولد في نفسي سؤال إشكالي معضل، بدا وكأنه لا جواب عليه، أو أن الترتي العلمي، والخبرة المعرفية الطويلة بتفاصيل الجسد الإنساني وأسراره، لم تتوصل إلى معلومة علمية حاسمة في الجواب عليه، سؤال بات كالهاجس في نفسي، مؤداه هو: كم هي قدرة الإنسان القصوى على احتمال التعذيب...؟! ثم تعقدت الإشكالية أكثر، حين تولد من السؤال نفسه سؤال آخر: كم هي قدرة الإنسان القصوى على

(20) أحمد زكي، آل الأسد وأسرار سقوط آخر الطغاة، ط1، (القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع، 2013م)، ص74.

(21) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص28.

أن يحتمل ممارسة إيقاع التعذيب بإنسان آخر؟⁽²²⁾، في الحقيقة، لا يمكننا أن نقيس هذه القدرة بمقاييس بشرية عندما نتكلم على أساليب للتعذيب غير معدة للكائن البشري، ولكن يمكننا الحديث عن درجة ترسخ وعي هذا الإنسان بالحرية التي ناضل من أجلها، حتى في حالة انهيار الجسد وفقدان الوعي فهو يتحدى الألم لئلا تسقط القضية الكبرى بسقوطه، ويبقى سؤال الحسون بأبوابه المشرعة قائماً ما دام الطغاة مستمرين في طغيانهم، وما دام الظلام هو المسيطر على أي بصيص قادم.

خامساً: السجان والتماهي مع الذاكرة

عندما رجعت إلى ذاكرتي حول ما كنت قد شاهدته في الدراما عن السجان كانت الصورة غالباً مشوشة وغير واضحة، ذلك لأن التركيز كان على المسجون بصورة أكبر، لذلك فإنهم يتعمدون تغطية وجهه بقناع في مشاهد التعذيب أو الإعدام، فالسجان ينحو باتجاه المنطقة المظلمة التي تثير في النفس كثيراً من التساؤلات، من السجان؟ وما العلاقة النفسية التي تربطه بالسجين؟ وكيف يمكن له، وهو الإنسان، أن يتجرد من إنسانيته؟ وإذا حاولنا أن نجيب عن هذه الاسئلة من خلال رواية الحسون لن نعثر إلا على شذرات قليلة تتناول السجان بوصفه عنصراً متمماً للحدث الرئيس الذي قد يكون جلسة تحقيق يخضع فيها المسجون للتعذيب.

يحكي الحسون قصة الرجل (الذي يعلم ولا يقول) في سجن المزة، وهو لقبه الذي شاع بعد إصراره على الرفض بالاعتراف بكل ما يعرفه عن الشيخ مروان حديد قائد حركة الطليعة في سورية، إذ كان أحد الأشخاص المقربين من الشيخ، لذلك ((فقد اجتمعت عليه كل القيادات الأمنية الأشهر في سورية: علي دوبا، ومحمد الخولي، ومحمد ناصيف، وهشام الاختيار وحسن خليل، فضلاً عن مدير سجن المزة، وفريق كبير من الجلادين الذين شاركوا في التحقيق معه وتعذيبه))⁽²³⁾، إن تكاثر المحققين على سجين واحد يمثل صورة السلطة التي تحاول إرهاب السجين بالكثرة لتنتزع منه ما تشاء من اعترافات أو قد تقوله ما لم يحدث معه أصلاً، فإذا أردنا المقابلة بين السجين الأعزل، والذي غالباً ما يتم تعذيبه تماماً خلال جلسة التعذيب لإظهاره بأقصى المشاهد الإنسانية، وبين المحققين والجلادين المدججين بالأسلحة وكل ما من شأنه أن يزيد من قوتهم لعرفنا مدى هشاشة النظام الأسدي، وخوفه الدائم من كل من حوله، وفي ذلك يقول الحسون معبراً عن القسوة التي اتبعها السجانون في تعذيبهم للسجين والتي وصلت إلى مرحلة لا تضاهي في قسوتها ((في البداية ضحكوا منه، وتغامزوا ساخرين...

(22) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 27.

(23) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 30.

ستعترف ستعترف. هذه مجرد «بباسة راس» مألوفة لديكم جميعاً... ثم ترك لمصيره، فوق الصباح المعدني المحمي حتى الاحمرار، أسقط جسده إسقاطاً، وبدأت رائحة شواء لحمه تتصاعد))⁽²⁴⁾، فكما يلجأ السجان إلى التعذيب النفسي عن طريق التهكم والاستفزاز فإنه لا يتورع عن تنفيذ أقصى أنواع العقوبات الجسدية التي ابتكرها عقله المريض والمؤدلج وفق مصلحة النظام الأسدي وبشكل أعمى.

وقد يصل السجان إلى مرحلة من السادية في ممارسة التعذيب على المسجونين، إذ يتلذذ بما يمكن أن يلحقه بهم من أذى إلى درجة قد تصل إلى الموت، وكان المساعد أبو سومر من الذين ذاع صيتهم في سجن المزة العسكري ((حتى إن الروايات عنه قد تواترت بأنه يقوم على خنق المعدومين قبل موتهم، وهم معلقون على الحبل، وذلك بالتعلق بأجسادهم، كما يتعلق طفل بأرجوحة، ثم مرجحة جسمه بكل ثقله في جسد المعدوم وهو يتخبط متدلياً من الحبل، وذلك كي يبلغ المحكوم ذروة قصوى من عذابات الثواني الأخيرة، حتى مفارقتة الحياة))⁽²⁵⁾، تعد هذه السادية نوعاً من الأمراض النفسية التي تتجاوز بقسوتها كل ما يمكن الحديث عنه، وهذا ما جعل السجون السورية تفوق السجون العربية جميعها في عدم احترامها لحقوق الإنسان، والبطش بالمسجونين وتعذيبهم، ((إن أساليب التعذيب السادية المتبعة تمثل تهديداً لجوهر الإنسانية جمعاء، وليس للشعب السوري أو شعوب المنطقة وحسب. كما أصدرت منظمة العفو الدولية نهاية سنة 2016 تقريراً عن التعذيب في السجون السورية بعنوان «إنه يحطم إنسانيتك» مما ورد فيه: على مدى عقود استمرت أجهزة المخابرات السورية وغيرها من أجهزة الدولة باعتماد أساليب التعذيب، وقد غدت هذا النهج ثقافة الإفلات من العقاب التي تنتهجها الحكومة السورية من خلال غرض الطرف عن ممارسات أجهزتها المختلفة داخل السجون السورية))⁽²⁶⁾، ولعل السرد الروائي حين يتعمق في وصف شخصية ما أو حين يمر بها مرور الكرام يعود إلى مدى معرفة هذه الشخصية الكثيفة والمبطننة، حيث تتسم شخصية السجان بالغموض، كما أشرنا سابقاً، وذلك بالنسبة للسارد وبالنسبة للمتلقى، لذلك فإن النظم الاستبدادية ومنها النظام السوري يحيي هؤلاء القتلة تحت عباءته، ويفتح لهم إشارات المرور الخضراء ليمارسوا سلطتهم بصورة منافية للأخلاق الإنسانية وللقوانين الدولية.

وقد يستغل السجان عوامل الطبيعة، فيوظفها لرفع وتيرة العذاب إلى أقصاها، ففي تدمير كان الحمام فظيلاً وعجيباً فقد صدرت الأوامر للجميع بالتعري من كامل الثياب حتى تلك الداخلية التي تستر العورات، كان الوقت في أربعينية الشتاء، والبرد على أشد ما يكون، وقد كانت كامل سرية

(24) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 31.

(25) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 58.

(26) أحمد صوان، السجون العربية: الواقع ورؤية للإصلاح، ط 1، (لندن: أي كتب للنشر والتوزيع، 2022)، ص 62.

التأديب من عناصر الشرطة العسكرية تحيط بهم، وفجأة وثبوا وثبة واحدة، وهجموا بالسيات هجومًا في حركة تدريبوا عليها، فيما يبدو، طويلاً، وبدأت السيات تنهال مثل زخ الصواعق النارية فوق الظهور والأعناق والرؤوس والأعين، وقد أمروا بالسير حتى الحمام، ولقد كانت رحلة العودة مع عاصفة الكرابيج المتلاحقة، بعد أن تبللت الأجساد بالماء الحار، وانتفش الجلد من رطوبة الحرارة، وبعد أن لفحته برودة الجو الصقيعي، خارج الحمام، حيث كانت درجة الحرارة تقارب الصفر تقريباً أو أقل⁽²⁷⁾، لقد اعتمد الحسون للإشارة إلى السجنان هنا بالضمائر؛ لأنه على يقين بأنه وأصحابه مختلف عنهم تماماً، كما لو أنه أراد بذلك التمعن في جعلهم مجهولي الهوية، بالإضافة إلى أن استحضارهم نوستالجيًا هو استحضار غير مرغوب به ((إن ثمة جماعة من الناس تتكرر الإشارة إليها بـ«هم»، تبدو هذه الجماعة منفصلة من الناحية الأخلاقية عن الكاتب، ولا يمكن التنبؤ الكامل بسلوكها، وقد يتساءل القارئ غير العارف بخفايا الديكتاتورية من هم المقصودون))⁽²⁸⁾، وبذلك يحدث التواطؤ بين المتلقي والكاتب على تغييب السجنان من الذاكرة بشكل متعمد، وذلك لارتباطهم بالألم الشديد الذي كان يستمر ليلاً نهاراً من دون توقف، ما يجعل تلك الذكريات تستعيد من جديد العذاب ولكن بصورته النفسية وحدها.

سادساً: الميّا نوستالجيا

لجأ الحسون إلى النوستالجيا من أجل مقاومة النسيان، ومقاومة المحرقة التي تنهب الأيام والعمر مخلفة وراءها رماًداً يصعب معه استشراف المستقبل بشكل جلي وواضح، ولأن تلك الذكريات بوقعها المؤلم لا تفتأ تلح بقوة لتطفو على سطح الذاكرة بكل ما تحمله من آلام وعذابات، فلا يمكن للإنسان مهما حاول أن يتحرر من تلك الذكريات التي تلاحقه طوال حياته، ولعل الواقع المأساوي الذي تعيشه سورية منذ عام 2011م كان المحرك الأكبر الذي قض مضجع تلك الذكريات المدفونة في عمق الذاكرة، فأصبح من الصعب أن تعود إلى سباتها من جديد، فتكرار الأحداث بشكلها الأفظع على يد الطاغية الابن استحضّر الماضي بحيثياته كلها، ذلك أن استمرار الاستبداد وانتشاره المسرطن في الحاضر جعل قراءة الواقع تفضي إلى نتائج كثيرة ومعقدة يكاد الأمل والتفاؤل ينعدمان منه، فلا يبقى إلا تلك الرؤية السوداوية المطلقة.

ويعلل الحسون الدوافع التي جعلته يوثق ذكرياته فلا يجد إلا تلك الرؤية التشاؤمية التي تسيطر

(27) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص-119 120 بتصرف.

(28) رحاب منى شاكّر، السجنان في أدب السجون 1980-2008، (برلين: منشورات مجلة الجمهورية الرقمية، 2020)، ص 16.

على مشاعره، فالألم وحده هو ما يستطيع المرء أن يدونه، أما السعادة فهي تلك التي يعيشها ولا وقت في حياته يضيّعه لتفكيكها وتفسيرها وتأويل معناها، يقول: ((أحياناً يغشاني نزوع غاشم إلى التشاؤم، فهل تكون تلك الغاشية هي السبب الذي يجبرني على أن أكتب؟ إذ ما فتئت تلك النزعة التشاؤمية المحمومة والمستبدة، والتي لها وطأة غير حميدة على النفس، تحرضني على أن أدون ذكريات قلل من أهميتها دهر طويل عدا عليها، أو سطا سطواً خفيّاً، مثلما عدا على باكورة العمر))⁽²⁹⁾، إذّا، كان التشاؤم هو الشعور الذي دفع الحسون لتدوين ذكرياته والعودة نوستالجيّاً إلى الماضي الذي كان قد توقف زمنّاً طويلاً وسرق من حياته الرغبة بالحياة نفسها، وراح التشاؤم ينبع كغراب أسود داخل نفسه الحزينة ليؤذن بخراب سورية وضياعها إلى الأبد، وذلك حين يحل الظلام، ولا يبقى من نور الأمل أي بصيص، يقول الحسون: ((أتصور بأن الاعتقال الطويل والعذاب المتواصل لسنوات قد يترك بصمة محفورة يصعب أن تزول من ذهنية الكاتب السجين لسنين طويلة، حتى لو أراد ورغب بذلك، ولا أبالغ لو زعمت بأنها قد تحفر في شخصيته ونفسه حفراً وندوباً تدوم مدى الحياة))⁽³⁰⁾، فسورية تقف على شفا جرف هار، ومن العبث اليوم أن نتحدث عن التفاؤل في خضم هذا الواقع المرير، فما بعد النوستالجيا هو العدم واللاجدوى، والكثير من مشاعر الاغتراب والانسحاق التي يحملها السوريون داخلهم وهم مشتتون في جميع أصقاع العالم.

إن الحسون يرى أننا فقدنا البوصلة التي تدلنا على الطريق، فما من طريق بقي للسوريين، وما من مشاة على درب الجلجلة، لأن الثورة من أجل الحرية فقدت مضمونها الحقيقي، حين أصبحت تتأسس على عواطف مجردة من الفعل، فلا يمكن لمثل هذه الثورة أن تقود المجتمع، ولا يمكن أن تواجه نظاماً ديكتاتورياً يهيمن على الشعب السوري منذ أكثر من نصف قرن، ف((الثورات التي حلمنا بها طويلاً في الماضي، وأورثتنا الأمل بأن نغير ونتغير، لم تتأسس إلا في لحظة ارتجال أقرب إلى النزق، فكانت كالزبد الطائف على وجه سيل لا اتجاه له، ولا معدلات حركة جارفة. فمن المتعذر أن تخطف المجتمع، أو تتناوله في حمأة خيالات مجنونة))⁽³¹⁾، إن تلك القراءة التي يقدمها الحسون للواقع هي قراءة واقعية، فالرغبة في التغيير يجب أن تخرج إلى حيز الفعل، وغياب الرؤى الواضحة سيجر مستقبل سورية إلى السقطة التي لا قيام بعدها.

ونتساءل هل استطاع الحسون أن يستشرف المستقبل من خلال معرفته الدقيقة بالواقع القائم في سورية واستقراء النتائج من المقدمات؟ لقد استطاع الحسون من خلال اعتقاله لعقد من الزمن

(29) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص.9.

(30) فاطمة العبود، مقابلة هاتفية مع معبد الحسون، (فرنسا: 23 فبراير/شباط، 2022).

(31) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص.14.

أن يعرف خصمه الذي تجاوز بطغيانه كل طغيان، يقول: ((لا أدعي أننا، أنا ومجموعتنا، كنا أجلى فهمًا مبكرًا لما حدث لهذه البلاد، بعد انقضاء أربعين عامًا مضت قبل اليوم، وليس لدي الكثير لأقوله أو أفسره حول هذه النقطة بالذات: نبوءتنا المبكرة في أن هذا النظام، الذي يشبه الأفعى العملاقة المرعبة، التي تلتف حول سورية، سوف يأتي عليه حين من الدهر، يلتهم البلد وسكانها، وبيتلعهم دون شفقة، ولقد فعل حقيقة ما كنا توقعناه))⁽³²⁾، لقد كان من المؤسف ما اعتقده الشعب من أن بشار سيقوم بالمشاريع الإصلاحية، وبأنه سيشتيع جوًا من الحرية والديمقراطية بعد استلامه الحكم، فبشار غير قادر على تغيير هيكلية الدولة الأسدية، ولا رغبة له حقيقة في ذلك، فالسلطة والحفاظ على حكم أسرته الاستبدادي لسورية كان من أهم أولوياته.

وتبقى نوستالجيا السجون سبيلًا لتشكيل الوعي الممكن الذي قد يتحقق في المستقبل، يقول الحسون: ((في الحق أن تلك الذكريات، كما أراها، ضرورية حتى تطلع عليها الأجيال الحاضرة اليوم، أو التي سوف تولد مستقبلًا، إنها الواقع عاريًا كما هو، دون تزييف أو تزويق أو إنشاء أدبي، ومن حق الذين لم يخوضوا التجربة أن يعيشوا بعض تفاصيلها ولو استحضارًا من خلال قراءتها، الرؤية الخاصة بالواقع قد تكون متبدلة ومتنقلة بمقدار ما تتضافر عوامل وظروف قد تساعد في خلق واقع مغاير أفضل، وقد نشهد خلال أعمارنا القصيرة المحدودة هذا التغير أو لا نشهده، لكن البوح بالتجربة كما هي وكما عايشها أي كاتب، يغدو إبراء للذمة، واستفراغًا للوسع وتحقيقًا لرؤياه الخاصة في مجتمع أفضل، وحياة إنسانية، نسبيًا، أكمل مما عاشه الجيل الماضي))⁽³³⁾، وبهذا المعنى تصبح الذكريات جسرًا بين الماضي والمستقبل، ووسيلة تستطيع بها الأجيال القادمة أن تستفيد من تجربة الأسلاف في نجاحها وفشلها، فربما تحول الكابوس الذي تعيشه سورية والسوريون إلى حلم قابل للتحقيق.

سابعًا: الخاتمة

بعد أن قاربنا رواية (قبل حلول الظلام) كان لا بد لنا من أن نجمل نتائج الدراسة التي حاولت أن تتناول أدب السجون من زوايا مختلفة، فكانت هذه القراءة واحدة من قراءات كثيرة لنص مفتوح على الرؤى، تتعدد فيه الدلالات والتأويلات، فلا مشاحة في الآراء ما بقي النص وما دام النقد:

(32) معبد الحسون، قبل حلول الظلام، ص 20.

(33) فاطمة العبود، مقابلة هاتفية مع معبد الحسون.

1. شكلت السجون حيزاً مكانياً مقصوداً في السرد الروائي، كما شكلت حيزاً نفسياً ضاغظاً على المسجونين، فكان السجن بكثافته معادلاً موضوعياً لتلك الذكريات التي يسردها الكاتب، إذ تنعكس صفات السجن (الانغلاق، المحدودية، العزلة) على نفسية السجين حتى بعد خروجه منه، فترافقه في حالات كثيرة فيما تبقى من حياته، وقد كانت المقابلة بين الممارسات الاستبدادية داخل السجن وخارجه تتشابه من حيث المحرك والفاعل وإن اختلفت ظروف كل منهما وطبيعته، ما جعل السجن نموذجاً مصغراً عما آلت إليه سورية على يد النظام الأسد.

2. يتساوى بالنسبة للسجين الزمن داخل السجن وجوداً وهدماً، نتيجة لما يتعرض له من تنكيل وتحطيم للأحلام التي طالما سعى إلى تحقيقها، لذلك فإن النظام الأسد يعمد إلى تعذيب السجناء بالزمن من خلال هدر عمر السجين بلا معنى أو فائدة، وتقصد إشعاره بتباطؤ مرور الوقت داخل السجن، وعلى ذلك فإن ما يقوم به المسجونون داخل السجن لكسر رتابة الزمن وكآبته لا يتعدى محاولتهم مقاومة الموت البطيء والوقت المتثاقل.

3. إن التماهي مع الآخر المتشابه في الظروف والمصائر في تلك الرحلة النوستالجية القاسية دليل على أن الكارثة المحيطة بالشعب السوري كانت أكبر من الانصراف عنها والانشغال بهوموم الذات الساردة الفردية، ولكن هذا التماهي بين العام والخاص أخذ مدلولاً آخر عند النظام الأسد إذ تحول إلى حالة من الإلغاء المقصود للآخر بوصفه مختلفاً بغاية التفرد بالسيادة وسحق آمال الشعوب عن طريق إرهابها وتجزير مفهومات الخوف والتبعية والخنوع في نفوسها.

4. لم يكن حضور السجنان في رواية الحسنون حضوراً رئيساً، إذ غالباً ما تم تعميم دوره في المشهد السردى بقصد تغييبه وتهميشه، وقد استخدم الكاتب الضمائر التي تحيل على تلك الشخصية في كثير من الأحيان للغرض ذاته، كما كان الكاتب يعمد إلى الإشارة إلى كثرة السجنانيين مقابل المسجون الأعزل المفرد للدلالة على سادية النظام الأسد وخوفه، ما دفعه للتهويل والتضخيم غير المتعادل، خاصة وأن النظام الأسد يغض طرفه عن تلك الممارسات، بل يشجع عليها.

5. إن الغاية من النوستالجيا هي محاولة استشراق المستقبل انطلاقاً من وعي الواقع بظروفه وأحداثه على الرغم من الرؤية التشاؤمية التي تطفئ على الرؤى الأخرى جميعها نتيجة ما خلفه السجن في نفس الكاتب من ندوب لا يمكن نسيانها أو تجاهلها، لذلك فإن ما بعد هذه النوستالجيا يبدأ دور الجيل القادم الذي يجب أن يطلع على تلك الحقائق بشكلها الحقيقي غير المزيف، وذلك ليؤسس لثورة التغيير الفاعلة والمنصفة.

المصادر والمراجع

1. باختين. ميخائيل، أشكال الزمان والمكان في الرواية، يوسف حلاق (مترجمًا)، (سورية: وزارة الثقافة، 1990).
2. بنكراد. سعيد، السيميائيات السردية، (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2001).
3. حسن. عمار علي، النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية، ط1، (القاهرة، مركز الدراسات السياسية، 2002).
4. الحسون. معبد، قبل حلول الظلام، حين يصير الدم ماء، (غازي عينتاب/ حلب: نون 4 للنشر والطبع والتوزيع، 2019).
5. زكي. أحمد، آل الأسد وأسرار سقوط آخر الطغاة، ط1، (القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع، 2013).
6. صوان. أحمد، السجون العربية: الواقع ورؤية للإصلاح، ط1، (لندن: أي كتب للنشر والتوزيع، 2022).
7. العابو. عبد الرحمن، البطولي في أساطير الشرق القديم وملاحمه، (سورية: دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، 2014).
8. مجموعة من المؤلفين، جماليات المكان، ط2 (الدار البيضاء: عيون المقالات، 1988).
9. شاكر. رحاب منى، السجنان في أدب السجون 1980-2008، (برلين: منشورات مجلة الجمهورية الرقمية، 2020م).



رحلة الغمروثلاثية المطمح السياسي وطمس الهوية ومأساة الغربية

دراسة اجتماعية إحصائية

حسن عبد الله الخلف⁽¹⁾

أولاً: ملخص

لطالما كان ينظر إلى سد الفرات على أنه مشروع يسهم في تطوير المنطقة، لكن ما قاد إليه فعلاً هو تدمير المواقع الأثرية، وتشريد السوريين، واقتلاعهم من جذورهم، ما أدى إلى مأساة إنسانية قائمة آثارها حتى اليوم. إن الأغراض السياسية للنظام من وراء تهجير المغمورين يتعذر وصفها إلا من خلال مجموع الإجراءات التي اتخذت ضد المغمورين وغيرهم، وهي أغراض بعضها واضح مثل تفكيك المجتمعات المتماسكة، وبعضها متعلق بالمسألة الكردية وبالعلاقات مع دول الجوار.

يهدف البحث إلى تشكيل معرفة قريبة بحزمة المشكلات والمعاناة التي تعرض لها المغمورون. ويهدف إلى تقييم قرار تهجيرهم على الرغم من وجود حلول وإمكانات أخرى، بما يتواءم مع ضمان حقوق الجميع في وطن يتشارك الجميع في بنائه والحياة فيه بعدالة.

يحاول البحث فتح المجال للعمل البحثي في مساحة جغرافية ومعاناة اجتماعية، لم ينالا نصيبهما (الكافي) من البحث العلمي. فالبحث يحاول دراسة الوضع الإنساني والمعاناة التي تعرض لها المغمورون الذين باتوا يشكلون جماعة تعاني العزلة، ويهددها خطر وجودي، وذلك من خلال إجراء مقابلات مع أشخاص من المنطقة، وجمع معلومات هذه الدراسة.

تظهر هذه الدراسة استغلال النظام مشروع سد الفرات في خطته ومشروعاته السياسية التي تهدف إلى تدمير التراث الثقافي السوري، وتفكيك القوى المجتمعية الفاعلة (العشيرة)، وتوظيفها في تأجيج النزاعات بين المكونات السورية.

(1) صحافي سوري، مقيم في ألمانيا.

ثانيًا: مقدمة

في سبعينيات القرن المنصرم أنجز مشروع سد الفرات، فغمرت مياه بحيرة الأسد المتشكلة خلف السد أراض واسعة في ريفي محافظتي الرقة وحلب، ما أدى إلى خسارة عدد كبير من الفلاحين أراضيهم بعد أن غمرتها مياه البحيرة، حيث أُجبر أقل من نصفهم على الهجرة قسرًا إلى محافظة الحسكة، ليتم إسكانهم (توطينهم) في مزارع نموذجية أنشئت على عجل في أراض تعود إلى أملاك الدولة هناك، وبات يطلق على هؤلاء الذين هُجروا من مناطقهم مصطلح (المغمورون).

يهدف هذا البحث إلى تغطية فجوة مهمة لم يسبق أن درّست، وهي دراسة الوضع الإنساني والمعاناة التي تعرّض لها المغمورون الذين باتوا يعانون عزلة داخل مجتمعهم الجديد، والمخاوف والتحديات الوجودية التي تواجههم في ظل الفوضى التي تشهدها سورية. ويعنى البحث بجانب آخر من معاناة المغمورين التي تتمثل في عزلهم عن مجتمعهم القديم الأصلي، فالهجرة القسرية التي تعرّض لها فلاحون ينحدرون من عشائر تنتمي بالأساس إلى تجمع قبلي واحد (البوشعبان)، حولتهم عقود من التهجير إلى جماعة متميزة ومتغايرة عن محيطها القديم -الأقرب عرقيًا واجتماعيًا- وشكّلت هذه العزلة عن مجتمعاتهم القديمة والجديدة في آن معًا معاناة قاسية لهم. ويُسلّط الضوء أيضًا على استغلال النظام مشروع سد الفرات في خطته ومشروعاته السياسية التي تهدف إلى تدمير التراث الثقافي السوري، وتفكيك القوى المجتمعية الفاعلة (العشيرة)، وتوظيفها في تأجيج النزاعات بين المكونات السورية، ليتحول المغمورون من ضحايا ومهجرين إلى ورقة صراع سياسي بين النظام وأحزاب الأكراد، وتجلّى ذلك بوضوح من خلال استغلال الأحزاب والقوى القومية للأكراد في سورية، هذه الورقة لإظهار التظلم من سياسات النظام ضدّ الأكراد على أن هذه الفئة المغمورة من الناس استخدمها النظام لترسيخ قواعده هناك، الأمر الذي أدى إلى رسم صورة نمطيّة قاسية بحق المغمورين عبر محاولة إلصاق بعض المصطلحات بهم مثل: (مستوطنين، محتلين، غرباء، دخلاء)، وليصبح المغمورون بذلك أداة لتحديد ملامح سياسات النظام التي أدت -بحسب سردية الأكراد- إلى سلب أراضي الفلاحين الأكراد، ومنحها للمغمورين، ومن ثم شهدنا ارتفاعًا في أصوات الأكراد الداعية إلى طرد المغمورين، الأمر الذي فتح الباب أمام عدد من المخاوف والتكهنات حول مصير المغمورين، هذا كله يدفعنا بالضرورة إلى محاولة الإجابة عن تساؤلات مهمة حول تهجير المغمورين، مثل: ما دوافع قرار نقل المغمورين إلى مناطق جديدة داخل سورية؟ وما مشروعيته؟ ما شكل المعاناة التي عاشها المغمورون خلال هجرتهم القسريّة إلى الحسكة؟ ما مدى واقعية هواجس المغمورين وتخوفاتهم في ضوء تجربتهم خلال نصف قرن من الزمان في محيط الأكراد والعرب في الجزيرة السورية؟

ثالثاً: المنهجية

استُخدم المنهج الوصفي التحليلي، والشهادات الشفوية لأشخاص عاشوا تلك التجربة، وعایشوها، محاولاً رصد الحالة التي مرّ بها المغمورون، ووصف واقعهم من جوانب عدة يغطيها البحث، وتقديم تحليل نتائج لما أحدثته هجرتهم القسرية من آثار ورواسب بصورة خاصة في الجانبين النفسي والاجتماعي. لا بدّ من التنبيه أيضاً إلى أنّ البحث واجه صعوبات أهمّها عدم وجود دراسات أو مصادر تناولت الموضوع الذي نحاول دراسته بصورة مفصّلة، إضافة إلى أن وجود المغمورين معظمهم حالياً تحت سلطة أمر واقع بين (قسد) ونظام الأسد أدى إلى تحفظ عدد منهم على الإدلاء بشهادات أو إجراء مقابلات كان من شأنها إغناء البحث.

رابعاً: النطاقان الجغرافي والتاريخي لمشكلة المغمورين

يمكننا تحديد الحيز الجغرافي الأول الذي بدأت فيه مشكلة المغمورين في مناطقهم التي هُجّروا منها لبناء سد الفرات في مدينة الطبقة على بعد 50 كم تقريباً عن مدينة الرقة، وبدأ المشروع سنة 1966 بعد التوقيع على اتفاق ثنائي بين سورية والجانب السوفياتي لإقامة سد تخزيني في الطبقة، ليبدأ بناؤه في نهاية عام 1968 على يد خبراء روسيين، فأنجز على مراحل عدة استغرقت تسع سنوات حتى انتهى. الأمر ليس كذلك فحسب، إنّما بناء مشروع سد الفرات الحيوي تطلّب إنشاء بحيرة ضخمة خلف السد، سُمّيت (بحيرة الأسد) بلغ طولها 80 كم، وعرضها حوالي 8 كم، ومحيطها 200 كم، ومساحتها 650 كم مربع، وبُني بالتخزين في بحيرة السد عام 1973 عندما حوّلت الدولة مجرى النهر 1975، الأمر الذي أدى إلى غمر أراض زراعية يمكن أن تُعدّ من أخصب الأراضي في سورية بمساحة إجمالية بلغت حوالي (60) ألف هكتار، إضافة إلى تهجير ما يقارب (57) ألف نسمة، نقلت 4453 عائلة منهم، وأسكنت في محافظة الحسكة ضمن (41) قرية.⁽²⁾

أمّا الآخرون من سكّان المنطقة المغمورة رفضوا قرار الترحيل، وقاوموا الرحيل، ونقلوا قراهم التي غمرتها المياه إلى المرتفعات المجاورة للبحيرة في الأراضي البعلية، وتوزّعوا بين مزارع الدولة في مشروعات مؤسسة حوض الفرات (وحي الرميّة) في الرقة ومحافظة حلب من دون أي تعويضات إلى تاريخ اليوم، ويصل عددهم إلى (6000) بحسب المسح الاجتماعي لعام 1969.⁽³⁾

(2) د.م، كتيب صادر عن وزارة سد الفرات، (1975)، ص 139.

(3) د.م، كتيب صادر عن وزارة سد الفرات، ص 139.

ويمكننا عدّ الحيز الجغرافي الثاني لمشكلة المغمورين الشريط الحدودي المحاذي لتركيا في محافظة الحسكة، حيث وُزِعَ المهجرون قسراً من المغمورين على مساحة جغرافية تبدأ من أقصى نقطة في الشمال الشرقي من سورية عند المثلث الحدودي الذي تلتقي عنده الحدود التركية والعراقية والسورية، وتنتهي غرباً عند مدينة رأس العين، ((وتم لهذا الغرض إنشاء 41 قرية نموذجية في مناطق مُتفرّقة، تفصل بينها مسافات تتراوح بين 6-15 كم على شريط حدودي بطول 300 كم وعمق 10-15 كم في الأراضي السورية، تم إنشاء جميع تلك القرى في أراضي أملاك الدولة)).⁽⁴⁾

خامساً: لمحة عن المسح الاجتماعي لمنطقة الغمر سنة 1969

في عام 1969 أحصيت المنطقة التي سوف تُغمر بمياه بحيرة سد الفرات عند منسوب (300 م) من سطح مياه البحر، فبلغت مساحة منطقة الغمر (62500) هكتار، منها (46000) هكتار ري، وهي من أخصب الأراضي في سورية، و(14000) هكتار أراضي مراعي، إذ يمكن الاستفادة منها في مشروعات الري أيضاً، و(2500) هكتار المساحة العمرانية للقرى التي سيشملها الغمر، وكان عدد سكانها سنة 1969 (57000) نسمة، وبلغ عدد العائلات المتأثرة بالغمر (9749) عائلة عند أطراف البحيرة، ممن سوف يطولهم الغمر عند المنسوب (300)⁽⁵⁾.



منظر للمناطق التي غمرتها مياه البحيرة مأخوذة من جبل عارودة. المصدر من الأرشيف العائلي للباحث

(4) محمد جمال باروت، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013) ص 744.

(5) د.م، كتيب صادر عن وزارة سد الفرات، ص 139.

بلغ عدد نفوس وادي الفرات سنة 1975 نصف مليون، حيث يسكن في المتر المربع الواحد أربعة أشخاص، ومساحة حوض نهر الفرات⁽⁶⁾ هي 444 ألف كيلو متر مربع، ومن ضمن هذه المساحة 253 قرية ومزرعة وتجمعاً سكانياً ستغمرها مياه البحيرة، حيث قُرّر تجميعها في 19 وحدة سكنية، بعدد أُسر متقارب في كل وحدة مع مراعاة الانتماء العشائري بين أفراد الوحدة الواحدة، لتُوَزَّع على مزارع المشروع الرائد بالرقعة ومزارع مسكنة التي يصل مجموعها إلى 21 مزرعة معدة للتوطين، وعدد منازلها 6768 في الرقة، وفي مسكنة حوالي 1200 مسكن.⁽⁷⁾

أما أهالي الضفة اليسرى من الفرات (الجزيرة) ففضلوا البقاء فيها، في حين كان مقرراً أن يُنقل سكان الضفة اليمنى (الشامية) إلى المزارع الجديدة في منطقة الحميرات شرقي الرقة إلى المشروع الرائد. بالنهاية استطاعت الدولة تهجير نحو 4453 عائلة إلى منطقة الحسكة، أما من تبقوا، فقد قاوموا القرارات، وبقوا في المناطق غير الصالحة للزراعة على ضفاف البحيرة، وقسم منهم انتقل إلى البادية أو مدينة الرقة.

سادساً: تدمير عشرات المواقع الأثرية وغمرها

إن النتائج السلبية لبناء السد لم تتوقف على تهجير السكان، بل وصلت إلى طمس تاريخ المنطقة أيضاً؛ فقد كان لمرور نهر الفرات في السهوب السورية القاحلة دور في تشجيع الاستيطان في الأماكن القريبة منه، ما أدى إلى إنتاج سجل أثري غني على طول هذا النهر، وإن إقامة سد مائي اصطناعي تركت أثراً سلبياً كبيراً في المواقع الحضارية والأثرية في المنطقة، لما تعرّضت له من غمرٍ وتغيير. بمجرد التخطيط لمشروع السد بُذِل جهد كبير لإنقاذ هذا التراث من قبل علماء الآثار من أنحاء العالم جميعها، وبتمويل من اليونسكو، فتمّ التنقيب في 20 موقعاً أثرياً في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، وأُجري مسح إقليمي للوادي⁽⁸⁾. من أهم هذه المواقع التي غمرتها مياه السد، تل أبو هريرة الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات (الضفة الشامية).

وقد كشفت نتائج التنقيبات في تلك المواقع عن المستويين الحضاري والمعماري العالين اللذين

(6) يشمل حوض الفرات المناطق التي تقع على ضفتي الفرات ضمن الأراضي السورية من جرابلس حتى البوكمال.

(7) د.م، كتيب صادر عن وزارة سد الفرات، ص 140.

(8) Jesse Casana, Jackson Cothren, and Tuna Kalayci, "Swords into ploughshares: Archaeological applications of CORONA satellite imagery in the Near East, (Internet Archaeology 32.2, 2012).

وصلت إليهما المنطقة في جزء من تاريخ سورية القديم، هذه المواقع وغيرها أعادت توجيه اتجاهات البحث لعلماء الآثار في الشرق الأدنى لجيل كامل، ولكن معظمها اليوم قد غُمِر تحت مياه بحيرة الأسد. إن بناء السدود مثل سد الفرات وسد تشرين لم يؤدِّ إلى تدمير عشرات المواقع الأثرية السورية المهمة وغمرها تحت الماء فقط، بل انعكس الفشل الكبير في تحقيق أهدافها المرجوة في تدمير حياة السكان المحليين أصحاب هذا التراث الثقافي الذين كانوا يظنون أنها ستكون نعمة، فكانت نقمة عليهم، وهذا ما أشار إليه عالم الآثار السوري عدنان المحمد في دراسته بقوله: ((كان يتوقع سكان المنطقة أن تساهم مشاريع السدود في تنمية المنطقة لكنه نتج عنها عكس ذلك تمامًا، حيث صادرت الدولة أراضي الفلاحين، والتعويضات كانت لا تتناسب من حيث الحجم أو الجودة مع ما فقده المزارعون، ما رفع من نسبة المهمشين والجياع والفقراء)).⁽⁹⁾



تل الشيخ حسن المغمور يظهر بسبب انخفاض مياه بحيرة سد الفرات (بحيرة الأسد) 2015.

المصدر: عدنان المحمد

أضعفت عوامل عدة مثل الفقر والجوع والظلم والتمييز من قبل الدولة علاقة السكان بترائهم

(9) Adnan Almohamad, The Destruction of Cultural Heritage in Syria: The Case of Shash Hamdan Tomb 1 in the Upper Euphrates 1995-2020, 10, No. 1,) Journal of Eastern Mediterranean Archaeology & Heritage Studies, 2022), p.67

الثقافي المحلي، وقادت إلى تورط السكان المحليين الفقراء في أعمال حفر في المواقع الأثرية من أجل تأمين لقمة العيش بدلاً من حمايتها والمحافظة عليها.⁽¹⁰⁾

في عام 1969 أصدر الرئيس نور الدين الأتاسي المرسوم التشريعي رقم 295 تاريخ 1/12/1969، ونصّت المادة الأولى منه على ما يأتي: ((خلافًا لأحكام المادة 52/ من المرسوم التشريعي رقم 2/ رقم 222/ تاريخ 26/10/1963، يجوز منح بعثات التنقيب الأجنبية التي سيجري الترخيص لها بالعمل في المواقع الأثرية التي ستغمرها مياه سد الفرات اعتبارًا من تاريخ نفاذ هذا المرسوم نصف الآثار المنقولة المكتشفة))،⁽¹¹⁾ ما يمكن عده تفريطًا بالآثار السورية فتح بابًا واسعًا لنهب القطع الأثرية تحت هذه المادة بسبب هذه المنح من الآثار المكتشفة من قبل اللجان العاملة في تلك المناطق.

استعرض عدنان المحمد بعض الأدلة على تورط نظام الأسد والمقربين منه في نهب الآثار السورية، أشار على سبيل المثال إلى تورط وزير الدفاع السوري الأسبق مصطفى طلاس في نهب القطع الأثرية وتهريبها، وأشار أيضًا إلى رفعت الأسد وهو عم بشار الأسد المعروف في سورية بسرقة القطع الأثرية القيمة وبيعها في الخارج، كذلك ماهر الأسد شقيق بشار الأسد ورئيس مكتب أمن الفرقة الرابعة الذي كان يشرف على تجارة الآثار قبل الحرب وفي أثنائها. إضافة إلى أن ذو الهمة شاليش وآصف شوكت وأفراد آخرون من العائلة متورطون في نهب المواقع الأثرية وتهريب القطع الأثرية إلى لبنان، عبر حزب الله والإمارات، وكلهم لهم علاقات خاصة مع نظام الأسد.⁽¹²⁾

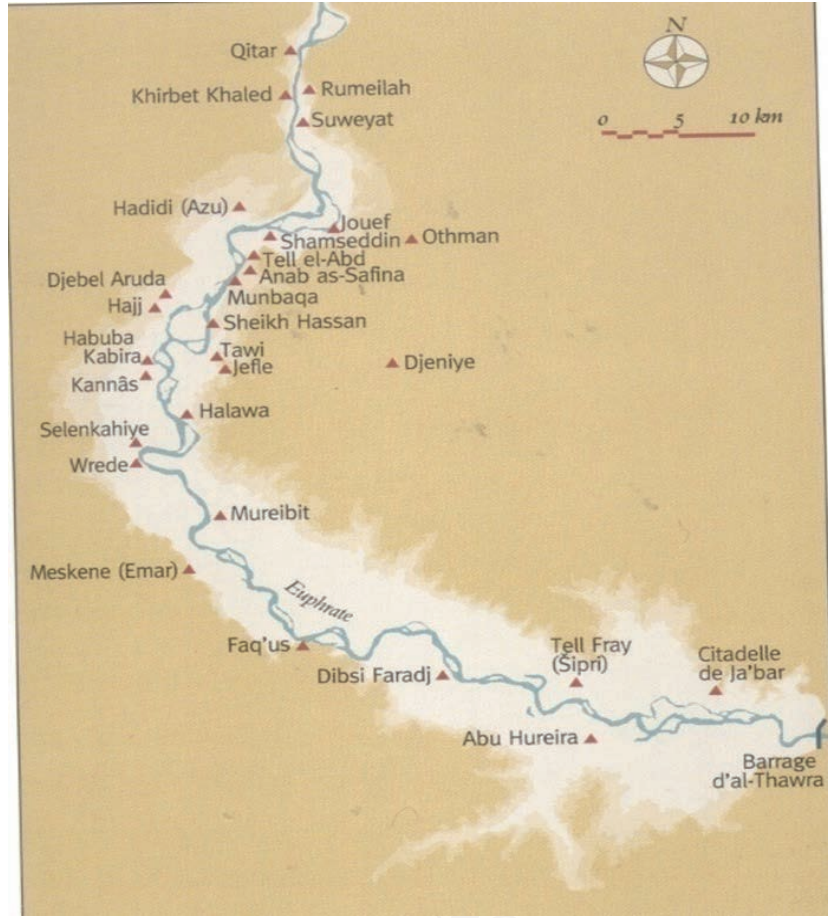
ما ذكر من حالات لا تُخفى على أحد، ويعرفها كثير من السوريين المطلعين على هذه الملفات بل حتّى العوام باتوا يدركون ذلك. لقد قوّضت انتهاكات نظام الأسد ضد الآثار السورية ونهبه إياها ثقة الناس في (النظام) حاميًا للآثار والثروة الوطنية، في الواقع ينظر كثير من السوريين الآن إلى النظام على أنه عصابة تسرق ميراث البلاد وأصولها، لقد أدى هذا إلى تدمير أي مظهر من مظاهر الشراكة مع الهيئات الحاكمة، وقلل من شعور المواطنين بالانتماء إلى الوطن الذي أصبح في الأساس ملكًا لعائلة الأسد. لذلك يشعر كثيرون أن حماية الآثار لم تعد واجبهم الوطني.⁽¹³⁾

(10) Adnan Almohamad, The Destruction of Cultural Heritage in Syria: The Case of Shash Hamdan Tomb 1 in the Upper Euphrates 1995-2020, p. 68

(11) قانون الآثار الصادر بالمرسوم التشريعي رقم 222 تاريخ 26/10/1963 مع تعديلاته جميعها، ص 27

(12) Adnan Almohamad, The Destruction of Cultural Heritage in Syria, p.49-73.

(13) Adnan Almohamad, The Destruction of Cultural Heritage in Syria, p.70-71.



المواقع والتلال الأثرية التي غمرت بمياه البحيرة

المصدر: مصور بحيرة السد والمواقع الأثرية - الهيئة العامة لمشروع الفرات.

سابعاً: موقف المغمورين من التهجير إلى الجزيرة

كما ذكر سابقاً فإن كثيراً من أبناء الغمر رفضوا في بادئ الأمر تعويضهم في أراضي الجزيرة، وكانت رغبتهم أن يُعوضوا بدلاً من الأراضي التي غُمرت بمياه البحيرة بالأراضي التي ستُستصلح في محافظتي حلب والرققة. إلا ((أن ما حدث هو أن مؤسسة حوض الفرات قامت بتوزيع الأراضي التي استصلحت للعاملين في المؤسسة وأصرت السلطة السورية على تنفيذ قرارها بالترحيل إلى الجزيرة، وهددت

بالحرمان من التعويض كل من يرفض الإقامة في محافظة الحسكة، وقامت السلطات بأكثر من ذلك فلم تكتفِ بنقل إقامتهم، بل نقلت قيودهم في سجلات الأحوال المدنية إلى التجمعات السكنية التي شُيّدت لهذه الغاية⁽¹⁴⁾.

((لقد اتخذت الدولة عدة إجراءات لإجبار جزء من المغمورين الذين تقرر توطيئهم في محافظة الحسكة، للانتقال إلى القرى التي خُصّصت لهم، مثل عدم السماح لهم بالبناء في السهول المتاخمة لقراهم المغمورة في حوض الفرات، وعدم تسجيل أبناء المغمورين في مدرسة خارج محافظة الحسكة، ورغم هذا أبدى المغمورون ممانعة شديدة في الانتقال لمنطقة الجزيرة، ولم يغادر من تبقى من المغمورين الذين تم استيعابهم على ضفاف بحيرة الأسد أو في البادية الشامية أو في مدينة الرقة، إلا في آذار 1974 م مكرهين على القرار وذلك بعد أن غمرت المياه أراضيهم ومنازلهم، بل يصف بعضهم لحظة رحيله بعد أن غرزت دواليب السيارات بالمياه⁽¹⁵⁾)).

ولعل من أفضل ما يمكن أن يذكر في هذا المقام شهادة الأديب موسى رحوم عباس صاحب رواية (بيلان)⁽¹⁶⁾ التي قدّمها لهذا البحث في تسليط الضوء على جانب من معاناة المغمورين، يقول:

((هذه المرة سأكتب بصفتي شاهداً لا أديباً، كوني واحداً من هؤلاء الذين حملوا هذه الصفة «الوصمة» سأكتب من الذاكرة، وحسب! في العام 1972 أكملتُ دراستي الإعدادية «المتوسطة» في مدرسة «إعدادية مربيط» القريبة من قرية كسرة مربيط على شاطئ الفرات من جهة الجزيرة المعروفة، وبعد بدء الأعمال في بناء سد الطبقة كما كنا نعرفه، رغم أن الحكومة لم تلتفت لتسميتنا، وأطلقت عليه سد الثورة، وبقيت هذه التسمية مضحكة لنا نحن الصغار في ذلك الوقت، ثم توالى الوفود الرسمية والحزبية للقرية وللقرى المجاورة، وفي كل مرة كان الرفاق يتحدثون عن الرفاهية القادمة والعز الذي ينتظرنا⁽¹⁷⁾)).

(14) حسن عبد الله الخلف، مقابلة مع أحد المغمورين الذين وُطنوا في محافظة الحسكة، (2 أيار/ مايو، 2022).

(15) حسن عبد الله الخلف، مقابلة مع مهندس زراعي عاصر قرارات الغمر ونُقل إلى الحسكة مع المغمورين، (5 أيار/ مايو، 2022).

(16) موسى رحوم عباس، رواية بيلان، (بيروت: دار بيسان، 2011).

(17) انظر الشهادة كاملة للأديب موسى رحوم عباس التي خص بها البحث في الملحق رقم 1.

ثامناً: مزارع الدولة

وهو الموطن الأول المُقترح للمغمورين، ويقسم إلى قسمين:

1. المشروع الرائد بالرقعة (15 مزرعة)

لم يكن الأهالي يأخذون المشرفوعات التي كانت الحكومة تروّج لها عبر الأفلام والأشرطة والوعود البراقة بجدية، وكانت فكرة الانتقال من أراضيهم مستبعدة من ذهنهم ومستحيلة، وتأخذهم العاطفة للقول إنهم سيموتون بأرضهم ولن يغادروها مهما بلغت الضغوط، وإن الدولة ستضطر إلى صرف النظر عن المشروع.

كانت خطوات الدولة تشي بعدم التراجع عن فكرة السد والغمر، وفي بادئ الأمر كثّر من أبناء الغمر رفضوا تعويضهم في أراضي الجزيرة (البعيدة)، وكان يحذوهم الأمل أن يتم تعويضهم بدلاً من الأراضي التي غُمرت بمياه البحيرة بالأراضي التي ستستصلح في محافظتي حلب والرقعة، أي من أراضي المشروع الرائد المعد البديل من أراضي الغمر، وهو (15) مزرعة في الرقعة و(7) مزارع في ريف حلب على غرار الاتحاد السوفياتي ونظام كولخوز (بالروسية: КОЛХОЗ)، وهو أحد أشكال المزارع الجماعية في الاتحاد السوفياتي السابق. وجدت جنباً إلى جنب مع مزارع الدولة سفخوز ((وكان هذان النوعان العنصرين الرئيسيين في قطاع المزارع الاجتماعية الذي ظهر في نظام الزراعة السوفيتي بعد ثورة أكتوبر عام 1917، باعتباره نقيضاً للهيكل الإقطاعي)).⁽¹⁸⁾ ويشمل المشروع الرائد كلاً مما يأتي:

أ. مزارع معدة للمغمورين في محافظة الرقعة

أطلق اسم مشروع الرائد على أول منطقة تستفيد من مشروع الفرات:

منطقة وادي الفيض 4000 هكتار.

منطقة السلحبيات 9000 هكتار.

منطقة الحمرات 5000 هكتار.

منطقة السويدية 1900 هكتار.

(18) منذر الحاج، تشريعات زراعية وتعاونية، (حماة: منشورات جامعة حماة 2019 - 2020)، ص 16.

تبلغ مساحة المشروع الرائد المستثمرة حوالي (19800) هكتار، ويضم أيضًا من مزارع الدولة المُحدثة التي كانت معدة لاستقبال الغمر، وهكذا بلغ عدد المساكن المعدة للسكن (6768) مسكنًا حديثًا تتسع لـ (39200) نسمة، وكل مزرعة من المزارع الجديدة تحتوي على عناصر خدمات من مثل المراكز الاجتماعية والجمعيات الفلاحية ومستوصفات طبيّة ومراكز ناحية أو بلدية وبريد وهاتف وأسواق تجارية وأفران ومدارس ابتدائية وجوامع وحدائق ومراكز ثقافية، وهذه المزارع المُحدثة هي:

(مزرعة اليمامة، مزرعة الأندلس، مزرعة الرشيد، مزرعة الأنصار، مزرعة العدنانية، مزرعة يعرب، مزرعة القحطانية، مزرعة ربيعة، مزرعة حطين، مزرعة الأسدية، مزرعة القادسية، مزرعة بدر، مزرعة الغسانية، مزرعة المحمدية، مزرعة مضر).⁽¹⁹⁾ ويضاف إليها مزارع بئر الهشم (10000) هكتار، وهي (مزرعة اليرموك، مزرعة ميسلون، مزرعة الجلاء، مزرعة تشرين، المزرعة الحكومية، مزرعة الرافقة).

ب. مزارع منشأة الأسد

أُنشئت مزارع منشأة الأسد على 7 مزارع بُنيت في ريف محافظة حلب في ناحية مسكنة، ومساحتها المستثمرة (17000) هكتار، وهي: ((مزرعة تشرين، مزرعة الحرية، مزرعة الجلاء، مزرعة الفرعية، مزرعة الشهابي، مزرعة البعث، مزرعة الصداقة) وكان عدد القرى داخل تلك المزارع 45 قرية)).⁽²⁰⁾

تاسعًا: التركيبة العشائرية للمغمورين المهجرين إلى الحسكة

بلغ عدد الأسر المهجرة إلى الحسكة 4453 أسرة وزعت على مساحة تقدر بـ 68708 هكتارات من أراضي أملاك الدولة، في 41 قرية كما سيأتي تفصيله لاحقًا.⁽²¹⁾

أما التركيبة العشائرية للمغمورين الذين رُجّلوا إلى محافظة الحسكة، فقد كانوا من عشائر شديدة التنوع؛ فقسم منهم من عشائر قبيلة الولدة وهم الأكثرية ومنهم: (الجعابات، العامر، الحويوات، الناصر، العلي، الوردات، البومسرة، الغانم، العلي فارس) وكذلك عشائر أخرى خارج هذه التركيبة

(19) د.م، كتيب صادر عن وزارة سد الفرات، ص 167.

(20) حسن عبد الله الخلف، مقابلة عبر الهاتف مع مراقب زراعي بمزرعة الحرية، (8 أيار 2022).

(21) حسن عبدالله الخلف، مجموعة مقابلات مع رؤساء جمعيات فلاحية ومخاتير قرى عبر واتساب، (4-5-6-7 نيسان/ أبريل، 2022).

وهم: (البوظاهر، البوصلاح، العجاج، العجيل، مرادات، البوحמיד، مغلطان) وغيرهم. وهذا يعني أنه هُجِر جزء من العشيرة، بل حتّى العائلة الواحدة انقسمت نصفين ما بين مُهَجَّر إلى الحسكة وهائم على تلال الفرات ومزارع الدولة وأطراف المدن الأخرى في الرقة وحلب، وتوزّع المهجّرون على المناطق الآتية:

1. قرى الغمر في منطقة المالكية

بُنيت في منطقة المالكية 12 قرية على امتداد نهر دجلة حتى ناحية القحطانية، وُزعت على الطريق العام الواصل بين القامشلي والمالكية بمساحة تُقدّر (15) هكتاراً بعلياً لكل أسرة، إضافة إلى أنّ أربعاً من القرى مُنحت فيها كل أسرة (4,8) هكتاراً مرويّاً، وليصل هكذا عدد الهكتارات الموزعة إلى (19170) على (1641) أسرة⁽²²⁾ (انظر الملحق 2).

2. قرى الغمر في مدينة القامشلي

وعدها 12 قرية، تبدأ من ناحية القحطانية شرقي القامشلي 30 كم وصولاً إلى غرب ناحية عاموده، والمساحة الموزعة لكل أسرة هي ما بين (15) و(18) و(20) هكتاراً بعلياً وفق الخط المطري، ليصل مجموع عدد الهكتارات الكلّي الموزّع في هذه القرى إلى (23379) على (1434) أسرة⁽²³⁾، ويوضح الجدول في (الملحق 3) توزيع الأراضي على القرى والعائلات.

3. منطقة رأس العين

تبدأ من ناحية الدرباسية حتى حدود محافظة الرقة غرب مدينة رأس العين وعددها (17) قرية، والمساحة الموزعة لكل أسرة هي ما بين (20) و(23) و(25) هكتاراً بعلياً وفق الخط المطري، ومن بين هذه القرى ستُ قرى مُنحت (8) هكتارات مروية من مشروع أصفر - نجّار الذي كان مُستأجراً من أراضي أملاك الدولة (الجمهورية العربية السورية)، ليصل بذلك عدد الهكتارات الموزعة إلى (26159)

(22) الجدول المرفق توصل إليه الباحث من خلال إجراء مسح للعينة عبر التواصل مع أبناء القرى المذكورة (15.05.2022).

(23) الجدول المرفق توصل إليه الباحث من خلال إجراء مسح للعينة عبر التواصل مع أبناء القرى المذكورة، (15.05.2022).

على (1378) أسرة.⁽²⁴⁾ (انظر الملحق رقم 4)

عاشراً: نسبة توزع المغمورين بالنسبة إلى وجودهم في مناطق الحسكة

وهذه النسبة تتوزع كما ورد سابقاً على ثلاثة مناطق وُطن المغمورون فيها، وهي كما يأتي:

1. نسبة توزع المغمورين في قرى منطقة المالكية

يتبع للمالكية إدارياً ناحيتان مهمتان هما ناحية اليعربية وناحية الجوادية إضافة إلى بلدة رميلان التي تحتوي على حقول الغاز والنفط، ويبلغ عدد القرى التابعة لمنطقة المالكية 294 قرية، منها 12 قرية من عرب الغمر، ونسبتهم إلى مجموع قرى المالكية وفق التوزع الآتي:

أ. 115 قرية للأكراد في منطقة المالكية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 10,4 بالمئة.

ب. 148 قرية عربية في منطقة المالكية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 8,1 بالمئة.

ت. 16 قرية سريانية آشورية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 75 بالمئة.

ث. 14 قرية مختلطة المكونات (عربي + كردي) تُمثّل نسبة المغمورين فيها 86 بالمئة.

2. نسبة توزع المغمورين في قرى منطقة القامشلي

تتبع للقامشلي إدارياً بلدات ونواحٍ مهمة عدة، هي: ناحية عاموده وناحية القحطانية (قبور البيض)

(24) الجدول المرفق توصل إليه الباحث من خلال إجراء مسح للعينة في قرى عرب الغمر عبر التواصل مع أبناء القرى المذكورة، (15.05.2022).

وناحية تل حميس وبلدة جزعة، ويتبعها أيضاً عدد كبير من القرى تبلغ 549 قرية، منها 12 قرية أيضاً من عرب الغمر، ونسبتهم إلى مجموع قرى القامشلي وفق التوزيع الآتي:

أ. 185 قرية للأكراد في منطقة القامشلي تُمثّل نسبة المغمورين فيها 6,5 بالمئة.

ب. 345 قرية عربية في منطقة القامشلي تُمثّل نسبة المغمورين فيها 3,5 بالمئة.

ت. 6 قرى سريانية آشورية في منطقة القامشلي تُمثّل نسبة المغمورين فيها 200 بالمئة.

3. نسبة توزيع المغمورين في قرى منطقة رأس العين

يتبع لمدينة رأس العين إدارياً ناحية مهمة هي ناحية الدرباسية، ويتبعها أيضاً عدد كبير من القرى يبلغ (263) قرية، منها 17 قرية من عرب الغمر، ونسبتهم إلى مجموع قرى رأس العين وفق التوزيع الآتي:

أ. 96 قرية للأكراد في منطقة رأس العين تُمثّل نسبة المغمورين فيها 18 بالمئة.

ب. 167 قرية عربية في منطقة رأس العين تُمثّل نسبة المغمورين فيها 10 بالمئة.

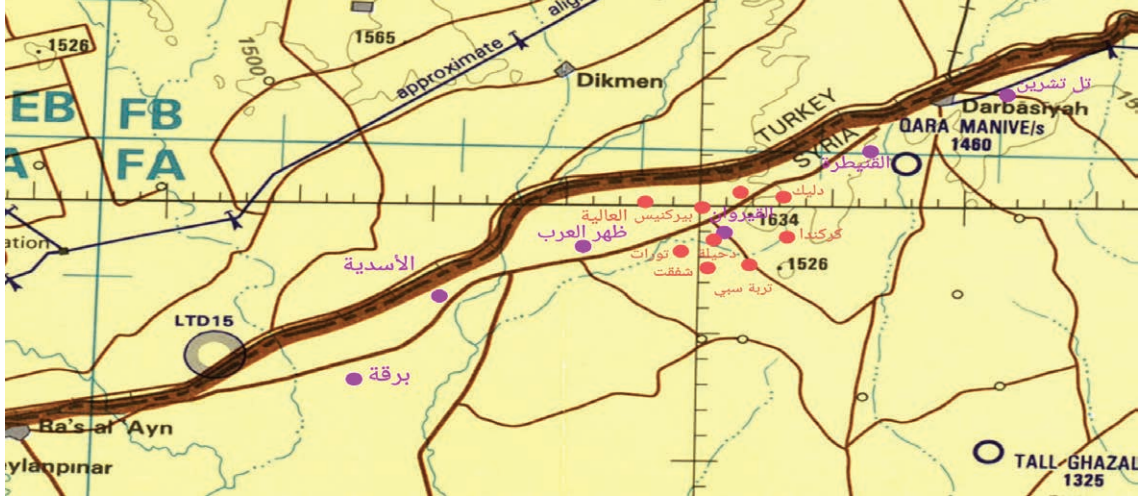
وبناء على ما تقدّم من تفصيل في التوزيع السكاني في محافظة الحسكة، يمكننا أن نجمل هذه الدراسة بالنتائج الآتية:

أ. إجمالي عدد القرى في محافظة الحسكة 1717 قرية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 2,4 بالمئة.

ب. العدد الكلي للقرى العربية في المحافظة 1161 قرية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 3,5 بالمئة.

ت. العدد الكلي لقرى الأكراد في المحافظة 453 قرية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 9 بالمئة.

ث. العدد الكلي للقرى الأشورية والسريانية 50 قرية تُمثّل نسبة المغمورين فيها 82 بالمئة.⁽²⁵⁾



الخريطة من Google Earth تحديد القرى من عمل الباحث.

حادي عشر: الأثر النفسي لهجرة المغمورين

لا شك في أن عامل التهجير قد ترك أثراً نفسياً بالغاً في نفوس الذين أُجبروا على الرحيل، إذ خسر أهالي القرى المغمورة ذكرياتهم وتاريخهم، ولم يحصلوا على حياة جديدة، كما كان يدعى أصحاب الحكم آنذاك. وتحاول كتب التاريخ محو ذكرى القرى التي كانت موجودة، وبقيت حكاية هذا المكان، لتبقى أسيرة لكتب التربية القومية الاشتراكية البعثية التي تروي حكايته بوصفها أحد إنجازات (سورية الحديثة)، وربما ضاعت حكاية تهجير أهالي القرى المغمورة ومعاناتهم في زحمة حكايات الثورة التي سُمّي السد باسمها، ذلك الاسم الذي رفضه أهل المنطقة، واستمروا في تسميته سد الطبقة.

أكلت (ثورة) سد الفرات أبنائها، واليوم يحتاج السد إلى حملة لإعادة كتابة تاريخه، فيما لا يزال الفلاحون الذين أخذ السد وبحيرته أرضهم ينتظرون. ويا للمفارقة تسميها المطبوعات الرسمية (بحيرة الأسد!). لم يُقدّم عرب الغمر على دفن موتاهم في مناطق سكنهم الجديدة بل كانوا ينقلونهم

(25) التوزع الديموغرافي في محافظة الحسكة، (القامشلي، التجمع الوطني للشباب العربي في سوريا، 2012).

إلى الرقة حتى بداية الثمانينيات.

ثاني عشر: نمو شعور العزلة

يمثل المغمورون أكثر الأقليات أقليّة في سورية، لا أقلية بعدها، ينظر إليهم نظرة احتقار وعدائية من الأكراد ومنطلقات أفكارهم الحزبية وجزء لا بأس به من عرب المنطقة. فهم مستوطنون ومحتلون، انطوت هذه الجماعة على نفسها، وصارت لا تتزوج أو تتصاهر سوى من داخلها، وأصبح لهذه الجماعة عالم داخلي مُهمّش خاص بها داخل منطقة الجزيرة المهمشة أصلاً، وكأنها طائفة دينيّة غامضة. المغمورون الآن حوالي 165 ألف نسمة من ثلاثة أجيال (الجيل الأول جيل الآباء، وجيل المراهقين أثناء الغمر والجيل الثالث الذي ولد بالحسكة) وكل جيل له همومه ومشكلاته التي يوحدها التهجير القسري كما حدث عند أهالي منطقة النوبة في مصر والتبت، فهناك آلاف الأجيال التي تربّت، وكبرت في تلك المناطق، واختلط عرقهم بملح تلك الأرض، وصارت لهم ذكريات وأفراح وأتراح وأعراس ومقابر.

ثالث عشر: ترسيخ العزلة والرهان على النظام

ليس ثمة قواسم مشتركة بين عرب الغمر والأكراد في الحسكة. نمطا عيش مختلفان تماماً. لكن ما يجمعهما على نحو لا تخطئه العين هو أنهما على مر تجربة التجاور القسري كانا ضحيّتي النظام، بين من احتُلت أرضه ومن اقتُلِع من أرضه. بين من هو ممنوع من اسمه ولغته وثقافته، ومن هو مستدرج لأن يكون في صلب نظام لا يمت إليه بأي قرْبى أو مصلحة، ويُصوّر الموضوع بأنه اعتداء على أراضي الفلاحين الأكراد، وهذا يجانب الصواب، ويستمر في اللعب على وتر التجيش القومي، فالفلاحون الأكراد والعرب في المنطقة لم يكونوا معنيين بالأمر، بل هم أكثر المستفيدين من قانون الإصلاح الزراعي، وأصبحوا يزرعون أراضي لم يكونوا يملكون شبراً فيها، والمغمورون خُصّصت لهم أراضي أملاك الدولة التي تضمّنت أيضاً الفائض عن توزيع الأراضي للفلاحين بموجب قانون الإصلاح الزراعي قبل عقد من هجرة المغمورين.

يبقى أن نوّكد بأنه في زمن إسكان المغمورين لم تسجل أي حوادث صدام بين العرب والأكراد في المنطقة والسكانين الجدد، ما يوّكد عدم المساس المباشر بملكيّات الفلاحين المحليين من عرب وكرد وسريان، ممن تم وُزعت الأراضي عليهم في عملية الإصلاح الزراعي.

رابع عشر: المغمورون بين جيرانهم العرب والأكراد في الجزيرة:

أطلق الأكراد على جيرانهم الجدد من المغمورين اسم (المستعمرين)، فيما أطلق عليهم معارضو النظام من العرب اسم (المقتلعين)، لذلك رافقت الشبهة علاقة المغمورين مع النظام، ذلك أنهم عربيه الذين استعان بهم لكبح الغلبة الكردية في تلك المنطقة، وهذا صحيح إلى حد كبير. ((لكن حقيقة أنهم أيضاً من ضحاياه، وهذا واضح فهم أبناء المناطق التي طاف عليها نهر الفرات بعد إنشاء سد الفرات، وتحولت قراهم إلى بحيرة، كما أنهم من خارج هوية النظام المذهبية، وهم، إذ وردوا في أدبياته بصفتهـم «عرباً أقحاحاً»، فهو أبقاهم في بؤسهم وفقرهم على نحو ما أبقى الأكراد في البؤس والحرمان)).⁽²⁶⁾

تلك المعاناة مثلّت بالنسبة إلى الخاضعين للتهجير غربة حقيقية في مجتمع قبلي بسيط لم يعتد أهله على الهجرة وتغيير مسكنهم على مستوى الانتقال من قرية إلى أخرى، ومثلّت لهم عبئاً على أبنائهم الذين نشؤوا في بيئة جديدة بلا ماض ولا ذكريات، ولربما بـماض مُشوَّش عن أرض ترعرعوا فيها وهم صغار، ثم غابت بلمح البصر، ووجدوا أنفسهم في محيط لم يتقبّلهم في مستوى المدرسة والعلاقات الاجتماعية بعدما درسوا وصاروا شباباً وموظّفين، ورسخ في عقولهم ألا إمكانية للاندماج الحقيقي في ظل عدم وجود حالات من المصاهرة بينهم وبين الأكراد والعناصر الجديدة، إذ لم يتم الزواج من عرب الغمر، ولم يقبل أحد من المحيط التزويج لأبناء الغمر أو المغمورين، هذا في المحيط العربي الواسع.

خامس عشر: المغمورون في عيون الأكراد

كان موقف المحيطين العربي والكرد متماثلاً من المغمورين على المستوى الشعبي ولكن الأحزاب الكردية استغلت وجود المغمورين وقراهم (41) التي تشكل أقل من 2 بالمئة من سكان محافظة الحسكة في منشوراتها الحزبية، وسنة 2009، أصدر التحالف الديمقراطي الكوردي في سورية، والذي كان يتألف من 6 أحزاب كردية هي عماد القوى التي شكلت المجلس الوطني الكردي لاحقاً، كُراساً حمل عنوان حملة [تعريب أسماء المدن والقرى الكوردية في «كوردستان سورية»]، تطرق من خلالها إلى قرى المغمورين، الذين تم وصفهم وسأقتبس (أنهم أشد أعداء القومية الكردية، واليد الضاربة للحكومة السورية في إرهاب الأهالي الكورد إلى جانب الأجهزة الأمنية المتنوعة والأخطبوطية المنتشرة في كل ركن من أركان المنطقة الكردية).

(26) حازم أمين، «عرب الغمر في جزيرة الأكراد»، صحيفة الحياة، (29 كانون الثاني / ديسمبر، 2018).

الخطاب الكردي في الواقع لا يهدف لطرح إشكالية بظروفها الفعلية ثم اقتراح الحلول لها، بل يتخذ الخطاب صيغة تصعيدية ضد المغمورين الذين هم بالأساس ضحية عملية تهجير من قراهم، فهم أصحاب المأساة الحقيقيين.

لكن لا يخفى على أحد (تزايد النشاط السياسي للأكراد في الأدبيات الكردية وتصوير هؤلاء بالمحتلين وبالمستوطنات، وأثر ذلك في مستوى التصور المضمّر والتنميط الذي مورس على العامة في مستوى الإعلام والنشاطات الحزبية وفي السرديات الخاصة بالأكراد حتى وقرت في أذهان الجميع منهم من مثقفين وأحزاب وعامة ربما ليس كراهية بهم كجماعة بل كجزء من الاستخدام السياسي لتجريم النظام باعتباره قد رحل المغمورين لمحافظة الحسكة).

يبقى أن نؤكد بأن فترة إسكان المغمورين لم تسجل أي حوادث صدام بين العرب والأكراد في المنطقة وبين الساكنين الجدد، مما يؤكد عدم المساس المباشر بملكيات الفلاحين المحليين من عرب وكرد وسريان ممن تم توزيع الأراضي عليهم في عملية الإصلاح الزراعي، والمسألة هي كما أشرنا، هي خسارة أكثر من 100 ألف نسمة لقراهم وأراضيهم.

سادس عشر: مغالطة الحزام العربي

إن الدراسة التي قام بها محمد طلب الهلال بقيت صيغاً أكثر منها تطبيقاً فعلياً، ((وقد أُنجزت هذه الدراسة قبل 12 سنة من مجيء المغمورين، واقتراحه لمنطقة «للحزام العربي» التي تنص على تهجير الأكراد جميعهم من الشريط الحدودي، وإسكان عرب المنطقة مثل قبيلة شمر بمكانهم، وهذا لم يحدث منه شيء، ولم يثبت تهجير أي كردي من قريته، والقوى الكردية كذلك لا تستطيع أن تزعم أنه تم تهجير قرية كردية واحدة أو إخلائها أو إسكان عرب مكانهم، وبالتالي إن استخدام مصطلحات محمد طلب الهلال (كالحزام العربي) في مسألة الغمر أمر مبالغ فيها ولا تعكس الواقع، وتأتي ضمن إطار محاولات لإثبات وترسيخ تراجيديا كردية مُتخيلة بشكل مبالغ فيه وفي كثير من الأحيان لا ينتمي للواقع)).⁽²⁷⁾

وُزِع المغمورون على مناطق مختلفة، كان نصيب الجزيرة حوالى 25 بالمئة منهم فقط، مع تأكيدنا أن اختيار منطقة الشريط الحدودي لم يكن عشوائياً، بل يهدف سياسي استهداف مناطق ذات كثافة

(27) مهند الفاطم، أكراد سوريا: التاريخ، الديموغرافيا، السياسة، (بغداد: دار فناديل، 2020)، ص 204-207.

كردية، ((وهي سياسية كان قد اقترحها بشكل أعنف وزير المعارف السوري محمد كرد علي منذ سنة 1931 حيث اقترح أثناء تناوله موضوع المعارف مسألة المهاجرين الذين تجمعوا في الحدود ومنحوا أراضي هناك، واقترح على رئيس الدولة آنذاك نقل الأكراد إلى مناطق في جنوب ووسط سوريا ومنحهم أراضي هناك بهدف دمجهم، لكن لم يتم تنفيذ شيء من تلك المقترحات)).⁽²⁸⁾ ولم تُنفذ مقترحات محمد طلب الهلال أيضًا التي تصب في الإطار ذاته، علمًا بأنها سياسات عملت بها كثير من الدول بهدف دمج السكان، حدث ذلك في تركيا الحديثة في عهد أتاتورك، وكذلك كانت في عهد بورقيبة محاولة لدمج السكان في تونس التي لم يكن فيها نزعات طائفية أو إثنية، لكنه حاول التقليل من المناطقية هناك لمصلحة وطنية.

سابع عشر: موقف المغمورين من الثورة (الحياد) من دون تشبيح

كبر الأبناء بانغماسهم بشؤون الحياة من دراسة ووظائف وعمل مع تعايشهم مع تلك النظرة العامة تجاههم من المحيط العربي والكرد، لم يكن موقفهم مشاءً لأبناء القبائل المحيطة بهم في محافظة الحسكة، حيث يستند أبناء عشائر الحسكة إلى ظهر قوي مُتمثل في قبائلهم ووجودها التاريخي في المنطقة، ما أورث أبناء الغمر حالة ضعف وإحساس بقلق وجودي، لذا كان موقفهم في الغالب متمشيًا مع النظام بوصفه حامياً لهم، لهذا السبب لم ينضموا إلى الثورة، ولم يعملوا في إطار التشبيح.

أما عرب الغمر غرب رأس العين فكان موقفهم مختلفًا عن أقرانهم شرق الدرباسية، حيث شكّل عرب الغمر حراكًا سلميًا مع الثورة، وقدّموا شهداء ضمن كتائب الجيش الوطني، وذلك بقرهم من محافظتهم الأم، والامتداد العشائري لهم، وقلة الوجود الكردي في المنطقة، ومثالنا على ذلك أبناء عشيرة العامر والحويات والبوظاهر. أما أبناء قبيلة الناصر شرق ناحية الدرباسية إلى القامشلي كان وجودهم في محافظة الرقة ضمن صفوف الجيش الحر، وشارك أيضًا بعض أبناء عشيرة البوصلاح بينما كانت مشاركة قرى الغمر شرق القامشلي في الثورة وكتائب الجيش الحر قليلة جدًا لا يتجاوز أفرادها عشرين شخصًا من عشرين قرية، وذلك بسبب تخوفهم من ملاحقة عناصر حزب العمال المسيطر على المنطقة بعد تسليمها من النظام لهم.

ومع أنّ المكون العشائري بقي حاملًا اجتماعيًا مهمًا خلال أحداث الثورة السورية، فإنّ حالة

(28) مهند القاطع، أكراد سوريا: التاريخ، الديموغرافيا، السياسة، ص 204-207.

التشظي المجتمعي التي أصابت المجتمع السوري تسري عليه أيضًا؛ فقد أدت الحرب وتبدّل مناطق السيطرة إلى تهجير أعداد كبيرة من أبناء العشائر، فأصبحت العشيرة الواحدة تتوزع على مناطق سيطرة مختلفة، ما سمح ب بروز وجهاء عدة لها في مناطق مختلفة داخل سورية وخارجها، لذلك أصبحنا نجد شيخًا لعشيرة ما في مناطق سيطرة النظام، وشيخًا لها في مناطق سيطرة قوات سوريا الديمقراطية (قسد)، وآخر في تركيا، وغيره في دول الخليج، وناطقًا لها في دول المهجر، وهكذا، وربما يقتضي الوجود في مناطق مختلفة أن تكون لهم آراء وتوجهات سياسية مختلفة.

ثامن عشر: نتائج البحث

1. تكشف حالة المغمورين الأثر السلبي للاستعجال في إعلان الخطط من الدول النامية (سورية في هذا السياق) من دون إعداد الدراسات الكافية والملائمة من الجوانب المختلفة في ظل أنظمة شمولية اعتادت أن تجعل من الإكراه والإجبار منهج تفكير وممارسة، وغالبًا ما تنشغل بجانب واحد في أثناء الدراسات وهو إرادة السلطة، ولا تولي الجوانب الاجتماعية وأوجاع الناس ما يستحقانه، تنجح في تنفيذ سياستها ظاهريًا، لكنها تغمض عينيها عن آلام الناس وعذاباتهم.

2. عاش المغمورون مشنتين متفرقين عن جذورهم العشائرية، لأن قسمًا كبيرًا من عشائريهم بقي بالقرب من البحيرة، ومن ثم عاش أولئك المغمورون رحلات مؤلمة دورية لمشاركة أقاربهم في المناسبات الاجتماعية التي تشكل أحد أبرز جوانب التعاضد في المجتمع العشائري، وقد كان لذلك تكلفة اقتصادية واجتماعية كبيرة، ما أدى إلى حدوث حالات عدة من التفتت العشائري، ما جعل كثيرين يمرون بحالات اقتصادية ونفسية صعبة نتيجة الشعور بالحرمان والغربة والحنين.

3. ضمن ثقافة القسر والإكراه لم تهتم السلطة السياسية بأي محاولات إدماج اجتماعي للمغمورين في جغرافيتهم الجديدة، ولم تحضر أي برامج من أجل علاقات حسنة مع جيرانهم الجدد، بل كانت حريصة على خطاب مبطن يزرع بذور الفتنة. وتفسير الأمر بسيط جدًا ألا وهو أن السلطات المستبدة تحرص حرصًا شديدًا على عدم وجود وئام بين شرائح الشعب المختلفة، بل حال من الخصام، ليسهل عليها قيادتهم والتحكم بهم.

4. كان المغمورون بالنسبة إلى السلطة أداة لتنفيذ إرادتها، وإظهار تحكمها بالقوة الرمزية للدولة، وتحولوا إلى ضحايا مضاعفين، تمثل الجانب الأول في اقتلاعهم من جذورهم، والثاني في أن المحيط

الجغرافي والديموغرافي الجديد غير مرحّب بهم، بل جعل من مآسائهم حجة جديدة لمزيد من التشظي الاجتماعي. وكان التهجير القسري والمغمورون مادة سهلة لأحزاب قومية كردية اتخذت من أولئك الضحايا منصة لأفكارها الإلغائية، بصفّتهم فاعلين جدّاً، وأداة شحذ قومي، وتشكيل عصبية كردية ضدهم، واستيلاد مظلومية جديدة، مع أن الجميع يعي بشدة أنه في الأنظمة الشمولية والاستخباراتية لا يوجد مواطن يسمح له بالتفكير والقرار، بل رعايا ينفذون توجيهات القائد، ويصفقون له شأؤوا أم أبوا.

اهتمت الثقافة والإعلام والقوى الدولية الكبرى بالأقليات وحقوقها، سواء من منظور مصلحة سياسية لإثارة المشكلات والقلائل في المشرق العربي، أو من مبدأ التنوّع الثقافي، وقد أكدت الأمم المتّحدة في شرعتها ومنظورها الحقوقي احترام الأقليات وتنوع الأعراق، وقد استندت الأقليات إلى هذه المقدمات لتعبر عن نفسها وحقوقها ومظلوميتها، لكن المغمورين على الرغم من كل ما عانوه من اضطهاد واغتراب وعزلة اجتماعية لم يستطيعوا أن يستندوا إلى أي مما سبق ليتكلموا عن مظلوميتهم، ولم يسمعهم أحد، فتحوّلوا إلى أقلية لم يعترف بوجودها وهمومها أحد. عاشوا عزلتهم عن محيطهم وعن العالم وإعلامه ومراكز الأبحاث، ما يدفع بضرورة التوجه بالبحث الرصين في معاناتهم هذه وضرورة دراسة مشكلتهم بوصفها مشكلة وطنية تهم كل السوريين الساعين إلى بناء دولة المواطنة والعدل، وتحترم حقوق الجميع، وتنزع فتيل الفتنة عبر إدخال الحقوق في لعبة المساومات أو التسويات التي تخوضها القوى السياسية، بعيداً عن منظور حقوقي وطني يؤسس لوطن يبنيه الجميع، وتقع مسؤولية صونه على الجميع.

تتنوع المياه التي تغمر الرؤوس طوال التاريخ، ويظل المغمورون بها مغمورين.

الملحقات

الملحق رقم 1

شهادة الأديب موسى عباس التي قدّمها لهذا البحث في تسليط الضوء على جانب من معاناة المغمورين:

((ولا أنسى تلك السيارة التي تحمل جهاز العرض السينمائي ذا البكرتين الكبيرتين والقماشية البيضاء الكبيرة التي تعلق على جدار المدرسة الحجري، وهي تعرض علينا نحن الفلاحين الكبار والصغار، وهي المرة الأولى التي نحضر فيها عرضاً سينمائياً بحياتنا، وكان عنوان الفيلم «المشروع الرائد» وهو فيلم وثائقي يصور لنا حياتنا المستقبلية في مزارع وقرى نموذجية، بحيث تتألف من وحدات سكنية اسمنتية متشابهة متناثرة حول مدينة الرقة شرقاً وغرباً وشمالاً، واختاروا لها أسماء عروبية خالصة، من مثل: القحطانية، ربيعة، يعرب، العدنانية، القادسية، الأسدية.... إلخ وفي كل تجمع مدرسة ومستوصف ومبان إدارية أخرى، وأكثر ما أثار خيالنا تلك الأبقار الهولندية المبرّقة التي ترعى في مسطحات خضراء واسعة، وأخبرونا أن القيادة ستوزعها على الأسر المغمورة لنشرب حليباً صافياً كامل الدسم، استمر هذا أكثر من سنتين، الحقيقة كنا ننظر بشيء من التوجّس والشكّ حيال هذه الخطط، لسبب بسيط هو أننا لم نستشر في أي شيء يتعلق بحياتنا، وكأننا نكرة، ويكفي أن تفكر القيادة عنا، حتى وقع ما كنا نخشاه، وقبل البدء في ملء البحيرة وارتفاع منسوبها؛ لتُغمّر لاحقاً بيوتنا وأرضنا، بلغنا أن الخطّة غُيّرت والمشروع الرائد تم تحويله «كولخوز» حكومي على الطريقة السوفييتية، وسيصبح لاحقاً مقبرة لاقتصاد البلد، وأننا وأهلنا سنصبح بياق في مشروع آخر، هو مشروع تهجير شبه قسري إلى شمال شرق سوريا لمناطق تابعة للحسكة والقامشلي، وأقول شبه قسري لأنك تستطيع رفضه، مع الاستعداد لدفع ثمن هذا الرفض، وقد دفعته عائلتي مع كثيرين أيضاً، حيث عشنا على هامش مدينة الرقة في أحياء عشوائية وبلا أي مورد دخل أو ضمان اجتماعي أو غيره، ومنذ العام 1974 حملنا وصمة المسمى «مغمورين» وهي تسمية صارت تدل على العدائية والانتقاص بل السخرية أحياناً! وللحقيقة ذلك ليس مقتصرًا على سكّان تلك المناطق -من عرب وأكراد- التي أجبرت على استقبال المغمورين بل طاولت هذه الوصمة حتّى من بقي منهم في الرقة وما جاورها من مزارع، ولو أن ذلك لم يعد قائماً بتلك الحدة التي خفتت مع الزمن، المضحك المبكي أننا حتّى هذا اليوم نزرع ما بقي من أراض لنا بجوار البحيرة وكأننا لصوص، فكل شيء ممنوع، استجرار المياه، الحراثة ومع هذا فقد حولناها إلى غابات من الزيتون، كل ذلك بجهود خاصة، وبالرشى التي

تدفع لهذه الجهة أو تلك، وكانت هذه الأرض هي الأولى بتخطيط الحكومة لبقائنا في أرضنا وبيئتنا الطبيعية وكان كفيلاً لتحويلها إلى جنة حقيقية على جانبي البحيرة، حاولت أن أعود لتاريخ السد العالي في مصر وله بحيرة أكبر من بحيرة سد الطبقة، فلم أجد ذلك الحيف الذي مورس علينا، عدتُ حتى للروايات والقصص التي تناولت السد فوجدتها تُمجّد السد والكهرباء والبحيرة وكأنّها جزء من نشرة أخبار التلفزيون الحكومي، وهذا جيّد لا أنكره بل أنا سعيد بحصوله - إن حصل - ولكنني حزين جدّاً لأنني لم أجد من يتحدّث عني وعن أهلي وقبور أجدادي، وكأنّ هذا السد أقيم في صحراء الربع الخالي، ولم يقم على رؤوس عشرات الألوف من البشر الذين عوملوا وكأنّهم مجرد بيادق نستعملها في لعبة الديموغرافيا ومشاريع السياسة العنصرية بدلاً من بناء مواطنة حقيقية تشمل كل سكان المنطقة بمختلف قومياتهم ولغاتهم وهذا أساس بناء الدولة الحديثة، وماذا كانت النتيجة؟ زراعة الحقد والكراهية بين مكونات مجتمعنا وحصاد الفشل الاقتصادي فحسب الملكيات التي منحت للمغمورين في الحسكة والقامشلي لم تعد مجزية بعد تفتت الملكية ونشوء الأسر الفرعية التي لم تجد ما تعمل به، فعادوا للعمل بالمياومة في لبنان والأردن ولاحقاً في تركيا ومعظمهم عاد إلى الرقة، ليبحث عن سكن وعمل بعد نضوب مياه الآبار وفشل الزراعة وتكاليفها الباهظة، سيرة القهر الذي دفعنا ثمنه أعمارنا، ولما نزل ندفع!!).

الملحق رقم (2)

يوضح الجدول الآتي توزيع الأراضي على القرى والعائلات من عرب الغمر في منطقة المالكية:

التسلسل	القرية	المساحة الموزعة بالهكتار	حصة العائلة بالهكتار	عدد العائلات المستفيدة	القبيلة - العشيرة
1	عين الخضراء	2385	15 بعل	159	العجيل - الودرات - الحويويات
2	تل الصديق	1575	15 بعل	105	العلي - بوحמיד
3	الصحية	1485	15 بعل	99	الحويويات - المرادات
4	المصطفاوية	2565	15 بعل	171	الجعابات
5	تل أعور	2760	15 بعل	184	البومسرة - الغانم
6	الحمراء الغمر	1515	15 بعل	101	الودرات
7	الجوادية	720	5,5 مروي	131	البوظاهر
8	شبك	797	5,5 مروي	145	الجعابات
9	تل علو رقم 1	687	4,8 مروي	125	الجعابات
10	تل علو رقم 2	946	4,8 مروي	165	الحويويات
11	توكل	2115	15 بعل	141	الجعابات
12	معشوق	1665	15 بعل	108	البومسرة

الملحق رقم (3)

يوضح الجدول الآتي توزيع الأراضي على القرى والعائلات من عرب الغمر في منطقة القامشلي:

التسلسل	القرية	المساحة الموزعة بالهكتار	حصة العائلة هكتار	عدد العائلات المستفيدة	القبيلة - العشيرة
13	المناذرة (كرديم حليمة)	2475	15 بعل	165	المغلطان - الحويوات - بوحמיד
14	الحرمون (أم زكفت)	2160	15 بعل	144	المزاريع - العجيل - البومسرة
15	القحطانية	1695	15 بعل	113	الحويوات - المغلطان - السفارنه
16	حلوة	1890	20 بعل	120	المغلطان - الحويوات - السفارنه - العلي
17	التنورية	2295	20 بعل	153	الجعابات
18	أم الفرسان	2480	20 بعل	124	البوحمدة - الجعابات - البوطوش
19	هيمو (هنادي)	3204	18 بعل	178	العجيل - الزبيد - الصعب
20	الثورة	680	20 بعل	34	الناصر
21	الحاتمية	2240	20 بعل	122	الناصر - الجعابات
22	أم الربيع	1240	20 بعل	62	البوصلاح - المرادات - البوسلطان
23	المهيرة	2180	20 بعل	109	الناصر - المرادات - البومسرة
24	الجابرية	2080	20 بعل	104	الناصر - البوسلطان

الملحق رقم (4)

يوضح الجدول الآتي توزيع الأراضي على القرى والعائلات من عرب الغمر في منطقة رأس العين:

التسلسل	القرية	المساحة الموزعة بالهكتار	حصة العائلة بالهكتار	عدد العائلات المستفيدة	القبائل والعشائر
25	تل تشرين	2400	20 بعل	120	البومسرة - البوصلاح - العجاج
26	القنيطرة	2415	23 بعل	105	الناصر
27	القيروان	2392	23 بعل	104	البوصلاح
28	ظهر العرب	1886	23 بعل	82	الغانم - العلي فارس
29	الأسدية	2425	25 بعل	97	البوصلاح - البوظاهر
30	برقة (أم عشبة)	1495	23 بعل	65	البوصلاح
31	تل حضارة شمالي	816	8 سقي	102	البوظاهر - الفراهيد
32	تل حضارة جنوبي	384	8 سقي	48	فردون - بوحميد
33	تل أرقم	688	8 سقي	86	العامر
34	أم عظام	682.5	17.5 بعل	39	العامر
35	المتنبي (المقرن)	560	8 سقي	70	العامر
36	العزيزية	648	8 سقي	81	البوظاهر
37	أم أنقرة	488	8 سقي	61	الفراهيد - البوظاهر
38	العنادية (مختلة)	1050	17.5 بعل	60	الحويوات - الناصر - البومانع
39	الراوية	2700	30 بعل	90	البوظاهر
40	الدهماء	2640	30 بعل	88	البوظاهر - البوعساف
41	المبروكة	2400	30 بعل	80	البوظاهر - السفارنه

المصادر والمراجع

بالعربية:

1. كتيب صادر عن وزارة سد الفرات طباعة عام 1975 ص 139 (من منجزات ثورة آذار سد الفرات منير ونوس وزير سد الفرات)
2. باروت. محمد جمال، التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
3. هلال. محمد طلب، دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية، الاجتماعية السياسية، (د.م: مركز عامودة للثقافة الكردية، 1963).
4. الحاج. منذر، تشريعات زراعية وتعاونية، (حماة: منشورات جامعة حماة، 2019 - 2020).
5. د.م، التوزع السكاني في محافظة الحسكة السورية (القامشلي: التجمع الوطني للشباب العربي، 2012).

بلغة أجنبية

1. Almohamad. Adnan, «The Destruction of Cultural Heritage in Syria: The Case of Shash Hamdan Tomb 1 in the Upper Euphrates 1995 - 2020», Vol.10, No.1, (Journal of Eastern Mediterranean Archaeology & Heritage Studies, 2022).
2. Casana. Jesse, Jackson Cothren, and Tuna Kalayci, "Swords into ploughshares: Archaeological applications of CORONA satellite imagery in the Near East", No. 32.2, (UK: Internet Archaeology, 2012).



السريان الكلدان الآشوريون والسياسة في سورية

مئة عام بعد العزلة

سعيد لحدو⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

نتيجة التحولات الكثيرة التي حدثت في حياة هذه المجموعة البشرية عبر آلاف السنين، ولتلافي أي سوء فهم أو انتقاص من حق أي فئة من هذا الشعب، وجدت أنه من الأنسب استخدام هذه التسمية المركبة على الرغم من وجود بعض المعارضين عليها، كما على الصيغ الأخرى التي يفضلها آخرون. ومع علمي المؤكد بأن السريان الكلدان الآشوريين لم يتحدروا يوماً من جذور عرقية واحدة، لكنهم مع الزمن وبتوالي الأحداث التاريخية تفاعلوا، وامتزجوا، وشكلوا في مراحل تاريخية سابقة حضارة وثقافة ولغة مشتركة، ما جعلهم يتوحدون في حياتهم ومصيرهم ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى الآخرين، وذلك في ما بعد سقوط نينوى حتى أواسط القرن الخامس للميلاد. ثم بدأت الانقسامات مع اختلاف النظرة الدينية إلى العقيدة اللاهوتية المسيحية، ما فرقهم إلى مذاهب وكنائس عدة اختارت كل منها تسميتها الخاصة المرتكزة على الإرث التاريخي في مرحلة معينة من ماضيهم المجيد⁽²⁾. لذلك سيبقى في قناعاتي الشخصية كل اسم من هذه الأسماء شاملاً كل فئات هذه المجموعة البشرية، إلا إذا كان مستخدمه يقصد به فئة بعينها مستبعداً الآخرين.

(1) كاتب وشاعر سوري.

(2) إسحق أرملة، تاريخ الكنيسة السريانية، (بيروت: منشورات بيت زبداء، 1996)، ص 110 و134.

ثانياً: بدايات الوعي القومي للسريان الكلدان الأشوريين مع نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين

في ألفي عام تقريباً ومع التحولات الكبرى التي حدثت خلال القرنين الأول والثاني للميلاد بالانتقال من الديانات الوثنية إلى المسيحية؛ ظل السريان في سوريا الكبرى وما بين النهرين بمختلف تسمياتهم وتفرعاتهم مرتبطين ارتباطاً قوياً بالدين والكنيسة التي شغلت مجالات حياتهم كلها، ما جعلهم يتفرون مع ظهور التفسيرات المختلفة للآهوت المسيحي في أواسط القرن الخامس وما بعده إلى طوائف ومذاهب متصارعة في ما بينها حول أحقية تمثيل المسيحية التمثيل الأصديق. واستمر هذا الالتصاق بالكنيسة، والتصارع الحاد في الوقت ذاته بين المذاهب المختلفة مثل النسطورية والمونوفيزية والكاثوليكية وكذلك البروتستانتية. وزاد من وطأة الانقسامات هذه غياب كيانهم السياسي الخاص بهم قروناً طويلة.⁽³⁾

بعد النشاط الثقافي والعلمي الكبير الذي قدموه في مرحلة الدولة الأموية ومن ثم العباسية عادوا إلى حال من العزلة شبه التامة، وخاصة في مناطقهم الجبلية شمالي سورية الطبيعية وما بين النهرين. زاد من تلك العزلة مجيء الدولة العثمانية، وسيطرتها على القسطنطينية عام 1453م، وممارستها سياسة ترك الأقليات الدينية وشأنها ما دامت ملتزمة بدفع ما يُفرض عليها من ضرائب مستحقة للدولة، ولا تشكل إزعاجاً للسلطة القائمة.⁽⁴⁾

لكن التحول الكبير حصل في سياسة الدولة العثمانية تجاه رعاياها المسيحيين بعد هزائمها المتكررة وتقلص جغرافيتها في القارة الأوروبية، وكانت نتيجة ذلك التحول بروز المشاعر المعادية للرعايا المسيحيين في ما تبقى لها من مناطق تحكمها الإمبراطورية في الشرق الأوسط، فكانت الأحداث الكبرى التي حصلت ضد المسيحيين في الأعوام 1895 و1915 هي الترجمة العملية لتلك السياسات والتخوف من خسارة ما تبقى لها من مساحة جغرافية مع تطور فكرة القوميات أوروبية المنشأ، وبداية انتشارها بين شعوب الشرق.

لقد تأثر السريان الكلدان الأشوريون كغيرهم من الشعوب الأخرى بالمتغيرات التي كانت تحدث في العالم آنذاك بعد انبلاج عصر القوميات في أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر. وبالطبع كان للإمبراطورية العثمانية والشعوب التي كانت خاضعة لها حتى ذلك الوقت النصيب الأكبر من تلك

(3) إسحق أرملة، تاريخ الكنيسة السريانية، ص 42 وما بعدها، وص 314. أيضاً: تاريخ مار ميخائيل الكبير، ص 132-140.

(4) عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي (1516-1922م)، (بيروت: منشورات دار النهضة العربية، دت)، ص 259-274--277 286 وما تلاها)، وص 295.

المتغيرات، حيث تبدلت نظرة تلك المجموعات البشرية إلى ذاتها، وباتت تشعر بكياناتها المتميزة بوصفها قوميات لها مقوماتها الخاصة. وعززت تلك الأحداث عند السريان الكلدان الآشوريين الشعور بالتمايز والاختلاف عن محيطها المختلف بالمعتقد الديني، ما خلق الدافع الأقوى في البحث عن الجذور⁽⁵⁾.

أسهم اطلاع النخبة المثقفة فيهم على الأفكار والفلسفة التنويرية الحديثة التي انتشرت في أوروبا من خلال المدارس التبشيرية وتعلم اللغات الأوروبية في تعزيز هذه الرؤية لدى السريان. وهذا ما حدا ببعضهم لمحاولة إيقاظ شعبيهم وتعريفهم بخصائصهم وتراثهم القومي المنفصل عن الدين والكنيسة والطائفية ومساجلاتها التي مزقت الوحدة القومية، وأضعفت موقف الشعب السرياني الكلداني الآشوري أمام التحديات التي واجهته طوال خمسة عشر قرناً مضت.

أبرز الرواد القوميين الأوائل

1. فريدون أتورايا

كان طبيباً في الجيش الروسي من أبناء منطقة أورميا، وتميز بوعيه القومي الوجداني وثقافته المتميزة. وعمل مع بعض رفاقه على تأسيس أول نادٍ قومي تحت اسم (شوشاطا أومتاناي - التقدم القومي)، وذلك في عام 1895، ثم عمل على تأسيس أول جريدة قومية عام 1906 باسم جريدة (كخوا-حه ب.ب.م)، وتعني (النجم)، واستمرت حتى عام 1918م⁽⁶⁾.

بعد انطلاق الثورة البلشفية في روسيا عام 1917، أسس فريدون أتورايا مع بعض رفاقه (الحزب الاشتراكي الآشوري) الذي حمل أفكاراً يسارية، وحاول من خلاله التعاون مع الاتحاد السوفياتي لتأسيس شكل من الحكم الذاتي للآشوريين، ونصت وثيقة تأسيس الحزب على ((...العمل على تحقيق الوحدة القومية الآشورية وتأسيس الحكم الذاتي في أورميا ونيوى وطورعبدین ونصيبين والجزيرة

(5) إسحق أرملة، تاريخ الكنيسة السريانية، ص 286-295. و: يعقوب توما، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ط2، (د.م. دن، 1989)، ص 11 من المقدمة بالسريانية.

(6) أنطون دنخا الصنا، «متى تأسس أول حزب قومي وحدوي لآباء امتنا؟ ومتى صدرت أول صحيفة قومية وحدوية؟»، موقع القناة الفضائية عشتار، <https://2u.pw/6y7cH>. و: وليم إشعيا، «مشاهد في نقد الفكر السياسي الآشوري»، منتدى Assyrian، <http://2u.pw/v6v5W>

وجلمايرك والوحدة مع الاتحاد السوفييتي)).⁽⁷⁾

لم ينجُ المناضل القومي فريدون أتورايا من تصفيات ستالين حيث اعتُقل في جيورجيا عام 1924، ومن ثم صُفي في المعتقل بعد سنتين.⁽⁸⁾

2. آشوريوسف

يعد من أبرز المثقفين من أبناء الكنيسة السريانية الأورثوذكسية من مدينة خربوط. أسس جريدة (مرشد الآثوريين) عام 1910، وأراد من خلالها نشر الوعي القومي بين أبناء شعبه، ونبذ التفرقة المذهبية، وسعى إلى الدفاع عن الحقوق القومية للسريان الكلدان الآشوريين، ما حدا بالسلطات العثمانية إلى اعتقاله، وإعدامه في أثناء حملة الأحداث عام 1915، وتوقفت جريدته تلك عن الصدور.⁽⁹⁾

3. نعيم فائق

بعد إصدار الدستور العثماني عام 1908 والسماح بفسحة من الحرية في الإمبراطورية، وجد نعيم فائق الفرصة للتعبير عن طموحه القومي، فأسس جريدة (كوكب الشرق - ܟܘܟܒܐ ܕܡܫܪܩ) الناطقة باسم جمعية (الانتباه) التي تأسست عام 1907 تعبيراً عن الخصوصية القومية لهذا الشعب الذي عانى كثيراً التمزق والتفرقة والاضطهاد. عمل مدرساً للغة السريانية من عام 1888 حتى عام 1912 في آمد (ديار بكر) والرها وحمص.

بعد الحرب الإيطالية العثمانية عام 1911 عُلّق الدستور، وضُيق على الأقليات، ولوحق المفكرون والأدباء والناشطون السياسيون، فاضطر للهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث بدأ من هناك نشاطه القومي عبر الصحف التي عمل فيها أو أسسها من مثل جريدة (بيت نهرين - ܒܝܬ ܢܗܪܝܢ)

(7) المرجع السابق.

(8) أنطون دنخا الصنا، «الناظر القومي الشهيد فريدون أتورايا، امتزاج الفكر القومي الآشوري مع الفكر الماركسي»، موقع عشتار الفضائية، <https://2u.pw/MBrz8>

(9) عبود زيتون، نعيم فائق والنهضة السريانية الآشورية، (فيسبادن/ ألمانيا، طبعة خاصة، 2020).

وجريدة (الاتحاد - المتحدة) حتى وفاته في 5 شباط/ فبراير عام 1930.⁽¹⁰⁾

4. فريد الياس نزهه

ولد في حماة عام 1894 وفي مقتبل شبابه أرسله والده إلى الأرجنتين للدراسة حيث بقي هناك، وأسس مجلة (الجامعة السريانية) عام 1934 متأثرًا بأفكار نعوم فائق، وسار على خطاه بقضية التنوير القومي مكملًا الدور الذي توقف عند وفاة الملفان الكبير نعوم فائق. وقد نالت مجلته تلك شهرة واسعة بين السريان الأشوريين في مختلف مناطق وجودهم في الوطن كما في المهجر. واستمرت بالصدور حتى وفاته عام 1970.⁽¹¹⁾

5. شكري جرموكلي

ولد في (آمد) ديار بكر الحالية عام 1909، وتنقل في مراحل دراسته بين ديار بكر وإسطنبول وبيروت. تخصص بالأدب الفرنسي، وعاد بعد هجرة عائلته من موطنها آمد إلى القامشلي عام 1933. وبدأ منذ ذلك الحين بتنوير الشبيبة السريانية/ وأسهم بتأسيس المدرسة السريانية الأولى في القامشلي التي تسلم إدارتها بعد عودته من بيروت. وعمل بعدها على تأسيس الفوج الكشفى الرابع عام 1936 والفرقة النحاسية المرافقة له التي ما زالت مستمرة بنشاطها حتى اليوم. ثم بادر لتأسيس نادي الرافدين الرياضي، وكذلك جمعية (أنا وأنت) وجمعية (محبة وطن) ليعطي للشباب والشابات في القامشلي والجزيرة السورية مضمونًا لحياتهم. ثم انتقل إلى المرحلة التالية بتوعية الشبيبة السريانية، وتشجيعها لتأسيس المنظمة الأثرورية الديمقراطية في 15 أيلول/ سبتمبر 1957.

إضافة إلى هؤلاء، ظهر من أبناء كنيسة بابل للكلدان كهنة مثقفون كبار ممن تجاوز جدران الطائفية، وكتبوا بلغة قومية جامعة من أمثال أدّي شير وتوما أودو وأوكين مَنَّا وألبير أبونا، حيث تركوا بصماتهم البارزة في الشعور القومي الواحد لدى مختلف أبناء الشعب السرياني الأشوري.

هؤلاء كانوا أبرز الرواد القوميين مع بدايات ظهور الوعي القومي بين مختلف طوائف السريان

(10) صورة الصفحة الأولى من عدد شباط 1921 من صحيفة (بيت نهرين)، المرجع السابق، ص 200.

(11) صورة الصفحة الأولى من عدد الجامعة السريانية الذي تضمن المناقشات والتعليقات حول الحرم الكنسي الذي فرضه البطريك أفرام برصوم على فريد نزهه.

الكلدان الأشوريين، ويعود إليهم الفضل في النقلة النوعية التي حصلت لدى هذا الشعب العريق في مسألة الشعور القومي وتطوراتها اللاحقة.

ثالثاً: الخطوات الأولى لفصل الكنيسة عن السياسة

كان للكنيسة كما أسلفنا دور أساس ومهم في حياة الناس دينياً ودينوياً. وقد استمر هذا الدور منذ بدايات التحول الديني من الوثنية إلى المسيحية، وحتى ظهور الوعي القومي قبل مائة عام ونيف عند النخب المثقفة في كل طائفة من الطوائف السريانية التي تعددت لتصل إلى عشر طوائف.

مع هذا التعدد الكبير في الطوائف بين أبناء الشعب الواحد صاحب الحضارة العريقة في تاريخ البشرية، كان يصعب على المتنورين من أبناء هذه الحضارة أن يتقبلوا الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه من الضعف والتشرذم، وخاصة ما كان للكنيسة نفسها من دور سلبي في زيادة التباعد بين أصحاب التفسيرات المتباينة للاهوت المسيحي، على الرغم مما كان للكنائس بمسمياتها المختلفة من دور إيجابي كبير في المحافظة على استمرارية اللغة السريانية والتراث السرياني، ومنه الوثني. وهنا حاول بعض أفراد تلك النخبة الواعية المدركة أسباب الانحدار الذي وصل إليه شعبيهم معالجة هذا المرض بالفصل بين الكنسي والقومي، ومحاولة التقريب بين تلك المذاهب وقياداتها الكنسية من أجل عمل قومي مشترك، معللاً ذلك كله بالمصير المشترك والمؤلم الذي ينتظر الجميع إذا لم يتداركوا الوضع، ويضعوا حداً لمأساة التمزق تلك.

كان من أبرز المتصددين لهذا الدور (فريد الياس نزهة) الذي حاول جاهداً في كتاباته في مجلته (الجامعة السريانية) تنبيه رجال الدين إلى الدور الخطر الذي كانوا يقومون به لتكريس العداء المذهبي بين أبناء الشعب الواحد. ووجه في مقالاته كثيراً من النقد لرؤساء الكنائس وتوجهاتهم الانعزالية داخل جدران الطائفة، ولأهمهم لتدخلهم في الشؤون السياسية على حساب الشأن الكنسي، وطالهم بالتفرغ لشؤونهم الروحية، وترك السياسة للعلمانيين من أبناء الشعب.

جرت هذه المواقف عليه غضب رجال الدين إلى الحد الذي حدا بالبطريك أفرام الأول برصوم إلى إنزال الحرم الكنسي على فريد نزهة، عوضاً عن مساندته ودعمه والاستماع بهدوء إلى آرائه ومناقشته المناقشة الموضوعية اللازمة.

ولعله من الغريب أن يصدر هذا الحرم من البطريك أفرام برصوم نفسه، وهو الذي سافر بتكليف

من سلفه البطيريك الياس الثالث، وبناء على طلبه هو إلى مؤتمر الصلح في باريس عام 1919 للدفاع عن حقوق الشعب السرياني الآشوري. وقد أوضح نفسه ذلك في رسالة منه إلى نعوم فائق نُشِرت في العدد السادس من مجلة (بيت نهرين).

ثمة جانب آخر للمسألة وهو محاولة بعضهم من تلك النخبة العمل مع رجال الدين في حال تجردهم من الحساسيات الطائفية، والنظر إلى القضية القومية بشمولية جامعة. ولقد كان هذا حال الملفان نعوم فائق الذي ظل على تواصل دائم مع الوفد المشترك الذي ذهب إلى باريس برئاسة المطران أفرام برصوم (البطيريك لاحقاً) للمشاركة في جلسات مؤتمر الصلح. وقد كان الوفد يرسل إليه تقارير دورية بقاءاته ونشاطه في باريس ولندن، وكان نعوم فائق ينشرها في مجلته (بيت نهرين).⁽¹²⁾

ولنا هنا مثال آخر مهم وهو عمل الجنرال آغا بطرس مع بطيريك الكنيسة الشرقية مار شمعون بنيامين في هكاري وأورميا والعراق حتى اغتيال البطيريك في 3 آذار/ مارس 1918 عن طريق خيانة سيمكو آغا رئيس قبيلة الشيكاك الكردية بدعم من السلطات الإيرانية والتركية، كما يبدو، والتي لم تكن راضية عنه، ومتخوفة من مواقفه القومية ورغبته في العمل المشترك مع الكرد في شمال ما بين النهرين.⁽¹³⁾ وعلى الرغم من أن الجنرال آغا بطرس كان متعاوناً مع البطيريك، لكنه كان في الوقت ذاته متفهماً الدور السياسي الذي يجب على المدنيين القيام به. ومن هنا قال للبطيريك يوماً: ((أنت احمل صليبك، ودع السيف لنا)).

بعد حادثة الاغتيال تسلمت أخته سورما خانم دفعة القيادة وصيّت على البطيريك الجديد القاصر، (حيث كانت البطيركية وراثية في عائلة المار شمعون)، وبدأت صياغة سياساتها الخاصة بالتوافق مع الإنكليز. تلك السياسة التي تعارضت كلياً مع ما كان يراه الجنرال المخضرم آغا بطرس مفيداً لقضية شعبه، فنشأ النزاع بينهما، وكانت النتيجة أن نفي آغا بطرس بقرار إنكليزي إلى فرنسا التي بقي فيها حتى وفاته عام 1932.⁽¹⁴⁾

(12) عبود زيتون، نعوم فائق....، ص 157. وكذلك مراسلات الدكتور يوسف مندوب الجمعية القومية (صدي الأثوريين في باريس) في المرجع نفسه، ص 144.

(13) رياض ناجي الحيدري، الأثوريون في العراق (1918-1936)، رسالة ماجستير لجامعة عين شمس، (د.م: جامعة بغداد، د.ت)، ص 80. وأيضاً رياض السندي، الدور السياسي للبطيريك في العراق، (كاليفورنيا: دن، 2020)، ص 77.

(14) رياض السندي، «صورة آغا بطرس في وثيقة بريطانية»، موقع قناة عشتار الفضائية، <https://2u.pw/ZiawX>

رابعاً: الانتقال من الأفكار النظرية إلى الانخراط الفعلي بالعمل السياسي في زمن الانتداب الفرنسي وما بعد الاستقلال

الظروف الممهدة للانتقال للعمل السياسي

قبل مجيء الفرنسيين إلى سوريا تنفيذاً لاتفاقية سايكس-بيكو، كانت منطقة الجزيرة منطقة شبه مهجورة وموبوءة بأمراض الكوليرا والتيفوئيد بسبب كثرة المستنقعات على جوانب الأنهار والجداول التي كانت تنحدر من الجبال المحاذية للحدود السورية الحالية من جهة الشمال، وكذلك بسبب غزوات البدو على المناطق والقرى التي كانت موجودة وعامرة قبل ثمانمئة عام في ذلك الشريط عند سفوح جبال طور عبيدين (جبال الرهبان المتعبدین). حيث هجرها سكانها السريان حينذاك، وصعدوا إلى الجبال الشمالية لحماية أنفسهم وممتلكاتهم.

بعد مجيء الفرنسيين وإحلال الأمن في المنطقة، عاد السريان من الجبال، وجاء معهم في الوقت ذاته كثير من العشائر الكردية ليستصلحوا الأراضي الخصبة للزراعة، وبنوا المدن والقرى على امتداد الخط الحدودي، فتأسست عامودا والدرباسية ورأس العين وعين ديوار ومن ثم القامشلي والحسكة وديرک⁽¹⁵⁾ إضافة إلى مئات القرى التي نشأت بعد تملك الفرنسيين زعماء العشائر العربية آلاف الهكتارات من الأراضي الصالحة للزراعة التي كانت بوراً حتى ذلك الحين.⁽¹⁶⁾ ومن هذه القرى قرية مرزوقة، وهي مكان ولادتي وطفولتي، وتقع بالقرب من الحدود العراقية من جهة ناحية تل كوجك (اليعرية) - بحسب سياسة التعريب لحزب البعث- ولعدم خبرة العرب ذوي الأصول البدوية بشؤون الزراعة حينذاك، استجلبوا كثيراً من سكان الجبال الشمالية من السريان والأكراد ليكونوا فلاحين يعملون لحساب شيخ القبيلة مقابل تأجيرهم قطعة أرض للعيش على منتوجها.⁽¹⁷⁾ وذلك قبل تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في سورية الذي أصدره عبد الناصر وطبق تطبيقاً شاملاً في

(15) المدن التي ذكرتها أعلاه كان بعضها موجوداً من قبل مثل عامودا ورأس العين وعين ديوار، لكن هذه المدن توسعت وازدهرت في مرحلة الاستقرار بعد مجيء الفرنسيين. مذكرات النائب المجاهد سعيد اسحق، (دمشق: دار السعيد للنشر، 2002)، ص 19-21.

(16) من خلال مناقشة لي مع الشيخ أحمد الجريا من قبيلة شمر أكد لي بأن لديهم سندات تملك من السلطات العثمانية للمنطقة قبل مجيء الفرنسيين لكنهم استخدموها للرعي فقط وفقاً لنمط حياتهم كببدو رحّل، وما زرعوها.

(17) كان والدي واحداً من أولئك الفلاحين، وكذلك جميع أفراد عائلة والدي، لكن معظمهم انتقل في بداية الخمسينات إلى مدينة القامشلي.. في حين ما زالت عائلتنا تملك قطعة أرض في قرية سليمان ساري من مستحقات قانون الإصلاح الزراعي، في حين قطعة الأرض ومساحتها عشرة هكتارات التي كنا نستثمرها من أملاك الشيخ مجبل الزيدان في قرية مرزوقة حملت صفة (وضع اليد) بعد قانون الإصلاح الزراعي. وجرى التفاوض عليها لاحقاً بين والدي والشيخ حيث أعيدت له بعد دفع بعض التعويضات لوالدي.

الستينيات مع تسلم حزب البعث السلطة.⁽¹⁸⁾

كانت هذه المرحلة في الحقيقة مرحلة تكامل وتكافل وتعاون بين مكونات الجزيرة من عرب وأكراد، ومختلف الطوائف السريانية المسيحية التي كان بين أبنائها كثير من العمال والفلاحين وأصحاب المهن الماهرة، وكثير أيضاً من المثقفين الذين تعلموا ونالوا الشهادات العلمية في مدارس الكنائس والبعثات التبشيرية في المدن القديمة القائمة شمالي سورية مثل آمد (ديار بكر) وماردين وخربوط وغيرها⁽¹⁹⁾. وكان بين هؤلاء عددٌ لا بأس به من الأرمن الناجين من أحداث 1915، ليشاركوا بدورهم في النهضة العمرانية في الجزيرة وخاصة في المدن، بما تميزوا به من حرفية عالية في مختلف المجالات المهنية.

في أوضاع الاستقرار الأمني والاكتفاء المعيشي التي بدأت تظهر في مختلف مناطق الجزيرة السورية مع مطلع العشرينيات من القرن الماضي، بدأت الحياة هنا تتخذ شكلاً مختلفاً عما كان في المرحلة العثمانية، وبدأ السكان يمارسون نشاطاً آخر متنوعاً، من مثل الجمعيات الأهلية والثقافية والرياضية والكشافية. وكان للسياسة أيضاً دور مهم في هذه المرحلة. ومع مطلع الثلاثينيات وحتى أواخر الخمسينيات بدأت الأحزاب السياسية تتشكل بقيادة شخصيات وطنية سورية من النخبة المثقفة ورجال الأعمال البارزين من مثل الحزب الشيوعي والسوري القومي الاجتماعي والكتلة الوطنية وحزب الاستقلال وحزب الشعب وغيرها. وبدأ عامة الناس أيضاً ينخرطون في النشاط السياسي لدعم زعمائهم وقادتهم في تلك الأحزاب، ومناصرتهم. وانعكس هذا كله بالطبع على السريان الكلدان الآشوريين، فبرز بينهم أمثال المثقف الكبير الملفان شكري جرموكلي من أبناء القامشلي، حيث بادر في عام 1936 لتأسيس الفوج الكشفى الرابع والفرقة الموسيقية التابعة له، والتي ما تزال قائمة حتى اليوم. وقد جمعت هذه الفرقة مئات الشبان والشابات من أبناء الكنيسة السريانية. وكانت هذه الفرقة تقوم بالاستعراضات الرائعة في المناسبات الوطنية والكنسية المختلفة، مما كان له أثر مهم في زرع بذور الاعتزاز القومي والوطني في نفوس الشبيبة التي كانت تكبر ويكبر معها هذا الشعور ويتعزز. في الوقت ذاته كان لكثير من أبناء هذا المكون دور بارز في بعض تلك الأحزاب الوطنية، واحتلوا مواقع

(18) القانون رقم 161 لعام 1958 والمسمى (قانون الإصلاح الزراعي).

(19) بعد رسم خط الحدود بين سورية وتركيا، بقيت هذه المدن ضمن الحدود التركية بناء على اتفاقات ترسيم الحدود (اتفاقية سيفر 1920، واتفاقية فرانكلين - بويلون 1921، واتفاقية الحدود 1926-1939 وفيها خسرت سورية لواء اسكندرون).

متقدمة في الشأن العام من أمثال سعيد إسحق⁽²⁰⁾ وفارس الخوري⁽²¹⁾ وعائلة أصفر ونجار⁽²²⁾ وغيرهم.

أمام هذا التدافع من مختلف المكونات نحو السياسة، كان الملفان شكري جرموكلي يعمل بهدوء من بيته في شارع الوحدة بالقامشلي منذ أعوام الخمسينيات، لدعوة الشباب إلى بيته وتنويرهم وتوجيههم نحو العمل القومي الجامع العابر للطوائف والمذاهب. ولقد كان لي شرف حضور بعض تلك الجلسات في عام 1970، حيث كنت ما زلت في مطلع شبابي. وكانت تلك اللقاءات تعقد بصورة شبه سرية بعد انقلاب حزب البعث عام 1963 واعتباره ممارسة السياسة جريمة خطيرة خارج إطار حزب البعث.

خامساً: المنظمة الأثرية الديمقراطية وبدايات التأسيس

أثمرت تلك اللقاءات التي كان يجريها الملفان شكري جرموكلي عن تأسيس أول حزب سياسي قومي آشوري جامع هو (المنظمة الأثرية الديمقراطية) في أواسط تموز/ يوليو من عام 1957، وكان الملفان شكري جرموكلي في حقيقة الأمر الأب الروحي والمرشد لهذا التنظيم. وقد استغل المؤسسون الأوائل المناخ الديمقراطي والحريات السياسية التي شهدتها سورية بين عامي 1954-1958، قبل أن يأمر جمال عبد الناصر بعد عام واحد بإنهاء الحياة السياسية في سورية بقرار حل الأحزاب جميعها.

حافظ المؤسسون الأوائل على سرية العمل الذي قاموا به في ظل الأوضاع الجديدة، خوفاً من الملاحقات وخطر الاعتقال الذي قد يتعرضون له. وزادت تلك المخاطر بعد مجيء حزب البعث إلى السلطة. وكان مجمل نشاطهم يتمركز في تلك المرحلة حول الشؤون الثقافية والاجتماعية والفنية ضمن الإطار الوطني السوري الجامع. وظلت مفردات السياسة وتعبيراتها الواضحة من المحرمات

(20) قام المناضل سعيد إسحق (الذي كان أول رئيس لبلدية عامودا) بالمشاركة في الثورة السورية لمقاومة الحكم العثماني، ومن ثم الاحتلال الفرنسي انطلاقاً من مدينته عامودا والبلدات الأخرى في منطقة الجزيرة السورية، ثم كان له دور مهم في الحياة السياسية السورية حيث انتخب نائباً لخمس دورات متتاليات، وكُلفَ بمهام منصب رئيس الجمهورية في إثر الاستقالات التي حصلت لرئيس مجلس النواب ورئيس الجمهورية آنذاك هاشم الأتاسي من تاريخ 5 أيلول/ سبتمبر وحتى 2 كانون الأول/ ديسمبر 1951 (مذكرات النائب سعيد إسحق، المرجع السابق، ص 50 وما بعدها).

(21) حنا خباز وجورج حداد، فارس الخوري: حياته وعصره، 3 أجزاء، (بيروت: مطابع صادر الريحاني، 1952). كذلك كتاب: أوراق فارس الخوري، 3 أجزاء، (دمشق: وزارة الثقافة السورية، 1989).

(22) سعيد نجار، عائلة أصفر ونجار، (بيروت: دن، 2010)، ص 51-52-57-59.

التي لا يجوز الإفصاح عنها حتى للمقربين غير الموثوقين. وقد انعكس هذا الشعور في اسم (المنظمة) وليس (حزب). وظلت أسماء أولئك المؤسسين الأوائل مجهولة للناس، ولم تُعلن قط. وفي أحد لقاءاتي في عام 1987 مع مدرس مادة المجتمع في المرحلة الثانوية جميل إبراهيم دُهِشْتُ عندما أَسْرَ لي هامسًا بأنه كان أحد أولئك المؤسسين.⁽²³⁾

المراحل التي مرت بها المنظمة الأثرية الديمقراطية

أ. مرحلة التأسيس الفعلي

بدأت مرحلة النشاط الفعلي في النصف الثاني من سنوات الستينيات، وذلك عندما شكلت مجموعة جديدة من الشباب المتحمس من مختلف الخلفيات المذهبية، ممن تميزوا بنوع من روح المغامرة، قيادة للمنظمة سميت (اللجنة السرية)، وظلت أسماء أعضائها سرية لا يعرفها إلا بضعة أفراد من المنظمة. وشكل الهيكل التنظيمي من خلايا خيطية لا يتجاوز عدد أفراد الخلية الواحدة ثلاثة أعضاء أو أربعة، زيادة في الحرص على السرية. وبدأ شكل التنظيم السياسي يبرز من خلال كتابة الأسس النظرية لهذا التنظيم، وهي ما سميت بـ (المنهاج المرحلي). الذي ركّز فيه على الوحدة القومية العابرة لحدود الوطن السوري، تأثرًا بما كان رائجًا حينذاك لدى مختلف الأحزاب الماركسية والقومية العربية والإسلامية والكردية، وصيغت شروط للعضوية والالتزام بالقرارات.

لكن لم تستمر هذه المجموعة من الشباب في القيادة سوى بضع سنوات، حين هاجر أفرادها معظمهم إلى الولايات المتحدة الأميركية مع أواخر الستينيات وبداية السبعينيات، وأسسوا للمنظمة فرعًا في أميركا لم يكن فعالًا كما كان ينبغي.

تسلّم القيادة مع مطلع السبعينيات جيل جديد من الشباب مع بعض الأعضاء القدامى. وفي هذه المرحلة بدأت النشرات السرية تصدر دوريًا عن المنظمة، ومنها (زلكي - الحكي)، وتعني (الأشعة)، وكانت تصدر باسم اللجنة المركزية التي حلت محل اللجنة السرية. وكذلك كانت تصدر عن فرع سورية نشرة (indakaz - النسر الآشوري). وكانت توزع سرّيًا على أعضاء المنظمة والأصدقاء المقربين. وكانت موضوعاتها تتركز حول مسألة الاعتراف الدستوري بالوجود والتنوع القومي في

(23) جرى هذا الحديث في أثناء إحدى زياراتي له في بيته في ربيع عام 1987 بعد خروج كوادر المنظمة الأثرية الديمقراطية الـ 22 من الاعتقال، وكنت أحدهم ومسؤولًا عن فرع سورية حينذاك. وقد أكد لي يومئذ هامسًا أنه كان أحد المؤسسين الأوائل للمنظمة، طالبًا مني عدم ذكر هذا الأمر لأحد.

سورية، والتركيز على الوجود والحرية ضمن الوطن السوري الواحد.

مع بداية النشاط الفعلي لأعضاء المنظمة في الحقل السياسي، بدأ ذلك النشاط يتركز معظمه في المراحل الأولى، على توعية الجيل الشاب، وبث الشعور القومي لديه، في ظروف التشويش الفكري الكبير الذي كان يتم من قبل سلطة الحزب الواحد والأمة الواحدة والقائد الأوحده، وإلغاء كل ما يخص الانتماء القومي للمكونات غير العربية.⁽²⁴⁾

ولمواجهة هذا التحدي للتعبير السليم عن الوجود القومي والحرية السياسية وحقوق الإنسان والمواطن، كان لا بد للمنظمة الأثرورية الديمقراطية أن تبدأ ببناء الإنسان المؤمن بتاريخه وحضارته وهويته قبل الشروع في طرح المشروع الوطني الشامل المبني على أسس المساواة القانونية والتنوع الإثني والتعددية السياسية في وطن لا بد لكي يكون حرًا وحصينًا، أن يكون فيه الإنسان أولاً حرًا بأرائه وأفكاره ومواقفه، ومعتزًا بوطنه ووطنيته. ولذلك رفعت المنظمة مع أواسط السبعينيات شعار (من أجل الوجود والحرية).⁽²⁵⁾

مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في منتصف السبعينيات برزت أمام المسيحيين عامة وللسريان الكلدان الأشوريين تحديات جديدة باتت تهدد وجودهم في سورية ولبنان. وظهرت مخاوف حقيقية على هذا الوجود عندما بدأت اتهامات (الكتائبية) - نسبة لحزب الكتائب اللبنانية- تصدر من جهات رسمية وغير رسمية ضد كل من لا تروق لها سياساته أو مواقفه. وباتت المنظمة الأثرورية حينذاك تفكر جدياً بطريقة لحماية هذا المكون في حال تعرض لعمل عدائي يركز على تلك الاتهامات. فعملت على تأسيس فرع لها في لبنان في بداية الحرب، لكنها في الوقت ذاته رفضت حمل السلاح ضد أية جهة على الرغم من الإغراءات الكثيرة حينذاك. وانحصر نشاطها في المجال السياسي، ولهذا الهدف أرسلت اثنين من أعضاء مكتبها السياسي بمهمة دائمة إلى لبنان لإدارة فرعها هناك، وهما صليبا مراحة وأدم دانيال هومه.

(24) المنطلقات النظرية لحزب (البعث العربي الاشتراكي) الحاكم وشعاراته المنادية بالأمة العربية الواحدة، وخاصة البندين الثاني والثالث من دستور حزب البعث الذي أقر في مؤتمر الحزب المنعقد بتاريخ 4 نيسان 1947 وقد ورد فيه: ((الوطن العربي للعرب ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونهم وثوراتهم وتوجيه مقدراتهم))، وبناء على مضامين هذا الدستور حوِّب كل ما هو غير عربي بما فيه اللغة السريانية التي هي بالأصل لغة سوريا الوطنية تاريخيًا وحضاريًا.

(25) اعتُمد هذا الشعار في المؤتمر العام السابع للمنظمة الأثرورية الديمقراطية الذي عقد في مدينة حلب عام 1991 وقد كنت أحد المشاركين فيه.

ب. مرحلة الاعتقالات

أول حالة اعتقال تعرض لها أعضاء من المنظمة كانت في عام 1976 عندما اعتُقل رئيس فرع لبنان يعقوب ماروكي ومعه عضو الفرع نينيب عبدالأحد لحدو على الحدود السورية اللبنانية، وهما قادمان إلى القامشلي لحضور المؤتمر العام للمنظمة. وكانت تلك صدمة قوية للقيادة التي أدركت فعلياً مخاطر العمل السياسي في أحضان نظام استخباراتي كما كان الحال في سورية. لكن هذه الصدمة جعلت القيادة وأعضاء المنظمة عامة أكثر استعداداً للدفاع عن المبادئ التي حملوها بوعي ومسؤولية.

جاءت حادثة الاعتقالات الثانية في تشرين الأول من عام 1986، واستمرت حتى آذار في العام التالي، ليصل عدد المعتقلين إلى 22 عضواً من مختلف مستويات القيادة في المنظمة. وانتقلت المنظمة بعد الإفراج عن معتقليها من حالة السرية إلى الحالة شبه العلنية، ثم تلت هذه الاعتقالات اعتقالات جديدة لثلاثة من قياديي المنظمة مسؤول المكتب السياسي، وهم عزيز آحي واثنان من أعضائه، وهما بشير سعدي ويونان طليا، بعد تأمينهم مياه الشرب لقرى الخابور بعد انعدام مياه الشرب لسكان 33 قرية آشورية، نتيجة مشروعات الري الفاشلة التي قامت بها السلطة وأدت إلى جفاف المجرى الرئيس للنهر.

بعد هذه الاعتقالات والإفراجات التي تلتها باتت المنظمة الأثورية الديمقراطية تمارس نشاطها المتنوع بجرأة كبرى، ولكن بحذر شديد كي لا تمس العصب الحساس للسلطة. ولعل من أهم نتائج هذه الاعتقالات أن بدأت قيادتها تعمل على التواصل والتحاور وتبادل الأفكار مع مختلف الأحزاب والتيارات السياسية السورية التي كانت موجودة في فترة الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، وبخاصة الأحزاب الكردية التي تشاركها وحدة الحال والمصير. وصارت تعقد لقاءات شبه دورية مع تلك الأحزاب، وخاصة الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي. وقد تكلل ذلك النشاط بنجاح المنظمة بإيصال مرشحها المهندس بشير سعدي لمجلس الشعب بانتخابات عام 1990 بعد استغلال الفسحة الموقته من الحرية التي سمح بها حافظ الأسد بعيد سقوط صديقه المقرب رئيس رومانيا نيكولاي تشاوسيسكو وانحياز الشيوعية في أوروبا الشرقية. ونجح في تلك الدورة ذاتها ثلاثة من ممثلي الأحزاب الكردية. وقد شكلوا معاً حينئذ مجموعة عمل مشتركة لطرح قضية المكونات والقوميات غير العربية في المناقشات العامة على الساحة الوطنية السورية.⁽²⁶⁾

(26) تمت المصادقة على نتائج انتخابات مجلس الشعب السوري للدور التشريعي الخامس لعام 1990-1994 بالمرسوم التشريعي رقم 67 بتسمية أعضاء مجلس الشعب الفائزين بالانتخابات، والصادر بتاريخ 21 أيار/ مايو 1990 عن رئيس الجمهورية.

سادسًا: السنوات الأولى من عهد بشار الأسد

مع بداية عملية التوريث للابن بعد وفاة حافظ الأسد، أراد القيمين على العملية إعطاء صورة عصرية للتوريث كشباب منفتح ومتقف ومجدد ومؤمن بالتغيير والديمقراطية، وذلك بترتيب مسبق من الأب قبل وفاته مع قادة أجهزة استخباراته. وبدلاً من تسلّم نائب الرئيس دقة الرئاسة، كما نص عليها الدستور السوري، ولو شكلياً وبصورة مؤقتة ريثما تتم الترتيبات الأخرى لعملية التوريث، سارت الأمور بشكل سافر بتغيير بعض نصوص الدستور من قبل ما سُمي بمجلس الشعب، ليسمح للشباب بشار الأسد الذي بالكاد بلغ أربعة وثلاثين عاماً من العمر بتسلّم رئاسة البلاد، وبدأت منذ ذلك الحين مهازل الحكم، وتلاعب جيل المستهترين من أبناء الجيل السابق بمصير الشعب السوري والبلاد عامة، حتى وصلت سورية والسوريون إلى المصير المؤلم الذي نراه اليوم.⁽²⁷⁾

بدأت الإصلاحات المزعومة ببعض التحسينات الشكلية في أداء السلطات، وبدأت بعض شركات التسويق السياسي والإعلامي المشهورة عالمياً تعمل عملها في رسم صورة مغايرة كلياً للواقع الذي كنّا نعيشه ونعرفه، حتى كدتُ أشك بنفسي عندما قرأت مقالاً مطوّلًا في إحدى المجلات الهولندية مع صور ملونة للرئيس الشاب الجديد لسورية بُعيد تسلمه السلطة، وهي تقدمه على أنه المنقذ لسورية الذي سيجعل منها دولة ديمقراطية عصرية مغايرة لكل ما ألفناه من دكتاتوريات الشرق الأوسط. وكان من أهم نتائج ذلك الانفتاح المصطنع والموقت أن صدر إعلان عام 2005 عن مجموعة كبيرة من المثقفين والشخصيات الوطنية من مختلف التيارات السياسية غير المعترف بها رسمياً، سُمي بـ (إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي)، يدعو إلى إنهاء 35 عاماً من الحكم الدكتاتوري لعائلة الأسد، والمباشرة بالتغيير الديمقراطي.

انضمت المنظمة الأثورية الديمقراطية إلى الموقعين على وثيقة إعلان دمشق بموجب البيان المشترك بين المنظمة واللجنة المؤقتة لإعلان دمشق في 7 كانون الثاني/ يناير 2006. وانضمت أيضاً الأحزاب الكردية التي كانت ناشطة حينذاك على الساحة السورية إلى الإعلان. فشكل ذلك صدقية وقوة على المستوى الوطني لذلك الإعلان المتميز والجريء في مرحلة الانفتاح الموقت تلك.

تبع هذا الانضمام تأسيس فرع في دول المهجر للأمانة العامة وللمجلس الوطني السوري الخاص بإعلان دمشق في عام 2007، وشاركت المنظمة الأثورية الديمقراطية والأحزاب الكردية الأخرى مع بعض الشخصيات ذات التوجه الإسلامي مشاركة فعالة في ذلك التأسيس، ومن ثم في طرح القضية

(27) تمت مصادقة مجلس الشعب على تعديل المادة 83 في الدستور في جلسة استثنائية بتاريخ 10 حزيران/ يونيو عام 2000، ليصبح سن المرشح للرئاسة 34 عاماً بدلاً من 40 عاماً، ومن ثم ترشيح بشار الأسد للرئاسة.

الوطنية في سورية بصورة جدية على الجاليات السورية في المهاجر⁽²⁸⁾. وجرت عمليات تواصل ومناقشات سياسية مع عدد من الحكومات والأحزاب الغربية، لكن الشعب السوري لم ينتظر طويلاً ليشهد النهاية المتوقعة لذلك الانفتاح المصطنع عندما باشرت الأجهزة الأمنية بعد أن استتبت الأمور للرئيس الوريث، بالملاحقة واعتقال أهم الناشطين والقياديين في إعلان دمشق لتعود السلطة إلى سابق عهدها بالقمع والتنكيل والملاحقات الأمنية. وليعود النشاط المعارض مرة أخرى إلى السرية حتى اندلاع الثورة في أواسط آذار/ مارس من عام 2011.⁽²⁹⁾

سابعاً: قيام الثورة السورية وظهور تشكيلات جديدة والأدوار المتشابكة

بدأت إرهابات الثورة الشعبية العارمة ضد النظام السوري مع انطلاق الثورة التونسية في أواسط كانون الأول 2010، وتلتها بعد بضعة أسابيع الثورة الشعبية في مصر، وذلك تعبيراً عن وحدة الحال بين شعوب المنطقة ومعاناتها مع الأنظمة الدكتاتورية. وقبل اندلاع الثورة السورية بحوالى ستة أسابيع أنكر بشار الأسد في مقابلة مع صحيفة وول ستريت جورنال في 31 كانون الثاني/ يناير 2012 إمكان أن تقوم ثورة في سورية، لأن سورية ليست مصر (بحسب تعبيره). لكن الشعور بالعظمة والثقة الزائدة بالنفس وقوة الأجهزة الأمنية وخبراتها الطويلة في القمع خابت كلها أمام إصرار الشعب السوري، وخاصة فئة الشباب التي كانت على استعداد لتقديم التضحيات من أجل الحرية والكرامة المفتقتين لأكثر من نصف قرن. وكانت الانطلاقة في أواسط آذار/ مارس، حيث أخذت تتوسع بالتدريج لتشمل كامل الأرض السورية.

عمّت التظاهرات السلمية مدن الجزيرة وبلداتها منادية بالحرية والديمقراطية والمجتمع المدني والتعددية. وتشكلت لإدارة تلك التظاهرات وتنظيمها لجان تنسيق شبابية، وقد أسهم أعضاء المنظمة الثورية الديمقراطية وجماهيرها في تلك التظاهرات منذ البداية، وانضم شبابها إلى اللجان التنسيقية منذ بدايات التأسيس، ومارسوا دورهم المنتظر في الساحة السورية، كما في المهاجر، وذلك من منطلق المسؤولية الوطنية الجامعة.⁽³⁰⁾

(28) للمزيد عن الاجتماع الأول للمجلس الوطني لإعلان دمشق في المهجر وانتخاب أمانته العامة: <https://2u.pw/M7NBu>

(29) عاد النظام بعد انجلاء غيمة انهيار الاتحاد السوفياتي إلى سابق عهده بالملاحقة والاعتقال وتنمّر الأجهزة الأمنية في الدورات اللاحقة للمهزلة التي كان يسميها النظام بالانتخابات، في حين كانت في الحقيقة تعيينات أمنية بامتياز. أما المعارضون فكان مكانهم إما المعتقلات أو الهجرة القسرية أو إنهاء وجودهم بصورة ما.

(30) بيان اللجنة الإعلامية حول اختتام أعمال مؤتمر اتحاد اتحاد تنسيقيات السريان الأشوريين الثاني في بروكسل بتاريخ 19 أيار/

ثامناً: المحاولة الأولى لتأسيس المجلس الوطني السوري

عندما بدأت الأصوات تتعالى مطالبة بضرورة تأسيس قيادة سياسية للثورة من مختلف القوى والتيارات الوطنية، أرسلت المنظمة ممثلها، وهما عبد الأحد اسطيفو وسعيد لحدو إلى المؤتمر الأول الذي تمت الدعوة إليه في أيار/ مايو من ذلك العام من قبل رجال أعمال سوريين وهم غسان عبود وعائلة سنقر⁽³¹⁾. وبعد أسبوع من الحوارات واللقاءات، في إسطنبول بتركيا، لم تصل تلك الحوارات إلى نتيجة مرضية بسبب إحجام قيادة إعلان دمشق في الداخل السوري عن المشاركة، على الرغم من حضور أعضاء أمانته العامة ورئيسها في المهجر أنس العبدو ورئيس المجلس الوطني السوري آنذاك التابع لإعلان دمشق عبد الرزاق عيد⁽³²⁾، ففشل المؤتمر، ولم يحقق أي نتيجة سوى فتح الطريق لمحاولات أخرى عقيمة كان لبعض الجهات الإسلامية دور فيها⁽³³⁾.

في الأسبوع الأخير من أيلول دُعيت القوى السياسية السورية من جديد إلى إسطنبول بمشاركة قوية من جماعة الإخوان المسلمين وعدد من المجموعات الرديفة لهم، وبموافقة جادة هذه المرة من إعلان دمشق بإرساله اثنين من قيادة الإعلان في الداخل وهما سمير نشار وجبر الشوفي للمشاركة في لقاءات التأسيس للمجلس الوطني السوري الذي سيتنطح لقيادة الثورة. كما أرسلت المنظمة الأتورية الديمقراطية اثنين من ممثلها للمشاركة بهذه اللقاءات وهما عبد الأحد اسطيفو وسعيد لحدو. وانتهى هذا المؤتمر في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 2011 بإعلان تأسيس المجلس الوطني السوري من مختلف شرائح المجتمع السوري، ومكوناتهم، وتياراتهم، بمن فيهم المكون السرياني الكلداني الأشوري لتمثيل الثورة السورية، ويكون القيادة السياسية لها. وسرعان ما خرجت التظاهرات في المناطق السورية معظمها حاملة شعار (المجلس الوطني يمثلني)⁽³⁴⁾.

في هذه الأثناء وخلال مدة تراجع النظام على مختلف الجبهات، برزت مجموعة صغيرة من الشباب السرياني من حاملي الجنسية التركية ممن كانت لهم ارتباطات قديمة مع حزب العمال الكردستاني (PKK) ومن ثم مع رديفه في سورية حزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني (PYD)، وبدأت تلك

مايو 2014.

(31) انظر: مقال نواف القدبي، <https://2u.pw/IWc2P>

(32) محضر اجتماع الأمانة العامة لإعلان دمشق في المهجر رقم 11 حول إشكاليات مشاركة الإعلان في المؤتمر.

(33) مؤتمر أنطاليا الذي عقد في الأسبوع الأخير من أيار/ مايو 2011 من دون نتائج بسبب معارضة قيادة الداخل لإعلان دمشق. وكذلك بيان مؤتمر بروكسل الذي عقد بعد مؤتمر أنطاليا وذلك بتاريخ 5 حزيران/ يونيو 2011، وتبعهما (مؤتمر الإنقاذ الوطني) الذي عقد في إسطنبول في 16-07-2011.

(34) شعارات يوم الجمعة في الثورة السورية لشهر تشرين الأول/ أكتوبر 2011، جمعة المجلس الوطني يمثلني.

المجموعة بالبحث عن شركاء سريان سوريين لها لبدءوا تأسيس حزب سموه حزب الاتحاد السرياني. وقد استفاد هذا الحزب من علاقته ورؤيته السياسية المشتركة مع الـ (PYD) ليشكل مجموعة مسلحة تعمل في إطار قوات سوريا الديمقراطية (قسد). وبات ممثلوها مشاركين في مؤسسات الإدارة الذاتية في منطقة الجزيرة وشرق الفرات.⁽³⁵⁾

إضافة إلى هذه المجموعة من حزب الاتحاد السرياني، ظهرت مجموعة مسلحة أخرى موالية أكثر للنظام، وتحصل على دعمه سُميت (سوتورو). وهذه في الحقيقة كانت المجموعة المسلحة الأولى التي شُكِّلت في الجزيرة في بداية أعمال العنف لحماية المكون السرياني الكلداني الأشوري، ثم انقسمت عناصرها ليتبع المنشقون منهم حزب الاتحاد السرياني تحت سلطة الإدارة الذاتية، أما القسم الآخر فقد ظل أقرب إلى النظام، ومن أبرز قادته أحيقار ميرزا.

على الرغم من التطورات والإشكالات والتدخلات الخارجية التي حصلت في مسيرة الثورة منذ ذلك الحين، بقيت المنظمة الأتورية الديمقراطية، على الرغم من اعتقال الأجهزة الأمنية مسؤول المكتب السياسي فيها كبرئيل موشي كورية بتاريخ 19 كانون الأول/ ديسمبر 2013، وبقائه رهن الاعتقال التعسفي بتهمة الإرهاب مدة سنتين وعشرة أشهر، ظلت المنظمة محافظة على تمثيلها المكون السرياني الكلداني الأشوري في أطر المعارضة السورية حتى اليوم.

تاسعاً: الطموح والأهداف العامة

منذ بدايات تفتح الوعي القومي لدى المكون السرياني الكلداني الأشوري، لم تظهر لدى أي من الرواد الأوائل أو من جاء بعدهم أي أفكار متطرفة في طرح المشكلة القومية، لا في سورية ولا في الدول المجاورة. وقد تمحورت القضية بمجملها في المطالبة بالاعتراف الدستوري للوجود القومي لهذا الشعب الأصيل في منطقة ما بين النهرين وسورية الطبيعية منذ أقدم العصور، وما يترتب على هذا الاعتراف من حقوق وواجبات وطنية وإنسانية.

إن أخطر ما يواجه هذا المكون من تهديدات جديدة وخطرة في أرض آبائه وأجداده كانت وما تزال موجات التعصب الديني والإسلاموي والقوموي العربي التي تبرز بين الفينة والأخرى. ومن قبلها كانت الاضطهادات الدينية والأحداث التي حصلت في عهد الدولة العثمانية، وشاركت فيها بعض المجموعات

(35) منهم سنحارب برصوم وأيشوع كورية واليزابيت كورية.

الكردية، وما تلاها من عمليات التتريك الممنهجة، إضافة إلى انعدام الحرية، والتعديلات المستمرة على حقوق الإنسان وكرامته وممتلكاته في المنطقة عامة. هذه النزعات الطائفية والسياسات الرسمية أدت في النهاية إلى إفراغ منطقة جنوب شرق تركيا، وشمال شرق سورية التي شكلت على مدى التاريخ منطقة شمال ما بين النهرين، أفرغتها من سكانها الأصليين، وهجرت من تبقى منهم إلى بلدان العالم المختلفة.⁽³⁶⁾

من هذا المنطلق رفعت المنظمة الأثرية الديمقراطية شعار (من أجل الوجود والحرية) سمة بارزة لأكبر معاناة وتهديد مباشرين، ليس فقط لحقوق هذا المكون، وإنما لوجوده بالدرجة الأولى.

انطلاقاً من الإيمان المطلق بمبدأ أن الحياة السليمة هي تلك التي تتعامل مع محيطها بسلام وأمن وتفاعل ببناء وإسهاماً مشتركاً في صنع مستقبل فيه الخير والتقدم للجميع. هكذا بدأ السوريون في مرحلة الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي بالعمل الجدي لبناء وطن حقيقي لأبنائه جميعهم. وكان تكاتف مختلف المكونات الموجودة على الأرض السورية، وتفاعلهم، مثلاً يُحتذى. لتأتي بعدها الانتكاسة الكبرى والانكسارات المتتالية في ظل الشعارات البراقة لزعماء الصدفه وسياساتهم الفئوية والطائفية التي ظلت خارج إطار أي مفهوم للوطن. وكانت النتيجة الحتمية انهيار الوطن بعد انهيار الإنسان والأخلاق والقيم الوطنية النبيلة.

لذلك، ومن أجل أن يحيا الإنسان أولاً قبل أي اعتبار آخر، آمن المناضلون من أبناء هذا المكون العريق، وعملوا لترسيخ قيم الإنسان والإنسانية القائمة على الحرية والعدالة والمساواة في وطن حر كريم لأبنائه جميعهم من دون أي تفرقة أو تمييز أو تفضيل. وما زالوا يعملون على ترسيخ هذا المفهوم، ليس بين أبناء المكون السرياني الكلداني الآشوري فحسب، وإنما بين أبناء سورية الحضارة والتاريخ المجيد، والعودة إلى المنابع التي نهل منها الإنسان الأول بذور تقدمه ورقيه وازدهاره.

هذه هي الرسالة التي لا بد لكل سوري مخلص لأرضه وتاريخه ووطنه أن يحملها، ويبشر بها أينما حل، لنبي من جديد معاً الوطن الأول والنهائي لكل سوري، والوطن الثاني لكل أبناء الحضارة الإنسانية.

(36) هناك مئات الكتب وآلاف الوثائق المنشورة وغير المنشورة تتحدث عن تلك الأحداث والتعديلات، ومنها ما كتبه الباحث الأثري هنري لايارد والدكتورة الألمانية كبريلا يونان والقنصل الأميري في تركيا العثمانية في أثناء الأحداث، وهنري مورغنتاو... وغيرهم كثيرون. كذلك الحكومات الدكتاتورية والتنظيمات الإسلامية المتطرفة مثل داعش والنصرة والقاعدة لعبت دوراً كبيراً في السنوات الأخيرة في تهجير المسيحيين من أبناء المنطقة إلى دول العالم المختلفة.

المصادر والمراجع

1. أرملة. إسحق، تاريخ الكنيسة السريانية، (لبنان: منشورات بيث زبدائي- آخ، 1996).
2. إسحق. سعيد، مذكرات النائب المجاهد سعيد اسحق، (دمشق: دار السعيد للنشر، 2002).
3. الحيدري. رياض ناجي، الآثوريون في العراق (1918-1936)، رسالة ماجستير لجامعة عين شمس، (د.م: جامعة بغداد، 1977).
4. الخوري. فارس، أوراق فارس الخوري، (دمشق: نشر وزارة الثقافة السورية، 1989).
5. السندي. رياض السندي، الدور السياسي للبطيرك في العراق، (كاليفورنيا: دن، 2020).
6. توما. يعقوب، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ط2، (هولندا: مطبعة ابن العبري، 1989).
7. خباز. حنا، وجورج حداد، فارس الخوري- حياته وعصره، (بيروت: مطابع صادر الريحاني، 1952).
8. رينان: أرنس، تاريخ اللغات السامية العام، (باريس: دن، 1863).
9. زيتون. عبود، نعوم فائق والنهضة السريانية الآشورية، (فيسبادن/ ألمانيا، طبعة خاصة، 2020).
10. سيغال. ج، الرها، المدينة المباركة، يوسف ابراهيم جبرا (مترجمًا)، (حلب: دار الرها للنشر، 1988).
11. شير. أدي، تاريخ كلدو وآثور، (د.م: منشورات مكتب سركييس آغا جان، 2007).
12. عبد العزيز. عمر، تاريخ المشرق العربي (1516-1922م)، (بيروت: منشورات دار النهضة العربية، د.ت).
13. منّا. أوكين، القاموس الكلداني العربي، (بيروت: دن، 1975).
14. ميخائيل الكبير، تاريخ مار ميخائيل الكبير، (حلب: دار ماردين، 1996).
15. نجار. سعيد، عائلة أصفر ونجار، (بيروت، دن، 2010).



السلطة والثورة، الاعتماد المتبادل

راتب شعبي⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

تحاول هذه الورقة الكشف عن علاقة تبادلية سيئة نشأت في بلداننا بين السلطة والثورة، من حيث دور انغلاق السلطات السياسية القائمة في جعل طيف الثورة حاضراً في الخيال على طول الخط، بوصفها حلاً سحرياً، الأمر الذي دفع إلى ظهور معارضات قصوى. وتسعى أيضاً إلى تبين أن منع المعارضات النسبية يقود إلى ولادة معارضات مطلقة، وأن هذه تقود - في الواقع - إلى تعزيز السلطات القائمة حين تظهر بأنها في قممها هذه المعارضات (الثورية) إنما تواجه التطرف. أما في حال انتصار هذه المعارضات التي سمينها استبدالية، فإنها سوف تنتهي إلى بناء سلطات جديدة منغلقة، وتدفع من ثم إلى ولادة النوع نفسه من المعارضة الاستبدالية، في مسار حلقي مفرغ.

ثانياً: الثورة، انتصار الكلمة على المفهوم

لم يكن الطلب عالياً على كلمة في المجال السياسي العربي كما كان على كلمة الثورة ومشتقاتها، وما يزال، من الأحزاب الثورية إلى تزيين الانقلاب العسكري باسم الثورة إلى مجالس الثورة إلى الشرعية الثورية إلى الثورة المقبلة... إلخ. لقد استطاعت هذه المفردة أن تحافظ على تأثيرها على الرغم من الابتذال الشديد الذي عانت في الواقع. فقد كانت هذه الكلمة - كما هو معلوم - محط صراع في تحديد ما جرى في سورية في ربيع 2011، وصارت، بعد ذلك، بمنزلة حد اعتباري فاصل بين معسكرين؛ أحدهما يستكثر الكلمة في تعريف ما جرى، وآخر لا يقبل بأقل منها، في اعتراف مشترك بأنها (أي كلمة الثورة) قيمة بحد ذاتها.

(1) كاتب وطبيب سوري، مقيم في فرنسا.

الثورة في الخيال العام حدث ساحر في قوته وعدله، يقلب الأوضاع الظالمة السائدة، وينتقم من الظالمين، ويقيم العدل. وليس التأثير سوى الثورة مجسدة بهيئة شخص ترك ضيق المصالح والأهواء الشخصية، ليحمل قيم الثورة، ويتماها بها. من هذا النبع (الشاعري) الذي لا ينضب، تستمد الكلمة نضارتها الدائمة، وتقاوم الابتذال.

لكن المصدر الأعرق لديمومة فكرة الثورة في التداول هو استمرار الحال السيئ للناس على الرغم من تغير الأنظمة السياسية الحاكمة. وأهم من ذلك أن الأنظمة السياسية التي تحافظ على استمرار البؤس، تحافظ على ذاتها بالصد العنيف لأي اعتراض أو حتى لأي استقلالية نسبية يمكن أن تنشأ، وتشكل محل استقطاب سياسي. إذن، يجد الناس أنفسهم على الدوام أمام المعادلة الآتية، حال سيئ تحرسه سلطة مهيمنة تمنع أي نشاط معارض يسعى لتحسين الحال، مهما يكن شكل هذا المسعى أو لونه، ما دام مستقلاً عن السلطة. الحل الوحيد لهذه المعادلة المغلقة هو الثورة، بوصفها شيئاً خارقاً وساحراً يبطل الظلم، ويعيد كل شيء إلى نصابه. لا شيء أقل من ثورة، يمكن أن ينفع مع حال بهذا السوء وهذا الثبات. الثورة هي الجواب عن بؤس العالم حين لا يوجد جواب.

استمرار نضارة الكلمة على الرغم من شيوعها يدل على أمرين: الأول توق الناس إلى الخلاص من واقع ثقيل مزمن لا يبدو أنه يميل إلى الزوال، ولا بد لذلك من (ثورة)، والثاني هو هرب الناس من التفكير في (مفهوم) الثورة، أي في إمكان الثورة، وتوافر عناصرها، وانسجام الكلمة مع المفهوم. يتفادى الناس هذا الخط من التفكير مخافة أن يكتشفوا غياب الأساس الواقعي لما يأملونه سبباً للخلاص، أي الثورة. لا بد لهذه الثورة من أن تكون ممكنة كما هي، حدث خلاصي بالغ النقاء والقدرة والعدل وكأنها ميتافيزيك أو ما وراء الواقع. هكذا تغلبت شاعرية المفردة على مضمونها المفهومي.

لإجراء مصالحة بين الكلمة الشاعرية الجذابة والمفهوم الضنين، يُصار إلى توسيع المفهوم أو تمديده، فتعرّف الثورة، كما عند عزمي بشارة، بأنها: ((الانتفاضة الشعبية المستمرة فترة طويلة نسبياً (بمعنى أنها ليست حدثاً طارئاً أو فعلاً احتجاجياً واحداً)، والتي تطالب بتغيير نظام حكم بآخر، حتى لو لم يتغير نمط الإنتاج))⁽²⁾. على الرغم من توسيع المفهوم، وتحت ضغط تقليد ماركسي متأصل، فإن صاحب التعريف يجد حاجة إلى الإشارة بأن (تغيير نمط الإنتاج) ليس شرطاً لإعطاء شهادة (الثورة). والحال إنه لا يوجد، أصلاً، تصور يقترح تغيير نمط الإنتاج الرأسمالي القائم بعد أن انهارت التجربة الاشتراكية التي تصورت أنها تبني بديلاً من الرأسمالية أكثر تقدمية. على أن الكاتب يكمل ليقول إنه سبق أن عرف الثورة في موضع آخر بأنها ((تحرك شعبي واسع لتغيير نظام الحكم

(2) عزمي بشارة، الانتقال الديمقراطي وإشكالياته: دراسة نظرية وتطبيقية مقارنة، ط1، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020)، ص449.

من خارج البنية الدستورية القائمة⁽³⁾. وهو بدوره تعريف مرتبك، فلا يفهم القارئ ما معنى (البنية الدستورية)، هل هي الدستور؟ ألا يكون كل تحرك شعبي لتغيير نظام الحكم هو تحرك من خارج الدستور؟ الدستور لا يعطي تشريعاً للثورة؟ ثم ماذا نقول عن الحركات الاحتجاجية الواسعة التي لا تستهدف تغيير نظام الحكم، بل فرض تغييرات مباشرة على قوانين وقرارات قائمة، مثل حركة السترات الصفراء في فرنسا؟ أم إن (البنية الدستورية) هي كناية عن البنية الاجتماعية الاقتصادية؟ في هذه الحالة نعود إلى إشكالية الثورات الاجتماعية وتغيير نمط الإنتاج، وهما لا يمتان للعالم الواقعي اليوم بصله.

من الواضح أن تنظيرات عزمي بشارة في الكتاب المذكور تقع تحت ثقل الجو السياسي المباشر في العالم العربي، ذلك أن كلمة الثورة، في هذا الجو، تشكل حدًا فاصلاً، وتشي بموقف معين، وتتخذ معنى سياسياً، وقد نقول نفسياً أيضاً، لا يعبأ بالمفهوم النظري. أي إن بشارة أراد في تعريفه أنف الذكر إسباغ معنى نظري على موقف سياسي. يتضح هذا في قوله: ((لو افترضنا حسن نية المعارضين على تسمية الثورات، أي لو افترضنا أن الدافع لهذا الموقف ليس معارضة الثورات العربية، أو الخوف منها، أو التمسك بالنظام، فإن هذا الحكم عليها ينبع من خلط بين الثورات الاجتماعية الاقتصادية السياسية الشاملة التي تقود إلى نمط إنتاج جديد بحسب التنظير الماركسي ... وثورات سياسية لتغيير نظام الحكم))⁽⁴⁾. يدرك الكاتب إذن أن من يعترض على تسمية (ثورة) يقع تحت إحدى هذه التهم، قبل التفكير بصحة اعتراضه من عدمه. هذا يشير إلى الحضور السياسي المباشر في الجهد المفهومي، والنتيجة الطبيعية هي إفقار المفهوم.

بحسب اطلاعنا، لا نلاحظ هذا التعلق بكلمة (ثورة) خارج البلدان العربية. الكلمة الشائعة في التعبير عن خروج الناس في تظاهرات إلى الشوارع، وتقديم مطالب، والتعبير عن مواقف رافضة لما هو قائم من سياسات أو قوانين أو أنظمة، هي (الاحتجاج) (protest)، كما نرى في دراسة صدرت حديثاً، في تشرين الثاني/نوفمبر 2021 (الطبعة الإلكترونية تنسب نفسها إلى 2022)، تنظر في التظاهرات التي شهدتها العالم بين 2006 و2020، وتحمل عنوان (الاحتجاجات في العالم، دراسة عن مواضيع الاحتجاج الرئيسية في القرن الواحد والعشرين)، ترد كلمة الثورة 26 مرة، ومعظمها يتعلق بما يستخدمه العرب للحديث عن حركات الاحتجاج العربية، في ما ترد كلمة احتجاج 1755 مرة⁽⁵⁾.

(3) عزمي بشارة، الانتقال الديمقراطي وإشكالياته، ص 449.

(4) عزمي بشارة، الانتقال الديمقراطي وإشكالياته، ص 448.

(5) Isabel Ortiz and others, World Protests: A Study of Key Protest Issues in the 21st Century, (New York: Friedrich-Ebert-Stiftung; Initiative for Policy Dialogue/Global Social Justice, Palgrave Macmillan 2022).

قد يعكس هذا التعلق بكلمة الثورة في العالم العربي تصورًا راسخًا يقول إنه لا شيء يمكن أن يغير واقع الحال المتأصل في سؤته وثباته سوى ثورة، وأن التثمين السياسي للتظاهرات أو للاحتجاجات غير ممكن مع استمرار السلطات القائمة التي لا تقتلعها سوى ثورة. هذا فضلًا عن الصدى الشعاري للكلمة، ورصيدها الذي لا ينضب.

ثالثًا: معايير تصنيف الاحتجاجات الشعبية

الحركة الشعبية التي تفضي إلى انتقال من نمط إنتاج إلى آخر هي الثورة بالمعنى الماركسي الذي يتميز عن غيره بوجود هذا المعيار النوعي، أما وقد تلاشى التصور الذي ساد عن أن سمة عصرنا هي الانتقال إلى الاشتراكية، أي إننا في مرحلة انتقال من نمط إنتاج إلى آخر، وإننا في عصر ثورات مفتوح، نقول بعد أن تلاشى هذا التصور إلى حد أغرى بالحديث عن (نهاية التاريخ)، فإن تقديم تعريف نظري عن الثورة لم يعد سهلًا. لم تعد هناك معايير نوعية تميز الثورة من الانتفاضة من الانفجار الثوري والتمرد والهبة والحراك والاحتجاجات ... إلخ. ((يعد مفهوم الثورة من المفاهيم الزئبقية التي يصعب على الباحث الإمساك بتلابيب خيوطه ... ويتخذ هذا المفهوم مظهرات متنوعة منها: الخروج، والفتنة، والحراك، والانقلاب، والانتفاضة، والعصيان المدني والاعتصامات ... إلخ))⁽⁶⁾.

غير أن الماركسيين لم يقصروا مفهوم الثورة على الانتقال من نمط إنتاج إلى آخر، وقد اعتمدوا مفهوم (الثورة السياسية) التي تعني تغييرًا في الفئة الحاكمة على أرضية نمط الإنتاج السائد نفسه. هكذا أصبح لدينا ثورة اجتماعية (تغير من نمط إنتاج إلى آخر)، وثورة سياسية (تغيير في الفئة الحاكمة)⁽⁷⁾. ولكن هل نربط المفهوم بنجاح الحراك في تحقيق التغيير؟ أم تكفي الأهداف المعلنة؟ أم إن الأمر كله يتعلق بتحليل الباحثين وربط تصنيف الحراك بحدوده التاريخية من جهة، ووعيه ذاته من جهة أخرى؟

في تناوله الثورات العربية أو الربيع العربي، يضع جليبير الأشقر عنوانًا فرعيًا لكتابته ((الشعب يريد)) الصادر في 2013، هو ((بحث جذري في الانتفاضة العربية)) (يعتبرها حدثًا واحدًا، كما هو واضح)، كي يتفادى مشكلة التصنيف: ((استخدام اسم «الثورة» وصفًا للفران الجاري في المنطقة العربية

(6) الموسوعة السياسية، <https://bit.ly/3snzSLT>

(7) Ernest Mandel, «introduction au marxisme» ch.III,5 «révolutions sociales, révolutions politiques», (Paris: La Brèche 1983), P32.

كان ولا يزال موضع نقاش حار وتنازع ... وإذا كان العنوان الفرعي لهذا الكتاب يستخدم مصطلح «الانتفاضة» الأكثر حياداً، فإن الغرض هو عدم الإجابة عن ذلك السؤال على الغلاف، لا سيما أن مصطلح الثورة له أكثر من معنى⁽⁸⁾. ويشير الأشقر إلى المعنى الواسع لمصطلح الثورة العربي الذي يطابق مفهوم التمرد (revolt) أكثر مما يطابق مفهوم الثورة بمعناه الحديث (revolution)، من الثورة العربية الكبرى إلى ثورة العشرين في العراق إلى الثورة السورية الكبرى إلى ثورة فلسطين الكبرى، في حين إن الترجمة الإنكليزية لهذه الثورات كلها هي تمرد أو انتفاضة (revolt).

وينتقل برهان غليون بين مصطلحي (الثورة) و(الانتفاضة) من دون تلكؤ، ففي حين يحمل كتابه ((عطب الذات)) عنواناً فرعياً ((وقائع ثورة لم تكتمل))، نراه يتكلم في تقديم الكتاب عن ((الانتفاضات الشعبية التي اندلعت في سورية، وكثير من البلدان الأخرى))، وأن هذه الانتفاضات تشكل ((امتحاناً قاسياً للأفكار والنظريات والاعتقادات))⁽⁹⁾. فهو لا ينشغل بالتمييز، وإن كان يغلب لديه استخدام كلمة (ثورة). وهناك من تكلم عن (الانفجار السوري)، معتبراً أن ما جرى في سورية هو ((انتفاضة لم تتحول إلى ثورة))، مستنداً إلى غياب المشروع الوطني لدى المنتفضين وغياب القيادة المشتركة والآليات التنفيذية والبرنامج المتكامل لإحداث تغيير جذري للنظام⁽¹⁰⁾.

واضح أن الانشغال في تعريف الثورة عما عداها لا يستهلك كثيراً من جهد الباحثين، فهو شبه غائب والحدود بين المصطلحات غير واضحة، والواقع أن تصنيف الحركات الشعبية وفق مصطلحات الثورة والانتفاضة ... إلخ مهمة شاقة وضعيفة المردود، وربما كان الأجدى أن نعتمد معايير أخرى في التصنيف، كما لاحظنا في الدراسة التي أشرنا إليها آنفاً، والتي تتناول الاحتجاجات في القرن الحالي، فتصنفها وفق معيار مختلف هو مثلاً طبيعة الشكاوى والمطالب التي يحملها الشارع؛ فشل التمثيل السياسي أو النظام السياسي، العدالة الاقتصادية ومواجهة التقشف، الحقوق المدنية، العدالة العالمية ... إلخ، أو تصنيفها وفق معيار السلمية والمسلحة، أو الطابع المحلي أو العالمي، أو مدى النجاح في تحقيق المطالب. هذه المعايير تفيد في الاقتراب أكثر مما يجري على الأرض، قياساً على التصنيف ما بين ثورة وانتفاضة وما إلى ذلك، على الرغم مما لهذا التصنيف الأخير من حساسية نابعة من الموقف السياسي⁽¹¹⁾.

(8) جليبر أشقر، الشعب يريد، بحث جذري في الانتفاضة العربية، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2013)، ص12.

(9) برهان غليون، عطب الذات: وقائع ثورة لم تكتمل 2011 – 2012، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019)، ص10.

(10) عبد الباقي صالح يوسف، الانفجار السوري: الهوية، الانتماء، الدولة الوطنية والتسوية التاريخية، ط1 (السليمانية/ دمشق: مركز أشتي للدراسات والبحوث، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2017)، ص263.

(11) ((يثير مصطلح «الثورة» القلق لعالم الدلالة، ليس بسبب مداه الواسع في الاستخدام الشائع فحسب، بل كذلك لأنه من الكلمات

رابعاً: سحر المعارضة الجذرية

الحضور الدائم للعنف السياسي في مجتمعنا نجم عن غياب آلية مستقرة لإنتاج سلطات سياسية تحوز شرعيةً عامة، وتنطوي على آليات تغيير السلطة واستبدال غيرها بها من دون عنف. إن السلطات السياسية في مجتمعاتنا تحوي صفتين متلازمتين؛ أنها مفروضة على المجتمع وأنها أبدية، أي لا سبيل (شرعياً) لتغييرها. وبناء على هذا، من الطبيعي أن يكون ثمة عداوة كامنة مضادة للسلطة في مجتمع لا يجد وسيلة (طبيعية) للخلاص من (سلطته) سوى (الثورة) التي تتخذ، والحال هذه، شكل انفلات العداوة المجتمعية في وجه السلطة. الأمر الذي يجعل الصراع على السلطة صراع حياة أو موت، ويجعل السلطة القائمة بالتالي، في حالة قلق دائم من السقوط، ويجعل الهم الأمني عندها طاغياً على أي هم آخر، مما يجعلها تقوم على أساس الخوف وليس القبول، أو بالأصح تقوم على أساس نيل القبول عبر التخويف بالقوة والعنف⁽¹²⁾.

الهم الأمني الطاغى للسلطة يدفعها إلى مزيد من الرقابة الذاتية وتنظيف التباينات في صفوفها، وهذا يحتاج إلى مركزية شديدة تشد إليها أطراف السلطة بقوة، وتقلل قدرتها على تهديد المركز. مع الوقت تصبح السلطة، والحال هذا، شديدة التجانس أو كتيمة فلا تخترقها التباينات والصراعات التي تعتمل في المجتمع. أي تصبح أكثر فأكثر سلطة برّانية مقطوعة عن المجتمع على صورة شبيهة بسلطة الاستعمار. يمكن لهذا أن يفسر استعمال مفردات تخص النضال التحرري من الاستعمار خلال الصراع المستمر في سورية، مثل تسمية المناطق التي خرجت عن سيطرة النظام بالمناطق المحررة، وتردد تسمية (جيش العدو) إشارة إلى جيش النظام⁽¹³⁾.

حيازة السلطة السياسية كانت تتم منذ الاستقلال عبر عمليات انقلابية في الغالب، فلا يحوز على السلطة إلا من يمتلك القوة العسكرية الكافية لإزاحة السلطة القائمة وفرض نفسه على

المشحونة بالمحتوى الانفعالي)). كرين برينتن، تشريح الثورة، سمير الجلبي (مترجماً)، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2009)، ص24. يدرس الكتاب أربع ثورات (الثورة الأميركية، والثورة الفرنسية، والثورة الروسية والحرب الأهلية في إنكلترا)، ويقارن بينها، ولا يصل إلى تعريف جازم لمصطلح الثورة.

(12) (Salwa Ismail, The Rule Of Violence, (Cambridge: Cambridge University Press, 2018)

تعرض سلوى اسماعيل في هذا الكتاب الدور الأساسي للعنف في استمرار حكم عائلة الأسد في سوريا، وتفحص المنطق والآليات التي يجري من خلالها الحكم بواسطة العنف وتوطينه في الذاكرة، وجعل الخوف موجهاً عاماً لسلوك الأفراد.

(13) حسن أبو هنية، «انتصار الأسد: الوضعية ما بعد الكولونيالية والاستعمار الداخلي»، عربي 21، (2018) <https://bit.ly/3GAAz0h>

((لعل المشهد السوري يمثل أقبح أشكال الاستعمار الداخلي على الإطلاق ... نظام الأسد أثبت أنه من أكثر الأنظمة الاستعمارية دموية وشراسة)).

المجتمع. هذا الواقع ترك أثره في أشكال مواجهة السلطات السياسية القائمة التي تصفي معارضها بالعنف. ومن شأن العنف أن يلغي النسبية في المعارضة، ويدفع باتجاه معارضة مطلقة، نقصد معارضة ترفض بالكامل النظام القائم ردًا على رفضه لها بالكامل. أن ترفض النظام القائم رفضًا كاملاً، يعني أن تجرده من كل ما يمكن قبوله، وعلى هذا يتعين على معارضي هذا النظام تقديم بديل كامل وفق ثنائيات متضادة؛ جاهلية وإسلام أو استعمار وتحرر أو رأسمالية واشتراكية أو استبداد وديموقراطية... إلخ.

إن نشوء المعارضة المطلقة التي تجعل غايتها الأولى هي الثورة⁽¹⁴⁾ لم يكن نتيجة تماد أو نزق وتطرف من قبل النخبة المعارضة فقط، بل أيضاً نتيجة إغلاق مزدوج مارسته السلطات الحاكمة، إغلاق الباب في وجه أي تغيير سياسي سواء نحو تغيير النخبة الحاكمة أو نحو مشاركة فعلية في الحكم، وإغلاق سبل التنمية في المجتمع. وهذان إغلاقان متلازمان في الغالب (ربما كانت الصين هي الاستثناء الأبرز حيث جمعت بين التنمية الاقتصادية والاستبداد السياسي)، ذلك أن فساد أجهزة الحكم ملازم للاستبداد، ومن شأن هذا الفساد أن يمتص القيمة المضافة في الاقتصاد، ويحولها إلى استهلاك رفاهي أو إلى أرصدة في الخارج. هذا الواقع المغلق أسس في المجتمع ولدى العموم ميلاً نفسياً نحو تهمين النخب التي تتبنى فكرة الرفض الجذري بوصفها المعارضة الحقيقية. هكذا كانت اللوحة السياسية مستقطبة دائماً بصورة غير منتجة، تيارات سياسية ممسوحة الهوية تحت إبط النظام، وتيارات التغيير الجذري الممسوحة الفاعلية تحت بطش النظام.

الصراع يصبح - والحال هذا - صراع وجود لا يقود إلى تطوير، وسقفه أن يقود إلى استبدال نخبة الحكم، وهذا الاستبدال لا يفيد حتى لو كانت النخبة الجديدة من اتجاه سياسي مغاير للنخبة السابقة، ذلك أن المشكلة هي في نمط العلاقة الراسخة بين النخبة الحاكمة والمجتمع، وليست في النخبة الحاكمة نفسها. نقصد أن النخبة التي تصل إلى الحكم بصرف النظر عن أيديولوجيتها السياسية، وبفعل ثبات العلاقة بين السلطة والمجتمع، سوف تغلق باب المشاركة والتغيير السياسي وسوف تنتج الأوضاع التي تمهد لانتشار الفساد في المستويات كافة، ومن ثم سوف تعرقل التنمية وتكرر الحالة السياسية السابقة للحظة وصولها إلى الحكم، وتعيد إنتاج النظام القديم الذي سيولد معارضة استبدالية تعيد رسم الدائرة.

(14) راتب شعبو، قصة حزب العمل الشيوعي في سورية، فصل من تاريخ اليسار السوري، ط 1، (القاهرة: دار المraya، 2020)، ص 184. ((في الفكر السياسي لحزب العمل الشيوعي في سورية توجد حلقة مركزية اسمها (الثورة القادمة). يجد الحزب أن مبرر وجوده هو صناعة الثورة، وكل ما عدا ذلك هو (إصلاح)، وهي كلمة لها وقع سيئ على أسماع مناضلي الحزب)).

خامساً: الصراع التنافري

في الصورة المذكورة يكون الصراع السياسي في هذه البلدان صراعاً لا يقبل التأليف (synthesis)، ويفضي بالتالي، حين يحدث، إلى دمار أكثر مما يفضي إلى نتائج مفيدة. يمكن أن نسمي هذا النوع من الصراعات بالصراع التنافري، حيث لا يمكن لطرفاه أن يتآلفا في تركيب جديد، وحيث لا ينتج عنه سوى تكرار للحالة التنافرية نفسها. في هذا الصراع يسيطر الرفض الكلي بين طرفيه، ويميل الصراع، تحت ضغط الصمد العنيف من جانب السلطات القائمة، إلى اتخاذ أشكال عنيفة وصولاً إلى الصراع المسلح.

مراجعة المحاججات السياسية بين الأطراف المختلفة في بلداننا تبين أنها خالية إلى حد كبير من التفاصيل المحددة والمفيدة المتعلقة بطرق إدارة البلد والموارد. ففي حين تميل المناظرات بين الخصوم السياسيين في البلدان الديمقراطية إلى الاقتراب أكثر من الواقع المحدد، والمناقشة بالأرقام في الخطط الاقتصادية مثلاً ومردودها على المناخ والبيئة والقدرة الشرائية ... إلخ، تميل المناظرات السياسية في بلداننا إلى الحديث العمومي، وإصدار أحكام عامة كلية لا تنطوي على معطيات محددة واقتراحات وأفكار سياسية، الأمر الذي يحيل السجال إلى ما يشبه تبادل الاتهامات القيمية. لا غرابة، والحال هذا، أن تنتهي هذه المناظرات إلى تشاتم وعراك بالأيدي في مرات غير قليلة.

ماذا ينتج عن هذا الواقع المغلق الذي يحتضن الصراع التنافري؟ ينتج عنه تحويل النشاط الدعائي من مستواه المعرفي العقلي الذي ينبغي أن يجتهد في عرض محدد للمشكلات التي يعيشها الجمهور، وأسبابها المحددة والأفكار والمقترحات المحددة التي يمكن أن تتكفل بحلها؛ إلى مستوى نفسي تحريضي يقوم على إلصاق التهم القيمية بالطرف الآخر، وخلق النفور منه. أو بكلام آخر، يغلب على الحديث السياسي أن يهدف إلى رفض الخصم أكثر من نقد سياساته، وهذه مقدمة للاقتتال والنفي المتبادل.

لا يفيد القول - على صحته - إن السلطات (الأبدية) القائمة لا تفسح في المجال لسجال سياسي معقول، فالسياسة الأمنية الإلغائية التي تعتمدها هذه السلطات، تحيل مناقشة سياساتها وطريقة إدارتها البلد إلى مستوى هامشي، وتحيل الأفكار والمقترحات السياسية إلى الهامش، حين تجعل الوجود السياسي أو المادي لمعارضيهما تحدياً يستهلك جل طاقتهم وجل اهتماماتهم. والأهم أن هذا الواقع يخلق تربة عدائية لدى المعارضين تجاه السلطات، من نوع العداء الذي تواجههم به هذه الأخيرة. والنتيجة الدائمة هي تعزيز الطابع التنافري للصراع.

وينتج عن الصراع التنافري نكوص هوياتي يتناسب مع مقدار ابتعاد الدولة عن العمومية المفترضة، ويغذي الميل الانقسامي في المجتمع، ليس على أساس سياسي بل بالأحرى على أساس هوياتي، وهذا لأن الصراع السياسي في هذه البلدان يفقد معناه السياسي المتعلق بالصراع على سبل إدارة الدولة وفق المصالح، ليصبح صراعاً على السلطة بمعناها المباشر، أي لا أريد السلطة أداة لتنفيذ سياسات معينة فيها تحقيق لمصالح واسعة، بل أريد السلطة لأنني أحق بها، بوصفي أكثرية قومية أو دينية أو مذهبية ... إلخ، أو بوصفي القوة الأكثر تنظيماً وقدرة على ضبط البلد أمنياً (الجيش). الأحقية بالسلطة تنبع إذن من خارج السياسة، بقدر ما نعي بالسياسة حسن إدارة الدولة وفتح آفاق تنمية. إذا كنا لا نمتلك برامج سياسية محددة تسمح بالمفاضلة في ما بينها، وتتيح من ثم إعطاء أصحابها أفضليات عبور إلى السلطة، فإن أفضلية العبور إلى السلطة ترتبط بمعطيات (واقعية) من خارج السياسة، مثل قوة الجيش أو الانتماء إلى أكثرية قومية أو دينية.

سادساً: اقتراب سيئ من الواقع

تعرض اللوحة السابقة اقتراباً (سيئاً) من الواقع، نقصد إنه يقترب من الواقع كي يكرس فيه جوانبه المحافظة على حساب السعي التحرري فيه. وقد نقول إن هذا الاقتراب يجسد استقالة ويأساً من المهمة التحديثية، ونكوصاً إلى استجرار طاقة تغيير من خلال تنشيط روابط هوياتية ذات مفعول تفتيتي على المجتمع، ولن يكون التغيير الذي تحمله طاقة من هذا النوع - إذا حصل - تغييراً تحديثياً بطبيعة الحال. على هذا فإن وصف التيارات السياسية (في السلطة وفي المعارضة) في بلداننا بأنها ضعيفة الصلة بالواقع يحتاج إلى تدقيق فحواه إن السلطات هي في العموم ذات صلة قوية مع الواقع في بحثها عن مصادر القوة والسند داخل المجتمع أو خارجه، وإن بعض التيارات المعارضة (الإسلامية بوجه خاص) تشاركها هذا النوع من الواقعية الداخلية، غير أن هذه الواقعية شبه مفقودة عن تيارات يسارية غلبت لديها الفكرة على الواقع، سواء في استنادها الواقعي في الداخل (الطبقات الاجتماعية مثلاً) أو في طروحاتها المستقبلية الخلاصية (الاشتراكية).

علاقة التيارات السياسية في المشرق العربي بالواقع يتناولها حازم صاغية في كتاب (رومانطيقو المشرق العربي)، فيقول: ((أحد التيارات القوية في الفكر والابداع السياسيين المشرقين رومانطيقو متطرف ومتصلب))⁽¹⁵⁾، وإن ((الانكار، بوصفه رفضاً للاعتراف بواقعية ما هو واقع، يحتل موقع

(15) حازم صاغية، رومانطيقو المشرق العربي، ط1، (بيروت: دار رياض الريس للنشر، 2021)، ص 17.

القلب في هذا التيار))⁽¹⁶⁾. الانشغال الأكبر للكاتب في هذا الكتاب يتعلق بالنظرة إلى العالم، وتحديد الموقع والانحيازات في العالم، وحين يتناول الكاتب فهم التيار السياسي لموقعه في مجتمعه يقول: ((في مجافاتها الواقع، تذهب الرومنطيقية إلى ما قبله (الماضي المجيد) وإلى ما بعده (المجتمع الاشتراكي الأمثل أو الجنة ...) لكنها حكماً لا تذهب إليه))⁽¹⁷⁾. كما يرى الكاتب أن من السمات المميزة للتيار الرومنطقي ((تغليب العاطفة على العقل، والثابت الماهوي افتراضاً على المتحول))⁽¹⁸⁾، وهذا ما بدا لنا أيضاً في عرضنا السابق، ولكن إذا كان صاغية، الذي ينشغل أكثر بالعلاقة مع العالم كما قلنا، يرد ذلك إلى ((تاريخ نظرة إلى العالم عبرت عنه حركات التحرر الوطني)) فإننا في تركيزنا على العلاقة مع المجتمع نرد سوء الاقتراب من الواقع، بالأحرى إلى انسداد إمكان التغيير السياسي، وثمة تداخل بين الأمرين، ذلك أن خلق وصور القضايا (الوطنية) المقدسة، الأمر المتصل بتاريخ النضال ضد الاستعمار، له دور في تعزيز السلطات القائمة وإغلاق إمكان التغيير.

إغلاق باب التغيير السياسي والصد العنيف لأي مسعى معارض، أنتج ظاهرة الاقتراب السيئ من الواقع. فقد أدى إلى ولادة تيارات إسلامية تجمع بين تقديم تصورات مجافية للواقع في تقديمها الحلول (الجزرية) (حكم الشريعة مثلاً)؛ والبحث عن طاقة داعمة في تفعيل الروابط الأهلية ذات الطابع الطائفي التي توفر واقعياً مصدرًا مهمًا للطاقة. ولكن إذا كان هذا المصدر الذي يقوم على عصبية هوياتية يمكن أن يخدم في النضال التحرري ضد خارج استعماري، فإنه لا يخدم في النضال التحرري ضد استبداد داخلي، بل يتحول إلى مصدر لتعزيز الاستبداد.

رسم الاشتراكيون حلاً مفارقاً للواقع، مقتنعين بأن الواقع يتجه (موضوعياً) إلى لقاء تصورهم، وأن الحقيقة التي يرونها ببعد نظرهم سوف تتكشف تدريجياً للجمهور الذي سوف يدخل من ثم في (دينهم) أفواجاً. هذا الاقتراب السيئ من الواقع انتهى بهم إلى أن وجدوا أنفسهم على هامش الفاعلية.

سابعاً: بين (شرع الله) و(شرع التاريخ)

قلنا إن رسوخ نمط الحكم السياسي العنيف الذي يستولي على المجال العام، ويحتكره بالكامل، ويصد أشكال المعارضة كلها، مستعيناً بكامل قوة الدولة وصلاحياتها، قاد إلى بروز معارضة لم يكن

(16) حازم صاغية، رومنطيقيو المشرق العربي، ص 17.

(17) حازم صاغية، رومنطيقيو المشرق العربي، ص 16.

(18) حازم صاغية، رومنطيقيو المشرق العربي، ص 16.

أمامها سوى الهرب إلى الأمام، أي الرفض التام للحكم القائم، وتقديم بديل جاهز منه، ما يعني أن النضال السياسي لهذه المعارضة ينصب أساساً على (إسقاط السلطة) لصالحها كي تتمكن من تطبيق البديل، فيغلب على خطابها السياسي التحريض (الاشتغال النفسي) على التنوير (الاشتغال العقلي). نسمي هذه المعارضة معارضة جذرية أو استبدالية، وهي أحد أعراض التأزم السياسي في المجتمع الذي يكون دائماً على حافة حرب أهلية. أو يكون في حرب أهلية باردة تثابر السلطة على ممارستها ضد قوى المجتمع، وهي حرب سرعان ما تتحول إلى حرب ساخنة ما إن تمتلك هذه القوى إمكان المواجهة.

لا يستوعب نمط الحكم السياسي الراسخ في بلداننا العمل السياسي غير التابع، فلا يجد المعارضون من ثم سوى الاستسلام له أو رفضه التام وتقديم الحل (الجذري) الاستبدالي. يمكن إذن تسجيل المفارقة الآتية، وهي أن المعارضة الجذرية، أي أقصى أشكال المعارضة توجد في البيئة السياسية التي لا تسمح بوجود معارضة. رفض وجود معارضة يقود إلى وجود الحدود القصوى من المعارضة.

النموذجان البارزان لهذه الحالة هما المعارضون الإسلاميون والاشتراكيون الذين رفضوا التبعية أو الاستسلام للسلطة القائمة. في ذهن كل طرف منهما بديل الجاهز الذي لا يحتاج سوى إلى توافر السلطة السياسية. والبديلان المقترحان مفارقان للواقع، ولا يسندهما التطور (الطبيعي) للمجتمع، ولا يمكن أن يعيشا إلا بالقسر والعنف، وهما من هذه الزاوية متشابهان على الرغم من عداوتهما الشديدة المتبادلة. والطرفان كلاهما، الإسلامي والاشتراكي، يجدان ما يسوغ لهما ممارسة العنف لفرض نموذجهما البديل، الأول بوصفه (شرع الله) الواجب، والثاني بوصفه (شرع التاريخ) والنموذج التقدمي.

إذا كان الإسلاميون مفارقين للواقع في (جذريتهم)، كما هو حال الاشتراكيين، فإنهم كانوا بخلاف هؤلاء واقعيين في بحثهم عما يعينهم على (إسقاط السلطة)، أي عن مصدر القوة والدعم في المجتمع. لم يستند الإسلاميون في مسعاهم السياسي إلى إبراز محاسن مشروعهم البديل قياساً على ما هو قائم، إنهم لا يعدون الناس بقمع أقل، أو بوفرة اقتصادية أكثر، فهم يدركون أنهم لا يفضلون السلطات القائمة بشيء من هذا الجانب، وأن نقطة القوة في مشروعهم تقع في مكان آخر، إنها في إيقاظ أو بالأحرى استفزاز وتحريض هوية ثاوية وتمثيلها، لاستثمار ما في هذا التحريض من طاقة وصرفها في مشروعهم السياسي. الاستثمار في الهويات الانتمائية هو أقصر الطرق وأسهلها، ولكنه الطريق الأكثر تخریباً على مستوى المجتمع.

الاشتراكيون من ناحيتهم طرحوا بديلاً (حديثاً) جاهزاً، وأرادوا حمله على طاقة حديثة أيضاً (صراع الطبقات). غير أن استخراج هذه الطاقة يحتاج إلى كثير من الاجتهاد، هذا إذا كانت موجودة أصلاً في مكانها. وبخلاف الإسلاميين الذين اتجهوا إلى مكان جاهزة للطاقة، سعى الاشتراكيون إلى تصنيع الطاقة التي يمكن أن تسند مشروعهم، فكان حملهم مضاعفاً، ونجاحهم يكاد لا يذكر قياساً على نجاح خصومهم الذين في السلطة منهم أو في المعارضة. وهكذا بقيت محصلة الصراع بين (شرع السلطة) و(شرع الله) و(شرع التاريخ) صفراً، وبقي المجتمع يدور في حلقة مفرغة.

ثامناً: خاتمة

ينبع الافتتان العربي بكلمة الثورة من رسوخ وثبات السلطات التي تستعمر الدولة، والتي أثبتت قدرتها على الاستمرار في وجه مجتمع استطاعت أن تتغلغل فيه، وتحاصر عناصره الحيوية، فالسلطة هنا لا تسيطر على الدولة فقط بل تسيطر على المجتمع أيضاً. بكلمة أخرى، إن شيوع كلمة الثورة ينبع من اليأس أكثر مما ينبع من الأمل.

المشكلة الأساس في بلداننا لا تكمن في السلطة فقط، بل في العلاقة المكرسة بين السلطة والمجتمع. لذلك فإن تغيير السلطات، وهو أمر كان وافرًا في تاريخنا، لم يحل المشكلة. كان تغيير السلطة انقلابياً وبعيداً عن الفاعلية الشعبية، ولم ينتج عنه من ثم أي تغيير يذكر في العلاقة بين السلطة والمجتمع. على العكس، مالت هذه العلاقة إلى السوء على يد انقلابات عسكرية خنقت المجتمع باسم الشعب والأفكار التقدمية.

الحلقة المفرغة التي نعيشها تبدأ من رسوخ نمط استبدادي للعلاقة بين السلطة والمجتمع، الأمر الذي ينتج معارضة استبدالية أو جذرية، بالمعنى الذي أشرنا إليه. هذه المعارضة تبحث عن شرعية تسند مطالبها الاستبدالية القصوى، فكان أن عثر الإسلاميون على حكم الشريعة الذي يفترض أن يعطيهم دون غيرهم كامل الحق بالسلطة، وعثر الاشتراكيون على التطبيق الاشتراكي الذي لا يقبل بأقل من سيطرتهم التامة على السلطة، في ما واجهت السلطة القائمة هاتين (الشرعيتين) بالشريعة الأهم، وهي شرعية الواقع، أي شرعية القوة.

هذا التنافر التام في (الشرعيات) المستقلة كلها عن الصراع السياسي بالمعنى الديموقراطي، لم ينتج سوى تعزيز الاستبداد. فمن ناحية تكون فاعلية المعارضة الاستبدالية ضعيفة، وتجد نفسها

في مواجهة جبهة خاسرة غالبًا مع السلطات القائمة، ومن ناحية أخرى، فإن هذه المعارضة، على افتراض أنها نجحت في إسقاط السلطة، فإنها، بامتلائها التام بشرعيتها الحصرية، سوف تؤسس لاستبدال جديد يعيد صورة العلاقة الاستبدادية بين السلطة والمجتمع.



المصادر والمراجع

بالعربية

1. أشقر. جليبر، الشعب يريد: بحث جذري في الانتفاضة العربية، ط1، (بيروت: دار الساقى، 2013).
2. بشارة. عزمي، الانتقال الديمقراطي وإشكالياته: دراسة نظرية وتطبيقية مقارنة، ط1 (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020).
3. شعبو. راتب، قصة حزب العمل الشيوعي في سورية، فصل من تاريخ اليسار السوري، ط1، (القاهرة: دار المرايا، 2020).
4. غليون. برهان، عطب الذات: وقائع ثورة لم تكتمل 2011 – 2012، ط1، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019).
5. يوسف. عبد الباقي صالح، الانفجار السوري: الهوية، الانتماء، الدولة الوطنية والتسوية التاريخية، ط1 (السليمانية، دمشق: مركز أشقي للدراسات والبحوث، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع 2017).
6. برنتن. كرين، تشريح الثورة، سمير الجليبي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار الفارابي، 2009).

بلغة أجنبية

1. Ismail. Salwa, The Rule Of Violence, (Cambridge: Cambridge University Press, 2018).
2. Mandel. Ernest, "introduction au marxisme" ch.III,5 "révolutions sociales, révolutions politiques", (Paris: La Brèche 1983).
3. Ortiz. Isabel and others, World Protests: A Study of Key Protest Issues in the 21st Century, (New York: Friedrich-Ebert-Stiftung, Initiative for Policy Dialogue/Global Social Justice, Palgrave Macmillan 2022).

الهوية الوطنية في الدساتير السورية

ظروف النشأة وانعكاساتها في الدساتير السورية

زيدون الزعبي⁽¹⁾

أولاً: مقدمة

مع انتفاضة السوريين/ات في آذار/ مارس 2011 برزت على السطح تحديات الهوية الوطنية الجامعة، لنستيقظ على وقع أسئلة حاسمة عدة كان واحداً منها -وربما أبرزها- من نحن؟ عن أي هوية جامعة للسوريين/ات نتحدث؟ هل انتماؤنا الإثني سواء كان عربياً أم كردياً سابق على انتمائنا السوري أم العكس؟ ما هو موقع الدين والطائفة والعرق في الهوية؟ عن أي مواطنة نتحدث؟ ما علاقتنا بمحيطنا العربي والإسلامي؟ كيف نتعامل مع جروح الماضي التي خلفت ندوباً في ذاكرة السوريين رجالاً ونساءً؟ ما موقع الجماعات ضمن الإطار الوطني السوري؟ هل يتكون الشعب السوري من أفراد متساوين ومتساويات في الحقوق والواجبات من دون النظر إلى حقوق الجماعات، أم إن للجماعات دوراً مركزياً في تحديد قضية الحقوق من مثل الحقوق اللغوية والدينية؟

مع بدء الحديث عن انتقال سياسي، جاء الحديث عن الحاجة إلى دستور جديد يطبق في البلاد، ومن ثم جاء سؤال الهوية بوصفها قضية جوهرية تسبق أي مفاوضات.

غير أن هذه الحوارات أغلبها تعاملت مع الهوية بوصفها قضية جامدة ومنتجاً نهائياً محدداً ومعرفاً وثابتاً تجب دسترته وفق القالب الذهني والانتماء الأيديولوجي لهذا الطرف أو ذاك. بكلام آخر تعاملت هذه الحوارات من ناحية أولى مع الهوية بوصفها مسألة منفصلة عن السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وعلى اعتبار أن النص الدستوري الجامد بطبيعته النصية قادر على احتواء الهوية الوطنية المتحولة بطبيعتها.

(1) باحث سوري في قضايا الحوكمة وبناء السلام.

تعد أهم محددات الهوية الوطنية اللغة والدين والثقافة والأرض والتنظيم الاجتماعي⁽²⁾، بحسب رودولفو ستيفنهاغن Rodolfo Stavenhagen⁽³⁾، والانتماءات الدينية تتباين بين فرد وآخر، وجماعة وأخرى، وبين الجماعة نفسها في زمنين مختلفين. وعلى الرغم من ثباتها النسبي، إلا أن الأرض نفسها لا تثبت. فدستور 1920 كان دستوراً لسوريا الطبيعية بما في ذلك لبنان والأردن وفلسطين، في حين كان دستور 1930 لسوريا بوجود لواء إسكندرون ومن دون وجود للبنان والأردن وفلسطين، وحتى من دون اللاذقية والسويداء (جبل الدروز آنذاك)، ودستور 1950 لسورية بحدودها التي نعرفها اليوم. كذلك الأمر بما يخص الثقافة التي تتحول ربما بسرعة أكبر من سابقاتها من المحددات.

سنسعى في هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما أبعاد الهوية الدستورية وما السياقات التاريخية والسياسية التي فرضت نفسها عليها؟
2. كيف تعاملت الدساتير الأساسية السورية المتعاقبة مع الهوية الوطنية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة سنكئ على المنهج الوصفي التحليلي، مستنديين إلى المنهج التاريخي لفهم السياقات السياسية التي رافقت كتابة الدساتير، وسنعمد إلى استخدام المنهج المقارن للمقارنة بين أهم الدساتير المؤثرة في السياق السوري وعلى رأسها دساتير 1920، 1950، 1930، 1958، 1973، و2012. إضافة إلى المنهجين السابقين، سنعمد على المنهج العددي لتلمس أبعاد الهوية التي حاول واضعو الدستور تثبيتها في النص الدستوري.

ينطلق البحث من افتراض عدم اكتمال الهوية السورية، وعدم نضجها، ولجوء النخب السورية المتعاقبة عند كتابتها الدساتير -وخصوصاً بعد الاستقلال- إلى الابتعاد عن الهوية السورية نحو الهوية العربية ابتعاداً غير متوازن، وبصورة كادت معها الهوية السورية تتلاشى في النصوص الدستورية المتعاقبة.

سنستند في تحليلنا إلى مفهوم الهوية الدستورية، وإلى أبحاث اشتغل عليها بصورة أساس كل من روزنفيلد وجاكوبسون.

يضع روزنفيلد خمسة نماذج دستورية يمكن الاستناد إليها في تحليل النصوص الدستورية المتباينة،

(2) Rodolfo Stavenhagen, *Ethnic Conflicts and the Nation-State*, (London: Palgrave Macmillan, 1996).

(3) Rodolfo Stavenhagen سيوسيلوجي مكسيكي، وأول مقرر خاص للأمم المتحدة معني بحالة حقوق الإنسان والحريات الأساسية للشعوب الأصلية.

وهي دساتير الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإسبانيا ودستور الاتحاد الأوروبي، وإن لم يقيض لهذا الأخير النجاح⁽⁴⁾، هذا إذا استبعدنا النموذج البريطاني الذي يتوزع عبر نصوص قانونية عدة. طبق أربعة من هذه الدساتير بنجاح في عدد من الدول، في حين لم يقيض لنموذج الاتحاد الأوروبي النجاح، وهو النموذج الدستوري العابر للأمم، على الرغم من موافقة 25 دولة أوروبية عليه، بسبب فشل الاستفتاء في كل من هولندا وفرنسا.⁽⁵⁾

يتميز النموذجان الفرنسي والألماني في كون النموذج الفرنسي يطبق على عموم الشعب بوصفه وحدة من المواطنين/ات أو ديموس Demos (مدينة)، معتمداً على اللغة الفرنسية (أو أي لغة مشتركة) كعامل مشترك يصنع الهوية الوطنية الجامعة. في حين يطبق النموذج الألماني على الشعب بوصفه وحدة عرقية أو إثنوس⁽⁶⁾ Ethnos الذي تم تبنيه في عدد من دول أوروبا الشرقية بعد انهيار المنظومة الاشتراكية. على الرغم من التحول الديمقراطي الذي شهدته ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وتبني مفهومات المواطنة وحقوق الإنسان، إلا أن النموذج الألماني ما يزال متمركزاً حول العرق.

أما النموذج الأمريكي وعلى الرغم من تشابهه مع النموذج الفرنسي في كونه يخاطب مواطنين/ات أفراداً يشكلون الشعب الأمريكي، إلا أن النموذج الفرنسي يشترط وجوداً مسبقاً للشعب المعبر عن هويته في الدستور، في حين لا يشترط النموذج الأمريكي مثل هذا الشرط. بل إن الدستور الأمريكي عامل جوهري في صناعة الهوية الأمريكية وكان وما يزال يلعب دوراً محورياً فيها. باختصار فإن الأمم الألمانية والفرنسية سابقة على الدستور في حين إن الدستور الأمريكي هو صانع الأمة الأمريكية.⁽⁷⁾

أما النموذج الإسباني فيستند إلى أمة متعددة الأعراق بخلاف النموذج الأمريكي الذي ينسجم مع مجتمع متعدد الأعراق، ضمن وحدة سياسية واحدة (بوليتي) Polity، يقوم النموذج الإسباني

(4) Michel Rosenfeld, Constitution-Making, Identity Building, and Peaceful Transition to Democracy: Theoretical Reflections Inspired by the Spanish Example, Vol:19:1891, (CARDOZO L. 1998), pp 7-9.

(5) Elaine Sciolino, The French Decision: The Aftermath; French No Vote on Constitution Rattles Europe, (N.Y. TIMES, May 31, 2005), at A1; Marlise Simons, Dutch Voters Solidly Reject New European Constitution, (N.Y. TIMES, June 2, 2005), at A3.

(6) Ulrich K. Preuss, Constitutional Power-making for the New Polity: some Deliberation of the Relation Between Constituent Power and the Constitution, in: Constitutionalism, Identity, Difference And Legitimacy: Theoretical Perspectives, Michel Rosenfeld (Ed.), (Duke Uni. Press, 1994).

(7) Michel Rosenfeld, The Problem of "Identity" in Constitution-Making and Constitutional Reform, No. 143, (NY, USA, Cardozo Legal Studies, December 14, 2005), p10.

على تأسيس وحدة سياسية متعددة الأعراق. فدستور 1978 يضع الأساس للحكم الذاتي لما يسميه بالمجتمعات المستقلة، بصورة تتيح بعض الاستقلال لمجتمعات الباسك والكاتالان على سبيل المثال، ما يتيح نشوء توازن بين الوحدة الوطنية ومجتمعات عرقية ضمنها⁽⁸⁾.

أما النموذج الأخير، فهو النموذج الأوروبي الذي حاول وضع دستور لأوروبا في تشرين الأول/ أكتوبر 2004 ليُقبل في استفتاءات 25 دولة أوروبية، ويرفض من قبل هولندا وفرنسا، وبذلك أوقف عام 2005. على الرغم من عدم تطبيقه في نهاية المطاف، إلا أنه يبقى النموذج الأول لدستور عابر للأمم. تكمن أهمية مثل هذا النموذج هو أنه طرح للمناقشة فكرة إنشاء ديمقراطية دستورية للأمم لا تتمتع بهوية وطنية متجانسة⁽⁹⁾. ففي حين يرى (ديتر جريم) القاضي والمفكر الدستوري الألماني أن مثل هذه الدستورية غير ممكنة في أوروبا بسبب عدم وجود هوية وطنية جامعة⁽¹⁰⁾، يرى الفيلسوف الألماني هابرماس أن هذا ممكن بعد أن تعالت أوروبا، بعد الحرب العالمية الثانية، على الحكم الاستبدادي الذي صبغ حقبة النازية والفاشية، وأسس لقيم المواطنة وحقوق الإنسان⁽¹¹⁾. الأمر الذي يؤكد مجددًا مركزية الهوية الوطنية في الدستور.

ثانيًا: في الهوية الدستورية وعلاقتها بالهوية الوطنية

بداية نرى أن التمييز بين الهوية الوطنية والهوية الدستورية مسألة حيوية في سياق هذا البحث، هل هما متطابقتان أم متباينتان؟ وكيف يتأثر بعضهما ببعض إن كانتا متميزتين؟ وأيهما سابقة على الأخرى؟ ومن يفرض هذه الهوية؟

تعد الهوية الوطنية الملائم⁽¹²⁾ الذي يجعل مجتمعًا متماسكًا ضمن إطار الدولة الوطنية. يرى تايفل أن الهويتين الاجتماعية والوطنية متطابقتان، ويعرفها على أنها ذات بعدين أساسيين، هما: الانتماء الواعي، والارتباط العاطفي بالأمة. يساعد مفهوم الهوية الوطنية في عملية بناء المجتمع

(8) 1978 Spanish Constitution, arts. 143-158.

(9) Michel Rosenfeld, The Problem of "Identity" in Constitution-Making and Constitutional Reform, p12:

(10) Dieter Grimm, Does Europe Need a Constitution? Vol. 1, EUR. L. J. (USA: 1995), p 282; Jürgen Habermas, Remarks on Dieter Grimm's "Does Europe Need a Constitution?", Vol. 1, EUR. L. J. (USA: 1995). 292-297

(11) Michel Rosenfeld, The Problem of "Identity" in Constitution-Making and Constitutional Reform, p3.

(12) الملائم: المادة التي تلصق الأشياء ببعضها ببعض.

والدولة، كونها تعزز عملية بناء الثقة بين الأفراد والمجتمعات، عبر توفير تمييز إيجابي للمجموعات بمقابل المجموعات (الخارجية)، بما يعنيه هذا من نزاع إلى الأفراد إلى دعم مواطنهم مقابل الأجنبي، وإلى الدفاع عن المعايير والقيم الوطنية والدفاع عن الأمة بوجه التهديدات الخارجية.

تعد أهم محددات الهوية الوطنية اللغة والدين والثقافة والأرض والتنظيم الاجتماعي، بحسب ستيفنغهام.

تحظى اللغة في أغلب الدساتير بمواد خاصة. فعلى الرغم من عدم ورود نص يخص اللغة في الدستورين الأميركي والألماني، إلا أن الدستورين الإسباني والفرنسي والدساتير العربية جميعها على سبيل المثال تحدد اللغة الرسمية فيها⁽¹³⁾.

العامل الثاني هو الدين، ويبقى عاملاً أساساً في بناء هوية المجتمع حتى في أكثر الدول علمانية. فالاحتفالات والطقوس الدينية من مثل أعياد الفطر والأضحى وأعياد الميلاد والفصح وطقوس الصيام، والرموز الدينية من مثل الكنائس والمساجد تلعب دوراً حاسماً في تكوين الهوية الاجتماعية أي الهوية الوطنية بمعنى من المعاني. تتطرق الدساتير في أغلبها إلى قضية الدين بصورة أو بأخرى. فحتى دساتير الدول العلمانية تتطرق إلى الدين بصورة أو بأخرى. فعلى سبيل المثال يبدأ الدستور الألماني في ديباجته بنص ((إن الشعب الألماني، خلال ممارسته لسلطته التأسيسية، إذ يدرك مسؤوليته أمام الله والبشر، ...)). أما الدساتير العربية فجميعها باستثناء لبنان تأتي على ذكر الإسلام، إما بوصفه دين الدولة، مثل حالة تونس⁽¹⁴⁾، أو مصدرًا من مصادر التشريع كما هو الحال في دستور مصر.

العامل الثالث هو الأرض التي تشكل أساس الهياكل الاقتصادية والسياسية التي تمارس من خلالها الأمم سيادتها عليه. تعد الدولة الإقليمية العنصر الحاسم لوجود الأمة في العصر الحديث، وتأتي دساتير العالم جميعها تقريباً على ذكر وحدة الأراضي وسلامتها الإقليمية.

العامل الرابع هو التنظيم الاجتماعي، وهو ((مصطلح علمي اجتماعي تقني يشير إلى شبكة معقدة من المؤسسات والعلاقات الاجتماعية التي توفر تناسقاً لمجموعة عرقية تتجاوز الهوية الشخصية لأعضائها الفرديين، إلى الحد الذي يشارك فيه الأخير في التنظيم الاجتماعي لمجموعته الإثنية، يزداد اعتمادهم على المجموعة وقيمها الجماعية. يحدد التنظيم الاجتماعي حدود المجموعة، وهو

(13) Rodolfo Stavenhagen, *Ethnic Conflicts and the Nation-State*, (London: Palgrave Macmillan, 1996)

(14) دستور تونس، 2014، الفصل الأول.

الإطار الذي يتم من خلاله تمييز «نحن» و «هم» و «المطلعون» و «الغرباء»⁽¹⁵⁾. لا يظهر التنظيم الاجتماعي ظهوراً واضحاً في الدساتير إلا بصورة عابرة في نصوص تأسيس الجمعيات وحرية التجمع، وفي الحديث عن الطوائف وأحوالها مثلاً، بما في ذلك الحديث عن الأوقاف.

العامل الخامس، هو بعد الثقافة الذي يتداخل مع الأبعاد السابقة جميعها.

يمكن تمييز الهوية الوطنية في الدستور عبر قضايا اللغة والدين وتعريف الأمة والعلاقة مع المحيط ورموز الدولة من مثل العاصمة والعلم والنشيد والعلاقة مع الاتفاقات والمعاهدات الدولية والتاريخ.

يمكن تتبع عملية تعريف الهوية الدستورية في كتابات ثلاثة باحثين دستوريين هم هابرماس ومايكل روزنفيلد وياكوبسون.

بالنسبة إلى هابرماس ليست الهوية الدستورية مفهوماً نظرياً مستقلاً في حد ذاتها، ولكنها نتيجة طبيعية لفكرة الوطنية الدستورية أو باللغة الألمانية *Verfassungspatriotismus*، أي إن هوية أمة من المواطنين مرتبطة فقط بالمبادئ الدستورية الأساسية، مثل حقوق الإنسان والديمقراطية وسيادة القانون. يشرح هابرماس التفسيرات والتفاهات المختلفة لهذه المعايير الدستورية الموحدة إلى حدٍ ما من قبل دول مختلفة لها تواريخ وثقافات دستورية متباينة وبالتالي هويات دستورية مختلفة⁽¹⁶⁾.

أما روزنفيلد، فيرى أن الهوية الدستورية تخص مجتمعاً متخيلاً يخلق صورة ذاتية مميزة له في الدستور⁽¹⁷⁾. يركز روزنفيلد في المقام الأول على كيفية تشكل هذه الهوية الدستورية بغرض تكريس نظام دستوري قابل للتنفيذ، وهو ما يدعو به بالنظام الدستوري. بالنسبة إليه، تعتمد الدساتير جميعها على بلورة هوية دستورية متميزة عن الهوية الوطنية وعن الهويات السابقة للدستور جميعها وعن الهويات المتوافرة خارجه، وإن كانت هذه جميعاً تؤثر وتتأثر بالهوية الدستورية⁽¹⁸⁾. يتعين على

(15) زيدون الزعبي، «العقد الاجتماعي وتحديات الهوية الوطنية في مستقبل سوريا»، مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (2021).

(16) Monika Polzin, «Constitutional Identity as a Constructed Reality and a Restless Soul», Vol. 18 No. 07, German Law Journal, pp 1600

(17) Frank I. Michelman, Morality, Identity and "Constitutional Patriotism", 76 Denv. U.K. Rev. 1009, (1999), 1025–1026.

Jan-Werner Müller, *Verfassungspatriotismus* 70, (2010) (using instead the notion *Verfassungskultur* (constitutional culture); Habermas, supra note 26, 642-43 (without using the notion constitutional identity)

(18) Michel Rosenfeld and András Sajó, *The Oxford Handbook of Comparative Constitutional Law*, (Uk. Oxford

الهوية الدستورية أن تشمل ما يكفي من الهوية الوطنية وباقي الهويات لضمان قبولها. يرى روزنفيلد أنه ما لم تشمل الهوية الدستورية فئة ما، فإن هذه الفئة ستعمل ضد الوحدة السياسية للبلاد. تتشكل هذه الهوية الدستورية وترسم حدودها من خلال نص الدستور المكتوب نفسه، والتفسير الدستوري من قبل القضاء ومفسري القانون، وثقافة المجتمع التي تعرّف في نهاية المطاف المواطنة التي يستهدفها الدستور⁽¹⁹⁾.

في حين يرى جاكوبسون أن الدستور يكتسب هويته من خلال التجربة، وأن هذه الهوية لا توجد ككائن منفصل يُخترع لحظة كتابة الدستور، ولا كجوهر ظاهر ومميز في ثقافة المجتمع ينتظر اكتشافه. بدلاً من ذلك، تظهر الهوية بشكل حوارى يمثل مزيجاً من التطلعات والالتزامات السياسية التي تعبر عن ماضي الأمة، إضافة إلى إرادة أولئك داخل المجتمع الذين يسعون بطريقة ما إلى تجاوز الماضي. من ثم؛ وبخلاف رؤية روزنفيلد، لا يرى جاكوبسون الهوية الدستورية محكومة بالتفسير القضائي، بل أيضاً ربما بصورة أهم بالتطلعات السياسية لأولئك الذين يكتبون الدستور والذين يطبقونه بعد إقراره⁽²⁰⁾.

نميل في بحثنا هذا إلى رؤية جاكوبسون؛ فالقوى السياسية التي تدخل التعديلات الدستورية لا يمكن أن تمثل كل القوى السياسية والاجتماعية في البلاد، ومن ثم، لا يمكن للهوية الوطنية كما يعرفها الدستور أن تعكس كامل العناصر الهوياتية القائمة في المجتمع. وتأويل الهوية الدستورية يخضع لتأثيرات العوامل المحيطة المتبدلة بعد كتابته سواء كانت هذه التأويلات قضائية قانونية أم سياسية، أي إن الهوية الدستورية غير ثابتة بدورها، وتتحول بتحول القوى السياسية وتطور التفسيرات القانونية لها، شأنها في ذلك شأن الهوية الوطنية المتبدلة والسائلة. عليه، فإننا نرى تمايزاً واضحاً بين الهويتين الوطنية والدستورية اللتين تتطوران بصورة متشابكة ومستمرة.

مما سبق يمكننا تعريف الهوية الدستورية بأنها: جملة النصوص الدستورية وتأويلاتها القانونية والسياسية التي تميز نظاماً دستورياً من سواه من الأنظمة الدستورية في البلاد أم في أنظمة دستورية لدول أخرى. بمعنى آخر، هي هوية الدستور نفسه التي تتقاطع بالتأكيد مع الهوية الوطنية من دون أن تتطابق معها. هي إذاً الهوية التي تتحصل من جملة التوافقات السياسية للاعبين الأساسيين في

University Press, 2012), supra note 5, p. 761.

(19) Michel Rosenfeld, *The Identity of the Constitutional Subject: Selfhood, Citizenship, Culture, and Community*, (London/ Neu York: Rotledge, 2009), Gary Jeffrey Jacobsohn, *Supra* Note 18.

(20) Monika Polzin, «Constitutional Identity as a Constructed Reality and a Restless Soul», Vol. 18 No. 07, *German Law Journal*, 2012, P8.

كتابة الدستور، وفي تطبيقاته وتأويلاته القانونية لاحقاً.

يمكننا تلمس ثلاث مراحل مرت بها الهوية الدستورية السورية. المرحلة الأولى هي مرحلة طغيان الهوية السورية، وهي المرحلة التي سادت مشروع دستور 1920 ودستور 1930 واستمرت حتى دستور 1950. تظهر بعدها مرحلة الهوية السورية العربية، إذ حاول واضعو دستور 1950 ضرب التوازن بين الهويات السورية والعربية والإسلامية. وعلى الرغم من تقطع فترات تطبيق هذا الدستور، وعلى الرغم من العودة إليه في 1962 بعد الانفصال، إلا أننا يمكننا أن نرى أثره بين عامي 1950 و1958 تاريخ الوحدة مع مصر، وهو التاريخ الذي نرى أنه بدأ فيه طغيان الهوية العربية، على الهوية السورية الوطنية، وهي المرحلة الثالثة التي امتدت حتى يومنا هذا، وإن كنا نرى تحولاً مهماً في دستور 2012 تجاه قضية الهوية.

سنستعرض في ما يأتي الهوية الدستورية في دساتير المراحل الثلاث الأنفة الذكر محاولين الوصول إلى تلمس معالم هذه الهوية.

المرحلة الأولى 1920-1950

تحددت الهوية الدستورية في مشروع دستور 1920 في نص الدستور وفي مضبطة الأسباب الموجبة له. ينطلق هذا الدستور من تعريف الأمة التي يتخصص بها الدستور. ففي مضبطة الأسباب الموجبة للدستور، يبدأ الحديث بـ (إن أمتنا السورية..)، فالأمة هنا هي الأمة السورية، وليست الأمة العربية.

تظهر المسألة الدينية في مشروع دستور 1920 في المادة الأولى التي تحدد دين الملك، وفي المادة 13 التي تمنع التعرض لحرية المعتقدات والديانات، وتجزئ الحفلات الدينية من الطوائف على ألا تخل بالأمن العام أو تمس بشعائر الأديان والمذاهب الأخرى، وفي المادة 14 التي تذكر كيفية إدارة المحاكم الشرعية والمجالس الطائفية التي تحسب شرائعياً في الأحوال الشخصية المذهبية، وكيفية إدارة الأوقاف العامة.

صمت هذا الدستور عن قضايا أساسية تتعلق بعلاقة الدين بالدولة، فهو لم يذكر دين الدولة ولا مصدر التشريع فيها. إن ظهور المسألة الدينية ظهوراً صريحاً وضمنياً، والسكوت عن قضايا مرتبطة بها في مشروع دستور 1920، جاء نتيجة تفاوضات حول الدين والدولة وحقوق المرأة⁽²¹⁾.

(21) محمد جمال باروت، «المؤتمر السوري العام (1919-1920) الدستور السوري الأول: السياق، الطبيعة والوظائف، المراحل

وبخلاف الدين، تظهر اللغة العربية لغة رسمية في الدستور⁽²²⁾.

أما العاصمة فهي دمشق الشام، ولا نرى سبباً لذكر صفة الشام إلا ربط بلاد سوريا الطبيعية، أي بلاد الشام، بعضها ببعض⁽²³⁾.

إذاً، فالهوية الدستورية هنا هي هوية لأمة سورية أولاً، وعربية ثانياً، ومسلمة ثالثاً، متنوعة الطوائف والمذاهب، من دون التطرق إلى أي تنوع عرقي في المجتمع. تمثل الأراضي التي تعيش عليها هذه الأمة سوريا الطبيعية، وعاصمتها دمشق الشام.

على الرغم من ذلك، نلاحظ مما سبق أن الآباء المؤسسين احتاروا بين لفظي الأمة العربية والأمة السورية. بمعنى أن لفظة الأمة العربية لم تكن قد تبلورت بعد في ضمائر مؤسسي الدولة الأولى، ما جعل كلمة سوريا ومشتقاتها تظهر 18 مرة في حين لم ترد كلمة عربي أو مشتقاتها سوى 3 مرات وردت صفةً للسوري. وترد كلمة أمة مرتين عند ذكر قسم الملك من دون تحديد الأمة التي يتحدث عنها هل هي الأمة العربية أم السورية، مع ميلنا إلى فهم حديثه عن الأمة السورية لا العربية. ونلاحظ ضعف الهوية الإسلامية مقارنة بدساتير 1950 وما تلاها، فهي تذكر الإسلام في تحديد دين الملك وفي ذكر الأوقاف الإسلامية⁽²⁴⁾. ونرى هنا اعتراف الدستور بالتنوع الاجتماعي عبر ذكر الأقليات من دون تحديدها وعبر ذكر الطوائف والمجالس الطائفية ومحاكمها من دون أي تحديد لها⁽²⁵⁾.

لم يعترف الدستور بأي لغة أخرى غير العربية. فلا ذكر للغة الكردية أو التركية التي كانت حتى الأمس القريب اللغة الرسمية الوحيدة. ويتجاهل أي لغات أو قوميات أخرى. أما غياب اللغة التركية فمفهوم تماماً، كون الاستقلال عن الدولة العثمانية جاء على خلفية حرب معها، وبعد شعور العرب بالهميش في سنوات الخلافة الأخيرة.

نلاحظ أيضاً استخدام كلمة البلدان السورية في المضبطة وتركيزه على مقاطعات سوريا وأجزائها الجغرافية المكونة، وبالتحديد عند الحديث عن المناطق الغربية والجنوبية، الأمر الذي يمكن عدّه إقراراً بأن الوحدة السورية المنشودة هي وحدة بلدان سوريا الطبيعية التي ((يحدها شمالاً جبال

والقضايا»، مجلة تبين، ع: 3، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 43-45.

(22) دستور سوريا 1920، المادة 3.

(23) دستور سوريا 1920، المادة 3.

(24) دستور سوريا، 1920، المادة 37.

(25) دستور سوريا 1920، المادة 14.

طوروس وجنوباً صحراء سيناء ودرع السويس وشرقاً الحجاز والعراق وغرباً البحر الأبيض المتوسط كانت حتى آخر العهد العثماني المنتهي بانتهاء الحرب العالمية وجلاء الترك منقسمة إلى ثلاث ولايات هي حلب وسوريا وبيروت⁽²⁶⁾.

يعود برأينا الخلط بين مصطلحي الأمة العربية والسورية إلى المرحلة العثمانية التي نشطت خلالها الجمعيات السرية العربية، وكانت تنادي باللامركزية في حكم الولايات العربية وباستخدام اللغة العربية لغة رسمية فيها، آخذين بالحسبان أن هذه الحركات جُلها كان في أراضي سوريا الطبيعية. وحتى الحركات التي نشأت في مصر، وكانت تنادي باللامركزية، كان قوامها السوريون/ات أنفسهم. يقول وجيه كوثراني: ((ومهما كان من أمر هذا القسم الذي يشير صراحة إلى استقلال الأمة العربية، ولكن من دون تحديد جغرافي وإثني لهذا المفهوم، فإن النشاط العلني لهذه الجمعية [تركيا الفتاة] ولغيرها من الجمعيات التي نعتتها الأدبيات القومية العربية - لاحقاً - بالجمعيات السرية، لم يخرج عن نطاق المطالب الإصلاحية بشأن نيل حقوق العرب وتطوير البلاد على الصعيدين الثقافي والاجتماعي، وعلى قاعدة وحدة الدولة العثمانية. وكان أن جذبت هذه الجمعية إليها عددًا كبيرًا من مثقفي المدن الشامية، ولا سيما في بيروت وصيدا وطرابلس ودمشق⁽²⁷⁾)).

أما الدين، فنرى أن السبب الأساس وراء احتلاله مرتبة ثانوية في الهوية الدستورية، هو الخصومة التي كانت بين النخب المشكلة للمؤتمر السوري العام والخلافة العثمانية. لم تشأ هذه النخب تحدي الشعور العام للتيار المحافظ الذي تربطه بالخلافة علاقة تاريخية وعاطفية كبيرة، ليكتفي بوجود سليل الأشراف على رأس المملكة من جهة، وتحديد دينه وبالإمتناع عن منح النساء حق التصويت. الأمر الآخر، هو أن التيار المحافظ الإسلامي، لم يكن قد شق طريقه بعد في العالم العربي، وعليه أن ينتظر حتى أربعينيات القرن العشرين قبل أن تتشكل حركة الإخوان المسلمين بوصفها الحركة الأوضح تأثيراً في الشارع والنخب. ما يؤكد رأينا هذا، هو ما تورده المضبطة عند تفنيدها أسباب اختيار النظام الملكي بدلاً من الجمهوري⁽²⁸⁾.

يمكننا تحديد ثلاثة عوامل رئيسة في بناء الهوية الدستورية السورية الأولى؛ الأول هو الاستقلال عن السلطنة العثمانية والرغبة في القطع العقلاني مع الماضي. فهي لم ترغب في التخلص من الوراثة بشكل كامل، لذلك عملت على تحديدها بالملكية الدستورية. كما أرادت القطيعة مع فكرة الخلافة

(26) يوسف الحكيم، سوريا والعهد الفيصلي: ذكريات، ط2، (بيروت: دار النهار للنشر، 1980)، ص 32.

(27) وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي العربي أواخر العهد العثماني: وسائط السلطة في بلاد الشام، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 212-213.

(28) ماري شهبستان، المؤتمر السوري العام 1919-1920، (بيروت: دار أمواج، 2000)، ص 233.

من دون تحدي الشعور العام المسلم.

العامل الثاني هو العلاقة مع المحيط العربي. فعلى الرغم من إبراز الهوية العروبية إلا أنها كانت هوية تتعامل بواقعية مع مصر التي كانت بعيدة نسبياً عن حكم الخلافة منذ الاحتلال البريطاني لها، والحجاز التي اكتفت برابط العائلة للملك، ومكانتها الدينية، والعراق الذي كان يقبع تحت الاحتلال البريطاني، ولم يكن ممكناً تشكيل وحدة سياسية معه.

العامل الثالث، هو الإقرار بخصوصية المجتمع السوري المكون من أديان وطوائف ومذاهب عدة.

نرى أن هذا الدستور أقرب إلى النموذج الأميركي، إذ يبدو هذا الدستور مؤسساً للأمة السورية كحال النموذج الأميركي. وهو يرى الشعب/ الأمة بوصفها وحدة من المواطنين/ات أو ديموس (مدينة) لمواطنين موجودين أساساً. وهو حكماً يختلف عن النموذج الألماني، إذ لا يرى هذا الدستور الأمة السورية وحدة عرقية، بل جزءاً من القومية العربية. وهو يختلف مع النموذج الإسباني كونه لا يرى الأمة السورية أمة متعددة الأعراق. ربما كان هذا بسبب غياب المكون الكردي تحديداً عن التمثيل، كون هذا المكون كان مشتتاً بين العراق وتركيا وسورية، شأنه في ذلك شأن القوميات الموجودة في منطقة الجزيرة. ولا داعي لشرح عدم انطباق النموذج الأوروبي على هذا الدستور.

لم تبعد الهوية الدستورية لدستور 1930 عن سابقتها بالتركيز على الهوية السورية أولاً ومن ثم البعدين العروبي والإسلامي. فاسم الدولة هو دولة سوريا ولا صفة عربية لها⁽²⁹⁾. وظل الدستور يتحدث، ولو ضمناً هنا، عن أمة سورية. فالمادة 29 تنص على أن الأمة مصدر السلطات. الأمة وليس الشعب كما سنرى في الدساتير اللاحقة كلها. والنائب يمثل الأمة جمعاء كما في المادة 42. وترد كلمة سوريا أو مشتقاتها 16 مرة، في حين ترد كلمة عربية مرة واحدة عند ذكر اللغة الرسمية، ولم يرد ذكر الإسلام إلا ثلاث مرات عند ذكر دين رئيس الدولة⁽³⁰⁾ والأوقاف الإسلامية⁽³¹⁾.

من الملاحظ هنا اعتراف الدستور بهويات فرعية إثنية وطائفية. فالمادة 24 التي تذكر اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، تتحدث أيضاً عن لغات أخرى. بالتأكيد كانت اللغة الفرنسية لغة رسمية في البلاد، وربما كانت هذه المادة تشير إليها. لكنه في الثامنة والعشرين يقول: ((حقوق الطوائف الدينية المختلفة مكفولة. ويحق لهذه الطوائف أن تنشئ المدارس لتعليم الأحداث بلغتهم الخاصة بشرط أن

(29) دستور سوريا 1930، المادة 1.

(30) دستور سوريا 1930، المادة 3.

(31) دستور سوريا 1930، المادة 114.

تراعي المبادئ المعينة في القانون⁽³²⁾.

بمعنى أن الاعتراف بلغات أخرى في البلاد قد تكون التركية في لواء إسكندرون، والكردية في الشمال الشرقي، أو اللغات الأرمنية والسريانية وسواها من لغات الأقليات في البلاد.

أما الهوية المسلمة، فقد حلت في مرتبة ثانوية هنا أيضاً. فكلمة إسلام ومشتقاتها لم ترد إلا أربع مرات: واحدة عند ذكر دين رئيس الدولة وثلاث مرات في المادة 114 عند ذكر الأوقاف الإسلامية. وظهر الاعتراف بالأقليات الطائفية ثلاث مرات في المواد 15 و28 و37، علماً أن كلمة الأقلية ظهرت مرة واحدة في المادة 37، لتعترف الهوية الدستورية لهذا الدستور بتنوع البلاد الطائفي، وربما العرقي.

نرى أن أسباب التركيز على الهوية الدستورية السورية مشابهة لتلك التي أثرت في سابقتها. أي إن عدم نضج العروبة بعد، والرغبة في وضع هوية للبلاد الناشئة التي يعيش سكانها قلقاً هوياتياً واضحاً، ورغبة النخبة السورية الحاكمة في مواجهة الانتداب الفرنسي، وضعف التيار الإسلامي المرتبط بالتاريخ العثماني قد أثر هو أيضاً في هوية سورية بمقابل هويات عربية وإسلامية ثانوية.

المرحلة الثانية: صعود الهويتين العربية والإسلامية

تبدأ هذه المرحلة بدستور 1950 الذي جاء بعد الاستقلال عن فرنسا وبعد انقلابين عسكريين وانتخاب جمعية تأسيسية حضرت بها تيارات جديدة لم تكن موجودة في الدستورين السابقين. فقد دخلت هذه الجمعية تيارات عروبية مثل البعث العربي وعصبة العمل القومي والاتحاد الاشتراكي. وحضر التيار المحافظ المسلم بقوة عبر حركة الإخوان المسلمين وزعيمها مصطفى السباعي. واستمرت القوى الوطنية السورية التقليدية مثل حزب الشعب والمستقلين من الحزب الوطني الذي قاطع الانتخابات وشارك بعض أعضائه كمستقلين ممثلة في هذه الجمعية. كان لحضور التيارات العروبية والمحافظات أثر في تشكيل الهوية الدستورية التي -كما سنرى هنا- كانت متوازنة بين الهوية السورية والهوية العروبية والمسلمة.

بخلاف سابقه، نرى الهوية الدستورية في هذا الدستور حاضرة بقوة سواء في المداولات التي أفضت إلى كتابته، أم في نصوص ديباجته ومواده. أفضت هذه المفاوضات إلى تصاعد الهويتين العربية والإسلامية نحو هوية تضرب توازناً نسبياً بين الهوية السورية مع بعدها العربي والإسلامي.

(32) دستور سوريا 1930، المادة 28.

فاسم الدولة كان الجمهورية السورية، وترد كلمة سوريا أو مشتقاتها 25 مرة لترد كلمة عرب ومشتقاتها 12 مرة. في حين ترد كلمة إسلام ومشتقاتها 7 مرات. غير أنه ولأول مرة، لم تعد كلمة أمة تعني أمة سورية، بل أمة عربية. إذ وردت كلمة أمة ثلاث مرات في إشارة إلى الأمة العربية، مرتين في الديباجة بنص أن الشعب السوري جزء من الأمة العربية، ومرة في المادة الأولى لتكريس النص ذاته، آخذين بالحسبان ورود نص العالم العربي والإسلامي في الديباجة أيضاً؛ أي إن سوريا جزء من الأمة العربية مرة وجزء من العالم العربي في أخرى. وعلى الرغم من عدم الحديث عن قطر سوري، إلا أن القسم الذي يقوله النواب يتضمن الإشارة إلى العمل على تحقيق وحدة الأقطار العربية⁽³³⁾. وتتكرس الهوية العربية أيضاً بعد اللغة العربية لغة رسمية، من دون ذكر لأي لغة أخرى فيه⁽³⁴⁾. ولأول مرة يظهر الحديث عن التراث العربي بوصفه أحد مكونات الشخصية الوطنية السورية وذلك عند الحديث عن التعليم وضرورة إنشاء جيل معتز بتراثه العربي⁽³⁵⁾. وبخلاف الدساتير اللاحقة، نرى أن نص العربي هو صفة السوري، أي إن المواطن/ة سوري/ة أولاً وعربي/ة ثانياً.

أما الهوية الإسلامية فلا يوجد نص دستوري سوري واحد يحوي العدد ذاته من الإشارات إلى الهوية الإسلامية لسوريا. فكلمة إسلام وردت سبع مرات أربعة منها في الديباجة وثلاثة في مواد الدستور. كما تلزم المادة 28 بالتعليم الديني، لتترك للطوائف تحديد شكله الملائم لها. وتؤكد المادة ذاتها على تعليم يساعد في إنشاء مؤمن بالله، وتؤكد الديباجة ضرورة مكافحة الإلحاد والانحلال الأخلاقي.

يعود برأينا تصاعد هذه الهوية بسبب بروز تيارات شعبية، على حساب تراجع النخب البورجوازية التي كانت رائدة الهوية السورية إبان الانتداب الفرنسي. فحزب البعث العربي بقيادة عفلق والاشتراكي العربي بقيادة الحوراني، وحركة الإخوان المسلمين بقيادة السباعي استخدمت خطاباً قومياً ودينياً يدغدغ مشاعر طبقة الفلاحين والعمال والتركيبات العشائرية. كما إن النخب، في ظل النظام الديمقراطي حديث النشأة، كانت بحاجة إلى أصوات القواعد الشعبية التي يحركها هذا الخطاب.

دامت هذه الهوية حتى تاريخ الوحدة مع مصر، خلال مرحلة تصاعد فيها الخطاب القومي ملاقة لتصاعده في باقي البلدان العربية عموماً وفي مصر عبد الناصر خصوصاً، وذلك على حساب الهويتين السورية والإسلامية، في إثر انحسار الأخيرة أمام المد القومي العربي وصدام الإخوان مع عبد الناصر. لا يمكن تطبيق أي من النماذج الأربعة التي طرحها روزنفيلد على هذا الدستور، فسوريا ليست وطنًا نهائياً كي نتحدث عن وحدة عرقية، كنموذج ألمانيا، أو مجتمع المواطنين كنموذجي فرنسا وأميركا،

(33) دستور سوريا 1950، المادة 75.

(34) دستور سوريا 1950، المادة 4.

(35) دستور سوريا 1950، المادة 28.

وهي ليست أمة متعددة الأعراق كحالة إسبانيا. إذًا كان هذا الدستور تعبيرًا عن بداية تراجع الهوية السورية، لصالح أمة عربية واحدة، ليست فيها الهوية السورية إلا هوية مؤقتة بانتظار وحدة الأقطار العربية.

المرحلة الثالثة: طغيان الهوية العربية

بعد انقلاب الشيشكلي على دستور 1950، ومن ثم طرحه دستورًا على مقاس حكمه عام 1953، عاد الحراك السياسي والشعبي للانتفاض على حكمه، أفضى إلى استقالته وخروجه من البلاد عام 1954، إلى إعادة تطبيق دستور 1950 ولمدة أربع أعوام، وحتى تاريخ الوحدة مع مصر التي جاءت بعد فترة من ضعف قدرة النخب السياسية على إنتاج نظام سياسي مستقر.

تنامت النزعة القومية العربية داخل النخب السياسية وفي الشارع السوري خلال هذه الفترة، ومع بروز جمال عبد الناصر كقائد عربي يحظى بشعبية عارمة في البلدان العربية، بعد تأميم قناة السويس وخروج مصر منتصرة بعد العدوان الثلاثي. توجت هذه المرحلة بتنازل شكري القوتلي عن الحكم لصالح عبد الناصر ليصبح الأخير رئيسًا للجمهورية العربية المتحدة واهضًا أول الدساتير التي أعلنت من شأن العروبة فوق الشأن الوطني السوري ليستمر هذا الإعلاء في الدساتير التالية لسوريا جميعها وعلى رأسها دستور 1973.

أبرز دساتير هذه المرحلة هي دستور 1958 المؤقت، ودستورا 1973، و2012 على الرغم من العودة إلى دستور 1950 في ما بين 1962 و1963، إبان ما عرف بحكم الانفصال، إضافة إلى دساتير البعث في الأعوام 1964 و1969 و1971، ومشروع دستور اتحاد الجمهوريات العربية بين سوريا ومصر وليبيا في العام 1971.

تميزت هذه المرحلة بتراجع حاد للهوية السورية وتراجع نسبي للهوية الإسلامية لصالح الهوية العربية. فلفظ سوري ومشتقاته لا يظهر في دستور الوحدة إلا ثماني مرات مترافقًا مع لفظ مصر ومشتقاتها لتحديد مكونات الجمهورية وليست كجزء من الهوية. واسم الجمهورية لا علاقة له بسوريا والشعب جزء من الأمة العربية، والعاصمة هي القاهرة ولا مكان لدمشق لأول وآخر مرة في الدساتير السورية جميعها⁽³⁶⁾.

(36) دستور الجمهورية العربية المتحدة، المادة 64.

لا يورد نص الدستور أي إشارة إلى تعدد المكونات المجتمعية ولا إلى وجود أقليات دينية أو إثنية، باستثناء نص المادة السابعة التي تتحدث عن عدم التمييز بين المواطنين على أساس اللغة أو الدين.

ونلاحظ عدم احتواء هذا الدستور على أي إشارة إلى الإسلام، ما جاء ربما نتيجة الصراع بين عبد الناصر والإخوان. ولا توجد أي إشارة إلى الأوقاف أو حقوق الطوائف في ممارسة الشعائر.

ظلت الهوية السورية في مرتبة أدنى حتى بعد الانفصال عن مصر. فاسم الجمهورية صار الجمهورية العربية السورية، بتقديم لفظ عربي على سوري، حتى في الفترة التي عاد تطبيق دستور 1950 بين عامي 1962 و1963، أي إن العودة إلى دستور 1950 لم تعد إلى اسم الجمهورية نفسه.

تراجعت سورية من دولة مكتملة إلى قطر من دولة مأمولة تضم الأقطار العربية كلها. ولم يعد الشعب السوري إلا جزءاً من الأمة العربية. تكرر هذا الأمر في دساتير البعث 1964، 1969⁽³⁷⁾، و1971 وصولاً إلى دستور 1973 الذي توج هوية دستورية عروبية خالصة في فترة ما بعد الانفصال. فدستور 1973 يأتي على ذكر كلمة عربي ومشتقاتها 58 مرة بمقابل 12 مرة فقط لكلمة سورية ومشتقاتها. وللمرة الأولى يتحدث الدستور عن جنسية عربية صفحتها السورية.. أي إنها المرة الأولى التي يكون فيها هناك جنسية عربية صفحتها السورية⁽³⁸⁾. ولم يكن العلم علم سورية، بل علم اتحاد الجمهوريات العربية⁽³⁹⁾، وبقي كذلك حتى عدل الدستور عام 1980 ليترك للقانون تحديد النشيد والعلم.. كما إن الأحكام تصدر باسم الشعب العربي في سورية وليس باسم الشعب السوري، أي إن كلمة شعب هذه المرة تتلازم مع الشعب العربي وليس الشعب السوري⁽⁴⁰⁾.

ظلت الهوية الإسلامية في مرتبة منخفضة لتذكر مرتين، مرة في تحديد دين رئيس الجمهورية ومرة في مصادر التشريع⁽⁴¹⁾، ولا يذكر هذا الدستور أي شيء عن تنوع المجتمع السوري إلا بشكل عابر عند الحديث عن الحق في ممارسة الشعائر الدينية وعن حرية الاعتقاد⁽⁴²⁾.

(37) دستور سوريا المؤقت 1969، المادة 1.

(38) دستور سوريا الدائم لعام 1973، المادة 1.

(39) دستور سوريا الدائم لعام 1973، المادة 6.

(40) دستور سوريا الدائم لعام 1973، المادة 134.

(41) دستور سوريا الدائم لعام 1973، المادة 3.

(42) دستور سوريا الدائم لعام 1973، المادة 35.

أما دستور 2012 -وعلى الرغم من محافظته على عروبة الدولة⁽⁴³⁾- إلا أنه كان الدستور الأول الذي يتحدث عن التنوع الطائفي والعرقي للبلاد.

قد يشكل دستور 2012 مرحلة رابعة في تاريخ الهوية الدستورية السورية، معترفاً، وبشكل صريح هذه المرة، بالتنوع الثقافي للبلاد. فكلمة تنوع تظهر مرتين، واحدة في المقدمة، وأخرى في المادة التاسعة التي تنص على أن الدستور يكفل: ((حماية التنوع الثقافي للمجتمع السوري بجميع مكوناته وتعدد روافده، باعتباره تراثاً وطنياً يعزز الوحدة الوطنية في إطار وحدة أراضي الجمهورية العربية السورية.))⁽⁴⁴⁾ كما تظهر كلمة مكونات مرتين أيضاً وفي المقدمة وفي المادة التاسعة ذاتها. وترد كلمة أطياف المجتمع في الديباجة، ما جاء ربما بفعل ضغط الشارع المنتفض وارتباك النظام أمام الحراك.

وحافظ هذا الدستور على المواد المرتبطة بالإسلام، وعلى موقع الإسلام الثانوي تجاه العروبة، في تحديده لمصادر التشريع ودين رئيس الدولة في المادة الثالثة.

ثالثاً: خلاصة

وضحنا في بحثنا مرور الهوية الدستورية السورية بثلاث مراحل أساسية وهي مرحلة الأمة المكتملة التي استمرت من تاريخ أول دستور سوري بعد الانفصال عن السلطنة العثمانية الذي كتب عام 1920 واستمر إبان الانتداب الفرنسي عبر دستور 1930 حتى الاستقلال عن فرنسا عام 1946 وتطبيق دستور 1950. شكل الأخير بروز الهوية العربية الإسلامية بفعل تصاعد تيارات أكثر قرباً من الشارع، لتبرز هوية عربية إسلامية لم تستمر إلا بضعة سنوات وتحديداً حتى زمن الوحدة وتاريخ إقرار الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة، لتعود الهوية الإسلامية إلى مرتبة ثانية مع تراجع حاد للهوية السورية، ليست سورية فيها إلا قطراً والشعب فيها ليس إلا جزءاً من الأمة العربية، وحدود دولتها مؤقتة بانتظار توحيد البلدان العربية.

لم نتحدث الهوية الدستورية عبر قرن عن تنوع المجتمع السوري، ولا عن وجود أعراق ولغات مختلفة فيه، إلا مرور الكرام عبر الحديث عن الأحوال الشخصية للطوائف.

أدى هذا الأمر -في رأينا- إلى شكل من أشكال عقدة النقص المخفية لدى السوريين. فهم ليسوا أمة

(43) دستور سوريا 2012، المقدمة والمادة 1.

(44) دستور سوريا 2012، المادة 9.

ودولتهم وحدودهم مؤقتة، ولا وجود لأقليات عرقية أو إثنية فيها.

وبالعودة إلى الإطار الذي يقترحه روزنفيلد، فإننا نرى أن الدساتير الأولى كانت أشبه بالنموذجين الفرنسي والأميركي، إلا أننا نرى أن الدساتير اللاحقة كلها، لا تخضع لأي نموذج كونها لا تتحدث عن أمة مكتملة، ومن ثم لا وجود لهوية دستورية نهائية للشعب السوري، فلا نحن مواطنون/ات أفراد متساوون/ات بالحقوق ولا نحن عرق واحد، ولا أمة مكونة من أعراق متعددة. جل ما فعلته النخب هو فرض هويتها الحزبية على المواطنين، وتحديدًا ما فرضته قوى البعث بفرض الهوية العربية بعدًا أولًا لا تأتي فيه الهوية السورية، إلا عرضًا.

أدى هذا برأينا، ضمن عوامل أخرى بطبيعة الحال، إلى بروز صراع الهويات السورية بعد انتفاضة آذار/ مارس، ومن دون أي مساحة جامعة لمواطني المجتمع السوري ومكوناته. وبعكس الدساتير العربية الأخرى التي كرست هوية وطنية جامعة لها أبعادها العربية والإسلامية وإقليمية، كرست الهوية الدستورية السورية هوية ناقصة غير مكتملة، وما لم تكتمل هذه الهوية ستبقى أزمة السوريين حاضرة مهما حاول البعض، وعلى رأس هذا البعض الاستبداد نفسه.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. الحكيم. يوسف، ط2، (بيروت: دار النهار، 1980).
2. باروت. محمد جمال، «المؤتمر السوري العام (1919-1920) الدستور السوري الأول: السياق، الطبيعة والوظائف، المراحل والقضايا»، مجلة تيين، ع: 3، (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).
3. الزعبي. زيدون، «العقد الاجتماعي وتحديات الهوية الوطنية في مستقبل سوريا»، (الدوحة/ إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، 2021).
4. شهرستان. ماري، المؤتمر السوري العام 1919-1920، (بيروت: دار أمواج، 2000).
5. كوثراني. وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي العربي أواخر العهد العثماني: وسائل السلطة في بلاد الشام، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

باللغة الأجنبية

1. Grimm, Dieter. Does Europe Need a constitution? Vol. 1, European Law Journal (USA: 1995).
2. Polzin Monika, Constitutional Identity as a Constructed Reality and a Restless Soul, German Law Journal Vol. 18 No. 07, (2019).
3. Rosenfeld. Michel, Constitution-Making, Identity Building, and Peaceful Transition to Democracy: Theoretical Reflections Inspired by the Spanish Example, 19 CARDOZO L. REV. 1891 (1998).
4. Rosenfeld. Michel, Constitutionalism, Identity, Difference, and Legitimacy,

Theoretical Perspectives, (Duke Univ. Press 1994).

5. Rosenfeld. Michel, The Problem of "Identity" in Constitution-Making and Constitutional Reform, NY, USA, Cardozo Legal Studies Research Paper No. 143, (December 14, 2005).
6. Sajó, András and Rosenfeld, Michel The Oxford Handbook of Comparative Constitutional Law, (Uk. Oxford University Press, 2012)
7. Stavenhagen. Rodolfo, Ethnic Conflicts and the Nation-State, (London: Palgrave Macmillan, 1996).



رابعًا: مراجعات الكتب



الانهيار السوري: الصراع على السلطة والدولة والهوية

فكرة الثورة لا تموت

أنور بدر⁽¹⁾

لم يكن كتاب الإعلامية السورية سميرة المسالمة الجديد (الانهيار السوري... الصراع على السلطة والدولة والهوية)⁽²⁾ هو الأول، ولن يكون الأخير في محاولة الإطلالة على هذا الصراع المستمر بكل كارثية الانهيار الذي يتضمنه، لكن هذا الكتاب سيحتفظ بتميّزه في هذا الإطار لعدة أسباب، أهمها أن المسالمة خبّرت طرفي المعادلة، النظام من خلال تجربتها الإعلامية ورئيسة تحرير صحيفة (تشرين) الرسمية، والتي أقيمت منها بعد أقل من شهر على اندلاع ثورة السوريين، لتنتقل لاحقاً إلى موقع متميّز في المعارضة السورية نائباً لرئيس الائتلاف السوري المعارض بين عامي (2016.2017)، ما وفّر لها معرفة حقيقية بمكان النقد الذي وجهته لكل من النظام والمعارضة معاً.

لم تتجاوز مقدمة الكتاب 10 صفحات مكثفة تعرضت الكاتبة من خلالها لكل ما أرادت معالجته لاحقاً، مع التركيز على عجز بنية المعارضة السورية -والائتلاف تحديداً- عن القيام بدوره الوطني في قيادة الثورة، وتوحيد السوريين، وتشكيل خطاب وطني وديمقراطي بديل من خطاب نظام الاستبداد الفاسد، ثم شهادة شخصية لا تقل أهميةً وغنىً عن تلك المقدمة، تناولت تجربتها الإعلامية في زمن انطلاق الربيع العربي، وسيناريوهات النظام لمواجهة الاحتجاجات قبل أن تبدأ، وقد شكلت هاتين المقدمتين وما وظّفته المسالمة خلالهما من خبرتها الإعلامية وروائية⁽³⁾ إغراءً شديداً لمتابعة القراءة في موضوعات كتابها التي توزعت على أربعة أقسام، القسم الأول: من الصراع في سوريا إلى الصراع عليها. القسم الثاني: عن واقع المعارضة ونقدها. القسم الثالث: بين الثورة والمفاوضة. والقسم الرابع: إلينا وإلى مواطنينا السوريين الكرد. وخاتمة بعنوان: سوريا التي نريد أو سوريا الممكنة.

(1) أنور بدر: كاتب وإعلامي، رئيس تحرير مجلة أوراق التي تصدر عن رابطة الكتاب السوريين.

(2) سميرة المسالمة، الانهيار السوري: الصراع على السلطة والدولة والهوية، ط 1، (الجزائر: منشورات ضفاف/ الاختلاف، 2022)، (332ص).

(3) سميرة المسالمة، «نفق الذل» رواية، (دم: منشورات ضفاف و«مكتبة كل شيء»، 2014).

قدّمت المسألة كتابها كرسالة اعتذار للسوريين، ومحاولة تهدف -بحسب تعبيرها- إلى ((وضع شعبنا بصورة ما جرى، ووضع نفسي تحت طائلة المحاسبة، وأعتقد أن ذلك يُلزمنا وكلّ زملائي في المعارضة أن نواجه أنفسنا بهذه الأسئلة:

لماذا عجزت المعارضة، والائتلاف أحد كياناتها المعترف بها دوليًا، عن تعزيز مكانتها في مجتمعات السوريين في الداخل والخارج؟ ولماذا لم يستطع الائتلاف استيعاب كل المكونات السياسية للسوريين؟ هل تشكيليّ الائتلاف ولاحقاً الهيئة العليا للتفاوض ... تُعبران حقاً عن واقع الثورة السورية؟ وهل تُلبيان حاجة ما لهذه الثورة في وظيفتيهما أو في تركيبتيهما؟ ثمّ ما الذي أضفناه أو فعلناه أو أثّرنا به كأفراد أو كيانات؟ ولماذا بقيّ الائتلاف بصفته المعبر عن الثورة دوليًا غير قادر على إيجاد موطن قدم له في المناطق التي سميت المحررة؟ ولماذا ظلت علاقته مع الفصائل العسكرية محدودة أو بلا معنى من الناحية العملية؟ وما الذي جنيته من الارتهان لإرادة هذه الدولة أو تلك؟⁽⁴⁾

مجموعة من علامات الاستفهام وغيرها تتوالد من رحم المأساة التي يعيشها السوريون بلا أفق أو إمكان للخروج منها، أسئلة تنبت على ركام الخيبة والعجز الطاعينين في حياتنا، وتُلخّص كثيرًا من أسباب الفشل الذي عانته المعارضة السورية، مع تركيز على (الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة) كون الكتابة خبرت هذا الائتلاف بسلبياته البنيوية كلها من حيث التركيب والفاعلية، قبل أن تستقيل منه مع مجموعة من الأصدقاء المحسوبين على الاتجاه الديمقراطي داخل الائتلاف، موضحة أسباب عجز الائتلاف بكونه ((نتاج ورهنُ المكونات (السياسية) التي وجدت فيه، بمعزل عن مدى تمثيليته مجمل قوى المعارضة أو حجمها في المجتمع، وهي مكونات ضعيفة الفاعلية، ومحدودة التمثيل، وتفتقر للتجربة السياسية، وحتى الخدمية، رغم ادعاءاتها بقدرتها على ذلك)).

وتضيف المسألة أن الائتلاف بالمحصلة، تحوّل إلى بنية مغلقة أو ((كيانا جداريًا أصم، لا يستطيع الانفتاح على ناس الثورة التي يُمثلها، ولا يمكن الشعب من النفاذ إليه، كما أنه يفتقد الكفاءات والأخذ بزمام المبادرة، والمصادقية أمام شعبه، وأمام الرأي العام العالمي، فضلًا عن تحوّل بعضها إلى جهاز موظفين تابعين لهذه الدولة أو تلك، أو هذا المكوّن (سياسي) أو ذاك⁽⁵⁾. فكانت خطاباته مجرد رد فعل على خطاب النظام، عاجزًا عن صناعة الخطاب السياسي للثورة، بل جاملَ خطابات بعض الفصائل العسكرية ذات الأجندات غير الوطنية والانعزالية عن الثورة وأهدافها، وعدّ (جبهة النصرة) جزءًا لا يتجزأ من الثورة، لذلك لم يفلح في بناء مشروع وطني ديمقراطي للسوريين كلهم.

(4) سميّة المسألة، الانهيار السوري: الصراع على السلطة والدولة والهوية، ص 13.

(5) سميّة المسألة، الانهيار السوري...، ص 15.

أما بخصوص شهادتها الشخصية التي تنوس ما بين الذاتي والموضوعي، فتؤكد المسالمة في المستوى الموضوعي حقيقتين: الأولى أن التنازع بين النظام والمعارضة لم يكن هو المحرك الأساس للثورة السورية التي بدأت مطلبية وإصلاحية قبل أن تتحول إلى شعارات سياسية تطالب بإسقاط النظام؛ الحقيقة الأخرى في المقابل ((وجدت المعارضة السياسية المبعدة عن المشهد السوري، فرصتها للتدخل وأخذ الحراك باتجاه شعارات إسقاط النظام ورحيله))⁽⁶⁾.

مع تأكيدها أن ((النظام السوري، على جميع مستويات الحكم فيه، لم يقف متفرجاً منذ انطلاقة ثورات الربيع العربي في عدد من الدول العربية، بل بدأ نشاطه ضد الثورة المحتملة قبل قيامها، من خلال تكثيف رقابته وإحكام سيطرته على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث حظر موقع الفيس بوك، وشدد الرقابة على الاتصالات، وعلى حركة تنقلات ناشطين سوريين، وزاد على ذلك دراسة مواقف بعض الإعلاميين والمثقفين من الثورات العربية... حتى عندما كانت تلك المواقف تتقاطع مع الموقف الرسمي للنظام))⁽⁷⁾.

إذ دفعت حالة الهلع والدُعر النظام إلى تشكيل ((خلايا متعددة، أمنية وعسكرية وبحثية وإعلامية، للبحث في معالجة مقدمات الثورة المحتملة))⁽⁸⁾، وقد شاركت المسالمة في اجتماعات الخلية الإعلامية بوصفها رئيسة تحرير جريدة تشرين، وفي أحد اجتماعات مركز استطلاع الرأي المحسوب على جهاز أمن الدولة -بحسب تعبيرها- مع تأكيدها بأن هذه اللجان والاجتماعات كانت عاجزة عن تقديم أي اقتراحات خارج السياق الأمني المسيطر على مجمل البلد.

تؤكد الكاتبة في ما سبق أنّ الفيس بوك في سورية كان ممنوعاً قبل انطلاق الثورة السورية، مضيقاً: ((من أهم المعارك الإعلامية التي خُضتها مع زملائي في الإعلام كانت ضد وزارة الاتصالات والتقانة، بسبب حظر الفيس بوك، والتعامل مع المواطنين كمشتبه بهم أو كقاصرين، وكانت مهمة الدولة مراقبة خصوصياتهم، وتواصلهم مع الآخرين، ولهذا عدتّ المستشار الإعلامية في القصر بثينة شعبان أنّ مطالباتي في رفع الحظر، ما هي إلا جزء من مخطط أشارك به مع مخرين... للإطاحة بالنظام القائم))⁽⁹⁾.

وتُحدّثنا المسالمة عن سيناريو سُرب إليها من أحد المشاركين باللجنة الأمنية، والذي عدته مرعباً

(6) المصدر السابق، ص 21

(7) المصدر السابق، ص 22.

(8) المصدر السابق، ص 22.

(9) المصدر السابق، ص 24.

جدًا، واستبعدت في تلك اللحظة اللجوء إليه، حيث يرى مؤيدو هذا السيناريو ((أنّ قتل مشاركين في المظاهرات، واعتقال آخرين، سيكون درسًا يُلقنون به كل المشجعين على التظاهر))⁽¹⁰⁾. وتُضيف أنّ هذا السيناريو وصف الناشطين بالمتآمرين على سورية، والمدفوعين من قبل إسرائيل، وهي تعابير دارجة في لغة الأمن التخوينية، لكن المفاجأة، أن هذا السيناريو هو الذي طُبّق مع اندلاع شرارة الثورة في مدينة درعا.

تؤكد المسألة قناعتها آنذاك ((أنّ التغيير الذي ننشده في سوريا، يُمكن العمل عليه عبر خطوات إصلحية، تبدأ من تحرير منابر الإعلام من هيمنة الرقابة الأمنية، لتكون هذه المنابر أحد أدوات التغيير الحقيقية من داخل النظام، وكان ذلك نتيجة هوامش الحرية التي استطعنا أن نخلقها لأنفسنا كمجموعة من الإعلاميين الراغبين في محاربة الفساد، وإمالة اللثام عن المسؤولين عنه، رغم علوّ شأنهم في المجتمع الاقتصادي والسلطوي، لكن حساباتنا تعثرت منذ صرخة البوعزيزي في تونس كانون الأول 2010، حيث عادت القبضة الأمنية لتطبق الخناق علينا، وتُعيدنا إلى حظيرة إعلام النظام الشمولي الذي يعدّ علينا إشارات الاستفهام، ويُحقق في أسباب علامات التعجب!))⁽¹¹⁾.

وتضيف المسألة أنّها كانت تهدف من خلال ذلك إلى توسيع هوامش النقد بالحديث عن قانون أحزاب يُنتج قوننة العمل السياسي، ويسهم بإخراج (حزب البعث القائد) من وطرته بوصفه حزبًا يتبنى الاشتراكية منهجًا، في ما النظام بات ينادي باقتصاد السوق الاجتماعي، ما أنتج هيمنة اقتصادية للمجموعة الحاكمة التي سيطرت على موارد الدولة والقطاعات الاقتصادية والنشاط الربحي، ((وهو الذي وَضَعَ كثيرًا من السوريين على حافة الفقر، مما حدا بالحكومة إلى إخفاء نتائج الدراسة التي أجريت عام 2010، بالتعاون مع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، والتي تؤكد على وجود مليون ونصف المليون من العائلات السورية تحت خط الفقر، أي ما يزيد عن ثلث الشعب السوري...))⁽¹²⁾. بحيث إنّ سلطة البعث خلال العقود الأربعة الأخيرة قبل الثورة أنهت وجود الطبقة الوسطى السورية لصالح طبقة الأثرياء المنتفعين من السلطة أو طبقة البرجوازية الكمبرادورية منافسة البرجوازية التقليدية السورية.

قناعة الكاتبة بإمكان إصلاح النظام سيكون لها نتائج لاحقة في تطوّر مواقفها من الأحداث التي انفجرت يوم الجمعة 18 آذار 2011، وفي محافظة درعا تحديدًا التي تنتهي إليها عائليًا، ما شكل مفاجأة كبرى للنظام الذي كان يعد (محافظة درعا) وفق تقارير أمنية ولأسباب عدة ((محافظة

(10) المصدر السابق، ص 26

(11) المصدر السابق، ص 28.

(12) المصدر السابق، ص 30.

صديقة للنظام))، إذ انطلقت أول تظاهرة احتجاجية في سورية على اعتقال أطفال درعا من قبل الأجهزة الأمنية، لأنهم خطّوا على جدران مدارسهم ((إجاك الدور يا دكتور)) تأثراً بما يتابعه السوريون من أخبار تونس ومصر. مع أنّ مسؤولية هذا الانفجار تقع على كاهل كل من محافظ درعا فيصل كلثوم، ورئيس فرع الأمن السياسي العميد عاطف نجيب ابن خالة الرئيس، الذي رفض بطريقة غبية كل مطالب أهالي درعا وعائلات الأطفال للإفراج عنهم.

لكنّ الخطأ الأكبر كان حين لجأ النظام إلى السيناريو الأمني، وأطلق الرصاص الحي على المتظاهرين فاستشهد شابان من درعا، ومعهما بدأت أزمة السوريين جميعاً، إذ رفض النظام الاعتراف بمسؤولية الأمن عن قتل المتظاهرين، ناسباً الأمر إلى (مندسين) وفق بيان وكالة (سانا) للأنباء، وهو ما أسهم لاحقاً بانتشار صفحات ساخرة من النظام بعنوان (أنا مهندس).

وتجلت أزمة المسالمة المهنية بمنعها بوصفها رئيسة تحرير من تناول الموضوع خارج إطار بيان وكالة الأنباء (سانا) الذي صاغ الموقف الرسمي بل الأمني لرواية النظام، وحين عجزت عن التواصل مع كل الجهات المعنية لمعالجة الأمر، وفي الساعة الواحدة من فجر يوم السبت اللاحق، تقول ((سلمت صلاحياتي جميعاً لمدير التحرير وأمين التحرير اللذين على علاقة وثيقة بالعمل الأمني، وغادرت مبنى الجريدة، لعلني أنني تحولت بنظر كل من عرف متابعتي.. إلى متهمة بالتعاطف مع المتظاهرين، وهو ما أحالي لاحقاً بعد إقالتي بنحو عشرين يوماً من منصبى كرئيسة تحرير، إلى المحاكمة بتهمة إضعاف الشعور القومي))⁽¹³⁾.

ما بين اندلاع أول تظاهرة معارضة في درعا وإقالة سميرة المسالمة من رئاسة التحرير في 8 نيسان، كان يعمم القتل والاعتقال والتضييق على المحتجين بوصفها الحلول الأمنية لنظام الاستبداد والفساد، ما جعل الكاتبة تعيش حيرةً ((بين اعتقادي أنه يُمكن إحراز تقدم حقيقي، ولو بشكل تدريجي، في عملية إصلاح الإعلام وبين رغبتى في الهروب بعيداً عن نظام أعرف مسبقاً أنه وضع سيناريو مواجهة التظاهر، بالعنف والرصاص الحي))⁽¹⁴⁾. وبصورة خاصة بعدما ارتفع في تشييع شهداء اليوم الأول شعار (من يقتل شعبه خائن)، وبدأ القنص، وتدفق الدم السوري لاحقاً، حتى أغرق البلد ومعهما كل طموح الإصلاح.

في هذا البرزخ الذي لا يتجاوز عشرين يوماً أعلنت المسالمة يوم الجمعة 25 آذار في لقاء مع قناة الجزيرة الأوسع متابعة في تلك المدة عن تفهمها حالة التظاهر التي بدأت تعم مناطق أخرى في سورية،

(13) المصدر نفسه، ص 34.

(14) المصدر نفسه، ص 35.

محملة ((الحكومة مسؤولية كل التجاوزات على حقوق المواطنين))⁽¹⁵⁾، وقد كان هذا التصريح مصدر ارتياح لدى رأس النظام، كونها حملت الحكومة وأجهزة الأمن فقط مسؤولية التجاوزات.

يعكس هذا الأمر تناقض دوائر النفوذ التي أشارت إليها المسألة، مضيئة: ((طلب مني العميد مناف طلاس، بناء على رغبة الرئيس الأسد، الذهاب إلى درعا، والاستماع إلى مطالب المحتجين عند المسجد العمري، حيث قمت بلقائهم في منزل الشيخ أحمد الصياصنة، وكتبت ما تحدثوا عنه من مطالب تبدأ بإلغاء المادة الثامنة من الدستور السوري، مروراً بتعديل قوانين الاستملاك وبيع الأراضي الحدودية، وإبعاد قبضة الأمن عن مجريات الحياة اليومية، وانتهاءً بإقرار قانون أحزاب يُتيح الحياة السياسية في سوريا))⁽¹⁶⁾.

ورببت المسألة لقاءين في منزلها مع شخصيات من المعارضة السورية، بالتنسيق مع مناف طلاس وبعلم بشار الأسد، مع تعهد ممثلي المعارضة ((أن تكون وسائل التعبير سلمية، للوصول إلى حوار يُمكن السوريين من إنجاز انتقال سلمي إلى نظام ديمقراطي، يُنهي وحدانية الحزب الحاكم، ويسمح بتداول السلطة، مع إنجاز قانوني الأحزاب والإعلام، للوصول إلى إصلاح دستوري خلال عام من تاريخه))⁽¹⁷⁾. وأكدت المسألة في شهادتها أن طلاس ((لم يعترض على أي اقتراح في تلك الجلسة، ووعد بلقاء قريب يتم من خلاله وضع خطة عمل، على أن يبقى هذا الاجتماع طيّ الكتمان))⁽¹⁸⁾، بعيداً عن تشويش الجهات الأمنية والأجنحة الرافضة للحوار داخل النظام.

إلا أنها فوجئت بسؤال المذيعة على محطة mbc على الهواء مباشرة عن نتائج اللقاء الذي عُقد في منزلها، بعدما تحدث المعارض لؤي حسين بتفاصيل هذا اللقاء، فمهد مع الضجة الإعلامية التي أثّرت حول ذلك، لاغتتيال مبادرة الحوار اليتيمة التي قبلَ رأس النظام المشاركة بها عبر ممثله مناف طلاس. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، إذ استُدعي عدد ممن شاركوا في هذا اللقاء للاستجواب.

بتاريخ 8 نيسان/ أبريل 2011 قبل أن تكمل انتفاضة السوريين شهرها الأول، خرجت المسألة في لقاء تلفزيوني عبر قناة الجزيرة لنفي نظرية المندسين، محملة الحكومة مسؤولية كل ما جرى، وحتى لو كان يوجد مهندسين حقيقة، فعلى الأمن أن يتدخل لحماية الناس وليس لقتلهم. حيث اتصل بها اللواء علي مملوك مباشرة ليطلب إليها التراجع عن اتهام القوات الأمنية بقتل السوريين المتظاهرين

(15) المصدر نفسه، ص 38.

(16) المصدر نفسه، ص 42.

(17) المصدر نفسه، ص 44.

(18) المصدر نفسه، ص 44.

والتصديق على سرديّة المندسين التي ابتكرها، وحين رفضت قال لها: «أنت على الضفّة الثانية»⁽¹⁹⁾، ملخصاً موقف النظام الذي وزّع السوريين على ضفتين؛ الأولى تضم القتلة من أجهزة أمنية وعسكريين وشبيحة ومليشيات طائفية وحزبية كلهم شاركوا بقتل السوريين، والصفة الثانية مع الضحايا، واختارت الكاتبة أن تكون معهم، ومع الشعب السوري في خياراته في أجل الحرية والكرامة.

وكان على الكاتبة أن تدفع ثمن هذا الخيار الصعب، ليس عبر الطرد الوظيفي فقط، أو حتى تلفيق اتهام قضائي لها، بل يجب تكثيف الأذية بالمستوى الشخصي، وفي مستوى عائلتها الصغيرة، حين استبيح منزلها أكثر من مرة، فسورية دولة لم تعرف القانون، ولا قيمة فيها للإنسان المحكوم بالخوف دائماً، حين يُطْفئ عنصر أمن عقب سيجارته بوجهها وأسفل قليلاً من العين اليسرى، وحين يغيب القانون يُمكن للسلطة أن تنفي علاقتها بأي شيء يحدث من قبل شبيحة أو عناصر أمن متخفين تحت ستار الشبيحة والمليشيات التي بدأت تغزو البلد لاحقاً.

وأظن أنّ الجرأة التي كتبت بها المسألة شهادتها ستحيلها إلى وثيقة مهمة للمستقبل وللآخر الذي لم يعيش في سورية أو يعرفها، حيث أشارت في واقعة ثانية إلى دورية أمن اقتحمت منزل العائلة بغياها، ((في الواحدة ليلاً... قيدوا زوجي، وأغلقوا الستائر... طلبوا من ابني مجد (17) عاماً، أن يجثو على ركبتيه ويده إلى الخلف، ووضع أحد العناصر فوهة مسدسه على جبينه، وآخر وضع فوهة بندقيته الروسية التي لقمها على مسمع منه على رأسه من الخلف، طالبين من والده أن يعدّ حتى الرقم ثلاثة ليصار إلى إعدامه))⁽²⁰⁾.

اتصال هاتفي أوقف الجريمة، وانسحبت المجموعة، لكن آثار هذا المشهد لن تتوقف بهذه البساطة، ولن تتوقف آثاره اللاحقة في مستوى الذاكرة والمشاعر وفي الوعي العميق أو اللاوعي لأشخاص عاشوا هذه التجربة، وفي شهادة المسألة كثير من التفاصيل التي مرّت بها أو عاشتها هي وعائلتها، وأهمية أي شهادة شخصية أنها ترتبط بكتابها مباشرة، فلا يستطيع أي شخص آخر غير الشاهد المعني كتابتها، لذلك جاءت هذه الشهادة مشحونة بالصدق والألم، وجارحة وصادمة للقراء.

لكنّ الكاتبة لم تدع ذاتها تسترسل في المستوى الشخصي للمشاعر والانفعالات، خاصة أنها أوردت تلك الرواية ضمن فقرة بعنوان (دخولي الائتلاف)، لتحدثنا عن دقة ظرفها الخاص والعائلي، الذي تزامن مع تجربة انتقالها إلى العمل السياسي المباشر في إطار المعارضة السورية، فعرضت تفاصيل دخولها الائتلاف: ((نعم أنا واحدة ممن جاءت إلى ائتلاف لا تعرف عنه شيئاً، وفرضتني قوة خارجية

(19) المصدر نفسه، ص 46.

(20) المصدر نفسه، ص 58.

كحال غيري من الذين تمّ اقتراحهم أيضا من دول أخرى⁽²¹⁾، وتُقرّ المسألة أن هذا الاعتراف قاسٍ، لكنه واجب عليها قوله لتأكيد مدى التداخلات في ثورة انطلقت من الشعب السوري، وانقلبت عليه.

في القسم الأول من الكتاب ((من الصراع في سوريا إلى الصراع على سوريا)) تسير بنا الكاتبة من رحلة الأمل وفرحة شباب سورية الذين هتفوا للحرية والمساواة، وصولاً إلى الانكسارات، وتراكم الخيبات إثر خذلان المجتمع الدولي عدالة قضيتهم/ قضيتنا، والانزياحات الكبيرة التي حصلت في مواقف واستراتيجيات دولية وإقليمية، جاءت غالباً بتخطيط أميركي لتوريط تلك الدول من مثل روسيا وإيران وتركيا في الصراع السوري، لاستنزافها أولاً، ولتفكيك عرى الدولة والمجتمع في المنطقة، وبصورة خاصة في سورية والعراق. حيث أخذت القضية السورية ((من أيدي السوريين نظاماً ومعارضةً، بسبب تردي واقع الطرفين وتخبطهما وارتباناتهما لإرادة الأطراف الدولية والإقليمية الخارجية))⁽²²⁾. من دون أن يُعفي هذا الشرط الخارجي الصعب المعارضة من مسؤولياتها، إذ تضيف المسألة أنّ هذه المعارضة ((ما زالت بحاجة إلى توسيع إطارها ليشمل أوسع قطاع من السوريين المؤيدين للثورة، وتطوير أحوالها، وهيئاتها، ومدّ الجسور بينها وبين مجتمعات السوريين في الداخل، وفي الشتات، كما أنها بحاجة إلى استعادة خطابها الأول المتعلق بإسقاط النظام الاستبدادي، وإقامة دولة مدنيّة ديمقراطية تكفل لجميع الأفراد من مواطنيها العيش بحرية ومساواة، ... على أسس وطنية، وليس على أسس حزبية))⁽²³⁾.

وهو ما أفردت له القسم الثاني من كتابها بعنوان: ((عن واقع المعارضة ونقدها))، حيث يمكننا ملاحظة كثير من التداخل في موضوعات الكتاب، لترابطها موضوعياً، وفي سياق الحدث السوري، حيث تابعتها في المقدمة وفي شهادتها وفي القسم الأول كثيراً من نقد المعارضة، ووجدت الكاتبة أهمية أفراد قسم خاص لنقدها، ولا سيما ما يتعلق بتجربتها ضمن الائتلاف، ما يمنح نقدها صدقية وأهمية كبيرة، مع تركيز على موضوعي الأسلمة والعسكرة التي أخذت الثورة من شعاراتها الأولى ومن خطابها الوطني إلى مطاح لا تنتهي لثورة السوريين ولا لطموحهم.

تتحدث الكاتبة عن مجموعات ذات طابع أيديولوجي طائفي بالمعنى الديني، ومتعصّب بالمعنى العنفي، ((ولا تدخر جهداً في سبيل إغراق مجتمعات السوريين بأفكارها ومفاهيمها، وخصوصاً بعد أن باتت موجودة على شكل ميليشيات مسلحة، أو تستند إليها لبناء استطلاات مدنية وخدمية، وهي تمارس أدواراً قيادية في الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة، وفي كثير من الأساسيات تخطف

(21) المصدر نفسه، ص 59.

(22) المصدر نفسه، ص 74.

(23) المصدر نفسه، ص 75.

قراره، وهو ما أسس لكياناتها (الحزبية) المؤدّجة داخل المناطق السورية التي سُمّيت محررة⁽²⁴⁾.

وعلى الرغم من أنّ هذه المجموعات الجهادية والفصائل المسلحة أغلبها تعترف بالثورة ضمن تصوراتها الخاصة والأيديولوجية لهذه الثورة، لكنّ الأخطر الجماعات الجهادية التي حملت انتماءاتها ومنظوماتها الأيديولوجية الخاصة إلى سورية من دون أنّ تعترف بأهداف الثورة أو بسورية وطنًا، و((كان يُمكن فرز من يقاتل من أجل سوريا دولة ديمقراطية، عمن يقاتل من أجل سوريا الإمارة الإسلامية، كان يمكن لكلّ السوريين، معارضين وموالين، أن يدركوا حجم الأخطار القادمة مع المشاريع الدينية الطائفية، بدءًا من مشروع ولاية الفقيه الذي تحمله ميليشيات حزب الله، إلى مشروع الدولة الإسلامية، وإمارات النصرة الفرع السوري للقاعدة))⁽²⁵⁾.

أنفق مع الكاتبة في مجمل ما ذهبت إليه من انتقادات قاسية لهذه المعارضة البائسة، وتمثيلها الرئيس (الائتلاف)، وهي لم تكتفِ بالنقد السلبي لهذه المعارضة، بل فاجأتنا بكثير مما أوردته عن دعوات لإصلاح هذه المعارضة أو تطويرها، حيث أفردت فقرة مستقلة لذلك بعنوان (نقد المعارضة وإصلاحها)⁽²⁶⁾، حددت فيها مجموعة من الأسس التي تعدّها ضرورية لعملية إصلاح الائتلاف وتطويره، وهي كما وردت بتفصيل وافٍ ضمن هذه الفقرة: المطابقة بين الدور والبنية، والمطابقة بين الهيئة ودورها، والمطابقة بين الثورة وخطابها، وبين البنية والديمقراطية، وبين السياسي والعسكري، وبين مصالحنا وعلاقاتنا الخارجية، إضافة إلى تعزيز مكانة المرأة في الائتلاف، واعتماد مبدأ النقد والمسؤولية والمحاسبة.

وقد أشارت المسالمة في التقديم للفقرة السابقة، أنها تعرض بعضًا من كتاباتها النقدية لكيانات المعارضة، تأكيدًا لدورها إعلامية، وهي مواد منشورة في زمن وجودها ضمن الائتلاف وحتى استقلالها في شباط / فبراير 2017، وهو توضيح ضروري يدفعنا لاحترام دعوتها في تلك المدة هذه المعارضة كي تُصلح أمورها، ويجب التأكيد أنّ كل الأسس التي أشارت إليها المسالمة هي مسائل مهمة في العمل السياسي، على الرغم من يقيني بأنّ هذه المعارضة الراهنة عاجزة عن مجرد التفكير بالإصلاح، بل هي بنى غير قابلة للإصلاح، وستبقى أهمية وضع أسس لعملية إصلاح المعارضة محض أفكار مهمة برسم معارضة يمكن أن تولد في زمن قادم، لكنها بالتأكيد ليست هذه المعارضة الراهنة التي سبّرت الكاتبة عيوبها وعجزها بدقة جعلتها تطالب بضرورة رحيلها، ((لذا أن لهذه الطبقة السياسية في المعارضة أن تعتذر لشعبها، وأن تتنحى، وأن تُتيح المجال لغيرها ليقوم بما يُفترض أن يقوم به، وألا

(24) المصدر نفسه، ص 96.

(25) المصدر نفسه، ص 120.

(26) المصدر نفسه، ص 125.

نجد أنفسنا كسوريين أمام إعادة تدوير لشخصيات استغلّت الثورة كمنتج قابل للبيع مقابل المنافع الشخصية⁽²⁷⁾.

مع فشل المعارضتين العسكرية والسياسية يظهر فشل آخر في شأن المفاوضات التي توقفت معها الكاتبة في القسم الثالث: ((بين الثورة والمفاوضة))، حيث انتقلت كل أمراض هذه المعارضة إلى الهيئات التي شكّلت للتفاوض، إذ قدمت المعارضة قياداتها الفاشلة لقيادة تجربة التفاوض من دون أن تمتلك خبرة كافية أو مجرد رؤية وطنية لواقع الثورة وآمال السوريين، أو توحيد خطاب منصاتها كلها وممثلها بالحد الأدنى في مواجهة وفد النظام، بل كانت عاجزة أصلاً عن التوافق في ما بينها على تمثيل حقيقي للثورة، لأنّ أعضاء الهيئة العليا للتفاوض كانوا أصلاً ممثلين عن الجهات التي عينتهم، وهذا الأمر ينطبق على اللجنة الدستورية أيضاً، بحيث انتقلت المفاوضات من صيغة الرعاية الدولية في جنيف إلى صيغة الرعاية الروسية في آستانة، ومن ثم في سوتشي. وبعد أن أكدت ضعف فاعلية المعارضة تابعت ((أن الأمر لا يتعلق بموازن القوى بين المعارضة والنظام، فقط، ... وإنما يتعلق أكثر بالحل المنشود بمدى الاختلاف أو التوافق الدولي والإقليمي، على ديمومة الصراع، أو اتخاذ قرار حاسم بوقفه))⁽²⁸⁾.

ويُسجل للكاتبة جرأتها دائماً، وبصورة خاصة في القسم الرابع: ((إلينا وإلى مواطنينا السوريين الكرّد))، حين استعادت المسألة الكردية المسكوت عنها طويلاً إلى تموضعها السوري، فأكراد سورية هم جماعة قومية عانت منذ زمن الوحدة وحتى الآن ظلماً وتهميشاً كبيرين، ليست إشكالية إحصاء عام 1962، إلا تفصيلاً مستمراً بكثير من المعاناة الفردية والقومية، ((إن قضية الكرد كشعب، لا يمكن اختصارها بمجرد الاعتراف بمواطنتهم، وبمساواتهم مع المواطنين الآخرين، إذ إن ذلك يفترض أيضاً الاعتراف بخصوصيتهم القومية كشعب، بلغتهم وثقافتهم، وبكل الحقوق التي تتعلق بالحق في التنظيم والتعبير، لأن ذلك يأتي من الاعتراف في الدستور بالمواطنة الحرة والمتساوية للجميع رجالاً ونساء، وهذا ينطبق على الأكراد كأفراد وكجماعة قومية))⁽²⁹⁾.

وافترضت مسألته أن الحل الأسلم لهذه القضية ولكثير من إشكالات النظام السوري، يمكن أن يبدأ من (الفدرالية) بوصفها نقيض نظام الاستبداد المركزي، تتيح عدالة أوسع بتوزيع موارد البلاد، موضحةً أنّه ((يُفترض بالكرد وجميع السوريين الابتعاد عن حصر الفيدرالية بالجانب الإثني، ومحاربتها على أنها مقدمة للتقسيم، لأن الفيدرالية تقوم على أساس جغرافي وليس على أساس إثني

(27) المصدر نفسه، ص 18.

(28) المصدر نفسه، ص 159.

(29) المصدر نفسه، ص 203.

أو طائفي، والنظام الفيدرالي الذي يُعدّ دعامة للديمقراطية كونه يقف سدًا أمام الاستبداد والنمو غير المتوازن بين مناطق البلد، وأمام التوزيع الظالم للموارد والخدمات، كما كان يحصل⁽³⁰⁾، مؤكدة أنّ الدولة الفدرالية تمنح الأقاليم سلطات واسعة في إدارة شؤونها الخدمية والتنموية من مثل التعليم والصحة وصولاً إلى الأمن الداخلي، في ما يحتفظ المركز بالشؤون السيادية من مثل الدفاع والاقتصاد والخارجية.

خاتمة: ((سوريا التي نريد أو سوريا الممكنة))

في هذه الخاتمة القصيرة تطالب المسالمة بتحديد إجماعات المعارضة السوريّة وتوافقاتها بصورة أساس، والعمل على زيادة هذه التوافقات انطلاقاً من الأسئلة الأساس في قضيتنا السوريّة: ((ما هو شكل سوريا التي نذهب إليها؟ وكيف الطريق إلى خلاص لا رجعة عنه من نظام استبدادي احتكر السياسة والفضاء العام والموارد، واختزل الوطن والدولة والسيادة والشعب في كرسيّ رئاسته، وفتّت بُناه على أسس طائفية وولاءات سياسية؟))⁽³¹⁾.

وتقترح الكاتبة ست نقاط أساس من أجل تقديم رؤية محددة لمستقبل سورية ودستورها الجديد، أو ما يمكن تسميته الوثيقة التأسيسية لسورية المستقبل، وردت بشيء من التفصيل في ثلاث صفحات⁽³²⁾:

أولاً: وحدة سورية شعباً وأرضاً ودولةً.

ثانياً: التأكيد على النظام الجمهوري، وهذا يعني أن الدولة تستمد سلطتها من الشعب، وأن السيادة تنبع من الشعب من خلال ممثليه المنتخبين في البرلمان.

ثالثاً: فكرة المواطنة وهي تقوم على المواطنين الأحرار المتساوين، وهذا لا يعني طمس حالة التنوع والخصوصيات الطائفية أو الإثنية، بل يعني تقديم الهوية السورية على الانتماءات الأخرى، لكن على أساس المساواة، بغض النظر عن الانتماءات الأخرى.

(30) المصدر نفسه، ص 206.

(31) المصدر نفسه، ص 227.

(32) المصدر نفسه، ص 229-230-231.

رابعاً: أن يقوم النظام السياسي على الفصل بين السلطات واحترام الدستور (الذي يتم الاتفاق عليه)، وتداول السلطة عبر الانتخابات وحرية الأحزاب واحترام حقوق الإنسان ومساواة المرأة بالرجل.

خامساً: المحافظة على مؤسسات الدولة، مع وجوب إعادة تشكيل المؤسسات الأمنية والعسكرية، بحيث يكون التنسيب والهيكلية على أساس الكفاءة والنزاهة واحترام القانون وحقوق الإنسان وتحمل المسؤولية والخضوع للمحاسبة.

سادساً: لقد طالبت الثورة السورية لا بإنهاء حكم الاستبداد فحسب، وإنما بالتأسيس لنظام حكم آخر يضمن عدم إعادة إنتاج النظام الحالي أيضاً، ... بوضع دستور جديد لنظام حكم جديد يؤسس لدولة المواطنين الأحرار المتساوين، دولة المؤسسات والقانون، وليست دولة الرئيس أو الحاكم.

في النهاية يبقى كل ذلك اجتهاد مهم ضمن كتاب غني في موضوعاته وأسئلته والقضايا التي تطرق إليها، بحيث يصعب تناولها في أي دراسة أو عرض مبسط، وهي عمومًا قضايا مصيرية بالنسبة إلى السوريين عمومًا بغض النظر عن الاتفاق مع رأي الكاتبة أو الخلاف معها، إذ يكتسب الكتاب أهميته في تحفيز القارئ على إعادة التفكير في كثير من المسلمات والبدхийات التي مررنا بها على عجلة، وبعضها ما زال يحكم مصيرنا. ويسجل للمسالمة أنها على الرغم من سوداوية المشهد السوري كله، والصعوبات التي عاشتها بالمستويين الشخصي والموضوعي، ما زالت تمتلك شحنة من التفاؤل الجميل، أكدت عليها في مقدمة كتابها، ((لهذا فإن ما أعتقد وأنا أكتب هذه السطور، والنظام يحتفي بانتصاراته العسكريّة على الفصائل المسلحة بأيديولوجياتها المختلفة، إسلامية ومتطرفة وحتى (جيش حر)، أن من هُزم أمام النظام هو مَنْ يُشبهه وليس مَنْ يُشبه السوريين، لأن الثورة بفكرها كانت تتوخى إقامة دولة المواطنين الأحرار المتساوين، وهذه لا يمكن أن تُهزم، ربما تتأخر بطرح ثمارها، لكنّها أبدًا تبقى مشتعلة داخل قلوب السوريين الأحرار))⁽³³⁾.

(33) المصدر نفسه، ص 47.

الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية⁽¹⁾

علي شمدين⁽²⁾

أولاً: المقدمة

مع بداية العام الجاري (2022) نشر (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات) كتاباً جديداً للباحث الكردي السوري عبد الباسط سيدا⁽³⁾ بعنوان ((الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية))⁽⁴⁾، يضم الكتاب بين دفتيه (416) صفحة، وزعت في مقدمة وتمهيد ومدخل جغرافي- تاريخي وثلاثة فصول وخاتمة، فضلاً على لوائح تبين العصور التاريخية، وأسماء أهم الآلهة الرافدية، والمراجع والمصادر العربية والأجنبية، وملحق وفهرس لموضوعات البحث..

يتناول سيدا من خلال هذه الفصول الجوانب الرئيسة التي حالت دون تبلور معالم الفعل الفلسفي مبكراً في بلاد ما بين النهرين، وتقصي ملامح الإسهامات الرافدية في الفكر الفلسفي النظري اليوناني، ورصد العلاقة التي تربط الأسطورة بالأنساق المعرفية والروحية الأخرى المتداخلة معها، ومحاولة التمييز بينها، فيرى: ((أن الوعي الأسطوري ينتهي إلى مرحلة ذهنية موهلة في القدم، سبقت ظهور الفلسفة، وشهدت التأملات الإنسانية الأولى، وهو وعي يثير عادةً رغبة الإنسان المعاصر في الوقوف على أبرز ملامح الجهود الذهنية التي أراد أسلافه- أصحاب الأسطورة- من خلالها تحصيل

(1) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، (412 ص).

(2) كاتب سوري.

(3) عبد الباسط سيدا: باحث كردي سوري من مواليد عامودا عام (1956). حائز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة دمشق عام (1991)، تابع دراساته في الآشوريات واللغات السامية في السويد، له عدد من الكتب والأبحاث المنشورة منها: موضوعات كردية سورية (عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات): الوضعية المنطقية والتراث العربي: فكر زكي نجيب محمود نموذجاً، ذهنية التغريب والتزييف: الإعلام العربي نموذجاً، بلاد الرافدين: أرض الأسطورة والحضارة، المسألة الكردية في سورية: فصول منسية من معاناة مستمرة. يعمل حالياً في التدريس في السويد، ويتابع البحث في ميدان تخصصه.

(4) عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

.The Mesopotamian Mythical Consciousness: Philosophical Manifestations- by Abdulbaset Sieda

قدر من الوعي، للإجابة عن الأسئلة التي كانت تقلق تفكيرهم، ويساعدهم على تحقيق نوع من التوفيق بين الضرورات الحياتية، والغموض الذي كان يخيم على آلية القوى الكونية الفاعلة التي كان يتوقف عليها مصير دورة الخصب في المجتمع⁽⁵⁾، ويركز خلال بحثه على المستويين (المكاني والزمني)، لكي يتمكن من دراسة العلاقة التفاعلية بين الوعي الأسطوري ومحيطه الاجتماعي، وهو هنا يأخذ بلاد ما بين النهرين ميداناً لبحثه الذي يتناوله خلال المدة الواقعة بين (2900 و 539 ق.م)، فيقول: ((من المتعذر إجراء فصل بين بنية الوعي الأسطوري وسياقه التاريخي الاجتماعي، وإلا فسيغدو هذا الوعي لغزاً يستعصي على البحث العلمي))⁽⁶⁾. ويقف عند العوامل التي كانت وراء اختياره بلاد ما بين النهرين، والدور الذي لعبته خلال تلك المرحلة التاريخية المهمة في تغذية الفكر الإنساني، وإغنائها، وذلك انطلاقاً من كون تلك البلاد واحدة من أقدم المناطق المأهولة في العالم التي عرفت على مدى تاريخها القديم تمازجاً حضارياً، فضلاً على أنها امتلكت تراثاً أسطورياً ضخماً يتناول مختلف الموضوعات التي ما زالت تثير الاهتمام الإنساني، ويقدم لمحات ذهنية تستحق البحث والمتابعة، فيقول: ((لا تزال هناك حاجة ملحة لدراسة هذه المرحلة في نطاق الشرق الأدنى القديم، وبلاد ما بين النهرين على وجه التحديد، بصورة أشمل وأعمق، بغية اكتشاف الجسور التي استطاع الفكر الإنساني لاحقاً العبور من فوقها باتجاه الفكر الفلسفي النظري))⁽⁷⁾.

من المعروف بأن هذا البحث هو في الأصل الرسالة التي حصل المؤلف بموجبها على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة دمشق عام (1991)، وطُبعت آنذاك في كتاب بعنوان ((من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري))⁽⁸⁾، ولكنه راجعه مؤخراً، وعدل موضوعاته وفصوله، ومن ثم أصدر بعد أكثر من عقدين من الزمن بعنوانه الجديد ((الوعي الأسطوري الرافدي - تجلياته الفلسفية))⁽⁹⁾. ويقول سيّدا عن ذلك: ((منذ نفاذ الكتاب قبل سنوات عدة، كان التفكير في إصدار طبعة ثانية.. وقد كانت النية معقودة على مراجعة الكتاب بصورة متأنية، ورفده بما هو جديد في ميدان الاختصاص، لا سيما بعد أن أتاحت لنا دراستنا الآشوريات في جامعة أوبسالا - السويد الفرصة والإمكانيات لمعرفة ما كان يعدّ سابقاً في عداد التمنيّات شبه المستحيلة))⁽¹⁰⁾. ويحاول الباحث صورة

(5) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية، ص 11.

(6) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 13.

(7) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 13.

(8) عبد الباسط سيّدا، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، ط 1، (دمشق: دار الحصاد، 1995)، (343 ص).

(9) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية، ط 1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، (412 ص).

(10) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 17.

أكاديمية رصينة تقديم الأدلة والبراهين التي تلقي الأضواء على تأثير الفكر الشرقي عمومًا، والرافدي خصوصًا، على الفعل الفلسفي النظري اليوناني اللاحق، فيقول إن جهده البحثي هذا: ((يرمي إلى بيان الوقائع والقرائن التي تتناول طبيعة وحدود إسهام الفكر الشرقي عمومًا، والرافدي تحديدًا، في الفعل الفلسفي النظري اليوناني اللاحق.. ويحاول تلمس الجوانب التي حالت دون تبلور معالم الفعل المعني في بلاد ما بين النهرين))⁽¹¹⁾.

ثانيًا: ما الأسطورة؟

يرى الباحث أن مصطلح الأسطورة الذي يمثل محور بحثه هو ((الترجمة العربية للمصطلح اللاتيني Mythos الذي يعني حكاية))⁽¹²⁾، ويقول إن المصدر العربي الذي اشتق منه مصطلح الأسطورة بمعناه الحديث ما يزال بين أخذ ورد، ولكنه يذكر بأن أقدم إشارة إلى هذا المصطلح جاءت في عدد من السور القرآنية بصيغة (أساطير الأولين)⁽¹³⁾ التي فُسِّرَتْ بأنها تعني: ((الأكاذيب التي كتبها الأولون))⁽¹⁴⁾، أو بأنها ((حكايات وأقاويل لا أساس لها من الصحة))⁽¹⁵⁾.

من المعلوم أن الباحثين والمتخصصين في علم الأساطير والنصوص القديمة لم يجمعوا على تعريف محدد للأسطورة، فمنهم من فصلها عن الملحمة، في حين رأى آخرون بأنها والملحمة جنس واحد، لكن بصيغ وأشكال مختلفة ومتباينة. واختلفوا على واقعية أحداثها، فمنهم من عدّها مفعمة بالخيال لا تتضمن ما هو واقعي، ومنهم من رأى أن لأحداثها صبغة الحقيقة، وإن احتوت على قدر من الخيال، لكنها تستند في أساسها إلى أحداث تاريخية شهدها العال، م وتناقلها سكانه، وهذا ما يؤكد المؤلف أيضًا، بقوله: ((يبدو أن المهتمين بالأسطورة ودارسها لم يتوصلوا بعد إلى اعتماد تعريف عام جامع مانع.. وذلك من أجل التمييز بين الأسطورة وغيرها من الأنساق التي قد تتداخل الحدود

(11) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 16.

(12) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 74.

(13) الأنعام: 25؛ الأنفال: 31؛ النحل: 24، 68؛ المؤمنون: 83؛ الفرقان: 5؛ الأحقاف: 17؛ الفلم: 15؛ المطففين: 13.

(14) راجع: أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي، معجم الكليات، عدنان درويش ومحمد المصري (محققين)، (دمشق: وزارة الثقافة، 1981)، ص 176.

(15) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 75.

بينها))⁽¹⁶⁾، مستشهداً في ذلك بما قاله (القديس أوغسطين)⁽¹⁷⁾، في هذا المضمار: ((إنني أعرف جيداً ما هي الأسطورة، بشرط أن لا يسألني أحد عنها.. ولكن إذا ما سئلت وأردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ..))⁽¹⁸⁾. ويستشهد المؤلف أيضاً بما قاله (كارل غوستاف يونغ)⁽¹⁹⁾ حول أهمية الأسطورة ودورها في حياة المجتمعات: ((الأسطورة تنير جوانب النفس الإنسانية، وأن المجتمع الذي يفقد أساطيره – بدائياً كان أم متحضراً- يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان روحه..))⁽²⁰⁾.

وينطلق الكاتب من ضرورة الإحاطة بالسّمات التي تميز الأسطورة من غيرها التي يمكنها أن تشكل ما يشبه التعريف لهذا الجنس الأدبي القديم، فيقول: ((لابدّ من التمييز بين الأسطورة والأنساق الأخرى المتداخلة معها.... وذلك من خلال إجراء تحليل بنيوي ووظيفي للمصطلح ووضعه في سياقه التاريخي – الاجتماعي))⁽²¹⁾، مؤكداً أنه: ((من أجل ضبط هذا المصطلح بصيغته السليمة، لا بدّ من استخدام أسلوب التحديد السلبي أولاً، وذلك من خلال التمييز بين الأسطورة والأنساق الأخرى المتداخلة معها، ومن ثم تحديد الوجه الآخر الإيجابي من الموقف، وهو ما يمكن تسميته بعملية الضبط الاصطلاحي))⁽²²⁾، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إجراء تحليل بنيوي ووظيفي للمصطلح، وذلك بعد وضعه في سياقه التاريخي – الاجتماعي، ولهذا فإن الكاتب يبذل كل جهده في البحث والتنقيب عن علاقة الأسطورة بكل من (التاريخ، اللغة، الدين، الطقوس، الخرافة، الحكاية الشعبية والملحمة...).

وفي ضوء ذلك يرى المؤلف بأن الأسطورة تلتقي مع التاريخ في أنهما يسعيان معاً إلى إدراك الماضي البشري الذي يتناول أموراً جرت في الأزمنة القديمة، مؤكداً أن التاريخ يتعامل مع البشر على اختلاف مستوياتهم، بينما أبطال الأسطورة هم من الآلهة وأنصاف الآلهة من البشر، وبأن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتهما، أما أحداث الأسطورة فتظل عرضة للتضخيم والغلو، ويتابع: ((ما تحدث عنه

(16) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص22.

(17) القديس أوغسطين: ويسى أوريليوس أوغستينوس، عاش خلال الفترة من (13 تشرين الثاني/ نوفمبر 354) حتى (28 آب/ أغسطس 430)، ولد في تاغاستي (Thagaste) في أفريقيا الرومانية (سوق أهراس الحديثة في الجزائر).

(18) ك.ك. راثفين، الأسطورة، جعفر صادق الخليلي (مترجماً)، (سلسلة زمني علمياً باريس: منشورات عويدات، 1981)، ص9.

(19) كارل غوستاف يونغ: عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي، عاش خلال المدة (26 تموز/ يوليو 1875 - 6 حزيران/ يونيو 1961).

(20) G. C. Jung The Archetypes and the Collective Unconscious R. F. C Hull (trans), 2nd ed.

(21) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص25.

(22) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص25.

الأسطورة في هذا المجال يدخل في باب ما وصفه مايكل كرافت بشبيه التاريخ، الذي لا يسجل ما حدث بل ما حسبه الناس أو اعتقدوا في أوقات مختلفة أنه قد حدث⁽²³⁾، ويتحدث أيضًا عن العلاقة بين الأسطورة واللغة، فيذهب إلى أن الأسطورة في جانب منها هي ((لغة تعبر عن توجه ما في سياق تاريخي، اجتماعي محدد، ودور اللغة في ميدان الأسطورة لا يقتصر على الشكل وحده، إنما يتجاوزها إلى المضمون أيضًا))⁽²⁴⁾. وفي هذا المجال يلفت نظر القراء إلى الأهمية التي يتميز بها مضمون الأسطورة، فيقول: ((المضمون يمثل المركز الرئيس الذي يتمحور عليه الجهد اللغوي في نطاق الأسطورة، لا بل ربما يجد هذا دلالة في إمكانية ترجمة الأسطورة إلى لغات عدة من دون أن تفقد حيويتها وقدرتها على إثارة الألباب والأفئدة في الوقت ذاته))⁽²⁵⁾، ويؤكد أنه ثمة تداخل واضح بين الأسطورة والدين، وبأن الأسطورة على الرغم من تعددية وظائفها كانت توظف في كثير من الأحيان دينيًا إلى درجة أنها كانت: ((تغدو في مناسبات معينة جزءًا من الطقوس الدينية نفسها))⁽²⁶⁾، ولكن الكاتب على الرغم من تأكيده التداخل الشديد بين الأسطورة والدين، إلا أنه يشير إلى وجود اختلاف واضح يفرق بينهما: ((فالأسطورة كانت تمثل نظرة المجتمعات القديمة إلى العالم، وبالتالي فهي تتضمن عنصرًا فاعلاً، بينما كان الدين يجسد في نطاق المجتمعات المعنية خضوعًا إزاء القوى الكونية المتحكمة بالعالم، أو تجاه من ينوب عنها ويقوم مقامها من القوى الاجتماعية المهيمنة))⁽²⁷⁾.

من الواضح أن الأسطورة والطقس تربطهما علاقة متينة من حيث إن كلا منهما يمثل جانبًا من جوانب التجربة الدينية، فيقول الكاتب: ((الطقوس سبقت الأساطير، والأسطورة كانت لشرح الطقوس))⁽²⁸⁾، وفي هذا السياق ينقل عن لسان (أرنست كاسيرر) الذي يعد دراسة الطقوس مفتاحًا يمكن من خلاله فهم الأسطورة، إذ يقول: ((إن كلا منهما يجسد جانبًا من جانبي التجربة الدينية، فالأسطورة تمثل العنصر الملحي في الحياة الدينية البدائية، والطقس يمثل العنصر الدرامي فيها))⁽²⁹⁾، ومع ذلك فهو لا ينسى أن يتوقف عند الاختلاف البنيوي بين الأسطورة والطقس، مستندًا إلى ما جاء حول ذلك في منظور (ليفي ستروس) الذي يقول من جهته بأن: ((الأساطير والطقوس يمكن معالجتها على أنها صيغ من تواصل الآلهة مع الناس/ أساطير، أو تواصل الناس مع الآلهة/

(23) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 26.

(24) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 28.

(25) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 28.

(26) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 33.

(27) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 34.

(28) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 48.

(29) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 49.

طقوس))⁽³⁰⁾، أما عن طبيعة العلاقة بين الأسطورة والسحر، فيقول: ((السحر ظهر قبل الأسطورة، لكنه استمر بعدها أيضاً، حيث كان السحر يمارس خارج نطاق الأسطورة، من حيث إن الأخيرة لم تجعل مهمتها الأولى والمباشرة إحداث التغيير في مجريات الظواهر الطبيعية بقصد تلبية الرغبات الإنسانية، بقدر ما كانت ترمي إلى تفسير ما حدث))⁽³¹⁾. ويتناول سيداً أيضاً العلاقة بين الأسطورة والخرافة، ويرى بأنها علاقة متينة وقوية تجمعهما إلى درجة أنه يعتقد بأن: ((الخرافة ليست سوى بقايا معتقدات أسطورية قديمة))⁽³²⁾، مستشهداً في هذا المجال بما قاله (فردريش فون)، على أن أسطورة الآلهة والحكاية الخرافية قد عاشتا جنباً إلى جنب، وبأن كليهما قديم وبأنهما نبعاً من أصول واحدة، ولم يحدث الانفصال التام بين النوعين إلا في عصور متأخرة، حينما أمكن تمييز الديني بوصفه نقيضاً للدنيوي، وهو من أجل ذلك يبحث عن عوامل أخرى تميز الأسطورة عن الخرافة، فيرى في مقدمتها: ((بأن الأسطورة توجهاتها دينية، بينما الخرافة تبحث في ما هو دنيوي...))⁽³³⁾.

وحول طبيعة العلاقة بين الأسطورة والحكاية الشعبية، يرى الدكتور عبد الباسط سيداً بأنهما تتصفان بالطابع القولي- اللفظي، حيث تتناقلهما الأجيال شفاهياً، ويقول: ((لعل هذا يلقي الضوء على ظاهرة التكرار الرتيب الذي تتسم به مقاطعهما، والذي يصل أحياناً إلى درجة الملل))⁽³⁴⁾، ويتناول العلاقة التي تجمعهما من حيث الحبكة والسياق، فيقول: ((العناصر التي تساهم في تكوين حبكة الأسطورة والحكاية الشعبية هي نفسها تقريباً.. إلا أن طبيعة السياق الذي توظف فيه لا يكون هو ذاته في الحالتين...))⁽³⁵⁾، وفي هذا الإطار يلاحظ بأن الملحمة هي النسق الأقرب إلى الأسطورة، فيقول: ((الخلط بينهما يتكرر في العديد من الدراسات التي تبحث في كل من الأسطورة والملحمة، فكثيراً ما يستخدم مصطلح الأسطورة للإشارة إلى الملحمة والعكس، كما أن عدداً من التعريفات التي تقدم للأسطورة قد يكون في الحقيقة صالحاً لتحديد مصطلح الملحمة، والعكس كذلك قد يكون صحيحاً...))⁽³⁶⁾.

وتتناول الأسطورة موضوعات محددة من قبيل تشكل الأرض والسماء والبحر وخلق الإنسان

(30) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 50.

(31) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 57.

(32) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 62.

(33) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 63.

(34) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 69.

(35) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 70.

(36) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 72.

والحيوانات والكوارث الطبيعية الكبرى.. إلخ، وأبطالها هم عادة من الآلهة، وطابعها الاعتقادي ينبع من قدرتها على فرض ذاتها على سامعيها، الأمر الذي لا يجعلها موضوعاً للشك، إنما بخلاف ذلك يقر بصحة أخبارها، ويتعامل مع أحداثها وكأنها وقعت بالفعل، على الرغم من أنه لا يستطيع تحديد زمانها، أما مكانها فيرتبط غالباً بمدينة ما تحظى بمنزلة مهمة في مواجهة الكون بأسره.

ثالثاً: وعي أسطوري أم أنماط وعي أسطوري

لا شك في أن الإنسان لم يكن في بدايات تاريخه قادراً على تفسير الطبيعة المحيطة به واتخاذ موقف محدد تجاهها، لافتقاده إلى الإمكانيات اللازمة لاتخاذ مثل هذا الموقف، فظل خاضعاً لهيمنة الطبيعة وتأثيراتها، ولم يكن أمامه سوى الالتئام في إطار الجماعة والاندماج فيها من أجل الحفاظ على وجوده ككائن حي. وحول هذا الموضوع يشير الباحث إلى أنه: ((كان التوجه الأساسي للمجتمعات الإنسانية الأولى هو التوصل إلى صيغة من التكيف السلبي مع الطبيعة، أي تطويع السلوك الإنساني ليأتي منسجماً مع تقلبات الطبيعة بمختلف ظواهرها، فتميز الوعي الأسطوري في هذه المرحلة بقربه من الطبيعة إلى حد شبه الاندماج..))⁽³⁷⁾، ويرى بأنه من الصعب تحديد اللحظة الذهنية التي بدأ فيها الإنسان يعي الظواهر الطبيعية التي تدور من حوله، ولكن: ((من المؤكد أنه امتلك هذه اللحظة في مرحلة متقدمة، واكتسب بفضلها قوة هائلة تميز بها دون سائر الموجودات))⁽³⁸⁾، وأدت التطورات التي شهدتها المجتمعات القديمة في ما بعد -بخاصة على صعيد تسارع وتيرة الإنتاج وتقسيم العمل- إلى: ((تشكل فائض إنتاجي وفرّ لقسم من أفراد المجتمع الوقت والجهد، ومنحهم فرصة ممارسة التأمل الذهني والانصراف -ولو جزئياً- إلى عملية إعادة ترتيب التصورات بشأن الطبيعة ومظاهرها))⁽³⁹⁾.

يرى المؤلف أن تبلور ملامح التخصص في ميدان النشاط الإنتاجي، سواء الزراعي أم الحرفي أم الرعوي، أدى إلى: ((بروز فئات اجتماعية متميزة تمكنت من امتلاك قوة مؤثرة على الصعيدين المادي والروحي، وتوصلت إلى تكوين ما يشبه المؤسسات السياسية، الأمر الذي مهد السبيل أمام ظهور الدولة في المرحلة التالية، فتمخض عنه تحول الوعي الأسطوري الطبيعي وما اختلط به من

(37) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 92.

(38) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 91.

(39) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 93.

ممارسات سحرية وطقسية، من البنية التحتية الأساسية إلى البنية الفوقية..⁽⁴⁰⁾، وإن وضع المسألة هكذا يبين لنا: ((أن الأسطورة التي تمثل شكلاً من أشكال الوعي يظهر قبل الدين ويستمر بعده، كما يبين في المقابل أن النمط الديني من الوعي الأسطوري ما هو إلا نسق من أنساق الوعي المذكور، تبلور في مرحلة التفاوت الاجتماعي، ونجم عن تمسك الفئات المهيمنة اجتماعيًا بتصورات ما وراثية، بدأت بالطوطمية، وانتهت بفكرة الآلهة المتعددة، القابضة على زمام الأمور في الطبيعة والمجتمع))⁽⁴¹⁾، ومن ثم يبين بأن المنحى السياسي الذي اتخذته الوعي الأسطوري برز بكل وضوح مع شكل الدولة، الأداة المعبرة عن إرادة القوى المهيمنة في المجتمعات القديمة، فيقول: ((لقد اعتمدت الدول القديمة، خصوصاً بلاد ما بين النهرين ومصر، على الأسطورة وقدرتها الإقناعية الفائقة في سبيل تكريس هيمنتها وتعبئة القوى الاجتماعية في صالح خططها، وتسويق حروبها، ودعم مشاريعها التوحيدية، مستغلة في ذلك عجز الفرد في ظل تلك الظروف))⁽⁴²⁾. ويشير سيدا في هذا السياق إلى أن النمط السياسي الأسطوري يعكس واقع تحول الأسطورة إلى أيديولوجيا معبرة عن مواقف القوى المهيمنة في الدولة، لكن هذا ليس معناه أن الأسطورة لم تعد محط اهتمام الأفراد العاديين في تلك الدولة، أو أن الوعي الأسطوري في هذه المرحلة من تطوره قد قطع كل الجسور مع النمطين الطبيعي والديني، فهو يخلص إلى نتيجة هي: ((أن النمط الأيديولوجي مثل الحصيلة الأخيرة من تطور الوعي الأسطوري، والمقصود بذلك هو تأكيد استمرارية الصلات الوثيقة القائمة بين مختلف مراحل تطور الوعي الأسطوري))⁽⁴³⁾.

لقد بقي الاهتمام بالأسطورة في هذه المرحلة على أشده، وأعيد بناؤها من جديد، لكن الدولة القديمة، تمكنت من توظيف الوعي الأسطوري بمختلف أنماطه من أجل تعزيز هيمنتها وإضفاء هالة من الغموض والقداسة على تصرفاتها، ومن هنا فإننا نرى بأن: ((الوعي الأسطوري بات يتمتع بسمات عامة تميزه عن أشكال الوعي الاجتماعي الأخرى، يعاني في الوقت عينه جملة تمايزات في داخله، وجدنا أنها تقسمه إلى أنماط ثلاثة من الوعي، تشترك في طابعها الأسطوري العام))⁽⁴⁴⁾.

(40) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 93.

(41) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 94.

(42) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 94.

(43) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 95.

(44) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 95.

رابعاً: مدخل جغرافي - تاريخي

حول تسمية (بلاد ما بين النهرين)، يقول المؤلف إن مصطلح (Mesopotamia)، يعني (ما بين النهرين). وقد استخدم هذا المصطلح لوصف بلاد ما بين نهري (الدجلة والفرات) أو تحديدها. وهو يدل بصورة عامة على المنطقة المعروفة باسم العراق الحالي إضافة إلى الجزيرة السورية، لكن الوضع الجغرافي - التاريخي لم يكن هكذا في مراحل تاريخية أبعد، فبموجب الاستخدام الأوروبي الحديث لهذا المصطلح، بات يشمل إضافة إلى الجزيرة (العراقية - السورية)، القسمين الأوسط والجنوبي من العراق الحالي، ويقول المؤلف بأنه يلتزم في بحثه هذا بمصطلح بلاد ما بين النهرين: ((كونه يمكننا من دراسة مختلف تشعبات مراحل هذه المنطقة التاريخية ودقائقها، بحكوماتها وحروبها وحضاراتها، إضافة إلى أنه يري لنا معرفة مقبولة بالحدود الفعلية التي تحركت ضمنها الحضارات القديمة، التي لم تقتصر تأثيراتها على منطقة بعينها من أرض دجلة والفرات، بل امتدت لتشمل سائر أجزاء المنطقة التي تعرف الآن تاريخياً ببلاد ما بين النهرين))⁽⁴⁵⁾.

وحول أهمية موقع (بلاد ما بين النهرين)، وصلاتها الحضارية، يقول الكاتب إنها ارتبطت تاريخياً مع مصر بصلات عميقة متعددة الأشكال، إذ إنه على الرغم من خصوبة أراضي بلاد ما بين النهرين وطمع الغزاة فيها، كانت هذه البلاد تفتقر إلى عدد من العناصر الأخرى التي لا يمكن لأي حضارة أن تستغني عنها، ومن أهمها المعادن على اختلافها، والحجر بأنواعه، والخشب، ولذلك: ((كان الاندفاع نحو المناطق الأخرى، المجاورة والبعيدة، لأجل تأمين ما يلزم، سواء بالطرائق السلمية، التجارة- العلاقات الدبلوماسية، أو باعتماد الحروب وسيلة في ذلك، وقد تراوحت العلاقات مع مصر بين هذين الحدين))⁽⁴⁶⁾، ويؤكد المؤلف أن بلاد ما بين النهرين ارتبطت أيضاً مع الممالك السورية القديمة بصلات شبه دائمة ويبدو أن الدافع إلى ذلك: ((كان اقتصادياً في أساسه، إذ كانت سوريا تمتلك المواد التي تفتقر إليها بلاد ما بين النهرين كالخشب والمعادن، وقد وردت في التراث الأسطوري الرافدي تلميحات عدة تشير إلى قدم تلك العلاقات، وتبرز مدى أهميتها))⁽⁴⁷⁾، ويلخص ماهية العلاقة بين بلاد ما بين النهرين والإغريق، بقوله: ((إن الطابع السلمي الحضاري هو الذي كان يميز العلاقة المعنية، إضافة إلى الاتصال غير المباشر، والاعتماد الأساسي على الحلقات الوسيطة))⁽⁴⁸⁾، ويسترسل المؤلف في تناول أهم الإنجازات الحضارية لبلاد ما بين النهرين، كالكتابة والتقويم والجهد

(45) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 100.

(46) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 101.

(47) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 103.

(48) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 105.

التوثيقي عند السومريين، وتقدم المعارف عند البابليين... إلخ.

خامساً: مقدمات الوعي الأسطوري السومري وسماته

ينطلق المؤلف من فرضية أن السومريين انتقلوا إلى القسم الجنوبي من (بلاد ما بين النهرين)، بعد أن انحسر عنه الماء تدريجياً وباتت الظروف المناخية هناك تلائم الحياة الإنسانية، فيقول: ((يمكننا أن نتبنى فرضية مفادها أن الزراعة تميزت بمكانة خاصة لدى السومريين الأوائل، مقارنة بأوجه النشاط البشري الأخرى، ومن المعتقد بأنهم لم يجدوا في المنطقة خياراً سوى الأرض الخصبة، والماء النهري الوفير))⁽⁴⁹⁾، وهذا يعني بأن المرحلة الزمنية بين البدايات الأولى لظهور الزراعة في بلاد ما بين النهرين، واستخدام الكتابة: ((تمتد على مدى ما يزيد عن أربعة آلاف عام، كما أن الزمن الفاصل بين الاستقرار السومري الأول واستخدام السومريين أنفسهم الكتابة أول مرة يزيد عن الألف عام، وعلى مدى هذه الفترة الطويلة كان التراث الشفهي- المعتمد على ذاكرة الأجيال- هو الذي يتولى نقل الخبرة من جيل إلى آخر))⁽⁵⁰⁾.

يبين سيدا بأن الدور الرئيسي في اكتشاف الزراعة كان للمرأة، فهي التي اهتدت إلى تدجين الحبوب البرية بالزراعة، ولربما هذا الدور هو الذي يقف وراء تمسك السومريين بالنسب الأمومي، وحينذاك كانت الأرض في الدولة - المدينة ملكاً للمعبد، أما في عهد الدولة الأكديّة، فقد جرت عملية تمركز واسعة للأرض في مصلحة السلطة المركزية، وكان السومريون والأكديون يقومون بتصدير المنتوجات الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب إلى خارج بلاد ما بين النهرين، بينما كانوا يستوردون من الخارج المعادن والأحجار الكريمة والأخشاب وغيرها من المواد التي كانت تفتقر إليها بلادهم، فوجد عدد من الباحثين أن نمط الانتاج الذي ساد في الشرق آنذاك كان (النمط الآسيوي)، ولكن الكاتب يستخدم بدلاً من ذلك المصطلح المركب الآتي: ((النمط المشاعي القروي - الخراجي))⁽⁵¹⁾.

ومن هنا فإن الذهنية الأسطورية السومرية كانت تستمد كثيراً من موضوعاتها وعناصرها من الوضعية الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية القائمة في تلك المرحلة، ثم إنها كانت تعتمد الأسطورة

(49) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 123.

(50) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 126.

(51) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 148.

وسيلة يراد بها الإبقاء على الوضع القائم لصالح من يهيمن على السلطة والثروة في المجتمع، وفي هذا السياق يقول سيدا: ((كانت قصص الملاحم والنصوص الأسطورية، إضافة إلى الحكم والأقوال المأثورة، تتضافر كلها في سبيل تأكيد الأصل الإلهي للملوكية وأهمية وظيفة الملك، وضرورة الخضوع لأوامره وإطاعته في كل شيء))⁽⁵²⁾، وإلى جانب الطبقة الأرستقراطية التي ضمت الحكام وكبار الموظفين وكبار الكهنة، كانت توجد أيضاً الطبقة الكبيرة التي جمعت في إطارها عامة الناس الأحرار الذين كانوا يمارسون مختلف الأعمال، وبخاصة الأعمال الزراعية أو الرعوية أو الحرفية أو الصيد إلخ.

يتناول المؤلف موضوع السلطة في بلاد ما بين النهرين التي تحصنت تحت غطاء كثيف من الأساطير التي أسهمت في تعزيز هيبتها وإكسائها هالة من التقديس، وقد لعب الكهنة ورجال الدين دوراً رئيسياً في ترويج هذه الأساطير التي حصنت الحكام وأسست لمبدأ توريث السلطة لأبنائهم، فيقول: ((السلطة في بلاد ما بين النهرين كانت تستند في جوهرها إلى مبدأ الاختيار من قبل الآلهة، لكن الحكام تمكنوا من إيجاد مخرج لهذه المسألة، من خلال اتفاقهم مع الكهنة على أن الآلهة قد اختارت أبناءهم ليحكموا من بعدهم))⁽⁵³⁾، ويتناول أيضاً مساهمة الأسطورة في تكريس السلطة ومنع حدوث تمردات اجتماعية خطيرة ضدها أو الخروج عن طاعتها، فيقول: ((هناك العديد من الأساطير السومرية التي تشدد على وجوب إطاعة الآلهة وممثلها))⁽⁵⁴⁾، ويذكر أن المجتمع السومري اتسم بطابعه المديني الواضح، فقد كانت المدينة السومرية هي المركز الإداري والديني والاقتصادي لمجمل النشاط الذي كانت يمارس في المجتمع المعني، فيقول إن أولى المدن السومرية قد ظهرت في الفترة التاريخية الواقعة بين (4000 و3000) ق.م، وهي لذلك تعد من أقدم المدن المعروفة حتى الآن، ومن بين المدن التي اكتشفت نذكر: (سيبار، كيش، أكشاك، لاراك، نيبور، أدب، أمّا، لكاش، باد تيبيرا، أرك، لارسا وإريدو..⁽⁵⁵⁾ ومن الجدير بالذكر أن الديانة السومرية لم تتمحور حول إله واحد، إنما اعتمدت فكرة وجود عدد كبير من الآلهة، تتوزع السلطات في ما بينها، وهي تختلف من ناحية اختصاصاتها، ومزلفتها في مجلس الآلهة، وقدرتها على اتخاذ القرارات، وأن فعل الخلق، على حد قول الكاتب، كان مقتصرًا على عدد محدود من بين هذه الآلهة الكثيرة، وهم كل من إله السماء (آن)، إله الهواء (إنليل)، الإلهة الأم (ننخرساك)، وإله المياه العذبة (إنكي)، إضافة إلى الإلهة (نمو) التي كانت المحرك الأول الذي تدفقت منه الدفعة الحيوية الأولى. أما أداة الخلق الأهم في منظور العقيدة الدينية السومرية فقد كانت الكلمة الإلهية

(52) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 147.

(53) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 159.

(54) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 159.

(55) للمزيد راجع: غولايف، المدن الأولى، طارق معصراني (مترجمًا)، (دار التقدم: موسكو، 1986)، ص 65.

المقدسة، والتلفظ بالاسم، وفي هذا المجال يستخلص إلى القول: ((الخلق من العدم لم يكن أمراً مألوفاً لدى السومريين، إنما كان الفعل الإلهي المتجسد في الكلمة المقدسة ينصب على مادة أولى، فيمنحها هيئة واسماً وبالتالي وجوداً))⁽⁵⁶⁾.

لقد اتصفت العقيدة الدينية السومرية بسمات عدة، تتلخص في سمتين أساسيتين هما: التعددية (تعدد الآلهة)، والأنسنة (تميز الآلهة بصفات الإنسان)، ويقول الباحث عن ذلك: ((تنطلق العقيدة الدينية السومرية من تصور كون الآلهة يتصفون بكل مزايا الإنسان الحسية منها والنفسية، باستثناء الموت، فالآلهة السومرية كانت تتزوج، وتأكل وتشرب، وتسكن البيوت، كما أنها تغضب، وتمرض وتتعرض للعقاب))⁽⁵⁷⁾، ويقول: ((لقد تولّى المعبد مهمة الإشراف على تنظيم العقيدة الدينية، وتحديد مفاصلها الأساسية، واتخذ لذلك وظيفة صلة الوصل بين عالم الآلهة وعالم الإنسان، وقد تقاسم هذه الوظيفة لاحقاً مع القصر الذي تمكن في ما بعد - بفعل تنامي إمكانياته وتعاطم مسؤولياته الإدارية والاقتصادية - من تحجيم دور المعبد في هذا المجال واستلام زمام القيادة الدينية منه، خصوصاً بعد أن أعلن بعض الملوك عن ألوهيتهم))⁽⁵⁸⁾.

ومن هنا يتضح أن المجتمع السومري ظل منهمكاً بالمسائل العملية، ومنشغلاً بتأمين حاجته المستمرة من تأمين الأيدي العاملة والجهد البشري، الأمر الذي أدى إلى: ((عدم إفساح المجال واسعاً لممارسة التأمل الفكري، والارتقاء نحو التجريد. ولم يستثن من هذا الوضع سوى الكهنة ورجال الحكم، هؤلاء الذين وجدوا أن ترسيخ أسس نفوذهم وديمومة هيمنتهم، يقتضيان دفع الأمور في الاتجاه الذي يمنع بروز أي تمرد يستهدف التصورات الدينية الرسمية، أو الأوامر الملكية التي تعكس رغبات الآلهة))⁽⁵⁹⁾.

وفي ما يتعلق بالتأملات الفكرية السومرية، يلاحظ بأن أساطيرهم تناولت أفكاراً عدة تبحث في الكون وتنظيمه، وأصول الأشياء، وموقع الإنسان من الأحداث الكونية الكبرى، إلا أن المؤلف مع ذلك يقول: ((طريقتهم في معالجة المسائل لم ترتق إلى المستوى الذي يمكن أن نتحدث بموجبه عن فلسفة سومرية، ويبدو أن مرد ذلك عوامل عدة، تتجسد بصورة خاصة في تلك العلاقة الوثيقة بين الجهود التأملية على الصعيد الفكري، والعقيدة الدينية حتى أن تلك الجهود كانت تظهر وكأنها تجل

(56) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 197.

(57) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 199.

(58) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 200.

(59) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 200.

من تجليات هذه الأخيرة، وما أسهم في تأكيد العلاقة هذه، وبالتالي أدى إلى عرقلة عملية الانفصال بين الطرفين، يتمثل في تلك الطقوس التي كانت تسبغ على الموقف برمته هالة من القداسة، يتطلب اختراقها وتجاوزها مستوى معين من الجرأة والعمق الفكريين⁽⁶⁰⁾.

يقصد المؤلف بمصطلح (الوعي الأسطوري السومري)، تلك الذهنية التي كانت تفسر المسائل كلها على الصعيدين الفكري والروحي عمومًا في المجتمع السومري، انطلاقًا من إقرارها بفكرة وجود عالمين: الأول ماورائي فاعل، ومهيمن، يمتلك القدرة على ممارسة أفعال الخلق والتنظيم والتدمير الكونية. بينما الثاني، الإنساني، يتكئ على العالم الأول في مسعاه ويخضع لما هو مفروض عليه من قبله. كما أن موقعه من الأحداث الكونية يقتصر بصورة عامة على الانفعال والتلقي، إضافة إلى الالتزام بإرادة القوى الكونية ممثلة بالآلهة المختلفة، وتنفيذ رغباتها، وفي هذا السياق يرى المؤلف: ((أن الوعي الأسطوري السومري يلامس بكل وضوح حدود النمط الديني الذي وجدنا أنه يمثل نسقًا من أنساق الوعي الأسطوري عمومًا. إلا أن الملامسة هنا لا تعني تطابقًا، لأن الوعي الأسطوري السومري لم يكن دينيًا بحتًا، إنما تضمن عناصر من النمطين الطبيعي والسياسي، على الرغم من عدم إمكانية تجاهل هيمنة النمط الديني عليها))⁽⁶¹⁾.

سادسًا: تطور الوعي الأسطوري الرافدي خلال المرحلتين البابلية والأشورية

يتابع المؤلف في هذا الفصل تطور الوعي الأسطوري الرافدي في ظل تعاظم منزلة الدولة المركزية، وانشغالها بالفتوحات والتنظيم الإداري والمشروعات التنموية وتأكيد أهمية وحدة الكيان السياسي في إطار التعددية الإثنية والدينية، فنراه يتناول العلاقة بين السلطة والوعي الأسطوري، ويركز بدقة على سمات الدولة الجديدة المتمثلة في المركزية والنزعة العسكرية وتعاظم قوة المؤسسة السياسية تجاه المؤسسة الدينية.. إلخ، ويبحث كذلك في ملامح الوعي الديني في المرحلتين البابلية القديمة والأشورية الحديثة، فيقول: ((لقد احتلت فكرة تعددية الآلهة حيزًا مهمًا في المنظومة العقيدية للديانة البابلية، مثلها في ذلك مثل الديانة السومرية، لكنها تميزت عن هذه الأخيرة بتوجهها الواضح نحو تبني فكرة الإله الأعلى والأقوى، وإقرارها الصريح في الوقت ذاته بالسلطة الشرعية لهذا الإله على مجلس

(60) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 202.

(61) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 215.

الآلهة برمته، مقابل إبراز عجز الآلهة الأخرى مقارنة بما يمتلكه هذا الإله من قدرات خارقة⁽⁶²⁾.

يشير المؤلف إلى موضوع (تبلور مفهوم الخطيئة الأصلية)، حيث تتبنى العقيدة الدينية الرافدية عمومًا تصورًا يخص الإنسان، مضمونه أن هذا الأخير خلق لخدمة الآلهة، وأن عليه التزام واجباته تجاهها. فيقول: ((ما يميز العقيدة الدينية البابلية هو أنها أضافت إلى هذا التصور تصورًا آخر، مفاده أن الإنسان يحمل في ذاته بذور الخطيئة التي تمثل جزءًا من تكوينه الصممي، هذا التكوين الذي يدخل في تركيبه عنصران: الطين المقدس ودم الإله الخاطئ (Kingu))⁽⁶³⁾، ويتوقف المؤلف هنا عند (بدايات الفكر التأملّي في بابل)، انطلاقًا من أن التصورات الأسطورية الموروثة لم تكن تلي مجمل الاحتياجات الذهنية للتكوين الاقتصادي الاجتماعي البابلي، ولعل هذا الأمر يعدّ إحدى السمات التي تميز المرحلة البابلية عن سابقتها السومرية، ففي هذه المرحلة ((برزت مؤشرات عدة تبين عجز المفاهيم الأسطورية عن ملاحقة التطورات التي شهدتها المجتمع البابلي على مختلف الأصعدة، وشكلت من خلال تفاعلها بعضها مع بعض المقدمات الأولى لنشوء ما يمكن تسميته الفكر التأملّي، أو في أقل تقدير البواكير الأولى لهذا الفكر))⁽⁶⁴⁾، ويقصد بذلك المحاولات الذهنية الجادة التي بذلها المفكر البابلي في سبيل تعميق فهمه لما يجري من حوله، واستيعاب موقعه من كل ما يحدث على الصعيدين الكوني والاجتماعي، ولكنه يصرح بأن: ((الجهود السومري في هذا المجال لم يرتق إلى المستوى الذي يمكن أن نتحدث بموجبه عن فكر تأملّي سومري استطاع أن يخترق حواجز الوعي الأسطوري، ويبرئ السبل المؤدية إلى الفكر الفلسفي))⁽⁶⁵⁾.

لا شك في أن البنية الاجتماعية التي أسهمت في بلورة (معالم الفكر التأملّي في بابل) لم تختلف كثيرًا عن تلك التي عرفها المجتمع السومري، مع ذلك لم يشهد هذا الأخير ما شهدته المجتمع البابلي في هذا الإطار، ولعل ذلك يعود إلى أن التغيرات الاجتماعية كانت حديثة العهد في سومر، وأن العلاقات المشاعية في حينها لم تكن قد فقدت بعد حيويتها وقدرتها على الاستمرار. بينما نرى: ((أن الهيمنة شبه المطلقة للدين، والدور الشمولي الذي مارسه المعبد على مدى فترة زمنية لا يمكن تجاهلها، كانا من بين العوامل التي حالت دون ظهور فكر تأملّي واضح الملامح في المجتمع السومري، بينما أخذت الأمور منحى آخر في المجتمع البابلي، بفعل تعمق التغيرات الاجتماعية المتواصلة، وتوافر المقدمات المادية

(62) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 237.

(63) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 243.

(64) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 267.

(65) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 268.

لإمكانية الدخول في جدال أولي مع التصورات الأسطورية المتوارثة، والمتبناة رسمياً⁽⁶⁶⁾، ويلاحظ المؤلف أن البابليين توصلوا بفضل خبرتهم الحياتية الطويلة، وبفعل التحديات التي كانوا يواجهونها في تعاملاتهم مع بيئتهم القاسية إلى مستوى من التقدم المعرفي والتقني، وسبقوا بموجبه المجتمعات المعاصرة لهم كلها، ويؤكد الكاتب أن: ((المجتمع البابلي تمتع بقسط وافر من المعارف العامة في مختلف الميادين التي شكلت المقدمات الأولى الضرورية لظهور العلم النظري لاحقاً، وهذا يعني أن الوعي الأسطوري لم يعد يغطي اللوحة الذهنية بأكملها، لأن الإجابات الموضوعية التي توصل إليها البابليون حول بعض المسائل، بفضل خبرتهم ومتابعتهم، مكنتهم من الاستغناء عن بعض التصورات الأسطورية التي كانت تمنحهم سابقاً كسلاً ذهنياً⁽⁶⁷⁾)).

لقد شهدت بلاد ما بين النهرين في ظل الدولة المركزية تمازجاً حضارياً ملموساً سواء بتواصلها مع جوارها أم تعرضها للغزوات الاستيطانية المتلاحقة، فتميزت التأملات الفكرية البابلية بسمات عدة (التوجه الإنساني، التبرم المشوب بالاحتجاج المحدود، التشكيك في عدالة الآلهة)، فقد كان الإنسان بما يعنيه من مصير وهموم وتطلعات، محوراً للجهد التأملي البابلي، واتسم الفكر التأملي البابلي في جانب منه بطابعه التبرمي، وتضمن هذا الفكر أحياناً الشكوى من الظلم الاجتماعي والاحتجاج ضده، وشكلت القيم النسبية مثل التشكيك في عدالة الآلهة، وجدوى عبادتها، مدخلاً مهماً أسهم في بلورة رؤية جديدة للقيم تنطلق من نسبية هذه الأخيرة، فلكل هدف يبتغيه الإنسان جوانب إيجابية وأخرى سلبية، لذلك يصبح العمل في سبيله أو العكس سواء.

سابعاً: آفاق الوعي الأسطوري الرافدي

لقد سعى المؤلف في الفصلين السابقين إلى تقصي أهم الأوضاع التي أحاطت بالوعي الأسطوري الرافدي، وأسهمت في تحديد ملامحه العامة. وتناول في الوقت ذاته أبرز التغيرات والتحويرات التي تعرض لها هذا الوعي بفعل جهد متباين المنشأ والأهداف، وكذلك تناول أهم الموضوعات التي تمحور حولها الوعي الأسطوري الرافدي، وحاول إبراز الوظائف التي تصدى لها هذا الوعي على أكثر من صعيد، وبناء على ذلك كله يتساءل: ((هل استطاعت الذهنية الرافدية أن تتجاوز إطار الوعي الأسطوري في اتجاه ما هو أكثر تقدماً منه؟ وبصيغة أخرى: إلى أي مدى امتلك المجتمع الرافدي المقومات الضرورية لعملية الانطلاق نحو الفكر الفلسفي النظري، وممارسة الفعل الفلسفي الذي

(66) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 269.

(67) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 276.

هو جهد ذهني أكثر تطوراً - مقارنة بالوعي الأسطوري - وقدرة على تحديد المشكلات التي يعانيها المجتمع، والتعبير الدقيق عن الهواجس التي تقلق أذهان أبنائه؟⁽⁶⁸⁾.

يقول المؤلف إن الإجابة عن هذا السؤال تستلزم في ما يبدو جهداً مركباً، يتناول مسائل مركبة ثلاثاً، وهي: ((هل يمكن التحدث عن تقاطع واضح المعالم بين الوعي الأسطوري الرافدي والفعل الفلسفي النظري؟ ما هي المقومات التي استمد منها هذا الوعي نسغه الداخلي الذاتي؟ ما هو مستوى مساهمة الوعي المعني في الجهد الفلسفي اللاحق؟))⁽⁶⁹⁾.

حول المسألة الأولى (حدود التقاطع بين الوعي الأسطوري الرافدي والفعل الفلسفي النظري)، يقول سيداً: لا بد من الأخذ في الحسبان: ((حقيقة الأسبقية التاريخية - المنطقية للوعي الأسطوري عبر المراحل التي تلت ظهور الفلسفة، وهذا يعني أن عملية التفاضل بين الوعي الأسطوري والفعل الفلسفي لم تأخذ مداها القطعي إلا في مراحل لاحقة، تلت ظهور الفلسفة وتبلور معالمها الأساسية، ويمكننا هنا أن نتحدث عن وجود مرحلة انتقالية شهدت تداخل الأسطوري مع الفلسفي، وهيأت في الوقت ذاته لاستقلالية هذا الأخير))⁽⁷⁰⁾.

أما المسألة الثانية (مقدمات الوعي الأسطوري الرافدي والعوامل التي حالت دون تقدمه)، فإن أهمية التحدث عن هذه المقدمات تنبثق من واقعة كونها أدت دوراً مزدوجاً في سياق تهيئتها لهذا الوعي وتفاعل هذا الأخير معها: ((فقد ساهمت هذه المقدمات في عملية تشكل الوعي المشار إليه وتبلوره اللاحق، لكنها في المقابل، كانت القوة الكابحة التي إليها يعزى القسط الأكبر من العوامل التي حالت دون وصول المجتمع الرافدي إلى ممارسة الفعل الفلسفي النظري))⁽⁷¹⁾، وفي هذا السياق يضيف الباحث قائلاً: ((لعل أهم ما ينبغي التوقف عنده هنا، يتمثل في الوضعية الاجتماعية الرافدية المشخصة التي يعد الوعي المعني المعبر الذهني عنها، فالمجتمع الرافدي كما بدا عبر متابعتنا لأهم مفاصله من خلال ما تقدم من هذا البحث، كان عماده النشاط الزراعي، لذلك شكلت الأرض والماء ومستلزمات الري الاصطناعي، إضافة إلى العوامل المناخية، المسائل الأكثر حيوية في منظور سائر القوى الاجتماعية الفاعلة التي كان يتألف منها المجتمع))⁽⁷²⁾. ويشير إلى أن التفاعل بين الوضعية

(68) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 307.

(69) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 308.

(70) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 309.

(71) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 320.

(72) عبد الباسط سيداً، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 320.

الاجتماعية والوعي الأسطوري الرافدي الذي انبثق منها، أسهم إلى درجة كبيرة في تحديد الملامح العامة لهذا الوعي، لا بل أسهم لاحقاً في تقييده أيضاً، وحال دون أن ينطلق نحو الآفاق الطبيعية. ولكن هذا لا يعني أن العلاقة بين (الوضعية، والوعي)، هي محض علاقة ميكانيكية، لأن أي تصور من هذا القبيل يجعل الوعي الأسطوري يستسلم لفكرة كونه نسخة ثانية للوضعية الاجتماعية المعنية، ولهذا يبين الباحث: ((أن الوعي الأسطوري الرافدي لم يتمكن بصورة عامة من تجاوز حالة التلامس والتداخل بينه وبين واقعه، على الرغم من أنه استطاع في حدود نقاط معينة بلوغ مستوى التفاصيل النسبي تجاهه، لكن هذا التفاصيل لم يكن يمتلك من المقومات ما يمكننا من تأكيد بلوغه مستوى الاتجاه العام المهيمن))⁽⁷³⁾.

يرى المؤلف أن الوعي الأسطوري الرافدي قد تميز بأفائه المحدودة التي تدعو إلى التعامل مع المعطيات القائمة، وكأنها الخيارات الوحيدة التي يجب الارتكان إليها، والأخذ بها من موقع صدقيتها المطلقة غير القابلة للمناقشة، ويقول إن: ((الآلهة هي التي أرادت، وهي التي تهيمن على جميع الأحداث الكونية منها والإنسانية، ويبدو أن هذا النزوع كان ينسجم على وجه العموم مع الوضعية الاجتماعية القائمة، وتوجهات السلطة المهيمنة ببعدها الديني والسياسي. إلا أن هذا الانسجام كان يُخترق أحيانا ببعض التأملات الذهنية التي كان مردها تفاعلات الوضعية الاجتماعية نفسها، وتبلور استيعاب حقيقة التفاوت الاجتماعي والنتائج المترتبة عليه، إضافة إلى التراكم المعرفي والخبرة الحياتية لسائر القوى الاجتماعية الرافدية الفاعلة))⁽⁷⁴⁾. وهناك عوامل حدّت من آفاق عملية الاختراق تلك، وأدت من ثم إلى حصرها ضمن نطاق إرهابات فكرية فلسفية مشوبة بتصورات ذهنية عقيدية متكلسة، على الأغلب، فهي ذاتها العوامل التي ساهمت في تعيين الملامح العامة للوعي الأسطوري الرافدي (خصوصية البنية الاجتماعية، هيمنة العقيدة الدينية في صيغتها الطقسية التقييدية، طبيعة البلاد وخطر الغزو الخارجي المستمر).

لقد أسهب المؤلف في تناول قنوات الاتصال المباشر وغير المباشر بين بلاد ما بين النهرين واليونان، وألقى كثيراً من الأضواء على مدى إسهام الوعي الأسطوري الرافدي في الجهد الفلسفي اليوناني اللاحق، وفي هذا السياق يستشهد بما قاله (جورج سارتون)، حول هذا الموضوع: ((ورث اليونانيون نظام التقسيم الستيني عن السومريين لكنهم مزجوه بنظام التقسيم العشري واستعملوا النظام الستيني في بيان الأجزاء المتساوية التي تنقسم إليها الوحدة والنظام العشري في بيان المضاعفات، وبذلك أفسدوا النظامين معاً وأحدثوا خلطاً شائئاً ما نزال نحن ضحيته إلى اليوم، ثم أنهم تركوا مبدأ

(73) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 328.

(74) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 330.

تعيين قيمة العدد بحسب موضعه في خانة الآحاد والعشرات... إلخ، فكان لا بد من أخذه من جديد عن الهنود، وذلك بعد مضي ألف عام..⁽⁷⁵⁾، ويلخص (جورج سارتون) وجهة نظره حول تأثر اليونان بحضارات الشرق الأدنى القديم عمومًا، بقوله: ((فالذين ينكرون إمكان تأثر اليونانيين بحضارات الشرق يعوزهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة وتعوزهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلا وجهي هذا القصور كان يمكن تجاهله منذ قرون مضت، أما اليوم فلا عذر لأصحابه..))⁽⁷⁶⁾.

كما تناول (برتراند راسل)، هو الآخر الموضوع نفسه، موضوع علاقة اليونان مع بلاد ما بين النهرين في إطار الشرق الأدنى القديم، الذي قدم في هذا المجال آراء عدة، كانت خلاصتها: ((إن مصر وبابل توصلتا إلى بعض المعارف التي اقتبسها الإغريق في ما بعد، لكن لم تتمكن أي منهما من الوصول إلى علم وفلسفة على أنه لا جدوى من التساؤل في هذا السياق عما إذا كان ذلك راجعا إلى افتقاد العبقرية لدى شعوب هذه المنطقة أم إلى أوضاع اجتماعية، لأن العاملين معًا كان لهما دورهما بلا شك إنما الذي يهمننا هو أن وظيفة الدين لم تكن تساعد على ممارسة المغامرة العقلية..))⁽⁷⁷⁾.

وفي هذا المجال يقول المؤلف إن: ((الانطلاق من الشروط الاقتصادية، والسياسية، والروحية عمومًا، ومن مدى إسهامها في خلق العراقيل أو تذليلها أمام مسيرة التقدم الفكري، يبقى أفضل من التقويمات الذاتية التي لم تعد قادرة على إقناع أحد، ونود في هذا السياق الإشارة إلى ما تم الكشف عنه في تل حرمل في عام 1949، لأنه أثبت أن ما كان ينسب سابقًا إلى العبقورية اليونانية إنما هو من بين النتائج التي توصل إليها المفكرون في بلاد ما بين النهرين، ومن الملاحظ أن مثل هذه الاكتشافات دفعت بالعديد من الباحثين الأوروبيين وغيرهم إلى الإقرار بأهمية الصلات الحضارية بين بلاد ما بين النهرين واليونان..))⁽⁷⁸⁾.

(75) جورج سارتون، تاريخ العلم، لفيف من العلماء (مترجمين)، إبراهيم بيومي مذكور (مترجمًا)، ج 1، (القاهرة: دار المعارف، 1957)، ص 256.

(76) جورج سارتون، تاريخ العلم، ص 274.

(77) برتراند راسل، حكمة الغرب، فؤاد زكريا (مترجمًا)، ج 1، سلسلة عالم المعرفة 62، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983)، ص 22-23.

(78) عبد الباسط سيديا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 340.

ثامناً: الخاتمة

لقد تناول البحث ما قدمته بلاد ما بين النهرين إلى الحضارة الإنسانية من تراث ضخم من الحكم والأقوال المأثورة والحكايات الشعبية والنصوص الأدبية، والأساطير التي ما زالت تحرك المشاعر والأخيلة، فضلاً عن الإنجازات الكبرى في مختلف الميادين المعرفية، خصوصاً في ميادين الهندسة والحساب والفلك والطب والزراعة، الأمر الذي دفع بالباحثين المختصين إلى الإقرار بالأهمية الكبيرة لهذه المنطقة، والاعتراف بدورها الحضاري الذي أدته على مختلف الصعد. واختار المؤلف جملة من النصوص الأسطورية والملاحم الرافدية، إلى جانب عدد من المناظرات والحكم والأقوال المأثورة، واستند إليها خلال بحثه من أجل تقصي ملامح الإسهامات الرافدية في الفكر الفلسفي النظري اليوناني، وميز بين الأسطورة والأنساق المعرفية والروحية الأخرى المتداخلة معها، مثل التاريخ والدين واللغة والسحر والخرافة والحكاية الشعبي والملمحة، متناولاً بعمق بنية الأسطورة ووظيفتها وأنواعها، وكذلك الوعي الأسطوري بصورة عامة، والوعي الأسطوري الرافدي وأنماطه المختلفة على وجه التخصيص.

اعتمد الباحث عبد الباسط سيدا في بحثه (الوعي الأسطوري الرافدي - تجلياته الفلسفية)، جملة من النصوص الرافدية التي توصل اليها الباحثون إلى اكتشافها وقراءتها، والتزم بالمعطيات التاريخية التي اتفقت عليها آراء الباحثين على صعيد تاريخ بلاد ما بين النهرين، وصلاتها الحضارية مع المناطق المجاورة لها أو البعيدة عنها، وهو لا يزعم في هذا الميدان بأنه اطلع على كل ما يتصل بتاريخ بلاد ما بين النهرين وبتراثها الأسطوري، ويقول في هذا السياق: ((نستطيع القول إن ما اطلعنا عليه في هذا المجال ليس بالنذر اليسير، وأن المادة البحثية التي انطلقنا منها هيأت لنا أرضية مقبولة، تمكنا بفضلها من التقاط أهم المفاصل التي لم يكن لهذا البحث أن يكون دونها))⁽⁷⁹⁾، والمؤلف لا يستبعد إمكانية إعادة النظر في كثير من الآراء والطروحات التي طرحها الآن كحقائق، وذلك مع توفر مزيد من المعلومات والوثائق والآثار التي تُكتشف يوماً بعد يوم، ويرى بأنه ليس من المستبعد أن يعاد النظر في كثير مما ذهب إليه، أو ما ذهب إليه غيره، وذلك بفعل ما قد يستجد على صعيد إعادة النظر في قراءة المادة البحثية المتوفرة حالياً، أو على صعيد اكتشاف أدلة أخرى ونصوص جديدة، تلقي مزيداً من الضوء على المسائل الإشكالية التي تكون عادة مثار آراء خلافية، يدور حولها الجدل، ويختتم المؤلف بحثه بقوله: ((لقد تمثلت الأطروحة الأساسية التي تمحور حولها هذا البحث، في تقديم وجهة نظر مفادها أن الفكر الفلسفي النظري لم يبدأ من العدم عند اليونان، إنما له جذوره الممتدة إلى مختلف الحضارات التي سبقت زمنياً حضارة اليونان، لا سيما الحضارات الشرقية التي جاورتها، وتواصلت

(79) عبد الباسط سيدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 347.

معها وتفاعلت معها بالطرائق المختلفة⁽⁸⁰⁾.

وأخيراً وليس آخراً، سوف لن يخلو هذا البحث من جوانب الخلل والقصور، وبخاصة في ما يتعلق بشح الوثائق والأدلة والمواد البحثية التي يُكتشف مزيد منها يوماً بعد يوم، وتتسبب في تغيير الحقائق باستمرار، وتجعل نتائج البحث في تبدل دائم، ولكن على الرغم من ذلك، فإن هذا البحث يظل مصدراً مهماً من المصادر الغنية بالمعلومات العلمية الدقيقة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وبخاصة بالنسبة إلى الباحثين الشباب الذين يمكن أن يأخذوه مرجعاً موثقاً في استكمال دراساتهم العلمية وأبحاثهم الميثولوجية.

(80) عبد الباسط سيّدا، الوعي الأسطوري الرافدي، ص 343.

المصادر والمراجع

بالعربية

1. ابن موسى الحسيني الكفوي. أبو البقاء، معجم الكليات، عدنان درويش ومحمد المصري (محققين)، (دمشق: وزارة الثقافة، 1981).
2. راسل. برتراند، حكمة الغرب، فؤاد زكريا (مترجمًا)، سلسلة عالم المعرفة 62، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983).
3. سارتون. جورج، تاريخ العلم، لفيف من العلماء (مترجمين)، إبراهيم بيومي (مُشرَّفًا)، (القاهرة: دار المعارف، 1957).
4. سيدا. عبد الباسط، من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري، ط1، (دمشق: دار الحصاد، 1995)، (343ص).
5. سيدا. عبد الباسط، الوعي الأسطوري الرافدي: تجلياته الفلسفية، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)، (412ص).
6. غولايف، المدن الأولى، طارق معصراني (مترجمًا)، (موسكو: دار التقدم، 1986).
7. راثفين. ك. ك.، الأسطورة، جعفر صادق الخليلي (مترجمًا)، سلسلة زدني علمًا، (باريس: منشورات عويدات، 1981).

بلغة أجنبية

1. Jung .G. C., The Archetypes and the Collective Unconscious R. F. C Hull (trans) 2nd ed., (w.p: w.p, w.d).



خامساً: الأكاديميون السوريون في جامعات العالم



دور المنظمات الإنسانية في إغاثة اللاجئين من الدولة العثمانية

(1919 - 1923)

منظمة إغاثة الشرق الأدنى⁽¹⁾

إياد حميد⁽²⁾

شهد انهيار الدولة العثمانية نهاية عهد السلالات الإمبراطورية وظهور الدول القومية من تحت أنقاضها. أدى سعي الدولة القومية الحديثة لخلق هوية متجانسة لمواطنيها إلى طرد وتشريد مجتمعات أصبحت تعرف لاحقاً بـ (الأقليات)، كما كان حال الإمبراطوريات الأخرى المهزومة في الحرب العالمية الأولى من مثل روسيا والنمسا والمجر. كان حجم الكارثة المتزامن مهولاً وغير مسبوق في العصر الحديث، وخاصة مع تطور أساليب الحرب وشدة الدمار الذي جلبته الأسلحة الحديثة. وهو ما دفع المنظمات الإنسانية إلى المسارعة في توفير العون للاجئين. بدأ جهد الإغاثة في الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، ولكنه تعزز في السنوات اللاحقات بانتظار مفرزات مؤتمر السلم في فرساي (1919) ومعاهدة سيفر (1920) والتوقيع على معاهدة لوزان (1923) التي جلبت نهاية فعلية للأعمال العدائية في المنطقة. سمحت الأوضاع السائدة حينئذ للمنظمات الإنسانية بالإسهام في صياغة سياق من الممارسات والمفاهيم التي أفرزت النظام الدولي للاجئين في إطار عصبة الأمم. تقوم هذه الدراسة لاجئة إلى مثال منظمة إغاثة الشرق الأدنى على تحليل ممارسات المنظمات الإنسانية العاملة في الدولة العثمانية في المدة المذكورة. إن دراسة نشاط هذه المنظمة الإغاثية التي كانت كبرى المنظمات الإنسانية العاملة في الدولة العثمانية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، سيسهم في فهم كيفية

(1) هذا البحث معد في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية School of Oriental and African Studies – SOAS، قسم التاريخ De-partment of History، المشرفة نليدا فوكارو Nelida Fuccaro، عنوان الرسالة: دور المنظمات الإنسانية في إغاثة اللاجئين من الدولة العثمانية 1919 - 1923: منظمة إغاثة الشرق الأدنى.

The Role of Humanitarian Organisations in the Relief of Refugees from the Ottoman Empire (1919-1923): The Near East Relief

(2) باحث سوري.

تأثير مثل هذه المنظمات في المفاهيم الدولية للنظام الدولي للاجئين.

أولاً: خلفية البحث

يعتمد هذا البحث على وثائق من الأرشيف الوطني البريطاني في لندن. ويدرس نشاط منظمة إغاثة الشرق الأدنى الذي كان في أغلبه متركزاً على المجتمعات المسيحية، بصورة رئيسة الأرمن واليونان والأشوريين. تطورت المنظمة من رحم البعثات التبشيرية التي كانت منتشرة في الدولة العثمانية منذ بداية القرن التاسع عشر. وبينما كانت الدولة العثمانية قد منعت العمل التبشيري بين المسلمين من رعاياها، إلا أنها سمحت للمنظمات التبشيرية بالعمل بين المسيحيين الشرقيين. وتجدر الإشارة أيضاً أن طبيعة تطور العمل التبشيري، وخاصة البعثات الأنغليكانيّة البروتستانتية القادمة من الولايات المتحدة وبريطانيا، أدى الى تنوع نشاطها الذي لم يقتصر على الدعوة التبشيرية المباشرة، وإنما كان يرى في التقدم الحضاري على النموذج الغربي بداية التوجه نحو اعتناق المسيحية، كون المسيحية في المنظور التبشيري مساوية للحضارة. وتجب الإشارة أيضاً إلى أن العمل الإغاثي لم يكن دينياً، بل إن مأساة الحرب العالمية الأولى جعلت من مساواة المسيحية بالحضارة أمراً صعب التصديق، وهو ما توازى أيضاً مع الدفع باتجاه علمنة العمل الإغاثي لهذه المنظمات.

يتطرق البحث إلى مرحلة مغفلة من تاريخ المنطقة. فالتركيز على الرواية القومية في البحث التاريخي أهمل مرحلة الحرب العالمية الأولى. فهو عادة ما ينتقل مباشرة من انهيار الدولة العثمانية إلى مرحلة الانتداب. كما أن الدراسات التاريخية القومية مركزها أيضاً المواطن، وعادة ما تهمل اللاجئ الذي يقع على محيط هذه الرواية أو أطرافها. يضاف إلى ذلك أيضاً أن دراسة تاريخ العمل الإغاثي الإنساني في المنطقة تعززت في العقد الأخير، وأكدت دورها في تطور المنظومة الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الأولى في إطار عصبة الأمم التي كانت أساس ما تلا في النظام الدولي الحالي.

ثانياً: العلاقة بين السلطات البريطانية ومنظمة إغاثة الشرق الأدنى

تطور مفهوم العمل الإنساني في نهاية القرن الثامن عشر كنتيجة ثانوية لأفكار عصر النهضة الأوروبي، وبصورة رئيسة من خلال الفكر الليبرالي والحماس التبشيري.⁽³⁾ ومع نهاية القرن التاسع

(3) Craig Calhoun, "The Imperative to Reduce Suffering: Charity, Progress and Emergencies in the Field of Humanitarian Action", in Humanitarianism in Question: Politics, Power, Ethics. ed. Barnett, M. & T. Weiss. (Ithaca, 2008), 77-708.

عشر، كانت بريطانيا قد تبنت التدخل العسكري الإنساني بوصفه أحد أعمدة سياساتها الخارجية. إلا أن التدخلات الإنسانية البريطانية والأوروبية كانت مبنية على افتراضات تشترك عملياً مع المنطق الإمبريالي.⁽⁴⁾ فقد بررت الدولة الاستعمارية، مستندة أيضاً إلى النظريات العنصرية السائدة في تلك المدة، توسعها وتدخلاتها الخارجية على أسس مهمة التمدين (civilising mission) أو عبء الرجل الأبيض (White man burden).⁽⁵⁾

وجدت هذه (القوى العظمى) موطئ قدم لتدخلها الإنساني في الدولة العثمانية من منطلق حماية الأقليات المسيحية.⁽⁶⁾ كانت هذه الدول على قناعة بأن الفظائع المرتكبة بحق رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين إنما هي دليل على طبيعتها (البربرية).⁽⁷⁾ وفرت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى (1914-1918) لمؤيدي التدخل الإنساني الفرصة (لإنقاذ) العثمانيين المسيحيين، وإيجاد حل نهائي (للمسألة الشرقية). وبينما كانت بريطانيا مسلحة بهذه العقلية عند استسلام إسطنبول نهاية الحرب، إلا أنها وجدت حقيقة مختلفة على أرض الواقع. وكان قرار سلطات الاحتلال البريطاني بتخفيض أعمالها الإغاثية في الأناضول الفرصة التي سمحت للمنظمات الإغاثية الخاصة، مثل منظمة إغاثة الشرق الأدنى، بتوسيع عملياتها، وسد الفجوة.

ومن جهة أخرى، أدت حالة عدم اليقين التي تلت الحرب العالمية الأولى إلى تصاعد موجات العنف بين القوميين الأتراك والأرمن في شرق الأناضول، وبين القوميين الأتراك واليونان في غربي الأناضول. تغذت نار الاضطرابات على التكهّنات القادمة من مؤتمر الصلح (1919) في فرساي الفرنسية وشكل التسوية التي سترسم الحدود السياسية. وكان القوميون الأرمن يطالبون (بالولايات الست) في شرق الأناضول كجزء من دولة أرمنية، وذلك على الرغم من أنهم لم يكونوا أغلبية السكان في أي من هذه الولايات. إلا أن الحكومة البريطانية كانت قد أعلنت تحرير أرمنيا بعد هزيمة الدولة العثمانية هدفاً من أهدافها خلال الحرب.⁽⁸⁾ أدى تصاعد العنف في الداخل الأناضولي وتشكيل حكومة بريطانية جديدة بعد انتخابات عام 1918 إلى تقليص بريطانيا نشاطها الإنساني في المناطق التي تحتلها. بحلول الربع الأخير من عام 1919، كان الاحتلال البريطاني يقلص (نفقات الإغاثة وإعادة المهجرين)،

(4) Davide Rodogno, *Against Massacre: Humanitarian Interventions in the Ottoman Empire, 1815–1914*. (Oxford, 2011), 12.

(5) Michael Barnett, *Empire of Humanity: A History of Humanitarianism*. (Ithaca, 2011), 62-63.

(6) Ibid. 32.

(7) Ibid. 12.

(8) Akaby Nassibian, *Britain and the Armenian Question 1915-1923*. (London, 1984), 141.

ويسحب مسؤولي الإغاثة على الرغم من الحاجة إليهم في القسم الأرمني اليوناني من المفوضية السامية البريطانية في إسطنبول.⁽⁹⁾ لم تكن بريطانيا الجهة الوحيدة التي تقدم الدعم للاجئين في هذه المنطقة، بل نشطت منظمات محلية وأجنبية عدة خلال الحرب، وكثفت هذه المنظمات من نشاطها بعيد نهايتها.

ترجع المنظمات الإنسانية الخاصة في جذورها إلى الأصل الفكري ذاته وراء التدخل العسكري الإنساني الذي تصدرته الحكومات الغربية. إلا أن خصوصيتها تأتي من كونها منظمات خاصة وغير حكومية. وبينما كان نشاطها الإنساني بالتأكيد مدفوعاً بالتعاطف مع اللاجئين، إلا أن التطبيق الفعلي لهذه المشاعر النظرية لم يكن شاملاً للاجئين جميعهم ممن عانوا تبعات الحرب. وعلى الرغم من أن النشاط الإنساني كان نوعاً من أنواع التعاطف، إلا أنه ظل ردّاً عاطفياً وعقلانياً لا يتجاوز مجرد الرغبة في مساعدة الآخرين ممن ينتمون إلى الدائرة ذاتها التي يُعرّف عامل الإغاثة الإنساني نفسه عبرها. وكان ذلك مبنياً على أسس من السردية المكتوبة والمصورة والهوية التي كانت تتخللها أيضاً عناصر من التكافل الديني أو الاجتماعي أو الطبقي.⁽¹⁰⁾ إلا أن ممارسة العمل الإغاثي على الأرض أدت إلى توسعة دائرة التعريف الخاصة لتشمل الآخر.⁽¹¹⁾ ووفقاً لذلك، برزت الهيئة الأميركية لإغاثة الأرمن والسوريين (American Committee for Armenian and Syrian Relief (ACASR) في عام 1915 من رحم الهيئة الأميركية لمفوضي البعثات التبشيرية (American Board of Commissioners for Foreign Missions' (ABC FM)، ولتعيد تسمية نفسها في عام 1919 باسم منظمة إغاثة الشرق الأدنى (Near East Relief (NER).⁽¹²⁾ توسع نشاط المنظمة جداً من خلال الدعم الحكومي الأميركي، ولكن أيضاً من خلال التبرعات السخية من الجمهور الأميركي.⁽¹³⁾ وعلى الرغم من تطور نشاط المنظمة، واتساع رقعتها والمستفيدين منه، ظل نشاطها مركزاً بصورة رئيسة على الأرمن العثمانيين وغيرهم من المجتمعات المسيحية.⁽¹⁴⁾

(9) FO 371/4188/161555. 15 Dec. 1919.

(10) Suzanne Moranian, "The Armenian Genocide and American Missionary Relief Efforts", in *America And The Armenian Genocide of 1915*. Ed. Winter, Jay. (Cambridge, 2003), 194.

(11) Thomas Laqueur, "Mourning, Pity, and the Work of Narrative in the Making of 'Humanity'", in *Humanitarianism and Suffering: The Mobilization of Empathy*. Ed. Wilson, R. & R. Brown. (Cambridge, 2009), 38.

(12) Moranian, op.cit. 194.

(13) Ibid. 194.

(14) Keith Watenpaugh, *Bread From Stones: The Middle East and the Making of Modern Humanitarianism*. (Oakland, 2015), 42.

كانت سلطات الاحتلال البريطاني على دراية بنشاط المنظمات الإنسانية العاملة في المناطق الخاضعة لها. وإضافة إلى منظمة إغاثة الشرق الأدنى، كانت هناك منظمات مثل صندوق اللورد عمدة لندن للإغاثة Lord Mayor's Relief Fund إضافة إلى منظمات أخرى مبنية على الكنائس المجتمعية مثل بطيركية الأرمن و بطيركية اليونان.⁽¹⁵⁾ سعت السلطات البريطانية أيضاً إلى جمع المعلومات عن المنظمة الأميركية ونشاطها. فقد وجدت بريطانيا الإفادة في هذه المنظمة، واعتمدت على تقارير عمال إغاثة عن الأوضاع على الأرض، وخاصة أن المنظمة اعتمدت بدورها على شبكة البعثات التبشيرية الأميركية التي نشطت في الدولة العثمانية لبعود.⁽¹⁶⁾ إلا أن الجذور التبشيرية لهذه المنظمة الإغاثية كانت أيضاً دافع قلق للسلطات البريطانية. فسلطات الاحتلال البريطاني كانت قلقة من أن يدفع الحماس التبشيري لعمال الإغاثة الأميركيين، وخاصة في ظل الدعوة إلى الانتداب الأمريكي على أرمينيا، إلى تطبيق معايير تمييزية ضد المسلمين، وهو ما كان سيناقض سياسة الحكومة البريطانية.⁽¹⁷⁾

وبالفعل كانت العلاقة اعتمادية متبادلة بين السلطات البريطانية والمنظمة الأميركية. فبينما اعتمد البريطانيون على شبكة المنظمة الإغاثية، ارتكزت المنظمة بدورها على حماية الجيش البريطانية ودعاه للوصول إلى أبعد المناطق النائية في الأناضول. وكانت المنظمة قد طلبت حماية قوات الحلفاء مع بداية عام 1919، ومرافقة بعثات المنظمة الأميركية بضابط أو اثنين ((مخولين بطلب المساعدة من السلطات التركية المحلية)).⁽¹⁸⁾ ودفعت حاجة المنظمة إلى الدعم البريطاني إلى الاحتجاج على القرار البريطاني بالانسحاب من القوقاز عام 1919. وطلبت المنظمة من الحكومة الأميركية التوسط لدى حليفها البريطانية وإعادة النظر في قرارها.⁽¹⁹⁾ ومع ذلك فإن قرار بريطانيا تقليص حجم عملياتها في شرق الأناضول فسخ المجال أمام منظمة إغاثة الشرق الأدنى لتملأ الفراغ. ولكن التنسيق بين الطرفين استمر حيث استضاف القسم الأرمني اليوناني من المفوضية السامية البريطانية في إسطنبول اجتماعات منتظمة مع ممثلي المنظمة إضافة إلى ممثلين عن البطيركيتين الأرمنية واليونانية لتنسيق جهد الإغاثة.⁽²⁰⁾

(15) FO 608/111/14104. 1 Jul. 1919.

(16) Selim Deringil. The Well-protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876-1909. (London, 1998), 114.

(17) FO 608/80/15419. 16 Jul. 1919.

(18) FO 371/4208/17692. 1 Feb. 1919.

(19) FO 371/3659/119101. 21 Aug. 1919.

(20) FO 608/111/16632. 29 Jul. 1919.

تعزز موقف المنظمة الإغاثية أيضًا بالتزامن مع ازدياد النفوذ الأميركي في المفاوضات التي شهدها مؤتمر السلم في فرساي، وخاصة لصالح القضية الأرمنية. تمتعت أرمينيا بدعم قوي من القيادة السياسية الأميركية وإدارة الرئيس وودرو ويلسون⁽²¹⁾، إلا أن نزعة الكونغرس الأميركي الانعزالية ومحدودية الوجود الأميركي في مرحلة ما بعد الحرب في المنطقة أسهما في تحجيم دور واشنطن⁽²²⁾. تكشف برقية تلغرام المبعوث الأميركي في إسطنبول، لويس هيك، عن حثه الحكومة الأميركية على ((مد يد العون لهذا الشعب الذي يعاني)). وطالب بوضع الاعتبارات السياسية جانبًا في مواجهة هذه الكارثة العالمية. ((يتطلع هؤلاء إلى أميركا. على حكومتنا واجب أخلاقي بالرد))⁽²³⁾. تمتعت المنظمة الإغاثية بإيجابيات هذا الدعم السياسي من خلال تبني الكونغرس الأميركي نشاط المنظمة عام 1919⁽²⁴⁾. وبحلول عام 1922، وإخلاء ازمير قبيل استيلاء قوات القوميين الأتراك عليها من يد الجيش اليوناني، كان حجم عمليات منظمة إغاثة الشرق الأدنى قد نما جدًا حيث أسهمت في عمليات إغاثة اللاجئين، وأرسلت كميات كبيرة من المواد اللازمة إضافة إلى الطواقم الإغاثية المطلوبة في إزمير وغيرها، لتقوم بذلك بدور عصبة الأمم والصليب الأحمر الدولي⁽²⁵⁾.

ثالثًا: نشاط منظمة إغاثة الشرق الأدنى

تطورت النزعة نحو العمل الإنساني في رد فعل على ألم الضعيف ومعاناته، وتأثرت بالتطورات التي شهدتها العلوم في القرن التاسع عشر، وخاصة في ما يتعلق بالأفكار التقدمية ونظرية التطور⁽²⁶⁾. فقد جادل ليستر فرانك وارد، وهو أحد متصديري الفكر الإنساني وعلم الاجتماع في الولايات المتحدة، ضد مساواة التقدم البشري بفكرة بقاء الأقوى بل جادل بضرورة حماية الضعيف دليلًا على تفوق التطور المبني على العقل والثقافة⁽²⁷⁾. ودعا وارد مثل كثير من معاصريه إلى فعل إنساني (أفضل) من

(21) Lloyd Ambrosius, "Wilsonian Diplomacy and Armenia: The Limits of Power and Ideology", in *America And The Armenian Genocide of 1915*. Ed. Winter, J., (Cambridge, 2003), P.114.

(22) Ibid. 114.

(23) FO 608/79/10128. 15 May. 1919.

(24) FO 608/79/18107. 20 Aug. 1919.

(25) FO 371/7888/9307. 15 Sept. 1922.

(26) Barnett. Op.cit. 80.

(27) Ibid. 80.

مجرد العمل الإغاثي. فتجنب الخطر المباشر، وتفادي القوى المدمرة لا يعنيان بالضرورة أن الناجين غير معرضين للخطر بعد زوال الأزمة المباشرة. فالعمل الإنساني سعى أيضًا إلى التخلص من الظروف البنيوية التي تضع الأفراد والمجتمعات في خطر.⁽²⁸⁾ وهكذا عملت المنظمات الإنسانية على تطوير خطط تشمل التنمية وإعادة الإعمار بهدف إيجاد حلول بعيدة الأمد. هذه الحلول لم تكن معزولة عن موجة التفكير التقدمي في بداية القرن العشرين. أفكار مثل المثالية الويلسونية، والقومية الليبرالية، والتدخل الإنساني أثرت بالفعل في هذه الخطط.⁽²⁹⁾ فالأفكار الحديثة في التعامل مع الأيتام، ومناهج التعليم الدراسية، والتقدم في الصحة العامة عززت الإيمان بقدرة هذه المبادئ على إيجاد حلول للمشكلات المجتمعية.⁽³⁰⁾

استمرت أحوال الحرب في الدولة العثمانية بعد انتهائها، ولم تتوقف أبدًا الحاجة إلى إنقاذ اللاجئين. تكشف التقارير السنوية لمنظمة إغاثة الشرق الأدنى لعامي 1921 و1923 عن صورة شاملة لبنية المنظمة، وتمويلها، وعملها. تلخص هذه التقارير العمل الإغاثي الطارئ في ثلاثة جوانب: توفير الغذاء والملجأ والعناية الطبية. يضع تقرير المنظمة لعام 1921 مقدار المصروف الكلي على الإغاثة العامة والفردية حوالى 9.5 مليون دولار.⁽³¹⁾ بينما بلغت مصاريف الإغاثة لعام 1923 كما ذكرها التقرير السنوي لتلك السنة 8.5 مليون دولار.⁽³²⁾ ويعادل الدولار الأميركي عام 1919 ما يزيد عن 16 دولارًا عام 2022.⁽³³⁾

وعلى الرغم من أن المشتريات أغلبها أتت من الأسواق المحلية، إلا أن تأثير الحرب على الاقتصاد المحلي دفع بالمنظمة إلى استيراد المواد الغذائية. يذكر تقرير عام 1921 أن المنظمة استوردت من الولايات المتحدة موادًا مثل القمح والرز والحليب والسكر والبقوليات. وكان الطحين أكبر المواد المستوردة بنحو 4,584 طن وبتكلفة 343,852 دولار أمريكي.⁽³⁴⁾ ويذكر التقرير أن بقدرة العمل الإغاثي للمنظمة على إنقاذ اللاجئين من الموت جوعًا. فتقرير عام 1921 يقول ((على الأقل مليون

(28) Ibid. 3.

(29) Watenpugh. Op.cit. 94.

(30) Ibid. 94.

(31) FO 371/7878/5503. 16 May. 1922. P.16.

(32) FO 286/910/5187. 6 Jun. 1924. P.6.

(33) Ian Webster, Value of 1919 dollars today | Inflation Calculator." Official Inflation Data, Alioth Finance, 12 Jan. 2022, <https://www.officialdata.org/us/inflation/1919>

(34) FO 371/7878/5503. P.22.

شخص، أغلبهم من الأرمن والأعراق التابعة المنفية الأخرى، يعيشون في الشرق الأدنى اليوم، والذين كان لهم أن يموتوا من دون المساعدة الإغاثية الأميركية.⁽³⁵⁾ ويشير التقرير أيضًا إلى أن أرمينيا الخاضعة للسيطرة الروسية كانت المستفيد الأكبر من عمليات الإغاثة، حيث كان الجوع يحصد أرواح 150 إلى 200 شخص من اللاجئين يوميًا في مدن مثل ألكساندروبول (غيومري).⁽³⁶⁾

وعلى الرغم من أن تقارير المنظمة تشير إلى منح الأولوية لمساعدة اللاجئين من الأطفال، إلا أنها تؤكد ضرورة توفير الإغاثة للبالغين. فقد نظمت منظمة إغاثة الشرق الأدنى عددًا من مخيمات اللاجئين في أراضي الدولة العثمانية، ومنها مخيم مخصص للأطفال والنساء في إسطنبول، وآخر مخصص للاجئين اليونانيين في رودوستو (تيكيرداغ). اقتصرَت المساعدات الغذائية في مخيمات اللاجئين على رغيف خبز في اليوم. وكان وجود ذكر بالغ وقادر ينزع عن عائلته أهلية الحصول على المساعدة.⁽³⁷⁾ دفع تبدل الوقائع على الأرض عام 1923 نتيجة لانسحاب الحلفاء من الأناضول إلى وضع نحو 200 ألف لاجئ كانوا في رعاية منظمة إغاثة الشرق الأدنى في مأزق. فقد غصت مدن مثل إسطنبول ومرسين وبيروت بآلاف اللاجئين من الأرمن واليونان وغيرهم، ممن لم يستطيعوا العودة إلى قراهم التي أصبحت تحت سيطرة القوميين الأتراك، ((فقد أصبحوا في الحقيقة رجالًا ونساء وأطفال من دون وطن)) كما وصفهم التقرير لعام 1923.⁽³⁸⁾

وفي جزء من عمليات الإغاثة الطارئة التي قدمتها منظمة إغاثة الشرق الأدنى أيضًا كان أن أسست عددًا من المراكز والعيادات الطبية، وبلغت 38 مستشفى و59 عيادة عام 1921،⁽³⁹⁾ بينما أصبح عددها عام 1923 من المستشفيات 33 ومن العيادات 61 عيادة طبية.⁽⁴⁰⁾ فقد فاقت أوضاع الحرب وعدم الاستقرار السياسي الذي تلاها أعداد الوفيات بالأمراض المعدية التي يمكن تجنبها. فأسهم الأطباء المتطوعون مع المنظمة في معالجة هذه الأمراض، بل قاموا أيضًا بجهد يذكر في العمل الطبي الوقائي. يذكر تقرير المنظمة لعام 1921 أن نقص التغذية كان أحد أخطر الحالات الصحية الموجودة، إلا أنه يشدد أيضًا على الحاجة الماسة إلى الأدوية المضادة للملاريا والحصبة وغيرها من

(35) Ibid. 5.

(36) Ibid. 6.

(37) FO 286/910/5187. P.9.

(38) Ibid. 9.

(39) FO 371/7878/5503. P.6.

(40) FO 286/910/5187. P.14.

الأدوية الأساسية.⁽⁴¹⁾ ولم يقتصر جهد الأطباء على ذلك، بل امتد أيضًا إلى تدريب كوادر محلية بهدف سد العوز الكبير في الجهد الطبي.

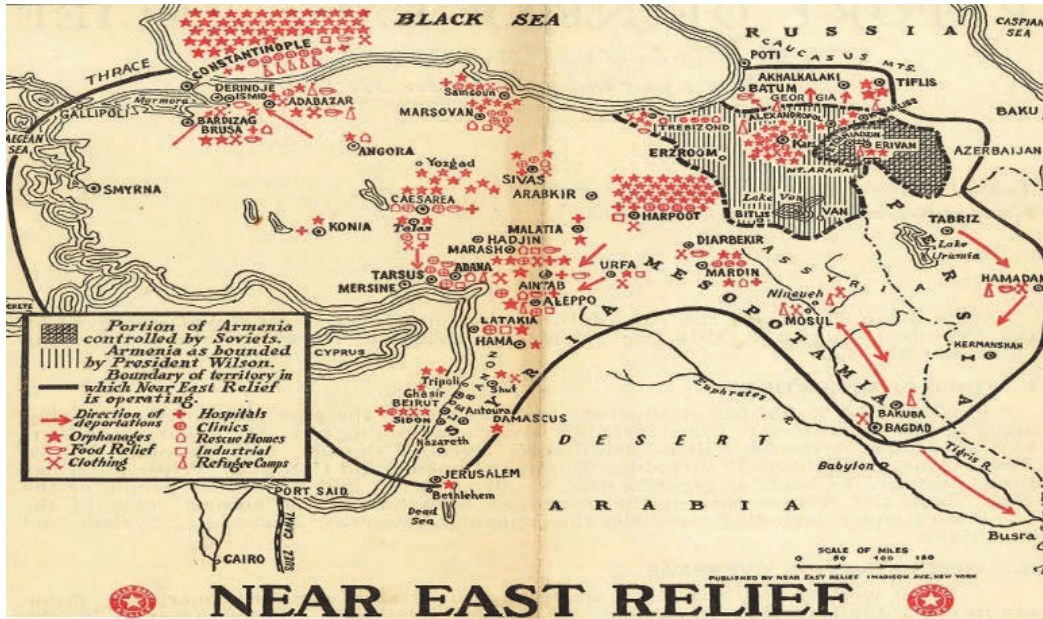
شملت أعمال الإغاثة أيضًا ما عرف باسم عمليات إنقاذ النساء والأطفال الذين تحولوا إلى الإسلام. فقد شهد تعريف المعاناة في بداية القرن العشرين اتساعًا تحت تأثير القومية الليبرالية التي أكدت امتلاك الأمم حقوقًا مثلها مثل الأفراد.⁽⁴²⁾ جعل هذا المفهوم الموسع للمعاناة من الوصاية على الأطفال والزواج القسري والإكراه على التحول عن الدين وعمليات القتل خارج إطار القانون وغيرها جزءًا من المعاناة (الثقافية) أو (القومية) التي تكون فيها الضحية الأمة، وليس الفرد.⁽⁴³⁾ ومن ثم، كان انخراط منظمة إغاثة الشرق الأدنى في الجهد الرامي إلى إعادة تكوين المجتمعات الأرمنية بعد عام 1915. فقد قامت المنظمة بالتعاون مع سلطات الاحتلال البريطاني والحكومة العثمانية في إسطنبول بعد الحرب بحملة (للاستعادة) النساء والأطفال ممن يعيشون في بيوت المسلمين وتحولوا إلى ديانتهم نتيجة للمأساة التي أصابت المجتمعات الأرمنية خلال الحرب العالمية. يشير تقرير عام 1921 إلى أن المنظمة أدارت سبعة ملاجئ للنساء والأطفال، استضافت 749 منهم. أعدت هذه الملاجئ النساء ليكن معتمدات على ذواتهن، بينما نُقل الأطفال إلى دور الأيتام.⁽⁴⁴⁾

(41) FO 371/7878/5503. P.6.

(42) Watenpaugh. Op.cit. 128.

(43) Ibid. 128.

(44) FO 371/7878/5503. P.7.



انتشار نشاط منظمة إغاثة الشرق الأدنى

أخذت منظمة إغاثة الشرق الأدنى الأميركية على عاتقها إعادة المهجرين إلى منازلهم، وخططت لبرنامج إعادة شامل في جنوب شرق الأناضول الذي كان تحت السيطرة الفرنسية. إلا أن نجاح القوميين الأتراك عسكرياً والتنازلات التي قدمها الفرنسيون قوضا إمكان تحقيق ذلك المشروع. فقد انسحب الجيش الفرنسي لصالح القوميين الأتراك من المدن التي كان يحتلها، والتي كانت حجر الأساس في مشروع إعادة التوطين.⁽⁴⁵⁾ أجبر الواقع الجديد المنظمة الأميركية على تعديل خططها، وإعادة توطين اللاجئين خارج الأراضي التي سيطر عليها القوميون الأتراك بزعامة مصطفى كمال، ومن ثم إلى خارج الجمهورية التركية حديثة النشأة. فيشير تقرير عام 1921 مثلاً إلى نقل 6 آلاف من الأطفال من الملاجئ في مدينة كارس (قارص) إلى مدينة ألكساندروبول (غيومري) في منتصف الشتاء في قطارات غابت عنها التدفئة كلياً ومن دون أي طعام دافئ.⁽⁴⁶⁾ أما تقرير عام 1923، فيشير إلى نقل 22,090 يتيماً من الأطفال إلى اليونان وسوريا من مدن الأناضول، إضافة إلى حجم المساعدة الكبير المقدم إلى اللاجئين من البالغين الذين مر كثير منهم عبر إسطنبول وموانئ أخرى.⁽⁴⁷⁾

(45) Watenpaugh. Op.cit. 95.

(46) FO 371/7878/5503. P.6.

(47) FO 286/910/5187. P.8-9.

إلا أن تبادل السكان الذي جرى بين تركيا واليونان عام 1923 شهد مغادرة منظمة إغاثة الشرق الأدنى نمطاً ممارساتها المعتاد بمساعدة اللاجئين من المجتمعات المسيحية في الدولة العثمانية فقط. فقد عملت المنظمة مع بعثة عصبة الأمم وبطلب من الحكومتين التركية واليونانية كوسيط محايد في عملية التبادل.⁽⁴⁸⁾ وفي الوقت الذي كانت اللجنة المختلطة قيد التأسيس بهدف تنظيم التبادل السكاني، أشرفت المنظمة الأميركية على نقل 7,024 من سكان ميتيليني المسلمين مقابل 7,491 من سكان موانئ البحر الأسود من اليونانيين.⁽⁴⁹⁾ يعكس تقرير ذاك العام فخر المنظمة بالقول بوجود ((أدلة كثيرة على أن روح العمل الإنساني من جانبها ومن دون تمييز عرقي أو ديني قد كسب احترام الشعب التركي.))⁽⁵⁰⁾

وعلى الرغم من الحاجة الماسة والمستمرة إلى دعم اللاجئين من البالغين، إلا أن المنظمة الأميركية رأت في التركيز على رعاية الأطفال من الأيتام الأهمية الكبرى، وانسحبت تدريجياً من أنشطتها الأخرى جميعها.⁽⁵¹⁾ ورأت المنظمة أن رعاية الأطفال لا تنبع فقط من الحاجة إلى توفير الإغاثة لهم، ولكنها أيضاً تتوافق مع رؤية المنظمة التقدمية المثالية وبرامجها التنموية التي سعت لإنهاء أسباب المعاناة. رمت منظمة إغاثة الشرق الأدنى في نشاطها في شرقي المتوسط إلى جعل المجتمعات الأرمنية طليعة أمة متحضرة ومجتمع أخلاقي.⁽⁵²⁾ كان هدفها النهائي في تدريب وتعليم اليافعين أساساً لمجتمع حيوي عانى فقدان خيرة أفراده وخبراتهم خلال الحرب والمجازر التي تعرضوا لها.⁽⁵³⁾ ولذلك كانت دور الأيتام التابعة للمنظمة أهم مشروعاتها المستمرة منذ تأسيسها.

أدارت المنظمة، وفقاً لتقريرها عام 1921، نحو 124 داراً للأيتام، واستضافت فيها 65,107 طفلاً ممن لم يملكوا مكاناً آخر يلجؤون إليه. بينما اعتنت المنظمة أيضاً بحوالى 50 ألف إضافيي من خلال توفير الغذاء وأساسيات الحياة لهم.⁽⁵⁴⁾ بل إن المنظمة أدارت داراً للأيتام في أنقرة، معقل الحركة القومية التركية، واستضافت فيه 350 طفلاً أرمنياً.⁽⁵⁵⁾

(48) Ibid. 10.

(49) Ibid. 10.

(50) Ibid. 22.

(51) FO 371/7878/5503. P.6.

(52) Watenpaugh. Op.cit. 117.

(53) Ibid. 120.

(54) FO 371/7878/5503. P.8.

(55) Ibid. 9.

وفرت دور الأيتام مستلزمات الحياة اليومية للأطفال من غذاء وملجأ، ولكنها اهتمت اهتماماً خاصاً بتوفير التعليم أيضاً. ويستشهد تقرير عام 1921 بأكثر دور الأيتام هذه في ألكساندروبول (غيومري) الذي كان الأكبر من حيث المساحة وعدد الأيتام. وفر الملجأ للذكور تعليمًا ركز على تنميتهم ليصبحوا رجالاً أشداء جسدياً وعقلياً، وتدريبهم ليكونوا ((رجالاً وجنوداً ومواطنين مفيدين مستقبلاً)).⁽⁵⁶⁾ تلقى الأطفال دروساً في اللغة الإنكليزية وعدد من المواد الأخرى إضافة إلى الحصص الدراسية التقليدية، وتلقوا أيضاً عناية خاصة في ما يتعلق بصحتهم الجسدية والدروس الرياضية إضافة إلى الملاكمة وكرة القدم والسباحة وحتى التدريب العسكري.⁽⁵⁷⁾ تلقى هؤلاء الأطفال ما كان يعادل التعليم في المدارس الابتدائية والإعدادية في الولايات المتحدة.⁽⁵⁸⁾ أما الفتيات فتلقين تدريباً مهنيًا في دور الأيتام لنصف يوم، ومن ثم الحصص الدراسية المعتادة في المدارس في النصف الآخر. شمل التدريب المهني دروس الخياطة، وصناعة الملابس، والفرشات، والحياسة.⁽⁵⁹⁾

سعت المنظمة أيضاً إلى أن تكون مجتمعات اللاجئين ذاتية الاعتماد، ولذلك استثمرت جهدها في تطوير أساليب الزراعة والصناعة المحلية. فقد استقدمت منظمة إغاثة الشرق الأدنى عدداً من المحاصيل الزراعية إلى المنطقة إضافة إلى الآلات الزراعية الحديثة.⁽⁶⁰⁾ يشير تقرير عام 1923 إلى وجود 93 مركز تدريب صناعي يوفر تدريباً في 28 صناعة مختلفة. منحت المنظمة اهتماماً خاصاً بالمشاريع الزراعية في القوقاز، حيث أدارت 22,424 هكتاراً من الأرض الزراعية، حيث كان لها أن تستثمرها من دون ضرائب أو إيجار. وفرت هذه الاستثمارات الزراعية قسماً كبيراً من احتياجات دور الأيتام التي كانت تديرها.⁽⁶¹⁾ رأت المنظمة في هذه المزارع والصناعات الأخرى إسهاماً منها في تطوير الوسائل الزراعية، ورفع إنتاجية الأراضي من المحاصيل إضافة إلى تدريب المهنيين والقادة المستقبليين الذين سيثبتون أنهم ((مساهمة دائمة ذات قيمة كبرى للشرق الأدنى والعالم)).⁽⁶²⁾

يعكس تقرير المنظمة لعامي 1921 و1923 كيفية استجابتها لأزمات اللاجئين، وخصوصاً من الأرمن واليونانيين. ويبرز التقريران تطور نشاطها من مجرد استجابة إغاثية طارئة إلى خطط تنمية

(56) Ibid. 19.

(57) Ibid. 19.

(58) Ibid. 20.

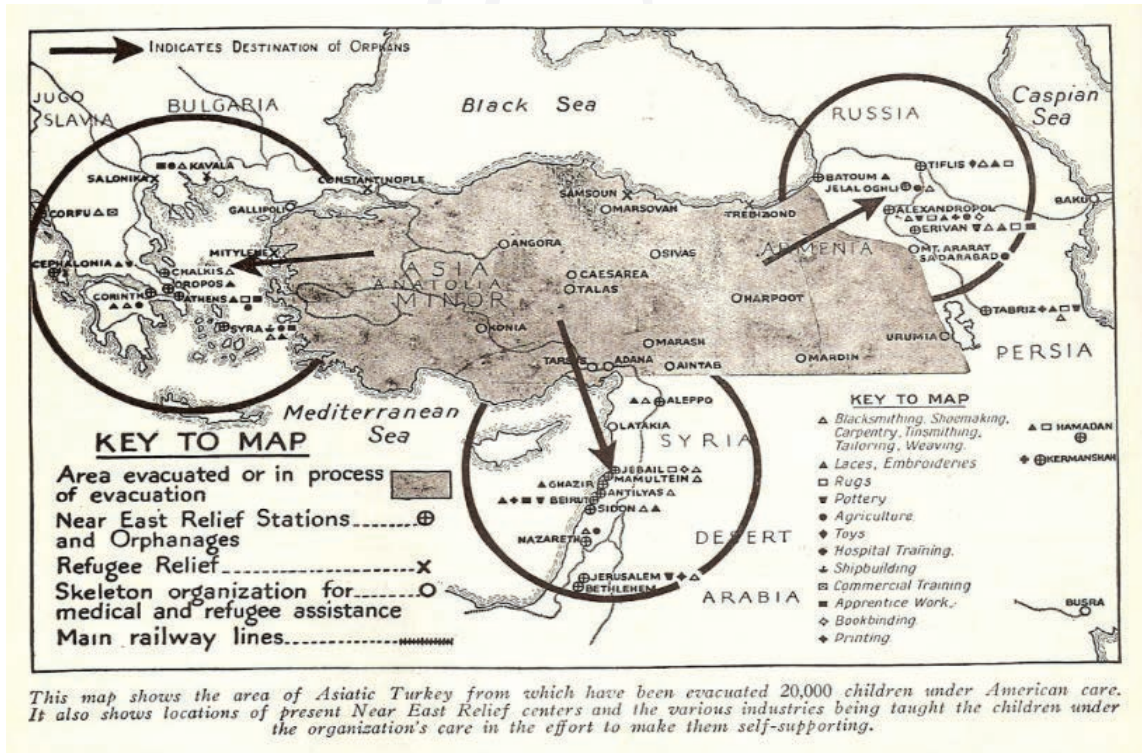
(59) Ibid. 20.

(60) Moranian. Op.cit. 196.

(61) FO 371/7878/5503. P.13.

(62) Ibid. 13.

تهدف إلى إعادة بناء مجتمعات اللاجئين. هدف نشاط منظمة إغاثة الشرق الأدنى إلى إنقاذ الأفراد المتضررين، وبناء الملاجئ، ومخيمات اللجوء، وتوفير الغذاء والعناية الطبية. وتعاملت المنظمة مع المجتمع بوصفه وحدة تتطلب الإغاثة، (فأنقذت) النساء والأطفال ممن انتهى بهم الأمر في بيوت المجتمعات المسلمة، وأعادتهم إلى مجتمعاتهم الأصلية. أما برامج التنمية، فقد هدفت إلى القضاء على أسس معاناة اللاجئين من خلال جعلها ذاتية الاكتفاء اقتصاديًا، ومن خلال توفير التدريب للكوادر اللازمة لضمان نمو المجتمع، وتجدد الأمة ككل، مستقبلاً. وكان التركيز على رعاية الأطفال من الأيتام يصب في بناء مستقبل الأمة. وبحلول عام 1923 كانت المنظمة قد شهدت تطوراً آخر في ممارساتها وتعريفها للاجئين من خلال شمل اللاجئين المسلمين في نشاطها خلال التبادل السكاني بين تركيا واليونان. يعكس هذا الأمر بدايات تطور النظام الدولي للاجئين الذي نما تحت إشراف عصبة الأمم حديثة التشكيل.



طرق إخراج اللاجئين الرئيسة في وجه تقدم قوات القوميين الأتراك

رابعاً: حالة خاصة: تقرير من مدير منظمة إغاثة الشرق الأدنى إلى الحكومة البريطانية

لم تكن التقارير الميدانية التي أرسلها موظفو منظمة إغاثة الشرق الأدنى مجرد تدوين للأحداث، بل شملت أيضاً انعكاساً لما رأوا فيه الطرق المثلى للإصلاح. تجد مقترحاتهم جذورها في كيفية رؤية المنظمة الإنسانية التطورات في الشرق الأدنى، وفي مقاربتها التطورية والتقدمية الهادفة لإيجاد حلول للمعاناة في المنطقة. أحد هذه التقارير الذي كتبه مدير المنظمة جيمس بارتون في يوليو - تموز 1919 وأرسله إلى الخارجية البريطانية، يعد مثلاً عليها.⁽⁶³⁾ تعود أهمية التقرير إلى تمثيله ذهنية المنظمة الإنسانية في بداية القرن العشرين، وطريقة تفكيرها. كتب بارتون تقريره بعد جولة في الأراضي التي شكلت الشطر الآسيوي من الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى. يشمل التقرير رؤيته للمستقبل السياسي للمنطقة. بالنسبة إلى هذه المنظمة وغيرها، كان النظام السياسي والاجتماعي برمته مشكلة إنسانية تسعى منظمة إغاثة الشرق الأدنى إلى إيجاد حلول لها في إطار أيديولوجيتها الإنسانية الحديثة. كان فهم المنظمة المشكلة مبنياً على رؤية ما سبقها من منظمات تبشيرية.⁽⁶⁴⁾ توصلت المنظمة إلى قناعة بعدم قدرة الأرمن والأتراك على تشكيل كيان سياسي قابل للاستمرار، بل عدم قدرتهم على مشاركة الأراضي ذاتها. وما كان ذلك إلا انعكاساً للقناعة بأن مجتمعات (الشرق الأدنى) غير قادرة على تبني التطور والحدثة بسبب تاريخها و(السمات العرقية) المتأصلة في شعوبها.⁽⁶⁵⁾

تضم الوثيقة التي تحمل عنوان (جولة الدكتور بارتون من الهيئة الأميركية لإغاثة الشرق الأدنى في غرب آسيا) تقريراً من ثلاث صفحات يشمل وصفاً لرحلة بارتون إضافة إلى توصياته الموجهة إلى المبعوث السامي البريطاني في إسطنبول. يبدأ بارتون بوصف موجز لرحلته التي غطت 5 آلاف ميل (8 آلاف كيلومتر) في الأناضول وأرمينيا وبلاد الرافدين وقيليقية (كيليكية) وسوريا وفلسطين. التقى بارتون في رحلته أناساً من مختلف الطبقات بمن فيهم مسؤولون من سلطات الحلفاء ومسؤولون محليون من المدن الكبرى مثل قونية وحلب وسامسون وغيرها.⁽⁶⁶⁾ كانت ملاحظاته على الرغم من ذلك تقتصر على العلاقات بين الأرمن والأتراك. يبدأ بارتون هذه الملاحظات بالإشارة إلى أنه بعد تجاوزه مدينة تل أبيض على الحدود السورية التركية باتجاه الشمال، كانت المنطقة تركية (أي تحت السلطة العثمانية) خالصة من دون أي وجود لقوات الحلفاء أو أي تدخل منها، وحيث عومل معاملة

(63) FO 608/79/14786. 9 Jul. 1919.

(64) Watenpugh. Op.cit. 93.

(65) Ibid. 96.

(66) FO 608/79/14786. P.1.

جيدة من قبل السلطات التركية.⁽⁶⁷⁾

شملت توصياته لحل معاناة الأمة الأرمنية ضرورة منح الأرمن حكومة تضمن أمنهم وتحقيق التعافي القومي. وتنص توصياته على أنه ((من دون الاحتلال العسكري لكامل تركيا (الدولة العثمانية)، فإن الأعراق المسيحية ستكون في موقف حرج، وخطر داهم من احتمال تجدد المجازر ضدها)).⁽⁶⁸⁾ وأضاف: ((إن أوضاعهم خطيرة جدًا خارج مناطق سيطرة الحلفاء، حيث يعيشون في خوف ولا يمكنهم المطالبة بحقوقهم)).⁽⁶⁹⁾ وبذلك رأى بارتون أن حماية الحلفاء ضرورية كي تتعافى الأمة الأرمنية من خسائرها المهولة ومن المجازر التي ارتكبت بحق أفرادها وبحق مفكرها وقياداتها والذين أعدموا عام 1915.⁽⁷⁰⁾ وأشار بارتون في تقريره إلى أن المسؤولين المحليين كانوا ضعفاء وتحت نفوذ الأعيان المحليين الذين أرادوا استمرار المجازر. بالنسبة إليه، كانت العداءة الاثنية بين الأتراك والأرمن واليونان أمرًا لا يمكن علاجه.⁽⁷¹⁾ ورأى المفوض السامي البريطاني صوابًا في مقترحات مدير منظمة إغاثة الشرق الأدنى.⁽⁷²⁾

تأتي أهمية هذه الوثيقة أيضًا من توقيتها الذي تزامن مع مفاوضات السلام التي تلت الحرب العالمية الأولى، وبروز نظام عالمي جديد. فنهاية الحرب العالمية أذنت بدخول عصر جديد تسوده لغة القوميات والدولة القومية. هزيمة الإمبراطوريات في الحرب فسحت المجال أمام الحلفاء المنتصرين في الحرب لإعادة رسم الحدود السياسية خلال مؤتمر السلم الذي عقد في فرساي في فرنسا. كانت معاهدة سيفر 1920 الحل الذي وجده الحلفاء لمعضلة (المسألة الشرقية) أو تفكيك الدولة العثمانية. وأتى هذا الحل بعد عامين من الوعود والمفاوضات والضغوط السياسية. كانت المنظمة الإغاثية واعية سيولة الوضع السياسي، وقامت بدورها بالضغط على البريطانيين الذين كانوا قوة الاحتلال الرئيسة لصالح إيجاد حل لمعاناة الأمة الأرمنية التي تحولت إلى أمة من اللاجئين. كانت مساعي المنظمة الإغاثية الأميركية متوافقة مع الأصوات الأخرى التي طالبت بإيجاد حلول (لمشكلة الأقليات) في الدولة العثمانية، والتي دعت إلى منح المجتمعات المسيحية حق الحكم الذاتي. في السياق اليوناني، كانت ترجمة هذه الدعوات السماح للمملكة اليونانية باحتلال غرب الأناضول، حيث تركزت المجتمعات

(67) Ibid. 1.

(68) Ibid. 2.

(69) Ibid. 2.

(70) Ibid. 3.

(71) Ibid. 2-3.

(72) Ibid. 2-3.

اليونانية حول مدينة إزمير.⁽⁷³⁾ أما بالنسبة إلى الأرمن، فكان ذلك دعوة إلى تشكيل دولة مستقلة في شرق الأناضول تشمل الولايات الست التي قطنها الأرمن في الدولة العثمانية. أرسلت عصبة الأمم حديثة التشكيل بعثة لتقصي الحقائق عام 1919 لتتحري رغبات السكان المحليين. أشارت بعثة كينغ كرين في تقريرها النهائي إلى رغبة الأرمن بانتداب أميركي.⁽⁷⁴⁾ ومما يثير الاهتمام أن المبعوثين الدوليين هنري كينغ وتشارلز كرين كانا من أعضاء مجلس الأمناء الخاص بمنظمة إغاثة الشرق الأدنى.⁽⁷⁵⁾

إضافة إلى الضغوط السياسية التي مارسها المنظمة الأميركية وغيرها من المنظمات الإنسانية التي عملت في سياقات أخرى غير الدولة العثمانية في مؤتمر فرساي، سعت هذه المنظمات إلى الإسهام في تشكيل جهد عصبة الأمم حديثة التشكل. وكانت عصبة الأمم قد رأت ضرورة تشكيل دولة أرمنية مستقلة وأمنة لزاماً على الإنسانية.⁽⁷⁶⁾ إلا أن عدم وجود هذه الدولة المستقلة وضع المسألة الأرمنية ضمن إطار الجهد الإنساني لعصبة الأمم، بدلاً من شطرها السياسي.⁽⁷⁷⁾ ونتيجة للحرب والنظام العالمي الجديد المبني على الدولة القومية برز مكتب المفوضية السامية للاجئين، أو مكتب نانسن الدولي للاجئين المتخصص بمساعدة اللاجئين من الدول المهزومة في الحرب. وكانت هذه المؤسسة الأممية، أي مكتب نانسن، نتيجة للضغوط السياسية التي مارسها عدد من المنظمات مثل منظمة إغاثة الشرق الأدنى.⁽⁷⁸⁾ كان مكتب نانسن أكثر المنظمات الدولية نشاطاً في التعامل مع مأساة اللاجئين. وكان المكتب أساسياً في تعزيز التعاون بين الدول في التعامل مع اللاجئين وتشكيل نظام دولي لمساعدتهم وحمايتهم.⁽⁷⁹⁾

وعلى الرغم من أن مكتب نانسن كان دولياً في أهدافه، إلا أنه تبنى معاييرًا للإغاثة والعمل الإنساني لا تختلف عن تلك الخاصة بمنظمة إغاثة الشرق الأدنى. فقد باشر المكتب عمله في الدولة العثمانية بعمليات إنقاذ الأرمن بعد الحرب، وتبنى مسؤولية إنقاذ النساء والأطفال الأرمن (المختطفين) تدريجياً

(73) Donald Bloxham, *The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians*. (Oxford: Oxford University Press, 2005), 149.

(74) Ibid. 158.

(75) Ibid. 157.

(76) Nassibian. Op.cit. 177.

(77) Watenpugh. Op.cit. 166.

(78) Barnett. Op.cit. 88.

(79) Emma Haddad, *The Refugee in International Society: Between Sovereigns*. (Cambridge, 2008), 108.

من يدي المنظمة الأميركية.⁽⁸⁰⁾ وبالفعل أصبح نشاط عصبة الأمم، عبر مكتب نانسن، الإطار القانوني للعمل مع هذه الفئة من اللاجئين عديدي الجنسية الذين تم التعامل معهم مسبقاً من خلال منظمات مثل منظمة إغاثة الشرق الأدنى. أما بالنسبة إلى نانسن وغيره في عصبة الأمم، فقد كان نشوء النظام الدولي للاجئين استجابة للمسؤولية الدولية لعمل شيء لمساعدة اللاجئين.⁽⁸¹⁾

تتجاوز أهمية تقرير جيمس بارتون للخارجية البريطانية مجرد كونه سرّاً للأحداث على الأرض. فقد مثل بارتون بوصفه مديراً عاماً لمنظمة إغاثة الشرق الأدنى المبادئ العقائدية التي بنيت عليها المنظمة، وعكست أفكاره من ثم الدوافع وراء عمل المنظمة. إن الأهمية العقائدية لهذا التقرير تنبع من أنه يعكس المقاربة الإنسانية للمعاناة في بداية القرن العشرين ومرحلة ما بين الحربين العالميتين. آنذاك، لم تعد المعاناة مسألة فردية أو مسألة مجتمعية. بل أصبحت أيضاً سمة من سمات الوحدة الدولية الجديدة: الأمة القومية. إنهاء معاناة الأمة القومية وضمان عدم تكرار هذه المعاناة لا يتم إلا من خلال الاستقلال السياسي. هذه كانت مقاربة بارتون في تقريره المذكور. وبغض النظر عن مدى ود الأتراك وحسن معاملتهم، كما وصف معاملتهم إياه في تقريره، فإن أمن الأمة الأرمنية لا يمكن أن يتم إلا من خلال استقلالها. إلا أن مقاربة بارتون أيضاً تعكس التمييز العرقي الذي يميز تلك الحقبة الزمنية. فالغرب المسيحي الأبيض كان الوحيد القادر على تحقيق هذا الاستقلال. أما مسيحيو الشرق الذين كانت معتقداتهم وثقافتهم، كما رأها التبشيريون الغربيون، فاسدة ومنحرفة، فقد احتاجوا إلى المساعدة من الغرب للوصول إلى مستوى الدول المتقدمة. وبالنسبة لا يمكن للأرمن تحقيق الأمن والتعافي إلا تحت حماية الحلفاء وانتدابهم. وجدت هذه النقطة أيضاً تعبيراً عنها في تقرير بعثة كينغ كرين التي زعمت الرغبة الأرمنية بانتداب أميركي.

إن قراءة التقرير في سياق تطور النظام الدولي الحديث وسيولة الوضع السياسي الدولة العثمانية يشرح دوافع بارتون لمخاطبة الخارجية البريطانية. كانت عملية إعادة رسم الخريطة السياسية للشرق الأدنى سارية على قدم وساق خلال مؤتمر السلم، وتجب قراءة التقرير على أنه ممارسة للضغط السياسية على الحكومة البريطانية ومن ثم عصبة الأمم لإنهاء معاناة الأمة الأرمنية اللاجئة.

(80) Watenpaugh. Op.cit. 167.

(81) Barnett. Op.cit. 88-89.

خامساً: الخاتمة

في الختام، لعبت منظمة إغاثة الشرق الأدنى في السنوات اللاحقات للحرب العالمية الأولى في امتداد لنشاطها خلال الحرب أيضاً دوراً كبيراً في الإغاثة الإنسانية في الشرق الأدنى والدولة العثمانية. وساعدت المنظمة الأميركية في صياغة التصور العام عن اللاجئين من خلال ممارساتها الإنسانية. فقد شهد العقدان الأوليان من القرن العشرين توسعاً لمفهوم المعاناة ومن يستحق المساعدة، ولكن كان لتأثير الدمار الذي شهدته الحرب العالمية الأولى الدور الأكبر بسبب الموجات غير المسبوقة من اللاجئين. في السياق العثماني، اختارت المنظمة الأميركية العمل مع المجتمعات المسيحية. كان تعريفها اللاجئ يشمل مجتمعات الأقليات المسيحية المتضررة من الحرب في الإمبراطورية التركية المسلمة. لم يقتصر نشاط المنظمة الأميركية فقط على إنقاذ الأرواح، بل سعت أيضاً للقضاء على أسباب الألم والمعاناة. وهو ما تمت ترجمته إلى ضرورة إعادة تكوين مجتمعات اللاجئين على أسس ذاتية الاعتماد. ورأت في رعاية الأطفال وحمايتهم وتعليمهم الوسيلة لحماية مستقبل هذه المجتمعات. ويزيد على ذلك أن الأمة القومية برزت كوحدة جديدة تستحق حقها في الاستقلال انعكاساً للغة العصر الجديد ما بعد الحرب العالمية الأولى.

المصادر والمراجع

1. وثائق من الأرشيف الوطني البريطاني في لندن.
2. Ambrosius. Lloyd, "Wilsonian Diplomacy and Armenia: The Limits of Power and Ideology", in America and the Armenian Genocide of 1915. Ed. Winter, Jay, (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).
3. Barnett. Michael, Empire of Humanity: A History of Humanitarianism, (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 2011).
4. Bloxham. Donald, The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians, (Oxford: Oxford University Press, 2005).
5. Calhoun. Craig, "The Imperative to Reduce Suffering: Charity, Progress and Emergencies in the Field of Humanitarian Action", in Humanitarianism in Question: Politics, Power, Ethics. Ed. Barnett, Michael and Thomas Weiss, (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 2008).
6. Deringil. Selim, The Well-protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876-1909-, (London: I. B. Tauris, 1998).
7. Haddad. Emma, The Refugee in International Society: Between Sovereigns, (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).
8. Laqueur. Thomas, "Mourning, Pity, and the Work of Narrative in the Making of Humanity", in Humanitarianism and Suffering: The Mobilization of Empathy. Ed. Wilson, Richard, and Richard Brown, (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2009).
9. Moranian. Suzanne, "The Armenian Genocide and American Missionary Relief Efforts", in America And The Armenian Genocide of 1915. Ed. Winter, Jay,

(Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

10. Rodogno. Davide, *Against Massacre: Humanitarian Interventions in the Ottoman Empire, 1815–1914*, (Oxford: Princeton University Press, 2011).
11. Watenpaugh. Keith, *Bread From Stones: The Middle East and the Making of Modern Humanitarianism*, (Oakland: University of California Press, 2015).
12. Webster. Ian, *Value of 1919 dollars today| Inflation Calculator.* "Official Inflation Data, Alioth Finance, (12 Jan. 2022).

سادسًا: دعوة إلى الكتابة



الإعلام السوري بين واقع الاستبداد ومطلب الحرية

2021-1918

علّق المفكر الأيرلندي (أدموند بروك) في أربعينيات القرن التاسع عشر على سجلات ممثلي الأحزاب الثلاثة لطبقات رجال الدين والنبلاء والعوام في البرلمان البريطاني قائلاً: ((ثلاث سلطات تجتمع هنا تحت سقف هذا البرلمان، لكن هناك في قاعة المراسلين تجلس السلطة الرابعة وهي أهم منكم جميعاً))، مع أن الصحافة لم تكن بالتأثير والفاعلية اللذين نعرفهما الآن، إذ استطاع مصطلح «السلطة الرابعة The Fourth Estate» الذي انطلق في ذلك الحين أن يكتسب مع مرور الزمن قوة ودلالات أبعد من ذلك السياق الذي ورد فيه، وبصورة خاصة في منظومة حقوق الإنسان، وفي المجتمعات الديمقراطية التي تقوم على التوازن والاستقلالية في السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية في الدول الديمقراطية المعاصرة. حيث يبرز دور الصحافة سلطةً رابعة، تستمد شرعيتها وقوتها من شرعية وقوة المواطنين والمجتمع في آن معاً في الدولة، ومن قوة الناس الذين تمثلهم، إذ تسهم بصياغة الرأي العام الذي يمثلهم ويدافع عن مصالحهم، وهي تمارس هذا الدور عبر الرقابة على السلطات الثلاث للدولة، وفضح أي تجاوز في ممارساتها، علماً بأن نطاق السلطة الرابعة قد اتسع خارج حدود الصحافة إلى فضاءات الإعلام بأشكاله كلها، التقليدية والحديثة وصولاً إلى وسائل التواصل الاجتماعي (السوشيال ميديا)، فازداد تأثيرها وقوتها في المجتمعات الديمقراطية التي تعمل على حماية حقوق مواطنيها من خلال حماية حقوق التعبير والإعلام فيها بصورة عامة.

بالتأكيد هذا لا ينفي مساعي بعض الأنظمة أو الأحزاب، حتى في الدول الديمقراطية، للهيمنة على وسائل الإعلام أو تجييرها لخدمة مصالحها، ولا ينفي أن بعض وسائل الإعلام العملاقة تحولت بفضل الإعلانات إلى إمبراطوريات اقتصادية منافسة، وبدأت تبحث عن مزيد من الأرباح بدعوى حرية التعبير المقدسة، لكن كما نتابع في المجتمعات الديمقراطية هناك دائماً مساع للحد من هذه التجاوزات لصالح حقوق الإنسان بصورة عامة، والفئات الأضعف في المجتمعات كافة من مثل الأطفال والنساء والمضطهدين كلهم، كي تحد من تغول رأس المال على حقوق الأفراد وأمان المجتمع ورفاهه.

في سورية وعموم الأنظمة المستبدة نكتشف سياقاً آخر للأمر، حيث أمم الاستبداد البعثي منذ وصوله إلى السلطة عام 1963 كل المجال العام للحياة السياسية والفكرية في سورية، بدءاً من الاقتصاد والأحزاب والمنظمات المدنية والنقابية، وليس انتهاء بالهيمنة على الصحافة والطباعة والنشر لصالح أيديولوجيا الحزب الواحد التي اختُصرت لاحقاً بشخص دكتاتور واحد في (سوريا الأسد)، دكتاتور منح ذاته صفة الأب القائد والوصي على الوطن وثرواته وكامل المجتمع ومؤسساته وصولاً إلى الوصاية على الأفراد جميعهم، تلك الوصاية التي اقترنت بالفساد ونهب المال العام، استمرت بقوة قانون الطوارئ حوالى خمسة عقود، أعاقَت خلالها تطور المجتمع وآليات التنمية فيه، وشكلت السبب الرئيس لانفضاض السوريين التي بدأت في آذار/ مارس 2011.

ومن المفارقات المحزنة أن أجيالاً ممن ولدوا في سورية وعاشوا فيها بعد وصول حزب البعث إلى السلطة، لم يعرفوا إلا متأخرين وجود تاريخ مجهول للصحافة السورية، يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صحافة بدأت تتطور ويتسع نشاطها في بدايات القرن العشرين وبعد الاستقلال عن فرنسا. وفي هذا الإطار، يمكننا أن نقرأ عن مئات التجارب الرائدة التي لم تتوزع في المدن الرئيسة من مثل دمشق وحلب أو حمص فحسب، بل في المدن وبعض البلدات الصغيرة أيضاً، وكانت تلك التجارب متعددة في أهوائها ومشاربها، وتنوع في اهتماماتها وطروحاتها السياسية والثقافية، وفي تحليلاتها ومتابعاتها أيضاً، مقابل صحيفتي البعث والثورة فقط اللتين نشأ عليهما أكثرية السوريين، ولاحقاً جاءت صحيفة تشرين بعد آخر انقلاب للأسد الأب من دون أن يؤثر في ذلك دخول الإعلام المسموع والمقروء في تلك المدة، ولا وسائل التواصل الاجتماعي التي بقيت كلها خاضعة للرقابة، باستثناء محاولات خجولة في أواخر القرن العشرين والعشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين لإطلاق تجارب إعلامية تبدو مستقلة من حيث المظهر، لكنها تخضع لهيمنة الجهات الوصائية التي تحتكر منح التراخيص، مع رقابة صارمة تتدخل في وقف توزيع أي مطبوعة، أو حذف أي مادة أو صفحة إن وردت فيها أي عبارة يُشك في صياغتها أو دلالتها على نقد الاستبداد أو دعوة إلى التعددية، وتداول السلطة تداولاً سلمياً، وهو ما أدى إلى وقف أغلبها مثل ما حصل مع صحيفتي (الدومري) و(الخبر) وسواهما.

ولئن كانت تلك المرحلة خضعت لقوة الاستبداد، وإعاقة التغيير، وقمع الحريات في المجتمع - بما فيها حرية الإعلام والتعبير - فإن نزول السوريين إلى الشارع في إطار الربيع العربي - وبغض النظر عن مآلاته الكارثية التي صنعتها حرب النظام ضد شعبه خلال أحد عشر عاماً ونيف من الزمن، وتدمير سورية عمرانياً واقتصاداً وبنى مجتمعيةً - قد فتح باباً للحرية لن يقبل السوريون إغلاقه ثانية، وربما يكون أبرز مؤشرات في مستوى الإعلام، حيث أُعيد فيه تشكيل المجال الإعلامي على مستوى الفاعلين

والمؤثرين، وعلى مستوى الخطاب والأثر، بالتوازي مع أسئلة الهوية وارتباطها بواقع سورية المتشظي ومستقبلها المأمول.

وإيماناً من «مجلة قلمون» بأهمية هذا المجال في درء كثير من التصدعات التي خلفتها حروب النظام في سورية وفي المجتمع، وفي إعادة بناء الهوية الوطنية للسوريين بعدما توزعوا في هويات كبرى وصغرى متصارعة بما يخدم النظام ولا يخدم السوريين ومصالحهم أو طموحاتهم، فإنها تفتح ملف (الإعلام السوري بين واقع الاستبداد ومطلب الحرية 1918-2021) في عددها الحادي والعشرين، وتتعاون في إنجاز هذا الملف مع (المركز السوري للإعلام وحرية التعبير)، بوصفه إحدى منظمات المجتمع المدني الرائدة والمؤثرة في هذا المجال، تعاوناً ترى فيه مجلة قلمون خطوة إضافية لا بد منها في الانفتاح على المجتمع المدني السوري وكل من يقدم جهداً نظرياً وعملياً يسهم ولو بخطوة صغيرة في التقدم باتجاه مستقبل سورية التي يحلم بها السوريون جميعهم.

من هنا فإن (قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية) و(المركز السوري للإعلام وحرية التعبير) يدعوان الباحثات والباحثين إلى الكتابة في الملف أعلاه ضمن المحاور المقترحة الآتية:

المحور الأول: مسار الإعلام السوري من الحرية إلى الاستبداد: تجليات الحرية 1918-1963

1. الصحافة السورية: المقدمات والنشأة
2. الصحافة السياسية
3. الصحافة الاجتماعية والنقدية
4. الصحافة الهزلية
5. الصحافة النسائية
6. الصحافة الثقافية والأدبية
7. الصحافة الحزبية

المحور الثاني: إعلام البعث ومراحله 1963-2021

المرحلة الأولى 1963-2000

الطابع الإيديولوجي والشعبي لاستراتيجيات الإعلام السوري المكرسة لنفي الدولة والمجتمع لمصلحة الحاكم الفرد وتجلياتها في وسائل الإعلام المختلفة.

المرحلة الثانية 2000-2011

1. دراسة لأهم المراسيم والقوانين ذات الصلة، المتناقضة مع النصوص الدستورية ومع شرعة حقوق الإنسان والمعاهدات الدولية الضامنة لحرية الإعلام والتعبير، والتي أفضت إلى إخفاق محاولة النظام إدخال التعددية الإعلامية في نهج الليبرالية الاقتصادية (المقيدة) بالمصالح السياسية والاقتصادية للنظام الحاكم.

2. مصير الكيانات الإعلامية التي أنشأها النظام ما بين شعارات الانفتاح، وفشل هذه الكيانات في التحول إلى كيانات مستقلة فاعلة.

المرحلة الثالثة 2011-2021

الدور الذي لعبه الإعلام في مواجهة النظام انتفاضة السوريين المطالبين بالحرية (انتفاضة الحرية).

المحور الثالث: الإعلام السوري الجديد 2011 - 2021

1. المقارنة التاريخية، وآليات نشوء التجربة الإعلامية وتطورها في الإعلام الجديد على مستوى الاستراتيجيات، والشكل، والجمهور، والبيئة القانونية.

2. هوية الإعلام الجديد: ما أدواته؟ من الفاعلون فيه (المواطنون الصحفيون، المدونون، الناشطون الإعلامييون مثلاً)؟، ومن المؤثرون فيه (رؤوس الأموال، المؤسسات المانحة مثلاً) أو المتأثرون به (المؤسسات الإعلامية الدولية، المؤسسات الحقوقية الدولية مثلاً)؟ إلى أي حد نجح هذا الإعلام في تحقيق درجة من الاستقلالية النسبية؟

3. سؤال السرديات واستقلالية الخطاب: هل نجح في تقديم خطاب إعلامي مستقل عن أيديولوجيات الجهات المنخرطة في الصراع ليمارس دوره بوصفه سلطة رابعة أم بقي أسير «البروباغندا» المرتبطة بالصراع؟ وهل نجح هذا المجال في تحقيق درجة من الاستقلالية النسبية عن تلك الجهات؟
4. لغة المجال الإعلامي الجديد، ومدى حياديتها تجاه السلطة أو الممول، والأثر الذي خلفته في إنشاء خطاب كراهية أو توكيده، في تعميم الوصم الاجتماعي أو الحد منه.
5. إلى أي مدى يُؤثر تبدل الأدوات في تغيير قدرة الأفراد على الانخراط في المجال الإعلامي؟ هل ما يزال الصحفيون التقليديون قادرين على أن يمارسوا عملهم وسط عالم التقنية سريع التبدل؟ (مناقشة التحديات).
6. المجال التوثيقي (الأرشفة) التي خلقها هذا المجال الإعلامي، سواء كان لضحايا الإعلام، أم للأحداث، والكيفية التي يُحفظ بها هذا الأرشيف اليوم، وكيفية مُساءلته على الصعيد الوطني.
7. الإعلام السوري الكردي بعد الثورة: بين الصداقية المهنية والانتماء الحزبي والأيديولوجي.
8. غياب ميثاق الشرف الإعلامي في أنظمة الاستبداد، ومحاولات الاشتغال على بدائل للإعلام السوري الحر، بين استعادة المفهوم وتعدد التجارب.

تستقبل المجلة مقترحات الباحثات والباحثين في الموضوعات أعلاه، وأي موضوعات أخرى ذات صلة، تاركة المجال مفتوحاً لحرية التفكير في ما يريانه مناسباً ومهماً في رفق البحث في المجال الإعلامي السوري. وتستقبل المجلة أيضاً المقترحات البحثية للنشر في باب الدراسات خارج ملف «الإعلام السوري» بما يتصل صلة غير مباشرة به، من مثل البحث في مفاهيم الإعلام واتجاهاته المعاصرة ومدارسه المتنوعة، إضافة إلى باب مراجعات الكتب الجديدة عربياً وعالمياً.

يمكن للراغبين والراغبين المشاركة في الملف بإرسال مقترح بحثي لا يتجاوز 500 كلمة، مع مخطط للبحث إلى إميل رئيس التحرير يوسف سلامة youssef.salamah@harmoon.org، وذلك حتى العاشر من تموز يوليو 2022، على أن تستكمل البحوث في موعد أقصاه الخامس من أيلول / سبتمبر 2022.

يرجى من الباحثات والباحثين مراعاة سياسة تحرير مجلة قلمون في ما يرسلونه من المقترحات والبحوث، أدناه رابط سياسة التحرير في مجلة قلمون:

<https://cutt.us/BoiHU>

هذا العدد

عبد الناصر الجاسم

قرارات الإدارة العامة في سورية وأثرها في التنمية

محمود الحسين

أثر العمليات العسكرية في فرض التهجير القسري

مناف الحمد

تنظيم داعش وأثره في المنطقة

خليل الحاج صالح

المخفون قسراً على يد تنظيم (داعش)

طارق عزيزة

الفاعلون الدوليون من غير الدول

سقراط العلو

الإدارة الذاتية والمسألة الكردية

أنمار حجازي

إيقاع الكاميرا في منطقة الجزيرة

سهمف عبد الرحمن

قراءة في المشهد التشكيلي في منطقة الجزيرة السورية

فاروق إسماعيل

آثار الجزيرة السورية

أنطون قس جبرائيل

القضاء العشائري في الجزيرة الفراتية

عبدالله النجار

السياسة الأمنية لآل الأسد في سورية

حمدان العكلم

الهجرات والتحويلات الكبرى في منطقة الجزيرة

عبد الباسط سيدا

آثار اتفاقية سايكس بيكو وتوابعها في رسم حدود الجزيرة السورية

مهند الكاطع

السياسات الإثنية الفرنسية في الجزيرة السورية

إبراهيم الشبلي

مدخل إلى الأدب الفراتي

محمود الوهب

الشعر الشعبي في الجزيرة السورية

سليمان الطعان

الأغنية الفراتية



ISSN 25481339



9 770254 813398